الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عـبد القادر للعلوم الإسلاميّة قسنطينة

كلية أصول الدّين

قسم: الكتاب والسّنة

تخصّص: السنة في الدراسات الحديثة والمعاصرة

رقم التّسجيل: .....

الرّقم التّسلسلي: .....

عنوان البحث

مباحث السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية"

- دراسة تحليلية نقدية -

رسالة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في: السنة في الدراسات الحديثة والمعاصرة

إعداد الطّالب:

محمـــد بن قيـــدة

إشـــراف الأستاذ الـــدكتـــور:

حميـــد قـــوفـــي

لجنـــة المناقشـــة

أ.د. مختار نصيرة	أستاذ التعليم العالي	رئيـــسا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د. حميد قوفي	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقرّرا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
د. إبراهيم بن مهية	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د. محمد السعيد مصيطفى	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة غرداية
د. نبيل زياني	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الشادلي بن جديد الطارف
د. سامية دردوري	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة باتنة 1

(الجـزء الأول)

السّنـــة الـــجامعيّة: 1438-1439هـ/2017-2018م

نوقشت يوم: الأربعاء 23 شعبان 1439هـ/ الموافق لـ: 2018/05/09م



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهـــداء

- إلـــى منبع العطف والحنان.. والديّ الكريمين.. – حفظهما الله ورعاهما، ووفّقني لبِرّهما–
- إلى زوجـــتي.. وولداي..
- إلـــى إخوتـــي وأخواتـــي..
- إلـــى أساتذتـــي الكرام البررة.. من: مرحلة الابتدائي.. والمتوسط.. والثانوي.. ثم في جامعة الأمير عبد القادر –حرسها الله–.. فهم الذين أناروا لنا –بإذن الله– طريق العلم والمعرفـــة.. وزرعوا فينا بذور العلم القويم والخلق المستقيم.. فأنبتت وأينعت.. فهي تؤتي أكلها كلّ حـــين بإذن ربّها..
- إلـــى زملائـــي الطلبة في جامعة الأمير عبد القادر.. وإلـــى زملائي في العمل بمعهد غليزان..
- إلـــى كلّ من أحب سنة النبي ﷺ وسيرته العطرة.. وتعلّمها وعلّمها.. وحفظها.. وعمل بها..

أهدي هذا البحث المتواضـــع .. راجـــيا من الله تعالى أن يـــجعله في ميـــزان حســـناتي.. وفي ميزان حسنات كلّ من اهتم به.. ونظر فيه.. وقدّم انتقادات لإثرائه.. إنـــه سميع قريب مجيب..

- وأقـــــول: إلى الأحباب نهدي ما كتبنا ** وأوّلهـــم جـــميعا والدينا
إلى مَن كان منّا في مكـــان ** جوارُ القلب مسكنُه سنينَا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكـــر وعرفـــان

- أشكـــر الله العليّ العظيم.. وأحمده سبحانه على نعمه التي لا تعدّ ولا تُحصى..
- وأشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور: حـــميد قوفـــي.. على إشرافه على هذا البحث.. وعلى توجيهاته السديدة القيمة التي استفدت منها كثيرا.. وكانت نبراسا أهتدي به.. وعلى تشجيعه لي.. وصبره عليّ طوال مسيرة إنجاز هذا البحث.. فجزاه الله عنّي كل خير..
- وأقـــــول: فشكـــرا للموجّـــه والمعين ** "حُميد" ذاك نجم المشرفينَ
  ولا أنسى أستاذتـــي الكرامَ ** فقد كانوا بُدوراً مُلهِميـــنَ
  وجـــامعة الأمير لَها عِمادٌ ** وصرحٌ صار قصد الطالبين
- كما أشكر أساتذتي في جامعة الأمير عبد القادر (خاصة أساتذتي في قسم الكتاب والسنة) على إرشاداتهم وتوجيهاتهم القيمة.. وهم الذين ما فتئنا نرتشف من معين علمهم وفضلهم.. وأخص منهم: الدكتور نصر سلمان، والدكتور حسان موهوبي، والدكتور صالح عومار، والدكتور أبو بكر كافي، والدكتور مختار نصيرة، والدكتورة حكيمة حفيظي..
- وأشكر كلّ من قدّم لـــي خدمة.. أو ساعدني من قريب أو بعيد على إتمام هذا العمل.. وأخص منهم بالذكر:

– زملائي في الدراسة الأساتذة: محمد رمضاني، وياسين بن عمراوي، ورابح بلخير، وسليم نصري، ومراد خنيش..

– وكذا زملائي في العمل الأساتذة: بن هني فرحات، وعبد الحليم قفاف، ورشيد محراب، وعمرو عصماني، وبو عبد الله عروبين، وميلودي، ومسقمين..

– وكل من: بن حميسي حريز، ومحفوظ، وعلي كمرة، وغلامي، وسالم، ومصطفى حميدة.. فبـــارك الله فيهم جميعا..

- والحمد لله حـــمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.. من قبل ومن بعد..

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بســـم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، خلق الخلق أجمعين، وأرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين، بالهدى والبيّنات والحقّ المبين، وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمّا بعد:

إنّ الحملة الشرسة التي يشنّها أعداء الإسلام في العالم الغربي على نبيّنا محمد ﷺ وسيرته وسنّته، من خلال الكتابات الغربية المغرضة المليئة بالطعن والتشويه لصورة هذا النبي العظيم، وكذا ما يعرف بالرسوم المسيئة ونحوها مِمّا أذاعته وسائل الإعلام في العالم الغربي وغيره، يجعلنا نتساءل عن الأبعاد التاريخية والخلفيّات الفكرية والدينية المؤثرة في هذه الحركات، ويدفعنا إلى الرجوع لكتابات علماء الغرب المتخصّصين في دراسة رسالة الإسلام وسيرة نبيّه ﷺ، لِمعرفة الصورة التي يقدّمها كبار العلماء والمثقّفين الغربيّين عن شخصيّة النبي ﷺ ورسالته لِمجتمعاتهم الغربية والأوربية، وإسهاما منّي في هذا المجال اخترت أن أتناول بالدراسة ما جاء عن النبي ﷺ في موسوعة (دائرة المعارف الإسلامية)، التي تُعدّ من أهمّ ما كتبه المستشرقون في العصر الحديث، بما لها من تأثير في العالم الأوربي من خلال الطبعة الأجنبية، وفي العالم العربي من خلال النسخة العربية المترجمة، وذلك بهدف معرفة الصورة التي تقدّمها الموسوعة عن النبي ﷺ، ودفع ما قد يُثار من شبهات ومطاعن تُعمِّي على الصفحات المضيئة لسيرته ﷺ.

لقد توجهت جهود المستشرقين منذ البدايات الأولى لنشأة المدارس الاستشراقية نَحو دراسة العلوم الإسلامية عامة، وسنة النبيّ ﷺ وسيرته خاصة؛ لِما لَهما من أهميّة كبرى في فهم الإسلام ومعرفة عقائده وتشريعاته نظريًّا وعلميًّا، وبعد قرون من البحث والدراسة تبلورت من خلالها النظرة الاستشراقية للحضارة الإسلامية، بالإضافة إلى ما حصّـــله الباحثون الغربيون من ذخائر شرقية وموارد متنوعة عن علوم وتاريخ العالم الإسلامي، مع ما قاموا به من دراسات في ذلك، رأى المستشرقون ضرورة إنشاء موسوعة شاملة عن المعارف الإسلامية؛ تكون مصدرا متكاملا يرجع إليه الباحثون الغربيون في دراساتهم عن الإسلام وحضارته؛ وهكذا أنشأ المستشرقون "دائرة المعارف الإسلامية" التي صدرت سنة (1913م) بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ثم في سنة (1933م) صدرت الترجمة العربية "للدائرة".

لم يقتصر مجال هذه الموسوعة على فن من فنون الإسلام فحسب، بل تنوعت مباحثها بين المجالات: العقدية، واللغوية، والتاريخية، والجغرافية، والفقهية، والحديثية، وكذا ما يتعلّق بمباحث السيرة النبويّة، بيد أنّ هذه التخصّصات جاءت متفرّقة بين موادّ "الدائرة" المرتّبة على حروف المعجم، وليست مجموعة في سياق مرتّب على الموضوعات.

ولَمّا كانت "دائرة المعارف" تمثّل خلاصة ما توصّل إليه كبار المستشرقين في مطلع القرن العشرين بعد قرون عديدة من الدراسة والبحث في علوم الإسلام، كان لِجمع ما ورد فيها عن سيرة النبي ﷺ ودراسته، يمثّل نقطة بالغة الأهمية في معرفة خلاصة آراء المستشرقين المحدَثين في هذا الموضوع.

فعند تعاملي مع "الدائرة" خلال إنجاز مذكّرة الماجستير وقفت على موادّ كثيرة ومواضع عديدة، تندرج ضمن مجال السيرة ومباحثها؛ وهذا الأمر دعاني إلى أن أعمل على جَمع ما تفرّق في تلك الموادّ عن سيرة النبي ﷺ ووقائع سيرته العطرة، بُغية دراستها ومناقشة ما جاء فيها، وذلك أنّ هذه المادّة العلمية الغزيرة للسيرة مفرّقةٌ ومغيّـبةٌ بين موادّ "دائرة المعارف" المختلفة المجالات؛ لذا كان جمع ما تفرّق في هذا الموضوع أمرًا يُجلّي بوضوح ويبرز صورة السيرة النبوية في "الدائرة".

ولما تنوعت المباحث التي تضمّنتها "دائرة المعارف الإسلامية"، فإن موضوع بحثي سيتركز حول المباحث الخاصة بالسيرة النبوية، وبعد موافقة أستاذي المشرف وجملة من أستاذي الكرام "بجامعة الأمير عبد القادر"؛ اخترت أن يكون عنوان البحث كالآتي:

« **مباحث السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية" – دراسة تحليلية نقدية –** »

- **إشكالية البحث**:

جاءت مباحث السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية" مبعثرة ومتفرّقة بين موادّها، وبعد جَمعها وتصنيفها في سياق موضوعيّ مرتّب ومتناسق؛ فإنّ ذلك يدعو إلى التساؤل عن طبيعة هذه المادة العلمية، من خلال التساؤلات الآتية:

– ما هي مباحث السيرة النبوية التي تضمّنتها موادّ "دائرة المعارف الإسلامية"؟

– وما مدى موضوعية ودقّة المعلومات المدونة في "دائرة المعارف الإسلامية" حول سيرة النبي ﷺ ورسالته؟

– وهل احتوت "دائرة المعارف" على شبهات ومطاعن حول سيرة النبي ﷺ وشخصه؟

– وما هي الصورة التي يمكن أن يخرج بِها قارئ الموسوعة والمستفيد من معارفها عن سيرة النبي ﷺ؟

– ثم ما هو منهج المستشرقين محرّري "دائرة المعارف الإسلامية" في التعامل مع روايات السيرة النبوية؟ وما هو منهجهم في فهمها، وعرضِها، وتفسيرها؟

– وهل التعقّبات التي جاءت في الترجمة العربية "لدائرة المعارف الإسلامية" كافية في تصحيح الأخطاء والشبهات المثارة في مجال السيرة النبوية؟

هذه الإشكالات وغيرها ستحاول هذه الدراسة أن تجيب عليها.

- **أسباب اختـيار الموضوع:**

يمكن إبراز أهم الدوافع التي جعلتني أختار هذا الموضوع في النقاط الآتية:

أ)- انتشار ترجمات "دائرة المعارف الإسلامية" باللغة العربية في كثير من الأوساط المعرفية، مع ما احتوته من أوهام ومفاهيم خاطئة عن الإسلام عامة والسيرة النبوية خاصة، وذلك بعد أن كان ضررها قاصرا على من يقرأها باللغات الأجنبية، لذا كان ينبغي التنبيه على تلك المفاهيم والأخطاء المتعلّقة بسيرة النبي ﷺ ورسالته.

ب)- حرص كثير من الأوساط العلمية على تزويد مكتباتها بهذه الموسوعة دون معرفة بحجم ما ورد فيها من مطاعن وأخطاء تحتاج إلى التّنبيه والتصحيح والتنقيح؛ خاصة إذا كان الأمر متعلّقا بنبيّـــنا محمد ﷺ ورسالته ووقائع سيرته.

ج)- وفرة المعلومات التي احتوتها الدائرة في شتى المجالات، مع حرص محرّريها على إظهار الموضوعية، وتوثيقهم لِمعلومات كثيرة من مصادر إسلامية؛ وهذا يجعل الباحث يدرس مدى موضوعية "الدائرة" في كلامها عن السيرة النبوية.

د)- أهمّية "دائرة المعارف الإسلامية" في معرفة أقوال وآراء مجموعة كبيرة من كبار المستشرقين، حول أحداث السيرة النبوية ورواياتِها، وذلك أنّ "الدائرة" تعتبر خلاصة الدراسات الاستشراقية، وأضخم تأليف مشترك قام به المستشرقون في مجال المعارف الإسلامية في العصر الحديث.

هـ)- احتوت "دائرة المعارف" على مادة علمية غزيرة عن السيرة النبوية، غير أنّها جاءت مفرّقة ومبعثرة بين موادِّ: أسماء الصحابة، وأسماء أماكن، وأعلام ومصطلحات لها علاقة بالسيرة النبوية، ولذلك فالمعارف الخاصة بمباحث السيرة النبوية في "الدائرة" تحتاج إلى جـــمعٍ وترتيبٍ، ودراسةٍ وتَهذيبٍ.

- **أهداف البحث:**

يهدف هذا الموضوع إلى مجموعة من النقاط المتمثلة فيما يلي:

أ)- إبراز المعارف المتعلّقة بِمباحث السيرة النبوية والتي جاءت متفرّقة في "دائرة المعارف"، من أجل معرفة وجهات نظر المستشرقين في شخص النبي الكريم ﷺ وسيرته العطرة.

ب)- كما يهدف البحث إلى التعرف على مدى صحة ومصداقية المعلومات والمباحث المدونة في "دائرة المعارف الإسلامية" عن السيرة النبوية.

ج)- الدفاع عن سيرة النبي ﷺ.

د)– الكشف عن الشبهات والمطاعن المثارة حول السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية"؛ من أجل ردّها والإجابة عليها.

هـ)– التعرف على أثر منهج المحدّثين في نقد الروايات وفهمها في دفع كثير من الشبهات والمطاعن المثارة حول السيرة النبوية.

- **الدراسات السابقة:**

اجتهدت في البحث عن دراسات سابقة في الموضوع المقترح من خلال البحث على شبكة الإنترنت، وفي: "فهارس الرسائل الجامعية" في جامعة الأمير عبد القادر (بقسنطينة)، وكذا في كشافات وفهارس الرسائل الجامعية في كثير من جامعات العالم العربي والإسلامي، والتي أذكر منها: قسم الرسائل الجامعية بـــ: "مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية"، كما بحثت في: "دليل الرسائل الجامعية في علوم الحديث النبوي في معظم الجامعات الإسلامية –حتى عام (2002م) المناقشة والمسجلة–"، و"دليل الرسائل العلمية المسجلة والمناقشة بكلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى –مكة المكرمة– حتى (2010م)"، وغيرها.

وبعد البحث لم أقف –حسب اطلاعي– على دراسة شاملة ومتكاملة في هذا الموضوع، وكل ما وقفت عليه من دراسات لها صلة بموضوعي المقترح من بحوث وتأليفات يمكن تصنيفها كالآتي:

أ)– وقفت على دراسة لها صلة مباشرة بموضوعي، وهي عبارة عن كتاب مطبوع بعنوان: "السيرة النبوية –دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في ليدن–"، تأليف أحمد أبو زيد، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية–بيروت، ط1: 1424-2004 (في حوالي أقلّ من [155] صفحة): وهذا البحث هو في حقيقته دراسة للسيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية" من خلال مادّة وحيدة فحسب، وهي مادّة "محمد نبي الإسلام" كما ذكر الباحث في مقدمة هذا البحث، ولو بيّن ذلك في العنوان لكان أفضل وأتَمّ، فيقول: (دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في ليدن –من خلال مادة "محمد نبي الإسلام")، فيكون العنوان معبّراً بدقّة عن موضوع البحث.

وعلى هذا فإنّ بحثي يختلف اختلافا كبيرا عن البحث المذكور، وذلك من عدّة أوجه، أهمّها:

– موضوع بحثي أعمّ وأشمل بحيث سيتناول في "دائرة المعارف" عن السيرة في موادّها المختلفة، والتي بلغت فيما أحصيته أكثر من مائتي مادّة، أمّا البحث المذكور آنفا فقد اقتصر فيه صاحبه على مادّة وحيدة فحسب، ولكن مع أهمّية هذه المادة التي أخذها الباحث كنموذج عن رأي "الدائرة" في

السيرة، فإنّ بقيّة الموادّ لَها أهمّيتها الكبرى لِما احتوته من مادة علميّة غزيرة في مجال السيرة، ينبغي جَمعها ودراستها.

– الكتاب المذكور درس فيه صاحبه مادة "محمد نبي الإسلام" من النسخة الأجنبية "للدائرة" كما هو ملاحظ من مضمون البحث، ومن قوله في عنوانه: «... الصادرة عن دار بريل لايدن»، أمّا موضوعي فسيتناول بالدراسة النسخة العربية المترجمة، مع ما احتوته من تعليقات في مجال السيرة.

– من خلال تتبّعي للبحث المذكور لاحظت أنّه لم يناقش بعض النقاط والجزئيات الهامة الموجودة في مادة "محمد نبي الإسلام" نفسها، مثل: ما جاء في المادة عن غزوة بدر، وأحد؛ إذ لم يتطرّق إلى هاذين الموضوعين مع أهمّيتهما.

وفي رأيي أنّ البحث المذكور آنفا يفتح الباب أمام دراسة السيرة النبوية بصفة كاملة وشاملة تَجمع ما تفرّق في "الدائرة" عن هذا الموضوع، لأنّ الدراسة التي قام بها لا تجيب عن أكثر الشبهات والمطاعن المثارة في "دائرة المعارف الإسلامية" حول السيرة، وذلك أنّنا لا نجد في مادّة "محمد نبي الإسلام" كثيرا من مباحث السيرة النبوية التي جاءت في الموادّ الأخرى.

ب)– هناك دراسات أخرى لها صلة جزئية بالموضوع، وهي على قسمين:

[1]– قسم تناول بالدراسة والنقد بعض الجوانب من "دائرة المعارف الإسلامية"، وأذكر من هذه البحوث ما يلي:

– رسالة دكتوراه بعنوان: "العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية –عرض ونقد بحسب الترجمة العربية–" إعداد: خالد بن عبد الله القاسم –بكلية أصول الدين جامعة أم القرى مكة المكرمة–، وقد نوقشت الرسالة (سنة 1417هـ/1997): وركز الباحث في دراسته على جوانب نقدية فيما يتعلق بمباحث العقيدة الإسلامية في "الدائرة".

– "منهج المستشرقين في دراسة النظم الاجتماعية –دراسة نقدية لدائرة المعارف الإسلامية بحسب الترجمات العربية–"، إعـــداد: بشير بن نعمان دحّان قسم الثقافة الإسلامية –جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية–: تتبع الباحث في دراسته ما يختص بموضوع الأسرة والعلاقات الاجتماعية العامة في مواد الدائرة، محاولا تأصيلها من وجهة إسلامية دقيقة.

– كتاب مطبوع بعنوان: "دائرة المعارف الإستشراقية أضاليل وأباطيل" للدكتور إبراهيم عوض، مكتبة البلد الأمين –القاهرة، (ط1: 1419): واشتمل البحث على محاور أهـــمّها: القرآن، مسائل فقهية، النبي محمد عليه الصلاة والسلام، والعقيدة والتاريخ، حيث نبّـــه الباحث فيها على بعض مطاعن "الدائرة" حول هذه المحاور وتناولها بالمناقشة والنقد، وقد اقتصرت دراسته أيضا على مادّة

"محمد نبي الإسلام" فيما يتعلّق بالنبي ﷺ، أضف إلى ذلك أنّه تناوله للموضوع كان شموليّا ومختصرًا، باعتبار أنّ الكتاب لم يتخّصص في هذا الجانب، بل هو عنصر من عناصر الدراسة.

[2]– وقسم آخر تناولت بالدراسة مناقشة شبهات ومطاعن المستشرقين في السيرة النبوية الواردة في كتابات أخرى غير "دائرة المعارف الإسلامية"، ومن هذه الدراسات:

– "الاستشراق في السيرة النبوية –دراسة تاريخية لآراء (وات –بروكلمان –فلهاوزن)–": لعبد الله الأمين النعيم، كتاب مطبوع بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي (1997)،

– "السيرة النبوية وأوهام المستشرقين"، لعبد المتعال الجبري، كتاب مطبوع بمكتبة وهبة.

– "السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون"، لمحمد عبد العظيم علي، وعبد المتعال محمد الجبري؛ كتاب مطبوع بدار الدعوة (1994).

– "محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء –في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودنسون–، محمد محمد أبو ليلة، طُبع بدار النشر للجامعات (1999)؛ وهذه الدراسات كما هو ملاحظ عامة في الردّ على شبهات المستشرقين حول السيرة في كتب أخرى غير "دائرة المعارف الإسلامية".

– **تنبـــيه:**

هناك دراسة منشورة على شبكة الإنترنت بعنوان: (السيرة النبوية في دائرة المعارف **البريطانية** دراسة تحليلية لما كُتب تحت مادة "محمد: النبي ورسالته")، (في حوالي 69 صفحة): وأنبّه هنا إلى أنّ "دائرة المعارف البريطانية" هي غير "دائرة المعارف الإسلامية"، لأنّ: "دائرة المعارف البريطانية" أُنشأت قبل "دائرة المعارف الإسلامية" بزمن طويل، حيث صدرت الأولى ابتداء من سنة (1771م) أمّا الثانية فلم تصدر إلاّ بعد (1913م)، بالإضافة إلى أنّ "دائرة المعارف الإسلامية" متخصّصة في المعارف الإسلامية وتراثها فحسب، أما "دائرة المعارف البريطانية" فموضوعها شامل لثقافات الإنسانية أخرى.

- **المنهج المتبع في البحث:**

اقتضى موضوع البحث أن أعتمد في دراسته على المناهج الآتية:

– **المنهج الاستقرائي:** وذلك من خلال تتبّع وجَمع ما تفرق في موادّ "الدائرة" حول مباحث السيرة النبوية، وتصنيفها إلى مباحث وفصول لدراستها.

– **المنهج التحليلي النقدي:** من خلال تحليل وبيان ما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" عن وقائع السيرة النبوية ورواياتها، وتفصيل وتوضيح ما أُبهم في نصوص المستشرقين المندرجة ضمن الموضوع المطروح.

وكذا مناقشة ما جاء في "الدائرة" حول وقائع السيرة النبوية ورواياتها، وبيان منهج المستشرقين محرّري "الدائرة" في التعامل مع الروايات، وتصويب أخطائهم، ونقد أقوالهم وآرائهم وتفسيراتهم، وبيان القيمة العلمية للروايات التي أوردوها، ومدى صحّة ودقّة الاستناد إليها، والاحتجاج بها على نظرياتهم.

– **المنهج التاريخي**: في عرض روايات السيرة النبوية المطروحة في الموضوع المدروس، ومناقشتها ونقدها، ومعرفة مصادرها الأصيلة ومدى قيمتها التاريخية.

– **المنهج الوصفي**: ويبرز خاصّة في التعريف بالاستشراق، و"بدائرة المعارف الإسلامية"، وبيان مفهوم السيرة، وكذا وصف بعض وقائع السيرة النبوية، وبيان حيثياتها وتفاصيل أحداثها.

- **أهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:**

– اعتمدت في هذه الدراسة ابتداءً على **الإصدارات الثلاثة** للترجمة العربية "**لدائرة المعارف الإسلامية**" كمصدر أساس، لأن موضوع الدراسة يتمحور حول مباحث السيرة الواردة فيها، كما رجعت إلى الإصدار الأخير "للدائرة" باللغة الإنجليزية، إلا أني لم أعتمد على هذه النسخة بشكل أساس، بل رجعت إليها أحيانا من باب الوصف عند التعريف "بدائرة المعارف" في الفصل التمهيدي، أو لترجمة بعض المستشرقين، أو للمقارنة بين ما ورد في "النسخة العربية" و"النسخة الأجنبية" أحيانا ونحو ذلك.

ولَمّا جَمعتُ النصوص الخاصة بالسيرة النبوية من موادّ "الدائرة"، وصنَّفتها حسب مضامينها إلى عدة مباحث، وشرعت بدراسة ما جاء فيها، اعتمدت على مصادر ومراجع في علوم مخـــتلفة، من أهمها:

– **كتب التعريف بالاستشراق وتاريخه وأهدافه**، ومنها: "الاستشراق والمستشرقون" للسباعي، و"المستشرقون" للعقيقي، و"الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري" لمحمود زقزوق وغيرها.

– **المصادر الأصيلة للسيرة النبوية**: ومنها: "تهذيب سيرة ابن إسحاق" المشهورة "بسيرة ابن هشام"، و"دلائل النبوة" للبيهقي، و"مغازي الواقدي" وغيرها.

وكذا مراجع السيرة النبوية المعاصرة: "كالسيرة النبوية الصحيحة" لأكرم ضياء العمري، و"السيرة النبوية" لأبي شهبة، وأيضا للسباعي، و"صحيح السيرة" للعلي، وغيرها.

– **كما رجعت إلى كتب شروح السيرة النبوية**: للإفادة منها في تفسير الروايات وتحليل الوقائع، ومنها القديمة: كـــ"الروض الأنف" في شرح "سيرة ابن هشام" للسهيلي، و"شرح الزرقاني على المواهب اللدنية" وغيرها، ومنها المعاصرة أيضا: كـــ"فقه السيرة" للغزالي، وللبوطي، و"خاتم النبيين" لأبي زهرة وغيرها.

– وكذا **كتب التاريخ** التي خُصّص قسم منها للسيرة النبوية: كـــ"تاريخ الطبري"، و"البداية والنهاية" لابن كثير وغيرهما.

– واعتمدت على **كتب السنّة**: لتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها الأصلية، وأهمها: الكتـــب الستّة، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم وغيرها.

– كما رجعت إلى كتب **شروح الحديث** لتفسير الروايات وبيانها، ومنها: شرح النووي على مسلم، وفتح الباري، وغيرهما.

– وأيضا **كتب الرجال والتراجم**: ومن أبرزها: كـــ"الطبقات الكبرى" لابن سعد، و"التاريخ الكبير" للبخاري، و"تهذيب الكمال" للمزي، وكذا كتب **تراجم الصحـــابة**: كـــ"الاستيعاب" لابن عبد البر، و"أسد الغابة" لابن الأثير، و"الإصابة" لابن حجر وغيرها.

– ورجعت إلى **كتب التفسير**: كتفسير الطبري وتفسير ابن كثير، ومحمد الطاهر بن عاشور وغيرها.

– كما رجعت إلى **معاجم اللغة العربية** ومنها: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس، و"لسان العـــرب" لابن منظور، و"تاج العروس" للزبيدي، و"المعجم الوسيط" المعاصر، وغيرها.

– واعتمدت على مصادر **علوم الحديث**: ومنها: "الكفاية" للخطيب البغدادي، و"علوم الحديث" لابن الصلاح، و"فتح المغيث" للسخاوي، و"تدريب الراوي" للسيوطي، وغيرها.

كما رجعت إلى كتب التعريف بالبلدان والأماكن، وكتب تخريج الأحاديث والحكم عليها، واستفدت أيضا من بعض البحوث المنشورة في المجلات العلمية، وما إلى ذلك.

• المنهجية الخاصة في البحث:

أولا– مجال موضوع البحث وحدوده: نظرا لطول الموضوع، وغزارة المادّة العلمية المتعلّقة بموضوع السيرة في "دائرة المعارف"، مع ما يستدعيه جمعها وترتيبها، ثُمّ عرضها وبيان ومناقشة ما ورد فيها، من وقت لا يسمح به الزمن المحدّد للمرحلة الدراسيّة المحضّر لَها؛ وبعد استشارتي لأستاذي المشرف ولِجلّة من أساتذتي في "جامعة الأمير عبد القادر"؛ حصرت مجال البحث في أربعة محاور رئيسية، هي:

أ)– مصطلح السيرة، وتدوينها، وأصالتها.

ب)– وقائع العهد المكي (قبل البعثة، وبعدها).

ج)– وقائع العهد المدني.

د)– الغزوات والسرايا.

وقد ركزّت على هذه المحاور لكونها تستوعب جلّ مباحث السيرة النبوية التي تتناولها أغلب المؤلّفات في هذا المجال، وحاولت أن أستوعب ما ورد في "الدائرة" من تلك المحاور الكبرى، بينما تركت مباحث أخرى مادّها العلمية يسيرة في "الدائرة"، كالشمائل مثلا؛ لكونها فنًّا مستقلا من فنون السيرة، غالبا ما يُفرد بالتصنيف، وكذا ما يتعلّق بزوجات النبي ﷺ وأبنائه مما ورد في "الدائرة"، مع أنّه

جاء في هذا البحث جزئيات لها علاقة بهذا الموضوع، لكن تركته أيضا لعلاقته بالصحابة والتراجم، ولعلّ الأفضل أن يُفرد في بحث مستقلّ يدرس ما جاء عن "الصحابة" عموما في "دائرة المعارف".

ثانيا– النسخة المعتمدة في هذا البحث من "دائرة المعارف": اخترت النسخة المترجمة باللغة العربية من "دائرة المعارف الإسلامية" بإصداراتها الثلاثة، لأسباب منها:

- توجيهًا لخطّ البحث، وتخصيصا لمسار الدراسة.
- أنّها تميّزت على الأصل الأجنبي بإيراد تعليقات وتعقّبات مفيدة؛ فكان فيها زيادة علم.
- أنّها الأوسع انتشاراً في العالم العربي والإسلامي، لذا كان أثرها أبلغ على القرّاء غير المتخصّصين داخل عالمنا العربي والإسلامي.
- لكونها أسهل في التناول والدراسة بعد أن تُرجمت وضبطت مصطلحاتها.

لكنّني أرجع أحيانا إلى النسخة الأجنبية للمقارنة بينها وبين ما ورد في النسخة العربية من بعض الأخطاء العلمية والمطبعيّة ونحوها.

ثالثا– أما بالنسبة **لعرض نصوص المستشرقين ودراستها**: فقد سرت فيها وفق المنهجية الآتية:

أ)– عرض **نص كلّ مادة** في الجزئية المطروحة من السيرة، وأميّزه بالبند العريض، وأضعه بين قوسين بهذه الصورة: « ».

ب)– أذكر **عنوان المادة** أولا، وأميّزه **بخطّ مختلف**، ثم أسوق **النصّ** المقتطَف من المادة بين قوسين، ثُمّ أذكر اسم **محرر المادة** بعد النصّ مباشرة بالعربية والأجنبية، وأترجم له في الهامش، وإن سبقت ترجمته أشير إلى ذلك.

ج)– إذا تضمّن نص المادة عدّة جزئيات من السيرة النبوية؛ فإنّي **أُقسِّمه إلى فقرات**، أرّقمها حسب ورودها في عناصر البحث، وأتناول بالدراسة كلّ فقرة على حدة حسب موضوع السيرة الذي تندرج ضمنه، وبذلك أجمع عدّة نصوص من موادّ مختلفة، لعدد من المستشرقين، في جلّ جزئيات السيرة وعناصرها، وهو ما يسهّل المقارنة بين آرائهم، ومعرفة مجمل قولهم في كثير من القضايا.

وأنبّـــه في هذا السياق إلى أنّ **تقسيم نصوص** بعض الموادّ **إلى فقرات** بحسب مضامينها إنّما هو **اجتهاد خاص**، وإلاّ فإنّ نصوصها في "الدائرة" لم ترِد مقسّمة إلى فقرات.

د)– في عرض نصوص المستشرقين غالباً ما أرتّبها حسب ترتيب المواد في "الدائرة"، لكن أحيانا لا أراعي هذا الترتيب، وإنّما أراعي الترتيب الموضوعي، حيث أذكر النصوص التي تتحدّث عن المجريات الأولى للحادثة، ثم التي تتحدث عن المجريات اللاحقة أو الأخيرة منها وهكذا.

هـ)– أحيانا أُعَنون لعرض النصوص، ولمناقشتها، وأحيانا أكتفي بالعنوان الفرعي، خاصة إذا كان نصّا واحدا فحسب، أو كان تحليل ما ورد فيه قصيرا.

و)– بعد عرض نصوص المستشرقين أتناولها بالتحليل والمناقشة، مع إبداء ما أمكن من الملاحظات والإضافات، والاستدراكات، من بيان وتفسير بعض ما جاء مجملا أو مبهما، أو نقد بعض ما أبدوه من آراء ومفاهيم خاطئة، ومناقشتهم فيما استندوا إليه من وروايات، في صحّتها، ودلالاتها وهكذا.

وأنبّه إلى أنّي لم أُعن في هذا البحث بسرد وقائع السيرة النبوية؛ إلاّ ما يقتضيه سياق التحليل والمناقشة لما أورده المستشرقون في "دائرة المعارف"، فإنّما كان تركيزي على نقل ما ذكره المستشرقون من مباحث السيرة ثم التعقيب عليه بالنقد وإبداء الملاحظات وتصحيح الأخطاء والأوهام، أو تصويب المفاهيم، والرد على الشبهات والمطاعن.

ز)– أورَد المشرفون على ترجمة "الدائرة" ونشرها بعض التعليقات والتعقبات لِجلّة من الأساتذة والعلماء المعاصرين، ذكرتُ أهَمّها في الهامش استئناسا، وأضفت عليها ما تيسّر جمعه وبيانه.

ح)– بعض المواد التي تبدأ عناوينها بلفظ "أبو" أو "بنو"؛ أنقلها هكذا جامدة دون إعرابها بجرّ أو نصب ونحوه؛ حتى أحافظ على السياق الأصلي لتسمية المادة، وأجعل لفظة (أبو، أو بنو) بين عارضتين [ ]؛ فأقول مثلا: جاء في مادة "[أبو] سفيان"، أو في مادة "[بنو] قريظة" وهكذا.

رابعا– منهجي في التعامل مع الروايات والترجيح بينها:

– إذا كانت الرواية في الصحيحين والسنن فأقدّمها غالبا في الذكر، إلا لحاجة لها تختصّ بألفاظ زائدة أو تفاصيل وردت في روايات أخرى كـ"سيرة ابن إسحاق"، أو غيرها.

– أعتمد على ما ذكره ابن إسحاق، أو ما رواه من مراسيل التابعين، أو دون سند، أو بسند في انقطاع، وكان أمراً مشتهراً بين أهل السيرة، و لم يُخالف الروايات الصحيحة، وأصول الإسلام.

وهذا المسلك اعتمده عدة من علماء الحديث والسيرة المحقّقين كابن كثير وابن حجر والعمري وابن طرهوني وغيرهم، كما هو مبيّن في الفصل الأول من الباب الأول، بحيث تكون هناك مرونة في قبول روايات متعلّقة ببعض تفاصيل السيرة وردت بروايات منقطعة ونحو ذلك، مما هو ليس على شرط المحدّثين في قبول الروايات وتوثيقها، ولا يُستند إليه في إثبات أو نفي حكم شرعيّ أو عقديّ.

– إذا خالَفت روايةُ ابن إسحاق روايةَ الواقدي، فأقدّم رواية ابن إسحاق لأنّه الأوثق، إلاّ في حالة إمكانية الجمع بين تلك الروايات.

خامسا– منهجي في التهميش والتوثيق:

– بالنسبة **للآيات القرآنية:** اعتمدت فيها على مصحف المدينة المنورة للنشر الحاســوبي الخــاص "بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف"، وقد خرّجت اسم السورة ورقم الآية في متن البحث، مكتفيا بذكر اسم السورة ثم رقمها، وأميّزه بعارضتين على هذا الشكل: [ ].

– أما **الأحاديث النبوية:** فميّزتُها بين قوسين بهذا الشكل: (())، وضبطت متن الحديث بالشّكل.

– وقد خرَّجت الأحاديث النبوية وغيرها من الآثار والراويات في الهامش، ذاكراً اسم المصنِّف، واسم المصنَّف مختصراً، ثم اسم الكتاب والباب، والجزء والصفحة من المصنَّف، وإن كان الحديث في غير الصّحيحين غالبا ما أذكر مَن صحّحه مِن المتقدمين أو المعاصرين، وأحيانا قد أكتفي بعزوه إلى أحد الصحيحين، إذا لم يكن في الآخر، وقد أضيف مصنَّفا آخرَ، لِحاجة متعلّقة بالسياق أو اللفظ.

– وإن خرّجتُ الحديث من مصنّف حديثيّ مطبوع مع شرحه، فأذكر أوّلا اسم المصنَّف ثم أشــير بين قوسين ( ) إلى الاسم الذي اشتهر به شرحه مختصراً، مثل: صحيح البخاري (الفتح) وهكذا.

– أكتفي غالبا بتخريج الحديث عند البخاري من موضع واحد، وفق وجه الاستشهاد به، وأحيانا أخرّجه من أكثر من موضع لِحاجة دلالية أيضا.

– أمّا بالنسبة **للتوثيق والتهميش:** فقد أخّرت معلومات الطباعة والنشر إلى فهرس المصادر والمراجع، فأذكر اسم الكتاب أوّلاً، ثم اسم المؤلِّف ثانيا، ثم أذكر المحقق –إن وُجد– أو مترجم الكتاب في أول ذكرٍ للمصدر فقط، ثم كثيرا ما أختصر عنوان المصدر إن تكرر ذكره؛ كأن أقول: "الاستيعاب" بدلا من: "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، و"تاريخ الطبري" عوض "تاريخ الرسل والملوك"، و"تفسير ابن كثير" بدلا من: "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، وهكذا.

أمّا كتب السنّة المشرّفة فأذكر اسم شهرتها دون ذكر المحقّق عند تخريج الأحاديث اختصاراً.

كما أكتفي في هامش كلّ صفحة بذكر اسم مؤلِّف الكتاب عند أول ذكرٍ له، ولا أشير إلى اسْمه إن تكرّر ذكر ذلك المصدر في الصفحة نفسها، إلاّ بعض الكتب المتشابهة الأسماء كـــ"دلائل النبوة" لأبي نعيم، والبيهقي، و"فقه السيرة" للغزالي، والبوطي، والغضبان، وغيرها؛ فأذكر اسم المؤلِّف دائما.

– ولَمّا اعتمدتُ على الإصدارات الثلاثة للترجمة العربية "لدائرة المعارف" فإنّي أميز كلّ إصدار علــى النحو الآتي: (إص1): بالنسبة للإصدار الأول، و(إص2): للإصدار الثاني، و(إص3): للإصدار الثالث.

– لم أُترجِم لجميع الأعلام المذكورين في متن الرسالة؛ اختصارا وتَجنّبا للإطالة وإثقال الهوامش، لكن ركّزت على ترجمة الصحابة والرواة الذين يدور حولهم الموضوع المُناقش في التعقيب، خاصة في أوّل فصلٍ من البــاب الأول، و لم ألتزم في ذلك بترجمة تفصيلة لَهم، ولكن أَذكُر مصادر ترجــمتهم

في الهامش، مرتبا إيّاها على حسب الأقدمية، ثم أتناول في المتن ما يتعلق بالحيثِـــيَّة المناقشة عن أثره العلميّ في السيرة النبوية وما إلى ذلك.

– وكذلك ترجمتُ في الهامش بإيجاز لمحرّري الموادّ المذكورة، إلا بعضهم ترجمتُ لهم في المتن عند التعريف "بدائرة المعارف" في الفصل التمهيدي.

وإذا لم أجد ترجمة لبعض المستشرقين أو الشّرقيين من المحرّرين، خاصة الذين ما زالوا على قيد الحياة منهم، فأرجع إلى بعض مواقع الإنترنت لترجمتهم، كموقع موسوعة "ويكيبيديا" و"المعرفة"، وأذكر رابط الصفحة في الهامش.

– أما **الرموز**: فهي كالآتي:

إص: أي: الإصدار؛ من الإصدارات الثلاثة للنسخة العربية "للدائرة".

ت: المتوفّى، أستعملها في ذكر تاريخ وفاة بعض الأعلام.

ج: الجزء من الكتاب، جاء في نصوص "دائرة المعارف" غالبا، و لم ألتزمه في التهميش.

دت: في فهرس المصادر، بالنسبة للكتب التي لم يذكر تاريخ طبعها.

ص: الصفحة؛ أستعمله في الإحالة على صفحة سابقة أو لاحقة من هذا البحث، لا في توثيق الصفحات من المصادر، ويرد أحيانا في إحالات نصوص المستشرقين في "دائرة المعارف" المترجَمة.

فق: أي الفقرة؛ من نصوص المستشرقين في "الدائرة"، أستعمله خاصة في الملاحق.

م: السنة بالتاريخ الميلادي.

مد: أي المادة من مواد "دائرة المعارف"، واستعملته خاصة في الفصل التمهيدي.

هـــ: السنة بالتاريخ الهجري.

- **تنبـــيهات:**

– أنبّه إلى أنّني سُقت نصوص المستشرقين كما وردت في الطبعات العربية، فما كان فيها من مخالفة لطريقتي في فهرسة المصادر كالرمز للجزء والصفحة بحرفي (ج) و(ص)، فذلك خاصّ بنصوص "دائرة المعارف"، وليس داخلا في منهجي في كتابة البحث.

كما أنه قد يختلف أحيانا منهجي في تخريج الآيات، أو عزو المصادر مثلا، مع منـــهج نصـــوص "الدائرة"؛ فأنبّه إلى أنّ هذا الاختلاف ناتج عن نقلي لنصوص المستشرقين كما وردت في الطبعة العربية.

– ومن ذلك أيضا ذكر النبي ﷺ دون الصلاة عليه (خاصة في الإصدار الأول)، فذلك أيضا خاصّ بنصوص المستشرقين التي نقلتها كما هي في الطبعة العربية.

– أحيانا أذكر الاسم الكامل للموسوعة "دائرة المعارف الإسلامية"، وأحيانا أختصرها فأقول "دائرة المعارف" أو "الدائرة"، خاصة في صياغة العناوين.

– كما أنّني كثيرا ما أذكر اسم المستشرقين من محرّري "الدائرة" بالحروف العربية والحروف الأجنبية، حتّى لا تلتبس أسماؤهم بسياق الكلام، وأميّزها بين قوسين بهذا الشكل: " "، وأحيانا أخرى أذكر الاسم بالحروف العربية فحسب، وأقدّمه بلفظ (المستشرق).

- أما **الفهارس**: فقد صنعتها تسهيلا لمراجعة البحث، وتقريبا لمحتوياته، وهي كالآتي:

– **فهرس الآيات القرآنية**: مرتَّبةً حسب ترتيبها في المصحف.

– **فهرس أطراف الأحاديث النبوية**: وجعلتها للأحاديث المرفوع إلى النبي ﷺ، سواء كانت صحيحاً أم ضعيفاً.

– **فهرس الأعلام المترجم لهم**: واكتفيت بذكر موضع الترجمة.

– **فهرس الأماكن والبلدان**: وأذكر الموضع الذي عرفت فيه بذلك المكان.

– **فهرس المصادر والمراجع**: المعتمدة في البحث، مُرتِّـــبا إيّاها على حروف المعجم.

– **وفهرس الموضوعات**.

- **صعوبات البحث**:

تتمثّل أهم الصعوبات التي واجهتني في القيام بهذا البحث فيما يلي:

– تَفرُّق مباحث السيرة النبوية في أكثر من خمس وعشرين مجلدا في "دائرة المعارف"، صَعَّب عملية جَمْعها والإحاطة بها، خاصّة وأنّ بعض المواد لا يظهر من عنوانها أنّ لَها علاقة بالسيرة، بينما قد يحتوي نصّها على جزئيات تدخل ضمن مباحث السيرة؛ وهو الأمر الذي يتطلّب مراجعة نصوص آلاف المواد في تلك المجلّدات.

– كما لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل يتطلّب التدقيق في نصوص كلّ مادّة بعد ذلك، من أجل استلال الفقرات التي لَها علاقة بالسيرة فحسب، ثم توزيع تلك النصوص على مواضيع السيرة النبوية حسب الخطة الأولية التي وضعتها ابتداءً؛ إذ أنّ النصّ الواحد من المادّة قد يتضمّن عدّة جزئيات لها علاقة بمباحث مختلفة من السيرة النبوية، فيصعب تحييد الجزئيات الملتزَمة في البحث للترابط بين فقرات كلّ نصّ، والتداخل بين عباراته.

– كما واجهت صعوبة في تصنيف جزئيات السيرة المتفرقة بين موادّ "الدائرة"، وضمّ بعضها إلى بعض في سياق موضوعيّ مرتّب، يُسهِّل معرفة مجمل كلام المستشرقين في كلّ جزئية من الموضوع.

– ومن الصعوبات أيضا طول موضوع البحث؛ بحيث يحتاج إلى مراجعة وبحث مئات الجزئيات المتعلقة بالسيرة؛ من أجل تحرير القول فيما تطرّق إليه المستشرقون، إمّا: موافقة وبيانا، وإما ردّا لِمطعن أو دفعا لشبهة، وإمّا تصويبا لِخطأ علمي قد يكون مقصوداً، وقد لا يكون مقصوداً أحيانا.

– ثُمّ إنّ مناقشة آراء المستشرقين ومطاعنهم وشبهاتهم فيها شيء من الصعوبات أحيانا؛ ذلك أنّهم لا يسلّمون ولا يؤمنون بكثير من أصول وقواعد علوم الإسلام العامة التي يمكن إلزامهم بها، أو نقد آرائهم على أساسها؛ وهذا التباعد في التصور يجعل من العسير الإجابة علميا على بعض الافتراضات؛ لكونها مبنية على النفي المجرد، أو التهكّم والاستهتار، أو التشكيك والطعن البحت، دون استـــناد إلى أيّ دليل يمكن مناقشتهم فيه، أو نقدهم على أساسه، من خلال بيان صحّته، أو ثبوته، أو حجيّته وتفسيره ونحو ذلك.

وأخيرا لا أخفي في هذا السياق أنّني كنت أشعر بالأسى عند قراءتي ومناقشتي لبعض المطاعن المتهافتة والصريحة في جناب نبيّنا محمد ﷺ، وما تضمنته من عبارات مجانبة لأدب الكلام عن أنبياء الله ورسله.

- **خطـة البحـث:**

مقدمـــة: في التعريف بالبحث؛ وإشكاليته، وأهدافه، وصعوباته...

وقد قسّمت البحث إلى فصل تمهيدي نظري، وأربعة أبواب تضمّنت فصول الدراسة التطبيقية؛ وتفصيلها كالتالي:

الفصـــل التمهيدي: مقدّمات مفاهيمية: يتضمّن المباحث الآتية:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق ونشأته وأهدافه.

المبحث الثاني: التعريف "بدائرة المعارف الإسلامية".

المبحث الثالث والرابع: في جهود المستشرقين ومناهجهم في دراسة السيرة النبوية.

الباب الأول: أصـــالة السيرة ومرحلة ما قبل البعثة.

الفصـــل الأول: مصطلح السيرة وتدوينها وأصالتها: ويتضمّن المباحث الآتية:

المبحث الأول: التعريف بمصطلح السيرة النبوية في "الدائرة".

المبحث الثاني: تاريخ التأليف في السيرة من خلال "الدائرة".

المبحث الثالث: مصادر السيرة النبوية وأصالتها.

الفصـــل الثاني: وقائع مرحلة ما قبل البعثة: يتناول المباحث الآتية:

المبحث الأول : مولد النبي ﷺ والحوادث المواكبة له.

المبحث الثاني : نسبه ﷺ.

المبحث الثالث : نشأته ﷺ وشبابه.

الباب الثاني: وقائع العهد المكي من البعثة إلى ما قبيل الهجرة.

الفصـــل الأول: من البعثة إلى بداية الدعوة الجهرية واضطهاد المسلمين: في المباحث الآتية:

المبحث الأول: نزول الوحي على النبي ﷺ وأساليب تشكيك "الدائرة" فيه.

المبحث الثاني: مرحلة الدعوة السرِّية في مكة.

المبحث الثالث: مرحلة الدعوة الجهرية بمكة ومعارضة المشركين لها.

الفصـــل الثاني: من هجرة الحبشة إلى ما قبيل الهجرة للمدينة: يتناول المباحث الآتية:

المبحث الأول: الهجرة إلى الحبشة بعد اضطهاد الْمشركين للنبي ﷺ وأتباعه.

المبحث الثاني: قصة الغرانيق والمقاطعة العامة وخروج النبي ﷺ إلى الطائف.

المبحث الثالث: نظرة "دائرة المعارف" إلى حادثة الإسراء والمعراج.

المبحث الرابع: التحضير للهجرة إلى المدينة.

الباب الثالث: وقائع العهد المدني من الهجرة إلى الوفاة؛ (دون الغزوات).

الفصـــل الأول: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبناؤه المجتمع الإسلامي بها: في المباحث الآتية:

المبحث الأول: خروج النبي ﷺ وأصحابه مهاجرين إلى المدينة.

المبحث الثاني: وصول النبي ﷺ إلى المدينة وشروعه في الإجراءات التنظيمية.

المبحث الثالث: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ونصرة الأنصار للنبي ﷺ وأصحابه.

المبحث الرابع: علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب وموقفهم من دعوته.

المبحث الخامس: جوانب من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مجتمع المدينة.

الفصـــل الثاني: من صلح الحديبية إلى وفاة النبي ﷺ: يتناول المباحث الآتية:

المبحث الأول: صلح الحديبية في "الدائرة".

المبحث الثاني: رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.

المبحث الثالث: فتح مكـــة.

المبحث الرابع: بعض الوقائع الهامة بعد الفتح وقبيل وفاته ﷺ.

المبحث الخامس: مرض النبي ﷺ ووفـــاته.

الباب الرابع: الغـــزوات والســـرايا.

الفصـــل الأول: الغزوات والسرايا حتى الخندق: ويتضمّن المباحث الآتية:

المبحث الأول: غزوة بدر والنشاط العسكري قبلها.

المبحث الثاني: النشاط العسكري بين "بدر" و"أحد".

المبحث الثالث: غزوة أحد وقائعها ونتيجتها.

المبحث الرابع: النشاط العسكري بعد "أُحُد" حتى غزوة "الخندق".

الفصـــل الثاني: الغزوات والسرايا بعد الخندق: يتناول المباحث الآتية:

المبحث الأول: النشاط العسكري بعد "الخندق" حتى "خيبر".

المبحث الثاني: النشاط العسكري بعد "خيبر" وقبل الفتح.

المبحث الثالث: الغزوات والسرايا بعد الفتح وقبل تبوك.

المبحث الرابع: غـــزوة تبوك وبعض السرايا بعدها.

المبحث الخامس: نظرة "دائرة المعارف" إلى مقاصد جهاد النبي ﷺ وشخصيّته القيادية.

خاتـــمة: لِحصر أهم النتائج، والتوصيات والاقتراحات.

وقد ذيّلتُ البحث **بأربعة ملاحـــق:** وهي كالتالي:

الملحق الأول: ملخّص المطاعن والشبهات حول السيرة النبوية في "دائرة المعارف".

الملحق الثاني: ملخص لبعض المواضع الْمُنفصِلة عن السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية

الملحق الثالث: ملخص الأخطاء والأوهام العلمية حول السيرة النبوية في "الدائرة".

الملحق الرابع: ملخص تناقضات المستشرقين في طرح قضايا السيرة النبوية في "الدائرة".

والله أرجو أن أكون وفّقت في هذا العمل المتواضع، وأعطيت الموضوع شيئا يسيرا من حقّه، وأسأل الله ﷻ يجعل هذا العمل من جهد المقلّ في الذبّ عن جناب الرسول الكريم ﷺ، وعن أثره، وسنّته، وسيرته العطرة، كما أسأله جلّ وعلا أن يجزي كلّ من ساعدني على إنجازه من قريب أو بعيد، وبخاصّة أستاذي المفضال "حميد قوفي" المشرف على البحث، وأن يجزي كذلك من تحشّم قراءته وتقييمه من الأساتذة المناقشين الأفاضل.

هذا وما كان في هذه الورقات من صواب فبتوفيق الله تعالى وحده، وما كان من غلط أو زلل فمن نفسي والشيطان، والله الموفّق والمستعان، وعليه الاعتماد والتكلان.

وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي:
مقدمات مفاهيمية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق ونشأته وأهدافه

المبحث الثاني: التعريف "بدائرة المعارف الإسلامية"

المبحث الثالث: جهود المستشرقين في دراسة السيرة النبوية

المبحث الرابع: مناهج المستشرقين في دراسة السيرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اعتنى علماء الغرب منذ قرون عديدة بدراسة حضارة العرب والمسلمين وعلومهم، وفي العصر الحديث عرف هذا النوع من الدراسات نشاطا واسعا وتطورا ملحوظا، فكان من أهمّ الأعمال التي أنجزها المستشرقون الغربيون في هذا العصر تأليفُهُم "لدائرة المعارف الإسلامية"، التي نُشرت باللغات الأجنبية الأوربية، ثم عمل مجموعة من الباحثين على ترجمة الموسوعة إلى اللغة العربية، مع إضافة تعليقات على الأصل المترجم، وضعها نخبة من علماء العالم العربي والإسلامي.

ولَمّا كان هذا البحث يتمحور حول دراسة ما ورد في "دائرة المعارف الإسلامية" عن مباحث السيرة النبوية، قدّمت بهذا الفصل التمهيدي الذي يتطرق إلى: التعريف بالاستشراق ونشأته وأهدافه، ومجالات أنشطته، لكونه المؤسّسة المسؤولة عن إنجاز "الدائرة"، ثمّ بعد ذلك يتطرّق إلى التعريف "بدائرة المعارف الإسلامية"، وإصداراتِها باللغات الأجنبية، ثم بالعربية، مع بيان خصائصها في نسختيها الأجنبية والعربية، كما حاولت أن أقدّم لَمحة عن بعض الجوانب الإيجابية والسلبية لجهود المستشرقين في دراساتهم حول السيرة النبوية، بالإضافة إلى بيان جملة من مناهجهم في دراسة السيرة خارج "دائرة المعارف الإسلامية"، من أجل معرفة ما إذا كان ما حرّروه في "الدائرة" عن السيرة يعتمد على نفس المناهج التي اعتمدتها المدرسة الاستشراقية قديما وحديثا.

المبحث الأول : مفهوم الاستشراق ونشأته وأهدافه

يتطرّق هذا المبحث إلى التعريف بالاستشراق من حيث: مفهوم هذا المصطلح، ونشأة حركة الاستشراق وتطوّرها إلى غاية العصر الحديث، كما يبيّن أهمّ الأغراض والأهداف الاستشراقية، وكذا المجالات والأصعدة التي يعمل فيها الاستشراق ويركّز نشاطه عليها.

المطلب الأول : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للاستشراق

الفرع الأول: المفهوم اللغوي للاستشراق

أولا– المفهوم اللغوي للاستشراق في العربية: مفردة "**استشراق**" مشتقّة من مادة "**شرق**"؛ **والشّرْقُ:** جهة شروق الشّمْس وَالْمشرق مثله، يقال: **شَرقت** الشّمس تَشرُق شُروقاً وشَـرقاً، أي: طلعـت، **وأشرقت** إشراقاً بالألف، أي: أضاءت، ويصحّ العكس[1].

وأشْرَق: دخل في وقت الشّروق، كما تقول: أضحى وأظهر، **والتّشـريق:** الأخـذ في ناحيـة الْمشرق، **وشَرّقوا:** ذهبوا إلى الشَّرْق أَو أَتَوا الشرق[2].

[1]– ينظر: لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، 173/10. والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، 310/1.

[2]– ينظر: لسان العرب، 174/10. وتاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، 500/25.

– **استحداث مفردة "استشراق" في القواميس المعاصرة:** إذا تَتَبَّعنا مادّة "شرق" في معاجم اللغة العربية القديمة[1] فإننا لا نجد هذا الاشتقاق؛ أي: كلمة "استشراق" وما يتصل بها نحو "مستشرق"؛ الأمر الذي يدل على أنّ هذه الكلمة ليست أصيلة في اللسان العربي، بل هي مفردة مُولَّدَة[2] حديثاً[3].

فاستشرق: يستشرق استشراقًا؛ على وزن (**استفعل**): من صيغ مزيد الفعل الثلاثي، فالهمزة والسين والتاء زوائد، ثم الفاء والعين واللام (شرق) أصل في الكلمة، وصيغة (استفعل) تفيد عدة معاني، أهَمّها: الطلب والسؤال، وهو الغالب فيها[4].

وكلمة "**استشراق**" مصدر "**استشرق**" معناها: طلب دراسة ما في الشرق؛ لأن الألف والسين والتاء إذا دخلت على الفعل فإنّها تفيد الطلب؛ ولهذا نجد في بعض المصادر اللّغويّة الحديثة أنّ: «**الاستشراق** هو: طلب علوم الشرق ولغاتهم؛ **مولَّدة عصريّة حَدِيثة**»[5]، **والمستشرق:** اسم فاعل؛ يُقال: لِمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة[6].

ولا مشاحّة في هذا الاصطلاح؛ فقد قرّر مؤتَمر المجامع اللغوية بالقاهرة سنة (1934م) جعل صيغة "استفعل" قياسِيَّة كلَّما احتِيج إليها في التعبير، حيث جاء في "مجلة المجمع اللغوي": «يرى المجمع أن صيغة (استفعل) قياسية؛ لإفادة الطلب والصيرورة»[7].

كما استعمل المعاصرون كلمة "استشراق" تبعا لترجمة كلمة (Orientalism)؛ ثُمّ شاعت لفظة "استشراق" و"مستشرق" شيوعاً كبيراً في عالَمنا العربي، وفي كتابات المستشرقين أنفسهم[8].

بِهذا يُعلم أنّ مفردة "استشراق" مصطلح حديث، وإن كان مدلوله قديما كما سيتبيّن من تاريخ نشأة الاستشراق.

---

[1]– تُراجع اشتقاقات مفردة "شرق" في: معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، 264/3. ولسان العرب، 173/10–179. وتاج العروس، 493/25–505، وغيرها.

[2]– **المولَّد:** هو اللفظ الذي دخل اللغة العربية بعد عصر الاحتجاج، أي: بعد آخر المائة الثانية بالنسبة إلى عرب الأمصار، وآخر المائة الرابعة بالنسبة إلى عرب البوادي. ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق جاد المولى ومحمد أبو الفضل وعلي البجاوي، 304/1. والمعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي وإميل بديع، 1221/2.

[3]– ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا، 310/3. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 9.

[4]– ينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجار، 153/2–154. وفقه اللغة، أبو منصور عبد الملك الثعالبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، 258. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، 49/1.

[5]– معجم متن اللغة، أحمد رضا، 310/3.

[6]– ينظر: المصدر نفسه، والجزء والصفحة نفسيهما. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وآخرون، 1192/2–1193.

[7]– مجلة مجمع اللغة العربية، سنة 1934/1353، مجلد (1)، 37.

[8]– فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفتش، 30.

ثانيا– المفهوم اللغوي للاستشراق في الفرنسيّة والإنجليزية: كلمة "استشراق" مرادفة لكلمة (Orientalism) في اللغات الأجنبية الأوربية.

وكلمة (Orient): من أصل لاتيني؛ وتعني باللاتينية: المعرفة والبحث والإرشاد، واستخدام كلمة بهذه الدلالة اسما لعلوم تبحث في منطقة معيّنة؛ تعني اعترافاً ضمنياً بأنّ العلم والمعرفة والإرشاد كان يُطلب من هذه المنطقة، وأنّ وصفها بالشرق يعني أنّها المنطقة التي أشرقت فيها شمس المعرفة[1]؛ فاستعمال هذه الكلمة للدلالة على معرفة علوم الشرق، يعكس حقبة الانبهار بحضارة الشرق التي كانت سائدة في الغرب الأوربي زمن القرون الوسطى.

أمّا المعاجم الأجنبية الحديثة، فتجمع بين المفهوم الحسّي والمعنوي لكلمة (Orient)؛ فهي تعني: ما يوجد في الشرق، وتشير إلى منطقة الشرق الواقعة شرق أوربا، كما تتميز هذه الكلمة بطابع معنوي آخر يدلّ على أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي فحسب، وإنما تعني: النّهوض والضياء والنور والهداية، أمّا لفظ (Orientalism): فيُستعمل للدلالة على العلوم التي تختصّ بدراسة الحضارات الشرقية[2].

وكما أن هذه الكلمة مولَّدة عصرية في اللغة العربية، فهي كذلك في اللغات الأجنبية، غير أنّ استعمالها في اللغات الأوربية أقدم من استعمالها في اللغة العربية، حيث ظهرت كلمة "مستشرق" (Orientalist) في إنجلترا سنة (1779م)، وفي فرنسا سنة (1799م)، ثُمّ أُدرجت كلمة "الاستشراق" في قاموس الأكاديميّة الفرنسية عام (1938م)[3].

الفرع الثاني : المفهوم الاصطلاحي للاستشراق

قدّم الباحثون في الاستشراق عدّة تعريفات لهذا المصطلح، استعرضها على النحو الآتي:

أولا– مفهوم الاستشراق عند علماء الغرب:

[1]– **تعريف قواميس اللغات الأجنبيّة:** تُطلِق مصطلحَ الاستشراق (Orientalism) على معنيين:

الأول: مجموعة تَخصّصات موضوعها دراسة الحضارات الشرقية.

والثاني: لون أدبيّ وفنّي ازدهر في القرن التاسع عشر من الميلاد، يتعلّق بوصف المناظر والمشاهد والشخصيّات في شمال إفريقيا والشرق الأوسط[4].

---

[1]– ينظر: الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، 30.

[2] – Le petit Larousse - grand forma, sous la direction de Philip merlt, 763. Oxford Advenced learner's dictionary of current English, 932.

[3]– ينظر: تراث الإسلام، جوزيف شاخت وبوزورث كليفورد، ترجمة محمد السمهوري–حسين مؤنس–إحسان صدقي، 64/1.

[4] –Larousse - grand forma, sous la direction de Philip merlt, 763.

ويعبّر المستشرق "رودنسون" عن هذين الاتّجاهين: بالإستشراق الأدبي، والاستشراق الفني[1].

[2]– **تعريف المستشرق الألماني "رودي بارت"**: هو علم الشرق، أو علم عالم الشرق، وطرح "بارت" إشكالا هاما حول: اختلاف الموقع الجغرافي "للشرق" بالنسبة إلى مواقع دول الغرب، ومثال ذلك: أنّ الشرق الذي يختصّ به الاستشراق يقع في الجنوب الشرقي بالنسبة لألمانيا، كما أنّ الدول العربية شمال إفريقيا داخلة وفق هذا الاصطلاح في الشرق، مع أنّ هذه المنطقة تُسمّى بالمغرب أي بلد غروب الشمس[2]؛ ثُمّ انتهي "بارت" إلى: أنّ اسم الاستشراق من المفروض أن يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها[3].

[3]– **تعريف المستشرق برنارد لويس**: يذكر أنّ مصطلح "الاستشراق" كان يستعمل في الماضي[4] للدلالة على معنيين:

– **الأول**: كان يدلّ على مَدرسة في الفنّ، تَختصّ بمجموعة مِن الفنّانين الغربيّين، كانوا عبارة عن رحّالة إلى الشرق، يُقيمون لفترة من الزمن في الشرق الأوسط[5] وشمال إفريقيا، ويَرسُمون ما يَرونه أو يَتخيّلونه عن هذه المنطقة.

---

[1]– ينظر: تراث الإسلام، (مقال بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية)، رودنسون، 64/1.

[2]– يبدو أنّ هذا التحليل الهام والواقعي الذي قدّمه "بارت" يدلّ على أمرين:

– **الأول**: أنّ أصل استعمال هذا المصطلح ليس له علاقة "بالشرق" الجغرافي، بل له علاقة بالضياء والمعرفة التي كان يتطلّع لها الغرب من هذه المناطق في القرون الوسطى؛ يشهد لذلك معنى (Orient) في اللغة اللاتينية القديمة، وما ذكرته بعض القواميس الحديثة لمعنى الكلمة. – **والثاني**: أنّ الاصطلاح المعاصر المستعمل الآن بين أوساط الغربيين وهو "**الشرق الأوسط**" [تعريفه في الصفحة الموالية] جاء احترازا من هذا الإشكال (الذي هو اختلاف الشرق الجغرافي بالنسبة لدول الغرب).

[3]– ينظر: الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي، محمود ماضي، 13. ومعجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، 6-7. نقلا عن: الدراسات العربية والإسلاميّة في الجامعات الألمانية، رودي بارت، 11-12. وقد حاولت الرجوع إلى كتاب "بارت" بالعربية مترجما، أو بلغة أجنبية فلم أحصّله، لذا نقلت هذا النص عنه بالواسطة.

[4]– قبل بيانه للمعنى الاصطلاحي لكمة "استشراق": تحدّث المستشرق "برنارد لويس" عن بعض الأبعاد التاريخية لكلمة "الشرق" عند الأوربيين، فذكر: بأنّ كلمة "الشرق" (Orient) عند الأوربيين كانت في السابق تُفسّر على اتّجاه واحداً فحسب؛ بحيث كانت تعني للأوربيين: الإمبراطوريّة العثمانيّة، ثُمّ صارت كلمة "شرق" تعني للفرنسيّين السّاحل الشرقي للبحر المتوسط، وبعد ذلك أخذت هذه الكلمة أبعاداً أوسع: مع تفتّح الأوربيين على الشرق، وتَعرّفهم على مناطقه الواسعة، فصاروا يسمّون "الشّرق" باسم: الشرق الأدنى، أو الشرق الأوسط. ينظر: الإسلام والغرب، برنارد لويس، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد، 42.

[5]– **الشرق الأوسط**: يطلق هذا المصطلح على منطقة جغرافية تشمل أجزاء من إفريقيا الشمالية، وجنوب غربي آسيا، وجنوب شرقي أوربا، ويختلف العلماء بشأن الأقطار التي تشكل الشرق الأوسط، غير أن كثيراً منهم يتفق على أن الإقليم يتكون من: قبرص، مصر، إيران، العراق، وفلسطين المحتلة، الأردن، والكويت، ولبنان وعمان، وقطر والبحرين، والسعودية، والسودان وسوريا، وتركيا، والإمارات واليمن. وبدأ يُردّد هذه التسمية رجال السياسة والحرب إبان الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)، ثم تسرّب الاصطلاح إلى المؤسسات والمنظمات العالمية في العالم. ينظر: الموسوعة العربيّة العالميّة، مجموعة من الباحثين، 97/14. والموسوعة العربية الميسّرة والموسّعة، ياسين صلواتي بمساعدة مجموعة من الباحثين، 2187/5.

– والمعنى **الثاني**: وهو الأكثر شيوعا، أنّه: اختصاص علميّ (أو فرع أكاديمي) يدرس فيه المستشرقون لغات أخرى غير اللغات الأوربيّة[1].

– **مناقشة التعريفات**: يُلاحظ على تعريفات الغربيّين للاستشراق: توسع مجالات الثقافات الشرقية التي يتناولُها بالبحث والدراسة؛ حيث لم تَجعل مَجال الاستشراق قاصرا على العلوم والمعارف العربية والإسلامية فحسب، بل تعدّتها إلى معارف شرقية أخرى بالنسبة للغرب، مِن ثقافات: صينية، ويابانية، وفارسية، وهندية وغيرها.

وإن كان المستشرق "بارت" ركّز على الشرق العربي والإسلامي في كلامه السابق عن مفهوم المصطلح ومجاله، مع تعميمه لآفاق الدراسات الاستشراقية لكلّ ما يتّصل بحضارات الشرق.

ويرى "عبد الرحمن حبنكة الميداني" أنّ: «هدف الغربيين من هذا الإطلاق العام الذي يشمل كل الشرق والشرقيين، مسلمين أو غير مسلمين، أن يكون غطاء للهدف الأساسي، الذي هو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، لخدمة أغراض التبشير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى... ثم توسعت الدراسات الاستشراقية بعد توسع الاستعمار الغربي في الشرق، فتناولت: دراسة جميع ديانات الشرق، وعاداته، وحضاراته، وجغرافيته، وتقاليده، ولغاته، وكل ما يتعلق به»[2].

ثانيا– مفهوم الاستشراق عند العلماء العرب:

[1]– **تعريف مالك بن نبي**: يقول: «نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته»[3].

[2]– **تعريف أحمد الزيات**: يقول: «يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته ومعتقداته وأساطيره، ولكنّه في العصور الوسيطة كان يُقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعّه منائر أقطاره من أضواء المدنية والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه يعْمَه في غياهب من الجهل الكثيف»[4].

[3]– **تعريف إدوارد سعيد**: يرى أنّ لَه ثلاث دلالات:

---

[1]– الإسلام والغرب، 40-41.

[2]– أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، 120.

[3]– إنتاج المستشرقين وأثره في الفكرة الإسلامي، 5.

[4]– تاريخ الأدب العربي، للزيات، 512.

– الدلالة الأولى: جامعية أكاديمية، فكل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه فهو مستشرق، وعمله هو استشراق، سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان أم بعلم الاجتماع أم مؤرخا أم فقيه لغة.

– الدلالة الثانية: أسلوب فكري قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب.

– الدلالة الثالثة: أسلوب غربي يهدف للسيطرة على الشّرق، وبَسط السِّيادة عليه[1].

[4]– **تعريف محمود زقزوق**: يشمل تعريفه معنيين:

أ)– بالمعنى العام: أو "**بالمعنى الواسع**": تطلق كلمة "مستشرق" على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وحضارته وأديانه.

ب)– بالمعنى الخاص: هو الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه، وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ "استشراق ومستشرق"، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين[2].

[5]– **تعريف الموسوعة الميسرة في الأديان**: جاء فيها: «ويقصد به [أي: الاستشراق] ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامّة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة»[3].

– **مناقشة التعريفات**: يُلاحظ على هذه التعريفات أنّها متأثّرة بالميول المعرفية لأصحابها، بحيث أنّ كل واحد منهم صاغَ التعريف حسب زاوية المعالجة من ناحيته الخاصّة، وسبب ذلك هو اختلاف المنظورات التي يرى من خلالها الدارس موضوعه.

كما أشار جلّ مَن عرّف الظاهرة الاستشراقيّة من العرب إلى الخلفيّات الثقافية والتاريخيّة لدراسات المستشرقين.

النتائج: يُستنتج من العرض السابق ما يلي:

– أنّ الاستشراق **تخصّص علميّ** يدرس عالم الشرق وحضاراته.

– ينصرف مصطلح الاستشراق من حيث **الإطلاق العام** إلى: دراسة كلّ ما هو شرقيّ على اختلاف حضارات هذا العالم وأديانه.

---

[1]– الاستشراق: المعرفة –السلطة –الإنشاء، ترجمة كمال ديب، 38-39.

[2]– الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، 18.

[3]– الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف مانع بن حمّاد الجهني، 687/2.

– أمّا **الإطلاق الخاصّ** لِهذا المصطلح فينصرف إلى: دراسة ما يتعلّق بالإسلام والحضارات المتّصلة به، كالعربية والفارسية والتركية وغيرها، وأصول هذه الحضارات ولغاتها وتاريخها.

وهذا الإطلاق هو ما يعني الدارس في الحقل الشرعيّ، لعلاقته المباشرة بمجال دراسته.

– تهدف الدراسات الاستشراقية في الظاهر إلى تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة، وحضارة الإسلام على وجه الخصوص، وإلى نقل علومهم المتطورة إلى الغرب خاصة في القرون الوسطى.

بيد أنّ هذا الهدف المعلن تنجرّ وراءه أغراض أخرى (دينية تبشيرية، واقتصادية توسّعية، وسياسية استعمارية) قد تكون معلنة أحيانا وخفّية أحيانا أخرى.

المطلب الثاني : نشأة الاستشراق وتطوره

الفرع الأول : بداية الاستشراق

لا شكّ أنّ الانتشار السريع للإسلام في الشرق والغرب لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصارى في الغرب إلى هذا الدين، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ومحاولة التعرف عليه[1].

لكن من الصعب تحديد تاريخ معيّن لبداية الاستشراق، لذا نجد اختلافا بين الباحثين حول التأريخ لبدايته ونقطة انطلاقه، ولا تتّجه محاولاتَهم في هذا الصّدد إلى تَحديد سنة بعينها لذلك، وإنّما إلى ترجيح حقبة زمنيّة معيّنة على وجه التقريب يمكن أن تُعدّ بدايةً لظهور الاستشراق[2].

ويمكن إجمال أهمّ **وجهات النظر حول بداية الاستشراق** في الآراء التالية:

[1]– يرى بعض الباحثين: أنّ الاستشراق بَدَأ منذ دقّت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا العريضة، وأسّست نهضة وحضارة لم يشهدها الغرب من قبل؛ وحينذاك أخذ الأوربيّون الغارقون في الجهل والتخلف الحضاري يبحثون عن أسباب نهضة المسلمين، وبدأوا يدرسون علوم المسلمين ولغاتهم؛ لعلّهم يظفرون بما يوقفون به امتداد هذا الزّحف الذي صار يهدّد كيانهم، أو على الأقلّ يكتسبون من علومهم ما ينفعهم في إنقاذ أنفسهم من الجهل والتخلّف[3].

[2]– ويرى كثير من كبار العلماء والباحثين في الاستشراق: أنّ بدايته ترجع إلى الاحتكاك الذي كان بين العرب المسلمين والأوربيين في الأندلس؛ حيث يُرجع مصطفى السباعي ونجيب العقيقي وحبنكة الميداني: بدايةَ الاستشراق إلى أواخر القرن العاشر الميلادي، عندما قصد بعض الرهبان الغربيين

---

[1]– ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 18-19.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 19.

[3]– ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد فتح الله الزيادي، 63-64.

الأندلسَ إبان عظمتها ومجدها، وتثقّفوا في مدارسها، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصّة في الفلسفة والطب والرياضيات، ابتداءً من الراهب الفرنسي "جربرت" (1003م)، الذي قصد الأندلس وتتلمذ على أساتذة من المسلمين في إشبيلية وقرطبة، حتى أصبح من أكثر علماء عصره إلماماً بالثقافة العربية الإسلامية، وكذلك الراهب "بطرس المحترم" (1156م)، وبعد أن عاد هؤلاء الرّهبان إلى بلدانهم نشروا ثقافة العرب، وأشهر مؤلفات علمائها[1].

وذهب إلى هذا الرأي أيضا: المستشرق "برنارد لويس"[2].

بينما يقترب موقف المستشرق "يوهان فوك" من هذا الرأي، حيث أرّخ لبداية الاستشراق من جهود الراهب "بطرس المحترم" في ترجمة القرآن سنة (1143م)[3].

[3]– هناك من يعتبر: الحروب الصليبية (1096-1291م) هي السبب الأكبر الذي أدّى إلى توجيه الاهتمام نحو الدراسات الاستشراقية، ذهب إلى هذا الرأي بعض الباحثين العرب، وكذا بعض المستشرقين[4].

[4]– وهناك من يرى: بأنّ بداية الاستشراق الرسمي كانت في القرن الرابع عشر (14) الميلادي حين أصدر "مجمع فينا الكنسي" عام (1312م) قراراً بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربيّة[5].

«لكن الإشارة هنا إلى "الاستشراق الرسمي" تدلّ على أنه كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ»[6]، تَمثّل في محاولات فردية وجماعية كانت منظمة أحيانا لدراسة علوم الشرق وترجمة تراثهم إلى اللاتينية، كما يمكن اعتبار هذا التاريخ خطوة نحو العناية أكثر بالاستشراق، من خلال جعله تخصّصاً أكاديمياً في الجامعات والمدارس الكنسية.

– **الحاصل:** أنّ البداية الفعلية للاستشراق وفق ما ذهب إليه أكثر الباحثين في هذا ترجع إلى الاحتكاك الذي كان بين العرب المسلمين والأوربيين في الأندلس، حيث ظهرت جهود فرديّة وجماعية

---

[1]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 17-18. والمستشرقون، العقيقي، 1/97-120. وأجنحة المكر الثلاثة، الميداني، 122. والمستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، عجيل جاسم النشمي، 11-16.

[2]– ينظر: فلسفة الاستشراق، سمايلوفتش، 57-58.

[3]– ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة عمر لطفي العالم، 17-19.

[4]– ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (مقدمة كتاب المتنبي)، محمود شاكر، 1/35. وتاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 16-17. والاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، عدنان محمد وزان، 27-28.

[5]– ينظر: الاستشراق، إدوارد سعيد، 80. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 18.

[6]– الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 18.

للتعرف على هذا الوافد الجديد الذي أصبح يغزو العالم الأوربي، لكنّها لم تصل إلى درجة من الوضوح في الأهداف والمنطلقات إلا بعد الحروب الصليبية، حيث أدرك الغربيون أن القوة لا تمثّل الحلّ الأنسب لهم حينئذ، وصار واضحاً لأكابر قادتهم ورهبانهم أنه لا سبيل إلى مقارعة هذا العدو إلاّ بسلاح المعرفة والعلوم، للقيام بنهضة أوربية تضاهي تلك النهضة التي عرفها المسلمون، حتّى يتمكّنوا من مجاراتهم والعمل على هزيمتهم.

الفرع الثاني: مراحل تطوّر الاستشراق

يمكن إيجاز أبرز المحطّات التي مرّ بِها الاستشراق منذ بدايته ونشأته في القرون الوسطى حتى العصر الحديث في المراحل التالية:

[1]– مرحلة الانبهار بالحضارة العربية والاتجاه إليها: بعد أن دقّت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا، وقامت الدولة الإسلامية في الأندلس، وأسست نهضة وحضارة إسلامية لم تشهدها أوربا من قبل، أخذ الأوربيون الذين كانوا غارقين في الجهل والتخلّف الحضاري يبحثون عن أساسيات نهضة المسلمين، وتوجّهوا إلى اغتراف ما أمكنهم من نفائس العلوم والمعارف الشرقية.

وكان من أبرز سمات هذه المرحلة الاتجاه إلى ترجمة الكثير من أمهات الكتب العربية إلى اللاتينية، خاصّة منها: كتب الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وغيرها[1].

[2]– مرحلة ما بعد الحروب الصليبية: يمكن اعتبار الاستشراق في هذه المرحلة نتيجة من نتائج الحروب الصليبية؛ فإنّ فشل الحروب الصليبية في حملاتها المتوالية على الشرق الإسلامي عسكرياً، كان دافعاً للمزيد من الاهتمام بالثقافة الإسلامية، ذلك أنّ انهزام الصليبيين في غزو المسلمين بالسلاح، جعلهم يبدأون بالتفكير جديًّا لغزو المسلمين فكريًّا[2].

– أثر الحروب الصليبية على الحركة الاستشراقية: في أعقاب الحروب الصليبية وُضعت الخطة لغـــزو المسلمين بوسائل أخرى غير وسيلة الحرب المسلحة بالأسلحة المادية، واقتضت خطة الغـــزو الجديـــد التوسع في الدراسات الاستشراقية، لتكون تمهيداً لهذا الغزو، وإعداداً لشروطه الفكرية والنفسية.

– توصية ملك فرنسا: من الشواهد العملية على هذا التحوّل: أنّ الملك الفرنسي "لويس التاسع" قائد الحملة الصليبية السابعة التي انتهت بهزيمة الصليبيين ووقوع "لويس" في أسر المصريين في مدينة المنصورة، ثم تخلّص من الأسر بفدية كبيرة، لَمّا عاد إلى فرنسا قدّم هذا القائد الصليبِيّ الذي خبَر

[1]– ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد فتح الله الزيادي، 63-65. والمستشرقون، العقيقي، 99/1.

[2]– ينظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه –محمد شريف، 19. وظاهرة انتشـــار الإســـلام وموقـــف بعـــض المستشرقين منها، 66.

الشرق عن كثب لعدّة سنوات **توصيةً للعالم الغربي**؛ مفادها أنّه: لا سبيل إلى النصر والتغلّب على المسلمين عن طريق القوة الحربية، لأنّ تديّنهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس في سبيل الله لِحماية ديار الإسلام، ولذلك لا بدّ من البحث عن سبيل آخر يُمَكّن من تحويل التفكير الإسلامي؛ بحيث يقوم العلماء الأوربيون بدراسة الحضارة الإسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد الذي يغزون به الفكر الإسلامي؛ وقد سار الأوربيون في طريق تنفيذ "وصيّة الملك لويس"؛ فعلى إثر ذلك بدأت حركة جادة من الرهبان لتعلّم اللغات الشرقية وخاصة العربية، وشرعوا في إنشاء أقسام خاصّة بالدراسات العربية والإسلامية في المعاهد والجامعات الأوربية؛ وهكذا تحوّلت المعركة من ميدان السلاح إلى ميدان الفكر والعلوم[1].

فأنتجت بذلك الحروب الصليبية إنتاجاً فكرياً هو "الاستشراق"؛ إذ نَفَر قوم من الغربيين يدفعهم التعصب الصليبِي إلى دراسة اللغة العربية والتعرف أكثر على العالم الإسلامي[2].

ولما كان المحركون للحروب الصليبية من رجال الكهنوت الأوربيين، وكانت العلوم العليا منحصرة في الكنيسة لديهم يومئذ، كان أوائل المتوجهين للدراسات الشرقية من هؤلاء الرجال[3].

لذا نجد المستشرق الألماني "يوهان فوك" يربط بين الحروب الصّليبية وبين أوّل ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية في أوربا، فيذكر أنّه: في سنة (1143م)، وهي السّنة التي رُدّ فيها الصليبيون على أعقابهم، ظهرت أوّل ترجمة لاتينيّة للقرآن في السنة نفسها على يد الأب "بطرس المحترم"، الذي أقلّته رحلة عمل إلى الأندلس؛ فخرج من هذه الرحلة بقناعة مفادها: أنّه لا سبيل إلى مكافحة دين الإسلام بقوّة السّلاح، وإنّما بقوّة الكلمة، وروح المنطق الحكيم؛ لكنّ تحقيق هذا المطلب يَشترط المعرفة المتعمّقة برأي الخصم أوّلاً، فوضع خطّة للعمل على ترجمة القرآن إلى اللاتينيّة[4].

[3]- مرحلة عناية الجامعات والمعاهد بالدراسات الاستشراقية: ثم وصلت الدراسات الشّرقية والعربية في أوربا إلى مستوى أرقى من التطوّر، وعرفت أكبر توسّع لَها؛ بعد أن أمر بابا الفاتيكان الخامس في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي بإنشاء كراسي للغات العربية والعبرية والكلدانية في عدد من الجامعات الرئيسية في أوربا؛ والتي منها جامعات: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وجامعة

---

[1]- ينظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه -محمد شريف، 19-20. وظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 66-67.

[2]- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، 18.

[3]- أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 123.

[4]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 17.

الفاتيكان، مع تنصيب أساتذة لِهذه اللغات، وتكليفهم بترجمة نصوص عربية وعبرية وكلدانية للرّد على منتقدي الدين المسيحي[1].

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية، وترجموا القرآن، وبعض الكتب العربية العلمية والأدبية[2].

فكان لإنشاء المعاهد المتخصّصة في الدراسات العربية في أوربا أثر بالغ في بداية العناية الخاصّة بدراسة وجمع التراث العربي والإسلامي، وكذا ترجمة المؤلفات العربية في شتّى العلوم[3].

ثمّ اتسع النشاط الاستشراقي أكثر في القرن الثامن عشر، فأُسّست للاستشراق معاهد خاصة، وتألّفت جمعيات للتعاون في الأعمال المتعلقة بالدراسات الشرقية، كنشر بعض المخطوطات باللغة العربية، ووضع الفهارس الشاملة لبعض الكتب الإسلامية ونحو ذلك، ودخلت الدراسات الإسلامية في الجامعات الكبرى، وأخذ فريق من المستشرقين يؤلّف في العلوم الإسلامية[4].

[4]– مرحلة التنظيم الفعلي: قدّم اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر دفعة جديدة للدراسات الاستشراقية، ففي سنة (1586م) أصبح من السهل طباعة الكتب بالأحرف العربية في أوربا، وأُنشئت مطابع لطبع عدد من الكتب التي كانت تدرَّس في المدارس والجامعات الأوربية، وقد تَمّ حينذاك طباعة كتب عربية مختلفة من بينها: مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة، بالإضافة إلى كتب أخرى في قواعد اللغة والجغرافيا والرياضيات وغيرها[5].

وفي القرن السابع عشر: شرع المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية، كما عُمّم إنشاء كراسي تدريس اللغة العربية في كبرى الجامعات والمعاهد الأوربية آنذاك[6].

وبمرور الوقت ازدادت هذه الحركة تنظيماً واتّساعاً، وشعر العديد من روادها بضرورة وجود رابط يجمع أعضاء هذه الحركة، ويعطي لهم الفرصة للتلاقي والتشاور، وقد تم ذلك عندما عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس سنة (1873م)، ثم تبعه الكثير من هذه المؤتمرات التي عُقدت ليتدارس المستشرقون فيها خطط عملهم، ولينظّموا جهودهم، بغية الوصول إلى أهدافهم المنشودة[7].

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1/115-116.

[2]– الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، 18.

[3]– ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 67.

[4]– أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه ومحمد شريف، 21.

[5]– ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 62-63. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 31. وتراث الإسلام، (مقال بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية)، مكسيم رودنسون، 52.

[6]– ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 31.

[7]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 3/1101-1103. وظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، 69.

[5]– استفادة اليهود من الحركة الاستشراقية: استطاع اليهود أن يكيّفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشراقية، ذلك أنّهم دخلوا الميدان بوصفهم الأوربي، لا بوصفهم اليهودي[1].

فقد رأى اليهود في الاستشراق باباً هامًّا من أبواب التّسلل إلى البلاد التي يحلمون بالسيطرة عليها، فتخصّص فريق منهم في الدراسات الشرقية، وتابعوا المسيرة ضمن الخطط اليهودية، حتى احتلّ عدد وفير من اليهود كراسي التّدريس الشرقية في الجامعات الكبرى[2].

وعلى سبيل المثال: استطاع اليهودي المجري "جولد زيهر" في عصره أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات في أوربا بلا منازع، ولا تزال كتبه حتى اليوم تَحظى بالتقدير الكبير والاحترام الفائق من كلّ فئات المستشرقين[3].

[6]– مرحلة الاستعمار: الواقع التاريخي للاستشراق يشهد أنّ حركته الضخمة لم تنشأ أصلا لِخدمة الفكر العربي، أو استنقاذ الشرق والإسلام من الضياع، وإنّما بدأت أوّل ما بدأت في رعاية الكنيسة، وكان الرهبان والقساوسة هم جنودها الأولون، ثُمّ تلقّف الاستعمار هذه الحركة فكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها، وكانت قناصلهم في بلدان الشرق عمالها[4].

فما إنْ نَبتت نابتة الفكر الاستعماري في دول أوربا بعد نهضتها، واحتاج الطامعون باستعمار بلاد المسلمين إلى زادٍ من الدراسات الشرقية، حتّى وجَّهت الدوائر الاستعمارية أعداداً من المتعلمين في بلادها إلى التفرغ للدراسات الشرقية من جوانب متعددة: لغوية، ودينية، واجتماعية، وتاريخية، وسياسية، وغيرها[5]، من أجل خدمة الأغراض التوسّعية للدول الاستعمارية؛ فظهر بذلك جانب من الاتّجاه الحقيقي والمنظّم للاستشراق نحو العالم الشرقي، وبرزت بعض أهدافه المخفيّة.

وفي القرن الثامن عشر (18) وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب باستعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته، إذا بِعَددٍ من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية، ويُغِيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية، فيشتروها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم،

---

[1]– ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 52.

[2]– أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 123.

[3]– ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 52.

[4]– ينظر: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، 20.

[5]– ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، 124.

وإذا بأعدادٍ هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتـــقل إلى مكتبات أوربا، حتّى بلغت في أوائل القرن التاسع عشر: مائتين وخمسين ألف مجلّد[1].

[7]- **مرحلة الاستشراق المعاصر:** عمد المستشرقون في أواخر القرن الثامن عشر (18) الميلادي إلى تغيير أساليبهم القديمة، وأرادوا أن يظهروا بمظهر جديد؛ وهو ما زعموه من تحرير الاستشراق مـــن الأغراض التبشيرية، والاتّجاه به إلى وجهة البحث العلمي البحت[2].

لكنّ النظرة المتفحّصة لِمؤلفات المستشرقين في العصر الحديث -وبالخصوص كتاباتهم عن الإسلام- تشير إلى أنّ بعض هذه الكتابات قد تغيرت شكلاً و لم تتغير مضموناً، بينما نجد البعض الآخر منها ظلّ على نفس النهج السابق الذي سلكه مستشرقو المراحل المتقدّمة[3].

فبالرغم من محاولة التغيير في الأسلوب وطريقة الطرح ومعالجة القضايا؛ فإنّ «المستشرقين المعاصرين لا يستطيعون النظر إلى أقرانهم القدماء إلا نظرتهم إلى الرواد في هذا المجال، وإن لم يقبلوا جميع ما جاء به معظم المستشرقين القدماء»[4].

كما أنّ المنهج الاستشراقي في الكتابة لا يزال حتى يومنا هذا يسير على معالم المنهج الذي بدأ به، ولا يزال الارتباط بين المستشرقين والدوائر الاستعمارية والكنيسية قائماً حتى الآن، وكذلك الدعم مستمر من الحكومات الغربية، والذي استطاع معه المستشرقون تطوير أساليبهم ووسائلهم[5].

لِهذا فإنّ الاستشراق المعاصر بحاجة إلى أن يُثبت جِدّيّته في نظرته العلمية إلى علوم المسلمين[6]، إذ لا يزال الاستشراق المعاصر مستمسكا بالاستشراق القديم، ولا يستطيع الفكاك من رِبقته، وإن كانت هناك محاولات جادّة من بعض المستشرقين المعاصرين لتحسين صورة الاستشراق لدى العلماء والباحثين المسلمين، من خلال تأكيدهم على نظرة جديدة للإسلام، بعيداً عن التأثيرات الاستشراقية القديمة التي اتسمت بالهجوم المباشر على الإسلام وأصوله.

---

[1]- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، 18-19.

[2]- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه ومحمد شريف، 21.

[3]- ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 71.

[4]- الاستشراق والدراسات الإسلامية، علي بن إبراهيم النملة، 133.

[5]- ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، 73-74.

[6]- ينظر: الاستشراق والدراسات الإسلامية، 135.

المطلب الثالث : أهداف الاستشراق وأغراضه

تنوعت دوافع الاستشراق وأهدافه منذ نشأته وعبر مراحل تطوره، وفقاً لِمقتضيات كلّ عصر، وتبعاً لِمتطلّبات كل دولة؛ فقد «سارت حركة الاستشراق جنباً إلى جنب مع التحوّلات والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور التي عاش فيها المستشرقون»[1].

هذا ما جعل النشاط الاستشراقي متنوعاً بحسب الدوافع والأهداف التي سعى إليها عبر مراحله التاريخية المختلفة، «علماً بأنه قد يجتمع أكثر من دافع وهدف وراء نشاط استشراقي واحد، وفي زمن واحد وفي بلد واحد»[2]، ويمكن إبراز أهمّ أهداف الحركة الاستشراقيّة ودوافعها فيما يلي:

الفرع الأول : الأهداف الدينية والتبشيرية

قام الاستشراق في بداية نشأته على أكتاف رجال الدين النصارى، كما يَتبيّن هذا من استقراء تاريخ الحركة الاستشراقية، حيث كانت طلائع المستشرقين في القرون الوسطى من القساوسة والرهبان، الذين توجّهوا إلى هذا النوع من الدراسات بدافعٍ من الحرص على الانتصار للنصرانية، والرغبة في تنصير المسلمين الذين اكتسحوا أراضيهم؛ أضف إلى ذلك أنّ رجال الكنيسة كانوا يشكّلون الطبقة المتعلمة في أوربا إبان القرون الوسطى، وكانوا يُهَيْمِنون على الجامعات والمراكز العلمية[3].

ففي ذلك الوقت خشي النصارى في الغرب من وصول الصورة الحقيقية للإسلام إلى جماهيرهم النصرانية؛ إذ أنّه لو أتيح لغير المسلمين التّعرف عليه ودراسته في جوّ من الاتّزان والإنصاف؛ لَما تردّد كثير منهم في الإيمان والرضا به ديناً[4].

لذا فإنّ الخطر الأكبر في نظر المبشرين والمستشرقين يكمن في وصول مفاهيم الإسلام الصحيحة إلى العالم الغربي[5]، فكان لزاما عليهم أن يعملوا جاهدين على وضع حاجز يحول دون وصول الصورة الصحيحة المشرقة للإسلام وتعاليمه لتلك الشعوب الغربية، وقام على هذا العمل مؤسّسات استشراقية كبرى في شتّى أنحاء العالم الغربي، وكان ذلك من صميمَ أهداف المستشرقين وأسمى غاياتهم.

---

[1]- الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 23.

[2]- المصدر نفسه، 23-24.

[3]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1/113-114. وأجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 127.

[4]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 32.

[5]- ينظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه ومحمد شريف، 20.

من منطلق هذا الدافع الديني ركّز الاستشراق عمله على تحقيق عدّة أهداف، أهمّها:

(أ)- وقف وصدّ المدّ الإسلامي تجاه أوربا.

(ب)- تنصير المسلمين والتبشير للنصرانية.

(ج)- تشكيك المسلمين في دينهم وهزّ معتقداتهم[1].

وقد كان من أبرز الدعاة المتحمسين في القرون الوسطى الذين طالبوا بضرورة تعلم لغة المسلمين لغرض تنصيرهم "روجر بيكون"، حيث كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع العالم المسيحي على حساب العالم الإسلامي؛ ولبلوغ هذا الغرض لا بدّ من توفر شروط ثلاثة، هي:

(أ)- معرفة اللغات الضرورية لذلك.

(ب)- دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من البعض الآخر.

(ج)- دراسة الحجج المضادّة حتّى يمكن دحضها[2].

شارك "بيكون" في طموحاته مستشرقٌ آخر هو "ريموند لول"، وأَقرَّ مجمع فينا الكنسي أفكار "بيكون" و"لول" سنة (1312م)؛ وتَمّت الموافقة على تعليم اللغة العربية في الجامعات الأوربية، وإنشاء كَراسٍ لتدريسها في أماكن متعددة من أوربا، وكان الهدف من هذه الجهود هو التنصير والتبشير للمسيحية، وامتلاك القدرة على مواجهة الزحف الإسلامي؛ وبذلك تزول العقبة الكبرى التي تحول دون تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية[3].

وقد اعترف المستشرق الألماني "يوهان فوك" بالدافع التبشيري للاستشراق صراحة، حيث يقول: «ولقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربيّة»[4]، يعني: في بداية نشأة الاستشراق الأولى.

كما نجد المستشرق "مكسيم رودنسون" يربط بين التبشير وبين ما يسمّيه مولد الاستشراق[5].

بيد أنّ الهدف الديني التبشيريّ لم يقتصر على البدايات الأولى للاستشراق فحسب، بل صاحب مسيرته بعد ذلك أيضا، حيث نجد المستشرق الألماني "رودي بارت" يُقرّر بوضوح هدف الاستشراق خلال نشأته ثم مروراً بمراحل تطوّره؛ فيقول: «كان الهدف من هذه الجهود الاستشراقية في ذلك

---

[1]- ينظر: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 24.

[2]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 28. والاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، الشرقاوي، 14.

[3]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 32. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 29.

[4]- تاريخ حركة الاستشراق، 16.

[5]- ينظر: تراث الإسلام، بإشراف المستشرق شاخت، (مقال بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية)، 52.

العصر، وفي القرون التالية هو التبشير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي»[1].

ومع هذا التلاحم بين الجهد التبشيري والاستشراقي، فإنّ الاستشراق امتاز عن التبشير بكونه أخذ صورة البحث، وادّعى لبحثه الطابع العلمي الأكاديمي[2]، واعتمد أساليب جديدة غزت الساحات المعرفية والثقافية والإعلامية، بحيث يكون له الأثر البالغ في التوجيه الفكري والثقافي لدى الشعوب الغربية وحتّى الشرقية.

ومن النماذج العمليّة التي توضّح الأغراض التبشيرية للمستشرقين في العالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين، وبلسان المستشرقين أنفسهم؛ ما ورد في البحث المستفيض الذي نشرته "مجلة العالم الإسلامي"[3] الفرنسية الاستشراقية التبشيرية سنة (1912م) تحت عنوان "الغارة على العالم الإسلامي": حيث كشف رئيس تحرير المجلة يومئذ المستشرق "لو شاتليه -Le Chatelier"[4] الأهدافَ التي يلتقي عليها المستشرقون والمبشرون في مقدمته للبحث المشار إليه، فقال: «قلنا في سنة (1910م) عندما كنّا نَخوض على صفحات هذه المجلة في موضوع السياسة الإسلامية: ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق **مبنـــياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية**... ويَجدر بنا لتحقيق هذا بالفعل أن **لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان المبشرون** وغيرهم؛ لأن لهذه المشروعات أغراضاً اختصاصية... فتبقى مجهوداتُهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نحن نتوخّاه؛ وهو غرض **لا يُمكن الوصول إليه إلاّ بالتعليم، الذي يكون تَحت الجامعات الفرنساويّة**... وكنَّا منذ أَمَد بعيد نودّ أن نخوض في ذكر تفاصيل أعمال هذه الإرساليّات التي اشتهرت بِخطّتها، ووفرة الوسائل التي أعدَّتْها، وتوصّلت بها لِمقاومة دين الإسلام... ومن هنا يَتبيّن لنا أنّ إرساليّات التبشير الدينيّة التي لديها أموال جسيمة، وتُدار أعمالها بتدبير وحكمة؛ تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية، من حيث أنّها تَبثّ الأفكار

---

[1]- الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، محمد الشرقاوي، 11. نقلا عن: الدراسات العربية والإسلاميّة في الجامعات الألمانية، 9.

[2]- ينظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، 2.

[3]- **مجلة العالم الإسلامي**: صدرت بداية من سنة (1907م)؛ وهي أوّل مجلّة استشراقية تتخصّص في الدراسات الإســـلامية، كانـــت تصدرها جمعية اسمها "الإرسالية العالمية المغربية" مؤلّفة من عدد من المستشرقين الذين درسوا الكتب الإسلامية والعادات الشرقية واللغة العربية، وكان يشرف على المجلّة المستشرق الفرنسي "لو شاتليه - Le Chatelier"، واستمرّ إصدارها حتى سنة (1926م)، ثم بعـــد ذلك استأنفت المجلة عملها من خلال "المجلة الإسلامية". ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 265.

[4]- لُو شاتليه "Le Chatelier" (1855-1929م): مستشرق فرنسي، هو أوّل من أشرف على "مجلة العالم الإسلامي"، اهتم بدراسة الإسلام في إفريقيا الغربية والمغرب، واشتغل أستاذا لعلم الاجتماع في معهد فرنسا، من مؤلفاته: "الإسلام في إفريقيا الغربية". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 227/1. موسوعة المستشرقين، بدوي، 517.

الأوربية... إنّ لِنتيجة إرساليّات التبشير في البلاد الإسلاميّة مزيَّتين: مزيّة تشيِيد، ومزيّة هدم، أو بالحريّ مزيّتَي: تحليل وتركيب»[1].

استخدم المستشرقون وسائل كثيرة لتحقيق هذا الهدف الدينِيّ، من بينها:

أ)– تشويه الإسلام والتشكيك في أصوله، وتوجيه المطاعن له.

ب)– تشويه التاريخ الإسلامي، وتشويه حضارة المسلمين، وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث.

ج)– نَبْش الحضارات القديمة وإحياء معارفها، وبعث الطوائف الضّالة والحركات الهدامة القديمة، ليتسنى لهم بذلك تشتيت شمل الأمة الإسلامية وتفكيك رابطة الدين الإسلامي، كإحياء: الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقية، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان[2].

وجدير بالذكر هنا موقف المستشرقين اليهود؛ الذين أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية تتصل بخدمة الصهيونية، وظل اليهود طوال أدوار التاريخ المتعاقبة يقذفون بالأفكار المعادية للإسلام، حتّى عصرنا الحاضر الذي شهد نشاطاً يهودياً عارماً في هذا المجال، فقاموا على كل صعيد، وركبوا كل سبيل، وجنّدوا كل شيء من أجل نشر الفكر المعادي للإسلام والمسلمين[3].

إنّ مراجعة قائمة أسماء أعلام المستشرقين قديما وحديثا[4] تجعل من السهل إدراك الرؤية الكنسية للاستشراق وأهمّية الديني الدافع له، إذ أنّ هؤلاء الأعلام هم في الأساس من آباء الكنيسة وتلامذتِهم؛ فأدّى هذا إلى أن تظلّ الرؤية الاستشراقية ثابتة من حيث الكيف رغم تطوّرها من الكمّ، ورغم أنّ الاستشراق بدأ يتخفّف نوعا ما من ضغط الكنيسة في القرن التاسع عشر، إلاّ أنّ صورة الإسلام المشوّهة بفعل الاستشراق التبشيري لم تتغيّر في أذهان الغربيين حتّى الآن، فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى أن ينسوا أنّهم يدرسون دينا ينكر عقائد أساسية في النصرانيّة، ويهاجمها ويفنّدها، كما أنّه من الصعب عليهم كذلك أن ينسوا أنّ الدّين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحلّ محلّها، لذلك فإنّ فَهْم الاستشراق لا يتمّ إلاّ من خلال فهم جذوره الكنسيّة وبيئة المستشرق وإسقاطاتِها على وَعيِه وفكره[5].

---

[1]– الغارة على العالم الإسلامي، لُو شاتليه، 13-17. ترجم هذا البحث كلّ من: مساعد اليافعي ومحبّ الدين الخطيب، وهو كتاب مهمّ يعرض الأهداف التبشيرية والتنصيرية للاستشراق بلسان المستشرقين أنفسهم.

[2]– ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 128.

[3]– ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 38.

[4]– تراجع أمثلة عن ذلك في: المستشرقون، العقيقي، 3/1044-1058.

[5]– ينظر: الاستشراق في السيرة، عبد الله النعيم، 21.

الفرع الثاني : الأهداف الاستعمارية

منذ الفشل الذي مُنيت به الدول الغربية في الحروب الصليبية، والعالم الأوربي متحفّز مترقّب يعيد حساباته، ويخطّط لكيفية الثأر من العالم الإسلامي والغزو من جديد؛ ولَمّا لاحت للغرب الفرصة الذّهبية في العصر الحديث، انقضَّ الغرب الصليبِي على الشرق الإسلامي المترنّح، بفعل عوامل التخلّف والانحطاط السياسي والثقافي والعسكري والاقتصادي التي حاقَتْ به[1].

واكب تلك الحركة الاستعمارية معرفة واسعة بالعالم الشرقيّ عقديًّا وجغرافيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، ودراسة عميقة ووافية بنقاط الضعف والقوة فيه، أتاحتها مراكز الدراسات الشرقية في أوربا التي صرفت جهودا كبيرة وأموالا طائلة طيلة قرون عديدة[2]، ترقّبا لِهذا اليوم الذي يتمكّن فيه الغرب الصليبِي من إخضاع العالم الإسلامي الذي طالما شكّل خطراً كبيراً على الكيان الأوربي.

فظهرت بذلك حاجة الدول الغربية في هذه الفترة بالذات إلى معرفة الشرق الإسلامي من الناحية الجغرافية والاجتماعية، للتعرف على موارد الثروة والتركيبات الاجتماعية فيه.

عندئذ رأى المستشرقون المبشرون في بسط النفوذ الاستعماري والاقتصادي الأوربي على بلاد المسلمين في الشرق، فرصة كبرى لتحقيق أهدافهم التبشيرية[3]؛ ولذلك قدّموا لحكوماتهم خلاصة دراساتهم عن الشرق، وما يحتاجونه من معرفة أحواله ومداخل السيطرة عليه.

ومن الأمثلة على تسخير الدول الغربية للجهاز الاستشراقي في خدمة الأغراض الاستعمارية لتلك الدول في البلدان المحتلّة؛ ما أسهم به الاستشراق الفرنسيّ من أعمال كان لها أثر هامّ في تثبيت جذور الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، وما قدّمه مِن عون وسَند منذ البدايات الأولى التي وطئت أقدام هذا الاحتلال أرضَ الجزائر، فبرزت عدّة أسماء لمستشرقين كانت لهم أيَادٍ فاعلة في خدمة السّلطة الاستعماريّة آنذاك، من بينهم: المستشرق "برينييه -Bresnier"[4] الذي يُعتبر مؤسّس مدرسة الاستشراق الفرنسي الناشطة في الجزائر، وغيره كثير[5].

---

[1]- ينظر: الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، الشرقاوي، 20.

[2]- الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء، 30.

[3]- ينظر: المستشرقون ومصادر التشريع، عجيل النشمي، 9.

[4]- **برينييه** لويس جاك "Bresnier" (1814- 1869م): مستشرق فرنسي، قصد الجزائر سنة (1836م) وأقام يعلّم العربية فيها 33 سنة، وبِها توفي. لـه: "شرح أصول العربية" صرف ونحو وعروض، ومختارات عربية مختلفة نشرها مع ترجمتها إلى الفرنسية.
ينظر: الأعلام، الزركلي، 245/5. موسوعة المستشرقين، بدوي، 97.

[5]- للتفصيل في ذلك ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 17/6-19، وما بعدها.

فلما استفاد الاستعمار التوسعي من الاستشراق الفوائد الجمّة؛ عمل على تغذيته وتدعيمه ورفع مكانته، ونَشأ رباط رسمي وثيق بين هاتين المؤسستين: مؤسسة الاستعمار، ومؤسسة الاستشراق؛ ويقرّر المستشرق الألماني "استفان ويلد" هذه الحقيقة ويدعو المستشرقين للإقرار بها، فيقول: «والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مُؤلِم، لا بد أن يَعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[1].

وبعد أن تمركزت قوة المستعْمِرين في العالم الإسلامي، وتَمّ لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية على أراضيه، توجّهوا نحو الغزو الفكري لعقول أبناء الأمة ونفوسها، وهنا دخل النشاط الاستشراقي بقوّة من جديد مسانداً للاستعمار وموجّها له، فأعدّت الدوائر الاستشراقية: الخطّة التي تقوم على بثّ الضعف والوهن والارتباك في تفكير المسلمين المستعْمَرين؛ وقتل روح المقاومة والتمسك بدينهم في نفوسهم[2]، وكان من وسائلهم في ذلك:

أ)– التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث، وما عندهم من عقيدة وشريعة وقِـيَم؛ وإظهار التفوق العلمي والتقني للغرب، في مقابل تَخلّف المسلمين في ذلك، حتى يفقدوا ثقتهم بثقافتهم، ويرتَموا في أحضان الغرب يأخذون منه المقاييس الأخلاقية، والمبادئ والعقائد، ويتم بذلك للغرب إخضاع المسلمين لحضارته وثقافته[3].

ب)– السيطرة على بلدان العالم الإسلامي وشعوبها، طمعاً في استغلال أرضها وثرواتها وخيراتها لفائدة الغرب الأوربي[4].

كانت العلاقة إذن عميقة بين المؤسسة الاستعمارية والمؤسسة الاستشراقية؛ بحيث لعب الاستشراق دَورَ الدليل للاستعمار في ربوع العالم الإسلامي، بغرض فرض السيطرة الغربية عليه، وبعد أن تَمّت هذه السيطرة اتّجه إلى خنق روح المقاومة في نفوس المسلمين والعمل على تشكيكهم في عقيدتهم وتراثهم، وإشعارهم بالتّدني والانحطاط والافتقار؛ حتى يتمكن الاستعمار من طمس الهوية الذاتية الإسلامية، وإخضاع المسلمين نهائياً وكليًّا للثقافة والحضارة الغربية[5].

---

[1]– الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 47. والاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، الشرقاوي، 22.

[2]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، 22. وظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 81-82.

[3]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 22.

[4]– ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 128.

[5]– الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، 29. وينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 22.

ولعل من أخطر الوسائل الاستعمارية التي اعتمادها المستشرقون وأتباعهم للسيطرة على العالم الإسلامي؛ هي محاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، وإحدى المقومات الأساسية للوحدة العربية، ولا أدلّ على ذلك من محاولات الفرنسة العديدة والمتكرّرة التي بذلتها السلطات الاستعمارية الفرنسية في: الجزائر وتونس والمغرب[1]؛ غير أنّ كلّ تلك المحاولات الجبارة لطمس العربية في تلك البلدان باءت بالفشل والخيبة.

الفرع الثالث : الأهداف الاقتصادية

برزت الأهداف الاقتصادية للاستشراق بصورة أوضح خلال العصر الحديث؛ حيث كان الغربيّون مهتمّين بتوسيع تجارتهم، والحصول على المواد الأولية والثروات الطبيعيّة من بلاد الشرق لتدعيم صناعاتهم التي كانت تعرف ازدهاراً متزايدا، من أجل ذلك كانت الحاجة ماسّة للسّفر إلى البلاد العربية والإسلامية، والتعرّف عليها ودراسة جغرافيّتها الطبيعيّة والزراعيّة وغيرها من الموارد الهامة التي تعود على تجارتهم وصناعتهم بالفوائد والأرباح الكثيرة[2].

فمن أهمّ الدوافع التي حرَّضت كثيرا من الغربيّـــين على الدراسات الاستشراقيّة، رغبتهم في غزو البلاد الإسلاميّة غزوا اقتصاديّا، يحقّق السيطرة على الأسواق التجارية، والمؤسسات المالية المختلفة، والاستيلاء على الثروات والموارد الطبيعية، وتحصيلها بأبْخس الأثمان[3].

ولهذا وجّهت المؤسسات الاقتصادية الغربية، من يَهتمّون بالدراسات الاستشراقية الخاصة بالجانب الاقتصادي، ليكونوا وسائطهم ورسلهم ومستشاريهم في مهماتهم ومطالبهم الاقتصادية، وكانت تزوّد الباحثين في هذا المجال بِما يحتاجون إليه من مال، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية[4] لأداء مهامهم على أكمل وجه.

الفرع الرابع : الأهداف السياسية

بعد كفاح ونضال متواصل استطاعت بعض الأقطار العربية والإسلامية التخلّص من الاستعمار الغربي ونيل استقلالها، وعند ذلك أُقيمت علاقات دبلوماسية بين البلاد الغربية والإسلامية، وظهرت سفارات للدول الغربية في تلك البلدان المستعمرة سابقاً؛ واقتضى التفكير الاستعماري الغربي أن يتحمّل العاملون في تلك السفارات والقنصليات مهمّة الاتّصال برجال الفكر والصحافة والسياسة، والامتزاج بِهم للتّعرف على أفكارهم واتجاهاتهم السياسية، ولِبثّ الاتّجاهات الفكرية والسياسية

---

[1]- ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 82.

[2]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 77. والاستشراق الإسرائيلي، محمد جلاء، 29.

[3]- ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، 130.

[4]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 77-78. وأجنحة المكر الثلاثة، 130.

المختلفة بينهم، حتّى يكونوا أداة منفذّة لمخطّطات الاستعمار الغربي وأساليبه؛ وكثيراً ما كان السفراء الغربيون يـــبثّون الدسائس للتفرقة بين الدول العربية والإسلامية بِحجّة توجيه النصح وإسداء المعونة[1].

ويذكر "مالك بن نبي": أنّ أوربا في المرحلة المعاصرة تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي؛ لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضـــاع الراهنة في البلاد الإسلامية من ناحية، ولِتسيّر هذه الأوضاع طبق ما تقـــتضيه سياساتها السّـــاعية إلى السيطرة على هذه الشعوب وإخضاعها لسياستها من ناحية أخرى[2].

ولهذا فإنّ الدول الغربية في حاجة دائمة ومستمرة إلى مشورة المستشرقين للاسترشاد بآرائهم ونصحهم، بصفتهم المؤسسة التي لَها الاطلاع الواسع على العالم الشرقي، خاصة عند رسم سياستها الخارجية في بلاد الشرق الإسلامي، كما أنّها في حاجة إلى مَن يَرصد لها في استمرار واقع تلك البلاد وتداعياته[3].

الفرع الخامس : الأهداف العلمية

يعدّ العالم العربي والإسلامي كنزا حضاريًّا لا ينفد، باعتبار ما قامت فيه من حضارات راقية، ازدهرت في رحابِها ثقافات ولغات وفلسفات متعدّدة، وأرسيت فيها علوم وفنون شامخة وسامية؛ هذه الجوانب المشرقة وغيرها في عالم الشرق اِجتذبَت المثقفين الأوربيين على مرّ العصور لدراستها والوقوف على حلقاتها، وسبر أغوارها، من أجل الاستفادة من معارفها، وإرواءً لرغبة الاطلاع واستكشاف ما هو جديد؛ «وما كان ذلك ليتمّ دون حركة ناهضة تُدرَس من خلالها لغات الشرق الساحر، وآدابه وحضاراته، والحضارة الإسلامية على رأسها، حيث عاصر الدارسون والمهتمّون هذه الحضارة، وشاهدوا بأنفسهم روعتها... ومن ثَمّ فاق اهتمام المستشرقين بالشرق الإسلامي العربي اهتمامهم بأيّ ظاهرة شرقية أخرى»[4].

غير أنّ فئة قليلة مِن المستشرقين أقبلوا على الدراسات الاستشراقية بدافع علميّ محض؛ بغية الاستفادة من تراث هذه الأمّة، وحبًّا في الاطلاع على حضارات الشرق، وأديانه ولغاته وثقافاته؛

---

[1]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، 24. وظاهرة انتـــشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد الزيادي، 85.

[2]- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، 9.

[3]- الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 70.

[4]- الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 32.

وهؤلاء أقل خطأً من غيرهم في فهم الإسلام، مقارنة بجمهرة المستشرقين الذين أقبلوا على هذه الدراسات بدوافع دينية أو استعمارية أو سياسية وغيرها[1].

وهذا الهدف يقوم على أحَد الدافعين الآتيين:

أ)– دافع علمي يقصد به دراسة علوم الشرق الإسلامي في التخصصات العلمية والتجريبية البحتة، ونقلها إلى الغرب، لتنهض أوربا وتتقدم نحو الرّقي الحضاري الذي سبقها به المسلمون بمسافات شاسعة خلال العصور الوسطى؛ لذلك انكبّ الغربيون على علوم الشرق الإسلامي ينهلون من معينها، ويجمعون المؤلفات الإسلامية لينقلوها إلى اللغات الأوربية[2].

ب)– دافع علميّ من بعض المستشرقين، القصد منه البحث العلمي الخالص، ودراسة الإسلام وعلومه بتجرد لمعرفة الحقائق التي خَفِيَت عن الغرب الأوربي[3].

لكنّ هؤلاء قلّما يوجدون إلاّ حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يُمَكّنهم من الانصراف إلى الدراسات الاستشراقية بأمانة وموضوعية؛ لأنّ أبحاثهم لا تلقى رواجاً عند رجال الدين أو رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين الغربيين؛ فلَما كان هذا المسلك الذي يقوم على البحث العلمي الحيادي المتجرد لا يدرّ على مرتاديه مكاسب ومغانم؛ كان من الطبيعي أن يندر وجوده في أوساط المستشرقين[4].

وكثيراً ما يتعرض هؤلاء الباحثون لِمضايقات كثيرة، ويلقون عنتاً شديدا، ويُتّهمون من سائر المستشرقين - ذوي الدوافع الدينية والاستعمارية والسياسية - بالانحراف عن المنهج العلمي في نظرهم، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في مُجاملة المسلمين والتقرب إليهم[5].

من النماذج على ذلك: المستشرق الألماني "يوهان رايسكه -Reiske"[6]: الذي كان واحدا من علماء العربية في عصره، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا؛ لكنّ معاصريه تجاهلوه، وحاربه رجال الكنيسة واتّهموه بالزندقة، ولعلّ ذلك يرجع إلى موقفه الإيجابي من الإسلام؛ فقد امتدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية، ورفض وصف النبي ﷺ بالكذب

---

[1]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، 24.

[2]– الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 38-39.

[3]– أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، 132.

[4]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 25. وأجنحة المكر الثلاثة، 130.

[5]– الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 32-33.

[6]– **رايسكه يوهان** "J.Reiske" (1716- 1774م): مستشرق ألماني أتقن العربية في سنّ مبكرة، وكان مولعا بِها، واستكمل دراسته دراسته في ليدن، وعين فيها أستاذا للطب والعربية، من أعماله: نشر بالعربية "تاريخ أبي الفداء" مع ترجمة إلى اللاتينية، ونقل إلى اللاتينية "مقامات الحريري" وغيرها. ينظر: الأعلام، الزركلي، 265/8. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 298.

والتضليل، أو وصف دينه بأنّه خرافات مضحكة - كما كان سائدا آنذاك -، وفوق ذلك عبّر عن آرائه بأعظم قدر من الصراحة، غير مكترث بالعواقب المترتبة عليها، فجرّ عليه ذلك ويلات كثيرة، وعاش طول حياته في ضائقة مالية، ومات بائسا وهو في الثامنة والخمسين من عمره[1].

والأمثـــلة على ذلك كثيرة[2].

لكن ينبغي ملاحظة أنّ هؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يَسلمون دائما من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إمّا لِجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإمّا لِجهلهم بالأجواء التاريخية الإسلامية على حقيقتها، فيُحِبُّون أنْ يتصوَّرُوها كما يتصوّرون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرِّق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها[3].

«ومن هؤلاء من أدّى به البحث العلمي النّـــزيه إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه، كما فعل المستشـــرق الفرنسي "دينيه"[4] الذي عاش في الجزائر فأُعجب بالإسلام وأعلن إسلامه، وتسمى باسم "ناصر الدين دينيه"»[5].

ورغم أنّ بعض المستشرقين نادوا بالانسلاخ من الخلفيات الدينية والاستعمارية، فإنّ هذه الدعوات تبقى قائمة على المستوى النظري فحسب؛ حيث نجد واقع البحث العلمي الاستشراقي في غالبه عندما يتناول دراسة الإسلام خاصّة، والشرق عامة، تحكمه تلك النزعة القديمـــة القائمـــة علـــى الـــدوافع والأهداف الدينية، أو على الأقل تبقى كخلفيات فكرية مؤثرة.

ذلك أنّ الموضوعيّة لا يمكن أن تقوم لَها قائمة في ظلّ العداء والحقد؛ لأنّ التفكير العدائي الموروث من الحروب الصّليبيّة القديمة مستحوذ على عاطفة المستشرقين وطريقة تفكيرهم[6]، وفي هذا الصّدد يُبيّن

---

[1]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 36-37. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 300.

[2]- تراجع في: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 32-33. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 33-38.

[3]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 32.

[4]- **ناصر الدين دينيه** "Etienne Dinet" (1861-1929م): إتين دينـــيه، مستشرق فرنسي، تعلّم في فرنسا، وأمضى جانبا مـــن حياته في مدينة (بوسعادة) بالجزائر، وكان يقيم فيها نصف السنة من كل عام، أعلن إسلامه سنة (1927م)، وله مؤلفات بالفرنسية منها: "الشرق في نظر الغرب"، و"محمد رسول الله ﷺ"، ساعده في تأليفه سليمان بن إبراهيم الجزائري، طُبع بالفرنســـية والانجليزيـــة، وترجَمه إلى العربية عبد الحليم محمود. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 228/1. والأعـــلام، الزركلي، 83/1.

[5]- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 33.

[6]- الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، عدنان محمد وزان، 122.

يُبيّن المستشرق النمساوي محمد أسد "ليوبولد فايس"[1] أثرَ عاطفة الحقد والكره المتجذّر في نفوس المستشرقين على كتاباتهم حول الإسلام، فيقول: «لا نجد موقف الأوربي من الإسلام موقف كره في غير مبالاة فحسب - كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات- بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشّديد، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية، فقد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً - فيما يتعلق بهذين المذهبين - بموقف عقلي متّزن ومبني على التفكير، إلا أنها حالَما تتّجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم – على الأكثر – كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحثٌ في البحث العلمي؛ بل على أنه متّهمٌ يقف أمام قُضاتِه... **وليست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام** وللأمور الإسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو أوربا... ويظهر أنّهم يَنْــتَشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة – حقيقية أو خيالية – ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد»[2].

ثُمّ إنّ «ألوان التحامل القديم وإن كانت قد تضاءلت نوعا ما منذ فجر القرن العشرين؛ إلاّ أنّها ما زالت تعيش قويّة، وما زالت فــئة من الباحثين في اللغة العربيّة والإسلام تعمل في الغرب على نشرها وترويجها على نطاق واسع»[3].

---

[1]- **ليوبولد فايس** "L.Weiss" (1900-1992م): مستشرق من أصل نمساوي، وقد أسلم هذا المستشرق وتسمى بـــ"محمد أسد"، وكتب دراسات وافرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، ومن مؤلفاته: "الطريق إلى مكة"، "رسالة القرآن" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 291/2. وإتــمام الأعلام، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، 220.

[2]- الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد (ليوبولد فايس)، ترجمة عمر فروخ، 50-52.

[3]- المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، عبد اللطيف الطيباوي، ترجمة قاسم السامرائي، 25.

المطلب الرابع : مجالات نشاط الاستشراق

تنوّعت مجالات أنشطة الحركة الاستشراقيّة على مستوى عدّة أصعدة وميادين، والتي من أهمّها:

الفرع الأول : التدريس الجامعي

من أبرز مجالات العمل الاستشراقي خاصة في العصر الحديث؛ التدريس على مستوى الجامعات والمعاهد العلمية والكنسيّة؛ إذ قلّما نجد جامعة غربية تخلو من معهد للدراسات الإسلامية والعربية، بل هناك من الجامعات ما يضمّ أكثر من معهد متخصّص في هذه الدراسات، ولكلٍّ معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية والإسلامية[1].

كما تفتح هذه الجامعات والمعاهد أبوابها للدارسين من كلّ مكان، ومنها يتخرّج أيضا بين الحين والحين أعداد لا بأس بهم من العرب المسلمين الذين يعودون إلى بلدانهم لتولّي مهمّة التدريس في بلادهم الأصلية؛ ومن هنا تأتي أهميّة ما يحمله المستشرقون من أفكار وآراء بالنسبة لِما يخلّفونه من آثار في الدارسين على أيديهم[2]، سواء كان التلاميذ من الغربيين أم من الشرقيين.

وقد استخدم المستشرقون الجامعات بشكل خاصّ لنشر أفكارهم وإذاعتها بين الطبقة المثقفة في أوربّا، ثم بعد ذلك في الشرق العربي والإسلامي؛ حيث عمل الاستشراق المعاصر على إنشاء معاهد وجامعات يُشرف عليها في بلدان العالم الإسلاميّ خاصّة، وبلدان الشّرق عامة.

من بينها على سبيل المثال: "الجامعة الأمريكية" في: بيروت ومصر وتركيا، و"الكلّية الفرنسيّة" في لاهور بالهند، وغيرها[3].

وهكذا سقطت هذه الجامعات الغربيّة في بلاد المسلمين تحت الأيدي الخفيّة للاستشراق والتبشير والدوائر الاستعماريّة، وغدت خططها ومناهجها وتوجيهاتها تَخضع بطريق غير مباشر لِما تفرضه وتُمليه هذه الأيدي الخفية، وغدت الكنيسة الغربية تفخر بأنّ العلوم الإسلاميّة والعربية تُدرّس على طريقتها التي تخدم أغراضها في بلاد المسلمين، وقد تأثّر كثير من الذين درسوا في الجامعات الغربية من أبناء المسلمين بدراسات المستشرقين، وانخدعوا بأساليبهم وأخذوا يردّدون شبهاتهم، ويعتبرونها حقائق علميّة مسلّما بها؛ أخذوا يعلّمونها لطلابهم من المسلمين، ويكتبون فيها المؤلفات العديدة، وتعمل الدوائر الاستعمارية على ترويج هذه الكتب، ودعم مؤلفيها، ودفعهم بأيد خفية إلى أعلى مراكز

---

[1]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 63-64. والاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 59.

[2]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 62.

[3]- ينظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، 9-10.

الإدارة والتوجيه داخل بلادهم، للاستفادة منهم في خدمة أغراض التبشير والاستعمار، وفي تهديم الإسلام وتشويه تاريخ المسلمين[1].

كما توسّع نشاط المستشرقين إلى إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية في البلاد العربية والإسلامية؛ يقول الشيخ مصطفى السباعي: «ومن المؤسف أنَّ أشدَّهُم خطراً وعداءً للإسلام كانوا يُستدعون إلى الجامعات العربية والإسلامية في: القاهرة ودمشق وبغداد والرباط ولاهُور... وغيرها ليتحَدَّثُوا عن الإسلام!»[2].

الفرع الثاني : التأليف

اهتمّ المستشرقون بالتأليف قديما وحديثا، لِما له من أثر بالغ في توجيه الفكر، وترويج الثقافات، ونشر العلوم عبر العصور المختلفة، وقد تعدّدت مجالات كتاباتهم في الدراسات العربيّة والإسلاميّة؛ فتناولت دراسة الإسلام من حيث: خصائصه، وتاريخ ظهوره، وانتشاره، وأصالته، ونظامه، وفلسفته، ودوره وأثره، كما بحثوا في القرآن، وفي السنة والسيرة، وفي الفقه وقواعده، وفي اللغة والأدب، وغيرها من القضايا المتعلقة بعلوم الإسلام[3].

وهذه المؤلّفات بعضها قيّم لَه فائدة علميّة للباحثين الغربيّين والشرقيين، وبعضها الآخر مَلِيءٌ بالطعن في الإسلام وحضارته[4].

وقد بلغ مجموع ما ألّفوه عن الشّرق في قرن ونصف (أي: منذ أوائل القرن التاسع عشر حتّى منتصف القرن العشرين) حوالي ستّين ألف كتاب[5].

الفرع الثالث : جمع المخطوطات

اهتمّ المستشرقون في مراحل مبكرة بِجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق؛ لأنّهم أدركوا القيمة العلمية لِهذه المخطوطات التي تَحمل تراثاً غنيًّا في شتى مجالات العلوم[6].

---

[1]- ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، 153.

[2]- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 33.

[3]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 67-68. والاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 64-65.

[4]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 68.

[5]- ينظر: الاستشراق، إدوارد سعيد، 216. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 67.

[6]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 62-63.

ثُمّ ساعدت الحملات الاستعماريّة الأوربيّة على بلدان الشرق العربي الإسلامي -وبشكل كبير- على جلب الكثير من المخطوطات؛ فتزايد الاهتمام بِها والسّعي للحصول عليها بِمختلف الطرق مع تزايد النفوذ الأوربي في الشرق[1].

وكانت الجهات الحكوميّة المعنية في أوربا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق، ولقد تَمّ جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، كما لقيت هذه المخطوطات في أوربا اهتماماً عظيماً، وتَمّ العمل على حفظها والعناية بها، وفهرستها فهرسة علمية دقيقة[2].

وتُقدَّر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوربا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف[3].

ساعد هذا الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمّة الدراسات العربية في أوربّا وتنشيطها، وصارت تحت تصّرف الباحثين الغربيين الراغبين في الإطلاع عليها، والاستفادة منها دون كبير عناء أو إجراءات معقّدة[4].

الفرع الرابع : التحقيق والنشر والترجمة:

لَم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها فحسب، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر، فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا بين النسخ المختلفة، ولاحظوا الفروق وأثبتوها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام في أواخر الكتب التي نشروها؛ وبذلك استطاعوا أن ينشروا عدداً كبيراً جدًّا من المؤلفات العربية، كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوربيين من المستشرقين، وغيرهم من بلاد الشّرق[5].

كما ترجم المستشرقون عدداً كبيراً من الكتب العربيّة والإسلاميّة إلى كافّة اللغات الأوربيّة، فنقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر وكتب التاريخ وغيرها، هذا فضلا عمّا تُرجم في القرون الوسطى مِن مؤلفات العرب والمسلمين في: الفلسفة والطبّ والفلك وغيرها من العلوم[6].

---

[1]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 63.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها. وأيضا: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 193-194.

[3]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، 193-194. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 63-64. والمستشرقون، العقيقي، 3/1124-1130.

[4]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 63.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، 64-65.

[6]- المصدر نفسه، 66.

الفرع الخامس: إنشاء الجمعيّات ودعم إرساليّات التبشير

أولا- الجمعيّات والمؤسّسات الاستشراقية: شرع المستشرقون في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين في إنشاء جمعيّات ومؤسّسات على مستوى مختلف بلدان أوربا وأمريكا لِمتابعة الدراسات الاستشراقيّة، منها:

- أسّس الإنجليز "الجمعيّة الآسيويّة" للبنغال سنة (1784م).
- وتأسّست "الجمعيّة الآسيويّة" في باريس سنة (1822م).
- و"الجمعيّة الملكيّة الآسيويّة" في إنجلترا عام (1823م)، وبعدها: "الجمعيّة الشّرقيّة الأمريكيّة" عام (1842م)، وغيرها[1].

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيّات في إصدار المجلاّت والمطبوعات الخاصّة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين، وبلادهم وشعوبهم، وكلّ ما يتعلّق بهم؛ فعلى سبيل المثال: نشرت "الجمعيّة الآسيويّة للبنغال" بحوثَها في عشرين مجلّداً ما بين سنوات (1788-1836م)، وأصدرت مجلة باسمها سنة (1832م)[2].

ثانيا- إرساليّات التبشير: يعمل الاستشراق على إمداد "الإرساليّات التبشيرية" التي تنشط في العالم الإسلاميّ بِما تحتاج إليه من الخبراء الذين يساهمون بخبرتهم النظريّة والمعرفية في هذا المجال، في حين تقوم هذه "الإرساليّات" بأعمال إنسانيّة في الظاهر على مستوى عدّة ميادين: كالمستشفيات والجمعيّات الخيرية والملاجئ والمياتِم وأشباهها، لكنّ مقصدها الحقيقي هو التنصير والتبشير للمسيحيّة[3].

فالاستشراق يعتبر هيئة استشاريّة عليا تعمل على رسم الخطط، وتقديم الدراسات التي يجدها المبشّرون وسيلة جاهزة للعمل بقوّة ضدّ الإسلام، محاولين بذلك إيقاف توسّعه[4].

وقد أشار المستشرق "لو شاتليه" في مقال له إلى هذا الجانب، وبيّن نشاط الاستشراق في هذا المجال، وأثره في تحقيق الأهداف التبشيرية للعالم الأوربيّ[5]، كما في نصّه السابق.

---

[1]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 461/2. والاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، 37.

[2]- ينظر: المستشرقون، 461/2.

[3]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 34. وظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد فتح الله الزيادي، 97.

[4]- ينظر: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، 97.

[5]- ينظر: الغارة على العالم الإسلامي، لو شاتليه، 13-17.

الفرع السادس : عقد المؤتمرات وإصدار المجلاّت

أولا– عقد المؤتمرات: اتّخذ المستشرقون من المؤتمرات وسيلة لطرح أفكارهم، وتبادل الآراء بينهم، فيما يحقّق أهداف المدرسة الاستشراقية، وللتعاون على إحكام خططهم في حقيقة الأمر، ولبحوث عامّة في الظاهر، وما زالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام (1873م) ، وتَضمّ هذه المؤتمرات مئات المستشرقين الذين يجتمعون من مختلف البلدان والجامعات الغربيّة[1]، فمثلا: "مؤتمر أكسفورد" سنة (1928م) كان يضمّ: تسعمائة (900) مستشرق، من خمس وعشرين (25) دولة.

وتُنشر بحوث هذه المؤتمرات في مجلّدات للاهتداء بها كنُظُم ومناهج، تُعتبر أصولا وأمّهات يستند إليها الباحثون الغربيّون في دراساتهم؛ فعلى سبيل المثال: طُبعت أبحاث مؤتمر "جنيف" سنة (1895م) في أربع مجلدات ما بين سنتي (1895 و1897م)، وطُبعت أبحاث مؤتمر المستشرقين المنعقد في الجزائر سنة (1905م)، في ثلاثة مجلدات ما بين سنتي (1906 و1907م)[2].

ثانيا– المجلاّت: ومن أبرزها: مجلّة "جمعية الدراسات الشّرقيّة" الأمريكيّة، صدرت ابتداء من سنة (1906م)، ولَها فروع في: لندن وباريس وغيرها، ولهم أيضا مجلة "الشرق الأوسط" (1947م).

وأخطر المجلاّت التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في العصر الحديث مجلة "العالم الإسلامي"، التي بدأت نشاطها سنة (1911م)، ثُمّ جدّد نشاطها سنة (1955م): وطابعها تبشيري سافر[3].

وأصدر المستشرقون الألمان مجلّة "عالم الإسلام" سنة (1913م).

أمّا المستشرقون الفرنسيون فأصدروا: مجلّة "العالم الإسلامي" ابتداء من عام (1906م): واتّجاهها عدائي تبشيري، ولهم أيضا مجلّة تُسمّى "الدراسات الإسلامية" ابتداء من سنة (1927م)[4].

---

[1]– ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، 135. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 98.

[2]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 3/1102-1103 و1148. والاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، 35.

[3]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 37-38. والمستشرقون، 3/991.

[4]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 38. والمستشرقون، 1/162-163 و2/688. وتاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 265.

المبحث الثاني: التعريف "بدائرة المعارف الإسلامية"

العمل الموسوعي مظهر من مظاهر نشاط الفكر الإنساني، وتوسّع مجال ارتياده لأبعاد المعرفة، وطور من أطوار النضج الثقافي، فاتّساع المعارف واكتمال اللغة، يدعو إلى الشعور بالحاجة لوضع وعاء "مصنّف" يشتمل على كلّ ما وعته أمّه من مفردات المعرفة في مجال واحد، أو في معظم مجالاتِها[1].

وقد حفل التّراث العربي قديما بالعديد من الأعمال الموسوعية، التي احتوت على تراث فريد في أغلب فروع المعرفة البشرية، وخاصة في مجالات العلوم الشرعية والأدب والتاريخ، وكان يُطلق على هذه الأعمال تسمية: "الجمهرة" وجمعها: "جماهر"، ومنها مثلا: "جمهرة اللغة" و"جمهرة الأنساب" ونحوها، وربّما سُمّيت أحيانا أخرى "معاجم"، أو سُمّيت بحسب موضوعها[2].

أمّا العمل الموسوعي في أوربا فبدأ يظهر في الساحة العلمية منذ عصر النهضة الأوروبية -في مطلع القرن التاسع عشر- وأصبح يتطور تدريجيا، ويأخذ إطاره العام كعمل علميّ متميز، وشاع في أوربا إطلاق كلمة: (Dioctionary) على الموسوعات في بعض الفترات، ثم استخدمت كلمة (Encyclopédia)، التي ازداد استخدامها فيما بعد حتى أصبحت مصطلحا يطلق على هذا النوع من الكتب والمراجع[3].

ولَمّا كان اهتمام الحركة الاستشراقية متجها على نحو خاصّ إلى الحضارة العربية الإسلامية؛ رأى المستشرقون أن يجمعوا ما كتبوه عن حضارة الإسلام من دراسات وبحوث متفرقة في مؤلَّف جامع على طريقة الموسوعات العلمية الحديثة (Encyclopédia).

و"**دائرة المعارف**" أو "**الموسوعة**": هي عمل يَجمع معلومَات في مُخْتَلف ميادين الْمعرفة والفنون[4]، أو في ميدان خاص منها، تُعرض المواد فيه عادة مرتّبة ترتيبًا هجائيًّا[5].

---

[1]- ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، المقدمة، 24/1.

[2]- ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (مقدمة كتاب المتنبي)، محمود شاكر، 55/1. والموسوعة العربية العالمية، المقدمة، 25/1.

[3]- ينظر: الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، ياسين صلواتي بمساعدة مجموعة من الباحثين، المقدمة، 6/1-7.

[4]- تشترك "**دوائر المعارف**" مع "**المعجم**" في تقسيمها إلى مواد مرتّبة ترتيبا هجائيا، لكنّ "دائرة المعارف" تختلف عن "المعجم" في أنّها لا تركّز على بيان الاشتقاقات اللغوية في كلّ مادة ونحو ذلك من الأبحاث اللغوية الخاصة بكلّ مفردة، وإنّما تقصد بيان المدلولات المعرفية في كلّ مادة من أمور لغوية وغيرها، كما أنّ مواد الموسوعة أوسع مجالا، حيث تشمل: أسماء الأعلام، والأماكن، والتوارايخ وغيرها من المجالات التي تتعدّى المعاني اللغوية للألفاظ. ينظر للتوسع: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار، 162.

[5]- ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة باحثين، 302/1. ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار مع فريق عمل، 2440/3.

المطلب الأول: بواعث إنشاء "دائرة المعارف" وإصداراتها

الفرع الأول: بواعث إنشائها

يمكن إيجاز أبرز الأمور التي مهّدت لقيام هذا المشروع فيما يلي:

أولا- بروز الحاجة إلى جمع شتات أبحاث المستشرقين في موسوعة شاملة: برزت فكرة إنشاء "موسوعة شاملة" عن حضارة الإسلام في المؤتمرات الدولية التي كان يعقدها المستشرقون دوريًّا لتنسيق جهودهم وتبادل الأفكار والآراء فيما بينهم؛ حيث شعروا في هذه المؤتمرات بالحاجة إلى "دائرة معارف" لأعلام العرب والإسلام؛ تَجمع شتات دراساتهم في هذا المجال، وتكون مكتوبة باللغات الثلاث: الألمانية، الفرنسية، والإنجليزية[1].

ومن ناحية أخرى فإنّ من شأن هذه "الموسوعة" توفير الجهد للمستشرق الباحث في عصر السرعة والشمول والاختزال، إذ لا يَملك الباحث المختص الوقت الكافي، لكي يعود إلى قراءات واسعة واستقصاءات متنوعة لبحث بعض النقاط التي تَمر به أثناء بحثه الطويل؛ وبالتالي فمثل هذه الموسوعات تقوم على توفير الوقت والجهد معا؛ للوصول إلى المعلومة في مجالات مختلفة بيسر وسهولة[2].

ثانيا- قرار إنشائها في "مؤتمر جنيف": في أواخر القرن التاسع عشر رأى المستشرقون أن يجمعوا خلاصة أبحاثهم في كتاب جامع يتّبعون فيه منهج القواميس والمعاجم الحديثة؛ فأعدّ بعضهم مشروعا يعرضه على طاولة مؤتمرات المستشرقين التي كانت تنعقد من حين لآخر في تلك الآونة.

وفي المؤتمر العاشر للمستشرقين الذي عقد في مدينة "جنيف" بسويسرا سنة (1894م) طرح بعض المشاركين فكرة إنشاء: موسوعة تبحث موادها في الحضارة الإسلامية، وفي مختلف الشؤون المتعلقة بالعرب تاريخيا وجغرافيا، ولغة وأدبا وفـــنّا وعِلما وفلسفة؛ بغيةَ تغطية ثقافتهم تغطية تامة في كل ميدان، بحسب ما توصلت إليه بحوث ودراسات المستشرقين في كافة بلدان أوروبا والغرب عامة[3].

لقيت هذه الفكرة بالفعل ترحيب المشاركين في هذا المؤتمر، فشُكّلت لجنة إشراف على تنفيذها، تتألف من المستشرقين التالية أسماؤهم:

- المستشرق الألماني: (هوتسما -Houtsma).
- والإنجليزي: (أرنولد -Arnold).
- والفرنسي: (باسيه -Basset).
- والألماني : (هارتمان -Hartmann)[4].

---

[1]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 370/3.

[2]- ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 201.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 200-201.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 200.

وكلفوا المستشرق الألماني "هوتسما"[1] بالإشراف العام على إنشائها، ومطبعة ليـــدن بإصـــدارها، واستعين بالمجامع ومؤسسات نشر العلم في أوربا قاطبة للإنفاق عليها[2].

ثُمّ تغيّرت هذه اللجنة عدّة مرات، تبعاً لإصدارات "الدائرة"، وتماشيا مع متغيّرات كلّ مرحلة[3].

ثالثا- المكـتبة الشرقية: يذكر المستشرق "يوهان فوك": أن "المكتبة الشرقية" التي أُلفت بفرنسا في أواخر القرن السابع عشر هي لبُّ وأساس "دائرة المعارف الإسلامية" المعاصرة[4].

ويضيف الباحث "محمود المقداد" أنّ: «فكرة هذه الموسوعة قد استوحيت من مصدرين رئيسيين: الأول: والأقدم هو "المكتبة الشرقية"؛ الثاني: "الموسوعة الفرنسية" التي وضعت في القرن التاسع عشر»[5].

و"**المكتبة الشرقية**": هي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللّغة الفرنسية، مرتبة على حروف الهجاء في عدة مجلدات تبحث في علوم الشرقيين وتاريخهم وآدابهم وخرافاتهم وأديانهم وعاداتهم وغيرها[6].

ألّفها المستشرق الفرنسي "بارتولوم هيربلو -Herbelot"[7]، وحاول أن يَجمع فيها كلّ ما عثر عليه في الكتب العربية والفارسية والتركية من معرفة قيِّمة في ترتيب أبجدي مريح، وظهر مؤلَّفه تحت عنوان "المكتبة الشرقية"، ولكنه توفي سنة (1695م) قبل أن يكتمل طبعه، ثُمّ طبعه كاملا أحد زملائه عـــام (1697م)، وطُبع بعد ذلك مع إضافات سنة (1779م) في أربعة مجلدات[8].

غير أنّ هذه الموسوعة كانت قاصرة؛ لأنّه اشتغل عليها بمفرده، وأيضا لِقلّة المصادر التي توفّرت له[9].

ويبدو أنّ قول "فوك -Fuck" بأنّ ("المكتبة الشرقية" هي أساس "دائرة المعارف الإسلامية")؛ يعـــني: أنّها أساسها: من حيث الفكرة العامة والخطة الإجمالية لَها؛ في ترتيب معارف علوم الشرق الإســـلامية خاصة على مواد مرتّبة على حروف المعجم، وإلاّ: فإنّ المواد المحرَّرة في "دائرة المعارف" لَيست مستمدّة

---

[1]- ستأتي ترجمته قريبا في: ص49.

[2]- المستشرقون، العقيقي، 1107/3. ويذكر العقيقي أن المستشرقين دعوا إليها سنة (1895م)، خلافا لِما تقدم مما جاء في "تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 200".

[3]- ينظر: المستشرقون، 1107/3-1108. وتاريخ الدراسات العربية في فرنسا، 202.

[4]- تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 103.

[5]- تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، 201.

[6]- ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، 146/4. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 603-604.

[7]- **هيربلو** "B.Herbelot" (1625-1695م): مستشرق فرنسي، اشتغل ترجمانا للملك لويس الرابع عشر، واشتهر بمعجم وضعه بالفرنسية للفلسفة والأدب في الشرق سماه (المكتبة الشرقية). ينظر: الأعـــلام، الزركلي، 41/2. موسوعة المستشرقين، 603-604.

[8]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، 102-103. وموسوعة المستشرقين، 604.

[9]- انتقد نجيب العقيقي هذه "الموسوعة" ووصفها بالقصور، فقال: «إلاّ أنّ قلّة المصادر في عصره، وعجز الفرد عن إنشاء "دائرة معارف" وحده أوقعاه في أخطاء وضلالات ونواقص». ينظر: المستشرقون، 173/1.

في الأصل من "المكتبة الشرقية"؛ إذ لم يقم محرّروها باختصار أو تهذيب ما جاء فيها، وإنّما ألّفوا مواد جديدة من إنشائهم اعتمادا على مصادر مختلفة عربية وإسلامية، وكذا كتابات وبحوث استشراقية قديمة وحديثة، كما أنّ "دائرة المعارف الإسلامية" تتميّز بمشاركة مجموعة كبيرة من كبار المستشرقين في تحرير موادها، بخلاف "المكتبة الشرقية" التي ألّفها مستشرق واحد.

الفرع الثاني: الإصدارات الأجنبية والعربية "لدائرة المعارف"

أولا- إصدارات[1] النسخة الأجنبية (الأصل): مرّت "دائرة المعارف" خلال إنشائها بعدّة محطّات، كانت تستأنف أعمالها فيها كلَّ مرّة مع شيء من التجديد والزيادة والتنقيح، وقد جاءت الطبعة الأصليّة باللغات الأجنبية في عدّة إصدارات، هي كالآتي:

الإصدار الأول (1913-1942م): تَمّ إنجاز الطبعة الأولى من "دائرة المعارف الإسلامية" ابتداء من سنة (1913م) إلى سنة (1942م)، ونُشرت بثلاث لغات هي: الفرنسية والألمانية والإنجليزية؛ بحيث كان المستشرقون يقومون بترجمة المواد المحررة بلغة من اللغات الثلاث، إلى اللغتين الأخريين مباشرة، ليتم صدور هذه الموسوعة باللغات الثلاث في الوقت نفسه[2].

جاء هذا الإصدار في ثلاثة مجلدات ضخمة مع جزء ملحق بها، وكان كلّ مجلد منها يزيد على ألف صفحة من القطع الكبير، وبحرف طباعي دقيق وورق رقيق[3]، وهذه المجلدات هي كالتالي:

- **المجلد الأول:** من حرف A إلى D؛ في 1119 صفحة.

ويجدر الإشارة إلى أنّه: أسهم في تحرير مواده قرابة المائة مستشرق في هذا المجلّد الأول فقط[4].

- **والمجلد الثاني:** من E إلى K، في 1243 صفحة.
- **والمجلد الثالث:** من L إلى R، في 1272 صفحة.
- **والمجلد الرابع:** من S إلى Z، في 1314 صفحة.
- **والملحق** في: 286 صفحة؛ حسب طبعة ليدن ما بين (1913-1931م)، ثُمّ تلتها طبعة أخرى منقّحة سنة (1936م)[5].

---

[1]- أقصد "بالإصدار" هنا: الطبعة المطورة التي تكون فيها إضافات وتعديلات عن الطبعات التي صدرت قبلها، وقد يطبع الإصدار الجديد المختلف عن سابقه عدة طبعات، وفي دورِ طبع مختلفة، ولكن هذه الطبعات تندرج ضمن إصدار واحد، وبذلك يكون الإصدار بهذا المفهوم أعم من الطبعة، إذ أن الإصدار الواحد: قد تكون له طبعات مختلفة، فيطبع مثلا: بدار الكتب العلمية، ودار الفكر، ودار المعارف وهكذا، وهذا ما سيتضح من خلال محتوى هذا المطلب.

[2]- ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 202.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 201-202. والمستشرقون، العقيقي، 1108/3.

[4]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، 346.

[5]- ينظر: المستشرقون، 1107/3-1108.

الإصدار الثاني (1954م): لَمّا تَحققت الغاية من "دائرة المعارف الإسلامية" في الإصدار الأول؛ من إحاطة الناس بأحوال المسلمين، واطلاعهم على تاريخهم وجغرافيتهم ودينهم وعلومهم وأعلامهم[1]، وبسبب النجاح الذي صادفته باللغات الثلاث: الإنجليزية، الألمانية والفرنسية؛ بحيث لاقت رواجا كبيرا، فنفدت الطبعات في وقت قصير[2]؛ عمل المستشرقون على إصدار طبعة جديدة، أوسع خطة من الطبعة الأولى، يستدركون فيها ما فاتهم، ويضمنوها خلاصة دراساتهم الأخيرة.

فطرحوا مشروع طبعة جديدة "للدائرة" في "المؤتمر الدولي الحادي والعشرين للمستشرقين"، المنعقد في باريس سنة (1948م)، فأقرّ المؤتمر هذا المشروع على أساس إنجاز الطبعة الثانية في ستة مجلدات، من القطع والحرف المستعملين في الطبعة الأولى، مع التوصية بإصدار فهرس عام لمواد الموسوعة وكتّابها، مع أطلس جغرافي وتاريخي، وتلحق الذيول بجملة المجلدات الستة المحتوية على متن المواد، وأوصى المؤتمر بأن تصدر هذه الموسوعة في طبعتها الثانية باللغتين الفرنسية والإنجليزية فقط، وقد وضع المشروع تحت إشراف المستشرق "ليفي بروفنسال"، وبدأ إصدارها سنة (1954م)[3].

وتكفل بالمبادرة إلى تنفيذ هذا المشروع والإنفاق عليه عدّة مؤسّسات أوربية وأمريكية إلى أن اكتمل طبع هذا الإصدار سنة (1962م)[4].

والْمُلاحظ أنّ محرري الطبعة الجديدة اتبعوا فيها سبلا شتّى في تطوير هذا الإصدار عن سابقه، فحينًا يثبتون النصوص القديمة كما هي، وأحيانا يثبتونها مع تعديل طفيف وتقديم وتأخير، وحينا يثبتون القديم ويذيلونه بما استجدّ، وحينا يحذفون النصّ القديم كليةً ويستبدلونه بنصّ جديد[5]، إلا أنّ قسما كبيرا من الطبعة الأولى مثبت في الطبعة الجديدة، وقد أُشير إلى مثل هذه المواد القديمة المنقحة على يد لجنة تحرير الطبعة الجديدة بنجمة توضع عند اسم كاتبها الأصلي، ويتبع هذا الاسم مباشرة وبين قوسين اسم منقّح المادة[6].

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 1108/3.

[2]- ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، إص3، المقدمة، 1/ ي.

[3]- ينظر: الإسلام والغرب، برنارد لويس، 46. وتاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 202.

[4]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص2، المقدمة، 8/1. والمستشرقون، العقيقي، 1108/3.

[5]- **من الأمثلة** على ذلك: أنّه تَمّ تغيير بعض النصوص (وليس كلّها) التي احتوت على مطاعن مباشرة ومبالغ فيها من بعض المستشرقين المعروفين بشدّة التعصب، مثل: القسّيس "لَمنس -Lammens"، فمثلا: مادة "الحسن" ومادة "الحسين" اللتين حرّرهما "لمنس"؛ قاموا في هذا الإصدار بحذف نصّي "لمنس"، واستُبدلا بنصّين جديدين لِغيره، وهي المستشرقة: "فتشيا فاجليري -Vagliere".

– في **النسخة العربية**: يقارن بين: الإصدار الأول: دائرة المعارف الإسلامية، [الحسن: 400/7]، و[الحسين: 401/7].

– والإصدار الثالث: موجز دائرة المعارف الإسلامية، [الحسن بن علي": 3803/12]. و["الحسين بن علي": 3849/12].

– **والنسخة الأجنبية**: [الحسن: 240/3-243] و[الحسين": 607/3-615]: The Encyclopidia of Islam.

[6]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص2، المقدمة، 8/1. وتاريخ الدراسات العربية في فرنسا، 202-203.

وأُفسح المجال في الطبعة الجديدة لعدد أكبر من المواد في موضوعات اقتصادية واجتماعية وفنية، كما سُمح لعدد أكبر من الباحثين العرب والمسلمين بأن يشاركوا في تحرير موادها، مقارنة بالإصدار السابق[1].

وجدت هذه الطبعة رواجا كبيرا أيضا كالطبعة التي سبقتها، فصدرت الطبعة الفرنسية كاملة في الستينات، ثم طبعت سنة (1981م)، وأعيد طبعها عام (1986م)، هذا دون ما صدر منها بالإنجليزية[2].

– **طبعات أخرى**: كما طُبعت "دائرة المعارف" طبعات أخرى أحدث، وقفت منها على: على طبعة: (1997م) في ليدن بالإنجليزية[3]، واستمرّ هذا الإصدار لغاية سنة (2005م).

الإصدار الثالث (2007م): بدأ العمل على الإصدار الثالث عام (2007م)، وتظهر المقالات والمواد الجديدة ضمن صحيفة (EI3 Quarterly) الربع سنوية، بالإضافة إلى النسخة الإلكترونية[4].

– **ملخّص "دائرة المعارف الإسلامية"**: بعد إصدار الطبعة الأولى "لدائرة المعارف الإسلامية" باللغات الثلاث، اشتغل المستشرق "فنسنك" قبيل وفاته بإعداد طبعة مختصرة "للدائرة" قصرها على المقالات (أو المواد) الدينية فحسب، ثم أصدرها "جيب" و"كرامرز" باللغة الألمانية في "ليدن" سنة (1953م)[5]، غير أنّ هذا المختصر لم يكن له من الشهرة والانتشار مثل الموسوعة الأصلية.

– **النسخة الإلكترونية** (**لدائرة المعارف**): في عام (1999م) ظهرت النسخة الإلكترونية "للدائرة" على شبكة الإنترنت، وعلى أقراص مدمجة[6].

ثانيا– إصدارات الترجمة العربية: شكّل مجموعة من الباحثين المصريين لجنة تقوم بالعمل على ترجمة "دائرة المعارف الإسلامية" إلى اللغة العربية، وبيّنت هذه اللجنة في مقدمة الطبعة الأولى "للدائرة" أنّ عملهم هذا جاء: «رغبة منهم بأن يساهموا في النهضة العربية والإسلامية، وللعمل بصدق من أجل تحقيق الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي»[7].

وقد عُرّبت "دائرة المعارف" في ثلاثة إصدارات، هي:

الإصدار الأول (1933–1967م): عمل مجموعة باحثين شباب من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهم: إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، ومحمد ثابت الفندي،

---

[1]– ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 202.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 203.

[3]– وهي النسخة الأجنبية التي اعتمدت عليها في هذا البحث؛ للرجوع إليها في تعريف "الدائرة"، ومراجعة بعض النصوص التي أناقشها.

[4]– ينظر: موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (دائرة_المعارف_الإسلامية/https://ar.wikipedia.org/wiki).
وموقع "المعرفة" على رابط: (دائرة_المعارف_الإسلامية/http://www.marefa.org/index.php).

[5]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 667/2.

[6]– ينظر: موقع "المعرفة" على رابط: (دائرة_المعارف_الإسلامية/http://www.marefa.org/index.php).

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، المقدمة، 5/1.

على التخطيط لترجمة "دائرة المعارف الإسلامية" إلى اللغة العربية، بعد أن اختمرت فكرة القيام بهذا المشروع في أذهانهم، ثم كوّنوا "لجنة ترجمة الدائرة"، على أن يتقاسموا هذا العمل، ثم شرعوا في إنجازه[1]، واعتمدت هذه الترجمة على الإصدار الأول من النسخة الأجنبية، وقد بدأ إخراجها في سنة (1933م)، على شكل أجزاء متفرقة، كأجزاء المجلات في كل شهرين جزء[2]، إلى أن تم المجلد الأول من الترجمة في السنة نفسها، وتوالى بعد ذلك ظهور المجلدات الأخرى حتى المجلد الخامس عشر الذي صدر سنة (1967م)[3]، وموادها من حرف الألف حتى أجزاء من حرف العين، وبالتحديد انتهت بمادة "عارفي باشا"، وطبعتها دار الفكر، وغيرها.

الإصدار الثاني (1969م): استأنفت لجنة الترجمة محاولة إتمام ترجمة "دائرة المعارف" من جديد في عام (1969م)، وبدأت بإخراج طبعة ثانية، أُضيف إليها المواد المستحدثة في الإصدار الثاني من الموسوعة الأصلية[4]، لكن ضخامة الموسوعة وتعدد مجالاتِها وقفت حائلا دون ذلك؛ إذ لم يقدّر لهذه المحاولة الاكتمال فتوقّفت بعد صدورها في ستة عشر (16) مجلّدا[5]، وقد بين المترجمون مدى الصعوبات الجمة التي كانوا يلقونها في إنجاز مثل هذا العمل الضخم، حيث جاء في مقدّمة الإصدار الثاني: «وهل يخفى على العارفين أن ترجمة مثل هذه "الدائرة" قد لا تقل صعوبة على تأليفها؟... فضلا عما تقتضيه الترجمة من تحقيق أسماء البلدان والأعلام والأماكن، وتحرير النصوص من مظانّها المشتّـــتة وبعضها مخطوط عسير المنال... ناهيك بمزالق الترجمة في المسائل الإسلامية، والجهاد الذي يكابده المترجم في تحري المصطلحات في شتى العلوم والفنون، بل نحتها في بعض الأحيان، وفوق ذلك كله العقبات المادية... إذِ المال - بعد العزيمة - هو عصب كل شيء»[6]، كما زاد من صعوبات الأمر رحيل رواد ذلك المشروع والكثير ممن شاركوا في الترجمة.

الإصدار الثالث (1998م): بدأ التفكير الجدي في استكمال مشروع ترجمة "دائرة المعارف"، بعد حرف العين انتهاء إلى حرف الياء في منتصف التسعينات، بمبادرة من حاكم الشارقة سلطان القاسمي، وبالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب[7]، فصدرت في سنة (1418هـ/1998م).

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، المقدمة، 6/1.

[2]- ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 206. ومجلة المنـــار، محمد رشيد رضا، مجلد 33، 479.

[3]- ينظر: الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، ياسين صلواتي بمساعدة مجموعة من الباحثين، المقدمة، 20/1.

[4]- وهذه الطبعة مشتملة على ما وجد في الطبعة الأولى، ورمزوا للمواد المضافة في الطبعة الثانية بالرمز (+)؛ وهذه بعض المواضع من هذا الإصدار التي توضح ذلك: 131/1، 197/6، 286/6، 372/10.

[5]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، إص3، المقدمة، 1/ ز-ح.

[6]- دائرة المعارف الإسلامية، إص2، المقدمة، 7/1.

[7]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، إص3، المقدمة، 1/ ح.

تميز هذا الإصدار: بالاعتماد على الإصدارين الأولين المترجمين بما فيهما من تعليقات، مع اختصار كثير من المواد والمعلومات، والتعليقات الأقل أهمية، أو لكونها غير لائقة بالقرآن الكريم أو بشخص النبي ﷺ، يقول المشرف على نشر الإصدار في مقدمته على الموسوعة: «نركز فقط على المواد ذات الأهمية الكبرى والأساسية، وحذفنا المواد التي تبدو غير ذات أهمية مثل: أسماء بعض الشعراء والشخصيات، أو الأماكن التي لا تمثل أهمية خاصة بالنسبة لمسيرة الحضارة الإسلامية، ومن هنا كان وصف: "**موجز**"[1] مصاحبا لهذه الطبعة الجديدة من هذا العمل»[2]، وجاء هذا الإصدار في اثنين وثلاثين (32) مجلدا، وخصص الجزء الثالث والثلاثون (33) منها للفهارس.

قام هذا الإصدار بترجمة نصوص جديدة لم تُترجم في الإصدارين السابقين، بمشاركة مجموعة من **المترجمين الجدد**؛ منهم: محمد غريب جوده، محمد حمزة، عبد الرحمن الشيخ، حسن حبشي، بهجت عبد الفتاح، سعيد عبد المحسن، وائل البشير، محمد عناني، حسن شكري، وغيرهم.

المطلب الثاني: خصائص "دائرة المعارف الإسلامية"

بدايةً أذكر الخصائص العامة "لدائرة المعارف الإسلامية" التي تشترك فيها النسخة الأجنبية والعربية إجمالا، ثم أذكر بعد ذلك الخصائص المتعلقة بالنسخة العربية فحسب، لكونها حافظت على الأصل المترجَم مع بعض الزيادات والإضافات التي ميّزتها نوعا ما عن النسخة الأجنبية.

الفرع الأول: الخصائص العامة "للدائرة"[3]

يمكن إجمال أهم الخصائص التي تميزت بها في النقاط الآتية:

أولا– ينحصر مجال "الدائرة" في المعارف المتعلّقة بناحية واحدة من المعرفة الإنسانية، وهي تراث الإسلام وما يتصل به من: أعلام، وأماكن، وعقائد، وتشريعات، ومصطلحات، ونحوها.

ويشمل ذلك التراث الإسلامي: العربي، والفارسي، والتركي، والكردي وغيره، مما له أثر في تاريخ الإسلام وحضارته.

من الأمثلة على ذلك: أمّا التراث الإسلامي العربي فجلّ موادّها فيه، أما غيره فهذه نماذج عنه:

---

[1]– حيث اختار المشرفون على هذا الإصدار عنوان "**موجز** دائرة المعارف الإسلامية"؛ باعتبار أنّهم حذفوا بعض الموادّ التي كانت مثبتة في "الإصدار الأول" و"الثاني" لكونها تتعلّق بمعارف ثانوية، وليس لها أهمية كبيرة في تاريخ الإسلام وحضارته، وشمل الحذف أيضا بعض ما ورد في النصوص المترجمة (وليس كلّ ما ورد) من مطاعن أو شبهات صريحة عن الإسلام.

[2]– موجز دائرة المعارف الإسلامية، المقدمة، 1/ ك.

[3]– تشترك في هذه الخصائص كلّ من: النسخة الأجنبية، والترجمة العربية "للدائرة".

- **في التراث الإسلامي الفارسي:** أعلام: [مد: "أغا محمد خان": إص1: 224/2]، [مد: "فروخي": إص3: 7848/25]. مصطلحات: [مد: "أفسون": إص1: 242/2].

- **في التراث الإسلامي الهندي:** أعلام: [مد: "هنو شاهي": إص3: 10069/32]، [مد: "هنو ستاني": إص3: 10069/32].

- **في التراث الإسلامي العثماني (التركي):** أعلام: [مد: "اليازجي أوغلو": إص3: 10190/32]. مصطلحات: [مد: "أغاج": إص1: 223/2]، [مد: "سنجق": إص1: 249/12]؛ وهكذا.

ثانيا– ساهم في تحرير موادّ "الدائرة" عدد كبير من أبرز المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين وكافة الدول الغربية، فليست ثمرة مجهود فردي، وإنما هي نِتاج جهود فريق كبير من المفكرين والعلماء والباحثين من دول شتّى، ومن أجيال متعاقبة، إلى جانب الدعم المادّي الذي قدّمته مؤسسات خاصة وعامة للإشراف على هذا المشروع الضخم وإتمامه.

يقول المستشرق "يوهان فوك": «جاء إنهاء "دائرة المعارف الإسلامية" نتيجة تظافر جهود العلماء من كلّ الأقطار... من بلجيكا، هولندا، إيطاليا، النمسا، المجر، روسيا، وسويسرا...»[1].

وقد بلغ عدد محرري "الدائرة" في الإصدار الأول لها حسب ما أحصيته[2] حوالي: أكثر من مائتي (200) محرّر، بينهم عدد قليل من الكتاب العرب الذين ساهموا في تحرير بعض المواد، حيث أنّ عددهم حسب الإصدار الأول لا يصل إلى عشر كتّاب؛ فمساهمتهم قليلة جدا وثانويّة بالمقارنة مع ما حرره المستشرقون.

بينما وصل عدد المحرّرين من المستشرقين في الإصدار الأخير لدائرة المعارف باللغة الإنجليزية إلى حوالي: أكثر من أربعمائة وخمسين (450) محررا[3]، كما عرف هذا الإصدار توسّعا في أسماء بعض الكتّاب المسلمين: من العرب والأتراك وغيرهم، لكن بقيت مشاركتهم ثانوية، ورمزيّة فحسب.

ثالثا– تميّزت "دائرة المعارف الإسلامية" **بالشمولية** في الموضوعات المطروقة، و**الاختصار** في العرض، مع محاولة الحرص على الدقة والعمق في الطرح والتحليل.

ذلك أنّ المواد المحرَّرة في "دائرة المعارف" تُقدّم تغطية شاملة لكثير من جوانب الحضارة الإسلامية، وتحقّق الشمول المعرفي فيما يتعلّق: بالأعلام، والدول، والفرق، والمذاهب، والمصطلحات العلمية في سائر المجالات: العقيدية، والفقهية، والحديثية، والفكرية، والفلسفية، والطبّية، والفلكيّة، والجغرافية،

---

[1]– تاريخ حركة الاستشراق، 346.

[2]– اعتمدت في هذا الإحصاء على الإصدار الأول من الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، المطبوعة في 15 مجلد.

[3]– ينظر: "The Encyclopidia of Islam, by a number of leading orientalists, 2/5-11".

والعمارة، وكذا تاريخ الإسلام، وانتشاره، والتطورات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها من المعارف التي يصعب حصرها[1].

ذلك أنّ فكرة الموسوعات بِحدِّ ذاتها فكرة تهدف إلى تناول المعلومات في ناحية واحدة أو مجموعة نواح من الحياة الثقافية في المجتمع، بتركيز شديد واختصار يسهّل البحث، ويوفر الوقت والجهد معا، في عصر السرعة والشمول والاختزال؛ ومن هنا كانت صفات التنظيم والاختصار والشمول في الموسوعات صفات أساسية وضرورية لها[2].

رابعا– تَمّ ترتيب «مواد هذه الموسوعة ترتيبا هجائيا متسلسلا لتسهيل مراجعة أي مادة فيها على الباحثين والقراء والمطالعين، وفي آخر كل مادة يذكر اسم كاتب المادة من المستشرقين... فيكتب الجزء الأول منه مختصرا بالحرف الأول أو الحرفين الأولين منه، ثم يذكر الجزء الثاني أو اسم العائلة بتمامه (مثل: وليم مارسيه - W.Marçais، وكليمان هوار- Cl.Hwart)[3]، ويكون ذكر الاسم عادة بعد أن يسرد كاتب المادة جملة مراجعه المعتمدة في كتابتها مرتبة أيضا ترتيبا هجائيا، لتعين الباحث على العودة إلى الأصول إن شاء التوسع فيها»[4].

وعليه فمنهجية عرض موادّ "الدائرة"[5] ونصوصها تقوم على العناصر الآتية:

أ)– بدايةً **عنوان المادة:** يكتب في بدايتها، وفي أعلى الصفحة.

ب)– ثُمّ **نص المادة الْمُحرَّرة:** وهو محتوى البحث أو المقال الذي كتبه المحرِّر في الموضوع المعرَّف به.

ج)– ثُمّ **مصادر المادة:** وتأتي في الأخير بعد اكتمال نص المادة.

د)– وأخيراً **اسم محرِّر المادة:** يأتي بعد ذكر مصادر المادة، فهو آخر شيء متعلق بالمادة التي سبقت، ويكتب عادة بخط عريض تمييزا له عن نصّ المادة.

خامسا– احتوت "الدائرة" على أكثر من تسع آلاف (9000) مادّة مرتبة ترتيبا أبجديا[6]، وتقوم منهجية المستشرقين فيها على جمع مختلف المعلومات في مجالات شتّى كالآداب والتاريخ والطب...

---

[1]– ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، إص3، المقدمة، 1/ ز – ي.

[2]– ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 201.

[3]- The Encyclopidia of Islam, (Hwart: 1/247, 434), (Marçais: 1/367, 680).

[4]– تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، 202.

[5]– **موادّ** "دائرة المعارف الإسلامية": تشبه المقالات العلميّة، غير أنّ عناوينها جاءت على شكل مصطلحات وكلمات مرتّبة على حروف المعجم، كما في طريقة القواميس والمعاجم.

[6]– ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية، إص3، المقدمة، 1/ ي.

وغيرها، ثم تُرتّب هذه المادة التي تَم جمعها وتُحرّر مع مراعاة التركيز والاختصار، دون الإخلال بما يتطلبه الإلمام بالمادة[1].

سادسا– الملاحظ في النسخة الأجنبية "لدائرة المعارف" أنّها مرتّبة على حروف المعجم الأوربي من (A إلى Z)، لكنّها حافظت على عناوين الموادّ باللغة العربية (من أسماء: أعلام، ومصطلحات فقهية، وعقدية ونحوها)، مع كتابتها بأحرف لاتينية، مثال ذلك: مادة "KA'BA"[2] [أي: الكعبة]، ومادة "MAKAM IBRAHIM"[3] [أي: مقام إبراهيم]، ومادة "SALAT"[4] [أي: الصلاة]، وهكذا؛ تُكتب المصطلحات العربية والإسلامية بحروف لاتينية، لكن الشرح طبعاً في نصّ المادة يكون باللغات الأوربية التي طُبعت بها "الدائرة": الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية.

سابعا– تُعْهَد كل مادّة من موادها إلى متخصص في موضوعها، ليتولى تحريرها بناء على دراساته وبحوثه في الموضوع، حتى تكون المادة المعرَّف بها أكثر دقة وعمقا، وأقرب إلى التحقيق العلمي.

فمثلا: تَخصَّص المستشرقَيْن "فنسنك"[5] و"شاخت"[6] في تحرير المواد المتعلقة بالأمور الفقهية، وهذه أمثلة عن أسماء بعض المواد التي حرّراها مع ذكر الجزء والصفحة من "الدائرة":

– فمن المواد التي حررها "فنسنك": [مد: "الصلاة": 277/14]، [مد: "الحج": 290/7].

– ومن المواد التي حررها "شاخت": [مد: "زكاة": 355/10]، [مد: "طلاق": 238/15].

– بينما نجد المستشرق "يفر -Yver" تَخصَّص في تحرير المواد المتعلقة بالشمال الإفريقي والجزائر خاصة، ومن المواد التي حررها مثلا: [مد: "بجاية": 350/3-354]، [مد: بردو[7]: 118/3-126].

ثامنا– يقوم بتحرير المادة كاتب واحد في الغالب، وأحيانا يحرّر المادة كاتِبَيْن أو أكثر، ولكن يوضع كلّ نصٍّ حرّره صاحبه في نفس المادة على حدة، بحيث يُكتب عنوان المادة ثم نص المحرر الأول، ثم يعاد كتابة اسم المادة ونص المحرّر الثاني، ويكون النص الثاني بمثابة إضافة وتذييل على الأوّل.

مثال ذلك: مادة "تاريخ" حرّر النصّ الأول فيها "كاراده فو"، وحرّر النص الثاني "جِب"[8].

---

[1]– بحث بعنوان: علم التفسير في كتابات المستشرقين، عبد الرزاق هرماس، مجلة جامعة أم القرى، العدد 25، 85.

[2]- The Encyclopidia of Islam, 4/317.

[3]- The Encyclopidia of Islam, 6/107.

[4]- The Encyclopidia of Islam, 8/925.

[5]– ستأتي ترجمته في: ص49.

[6]– ستأتي ترجمته في: ص50.

[7]– مدينة في تونس، مُعرّف بها بالتفصيل في الموضع المذكور من "دائرة المعارف".

[8]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8/من 2098 إلى 2157.

ومادة "آب" حرّر النص الأول "هوار"، أمّا النّص الثاني فحرّره "ماهلر"[1].

كما قد يشترك في تحرير نص مادة واحدة محرران اثنان، ويُنسب النص إليهما معا، ومثال ذلك: اشتراك "كراوس" و"بينس" في تحرير مادة "الرازي أبو بكر"[2]، وأحيانا يشارك في تحرير المادة مستشرق غربي، وباحث مشرقي عربي، مثل: مادة "ابن البناء" حررها "سوتر -Suter" ومحمد بن شنب[3]، لكنّ هذا الصنيع الأخير نادر جدًّا، قد يعدّ على الأصابع.

تاسعا– يلاحظ على "دائرة المعارف الإسلامية" استئثار المستشرقين بتحرير المواد المتعلقة بأمور العقيدة والشريعة الإسلامية، وحتى بعض المشاركين القلائل من العرب والمسلمين لم يُسند إليهم تحرير أي مادة تتعلق بأمور الإسلام[4]، خاصة في الإصدارات الأولى منها؛ وهذا ما يبين أن هذه "الدائرة" موجّهة أصلا إلى القارئ الغربي الأوروبي الذي يحاول المستشرقون دائما أن يصوروا له الإسلام وفق نظرتِهم الخاصة، لا وفق نظرة علماء الإسلام، فلطالَما وقف المستشرقون حاجزا في وجه معرفة الأوروبيين للإسلام الصحيح بمثل هذه الكتابات التي تهدف إلى الطعن في الإسلام وإثارة الشبهات حوله.

عاشرا– امتازت "الدائرة" بسهولة اللغة وسلاسة الأسلوب في عرضها للمعارف التي تضمنتها؛ الأمر الذي لا يجعلها وقفا على الخواص من الباحثين وكبار المثقفين، فهي سهلة ميسرة لأيّ قارئ حتى وإن كان مستواه الثقافي والمعرفي متوسطا؛ وهو أمر ساعد على رواجها وانتشارها بشكل واسع.

حادي عشر– جاءت "دائرة المعارف" محلاّةً بالرسوم التوضيحيّة، والجداول البيانية، والخرائط والمخططات، والصور الضوئية لبعض الأماكن أو البنايات التراثية، وغيرها من الأمور المعرَّف بِها، خاصة في الإصدار الأخير للنسخة الأجنبية، وهذه **بعض الأمثلة** عن ذلك:

[1]– Encyclopaedia of islam, (1/189, 208-209, 472), (4/107-108, 322).

[2]– دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية):

– الإصدار الأول: (483/2)، (46/8، 90).

– الإصدار الثاني: (442/6، 463)، (311/9).

– الإصدار الثالث: (4294/14)، (7447/24، 7965-7492).

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، إص1، 1/8-9.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 457/9.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 103/1. وستأتي ترجمة "محمد بن شنب" قريبا في: ص49.

[4]– بِحيث يعهد إليهم ترجمة بعض الأعلام أو التعريف ببعض الأماكن فقط، وستأتي أمثلة عن ذلك في: ص48-49.

ثاني عشر– تتحدث "دائرة المعارف" عن بعض البلدان العربية والإسلامية في وقت الاستعمار، وتعرِّف بها في هذا السياق؛ وذلك في الإصدار الأول من النسخة الأجنبية، وفي جميع إصدارات النسخة العربية المترجمة، من ذلك مثلا البلدان الآتية: الجزائر، وتونس، والصومال[1] وغيرها.

ثالث عشر– استمرارية صدورها سواء باللغات الأجنبية أو ما يتعلق بالترجمة العربية، حيث تعرض العمل على إنشاء "دائرة المعارف الإسلامية" لعدة تعثرات، كانت تتوقف فيها عن الصدور، ثم تستأنف من جديد نشاطها، وتتكون لجنة جديدة بمساهمات أفراد ومؤسسات، لقصد إتمام "الدائرة" أو الخروج بإصدار جديد.

ويرجع السبب في ذلك: أن الموسوعة قامت على جهود مجموعة من المؤلفين والمشرفين عليها، إضافة إلى المؤسسات الداعمة لها، بخلاف العمل الفردي فإنه عادة ما يتوقف عن الصدور بعد موت مؤلفه، أو انصرافه عنه إلى عمل آخر.

رابع عشر– من المآخذات على "دائرة المعارف" –رغم خصائصها السابقة، وما احتوته من معارف تاريخية وثقافية هامة– أنّها تضمّنت الكثير من الشبهات والمطاعن الصريحة في أصول الإسلام؛ ومن ذلك **مثلا:** الطعن في النبيّ ﷺ وفي ربّانية القرآن[2]، والزعم بأن الدين الإسلامي مقتبس من اليهودية والنصرانية وديانات أخرى[3]، وغيرها من المطاعن.

خامس عشر– تُعتبر "دائر المعارف الإسلامية" خلاصة أبحاث المستشرقين وآرائهم حول الإسلام وحضارته، من عدّة اعتبارات؛ أبرزها:

- كثرة المستشرقين [وهُم بالمئات] الذين ساهموا في تحرير موادها.
- وكذا باعتبار المادة العلمية الغزيرة التي احتوتها في معارف إسلامية كثيرة ومتنوعة في مواضيعها.
- وأيضا باعتبار العصر الذي أُلّفت فيه، حيث تطوّرت فيه دراسات المستشرقين ومناهجهم عموما، وتوفّرهم لهم الوسائل والإمكانات التي تسهّل عملية البحث وتيسّر سبله.
- ثُمّ باعتبار أهمية المستشرقين المشرفين عليها والمحررين لنصوصها ، وما لهم من وزن علمي في الغرب والشرق.

---

[1]– ينظر: مادة "الجزائر": دائرة المعارف الإسلامية، (إص1: 373/6–423) و(إص3: 2816/9 وما بعدها)؛ لكن في الإصدار الأخير من طبعة الشارقة (1998م): وضع المترجمون تعليقا في بداية مادة "الجزائر" أنّها استقلّت سنة (1962م) مع تعريف موجز بها.
– ومادة "تونس": (إص3: 2434/8 وما بعدها)، ومادة "الصومال": (إص1: 440/14–452) و(إص3: 6704/21 وما بعدها).

[2]– ينظر مثلا المواضع الآتية من: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 198/7، 106/14–108، 303/14.

[3]– من الأمثلة على ذلك في: المصدر نفسه، إص1، 485/5، 142/7 و328، 8 /375، 100/11–103.

الفرع الثاني : خصائص الترجمة العربية

تقدَّم الكلام على الإصدارات الثلاثة للترجمة العربية "لدائرة المعارف"، التي تَميّزت بجملة من الخصائص عن الأصل المترجَم، أوجزها في النقاط الآتية:

أولا– لم تكتف اللجنة الْمُشرفة على ترجمة "دائرة المعارف" بنقل النص الأجنبي فحسب، بل أضافت إليه كثيراً من التعليقات والاستدراكات المناسبة في النقاط التي يُخشى فيها الالتباس، أو يختلف فيها الرأي، أو لِغرض تصويب خطأ علمي، أو ردّ شبهة أو مطعن مُثار حول الإسلام وأصوله ونحو ذلك؛ وهذا ما بيَّنَتْه لجنة الترجمة في مقدمتها على الإصدار الثاني "للدائرة"، حيث جاء فيها: «و لم تقتصر الترجمة على مواد "الدائرة" فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى التعليق على كثير من موادها بالتصحيح أو التكملة، أو ردّ هوى، أو درء مطعن، وتولى ذلك أئمة الكتّاب والعلماء العرب، حتى أصبحت النسخة العربية من عدة وجوه أكمل من الأصل»[1].

وهو الصنيع الذي أشاد به الشيخ محمد رشيد رضا فقال: «وقد سررنا إذ علمنا أن جماعة من شباننا شرعوا في ترجمة المعجم بلغة الإسلام العربية، ووضع حواشي لِتُصَحح ما فيه من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية وبيان الحق فيما دسّوه فيه من عقائدهم وآرائهم الباطلة في المسائل الدينية»[2]، وقد ذكر في نفس الموضع مجموعة من خصائص الترجمة العربية "للدائرة"، تبين أن قراءتها باللغة العربية أنفع من قراءتها باللغة الأجنبية.

بيد أنّ هذا الصنيع حرص عليه المترجمون في **الإصدار الأول** خاصة، أمّا **الإصدار الثاني** فكان أقلّ عناية بِهذا الأمر من سابقه.

بينما كان **الإصدار الثالث** أقلّ من الإصدارين السابقين في هذه النقطة؛ فهو وإن لم يذكر كلّ شيء ورد نصوص الموادّ المحرّرة[3]، وحذف بعض الفقرات التي فيها طعن صريح في الإسلام أو نبيّه ﷺ، إلاّ أنّ التعليق على كثير من الفقرات التي تُرجمت في هذا المرحلة، والتي تضمّنت أخطاء علميّة، أو مطاعن وشبهات حول الإسلام أُسند إلى غير المتخصّصين[4]، وجلّ المعلّقين هم من المترجمين غير المتخصّصين في العلوم الإسلامية؛ الأمر الذي جعلهم يقعون في كثير من الأغلاط الفادحة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص2، 7/1.

[2]– مجلة المنار، العدد 33، 477.

[3]– لذلك سُمّي الإصدار العربي الثالث بـ"**موجز** دائرة المعارف"، فقد اختصر في بعض النّصوص أحيانا، كما اختصر في المواد، واكتفى بالأهم منها، و لم يذكرها كلّها حسب ما ورد في النسخة الأجنبية الأصلية، وسبق ذكر ذلك في التعريف بالإصدار الثالث.

[4]– بخلاف "الإصدار الأول" الذي أُسندت التعقّبات فيه إلى جلّة من كبار العلماء المتخصّصين، كما سبق بيانه في النصّ المذكور من طبعة الإصدار الثاني.

أمّا التعقّبات القديمة في "الإصدار الأول" التي كتبها علماءُ متخصّصون، فحافظ عليها المشرفون في "الإصدار الثالث"، وأثبتوها كما هي.

ثانيا– غالبا ما ترِدُ هذه التعقّبات في هامش الفقرة الْمُعقَّب عليها[1]، وأحيانا أخرى تَـرِد في متن الكتاب[2]، بعد انتهاء نص المادة المحررة مباشرة، وفي آخر التعقيب يُذكر اسم المتعقِّب بخطّ عريض.

ثالثا– تنوعت هذه التعليقات بين الطول والإيجاز، فقد تكون في سطر أو سطرين ونحوهما[3]، وقد تكون في عدة صفحات، بل أحيانا يكون التعقيب أطول من نصّ المادة الأصلية أو يقاربه في الطول[4].

رابعا– أُسندت التعقّبات على نصوص "دائرة المعارف" إلى علماء متخصّصين في العلوم الإسلامية والعربية وآدابها؛ كل واحد حسب تخصصه، فمثلا: "أحمد شاكر" علّق على مواد تتعلق بالحديث وعلومه خاصّةً[5] وهكذا، ومن المعلّقين من كانت تعليقاته كثيرة جدا، ومنهم من اكتفى بتعليقات قليلة معدودة[6]، كما ساهم المترجمون أيضا في التعليق على "الدائرة" وإبداء الملاحظات وتصحيح الأخطاء والهفوات[7]؛ وكان إسهام المترجمين ذلك في "الإصدار الأول" و"الثاني" بشكل قليل ونادر ويتعلّق في الغالب بشكليّات أو نقاط خفيفة، في حين نجد في "الإصدار الثالث" توسّعا من المترجمين في هذا المجال بالنسبة للنصوص التي تُرجمت في هذا "الإصدار" فحسب، فإنّ المترجمين هم مَن يوردون تعليقات على ما ورد في نصوص "الدائرة" من أخطاء وإشكالات علمية مع عدم تخصّصهم في هذا المجال، وإن كانت تعليقاتهم على العموم قليلة، لكنّها كثيرا ما تكون غير دقيقة، وتحتاج هي نفسها إلى الاستدراك عليها أحيانا.

خامسا– عبّر بعض العلماء والباحثين من العرب والمستشرقين الذي تكلّموا في "دائرة المعارف الإسلامية" عن بهجتهم بِهذا التمازج والتنوع الفكري والمعرفي الحاصل في هذه "الموسوعة"[8] في نسختها الأجنبية وخاصة العربية؛ حينما جمعت كتابات الغربيين والشرقيين العرب، جعلت من هذا العمل نموذجا علميّا لتلاقي الشرق والغرب في خدمة العلم والمعرفة.

---

[1]– هذا هو الغالب والأكثر في "الدائرة"، يلاحظ ذلك كل من يتصفحها.

[2]– وهذا الصنيع أقل بالمقارنة مع ما يكون في الهامش، ينظر أمثلة عن ذلك في: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 17/3، 413/10.

[3]– ينظر أمثلة عن ذلك في: المصدر نفسه، إص1، 266/6، 403/7.

[4]– من الأمثلة على ذلك في: المصدر نفسه، إص3، 827/3-841، 3512/11-3523.

[5]– ينظر مثلا في المواضع التالية: المصدر نفسه، إ ص1، 56/3-60، 387/4، 331/7-345.

[6]– من المكثرين في التعليق مثلا: أحمد شاكر، وأمين الخولي، ومحمد مسعود.

[7]– بعض المواضع مثلا في: المصدر السابق، إص1، 303/1، 76/8، 383/10.

[8]– ويا ليت المستشرقين التزموا شيئا من الحياد تجاه أصول الإسلام وثوابته، لكانت الموسوعة بذلك عملا علميّا فريداً، لكن ويا للأسف غطّى على هذا التلاقح العلمي البديع ما شحنه المستشرقون في "دائرة المعارف" من طعون صريحة في ربانية الإسلام ونبوة سيدنا محمد ﷺ، حتّى قال محمد رشيد رضا: بأنّ كتّابها «لم يتركوا شيئا من عقائد الإسلام، ولا من فضائله ولا من شريعته، ولا من مناقب رجاله، إلا وصوّروه لقرّاء معجمهم بما يخالف صورته الصحيحة». ينظر: مجلة المنار، مجلد 34، 386.

فمثلا يقول الأستاذ أمين الخولي في تعقيبه على إحدى موادّ "الدائرة": «نَشْرُ "دائرة المعارف الإسلامية" بالعربية وتعليق المشارقة عليها صورة خالدة من تلاقي الشرق والغرب، وتعارفهما على خدمة البحث العلمي»، ثُمّ أكّد على ضرورة تحرّر المستشرقين من الخلفيات الفكرية والعقدية[1].

أمّا المستشرق الألماني "يوهان فوك -Fuck" فيتحدّث عن مشاركة بعض العرب والمسلمين في تحرير جملة من موادّ "الدائرة"؛ فيقول: «كما حضر إلى جانب الباحثين الأوربيين منذ البداية... علماء مسلمون[2]... مِمّن تلقّوا ثقافة غربية؛ وبذلك فقد تحولت "دائرة المعارف الإسلامية" إلى نصب تذكاري معبّر للعمل العالمي المشترك يدعو إلى الاقتداء به»[3].

ويقول المشرف العام على طبعة الشارقة الأخيرة (الإصدار الثالث) عن النسخة العربية في مقدّمته عليها: «تتزاوج في هذه "الدائرة" النظرة العلمية للتاريخ الإسلامي، ويمتزج الاجتهاد بين علماء الغرب أو المستشرقين، وعلماء الشرق من المسلمين»[4].

سادسا– ملحظ هام: لاحظت خلال تعاملي مع "الدائرة" أنّ المستشرقين لا يذكرون الصلاة على النبي ﷺ عند إيراد اسمه، فهذا أمر خاصّ بالمسلمين بطبيعة الحال، لكن نجد في "الإصدار الثالث" للنسخة العربية ذكر الصلاة عليه (ﷺ) في نصوص المستشرقين في غالب الأحيان[5]؛ فينبغي التنبّه إلى أنّ هذا الصنيع هو من تصرّف الناشرين "للدائرة" في هذا الإصدار فحسب، وإلاّ فإنّ المترجمين والناشرين للإصدارين السابقين تقيّدوا بنقل النصّ المترجم كما هو دون زيادة أو نقص، لذا لا نجد فيها ذكر الصلاة على النبي ﷺ بعد أن يورد الكاتب اسم النبي محمد ﷺ، وسيُلاحظ هذا عند إيرادي لنصوصٍ من "الإصدار الأول" في فصول الدراسة، وحِرْص المترجمين الأوائل "للدائرة" على عدم التصرّف في كلام المستشرقين له أهمّيته في معرفة آرائهم وطريقة كتابتهم على حقيقتها كما هو في الأصل تماماً.

---

[1]– المصدر السابق، إص1، 602/4؛ تعقيب "أمين الخولي" على مادة "التحريف" في الهامش.

[2]– سيأتي ذِكر بعضهم؛ لكن **ينبغي التنبّه**: إلى أنّ إشراك المستشرقين لِهؤلاء المسلمين كان صوريًّا، وفيه تحيّز؛ بحيث أُسندت لهم موادّ ثانوية لترجمة بعض الأعلام، أو الأماكن ونحوها، مما ليس له أهمية كبرى في مسيرة الإسلام، بينما استأثر المستشرقون بتحرير الموادّ المتعلّقة بأصول الإسلام كما سبق ذكره في خصائص "الدائرة"، من الكلام على القرآن، والرسول ﷺ، والمصطلحات الفقهية، والأصولية، والحديثيّة ونحوها؛ حتّى لا تعبّر "الموسوعة" في النهاية إلاّ عن نظرة المدرسة الاستشراقية للإسلام.

[3]– تاريخ حركة الاستشراق، 346.

[4]– موجز دائرة المعارف الإسلامية، المقدمة، 1/ ز.

[5]– يبدو أنّهم تصرّفوا في ذلك أيضا من منطلق وسمهم لهذه الطبعة بأنّها "**موجز** الدائرة".

• **ترجمة إسلامية أخرى "للدائرة"**: ذكر الأستاذ "أبو الحسن الندوي": أنّ الترجمة التي قامت بها جامعة بنجاب في لاهور (باكستان) "لدائرة المعارف"، تتّسم بكثير من الأصالة والتنقيح والحذف والزيادة؛ الأمر الذي يجعلها عملا مستقلا له قيمته العلمية[1].

المطلب الثالث: محرّرو نصوص "الدائرة" والمتعقبون عليها

سأتطرق في هذا العنصر إلى ذكر جملة من المستشرقين المحرّرين لنصوصها، وكذا المتعقّبين عليها في النسخة العربية.

الفرع الأول: كتّاب "دائرة المعارف الإسلامية" (أو المُحرّرون)

أُسند تحرير مواد "الدائرة" المختلفة في موضوعاتها وتخصصاتها، إلى كبار المستشرقين في العالم الغربي، كلٌّ حسب تخصصه، والموضوع الذي عُرف بالتأليف والبحث فيه، وكانوا يوقّعون على ما يكتبون، وقد اختلفت الدول التي ينتمون إليها، حتى وصلت إلى أكثر من ثلاث عشرة (13) دولة، وقد أَحصيت عدد محرري "الدائرة" حسب الإصدار الأول، فوجدت عددهم أكثر من مائتي (200) محرر، وقد زاد عددهم أكثر من الضعف في الطبعات الموالية[2]، وهذه أسماء بعضٍ من محرّري "الدائرة" على سبيل التمثيل (لا الحصر)، رتّبت أسماءهم من كلّ بلد حسب الأقدر وفاة، مع ذكر بعض المواد التي حرروها[3]:

• **من الإيطاليين:**

- ليفي دلافيدا (L.Della vida): [مد: تميم الداري: 480/5]، [مد: سلمان الفارسي: 108/12].
- فـــكا (V.Vecca): [مد: أسامة بن زيد: 77/2]، [مد: زيد بن حارثة: 8/11].

• **من الفرنسيين[4]:**

- باسيه (R.Basset): [مد: إبراهيم بن أحمد: 32/1]، [مد: الحلل: 53/8].
- ماسينيون (L.Massignon): [مد: الأصفهاني: 263/2]، [مد : حامد: 275/7].

---

[1]- ينظر: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، 19.

[2]- سبق ذكر ذلك في: ص39. وأنهم قد بلغوا أكثر من (450) محررا، على حسب ما وقفت عليه في الطبعة الانجليزية (1997م).

[3]- أذكر مادة أو مادتين على الأكثر للتمثيل.

[4]- **ملاحظة:** من **نوادر** "دائرة المعارف الإسلامية" أنْ نجد في الطبعة الأجنبية إلى يومنا هذا مستشرقين فرنسيين **ما زالوا يُنسبون إلى الجزائر** في النسخة الأجنبية "للدائرة"، لكونهم عاشوا وماتوا في الجزائر إبان الاستعمار، وحرّروا بعض الموادّ في "دائرة المعارف"، ولَك أن تراجِع مثلا "فهرس المحرّرين" في المجلد الأول من الطبعة الإنجليزية "للدائرة" (The Encyclopidia of Islam, 1/VI-VII): لتجد ما يلي: [G. YVER, **Algiers**]، [H. PERES, **University of Algiers**].

- **من الإنجليزيين:**

- أرنولد (T.Arnold): [مد: إسلام: 149/2]، [مد: خليفة: 418/8].
- مرجليوث (Margoliouth): [مد: أبو تَمّام: 320/1]، [مد: أبو حيان: 333/1].
- نيكلسون (Nicholson): [مد: أبو سعيد: 352/1]، [مد: سلوك: 118/12].

- **من الهولنديين:**

- سنوك (H.Snouk): [مد: أبو هاشم: 415/1]، [مد: حسن: 404/7].
- أرندنك (V.Arendonk): [مد: ابن يعيش: 303/1]، [مد: السلام: 40/12].

- **من الألمانيين:**

- هورتمان (Hartman): [مد: إربل: 569/1].
- بروكلمان (Brockelmann): [مد: أبو عبيد: 375/1]، [مد: الحلبي: 48/8].

- **من الرّوسيين:**

- بارتولد (W.Barthold): [مد: أبو الخير: 336/1]، [مد: أق سراي: 471/2].
- مينورسكي (V.Minorsky): [مد: أحمد يسوى: 503/1]، [مد: سهر: 268/11].

- **من الدنماركيين:**

- بول (Buhl): [مد: أبو سفيان: 355/1]، [مد: بدر: 444/3].

- **من المجريين:** - جولد زيهر (Goldziher): [مد: أبو حاتم: 323/1]، [مد: أصحاب: 237/2].
- **من الأمريكيين:** - ماكدونالد (Macdonald): [مد: اجتهاد: 434/1]، [مد: اقتباس: 456/2].

وغيرهم من السويديين والبلجيكيين والسويسريين[1].

- **من العرب والمسلمين:** شارك في تحرير بعض المواد بصفة قليلة ونادرة بعض الشرقيّين، منهم:

- **محمد بن شنب**[2] (من الجزائر): [مد: ابن أبي زيد: 80/1]، [مد: الداني: 118/9][3]؛ والمواد التي حرّرها أكثر من التي حرّرها غيره من الشرقيين.

---

[1]- تُراجع أسماء أخرى في: المستشرقون، العقيقي، 1107/3-1108.

[2]- **محمد بن العربي بن محمد أبي شنب:** ولد بمدينة المدية (بالجزائر)، وشُغف باللغات، فأحسن الفرنسية والإيطالية والألمانية وغيرها، منحته الجامعة الجزائرية لقب (دكتور) في الآداب، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وأكاديمية العلوم الاستعمارية بباريس، له مؤلفاته بالعربية والفرنسية، منها: "تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب"، و"أبو دلامة وشعره". ينظر: الأعلام، الزركلي، 266/6. ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، 486/3.

[3]- ومن أمثلة المواضع في الطبعة الإنجليزية الأخيرة [The Encyclopaedia of Islam]: 216/2، 838/2.

– ومحمد شفيع: [مد: سنجان: 247/12]. – وهدايت حسين: [مد: ابن بابويه: 95/1] وغيرهم[1].

الفرع الثاني: التعريف بأهم المشرفين على "دائرة المعارف"

أكتفي هنا بذكر أهم المستشرقين المشرفين على تحرير "دائرة المعارف" الأصلّية، مع ترجمتهم، وذكر بعض مواضع المواد التي حرروها:

[1]– **هوتسما** (Houtsma)[2]: أول من كُلِّف بالإشراف على لجنة تحرير "الدائرة"، ابتداء من (1895م) إلى غاية عام (1924م)[3].

من المواد التي حررها: [مد: أبو بكرة: 315/1]، [مد: طغرل الأول: 229/15].

[2]– **فنسنك** (Wensink)[4]: حل محلّ أستاذه "هوتسما" في الإشراف على لجنة التحرير سنة (1924م)[5]، له كتابات كثيرة في "دائرة المعارف".

من المواد التي حررها: [مد: الحجّ: 370/8]، [مد: سنّة: 277/14][6].

[3]– **ليفي بروفنسال** (Provençal)[7]: كُلّف بالإشراف العام على مشروع إنجاز الإصدار الثاني "لدائرة المعارف" ابتداء من سنة (1948م) إلى توفي سنة (1956م)[8].

من المواد التي حررها: [مد: اشبيلية: 203/2]، [مد: الرازي: 451/9].

---

[1]– ومنهم أيضا: يوسف علي: (28/9)، وعددهم قليل جدًّا، لا يصل إلى العشرة في الإصدار الأول، أما الإصدار الأجنبي الثاني فكان مجالهم أوسع نوعا ما، ومنهم مثلا:

– (Saleh .El Ali- Baghdad –بغداد), (H. Ablul Wahab – Tunis –تونس), (Adnan – Istanbul–إسطنبول).

ينظر في ذلك النسخة الأجنبية "للدائرة": - The Encyclopaedia of Islam, New edition, 2/5-6.

[2]– **هوتسما** "Houtsma" (1851–1943م): هو مارتن تيودور، مستشرق هولندي، ألَمّ باللغات العربية والفارسية والتركية، ودرّسها في جامعة ليدن وأوترخت، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. من آثاره: "العقيدة الإسلامية والأشعري"، وحقّق "تاريخ اليعقوبي" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 669/2. والأعـــلام، الزركلي، 252/5.

[3]– ينظر: المستشرقون، 1107/3.

[4]– **فنسنك أرند جان** "Wensink" (1882– 1939م): مستشرق هولندي، من أشهر المستشرقين وأكثرهم إنتاجاً، تعلم اللغة العربية وأصبح أستاذاً في جامعة ليدن، اشتهر بمؤلَّفه "مفتاح كنوز السنة"، ووضع بمساعدة غيره "المعجم المفهرس للحديث النبوي". ينظر: المستشرقون، 667/2. والأعـــلام، 289/1. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 416.

[5]– ينظر: المستشرقون، 1107/3.

[6]– يلاحظ على جل المواد التي يحررها "فنسنك" و"شاخت" كما سيأتي، أنها في أغلبها تتمحور حول الفقه والشريعة الإسلامية.

[7]– **ليفي بروفنسال** "Provençal" (1894– 1956م): مستشرق فرنسي يهودي، ولد في الجزائر وتخرج من كلية الآداب فيها، عيّن ضابطاً في الشؤون الإسلامية بالمغرب، ثم أستاذاً بمعهد الدراسات العليا بالرباط، ثم مديراً له، كلفته حكومته بمهام بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق. ينظر: المستشرقون، 275/1. والأعـــلام، 34/2–35.

[8]– ينظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، 202.

[4]– **جوزيف شاخت** (Schacht)[1]: كان في إدارة الإشراف عليها بعد سنة (1956م)[2].

من المواد التي حررها: [مد: التقليد: 411/5]، [مد: الزكاة: 238/15].

الفرع الثالث : المتعقبون على "دائرة المعارف الإسلامية"

يختصّ هذا العنصر بالترجمة العربية "للدائرة"، التي تضمّنت تعليقات لمجموعة من الأساتذة والعلماء الشرقيين المسلمين على نصوصها الأصليّة، فأذكر هنا بعضهم[3]، مع أمثلة عن مواضع من تعليقاتهم:

- أمين الخولي[4]: له تعليقات كثيرة منها: (39/2)، (65/4)، (357/12)، (249/15).
- أحمد شاكر: وتعليقاته أيضا كثيرة[5]، منها: (77/2)، (396/3)، (331/7)، (375/11).
- محمد البشير الإبراهيمي: وجدت له تعليقا وحيداً في: (321/10).
- أبو إسحاق اطفيش: (511/3)، (522/3)، (378/6).
- محمد مسعود[6]: (483/2)، (334/3)، (63/4)، (117/4).
- مهدي علام[7]: وقد عهدت إليه لجنة الترجمة مراجعة نصوصها خاصة في أجزائها الأخيرة: (230/9)، (392/9)، (307/10)، (393/12).
- المترجمون: كما شاركت لجنة الترجمة في التعليق على "الدائرة" في مواضع، منها: (260/1)، (51/2)، (383/10)، (58/14).

---

[1]– **جوزيف شاخت** "Joseph Schacht" (1902–1969م): مستشرق ألماني يهودي، درس اللغات الشرقية وتخصّص في العربية، عيّن أستاذا في جامعة فرايبورغ في ألمانيا، ثم الجامعة المصرية، ودرّس في الجزائر، ثم في كولومبيا بأمريكا إلى وفاته، انتخب في المجمع العلمي بدمشق، من أعماله: "تاريخ الفقه الإسلامي" وغيره. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 803/2. والأعلام، الزركلي، 234/8.

[2]– ينظر: المستشرقون، 1108/3.

[3]– تجاوز عددهم الخمسين متعقبا حسبما أحصيته، وقد ترجمت لبعضهم ولم أعرف بجميعهم، مراعاة للاختصار، لأن القصد هو الإشارة إليهم فقط.

[4]– **أمين الخولي** (1895–1966م): من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، تخرج بمدرسة القضاء الشرعي بالأزهر. من آثاره: "البلاغة العربية"، و"من هدي الرسول" وغيرها. ينظر: الأعلام، 16/2.

[5]– وقد تناولت في موضوع الماجستير دراسة تعليقاته الحديثية على "الدائرة": بعنوان: «تعقّبات الشيخ أحمد شاكر على "دائرة المعارف الإسلامية" في المباحث الحديثية –دراسة تحليلة نقدية–» بإشراف أستاذي الكريم: حميد قوفي.

[6]– **محمد مسعود** (بك) بن حسن عفيفي (1872–1940م): مؤرخ، أديب، صحفي، ومترجم، اتّجه إلى الصحافة فبدأ محررا في "المؤيد"، وشارك في إنشاء صحف أخرى وتحريرها، وأصدر "جريدة الآداب" و"جريدة النظام". ينظر: الأعلام، 96/7. ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، 713/3.

[7]– **محمد مهدي علام** (1900–1992م): عالم وباحث، عيّن عميدا لكلية الآداب بجامعة عين شمس، كما أشرف على مجلة المجمع اللغوي، من آثاره: "فلسفة المتنبي"، و"العفو في الإسلام". ينظر: إتمام الأعلام (ذيل لإتمام الأعلام للزركلي)، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، 271.

وآخرون: كعبد الوهاب النجار، ومحمد حامد الفقي، ومحمد مصطفى حلمي، وجاد المولى، ومحمد شفيق غربال، وأحمد حسن الزيات، وغيرهم.

المطلب الرابع : موقف العلماء والباحثين المسلمين من "الدائرة"

بعد الانتشار الواسع "لدائرة المعارف الإسلامية" بنسختيها الأجنبية والعربية خاصّةً في العالم العربي والإسلامي، وما عرفته من رواجٍ وإقبالٍ واسعين بين الأوساط العلمية والثقافية، لسهولتها وتنوع معارفها، مع ما احتوته من طعون صريحة في الإسلام، وشبهات قد تخفى على غير المتخصص في علوم الشريعة -رغم التعقيب على بعضها-؛ دَفَع ذلك الكثير من العلماء والباحثين على اختلاف تخصّصاتهم إلى أن ينبّهوا المستفيد من هذه "الموسوعة" إلى ضرورة اليقظة والحذر مما قد تحـــويه من أخطاء علمية أو تاريخية مخالفة لحقائق الإسلام، ومعارضة لأصوله.

الفرع الأول: أقوال جلّة من العلماء والباحثين في "دائرة المعارف"

وفيما يلي عرض مجمل لأقوال ثلة من الباحثين والعلماء[1]، تبين نظرتهم "لدائرة المعارف الإسلامية":

– **محمد رشيد رضا:** كان يرى ضرورة التعليق على كلّ ما ورد في "الدائرة" من شبهات أو مطاعن في الإسلام، وتصحيح ما جاء فيها من أخطاء قد تسيء إلى صورة الإسلام وأصوله؛ ولهذا انتقد نشر الأجزاء الأخيرة بلا تعليق على بعض موادها المشوهة للإسلام؛ حيث يقول: «إن نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تعليق على ما فيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة النصرانية (المبشرين) وصحفهم؛ لأن هذه قلما ينخدع أحد من عوام المسلمين بِما فيها من باطل»[2].

وبيّن **محمد رشيد رضا** رأيه النهائي[3] في "الدائرة" فقال: «...هو معجم لَفَّـــقَه طائفة من علمـــاء الإفرنج؛ لخدمة ملّتهم ودولهم المستعمرة لبلاد المسلمين... ذلك بأن هؤلاء الملفِّقين لهذا المعجم الذي سموه "دائرة المعارف الإسلامية"، لم يتركوا شيئا من عقائد الإسلام، ولا من فضائله ولا من شريعته،

---

[1]– لم أذكر جميع الأقوال والآراء التي جمعتها اختصارا؛ لأن أكثرها يصب في المعنى نفسه، فاكتفيت بذكر الأهم.

[2]- مجلة المـــنار، مجلد 34، 387.

[3]- أشاد "محمد رشيد رضا" بترجمة "الدائرة" في البداية؛ لما رأى التزام المترجمين بإرفاق المواد التي تحتاج إلى تصحيح وتصويب، بتعليقات يكتبها علماء متخصصون في بداية صدور الأجزاء الأولى منها سنة (1933م) فقال في "مجلة المنار، مجلد 33، 477": «وإن لِمن ينقله [أي: المعجم] إليها لَمنّة يجب أن نشكرها لهم بالقول والفعل، ونحمد الله أن نهض لأداء هذا الواجب جماعة منا فشرعوا في ترجمتها بلغة الإسلام العامة»، لكنّه عدَل عن هذا الرأي؛ لأن المترجمين – في رأيه – نشروا الأجزاء الأخيرة بلا تعليق على موادها المشوّهة للإسلام. ينظر: مجلة المـــنار، مجلد 33، 477-478، ومجلد 34، 386.

ولا من مناقب رجاله، إلا وصوّروه لقرّاء معجمهم بما يخالف صورته الصحيحة... وفي هذه "الدائرة" عيوب علمية وتاريخية...»[1].

– **أحمد محمد شاكر**: يرى أنّ التعقيب على كل شبهة أو مطعن في موضعه، كَفِيلٌ بتجنّب الآثار السيّئة لبعض أخطاء "الموسوعة"، حيث يقول في تعليقه على مادة "الله" من "دائرة المعارف الإسلامية": «... رأى إخواني أن أبادر بالكتابة في هذه المناسبة؛ احتياطا من الأثر السيّء لكتابة الكاتب عند نشر أقواله باللغة العربية، وذيوع آرائه بين أبناء العروبة في مختلف الأقطار الإسلامية، وقد كان ضررها قاصرا على من يقرأ "الدائرة" باللغة الأجنبية وحدها»[2].

– **مصطفى السباعي**: يقول عنها: «...في هذه "الموسوعة" التي حشد لها كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام، قد دسّ فيها السم في الدسم، وملئت بالأباطيل عن الإسلام وما يتعلق به، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من المثقفين عندنا، بحيث يعتبرونها حجة فيما تتكلم به...»[3].

– **محمد البهي** (المدير العام للثقافة الإسلامية بالأزهر –سابقا–): يقول: «ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار "دائرة المعارف الإسلامية" بعدّة لغات... ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبّأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار "الدائرة"، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم، على ما فيها من خلط وتحريف وتعصّب سافر ضد الإسلام والمسلمين»[4].

– **أنور الجندي**: يقول: «دوائر المعارف التي في أيدي الشباب العربي والإسلامي، والتي كتبت بأقلام أجنبية مليئة بالأخطاء والشبهات، وما فيها من أغلاط بعضها مقصود ضمن مخطط التغريب والغزو الثقافي... ولذلك فإنّ من الضروري أن ينظر شبابنا في حذر إلى هذه المؤلّفات»[5].

ويقول في موضع آخر بعد أن ذكر مجموعة من كتب المستشرقين منها "دائرة المعارف": «ولا ريب أن هذه المؤلفات كلها تحمل أهواء الاستشراق والغزو الفكري، في محاولة انتقاص السنة النبوية...»[6].

– **أبو الحسن الندوي**: نبّه إلى أنّ مكمن الخطر في "دائرة المعارف الإسلامية" أنّها: تُعتبر مصدراً للمعلومات والحقائق الإسلامية، في بعض البلاد الإسلامية، زيادة على ترجمتها إلى لغاتهم بما احتوته من أفكار مخالفة لحقائق الإسلام، ورأى ضرورة إيجاد بديل علمي إسلامي عنها[7].

---

[1]- المصدر السابق، مجلد 34، 386.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 587/2.

[3]– الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، 36.

[4]– المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، 14.

[5]– شبهات في الفكر الإسلامي، 55–56.

[6]– السنة في مواجهة شبهات الاستشراق (ضمن: بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية)، أنور الجندي، 11/2.

[7]– ينظر: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، الندوي، 19.

ولما تحدث "الندوي" عن "دائرة المعارف الإسلامية" وترجمتها في: "الندوة العلمية حول: الإسلام والاستشراق" المنعقدة في الهند سنة (1402هـ/1982م)" دعا إلى: «أن توضع موسوعات إسلامية أصيلة بقلم الباحثين المسلمين، أصحاب الاختصاص في الموضوعات الإسلامية»[1].

كما دعا إلى ذلك آخرون في كتاباتهم أمثال: محمد البهي ومحمود زقزوق وأنور الجندي وغيرهم[2].

وانتقد "الدائرة" أيضا على وجه العموم إضافة إلى من سبق ذكرهم: محمد تقي الدين الهلالي، ومحمود زقزوق، ومحمد عبد الله الشرقاوي وغيرهم[3].

بيد أنه رغم هذه التحفظات والمحذورات التي احتوتها "دائرة المعارف"، مما أشار إليه العلماء والأساتذة السابق ذكرهم، فإن الباحث يحتاج إلى الاستفادة من هذه "الموسوعة" لِما يلي:

- أنها مصدر هام وأصيل للتعرف على آراء المستشرقين وخلاصة فكرهم في الإسلاميات.
- بعض التعقبات التي جاءت في الترجمة العربية، تفيد الباحث في معرفة شبهات المستشرقين ومطاعنهم في الإسلام، مع مناقشتها في مواضعها، وإن كانت لا تغطّي جميع الأخطاء.
- احتوت "الدائرة" على معلومات نادرة وهامة في: التراجم والتواريخ والأماكن وغيرها يمكن الاستفادة منها، لكن يُنظر إلى الآراء المطروحة فيها حول أصول الإسلام وفروعه، على أنّها آراء تُمثّل النظرة الاستشراقية، ولا تعكس غالبا النظرة الإسلامية الصحيحة.
- لا مناص من التعقيب على ما جاء في "الدائرة" من أخطاء لا يرتضيها المسلمون، وتصويبها في "الدائرة" نفسها، كما فعل جماعة من الأفاضل، منهم: أحمد شاكر وحامد الفقي وأمين الخولي ومهدي علام وغيرهم، حتى يستفيد القارئ منها بحذر، كما ينبغي مناقشتها في بحوث مستقلّة متخصّصة وغير متخصّصة كما سأشير إليه في النقطة الموالية.

الفرع الثاني: النقد العام والنقد التفصيلي "لدائرة المعارف الإسلامية"

قدّم جلّة من العلماء والباحثين في المجال الشرعي وغيره، انتقادات وأحكاما عامّة عن "دائرة المعارف الإسلامية" كما في نصوصهم المذكورة آنفا، ولا شكّ بأنّ هذه الانتقادات هامة جدّا في التنبيه على القيمة العلمية لِهذه "الموسوعة"، إضافة إلى تحذير القارئ مما قد تحويه من مخالفات للعقيدة والشريعة الإسلامية، ومن تشويه لِحقائق الإسلام وسيرة المصطفى ﷺ، والتي كثيرا ما تكون متعمَّدة،

---

[1]- المصدر السابق، في الصفحة نفسها.

[2]- ينظر: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد حسن العفاني، 464/2. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 70. والاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، الشرقاوي، 58-59.

[3]- ينظر: المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، البهي، 5. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 149. وشبهات في الفكر الإسلامي، الجندي، 56. والاستشراق في السيرة، عبد الله النعيم، 292.

ومن أخطاء علمية فادحة يقع فيها كثير من المستشرقين لضعف معرفتهم بالعربية وسياقاتها، ولعدم استيعابهم لبعض المباحث أحيانا وما إلى ذلك، كما أنّ لِهذه لأحكام العامة أهميّتها كذلك لِما لِهؤلاء العلماء والباحثين من مصداقية ووزن ومكانة في مجال البحث العلمي وميادين الدعوة والمعرفة في العالم الإسلامي، لكن نظرا إلى الانتشار الواسع لهذه "الموسوعة" في العالم العربي والإسلامي، كان ينبغي تصحيح المفاهيم الخاطئة والرد على الشبهات التي احتوتها بالبراهين العلمية على وجه التفصيل إضافة إلى النقد العام[1] الذي قدّمه هؤلاء العلماء الأجلاء لما احتوته عموما من أخطاء ومخالفات؛ لذا كان النقد التفصيلي له أهمّيته في كشف مغالطات "الدائرة" الاستشراقية زيادة على النقد العام.

ضمن هذا السياق ظهرت في الساحة العلمية عدّة بحوث ودراسات حول "دائرة المعارف الإسلامية" منها ما هو متخصّص في مجال محدّد[2]، ومنها ما هو عام، وهذه الدراسات تناقش ما ورد في نصوص موادها من أمور تحتاج إلى تصحيح أو تدقيق أو ردّ شبهة أو دفع مطعن، ومن هذه الدراسات مثلا:

– **دراسة عامة:** بعنوان: "دائرة المعارف الاستشراقية أضاليل وأباطيل" وهو كتاب للدكتور إبراهيم عوض، طُبع بالقاهرة سنة (1419هـ/1999م)؛ وتعدّدت المباحث التي تعرض لِمناقشتها، وأهمّها: العقيدة، والقرآن، ومسائل فقهية، والنبي محمد ﷺ، والتاريخ.

– **دراسة متخصّصة في العقيدة:** بعنوان: "العقيدة الإسلامية في دائرة المعارف الإسلامية -عرض ونقد بحسب الترجمة العربية-"؛ وهي: رسالة دكتوراه أعدّها: خالد بن عبد الله القاسم -بكلية أصول الدين جامعة أم القرى- مكة المكرمة، وقد نوقشت سنة (1417هـ/1997م)؛ وغيرها.

وفي هذا السياق نجد الأستاذ محمود زقزوق في كتابه البديع عن "الاستشراق" ينبّه إلى ضرورة الدراسة العميقة لآراء المستشرقين من أجل تفنيدها، وكشف مغالطاتها، وتصحيح أخطائها، فيقول: «نجد أنّ استيعاب الإنتاج الاستشراقي حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحا، وإثبات ما يتضمّنه من تهافت أو زيف، الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن جادّة الصواب يفكّرون ألف مرّة قبل أن يكتبوا، تحسّبا لِما قد يواجههم من نقد علمي يعرّيهم ويثبت زيف ادّعاءاتهم، ويؤكّد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" حين يشير إلى: أنّ النقد الأوربي ربّما يكون غير عادل في نقاط معيّنة، ولكنّ القيام بتفنيد هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أوّلا، إذ لا يمكن نقضُه إلاّ على الأساس نفسه الذي قام عليه»[3].

---

[1]– وهذا النقد العام طبعا مبني عل وقوفهم على عدّة مواضع في "الدائرة" وردت فيها مفاهيم مغلوطة عن الإسلام ونبيّه ﷺ.

[2]– وهذا البحث بحول الله يندرج أيضا في هذا السياق؛ فيما يتعلّق "بالسيرة النبوية" خاصة.

[3]– الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 131.

المبحث الثالث : جهود المستشرقين في دراسة السيرة النبوية

قبل الخوض في مناقشة ما جاء "دائرة المعارف الإسلامية" عن سيرة النبي ﷺ، أقدّم نظرة موجزة عن الأدوار التي مرّت بها الحركة الاستشراقية في دراسة السيرة النبوية، مع عرض لبعض جهود المستشرقين في هذا المجال، وبيان الملامح العامة لمناهجهم في دراسة السيرة.

لقد تنوعت أعمال المستشرقين في مجال السيرة النبوية بين:

- التحقيق والنشر لبعض المصادر الأصيلة في السيرة.
- وترجمة بعض مصادر السيرة إلى لغات أوربية.
- وهناك أيضا دراسات وبحوث ألّفها المستشرقون حول السيرة، مع ما فيها من سلبيات.

المطلب الأول : تحقيق ونشر وترجمة تراث السيرة النبوية

الفرع الأول : تحقيق ونشر مخطوطات السيرة

من أهم جهود المستشرقين في مجال السيرة قيامهم بتحقيق وطباعة جملة من المصادر الهامة في دراسة السيرة النبوية، والتي منها:

- "**سيرة ابن هشام**": وهي تهذيب "لسيرة ابن إسحاق"، ومن أهمّ مصادر السيرة، قام المستشرق الألماني "فستنفلد-Wustenlfeld" بتحقيق ونشر النص العربي "لسيرة ابن هشام" في مجلدين مع تعليقات باللغة الألمانية، وطُبع الكتاب سنة (1857/1860م)[1].
- "**مغازي الواقدي**": عمل المستشرق الانجليزي "مارسدن جونز - J.Marsden" على تحقيقه ونشره بالعربية، مع مقدمة وتعليقات، فصدر الجزء الأول سنة (1965م)، والثاني والثالث سنة (1966م) في ليدن[2]، ثم طُبع بعد ذلك عدّة مرات، منها طبعة دار عالم الكتب ببيروت (1984م)، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث.
- "**تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير" لابن الجوزي**: قام المستشرق "بروكلمان-Brokelmman" [1956م] بتحقيق هذا الكتاب، فصدر بالعربية سنة (1892م)، وحقّق أيضا كتاب "**الوفا في فضائل المصطفى**" لابن الجوزي، وطبع سنة (1895م)[3].

---

[1]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/713-714. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 401.

[2]- ينظر: المستشرقون، 2/563.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 2/778.

- "**الطبقات الكبرى**" لابن سعد: قام المستشرق "إدورد سخاو - Sachau" بالإشراف على تحقيق ونشر "طبقات ابن سعد" بمساعدة مجموعة من المستشرقين كـــ"هورفتس" و"تسترشتين" و"بروكلمان" وغيرهم، فطبع في تسعة مجلدات على فترات ما بين سنة (1904/1928م)[1].
- "**تاريخ الطبري**": أشرفَ المستشرق الهولندي "دي خويه – de Goeje" على طباعة كتاب "تاريخ الأمم والملوك" للطبري، بمساهمة مجموعة من المستشرقين منهم: "بارت - Barth" و"نولدكه-Noldeke" و"هوتسما-Houtsma" وغيرهم، وصدر الكتاب بنصّه العربي مع مقدمات وفهارس في خمسة عشر مجلدا على مراحل من سنة (1979م) حتى سنة (1901م)[2].

الفرع الثاني: ترجمة بعض مؤلفات السيرة إلى اللغات الأوربية

من أعمالهم في هذا المجال:

- **ترجمة "سيرة ابن هشام"**: قام المستشرق "دي خويه – de Goeje" مع "دي يونـــج - de Jong" بترجمة "سيرة ابن هشام" إلى اللاتينية، وصدرت سنة (1865م)[3].

كما قام المستشرق الألماني "فايل - G.Weil" بترجمة "سيرة ابن هشام" إلى اللغة الألمانية في مجلدين (1864م)[4].

- **ترجمة** كتاب "**المغازي" للواقدي**: ترجمه "فلهاوزن -Wellhausen" إلى الألمانية تحت عنوان "محمد في المدينة"[5].

وقام المستشرق النمساوي "فون كريمر- Von kremer" بترجمة موجزة "**لِمغازي الواقدي**" إلى الإنجليزية، وطبع سنة (1856م)[6].

- كما قام المستشرق الإنجليزي "جانييه –J.Ganier": بترجمة **قسم السيرة** من كتاب "**مختصر تاريخ البشر**" لأبي الفداء -أمير حماة- إلى اللغة اللاتينية سنة (1722م)، ثم نُشر كتاب "المختصر" لأبي الفداء مترجما بأكمله إلى اللغة الفرنسية سنة (1723م)[7].

---

[1]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 742/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 328.

[2]- ينظر: المستشرقون، 665/2. والأعلام، الزركلي، 338/7. وموسوعة المستشرقين، 231 و409.

[3]- ينظر: المستشرقون، 661/2 و664.

[4]- ينظر: موسوعة المستشرقين، 390-391.

[5]- ينظر: المستشرقون، 724/2. والاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، 11.

[6]- ينظر: المستشرقون، 631/2.

[7]- ينظر: المصدر نفسه، 472/2. وموسوعة المستشرقين، 168.

المطلب الثاني : مؤلفات ودراسات المستشرقين في السيرة النبوية

الفرع الأول : بعض مؤلفات المستشرقين في سيرة النبي ﷺ

- **من المؤلفين في السيرة من المستشرقين الإيطاليين:**

– "**كايتاني** - Leone Caetani" [1869-1926م]: له عدّة دراسات موجزة وموسّعة في السيرة النبوية والتاريخ الإسلام، منها: "**حوليات الإسلام**": وهو كتاب في تاريخ الإسلام من السنة الأولى للهجرة حتى السنة الأربعين (1 هـ/ 40 هـ)، صدر في عشر مجلدات من سنة (1904 إلى1926م)، و"**سيرة محمد نبيًّا ورجل دولة**": الذي صدر سنة (1914م) في مجلد واحد[1].

ويذكر المؤرخ "جواد علي" أنّ: "كايتاني" وإن كان حاول فيه الالتزام بمنهجية البحث الدقيقة والموضوعية في جمع المادة العلمية ومناقشتها، إلاّ أنّه - في حقيقة الأمر - لم يتمسّك بمنهج النقد العلمي تمسكا صحيحا، فوقع في **مزالق كثيرة**، وجاء **بآراء مغلوطة**؛ معتمداً في ذلك على الروايات الضعيفة والشاذة، ومتأثرا بخلفيته الفكرية والعقدية[2].

– "**نلينو كارلو** - Nallino Carlo" [1872-1938م]: له كتاب "**حياة محمد**" نشر سنة (1949م) بعد وفاته[3].

- **من الفرنسيين:**

– "**هنري بولانفلييه** - H.Boulainvilliers" [1658-1722م]: له كتاب "**حياة محمد**"؛ أظهر فيه الرسول ﷺ في صورة النابغة، غير أنّه جعل رسالته محدودة بإطار المجتمع العربي فقط[4].

– "**ويل** - Well" [1808-1889م]: وهو يهودي، له كتاب "**النبي محمد في حياته ودينه**" يقع في مجلد واحد، ونشر سنة (1841م)[5].

– "**درمنغم إميل** - E.Dermenghem" [1892-1971م]: عمل مديرا لِمكتبة الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي، ألّف "**حياة محمد**" طبع في باريس سنة (1929م)، وترجمه إلى العربية عادل زعيتر؛ وهو من أحسن ما ألّفه المستشرقون عن النبي ﷺ، غير أنّه لا يخل من أخطاء ومؤاخذات ناقشه العلامة محمد رشيد رضا في بعضها[6].

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1/372-373. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 494-495.

[2]– ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، 12-13.

[3]– ينظر: المستشرقون، 1/377-380.

[4]– ينظر: موسوعة المستشرقين، 142. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 44.

[5]– ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 42.

[6]– ينظر: الوحي المحمدي، 127 إلى158.

وله أيضا: "**محمد والسنة الإسلامية**" صدر في باريس (1955م)[1].

– "**دينيه إتين** - Etienne Dinet" [1861-1929م]: مستشرق فرنسي أسلَمَ، وأمضى جانبا من حياته في مدينة "بوسعادة" بالجزائر، وجهز لنفسه قبرا بها، أوصى بأن يدفن فيه؛ ألّف في السيرة مع العالم الجزائري سليمان بن إبراهيم كتاباً بعنوان "**محمد رسول الله ﷺ**"، طبع بالفرنسية والانجليزية، وترجمه إلى العربية عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم[2].

بيَّن المستشرق "ناصر الدين دينيه" تحامل الغرب على الإسلام ورسوله، ودافع فيه عن السيرة النبوية[3].

- **ومن الإنجليزيين:**

– "**وليم بدويل** – W.Bedwell" [1561-1632م]: له كتاب "**محمد**"، وهو مشحون بمفتريات سخيفة على النبي الكريم ﷺ[4].

– "**بريدو** – H.Prideaux" [1648-1724م]: ألّف كتابا عن النبي ﷺ وسمّاه "**الطبيعة الحقيقية للخداع كما يتجلّى كاملا في حياة محمد**" ونشره سنة (1697م)[5]؛ ويتجلّى من عنوان هذا الكتاب أنّ المستشرق "بريدو" كتبه بروح شديدة التعصّب ضدّ الإسلام ونبيّه الأكرم عليه الصلاة والسلام[6]؛ لذا قال الأستاذ العقيقي عن مضمون الكتاب: بأنّه «ترجمة تافهة لا غناء فيها»[7].

– "**جانييه** – J.Ganier" [1670-1740م]: ألّف كتاباً بعنوان "**حياة محمد**"، طُبع في جزءين سنة (1732م)[8]، حاول فيه دحض افتراءات المتعصّبين عليه كما ذكر العقيقي[9].

– "**وليم موير** – W.Muir" [1819-1905م]: ألّف كتاب "**حياة محمد والتاريخ الإسلامي**"[10]، قال الأستاذ عبد الرحمن بدوي عن مضمون هذا الكتاب: «كتبه بروح متعصبة خالية من الموضوعية، ومن أجل هدف تبشيري»[11].

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1/297-298.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 1/235. والأعلام، الزركلي، 1/83-84.

[3]– الاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، 32-33.

[4]– ينظر: المستشرقون، 2/464. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 42.

[5]– ينظر: موسوعة المستشرقين، بدوي، 107. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 45.

[6]– موسوعة المستشرقين، 546.

[7]– المستشرقون، 2/471.

[8]– ينظر: المصدر نفسه، 2/471-472. وموسوعة المستشرقين، 169.

[9]– ينظر: المستشرقون، 2/472.

[10]– ينظر: موسوعة المستشرقين، 578. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 45.

[11]– موسوعة المستشرقين، 578.

– "**أرنولد توماس** – Arnold Thomas" [1864–1930م]: ألّف كتاب "**الدعوة إلى الإسلام**"، الذي طُبع سنة (1896م)، ونال هذا الكتاب إقبالا كبيرا، وترجم إلى اللغة التركية والعربية وغيرهما[1].

وهو كتاب حاول فيه التزام الموضوعية، وأنصف فيه الإسلام، وبرهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين[2].

– "**مرجليوث** - D.S.Margoliouth" [1858–1940م]: متعصّب ضدّ الإسلام، وله في السيرة "**محمد ومطلع الإسلام**" صدر سنة (1905م)[3].

قال عبد الرحمن بدوي – بعد أن ذكر بعض دراساته–: «لكنّ هذه الدراسات كانت تسري فيها روح غير علمية ومتعصّبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط عند المسلمين، وبل وعند كثير من المستشرقين»[4].

– "**مونتجمري وات** - Montgomery Watt" [1909–2006م][5]: هو من أبرز المستشرقين الذين تناولوا سيرة الرسول ﷺ بالكتابة في العصر الحديث، وحاول تطوير الدراسات الاستشراقية للسيرة النبوية، وله ثلاثة كتب تعتبر من أهم ما كتبه المستشرقون المعاصرون عن حياة الرسول ﷺ؛ وهي:

– "**محمد في مكة**": صدر سنة (1953م).

– "**محمد في المدينة**": صدر عام (1956م).

– "**محمد النبي ورجل الدولة**": وهو ملخّص من الكتابين السابقين، صدر سنة (1961م)[6].

قدّم الأستاذ "عماد الدين خليل" دراسة مفصّلة حول منهج "مونتجمري وات" في دراسة السيرة والتعامل مع وقائعها، في بحث بعنوان "المستشرقون والسيرة النبوية - بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتجمري وات–" طُبع ضمن "مناهج المستشرقين في السيرة"[7]، ثم طُبع مستقلاّ، وكذا نقد منهج المستشرق "وات" في كتبه الأستاذ عبد الله النعيم في كتابه "الاستشراق في السيرة"؛

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 504/2. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 9.

[2]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، 32–33.

[3]– ينظر: المستشرقون، 518/2–519. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 43.

[4]– موسوعة المستشرقين، 546.

[5]– **وليام مونتجمري وات** "Montgomery Watt": وهو عميد قسم الدراسات العربية في جامعة "إدنبره" بأسكتلندا. من مؤلفاته الأخرى: "عوامل انتشار الإسلام"، و"الإسلام والجماعة الموحدة". ترجمته في: المستشرقون، 554/2. والاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، 9. وموقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org/wiki/وليام_مونتغمري_وات).

[6]– ينظر: المستشرقون، 554/2. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 42. والاستشراق في السيرة النبوية، 9.

[7]– 115/1.

وخـــلاصة ما توصّلا إليه: أنّ "مونتجمري وات -Watt": وإن حـــاول ما في وسعه إبراز حياديّـــته في دراسة السيرة، وأن يَظهر بمظهر الباحث (الجديد) الذي تجاوز أخطاء أسلافه ومعاصريه -كما ذكر هو نفسه في مقدمة كتابه الأول-، بل وسعى إلى التحلّي بقدر من الاحترام والحيادية إزاء الجذور الغيبيّة لحقائق السيرة ووقائعها؛ إلاّ أنّه مارس هو الآخر نوعا من المبالغة في التشكيك والنفي الكيفي لوقائع السيرة، كما خرج عن حياديّته والمنهج الذي رسمه في مقدّمته عندما أمعن في التفسير المادي لكثير من الأمور الغيبية في السيرة، وحاول تقرير بشرية الوحي، ووقع في كثير من المزالق والأخطاء العلمية والتاريخية التي وقع فيها من سبقه من المستشرقين، مع شيء من التجديد والتطوير في الطرح مقارنة بالأسلوب الكلاسيكي القديم للمدرسة الاستشراقية[1].

- **من الهولنديين:**

– "**رينالد** – A.Reeland" [1676-1718م]: مستشرق منصف؛ له كتاب في "**الديانة المحمديـــة**"، نشر سنة (1705م)؛ وحاول في كتابه هذا: تصويب بعض أفكار الأوربيين الخاطئة عـــن الإســـلام والنبي ﷺ التي كانت منتشرة في أوربا منذ القرون الوسطى[2].

– "**سنوك** – H.Snouck" [1857-1936م]: ألّف كتابا عن "مكة" صدر ســـنة (1888م)، ولـــه كتابات حول نشأة الإسلام وتطوره[3]، قال عنه محمد البهي: «حارب الإسلام والمسلمين بكتبه»[4].

– "**فنسنك** – A.J.Wensinck " [1881-1939م]: مؤلّف كتاب "مفتاح كنوز السنة"، وله جهود ودراسات في السنة والسيرة، منها: "**محمد واليهود في المدينة**"، ودراسة بعنوان "**محمد والنبوة**" صدرت سنة (1924م) وغيرها[5].

- **ومن الألمانيين:**

– "**فلهاوزن** - J.Wellhausen" [1844-1918م]: له كتاب "**محمد في المدينـــة**" وهو مختصر اعتمد فيه على النصف الأول من مغازي الواقدي، وله "**تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام حـــتى نهايـــة الدولة الأموية**" طبع في برلين سنة (1902م)[6].

---

[1]– ينظر: الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، 36-47. والمستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 1/121-193.

[2]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/655. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 307. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 42.

[3]– ينظر: المستشرقون، 2/666. وموسوعة المستشرقين، 354.

[4]– المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، 20.

[5]– ينظر: المستشرقون، 2/667-668. وموسوعة المستشرقين، 417.

[6]– ينظر: المستشرقون، 2/724-725. والأعـــلام، الزركلي، 2/96-97.

– "**نولدكه** - Th.Noldeke" [1836-1930م]: له كتاب "**تاريخ القرآن**"، وشارك مع المستشرق "شبرنجر" في تأليف كتاب "**سيرة محمد**" طبع في برلين سنة (1861م)[1]، وهو معروف بعدائه للإسلام[2].

– "**بروكلمان** - C.Brokelmman" [1868-1956م]: صاحب كتاب "**تاريخ الشعوب الإسلامية**" الذي صدر سنة (1939م)، وترجم إلى العربية وطُبع في بيروت سنة (1949م)، وتضمّن الكلام على صدر الإسلام وسيرة المصطفى ﷺ[3].

اعتمد "بروكلمان" في هذا الكتاب على مناهج المدرسة الاستشراقية المعاصرة؛ من الاعتماد على التفسيرات المادية لوقائع السيرة، وتجاهل البعد الغيبي والروحي لرسالة المصطفى ﷺ، إضافة اعتماد أساليب النفي والتشكيك الكيفي في وقائعها، كما لم تخل تحليلاته من الخلفيات الفكرية والعقدية[4].

- **من البلجيكيين:**

– "**لَمنس هنري** –Henri Lammens" [1862-1937م]: القسّ اليسوعي، له عدّة كتابات متعلقة بالسيرة والتاريخ الإسلامي، منها: "**عصر محمد وتاريخ السيرة**" (1911م)، و"**فاطمة وبنات محمد**" (1912م)، و"**مهد الإسلام**" سنة (1924م) وغيرها[5].

قال عنه مصطفى السباعي: «شديد التعصب ضد الإسلام والحقد عليه، مفرط في عدائه وافتراءاته لدرجة أقلقت بعض المستشْرِقين أنفسهم»[6]، وقال عبد الرحمن بدوي عنه: «راهب يسوعي شديد التعصب ضد الإسلام؛ يفتقر افتقارا تاما إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها»[7]، وقال: بأنّه «تحامل في كتبه على السيرة النبوية تحاملا شديداً»[8].

- **ومن الدنِماركيين:**

– "**بول** –F.Buhl" [1850-1932م]: ألّف كتاب "**حياة محمد**" الذي صدر سنة (1903م) باللغة الدنماركية، ثم أضاف إليه ذيلا عن "دعوة محمد إلى الإسلام كما وردت في القرآن" سنة (1924م)[9].

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/724-725. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 46.

[2]– المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، 18.

[3]– ينظر: المستشرقون، 2/777-782.

[4]– ينظر: الاستشراق في السيرة –دراسة تاريخية لآراء "وات، بروكلمان، فلهاوزن"، عبد الله النعيم، 48-51.

[5]– ينظر: المستشرقون، 3/1068-1069. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 503-504.

[6]– الاستشراق والمستشرقون، 48.

[7]– موسوعة المستشرقين، 503.

[8]– المصدر نفسه، 504.

[9]– ينظر: المستشرقون، 2/844-845. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 45.

وله ومقال بعنوان "**محمد**" في مجلة "عالم الإسلام"، سنة (1911م)، وهو محرّر مادة "محمد ﷺ نبي الإسلام" في "دائرة المعارف الإسلامية" التي سيناقش هذا البحث عدّة فقرات منها.

– "**بدرسن** – J.Pedersen" [مولود في: 1883م]: له كتاب "**الإسلام منشؤه ونهضته**"[1].

- **ومن النمساويين:**

– "**شبرنجر** – A.Sprenger" [1813-1893م]: له كتاب "**سيرة محمد**" في ثلاثة أجزاء، أعانه فيه المستشرق "نولدكه"[2].

وقد نَقَد جواد علي: أسلوب "شبرنجر" المضطرب في التعامل مع روايات السيرة في هذا الكتاب، ونبّه إلى تأثّره بالخلفيات الاستشراقية في نقد أخبار السيرة وتحليلها[3].

الفرع الثاني : مؤلفاتهم في تاريخ تدوين السيرة

من كتابات المستشرقين في هذا المجال:

– **مقدمة "فستنفلد** - Wustenlfeld" **على تحقيقه "لسيرة ابن هشام"**: تطرّق فيها إلى الكلام على ابن إسحاق وتوثيقه، لكون ابن هشام روى "سيرة ابن إسحاق" وهذّبها، كما تكلّم على مصادر الرواية والأخبار في سيرة ابن هشام[4].

– بحث عن "**محمد بن إسحاق**": ليوهان فوك "Fuck"[5].

– **المغازي الأولى ومؤلفوها:** للمستشرق الألماني "هورفتس –Horovitz"[6]؛ وهو مؤلَّف قيّم في تدوين السيرة، بَحَث فيه المستشرق بالتفصيل نشأة كتب المغازي والسيرة في أطوارها الأولى، مع بيان مناهج المؤلفين الأوائل في السيرة من عهد كبار التابعين إلى غاية ابن سعد، وقد ترجم حسين نصار هذا الكتاب إلى العربية، وهو مطبوع متداول.

– **مقدمة "مارسدن جونز** - Marsden" **على تحقيقه "لِمغازي الواقدي"**[7]: وهي مقدمّة قيّمة، قدّم فيها تعريفا بالمؤلفين الأوائل في السيرة النبوية في القرنين الأول والثاني من الهجرة، مع بيان مناهجهم في تأليف كتبهم، وقيمتها العلمية.

---

[1]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/848-850.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 2/631-632. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 46.

[3]– ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 11-12.

[4]– ينظر: المستشرقون، 3/1134. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 401.

[5]– ينظر: المستشرقون، 2/798.

[6]– ينظر: المصدر نفسه، 2/743-744.

[7]– ينظر: مغازي الواقدي، مقدمة التحقيق، 1/ من5 إلى34.

المطلب الثالث: جوانب من الجهود الإيجابية والسلبية لدراسات المستشرقين في السيرة

بذل المستشرقون منذ القرون الوسطى جهودا كبيرة في دراسة علوم الإسلام عامة، وما يتعلّق بسيرة النبي ﷺ خاصة، حيث ظهرت إلى ساحة التأليف كتاباتهم في هذا المجال، لكنها حملت معها الوجه السلبي للاستشراق بالطعن في نبوة محمد ﷺ وربّانية الإسلام، والتشكيك في صحة وقائع السيرة وأصالتها، ورغم ذلك فقد صدرت عنهم أعمالٌ تُعتبر إيجابية من بعض وجوهها.

الفرع الأول: من الجوانب الإيجابية لدراسات المستشرقين في السيرة

قدّمت المدرسة الاستشراقية جهودا كبيرة في مجال الدراسات الإسلامية، ومع ما حملته كثير من هذه الدراسات من حملات معادية الإسلام ونبيّه ﷺ، لأغراض دينيّة تبشيرية وأخرى سياسية وغيرها مِمّا تقدّم تفصيله، إلاّ أنّ الدراسات الاستشراقية اشتملت كذلك على عناصر إيجابية إلى جانب تلكم العناصر السلبية، فقد قدّم المستشرقون بعض الجهود المشكورة في دراساتهم للإسلام عامّة، وللسيرة والسنّة النبوية خاصّة[1]، لذا كان من الإنصاف أن نعترف للمستشرقين بما لهم من عناصر إيجابية، كما أنه من واجبنا أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء[2]، إذ لا يمكن أن نتجاهل كما يذكر أبو شهبة: «أنّ بعض المستشرقين كانت لهم في دراساتهم للسنة والأحاديث أعمال مذكورة غير منكورة، ومشكورة غير محجورة، كإحياء بعض الكتب الحديثية»[3]، وكذلك بعض المصادر الأصيلة الهامة في السيرة النبوية، بتحقيقها ونشرها ونحو ذلك، ومن جملة ما قدّموه في هذا الشأن:

[1]- حفظ المخطوطات وطباعتها: إن انتقال المخطوطات إلى أوربا بوسائل شرعية وغير شرعية؛ قد هيأ لها **أحدث وسائل الحفظ والعناية** الفائقة، والفهرسة الدقيقة، في وقت عانت فيه المخطوطات النادرة في العالم الإسلامي من التلف والتآكل[4].

أمّا في مجال **تحقيق المخطوطات العربية التراثية وطباعتها:** فنجد الشيخ "أحمد شاكر" يبيّن أنّ: طباعة الكتب العلمية التراثية في البلاد العربية كانت في بداية القرن العشرين على حال متخلّفة في أغلبها، مقارنة بطباعتها وإخراجها في البلاد الأوربية؛ إذ كان المستشرقون يخرجون المخطوطات العربية والإسلامية في صورة تتميز: بالعناية بالأصول الخطيّة ووصفها، مع وضع الفهارس العامة لِمباحثها،

---

[1]- ينظر: دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، أبو شهبة، 375.

[2]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، 12.

[3]- دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، 375.

[4]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، 64.

بينما كان يُغفل هذا الجانب كثير من الذين يطبعون كتب التراث بمصر وغيرها آنذاك[1].

كما **ينبّه** الشيخ "أحمد شاكر" -في الوقت نفسه- إلى ما قد **تحويه طبعات** المستشرقين **من التعسف** في الاستنباط و**التأويل الفاسد** لنصوصها؛ ذلك أنّ المستشرقين وإن كانوا يحافظون على النصوص الأصلية للكتب التي يحقّقونها ويطبعونها، إلاّ أنّهم قد يحرّفون المعاني أحيانا فيما يوردونه من تعليقاته وحواشٍ على نصوص تلك الكتب، وهو ما بيّنه "أحمد شاكر" في قوله: «إنّ جلّ أبحاثهم [أي: المستشرقين] في الإسلام وما إليه إنما تصدر عن هوىً وقصدٍ دفين، وأنّهم كسابقيهم ﴿**يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ**﴾ [النساء: 46]، وإنما يفضلونهم بأنهم **يحافظون على النصوص، ثم هم يحرفونها بالتأويل** والاستنباط»[2].

غير أنّ هذا لا يمنع من ذكر الجهود المشكورة للمستشرقين في حفظ وطباعة جانب من التراث العلمي الإسلامي، لذا يقول الشيخ "أحمد شاكر": «ومعاذ الله أن نبْخَس أحدًا حقّه، أو ننكر ما للمستشرقين من جهود مشكورة في إحياء آثارنا الخالدة، ونشر مفاخر أئمتنا العظام»[3].

ومن جهود المستشرقين في ذلك كما سبق بيانه: طباعة ونشر بعض مصادر السيرة النبوية الهامّة كـ**"سيرة ابن هشام"** و**"مغازي الواقدي"** و**"تاريخ الطبري"** و**"طبقات ابن سعد"** وغيرها، مع الحرص على نقل النصوص التامة لهذه الكتب باللغة العربية[4].

[2]- صناعة الفهارس والكشافات العلمية: من أعمال المستشرقين في هذا المجال:

أ)- مفتاح كنوز السنة[5]: وضع المستشرق "فنسنك - Wensinck"[6] هذا الكتاب مرتبا على حروف حروف المعجم؛ حتى يتيسر للباحثين الوقوف على الأحاديث والآثار وروايات السيرة في مظانّها ومواضعها، بعنوان "الأحاديث النبوية الأولى مرتبة ترتيبا هجائيا" صدر سنة (1927م)، ثم نقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي تحت عنوان "مفتاح كنوز السنّة" سنة (1934م)[7].

---

[1]- ينظر: تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك [وهي مقدمة أحمد شاكر على تحقيقه لجامه الترمذي]، أحمد شاكر، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، 10-12.

[2]- المصدر نفسه، 13.

[3]- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[4]- ينظر: المستشرقون، العقيقي، 563/2، 713، 742، 778، 1134. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 328، 401.

[5]- هو فهرس للأحاديث والآثار مرتبٌ على الموضوعات، وقد جعله مصنّفه مفتاحا لأربعة عشر كتابا من كتب السنّة المشهورة، وهي: الكتب الستة، وموطأ مالك، ومسند أحمد، ومسند أبي داود الطيالسي، وسنن الدارمي، ومسند زيد بن علي، وسيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد. ينظر: موسوعة المستشرقين، 417. والإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، أبو الحسن الندوي، 14. ومفتاح كنوز السنة، فنسنك، مقدمات الكتاب، (أ).

[6]- سبقت ترجمته في: ص49.

[7]- ينظر: تاريخ حركة الاستشراق، المستشرق يوهان فوك، 345-346. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 417. والإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، 14.

جعله مؤلِّفه مفتاحاً لأربعة عشر مصنّفا حديثيا، منها كتب في السيرة: كـ"تهذيب السيرة لابن هشام" و"مغازي الواقدي"، و"طبقات ابن سعد"؛ لذا كان لهذا الكتاب **أهمّيته في مجال السيرة** النبوية، من حيث أنّه يسهّل الوقوف على روايات السيرة النبوية في مظانّها من كتب الحديث وكتب السيرة والمغازي على السواء.

كما احتوى هذا الكتاب **فهرسةً** لِجملة من **الألفاظ والموضوعات المتعلّقة بالسيرة** النبوية منها على سبيل المثال: مفردات "الإسراء" و"الهجرة" و"أحد" و"الخندق" و"الحديبية" وغيرها[1]، وبيان مواضع الروايات المتعلّقة بهذه الألفاظ والمواضيع في مصادر الرواية الأربعة عشر.

ثُمّ إنّ هذا الكتاب لقي ترحيبا كبيرا من العلماء والباحثين في الحديث داخل العالم الإسلامي، فأشاد به: محمد رشيد رضا، وأحمد شاكر، وأخوه محمود شاكر، وأبو الحسن الندوي وغيرهم[2].

يقول محمد رشيد رضا: «...وإن عالمنا الإسلامي لهو أحوج إليها [أي: هذه الفهرسة] من العالم الأوربي»[3]، ثم يذكر عن نفسه أنه: «لو وُجد بين يديّ هذا المفتاح لسائر كتب الحديث؛ لوفر عليّ أكثر من نصف عمري الذي أنفقته في المراجعة»، وأخيرا يشكر لصاحب الكتاب عمله هذا[4].

ب)– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي[5]: أشرف على وضعه "فنسنك –Wensinck" بالاشتراك بالاشتراك مع مجموعة من المستشرقين، لكنّه توفي قبل اكتماله، فاستمر زملاؤه في العمل عليه، حتى تَمّ عام (1936م)[6]، ولا شك أن هذا العمل كسابقه، قدم خدمة جليلة للباحثين في الأحاديث وروايات السيرة النبوية.

مع العلم بأن مثل هذه الأعمال للمستشرقين وُضعت أصلا لخدمة أهدافهم الخاصة، لا لِخدمة البحث العلمي وإثرائه في العالم الإسلامي[7]، إلا أن علماء الإسلام استفادوا من بعض هذه الجهود،

---

[1]– مواضع هذه المفردات على التوالي في: مفتاح كنوز السنة، فنسنك، 42، 514، 21، 181، 153.

[2]– ينظر: مقدمة محمد رشيد رضا على "مفتاح كنوز السنة"، (ن). وكذا مقدمة أحمد شاكر على "مفتاح كنوز السنة"، (ت). والإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، أبو الحسن الندوي، 14.

[3]– مفتاح كنوز السنة، فنسنك، مقدمة رشيد رضا، (ن).

[4]– المصدر نفسه، مقدمة رشيد رضا، (س– ش).

[5]– يتألّف هذا الكتاب من كلمات مفتاحية (أو مواد) للأحاديث مرتّبة على حروف المعجم، لِتسعة (9) مصادر من أشهر كتب السنة، وهي: الكتب الستة وموطأ مالك ومسند أحمد ومسند الدارمي.

[6]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/667-668.

[7]– ينظر: تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة، أحمد شاكر، 12. ومقدمة كتاب "المتنبي"، محمود شاكر، 1/54.

ملحظ هام: يذكر "محمود شاكر" في مقدمة كتابه "المتنبّي، 1/54-55" المسماة: (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا): أنّ المستشرقين كانوا لا يطبعون من هذه الكتب إلا أعدادا محدودة، توزع على مراكز الاستشراق في أوربا وأمريكا، وما فضل منها وهو قليل جدا، كانت تسقط منه النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر في بلداننا؛ إذ لم يسوّغوا قط تسويقها في العالم العربي والإسلامي، كما تسوق بضائعهم الأخرى.

وإنما يدل هذا على «تقديرنا للأعمال العلمية النافعة... فنقول للمحسن: أحسنت وللمسيء: أسأت»[1].

[3]- دراسات منصفة في السيرة لِبعض المستشرقين: كما لا تُنكَر جهود طائفة من المستشرقين الذين اتّسمت دراساتهم في السيرة النبوية بالاعتدال والإنصاف، على تفاوت بينهم في ذلك، فمنهم من أخطأ وأصاب، ومنهم من أدّى به البحث النّزيه إلى الدخول في الإسلام[2].

إذ لا يمكن أنْ نغفل في هذا المقام أنّ بعض المستشرقين - وإن كانوا قلّة - «مارسوا كشفا نقديا طيّبا لكثير من أعمال رفاقهم في البحث، وألقوا الضوء على الثغرات والمطبّات التي وقعوا فيها»[3]، ومن ومن أبرزهم: المستشرقون: "رينالد - Reeland"، و"درمنغم - Dermenghem"، و"أرنولد - Arnold"، و"دينيه – Dinet/ ناصر الدين"، و"ليوبولد فايس - Weiss/ محمد أسد" وغيرهم؛ ومن هؤلاء المستشرقين من أسلم ومنهم من لم يسلم، مع العلم بأن أولئك المستشرقين أنفسهم ما كانت رؤيتهم تصل دائما إلى درجة النقاء العلمي المطلوب[4]، وذلك أنّه «لو سلّمنا بموضوعية بعض المناهج الاستشراقية[5] في مضمونها ومحتواها، إذا ما قُدر لها النجاة من التعصب والأهواء، فإنّها لا تخلو مع ذلك ذلك من أخطاء خطيرة في مجالات دراسة موضوعات الاستشراق، نتيجة الجهل باللغة والتاريخ، أو نتيجة عدم استيعاب المستشرق الأوربي لخصوصية الظواهر التي يدرسها في الشرق»[6].

وهو الأمر الذي يبيّنه أحمد شاكر في قوله: «نعم إنّ منهم [أي: المستشرقين] رجالا أحرار الفكر، لا يقصدون إلى التعصب، ولا يميلون مع الهوى، ولكنهم أخذوا العلم عن غير أهله، وأخذوه من الكتب، وهم يبحثون في **لغة غير لغتهم**، وفي علوم **لم تَمتزج بأرواحهم**، وعلى أسس غير ثابتة **وضعها متقدّموهم**، ثم لا يزال ما نُشِّئوا عليه واعتقدوا، يغلبهم ثم ينحرف بِهم عن الجادة، فإذا هم قد ساروا في طريق آخر، غير ما يؤدّي إليه حرّية الفكر والنظر السليم»[7].

ويمكن تصنيف المستشرقين المنصفين في دراسة السيرة إلى قسمين: مستشرقون منصفون أسلموا، وآخرون لم يسلموا، وفيما يلي ذكر بعض الأسماء من كلا الصنفين:

---

[1]- دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، أبو شهبة، 375.

[2]- ينظر: أساليب الغزو الفكري للعامل الإسلامي، علي جريشة ومحمد الزبيق، 28.

[3]- بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 139/1.

[4]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 32-33. والمستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 139/1. وآثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، جابر قميحة، 18.

[5]- على قلّتها؛ بحيث تعتبر هذه الفئة من المستشرقين قليلة ونادرة، كما أنّه لا تسلم جهودهم من أخطاء علمية ومنهجية.

[6]- الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 38.

[7]- تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك، 13.

أ)– مستشرقون منصفون (لم يسلموا): نجد فريقا من المستشرقين - وإن لم يسلموا- كتبوا عن سيرة النبي ﷺ بشيء من الإنصاف المجافي للصورة النمطيّة التي كان يقدّمها جلّ المستشرقون في القرون الوسطى ثم في العصر الحديث، بل إنّ بعضهم قدّم انتقادات مباشرة لِمناهج المستشرقين وطرائقهم في دراساتهم عن الإسلام ونبيّه ﷺ، والتي كثيرا ما تكون منافية لروح البحث العلمي النزيه، ومشحونة بالعصبيّة في الطرح والتحليل من جهة، وبالتدليس والتمويه في العرض من جهة أخرى، فكان لأعمالهم هذه أثرٌ في الدفاع عن سيرة النبي ﷺ في بعض جوانبها، كما حفّزت انتقاداتُهم المدرسةَ الاستشراقية على إعادة النظر فيما تقدّمه من بحوث ودراسات في هذا المجال[1].

من أولئك المستشرقين على سبيل المثال:

– **المستشرق الهولندي "رينالد** –Reeland": ألّف كتاب "**الديانة المحمدية**": وقام فيه بفحص الآراء الباطلة التي كانت منتشرة في أوربا منذ القرون الوسطى عن الإسلام والقرآن والنبي محمد ﷺ، وحاول تصحيحها استنادا إلى مؤلّفات المسلمين، حتّى أنّه صدّر كتابه بتحقيق كتاب موجز في العقائد لمؤلّف مسلم، وهو بهذا كان من أوائل المستشرقين الأوربيين الذين عملوا على تبرئة الإسلام ونبيّه ﷺ من التّهم الباطلة التي اختلقها الكتاب والمبشرون وأشاعوها في الأوساط الأوربية، وشوّهوا بها حقيقة الإسلام عن قصد وضغينة غالبا[2].

– **المستشرق الإنجليزي "أرنولد** -Arnold"[3]: أنصف الإسلام ونبيّه ﷺ في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"؛ وبرهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين، على عكس مخالفيهم معهم، كما دافع عن عالمية الإسلام، وانتقد آراء بعض المستشرقين في ذلك[4].

– **المستشرق والأديب الإنجليزي "كارليل** - Carlyle"[5]: الذي حاول تصحيح النظرة السلبية للغرب تجاه النبي ﷺ والإسلام منذ القرون الوسطى، وأنصف النبي ﷺ ودعوته في مواضع من كتابه "الأبطال"،

---

[1]– يشير إلى ذلك مثلا قول المستشرق "مونتجمري وات -Watt" في كتابه "محمد ﷺ في مكة، 121": «منذ ألقى "كارليل - Carlyle" محاضرته عن محمد ضمن سلسلة محاضراته عن الأبطال، أصبح الغرب على وعي بوجود أساس طيب للاعتقاد في إخلاص محمد ﷺ».

[2]– ينظر: المستشرقون، العقيقي، 655/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 307. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 42.

[3]– **توماس ووكر أرنولد** "Thomas Arnold" (1864– 1930م): مستشرق إنجليزي، تعلم في "كمبردج"، وعُيّن أستاذا للعربية للعربية في جامعة لندن، ثم مديرا لِمعهد الدراسات الشرقية بها. له كتب بالانجليزية في: "تعاليم الإسلام" و "الخلافـــة" وغيرها.
ينظر: الأعـــلام، الزركلي، 94/2. والمستشرقون، 504/2. وموسوعة المستشرقين، 9–10.

[4]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 32–33. وتراجع أمثلة عن ذلك في كتاب "أرنولد - Arnold": الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، 48–53، 67–70.

[5]– **توماس كارليل** "Th.Carlyle" (1795–1881م)،: كاتب انجليزي (اسكتلندي) وناقد ومؤرخ، أصدر كتابه "الأبطال" سنة (1840م). ينظر: المستشرقون، العقيقي، 481/2.

ومِمّا قاله في ذلك: «لقد أصبح من أكبر العار على أيّ فرد من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أنّ دين الإسلام كذب، وأن محمدا خدّاع مزوّر، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا... فوا أسفاه ما أسوء مثل هذا الزعم وما أضعف أهله...

وهل رأيتم قط معشر الإخوان، أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجبا؟!

والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنِيَ بيتا من الطوب؛ فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير، والجص، والتراب، وما شاكل ذلك؛ فما ذلك الذي يبنيه ببيت، وإنما هو تل من الأنقاض، وكثيب من أخلاط المواد... وهو جدير بأن تنهار أركانه، فينهدم؛ فكأنه لم يكن»[1].

ثم يقول: «وعلى ذلك، فلسنا نعدّ محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، ويطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو إلى غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسائل التي أدّاها إلا حق صراح، وما كلمته إلا قول صادق»[2].

وقال أيضا: «لقد أخرج اللهُ العربَ بالإسلام مِن الظلمات إلى النور، وأحيا به من العربِ أمّةً هامدةً»[3].

مع التنبّه إلى أنّ **أعمال المستشرقين المنصفين لم تسلم من الأخطاء** والتحامل[4]؛ لأسباب علمية ومعرفية أحيانا، ولأسباب بيئيّة وفكرية أحيانا أخرى كما تقدّم بيانه قريبا.

فإنّ غربة المستشرقين عن العربية والإسلام لا يمكن أن تمنحهم الدقة المطلوبة ولا الفكر المستوعب في البحث الموضوعي، مهما كانوا منصفين، فإنّهم مهما أعملوا قدراتهم العقلية، ومهما اجتهـــدوا في تحليلاتهم المنطقية، واستنفروا إمكاناتهم التقنية في دراسة وتحقيق التراث الإسلامي؛ فإنّهم غير واصلين البتة إلى تقديم صيغة أقرب إلى الكمال لسيرة رسول الله ﷺ[5].

ب)– مستشرقون منصفون أسلموا: تعمق بعض المستشرقين في دراسة الإسلام بتجرّد وموضوعية؛ فأسلموا بعد بحث واقتناع، وكتبوا عن الدين الإسلامي ما لم يكتبه أبناؤه، من أمثال: ناصر الدين

---

[1]– الأبطـــال، ترجمة محمد السباعي، 53.

[2]– المصدر نفسه، 55.

[3]– المصدر نفسه، 82.

[4]– من ذلك على سبيل المثال: نجد اضطرابا وأغلاطا في كلام المستشرق "كارليل" عن القرآن الكريم والوحي، وأيضا: في نسبته تأليف القرآن إلى الرسول ﷺ وما إلى ذلك من الأخطاء. ينظر: المصدر السابق، 74-75.

[5]– ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 49. والرسول في كتابات المستشرقين، نذر حمدان، 16. والمستشرقون والسيرة والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 120/1.

"دينيه - Dinet"[1]، وعبد الكريم "جرمانوس - Germanus"[2]، ومحمد أسد "ليوبولد فايس - Weiss"[3] وغيرهم[4].

فهؤلاء المستشرقون أعلنوا إسلامهم، بعدما أزالوا عن أذهانِهم غشاوة الخلفيات الفكرية والعقديـــة -التي ما فتئت تحجب عامة المستشرقين قديما وحديثا عن الحقيقة- وصلوا إلى نتائج علمية جادة، وقدّموا انتقادات علمية رصينة لإخوانهم من المستشرقين، كما أنّهم اهتمّوا بالكشف عن الثغرات العلمية في كتابات ودراسات المستشرقين عن الإسلام وعن النبي ﷺ.

الفرع الثاني: من الجوانب السلبية لدراسات المستشرقين في السيرة

رغم بعض الجهود المشكورة لجملة من المستشرقين في مجال السنة والسيرة، نجد في مقابل ذلك جهوداً أخرى سلبية، كثيرا ما تكون شائعة في أعمالهم، وتُمثّل جانبا كبيرا من أعمال المستشرقين الذين يسعون لخدمة الأغراض الدينية والتبشيرية للمدرسة الاستشراقية من خلال إثارة الشبهات والمطاعن حول سيرة النبي ﷺ.

- **من شبهات ومطاعن المستشرقين في السيرة**[5]: أثار المستشرقون في كتاباتهم عن الإسلام قديما وحديثا شبهات ومطاعن كثيرة حول الرسول ﷺ وسيرته العطرة، ويمكن إيجاز أبرزها في النقاط الآتية:

[1]- **الطعن في نبوته ﷺ**: يحرص المستشرقون على نزع ثوب النبوة عن سيدنا محمد ﷺ، ويسلكون لذلك كلّ سبيل[6] مهما كان ملتويا، وبعيدا عن الحقيقة والصواب، من أجل عزل السيرة المحمدية عن صفة النبوة والرسالة.

---

[1]- سبقت ترجمته في: ص24.

[2]- **جرمانوس جيولا عبد الكريم** "J.Germanus"؛ (1884-1979م): مستشرق مجري، درس في المجر، ثم تابع دراسته، في جامعتي استنبول ثم فيينا، عمل أستاذاً للدراسات الشرقية في أكاديمية بودابست، ثم درّس في بعض جامعات الهند، وأشهر هناك إسلامه، من مؤلفاته: "دور الأتراك في التاريخ الإسلامي"، وكتاب "الله أكبر" الذي نشر بعدة لغات. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 481/2.

[3]- سبقت ترجمته في: ص25.

[4]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 48. وكذا: إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي، 7-8.

[5]- أنبّه هنا إلى أنّ هذه المطاعن والشبهات مأخوذة من الدراسات النقدية التي قدّمها جلة من العلماء والباحثين المسلمين لدراسات المستشرقين في السيرة النبوية خارج "دائرة المعارف"؛ وذلك حتى لا يُفهم من هذا العنصر استباق الأحكام قبل دراسة ما جاء في "الدائرة".

[6]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 19. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 157.

وإذا كان المستشرقون القدماء في العصور الوسطى حاولوا الطعن في نبوّة النبيّ ﷺ باتّهامه بالدجل والإجرام والهرطقة، أو وصفه بأنّه قسّيس منبوذ، أو صنم معبود، ونحوها من الافتراءات[1] البعيدة كلّ البعد عن الحقيقة العلمية والوقائع التاريخيّة للسيرة، فإنّ الخطة الحديثة للمستشرقين تعتمد على تعظيم النبي ﷺ في إنجازاته السياسية والعسكرية، وشدة تأثيره في المجتمع وهكذا؛ لإثبات أنّه عبقري وقائد ناجح ومصلح ملهم، وليس نبيّا مرسلا يجب الإيمان بنبوته[2]، فهذا **الإثبات** للعبقرية يستلزم -وفق منهجهم هذا- **نفي** النبوة والوحي؛ وبالتالي هدم الإسلام بصورة خفيّة وطريقة غير مباشرة، وتقرير بشرية القرآن الكريم والدين الإسلامي.

فقد تميّزت شخصية الرسول ﷺ بخصائص ومزايا عديدة، لذا درس جملة من المستشرقين هذه المزايا أو بعضها من وجهة نظرهم الخاصة، فعدّ بعضهم النبي محمداً ﷺ قائدا عسكريا وزعيما سياسيا ناجحا، وبعضهم جعله في مصاف المصلحين الاجتماعيين ورائدا من روادهم، وآخرون رأوا أنّه أحد عباقرة العالم، ولكنهم عرضوا كلّ تلك المزايا بمعزل عن النبوة والوحي التي هي أساس شخصيّته ﷺ[3].

بيد أنّ «الرسول ﷺ فوق أي عبقري، وأجلّ من أي زعيم، وأعظم من أي قائد، وأشجع من أي بطل، وأسمى من أي مصلح، لقد جمع له من صفات هؤلاء خيرها، وأفضلها، وأعدلها، وأرحمها؛ ولكنه فوق هؤلاء جميعا، إنه نبي يوحى إليه، ورسول يبلّغ عن ربه، وهذا ما لا يدرك ولا ينال»[4].

يقول البوطي: «الكتابات الكثيرة التي ظهرت لطائفة من المستشرقين عن حياة سيّدنا محمد ﷺ، في نطاق أعمالهم وكتاباتهم التاريخية التي قامت على المنهج الذاتي الذي ألمحنا إليه آنفا.

إنك لتراهم يمجدون شخص محمد ﷺ وينوهون بعظمته وصفاته الحميدة، ولكن **بعيدا** عن كل ما قد ينبّه القارئ إلى شيء من معنى **النّبوة أو الوحي** في حياته»[5].

[2]- **الزعم بأنّ القرآن الكريم من تأليف النبي محمد ﷺ**: يردّد جلّ المستشرقين هذه الفرية، من أجل نفي الربّانيّة عن القرآن الكريم[6]، والادّعاء بأنّه كلام بشر؛ لا وحي من الله عزّ وجلّ.

---

[1]- ينظر في ذلك: محمد رسول الله ﷺ، ناصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، 352. والرسول حياة محمد، بودلي رونالد، 15-17. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 11-13.

[2]- ينظر في ذلك: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، أبو شهبة، 17/1. ومحمد ﷺ في مكة، مونتجمري وات، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مقدمة المترجم، 166. والرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، 22.

[3]- ينظر: الرسول في كتابات المستشرقين، 22 و28-29.

[4]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 19/1.

[5]- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، 23-24.

[6]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 58. وللتفصيل في هذا المطعن يراجع: القرآن والمستشرقون (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، التهامي نقرة، 26/1-30.

فمثلا نجد المستشرق الإنجليزي "نيكلسون-Nicholson" ينسب تأليف القرآن إلى الرسول ﷺ، فيقول: «والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب **مؤلّفه وهو محمد** وعدم تَماسكه في معالجة كبار المعضلات، وهو نفسه لم يكن على علم بهذه المتعارضات»[1].

وكذلك ينسب المستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون": تأليف القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ[2].

ويعمدون في هذا السياق إلى إنكار الوحي، وتفسيره بتفسيرات مادية مختلفة، فيقول بعضهم: أنّه ضرب من ضروب الصرع، بينما يذهب آخرون إلى اعتباره: نتاج تأمّل فكري، أو أنّه فيض عقلـــي، ووحي نفسي؛ نابع من نفس محمد ﷺ الملهمة، وما إلى ذلك من الشبهات والتفسيرات المادية المغرضة، التي تهدف إلى نفي ربّانية الوحي والقرآن[3].

[3]- **الطعن في ربانية الإسلام من خلال الزعم بأنّ النبي ﷺ لفّق دينه من الأديان السابقة:** والادّعاء بأنّ الإسلام مجرّد مزيج من عقائد وأفكار وطقوس الأديان السابقة من اليهودية والنصرانية وغيرهما[4].

يقول المستشرق جولد زيهر: «فتبشير النَّبِيّ العربي ليس إلا مزيـــجًا منتخبًا من معارف وآراء دينـــية، عرفهـــا أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة حقيقية عند بَنِي وطنه»[5].

كما ردّد هذه الشبهة أيضا المستشرق "بروكلمان" في عدّة مواضع من كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية"[6]، وغوستاف لوبون في "حضارة العرب"[7] وغيرهم.

[4]- **الطعن في تعدد زواج النبي ﷺ واتهامه بالشهوانية:** عمد كثير من المستشرقين في دراساتِهم عن الرسول ﷺ إلى العمل على «تشويه سمعة النبي عليه السلام وتمثيله لأتباعه[8] في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح، وأيّ صورة تغنيهم في هذا الغرض

---

[1]- الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبه، 14-15.

[2]- ينظر: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، 111 و117.

[3]- ينظر: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 119. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 16/1 و271-277. والرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، 45-48. وينظر بعض النماذج من تقرير المستشرقين لذلك في ما ذكره: المستشرق "بودلي" في كتابه "الرسول حياة محمد، 69-72"، والمستشرق "غوستاف" في كتابه "حضارة العرب، 113-114".

[4]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، الجبري، 59. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 192-197.

[5]- العقيدة و الشريعة في الإسلام، جولد زيهر، ترجمة محمد يوسف -عبد العزيز عبد الحق -علي حسن عبد القادر، 12.

[6]- ينظر على سبيل المثال في الصفحات الآتية: 68-69، 70، 74.

[7]- ينظر كلامه مثلا في: 118.

[8]- وقبل ذلك لشعوبهم الغربية، وإن كان لهذا التصوير بعض الآثار حتى في العالم العربي والإسلامي.

الأثيم كما تغنيهم: صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد، العازف في معيشته البيتيّة ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح»[1].

فنجد المستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون" يردّد هذه الفرية في كتابه "حضارة العرب"، حيث يقول: «وضعف محمد الوحيد هو حبّه الطارئ للنساء»؛ ثم يوغل المستشرق في هذه الفرية فيعتمد عليها في تفسير سبب زواجه ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها[2].

كما ردّد هذه الفرية أيضا المستشرقَيْن: "بروكلمان" و"جولد زيهر"[3].

لقد بثّ المستشرقون والمبشرون هذه الفرية القبيحة قديما وحديثا، وزخرفوا لَها القول، وحاولوا إشاعتها وترويجها بكل سبيل، وسلكوا لذلك مناهج مختلفة وطرائق ملتوية؛ فتصدّى لكشف زيف هذه الفرية والردّ عليها مجموعة كبيرة من العلماء والباحثين والأدباء[4]، حتى صارت وصمة عار لدراسات المستشرقين في سيرة النبي الكريم ﷺ.

[5]- **إنكار معجزات النبي ﷺ**: لِما فيها من دلالة على النبوة، ومن ذلك: إنكار إرهاصات النبوة، ونزول جبريل بالوحي، ومعجزة الإسراء والمعراج، وغيرها من المعجزات الحسيّة للنبي ﷺ[5].

[6]- **التشكيك في عموم الرسالة وعالمية الإسلام**: ذهب بعض المستشرقين إلى اعتبار الإسلام دعوة خاصة بالعرب، في حين ذهب آخرون إلى أنّ حركة الدعوة إلى الإسلام في عصرها المكّي كانت إقليمية، وأنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية -في العصر المدني- إلاّ بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك، و لم يكن الرسول ﷺ يفكر بذلك من قبل، مع أنّ القرآن الكريم صرّح بعالمية الإسلام بوضوح منذ بداياته الأولى في السور والآيات المكية[6].

وقد قرّر المستشرق "توماس أرنولد" عالمية الإسلام في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، وردّ على بعض من أنكر ذلك من المستشرقين[7].

---

[1]- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، 141.

[2]- ينظر: حضارة العرب، 112.

[3]- ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، 67. والعقيدة والشريعة في الإسلام، 142-143.

[4]- للتفصيل في هذا الموضوع -عرضا ومناقشة- يُراجع: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، 140 وما بعدها. والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 15/1 و299/2-304. وفقه السيرة، البوطي، 53. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 157 وما بعدها.

[5]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 21/1-22. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 57-58.

[6]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 44 و58. والمستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 134/1. وفقه السيرة النبوية، منير الغضبان، 679-686.

[7]- ينظر: الدعوة إلى الإسلام، 48-51.

المبحث الرابع: مناهج المستشرقين في دراسة السيرة

بعد عرض موجز لجهود المستشرقين في دراسة السيرة، سأتطرّق في هذا المبحث إلى تقديم نبذة عن مناهج المستشرقين في دراساتهم عن السيرة النبوية[1] على وجه العموم؛ فإن ذلك يُمهّد لاختبار ما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية"، ومعرفة ما إذا تضمّنت هذه الموسوعة الخصائص المنهجية العامة لدراسات المستشرقين في السيرة خارج "دائرة المعارف".

المطلب الأول: أثر الخلفيات الدينية والفكرية في دراسة المستشرقين للسيرة

من مقتضيات البحث العلمي النّزيه أن يبدأ المرء في بحثه لأمرٍ ما وهو خالي الذهن من أحكام مسبّقة، وأن يكوّن آراءه من خلال ما تجمّع لديه من أدلّة ومعطيات؛ غير أنّ المستشرقين خالفوا هذا المنهج العلمي؛ حيث نجدهم ينطلقون من أفكار مسبّقة، يحاولون جاهدين التماس الأدلة لَها، ولو أدّى ذلك إلى تشويه الحقائق، أو بتر النصوص، أو سلوك أيّ مسلك غير علمي[2].

ومن هنا أُخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم، والخلفيّات العقدية والفكرية للبيئات التي ينتمون إليها؛ وآية ذلك أنّ معظم المستشرقين النصارى واليهود هم من طبقة رجال الدين والمبشّرين لهذه الأديان[3].

يقول المستشرق محمد أسد "ليوبولد فايس- Weiss" مبينا أثر الخلفيات الفكرية والعقدية في مناهج المستشرقين: «والواقع أن **المستشرقين الأولين** في الأعصر الحديثة كانوا **مبشرين نصارى** يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من الوثنيين، غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحرّرت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق، هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها، أمّا تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلّفتها الحروب الصليبية، بكل مالها من ذيول في عقول الأوربيين الأوّلين»[4].

---

[1]- أكرّر التنبيه هنا إلى أنّ هذه المناهج مأخوذة من الدراسات النقدية التي قدّمها جلة من العلماء والباحثين المسلمين لدراسات المستشرقين في السيرة النبوية خارج "دائرة المعارف"؛ وذلك حتى لا يُفهم من هذا العنصر استباق الأحكام قبل دراسة ما جاء في "الدائرة".

[2]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 125.

[3]- ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 10.

[4]- الإسلام على مفترق الطرق، 62-63.

فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدَّماً[1]، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك؛ بل هو في المقابل يشقى ويكدّ لينحّي ما يهدم فكرته ويكذّب رأيه، ويخفي ويطمس ويتجاهل كل ما يسوقه إلى نتيجة غير التي حدّدها سلفاً[2].

يقول الأستاذ مصطفى السباعي في ذلك: «أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معينة يريدون صيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلّة لا تهمّهم صحّتها بمقدار ما يهمّهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيرا ما يستنبطون الأمر الكلي من حادثة جزئية»[3].

ومن النماذج التي تشير إلى انسياق المستشرقين وراء الخلفيّات الفكرية والعقديّة في كتاباتهم عن السيرة مثلا: أنّنا نجد الدافع من وراء تأليف المستشرق "موير-Muir": لكتابه "حياة محمد" كان دافعاً تبشيريّا بحتاً؛ فسبب تأليفه لهذا الكتاب هو: أنّ القسّيس المبشّر "بفاندر - PFander" دعاه إلى أن يكتب "سيرة النبي ﷺ" على نحو يعين البعثة التبشيرية الإنجليزية في الهند على عملها، ذلك أنّ المستشرق "موير" نفسه شارك بحماسة شديدة في أعمال التبشير بالمسيحية التي كانت تقوم بِها البعثة التبشيرية العاملة في شمال الهند[4].

كما برز هذا المنهج المنافي للبحث العلمي الموضوعي أيضا في آراء كثير من المستشرقين، والتي منها -على سبيل المثال-: موقفهم من ربانية الإسلام ونبوة محمد ﷺ، فهم يقرّرون أن: الإسلام ليس دينا أوحاه الله إلى الرسول ﷺ؛ ثم طفقوا يحاولون إثباتَ هذا الافتراض المبيَّت، فقاموا بافتراض عدة افتراضات سلفا، ثم أخذوا يلتمسون لها الإثباتات والأدلة، فافترضوا أن النبي ﷺ قد لفّق الدينَ الذي جاء به من اليهودية والنصرانية، وأخذوا يبحثون عن أدلة تثبت صلة الإسلام باليهودية والنصرانية -في زعمهم- حتى أعياهم البحث، وباءت بحوثهم العريضة لتأييد افتراضاتهم السابقة بالفشل، ولم تَثبت الشواهد التي جمعوها أمام النقد العلميّ[5].

ومن الأمثلة على هذا المسلك ما فعله المستشرق الألمانيّ "رودلف" في كتابه "صلة القرآن باليهودية والمسيحية"؛ حيث أنّ الأساس الذي قام عليه البحث هو ما اعتقده المؤلِّف من أن القرآن من تأليف محمد ﷺ ونتاج فكره، فذهب يبحث عن المصادر التي مدت النبي ﷺ بهذه المعلومات -في زعمه- بيد أنّ بحثه لم ينته به إلا إلى افتراضات لم يجد لها دلائل تثبتها؛ وقد أفصح المستشرق "رودلف" نفسُه عن

---

[1]- وهي نتيجة تخدم أهداف الاستشراق ودوافعه المختلفة التي تقدّم بيانها.

[2]- ينظر: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، عبد العظيم محمود الديب، 70-71.

[3]- الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 55.

[4]- ينظر: موسوعة المستشرقين، بدوي، 478.

[5]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 126-127.

ذلك فقال: «إنّنا لَمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما إلى مكة، التي يعنينا أمرُها كثيرًا لأنها موطن محمد ﷺ، **وإن لم يكن ثَمَّ ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون في عهد محمد**، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم، وإلا لاحتفظت لنا السير بأنباء أكثر إسهابًا مِمّا تناهى إلينا»؛ فهو يعترف - استناداً إلى الروايات التاريخية - أنه لم يكن في مكة من أتباع اليهودية والنصرانية، الذين يمكن أن يتتلمذ عليهم الرسول محمد ﷺ، ومع ذلك يصرّ على افتراضه المزعوم رغم مصادمته للوقائع التاريخية للسيرة والحقائق العلمية[1].

إنّ هذا **التصور المسبق** يكاد يأخذ برقاب المستشرقين، ويضع بصماته العميقة على مناهجهم في التعامل مع وقائع السيرة وظاهرة النبوة؛ لِيَقِف جداراً فاصلاً بين المستشرق وبين تحقيق فهم صحيح لنسيج السيرة ونتائجها وأهدافها[2].

ويشير المستشرق "درمنغم" إلى النتيجة التي يؤدي إليها التعصب الديني في كتابات المستشرقين فيقول: «من المؤسف حقا أن غالى بعض المتخصّصين - من أمثال: "موير" و"مرجليوث" و"نولدكه" و"شبرنجر" و"دوزي" و"كايتاني" و"جولد زيهر"... وغيرهم - في النقد أحيانا، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص، ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، **ولن تقوم سيرة على النفي**»[3].

فلن تكون نتيجة سلوك هذا المنهج في دراسة السيرة إلاّ: تشويه الصورة المضيئة للسيرة النبويـــة، وطمس معالم التأثير الوجداني فيها، وكذا هدم المقومات العلمية لدراسة السيرة النبوية: بالانســـياق وراء خلفياتٍ فكرية وعقدية تخالف منهجية البحث العلمي النزيه والموضوعي.

ويذكر المستشرق "ناصر الدين إتين دينيه": أنّه مِن الْمُتعذَّر أن يَتحرّر المستشرقون مِن عواطفهم ونزعاتِهم المختلفة، وإنّه من أجل ذلك قد بلغ تَحريف بعضهم لِسيرة مُحمّد ﷺ مبلغًا غطّى على الواقع وأخفى الصّورة الحقِيقِيّة[4].

وبناء على ذلك فإنّ «مناهج البحث الغربي (الاستشراقي) في السيرة مفتقرة إلى المقومات العلمية التي تمكنه من أداء وظيفته الحيوية؛ وكانت النتيجة أبحاثا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حيـــاة الرسول ﷺ وتحلّل حقائق الرسالة، ولكنها - يقينا - تحمل وجها وملامح وقسمات مستمدة من

---

[1]- ينظر: صور استشراقية، عبد الجليل شلبي، 49-50. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي، 127-128.

[2]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 119/1، 136.

[3]- The life of Mohamet, Emile Dermenghem, IX.

- وترجمة عبارته مأخوذة من: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، 130/1.

[4]- محمد رسول الله ﷺ، ناصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، المقدمة، 42. وينظر كلامه في هذا المعنى أيضا: 353.

عجينة أخرى غير مادة السيرة، وروح أخرى غير روح النبوة، ومواصفات أخرى غير مواصفات الرسالة.

إن نتائجها تنحرف عن العلم لأنها تصدر عن الهوى، وتفقد القدرة على مواكبة عصر الرسالة وشخصية الرسول ﷺ ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقيق التاريخي»[1].

ويشير المستشرق الفرنسي "ناصر الدين دينيه" إلى هذا الانحراف في دراسة السيرة، فيقول: «لقد أصاب الدكتور "سنوك" بقوله: "إن سيرة محمد الحديثة تدل على أنّ **البحوث التاريخية مقضيّ عليها بالعقم إذا سخّرت لأيّة نظرية أو رأي سابق**"؛ هذه حقيقة يَجمُل بمستشرقي العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم؛ فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلّفهم من الجهود ما يجاوز حدّ الطاقة، فيصلون إلى نتائج لا شكّ خاطئة»[2].

كما «أنّ هنالك سلطانا آخر يخضع المؤرخ - في كثير من الأحيان - إليه، هو **سلطان الرأي العام**، فالمؤرخ مضطر بحكم مقامه بين مواطنيه أن يراعي شعورهم وإلا عرّض نفسه للمكروه من قول وأذى»[3].

بيد أنّ الفهم الجاد للسيرة -كما يذكر الأستاذ "عماد الدين خليل"- يقتضي منهجًا يقوم على ثلاثة نقاط: - أمّا **النقطة الأولى**: فهي الإيمان، أو على الأقل احترام المصدر الغيبي لرسالة محمد ﷺ، وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.

- وأما **النقطة الثانية**: فهي اعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق، يتجاوز كل الإسقاطات التي من شأنها أن تعرقل عملية الفهم.

- وأمّا **النقطة الثالثة**: فهي (تقنية) صرفة تقوم على ضرورة الإحاطة جيدا بأدوات البحث التاريخي: بدءً باللغة وجمع المادة الأوليّة، وانتهاء بطرائق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب.. إلخ[4].

وإذا كان للغربيين نصيب في هذه النقطة الأخيرة[5]، فإنهم في نهاية الأمر لم يستطيعوا أن يقدموا أعمالا علمية بمعنى الكلمة لواقعة السيرة، ولا قدروا حتى على الاقتراب من حافة الفهم، بسبب أنّهم

---

[1]- بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 117/1.

[2]- دراسة في السيرة النبوية، عماد الدين خليل، 13.

[3]- تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 14.

[4]- بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، 118/1.

[5]- هذا الكلام ليس على إطلاقه، فإن جلّ المستشرقين لم يصلوا إلى حدّ الإحاطة والاستيعاب فيما يتعلّق بالمادة العلمية حتّى، وكثير منهم يفتقرون إلى: المعرفة اللغوية المطلوبة لفهم سياقات النصوص، وكذا جمع المادة العلمية بصورة متكاملة، وإلى كثير من آليات منهجية التحليل والنقد والمقارنة ونحوها، وعلى هذا فإنّ كثيرا من الدارسين في السيرة من المستشرقين يفتقرون إلى مقومات الشرط الأخير، كما يفتقرن إلى مقومات الشرطين الأولين.

كان يعوزهم التعامل الأكثر علمية مع الدائرتين الأوليين؛ وهما: احترام المصدر الغيبي للسيرة، واعتماد الموقف الموضوعي[1].

لكن القوم إذا توخّينا الحكم الدقيق، ليسوا كلهم سواء؛ فقد شذّ عنهم بعض المستشرقين -ولكل قاعدة شواذ- وبالرغم من قلة هؤلاء بالنسبة للتيار الأوسع والأثقل، فإن صوتهم لم يخفت، وقد مارسوا كشفا نقديا حسَناً للكثير من أعمال رفاقهم في البحث، وألقوا الضوء على بعض الثغرات والأخطاء التي وقعوا فيها، على الرغم من أن هؤلاء أنفسهم ما كانت رؤيتهم تصل أبدا إلى درجة النقاء العلمي المطلوب من تلك النزعات والتحكّمات[2].

المطلب الثاني : الطعن المباشر وغير المباشر في السيرة النبوية

كيف بدأ يتشكّل الموقف الغربي من الإسلام والنبي ﷺ منذ القرون الوسطى؟ وهل حدث تحول منهجي عبر تاريخ الدراسات الاستشراقية في طريقة عرض موقف الغرب من النبي ﷺ؟

لَمّا كانت دعوة الإسلام تجتاح العالم المسيحي في القرون الوسطى، وتقتطع منه أجزاء واسعة، وكان النصارى يدخلون في الإسلام أفواجا؛ أفزع هذا الأمر رجال الدين النصارى وأذهلهم، حتى تصوروا أن الإسلام سيقضي على الدين المسيحي، وسيتبعه في كلّ مكان؛ الأمر الذي جعلهم يحقدون على الإسلام، ويرمون النبي ﷺ والإسلام بالكذب والدجل والإجرام وغيرها من التّهم الزائفة، تصوّرا منهم أنّ في هذا التشنيع إبعاد للنصارى عن الإسلام، وتنفير لهم من الدخول فيه[3].

ففي القرن الثامن الميلادي عمد القسيس المسيحي "يوحنا الدمشقي" (749م) إلى الكتابة عن الإسلام من أجل حماية إخوانه النصارى منه - في اعتقاده-، وإثبات صحة النصرانية والتشكيك في صحة الإسلام[4]، فكان مما جاء به مثلا: نسبته الإسلام إلى الهرطقة، والادّعاء أن الرسول ﷺ أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب، والزعم بأنّ: الرسول ﷺ نظر في التوراة والإنجيل؛ وأنّه تعلم منها وتنبأ[5].

---

[1]- بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 118/1.

[2]- بحث بعنوان: المصدر نفسه، 139/1.

[3]- ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 22 و33. والرسول حياة محمد، المستشرق بودلي رونالد، 15-18.

[4]- ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 19. وتاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 24-25.

[5]- ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، 25.

والملاحظ: أن المستشرقين المعاصرين ما زالوا يكرّرون هذه الشبهات والمطاعن نفسها، التي سبقهم إليها قسّيسٌ شرقي منذ ما يزيد على ألف (1000) عام، غير أنّهم أضافوا إليها شيئا من المراوغات الكلامية، وتحديث في المنهجية وطريقة العرض، وقبله وقبلهم ردّد مشركو قريش هذه الفرية الأخيرة وغيرها، فردّ عليهم الله عز وجلّ في القرآن الكريم ردّا كافيا.

وبعد فشل الحروب الصليبية نفر قوم من الغربيين يدفعهم التعصب الصليبي الذي أفقدهم أمانة العلم، إلى الكتابة عن الإسلام لقصد تشويهه من عدّة نواح: فردّدوا أن القرآن من وضع محمد ﷺ[1]، وكان الرهبان في العصور الوسطى يصورون الرسول ﷺ في صور مشوِّهة بعيدة عن الواقع؛ تارة في صورة صنم بشع، وتارة في صورة سكير مدمن[2]، وربّما جعلوه قسّيسا متمرّدا على الكنيسة لأنّه لم يُنتخب لكرسي البابوية؛ فاختلق دينا جديدا لينتقم من زملائه، وغيرها من الافتراءات التي لا تَمتّ بصلة إلى سيرة المصطفى ﷺ، والتي تبرهن على جهل القوم بحقيقة النبي ﷺ ودعوته كما بيّن بعض المستشرقين والعلماء المسلمين[3].

ويتكلّم المستشرق "بودلي" عن زيادّة حدّة الهجمات الاستشراقية المنفّرة من الإسلام ونبيّه ﷺ بعد الحروب الصليبية، فيقول: «ازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين؛ حتى إنّ لفظة "محمد" أصبحت بمعنى الكفر، وتطورت لفظة "المحمدية" في أذهان معاصري "شكسبير" حتى أصبحت بمعنى: أيّة ديانة مزيفة، وأصبحت لفظة "محمد" تستعمل بمعنى "أصنام"»[4].

كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية؛ ليتّسع المجال لتصوير النبي محمد ﷺ خلاف صورته التاريخية الحقيقية، وتتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده، وحرّم البابا طبعه وترجمته، ثم في القرن السادس عشر والسابع عشر كانت ترجمات القرآن تتضمّن مقدمات، وتذييلات للردّ على القرآن، وتجريح النبي ﷺ[5].

تُبيِّن هذه المنطلقات أنّ الموقف الغربي من رسول الله ﷺ بدأ يتشكل في إطار ديني صرف، متشبّع بالتعصب والحقد والكراهية، تحيطه جهالة عمياء بحقيقة شخص النبي ﷺ ورسالته؛ فتكونت صورة جدّ مشوهة عن نبي الإسلام ﷺ اجتهد صانعوها في العمل على بثّها في فكر الشعوب الغربية ووجدانهم.

والنتيجةُ لن تكون بداهة أبحاثا تاريخية علمية أو موضوعية بحالٍ؛ إنّما هي سيول متدفقة من الشتائم والسباب؛ قادها رجال الكنيسة -باعتبارهم الطبقة المثقفة في المجتمع آنذاك-؛ وانضم إليهم

---

[1]- ينظر: أساليب الغزو الفكري للعامل الإسلامي، علي جريشة- محمد الزبيق، 18.

[2]- ينظر: محمد رسول الله ﷺ، دينيه -سليمان بن إبراهيم، 352.

[3]- ينظر: الرسول حياة محمد، المستشرق بودلي، 15-17. والسيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 11-12.

[4]- الرسول حياة محمد، 16-17.

[5]- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، 18.

بعد ذلك رجال علمانيون لا علاقة لهم بالكنيسة، واستمر تدفق هذا التيار إلى غاية العصر الحديث؛ وكان الهدف من ذلك هو تنفير المسيحيين من الإسلام ونبيّه ﷺ[1].

الحاصل: أنّ مؤلّفات الغربيين عن الإسلام في ذلك العهد كان أكثرها مفعما بالجهل المطبق، والسطحية والتعصب، وهي أمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية لتلك المؤلّفات على اختلافها[2].

أمّا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي فقد عمد المستشرقون إلى تغيير أساليبهم وأرادوا أن يظهروا بمظهر جديد هو ما زعموه من تحرير الاستشراق من الأغراض التبشيرية، والاتجاه به وجهة البحث العلمي البحت؛ فأُنشأت كليات لتدريس اللغات الشرقية في عواصم أوربا، مثل لندن وباريس وبرلين وغيرها، وظهرت فيها أقسام خاصة لدراسة اللغة العربية وبعض اللغات الإسلامية كالفارسية والتركية وغيرها[3].

ثم تطوّرت تبعا لذلك أفكار المستشرقين وأحكامهم عن كتاباتهم في القرون الوسطى، التي كانت مليئة بالتحيّز والتهجّم، والطعن المباشر في الإسلام ونبيّه ﷺ، بحكم اختلاف الدين، أو اختلاف المصلحة أو اختلاف الجنس، أو بسبب قلّة ما لديهم من المصادر، وجهلهم باللغة العربية، وسوء الترجمات القديمة، وعرف القرن العشرين تقدّما في أعمال المستشرقين إلى كتابات فيها بعض الحقائق العلمية، والتحليل الدقيق والمتوازن لحيثياتها أحيانا، ومع هذا فإنّه لا يزال بعضها الآخر لا يخل من الدسّ والتشويه حينا عن سوء نية، وحينا عن سوء فهم للحقائق التاريخية[4].

لقد حاول مستشرقو العصر الحديث أن يظهروا بمظهر يوحي بأنّهم تحرّروا من تلك الروح العدائية التي هيمنت على الاستشراق فيما مضى، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإن مستشرقي اليوم هم مستشرقو الأمس، وإنّ الحملات العدائية التي شنّها الاستشراق على الإسلام قديما لا تزال تشنّ على الإسلام اليوم، ونفس الأباطيل التي قذفها الاستشراق صوب الإسلام سلفاً هي التي يستخدمها الاستشراق حديثا[5]، مع شيء من التطوّر في الأسلوب، وطرائق عرض تلك القضايا وطرحها.

ويقارن المستشرق الفرنسي "ناصر الدين **إتين دينيه**" **بين الطعن المباشر** الذي كان سائدا في القرون الوسطى، وبين **الطعن الغير مباشر** في العصر الحديث، فيقول: «وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة

---

[1]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 127/1. وصور استشراقية، عبد الجليل شلبي، 27.

[2]- ينظر: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، 23.

[3]- ينظر: أساليب الغزو الفكري للعامل الإسلامي، علي جريشة- محمد الزيبق، 21.

[4]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 50.

[5]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 156-157.

تتلاشى في أيامنا هذه، على أننا نفضل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية أن يذيعوها -تحت ستار من العلم الاستشراقي الظاهري- في حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الإنسانية نفسه»[1].

- **نماذج من الطعن المباشر في السيرة:** ظلّت حياة الأحقاد والخرافات قويّة مسيطرة على أعمال المستشرقين والمبشرين طيلة القرون الوسطى، حيث وُصف رسول الله ﷺ عندهم بأسوء الأوصاف، وصوّر في أبشع الصور، فوصفوا الرسول ﷺ بأنّه دجال، والإسلام بأنّه مجموعة من الهرطقات، ووصفوا المسلمين بأنّهم وحوش، والقرآن بأنّه نسيج من السخافات، وهكذا[2].

ففي أوائل القرن الثامن عشر نجد المستشرق الإنجليزي "جورج سيل- Sale"[3] الذي ترجم القرآن يقول: «لَمّا فَحَصتُ شخصية محمد فحصا دقيقا كانت الصورة فظيعة معيبة... إنّ أيّ قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لِهذا المخاتل الكبير دوما»[4].

ويقول "الْمُنسنيور كولي" في كتابه "البحث عن الدين الحق": «برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أُسّس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع "محمد" السيف في أيدي الذين تبعوه، وتساهل في أقدس أنواع الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب»[5].

ويلخص المستشرق "وات" الموقف الكلاسيكي للمستشرقين تجاه النبي ﷺ فيقول: «لقد تصور الغرب محمدا دجالا أثار من القضايا أكثر مما قدم من الحلول، وأكثر من هذا فلا أحد من عظماء التاريخ لاقى من الغبن والظلم في الغرب مثلما لاقى محمد ﷺ»[6].

وفي العصر الحديث عُرف بالطعن المباشر بين أوساط المستشرقين والمسلمين على السواء المستشرق القسّ "لَمنس" الذي نجده يصف نبي الإسلام ﷺ «بأبشع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية، حتى لكأنّنا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم إلا السباب والشتائم»[7].

---

[1]- محمد رسول الله ﷺ، دينيه - سليمان بن إبراهيم، 353.

[2]- ينظر: السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 50.

[3]- **جورج سيل** (George Sale)؛ (1680-1736م): اشتهر بترجمته للقرآن إلى الإنجليزية، محام، تعلم العربية وحصل على مجموعة وافرة من مخطوطاتها، وعني بتاريخ الإسلام. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 471/2. والأعلام، الزركلي، 145/2.

[4]- الرسول حياة محمد، بودلي رونالد، 15-16.

[5]- التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي وعمر فروخ، 72. والمبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، 8.

[6]- محمد ﷺ في مكة، 121.

[7]- أوربا والإسلام، عبد الحليم محمود، 136.

فهو يصف النبي ﷺ مثلا: بعدم الشجاعة، وبكثرة الأكل والنوم، وأنّه قد كثّف جسمه بالملذّات[1]؛ وما من شكّ بأنّ هذه الأوصاف مناقضة تماما لِحقيقة ما كانت عليه سيرته وأخلاقه ﷺ، وهو أمر يعرفه من له أدنى اطلاع على السيرة النبوية.

- **نماذج من الطعن غير المباشر:** إذا كان بعض المستشرقين المعاصرين مثل الأب "لَمنس" ومن نحى نحوه قد اعتمدوا أسلوب الطعن المباشر في جلّ دراساتهم عن الإسلام عامة والسيرة النبوية خاصة، فإن فئة ليست باليسيرة من المستشرقين المعاصرين لا يحبذون هذا الأسلوب، ولا يرتضون سلوك منهجيته، لأنّه منهج لم يعد مؤثرا ولا ناجعا لخدمة الأغراض الاستشراقية.

ذلك أنّ مقتضيات العصر الحديث تغيّرت، فهذا العصر تميّز بالانفتاح المعرفي والاطلاع أكثر على المصادر الإسلامية، ورقيّ المستوى الثقافي والحضاري في الغرب والشرق، كلّ تلك المقتضيات ألزمت المدرسة الاستشراقية بسلوك منهج جديد يتصّف في ظاهره بالمعرفة، ويرتكز على البحث والتحقيق، ويقوم على التحليل والنقد، فترك المستشرقون أسلوب الكراهية الواضحة، والعداء السافر، واتّجهوا للتستّر وراء الطريقة العلمية، وطريقة العرض التي تحمل بين طيّاتِها إثارة الشبهات والشكوك في السيرة بأسلوب غير مباشر، وإلاّ فإنّ الهجوم على الإسلام ونبيّه ﷺ بقي مستمراً في كتاباتهم، لكن متخفّيا داخل رداء الفكر العلمي القائم على البحث وأسس التحليل والنقد[2].

وحتى هؤلاء المستشرقون القلائل الذين يطلق عليهم بأن لهم نوعا من التجرّد والحيادية في الطرح، من أمثال: "توماس أرنولد" صاحب "الدعوة إلى الإسلام" و"مونتجمري وات" صاحب "محمد في مكة" لا تخل كتاباتهم من تلك الطعون والشبهات التقليدية للمدرسة الاستشراقية في السيرة النبوية، وإن كانت أقلّ تَهوّراً وتَهافتاً، أو أنّها صيغت بأسلوب فيه كثير من الالتواء والتمويه.

فعلى سبيل المثال: نجد المستشرق الفرنسي "غوستاف": يعترف بعظمة النبي ﷺ وما حقّقه من إنجازات، بل ويعيب على كثير من الكتاب الغربيين تعصبَهم الذي حجبهم عن الاعتراف بفضل النبي محمد ﷺ[3]، لكن نجده في الكتاب نفسه يردّد مطاعن سابقيه من المستشرقين المتعصبين -دون إنصاف وتحرير علمي لِما ينقله-: فينسب تأليف القرآن الكريم إلى الرسول ﷺ، ويدّعي اضطرابه وعدم تناسق ترتيبه، كما يزعم أنّ محمداً ﷺ هو منشئ الإسلام، ويتهم النبي ﷺ بالشهوانية وغيرها من المزاعم[4].

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 130-132.

[2]- ينظر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين صديقي، 16-18.

[3]- ينظر أمثلة عن ذلك في كتابه: حضارة العرب، 116.

[4]- تنظر نماذج عن ذلك في: المصدر نفسه، 111 إلى 114.

بل نجد "مونتجمري وات" الذي يأخذ على أقرانه المستشرقين إلحاحهم في النزعة النقدية، ويحاول أن يضع ضوابط منهجية تحكم هذه النزعة من أن تتحول إلى عملية هدم اعتباطي يشبع الأهواء الذاتية، ولا يقوم على أساس موضوعيّ، وانتقد بشدّة أسلوب المستشرق "لَمنس" في الدراسات الإسلامية، وسَمّى منهجه "بالطريقة العابثة في معالجة المصادر"، كما أخذ "مونتجمري وات" على المستشرق "كايتاني" في دراسته الواسعة "حوليات الإسلام" نزعته الشكوكية المبالغ فيه؛ لكن مع ذلك فإنّ "مونتجمري وات" مارس هو الآخر، نوعا من المبالغة في شكوكه، ونفيه الكيفيّ، وافتراضاته المبنيّة على كثير من الآراء الكلاسيكية للمدرسة الاستشراقية[1].

لذا فإنّ هذا الطرح الذي يأصّل له "مونتجمري وات" في حقيقته ليس إلا انتقالا من منهج الطعن والتشكيك المباشر في السيرة النبوية، إلى منهج الطعن غير المباشر، والذي يصاغ بطريقة أكثر تأثيراً، من أجل أن يكون له أبعد الأثر على العالم الغربي وحتى الإسلامي؛ ذلك أن المستشرقين المحدَثين أدركوا تماما أنّ الأساليب القديمة للتنفير والتشكيك في الإسلام ونبيّه لم تعد مجدية كثيرا، بعد التلاقح العلمي الذي حدث في العصر الحديث وقبله بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ولإمكانيّة إطلاع الغربيين على المصادر العربية الأصيلة – مترجمة وغير مترجمة – ليعرفوا بكل بساطة زيف تلك المطاعن المباشرة القائمة في غالبها على النفي الكيفي للحقائق أو تحريفها.

وإذا كان الأستاذ "عماد الدين خليل" – بعد مناقشته لآراء المستشرق "مونتجمري وات" في السيرة النبوية – يرى أن: «الاستنتاجات والتحليلات الخاطئة التي يعتمدها "مونتجمري وات"، وإن كانت بشكل عام أقلّ حدّة مِمّا نجده لدى المستشرقين الآخرين... ولا يمكن معها للعقل المسلم إلا أن يرى فيها سذاجة وجهلا»[2].

فإن طريقة طرح تلك الاستنتاجات ومنهجيّة عرضِها تشير إلى أنّها ليست إلاّ منهجا يعتمد على الطعن غير المباشر في السيرة النبوية، وأنّها تهدف إلى تحقيق الأغراض نفسها التي يرمي إليها أصحاب منهج الطعن المباشر القديم، من تحريف للحقائق التاريخية وتشكيك في الروايات الصحيحة للسيرة، وإن كانت في ظاهرها أقلّ حدّة من غيرها، فهي أشدّ تأثيراً وخطراً من المطاعن المباشرة الساذجة التي يسهل كشف زيفها وبطلانها، وهو ما نبّه إليه المستشرق الفرنسي المسلم "ناصر الدين دينيه" حين بيّن أنّ طعون القرون الوسطى الصريحة أقلّ خطراً من تلك الشبهات المتسترة بقناع الموضوعية والبحث العلمي، حيث يقول: «وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى في أيامنا هذه، على أننا نفضل ما

[1]– ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 1/166-168. والهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين صديقي، 18.

[2]– بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، 1/182.

فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض الكتاب -الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية- أن يذيعوها تحت ستار من العلم الاستشراقي الظاهري»[1].

ومن قواعد الطعون غير المباشرة في السيرة النبوية في مناهج المستشرقين، التّستّر بقناع الموضوعية والبحث العلمي النزيه، لتزييف الحقائق وتحريفها، وإنكار ما هو ثابت وصحيح بأدلّة واهية ونزعة مادية متأثرة بكثير من الخلفيات والإسقاطات، كما سيتبيّن من خلال المطلب الموالي.

المطلب الثالث: التستر بقناع الموضوعية والبحث العلمي النزيه

كثيرا ما يتحدث المستشرقون عن ضرورة التمسك بالمنهج العلمي، ويزعمون التزامهم بالموضوعية والحياد في أبحاثهم ودراساتهم، وفوق ذلك يدْعُون إلى عدم الحيف عن سبيل البحث العلمي الموضوعي والمحايد، فهل التزم المستشرقون حقيقة بقواعد البحث العلمي، وتمسّكوا بالموضوعية والنّزاهة في دراساتهم عن السيرة النبوية المشرفة؟ أم أنّه مجرد ادّعاء وستار يخفي غير ما يبدي؟

تشهد الكتابات والدراسات التي قدّمها المستشرقون حول سيرة النبي ﷺ وغيرها، أنّ ادّعاءهم للموضوعية والحيادية في البحث العلمي ما هو إلاّ مجرّد قناع أرادوا به تغطية ما يبثّونه من سموم وشبهات حول الإسلام ونبيّه ﷺ، وما هو إلاّ شعار رفعوه من أجل التمويه والتعمية على التعصّب الكامن في أعمالهم، والخلفيات الفكرية التي ينجرّون وراءها، ولا يجدون عنها محيفا إلاّ ما ندر.

بل هو أمر شهد به بعض المستشرقين والكتاب الغربيين الذين نقدوا أعمال زملائهم بإنصاف.

فنجد المستشرق "مونتجمري وات" مثلا يصرّح بأنّ عامة المستشرقين لم يلتزموا ما ادّعوه وتغنّوا به من الموضوعية ومبادئ البحث العلمي النّزيه؛ فيقول: «فإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها علماء الغرب لا يتقبلها المسلمون، فربّما كان السبب في ذلك **أن علماء الغرب لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية**، وأن استنتاجاتهم تحتاج إلى مراجعة، حتى من وجهة النظر التاريخية البحتة»[2].

وهي شهادة من مستشرق تستحق التقدير؛ تجيء بعد سيل من المعطيات المضادة للإسلام طرحها مستشرقون من شتى البلدان، وتكاثرت حتى غدت ركاما، وها هو "مونتجمري وات" يجيء لكي يعترف بأنّ الخطأ لا يكمن في المبادئ العلمية، ولكن في سوء استخدامها من قبل العلماء الغربيين لِهذا السبب أو ذاك[3].

---

[1]- محمد رسول الله ﷺ، دينيه ناصر الدين وسليمان بن إبراهيم، 353.

[2]- محمد ﷺ في مكة، 41.

[3]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 120/1.

بينما ينبّه المستشرق النمساوي "ليوبولد فايس- محمد أسد" إلى ملاحظة هامة في هذا الصّدد مفادها: أنّ الغربيين يكون عندهم نوع من الاتّزان والموضوعية إذا كان مجال الدراسة والبحث شيئا غير الإسلام، ولكن «**حالَما تتجه إلى الإسلام يختلّ التوازن**، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى إنّ أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر **كما لو أنّ الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنّه موضوع بحث في البحث العلمي**»[1].

لذا فإن منهج البحث في السيرة بالنسبة للمؤرخ الغربي أو المستشرق يمثل بحد ذاته جداراً يصدّه عن الفهم الحقيقي لوقائع السيرة ونسيجها العام[2]؛ خاصة إذا ما وجد المستشرق نفسه ينساق بفجاجة وراء تعصّبه النصراني كما فعل المستشرق "لَمنس" وغيره، إنّها لا تغدو أبحاثا حينذاك، ولكن عبثا بمقدساتنا باسم العلم[3].

فلو أنّ المستشرق التزم الموضوعية، وحرّر عقله من عوامل الشد الزمنية والمكانيّة والعقدية والنفسيّة، ولو أنه قدر على تجاوز النسبيّات وضغوط الإسقاطات المرحلية، فإنه كان سيتمكن من تقديم أعمال أنضج بكثير، وأقرب إلى روح الواقعة، وتركيبها، وإيقاعها[4].

بيد أنّ هذا الأمر ما زال بعيد المنال، لذا يذكر المستشرق الفرنسي "دينيه": أنّه «من المتعذّر بل من المستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وأنهم - لذلك - قد بلغ تَحريف بعضهم لسيرة النبي ﷺ مبلغًا غطّى على الواقع وأخفى الصّورة الحقِيقِيّة من شدّة التحريف فيها، برغم ما يزعمونه من اتّباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجاد»[5].

---

[1]- الإسلام على مفترق الطرق، 56.

[2]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 118/1.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 120/1.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 118/1.

[5]- محمد رسول الله ﷺ، ناصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، المقدمة، 42. وينظر كلامه في هذا المعنى أيضا: 353.

المطلب الرابع : أثر القراءة المادية للسيرة في دراسات المستشرقين

إنّ الدين والغيب والروح، لَهي عصب السيرة النبوية وسداها ولُحمتها[1]، وليس بِمقدور الحسّ أو العقل أن يدلي بكلمته فيها إلا بمقدار، وتبقى المساحات الأكثر عمقا وامتدادا، بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق.

لذا فإنّ معالجة واقعة تَمتد جذورها إلى عالم الغيب، وترتبط أسبابها بالسماء، ويكون فيها الوحي همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم، ويتربّى في ظلالها المنتمون على عين الله ورسوله ليكونوا تعبيرا حيّا عن إيمانهم، وقدوة حسنة للقادمين من بعدهم؛ واقعة كهذه لا يمكن أن يحال أن تعامل كما تعامل الجزئيات والذرات والعناصر في مختبر الكيمياء، أو كما تعامل الخطوط والزوايا والمساحات على تصاميم المهندسين، بل ولا كما تعامل الوقائع التاريخية التي لا ترتبط بأيّ بعد ديني أصيل[2].

فالمستشرق من خلال رؤيته الخارجية، وإعماله للنظريّات الغربية المادية «يمارس نوعا من التكسير والتجريح في كيان السيرة ونسيجها، فيصدم الحسّ الديني، ويرتطم بالبداهات الثابتة، وهو بذلك يسعى إلى فصل الروح عن جسد السيرة، ويعاملها كما لو كانت حقلا ماديّا للتجارب والاستنتاجات»[3]، لكنّه عبثا يحاول، فلن يخرج بطائل من التفسير الماديّ للوقائع المتعلّقة بالغيب والمعجزات، ولن يَجنِي غير الإرجاف والتناقضات.

لو رجعنا مثلا إلى المستشرق "وات" في كتابه "محمد في مكة"، نجده مستشرقاً يدّعي التجديد في دراسة السيرة، ويقدّم نفسه للقارئ المسلم في مقدمة كتابه هذا على أنّه يتحلّى بقدر من الاحترام والحيادية إزاء الجذور الغيبيّة لحقائق السيرة ووقائعها، ويؤكّد فيها على عدم التركيز على العوامل المادية في تحليل سيرة النبي ﷺ ودعوته، على حساب الجوانب الدينية والروحية لَها[4].

لكنّ مضمون كتاب "مونتجمري وات" يبيّن أنّ أهم معالم المنهج الذي اعتمده في تحليل ونقد معطيات السيرة النبوية، هو التفسير المادي القائم على تفسير الأمور الغيبية بالعوامل الاقتصادية

---

[1]- تضرب العرب المثلَ على تماسك الشيء وتلاحمه: "**بالسدى واللُّحمة**": **والسَّدى**: هي الخيوط الممتدة طولا، والتي ينسج منها الثوب، **واللُّحمة**: الخيوط الممتدة عرضا في نسيج الثوب. ينظر: تاج العروس، الزبيدي، 320/31. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 424/1.

[2]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 116/1.

[3]- المصدر نفسه، 116/1-117.

[4]- ينظر في مقدمة كتابه: محمد ﷺ في مكة، 41. ويراجع: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، 121/1.

والاجتماعية والسياسية، وهو يعتبر ذلك حركة جديدة ومنهجا مبتكرا[1]، رغم أنّ المستشرق "كايتاني" سبقه إلى اعتماد هذا المنهج، لكن المستشرق "وات" حاول إعطاءه أبعادا جديدة، وتوسع في استعماله على أكبر قدر ممكن من حوادث السيرة النبوية، ولا شكّ بأنّه إنّما يقع في التقليد والنمطية الاستشراقية التي يزعم التحرر منها، فهو يدّعي التجديد والحداثة في الطرح والمعالجة من جهة، ومن جهة أخرى فهو بهذا المنهج يتوسع في التشكيك توسع أسلافه من المستشرقين، ولكن بأسلوب غير مباشر يحاول فيه مواكبة المعطيات الحديثة والمعاصرة الذي كثيرا ما تتأثر بالواقع الاقتصادي والنظرة المادية للعالم وحياة الإنسان.

المطلب الخامس: الأخطاء والثغرات المنهجية في دراسات المستشرقين للسيرة

رغم محاولة إظهار المستشرقين لكتاباتهم على أنّها أعمال ملتزمة بالبحث العلمي الدقيق، والطّرح المعرفِيّ الجاد، وأنّها تتسم بسلامة المنهج في العرض والتحليل، إلاّ أنّ أعمالهم ومؤلّفاتُهم في الإسلام عامة والسيرة النبوية خاصّة أُخذت عليها جملة من الأخطاء والعيوب المنهجية[2]، والتي يمكن إبراز أهمها في النقاط الآتية:

[1]- **المبالغة في الشك والنفي الكيفي:** من خلال الانسياق وراء النزعة النقدية التي تبلغ حدّ النفي الكيفي (الغير مبّرر) للروايات الثابتة، أو إثارة الشكوك حول صحّتها[3].

يقول المؤرخ جواد علي: «لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة... ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي ﷺ»[4].

فنجدهم ينفون -وفق هذا المنهج- الكثير من الروايات الصحيحة الثابتة، لكونها تخالف أهدافهم وغاياتهم المرسومة مسبّقا، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الاستدلال لِهذا النفي، وفي المقابل نجدهم يتشبّثون بالروايات الضعيفة والشاذة، لأنّها تتوافق مع أهدافهم وأفكارهم التي يحاولون تقريرها، وإسنادها بالأدلة والشواهد التي تبرّرها.

---

[1]- ينظر بعض تطبيقاته لتلك القاعدة في: محمد ﷺ في مكة، 55-56 و67-86.

[2]- قمت ببيان هذه المناهج والثغرات فيما كتبه المستشرقون عن السيرة النبوية في "دائرة المعارف"، وذلك ضمن تحليل ومناقشة نصوصهم في فصول الدراسة، ثم ذيّلت هذا البحث بملحقٍ (الملحق:1) لَخّصت فيه نماذج لأبرز تطبيقات المستشرقين لهذه المناهج فيما طرحوه من **شبهات والمطاعن** عن السيرة في "دائرة المعارف الإسلامية" حسبما جمعته في هذا البحث.

[3]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 129.

[4]- تاريخ العرب في الإسلام، 10.

بيد أنّهم لا يطبقون منهج الشك والنفي الكيفي على ميراثهم الاستشراقي ليصلوا إلى التيقن من صدقه وحقيقته، ولو طبقوا منهج الشكّ في هذا التراث ما وجـــدوا لهم شيئا ذا قيمة يعـــوّل عليه، فإنّ الأسس السفلى للاستشراق لم تخضع لمنهج الشك هذا، بل اتّخذت كمسلمات وحقائق، وهذا ينافي طرق البحث العلمي المنهجي[1].

[2]- **الاعتماد على الروايات الضعيفة والشاذة:** من الأخطاء المنهجيّة التي يعاني منها البحث الاستشراقي: تبني الضعيف الشاذ؛ ومحاولة ترصيعه وترصينه بعبارات التوثيق والتأكيد، بخلاف الروايات والوقائع التي يسعى إلى التشكيك بها، أو نفيها، حيث يحاول هدمها بعبارات التضعيف والتشكيك[2].

وهو مأخذ سجّله على المستشرقين غير واحد من العلماء والباحثين الذين درسوا مناهجهم في التعامل مع الروايات الحديثية والتاريخية، كأحمد شاكر، وحبنكة الميداني، وجواد علي وغيرهم.

فيذكر الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: أنّ منهج المستشرقين يقوم على «اعتماد ما يوافق هواهم من كلّ خبر ضعيف، ورأي مردود شاذ، وقول ساقط لا سند له من عقل ولا نقل صحيح»[3]؛ ويبين أنّهم يضعون في أذهانهم الفكرة مسبّقاً ثم يبحثون «عن أدلّة تؤيدها مهما **كانت ضعيفة واهية**، ولو اضطرهم الأمر إلى اعتماد أسلوب المغالطات والأكاذيب، واقتطاع النصوص، وهذا عكس المنهج العلمي الاستدلالي السليم»[4].

ويقول جواد علي: «أن المستشرقين أخذوا بالخبر الضعيف في بعض الأحيان؛ وحكموا بِموجبه، واستعانوا بالشاذ والغريب، وقدموه على المعروف المشهور؛ ولو كان ما اعتمدوه من الشاذ متأخرا، أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه، وتعمّدوا ذلك! لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك»[5].

وكنموذج على اعتماد هذه المنهجية نجد الأستاذين "جواد علي" و"عماد الدين خليل" ينتقدان: المستشرق "كايتاني" في أنّه: كان يضع أفكاراً وآراءً سابقة في السيرة قبل الشروع في الكتابة فيها، فإذا شرع في الكتابة؛ استعان بكلّ خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويّها، وتمسّك بها كلّها ولا سيّما

---

[1]- ينظر: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، 46. وأيضا: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (مقدمة كتابه: المتنـــبي)، محمود شاكر، 62/1.

[2]- ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 160/1.

[3]- أجنحة المكر الثلاثة، 150.

[4]- المصدر نفسه، 149.

[5]- تاريخ العرب في الإسلام، 10-11.

ما يلائم رأيه، و لم يبال بالخبر الضعيف، بل قوّاه وعدّه حجّة، وبنَى حكمه عليه، ولعلّه كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنّه عفا عنها وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها؛ لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث[1].

[3]- **معارضة الروايات الصحيحة بالروايات الضعيفة والواهية:** لا يقوم منهج المستشرقين على الافتقار إلى التمييز بين الصحيح والخطأ من المصادر والمراجع، وبين المسند والضعيف من الأخبار فحسب، بل هم يقبلون الروايات الخاطئة والضعيفة، ويصرفون النظر عن الروايات الصحيحة؛ ليخرجوا من وراء ذلك بنتائج تحقق هدفهم، رغم أنّها من الناحية التاريخية خاطئة تماما[2].

فنجدهم مثلا يثبتون ويجزمون بصحّة ما ورد في كتاب "الأغاني" للأصفهاني وكتاب "الحيوان" للدميري، وفي مقابل ذلك يكذّبون ويضّعفون ما جاء في "صحيح البخاري" و"موطأ مالك"[3].

لذا نجد الأستاذ أكرم ضياء العمري -في هذا السياق- يبين أنّ مصادر السيرة ليست سواء من حيث القيمة العلميّة لرواياتها؛ حيث يفرّق بين: القرآن الكريم والحديث النبوي وكتب السيرة المتخصّصة، وبين المصادر التكميلية: ككتب الأدب والشعر والتراجم وغيرها؛ ويوضّح أنّ هذه المصادر «تتباين قوة وضعفا وأصالة ووضعا، لذلك لا ينبغي أن توضع في مصاف واحد وتعامل على السواء؛ فلا يمكن معارضة آية قرآنية أو حديث صحيح برواية من كتب التاريخ أو الأدب؛ فلا بدّ إذاً من تقويم هذه المصادر ووضعها في الموضع التي تستحق»[4].

[4]- **إسقاط التأثيرات البيئية المعاصرة على الوقائع التاريخية:** يسمّيه بعض الباحثين: "منهج الإسقاط"، أو "التفسير بالإسقاط"؛ ويشرح الأستاذ عبد العظيم الدّيب معنى هذا المنهج؛ فيقول: «ونعني بهذا إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ، فيفسروها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة، وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم»[5].

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 11-13. وبحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 133/1.

[2]- ينظر: الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين صديقي، 19-20.

[3]- ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، 27. والرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، 182.

[4]- السيرة النبوية الصحيحة، 47/1.

[5]- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، 99-100.

«إنهم يتخيلون أحداث الشرق والعرب وعاداتهم وأخلاقهم، بأوهامهم وخيالاتهم الغربية البعيدة عن واقع حال الشرق والعرب والمسلمين، ولا يريدون أن يعترفوا بأن لكل بيئة مقاييسها وأذواقها وعاداتها»[1].

من هذا القبيل قياس الماضي على الحاضر، والحكم على الماضي بناء عليه، ونقد الماضي ومآخذته وفقا لمقاييس القرن العشرين ومفاهيمه، أو القرن الذي يكون فيه الناقد؛ فهذا يدلّ على أنّ أصحاب هذه النّزعة حكموا بدون فقه لروح الزمن الذي وقع فيه الحادث؛ فكانوا في أحكامهم جد خاطئين[2].

فعندما يعتمد المستشرق القسّيس "لَمنس" مثلا هذا المنهج في دراسة السيرة: نجده «يحدّثنا عن مكة في عهد الرسول ﷺ، فيعطينا صورة أوربية حديثة؛ وكأنّه يحدّثنا عن باريس ولندن؛ حينما يتحدث في جزيرة العرب عن: الحملة الصحافية، عن الماليين في بنك مكة... الضريبة على الدخل، طبقة العمال... إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة»[3].

ويبين المستشرق الفرنسي "ناصر الدين إتين دينيه" أثر البيئات في دراسات المستشرقين للسيرة النبوية؛ فيقول: «فإنّا نلمس من خلال كتاباتهم [أي: المستشرقين]: محمداً يتحدّث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلّف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب؛ وإذا بحثنا في هذه السِّيَر عن الصورة الصحيحة فإنّا لا نكاد نجد لها من أثر»[4].

[5]- **رد معطيات السيرة إلى أصول نصرانية ويهودية**[5]: يُعتبر هذا المنهج مطعنا في ربّانية الإسلام كما تقدّم ذكره في الكلام على مطاعن وشبهات المستشرقين حول السيرة، وهو أيضا مسلك اعتمده المستشرقون في تفسير بعض معالم السيرة، من أجل إفراغ الإسلام من ذاتيّته وكيانه الخاص، والتشكيك فيما جاء به من عقائد وتشريعات وأحكام غيبية.

وهو منهج عام يعتمده المستشرقون في مجالات شتى من علوم الشريعة، ومن بينها السيرة النبوية، فقد «استخدموا هذا المنهج في دراساتهم للوحي الإلهي، والفقه الإسلامي والسنة النبوية الشريفة، والفلسفة الإسلامية، وحاولوا ردّ كل موضوع إلى تأثيرات سابقة، مما يعني عدم أصالة الإسلام برمّته»[6].

---

[1]- الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 62.

[2]- ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 37.

[3]- أوربا والإسلام، عبد الحليم محمود، 136.

[4]- محمد رسول الله ﷺ، ناصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، المقدمة، 42.

[5]- للتفصيل في ذلك يراجع: أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، 142. والمستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 136/1.

[6]- الاستشراق الإسرائيلي، محمد جلاء إدريس، 40.

يتّكِئُ هذا المنهج على منهجين، هما: منهج "الأثر والتأثر"، ومنهج "المقابلة والمطابقة"[1] الذين سيأتي بيانهما كلّ منهما على حدة.

من المستشرقين الذين اعتمدوا هذا المنهج للطعن في ربّانية الإسلام وحقيقة الوحي على سبيل المثال: "جولد زيهر"[2]، و"بروكلمان"[3]، و"غوستاف لوبون"[4]، و"مونتجمري وات"[5]، وغيرهم[6].

[6]- **التحريف في النقل والتأويل الفاسد:** من الأخطاء الفادحة التي اتّسم بها منهج المستشرقين التحريف المتعمّد في نقل النصوص، وبترها عند الاستشهاد بِها، والاعتماد على التأويل الفاسد الذي لا تحتمله تلك النصوص أو الوقائع التاريخية، وكذا تعمُّد قلب الحقائق وعكسها في فهمها والاستنتاج منها؛ من أجل إثبات معتقداتهم وآرائهم الفاسدة، التي كوّنوها سلفا قبل البحث والدراسة[7].

فمثلا من المستشرقين الذين اعتمدوا هذا المنهج القسّيسُ "لَمنس" حيث يصف عبد الرحمن بدوي منهجه هذا بقوله: «وأبشع ما فعله [أي: لَمنس] - خصوصا في كتابه "فاطمة وبنات محمد"- أنه كان يشير في الهامش إلى مراجع بصفحاتها، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال عليها، فوجدت أنّه إما أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقا في هذه الكتب، أو يفهم النص فهما ملتويا، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وسوء النية»[8].

ومنهم أيضا المستشرق "جولد زيهر" الذي يذكر عنه الشيخ مصطفى السباعي: «تشويهه للحقائق، وتحريفه للنصوص، وتأويله للوقائع التاريخية وفق هدفه الذي سعى إليه»[9].

كما ضرب الأستاذ "عبد العظيم الديب" جملة من الأمثلة على تحريف المستشرقين في النقل والعرض لبعض وقائع السيرة والتاريخ الإسلامي في كتابه عن مناهج المستشرقين فتراجع هناك[10].

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، 40-43. والاستشراق في السيرة، عبد الله النعيم، 34.

[2]- ينظر كتابه: العقيدة والشريعة في الإسلام، 12 و51-52.

[3]- ينظر على سبيل المثال بعض المواضع في كتابه: تاريخ الشعوب الإسلامية، 68 و70 و74.

[4]- تنظر بعض الأمثلة في كتابه: حضارة العرب، 117 و118 و125.

[5]- ينظر مثلا في كتابه: محمد ﷺ في مكة، 147 و169 و308-310.

[6]- ينظر: صور استشراقية، عبد الجليل شلبي، 94. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 192.

[7]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 34. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، 130-131.

[8]- موسوعة المستشرقين، 504.

[9]- السنة ومكانتها في التشريع، 18.

[10]- ينظر: المنهج في كتابات المستشرقين عن التاريخ الإسلامي، 114-118.

[7]- **منهج الانتقاء الكيفي:** يقوم على جعل الوقائع التاريخية مجالا انتقائيا للتدليل على فكرة مسبقة أو اتجاه محدّد سلفا[1]؛ لذا نجدهم يذكرون من النصوص والوقائع التاريخية ما يؤيّد فكرهم، ويضربون صفحا عما ورد في النصوص والوقائع نفسها عن أمور تخالف أفكارهم؛ مع أهميّة ما أعرضوا عنه في فهم تلك الوقائع وتفسيرها تفسيراً صحيحا.

من الأمثلة على ذلك: أننا نجد المستشرق "إسرائيل ولفنسون": يتغاضى عن دور نعيم بن مسعود في معركة الخندق كسبب في انعدام الثقة بين المشركين واليهود[2]؛ ولعله يريد أن يوحي بذلك أن اليهود لا يمكن أن يُخدعوا![3]

كما يذكر جواد علي وعماد الدين خليل عن: المستشرق الإيطالي "كايتاني" أنّه كان يعتمد منهجا معكوسا في البحث؛ إذ أنّه يبيّت فكرة مسبقة، ثم يجئ إلى الوقائع التاريخية لكي يستلّ منها ما يؤيّد فكرته، ويستبعد ما دون ذلك مما يخالفها[4].

[8]- **منهج المقابلة والمطابقة:** وهو منهج يعتمد على المقارنة والمقابلة بين النصوص، ثم إرجاعـــها -بناء على ذلك- إلى عناصر أخرى سابقة لَها[5].

[9]- **الاعتماد على مصادر المستشرقين المتقدمين بشكل أساسي:** كثيرا ما يعتمد المستشرقون على مؤلفات الأجيال السابقة من إخوانهم (المستشرقين) بشكل أساسي فيما يقرّرونه[6]، ثم يتكئون بعد ذلك على المصادر العربية الأصيلة لتأييد ما قرّته تلك المصادر الأجنبية، ولو كان الاختلاف ظاهرا بينهما.

بيد أنّ الأمانة العلمية تحتّم على الباحث لأمّة من الأمم أن يرجع إلى مؤلفاتِها ومصادرها للوقوف على حقيقة الظاهرة التي يدرسها، لأنّ اعتماده على الوسائط يحجب عنه الوقوف على حقيقتها وسياقها الأصليّ[7] الذي لا يستغني عنه في تفسير الحادثة، وتحليل أبعادها.

---

[1]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 14.

[2]- ينظر: اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، ترجمة لجمة التأليف والترجمة بمطبعة الاعتماد، 145-146.

[3]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 15.

[4]- ينظر: تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، 12-13. وبحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 133/1.

[5]- ينظر: الاستشراق الإسرائيلي، محمد جلاء إدريس، 42.

[6]- ينظر: المصدر نفسه، 52.

[7]- ينظر: المصدر نفسه، من الصفحة نفسها. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، 129.

[10]- **منهج البناء والهدم:** يعتمد هذا المنهج على عنصرين؛ الأول: هو البناء؛ بمعنى الإطراء والمديح من قبل المستشرق لبعض الجوانب غير الرئيسية في الموضوع، ثم الثاني: الهدم؛ وفيه يجرّد المستشرق أهمّ أركان الموضوع من مقوّماته الأساسية حتّى يسقطه تماما[1].

نلمس هذا المنهج على سبيل المثال في كتاب "حضارة العرب" للمستشرق "غوستاف لوبون": حيث نجده يشيد بِما حقّقه الإسلام من مكاسب للعرب في الجزيرة العربية، ويجعل الرسول ﷺ من عظماء التاريخ ونحو ذلك من أوجه المدح والإشادة ببعض مفاخر الإسلام، لكنّه في خضمّ هذا البناء يوجّه معاول الهدم لأصول الإسلام كالقرآن والنبوة، فيذكر أنّ القرآن من تأليف محمد ﷺ، ويزعم أنّ الهوس هو الذي جعل الرسول ﷺ ينجح في قيادة العرب وإنشاء دين جديد، كما ينسب التناقض إلى القرآن الكريم، وغيرها من المطاعن التي بثّها في كتابه[2].

[11]- **التناقض ونقض كلام بعضهم للآخر:** كثيرا ما نجد أقوال المستشرقين تضطرب اضطرابا واسعا، وينقض كلام بعضهم كلام البعض الآخر، مع أنّهم تلامذة مدرسة واحدة[3].

يذكر السباعي: أنّ «أسلوب المستشرقين وموازينهم في الحكم على الأشياء جعلهم يتناقضون فيما بينهم تناقضاً واضحاً في الحكم على شيء واحد؛ كل ذلك لأنهم حاولوا أنْ يُحَلِّلوا السيرة المحمدية وتاريخ ظهور الإسلام بحسب العقلية الأوربية فَضلّوا بذلك ضلالاً بعيداً، لأنَّ هذا غير هذا، ولأنَّ المنطق الأوروبي لا يمكن أنْ يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ النبيّ الشرقي»[4].

من الأمثلة على التناقض في مواقف المستشرقين واستنتاجاتهم، أنّنا نجد المستشرق الفرنسي "درمنغم" يرى: أنّ "بحيرا الراهب" هو مصدر الفكر الديني ومثاره في ذهن محمد ﷺ، وفي مقابل ذلك يردّ المستشرق "مونتجمري وات" القصّة أصلا ويعتبرها مثارا للسخرية[5].

---

[1]- ينظر: الاستشراق الإسرائيلي، 46. والاستشراق في السيرة، عبد الله النعيم، 35.

[2]- ينظر: حضارة العرب، 110-117.

[3]- ينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، 196. والمستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 140/1.

[4]- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، 34. وينظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، 130-131.

[5]- ينظر: صور استشراقية، عبد الجليل شلبي، 35.

الباب الأول:

أصالة السيرة

ومرحلة ما قبل البعثة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يتضمن فصلين:

الفصل الأول: مصطلح السيرة وتدوينها وأصالتها

الفصل الثاني: وقائع مرحلة ما قبل البعثة

الفصل الأول:

مصطلح السيرة وتدوينها وأصالتها

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بمصطلح السيرة النبوية في "الدائرة"

المبحث الثاني: تاريخ التأليف في السيرة من خلال "الدائرة"

المبحث الثالث: مصادر السيرة النبوية وأصالتها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : التعريف بمصطلح السيرة النبوية في "الدائرة"

المطلب الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف" في مفهوم السيرة

– جاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 1]: «**السيرة: هي الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد عليه السلام**».

ثُم يستطرد محرر المادة في الكلام على إطلاقات هذا المصطلح منذ بداية التأليف فيه، فيقول [فقرة: 2]: «**ويظهر أن هذه الكلمة قد استعملت أول ما استعملت للدلالة على باب قائم بذاته في عنوان مؤلَّف ابن هشام** (طبعة فستنفلد، ص3 س4: **هذا كتاب سيرة رسول الله**)، **على أن ثَمة شاهدا آخر على استعمالِها بِمعنى الترجمة لحياة النبي عليه السلام، فقد وردت بهذا المعنى في الواقدي** (ابن سعد: **الطبقات، ج2 قسم1 ص18**: من روى السيرة)، **وفي تلميذه ابن سعد** (المصدر المذكور، **ج2 قسم2 ص152**: **هؤلاء أعلم**[1] **بالسيرة والمغازي من غيرهم**)، **ثم إن كلمة سيرة كانت تستعمل في تلك الأيام حقّا للدلالة على ترجمة الحياة بصفة عامة، ذلك أننا نعلم بوجود سيرة هي "سيرة معاوية وبني أمية" لعوانة الكلبي المتوفى سنة (147هـ أو 158هـ)**.

ويبدو أن صيغة الجمع "سِـيَر" هي التي كانت مفضّلة في أول الأمر عند الكلام على ترجمة حياة النبي ﷺ ... والمصطلح "سير" يَجيء في جلّ الإشارات التي لدينا عن المؤلفات العربية الأولى الخاصة بترجمة حياة النبي، مقترنا دائما بكلمة المغازي»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - G.Levi Della Vida[3].

– وجاء في مادة "**مناقب**" أنّ من معاني كلمة "مناقب": «"أخلاق": **يؤكّد كتاب "أخلاق النبي ﷺ" لابن فارس التماثل الذي ذكره ابن منظور بين كلمتي مناقب وأخلاق... هدفه هو تناول شخصية النبي ﷺ وصفاته الخلقية كما فعل الترمذي (275هـ) في كتابه "شمائل النبي ﷺ"، وتعتبر كلمة شمائل**

---

[1]– في المطبوع من "دائرة المعارف": "**أعلام**" بالجمع، والصواب "**أعلم**" كما في: "طبقات ابن سعد، 470/3"، فلعلّه خطأ مطبعي، وقد يكون خطأً من المترجِم، أو من النص الأصلي للمستشرق.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 439/12-440.

[3]– **ليفي دلافيدا جورجيو** "G.Levi Della Vida" (1886-1967م): من أسرة يهودية، مولده ووفاته بروما، يعدّ من كبار المستشرقين الايطاليين، كان أستاذ العربية واللغات السامية المقارنة في جامعة روما، كما اشتغل بالفاتيكان؛ وألّف: فهرس المخطوطات العربية الإسلامية في الفاتيكان. ومن آثاره: تحقيق: "طبقات الشعراء" لابن سلام، و"شعر يزيد الأول"، وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 390/1. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 246. الأعـــلام، الزركلي، 146/2.

مرادفة لكلمة أخلاق عندما يكون المقصود الأخلاق الحسنة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بلاث** - Ch.Pellat[2].

المطلب الثاني : تحليل ونقد ما ورد في "دائرة المعارف" عن مفهوم السيرة

يقدّم المستشرق "دلافيدا -Della Vida" في مطلع مادة "السيرة" تعريفا اصطلاحيا موجزا للسيرة النبوية، ثم يعرض بعض دلالات هذا المصطلح واستعمالاته، كما يشير المستشرق "بلات -Pellat" إلى مصطلحات أخرى متعلقة بعلم السيرة النبوية، وتعدّ من ألوان التأليف فيها.

وحيث أنّ هذه النصوص التي بين أيدينا لَم تتطرّق إلى دلالة كلمة "السيرة" في اللغة العربية، ووجه العلاقة بين الدلالة اللغويّة والاصطلاحية، كما لَم تفصّل بوضوح الأطوار الدلالية للمصطلحات المتعلقة بعلم السيرة، وإن كان فيها إشارة إلى بعضها، فسأتعرض إلى بيان هذه القضايا مع مناقشة ما جاء في النصوص المذكورة في المطالب الموالية.

الفرع الأول: المعنى اللغوي "للسيرة"

"السيرة": اسمٌ مصدره "**السَّيْر**"؛ والسَّيْرُ: هو: الذهاب في الأرض، ليلاً أو نهارًا؛ يقال: سار، يسير، سيْرًا، وتِسيَارًا، ومسيرًا، وسيرةً، وسيرورة، ومن معانيه: المضيّ والمشي[3].

وتطلق كلمة "السيرة" في العربية على عدة معان، أهمّها:

– **الحالة والهيئة:** قال الفيومي: «والسِّيرة أيضًا **الْهيئة والْحالة**»[4]؛كما في قوله تعالى: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: 21]، أي: الحالة التي كانت عليها[5]، ومن ذلك **هيئة الشخص وأحواله الغريزية والمكتسبة**؛ قال الراغب الأصفهاني: «والسِّيرَة: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيّا كان أو مكتسبا، يقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة»[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9662/31.

[2]– **بلاّت شارل** "Charles Pellat" (1914–1992م): مستشرق فرنسي، وُلد في الجزائر، وتحصّل على الدكتوراه من جامعة باريس، ثم صار أستاذا في المعهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة باريس، له دراسات كثيرة حول "الجاحظ" وفكره وجهوده، منها: "الجاحظ في بغداد" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 326/1. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 117.

[3]– ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 120/3. ولسان العرب، ابن منظور، 389/4. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 467/1.

[4]– المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، 299/1.

[5]– المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان الداودي، 433.

[6]– المصدر نفسه، 433.

- **الطريقة**: يُقال: سار الوالِي فِي رعِيّته سيرةً حسنة[1].
- **السنة**: قال ابن منظور: «والسِّيرة: السُّنّة»[2].
- **المسيرة**: قال النَّسَفي: « والسِّيرة أيضا: الْمَسيرة»[3].

ومن الإطلاقات المشتهرة قديماً وحديثا: أن يُقال: قَرأت **سيرة فلان**، أي: **تاريخ حَياته**[4].

وبيّن "النّسفي" وجها من أوجه العلاقة بين هذه المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي فقال: «سُمِّيت هذه الأمور بِهذا الاسم لِمَا أنّ مُعظم هذه الأُمور هُوَ السّيْر إلى العدُوِّ»[5]، كما يضاف إلى ما ذكره "النّسفي" أنّ مباحث السيرة مشتملة على: معرفة هيئة النبي ﷺ وأحواله الغريزية والمكتسبة، وكذا أحواله في مغازيه[6]، وسنّته وطريقته، ونظام حياته ومسيرته كما سيأتي في بيان المعنى الاصطلاحي.

الفرع الثاني: المفهوم الاصطلاحي "للسيرة النبوية"

قبل الكلام عن تحديد المفهوم الاصطلاحي للسيرة النبوية، أذكر أبرز المصطلحات والتسميات التي أطلقت على هذا العلم في أطوار مختلفة، ودلالات هذه المصطلحات، لأهمّيتها في تحديد مفهوم السيرة ومجالاتِها، وهو الأمر الذي تناول المستشرق "دلافيدا -Della Vida" جانبا منه في مادة "السيرة".

أولا- الاصطلاحات المتعلقة بعلم السيرة؛ أطوارها ودلالاتها:

[1]- "المغازي" أو "المغازي والسير": من أقدم المصطلحات التي استُعملت للدلالة على هذا الفن؛ مصطلح "المغازي" أو "المغازي والسّير" بإضافة كلمة "السّير" كما ذكر "دلافيدا -Della Vida"، وقد ظهر إطلاق هذه التسمية على المؤلفات الأولى في سيرة الرسول ﷺ عند قدامى التابعين[7].

ويدلّ على شيوع هذا المصطلح عندهم قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -وهو من التابعين[8]-: «كُنّا **نُعلّم مغازِيَ** النّبيّ ﷺ وسراياه كما نعلّم السُّورة من القرآن»[9].

---

[1]- ينظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ، 159. ولسان العرب، ابن منظور، 390/4. والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، 412/1.

[2]- لسان العرب، 389/4.

[3]- طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، 79.

[4]- المعجم الوسيط، 467/1.

[5]- طلبة الطلبة، 79. وينظر أيضا: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد التهانوي، 998/1.

[6]- كما ذكر ابن حجر في: فتح الباري، 6/6.

[7]- ينظر: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ترجمة محمود فهمي وعرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم، 65/2. والمغازي الأولى ومؤلّفوها، المستشرق هورفتس، ترجمة حسين نصار، 2.

[8]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، 162/5.

[9]- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، 195/2.

كما بيّن "الفيومي" شيوع هذا الإطلاق في الأوساط العلمية الفقهية قديما، فيقول: «وغلب اسمُ السِّيَر في ألْسِنة الفقهاء على الْمَغازي»[1].

وهو المصطلح الشائع عند قدامى المحدثين أيضا، حيث نجد الإمام الحاكم يستعمل هذا الإطلاق في كتابه "معرفة علوم الحديث" حين ذكر علم معرفة سيرة النبي ﷺ وجعله من أنواع علوم الحديث، فقال: «**معرفة مغازي رسول الله** ﷺ وسراياه وبُعوثِه وكُتبه إلى ملوك المشركين، وما يصحّ مِن ذلك، وما يَشذّ»[2].

ومع أنّ الدراسات الأولى لحياة الرسول ﷺ أُطلق عليها اسم "المغازي"، والتي تعني لغويا غزوات الرسول ﷺ وحروبه، ولكنها تناولت في الحقيقة عصر الرسالة بكامله[3]، فتعرّضت لذكر الغزوات وغيرها من الأحداث والأحوال النبوية، ولعلّ تركيزهم على غزوات الرسول ﷺ وسراياه من أسباب شيوع هذا المصطلح، وإن كانت العناية بمعرفة غزواته ﷺ تقتضي ضرورةَ معرفة بقيّة أحواله.

فكلمة "السّيرة" أعم من كلمة "المغازي"، وقد تقترن الكلمتان فيقولون "المغازي والسّير" كما هو صنيع كثير من قدماء المؤلفين في هذا المجال[4].

[2]– السيرة: يربط "فؤاد سزكين" بين الزهري (ت: 124هـ) وبين بداية استعمال مصطلح السيرة للدلالة على هذا العلم، فيقول: «وربّما يكون الزهري أول من استخدم كلمة "السيرة" مصطلحًا لذلك»[5]؛ ويُؤيده قولُ "السهيلي" عن -كتاب الزهري في "السيرة"-: «وهي أول سيرة في الإسلام»[6].

وعُرف إطلاق هذا المصطلح بعد الإمام الزهري كما يظهر من النصوص التي أوردها محرر مادة "السيرة"، وهي: – نصُّ **الواقدي** (ت: 207هـ): وهناك نص آخر استعمل فيه هذا المصطلح في غير الموضع الذي ذكره المستشرق[7]، حيث يقول: «وإنّ علماءهم وأهل **السِّيَرة** منهم يقولون ...»[8].

---

[1]– المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، 299/1.

[2]– معرفة علوم الحديث، تحقيق السيد معظم حسين، 238.

[3]– نشأة علم التاريخ عند العرب، عبد العزيز الدوري، 23-24.

[4]– مثل: كتاب "**المغازي والسّير**" لابن إسحاق، وكتاب "**عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير**" لابن سيد الناس، وغيرهما.

[5]– تاريخ التراث العربي، 65/2.

[6]– الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، تحقيق عمر السلامي، 155/2.

تنبيه: لعلّه قصد بالأولية هنا: أنّه أول تأليف حمل تسمية "السيرة" وإلاّ فقد سبقه إلى التأليف في السيرة جماعة -كما سيأتي-، وقد يكون قصد بذلك ما اشتهر به الزهري من جمع السيرة في نسق وسياق متكامل.

[7]– وهو قول الواقدي: «وأصحابنا من أهل المدينة **ومن روى السيرة**...». ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 20/2.

[8]– المصدر نفسه، 150/1.

– نصُّ **ابن هشام** (ت: 213هـ): الذي ذكره "دلافيدا -Della Vida" وهو في مطلع "سيرة ابن هشام"[1]، ثم اشتهر بعده إطلاق مصطلح "السيرة" على هذا الفن، ولعلّ ذلك راجع إلى شهرة كتابه.

– أمّا **ابن سعد** (ت: 230هـ): فقد أطلق هذا المصطلح في الموضع الذي ذكره المستشرق "دلافيدا"، وفي عدة مواضع أخرى؛ منها قوله في ترجمة الصحابي "السائب بن عثمان بن مظعون" ﷺ: «... أصحاب **السيرة** ومن يعلم المغازي ...»[2].

• **إطلاق مصطلح "السيرة" على تراجم الأعلام:** كما شاع في زمن متقدّم إطلاق "السيرة" على ترجمة علَم من الأعلام وبيان تاريخ حياته، وهو ما أشار إليه المستشرق "دلافيدا -Della Vida" في مادة "السيرة/ فقرة:2"، وذكر كمثال عن ذلك: "**سيرة معاوية وبني أمية**" لعوانة الكلبي[3]، وقد تردّد المستشرق في تاريخ وفاته، والأشهر أنّها سنة (147 هـ)[4]، وبِحسب ما ذكره ابن النديم[5] فإنّ هذا الكتاب هو أول مؤلّف ظهر فيه استعمال مصطلح "سيرة" وفق هذا الإطلاق.

ثُمّ ظهرت بعد ذلك كتب أخرى في هذا السياق، ككتاب "سيرة أبي بكر ووفاته" لِمحمد بن عمر الواقدي (ت: 207 هـ)[6]، وشاركه في ذلك معاصره عبد الله بن عبد الحكم (ت: 214 هـ) الذي صنف كتاباً سَمّاه "سيرة عمر بن عبد العزيز"[7]، وغيرها من المؤلفات في هذا الباب[8].

[3]– المناقب: وهو اصطلاح يدلّ عليه صنيع الإمام البخاري في "صحيحه"؛ حيث أنّه أورد روايات السيرة النبوية ضمن كتاب الأنبياء؛ فبدأ بذكر سائر الأنبياء – عليهم السَّلام – وختم الكتابَ بذِكر النبيِّ ﷺ، فقال: «باب المناقب»[9]، ثم ساق بأسانيده ما صحَّ على شرطه من مرويَّات السِّيرة.

وقد بيّن ابن حجر أنّ البخاري قصد في هذا الباب سياق الأحاديث في ترجمة النبي ﷺ وسيرته، حيث يقول: «فإنّه يَظهر من تصرّفه أنّه **قَصَد به سياق الترجمة النبويّة؛ بأن يَجمع فيه أمور النّبيّ ﷺ من الْمبدإ إلى الْمنتهى**، فبدأ بِمقدماتِها من ذكر ما يتعلّق بالنّسب الشّريف... ثُمّ ذَكر صفة النّبيّ ﷺ وشمائله

---

[1]– ولفظ عبارته: «هذا كتابُ سيرة رسول الله ﷺ». ينظر: تهذيب السيرة النبوية (لابن هشام)، 1/1.

[2]– الطبقات الكبرى، 307/3. وينظر مواضع أخرى في: 125/3، 345/3، 337/5، 395/5.

[3]– ترجمته في: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، 2133/5. تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق بشار عواد، 174/4. لسان الميزان، ابن حجر، 247/6.

[4]– ينظر: معجم الأدباء، 2134/5. والفهرست، ابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، 120. وسير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، 201/7. والأعلام، الزركلي، 93/5.

[5]– ينظر: الفهرست، 120. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 201/7.

[6]– الفهرست، 128. وهدية العارفين في أسماء المؤلفين، إسماعيل البابانى البغدادي، 10/2.

[7]– الأعلام، 95/4. والكتاب مطبوع متداول.

[8]– ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، 1013/2-1016.

[9]– صحيح البخاري (مع فتح الباري)، 642/6.

ومعجزاته، واستطْرَد منها لفضائل أصحابه، ثُمّ أتْبَعها بأحواله قبل الهجرة وما جرى له بِمكة، فذكر المبعث ثُمّ إسلام الصّحابة وهجرة الحبشة والمعراج ووفودَ الأنصار والهجرة إلى المدينة، ثُمّ ساقَ المغازي على ترتيبها عنده ثُمّ الوفاة، فهذا آخر هذا الباب»[1].

وهذا التفسير من ابن حجر لصنيع البخاري في باب "المناقب"، قدّم فيه تفصيلا دقيقا لحدود علم السيرة النبوية المشرفة، ويصلح أن يكون تعريفا لِما استقرّ عليه مصطلح السيرة النبوية بعد ابن هشام.

وهناك مصطلحات أخرى لم تطلق على السيرة النبوية عامة، وإنّما على أبواب متخصصة فيها، ككتب الشمائل ودلائل النبوة، وإن كان بعض من صنف فيها تناول السيرة النبوية ككل.

[4]– الشمائل: والمقصود "**بالشمائل**": الأخلاق والطباع والخِصال[2]؛ وكُتب الشمائل: تتناول أخلاق وآداب النبي ﷺ وصفاته الخَلقية[3]، ومن أشهرها: "الشمائل المحمدية" للترمذي (ت: 279هـ).

كما تعدّ الكتب التي يطلق عليها تسمية "صفة النبي ﷺ" أو "أخلاق النبي ﷺ" من كتب الشمائل، لكونها تعتني بإيراد صفات النبي ﷺ الخَلقية والخُلقية، ومنها: كتاب "صفة النبي ﷺ" لأبي الحسن المدائني (ت: 224هـ)، و"صفة أخلاق النبي ﷺ" لداود بن علي الأصبهاني (ت: 270هـ)[4]، وكتاب "أخلاق النبي ﷺ" لابن فارس اللغوي (ت: 395هـ)[5] الذي ذكره "بلات -Pellat" في مادة "مناقب".

هناك تداخل لغوي واصطلاحي ظاهر بين كلّ من مصطلح "الشمائل، والأخلاق، والمناقب" من حيث الاستعمال في هذا المجال كما ذكر "بلات -Pellat"، لكونها جميعا تدور حول الصفات الخَلقية والخُلقية للرسول ﷺ والتي هي من مناقبه وفضائله، لكن مصطلح الشمائل أعمّ من غيره في الدلالة على هذا الجانب من السيرة، لذا كان هو الأشهر في الاستعمال.

أمّا مصطلح "المناقب" عند البخاري في "صحيحه" فله خصوصيته؛ حيث قصد به بيان سيرة النبي ﷺ عامة كما أفاد ابن حجر، و لم يقصد ذكر شمائله وأخلاقه وصفاته فحسب.

[5]– دلائل النبوة: وكتب الدلائل: هي التي تتناول المعجزات والدلائل التي تبين صدق النبي ﷺ[6].

ومن أشهرها: "دلائل النبوة": لأبي نعيم الأصبهاني (ت: 430هـ)، وأيضا: للبيهقي (ت: 458هـ)، و"أعلام النبوة": لابن قتيبة (ت: 276هـ)، وأيضا: لأبي الحسن الماوردي (ت: 450هـ).

---

[1]– فتح الباري، 644/6.

[2]– ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 365/11. ومعجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار وآخرون ، 1236/2.

[3]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، 52/1.

[4]– ينظر: الفهرست، ابن النديم، 130 و268. والسيرة النبوية الصحيحة، 52/1.

[5]– ينظر: هدية العارفين في أسماء المؤلفين، إسماعيل البابانى، 68/1.

[6]– السيرة النبوية الصحيحة، 51/1.

ثانيا- تحديد مفهوم السيرة النبوية: يُعتبر الإمام **ابن هشام** مِن أوائل مَن بيّن معالم مصطلح "السيرة" وحدوده، حتّى صار هذا المصطلح علمًا على هذا الفن الذي يختصّ بحياة النبي ﷺ وأحواله، وذلك في مقدّمة كتابه "تهذيب سيرة ابن إسحاق" فقال: «وأنا إن شاء الله مُبتدئٌ هذا الكتاب بِذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولَدَ رسول الله ﷺ مِن ولده، وأولادهم لأصلابِهم، الأوّل فالأوّل، مِن إسماعيل إلى رسول الله ﷺ، وما يَعْرِض من حديثهم، وتاركٌ ذِكر غيرهم مِنْ ولدِ إسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، إلى حديثِ **سيرة رسول الله ﷺ، وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاقَ في هذا الكتاب، مِمّا ليس لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببًا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه**، لِما ذكرتُ من الاختصار»[1].

فكلامه يدلّ على: أنّه استبعد من عمل ابن إسحاق تاريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم مِمّن ليسوا في النسب النّبويّ، وركز عمله على ما له صلة بِحياة النبي ﷺ فحسب.

كما أشار **الكلاعي** إلى بعض حدود علم السيرة ومضامينه -في مقدمة كتابه في السيرة- فقال: «وهذا كتاب ذهبت فيه إلى إيقاع الإقناع، وإمتاع النفوس والأسماع، باتساق **الخبر عن سيرة رسول الله ﷺ، وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه، وكثير من خصائصه، وأعلام نبوته ومغازيه، وأيامه من لدن مولده إلى أن استأثر به وقبض روحه** الطيبة إليه، صلوات الله وبركاته عليه»[2].

يتضح مما سبق أنّ السيرة تبحث في: كل ما يتّصل بِحياة الرّسول ﷺ قبل البعثة أو بعدها، وعلى هذا يتنـــزّل قول **ابن حجر** - السابق- الذي بيّن فيه أنّ موضوع السيرة النبوية يتناول: "**سِياقَ التّرجمة النّبويّة، التي تَجمع أمور النّبي ﷺ مِنَ الْمَبدإ إلى الْمُنتهى**"[3].

فالسيرة النبوية ترجمة لحياة النبي محمد ﷺ، لذا كان الذهبي يطلق عليها عبارة "الترجمة النبوية"[4].

ولعلّ من أجود العبارات المعاصرة في تحديد مفهومها ما ذكره الشيخ **أبو شهبة** بأنّها: ذِكر ما يتعلق بِحياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، ومغازيه، وأوصافه، وخصائصه، وشمائله، ومعجزاته[5].

يشهد لِهذا التعريف إشارة ابن هشام وتفصيل ابن حجر السابقين، كما تدل عليه المعاني اللغوية لكلمة "السيرة".

---

[1]- تهذيب السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا- إبراهيم الأبياري - وعبد الحفيظ شلبي، 4/1.

[2]- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، 6/1.

[3]- فتح الباري، 644/6.

[4]- ينظر: تاريخ الإسلام، 139/2. وسير أعلام النبلاء، 116/6.

[5]- ينظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنّة، 27/1 و40. وأنبّه: إلى أنّ الأستاذ أبو شهبة لم يصرّح بأنّ هذه العبارة هي تعريف لعلم السيرة، لكن كلامه يدل على ذلك.

الخلاصة: عند جمع المعطيات اللغوية والدلالات الاصطلاحية السابقة يمكن القول أنّ السيرة النبوية: هي ترجمة لحياة الرسول محمد ﷺ، فيها بيانٌ لأحواله الفطرية والمكتسبة قبل البعثة وبعدها، وكذا أحواله في مغازيه، وسنّته وطريقته، ومسيرة حياته من المبتدأ إلى المنتهى، وكلّ ما له صلة بذلك من شمائله، وأوصافه، وخصائصه، ودلائل نبوته، ونحوها.

ثالثا- العلاقة بين السيرة والمغازي: سبق بيان أنّ المصطلح الذي كان شائعا عند أوائل المؤلفين في السيرة هو إطلاق "المغازي" أو "المغازي والسِّيَر" على هذا الفن، وبالتالي: فإنّ مصطلح "المغازي" هو أقدم المصطلحات التي أُطلقت على علم السيرة النبوية في البدايات الأولى للتأليف فيه.

لكنّ مصطلح "السيرة" أعمّ وأدقّ في الدلالة على هذا العلم من مصطلح "المغازي"، ذلك أنّ الغزو والجهاد جزء من أحوال النبي ﷺ ومسيرة حياته، وبالتالي فالمغازي جزء من السيرة، ويؤيِّده تعليق الحافظ ابن حجر على "كتاب **الجهاد والسير**" من "صحيح البخاري"؛ حيث يقول: «جمع "سيرة"، وأطلق ذلك على أبواب الجهاد؛ لأنّها **متلقّاة من أحْوال النَّبيِّ ﷺ في غزواته**»[1].

رابعا- العلاقة بين السيرة والسنّة: إذا كانت السنّة في اصطلاح المحدّثين هي: كل ما أُثِرَ عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صِفة خَلقية أو خُلُقيَّة، **أو سيرة** سواء أكان ذلك قبل البعثة -كتَحنُّثِهِ في غار حراء- أو بعدها، وهي بهذا المعنى مرادفة للحديث عندهم[2].

فالسيرة بهذا المعنى هي جزء من السنة في اصطلاحهم؛ لأنّ المحدّثين عنوا بنقل «كل ما يتَّصل به من سيرة، وخُلُقٍ، وشمائل، وأخبار، وأقوال، وأفعال، سواء أثْبَتَ ذلك حُكماً شرعياً أم لا»[3]، أمّا مجال السيرة فلا يشمل نقل كلّ أقوال النبي ﷺ وأفعاله، بل نقل ما يتعلّق منها خاصةً بمسيرة حياته قبل البعثة وبعدها، وما يتبع ذلك من صفات وأحوال وشمائل ودلائل نبوته ﷺ، ويبقى مجال السنة واسعا بعد ذلك لأقواله وأفعاله وتقريراته التي يستفاد منها في الأحكام الفقهية والعقدية ونحوها، وقد لا تدخل في بيان سيرته ابتداء، وإن كان قد يستأنس بها كقرينة أو استدلال لبعض أحواله ﷺ.

وإذا كانت سيرة النبي ﷺ مشتملة في جلّها على كثير من الأخبار والروايات التي تستفاد منها الأحكام الشرعية: العقدية والفقهية والأخلاقية والتربوية ونحوها، فإنّ السيرة تتضمّن أيضا نقل بعض الأحوال والوقائع التي قد لا يستفاد منها أحكام شرعية عقدية أو عملية، ولكنّها ضمن مباحث السيرة ومجالها.

---

[1]- فتح الباري، 6/6.

[2]- ينظر: فتح المغيث شرح ألفية الحديث، شمس الدين السخاوي، 1/25-26. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 47. والسنة قبل التدوين، عجاج الخطيب، 16.

[3]- السنة قبل التدوين، 15.

خامسا- تعقيب على التعريف الذي قدّمه المستشرق "دلافيدا": يبدو تعريف "دلافيدا - Della Vida" للسيرة في مطلع مادة "السيرة" -لأول وهلة- تعريفا موجزا لا إشكال فيه، يعبّر عن نظرة تتسم باعتبار السيرة النبوية ضربا من ضروب ترجمة الأعلام والشخصيات التاريخية، بل ونلاحظ أنّ عبارة المستشرق هنا تشبه إلى حدّ ما عبارة ابن حجر وكذا الذهبي في إشارتهما لمعنى السيرة النبوية، لكنني كنت أتساءل منذ بداية تحليلي لتعريفه عن المغزى من قوله فيه: «المأثورة».

وكان يظهر لي -كما قد يبدو لأيّ قارئ- أنه يعني: الترجمة المعتمدة على الروايات والآثار، لكن أدركت بعد ذلك أنه يقصد هذا وأكثر منه؛ عندما قرأت كلامه في آخر المادة، بعد عرضه المطول الذي أراد فيه التشكيك في أصالة السيرة النبوية وصحة رواياتها، حيث يقول: «**وأقصى ما نخرج به منها لا يتعدى بعض الأساطير المتأخرة العهد التي لا شك في أن قيمتها كبيرة بالنسبة لتاريخ نشأة وتطور النحلة التي تدور حول شخصية محمد، على أن هذه المادة ليس لها قيمة على الإطلاق بالنسبة لقصة حياة النبي الأصيلة، أو قل إنها لا تعدو أن تكون رواية من الروايات للقصص المعروفة**»[1]؛ وهذا الكلام يفسر قول المستشرق "دلافيدا" في مطلع المادة: «الترجمة المأثورة»؛ وأنّه يقصد بهذه العبارة أنّ السيرة التي بين أيدينا ليست السيرة الحقيقية الواقعية التي عاشها النبي ﷺ؛ ويدل عليه قوله في النص السابق: «لقصة حياة النبي الأصيلة»، وإنّما هي سيرة معتمدة على روايات مصطنعة أرادت أن تقدم لنا سيرة النبي ﷺ وشخصيته في صورة معينة، دندن عليها كثيرا في مادته -كما سيأتي-، وهي صورة الشخصية القيادية الأسطورية المقدسة، التي تعتمد على روايات مستمدة من القصص الجاهلية والروايات النصرانية واليهودية لتكوين قصة حياة النبي ﷺ كما يزعم ويدّعي.

[1]- ينظر : ص197، حيث عرض كلام المستشرق -السابق للكلام المذكور هنا- ومناقشته.

المبحث الثاني : تاريخ التأليف في السيرة من خلال "الدائرة"

بعد التتبع والاستقراء لِمواد "دائرة المعارف" جمعت جملة من النصوص في هذا الموضوع، من عدّة مواد، ثُمّ صنّفتها على حسب مضامينها لدراستها في هذا المبحث المتعلّق بتاريخ تدوين السيرة.

المطلب الأول : العناية بالسيرة وتدوينها في عصر الصحابة

الفرع الأول : عرض ما جاء في "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 3]: « **إن فكرة جَمع قصة حياة النبي من مولده إلى وفاته في رواية متتابعة محكمة ليست فكرة قديمة في الجماعة الإسلامية ولا هي بالفكرة التي جاءت عفو الخاطر...**

وإنّما انصرف هذا الاهتمام إلى تثبيت سنن العبادة والشريعة المقررة جريا على تقاليد النبي واقتداء به، كما انصرف إلى تخليد ذكر المغازي على غرار ما كان يفعل العرب في الجاهلية...

وقد كان الحافز الأول إلى هذا الاهتمام هو الذي دفع القوم – كما نعلم – إلى إقامة السنة في تلك الصورة المأثورة من الحديث المروي، وهذه الصورة وإن بدت على هيئة مجموعة من المعلومات تتعلق بحياته، فإنها في الحق تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا من حيث غرضها وطبيعتها، وكان الحافز الثاني بدوره هو السبب إلى نشأة محصول وافر من القصص تتصل بحياة النبي في المدينة وتحفل إلى حد كبير بالمغازي...

– تصنيف السيرة في صورتها الأدبية: لقد كان القصّاص، أولئك الرواة المحترفون للقصص، الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسلامي بعد الفتوح العربية الأولى مباشرة (Muhammad Studien: Goldziher، ص**161–166**) **هم أول من ألّف وأذاع عن حياة النبي القصص التي صنفوها فيما يُرجح على منوال تلك الأساطير الواردة في التوراة والإنجيل والقصص الإيرانية الأصل التي كانت هي قوام ما يلقونه على الناس. ومن ذلك نشأ نوع من التأليف ينتمي إلى القصص التاريخية أكثر من انتمائه إلى التاريخ. ونجد شاهدا على هذا النوع في كتاب "المغازي" لوهب بن منبّه (**110هـ**)... على أنّ نشاط "عروة" في التراجم لم يقتصر على هذه الرسائل، ذلك أنّه ألقى على تلاميذه معلومات جمعها بنفسه جريا على سنة النقل الشفوي الذي يدعمه الإسناد، تلك السنة التي أصبحت من ثم قوام الطريقة المتبعة في السيرة وفي الحديث.**

وغنِيّ عن البيان أننا نجد في مجاميع الحديث بمعناه الدقيق مثل صحيح البخاري ومسلم وغيرها، معلومات من الطراز الأول تتعلق بالتراجم (وبخاصة الكتب المقصورة على المغازي والمناقب) ولكن

احتواءَها على مادة مشتركة بينها وبين التراجم إنما يزيد الفرق بين هذين النوعين من التأليف تأكيـــدا على تأكيد... »[1].

- ثم جاء أيضا في مادة "**السيرة**" [فقرة: 4]: «**... على أن دراسة السيرة إنّما ازدهرت بخاصة في المدينة كما أسلفنا، ونَمت في صورتها الواسعة المحكمة إلى جانب الأحاديث الدينية، وأقدم من ألف كتابا في سيرة محمد هو عروة بن الزبير (94هـ) الذي استفاضت شهرته فقيها ومؤرخا...**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - G.Levi Della Vida[3].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

تعرضّ المستشرق "دلافيدا -Della Vida" في هاتين الفقرتين من مادة "السيرة" إلى قضايا سأتطرق لمناقشتها فيما يلي:

أولا- العناية بالسيرة في عصر الصحابة ﷺ: لقد عُنِي المسلمون عناية فائقة بأحاديث رسول الله ﷺ، وسننه، ومغازيه، وقبل أن تدوّن الأحاديث تدوينا عاما في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، كانت مقيدة في الحوافظ، مدونة في صدور الصحابة والتابعين[4]، مع بعض من المدونات القليلة التي كانت خاصة بأصحابها لغرض المذاكرة أحيانا، أو لأغراض توثيقية أحيانا أخرى، وكانت روايات السيرة جزءً من هذه الروايات والأخبار.

وقد تعدّدت الأغراض التي ولَج منها المسلمون إلى دراسة السيرة النبوية، والتي أشار إلى بعضها المستشرق "دلافيدا"، ومما أشار إليه - وهو أحد أهم هذه الأغراض- الحاجة إلى معرفة سنة النبي ﷺ التي تتضمن الأحكام الشرعية العقدية والفقهية التي يحتاجها كلّ مسلم مكلف، والسيرة النبوية جزء من السنّة، وبالتالي فإنّ معرفة سنّة النبي ﷺ تستلزم معرفة سيرته وأحواله ﷺ، لذا كان الارتباط وثيقا بين السيرة والسنة النبوية.

كما أنّ هناك غرضاً آخر لم يذكره "دلافيدا -Della Vida"؛ وهو أنّ مدارسة القرآن الكريم كانت أحد المحفزات والأبواب التي ولَج منها المسلمون إلى العناية بسيرة رسول الله ﷺ، وذلك أنّ القرآن حوى في سوره وآياته جوانب عدة من سيرته الشريفة بمختلف أجزائها[5]، حتى كانت هذه السور والآيات محطّ تساؤل واستفهام من قبل المسلمين، فما كان منهم إلا أن وجهوا العديد من الأسئلة

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 12/440-452.

[2]- المصدر نفسه، إص1، 12/450.

[3]- سبقت ترجمته في: ص95.

[4]- ينظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، 1/27.

[5]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/21 و47-48.

والاستفسارات للذين عاصروا نزول القرآن، وشاهدوا حوادث الرسالة من الصحابة ومن كان له علم بأخبارها ممن أتى بعدهم، حتى كانت هذه الأسئلة والاستفهامات حافزا على كتابة سيرته الشريفة.

مع العلم بأنّ «الصحابة كانوا على علم دقيق وواسع بالسيرة؛ لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها، وكانت محبتهم للرسول ﷺ وتعلقهم به ورغبتهم في اتباعه وأخذهم بسنته في الأحكام سبباً في ذيوع أخبار السيرة ومذاكرتهم فيها وحفظهم لها، فهي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام.

وقد اشتهر عدد من الصحابة باهتمامهم الكبير بموضوع السيرة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص والبراء بن عازب رضي الله عنهم»[1] وغيرهم.

والمستشرق "دلافيدا -Della Vida" يناقض نفسه عندما يقول بأنّ: «**فكرة جَمع قصة حياة النبي ليست فكرة قديمة**»، مع أنّ غرض تثبيت سنن العبادة والشريعة التي ذكرها غرضٌ قديم ظهر مع جيل الصحابة، وهو الجيل الأول الذي نقل إلى الأجيال اللاحقة تلك السنن، ثم إنّ الشواهد التاريخية تدلّ على أنّ العناية بجمع أحوال النبي ﷺ وأقواله وأفعاله ظهرت في عصر الصحابة ثم عصر التابعين؛ وبالتالي ففكرة جمع السيرة هي فكرة قديمة على العكس مما ذكره المستشرق "دلافيدا" مصادما بذلك الحقائق التاريخية الثابتة التي تشهد على قِدم العناية بالسيرة، وهو ما أكده غيره من المستشرقين في "الدائرة" مثل ما ذكره المستشرق "جب–Gibb" في مادة "علم التاريخ"[2] عن بداية تدوين السيرة في عصر التابعين الأوائل، وفيما يلي بعض الشواهد التي تدلّ على العناية بالسيرة في جيل الصحابة والتابعين:

– **من الشواهد على عناية الصحابة والتابعين بالسيرة والمغازي**: قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه –وهو من التابعين–: «كُنّا نُعلّم **مغازِيَ** النّبيّ ﷺ وسراياه كما نعلّم السُّورة من القرآن»[3].

وقال إسماعيل بن محمّد **بن سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه: «كان أبي يُعلّمُنا **مغازي** رسول الله ﷺ ويَعُدّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بنَيّ هذه مَآثر آبائكم فلا تُضيِّعوا ذكرها»[4].

وكان ابن عباس يعقد مجالس خاصة لتحديث الناس بِالمغازي والسّير، قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة[5] –وهو من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنه –: «كان يجلس يوما لا يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، **ويوما المغازي**»[6].

---

[1]– السيرة النبوية الصحيحة، 35/1.

[2]– سيأتي إيراد نصه في: ص111.

[3]– الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، 195/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق عبد الله التركي، 21/5.

[4]– الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، 195/2.

[5]– ترجمته في: التاريخ الكبير، البخاري، 385/5. والثقات، ابن حبان، 63/5.

[6]– تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين عمر العمروي، 191/73.

وإذا كان الاهتمام بنقل أخبار سيرة النبي ﷺ ظهر في عصر الصحابة ﷺ فإنّ التدوين في هذا الفن ظهر أيضا في عصرهم، وإن كان يتّصف بالندرة والخصوصية غالبا، بينما تطور التدوين في عصر التابعين الأوائل ليعرف أوجّه في جيل صغار التابعين كما سيأتي تفصيله في المبحث الموالي.

ثانيا- تدوين السيرة في عصر الصحابة والتابعين: لم يكن الصحابة ﷺ -وهم الذين عاصروا الرسول ﷺ- في حاجة إلى تسجيل أحداث السيرة والمغازي، فهم قد عايشوها وانفعلوا بها وتفاعلوا معها، فكانت تلك المشاهد منطبعة في ذاكرتهم، كما حفظوا أقواله ﷺ وأفعاله، وجميع أحواله.

غير أنه لم يكد جيل الصحابة -وهم شهود وحفاظ السيرة- يختفي حتى ظهرت الحاجة إلى تدوين وتسجيل السيرة النبوية، والتأريخ للعهد النبوي، فجيل التابعين - وهم الذين عاصروا الصحابة وأخذوا عنهم- لم يَشهدوا بأنفسهم الأعمال الرائعة والجهاد المجيد الذي قام به الرسول ﷺ من أجل الرسالة الإسلامية وتبليغها للناس، ولكنهم سمعوا عن ذلك من الصحابة.

كان تَحرُّج الصحابة من كتابة الحديث في الصدر الأول نابعاً من خشيتهم أن يُضاهَى بكتاب الله تعالى غَيْرُه، أو أن يُشتَغل عن القرآن بسواه، أو أن يَعتري هذه الكتابة الخطأ والزيادات، كأن تَختلط بعض أقوال النبي ﷺ بالقرآن سهواً من غير عَمدٍ، وغير ذلك من الأمور[1].

غير أنَّ هذا لا يَمنع أن يكون قد كُتب في عصر الرسول ﷺ شيء من السنة، ولكن لا على سبيل التدوين الرسمي كما كان يُدوَّن القرآن، فهناك آثار صحيحة تدل على أنه قد وقعت كتابة شيء من السنة في العصر النبوي[2]، ومن الأمثلة على ذلك:

أ)- ثبت أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدوِّنون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ التي كان يسميها "بالصادقة"[3].

ب)- كما ثبت أن النبي ﷺ كتب إلى ملوك عصره كُـــتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام[4]؛ وقد اعتنى المسلمون منذ عصر الرسالة بهذه الكتب، وكان بعض الصحابة والتابعين يحفظون شيئا من هذه المكاتبات عندهم، وربّما كتبوا نسخا عنها، فقد ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـــ): أنه

---

[1]- ينظر: تقيـــيد العلم، الخطيب البغدادي، تحقيق يوسف العش، 57. والسنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، 59. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 43-44.

[2] - السنة ومكانتها في التشريع، 59.

[3]- ينظر: تقييد العلم، 84. وجامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، 1/305-306.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (مع الفتح)، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، 6/133-135. وصحيح مسلم (مع النووي)، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، 12/147-152.

قد اطلع على الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ إلى أهل دومة الجندل، إذ أتاه به شيخ من أهل تلك المدينة، وكان الكتاب مكتوبا في صحيفة بيضاء فنسخه بتمامه[1].

كما ذكر "الزيلعي": أن "عكرمة" مولى ابن عباس ﷺ نسخ من الكتاب الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام[2].

وأمّا **مَن دوّن في السيرة خاصة من الصحابة** فهم:

[1]– سعيد بن سعد بن عبادة ﷺ: مدني من صغار الصحابة[3]، كان كتابه موجودا في أوائل العصر العباسي عند حفيده "سعيد بن عمرو بن سعيد"، ويدلّ عليه قوله في بعض رواياته: «وجدت في كتاب سعيد بن سعد بن عبادة ...»[4].

[2]– سهل بن أبي حثمة ﷺ: مدني له صحبة[5]، وتوفي في أول خلافة معاوية ﷺ [أي: ما بين 41هـ إلى 60هـ]، كان حفيده محمد بن يحيى بن سهل - الذي روى عنه الواقدي كثيرا - يملك نسخة مِما دوّنه، وكان يشير إلى ذلك بقوله: «وجدت في كتاب آبائي»[6].

[3]– عبد الله بن عباس ﷺ[7] (المتوفى سنة 68 هـ): كان شديد العناية بتلقّف روايات السيرة والمغازي، فقد جاء عنه أنّه قال: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك»[8].

كما كان ابن عبّاس ﷺ يكتب ما سمعه من روايات في السيرة وغيرها[9]، حتى بلغ ما كتبه: قدر حمل بعير كما ذكر موسى بن عقبة[10]، بل كان عند بعض تلاميذه كعكرمة وكريب وغيرهما – بعد موته– شيء من كتبه التي دوّنَها، كانوا يأخذون منها وينسخون عنها[11].

---

[1]– ينظر: الأمـــوال، تحقيق خليل هراس، 252-253.

[2]– نصب الراية، تحقيق محمد عوامة، 420/4.

[3]– ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق علي البجاوي، 620/2. أسد الغابة، عز الدين ابن الأثير، تحقيق علي معوض–عادل عبد الموجود، 478/2. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق عادل عبد الموجود –علي المعوض، 88/3.

[4]– التاريخ الكبير، البخاري، 498/3. والإصابة، 476/4.

[5]– ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 661/2. أسد الغابة، 570/2. الإصابة، 163/3.

[6]– الطبقات الكبرى، ابن سعد، 251/1. والإصابة، 19/2. وينظر: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، 66/2.

[7]– ترجمته في: الاستيعاب، 933/3. أسد الغابة، 291/3. الإصابة، 121/4.

[8]– الطبقات الكبرى، 283/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 87/12.

[9]– ينظر: الطبقات الكبرى، 283/2. وتقييد العلم، 91. ودراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، الأعظمي، 116/1.

[10]– ينظر: الطبقات الكبرى، 224/5-225. وتقييد العلم، 136. وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 123/50.

[11]– ينظر: الطبقات الكبرى، 224/5-225. وسير أعلام النبلاء، 480/4. ونصب الراية، الزيلعي، 420/4.

ولا شك أنّ روايات السيرة والمغازي كانت من ضمن ما دوّنه في تلك الصحائف والكتب، خاصة مع عنايته بهذا القسم من الروايات جمعا وتدريسا.

فهذه الشواهد التاريخية تبرهن على قدم تدوين السيرة فضلا عن فكرة جمعها، وفي ذلك ردّ آخر على قول "دلافيدا -Della Vida" بعدم قِدم فكرة جمع السيرة.

لكن **أهم ما مَيّز الكتابة في هذه المرحلة:** أنّها كانت قليلة، ولا تَـتَّخذ طابع التدوين العام؛ أي: لم يكن الصحابة ﷺ يجعلون تلك الصحف من الحديث مرجعاً يتداولونه بينهم.

وإنما كانت هذه الصحف بين أيديهم بِمثابة المذكرات، فلما انتشر علم القرآن وكثر حفّاظه وقرّاؤه، وأمن أن يَلتبس به غيره لدى الناس، أقبلت الأمة على تدوين الحديث تدوينا اتّخذ صبغة العموم، وتداولت صحفه المكـتوبة، وذلك بأمر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز[1]؛ حيث كـلّف أبا بكر بن محمد بن حزم (ت: 120هـ) بهذه المهمة، وكتب إليه: «أنِ انظُر ما كان مِن حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنّي خِفْت دُرُوس[2] العلم وذهاب العلماء»[3]، قال ابن حجر -معلقا على هذه الرواية-: «يستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي»[4].

ثالثا- ارتباط السيرة النبوية برواية الأحاديث أكثر من ارتباطها برواية القصص: يبدو المستشرق "دلافيدا" متذبذباً في كلامه عن البدايات الأولى للسيرة النبوية، هل كانت من طرف القصّاص والأخباريين[5] أم من طرف المحدثين؟ فهو من ناحية يذكر أنّها بدأت مع القصّاص عندما يقول: «**لقد كان القصّاص هم أول من ألّف وأذاع عن حياة النبي القصص التاريخية**» واستشهد على ذلك "**بكتاب "المغازي" لوهب بن منبّه (110هـ)**"، ثم يناقض قوله هذا مُرجعا بداية الكتابة في السيرة إلى المحدثين، فيقول بعد ذلك: «**على أن دراسة السيرة إنّما ازدهرت ونَمت في صورتها الواسعة المحكمة إلى جانب الأحاديث الدينية، وأقدم من ألف كتابا في "سيرة محمد" هو عروة بن الزبير (94هـ)**»؛ وعروة من المحدّثين، وقوله بأنّ السيرة نَمت وازدهرت إلى جانب الأحاديث دليل آخر على أنّ قوله الأخير هذا ينفي كلامه السابق بأنّ القصّاص هم الذين جمعوا وكتبوا سيرة المصطفى ﷺ، ويدلّ كلامه على أنّ المحدثين هم الذين وضعوا اللّبنات الأولى في علم السيرة النبوية، وإن كانت بعض أخبار

---

[1]- ينظر: منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 44-45.

[2]- أي: ذهابه وضياعه. ينظر: هدي الساري (مقدمة فتح الباري)، 173.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (مع الفتح)، 256/1. وتقييد العلم، الخطيب البغدادي، 105-106.

[4]- فتح الباري، 257/1.

[5]- **الأخباري:** بفتح الألف وكسرها، نسبة إلى **الأخبار**، وهو المؤرخ الذي يشتغل بالتواريخ وما شاكلها. ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 215/1. وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، 631/1.

القصّاص تسرّبت فيما بعد إلى كتب السيرة كما سيأتي بيانه بالتفصيل في المبحث الثالث[1]، وفيما يلي بيان ارتباط السيرة بالحديث والمحدثين تاريخيا وعلميا منذ بدايتها وتطورها:

ارتبط علم السيرة بعلم الحديث في بداية نشأته وتدوينه، من وجهين:

– **الوجه الأول: من حيث الرواة؛** فكان جلّهم محدثون، أو محدثون وأخباريون، وقليل منهم كان أخباريا دون عنايته بالحديث، أو بعبارة أخرى: بعض المؤلفين في السيرة «جمع بين صفتي المحدث والمؤرخ مثل: ابن إسحاق وخليفة بن خياط، ويعقوب الفسوي، وابن جرير الطبري»[2] وغيرهم.

– **والوجه الثاني: من حيث الروايات؛** فكانت روايات السيرة متضمَّنة في روايات الحديث، لكونها داخلة في أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله التي يستفاد منها هديه وسنّته.

لكن مع ذلك كان الصحابة وبعدهم التابعون يصنّفون أحاديث السير والمغازي عن غيرها، بل ويَخصّونَها بمجالس التحديث والرواية، كما خصّوها بالتأليف والتدوين الذي أخذ أشكالا ومناهج مختلفة إلى أن استقرّ مع عمل الزهري وابن إسحاق ومن بعدهما.

وقد أقرّ المستشرق "دلافيدا Della Vida-" في الفقرة (4) من مادة "السيرة" بأنّ رواية السيرة نشأت وازدهرت في المدينة مع رواية الحديث، وهو كما قال؛ فقد «بدأت دراسة "مغازي" الرسول ﷺ في المدينة ضمن دراسة الحديث، ومع أنّ المحدّثين استمروا على اهتمامهم بالمغازي، إلاّ أنّ بعضهم أخذ يعنى بدارسة حياة الرسول ﷺ بشكل يتعدى الاقتصار على نواحي التشريع.

وكان من رواد دراسة "المغازي" محدثين، كما أنّ النظرة التي نظر بها العلماء إلى مؤلفي "المغازي" تؤيد هذا الرأي، وهذا يفسّر أهمية الإسناد أو سلسلة الرواة في تقدير قيمة المغازي، ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدثين أو الرواة، وهذا الاتجاه ولد في مدة مبكرة... وأدخل عنصر البحث والتحري في جمع الروايات، وكوّن أساسا متينا للدراسة التاريخية»[3].

والملاحظ أنّ المحدثين الذين ألّفوا المصنفات الحديثية «لم تخل كتبهم غالبا عن ذكر ما يتعلق بحياة النبي ﷺ ومغازيه، وخصائصه ومناقبه»[4]، حيث نجد في: الموطأ[5]، ومسند أحمد، والصحيحين[6]،

---

[1]– ينظر: ص159 وما بعدها.

[2]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، 11/1.

[3]– نشأة علم التاريخ، عبد العزيز الدوري، 23.

[4]– السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، 27/1.

[5]– ينظر مثلا:كتاب الجهاد، كتاب صفة النبي ﷺ، باب ما جاء فِي صفة النَّبِيِّ ﷺ، باب أسماء النبي ﷺ، وغيرها.

[6]– ينظر مثلا: في "صحيح مسلم": باب عدد غزوات النبي ﷺ، باب عزوة بدر، باب غزوة الطائف، باب في صفة النَّبِيّ ﷺ ومبعثه، وَسِنِّهِ. وفي "صحيح البخاري": باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، كتاب المغازي وغيرها.

والسنن: أبواباً خاصة لذكر الأحاديث في: مغازي رسول الله ﷺ وسيرته، وأحواله، وصفته، وخصائصه، ونحوها، وهو ما أشار إليه "دلافيدا-Della Vida" أيضا في الفقرة (3) من مادة "السيرة".

وسجل الذهبي هذه الملاحظة -التي تدلّ على الارتباط الوثيق بين السيرة والحديث- فقال: «وثَمّ أحاديث جَمّةٌ في الصِّحاح والمسانيد مِمّا يتعلّق بالسِّيرة والمغازي»[1].

ثمّ إنّ مادة السيرة في كتب الحديث موثقة يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة، لأنّها ثَمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سندا ومتنا، وهذا التدقيق والنقد الذي حظي به الحديث لم تحظ به الكتب التاريخية[2].

المطلب الثاني: رجال الطبقة الأولى من المؤلفين في السيرة

الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف"

- جاء في مادة "**علم التاريخ**" [فقرة 1]: «**فإن بداية تأليف التاريخ العلمي باللغة العربية تُربَط بالبحث في حياة النبي وأعماله، وهو ما يستتبع رجوع أصل هذا التنظيم إلى مجموعة الأحاديث النبوية... وبخاصة الأحاديث المتصلة بغزوات النبي (ومن ثم اصطلاح "المغازي" أو الغزوات الذي أطلق على المصنفات الأولى التي أُلّفت في السير).**

وكانت المدينة المنورة موطن هذه الدراسة ومعهدها ولم يختص أحد بالتأليف في المغازي قبل القرن الثاني للهجرة في مواطن أخرى غير المدينة...

وقد أدّى الجيل الثاني من المسلمين إلى هذا التقدم... ومع هذا فإنّ اثنين منهم وهما "أبان بن عثمان" و"عروة بن الزبير" ورد ذكرهما على اعتبار أنّهما مصنفان في المغازي، ولكن مصنفاتهما لم تذكر قط على لسان الذين جاءوا بعدهما»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **جب** - H. Gibb[4].

---

[1]- سير أعلام النبلاء، 52/7.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، 50/1.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/4.

[4]- **هاملتون جب** "Hamilton Gibb" (1895-1971م): من أبرز مستشرقي إنجلترا في وقته، ولد في الإسكندرية بمصر وتعلم في إنجلترا، عمل أستاذا للعربية في أكسفورد، ثم هارفارد الأمريكية. من مؤلفاته: "فتوح العرب في آسيا الوسطى". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 551/2. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 174.

– وجاء في مادة "**أبان بن عثمان**": «... **كتابه "المغازي" (وهو سيرة محمد) يعدّ أقدم الآثار الأدبية في هذا الموضوع**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **نسترشـــتين** - K.V. Zetterstéen[2].

– وجاء في مادة "**وهب بن منبه**": «**ورغم أنّ "وهبا" لم يؤلف في المغازي إلاّ أنّه كان ممهدا لكتابتها، وتبين لنا الورقة البرديّة[3] التي وجدها المستشرق "بيكر" بين مجموعة من الأوراق في "هيلدبرج" أنّ وهبا لَم يتناول المغازي بالمعنى الخاص، فهي تحتوي على تاريخ العقبة الكبرى، وحديث قريش في دار الندوة والاستعداد للهجرة، والهجرة نفسها ووصول النبي ﷺ إلى المدينة، وغزوة بني خثعم، وإذا كنا قلّما نجد في قطعة هيلدبرج شيئا جديدا لم نجده في كتب السيرة والمغازي التي وصلت إلينا كاملة، فإنّها تهمنا لأسباب، منها أنّها تؤكد ما يقال من أن سيرة النبي ﷺ كانت تروى عام (100 هـــ) أو قبل ذلك بقليل**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **هـــورفـــنس** – J.Horovitz[5].

– وجاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 5]: «**وقد اصطنع هذه الطريقة نفسها معاصر لعروة وابن خليفة من الخلفاء، ونعني به "أبان بن عثمان" الذي استقر هو أيضا في مكة، وقد جمع دروسه عن حياة النبي في كتاب تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة[6] المتوفى قبل سنة (125 هـــ). وأطلق على هذه الآثار الأدبية الأولى اسم المغازي (ويمكن أن نضيف إلى هذين الاسمين اللذين ذكرناهما وشيكا: شرحبيل بن سعد المتوفى سنة (122 هـــ) الذي كان أثره فيما يظهر ضئيلا)، وهي التي ظلت كما رأينا من التواليف المأثورة إلى عهد متأخر... على أن محتوياتها تتعلق في جوهرها بحياة النبي العامة**»[7].

محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - G.Levi Della Vida[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 17/1.

[2]– **تسترشـــتين** "Karl Zetterstéen" (1866–1953م): مستشرق سويدي ، درس اللغة العربية والتركية والفارسية في السويد وألمانيا، اشتغل أستاذا للغات السامية في جامعة "أوبساله" بالسويد. له عدة مؤلفات وتحقيقات، كما ترجم القرآن إلى السويدية. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 896/3. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 328.

[3]– **ورق البرديّ**: نوع قديم من الأوراق، يُصنع من نبات البرديّ، وهو نَبَات مائي يشبه القصب يَنْمو في أعالي النّيل بِمصر، كان المصريون القدماء يصنعون منه "ورق البرديّ" للكتابة عليه. ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 48/1. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 318/4.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10181/32.

[5]– **هورفـــتس** "Joseph Horovitz" (1874–1931م): مستشرق ألماني يهودي، عُين مدرسا للغات السامية بجامعة فرنكفورت في ألمانيا، وكان عضوا في مجلس إدارة الجامعة العبرية في القدس، من آثاره: حقّق كتاب: المغازي للواقدي، وله كتاب "مباحث قرآنية". ينظر: المستشرقون، 743/2–744. موسوعة المستشرقين، 621.

[6]– الصواب: "**المغيرة بن عبد الرحمن**" كما سيأتي: ص115. فلعلّ الخطأ من المستشرق محرر المادة، وقد يكون الخطأ من المترجمين.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 450/12.

[8]– سبقت ترجمته في: ص95.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

يمثل كبار التابعين الطبقة الأولى من المؤلفين الأوائل في السيرة بعد الصحابة، وهي الطبقة التي عناها المستشرق "جب" بقوله: "**الجيل الثاني من المسلمين**" أي: أنّ **كبار التابعين** هم الجيل الثاني بعد الصحابة، لأنّ الصحابة يمثلون الجيل الأول من المسلمين.

فقد بدأ التدوين في السيرة والمغازي على سبيل الاستقلال في النصف الثاني من القرن الأول الهجري[1]، ومِن أوائل مَن عرفوا بِجمع المغازي والسير في عصر **كبار التابعين**:

[1]- عروة بن الزبير (المتوفى سنة: 94 هـ): محدث ثقة من التابعين[2].

- **إثبات كتابه في المغازي:** قال الذهبي في ترجمة "أبو الأسود محمد الأسدي": «نَزَل أبو الأسود مصرَ، وحدَّث بِها بكتاب "المغازي" لعروة بن الزبير»[3]، كما ذكر البيهقي أيضا هذه "المغازي" حين قال: «ففي قصّة الخندق في **مغازي** أبي الأسود عن **عروة**...»[4].

وهي المغازي التي ذكرها أيضا ابن حجر واستشهد بها في مواضع كثيرة من "فتح الباري"[5]، كما اعتمد عليها أيضا الذهبي في بعض كتبه[6]، وذكر "السخاوي" هذا الكتاب ضمن مؤلفات السيرة[7].

وهذه النّقول عن البيهقي والذهبي وابن حجر التي تشير بوضوح إلى كتاب لعروة في "المغازي" تَردّ قولَ المستشرق "جِب -Gibb" في مادة "علم التاريخ": أنّ مصنفات "عروة" و"أبان بن عثمان" في المغازي «**لم تذكر قطّ على لسان الذين جاءوا بعدهما**»، فقد فاته أنّها وردت عند هؤلاء المحدثين المؤرخين.

ويشهد لذلك ويؤكده ما روي في كتب الحديث[8] عن أبي الأسود عن عروة من روايات جَمّة في موضوع المغازي، حتى صنّف الشيخ الأعظمي كتابا جمع في روايات أبي الأسود عن عروة في المغازي، وسماه "مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير -برواية الأسود-" وهو مطبوع.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، 28/1.

[2]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 136/5. التاريخ الكبير، البخاري، 31/7. تهذيب الكمال، جمال الدين المزي، تحقيق بشار معروف، 11/20. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 180/7.

[3]- سير أعلام النبلاء، 150/6.

[4]- السنن الكبرى، 93/6. وذكرها أيضا في: كتابه "دلائل النبوة، 7/ 197".

[5]- ينظر على سبيل المثال: 418/5. 15/7، 600، 632، 639. و64/8، 822، وغيرها كثير.

[6]- ينظر مثلا: تاريخ الإسلام، 412/1. وسير أعلام النبلاء، 223/2.

[7]- ينظر: الإعلان بالتوبيخ لِمن ذمّ أهل التاريخ، تحقيق المستشرق روزنتال، ترجمة صالح العلي، 147.

[8]- وينظر بعض الأمثلة عن ذلك في: المعجم الكبير، الطبراني، 118/1، 197، 228. و28/2، 77، 148. و270/3، 303. و90/5، 163، 225. و106/6. و6/8-8. و34/9-36. والمستدرك، الحاكم، 217/3، 303، 472، 559. والسنن الكبرى، البيهقي، 93/6، 599. و65/7. و54/9-55، 57-85، 327.

ويذكر المستشرق "هورفتس": أنّ كتب ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري تأخذ جزءً كبيراً من مادتها عن روايات عروة في السيرة، إضافة إلى اعتماد مصنفات الحديث على رواياته[1].

كما وصل إلينا شيء من مغازيه في مقتبسات وردت عند بعض المؤرخين: كالطبري، وابن إسحاق، والواقدي، وابن سيد الناس، وابن كثير وغيرهم، وهذه المقتبسات تتناول جوانب مختلفة من حياة الرسول ﷺ[2]؛ ولهذا يرى المستشرق "مارسدن جونس" أن: «كثرة النقول عنه عند ابن إسحاق والواقدي تدل بصورة قاطعة على أنه [أي: عروة] هو أول من دوّن السيرة بشكلها الذي عرف فيما بعد»[3].

ومِمّن ذكره كأول من دون في السيرة: الذهبي فقال: «وكانَ ثبتًا حافظًا فقيهًا عالِمًا بالسّيرة، وهو أول من صَنَّف المغازي»[4]، وكذا الصفدي وابن كثير وحاجي خليفة[5]، وأيضا المستشرق "مارسدن جونس"[6]، والمستشرق "دلافيدا" في نصّه السابق من مادة "السيرة" في "دائرة المعارف"[7].

ولا يرجّح "سزكين" أنّ كتابه في السيرة هو أوّل ما دوّن في هذا الفنّ، بل يرى: أنّه أقدم ما وصلنا إلينا مدوّنا عن سيرة الرسول ﷺ[8]؛ على اعتبار أنّ هناك من دوّن قبله و لم تصلنا كتبهم، ولكن وصلتنا أخبارها، مثل من تقدم ذكرهم من الصحابة الذين كانت لهم بعض الكتابات.

[2]– أبان بن عثمان بن عفان (المتوفى سنة: 105 هـ): محدّث ثقة من كبار التابعين[9].

«والظاهر أن سيرته التي جمعت لم تكن إلا صحفا[10] فيها أحاديث عن حياة رسول الله ﷺ، وأيامه، ومغازيه، وقد فُقدت فيما فقد من كتب المسلمين»[11].

---

[1]– المغازي الأولى ومؤلفوها، 23.

[2]– نشأة علم التاريخ عند العرب، 24.

[3]– المغـــازي، محمد بن عمر الواقدي، تحقيق المستشرق مارسدن جونس، مقدمة التحقيق، 21.

[4]– تاريخ الإسلام، 1139/2.

[5]– ينظر على التوالي: الوافي بالوفيات، 361/19. والبداية والنهاية، 476/12. وكشف الظنون، 1746/2.

[6]– في مقدمة تحقيقه لـــ"مغازي الواقدي"، 21/1.

[7]– سبق كلامه في: ص105. من هذا البحث.

[8]– ينظر: تاريخ التراث العربي، 70/2.

[9]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 115/5. التاريخ الكبير، البخاري، 450/1. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 147/6. تهذيب الكمال، المزي، 16/2.

[10]– وهذا ما ذكره محقّقو "تهذيب السيرة لابن هشام، 5/1 (مقدمة التحقيق)"؛ وتدلّ الشواهد التي جاءت في رواية الزبير بن بكار، وفي رواية ابن سعد وابن عساكر عن المغيرة بن عبد الرحمن –المذكورة بعد هذا الكلام في هذه الصفحة الموالية–: على أنّ هذه الصحف كانت في موضوع معيّن، وهو: سيرة النبي ﷺ ومغازيه.

[11]– السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، 28/1.

وفي قصة أبان بن عثمان مع سليمان بن عبد الملك –وكان وليّا للعهد آنذاك–: شاهد صريح على أنّه كان "لأبان" كتاب في سيرة النبي ﷺ ومغازيه، فقد جاء فيها حسب ما رواه الزبير بن بكار: «... ثُمّ أَمَر [أي: سليمان بن عبد الملك] أبانَ بن عثمان أن يكتب له سِيَر النّبيّ ﷺ، ومغازيه، فقال أبانٌ: هيَ عندي، قد أخذتُها مصحّحةً مِمّن أثقُ به، فأمر بنسخها وألقى فيها إلى عشرةٍ من الكُتّاب، فكَتَبوها في رَقّ...»، ثم يقول "أبان" في الرواية: «... هم على ما وَصَفْنا لك في كتابنا هذا»[1].

وقد كان للمغيرة بن عبد الرحمن المدني (المتوفى سنة: 120 هـ): خط مكتوب من مغازي رسول الله ﷺ أخذها من أبان بن عثمان، فكانت كثيرا ما تُقرأ عليه، وأمر أولاده بتعليمها[2].

وفي هذه النصوص القديمة والشواهد التاريخية – إضافة إلى ما سبق عن عروة- ردّ آخر على قول "جِب –Gibb" بأنّ مصنفات "عروة" و"أبان" في المغازي "**لم تذكر قط على لسان مَن جاء بعدهما**".

ويضاف إلى النصوص السابقة أنّ كتاب "أبان" في المغازي ذكره: محمد مصطفى الأعظمي، وعبد العزيز الدوري، وفؤاد سزكين في كلامهم عن الكتابات الأولى في السنة والسيرة النبوية[3].

أمّا ما ذكره المستشرق "تسترشتين -Zetterstéen" في مادة "أبان" من أنّ كتاب "أبان بن عثمان" "**يعدّ أقدم الآثار في هذا الموضوع**"، فهو كلام غير محرّر تاريخيا ويحتاج إلى تدقيق؛ لأمرين:

الأول: هو أنّه سبق "أبان" في تدوين شيءٍ عن المغازي بعضُ صغار الصحابة، كـ: سعيد بن سعد، وسهل بن أبي حثمة وابن عباس رضي الله عنهم[4].

والثاني: أنّه قد يكون سبقه أو واكبه معاصره "عروة بن الزبير" الذي ذكر أكثر من تكلّم في تاريخ تدوين السير والمغازي أنّه أول من دوّن في هذا الموضوع كما تقدّم آنفا.

وعلى هذا: فإنّ الأدق من عبارةِ "تسترشتين -Zetterstéen" عبارةُ "سزكين" حين قال: «وهو [أي: أبان] مِن أقدم مَن ألفوا كتبا في المغازي»[5]، فلو أنّ المستشرق "تسترشتين" قال: «يعدّ من أقدم ...»؛ لكانت عبارته أدقّ وأقرب للصواب.

وبما أنّ "عروة بن الزبير" و"أبان بن عثمان" كانا متعاصريْن، فيمكن القول بأنّهما كانا أول من دوّن السيرة، ويقدَّم "عروة" في الذكر لأنّه الأقدم وفاةً، كما يقول المؤرخ عبد العزيز الدوري:

---

[1]– الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار، تحقيق سامي العاني، 124–125. ثم تذكر الرواية: كيف أنّ وليّ العهد سليمان بن عبد الملك أمر بحرق هذه الصحف؛ لكن لا يُستبعد أن يكون أبان بن عثمان قد أعاد نسخها بعد ذلك، أو أنّه حرَق نسخه التي كتبها هو، لا نسخة "أبان"، ولمزيد من التفصيل: تراجع الرواية كاملة في المصدر المذكور.

[2]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 162/5. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 72/60. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 54/1.

[3]– ينظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، 158/1–160. ونشأة علم التاريخ، 24. وتاريخ التراث العربي، 70/2.

[4]– سبق تفصيل ذلك في: ص108.

[5]– تاريخ التراث العربي، 70/2.

«ويبدو أنّ عروة بن الزبير... كان مؤسس دراسة المغازي، إذ كان أول من ألّف كتابا في "المغازي"، وكذلك فعل أبان بن عثمان»[1].

- الرد على ما جاء في مادة "علم التاريخ" أنّه لم يكن هناك عناية بالسيرة خارج المدينة في القرن الأول:

أمّا قول المستشرق "جب –Gibb" أنّه «**لم يختص أحد بالتأليف في المغازي قبل القرن الثاني للهجرة في مواطن أخرى غير المدينة**»؛ فيردّه بروز علماء دوّنوا في المغازي خارج المدينة في هذا القرن، منهم:

[3][2]**– عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي**[3] (المتوفى سنة 103هـ): كانت له عناية بالسيرة والمغازي، قال عبد الملك بن عمير: «مرّ ابن عمر بالشعبي وهو يقرأ المغازي، فقال: كأن هذا كان شاهداً معنا، ولَهو أحفظ لها منّي وأعلم»[4]، فعبارة: «يقرأ المغازي»: فيها إشارة إلى أنّه كان له كتاب مدوَّن يقرأ منه، لذا أثبت الأعظمي وسزكين -إستناداً لذلك- كتابا للشعبي في "المغازي"[5].

[4]– ووهب بن منبه (المتوفى سنة 114 هـ): الإمام، الأخْباريّ، اليمانِيّ، من التابعين[6].

روى عن طائفة من الصحابة: كأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس ﷺ وغيرهم[7].

وهو يماني المولد والنشأة، ومعنى هذا أنّ الاهتمام بالمغازي والسير لم يكن مقصورًا على أهل المدينة وحدهم، بل كان الاشتغال بها موضع اهتمام العلماء في أقطار إسلامية مختلفة.

"فالشعبي" **عراقي** و"وهب بن منبه" **يَمني**، وذُكر لهم تدوين في المغازي، وكلاهما كان نشاطهما العلمي في أواخر القرن الأول الهجري، وعليه: فهذه الشواهد تردّ ما ذكره المستشرق "جب –Gibb"، وتدلّ على ما في قوله من الخطأ والوهم، وتثبت أنّ الاهتمام بالسيرة والمغازي رواية وتدوينا لَم يقتصر في القرن الأول على علماء المدينة فحسب، بل كانت هناك جهود أخرى خارج المدينة في: العراق واليمن وغيرها من بلاد الإسلام آنذاك، وإنّما كانت مدرسة المدينة - حينئذ- أكبر تلك المدارس وأهمّها؛ وأكثرها إنتاجا وتأثيرا في مسيرة تدوين السيرة النبوية.

---

[1]- نشأة علم التاريخ عند العرب، 24.

[2]- إضافة إلى "عروة" وأبان" السابقين لأنّها من طبقة واحدة في تدوين السيرة، لكن: "الشعبي" و"وهب" خارج المدينة.

[3]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 259/6. التاريخ الكبير، البخاري، 450/6. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، 143/14. تهذيب الكمال، المزي، 28/14. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 294/4.

[4]- تاريخ بغداد، 143/14. وسير أعلام النبلاء، 302/4.

[5]- ينظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، 153/1. وتاريخ التراث العربي، 69/2.

[6]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، 70/6. التاريخ الكبير، 164/8. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 366/63. الثقات، ابن حبان، 487/5. تهذيب الكمال، 140/31. سير أعلام النبلاء، 544/4.

[7]- ينظر: تاريخ مدينة دمشق، 366/63. وتهذيب الكمال، 140/31.

لقد اشتهر "وهب" برواية أخبار الأمم السالفة وأهل الكتاب، ويبدو أثره واضحا خاصة في الإسرائيليات[1] وقصص ما قبل الإسلام[2]، قال الذهبي: «وإنّما غزارةُ علمه في الإسرائيليّات، ومِن صحائِف أهل الكتاب»[3]؛ وكان مقصده من العناية بِها توضيح بعض الإشارات القرآنية من خلالها[4].

كان لتدوين "وهب" أخبارَ الرسل والأمم السالفة أثر بالغ في أعمال المؤرخين الذين أتوا بعده، وخاصّة محمد بن إسحاق حين بدأ كتابه في "المغازي"؛ ومهّد للسيرة النبوية بأخبار الأمم والأقوام والأنبياء السالفة، التي أسماها بأخبار "المبتدأ"[5].

ويذكر حاجي خليفة وغيره أنّ لِوهب كتابا في "المغازي"[6]، وهو ما ذكره محرر مادة "السيرة".

لكن المستشرق "هورفتس-Horovitz" يقرّر في مادة "وهب" أنّ "وهب بن منبه" لم يؤلف في المغازي، بينما نجده في موضع آخر -وبالضبط في كتابه "المغازي الأولى ومؤلفوها"- يصحّح نسبة حاجي خليفة كتاب "المغازي" لِوهب، ويعتبر المخطوط -المذكور في المادة- الذي وجد في "هيلدبرج" قطعة من هذا الكتاب، حيث يقول "هورفتس -Horovitz" هناك: «ويقول حاجي خليفة عن "وهب" أنّه جمع المغازي، ولكن "وهبا" لا يُذكر في كتب السيرة القديمة مع رواة سيرة النبي، ومع ذلك فقول حاجي خليفة صحيح، فقد وجد "بيكر" بين مجموعة أوراق برديّ المحفوظة في هيلدبرج مجلدا؛ يرجح أنه يحوي قطعة من كتاب "المغازي" هذا»[7].

لكن ما هو الإشكال الذي جعل "هورفتس -Horovitz" يتناقض في قوله؛ فيثبت أن "وهبا" ألف في المغازي تارة، وينفي ذلك تارة أخرى؟

بعد التدقيق جيدا في كلامه السابق في "الدائرة"، وفي فقرة أخرى من كتابه "المغازي الأولى ومؤلفوها" -يُثبت فيها تأليفَ "وهب" في المغازي- ندرك مقصده، ويزول الإشكال، حيث يقول:

---

[1]- **الإسرائيليات**: هي الأخبار المنقولة عن أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) في كتب التَّفسير والتَّاريخ وغيرها، ومن أشهر مَن كان يروي هذه الأخبار: كعب الأحبار، ووهب بن منبه وغيرهما، وكان المقصد من روايتهم الإسرائيليات توضيح بعض الإشارات القرآنية عن قصص الأمم السالفة، لذا قد يستفاد منها بعض الإضافات كأسماء بعض الشخصيات المذكورة في القرآن عن الأمم السابقة ونحو ذلك ممّا له سند من القرآن أو نقل صحيح، أمّا ما كان منها مشاكلا للأساطير والقصص المبالغ فيها فيردّ. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 83/1-84. ونشأة علم التاريخ، الدوري، 30. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وآخرون، 91/1.

[2]- ينظر: نشأة علم التاريخ عند العرب، 13.

[3]- سير أعلام النبلاء، 545/4.

[4]- نشأة علم التاريخ عند العرب، 30.

[5]- كما سيأتي بيانه في: ص132.

[6]- ينظر: كشف الظنون، 1747/2. ونشأة علم التاريخ، 30. والمغازي الأولى ومؤلفوها، هورفتس، 34-35.

[7]- المغازي الأولى ومؤلفوها، 34.

«ولكننا إذا فهمنا لفظة المغازي بمعناها العام كما ينبغي؛ طبقا لاستعمال اللغة في الأيام الأولى من الإسلام، وتوسعنا فيها لتشمل حياة النبي جميعها؛ فإنّ كتابات "وهب" تدخل في نطاق بحثنا»[1].

إذن فالإشكال ليس تاريخياً؛ وإنّما يتعلّق بإطلاقات مصطلح "المغازي"، إذ أنّ "هورفتس-Horovitz" يقرّ أنّ "وهباً" كتب في مباحث لها علاقة بالمرحلة المكية والهجرة[2] وهي لا تشمل الغزوات النبوية، ولكن إذا اعتبرنا مصطلح المغازي بإطلاقه المتداول عند علماء القرون الأولى والذي يشمل أحوال النبي ﷺ وكلّ ما يتعلقّ بحياته وأقواله ﷺ، وأنّه لا يقتصر على جهاد النبي ﷺ وغزواته وسراياه فحسب، فإنّ كتاب "وهب" يدخل في نطاق المغازي، وهذا الإطلاق هو ما مشى عليه "هورفتس" في كتابه "المغازي الأولى"، كما يفهم من عنوانه ومضمونه، ونصّه المذكور آنفا.

وعلى كلّ فاستعمال مصطلح "المغازي" بهذا المعنى اصطلاح لا يمكن التّنكب عنه، خاصة عند الحديث عن تاريخ التأليف في السيرة النبوية وفنونها، والملاحظ أن المستشرق "هورفتس" أهمل هذا الاصطلاح هنا في "دائرة المعارف"، بينما أثبته ونبّه عليه في كتاب آخر له –خارج "الدائرة"–، ولو نبّه عليه هنا في "الدائرة" أيضا لكان أدقّ وأتم لِما حرّره في المادة، وأبْعد عن الإغراب والإشكال.

أمّا قول "هورفتس-Horovitz": أن «**سيرة النبي ﷺ كانت تروى عام (100 هـ) أو قبل ذلك بقليل**»: فهو كلام غير دقيق ولا محرّر تاريخيًّا، ذلك أنّ رواية السيرة وأخبارها كانت في أوائل القرن الأول من الهجرة، وقد سبق ذكر[3] بعض النصوص التي تدل على: أنّ جيل الصحابة كان يلقّن الجيل الأول من التابعين مغازي رسول الله ﷺ وأحواله كما تُعلم السورة من القرآن، وأنّ ابن عباس رضي الله عنه كان يعقد مجالس خاصة بالمغازي وما إلى ذلك.

فتدوين السيرة أقدم مما ذكر المستشرق "هورفتس"، لأنّه بدأ مع تدوين السنة النبوية، وظهر على وجه الاستقلال في مطلع النصف الثاني من القرن الأول، كما ذكر "أبو شهبة" و"الدوري"[4] وغيرهما، والعجب من المستشرق "هورفتس" كيف يقول هذا الكلام، وهو مؤلِّف كتاب "المغازي الأولى ومؤلفوها"، وهو نفسه يذكر فيه أنّ من أوائل من دونوا السيرة: أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، وشرحبيل بن سعد[5]، وكلهم عاشوا في النصف الثاني من القرن الأول وكان إنتاجهم العلمي فيه.

---

[1]– المصدر السابق، 34.

[2]– ويُحتمل أنّ ما كتبه في "الدائرة" أقدم مِمّا ذكره في كتابه "المغازي الأولى"، حيث تبيّن له بعد البحث في هذا الكتاب صحّة نسبة كتاب في السيرة "لوهب بن منبه".

[3]– ينظر: ص97.

[4]– ينظر: السيرة النبوية، محمد أبو شهبة، 28/1. ونشأة علم التاريخ عند العرب، 29.

[5]– ينظر: المغازي الأولى ومؤلفوها، من3 إلى27.

المطلب الثالث : رجال الطبقة الثانية من المؤلفين في السيرة

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**علم التاريخ**" [فقرة: 2]: «**وفي الجيل التالي اشتهر بعض المحدّثين بمجموعتهم الشاملة لأحاديث المغازي، وبخاصة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذي دون بالكتابة مواد الحديث نزولا على أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أو الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أودعت هذه المواد خزانة الدولة التي حلّ بها العفاء فيما بعد... وقد كانت الأحاديث التي رواها الزهري أساسا للكتب المؤلفة في المغازي**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **جب** – H. Gibb[2].

– وجاء في مادة "**الزهري**": «والزهري أيضا من أئمة رواة السيرة، وكان شيخ شيوخ ابن إسحاق، ويدين له ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري بكثير من علمهم، ويروي عنه الطبري كثيرا في كلامه عن حوادث العقدين الأولين من السنوات التي تلت عصر النبوة... وحاجي خليفة هو أول من نسب له "كتاب المغازي"، على أنه من الواضح أن الزهري انصرف إلى جمع الحديث، ولم يكتب كتابا منتظما كما فعل تلميذه ابن إسحاق»[3]. المحرر هو المستشرق: **هورفنس** – J.Horovitz[4].

– وجاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 6]: «**وقد اطّرد إطلاق هذا الاسم أيضا على مؤلفات الجيل الثاني والثالث من المؤرخين، نذكر منهم علاوة على عاصم بن عمر بن قتادة المتوفى بين سنتي (119 و129 هـ) اسمي كاتبين يفوقانه ذكراً، وهما ابن شهاب الزهري (124هـ) وموسى بن عقبة المتوفى سنة (141هـ) اللذان كان لهما أثر مشهود على جميع الروايات المتأخرة... وقد ازدهر علم المغازي أيضا في ذلك العهد نفسه خارج المدينة (سليمان بن طرخان (143هـ) في بصرى. ومعمر بن راشد المتوفى سنة (152 هـ) في صنعاء)**»[5]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - G.Levi Della Vida[6].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

من رجال هذه الطبقة الذين ورد ذكرهم في هذه النصوص من "دائرة المعارف الإسلامية":

[1]– **عاصم بن عمر بن قتادة** المدني (المتوفى سنة: 120هـ[7]): محدث ثقة من التابعين[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/4.

[2]– سبقت ترجمته في: ص111.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 457/10.

[4]– سبقت ترجمته في: ص112.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 450/12-451.

[6]– سبقت ترجمته في: ص95.

[7]– ذكر الخلاف في تاريخ وفاته –الذي أشار إليه المستشرق "دلافيدا"–: المزي في "تهذيب الكمال، 531/13"، وابن حجر "تهذيب التهذيب، 54/5"، وكذا الذهبي ورجح أن وفاته سنة (120 هـ)؛ ينظر: تاريخ الإسلام، 253/3. وسير أعلام النبلاء، 241/5.

[8]– ترجمته في: التاريخ الكبير، البخاري، 478/6. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 346/6. الثقات، ابن حبان، 234/5.

قال ابن سعد: «وكانت له رواية للعلم وعلم بالسيرة ومغازي رسول الله ﷺ»[1]؛ لذا كان ابن إسحاق يعتمد عليه كثيراً[2]، ذكره المستشرق "دلافيدا -Della Vida" في مادة "السيرة".

وذكره كلّ مِن: الشيخ الأعظمي والمستشرق هورفتس والأستاذ سزكين: في مَن دوّن المغازي[3].

[2]– **شرحبيل بن سعد المدني** (المتوفى سنة: 123هـ): من التابعين[4].

قال سفيان بن عيينة: «لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه»[5]، ولكنه اختلط في آخر عمره[6]، وذكره المستشرق "هورفتس" و"سزكين" فيمن دون في المغازي[7].

[3]– **ابن شهاب الزهري** (المتوفى سنة: 124هـ): الإمام العَلَم محدث ثقة من التابعين[8].

– **كتاب "المغازي" للزهري**: وقع المستشرق "هورفتس-Horovitz" في خطأين عند كلامه عن كتاب الزهري في "المغازي" وهما:

– **الخطأ الأول**: عندما قال: بأنّ "**حاجي خليفة هو أول من نسب له كتاب المغازي**"، ولكن الشواهد التاريخية تدلّ على أن "حاجي خليفة" (ت: 1067هـ) ليس هو أول من نسب له كتاباً في "المغازي"، ومن الشواهد على ذلك:

الشاهد (1): قول **السهيلي** (ت: 581هـ): «وذَكر الزهري في "سِيَره" وهي **أوّل سيرةٍ أُلِّفتْ** في الإسلام...»[9].

الشاهد (2): كما ورد شاهد آخر: في "معرفة الصحابة" **لأبي نعيم الأصبهاني** (ت: 430هـ) في ترجمة "سعد بن المنذر الأنصاري": حيث ذكر أبو نعيم أنّ بعض المتأخرين ذكروا "سعداً الأنصاري"

---

[1]– الطبقات الكبرى، 337/5.

[2]– ينظر: سير أعلام النبلاء، 241/5.

[3]– ينظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، 183/1. والمغازي الأولى ومؤلفوها، 47–48. وتاريخ التراث العربي، 73/2–74.

[4]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 237/5. التاريخ الكبير، البخاري، 251/4. الثقات، ابن حبان، 365/4. تهذيب الكمال، المزي، 413/12. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 320/4.

[5]– الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، 64/5–65. وتهذيب التهذيب، 321/4.

[6]– ينظر: الطبقات الكبرى، 237/5. وتهذيب التهذيب، 321/4.

[7]– ينظر: المغازي الأولى ومؤلفوها، 25–26. وتاريخ التراث العربي، 72/2.

[8]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، 348/5. التاريخ الكبير، البخاري، 220/1. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 71/8. الثقات، ابن حبان، 349/5. تهذيب الكمال، 419/26. تهذيب التهذيب، 445/9.

[9]– الروض الأنف، 155/2. وسبق في: ص98 (الهامش)، بيان أنّ هذا الكلام لا يعني أنّه هو أول من دوّن في علم السيرة مطلقا.

فيمن شهد العقبة وبدراً، ثم قال أبو نعيم: «ولَم أَرَ له ذكرًا في **كتاب الزهريّ**، ولا ابن إسحاق في العقبة وبدر...»[1]؛ فكلام أبي نعيم يدلّ على أنّه: اطّلع على كتاب للزهري في المغازي.

الشاهد (3): كما أثبت سزكين كتاب "المغازي" للزهري: واستشهد لذلك بإشارات جاءت عن السخاوي[2]، منها ما ذكره **السخاوي** (ت: 902هـ) من: رواية الزهري "المغازي" عن عروة بن الزبير، ورواية يونس بن يزيد "مشاهد النبي ﷺ" عن الزهري[3].

فهذه الإشارات الواضحة التي ذكرها السهيلي وأبو نعيم والسخاوي تردّ قولَ المستشرق "هورفتس".

أضف إلى ذلك: أنّ مستشرقاً آخر هو "مارسدن جونس" محقق "مغازي الواقدي": يثبت أصالة وجود هذا الكتاب، ويتحدّث عن قيمته العلمية، فيقول: «ومع الأسف لم يصل إلينا هذا الكتاب، وهو من الأهمية بمكان؛ أهمية الزهري في تطور السيرة، بحيث لا يحتاج الأمر منا إلى المبالغة في تقدير أهميته، بل إن كثرة الاعتماد عليه في كتب ابن إسحاق والواقدي لدليل واضح على بيان قدر الكتاب»[4].

– أما **الخطأ الثاني**: فهو في قول "هورفتس-Horovitz": بأنّ «**الزهري انصرف إلى جمع الحديث، ولم يكتب كتابا منتظما**»؛ أي: في المغازي، فهذا الكلام غير دقيق، يوهم أنّ الحديث والسيرة منفصلان تَماما؛ وهل تستمدّ السيرة مادتها إلاّ من الحديث ورواياته؟! والجواب على كلامه هذا من وجهين:

الوجه الأول: لقد كان للمحدّثين اشتغال بأحاديث مغازي رسول الله ﷺ خاصة، كما كان لهم اشتغال بأحاديث الأحكام والفقه، فكانوا يُخصّصون حِلق تَحديث خاصّة بأحاديث المغازي والسيرة[5]، ليتعلّم الناس هدي النبي ﷺ وأصحابه، وكان ذلك في عصر الإمام الزهري؛ ففي خلافة عمر بن عبد العزيز أمرَ أحدَ كبار المحدّثين آنذاك وهو "عاصم بن عمر"[6]: أن يجلس في جامع دمشق ويُحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه[7].

---

[1]– معرفة الصحابة، 1264/3.

[2]– ينظر: تاريخ التراث العربي، 77/2-78.

[3]– الإعلان بالتوبيخ، 147-148.

[4]– مغازي الواقدي، مقدمة التحقيق، 23/1.

[5]– روي عن ابن عباس ﷺ: أنه كان يخصص يوماً يجلس فيه لذكر المغازي. ينظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 191/73. وأسد الغابة، ابن الأثير، 291/3.

[6]– سبقت ترجمته في: ص119.

[7]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 337/5. وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 277/25.

كما لَم يَخل ما رواه المحدّثون - قبل الزهري وبعده- من أخبار النبي ﷺ ومغازيه، قال الذهبي: «وثَمّ أحاديثُ جَمّةٌ في الصِّحاح والمسانيد مِمّا يتعلّق بالسّيرة والمغازي»[1].

والحاصل: أن الإمام الزهري كان له اشتغال بروايات السيرة كما كان له اشتغال بغيرها من روايات الأحكام والفضائل وغيرها، يقول الطبري: «وكان محمد بن مسلم الزهري مقدما في العلم بمغازي رسول الله ﷺ وأخبار قريش والأنصار، راويةً لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه»[2]، وكيف لا يشتغل الزهري بالسير والمغازي ويكون مقدّما فيها؛ وهو القائل: «في علم المغازي: علمُ الآخرة والدّنيا»[3].

الوجه الثاني: أمّا كونه لَم يكتب كتابا منتظما كما كتب إسحاق، فهذا مع صحّته ليس على إطلاقه، فإنّ الزهري؛ إمّا أن يكون كتَبَ كتابا خاصا في السيرة، وإمّا أن تكون روايات السيرة ضمن ما كتبه من الحديث، وتشير القرائن إلى: أنه كان للمحدّثين آنذاك نَسَق معيّن ومنتظم لسرد أحاديث السيرة، لأنّهم كانوا يعقدون حِلقا ومجالس خاصّة لروايات السير والمغازي -كما سبق بيانه-؛ ولا يُعقل أن يكون سردهم لتلك الأحاديث في هذا الباب عشوائياً، دون هيكل مسطّر ونظام مرسوم.

ثُم إنّ كتب السيرة والتاريخ زاخرة بالنّقول عن الإمام الزهري، كما أفاد كلّ من المستشرق "جِب" في (الفقرة: 2) من مادة "علم التاريخ"، والمستشرق "دلافيدا" في (الفقرة: 6) من مادة "السيرة".

بل لا نكاد نجد أي كتاب من هذه الكتب إلا وفيه اقتباسات كثيرة عنه، في كلّ باب من أبواب السيرة تقريبا؛ وهذه الشمولية في عرض حوادث السيرة من المولد إلى الوفاة وعدم الاقتصار على ذكر جانب واحد أو أبواب متفرقة منها، ظهرت في كتب رواد السيرة بعده، مِمّن وصلَتــنا مؤلفاتُهم "كابن إسحاق" و"موسى بن عقبة" و"الواقدي" وغيرهم، وهذا الأمر يدل على مدى إحاطة الزهري بروايات السيرة كإحاطتهم، وإبداعه في صياغة ترتيب شامل وواضح لأبوابها، وهذا ما جعل الأستاذ "عبد العزيز الدوري" يرى -على العكس مما قاله المستشرق "هورفتس"- أن الزهري هو «أول من أعطى السيرة هيكلا محدودا ورسَمَ خطوطها بوضوح»[4].

بالإضافة إلى ذلك نَجد المستشرق "مارسدن" محقق "مغازي الواقدي" يخالف ما ذكره المستشرق "هورفتس" هنا؛ عندما يعتبر "الزهري" أوّل مَن قدّم الهيكل العام للسيرة المعروفة عند ابن إسحاق وغيره، حيث يقول: «وواضح من كثرة الأخبار التي رُويت عنه [أي: الزهري] في ابن إسحاق والواقدي أنه مِن أجلّ علماء السيرة، ويبدو أنه أول من جمع ما رواه التابعون من السيرة وأضاف إليها

---

[1]- سير أعلام النبلاء، 52/7.

[2]- تاريخ الرسل والملوك، 645/11.

[3]- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، 195/2. والبداية والنهاية، 12/5.

[4]- نشأة علم التاريخ عند العرب، 27.

ما رواه هو أيضا، وبعد ذلك رتّب هذه الأخبار على شكل السيرة النبوية المعروف عند ابن إسحاق، وموسى بن عقبة، والواقدي»[1].

وهذا ما ذهب إليه مستشرق آخر في "دائرة المعارف"؛ وهو "جِب –Gibb" الذي قرّر في (الفقرة: 2) من مادة "علم التاريخ": أنّ ما جمعه الإمام الزهري في هذا الباب كان أساساً بَنى عليه مَن بعده.

المطلب الرابع : رجال الطبقة الثالثة من المؤلفين في السيرة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**ابن إسحاق**": «**وقد كرّس جهده لجمع الأخبار والقصص المتعلقة بحياة النبي، وسرعان ما اصطدم بأئمة الحديث أصحاب الرأي السائد في المدينة، وعلى الأخص مالك بن أنس الذي اتّهمه بالتشيع وانتحال الكثير من القصص والأشعار التي أذاعها...**

ويظهر أنه دون سيرة النبـــيّ في كتابين: أولها "كتاب المبتدأ" (انظر الفهرست، ص92) أو"مبتدأ الخلق" (انظر ابن عدي في ابن هشام، طبعة فستنفلد، ج2 ص8). أو كتاب "المبتدأ وقصص الأنبياء" (الحلبي، السيرة، ج2 ص235) وهو تاريخ النبي حتى الهجرة. وثانيهما كتاب "المغازي" ويظهر أن هذا الكتاب – الذي هو أهم مؤلفاته – قد قلّل منذ القدم من شأن مؤلفه "كتاب الخلفاء"...

ولا يزال كتاب المغازي باقياً حتى اليوم في الفقرات المسهبة التي أوردها الطبري، ولكنه لا يوجد في صورة قائمة بذاتها إلا في تـــهذيب ابن هاشم (انظر هذه المادة) الذي عرف كتاب المغازي عن طريق تلميذ مباشر لابن إسحاق هو زياد بن عبد الله البكائي الكوفي. فقد جمع ابن هاشم كتابَي ابن إسحاق وهذّبهما كثيراً في مواضع معينة، واستخلص منهما "كتاب سيرة رسول الله"، وأخرج الكتاب في صورته الحالية في القرن الرابع الهجري الوزير المغربي (انظر هذه المادة) وشرحه السهيلي المتوفى عام (508 هـــ) (1114م)»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بروكلمان** - C.Brockelman[3].

– وجاء في مادة "**علم التاريخ**" [فقرة: 3]: «**وقد كانت الأحاديث التي رواها الزهري أساسا للكتب المؤلفة في المغازي، وجمعها ثلاثة من كتاب الجيل التالي، إلا أنّ اثنين من هذه الكتب قد فقدا كما فقد كتابان آخران غيرهما، وإنّما بقيت من هذه الكتب أجزاء متفرقة. أمّا الكتاب الثالث وهو السيرة المشهورة التي ألّفها محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة (151هـــ/768م) فقد كان ثمرة تفكير أبعد**

---

[1]– المغـــازي، الواقدي، مقدمة التحقيق، 23.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/88-89.

[3]– **كارل بروكلمان** "Carl Brockelman" (1868– 1956م): مستشرق ألماني، درس اللغات السامية في ألمانيا، وعُيّن أستاذا في عدّة جامعات، منها: جامعة برسلاو، وكنبرج، وبرلين وغيرها، له مؤلفاته عديدة أشهرها: "تاريخ الأدب العربي". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/777. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 98-105. الأعـــلام، الزركلي، 5/211.

أفقا وأوسع نطاقا من تفكير سابقيه ومعاصريه، لأنه نزع فيه لا إلى تدوين تاريخ النبي فحسب بل إلى تاريخ النبوة بذاتها، وكان في هذا الأسلوب المبتكر يشمل أقساما ثلاثة "المبتدأ" وهو تاريخ العصر الجاهلي منذ الخليقة، وقد استمدّ أكثره من "وهب بن منبه" ومن المصادر العبرية، ثم "المبعث" وهو تاريخ حياة النبي حتى السنة الأولى للهجرة، ثم "المغازي" وتناول هذا التاريخ إلى وفاة النبي.

وقد غدا هذا الكتاب المرجع الرئيسي لتاريخ العصر الجاهلي والصدر الأول من الإسلام، وذلك على الرغم من أنّه كان هدفا للنقد الصارم بما تطرق إليه من الأحاديث والمقتبسات الشعرية التي لا وزن لها لاصطباغها بصبغة الكذب والافتراء»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **جب** – H. Gibb[2].

– وفي مادة "**السيرة**" [فقرة: 7]: «وقد ازدهر علم المغازي أيضا في ذلك العهد نفسه خارج المدينة (سليمان بن طرخان **[143هـ]** في بصرى، ومعمر بن راشد **[المتوفى سنة 152]** في صنعاء)، ولكن النجاح الذي أحرزته هذه المؤلفات قد أخـــمله كتاب محمد بن إسحاق (المتوفى سنة **150** أو **151هـ**) الذي يعد أيضا ختام تطور الرواية المدنية وفاتحة تصور جديد للسيرة، ذلك أن أسلافه قد نظروا فيما يظهر إلى تاريخ النبي نظرتهم إلى ظاهرة قائمة بذاتها وإن كانت عظيمة جليلة، أمّا ابن إسحاق فقد كان أول من وضع الإسلام ومنشئه في نسق التاريخ العام، فهو يرى أن ظهور الإسلام استمرار وتتمة للتاريخ المقدس اليهودي والنصراني من حيث كونه ينبعث من الخلق الإلهي ومن دعوة الأنبياء السابقين لِمحمد، ولكن محمد يظهر في الوقت نفسه أمجد ممثل للروح العربية وهو الذي يفتـــتح على يديه عهد السيطرة العربية على العالم.

ونخلص من ذلك أن ابن إسحاق أراد أن يصنف كتابا أوسع مدى من المغازي التي صنفها أسلافه، وهذا يبين لنا السبب في أن استخدام الإسناد في كتابه قد اضطرب اضطرابا صدم فقهاء علم الحديث المستمسكين بأصول السنة صدمة عنيفة فأنكروا عليه بالإجماع صفة المحدث الثبت...

وقد بقيت لنا من سيرة ابن إسحاق – علاوة على رواية ابن هشام لها – نقولٌ لأغلب أجزائها وردت في كتابَي الطبري الكبيرين التاريخ والتفسير، وقد أصبحت سيرة ابن هشام بفضل رواية هذين الكاتبين المصدر الأساسي لكتّاب التاريخ المتأخرين»[3]. المحرر هو: **ليفي دلافيدا** - G.Levi Della Vida[4].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

الكـــتّاب الثلاثة من الجيل التالي الذين أشار إليهم "جِب -Gibb" هم: موسى بن عقبة، ومعمـــر بن راشد، وابن إسحاق، وهم من أبرز رجال الطبقة الثالثة من المؤلفين الأوائل في السيرة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 4/486-487.

[2]– سبقت ترجمته في: ص111.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 12/451-452.

[4]– سبقت ترجمته في: ص95.

[1]- موسى بن عقبة (المتوفى سنة 140 هـ): تابعي محدث ثقة[1].

أثنى الإمام مالك على كتابه في "المغازي"، وكان يقول: «عليكم بِمغـــازي الرجل الصالح مُوسَى بن عقبة، فإنّها أصح المغازي»[2]، وكذا قال الشافعي بأنّها: أصحّ المغازي[3].

وذكر الذهبي أنّ "مغازيه": في مجلد ليس بالكبير، وهي مختصرة تحتاج إلى زيادة بيان وتتمة[4].

[2]- معمر بن راشد (المتوفى سنة 153 هـ): محدث ثقة، من كبار تلاميذ الزهري[5].

وله كتاب في "المغازي": ذكره ابن النديم وغيره[6].

[3]- سليمان بن طرخان البصري (المتوفى سنة 143هـ): محدث ثقة من صغار التابعين[7]، ذكر كتابه في السيرة ابن خير الإشبيلي في "فهرسته"[8]، كما ذكره ابن حجر في "فتح الباري"، واستشهد به في عدة مواضع[9]، كما أثبت كتابه في مؤلفات السيرة كل من: السخاوي وسزكين[10].

وقد ذكره المستشرق "دلافيدا -Della Vida" في مطلع (الفقرة: 7) من مادة "السيرة".

أمّا محمد ابن إسحاق الذي تكلم عليه محرر مادة "علم التاريخ" بإسهاب لأهميّته في مسيرة تدوين السيرة النبوية، وتكلم عليه "بروكلمان" أيضا في مادة "ابن إسحاق"، وسأتعرض إلى مناقشة ما جاء في "الدائرة" عن ابن إسحاق فيما يلي:

[4]- محمد بن إسحاق (المتوفى سنة 151 هـ): إمام المغازي والسير[11].

أشار المستشرق "بروكلمان" إلى نقد المحدثين لابن إسحاق بعبارة مبالغ فيها نوعا ما عندما قال: «**وسرعان ما اصطدم بأئمة الحديث أصحاب الرأي السائد في المدينة**»، لكن الواقع العلمي يدلّ على أنّ كلام الأئمة النقاد في ابن إسحاق مبني على تتبّع أحواله وسبر مروياته، وفيما يلي بيان ذلك:

---

[1]- ترجمته في: التاريخ الكبير، البخاري، 292/7. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 154/8. الثقات، ابن حبان، 404/5. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 7/2. تهذيب الكمال، المزي، 115/29.

[2]- تهذيب الأسماء واللغات، النووي، 118/2. وتهذيب الكمال، المزي، 119/29.

[3]- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، 164/2.

[4]- سير أعلام النبلاء، 116/6.

[5]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 72/6. التاريخ الكبير، 378/7. الجرح والتعديل، 255/8. تهذيب الكمال، 303/28.

[6]- ينظر: الفهرست، 123. وتاريخ التراث العربي، سزكين، 92/2. والمغازي الأولى ومؤلفوها، هورفتس، 74-75.

[7]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، 188/7. التاريخ الكبير، 20/4. الثقات، ابن حبان، 300/4. تهذيب الكمال، 5/12.

[8]- ينظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق محمد فؤاد منصور، 199.

[9]- ينظر على سبيل المثال: فتح الباري، 580/7، 626-627. و62/8، 906.

[10]- ينظر على التوالي: الإعلان بالتوبيخ، 148. وتاريخ التراث العربي، 83/2.

[11]- ترجمته في: طبقات ابن سعد، 450/5. الثقات، ابن حبان، 380/7. تاريخ بغداد، 7/2. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 38/9.

أولا- أقوال نقاد الحديث في "ابن إسحاق": تفصيل هذه القضيّة في النقاط الآتية:

أ)- قول الإمام مالك فيه: قال الخطيب البغدادي: «وكان مالك بن أنس يسيء القول في ابن إسحاق»؛ ثُم روى الخطيب بإسناده عن مالك بن أنس أنه قال: «محمد بن إسحاق كذاب»[1].

وعن عبد الله بن إدريس قال: « كنت عند مالك بن أنس، فقال له رجل: إنّ محمد بن إسحاق يقول: اعرضوا عَلَيَّ علم مالك فإنّي أنا بَيْطاره، قال: فقال مالك: **انظروا إلى دجّال من الدّجاجلة، يقول اعرضوا عَلَيّ علم مالك !**» ، وزاد في رواية: «نَحن نفيناه عن المدينة»[2]، قال ابن حبان: «لَمَّا صنف مالك الْموطأ؛ قال ابن إسحاق: ائْتُوني به فإنّي بيطاره، فنقل ذلك إلى مالك فقال: هذا دجال من الدجاجلة»[3]، وعن يحي بن سعيد القطان عن مالك أنّه قال: «يا أهل العراق! مَنْ يَغُتُّ[4] عليكم بعد محمّد بن إسحاق؟»[5].

ب)- توجيه قول مالك في ابن إسحاق: قال الذهبي في تفسيره للحادثة المذكورة: «أما مالك رحمه الله تعالى فإنه نال منه بانزعاج؛ وذلك لأنه بلغه أنه يقول: اعرضوا علي علم مالك فأنا بيطاره؛ فغضب مالك فقال: انظروا إلى دجال من الدجاجلة»[6]، ويضيف عبد الرحمن المعلمي تفسيرا أوضح للحادثة فيقول: «كلام مالك في ابن إسحاق إذا حكيت القصة على وجهها تبيّن أن كلمة مالك فلتة لسان عند سَوْرة[7] غضب لا يقصد بها الحكم»[8].

كما ينبغي أن يفهم قول "مالك" على أنه من قبيل **كلام الأقران في بعضهم**؛ وهو ما بيّنه الذهبي عندما قال: «وقد عُلم أنّ كثيراً **من كلام الأقران** بعضهم في بعضٍ مُهدَرٌ، **لا عبرة به**، ولا سيما إذا وَثّق الرّجلَ جماعةٌ يلوح على قولِهم الإنصاف، **وهذان الرّجلان** كلٌّ منهما قد نالَ من صاحبه، **لكن أثّر كلام مالك في مُحمّدٍ** بعض اللّين، ولَم يُؤثّر كلام مُحمّدٍ فيه ولا ذرّة»[9].

---

[1]- تاريخ بغداد، 19/2.

[2]- ينظر: الضعفاء الكبير، العقيلي، 24/4. والجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 192/7-193. والكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 259/7. وتاريخ بغداد، 20/2.

[3]- الثقات، 382/7.

[4]- أي: يفسد عليكم، يُقال: غَتَّ الطعامُ، وغَتَّ الكلامُ، أي: فسد. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 64/2.

[5]- الضعفاء الكبير، العقيلي، 27/4. والكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 256/7.

[6]- تذكرة الحفاظ، 130/1.

[7]- «**سَارَ يَسُورُ**: إذا غضب وثار»؛ كما قال ابن فارس في "مقاييس اللغة، 115/3".

[8]- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، 65/1.

[9]- سير أعلام النبلاء، 50/7.

ثُمّ إنّ ابن حبان يذكر: أن مالك بن أنس وابن إسحاق تصالحا بعد ذلك، فيقول: «وكان بينهم ما يكون بين النّاس حتّى عزم محمّد بن إسحاق على الْخروج إلى الْعرَاق فتصالحا حينئذ... ولم يكن يقْدَح فيه مالك من أجل الحديث، إنّما كان يُنكر عليه تتبّعه غزوات النَّبِيّ ﷺ عن أولاد اليهود الَّذين أسْلمُوا وحفظوا قصّة خَيْبر وقُريظة والنضير وما أشبهها من الغزوات عن أسلافهم، وكان ابن إسحاق يتتبع هذا عنهم ليعلم من غير أن يحْتَجّ بهم، وكان مالك لا يرى الرِّواية إلاّ عن متقن صدوق فاضل يحسن ما يروي، ويدري ما يحدث»[1].

ج)- ما اتُّهم به ابن إسحاق:

- **تهمة التشيع**: قال أبو زرعة الدمشقي: «وقد ذاكرت "دُحيما" قول مالك -يعني في ابن إسحاق- فرأى أن ذلك ليس للحديث، إنما هو لأنه اتهمه بالقدر»[2]، وقال الخطيب: «وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأسباب منها: أنه كان يتشيع، وينسب إلى القدر، ويدلس في حديثه، فأما الصدق فليس بمدفوع عنه»[3].

وعن ابن نُميْر قال: «كان محمد بن إسحاق يُرمى بالقدر، وكان أبعد الناس منه»[4].

لكن فيما يتعلّق بالإمام مالك فلم أقف على نص ينسب فيه ابن إسحاق للتشيّع، وأمّا ما ذكره "بروكلمان" في مادة "ابن إسحاق": من أنّ "مالكا" اتّهمه «بالتشيع وانتحال الكثير من القصص والأشعار»، فهذا غير دقيق ولا ثابت عنه بهذا السياق؛ وقد راجعت ترجمة "ابن إسحاق" في المصادر التي ذكرها "بروكلمان"، وهي: "المعارف لابن قتيبة: [ص491] "، و"تاريخ الطبري: [654/11]"، و"وفيات الأعيان لابن خلكان: [276/4]"، و"معجم الأدباء لياقوت الحموي: [2418/6-2420]"؛ ولَم أجد ما ذكره المستشرق "بروكلمان" عن قول الإمام مالك في ابن إسحاق، وكذا راجعت غيرها من كتب تراجم الرواة فلم ما يدلّ على هذه العبارة التي أوردها "بروكلمان -Brockelman"[5].

وإنّما ذكر ابن عبد البر على سبيل الاحتمال أن تكون التهمة بالتشيّع من أسباب طعن "مالك" على ابن إسحاق؛ يقول ابن عبد البر: «وربّما كان تكذيبُ مالك لابن إسحاق في تشيُّعِه وما نُسب إليه مِنَ القول بالقدر»[6]، ويُحمل كلام ابن عبد البر على ما ذكره الخطيب البغدادي وابن حجر من

---

[1]- الثقات، 383/7.

[2]- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 21/2.

[3]- المصدر نفسه، في الجزء والصفحة نفسيهما.

[4]- المصدر نفسه، 23/2. وتهذيب الكمال، 419/24.

[5]- منها: التاريخ الكبير، والطبقات الكبرى، الضعفاء الكبير، والكامل لابن عدي، وتاريخ بغداد، وتهذيب الكمال، وميزان الاعتدال، وتاريخ الإسلام، وتهذيب التهذيب.

[6]- جامع بيان العلم وفضله، 1105/2.

أنّ بعض العلماء رموه بالتشيع[1]؛ والملاحظ أنّ ابن عبد البر لم ينسب هذا القول لِمالك بل ذكر -على سبيل الاحتمال- أنّه قد يكون من أسباب تكذيبه إياه، وإلاّ فإنّ الروايات عن مالك في كـــلامه في ابن إسحاق معلومة مشهورة، وليس فيها ما ذكره المستشرق "بروكلمان"، لذا كان كلامه الجازم بنسبة هذا القول لِمالك غير دقيق ولا محرّر علميا.

وإنّما اتّهمه بالتشيع أئمة آخرون غير الإمام مالك، ومما وقفت عليه في ذلك: قول الشاذكوني: «كان محمد بن إسحاق بن يسار يتشيع، وكان قدريا»، وقول أحمد بن يونس: «أصحاب المغازي يتشيعون كابن إسحاق وأبي معشر...»[2].

- **تهمة الكذب**: لَم يثبت كذبه في الرواية، وقد ردّ تُهمة الكذب عنه عدد من الأئمة النقـــاد كيحيَى بن معين، وعلي بن المديني: قال يعقوب بن شيبة سألت يحيى بن معين عنه [أي: عن ابن إسحاق]، فقلت: في نفسك من صدقه شيء؟ قال: «لا، هو صدوق»[3].

وقال عليّ بن المديني: «إنّه لَيَبِينُ في حديثه الصِّدقُ»[4]، وقال أبو زرعة الدمشقي: «رجل قد أجـــمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه... وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقا وخيرا، مع مدحة ابن شهاب له»[5].

كما أثبت صدقه في الرواية ابن حبان وابن عبد البر[6].

وقال الذهبي: «وليس بذاك المتقن فانحط حديثه عن رتبة الصحة، وهو صدوق في نفسه مرضيّ»[7].

ولعلّ إكثاره من رواية الغرائب من أسباب اتّهامه بالكذب، لذا نجد ابن سيد الناس يقرّر أنّ كثرة الإغراب مظنّة التهمة، فيقول: «سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة»[8].

كما أفاد الذهبي أن من عثرات ابن إسحاق كثرةُ روايته للغريب، وأخذه عن المجاهيل، حيث يقول: «ولكن صدق القاضي أبو يوسف إذ يقول: مَن تَتبّع غريب الحديث كُذِّب، وهذا مِن أكبر ذنوب ابن إسحاق، فإنّه يكتب عن كلّ أحد، ولا يتورّع -سامَحه الله-»[9].

---

[1]- ينظر: تاريخ بغداد، 21/2. تقريب التهذيب، 467.

[2]- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 2419/6.

[3]- تاريخ بغداد، 31/2. وتهذيب الكمال، 424/24.

[4]- تاريخ بغداد، 27/2. وتهذيب الكمال، 420/24.

[5]- تاريخ بغداد، 21/2. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 42/9.

[6]- ينظر: الثقات، 384/7. وجامع بيان العلم وفضله، 1105/2.

[7]- تذكرة الحفاظ، 130/1.

[8]- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، 24/1.

[9]- سير أعلام النبلاء، 40/7-41.

– **إيراده للشعر المنحول:** تحدّث الذهبي عن هذا فقال: «وأشار يحيى القطّانُ إلى ما في "السِّيرة"[1] منَ الواهي من الشّعر، ومن بعض الآثار المنقطعة المُنْكرَة، فلَوْ حُذف منها ذلك؛ لَحسُنَت»[2].

وقال ابن أبي حازم: «محمد بن إسحاق كانت تعمل له الأشعار فيضعها في كتب المغازي، فصار بها فضيحة عند رواة الأخبار والأشعار»[3]، وكذا ذكر ابن النديم[4].

وكان ابن إسحاق يعتذر من ذلك، ويقول: لا علم لِي بالشعر إنما أوتى بِه فأحمله؛ وليس في ذلك عذر له[5].

د)– الاختلاف في توثيقه: اختلفت نصوص نقاد الحديث بين من وثّقه وضعفه، وبيان ذلك فيما يلي:

– **في توثيقه:** قال الزهري: «لا يزال بالمدينة علم جم ما كان فيهم ابن إسحاق»[6].

وعن شعبة أنه قال: «محمد بن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث»[7].

كما وثّقه يحيى بن معين والعجلي[8].

وقال ابن عبد البر: «كان صدوقًا حافظًا أثنَى عليه ابنُ شهاب، ووَثّقه: شعبة، والثّوري، وابن عيينة، وجماعةٌ»[9].

– **في تضعيفه:** تكلّم فيه مالك بن أنس وكذّبه –كما سبق–، وكذّبه: هشام بن عروة[10].

وضعّفه يحيى بن سعيد القطان، وكان لا يروي عنه؛ فعن عبد الرّحمن بن مهدي قال: «كان يحيى بن سعيد القطّان ومالك يَجرحان مُحمّد بن إسحاق»[11].

قال ابن حجر: «وكذّبه سليمان التيمي ويحيى القطان ووهيب بن خالد، فأما وهيب والقطان فقلدا فيه هشام بن عروة ومالكا... وسليمان ليس من أهل الجرح والتعديل»[12].

---

[1]– أي: سيرة ابن إسحاق.

[2]– سير أعلام النبلاء، 52/7.

[3]– معجم الأدباء، 2420/6.

[4]– ينظر: الفهرست، 121.

[5]– ينظر: تاريخ الإسلام، 198/4.

[6]– تاريخ بغداد، 14/2.

[7]– المصدر نفسه، 26/2.

[8]– المصدر نفسه، 31/2.

[9]– جامع بيان العلم وفضله، 1105/2.

[10]– ينظر: الضعفاء الكبير، العقيلي، 23/4.

[11]– المصدر نفسه، 23/4، 26.

[12]– تهذيب التهذيب، 45/9.

هـ)– علمه بالمغازي: شهد لابن إسحاق بالتقدم في هذا العلم كبار أئمة الحديث والرواية، كالزهري والشافعي وغيرهما، وفيما يلي بعض نصوصهم في ذلك:

– سُئل ابن شهاب الزهري عن "مغازيه" فقال: «هذا أعلم الناس بها، يعني: ابن إسحاق»[1].

– وقال الشافعي: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق»[2].

– وقال الذهبي: «وكان أحد أوعية العلم حَبْراً في معرفة المغازي والسير»[3].

ز)– التحقيق في روايته: جاء عن محمد بن عبد الله بن نمير أنّه قال –في ابن إسحاق–: «إذا حدث عمن سمع منه من المعروفين فهو حسن الحديث صدوق، وإنّما أُتِي من أنه يحدث عن المجهولين أحاديث باطلة»[4].

وعن أحمد بن حنبل أنّه ذكر محمد بن إسحاق فقال: «أما في المغازي وأشباهه فيُكتب، وأما في الحلال والحرام فيحتاج إلى مثل هذا - ومد يده وضم أصابعه–»[5]، وقال أحمد أيضا: «هو حسن الحديث»[6].

– أمّا عن تدليسه: فقال أحمد بن حنبل فيه: «كان ابن إسحاق يدلّس إلا أن كتاب إبراهيم بن سعد إذا كان سماعٌ قال: حدّثني، وإذا لم يكن قال: قال»[7]، ويقول عبد الله بن الإمام أحمد: «هو كثير التدليس جدا، فكان أحسن حديثه عندي ما قال أخبرني وسمعت»[8].

وقال ابن عدي: «وقد فتّشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد فِي أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، ورُبما أخطأ أو وهم فِي الشيء بعد الشيء كما يخطئ غيره، و لم يَتخلّف في الرواية عنه الثقات والأئمة، وهو لا بأس به»[9]؛ «وهذه الشهادة عظيمة الأهمية لا لِمكانة ابن عدي وتشدّده في التوثيق فقط، بل لأنّها مبنية على سبر الروايات وليس على نقل أقوال النقاد فقط»[10]؛ وهو ما يدلّ عليه قوله: «فتشت أحاديثه».

---

[1]– تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 14/2.

[2]– المصدر نفسه، 15/2.

[3]– تذكرة الحفاظ، 130/1.

[4]– الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 259/7-260. وتاريخ بغداد، 24/2-25.

[5]– الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 193/7.

[6]– تاريخ بغداد، 20/2. وتهذيب الكمال، المزي، 414/24.

[7]– تاريخ بغداد، 29/2. وتهذيب الكمال، 421/24.

[8]– الجرح والتعديل، 194/7.

[9]– الكامل في ضعفاء الرجال، 270/7.

[10]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 57/1.

ولَخّص الإمام الذهبي مجمل القول فيه فقال: «فله ارتفاعٌ بِحسبه، ولا سيما في السِّيَر، وأمّا في أحاديث الأحكام، فيَنحطُّ حديثه فيها عن رتبة الصّحة إلى رتبة الحسن، إلاّ فيما شذّ فيه، فإنّه يُعدّ منكراً، هذا الذي عندي في حاله - والله أعلم -»[1]، وقال في موضع آخر: «فالذي يظـــهر لِي أنّ ابن إسحاق حسن الحديث، صالح الحال صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة، فإن في حفظه شيئا»[2].

وقال أيضا: «والذي تقرر عليه العمل أن ابن إسحاق إليه المرجع في المغازي والأيام النبوية مع أنه يشذ بأشياء وأنه ليس بحجة في الحلال والحرام، نعم ولا بالواهي بل يستشهد به»[3].

وقال ابن حجر: «ما يَنفردُ به وإن لَم يَبلُغ دَرَجة الصّحيح فهو في درجة الحسَن إذا صرَّح بالتّحديث»[4].

وخلاصة القول فيه: أن حديثه في المغازي صحيح متقن ما لم يخالف الأصحّ، وحديثه في الأحكام حسن يُحتج به إذا لم يخالف، بشرط أن يصرّح بالسماع[5].

ثانيا- كتاب ابن إسحاق في "السير والمغازي": تفصيل الكلام عليه في النقاط الآتية:

أ)- تسميته: ذكره ياقوت الحموي باسم: "**السّيَر والمغازي**"[6].

وذكره باسم "**المَغازِي والسّيَر**": ابن خير الإشبيلي وابن خلكان[7]، أما ابن النديم فذكره باسم "**السيرة والمبتدأ والمغازي**"[8].

ب)- رُواته عن ابن إسحاق: رُواة "المغازي" عن ابن إسحاق هم: زياد بن عبد الله البكّائي (ت:183هـــ) [ومن طريقه رواها ابن هشام]، ومحمد بن سلمة الحـــرّاني (ت:191هـــ)، ويونـــس بن بكير (ت: 199هـــ)[9].

وتدلّ الشواهد على أن: هناك اختلافات بين هذه الروايات، لأن ابن إسحاق كان ينقّح في سيرته مع الأيام، لغرض التصحيح أو التهذيب أو الاختصار ونحو ذلك، ويبدو أن رواية يونس بن بكير من

---

[1]- سير أعلام النبلاء، 41/7.

[2]- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، 475/3.

[3]- تذكرة الحفاظ، 130/1.

[4]- فتح الباري، 195/11.

[5]- ينظر: صحيح السيرة النبوية (أو السيرة الذهبية)، محمد بن رزق بن طرهوني، 23/1.

[6]- ينظر: معجم الأدباء، 2420/6.

[7]- ينظر: فهرسة ابن خير الإشبيلي، 200. ووفيات الأعيان، 177/3 و276/4.

[8]- ينظر: الفهرست، 121.

[9]- ينظر: الإعلان بالتوبيخ، السخاوي، 147. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، 58/1.

أقدم هذه الروايات، وأنّ رواية البكائي التي اعتمدها ابن هشام في تهذيبه "للسيرة" كانت نسخة نقحها ابن إسحاق[1].

ج)– من ميزاته: يعتبر ابن إسحاق رائداً للكتابة في السيرة، فقد سهل عمله دراسة السيرة وتنظيمها في نَمط متسلسل واضح، كما احتوى كتابه على مادة علمية متكاملة في هذا العلم الجليل فصار العمدة فيه، فعليه اعتمد ومنه أخذ كل من كتب بعده في سيرة الرسول ومغازيه، ولذا وصفه العلماء بأنه إمام في المغازي والسير، ويمكن إبراز أهم ميزات كتابه في النقاط الآتية:

– صاغ ابن إسحاق سيرته بأسلوب يقوم على التسلسل الزمني للأحداث.

– من مظاهر أهمية كتابه استيعابُ ابن إسحاق لتجارب شيوخه، وتطويرها وإعادة تنظيمها من خلال فهمه الجديد للتاريخ ونظرته الشاملة النابعة من ثقافته الواسعة[2].

– يقوم منهجه في عرض المادة التاريخية: على الجمع بين منهج المحدثين القائم على الأسانيد، ومنهج الأخباريين المتحرر من الالتزام بالأسانيد[3]، فنجده أحيانا يورد بعض الأخبار دون إسناد، كما أنّه كثيرا ما يورد الروايات بالأسانيد التي وصلت إليه؛ بعضها موصول وبعضها فيه انقطاع.

وعلى هذا لا يُمكن توثيق سائر مرويات كتابه في السيرة، فقد أورد فيه روايات منكرة ومنقطعة[4]، وقد بيّن الذهبي تراوح مروياته بين الصحة والضعف فقال: «في "السيرة" عجائب ذكرها ابن إسحاق بلا إسناد تلقَّفَها، وفيها خير كثير لِمن له نقد ومعرفة»[5].

د)– أقسام الكتاب: يجعل المستشرق "بروكلمان" في مادة "ابن إسحاق" كتاب ابن إسحاق كتابين مستقلين، في حين يجعله المستشرق "جب -Gibb" في مادة "علم التاريخ" كتاباً واحدا مقسما إلى ثلاثة أقسام، وقول "جب -Gibb" هو الأرجح والأشهر، لِما يلي:

– ذهب إلى القول بأنّ ابن إسحاق قسّم كتابَه إلى ثلاثة أقسام مستشرق آخر -تخصّص في تاريخ المغازي- هو "هورفتس" صاحب كتاب "المغازي الأولى ومؤلفوها"، وهو الرأي السائد عند جلّ الكتّاب العرب والمسلمين الذين درسوا تاريخ التأليف في السيرة والمغازي.

– أنّ ابن إسحاق قسّم كتابه إلى ثلاثة أقسام، هي: المبتدأ، والمبعث، والمغازي.

فالمبتدأ: فيه أخبار الخليقة من آدم حتى إسماعيل عليه السلام، ثم العصر الجاهلي حتى وقت النبي محمد ﷺ.

---

[1]– للتفصيل ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 1/58-60. والسير والمغازي، ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، مقدمة التحقيق، 13-14.

[2]– ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، مقدمة التحقيق، 9.

[3]– ينظر: نشأة علم التاريخ، الدوري، 32. وسبق التعريف بمصطلح **الأخباريين** في: ص109.

[4]– السيرة النبوية الصحيحة، 1/58.

[5]– تاريخ الإسلام، 4/198.

والمبعث: يشمل حياة النبي ﷺ في مكة، والهجرة، وشيئا من أخبار بداية العهد المدني.

والمغازي: يـــبدأ بالغزوات والسرايا في العهد المدني إلى غاية وفاة النبي ﷺ.

اعتبر ابن إسحاق هذه المواضيع الثلاث مترابطة؛ فالقسم الأول هو بمثابة مقدمة للسيرة النبوية التي جاءت في القسم الثاني والثالث، والظاهر أنّ غرضه من ذلك بيان صحة أصول نبوة محمد ﷺ وارتباطها بغيرها من النبوات التي قبلها[1].

كما يمكن القول أنّ الكتاب قسمان[2]: - **المبتدأ:** وفيه ذكر قصص الأنبياء والعصر الجاهلي.

- **والمغازي:** وهو في حياة النبي ﷺ؛ ويشمل المبعث والمغازي على التقسيم السابق، ثم تاريخ الخلفاء، سواء كانت كتبا مستقلة، أم أقساما من كتاب واحد.

أمّا عن **مصادره:** فقد اعتمد في قسم "المبتدأ" من كتابه خاصة على: وهب بن منبه، وبعض الروايات الإسرائيلية، كما ذكر المستشرق "جب -Gibb" في مادة "علم التاريخ".

أمّا رواياته في السيرة بفترتيها المكية والمدنية فأكثر اعتماده على شيوخه المحدثين في المدينة: كالزهري، وعروة بن الزبير وعبد الله بن أبي بكر وغيرهم، إلى جانب اعتماده على الآيات القرآنية التي نزلت في الحوادث التي تطرق إليها، كما أنّه يورد أحيانا روايات عرية عن الإسناد -كما سبق ذكره- ولعل مرجعه فيها إلى الأخباريين والقصاص[3].

هـ)- طبعُ قطعٍ من سيرة ابن إسحاق: لا يزال كتاب ابن إسحاق بنصّه الأصلي كاملا في عداد الكتب المفقودة، سوى ما وصلنا عن طريق تهذيب ابن هشام له برواية البكائي، وكذا ما وصلنا من مقتطفات في كتاب: تاريخ الطبري، وتاريخ خليفة بن خياط وغيرهما.

وكلام "بروكلمان -Brockelman" في مادة "ابن إسحاق" كان قبل طبع قطعتين صغيرتين من كتاب ابن إسحاق الأصلي (برواية يونس بن بكير)، بتحقيق الأستاذ سهيل زكار سنة (1978م).

يقول سهيل زكار: «ما كتبه ابن إسحاق لم يصل إلينا بشكله الأول، بل وصلنا بعد تهذيبه وتعديله من قبل آخرين أشهرهم وأهمهم ابن هشام، وكنت قد حصلت منذ سنوات على مصوّرة لقطعة من "سيرة ابن إسحاق" موجودة بالمغرب، ضممتها إلى أوراق من قسم المغازي موجودة

---

[1]- ينظر التفصيل في بيان أقسام الكتاب في: تاريخ التراث العربي، سزكين، 89/2. والمغازي الأولى، هورفتس، 84-86. ومقدمة تحقيق "السير والمغازي لابن إسحاق"، 17. ونشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 32.

[2]- وهو ما مال إليه: المؤرخ عبد العزيز الدوري، ينظر: نشأة علم التاريخ، 32. كما يدلّ عليه ما ذكره السخاوي في: "الإعلان بالتوبيخ، 160": حيث ذكر كتاب المغازي لابن إسحاق في مؤلفات السيرة، ثم كتابه "المبتدأ" في كتب قصص الأنبياء.

[3]- ينظر: نشأة علم التاريخ، 32-33. والمغازي الأولى ومؤلفوها، 84-86.

بالمكتبة الظاهرية بدمشق، ثم قمت بمقارنة الموادّ والأخبار الموجودة في هاتين القطعتين بما عند ابن هشام مما يقابلهما فاتضحت لي أهمية نشرهما»[1].

– فالقطعة الأولى: تتعلق بالمرحلة المكية وتكاد تغطيها جميعا، حيث تبدأ برحلة أبي طالب إلى الشام واصطحابه للرسول، وهو بداية الجزء الثاني، وتنتهي المخطوطة بالجزء الخامس، الذي يبدأ بوفاة خديجة (وتحوي مائة واثنتين وخمسين [152] صفحة)، ويوجد من القطعة الأولى من المخطوط نسختان: واحدة موجودة في مكتبة القرويين بفاس (المغرب)، ونسخة ثانية موجودة في الخزانة العامة في الرباط.

– والقطعة الثانية: فتتعلق بالمرحلة المدنية، وهي تروي أخبار الحوادث التي وقعت مع نهاية معركة بدر الكبرى وحتى نهاية معركة أحد، وهي عبارة عن أوراق[2] فيها جزء واحد صغير من أجزاء المغازي، كانت موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق[3].

و)– أمّا كتاب "**تاريخ الخلفاء**" **لابن إسحاق**: فذكره ابن النديم والحموي[4]؛ تناول فيه تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين، وهذا الكتاب أيضا مفقود؛ و لم يصل إلينا منه إلا مقتطفات مبعثرة[5].

لكن الأستاذ "الطرابيشي" –الذي دَرَس رواة المغازي عن ابن إسحاق– يرى: بأنّ "تاريخ الخلفاء" ليس إلاّ قسما من أقسام كتاب ابن إسحاق في المغازي، مثله مثل "المبتدأ" الذي هو قسم من كتاب "المغازي"، وعلى هذا وهّم ابن النديم وغيره ممن جعله كتاباً مستقلا، يقول الطرابيشي: «لأنّه من الثابت لدينا أن المغازي عنوان جامع يشمل الكتب الثلاثة المذكورة لابن إسحاق؛ وهي: "المبتدأ والسيرة بما تضمنت من أخبار المبعث والمغازي؛ ثم الخلفاء"، وأنّ الظاهر من قولهم "المغازي" هو الإشارة إلى العمل التاريخي لابن إسحاق بعامة؛ يغلبون المغازي وهي بيت القصيد في عمله على مجمل العمل في المبتدأ والسيرة والخلفاء»[6].

وعلى كلّ فإنّ كلا الاحتمالين وارد؛ أن تكون هذه الأقسام جزء من كتاب واحد، أو أن يكون كتاب المبتدأ أو الخلفاء كتابا مستقلا، فإنّ الملاحظ من هذا العمل أن ابن إسحاق عمد إلى كتابة تاريخ عام من بدء الخليقة إلى وقته، مروراً بمرحلة هامة وعظيمة هي السيرة والمغازي، وانتهاء بتاريخ

---

[1]– السير والمغازي، ابن إسحاق، مقدمة تحقيق، 10.

[2]– ستة عشر (16) ورقة، على ما ذكره سزكين في: تاريخ التراث العربي، 89/2.

[3]– ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، مقدمة التحقيق، 18-19.

[4]– ينظر: الفهرست، 121. ومعجم الأدباء، 2420/6.

[5]– نشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 35.

[6]– رواة محمد بن إسحاق في المغازي والسير، 484.

الخلفاء، يقول عبد العزيز الدوري: «ومع أن تآليفه منفصلة عن بعضها، إلاّ أنها بمجموعها تعبر عن فكرة تاريخية هي كتابة تاريخ عالمي "من المبتدأ والمغازي وتاريخ الخلفاء»[1].

وهذا المعنى الذي أفاده الدوري هو ما عناه المستشرق "جب -Gibb" بقوله - المذكور آنفا- في مادة "علم التاريخ": «فقد كان ثمرة تفكير أبعد أفقا وأوسع نطاقا من تفكير سابقيه ومعاصريه، لأنه **نزع فيه** لا إلى تدوين **تاريخ النبي فحسب بل إلى تاريخ النبوة بذاتها**»، ثُم تاريخ الخلفاء بعد ذلك.

ولعل عمل ابن هشام في اقتصاره على جزء من هذا التاريخ وهو سيرة المصطفى ﷺ، وحذفه المبتدأ والخلفاء، هو ما جعل قسم السيرة والمغازي يظهر منفصلا عن بدايته "المبتدأ" ونهايته في "الخلفاء"، مع بقاء احتمال أن يكونا كتابين مستقلين عن المغازي احتمالا وارداً.

أمّا من حيث **أثر ابن إسحاق على من بعده** في تدوين السيرة النبوية: فإنّ عمله أسّس بشكل كبير في إثبات هيكل نهائي لتاريخ السيرة؛ ثم ازداد هذا الهيكل وضوحا وتنظيما عند الواقدي، مع العناية بالجزئيات والتفاصيل التي لعلّها لَم تُذكر في كتب من قبله، ثم جاء ابن سعد الذي وضع الخطوط الأخيرة لهيكل السيرة[2]، مهتديا في ذلك برواد السيرة النبوية الذين سبقوه.

وقد وضع موسى بن عقبة مع ابن إسحاق والواقدي الأسس التي بَنَى عليها المؤلفون المتأخرون كتبهم، مثل الطبري، وابن سيد الناس، وابن كثير[3].

ثُمّ أضاف ابن سعد إلى هذا الهيكل الشمائل والدلائل النبوية، في ترتيب ونظام نموذجي، جعل مَن صنّف بعده يسير على منهجه، ويتبع خطّته في ذلك.

كما كان تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق عملا جليلا، أحدث نقلة نوعية في تطور التأليف في السيرة النبوية المشرفة، فصار مخطّطه في السيرة -المستلّ من كتاب ابن إسحاق- نموذجا يُحتذى به، حتى إنّ مصنفات السيرة بعده صارت تتبع الخطة نفسها، وتعتمد بالدرجة الأولى على سياقه ومادته.

---

[1]- نشأة علم التاريخ عند العرب، 35.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 36-38.

[3]- ينظر: مغازي الواقدي، مقدمة التحقيق للمستشرق هورفتس، 24/1.

المطلب الخامس : رجال الطبقة الرابعة من المؤلفين في السيرة

الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف"

– وفي مادة "**علم التاريخ**" [فقرة: 4]: «وقد تناولته يد الضياع[1] فتمهّدت السبل بذلك إلى ظهور موجز مشوه جمعه المصنف المصري عبد الملك بن هشام المتوفى سنة (**218**هـ/ **833**م)...

وألّف محمد بن عمر الواقدي (**207**هـ/**823**م) الذي خلف ابن إسحاق، كتابا لم يقتصر فيه على غزوات النبي بل تناول كثيرا من وقائع تاريخ العهود الإسلامية التالية...

وتاريخ "المغازي" للواقدي هو وحده الذي حفظ كيانه بوضعه الأصلي، ولكن كاتبه محمد بن سعد المتوفى سنة (**230**هـ/ **844**-**845**م) اعتمد على الكثير من المواد التي جمعها ذلك المؤلّف في مصنفه "كتاب الطبقات" في سيرة النبي وصحبه والتابعين... هذا ولذلك الجزء من كتاب ابن سعد في قالبه الأخير الذي صاغه فيه (أي: كتاب سيرة النبي المجلدان الأول والثاني من الكتاب المطبوع) أهمية من وجهين: الأول أنّ تاريخ المغازي له تكملة تتضمن أوامر النبي ونواهيه وكتبه، وقد اعتمد ابن سعد على كل ما وقعت عليه يده من الوثائق والأسانيد، وأظهَر حجة مما تقدّم على ذلك أنّ تلك الأجزاء التي أضيفت لأول مرة عن صفة أخلاق النبي وعلامات النبوة كانت مُمهّدة لِما أُنشيء بعد ذلك من الكتب في شمائل النبي والدلائل»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **جب** – H. Gibb[3].

– وجاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 8]: «وثَمّة كاتب آخر يقف على قدم المساواة أو يكاد، ونعني به "محمد بن عمر الواقدي" (**207**هـ) الذي وصلت إلينا السيرة التي كتبها عن النبي وهي كتاب "المغازي"... ثم السيرة التي قدم بها تلميذه وكاتبه محمد بن سعد المتوفى سنة (**230**هـ) كتابه هو "الطبقات"... الذي جاء فيه علاوة على الروايات التي ترد إلى الواقدي بروايات أخرى من أصل مختلف.

وقد ظلت السيرة بعد الواقدي (ويعد هو وابن إسحاق المصدر المنتظم لسلسلة من المؤرخين المتعاقبين تبدأ بالبلاذري) الذي نقل السيرة التي صنفها ابن إسحاق برمتها تقريبا في كتابه "أنساب الأشراف"...

وقد اجتذبت "دلائل النبوة" و"الشمائل" التفات المؤرخين... وهي فرع انبثق من السيرة لينمو ويزدهر مستقلا بنفسه»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi Della Vida[5].

---

[1]– يقصد بذلك: **كتاب ابن إسحاق** في السير والمغازي.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 4/487-488.

[3]– سبقت ترجمته في: ص111.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 12/452-453.

[5]– سبقت ترجمته في: ص95.

– جاء في مادة "**ابن سعد**": «**وأهم تصانيفه: "كتاب الطبقات" وهو في سيرة النبي والصحابة والتابعين إلى وقته... وعندما يتحدّث صاحب الفهرست عن "كتاب أخبار النبي" يجب أن نفهم أن هذا الكتاب ليس إلا الجزء الأول من "كتاب الطبقات" وهو الجزء الذي يتحدث فيه عن سيرة النبي**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **منونش** - E. Mittwoch[2].

– وفي مادة "**البلاذري**": ذَكَر من كتب البلاذري: «**(1)– فتوح البلدان: هذا المصنف القيم مختصر لكتاب آخر شامل يتناول الموضوع نفسه، ويبدأ كتاب البلاذري بغزوات النبي لليهود ومكة والطائف، إلى جانب غزواته الأخرى. (2)– أنساب الأشراف (وأخبارها): وهو مصنف كبير شامل، ولكنه لم يتم، رتّبه تبعا للأنساب، وهو يبدأ بسيرة النبي وسيرة الصحابة**»[3]. المحرر هو: **بكَـر** – C.H.Becker[4].

– وجاء في مادة "**الترمذي**": «وكتاب "**الشمائل" هو مجموعة من الأحاديث في ذات النبي وشمائله**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **فـنسـنك** - Wensinck[6].

– وجاء في مادة "**الطبري**": «**وأهم كتب الطبري هو تاريخه العام المعروف باسم : "تاريخ الرسل والملوك"... ويبدأ تاريخ الرسل والملوك بعد المقدمة بتاريخ آباء البشر، وأنبياء العهود الأولى وحكامها (ج1 قسم1)... ثم عصر محمد ﷺ والخلفاء الأربعة الراشدين**»[7]. المحرر هو: **بارت** - R.Paret[8].

– وفي مادة "**الهمداني**": «**لم يقتصر اهتمامه على مغازي الرسول (عليه الصلاة والسلام) فحسب، بل امتد إلى معاهداته وخطبه ومفاوضاته السلمية وبعوثه ورسائله**»[9]. المحرر هو: **سزكين**– Ursula Sezgin[10].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 190/1.

[2]– **متوتش أويجن** "Eugen Mittwoch" (1867–1942م): مستشرق ألماني، تخصّص في تاريخ العرب قبل الإسلام، خاصة في جنوب الجزيرة العربية. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 760/2. والأعلام، الزركلي، 32/2.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 58/4.

[4]– **بكَـر كارل** "Carl Becker" (1876–1933م): مستشرق ألماني، عُيّن أستاذا للغات الشرقية في جامعة "هامبورج" وغيرها، من مؤلفات: "دراسات عن الفتح العربي". ينظر: المستشرقون، 745/2. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 113.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 230/5.

[6]– سبقت ترجمته في: ص49.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 69/15.

[8]– **بارت رودي** "Rudi Paret" (1901–1983م): مستشرق ألماني، درس في ألمانيا، وعُيّن أستاذا للغات السامية والإسلاميات في جامعة "توبنجن"، من أهم أعماله: قيامه بترجمة القرآن إلى الألمانية مع التعليق عليها. ينظر: موسوعة المستشرقين، 62.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9206/29.

[10]– **فؤاد أورسولا سزكين** "F.U.Sezgin": باحث تركي ولد سنة (1924م)، مؤسس معهد "العلوم العربية والإسلامية" في "فرانكفورت" بألمانيا، من مؤلفاته: "تاريخ التراث العربي". ينظر: النسخة الأجنبية "للدائرة": "Encyclopidia of Islam, 2/X". وموقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org/wiki/فؤاد_سزكين).

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أوردتُ المؤلفين في السيرة بعد ابن إسحاق الذين لهم إسناد في رواية أخبار السيرة النبوية مِمّن ذُكروا في "الدائرة" في هذه الطبقة (الرابعة)؛ بدايةً بالواقدي في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، إلى غاية الطبري في نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري.

[1]- **محمد بن عمر الواقدي** (المتوفى سنة 207 هـ): الإمام المؤرخ[1].

أولا- كتاب "المغازي" للواقدي: كتابه "المغازي"، معروف مشهور[2]، وقد وصلنا الكتاب كاملا، وهو مطبوع متداول.

بدأ الواقدي كتابه بالسرايا والغزوات النبوية، ولم يعرض فيه إلى ذكر أخبار المبتدأ (من: قصص الأنبياء والأمم السابقة وأيام الجاهلية)، والمبعث (من ذكر: مولده ونشأته وبعثته ﷺ) خلافاً لعمل ابن إسحاق - كما سبق-، بل قصره على موضوع المغازي والسرايا[3].

يعرض الواقدي مادته بأسلوب منتظم، فيورد تواريخ الغزوات مرتبة حسب تسلسلها التاريخي، ويهتم بذكر تفاصيل الأحداث[4]، كما يقدم في كتابه أحيانا إضافات على سيرة ابن إسحاق، ويبدي رأيه في الروايات ويرجح بينها[5]، يقول ابن سيد الناس -مبينا اختصاص الواقدي بأخبار ليست عند غيره-: «وكثيرا ما أنقل عن الواقدي من طريق محمد بن سعد وغيره أخبارا، ولعل كثيرا منها لا يوجد عند غيره»[6].

ثانيا- أقوال المحدّثين النقاد في الإمام الواقدي: لم يتطرق المستشرق "جب -Gibb" في مادة "علم التاريخ" إلى هذه الحيثية، لذا سأشير إليها -لأهميتها- بإيجاز فيما يلي:

– الواقدي ضعيف عند المحدثين، مع غزارة مادته التاريخية، فلا تصلح مروياته للاحتجاج بها فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة[7]، قال الذهبي: «أمّا في الفرائض، فلاَ ينبغي أن يُذكر»[8].

---

[1]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 493/5. التاريخ الكبير، البخاري، 178/1. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 5/4. تهذيب الكمال، المزي، 180/26. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 454/9. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 363/9.

[2]- ذكره: ابن النديم "الفهرست، 128". وابن خير الإشبيلي "الفهرسة، 199". وسزكين "تاريخ التراث العربي، 102/2".

[3]- ينظر: المغـــازي، الواقدي، 1/2-3 و1117/3 وما بعدها.

[4]- نشأة علم التاريخ، 35.

[5]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 61/1.

[6]- عيون الأثـــر، 12/1.

[7]- السيرة النبوية الصحيحة، 1 /61.

[8]- سير أعلام النبلاء، 469/9.

– وهذه **بعض نصوص الأئمة النقاد فيه:** قال أحمد بن حنبل: «هو كذّاب»[1]، وضعّفه يحيى بن معين وعلي بن المديني[2]، وقال البخاري: «متروك الحديث؛ تركه أَحْمَد، وابن نمير، وابن المبارك، وإسماعيل بن زكريا»[3]، وقال الذهبي: «وحاصل الأمر أنّه مُجمعٌ على ضعفه[4]»[5].

– لكن مع تضعيف المحدثين النقاد للواقدي في الروايات المتعلقة بالأحكام، فهم لا يطعنون في سعة علمه بالمغازي والسير والتواريخ[6]، قال ابن سعد: «وكان عالِمًا بالمغازي والسيرة والفتوح»[7].

ويقول الذهبي: «جَمَع فأوعى، وخَلَط الغَثّ بالسّمين، والخَرَز بالدُّرّ الثّمين، فاطَّرَحوه لذلك، ومع هذا **فلا يُستغنَى عنه في المغازي**، وأيّام الصحابة وأخبارهم»[8]؛ حيث تنفع مروياته في وصف تفاصيل الأحداث المتعلقة بالسيرة والمغازي – **مِما لا يتصل بالعقيدة والشريعة**–، خاصة إذا لَم يخالِف الروايات الصحيحة[9]، يقول ابن حجر: «والواقدي **إذا لَمْ يُخالِف** الأخبار الصّحيحة ولا غيره من أهل الْمغازي **مَقْبولٌ في الْمغازي** عند أصحابنا»[10]، وقد انتقى ابن حجر من مغازيه، كما يبدو أنّ ابن سعد انتقى الروايات التي ينقلها عن شيخه الواقدي[11]، قال الذهبي: «وأجود الروايات عنه رواية ابن سعد في "الطبقات"، فإنّه كانَ يَختار من حديثه بعض الشيء»[12].

ولَخّص الذهبي مجمل القول فيه بعبارة بديعة فقال: «وقد تَقرّر أنّ **الواقدي ضعيفٌ، يُحتاج إليه في الغزوات والتّاريخ**، ونُورِد آثاره من غير احتجاجٍ، أمّا **في الفرائض فلا يَنْبغي** أن يُذكر، فهذه الكتب السّتة، و"مسند أحمد"، وعامّة **مَن جَمَع في الأحكام**، نراهم يَتَرَخَّصون في إخراج أحاديث أُناسٍ ضعفاء، بل ومتروكين، ومع هذا لا يُخَرِّجون لِمحمد بن عمَر شيئاً، مع أنّ وزنه عندي أنّه –مع

---

[1]– الضعفاء الكبير، العقيلي، 107/4. وتاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 21/4.

[2]– ينظر: الضعفاء الكبير، 107/4. وتاريخ بغداد، 19/4-21.

[3]– الضعفاء الكبير، 107/4. وتهذيب الكمال، المزي، 185/26-186.

[4]– وقد ساق الخطيب البغدادي والذهبي وغيرهما جملة من أقوال بعض الأئمة الذين ذهبوا إلى توثيق الواقدي، ينظر: تاريخ بغداد، 14/4-18. وتاريخ الإسلام، 185/5-186؛ ولكن لَمّا كانت أقوالهم معارَضة بأقوال جهابذة المحدثين النقاد كأحمد وابن معين وابن المديني والبخاري ومسلم وأبو زرعة وابن أبي حاتم وأبو داود والنسائي وغيرهم لَم يُلتفت إلى توثيقهم ولم يُعتبر قولهم في ذلك، قال الذهبي في "تاريخ الإسلام، 185/5": «وقد وثّقه غير واحدٍ لكنْ لا عِبْرة بقولهم مع توافر من تركه».

[5]– تاريخ الإسلام، 184/5.

[6]– ينظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 31/1. وصحيح السيرة (أو السيرة الذهبية)، ابن طرهوني، 24/1-25.

[7]– الطبقات الكبرى، 493/5.

[8]– سير أعلام النبلاء، 454/9-455.

[9]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 61/1.

[10]– التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، 607/2.

[11]– السيرة النبوية الصحيحة، 61/1.

[12]– تاريخ الإسلام، 184/5. وكذا في: سير أعلام النبلاء، 464/9.

ضعفه- يُكتب حديثه ويُروى؛ لأنّي لا أتّهمه بالوضع، وقولُ مَن أهدَره، فيه مجازفةٌ من بعض الوجوه، كما أنّه لا عبرة بتوثيق مَنْ وَثّقه: كيزيد، وأبي عبيد، والصّاغاني... إذ قد انْعَقد الإجماع اليوم على أنّه ليس بحجّةٍ، وأنّ حديثه في عِداد الواهي -رحمه الله-»[1].

[2]- **عبد الملك بن هشام** (المتوفى سنة: 213هـ): الإمام النحويّ الأخباريُّ صاحب السيرة المشهورة[2].

أخَذ ابن هشام كتاب ابن إسحاق من رواية عن زياد بن عبد الله البكائي (ت: 183هـ)، ثُمّ هذّبَها واختصرها، مع بعض الزيادات، والتعقبات والتصحيحات، ولئن كانت سيرة ابن إسحاق لَم تصلنا بعينها، فقد وصلتنا مهذبة على يد ابن هشام[3]، والكلام على هذا الكتاب في النقاط الآتية:

أولا- عمل ابن هشام في تهذيبه: بيّن ابْنُ هشام في مقدمة كتابه منهجه في اختصار "سيرة ابن إسحاق"، وما أحدثه فيها من تغييرات، فقال: «وأنا إن شاء الله مُبتدئٌ هذا الكتاب بِذكر إسْماعيل بن إبراهيم، ومن ولدَ رسول الله ﷺ مِن ولده... وتاركٌ ذِكر غيرهم مِنْ ولدِ إسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، إلى حديثِ سيرة رسول الله ﷺ، وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاقَ في هذا الكـــتاب، مِمّا ليس لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببًا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه، لِما ذكرتُ من الاختصار، وأشعارًا ذَكَرها لَمْ أرَ أحدًا من أهل العلم بالشّعر يَعرِفها، وأشياء بعضها يَشْنُع الحديثُ به... وبعضٌ لَم يُقِرّ لنا البكّائي بروايته، وَمُسْتَقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بِمبلغ الرّواية له، والعلم به»[4].

بناءً على هذا النص يمكن إيجاز التغييرات التي أحدثها في كتاب ابن إسحاق فيما يلي:

- حاول ابن هشام في تَهذيبه أن يحذف الأقسام الضعيفة في "المبتدأ"، وما ليس له علاقة بسيرة ونسب المصطفى ﷺ.

- وأن يطّرح الشعر الموضوع والمنحول الذي انتُقد فيه ابن إسحاق[5]، وكان لابن هشام ملكة لغوية تمكنه من ذلك، ومعرفة بأشعار العرب تؤهله لهذا العمل.

---

[1]- سير أعلام النبلاء، 469/9.

[2]- ترجمته في: وفيات الأعيان، ابن خلكان، 177/3. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 428/10. الوافي بالوفيات، الصفدي، 142/19. البداية والنهاية، ابن كثير، 235/14.

[3]- ينظر: الإعلان بالتوبيخ، السخاوي، 147. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 32/1.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 4/1.

[5]- ينظر: نشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 34.

– حَذَف الأخبار التي ليس لها علاقة بسيرة النبي ﷺ، حيث قصر تهذيبه على ما يتعلّق بالسيرة –حسب ما ذكره–، أمّا ابن إسحاق فكان كتابه شاملا لتاريخ الأنبياء والأمم والرسالات قبل النبي ﷺ.

– كما أثبت بعض الإضافات الهامة التي تخدم سياق الكتاب، مثل: شرح بعض المفردات[1]، أو ذكر بعض التفاصيل التاريخية التي لم يوردها ابن إسحاق[2]، ورأى ابن هشام أنّ إيرادها يزيد في إثراء الجزئية المطروحة.

ثانيا– أهمية كتاب ابن هشام: لقي تهذيب ابن هشام لِمغازي ابن إسحاق رواجا كبيراً في هذا العلم الجليل، ونال عناية فائقة من العلماء قديما وحديثا، فوُضعت عليه شروح وتعليقات، من أهمّها: شرح الحافظ عبد الرحمن السهيلي (ت: 581 هـ) "**الروض الأنف**" وهو مطبوع، وشرح "بدر الدين العيني" (ت: 855 هـ) "**كشف اللثام**"، وعليه أيضا عدّة مختصرات ومنظومات[3].

ثالثا– عدم استقامة وصف المستشرق "جِب" لتهذيب ابن هشام: أما وصف المستشرق "جِب–Gibb" تَهذيبَ ابن هشام بأنّه "**مختصر مشوه**"[4]، فهذا الإطلاق ليس دقيقا من أوجه:

أ)– أنّ ابن هشام حافظ على نصّ ابن إسحاق وعبارته[5]؛ فكان يقدّم له بقوله: "قال ابن إسحاق"[6] ثم يورد نص كلام ابن إسحاق، وإذا عقب عليه فإنه يبيّن ذلك بقوله: "قال ابن هشام"[7].

ب)– ذكر الأستاذ الدوري: أنّ ابن هشام حاول أن يَكون تهذيبه أقرب إلى وجهة نظر المحدثين؛ وهذا ما جعل المؤرخين عامة ينظرون إلى سيرة ابن إسحاق –بعد تنقيح ابن هشام خاصة– نظرة حسنة[8].

ج)– يقول الأستاذ أكرم ضياء العمري عن "تهذيب ابن هشام": «والحق أن الصورة التي تعطيها مغازيه عن حياة الرسول ﷺ تقترب إلى حدّ كبير مما أوردته كتب الحديث الصحيحة مما يعطي سيرته توثيقا كبيرا»[9]؛ وذلك أنّ منهج المحدثين في التعامل مع مرويات السيرة النبوية وغيرها، هو منهج قائم على التحري والتثبت في نقل الأخبار ونقدها.

---

[1]– ينظر على سبيل المثال المواضع الآتية من: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 55/1، 200، 263 و75/2، 246.

[2]– ينظر مثلا بعض المواضع في: المصدر نفسه، 190/1، 229، 241 و86/2، 191.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، مقدمة التحقيق، 12/1–13. وكشف الظنون، حاجي خليفة، 1012/2–1013.

[4]– وكذا شنّع سهيل زكار محقق "السير والمغازي" لابن إسحاق (مقدمة التحقيق، 15–16) على ابن هشام حذفَه ما حذفه من كتاب ابن إسحاق الأصلي، ويظهر من كلامه أن سبب تشنيعه هو عدم وصول النسخة الكاملة لكتاب ابن إسحاق إلينا، ولعلّه سها –في تشنيعه هذا– عن كون ابن هشام آنذاك لم يخطر بباله أنّ كتاب ابن إسحاق سيُفقد في يوم من الأيام، بعدما كان منتشرا في عصره.

[5]– ينظر: المغازي الأولى ومؤلفوها، هورفتس، 83.

[6]– ينظر مثلا المواضع الآتية: 134/1، 148، 240 و 43/2، 59، 309 وغيرها كثير.

[7]– ينظر مثلا المواضع الآتية: 78/1، 105، 697 و47/2، 411 وغيرها.

[8]– نشأة علم التاريخ عند العرب، 34–35. وينظر: الإعلان بالتوبيخ، السخاوي، 147.

[9]– السيرة النبوية الصحيحة، 66/1؛ وقد ذكر في مقدمة هذا الكتاب (23/1): أنّه اشتغل بتدريس السيرة مدة عشرين سنة، فكلامه كلام رجل محقّق ومتخصّص، له ممارسة متعمقة في هذا الميدان، خبر من خلالها مصادر السيرة النبوية وخصائصها ومناهج مؤلفيها.

[3]- علي بن محمد المدائني (المتوفى سنة: 224هـ): الإمام المؤرخ الأخباريّ[1].

قال ابن الجوزي: «كان عالما بأيام الناس وأخبار العرب والفتوح والمغازي»[2]، ونبّه الذهبي إلى تخصصه في مجال السيرة، فقال : «وكان عالما بالمغازي والسِّير»[3].

وللمدائني مصنفات كثيرة أفاض في ذكرها ابن النديم والحموي والذهبي، تتنوع موضوعاتها بين: التاريخ العام وأيام العرب والتراجم والقصص والسيرة النبوية وغير ذلك، قال ابن الأثير: «ولهُ كتب في المغازي وأيّام العرب»[4].

كما أنّ له مصنفات خاصة في جزئيات من السيرة النبوية، تجاوزت ذكر غزوات النبي ﷺ وفتوحه، كما ذكر محرّر مادة "المدائني"؛ وإن كان مصطلح "المغازي" عند المتقدّمين يتعدّى ذكر الغزوات والفتوح، ليشمل كلّ ما يتعلّق بأحوال النبي ﷺ وسيرته - كما تقدم آنفا-.

ومن أهمّ ما ذُكر للمدائني من كتب في السيرة النبوية[5]: كتاب "**خطب النبي ﷺ**"، كتاب "**صفة النبي ﷺ**"، كتاب "**عهود النبي ﷺ**"، كتب "**تسمية الذين يؤذون النبيّ ﷺ وتسمية المستهزئين**"، كتاب "**رسائل النبي ﷺ**"، كتاب "**الخاتم والرسل ﷺ**"، وينقل ابن حجر في "الإصابة" عن كتاب للمدائني يسمى "**رسل النبي ﷺ**"[6]؛ فلعله أحد الكتابين السابقين، وقد يكون كتابا آخر.

وأيضا: كتاب "**آيات النبي ﷺ**"، كتاب "**صلح النبي ﷺ**"، كتاب "**أمهات النبي ﷺ**"، كتاب "**المغازي**"، كتاب "**سرايا النبي ﷺ**"، كتاب "**الوفود**"، كتاب "**دعاء النبي ﷺ**"، كتاب "خبر الإفك"، كتاب "**أزواج النبي ﷺ**"، كتاب "**عمال النبي ﷺ على الصدقات**".

ويظهر من هذه القائمة الطويلة التي ذكرها ابن النديم والحموي؛ أنّ المدائني أفرد كتباً مستقلة في أبواب من السيرة النبوية؛ وإنّما يدلّ ذلك على سعة علمه بالسيرة وغزارة مادته فيها، غير أنّ جلّ هذه الكتب ضاعت ولم تصل إلينا، قال الزركلي: «بقي من كتبه "الْمُردِفات من قريش" رسالة، و"التّعازي"»[7]، وهما مطبوعان.

---

[1]- ترجمته في: الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 363/6. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 516/13. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 400/10. الوافي بالوفيات، الصفدي، 29/22. لسان الميزان، ابن حجر، 13/6.

[2]- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا-مصطفى عطا، 95/11.

[3]- تاريخ الإسلام، 638/5.

[4]- الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، 68/6.

[5]- ينظر: الفهرست، 130-131. ومعجم الأدباء، 1854/4-1855. والوافي بالوفيات، 29/22. وتاريخ الإسلام، 639/5.

[6]- ينظر: الإصـــابة، 678/1.

[7]- الأعـــلام، 323/4.

كما بقيت كثير من رواياته في كتب التاريخ والسيرة خاصة عند البلاذري[1] الذي ينقل عنه كثيراً.

[4]- **محمد بن سعد** (المتوفى سنة: 230هـ): الإمام الحافظ صاحب "الطبقات"[2].

خصص ابن سعد القسم الأول من "طبقاته" للسيرة النبوية، واعتمد على خبرة من سبقه في هذا المجال (كالزهري وابن إسحاق والواقدي)، من حيث هيكلة الخطة المنهجية في عرض المادة العلمية، كما أسهم في إثراء نظام هذه الخطة، وإيضاح معالم خطوطها الأخيرة.

وقد توسع في الحديث عن شمائل النبي ﷺ وفضائله ودلائل نبوته، كما ذكر "جِب-Gibb" في مادة "علم التاريخ"، وخصص لذلك بابا مستقلاّ حتى أصبح عمله نموذجا لِموضوع "الشمائل" و"الدلائل" فيما بعد[3].

أشار المستشرق "متوتش -Mittwoch" في مادة "ابن سعد" إلى إشكال مفاده: هل كان لابن سعد مؤلَّف مستقل في "السيرة"؟ أم أنّ تأليفه في السيرة هو جزء من كتابه الكبير "الطبقات الكبرى"؟

وبيّن "متوتش -Mittwoch" أنّ ابن النديم ذكر لابن سعد كتابا مستقلا في السيرة النبوية يسمّى "أخبار النبي ﷺ"، وذلك أنّ ابن النديم قال في ترجمته: «وله من الكتب كتاب أخبار النبي ﷺ»[4]؛ ولعل ابن النديم (ت: 438هـ) هو أول من نسب هذا الكتاب لابن سعد.

كما نسب هذا الكتاب إليه أيضا إسماعيل الباباني البغدادي (ت: 1399هـ)[5]، ولا يستبعد أن يكون تابع ابن النديم في ذلك.

لكن المستشرق "متوتش -Mittwoch" محرّر المادة أكّد أنّ: ابن النديم وهِم في هذه النسبة، فإنّ هذا الكتاب في حقيقته ليس إلاّ جزءً من الكتاب الكبير لابن سعد "الطبقات الكبرى"، وهو ما رجّحه أيضا علماء وباحثون مسلمون تطرّقوا إلى هذا الأمر، ومنهم: الأستاذ إحسان عباس محقق "طبقات ابن سعد"[6]، ويؤيّد القول بوهم ابن النديم أمران:

أ)- قول ابن سعد في آخر القسم الأول من كتاب "الطبقات": «آخر خبر النّبيِّ ﷺ»[7]، ثم عقد بعد ذلك مباشرة باباً في: «ذِكرُ مَن كان يُفتي بالْمدينة ويُقتدى به مِن أصحاب رسول الله ﷺ على عهد

---

[1]- ينظر على سبيل المثال: أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، 16/1، 168، 417 و60/2، 284 وغيرها.

[2]- ترجمته في: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 266/3. وفيات الأعيان، ابن خلكان، 351/4. تهذيب الكمال، المزي، 255/25. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 664/10. الوافي بالوفيات، الصفدي، 75/3.

[3]- نشأة علم التاريخ، 37.

[4]- الفهرست، 128.

[5]- ينظر: هدية العارفين، 11/2.

[6]- مقدمة التحقيق، 2/1.

[7]- الطبقات الكبرى، 333/2.

رسول الله ﷺ وبعد ذلك وإلى مَن انتهى علمهم»[1]، ويظهر من خلال هذا السياق مدى الاتصال بين أوّل طبقة ذكرها في الصحابة وبين ما سبق من أخبار النبي ﷺ؛ حيث أن هذه الطبقة متصلة بحياة النبي ﷺ وسيرته، فقد «أراد ابن سعد من وضعه ترجمة موسعة للرسول ﷺ في بداية كتابه هذا تبيانَ علاقة الرسول ﷺ بصحابته وأثر هؤلاء في أحداث عصرهم، ومن ثم التعرف إلى من سار على منوالهم من الذين تتلمذوا عليهم وسمعوا منهم»[2].

لذا يُمكن جعل ذلك قرينة على أنّ ابن سعد قصد في كتابه "الطبقات" البدءَ بسيرته ﷺ ثُمّ سير أصحابه ومن جاء بعدهم على نظام الطبقات، وأنّه لم يكتب مؤلّفا مستقلا يسمى "أخبار النبي ﷺ"، ولعلّ قوله السابق: «آخر خبر النّبيّ ﷺ»، قد أوقع ابن النديم وغيره في هذا الوهم - والله أعلم-.

ب)- أنّ من ترجم لابن سعد من المتقدمين كالخطيب البغدادي، وابن خلكان، والذهبي وابن حجر وغيرهم[3] ذكروا كتاب "الطبقات" -الذي يُعرف به ابن سعد- ولم يشر أحد منهم إلى أنّ له كتابا مستقلاّ في السيرة، وكذا لَم يَجعلوا القسم الأول من "الطبقات" في سيرة المصطفى ﷺ كتابا مستقلاّ.

كما نجد الإمام السخاوي يصرّح بأنّ السيرة النبوية التي كتبها ابن سعد هي أول قسمٍ من كتابه "الطبقات"؛ حيث يقول: «وفي أول "الطبقات الكبرى" لكاتبه أبو عبد الله محمد بن سعد البغدادي سيرة مطولة»[4].

[5]- أحمد بن يحيى البلاذري (المتوفى سنة 279 هـ): أديب ومؤرخ[5]، أمّا كتبه في هذا المجال فهي:

أ)- كتاب "أنساب الأشراف"[6]: هو تاريخ عام مرتب على الأنساب، خصص القسم الأول منه للسيرة[7]، وهذا الكتاب مطبوع متداول.

ويبدأ الكتاب بذكر نسب نوح عليه السلام، ثم يسوق الأنساب بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى غاية النبي ﷺ، ثم يشرع في ذكر أخبار سيرة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته[8]، وجاءت أخبار السيرة حسب المطبوع في المجلد الأول، وفي الإثني عشر مجلدا الباقية ذكر بعض أخبار الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، مع بيان أنسابهم، ومع طول الكتاب وضخامته إلا أنّ البلاذري لم يتمّه.

---

[1]- المصدر السابق، 334/2.

[2]- تطور كتابة السيرة، عمار عبودي، 251.

[3]- سبق ذكر مواضع ترجمة ابن سعد في كتبهم في الصفحة السابقة فأغنى عن الإعادة.

[4]- الإعلان بالتوبيخ، 146.

[5]- ترجمته في: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 74/6. معجم الأدباء، الحموي، 530/2. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 162/13. الوافي بالوفيات، الصفدي، 155/8. لسان الميزان، ابن حجر، 322/1.

[6]- ذكره بهذه التسمية: حاجي خليفة "كشف الظنون، 179/1". وإسماعيل الباباني "هدية العارفين، 51/1".

[7]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 67/1. ونشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 56.

[8]- ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 3/1 إلى 579.

ب)- أمّا كتاب "**فتوح البلدان**"[1]: فهو مختصر عن كتاب أطول منه، وهو كتاب "البلدان الكبير" الذي يذكره ابن النديم وغيره، وهذا الكتاب لم يكمله أيضا[2]، و"البلدان الكبير" هو الذي أشار إليه محرر مادة "البلاذري" في قوله: "**مختصر لكتاب آخر شامل يتناول الموضوع نفسه**"، والظاهر أن "فتوح البلدان" هو الكتاب نفسه الذي يذكره ابن النديم باسم "البلدان الصغير"[3]، وهو مطبوع متداول.

ويتحدث الكتاب عن: أخبار الفتوح الإسلامية بلدا بلدا من أيام النبي ﷺ، ويبدأ بذكر: هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، كما يضم فضلا عن الفتوح أبحاثا عمرانية واقتصادية: كأحكام أرض الخراج، والعطاء، والنقود، وغيرها[4]، قال حاجي خليفة: «وهو كتاب كثير الفائدة»[5].

ويبدي البلاذري في الكتابين روحا نقدية للروايات والأخبار التاريخية تعكس مدى حرصه على انتقاء المادّة التي يقدّمها بعد الغربلة والتمحيص[6]؛ وهو ما نستشفّه من قوله في بعض المواضع مثلا: "الأصح"، "الأثبت"، أو "هو أصح وأثبت" ونحوها[7].

[6]- محمد بن عيسى الترمذي (المتوفى سنة 279 هـ): الإمام المحدِّث الحافظ[8].

يعدّ كتابه "الشمائل المحمدية" من أحسن وأجود ما أُلّف في هذا الباب، يقول ابن كثير: «شمائل رسول الله ﷺ وبيان خلقه الطّاهر؛ قد صَنّف النّاس في هذا قديما وحديثا، كتبا كثيرة مفردةً وغير مفردةٍ، ومِن أحسن مَن جَمَع في ذلك فأجادَ وأفاد الإمام "أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي"»[9].

[7]- ابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310 هـ): مؤرخ ثقة صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير[10]، وكتابه تاريخ عام خصّص قسما منه للسيرة النبوية؛ حيث يبدأ فيه: بِمبدأ الخليقة ويتناول

---

[1]- ذكره بهذه التسمية: الزركلي "الأعـــلام، 267/1"، وسزكين "تاريخ التراث العربي، 153/2". وذكره باسم "البلدان الصغير": ابن النديم "الفهرست، 143"، والصفدي "الوافي بالوفيات، 157/8".

[2]- ينظر: الفهرست، 143. وهدية العارفين، 51/1. وفتوح البلدان، البلاذري، مقدمة التحقيق، 5.

[3]- ينظر: الفهرست، 143. وتاريخ التراث العربي، 153/2. وفتوح البلدان، مقدمة التحقيق، 8.

[4]- ينظر: فتوح البلدان، مقدمة التحقيق، 5. وأيضا: 13. وبعض الأمثلة على ذلك في المواضع الآتية: 16-17 و429 و431.

[5]- كشف الظنون، 1402/2.

[6]- ينظر: نشأة علم التاريخ، 56.

[7]- ينظر مثلا: فتوح البلدان، 254/1، 306. وأنساب الأشراف، 35/1، 50، 368 و274/4، 217/7 وغيرها.

[8]- ترجمته في: الثقات، ابن حبان، 153/9. وفيات الأعيان، ابن خلكان، 278/4. تهذيب الكمال، المزي، 250/26. تذكرة الحفاظ، الذهبي، 110/2. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 387/9.

[9]- البداية والنهاية، 13/6.

[10]- ترجمته في: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 548/2. تاريخ دمشق، ابن عساكر، 188/52. سير أعلام النبلاء، الذهبي، 267/14.

الرسل والملوك في القديم، وينتقل إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، ثُمّ يعرض أخبار سيرة رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أخبار التاريخ الإسلامي إلى عصره سنة (302 هـ)[1].

ويقوم منهجه في هذا الكتاب عامة وفي قسم السيرة منه خاصة على ما يلي:

أ)– اعتمد منهجية التسلسل الزمني في سرد أحداث السيرة سنة بسنة[2].

ب)– إيراد الروايات بأسانيدها، لأنّ قيمة الروايات التاريخية في نظر الطبري تعتمد على قوة أسانيدها، وهو ما عبّر عنه في مقدمة كتابه بالتفصيل[3].

ج)– اعتمد على ابن إسحاق، وبعض مؤرخي السيرة، كما أنّه لا يهتم بنقد الروايات التي يوردها من حيث الصحة والضعف بل يسوقها بأسانيدها تاركا للقارئ مهمة التحقيق والترجيح[4]، كما بيّن هو نفسه في مقدمة الكتاب[5].

المطلب السادس : بعض المؤلفين في السيرة بعد الطبقات الأربع الأولى

المؤلفون في السيرة النبوية بعد الطبقات الأربع السابقة كثيرون جدًّا، لكن جمعت في هذا المطلب بعض من ورد ذكرهم في "دائرة المعارف الإسلامية" فحسب.

الفرع الأول : من المؤلفين في القرن الثامن الهجري

– جاء في مادة "**ابن سيد الناس**": «وصنف سيرة وافية للنبي عنوانها "**عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**"، وقد ذكر "بروكلمان" هذه السيرة بعنوان مختلف بعض الاختلاف»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **نسترشتين** - Zetterstèen[7].

ذكر المستشرق "تسترشتين - Zetterstéen" في هذا النص أحد أعلام المؤلّفين في السيرة في أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري؛ وهو الإمام:

– **ابن سيد الناس** (المتوفى سنة 734 هـ): محدّث ثقة[8].

---

[1]– ينظر: تاريخ الرسل والملوك، ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1/6-7. ونشأة علم التاريخ، الدوري، 64.

[2]– ينظر الموضع الآتية مثلا: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، 2/407 و2/487 و2/538.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 1/7-8.

[4]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 1/67.

[5]– ينظر كلامه في: تاريخ الطبري، 1/8.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/201.

[7]– سبقت ترجمته في: ص112.

[8]– ترجمته في: تذكرة الحفاظ، الذهبي، 4/197. الوافي بالوفيات، الصفدي، 1/219. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر، 5/476. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، 2/249.

اسم كتابه في السيرة هو: "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسّير": وهو العنوان الصحيح الذي ذكره المستشرق "تسترشتين Zetterstèen-" في مادة "ابن سيد الناس"، وكذا جـــلّ من ترجم لابن سيد الناس أو ذكر مؤلفاته[1].

وهذا الكتاب –كما وصفه المستشرق محرر المادة وغيره ممن ترجم له– كتاب وافٍ وجامع ومفيد في موضوعه، قال ابن حجر: «وهو كتاب جيّد فِي بَابه»[2].

ومن ميزات الكتاب: أنّ مؤلّفه «أكثر فيه النقل عن كتب الحديث إلى جانب كتب المغازي التي سبقته»[3]، ومع أنّه من المتأخرين إلا أنّه اهـــتمّ بذكر أسانيد الروايات، كما اعتنى بشرح غريب بعض الألفاظ، وذكر الفوائد والتعليق على بعض المتون والروايات[4].

الفرع الثاني: من المؤلفين في القرن العاشر والحادي عشر الهجري

– جاء في مادة "**الحلبي**": «**وأشهر ما نعرفه من مؤلفاته الكثيرة سيرة النبي وعنوانها "إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون" وهي تعرف عادة بالسيرة الحلبية**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بروكلمان** - C.Brockelman[6].

– وفي مادة "**الديار بكري**": «**"تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس": وهذا التاريخ سيرة للنّبي أسهب في المؤلف إسهابا... ثم أردف السيرة بتاريخ موجز للخلفاء**»[7]. محرر المادة هو: **محمد بن شنب**[8].

من أعلام المؤلفين في القرنين العاشر والحادي عشر الهجري:

[1]– حسين بن محمد الديار بكري (المتوفى سنة 966 هـــ): مؤرخ وفقيه[9].

كتابه في السيرة "تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس" مطبوع، وهو على ثلاثة أقسام[10] كما ذكر "الديار بكري" في مقدمة كتابه[11]:

---

[1]– ينظر: كشف الظنون، حاجي خليفة، 1183/2. وهدية العارفين، إسماعيل الباباني، 149/2. والأعلام، الزركلي، 34/7.

[2]– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 477/5.

[3]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 68/1.

[4]– ينظر مثلا: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 107/1، 200، 208 و77/2–78.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 48/8.

[6]– سبقت ترجمته في: ص123.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 351/9.

[8]– سبقت ترجمته في: ص48.

[9]– ترجمته في: الأعـــلام، الزركلي، 256/2. هدية العارفين، الباباني، 319/1. معجم المؤلفين، كحالة، 47/4.

[10]– وإن كان الأستاذ ابن شنب لم يبيّنها في مادة "الدياربكري" عندما ذكر أنّه ختم الكتاب بموجز لتاريخ الخلفاء.

[11]– تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، 3/1–6.

(أ)- مقدمة في: الكلام على النبوة والأنبياء ونزول القرآن.

(ب)- وهو القسم الأكبر من الكتاب: في سيرة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته.

(ج)- بمثابة خاتمة للكتاب: في ذكر تاريخ الخلفاء الأربعة، ثم الخلفاء الأمويين والعباسيين وغيرهم من السلاطين، إلى غاية: حكم السلطان مراد الثالث، كل ذلك على سبيل الإجمال والإيجاز.

[2]- **علي بن إبراهيم الحلبي** (المتوفى سنة 1044 هـ): مؤرخ وفقيه ولغوي[1].

صاحب "إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون" أو "السيرة الحلبية": وهو كتاب مشهور مطبوع في ثلاثة مجلدات، ذكر الحلبي في مقدمة كتابه[2]: أنّه اختصره من سيرة ابن سيد الناس "عيون الأثر"، وسيرة شمس الدين محمد الصالحي الشامي (ت: 942 هـ)[3] "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" المعروفة أيضا "بالسيرة الشامية"، مع إضافات على الكتابين.

[1]- ترجمته في: فهرس الفهارس، الكتاني، 344/1. الأعلام، الزركلي، 251/4. معجم المؤلفين، كحالة، 3/7.

[2]- ينظر: إنسان العيون "السيرة الحلبية"، 5/1-6.

[3]- ترجمته في: فهرس الفهارس، 1062/2. الأعلام، 155/7. معجم المؤلفين، 131/12.

المبحث الثالث : مصادر السيرة النبوية وأصالتها

يتطرّق هذا المبحث إلى الكلام على مصادر السيرة النبوية الأساسية، وهي: القرآن الكريم، والحديث، من خلال إيراد ما جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" عن ذلك، والجواب على الإشكالات المثارة حول الموضوع.

فقد عمَد بعض المستشرقين من محرّري "دائرة المعارف" إلى التشكيك في أصالة السيرة النبوية، من خلال التركيز على الطعن في الروايات الحديثيّة للسيرة النبوية خاصّة، لكونها تُمثّل مصدراً أساسياً لأخبار السيرة **أوّلا**، ولكون غالب وقائع السيرة واردة في هذه الروايات **ثانياً**، وقد اعتمدوا في هذا التشكيك على طرائق وأساليب شتّى، يمكن إجمالها فيما يلي:

- **الأسلوب الأول**: محاولة الطعن في أصالة الروايات الحديثيّة للسيرة من خلال القرآن الكريم.
- **الأسلوب الثاني**: التشكيك في أصالة الروايات الحديثيّة للسيرة من خلال الخلط بين روايات الأخباريين والمحدّثين.
- **الأسلوب الثالث**: التشكيك في صحّة روايات السيرة الحديثيّة اعتماداً على نظرية "جولد زيهر" في الوضع.
- **الأسلوب الرابع**: الزعم بأنّ المحدّثين اكتفوا بنقد أسانيد الأحاديث دون متونها.
- **الأسلوب الخامس**: الزعم بأنّ السيرة النبوية مقتبسة من سير الأنبياء السابقين.

وسأتطرّق في المطالب التالية إلى الكلام على كلّ أسلوب من هذه الأساليب، بإيراد نصوص المستشرقين الواردة في "الدائرة"، ثم التعقيب عليها بالتحليل والنقد والمناقشة.

المطلب الأول : محاولة التشكيك في أصالة روايات السيرة من خلال القرآن

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**القرآن الكريم**" [فقرة: 1]: «– الترتيب الزمني لنـــزول القرآن: لم يترل القرآن على محمد ﷺ دفعة واحدة، بل نزل مفرقا، فهو يتجاوب في كل حالة مع الظرف التاريخي، وقد يكون التعبير عن هذا التجاوب مباشرا في أحيان كثيرة، فكان الوحي ينـــزل عليه بما يشجعه في أوقات الاضطهاد، وبالإجابة عما يسأله عنه أتباعه وخصومه، وبالتعليق عن الأحداث الجارية وما إلى ذلك بسبيل.

وقد نزل الوحي بالمبادئ الأساسية والقواعد اللازمة لتنظيم المجتمع الإسلامي تدريجيا، وعلى مراحل، وأحيانا ما تتطلب التفسير والشرح...

– الإشارات التاريخية في القرآن: يشير القرآن إشارات محددة إلى عدد من الأحداث التاريخية في حياة محمد ﷺ ومعاصريه، ولكنه لا يحدد التواريخ ولا يشير أي إشارة محددة إلى الوقت الذي وقعت فيه... وهناك إشارات كثيرة إلى أحوال الرسول الكريم في مكة (مثل: الاضطهاد الذي تعرض له، واتهامات خصومه له، وحياته المبكرة، ويتمه) وإلى بعض الممارسات المحددة لأهل مكة، ولكن الآيات التي تتضمن هذه الإشارات لا يمكن تحديدها بأي قدر من الدقة.

والفترة المدنية هي التي تتيح لنا التحديد الدقيق لتواريخ نزول الآيات إلى حد معقول، على أساس الإشارة إلى أحداث تاريخية يمكن تحديد وقت نزولها استناداً إلى مصادر أخرى، مثل: غزوة بدر (عام 624 هـــ) وغزوة حنين (أوائل عام 630 هـــ) اللتين وردتا في سورة آل عمران في الآية (123)، وفي سورة التوبة في الآية (25) على الترتيب»[1]. محرر المادة هو المستشرق: "**ولش** – A.T.Welch"[2].

– وجاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 1]: «وثَمّة اعتبار آخر يَجعل من الصعب التحدث في ثقة عن المراحل الرئيسية في حياة محمد ﷺ قبل الهجرة، وهو أن القرآن الكريم الذي كثيرا ما يشير إلى أحداث مهمة في حياة محمد ﷺ والأمة الإسلامية في المدينة بعد الهجرة، وببعض التفصيل، لا يكاد يذكر شيئا عن الوقائع التي تقول كتب السيرة أنّها حدثت في الفترة المكية»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول فرانتس** – F.Buhl[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8206/26–8207.

[2]– **ولش ألفورد** "Alford.T.Welch": مستشرق يشتغل أستاذا في تاريخ الأديان والدراسات العربية والإسلامية في أمريكا، لم أقف على تاريخ مولده ووفاته. ينظر: الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org/wiki/ألفورد_ولش).

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9121/30.

[4]– **بول فرانتس** "Frantz Buhl" (1850–1932م): مستشرق دانمركي، درَسَ اللاهوت واللغات الشرقية وخاصة العربية والعبرية، ورحل إلى الشرق العربي، درّس في جامعة "كوبنهاجن" و"ليبزيج" بالدنمارك، وله مقالات كثيرة في "الدائرة"، من مؤلفاته: "حياة محمد" بالدنماركية، و"انتشار الإسلام"، وغيرهما. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 844/2. الأعـــلام، الزركلي، 139/5.

– وفي مادة "**السيرة**" [فقرة: 9]: «**وقد حلّل لَمنس** (Lammens) **في سلسلة من المقالات الأطوار التي مرت بها السيرة في تأليفها تحليلا بلغ به المدى، ذلك أنّه تصدى لإثبات أن البناء الكامل للرواية الإسلامية عن حياة النبي، في مرحلتها السابقة على الهجرة على الأقل، لا سند له بحال، فكل حادث ترويه السيرة، وكل تفصيل تاريخي مزعوم ليس إلا نتيجة لتفسير ذاتي لآية من القرآن استنبط منه أصحاب مدرسة المدينة** (حيث كانت الغيرة الدينية في المحافظة على ذكر النبي قائمة تضطرم بها نفوس أهل المدينة) **الذين مال بهم التقى عن السبيل الذي كان ينبغي أن تسير فيه حياة النبي، مستعينين في ذلك بشتى التوفيقات الفقهية وبالأصول الدخيلة فلا تجد للحوادث التي رووها سندا من الرواية التاريخية، وهكذا تصبح السيرة في مادتها مجرد "مدرش[1] قرآني" كبير وضع وضعا لتمجيد النبي، ودعم هذا المذهب أو ذاك من المذاهب الدينية أو السياسية»**[2]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - della vida[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

القرآن الكريم المصدر الأول والأوثق للسيرة النبوية، لأنه الكتاب المتواتر الذي يفيد القطع واليقين، ولا يتطرق إليه الارتياب؛ فهو أوثق وأصح مصدر لوقائع السيرة على الإطلاق[4].

وقد احتوى القرآن على جوانب عديدة من سيرة الرسول ﷺ؛ لذلك كانت مدارسة القرآن أحد المحفزات والأبواب التي ولَج منها المسلمون إلى العناية بالسيرة النبوية.

وفيما يلي مناقشة وجيزة لنصوص المستشرقين التي بين أيدينا حول هذا الموضوع:

أولا- نظرة المستشرق "ولش-Welch" في مادة "القرآن": قدّم محرّر مادة "القرآن" تحليلا دقيقا نوعا ما لِقضيّة اعتبار القرآن مصدراً هاماً من مصادر السيرة ؛ حيث تضمّن تحليله عدّة نقاط، هي:

أ)– مهّد لكلامه على ما ورد في القرآن عن السيرة بالحديث عن نزول القرآن منجّما؛ فذكر بأنّ القرآن نزل مفرقا على مراحل؛ بحسب الظروف والوقائع والأحوال، وهو كلام دقيق[5] لا إشكال فيه.

ب)– وذكر "ولش - Welch" أنّه جاء في القرآن الكريم إشارات عن سيرة النبي ﷺ دون تحديد لتاريخها؛ وذلك أنّ هذه الإشارات لأحداث السيرة «لَم يقصد بِها الله تعالى التّاريخَ وسَرْد الوقائع مُرتَّبةً بِحسب أزمنة وقوعها، وإنّما الْمراد بِها: الاعتبار والعظة بِبَيان النِّعَم متّصلةً بأسبابها لِتُطلَب بِها،

---

[1]– **مدرش**: "Midrash" لفظة عبرانية الأصل؛ وتعني: بَحثٌ وشرح نصّ. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 495/4. وعليه: يمكن أن يُفهم كلامه حسب هذه العبارة: أنّ الأحاديث هي مجرّد شرح وتفسير للقرآن حسب رأي المستشرق.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 448/12.

[3]– سبقت ترجمته في: ص95.

[4]– ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، 23. والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، 13/1.

[5]– ينظر في ذلك: تفسير الرازي، 457/24. والإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق أحمد بن علي، 142/1-146.

وبيان النّقم بعللها لتُتّقى من جهتها، ومتى كان هذا هو الغرض مِن السِّياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذّكر على الوجه الذي يكون أبلغَ في التّذكير وأدعى إلى التّأثير»[1].

ثُم أورد أمثلة عن وقائع مكيّة أشار القرآن الكريم إليها.

لكنّ قول "ولش -Welch" بأنّ «**الآيات التي تتضمن هذه الإشارات** [المتعلّقة بالعهد المكّي] **لا يمكن تحديدها بأي قدر من الدقة**»، لا يُقبل على إطلاقه، بل في ذلك تفصيلٌ؛ فإنّ بعض الوقائع المكيّة التي وردت في القرآن يصعب أحيانا تحديدها[2] كما ذكر، لكنّ بعضها الآخر يتأتّى تحديده بدقّة من خلال الرجوع إلى كتب التفسير وروايات الحديث والسيرة التي تبيّنها.

وعلى كلٍّ فعدم تحديد القرآن تواريخ الوقائع لا يؤثّر في أصالة ما ورد فيه من أخبار السيرة، لأنّ المقصود الأكبر من إيراده لَها هو العبرة والعظة، كما أنّها نزلت على من يعرفون تواريخها ووقت وقوعها بالتفصيل.

ج)– كما ذكر "ولش -Welch" أنّ الآيات التي تشير إلى وقائع في العهد المدني كغزوة أحد يمكن تحديدها، لكن أيضا بالرجوع إلى كتب التفسير وروايات السيرة.

ثانيا- التشكيك في أصالة روايات السيرة من خلال القرآن الكريم: حاول كلّ من المستشرقَيْن "بول-Buhl" و"دلافيدا -della vida" التشكيكَ في أصالة روايات السيرة النبوية الحديثية من خلال القرآن، لكن وفق طريقتين متعارضتين[3]، وبيان ذلك في التفصيل التالي.

[1]– نظرة المستشرق "بول – Buhl" في مادة "محمد ﷺ": ذكره المستشرق "بول - Buhl" في مادة "محمد ﷺ" من أنّ عدم ورود بعض الأحداث في القرآن الكريم؛ يستلزم عدم إمكانية الوثوق بها تاريخيا، وهو منطقٌ اعتمده عدد من المستشرقين منطلقاً للتشكيك في كثير من روايات السيرة النبوية الثابتة، منهم على سبيل المثال: "شبرنجر" و"ولفنسون" وغيرهما[4].

---

[1]– تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 271/1.

[2]– من ذلك مثلا: سورة "الماعون" اختلف المفسرون إن كانت مكيّة أم مدنية، فقيل: مكيّة، وقيل: مدنيّة، وقيل: نزل نصفها بمكّة ونصفها بالمدينة؛ وذلك الخلاف بسبب الوعيد في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: 4-6]؛ فقالوا هذه أوصاف للمنافقين الذين يصلّون رياء وتظاهراً، وهم غافلون عنها غير مبالين بها، والمنافقون لم يكونوا بمكّة، وقيل: بل خطابها عام في تأخير الصلاة عن وقتها، وعدم إتمام ركوعها وسجودها. ينظر في ذلك: زاد المسير، ابن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، 495/4. وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، 211/20.

[3]– وإنّما تأتى لي كشف هذا التناقض بين موقفيهما (مع وحدة الهدف) جمْع نصّيهما في سياق واحد؛ ذلك أنّ النّصين متباعدين كثيراً في "دائرة المعارف" بفارق عدّة مجلّدات، بحيث لا يتأتّى التنبّه لمثل هذا التناقض، إلاّ بعد جمع كلام المستشرقِين في الجزئية الواحدة.

[4]– ينظر: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، عماد الدين خليل، 131/1.

غير أنّ اعتماد المستشرقين على القرآن الكريم وفق هذا المنهج هو في حقيقة الأمر معول هدم للسيرة؛ «ذلك أن اعتماد القرآن الكريم يمكن أن يعدّ سلاحا ذو حدّين، ويتمثل الحدّ السلبي بنفي الكثير من أحداث السيرة ما دامت لم ترد في القرآن الكريم، وكأنّ القرآن كتاب تاريخي خاص بتفاصيل حياة محمد ﷺ. وهذا مكنهم من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع هدمي معاكس؛ وهي التشكيك، أو نفي كل رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن، ولا سيما إذا كان في هذه الرواية تَمجـــيد للنبي ﷺ، أو إذا كان في نفيها تأكيد لإحدى وجهات النظر الاستشراقية»[1].

هذا المقصد هو ما نستشفه من كلام محرر مادة "محمد ﷺ" عندما يقول -في مطلع نصّه المذكور-: «**وثَمّة اعتبار آخر يَجعل من الصعب التحدث في ثقة عن المراحل الرئيسية في حياة محمد ﷺ قبل الهجرة**»؛ حيث حاول "بول - Buhl" التشكيك في أصالة جملة من وقائع السيرة بسبب عدم ذكر القرآن الكريم لَها؛ والردّ على أسلوبه التشكيكيّ هذا من وجوه:

أ)- كلام "بول-Buhl" هنا يوهم بأنّ هذا المستشرق ملتزم بتوثيق ما ورد في القرآن من أخبار السيرة، ولا يثق فيما لم يرد من أخبارها فيه، لكنّ حقيقة منهجه مخالفة لذلك تَماما؛ حيث نجده كثيرا ما يردّ وقائع وردت في القرآن أو أشار القرآن إليها، كما سيأتي معنا في عدّة مواضع، فهو لا يلتزم بِهذا المعيار، بل يكيل به للتشكيك في جملة كبيرة من حقائق السيرة، لِيُناقضه في مواضع أخرى.

فما الذي يجعل المستشرق "بول" يتكلّم من جهة عن عدم الثقة بما لم يرد عن السيرة في القرآن، ثم يشكّك وينكر بعض ما ورد القرآن عنها؟ إنّ النتيجة التي يمكن الخروج بها من هذا المنهج المتذبذب في التعامل مع مصادر السيرة الأصيلة، أنّ مقصده ليس تقوية مصدرية القرآن في السيرة أو الاكتفاء بها، بل مقصده أساسا هو التشكيك في بقية مصادر السيرة وخاصة منها الحديث.

ب)- تحليل المستشرق "ولش -Welch" السابق في مادة "القرآن" يردّ قول "بول -Buhl" بأن القرآن "**لا يكاد يذكر شيئا عن وقائع الفترة المكية**"، يردُّه في "دائرة المعارف" نفسها تحليلُ زميله المستشرق "ولش" في مادة "القرآن"، حيث ذكر جملة من الوقائع المكيّة الواردة في القرآن، وهي:

- **اضطهاد النبي ﷺ والمسلمين:** مثل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق: 9-12][2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 76][3].

---

[1]- المصدر السابق، في الجزء والصفحة نفسيهما.

[2]- ينظر في ذلك: تفسير البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، 282/5. والتفسير المنير، الزحيلي، 324/30.

[3]- ينظر في ذلك: تفسير القرطبي، 301/10. وسيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، محمد دروزة، 288/1.

– **اتّهامات خصومه المكيين:** من ذلك مثلا: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: 43][1].

– **في يتمه ﷺ:** في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [الضحى: 6].

وهذه أمثلة فحسب، وإلاّ فأخبار العهد المكي الواردة في القرآن كثيرة[2].

ج)– القرآن لم يستوعب جميع السيرة: «لم يتعرض القرآن لتفاصيل الوقائع النبوية، وإنّما تعرض لَها إجمالا، فهو حين يتحدث عن معركة لا يتحدث عن أسبابها، ولا عن عدد المسلمين والمشركين فيها، ولا عن عدد الأسرى والقتلى من المشركين، وإنّما يتحدث عن دروس المعركة وما فيها من عبر وعظات، وهذا شأن القرآن في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم الماضية»[3]؛ فالقرآن ليس فيه تفاصيل الأحداث التاريخية، وإنّما يذكر بعض الوقائع لبيان العبر والدروس المستفادة منها؛ فالحدث الذي «يُروى في القرآن الكريم يتحول إلى درس كبير يتجاوز ظروف الحدث مكانا وزمانا وأشخاصا»[4].

من أمثلة ذلك: ما ورد في القرآن الكريم عن "حادثة الإفك" في سورة النور؛ امتاز إلى جانب الوصف والتسجيل، بالتقييم والحكم والتوجيه[5].

لذا «ينبغي أن لا نتوقع تفاصيل عن الأحداث التاريخية في القرآن الكريم، لأنه ليس كتاباً في التاريخ بل هو دستور للحياة»[6].

يقول عماد الدين خليل: «فإنّ كتاب الله ما جاء ليكون كتابا تاريخيا يتابع التفاصيل والجزئيات لحظة بلحظة ويوما بيوم... فإن هدفه ليس تكوين لوحة متناسقة شاملة لمجريات الأحداث في عصر بكامله، وإنّما ملامسة بعض هذه الأحداث والتعقيب عليها لكي يركب منها موقفا يبني به الإنسان المسلم والجماعة المسلمة؛ أي أنّه يعتمد أسلوب التعليم والتربية بالحدث»[7].

وعليه فلا يستقيم اعتماد "بول-Buhl" على هذا المنهج في التعامل مع القرآن الكريم.

---

[1]– ينظر في ذلك: تفسير القرطبي، 14/309-310. وتفسير ابن كثير، تحقيق سامي سلامة، 6/524-525.

[2]– ذكر محمد دروزة الآيات المتعلّقة بالعهد المكّي وبيانها في مجلد كامل: هو المجلد الأول من "سيرة الرسول ﷺ– صور مقتبسة من القرآن".

[3]– السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، 24. وينظر في هذا المعنى: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 9/497.

[4]– بحث بعنوان: السيرة النبوية في القرآن الكريم – دراسة وتحليل– (ضمن: البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية)، محمد علي الحركات، 3/14.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، 3/13.

[6]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/48.

[7]– بحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، 1/176.

[2]– نظرة المستشرق "دلافيدا –della vida" في مادة "السيرة": سلك "دلافيدا –della vida" منهجا مناقضا تماما لمنهج المستشرق "بول-Buhl" للتشكيك في روايات السيرة من خلال القرآن؛ فإذا كان المستشرق "بول" يشكّك في أخبار السيرة **بسبب عدم ورودها في القرآن**، فإنّ "دلافيدا" على العكس من ذلك تماما يشكّك في أخبار السيرة **بسبب ورودها في القرآن**؛ لأنّ هذه الوقائع –في رأيه– ليست إلاّ تفسيرا للقرآن أو "مدرشا له" [وفق تعبيره]، لا حقيقةً تاريخيةً لأحداث وقعت بالفعل.

وفي ذلك تناقض آخر بين مستشرقَيْن في موسوعة واحدة (الدائرة)، ولغرض واحد، هو التشكيك في أصالة وصحّة روايات السيرة النبوية إجمالا.

بيد أنّ هذا الافتراض الذي قدّمه "دلافيدا - della vida" لا يصحّ لِما يلي:

أ)– يعتمد هذا الافتراض الخاطئ على منهجيّة خاطئة في دراسة الوقائع التاريخية عامة ووقائع السيرة خاصة، وهي منهجية "المقابلة والمطابقة" أو "النفي بالمطابقة"، بمعنى أنّ تشابه واقعتين في التاريخ يقتضي نفي أحدهما، ومقصوده هنا أنّ التطابق بين ما ورد القرآن وأخبار السيرة يقتضي –حسب افتراضه– التشكيك في أحدهما، ولا شكّ بأنّ هذا المنهج مردود، لكون ذلك التشابه كثيرا ما يكون نسبيّا لا يصل إلى درجة التطابق التام، فلكلّ حدث خصائصه، يقول أحمد شاكر: «والتاريخ تتشابه أحداثه، فلا ينفي المتقدم المتأخر، ولا ينفي المتأخر المتقدم»[1].

كما أنّ للقرآن الكريم خصائصه باعتباره مصدراً هامّا من مصادر السيرة، وليس المصدر الوحيد، بل هناك مصادر أخرى؛ فإذا وردت الحادثة في القرآن وفي الحديث وكتب السيرة، ففي ذلك –على عكس افتراض "دلافيدا –della vida"– دليل على قوّة وصحّة هذه الحادثة، لأنّ هذه المصادر صدّقت بعضها بعضاً، كما أنّها لو تناقضت لكان ذلك دليلا على ضعفها.

بِهذا المنطق نجد مستشرقاً آخر –عنده إنصاف– أنكر على المستشرق "لَمنس" –الذي استند إليه "دلافيدا –della vida" هنا– اعتماده لِهذا المنهج المعكوس في التعامل مع الروايات؛ حيث يقول المستشرق الفرنسي "درمنغم –Dermenghem": «ومن دواعي الأسف أنّ الأب "لَمنس"... شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعي أنّ **الحديث إذا وافق القرآن كان منقولا، فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلا من أن يؤيّد أحدهما الآخر؟!**»[2].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1؛ (تعقيبه على مادة: تميم الداري)، 486/5.

[2]- The life of Mohamet , Emile Dermenghem, X.

– وترجمة عبارته من: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين)، عماد الدين خليل، 130/1-131.

ب)– إذا كان افتراضه هذا يستند إلى «الأحداث التي ذكرتها كتب السيرة بشيء من التفصيل، بينما آثر القرآن فيها التعميم والإجمال؛ وذلك لحكمة إلهية تقتضي الإيجاز»[1]؛ فكيف يفسّر الأحداث التي أوجزتها كتب السيرة بينما فصّلها القرآن الكريم؟ فهل كتب السيرة هنا فسّرت ما في القرآن أم العكس؟

ومن الوقائع التي أوجزتها كتب السيرة النبوية وفصّلها القرآن فاستوعب الحدث مثلا: أنّ ما جاء في كتب السيرة بشأن تبنّي الرسول ﷺ لزيد بن حارثة، هو قليل بالقياس إلى ما ورد في القرآن[2].

ونجد في القرآن الكريم ذكراً لبعض أحداث السيرة مثل: بدر، وأحد، والخندق، وحنين، يصور فيها الظروف والأجواء العامة لهذه الغزوات والأحداث الأخرى الهامة، وخاصة الأبعاد النفسية والتربويّة؛ مما لا نستطيع الحصول عليه – بالدقة والصدق التي ترد في القرآن – من المصادر الأخرى[3].

[3]– مخالفة "مونتجمري وات–Watt" لِمسلك المستشرقَيْن "بول" و"دلافيدا": إذا كان المستشرقان "بول" و"دلافيدا" لا يستسيغان الجمع بين القرآن وبقيّة مصادر السيرة من كتب الحديث وكتب المغازي والسيرة، فإنّ مستشرقا آخر له وجهة نظر مخالفة لهما، وهو المستشرق "وات -Watt"؛ الذي يرى: أنّه من الأجدر الاعتماد على القرآن والحديث كمصدرين متكاملين من أجل الوصول إلى صورة شاملة ومتناسقة عن سيرة النبي ﷺ؛ فيقول: «لكنّ المنهج الأفضل هو اعتبار القرآن والروايات التقليدية الأولى يكمّل كل منهما الآخر في صياغة تاريخ هذه الفترة»[4].

---

[1]– السيرة النبوية في القرآن الكريم – دراسة وتحليل– (ضمن: بحوث المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية)، 15/3.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 16/3-17.

[3]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 48/1.

[4]– محمد ﷺ في مكة، المقدمة، 47. ونصّ كلامه في ترجمة أخرى: «وأفضل طريقة هي اعتبار القرآن والأحاديث الأولى كمصادر يتمّ بعض منها بعضها الآخر». ذكرها عماد الدين خليل في "المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين، 176/1-177".
ومع ذلك فإن دراسات "مونتجمري وات" في كتابه هذا وفي "الدائرة" لا تَخلو من التشكيك في حجية الأحاديث وأصالتها.

المطلب الثاني : الخلط بين روايات الأخباريين والمحدثين في السيرة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**علم التاريخ**" [فقرة: 5]: «**وذاك الارتباط بالأحاديث الذي ترك أثراً لا يُمحى في أسلوب التأليف التاريخي بالاعتماد على الإسناد يفسِّر التغيير البالغ الذي ظهر منذ ذلك الحين في الصّفات المميّزة لرواية حوادث التاريخ وتَمحيصها عند العرب.**

وإنّا لنشعر أوّل وهلة أنا نستند إلى أساس علمي وثيق لو سلّمنا في الوقت ذاته بوجود بعض العناصر المريبة في الأحاديث التي تناولت العهد المكي، والعهد المدني من حياة الرسول»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **جب** – H. Gibb[2].

– وجاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 10]: «**والظاهر أن تكوين السيرة حتى عند تصنيفها في صورتها المعتمدة قد مرّ بالخطوات الآتية: أدى توقير المسلمين المطرد لشخص النبي إلى نمو أسطورة حول شخصيته، تتّسم بطابع سير القديسين عند المسيحيّين، واجتمع حول هذه الأسطورة إلى جانب الروايات التاريخية التي يتفاوت حظها من التحريف، قصص نسجت على منوال القصص الدينية اليهودية أو الْمسيحية (وربّما الإيرانية أيضا، وإن كان التأثر بهذه القصص الإيرانية أقل كثيرا)، ثم رتّبت هذه المادة واتّخذت لَها القواعد والمناهج على يد مدارس الْمحدّثين في المدينة**[3]**، واتّخذت**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/4.

[2]– سبقت ترجمته في: ص111.

[3]– **تعليق "أمين الخولي" على مادة "السيرة"**[دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 455/12-457]: ذكر من الملاحظات على كاتب المادة: «1– ربط رواية السنة بعامة، وقواعدها في ذلك ومناهجها برواية السيرة بخاصة، وما فيها من مواضع ضعف الرواية، لِيَثِب من ذلك إلى مهاجمة طبيعة رواية الحديث، وسوق ما لدى المستشرق الإيطالي كايتاني من قوى الهجوم على الرواية الإسلامية... وفي هذه الخطة الواضحة من الكاتب إخلال كبير بالمنهج السليم للبحث يتجلى في غير جانب من جوانب المنهج:

– إخفاء الحقيقة عن عمد، أو أقل تقدير، الإخلال بواجب الاطلاع على أمور مشهورة سائرة في هذا المقام... وبنى كلّ هذا الصرح أو بث كل هذا اللغم ليسوي بين رواية السنة ورواية السيرة، ويهاجم الروايتين، على السواء، في طبيعتهما، وبنائهما... وإخفاء المشهور، وتوهين المنقول، يهدم أساس كل منهج للبحث، ويذكر بواجب الأمانة العلمية..

2– تناقض الكاتب في المادة التي قدمها هو، فبينا تراه يربط هذا الربط الوثيق بين المغازي والسنة ليهاجم ضعف رواية السيرة أصلا، فيهاجم رواية السنّة كلها تبعا.. بينا ينجم ذلك من عمله إذا بك تراه يُحدّث هو نفسه عن النقد الحديثي وقوته وضجره الشديد برواية السيرة، فتقرأ مثل قوله (ص451) أن استخدام الإسناد في كتابه – يعني ابن إسحاق – قد اضطرب اضطرابا صدم فقهاء علم الحديث المستمسكين بأصول السنة صدمة عنيفة، فأنكروا عليه بالإجماع صفة المحدث الثبت... وهذا الحكم عظيم الأهمية فهو يفرق تفرقة واضحة بين الحديث التاريخي والحديث العقيدي الخالص، وهكذا جرى الحق على لسانه نفسه... ولم تعد مع قوله هذا حاجة إلى أن نسأله: ففيم إذن هذا العناء في ربط السيرة، أو المغازي بالسنة، وتعزيز وحدة قواعدهما ومناهجهما، وبناء السيرة على الإسناد الذي هو قوام الطريقة المتبعة في الحديث، ما دام فقهاء علم الحديث المستمسكون بأصول السنة يحكمون هذا الحكم العظيم الأهمية المفرق بين الحديث التاريخي والحديث العقيدي الخالص تفرقة واضحة.. !؟ من فمك أدينك .. في هدوء وهوادة».

صورة مدرش[1] **محكم حافل بالتوفيقات والآيات القرآنية التي طاب للمفسرين أن يجدوا فيها إشارات إلى حوادث في حياة النبي محددة تمام التحديد، وعلى هذا النحو كانت صياغة تاريخ العهد المدني من السيرة»**[2]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - della vida[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

سلك المستشرق "دلافيدا - della vida" في الفقرة (10) من مادة "السيرة" منهجا آخر للتشكيك في أصالة روايات السيرة النبوية؛ حيث ذهب إلى مواطن الضعف في روايات السيرة (من روايات الأخباريين والضعفاء)، فعمّم حكمها وجعلها الأساس في أخبار السيرة، دون التفريق بينها وبين مواطن القوّة (في روايات المحدّثين والمؤرخين الثقات الموثّقة بأقوى طرق النقل التاريخي)، وهو ما نبّه عليه الأستاذ "أمين الخولي" في تعقيبه (المذكور في الهامش) على هذه الفقرة من مادة "السيرة"، لكنّ المنهج العلمي الصحيح يقتضي منه التفريق في الحكم بين الأمرين، وألاّ يتّخذ مواطن الضعف ذريعة لإصدار حكم عام يوهّن فيه الضعيف والقويّ على السواء، مع اختلافهما في الحقيقة والحكم.

فما هي مواطن الضعف في روايات السيرة، وكيف تسرّبت إليها؟ وهل أخبار القصّاص هي أساس روايات السيرة، وأنّ المحدّثين رتّبوا فقط مادّتهم ووضعوها في سياق السيرة المعروفة كما زعم المستشرق "دلافيدا - della vida"؟ أم أنّ روايات المحدّثين هي الأساس في تكوين مادّة السيرة وسياقها؟ وما هي مصادر روايات المحدّثين؟ وما هي مصادر غيرهم من الأخباريين والقصّاص والمؤرخين؟

الجواب على هذه الإشكالات من شأنه أن يقدّم الواقع الصحيح لروايات السيرة النبوية، ويبيّن مدى أصالة رواياتها، وأنّ ما ورد في السيرة من أخبار ضعيفة وغير موثّقة من حيث النقل التاريخي كانت محلّ النقد والتمحيص من أئمّة الحديث والرواية.

وفي العرض الموالي بيان للفرق بين مدرسة المحدّثين ومدرسة الأخباريين، اللتين تمثّلان المنبعين الرئيسيين لأخبار السيرة، مع التنبيه إلى القيمة العلمية لروايات المدرستين، وفي ذلك تَمييز لِما أشكله وأبهمه المستشرق "دلافيدا - della vida"، وإظهار لِما أخفاه.

أولا- ضرورة التفريق بين مدرسة المحدثين ومدرسة الأخباريين في رواية السيرة: يمكن إيجاز أهم الفروق بين المدرستين في الأوجه التالية:

---

[1]- سبق التعريف بهذا المصطلح قبل صفحات قليلة في: ص151.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 449/12.

[3]- سبقت ترجمته في: ص95.

[1]- الفرق من حيث التعريف بالمدرستين:

أ)- مدرسة المحدثين: وهي مدرسة رواة الحديث النبوي، اهتمت بجمع وتصحيح الرواية سنداً ومتناً، حيث نجد الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية من ثقات المحدثين وأعلامهم - كما سبق ذكر جملة منهم[1] -، بداية من طبقة الصحابة، ومنهم: ابن عباس ﷺ، وسعيد بن سعد بن عبادة ﷺ، ثم التابعين ومن أبرزهم: عروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، عاصم بن عمر وغيرهم.

يقول عبد العزيز الدوري: «بدأت دراسة مغازي الرسول في المدينة ضمن دراسة الحديث... وكان رواد دراسة المغازي محدثين»[2].

فنجد الإمام المحدث "**ابن شهاب الزهري**" -وهو من الرواد الأوائل في السيرة- اعتمد في أخذ جلّ مواده عن السيرة من الحديث، ولا نجد إلاّ أثراً بسيطا للقصص فيما كتب، كما كان بعيدا عن أسلوب الأيام في كتابه، وقام منهجه على إسناد رواياته، خاصة أنّه اشتهر بقوة إسناده[3].

كما أنّ أعمال **عروة بن الزبير وأبان بن عثمان** في هذا المجال «تدلّ على أنّ خطوط السيرة وضعت في القرن الأول الهجري، و لم يكن واضعوها من القصاص مثل: وهب بن منبه، **بل كانوا محدّثين**... أمّا القصاص الذين طوّروا القصص الشعبي، وأخذوا من الإسرائيليات في قصصهم فإنّ أثرهم يظهر بعد جيل الزهري»[4].

وكذلك كان المحدثون هم الرواد في كتابة السيرة في الطبقات والقرون التالية، ومنهم مثلا: موسى بن عقبة، ومعمر بن راشد، ومحمد بن إسحاق، ثم: ابن سعد والطبري، والبيهقي، وابن كثير وغيرهم.

أضف إلى ذلك أنّ كتب الحديث اشتملت على طائفة كبيرة من المرويات في أبواب السيرة والمغازي التي تتحدّث عن سيرة النبي ﷺ ومغازيه وشمائله، والمصنفات الحديثية في صدارة مصادر السيرة النبوية، بل إنّ السيرة قبل أن تستقلّ بالعناية رواية وجمعا وتدوينا، كانت جزءً من رواية الحديث، كما أن المحدثين هم أول من أفرد هذا الفن بالتأليف في أجزاء ومجموعات خاصة، وهكذا عبر نشأة وتطور التأليف في هذا الفن، طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل، كما أنّ جلّ كتب السيرة المشهورة مؤلفوها من علماء الحديث المتقدمين والمتأخرين.

وبهذا يُعلم الخطأ العلمي والتاريخيّ الذي وقع فيه المستشرق "دلافيدا - della vida" عندما جعل بداية السيرة مقترنة بأخبار نسجها القصاص وغيرهم، ثم جاء المحدّثون بعد ذلك ووضعوا لتلك الأخبار

---

[1]- في المبحث السابق: ص108 إلى 125.

[2]- نشأة علم التاريخ، الدوري، 23.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 27-28.

[4]- المصدر نفسه، 29.

ترتيبا وقوانين، لكنّ واقع نشأة علم السيرة في القرن الأول والثاني الهجريين وما بعدهما (على ما سبق تفصيله في المبحث السابق من هذا الفصل) يردّ هذا الزعم من أساسه، ويؤكّد أنّ المحدّثين من التابعين إنّما نقلوا أخبار السيرة عن الصحابة الذين عاصروا النبوّة، وكانوا شهود العيان لسيرة المصطفى ﷺ، فمن أين تدخل الأساطير والقصص الخيالية؟! فإنّ رواياتهم إنّما نُقلت عن من حضروا الوقائع وعاينوها.

ب)- تعريف مدرسة الأخباريين: "الأخباري": هو من يشتغل بالتواريخ ورواية الأخبار، مهما كانت صفتها وطبيعتها[1]، كما سُمّي من يشتغل بالسنّة النبوية "**بالمحدث**" لتمييزه عن الأخباري[2].

تَمتاز مرويات الأخباريين باستقصاء تفاصيل الأحداث والوقائع، مع العناية بتسلسل الأحداث وترتيبها زمنيا، ويظهر هذا جليّا في: سيرة ابن إسحاق، ثم في مغازي الواقدي بصورة أكثر دقّة، وأيضا في أسلوب البلاذري في كتابه "أنساب الأشراف"[3].

[2]- الفرق من حيث الغرض من التصنيف والجمع: فالمحدثون غرضهم جمع الأدلة التي يمكن أن تستنبط منها الأحكام الشرعية، ومن ضمنها الروايات التي تدخل في مجال السيرة النبوية، أمّا المصنّفون في السيرة فإن اهتمامهم بالسيرة أوسع وأشمل، ومن ذلك مثلا: تحديد مواقع الغزوات جغرافيا، وأسماء من حضرها، وتفاصيل أخرى دقيقة لا ينبني على أكثرها حكم شرعي[4]، ومن أجل هذا الغرض تساهل علماء السِّيَر والمغازي في إدخال مادة الأخباريين إلى هذا الفن[5]، وتعاملوا مع رواياتهم بِمرونة لا نجدها في الروايات التي تنبني عليها أحكام، ولهذا كان التمحيص لكتب السنن والجوامع وغيرها من مصنفات الحديث، فلم يتطرق إلى تلك الكتب مثل الروايات التي في السيرة على طريقة الأخباريين (أخبار بلا إســـناد، أو عن الإسرائيليات أو القصص الشعبي[6] والأساطير)، فإنّ كتب الحديث مصانة عن تلكم المواد، بل معتمدة على قواعد المحدثين الصارمة والدقيقة، مبنية على إسناد الروايات، ومعرفة مخارجها، وبذلك يتيسّر الحكم على الرواية قوة وضعفا، وبالتالي قبولها أو ردّها.

وهذا يدلّ على أنّ طبيعة مضامين هذا الفن، هي التي جعلت مادة الأخباريين بغثّها وسمينها تتسرّب إليه، بعد أن وضع المحدّثون الركائز الأولى لهذا العلم، وكتبوا فيه مؤلفات ما زالت العمدة فيه، وجاء الأخباريون بتفاصيل مقبولة أحيانا، وواهية أحيانا أخرى لعدم موافقتها معاييرَ التوثيق التاريخي.

---

[1]- ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، 631/1. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 115/1.

[2]- ينظر: نزهة النظر، ابن حجر، تحقيق نور الدين عتر، 41. وتدريب الراوي، السيوطي، تحقيق محمد الفاريابي، 11.

[3]- ينظر: نشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 35 و56.

[4]- ينظر: مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين (ضمن: بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام 1425)، مسفر بن غرم الله الدميني، 13.

[5]- فكان ذلك أحد الأسباب والكيفيّات التي تسرّبت منها المواد الضعيفة (من روايات القصّاص وغيرهم) إلى مصنفات السيرة النبوية.

[6]- سبق التعريف بالإسرائيليات في: ص117. وسيأتي التعريف القصص الشعبي في الصفحة الموالية.

وعلى هذا يمكن القول بأنّ الأخباريين كان لهم أثر في إدخال العناصر الواهية والضعيفة إلى كتب السيرة النبوية، أمّا المحدثون الثقات كالزهري وغيره فهم مصدر الروايات القوية والموثوقة في هذا المجال، على عكس ما ادّعاه المستشرق "دلافيدا -della vida"؛ بقلب الحقائق تارة وإخفائها تارة أخرى.

وتاريخ التأليف في السيرة خير شاهد على بطلان ما ادّعاه وعدم موافقته للحقيقة العلمية والتاريخية.

[3]- من حيث الشيوخ الذين أخذوا عنهم: فالناظر في شيوخ كل من الفريقين يجد بوناً شاسعاً، فأهل السير أكثروا من الرواية عن المجهولين والمجروحين، كما هو واضح من كتبهم[1]، ويكفي أن تراجع مثلا شيوخ الواقدي لتعلم صدق هذا الأمر[2]، وهذا ما قرّره يحيى بن معين حين قال: «نظرنا في حديث الواقدي فوجدنا حديثه عن المدنيين عن **شيوخ مجهولين** أحاديث مناكير»[3]، أمّا غالب المحدثين فإنّهم يعتنون بانتقاء الأسانيد والشيوخ[4]، مع المعرفة الوافية بمروياتهم وأحوالهم.

[4]- من حيث طبيعة الرواية: إذا كانت مصادر روايات المحدثين هم الرواة الثقات المعروفة أحوالهم وأحوال مروياتهم، فإنّ مصادر الأخباريين في الغالب: هي الروايات الإسرائيلية والنصرانية، أو القصص الشعبية[5]، كما تشتمل رواياتهم على كثير من: المادة الأسطورية، والأخبار المنافية للعقل والمنطق[6].

فمثلا "**وهب بن منبه**" من الرواة الأخباريين - وإن كان أخذ عن المحدثين وروى عنهم-، نجد بعض رواياته مستقاة من: الإسرائيليات والنصرانيات[7]، وبعضها مأخوذ عن: القصص الشعبي، والشعر الموضوع، والقصص الأسطورية[8].

---

[1]- من الأمثلة على ذلك: ما ذكره الذهبي عن الأخباريّن "أبو مخنف لوط بن يحيى" و"سيف بن عمر" أنّهما: يرويان عن المجهولين. ينظر: تاريخ الإسلام، 189/4 و641. وكذا ما جاء عن علي بن المديني في نقده "ابن إسحاق" لروايته أحاديث باطلة عن المجهولين. ينظر: الضعفاء والمتروكين، ابن الجوزي، 41/3. كما نجد في كتب ابن إسحاق رواياتٍ عن مجهولين؛ ينظر مثلا المواضع الآتية في: تهذيب السيرة "لابن هشام"، 213/1 و244. والسير والمغازي، ابن إسحاق، 73 و123 و181 وغيرها.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 61/1. وينظر على سبيل المثال المواضع الآتية من كتابه: مغازي الواقدي، 57/1، 75 و363/2، 398، 496 وغيرها.

[3]- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 21/8.

[4]- مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الإخباريين (ضمن: بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام 1425)، مسفر بن غرم الله الدميني، 14-15.

[5]- **القصص الشعبية:** هي تلك الروايات التي يتداولها الناس فيما بينهم في مجتمع من المجتمعات، قد تكون حكايات واقعية، وقد تكون مجرد أساطير، أو حقائق أضيف إليها بعض المبالغات والتفاصيل من نسج الخيال. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـــواد علي، 320/1 و452. ونشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 30-33، 123 و125.

[6]- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 113/1-114. ونشأة علم التاريخ عند العرب، 30، 32 و36.

[7]- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 544/4-545. ونشأة علم التاريخ عند العرب، 30.

[8]- نشأة علم التاريخ عند العرب، 30.

وعن طريق الأخباريين دخلت هذه المواد الدخيلة إلى السيرة النبوية، ونقلها بعض المصنّفين عنهم دون تمحيص ونقد، بيد أنّ المحدثين الذين كانوا هم الرواد الأوائل في كتابة السيرة، ثم استمرّ من جاء بعدهم على قواعدهم، ما فتئوا يضعفون هذه الروايات ولا يعتبرونها محل الثقة والاحتجاج، إلاّ ما كان منها مستندا إلى قرائن وشواهد تعضده وتقويه، وحتى حينئذ فإنّه يصلح للاستئناس، لا لإصدار الأحكام وإثبات الحقائق.

لذلك كان منهج المحّدثين النقاد في التعامل مع روايات هؤلاء الأخباريين يقوم على مسلكين:

الأوّل: ردّ رواياتهم أحيانا، لما ظهر فيها من شواهد وقرائن الردّ.

والثاني: الانتقاء من رواياتهم ما كانت تعضّده الشواهد والقرائن، ولا تردّه الثوابت.

وفي النقطة الموالية بيان مفصّل لهذين المسلكين، مع أمثلة توضّحهما.

[5]– عدم الثقة بما يرويه الأخباريون: حيث رُمي كثير منهم بالكذب؛ لِما اشتهروا به من كثرة رواياتهم للأخبار الغريبة التي يتفردون بها في السيرة والتاريخ[1]؛ فنجد مثلا: يحيى بن معين وعلي بن المديني يذكران: أنّ غرائب الواقدي بلغت العشرين ألفا أو أكثر[2]، وكثرة الغرائب من أسباب نسبة الراوي إلى الوضع والكذب[3]، قال ابن سيد الناس: «وكثرة الإغراب مظنة للتهمة»[4].

لذا عتَب ابن الصلاح على ابن عبد البر روايته في "الاستيعاب" عن الأخباريين، حيث قال: «وحكاياتِه عن الأخْباريِّين لا الْمحدِّثين، وغالبٌ على الأخباريّين الإكثار والتّخليط فيما يَرْوُونه»[5].

ويبين أبو شهبة حال الأخباريين وحال مروياتهم؛ فيقول: «ومعظم الإخباريين يَروُون الغثّ والسمين، ولا يميزون بين الحسن والضعيف، لأن هَمّهم جمع الأخبار، فهم كحطاب ليل[6] وعلماء الحديث إذا قالوا: فلان إخباري يعنون أنه ليس من أهل الحديث الذين يوثق بهم، ويعتمد عليهم»[7].

من أجل ذلك لم تكن مرويات الأخباريين محلّ ثقة عند المحدثين، يقول نور الدين عتر: «والمحدثون

---

[1]– ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/113-114.

[2]– ينظر: تهذيب الكمال، المزي، 26/187. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 9/462. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 9/366.

[3]– كذّب الواقدي ونسبه للوضع بعض نقاد المحدثين: كإسحاق بن راهويه، وأبي حاتم الرازي وأبي داود السجستاني وغيرهم. ينظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 8/21. وتهذيب التهذيب، 9/367.

[4]– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، 1/24.

[5]– علوم الحديث، تحقيق نور الدين عتر، 292.

[6]– وذلك لأن حاطب الليل لا يُميز بين الغث والسمين، والنافع والضار وقد يضع يده على عقرب فتلدغه. ينظر: دفاع عن السنة ورد ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، أبو شهبة، 322.

[7]– المصدر نفسه، 322.

لا يرتاحون إلى هؤلاء الأخباريين، لأن الغالب عليهم الإكثار والتخليط فيما يروونه»[1].

– وهذه نماذج من أقوال المحدثين النقاد في بعض الرواة من الأخباريين:

- **محمد بن السائب الكلبي** (ت: 146 هـ): الأخباري المفسّر من الكوفة؛ شيعي، متروك الحديث عند: يحيى بن سعيد، وابن مهدي، والنسائي وعامّة المحدثين[2]؛ قال أبو حاتم: «الناس مجمعون على ترك حديثه»[3]، وكذّبه: ابن حبان، وسليمان التيمي وغيرهما[4].
- **عوانة بن الحكم الكلبي** (ت: 147 هـ): الأخباري الكوفي، قال عنه الذهبي: «قَلَّ أنْ روى حديثًا مسنَدًا، ولهذا لم يُذكر بجرح ولا تعديل»[5]، وذكر ابن حجر: أنّه «كان يضع الأخبار»[6].
- **أبو مخنف لوط بن يحيى** (ت: 157 هـ): الأخباري الكوفي: قال فيه يحيى بن معين: «ليس بثقة»، وقال أبو حاتم: «متروك الحديث»[7].
- **سيف بن عمر التميمي** (ت: 170 هـ): الأخباري الكوفي؛ قال عنه أبو حاتم: «متروك الحديث»[8]، الحديث»[8]، وضعّفه: يحيى بن معين والنسائي والدارقطني وغيرهم[9]، كما اتُّهم بوضع الحديث[10].

والغالب على الأخباريين أنّهم لا يتقيّدون بقواعد المحدثين في الرواية، مع كثرة روايتهم الأخبار الغريبة التي لا يُتابعون عليها، إضافة إلى عدم إسناد مروياتهم، وروايتهم عن المجاهيل؛ هذه ميزات رواة مدرسة الأخباريين؛ لذا ضعّفهم المحدثون النقاد وتركوا حديثهم وكذّبوا بعضهم، حتى صارت نسبة الراوي إلى مدرسة الأخباريين علامة على ضعفه كما ذكر "ابن الصلاح" و"أبو شهبة"، ومع ذلك انتقوا من روايات بعضهم إذا عرفوا بالصدق والأمانة، خاصة بعض من جمعوا بين الوصفين، فكانوا أخباريين ومحدثين: كابن إسحاق، والواقدي، وخليفة بن خياط وغيرهم، ويهمّنا أمر هؤلاء خاصة لكثرة رواياتهم في "السيرة" مقارنة مع غيرهم، ولأهمية مؤلفاتهم في هذا المجال.

---

[1]– منهج النقد في علوم الحديث، 127.

[2]– ينظر: التاريخ الكبير، البخاري، 101/1. والكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 7 /275-277.

[3]– الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 271/7.

[4]– ينظر: المجروحين، ابن حبان، تحقيق محمود إبراهيم، 255/2. والضعفاء والمتروكين، ابن الجوزي، 62/3.

[5]– تاريخ الإسلام، 174/4.

[6]– لسان الميزان، 386/4.

[7]– ينظر: الجرح والتعديل، 182/7. والكامل في الضعفاء الرجال، 241/7. وميزان الاعتدال، الذهبي، 419/3-420.

[8]– الجرح والتعديل، 278/4.

[9]– ينظر كلامهم في: تهذيب الكمال، المزي، 326/12. وتهذيب التهذيب، 295/4-296.

[10]– ينظر: المجروحين، 345/1-346. وتهذيب التهذيب، 296/4.

• أما **محمد بن إسحاق** (ت: 151 هـ): فهو محدّث وأخباري، سبق إيراد كلام النقاد في حاله[1]؛ وأنّ من المحدّثين من ضعفه؛ لخروجه في بعض رواياته عن منهجية المحدثين متأثرا بطريقة الأخباريين، وأنّ منهم من وثقه[2]، وخلاصة ما استقرّ عليه أمره: أنه حسن الحديث، ويحتج به في المغازي والسير والأحكام ما لم يخالف الصحيح، أو يدلّس[3].

ولا يعني ذلك توثيق سائر مرويات كتابه في السيرة، فقد أورد فيها روايات منكرة ومنقطعة[4].

• و**محمد بن عمر الواقدي** (ت: 207 هـ): محدّث وأخباري، وهو أيضا سبق الكلام على قول النقاد فيه[5]، وخلاصته: أنه ضعيف عند المحدثين، فلا يحتج بروايته في الأحكام، ورواياته في المغازي والتراجم ضعيفة أيضا، لكن يُستأنس بها إذا لم تخالف الأخبار الصحيحة[6]؛ وقد انتقى بعض المحدثين من رواياته في السيرة والتاريخ أجودها[7].

• و**خليفة بن خياط** (ت: 240 هـ): محدّث وأخباري، وثّقه أكثر المحدّثين وغمزه بعضهم[8]، وذكره ابن حبان في "الثقات"[9]، وقال ابن عدي: «هو مستقيم الحديث صدوق»[10].

[6]– اعتماد المحدثين على الإسناد، وإهمال الأخباريين له غالبا[11]: حيث نجد ابن إسحاق مثلا يورد في سيرته روايات بدون إسناد[12]، وكذلك "وهب بن منبه": كانت رواياته المسندة قليلة[13].

وذكر الذهبي وابن حجر عن الأخباري "عوانة الكلبي": أنّه قلّ ما يروي حديثا مسنداً[14].

---

[1]– ينظر ما سبق: ص126 وما بعدها.

[2]– ينظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 192/7. وتاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 26/2-32.

[3]– ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي، 270/7. وميزان الاعتدال، الذهبي، 475/3. وفتح الباري، ابن حجر، 195/11. 195/11. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 56/1-58.

[4]– ينظر: ميزان الاعتدال، 469/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 58/1.

[5]– ينظر ما سبق: ص138 وما بعدها.

[6]– ينظر: الضعفاء الكبير، العقيلي، 107/4. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 454/9-455. والتلخيص الحبير، ابن حجر، 607/2.

[7]– ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 184/5. والسيرة النبوية الصحيحة، 61/1.

[8]– ينظر: سير أعلام النبلاء، 472/11. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 160/3. والتلخيص الحبير، 43/1.

[9]– 233/8.

[10]– الكامل في ضعفاء الرجال، 517/3.

[11]– ينظر: نشأة علم التاريخ عند العرب، الدوري، 30 و33 و40.

[12]– ينظر على سبيل المثال في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 245/1، 263، 422 و169/2، 190، 344.

[13]– سير أعلام النبلاء، 545/4.

[14]– تاريخ الإسلام، 174/4. ولسان الميزان، 386/4.

ثانيا- العنصر الأساس في السيرة هم "المحدثون" لا القصاص: رواد السيرة الأوائل كانوا محدثين في الغالب لا أخباريين، ومع ذلك تطرقت روايات الأخباريين إلى كتب السيرة عن طريق بعض علماء السير الذين جمعوا في تآليفهم بين منهج المحدثين وطريقة الأخباريين.

ورغم تطرّق شيء من روايات القصاص والأخباريين إلى كتب السيرة، فلا يمكن أن تكون سببا للتشكيك في أصالة السيرة، وفي قيمتها العلمية والتاريخيّة الموثّقة توثيقا بلغ الغاية في القوة والأصالة؛ وذلك بالنظر إلى عدّة اعتبارات، أهمّها:

أ)- أنّ واقع تاريخ رواية السيرة النبوية وتدوينها يثبت أنّ «دراسة السيرة كانت من قبل مؤرخين من أهل الحديث، و لم تأت عن طريق القصاص، وإن تَخلّل عنصر القصص إلى السيرة، فإن ذلك جاء فيما بعد، وكان موضع نقد المؤرخين»[1]، ونقاد المحدثين.

«وعندما نستعرض أصحاب كتب السيرة نجد معظمهم من المحدّثين وليسوا من الأدباء أو القصاصين، ولذلك أهميته؛ فهم معروفون بالتوثيق، ولهم مناهج نقدية واضحة، وأساليبهم جدية بعيدة عن المبالغة والحشو والخيال»[2].

ب)- أنّ هذه الروايات الضعيفة كانت محلّ النقد والتمييز من قبل المحدّثين النقاد.

ج)- أنّ المحدثين النقاد لَمّا وضعوا معايير تُقاس على أساسها الروايات، من: اتّصال السند لمعرفة مصدرها ومخرجها، وعدالة الرواة وضبطهم للرواية، ونحوها من القواعد[3]، ولَمّا كانت أخبار السيرة مكوّنة من عنصرين: روايات المحدّثين، وروايات الأخباريين؛ فإنّ هذه الأخبار من الطرفين تُقاس قيمتها العلميّة وفق هذه المعايير، وعندئذ تتميّز بالضرورة الروايات الواهية من الروايات الصحيحة.

فعلى سبيل **المثال**: ينبغي **التفريق بين ثلاثة عناصر مكوِّنة لسيرة ابن إسحاق**؛ ذلك أنّه «عند فحص سيرة ابن إسحاق نرى أنّ رواياته وأخباره متباينة في الأهمية:

- **فالعنصر التاريخي المتين:** يرجع بالدرجة الأولى إلى الزهري وبعض المحدثين.
- **وقسم آخر** من أخباره مأخوذ من القصص الشعبي، الذي يغلب عليه عنصر التسلية[4]، أو الفخر، مع كثير من الشعر الموضوع.

---

[1]- نشأة علم التاريخ، الدوري، 13.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 44/1.

[3]- مع **ملاحظة**: أنّ منهج كثير من المحدّثين النقاد في التعامل مع بعض روايات السيرة خاصة يتّسم بشيء من المرونة، حيث يقبلون مثلا: مراسيل ابن إسحاق بشروط منها عدم مخالفة الصحيح والثوابت الشرعية والعقلية ونحو ذلك، وأيضا: قبول رواية الواقدي في بعض تفصيلات السيرة التي لها أصول، مما لا يُخالف صحيحا أو معقولا، وهكذا، على ما تقدّم الكلام عليه في عدّة مواضع.

[4]- يوجد في سيرة ابن إسحاق شيء من ذلك خاصة قبل تهذيب ابن هشام، وتلكم الروايات من العناصر التي استهجنها ابن هشام وغيره فحذفها جملة منها في تهذيبه، كما أشار إلى ذلك في مقدمته.

– و**قسم ثالث** يرجع إلى الإسرائيليات وإلى قصص وهب بن منبه وأخباره في فترة ما قبل الإسلام خاصة؛ وعندئذ يتضح التباين في القيمة والأهمية بين هذه العناصر الثلاثة، التي تكوّن مادة السيرة لدى ابن إسحاق، وليس من الممكن في بحث جدّي الاكتفاء بذكر أخبار ابن إسحاق دون تمييز بين العناصر الثلاثة المذكورة»[1].

فمن المفترض أن تختلف الأنظار النقدية لروايات "سيرة ابن إسحاق" تبعا لِهذا الاختلاف بين مصادر رواياته ومكوّناتها؛ حيث نجد في سيرته ما هو مرويّ بالإسناد المتّصل عن الثقات كالزهري وغيره، وجلّ تلك الروايات لها أصل في الكتب الستة وغيرها من مصنّفات الحديث المشهورة، فهذه دون شكّ سيختلف الحكم عليها مقارنة بتلك الروايات التي يسندها ابن إسحاق عن شيوخ ضعفاء، أو يوردها دون سند أصلا، أو يكون فيها ما هو مخالف للأصحّ؛ فمنهج المحدّثين النقّاد يقتضي الحكم على كلّ رواية بحسب معايير القبول والردّ التي توفّرت فيها، لذا يقرّر ابن رجب وابن حجر وغيرهما: أنّ لكل حديث نقد خاص، وأنّ الأحكام تختلف بحسب المعطيات والقرائن في كلّ قضيّة[2].

هذا هو المعيار العلميّ الدقيق في الحكم على الروايات، الذي يقوم على التمييز بين القيمة العلمية بين الروايات على حسب أصالتها وقوّتها، بخلاف منهج التعميم الذي سلكه المستشرق "دلافيدا- dellavida" وجعله ذريعة لحكمٍ عام في أصالة السيرة، متجاهلا بذلك جهود المحدّثين في توثيق أخبار السيرة، نقلا وتدوينا وترتيبا وتهذيبا، إضافة إلى نقد المواد الضعيفة فيها سنداً ومتنا، وفق منهج عادل يتّسم بالدقّة وعدم التعميم المجافي للإنصاف، حيث أعملوا مبدأ الانتقاء في الأخبار الضعيفة التي لا تخالف الأصول العامة والثوابت، فكان نقدهم يتّسم بالمرونة والشدّة معا؛ صيانة للسنة والسيرة من المختلق والدخيل.

يقول المؤرّخ جواد علي: «ومهما قالوه [أي: المستشرقون] في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول، فإن سيرة الرسول ﷺ هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء»[3]، وهي أكثر السير واقعية، وأكثرها ملامسة للمثل العليا مجسدة في أقوال وأعمال ومواقف تمثل الأسوة الحسنة للبشرية في كلّ زمان ومكان، بعيدا عن القصص الخيالية والأساطير الخرافية المصطنعة.

---

[1]– نشأة علم التاريخ، الدوري، 11.

[2]– ينظر: شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق نور الدين عتر، 353/1. والنكت على ابن الصلاح، ابن حجر، تحقق ربيع بن هادي، 712/2.

[3]– تاريخ العرب في الإسلام، 11.

المطلب الثالث : الاعتماد على نظرية "جولد زيهر"[1] للتشكيك في أصالة روايات السيرة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 11]: «وأنّ "نولدكه" كان أول من بيّن بتحليله قصص إسلام السابقين إلى الإسلام، أن السيرة في مواضع كثيرة جدا تنأى نأيـاً بعيدا عن تمثيل الرواية الصحيحة، وإنما هي تصوِّر – متتبعة الأمور – أحوالا وقعت في تاريخ متأخر كثيرا عن الحوادث التي تروي نبأها، وتقرن ذلك بأسانيد تاريخية نثبت بها ما تقول، وقد طوعت تاريخ ظهور الإسلام لهذا الغرض.

ومهما يكن من شيء فإن مقال "جولد زيهر" الرائع عن طبيعة رواية الحديث... يعدّ بداية مرحلة حاسمة في دراسة السيرة دراسة نقدية، فقد تبين أن السيرة في صورتها الأدبية التي وصلت بها إلينا، إنما هي مجموعة من الأحاديث المروية لا تختلف في طريقة تكوينها اختلافا جوهريا عن الأحاديث المسلم بصحتها، ذلك أن الإسناد في الحالين لا يحمل ما يثبت حجيته في مراحل سنده الأولى، وكذلك نجد النص في الحالين يشمل تقريرا لقاعدة أو بتًّـا في مسألة خلافية أكثر من اشتماله على حقيقة تاريخية...

بل إننا نستطيع أن نقول أن طبيعة هذه التوفيقات الفقهية[2] إن لم تكن قد امتدت فيما يبدو إلى قصة العهد المدني من السيرة برمّتها فقد امتدت على الأقل إلى بعض مراحلها»[3].

المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - della vida[4].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

حاول المستشرق "دلافيدا -della vida" في هذه الفقرة من مادة "السيرة" أن يشكّك في روايات السيرة الحديثية استناداً إلى نظريّة "جولد زيهر-Goldziher" في "وضع الحديث"؛ التي وافقه فيها

---

[1]– **أجناس جولد زيهر** "Ignaz Goldziher" (1850-1921م): مستشرق مجريّ يهوديّ، تعلّم في "بودابست"، وتحصل على الدكتوراه من ألمانيا، رحل إلى بعض البلدان العربية، وعيّن أستاذا في جامعة بودابست (عاصمة المجر) وتوفي بها. له مؤلفات باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، في: الإسلام والفقه والتشريع، تُرجم بعضها إلى العربية، ومما نشره بالعربية: "ديوان الحطيئة"، وكتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام"، كما تَرجم إلى الألمانية كتاب "توجيه النظر إلى علم الأثر" لطاهر الجزائري.

ينظر: المستشرقون، العقيقي، 903/3. الأعـــلام، الزركلي، 84/1. موسوعة المستشرقين، بدوي، 197.

[2]– أي: أنّ الفقهاء والمحدّثين عملوا على إيجاد توفيقات بين الأحاديث المتناقضة التي اختُلقت لتدعيم آراء سياسية أو مذهبية في زعمه. ينظر: دراسات محمدية، جولد زيهر، ترجمة الصديق بشير نصر، (ملحق بكتاب: التعليقات على دراسات محمدية)، 123-125.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 447/12-449.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

المستشرق "نولدكه- Noldeke"[1] كما ذكر "دلافيدا -della vida" في مطلع هذه الفقرة من مادة "السيرة".

أولا- خلاصة نظريّة "جولد زيهر": تفيد أنّ القسم الأعظم من الحديث هو بمثابة نتيجة لتطوّر الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرن الأول والثاني من الهجرة، فالحديث لا يُعدّ وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأوّل – على حدّ زعمه –، وإنّما هو أثر مِن آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المرحلة الناضجة لتطوّر الإسلام، حيث كان الحديث انعكاسا لروح العصر، وتَمّ تشكيله من بين القوى المتناقضة في الإسلام، فقد راحت كلّ الأحزاب والاتّجاهات في الإسلام تبحث لنفسها عن إثبات لِشرعيّتها بالاستناد إلى مؤسّس الإسلام، فأجرت على لسانه الأقوال التي تعبّر عن شعاراتها؛ وهكذا تم اختراع كمّ هائل من الأحاديث في العصر الأموي عندما اشتدّت الخصومة بين الأمويين والعبّاسيين، واستطاعت أن تجنّد بعض العلماء الذين ساعدوها على وضع أحاديث تسند وجهات نظرها، ولم يقتصر وضع الأحاديث على اصطناع الروايات التي تخدم أغراضاً سياسيّة، بل تعدّاه إلى النواحي الدينية في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة؛ لهذا فإنه لا توجد مسألة خلافية سياسية أو اعتقادية إلا ولها اعتماد على جملة من الأحاديث ذات الإسناد القوي، فالوضع في الحديث ونشر بعضه أو اضطهاد بعضه بدأ في وقت مبكر، واستمرّ هذا الحال في القرن الثاني أيضا[2].

يقول "جولد زيهر-Goldziher": «يمكن أن نعدّ الجزء الأكبر من تلك الأحاديث على أنّه نتيجة لتطوّر الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين»[3].

---

[1]- ينظر: التعليقات النقدية على كتاب "دراسات محمدية"، الصديق بشير نصر، 55-56. وتبنّى هذه النظرية جماعة من المستشرقين، وبَنَوا عليها بعض آرائهم في دراساتهم عن الإسلام، ويراجع في ذلك: المصدر نفسه، 56-64.

كما اعتمد على نظريّة "جولد زيهر" للتشكيك في أصالة روايات الحديث محرّر **مادة "الحديث"** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 332/7-333]؛ غير أنّه لم يربطها بروايات السيرة كما فعل محرّر مادة "السيرة" هنا، في حين نجد بعض المستشرقين قصر "هذه النظريّة" على وقائع خاصة في السيرة كما سيأتي [ص439-440] في الكلام على حادثة الإسراء والمعراج.

وحاول هؤلاء المستشرقون التضخيم من قيمة نظرية "جولد زيهر"، مع وهنها واضطرابها على ما سيأتي تفصيله في الصفحات الموالية.

[2]- ينظر كلام **"جولد زيهر"** في كتابه: دراسات محمدية، (ملحق بكتاب: التعليقات على دراسات محمدية)، 18. وتفصيله لهذه النظريّة في: 58 إلى67، 76 إلى80، 143 وما بعدها. وأشار "جولد زيهر" إلى هذه النظرية أيضا في كتابه الآخر: "العقيدة والشريعة في الإسلام" في المواضع الآتية: 50، 53-55.

وينظر شرح فحوى نظريّته في: السنة ومكانتها من التشريع، مصطفى السباعي، 190-191. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، 107-108.

[3]- دراسات محمدية، 18.

ويقول: «فإنّه ليس ثمة مسألة من المسائل الخلافية التي كانت محل مناظرة شديدة سواء أكانت عقدية، أم سياسية، إلاّ وقد اختلق المدافعون عنها أحاديث موضوعة»[1].

فالفكرة العامة لهذه النظرية: أنّ جلّ الأحاديث هي نتاج: الخلافات السياسية بين الأمويين والعلويين والعباسيين، والخلافات العقدية والمذهبية بين السنة والشيعة والقدرية وغيرهم من أصحاب الفرق والمذاهب، وذلك لتأييد رأي على آخر أو فكرة على أخرى.

ثانيا- بطلان نظريّة "جولد زيهر" في الوضع: وذلك من خلال النقاط الآتية:

- جهود الصحابة في حفظ السنة ونقلها لِمن بعدهم.
- بداية الوضع في الحديث وأسباب ظهوره.
- جهود علماء الإسلام في محاربة هذه الآفة، وصيانة الحديث النبوي من الكذب والوضع.
- أهمّ الوسائل والقواعد التي اعتمدها علماء الحديث لتمييز الحديث الموضوع، وصيانة السنة منه.

وفي هذا العرض لِجهود علماء الحديث في صيانة الحدث من الوضع والموضوعات؛ ردٌّ مجمل على نظريّة "جولد زيهر- Goldziher" التي استند إليها "دلافيدا -della vida" للتشكيك في أصالة الحديث، الذي يُعتبر مصدرا أساسيًّا في سيرة المصطفى ﷺ، متعذّراً بالخلافات السياسية والمذهبية لِتبرير حكمه على الأحاديث بالوضع والاختلاق، وردّها جملة وتفصيلا.

ومن شأن هذا العرض أن يُبيّن عدم غفلة المحدثين عن هذه الآفة التي يتعلّل بها المستشرقون للطعن في الأحاديث وردّها، وذلك أن علم الحديث قد دَوَّن كلّ ذلك وميّزه بدقّة ونزاهة.

[1]- حرص الصحابة على حفظ السنّة عن النبي ﷺ وتبليغها لِمن بعدهم: أدرك الصحابة ﷺ مكانة السنة في دين الإسلام، وأنها الأساس الثاني في بنائه القويم بعد كتاب الله العزيز، ولم يَخف عليهم أنّ القرآن والسنّة رفعا من شأن العلم والعلماء، وحطّا من شأن الجهل والجهلاء، وعلِموا وصية الله تعالى باتباع سنة المصطفى ﷺ، وتحذيره الشديد من مخالفتها، وأمر بطاعة رسوله ﷺ كما أمر بطاعته سبحانه فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، وقرن عزّ وجلّ طاعته بطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]؛ ولقد مَلكَتْ هذه الآيات وغيرها قلوبهم، ومنحتهم إقبالا لا يعرف الكلل على حفظ سنة نبيهم، والعمل بمقتضاها، ثم تبليغها لمن بعدهم صافية نقية، باذلين في ذلك ما أمكنهم من الطاقات والإمكانات، كما ضاعف أثر هذا الدافع في

[1]- المصدر السابق، 59.

نفوسهم تَحريضه ﷺ إياهم على حفظ حديثه وتبليغه للناس في أحاديث كثيرة[1]، منها مثلا: قوله ﷺ: ((نَضَّرَ اللهُ اِمْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا))[2].

كان الصحابة يتلقون الحديث عن النبي ﷺ إمّا بطريقة المشافهة والمشاهدة لأفعاله وتقريراته، وإمّا بطريق السماع ممن سمع منه[3]؛ وقد ساعدت الصحابة على حفظ الحديث عدّة عوامل أهمّها[4]:

– قوة الدافع الديني؛ لأنهم يعلمون أن السنّة دين واجبة البلاغ للناس كافة.

– صفاء أذهانِهم وقوة قرائحهم: وذلك أن العرب أمّة أمية لا تقرأ ولا تكتب، والأمّي يعتمد على ذاكرته، فتنمو وتقوى لتُسعِفه حين الحاجة، كما أن بساطة عيشهم وبعدهم عن تعقيد الحضارة ومشاكلها، جعلهم ذوي أذهان نقيّة، لذلك عُرفوا بالحفظ النادر والذكاء العجيب، فكانوا يحفظون الأنساب مهما طالت وامتدت عبر الأجيال، ويحفظون القصائد والخطب الطويلة، وغير ذلك، مما سجله لهم التاريخ وحَفِظه لهم مفخرة لَم تتوفر لأمّة من الأمم.

– أسلوب النبي ﷺ في الحديث مع الصحابة، الذي تَميز بالهدوء والأناة، وقِصَر جُمَله وإعادته للجملة الواحدة عدة مرات، مما كان له الأثر الواضح في تمكين السامعين من حفظه وتدبره.

ولَما توفي الرسول ﷺ عني الصحابة ﷺ بتبليغ السّنَّة لأنها أمانة الرسول ﷺ عندهم إلى الأجيال المتلاحقة من بعدهم[5].

[2]– ظهور حركة الوضع في الحديث وأسبابُها: عاش الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم مُجانِبون للكذب، بعيدون عنه، ولَم يَثبت أنّ أحداً منهم تَجرأ بالكذب عليه ﷺ[6].

وأخذ أصحاب رسول الله ﷺ يُعَلِّمون من عايشهم مِمّن لم يَرَ الرسول ﷺ، ويربّونَهم على الصدق، ويحذرونهم من الكذب وعاقبته، وخاصة ما كان منه على الرسول ﷺ، وهكذا عاش الجيل الأول من التابعين مُحاذراً للكذب مجانباً له[7]، إلى أن وقعت الفتنة التي أدّت إلى مقتل عثمان بن عفان، ثُم مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، وظهرت الفرق المنحرفة، وراحَ المبتدعة يبحثون عن

---

[1]– ينظر: الحديث والمحدثون، أبو زهو، 48. والسنة قبل التدوين، عجاج الخطيب، 37–40.

[2]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، كتاب العلم، باب في الحث على تبليغ السماع، 348/7. من حديث ابن مسعود ﷺ، وصححه.

[3]– ينظر: الحديث والمحدثون، 53.

[4]– ينظر: منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 37–39.

[5]– السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 56.

[6]– ينظر في ذلك: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، 456/2–457.

[7]– ينظر: الوضع في الحديث، عمر فلاته، 178/1–179.

مستندات من النصوص يعتمدون عليها في كسب أعوانٍ لهم، فعمدوا إلى الوضع في الحديث، واختلقوا على الرسول ﷺ ما لم يَقُل، فكان مبدأ ظهور الوضع في الحديث عندئذ[1].

– **الأسباب التي أدّت إلى ظهور الوضع، والبيئات التي نشأ فيها:** بعد ذلك ظهرت أسباب واتجاهات أخرى كان لها أثر في اتساع دائرة الأحاديث الموضوعة، وهذه جملة منها بإيجاز:

أ)– الخلافات السياسية: وذلك من أجل أن يثبت كل فريق أحقيته بالخلافة وأفضليته بالاتباع، وكان الرافضة[2] من أكثر الذين اشتهروا بوضع الأحاديث في هذا المجال[3]، قال "أشهب": سُئِل "مالك" عن الرافضة، فقال: «لا تكلّمهم، ولا تروِ عنهم فإنّهم يكذبون»[4].

وقد أسرف الرافضة في وضع الأحاديث بما يتفق مع أهوائهم، وبلغت من الكثرة حدّا كبيرا[5].

ب)– الخلافات المذهبية (الفقهية والعقدية)[6]: كما تأثّرت حركة الوضع بظهور الفرق الكلامية المتعددة كالجهميّة[7] والمعتزلة[8] وغيرهم، بحيث لجأ قليلو الورع من أتباع هذه الفرق وغيرها، إلى تأييد عقائدهم أو مذاهبهم الفقهية، بنصوص صنعوها ونسبوها إلى النبي ﷺ[9].

قال السباعي: «فكيف يقاوم علماء الحديث الطوائف التي تَزَيَّدَتْ ووضعت الأحاديث في فضل أهل البيت، ثم يفعلون هم مثل ذلك الفعل فيضعون الأحاديث لهذا الغرض نفسه؟ ولقد كان الأَوْلى

---

[1]– ذهب إلى هذا الرأي: أكرم العمري في: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، 15–16. ونور الدين عتر في: منهج النقد في علوم الحديث، 55؛ وهو رأي مجمل؛ يُعيّن حقبة زمنيّة ظهرت فيها حركة الوضع، وهناك رأي آخر يذهب إلى تَحديد سَنة معينة لبداية وضع الحديث، فهو أكثر تخصيصاً من القول السابق، وإن كان يلتقي معه في حقبة زمنية متقاربة نوعاً ما، وقد ذهب إليه السباعي في: "السنة ومكانتها في التشريع، 75"؛ فحددها بسنة (40هـ). وأبو زهو في: "الحديث والمحدثون، 480"؛ وحددها بسنة (41هـ).

[2]– **الرافضة:** هي فرقة من فرق الشيعة، وسُمّوا بذلك لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وهم متفقون على أن النبي ﷺ نصّ على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه وأنّ أكثر الصحابة ضلّوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي، وهم فرق كثيرة. ينظر: مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق محي الدين عبد الحميد، 1/88–89. والفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، تحقيق محي الدين عبد الحميد، 21–23.

[3]– ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 84–85. والوضع في الحديث، عمر فلاته، 1/245.

[4]– ميزان الاعتدال، الذهبي، 1/146.

[5]– ينظر: الإرشاد في معرفة علماء الحديث، أبو يعلى الخليلي، 1/420.

[6]– ينظر: الموضوعات، ابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، 1/38. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 87.

[7]– **الجهمية:** هم أتباع الجهم بن صفوان، من عقائدهم: القول بأنّ الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر الجهل بالله فقط، وغيرها. ينظر: مقالات الإسلاميين، 1/338. والفرق بين الفرق، 211.

[8]– **المعتزلة:** نسبة إلى الاعتزال، وسبب تسميتهم بذلك أنّ واصل بن عطاء لَمّا أظهر القول بتكفير صاحب الكبيرة ومخالفة الحسن البصري، طرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل هو وأتباعه إلى سارية في المسجد، فقيل لهم: المعتزلة، وهم فرق كثيرة. ينظر: الفرق بين الفرق، 20–21.

[9]– ينظر: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، العمري، 25.

إذا كانوا على استعداد لوضع الأحاديث في ذلك ألاَّ يقاوموا حركة الشِّيعة، وأن يسيروا معهم في طريق واحد، فلماذا لم يفعلوا؟»[1].

ج)– الزندقة: ظهرت بعد أن فُتحت البلاد وتوسعت سيطرة الخلافة الإسلامية، وصارت للدين شوكة ومنعة، فلم يستطع أعداء الدين النيل منه علنًا أو مواجهة، وإنما اتخذوا سبلاً أخرى، وذلك بالدخول في الإسلام وتمزيق صفه من الداخل، فتستّر هؤلاء بالتصوف والزهد والتشيع وغير ذلك، ووضعوا آلاف الأحاديث للطعـــن في الدين، وقد لاحق بعض خلفاء بني العباس هؤلاء الزنادقة وقتلوهم وحبسوهم، حتى ضعفت شوكتهم وتَم القضاء عليهم نهائيا[2].

وكثيرا ما يقرّ الزنادقة بوضعهم للأحاديث بعد أن يُكتشف أمرهم، فهذا عبد الكريم بن أبي العرجاء، لَمّا أتى به محمد بن سليمان بن علي، وأمر بضرب عنقه، فحين أيقَن عبد الكريم بن أبي العرجاء بالقتل، قال: «لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرّم فيها الحلال وأحل فيها الحرام»[3].

قال حماد بن زيد: «وضَعَت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث»[4].

د)– القصص والوعظ: حيث ظهرت حركة للقصاص الذين يجتمع حولهم الناس ليسمعوا رواياتهم وقصصهم ووعظهم، وهم لا يتورعون أن يكذبوا ويضعوا الأحاديث في سبيل أن يجذبوا الناس إلى مجالسهم، ويكسبوا بذلك جاهًا ومكانة[5].

هـ)– الجهل بالدين مع الرغبة في الخير: قامت طائفة من العبّاد والزهاد بوضع الأحاديث في الترغيب والترهيب، ليحثوا الناس على الطاعة والخير، ظانّين أنهم يتقربون بذلك إلى الله، ويخدمون دين الإسلام، ويُحبِّبون الناس في الطاعات، وهذا كله من الجهل بالدين وغلبة الهوى والغفلة[6].

قال ابن الصلاح: «والواضعون للحديث أصناف، وأعظمهم ضررًا: قوم من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث احتسابا فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم ثقة منهم بهم، وركونا إليهم؛ **ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارِها، ومَحو عارها**، والحمد لله»[7].

و)– التقرب إلى الأمراء والملوك: وذلك بوضع الأحاديث التي تناسب أوضاعهم وأحوالهم،

---

[1]– السنة ومكانتها في التشريع، 202-203.

[2]– ينظر: الموضوعات، ابن الجوزي، 37/1. والوضع في الحديث، عمر فلاته، 220/1.

[3]– الموضوعات، 37/1.

[4]– المصدر نفسه، 38/1.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، 44/1-45. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 85-86.

[6]– ينظر: الموضوعات، 39/1-40. والسنة ومكانتها في التشريع، 87.

[7]– علوم الحديث، 99.

وأهواءهم ورغباتهم، تزلّفا إليهم، وطمعا في عطاياهم[1].

بعد هذا العرض **نَستنتج** أنّ علماء الحديث كانوا على معرفة تامّة بأثر الخلافات السياسية والمذهبيّة في وضع الحديث، وأنّهم هم أوّل مَن تَنَبَّه لهذه الآفة ونَبَّه إليها، كما أنّهم لا يُخفون هذه الحقيقة التاريخية، وهِي مع ذلك خير شاهد على معرفة المحدّثين بأحوال الوضّاعين، والمقاصد التي ينجرّون وراءها.

ولا يُستبعد أن يكون المستشرق "جولد زيهر-Goldziher" قد اعتمد على ما أصّله علماء الحديث من: أسباب الوضع المذكورة، وعلامات الوضع في المتن الآتي ذكرها، ثُم توسع انطلاقا من هاتين النقطتين في بناء نظرية تخدم أهداف المدرسة الاستشراقيّة[2].

بيد أنّ الحقيقة التي يتناساها المستشرقون مِن أمثال "جولد زيهر" و"دلافيدا"؛ هي أنّ: أئمة الحديث لم يكونوا غافلين عن حركة الوضع، وما قد يكون لَها من أثر سلبيّ على المرويّات، بل إنّ واقع الأمر على العكس من ذلك تَماما؛ «فإن حقيقة الوضّاعين والكذّابين كانت مشهورة، وأباطيلهم كانت مكشوفة، ومَن عرف مبلَغ التثبت الذي أُصِّلت عليه قوانين النقد في الحديث، والتي لا تُمرِّر يسير الوهم من الثقة الحافظ؛ علما أنّ أمثال هؤلاء المغرضين لم يكونوا ليقدروا على إفساد سنة النبي ﷺ على الأمة دون أن يُقَيِّض الله لهم من أنصار دينه من يُظهر حقيقة أمرهم»[3].

ولذلك عندما: أخذ هارون الرشيد زنديقًا ليقتله، فقال: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟ أجابه الرشيد قائلا: «فأين أنت يا عدو الله عن أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك ينخلانها؛ فيخرجانها حرفا حرفا»[4]، وقيل لابن المبارك: هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: «يعيش لها الجهابذة»[5].

وكان ذلك فعلا فقَيّض الله تعالى لِهذه الموضوعات مِن جهابذة الحديث وصيارفته مَن نبَّه إلى زيف هذه الأحاديث وأبان عن علّتها[6]، وبذل الجهود الكبيرة في صيانة الحديث النبوي منها.

هذا ما سأركّز على بيانه في العنصر الموالي.

---

[1]- ينظر: الموضوعات، ابن الجوزي، 42/1. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 88. وبحوث في تاريخ السنة المشرفة، العمري، 39.

[2]- **ومن الشواهد** على أنّ المقصد الأسمى لهذه النظريّة هو التشكيك في الأحاديث التي تُعتبر ركيزة أساسية في الشريعة والسيرة؛ ما جاء في **رسالة** المستشرق "**نولدكه**" إلى "جولد زيهر": التي يُثني فيها على كتاب "جولد زيهر" ويقول: أنّه جعله أكثر شكّ في الحديث من ذي قبل. ينظر: التعليقات النقدية على كتاب "دراسات محمدية"، الصديق بشير نصر، 55.

[3]- تحرير علوم الحديث، الجديع، 1043/2.

[4]- تذكرة الحفاظ، الذهبي، 201/1.

[5]- الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 3/1.

[6]- دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، محمد أبو شهبة، 109.

[3]- بعض الشواهد على جهود علماء الحديث في حفظ السنة من الموضوعات: مع بيان الوسائل والقواعد التي اعتمدوها في ذلك:

- **الشاهد (1): التثبّت في الرواية:** بدأ التثبت في الرواية **منذ عصر صغار الصحابة** الذين تأخّرت وفاتُهم عن زمن الفتنة[1]؛ كما يشير إلى ذلك ما رواه مجاهد: أنّ بشيراً العدوي جاء إلى ابن عباس ﷺ، فجعل يحدّث ويَقول: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجَعل ابن عبّاس لا يَأذن لِحديثه ولا يَنظُر إليهِ؛ فقال: يَا ابن عبّاس مالي لا أراك تسمع لِحديثي، أحدّثُك عن رسولِ اللهِ ﷺ ولا تَسمع؟ فقال ابنُ عبّاس: «إنّا كُنّا مرّةً إذا سَمعنا رجلا يقول: قال رسول الله ﷺ، ابتَدرَتْه أبصارنا وأصغَينا إليه بآذاننا، فلمّا ركِب النّاس الصَّعب والذَّلول؛ لم نَأخذ من الناس إلا ما نَعرف»[2].

حيث ابتدأ الصحابة حَمْلَة المحافظة على الحديث، واجتهدوا في ذلك متّبعين أقصى ما يُمكن من وسائل البحث والتمحيص؛ وعُنوا بالبحث عن مصدر الحديث، وفحص أحوال الرواة، فلا يقبلون منها إلا ما عرفوا طريقها ورواتها، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم.

ثُمّ حافظ على هذا المنهج من جاء بعدهم من المحدّثين؛ فقَيّض الله عز وجلّ بعد الصحابة علماء أجلاّء أمناء لحفظ السنّة النبوية **من التابعين وأتباعهم** ومن جاء بعدهم؛ فضربوا في ذلك أروع الأمثلة، وضحّوا بكلّ غال ونفيس في خدمتها، ولم يَتركوا سبيلا يحفظ للحديث صفاءه إلاّ سَلكوه؛ صيانة لإرث الرسول ﷺ مِن أن تعبث به أيادي: الزنادقة والحاقدين، أو فلَتات الغافلين، أو تُرّهات الكذّابين؛ فتثبّتوا وتَحرّوا، وحفظوا ودقّقوا، ونقّحوا وهذّبوا، وجرّحوا وعدّلوا، وصحّحوا وضعّفوا، ودوّنوا وألّفوا، وضبطوا وحرّروا، ووضعوا القواعد، وبلغوا في الاحتياط غايته[3]؛ فحفظوا لنا السّنّة بيضاء نقيّة، وصانوها عن الدسّ والوضع؛ بحيث لا يستطيع من يَدرس موقفَ العلماء -منذ الصحابة إلى أن تَمّ تدوين السنة- من الوضع والوضّاعين، وجهودهم في سبيل حفظ السنة، وتَمييز صحيحها من فاسدها، إلا أن يَحكم بأنّ الجهد الذي بذلوه في ذلك لا مزيد عليه، وأن الطريق التي سلكوها هي أقوم الطرق العلمية للنقد والتمحيص، حتى لَنستطيع أن نَجزم أن علماء الحديث هم أوَّلُ مَن وضع قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويّات بين أمم الأرض كلّها[4].

---

[1]- تقدّم الكلام على زمن الفتنة الذي بدأت بعده حركة الوضع، والتي صاحبها الشروع في التثبّت في الرواية، وكان هذا الزمن على وجه التقريب بعد مقتل عثمان والحسين رضي الله عنهما، وعلى وجه التحديد بعد سنة أربعين للهجرة (40 هـ). ينظر في ذلك: السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 75. والحديث والمحدثون، أبو زهو، 480. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 55.

[2]- أخرجه: مسلم، الصحيح (مع النووي)، المقدمة، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحمّلها، 1/119-120.

[3]- ينظر: منهج النقد في علوم الحديث، 55. وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق، 2/26.

[4]- ينظر: السنّة ومكانتها في التشريع، 90.

– **الشاهد (2): تغليظ أمر الكذب على الرسول ﷺ**: معلوم أن الكذب في الإسلام من الكبائر، وأما الكذب على الرسول ﷺ فهو من أكبر الكبائر[1]؛ فقد أجمع من يُعتدّ به مِن الأئمة على أنّ تَعمُّد الكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر، لأنه ذنب توعد فاعله بالنار، فقد تواتر النقل عنه أنّه ﷺ قال: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))[2]؛ فلا يجوز بحال من الأحوال الكذب عليه ﷺ، إذ يترتب على الكذب عليه مفسدة عامة تلحق ضررًا بالدين، لأن كلّ ما يتعلق به يُتخذ شرعا[3].

ذكر النووي أنّ مما يُستفاد من الحديث: «تعظيم تَحريم الكذب عليه ﷺ، وأنه **فاحشة عظيمة، وموبِقَة كبيرة**»[4]؛ ثُمّ بيّن أنّه «لا فرق في تحريم الكذب عليه ﷺ بين ما كان في الأحكام، وما لا حكم فيه كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك، فكلّه **حرام من أكبر الكبائر، وأقبح القبائح بإجماع المسلمين** الذين يُعتد بهم في الإجماع»[5].

وقال ابن حجر: «وقد **اتفق العلماء على تغليظ الكذب** على رسول الله ﷺ، وأنه **من الكبائر**»[6].

أمّا **من كذب متعمّداً** على رسول الله ﷺ في حديث واحد فُسِّق ورُدّت روايته كلّها، وبطل الاحتجاج بجميعها، أمّا لو تاب وحسُنت توبته؛ فذهب جماعة من العلماء أنّه لا تؤثّر توبته، ولا تُقبل روايته أبدا، تغليظا وزجرا بليغا للكذب عليه ﷺ، وقال آخرون بقبول روايته لو صحّت توبته[7].

وأمّا **العمل بالحديث الموضوع وروايته**: فقد اتفق العلماء على أنّ الحديث الضعيف جدا؛ الذي كان لا يَنجبِر ضعفه ولا يتقوى، وذلك فيما إذا كان الضعف ناشئا من جهة الطعن في عدالة الراوي، كرواية الكذاب، أو المتهم بالكذب، أو المغفّل فاحش الغلط، فإنّ حديثَ مَن هذا شأنه: لا يجوز العمل به لشدّة ضعفه[8].

– **الشاهد (3): الحرص على إسناد الحديث، من خلال نقد الرواة وتَتبّع أحوالهم**: ابتدأت العناية بمعرفة أحوال الرواة في عصر صغار الصحابة على ما سبق بيانه، حيث عُنوا بالبحث في إسناد الحديث

---

[1]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 106/1. والسنّة ومكانتها في التشريع، السباعي، 92.

[2]– أخرجه: البخاري، الصحيح (الفتح)، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، من حديث: عليّ، والزبير بن العوام، وأنس، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة ﷺ، 264/1-267. ومسلم، الصحيح (النووي)، المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، من حديث: عليّ، وأنس، وأبي هريرة، والمغيرة ﷺ، 101/1-107. وذكر النووي في "شرح مسلم، 104/1-105" أن هذا الحديث رواه عن رسول الله ﷺ: أكثر من ستين صحابيّا ﷺ.

[3]– ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، 107/1. والوضع في الحديث، عمر فلاته، 317/1.

[4]– شرح النووي على صحيح مسلم، 106/1.

[5]– المصدر نفسه، 107/1.

[6]– فتح الباري، 610/6.

[7]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 106/1-107. وعلوم الحديث، ابن الصلاح، 116. وفتح المغيث، السخاوي، 365/2-369.

[8]– ينظر: الوضع في الحديث، عمر فلاته، 68/1. وأيضا: فتح المغيث، 274/2-275.

وفحص أحوال الرواة، فلا يقبلون من الروايات إلا ما عرفوا طريقها ورواتها، واطمأنوا إلى ثقتهم وعدالتهم، يقول محمد بن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لَنا رجالَكم؛ فَيُنْظَر إلى أَهل السُّنَّة فيُؤخذ حديثُهم، ويُنظَرُ إلى أهل البدع فلا يُؤخذ حديثهم»[1].

قال عمر فلاته: «قد نَصّ ابن سيرين على أنّه قد جَرت العادة على قبول الحديث من أهله قبل وقوع الفتنة، وأنه بِوُقوعها بدأت الرّيبة تَسري إلى قلوب أئمة الحديث، فلَم يَقبلوا الحديث إلاّ مِمّن توفرت فيه شرط الرواية»[2].

نتيجة لذلك عني علماء الحديث بنقد الرواة وبيان أحوالهم من صدق وكذب، وهذا باب عظيم وصل به العلماء إلى تمييز الصحيح من المكذوب، والقوي من الضعيف، فتتبَّعوا أحوال الرواة، ودَرسوا حياتهم، وتاريخهم، وسيرتهم، وما خَفِي من أمورهم وما ظهر[3]، قال الترمذي: «وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين قد تكلموا في الرجال منهم: الحسن البَصريُّ وطاووس... وشُعبة بن الْحجّاج وسفيان الثّوري، ومالك بن أنس»، وساق جماعة غيرهم، ثم قال: «فإنّما حَملهم على ذلك عندنا النصيحة للمسلمين... إنما أرادوا عندنا أن يُبَيِّنوا ضعف هؤلاء لِكي يُعرفوا... فأراد هؤلاء الأئمة أن يبينوا أَحوالَهم شَفَقة على الدِّين وتَثَـــبُّتاً»[4].

وقال ابن أبي حاتم: «**وجب** أن نُميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم، وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم، وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ، والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة»[5].

بهذا المنهج بَيّنوا أحوال الرواة ليصلوا إلى الحكم على الحديث، وبالتالي تَكوّن علم ميزان الرجال: "الجرح والتعديل"؛ الذي وَضع لَبناته وأرسى قواعده الصّحابة والتابعون وأتباعهم.

فتتبّع المحدثون النّقادُ الكذّابين والوضّاعين، وأبانوا عوارهم، وكشفوا عيوبهم، وسَلكوا معهم مسالك شَتّى، ووقفوا منهم مواقف عدّة؛ كان لها الفضل في محاصرة الوضع ومَنع انتشاره[6].

– **الشاهد (4): التدوين الرّسْمي للسنة وعلومها وقواعدها:** بيان ذلك من خلال النقاط التالية:

أ)– كتابة الحديث وتدوينه في عصر الصحابة: لَم تُدوّن السنة النبوية في حياة النبي ﷺ كما دُوِّن القرآن الكريم، ولا في عصر الصحابة؛ وذلك خشية أن يُضاهَى بكتاب الله تعالى غَيْرُه، أو أن يُشتَغل

---

[1]– أخرجه: مسلم، الصحيح (النووي)، المقدمة، باب بيان أنّ الإسناد من الدين، 126/1.

[2]– الوضع في الحديث، 181/1.

[3]– ينظر: السنّة ومكانتها في التشريع، السباعي، 92.

[4]– علل الترمذي الصغير (آخر الجامع/ مع تحفة الأحوذي)، 327/10-331.

[5]– الجرح والتعديل، 5/1.

[6]– ينظر: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق، 31/2.

عن القرآن بسواه، أو أن يَعتري هذه الكتابة الخطأ والزيادات، كأن تَختلط بعض أقوال النبي ﷺ بالقرآن سهواً من غير عَمدٍ، وغير ذلك من الأمور[1].

غير أنَّ هذا لا يَمنع أن يكون قد كُتب في عصر الرسول ﷺ شيء من السنة، ولكن لا على سبيل التدوين الرسمي كما كان يُدوَّن القرآن، فهناك روايات صحيحة تدل على أنه قد وقع كتابة شيء من السنة في العصر النبوي[2]، ومن ذلك مثلا: ما ثبتَ عن بعض أنّه الصحابة كانت لهم صحف يدوِّنون فيها بعض ما سمعوه من الرسول ﷺ، كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي كان يسميها: بالصادقة، وقد أقرّه النبي ﷺ على الكتابة، فقال: ((أُكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلاَّ الحَقُّ))[3].

وكصحيفة الصحابي سعد بن عبادة ﷺ: فعن ابن سعد بن عبادة، قال: «وجدنا في كتاب سعدٍ أنَّ النّبيّ ﷺ قَضى باليمين مع الشّاهِد»[4].

لكن أهم ما مَيّز الكتابة في هذه المرحلة أنّها كانت قليلة، ولا تَتَّخذ طابع التدوين العام، بحيث تكون مرجعاً يُتداول بين الصحابة، وإنما كانت تلك الصحف بين أيديهم بمثابة المذكرات.

ب)- بداية التدوين الرسمي للحديث: كانت الأحاديث محفوظة في الصدور نقلها الصحابة إلى من بعدهم من التابعين مشافهة وتلقينا، وإن كان عَصر النبي ﷺ والصحابة لم يَخل من كتابة بعض الحديث، واستمر الأمر كذلك إلى أن ظهرت حركة الوضع، وقام العلماء بتلك الجهود الجليلة في حفظها.

ولما انتشر علم القرآن وكثر حفاظه وقرّاؤه، وأُمن أن يَلتبس به غيره لدى الناس؛ أقبلت الأمة على تدوين الحديث تدوينا اتخذ صبغة العموم، وتداولت صحفه المكتوبة[5].

وتؤكد الروايات أنّ أوّل مَن فكّر بالجمع والتدوين الرّسمي للسنة من التابعين هو: الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز[6]، فقد أَحَسّ هذا الخليفة الإمام بالحاجة الملحة لحفظ السنة: فكتب إلى الآفاق (الأمصار) أن يكتبوا ما عندهم من الحديث، ويدوّنوه حتى لا يَضيع بعد ذلك[7].

---

[1]- ينظر في ذلك: تقييد العلم، الخطيب البغدادي، 57. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 59. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 43-44.

[2] - السنة ومكانتها في التشريع، 59.

[3]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب العلم، باب في كتاب العلم، 57/10. **وأحمد**، المسند، 57/11-58.

[4]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، كتاب الأحكام، باب ما جاء في اليمين والشاهد، 476/4. **وأحمد**، المسند، 125/37.

[5]- منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 44-45.

[6]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 257/1. والسنّة ومكانتها في التشريع، 104. ومنهج النقد في علوم الحديث، 58.

[7]- فتح الباري، 257/1. وينظر في ذلك: صحيح البخاري (مع الفتح)، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، 256/1. قال ابن حجر في تعليقه على رواية البخاري: «يستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي».

و لم يَلبَث التدوين المبوب أن انتشر، فجمعت الأحاديث في الجوامع والمصنفات، "كجامع معمر بن راشد" (ت: 154هـ)، وجامع سفيان الثوري (ت: 161هـ)، و"موطأ" مالك (ت: 179هـ)[1].

وهذا التدوين الذي كان في عصر عمر بن عبد العزيز لا يعني أنّه لم تُدوَّن السنّة من قبل، غاية الأمر أن هذا الخليفة وجَدَ دواعيه في ذلك الوقت، فأصدر أمره بكتابة الحديث لينتقل إلى التدوين الرسمي العام، الذي يَعتمد مع الحفظ على الكتابة، ويَجعل الكتابة مرجعا عامًّا لا يَختص بصاحبه[2].

والحاصل: أنّ **تدوين الحديث مرّ بمراحل: أهمّها**[3]:

– **المرحلة الأولى**: مرحلة جمع الحديث في صحف صغيرة خاصّة بِمن يكتب، دون أن تُتداول بين الناس، وهذه بدأت منذ عهده ﷺ وبإذنه.

– **المرحلة الثانية**: الكتابة التي تُقصد مرجعا يُعتمد عليه ويتداولها الناس، وهذه بدأت في الرُّبع الأخير من القرن الأول، والرّبع الأول من القرن الثاني للهجرة، وكانت في كل من هاتين المرحلتين مُجرّد جمع للأحاديث في الصحف غالبا لا يُراعى فيها تبويب أو ترتيب معين.

– **المرحلة الثالثة**: ثم جاء دور التصنيف الذي اتخذت فيه الكتابة طابع التبويب والترتيب ابتداء من منتصف القرن الثاني، وبلغ أوجّه وذروته في القرن الثالث المعروف بعصر التدوين.

ج)– تدوين علم الجرح والتعديل[4] **لتمييز الثقات والضعفاء**: كما أثمرت جهود علماء الحديث من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: علمَ الجرح والتعديل أو علم ميزان الرجال، وهو علم جليل لا يُعرف له مثال سابق في تاريخ الأمم الأخرى، وقد أدّى إلى نشأة هذا العلم حِرصُ العلماء على الوقوف على أحوال رواة السنة، حتى يعرفوا مخرج الحديث، ويُميزوا الصحيح من غيره، فكانوا يَختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة، ويسألون عن السابقين ممن لم يعاصروهم، ويعلنون رأيهم فيهم دون تحرج ولا تأثم، إذا كان ذلك ذبًّا عن دين الله وسنة رسوله ﷺ[5].

ومن أوائل الذين ألّفوا في علم الجرح والتعديل: يحي بن معين (ت: 233هـ)، وأحمد بن حنبل (ت: 241هـ)، وعلي بن المديني (ت: 234هـ)، ثُمّ تلاهم: البخاري، والرّازيَّيْن، وتَتابع العلماء بعد ذلك

---

[1]– ينظر: منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 59. والسنّة ومكانتها في التشريع، السباعي، 104-105.

[2]– منهج النقد في علوم الحديث، 49.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 45. وتاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، 1/119-120.

[4]– **علم الجرح والتعديل**: هو علم يتعلق ببيان مراتب الرواة من حيث تضعيفهم أو توثيقهم بتعابير فنية، متعارف عليها عند علماء الحديث، وهي دقيقة الصياغة، ومحدّدة الدلالة، مِمّا له أهمية في نقد إسناد الحديث. ينظر: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، العمري، 91.

[5]– السنّة ومكانتها في التشريع، 110.

حتى أواخر القرن التاسع الهجري، طبقة بعد طبقة، تُؤلِّف وتبحث في الرجال، وتَتحرّى أمر الرواة، حتى أنه لا يعسر أن نجد في مؤلفاتهم تاريخ أيِّ رجل يَمُرّ بِنا اسمه في كتب الحديث[1].

وقد مَيّز علماء الجرح والتعديل بين الثقات والضعفاء والمتروكين، فأُلّفت كتب مفردة في معرفة الرواة الثقات، ككتاب "الثقات" لابن حبان وغيره، ومِنها كتب أُفردت لمعرفة الكذّابين والضعفاء والمجروحين، ككتاب: "الضعفاء الكبير" و"الصغير" البخاري، و"الضعفاء الكبير" للعقيلي.

«ولولا ما بذله الأئمة النقاد في هذا الشأن من الجهود في البحث عن عدالة الرواة واختبار حفظهم وتيقظهم، حتّى رحلوا في سبيل ذلك، وتَكبَّدوا المشاق، ثم قاموا في الناس بالتحذير من الكذابين والضعفاء المخلطين، لاشْتَبَه أمر الإسلام، واستولَت الزنادقة، ولَخرج الدجّالون»[2].

د)– تدوين علوم مصطلح الحديث: لم ينقض القرن الثاني من الهجرة، إلاّ وقد وُجدت أنواع كثيرة من علوم الحديث، وكلها مندرجة ضمن قسمين رئيسين: – **المقبول:** وهو الصحيح والحسن.

– **والمردود:** وهو الضعيف وأقسامه كثيرة.

وظهرت علوم كثيرة استلزَمتها دراسة السنة وروايتها، والدفاع عنها، وتحقيق أصولها ومصادرها؛ لكنّ تلك العلوم والقواعد التي وُجدت حتى عصرهم كانت محفوظة في صدور الرجال لَم يدوّن شيء منها في كتاب، إلا ما كتبه الشافعي من فصول وأبحاث متفرقة لها أهميتها في هذا الفن، فكان ما كتبه الشافعي أوّل ما بلغنا من علوم الحديث مدونا في كتاب[3]، ثم أوصل الحاكم النيسابوري العلومَ المتعلّقة بدراسة الحديث في كتابه "معرفة علوم الحديث" إلى: اثنتين وخمسين علماً، وأوصلها ابن الصلاح في "علوم الحديث" إلى: خمس وستّين علما.

وبتلك الجهود الجبارة التي سبق سرد بعضها بإيجاز، استقام أمر الشريعة بتوطيد دعائم السنة التي هي ثاني مصادر التشريع في الإسلام، واطمأن المسلمون إلى حديث نَبِيِّهم، وأُقصِيَ عنه كلّ دخيل، ومُيِّز الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، وصان الله شرعه من عبث المفسدين، ودسِّ الدسّاسِّين، وتآمر الزنادقة والمُعتَدين، وقَطَف المسلمون ثِمار هذه النهضة والحركة العلمية المباركة[4].

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 110-111. والحديث والمحدثون، أبو زهو، 456-457.

[2]– منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 93.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 60-61.

[4]– ينظر: السنّة ومكانتها في التشريع، السباعي، 103.

– **الشاهد (5): وضع علامات لِمعرفته الحديث الموضوع[1] واعتماد قواعد لتَمييزه:** منذ أن ظهرت حركة الوضع في عهد صغار الصحابة، اجتهد المحدّثون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء في معرفة الأحاديث الموضوعة وتَمييزها، وقد سبق ذكر أصناف الوضّاعين والأسباب الحاملة لهم على وضع الحديث، ولقد وضع علماء الحديث علامات لِمعرفة الحديث الموضوع، والكشف عن حقيقته وزيفه، وهي على قسمين حسب التفصيل التالي:

- **علامات الوضع في السند: أهـــمّها:**

أ)– أن يكون راويه كذّاباً معروفاً بالكذب: ولهذا عني النقاد بمعرفة الكذابين، وتواريخهم، وتتبعوا ما كذبوا فيه بحيث لم يفلت منهم أحد[2].

ب)– أن يَعترف واضعه بالوضع: كما اعترف "أبو عصمة نوح بن أبي مريم" بوضع أحاديث فضائل السور[3].

ج)– أن يروي الراوي عن شيخ لم يثبت لقاؤه له، أو وُلِد بعد وفاته، أو لم يدخل المكان الذي ادَّعى سماعه فيه[4]، كما: «ادَّعى مأمون بن أحمد الهروي" أنه سَمع من "هشام بن عمار"، فسأله الحافظ ابن حبان: متى دخلت الشام؟ قال: سنة خمسين ومائتين، فقال ابن حبان: فإن هشاماً الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومائتين»[5]؛ فبان بذلك كذبه.

«والعمدة في مثل هذه الحالة على التاريخ، تاريخ مواليد الرواة وإقامتهم ورحلاتهم، وشيوخهم، ووفياتهم، ولذلك كان علم الطبقات علماً قائماً بذاته لا يستغني عنه نقاد الحديث»[6]؛ قال سفيان الثوري: «لَمّا استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ»[7].

- **علامات الوضع في المتـــن: وأهـــمّها:**

أ)– **ركاكة اللفظ:** بِحيث يدرك العليم بأسرار البيان العربي أن مثل هذا اللفظ ركيك لا يُمكن أن يصدر عن فصيح أو بليغ، فكيف بسيد الفصحاء ﷺ[8].

---

[1]– **الحديث الموضوع:** هو المختلق المصنوع؛ الذي يُنسب إلى الرسول ﷺ كذِبا، وليس له صلة حقيقيّة به، وليس هو بحديث، لكنهم سموه حديثا بالنظر إلى زعم راويه. ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 98. ومنهج النقد في علوم الحديث، عـــتر، 301.

[2]– السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 97. وينظر: الموقظة في علم الحديث، الذهبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، 37.

[3]– ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 99-100. وتدريب الراوي، السيوطي، 236. والسنّة ومكانتها في التشريع، 97.

[4]– السنّة ومكانتها في التشريع، 97. وينظر في ذلك: الكفاية، الخطيب البغدادي، تحقيق إبراهيم آل بحبح الدمياطي، 363/1.

[5]– المجروحين، ابن حبان، 164/1.

[6]– السنّة ومكانتها في التشريع، 98.

[7]– الكـــفاية، 364/1.

[8]– السنّة ومكانتها في التشريع، 98. وينظر: تدريب الراوي، 235-236.

قال ابن أبي حاتم: «ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلاما يصلح أن يكون من كلام النبوة»[1].

قال ابن دقيق: «وحاصله يرجع إلى أنه حصلتْ لهم لكثرة مُحاولة ألفاظ الرسول ﷺ هيئة نفسانية أو ملكة، يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ الرسول ﷺ، وما لا يجوز أن يكون من ألفاظه»[2].

ب)- فساد المعنى: بأن يكون الحديث مُخالفاً لبديهيات العقول، مِن غير أنْ يُمكِن تأويله، أو أن يكون الحديث مناقضاً لدلالة القرآن القطعية أو السنة المتواترة، أو الإجماع القطعي مع عدم إمكان الجمع والتوفيق في ذلك كلّه، أو أن يكون مخالفاً للقواعد العامة للأخلاق، أو مُخالفاً لقطعيّات التاريخ، أو سنّة الله في الكون والإنسان، أو أن يكون مشتملاً على سخافات يُصان عنها العقلاء[3].

قال ابن الجوزي: « ما أحسن قول القائل: إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يُخالف الْمنقول أو يناقض الأصول؛ فاعلم أنه موضوع»[4].

ج)- مخالفته لِحقائق التاريخ المعروفة في عصر النَّبِيّ ﷺ: مثل حديث: «أن النبيَّ وضَع الجزية على أهل خيبر ورفع عنهم الْكُلْفة والسُّخْرة[5] بشهادة سعد بن معاذ، وكتابة معاوية بن أبي سفيان»؛ مع أن الثابت في التاريخ أن الجزية لم تكن معروفة ولا مشروعة في عام خيبر... وأن سعد بن معاذ تُوفِّيَ قبل ذلك في غزوة الخندق، وأن معاوية إنّما أسلم زَمَن الفتح؛ فحقائق التاريخ ترد هذا الحديث وتحكم عليه بالوضع من عدّة أوجه[6].

د)- استقراء الأبواب: أي قولهم: لَم يصحّ في الباب شيء، أو إلا حديث كذا، وذلك لِما قاموا به من استقراء للأحاديث وتبويبها[7].

هـ)- اشتمال الحديث على: الإفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير، والمبالغة في الوعيد الشديد على الأمر الحقير، وقد أكثر القصاص من مثل هذا النوع[8].

---

[1]- الجرح والتعديل، 351/1.

[2]- الاقتراح في بيان الاصطلاح، تحقيق عامر صبري، 228.

[3]- ينظر: تدريب الراوي، السيوطي، 236. ومنهج النقد في علوم الحديث، عتر، 314-315.

[4]- تدريب الراوي، 237.

[5]- **السُّخرة**: مَا سُخِّر من دابّة أو رجل بلا أجر ولا ثمن. ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة باحثين، 421/1.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 35/6. والأسرار المرفوعة، القاري، 465-466. والسنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 100.

[7]- منهج النقد في علوم الحديث، 317.

[8]- ينظر: تدريب الراوي، 236. والسنة ومكانتها في التشريع، 102.

قال الذهبي: «فلكثرةِ مُمارستهِم للألفاظ النبوية إذا جاءهم لفظ ركيك، أعنِي مُخالفِاً للقواعد، أو فيه المجازفةُ في الترغيب والترهيب أو الفضائل، وكان بإسنادٍ مُظلم، أو إسنادٍ مُضِيء كالشمس في أثنائه رجل كذاب أو وضَّاع، فيحكمون بأنَّ هذا مختلَق»[1].

و)– موافقة الحديث لِمذهب الراوي: ويكون الراوي متعصبا مغالٍ في تعصّبه، كأن يروي رافضيّ حديثاً في فضائل أهل البيت، ونحو ذلك؛ قال السيوطي: «ومن القرائن: كون الراوي رافضيا والحديث في فضائل أهل البيت»[2].

– **الشاهد (6): تقسيم الحديث باعتبار القبول والردّ:** قسّم العلماء حديث الآحاد باعتبار قبوله أو ردّه إلى ثلاثة أقسام: الصحيح والحسن والضعيف.

– **القسم الأول: الحديث الصحيح:** وهو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه، ولا يكون شاذا ولا معللا[3].

– **القسم الثاني: الحسن:** وهو قسمان: **حسن لذاته:** وهو ما اجتمعت فيه شروط الصحيح، إلا في خِفّة ضبط الراوي. **والحسن لغيره:** وهو الذي ترقّى إلى درجة الحسن بالتقوية والاعتضاد[4].

– **والقسم الثالث: الضعيف:** هو ما لم تجتمع فيه صفات الصحيح ولا الحسن[5]، وقد يكون الضعف من جهة السند أو المتن؛ **ومن أنواع الضعيف:**

أ)– المنقطع: وهو ما سقط منه رجل في أثنائه، في موضع واحد أو في مواضع متعددة[6].

ب)– والشاذ: ما رواه المقبول مُخالفًا لمن هو أولى منه لكثرة عدد أو زيادة حفظ[7].

ج)– والمنكر: هو ما رواه الضعيف مُخالفاً للثقة[8].

د)– والموضوع: هو المختلق المصنوع؛ الذي يُنسب إلى الرسول ﷺ كذِبا[9].

---

[1]– الموقظة، 37.

[2]– تدريب الراوي، 36.

[3]– ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 11-12.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 11-12. ونزهة النظر، 65-66.

[5]– ينظر: علوم الحديث، 41. وتدريب الراوي، 132.

[6]– ينظر: نزهة النظر، 84. وتدريب الراوي، 165.

[7]– ينظر: نزهة النظر، 71. وتدريب الراوي، 191-192. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 428.

[8]– ينظر: نزهة النظر، 72. وتدريب الراوي، 198.

[9]– ينظر: علوم الحديث، 98. ومنهج النقد في علوم الحديث، 301.

وغيرها من التقسيمات الدقيقة لتمييز الصحيح من الضعيف الواهي، والمكذوب الزائف، ومعرفة النّقلة، والإطلاع على أحوالهم وضبطهم، ولِمعرفة منتهى الرواية، ومخرج الحديث ومصدره، وما إلى ذلك من الفوائد الجليلة لهذه التقسيمات الهامة التي تخدم توثيق الحديث النبوي وتقوّي أصالته وثبوته.

– **الشاهد (7): تأليف المحدّثين في الأحاديث الموضوعة لتمييزها:** زيادة على ما سبق عُنِي أئمة الحديث بتأليف الكتب في بيان الأحاديث الموضوعة، وبذلوا في ذلك غاية جهدهم؛ صيانة للمسلمين من الوقوع في الباطل، وذبـًّا عن الدين الحنيف[1]، ومن بين هذه المصنفات مثلا:

– "الموضوعات": لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت: 597هـ).

– "اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة": لجلال الدين السيوطي (ت: 911هـ) وغيرها.

– **الشاهد (8): منهج المعارضة بين الروايات، وأثره في الكشف عن الموضوعات:** «مِن طرق معرفة الوَضع والضَّعف في الحديث عَرضُ حديث الراوي على رواية غيره من أهل الحفظ والإتقان؛ فحيث لم يَجدوا له موافقا على أحاديثه، أو كان الأغلب على حديثه المخالفة؛ ردّوا أحاديثه أو تركوها»[2]، قال الإمام مسلم بن الحجاج: «وعلامة المنكر في حديثِ المُحدِّث إذا ما عُرِضَت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرِّضا، خالَفت روايته روايَتَهم، أو لَم تَكد توافقها، فإذا كان الأغلب مِن حديثه كذلك كان مهجورَ الحديث غير مقبوله ولا مُستَعمَله»[3].

ويقول الأوزاعي: «كُنّا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما يُعرض الدرهم الزيف على الصيارفة، فما عرفوا منه أخذنا وما تركوا منه تركنا»[4].

ومن **ثمرات منهج المقارنة** بين الروايات: **معرفة** الحديث **المعلل**: قال ابن الصلاح: «الحديث المعلل: هو الحديث الذي اطُّلع فيه على علّة تقدح في صحّته، مع أن ظاهره السلامة منها؛ ويَتطرّق ذلك إلى الإسناد الّذي رجالُه ثقاتٌ، الْجامع شروطَ الصِّحّة من حيث الظّاهر»[5].

وإنّما يدلّ هذا العلم من علوم الحديث على تعمّق المحدثين في نقد الروايات سندا ومتنا، وأنّهم لم يقفوا عند ظاهر السند، وكونه مسلسلا بالثقات، كما توهّم المستشرق "دلافيدا -della vida"؛ وزعم بأنّ الأخبار اصطُنعت ثم وضعت لها سلسلة سند من الرواة الثقات عندما قال في الفقرة المذكورة من مادة "السيرة": «**وإنما هي تصوِّر أحوالا وقعت في تاريخ متأخر كثيرا عن الحوادث التي تروي نبأها، وتقرن**

[1]– منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 317.

[2]– المصدر نفسه، 57.

[3]– صحيح مسلم (مع شرح النووي)، المقدمة، 90/1.

[4]– الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 21/2-22.

[5]– ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 90. ونزهة النظر، ابن حجر، 92.

ذلك بأسانيد تاريخية نثبت بها ما تقول»؛ بل تطرقوا إلى علل خفية وراء تلك السلسلة من الرواة، كما يدل على ذلك بوضوح نصّ ابن الصلاح في تعريف الحديث المعلّل.

ثالثا- خصائص كتابات "جولد زيهر" ونظرياته في السنة، وموقف علماء الإسلام منها:

من خلال نقد كثير من علماء الحديث في العصر الحاضر لآراء "جولد زيهر" ظهر اضطراب نظرياته، ويمكن إيجاز أبرز مُميّزات ومعالم منهجية "جولد زيهر" في دراساته من خلال النقاط التالية:

[1]- تَحريف "جولد زيهر" في نقل النصوص عن عَمْد: سواء كان هذا التحريف في التأويل والتحليل والاستنباط، وعدم فهم النصوص والحقائق العلمية على حقيقتها، أو كان في بَتْر النصوص وتشويهها، وقد أكّد الشيخ **أحمد شاكر** هذا الأمر عن "جولد زيهر" في تعقيبه على مادة "الحديث" في "دائرة المعارف" حيث قال: «"فجولد زيهر" لو عامَلْناه بِما نُعامل به روّاة الحديث من النقد، بعد أن نُغضي عن شروط العدالة المعروفة للعلماء، ونتمسك منها بشرط الصدق وحدة، **وجدنا أنه: مِمّن لا يجوز قبول نقله في شيء أصلا**؛ لأن الصدق والأمانة في الرواية شرط في قبول ما يَنقل الناقل، فإذا ثبت أنه جانب الصدق في روايته ولو مرة واحدة سَقطَ كل ما يرويه وبطل، لا تُقبل له رواية بعد ذلك إلا أن يثبت أنه أخطأ و لم يتعمّد الكذب، و"جولد زيهر" تعمّد أن ينسب إلى أكثر القراء غير الحقيقة، في شيء مادي يلمسه كل قارئ، نقله عن كتب مطبوعة في أيدي الناس، **وكان جريئا جدًّا إذ أشار إلى المواضع التي ينقل منها بالجزء والصفحة، ظنّا منه أن القراء يصدّقون نقله**، فلا يرجعون إلى ما يَنقل منه!!»[1].

وهو ما أكّده أيضا الشيخ **مصطفى السباعي**، حيث يقول: «هذه كلِمة موجزة عمّا تَحقّقتُه بنفسي عن المستشرقين، وخاصّة كتب "جولد زيهر" وآراؤه، وقد أفردت لِمناقشته فصلا خاصّا في هذا الكتاب بيّنتُ فيه: تحامل هذا المستشرق اليهودي، وتشويهه للحقائق، وتحريفه للنصوص، وتأويله للوقائع التاريخية وفق هدفه الذي سعى إليه، واعتماده على مصادر لا قيمة لها في نظر العلم، وتكذيبه للمصادر العلميّة المعترف بِها عند أئمتنا وعلمائنا المحقّقين»[2].

وقد أورد السباعي وأبو شهبة وعبد العظيم الديب وغيرهم في كتبهم بعض النماذج على تحريف "جولد زيهر" في نقل النصوص والروايات ليس هذا موضع بسطها فتراجع هناك[3].

[2]- عدم اعتماد "جولد زيهر" على كتب مصطلح الحديث بصفة متكاملة، تُؤهّله لأن تكون له نظرة صحيحة عن علم الحديث: ولهذا يذكر المؤرّخ فؤاد **سزكين** أنّ: «جولد زيهر لَم يستخدم كتب

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، (تعقيبه على مادة "الحديث")، 334/7.

[2]- السنة ومكانتها في التشريع، 18.

[3]- ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، 221-223. ودفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين، 297. والمستشرقون والتراث، 28-31.

مصطلح الحديث التي كانت معروفة له ككلّ، والتي كان لا يزال قسم منها مخطوطًا في وقته»[1]؛ وبالتالي «لم يتعمّق في دراسة القضيّة»[2]؛ ولعلّ ذلك كان من الأسبَاب التي جَعَلته: «يفهم بعض الأخبار الواردة في كتب الحديث فهْماً معكوسا[3]، وهكذا شقّ هذا المستشرق منذ البداية اتّجاها خاطئا»؛ وكلّ تلك العوامل أدّت به إلى استنتاج «آراء خاطئة حول تطوّر كتب الحديث»[4].

[3]- عدم اعتباره للقيمة العلمية للروايات التي يستند إليها: ذلك أنّه كثيرا ما يُعارض الروايات الضعيفة والواهية بالروايات الصحيحة الثابتة، لذا يذكر مصطفى **السباعي** أنّ من منهج "زيهر": أنْ «يُكَذِّبُ ما جاء في "موطأ مالك"، ويؤيد ما جاء في "حياة الحيوان" للدميري؟!»[5] مثلا، كما يُلاحظ أنّه كان يعتمد في تقرير نظريّته حول الوضع على كثير من الروايات الضعيفة والواهية في كتاب "الأغاني" وغيره لتقرير أفكار تخدم نظريّته[6] الخاطئة، وما قام على واهٍ فسيكون أشدّ وهنا.

[4]- المقصد الأكبر من نظريات "جولد زيهر" هو التشكيك في السنة: أكّد هذا المعنى كثير من العلماء والباحثين: حيث يذكر عبد الرحمن **المعلمي**: أنّ كتابات "جولد زيهر" هي: كَـيْدٌ يهوديّ مُحقّق[7]، وأنّها معروفة بالطعن في الإسلام، والافتراء على رسول الله ﷺ، وعلى القرآن الكريم[8].

ويؤكّد مصطفى **السباعي** أنّ: أشدّ المستشرقين خطراً، وأوسعهم باعًا، وأكثرهم إفساداً في هذا الميدان هو المستشرق اليهودي المجري "جولد زيهر"، الذي لا تزال بحوثه مَرجعا هامّا للمستشرقين في هذا العصر[9]، والتي وضع فيها خطّة مبيَّتَةً لِمُهاجمة أركان السنّة من ناحيتيـــن: ناحية روّاتِها وأئمتها، وناحية الشكّ بِها جملة؛ حتّى إذا تَمّ له ذلك انهارت السنّة بعد توجيه هذه المعاول لأصولها[10].

كما ذكر مصطفى **الأعظمي** أنّ "جولد زيهر" و"هورجرونييه" قد قادَا حملةً: تَحدَّيَا فيها ما هو معلوم عند المسلمين بالضرورة، من مترلة السنّة وأصالة التشريع[11].

---

[1]- تاريخ التراث العربي، 119/1.

[2]- المصدر نفسه، 120/1؛ يقول "سزكين" في هذا الموضع: «وعندما يناقش الإنسان بحثه باستفاضة، ويتناوله بالنقد الشامل؛ يشعر بأنّه لم يتعمّق في دراسة القضية»، أي: قضيّة تاريخ تدوين الحديث.

[3]- ضرب "سزكين" عدّة **أمثلة** عن فهم "جولد زيهر" المعكوس والخاطئ للروايات والنصوص. ينظر: المصدر السابق، 136/1-141.

[4]- المصدر نفسه، 118/1.

[5]- السنة ومكانتها في التشريع، 27.

[6]- ينظر أمثلة عن ذلك في كتابه: دراسات محمدية، 74، 132، 136، 150، 157، 169، 171، 189، 197 وغيرها كثير.

[7]- الأنوار الكاشفة، 135.

[8]- المصدر نفسه، 141 و177.

[9]- السنة ومكانتها في التشريع، 189.

[10]- ينظر: المصدر نفسه، 206.

[11]- المستشرق شاخت والسنة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية)، 67/1.

وهو ما أكّده أيضا محمد **الغزالي**، حيث ذكر أنّ "جولد زيهر" في كتابه "العقيدة والشريعة": كان يُخطئ في النقل والفهم والحكم، وأنّه منذ قرأ وكتب، لَم يَحمل بين جنبيه إلاّ التكذيب للإسلام، فهو يدسّ أصبعه في كلّ شيء؛ ليتّخذ من أيّ شيء دليلا على أنّ محمّداً كاذب، وقرآنه مُفتعل، وسنّته مُختلقة، والإسلام كلّه مجموعة مفتريات[1].

كما ذكر: أنّه ألّف كتابه هذا عن الإسلام؛ إسهاما منه في النشاط الأمريكي لخدمة المسيحية[2].

رابعا- خطئة بعض المستشرقين لنظرية "جولد زيهر" في الوضع: بعدما تقرّر موقف نخبة مِن علماء الإسلام المعاصرين من كتابات "جولد زيهر" ونظرياته، أذكر بعض مَن انتقد نظريّة "جولد زيهر" من المستشرقين أنفسهم؛ ومن بينهم:

– **جوزيف شاخت**: ذكر الشيخ مصطفى السباعي أنّه: لَمّا اجتمع بالمستشرق "شاخت" في جامعة "ليدن" بهولندا، وناقشه "السباعي" في بعض أخطاء "جولد زيهر"؛ أقرّ المستشرق "شاخت" بتلك الأخطاء التاريخية الصريحة التي وقع فيها "جولد زيهر"، وقال بأنّ: «جولد زيهر أخطأ»[3].

– كما اعترف مستشرق آخر هو "**نيبرج**" للسباعي بأخطاء "جولد زيهر" وقال: بأنّ عهده مضى[4].

– **يوهان فوك "Fuck"**: كما رَدّ عليه المستشرق "فوك"، وبَرَّأ المحدِّثين والفقهاء من تُهمة وضع الأحاديث، وكشف عن منهج "جولد زيهر" في التعامل مع الإسلام، وأنه يستخدم المذهب المادي ومنهج الشك لنقد التاريخ[5].

خامسا- بيان بطلان نظريّة "جولد زيهر" حول وضع الإمام الزهري للأحاديث: وهي جزء من نظريّته السابقة في وضع الحديث، قرّر فيها: أنّ الزهري وضع أحاديث في فضائل بيت المقدس بإيعاز من الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي[6]؛ لصدّ الناس عن الحجّ للكعبة، وتوجيههم لشدّ الرحال إلى "قبّة الصخرة" في القدس، بيد أنّ هذه "النظرية" خاصة احتوت على أخطاء علميّة وتاريخية ظاهرة، بيّنها بالتفصيل "مصطفى السباعي" وغيره[7]، ومن بين هذه الأخطاء[8]: أنّ الروايات التاريخية تؤكّد أنّ الزهري عندما سافر إلى الشام ولقي عبد الملك، كان شابا في بداية طلب العلم، لم يجاوز الخمسة

---

[1]– ينظر: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، 3-5.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 5.

[3]– ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، 71. والسنة ومكانتها في التشريع، له أيضا، 15.

[4]– ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، 16.

[5]– ينظر: موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، أكرم ضياء العمري، 73.

[6]– طرح "جولد زيهر" هذه النظريّة الواهية في كتابه: دراسات محمدية، 60-65.

[7]– ينظر الردّ عليها بالتفصيل في: السنة ومكانتها في التشريع، 213-219. والسنة قبل التدوين، عجاج الخطيب، 513.

[8]– سيأتي مزيد بيان حول هذه النظريّة في الباب الثاني: ص440-441.

والعشرين من عمره؛ ولا يُعقل أن يكون الزهري في تلك السِّن ذائع الصيت عند الأمّة، بحيث تتلقّى منه بالقبول حديثا موضوعا[1]، كما لم يختلف المؤرِّخون كابن عساكر والطبري وابن الأثير وغيرهم في: أنّ الذي بنَى القبة "قُبّة الصّخرة" هو الوليد بن عبد الملك، و لم يذكروا ولو رواية واحدة في نسبة بنائها إلى عبد الملك، مع أنّه حدث كبير وهامّ، فلو كان عبد الملك هو الذي بناها لذكروا ذلك[2].

المطلب الرابع : الزعم باكتفاء المحدثين بنقد السند دون المتن

الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة"

– جاء في مادة "**أصول**": «ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه[3]»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **شاخت** - Schacht[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أسلوب آخر اعتمده المستشرق "شاخت - Schacht" للتشكيك في أصالة الحديث الذي هو مصدر أساسيّ من مصادر السيرة؛ حيث زعم في هذا النصّ من مادة "أصول" بأنّ علماء الحديث اشتغلوا بنقد الإسناد، و لم يعتنوا بنقد متن الحديث، ولذلك أخفوا نقدهم للمتن وراء نقدهم للإسناد.

---

[1]– ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 218.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 217.

[3]– **تعقيب أمين الخولي** [على هامش المادة المتعقَّب عليها من "الدائرة"]: «لعل أسبق من تصدى للإفاضة في هذا الأمير "كايتاني-Caietani" في كتابه "الحوليات الإسلامية": الذي عقد في الجزء الأول منه فصلا عنوانه "ملاحظات نقدية عن القيمة التاريخية لأقدم ما روي من السنة عن شؤون الرسول": وكان مما جاء فيه نقد المتن قوله: ((... كل قصد المحدثين ينحصر ويتركز في واد جدب مُمحل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه))،... فنرى هذه الأقوال وما يشبهها في كلامه من تقرير دوران قوة الحديث مع قوة السند وجودا وعدما تنقضها قاعدة مشهورة عند علماء أصول الرواية، هي قولهم: ((واعلم أنّه لا تلازم بين الإسناد والمتن، إذ قد يصح السند أو يحسن لاستجماع شروطه من الاتصال والعدالة والضبط، دون المتن لشذوذ أو علة، وقد لا يصحّ السند ويصحّ المتن من طريق آخر))؛ الأجهوري: حاشيته على شرح البيقونية، ص**26**، وهي قاعدة مشهورة توجد في المختصرات...

كما نرى أن أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول، منها: – إعطاؤهم الحديث ألقابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم الحديث "بالشاذ" أو "المقلوب" أو "المضطرب" أو "مدرج المتن" أو "المصحّف" ونحو ذلك....

– وضعهم قواعد لنقد المتن، من الحرية العقلية إلى حدّ بعيد، وتقوم حينا على اعتبارات عقلية صرفة، وحينا على معان أدبية فنيّة، وحينا تعتمد على مقرّرات شرعية : (أ)– فمن الاعتبارات العقلية الجزئية: أن كل خبر يناقض صريح العقل، حيث لا تأويل فهو باطل. (علي القاري، وابن حجر: شرح نخبة الفكر، ص**126–127**).

(ب)– ومن المعاني الفنية التي حكموها في نقد السند، اعتبارهم ركاكة لفظ الحديث أو ركّة معناه علامة على وضعه.. إلخ.

(ج)– ومن الاعتبارات الدينية التي تقوم على جعل المقررات الشرعية وحدة معقولة متماسكة متوافقة، أن عدّوا من علامات وضع الحديث مخالفة القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي... إلخ.

(د)– أنهم نقدوا المتون الحديثية بالفعل نقدا مطبقا على الأصول النظرية السابقة التي قرّروها».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 279/2.

[5]– سبقت ترجمته في: ص50.

بيد أنّ الواقع العلميّ لقواعد المحدّثين وتطبيقاتهم في نقد الروايات وتمحيصها يردّ هذه الدعوى، ويبيّن أنّ علماء الحديث «وجّهوا نقدهم للمتن كما وجهوه لنقد الإسناد، فكان وضع الضوابط العلمية لنقد المتن يواكب ضوابط نقد السند، لأنّ صحّة السند وحدها لا يعدها النقاد كافية لتصحيح الحديث»[1]؛ وذلك شامل لروايات الحديث عامّة، وروايات السيرة النبوية أيضا.

أولا- بيان جهود المحدثين في نقد المتن لا ينقص من قيمة نقد السند: قبل إيراد الشواهد على عناية المحدثين بنقد المتن، ينبغي التنبّه إلى أنّ ذلك لا يدلّ على تجاهل الأهميّة البالغة لنقد السند في العملية النقدية عند المحدثين، حتى لا ننساق وراء "منطق التبرير والاعتذار"[2]؛ بل يجب اعتبار منهجية وقواعد المحدثين في نقد السند مظهر اعتزاز وقوة في منهج النقد التاريخي للروايات؛ ذلك «أن "النقد الخارجي" للأحاديث أي "نقد الأسانيد" الذي عابه العائبون وسَمّوه شكليا، يتّصل اتصالا وثيقا "بالنقد الداخلي" أي "نقد المتون"، لأن إثبات ثقة الرواة وكونهم جديرين بالثقة ليس عملا شكليا سطحيا، بل إنه مرتبط بالمتن ارتباطا قويا، وذلك لأن توثيق الراوي لا يثبت بِمجرد عدالته وصدقه بل لا بد من اختبار مروياته بعرضها على روايات الثقات»[3].

فهل صحة الإسناد تستلزم صحة المتن دائما؟ وهل اعتمد المحدثون في نقدهم للروايات على النظر في السند دون المتن - كما زعم المستشرق - أم أنهم نظروا أيضا في المتون ونقدوها ومحّصوها؟

ثانيا- جوانب من جهود المحدثين في نقد متون الروايات: اعتمد المحدّثون في العمليّة النقدية للروايات على نقد السند والمتن معا للحكم على الأحاديث، كما اعتمدوا هذا المنهج أيضا في نقد روايات السيرة وأخبارها، والشواهد على ذلك كثيرة، لكن أوجز بعضها فيما يلي:

- الشاهد (1): صحّة الإسناد لا تستلزم صحة المتن دائما عند المحدثين: لا يلزم من ضعف السند ضعف المتن[4]، يقول النووي في هذا المعنى: «قد يصح أو يحسن الإسناد دون المتن لشذوذ أو علة»[5]، وقال السخاوي: «لا تَلازم بين الإسناد والمتن؛ إذ قد يصح السند أو يَحْسُن، لاستجماع شروطه من الاتصال، والعدالة، والضبط دون المتن؛ لشذوذ أو علة»[6]؛ وهو ما نبّه عليه "الخولي" في تعقيبه.

---

[1]- بحث بعنوان: مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين (ضمن: بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام 1425)، أكرم ضياء العمري، 17.

[2]- كما يسميه الأستاذ "أكرم العمري" في مقدمة كتابه: السيرة النبوية الصحيحة، 37/1.

[3]- منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 471.

[4]- المصدر نفسه، 290.

[5]- التقريب (مع تدريب الراوي)، 117.

[6]- فتح المغيث، 105/1.

ويقول طاهر الجزائري: «جهابذة هذا الفنّ قد حكمُوا بأن صِحَة الإِسْنَاد لا تَقْتضي صحّة الْمتن»[1]، ثم يضرب لذلك مثالا فيقول: «وقد أورد الحاكم في "مستدركه" غير حديث يحكم على إسناده بالصحة، وعلى المتن بالوهاء؛ لعلته أو شذوذه، وقد فعل نحو ذلك كثير من المتقدمين»[2].

– **الشاهد (2): من خلال تعريفهم لعلم أصول الحديث:** يظهر بجلاء أنّه علم يهتم بدراسة السند والمتن معا، لا بدراسة السند فحسب، ومن هذه التعاريف:

– تعريف ابن جماعة: وهو «علمٌ بقوانين يُعرف بِها أحوال السّند والْمتن»[3].

– ويقاربه تعريف ابن حجر: «معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى معرفة حال الراوي والمروي»[4].

فهذه التعاريف التي ذكرها العلماء في حدّ علم الحديث من الشواهد على أنّ المحدثين لم يقتصروا في هذا العلم على وضع القواعد والقوانين لدراسة السند فحسب، كما زعم "شاخت - Schacht"، بل هي قواعد شاملة لدراسة السند والمتن.

– **الشاهد (3):** أن **شروط الحديث الصحيح** تضمنت شروطا في الإسناد، وهي: أن يكون متصلا بنقل العدل الضابط إلى منتهاه؛ وشروطاً في **الإسناد والمتن** وهي: عدم الشذوذ والعلة[5]؛ لأنّ صور الشذوذ والعلة تكون في المتن كما تكون الإسناد[6].

وعليه فتعريف علم الحديث وتعريف الحديث الصحيح؛ وهي من المبادئ الأولية في علوم الحديث، فيها ردّ ظاهر على ما زعمه المستشرق من اقتصار المحدثين على نقد السند دون المتن.

– **الشاهد (4):** أنّ بعض **أنواع علوم الحديث خاصة بِمتن الحديث:** ومنها:

– علم مختلف الحديث: وهو أن يوجد حديثان أو أكثر متضادان في المعنى ظاهرا، فيوفق بينهما أو يعتبر أحدهما ناسخا للآخر، أو يرجح أحدهما على الآخر[7]، ويسميه بعض المحدثين "مشكل الحديث"[8].

– أسباب ورود الحديث: وهذا السبب قد يكون سؤالا، أو قصة، أو حادثة ونحو ذلك، وهو طريق قوي لفهم الحديث، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[9].

---

[1]– توجيه النظر إلى أصول الأثر، 190/1.

[2]– المصدر نفسه، 509/1-510. وينظر في ذلك أيضا: تدريب الراوي، السيوطي، 117.

[3]– تدريب الراوي، 9.

[4]– النكت على كتاب ابن الصلاح، 225/1.

[5]– ينظر: علوم الحديث، أبو عمرو بن الصلاح، 11-12. وفتح المغيث شرح ألفية الحديث، شمس الدين السخاوي، 27/1-29.

[6]– ينظر: علوم الحديث، 188. وفتح المغيث، 217/1-218. وتوجيه النظر، طاهر الجزائري، 514/1.

[7]– ينظر: علوم الحديث، 284. وفتح المغيث، 71/3. والوسيط في علوم الحديث، محمد أبو شهبة، 441.

[8]– كالطحاوي وابن فورك. ينظر: نزهة النظر، ابن حجر، 148. والوسيط في علوم الحديث، 442.

[9]– ينظر: نزهة النظر، 148. والوسيط في علوم الحديث، 467. ومنهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، 334.

– معرفة ناسخ الحديث ومنسوخه[1] وغيرها؛ وقد نبّه إلى هذه النقطة "الخولي" في تعقيبه المذكور.

بالإضافة إلى **العلوم المشتركة بين السند والمتن:** ومنها:

– الحديث **المدرج:** هو الحديث الذي زيد فيه ما ليس منه في المتن، أو في السند[2].

قال ابن حجر: «وأمّا **مدرج المتن:** فهُو أن يقع في المتن كلامٌ ليس منه، فتارةً يكون في أوّله، وتارة يكون في أثنائه، وتارة يكون في آخره، وهو الأكثر»[3].

– **زيادات الثقات:** هي ما يتفرد به الثقة في رواية الحديث من لفظة أو جملة في السند أو المتن[4].

– **المقلوب:** هو الحديث الذي وقع تغيير في متنه أو في سنده بتقديم وتأخير ونحو ذلك[5].

– الحديث **الشاذ والمعلّل: فالشاذ:** هو ما رواه المقبول مخالفا لمن هو أولى منه لكثرة عدد أو زيادة حفظ أو غيرِها مِن المرجّحات[6]. **والمعلل:** هو الحديث الذي اطُّلع فيه على علة تقدح في صحته، مع أن ظاهره السلامة منها[7]؛ والشذوذ يكون في الإسناد والمتن[8]، وكذلك العلة تكون فيهما[9].

– **الحديث المنكر**[10]: ويُعرف الحديث المنكر بالنظر في متون الأحاديث وأحوال رواتها.

والسبيل إلى ذلك اعتماد منهجية المعارضة في متون الروايات وأسانيدها على ما بيّنه الإمام مسلم وغيره[11]، وإنّما يتأتى ذلك لأصحاب الاستقراء والمعرفة الواسعة بالمتون والأسانيد من علماء هذا الفن.

وعلى هذا كان نقاد المحدثين يطلقون النكارة على متون الروايات، وقد لا يقيدونها بالمتون مع أنّ نقد المتن من أصول العملية النقدية لتلكم الروايات، ولهذا يذكر "عبد الرحمن المعلمي": أنّ بعض الألفاظ النقدية لعلماء الحديث التي يفهم من ظاهرها نقد الإسناد، هي في الحقيقة **إما أن تكون نقداً لِمتون الروايات، أو أنّها مبنية على نقد المتون**، كما أنّ النقاد أحيانا قد يكتفون بذكر علل السند دون

---

[1]– ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 276. وفتح المغيث، السخاوي، 57/3. ومنهج النقد في علوم الحديث، عتر، 335. **والنسخ:** هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه. ينظر: فتح المغيث، 57/3.

[2]– ينظر: علوم الحديث، 95. والوسيط في علوم الحديث، أبو شهبة، 312. ومنهج النقد في علوم الحديث، 439-440.

[3]– نزهة النظر، 94.

[4]– ينظر: علوم الحديث، 86-87. وتدريب الراوي، 204. وتحرير علوم الحديث، 691/2-692.

[5]– ينظر: نزهة النظر، 94-95. وفتح المغيث، 298/1. والوسيط في علوم الحديث، 315.

[6]– ينظر: نزهة النظر، 71. وتدريب الراوي، السيوطي، 191-192. ومنهج النقد في علوم الحديث، 428.

[7]– علوم الحديث، 90.

[8]– ينظر: فتح المغيث، 218/1-219. والوسيط في علوم الحديث، أبو شهبة، 302-303. ومنهج النقد في علوم الحديث، 428.

[9]– ينظر في ذلك: علوم الحديث، 91. وفتح المغيث، 247/1-249.

[10]– هو ما رواه الضعيف مخالفا للثقة، أو ما تفرد به الضعيف خالف أو لم يخالف، كما أنّ له اصطلاحات أخرى مضطردة لأهل الفن ليس هذا موضع بسطها. ينظر: علوم الحديث، 80-82. ومنهج النقد في علوم الحديث، 430.

[11]– ينظر: فتح المغيث، 223/1-224.

المتن اختصاراً، ثُمّ يضرب أمثلة عن ذلك فيقول: «انظر موضوعات ابن الجوزي وتدبّر؛ تجده إنما يعمد إلى المتون التي يرى فيها ما ينكره ولكنه قلما يصرح بذلك، بل يكتفي غالباً بالطعن في السند، وكذلك كتب العلل وما يعل من الأحاديث في التراجم تجد غالب ذلك مِما ينكر متنه، ولكن الأئمة يستغنون عن بيان ذلك بقولهم "منكر" أو نحوه أو الكلام في الراوي»[1].

– **نماذج من تقييدهم النكارة في الحديث بالمتن:** من ذلك مثلا: قول **ابن حبان:** «متن باطل»[2]، وقول **ابن عدي:** «متن منكر»، أو قوله: «منكر المتن»، أو «متون مناكير» أو «متون منكرة»[3]، وهكذا.

– **الشاهد (5): المقارنة بين الروايات سندا ومتنا:** لِمعرفة ما قد يقع من أوهام وأخطاء في متون الروايات وأسانيدها، وهذه المنهجية قرّرها الإمام مسلم بن الحجاج، فقال: «وعلامة المنكر في حديث المحدث، إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا، خالفت روايته روايتهم أو لم تكد توافقها، فإذا كان الأغلب من حديثه كذلك؛ كان مهجور الحديث غير مقبوله ولا مستعمله»[4]، وبيّن -في موضع آخر- أنّ هذه المقارنة والموازنة النقدية تكون في المتون والأسانيد، وعزى هذا المنهج إلى الأئمة المحدثين النقاد، فقال: «وكنحو مَا وصفت مِنْهُ هَذِه الْجِهَة **من خطأ الأسانيد فموجود فِي متون الأحاديث...**» ثم يقول: «على هذا الْمذهب رَأينا أهل الْعلم بالْحديث يحكمون فِي الحديث مثل: شعبة وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد وعبد الرّحمن بن مهدي وغيرهم من أئِمّة أهل الْعلم»[5]؛ فبيّن أنّ العمليّة النقدية للمحدثين تقوم على النظر في: السند والمتن.

– **الشاهد (6): بيانهم لعلامات الوضع في متن الحديث:** وضَع علماء الحديث علامات يميز بها الحديث الموضوع، منها ما يختص بالإسناد، ومنها ما يختص بالمتن، يقول ابن الصلاح: «وقد يَفهمون الْوضع من قرينة حال الرّاوي أو **الْمَرويِّ**»[6]، بل إن الحافظ **ابن حجر** جعل **قرائن الوضع في المتن هي الأغلب** والأقوى، حيث يقول - بعد أن ذكر بأنّ الغالب هو معرفة الوضع من قرينة حال الْمروي -: «فإن معرفة الوضع من قرينة **حال الْمروي أكبر** من قرينة حال الراوي»[7]، ولأن المقام مقام بيان جهودهم في نقد المتن، فأشير باختصار إلى علامات الوضع في متن الحديث وهي كالآتي:

---

[1]– الأنوار الكاشفة، 264.

[2]– المجروحين، 172/1 و178 و180.

[3]– ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال، 283/1، 345، 559 و46/2، 169 و535/3 و4/ 214، 418، 75، 425 وغيرها.

[4]– صحيح مسلم (بشرح النووي)، مقدمة المؤلف، 90/1.

[5]– التمييز، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، 171-172.

[6]– علوم الحديث، 99.

[7]– النكت على ابن الصلاح، 843/2.

أ)– ركاكة اللفظ أو المعنى: قال ابن دقيق العيد: « وأهل الحديث كثيراً ما يحكمون بـــذلك [أي: بالوضع] باعتبار أمور ترجع **إلى الْمَرويِّ وألفاظ الحديث»**[1].

بل ذهبوا إلى أبعد وأدقّ من ذلك عندما اشترطوا زيادة على سلامة اللفظ سلامة المعـــنى وعـــدم ركته أيضا، قال ابن حجر: «المدار في الرّكة على ركة المعنى، فحيثما وجدت دلّ على الوضع، وإن لَم ينضم إليه ركة اللفظ، لأن هذا الدين كله محاسن، والركة ترجع إلى الرداءة»[2].

وأيّ شاهد أعظم دلالة على دراسة المتن من هذه القرينة الْمَبنِيّة على النظر فيه لفظا ومعنى؟!

ب)– فساد المعنَى: بأن يكون الحديث مُخالفاً لبديهيات العقول، أو مناقضاً لدلالة القرآن القطعـــية أو السنة المتواترة، أو الإجماع القطعي مع عدم إمكان الجمع والتوفيق في ذلك كلّه.

ج)– مخالفته لِحقائق التاريخ المعروفة في عصر النَّبيّ ﷺ.

د)– اشتماله على الإفراط في الثواب العظيم على فعل الصغير والمبالغة في الوعيد على أمر حقير.

– الشاهد (7): نماذج عن نقد المحدثين لِمتون مرويات السيرة النبوية خاصة: ومن الأمثلة على ذلك:

المثال (1): قدَّم "موسى بن عقبة" غزوة بني المصطلق إلى السنة الخامسة؛ مخالفاً معظم كتّاب السيرة الذين يجعلونها في السنة السادسة[3]، وتابعه ابن القيم والذهبي بناء على نقد المتن، لأنّ سعد بن معاذ رضي الله عنه اشترك في هذه الغزوة، والثابت أنّه استشهد في أعقاب غزوة بني قريظة[4].

المثال (2): نقد المحدثين لِحديث صحيح من جهة رواته وإسناده، وهو حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي ﷺ: ثلاث أَعْطِنِيهِنَّ، قال: نعم، قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: نعم، قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم»[5].

لفحص هذا الخبر عمد النقاد إلى البحث خارج الخبر، من خلال النظر في بعض العناصر التي وردت فيه، وعرضها على ما عرف واشتهر من أخبار متصلة بها، وتلك العناصر هي:

– زمن إسلام أبو سفيان بن حرب. – وزواج أم حبيبة بنت أبي سفيان من رسول الله ﷺ.

ولَما استحضر الأئمة ما عرف من أحوال هذه العناصر ظهر أن هذا الخبر لا ينسجم معها؛ لأن المعروف في أخبار السيرة أن أبا سفيان إنما أسلم عام الفتح، وأن زواج النبي ﷺ من أم حبيبة كان قبل

---

[1]– الاقتراح في بيان الاصطلاح، 228.

[2]– تدريب الراوي، السيوطي، 236. وينظر في هذا المعنى: النكت على ابن الصلاح، 844/2.

[3]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 44/4. والبداية والنهاية، ابن كثير، 181/6. وفتح الباري، ابن حجر، 536/7-537.

[4]– ينظر: زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، 237/3. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 170/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 15/1.

[5]– أخرجه : مسلم، الصحيح (مع النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي سفيان رضي الله عنه، 90/16.

ذلك بسنين، يقول البيهقي في ذلك: «وهذا الْحديث في قصّة أمّ حبيبة ﵂ قد أَجْمَع أهل الْمغازي على خِلافه، فإنّهم لَمْ يَختلفوا في أنّ تزويج أمِّ حبيبة ﵂ كان قبل رجوع جعفر بن أبي طالب وأصحابه مِن أرض الحبشة، وإنّما رَجَعوا زمنَ خيبر، فتَزْويج أمّ حبيبة كان قبله وإسلام أبي سفيان كان زَمَن الْفتح أي: فتح مكّة، بعد نكاحها بسنتين أو ثلاث، فكيف يصحُّ أن يكون تزويجها بِمَسْألته»[1]؛ لذا قال ابن القيم: «وقد رَدّ هذا الْحديث جماعة من الْحفّاظ وعَدُّوه من الأغلاط»[2].

كما بيّن ابن حزم وابن الجوزي: هذا الغلط في متن الحديث؛ وعلّلاه بوهم أحد الرواة وهو "عكرمة بن عمار"[3]، فإنّه مع عدالته كانت له أوهام وأغلاط تقدح في ضبطه[4].

ومع ذلك دافع ابن الصلاح عن صحة الحديث؛ وذكر توثيق بعض المحدثين "لعكرمة"، وأوّل الإشكال الوارد في المتن بتأويلات مُحتمَلة[5].

لكن ابن القيم استبعد تأويلات ابن الصلاح وغيره لِما أشكل من متن الرواية، وذكر أنّ علماء الحديث لا يرضون أمثالها، ثم قال: «فالْحديث غلط لا ينبغي التّردّد فيه»[6].

فهذه العملية النقدية[7] نَموذج يدل على مدى ترابط نقد المتن بنقد السند، ذلك أن النقاد أرجعوا الخطأ الظاهر في متن هذا الحديث إلى عدم ضبط الراوي، وعكس ذلك يصحّ أيضا؛ عندما يستدلّ على عدم ضبط الراوي بروايته مثل هذه المتون المنكرة[8]، وهذا الأمر شائع مستفيض في قواعد المحدثين وتطبيقاتهم عند تعاملهم مع الروايات ؛ حين يحكمون على الرواة مثلا بعد سبر مروياتهم واستقرائها.

– **المثال (3)**: نقد الخطيب البغدادي وأبي يعلى وغيرهما لِخبر جاء فيه: أن النبي ﷺ وضع الجزية عن يهود خيبر، وكتب لهم عهدا بذلك، وأشهد سعد بن معاذ ومعاوية بن أبي سفيان.

فلما نظر الخطيب البغدادي في هذه الوثيقة التاريخية التي كانت موجودة في عصره، قال: إنه كذِب؛ وبيّن ذلك من عدة وجوه، منها: أن فيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات قبل فتح خيبر، وفيه شهادة معاوية بن أبي سفيان، وإنما أسلم عام الفتح بعد فتح خيبر، وأنّ الجزية لم تكن شُرعت حينئذٍ،

---

[1]– السنن الكبرى، 226/7.

[2]– حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 75/6.

[3]– ترجمته في: التاريخ الكبير، البخاري، 50/7. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، 10/7. الثقات، ابن حبان، 233/5.

[4]– ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، 91/16. وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 75/6.

[5]– ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم، 92/16.

[6]– حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 76/6.

[7]– ليس المقصود من مناقشة هذه الرواية بيان صحة الرواية وتأويلها أو ردّها، وإنّما المقصود: إعطاء نظرة عن شيء من خطوات نقد الرواية عند المحدثين، للاستشهاد بها على: نظر المحدّثين النقاد في المتن والإسناد عند نقد المرويات الحديثية عامة ومرويات السيرة خاصة.

[8]– كما فعل الذهبي في هذه الرواية مثلا. ينظر: سير أعلام النبلاء، 137/7.

ولا يعرفها الصّحابة ولا العرب، وإنّما شرعت بعد عام تبوك، وغيرها من علامات الوضع في متن الرواية، التي أوصلها ابن كثير وعلي القاري إلى عشرة أوجه[1]، والأمثلة كثيرة لا يمكن حصرها.

ويشير العمري إلى بعض الكتب التي اعتنت بنقد متون مرويات السيرة فيقول: «وتبرز في مؤلفات متأخرة محاكمات دقيقة للمتون كما يتضح ذلك بجلاء لمن يطلع على "البداية والنهاية" لابن كثير، و"فتح الباري" للحافظ ابن حجر في شرحه لقسم المغازي من صحيح البخاري»[2].

فهذه بعض القواعد التي وضعها العلماء لنقد الحديث ومعرفة صحيحه من ضعيفه، تبيّن أنّهم لم يقتصروا في جهدهم على نقد السند فقط، أو يُوجّهوا جل عنايتهم إليه دون المتن، بل كان نقدهم متوجّها إلى السند والمتن على السواء[3].

المطلب الخامس : الطعن في شمولية روايات السيرة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 12]: «ولكنه **يجب أن يذكر في هذا الصدد أننا لا نتناول التاريخ موضوعا في إطار من التسلسل التاريخي أو مرتبا وفقا لخطة موضوعة، وإنّما نتناول سلسلة من "المذكرات الحربية" نجد فيها التصوير الصادق (وإن غلبت عليه الذاتية في كثير من الأحوال) والوصف الواقعي لحادثة مقترنا بوصف غير أمين مشوه لحادثة أخرى، كما نجد فيه بصفة خاصة أنه ينقصه كل النقص ربط الأحداث بعضها ببعض والنظر إلى مجرى الحوادث نظرة كلية شاملة**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - della vida[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

في الفقرة المذكورة من مادة "السيرة" انتهج المستشرق "دلافيدا - della vida" أسلوبا مكشوفا جدًّا للطعن في أصالة السيرة وقيمتها العلمية والتاريخيّة، حين زعم بأنّ السيرة لا تتّسم بالشمول والتسلسل التاريخي؛ ذلك أنّ أيّ أحد مهما كانت معرفته ضئيلة بسيرة النبي ﷺ يتسنّى له بطلان هذه الدعوى من أساسها، ويكفيه أن يفتح أيّ كتاب في السيرة النبويّة ليجد تسلسل أحداث حياة الرسول محمد ﷺ مسترسلة من مولده إلى وفاته، وذلك لا يحتاج كبير عناء، ولا تخصّصا في علم السيرة ولا تضلّعا فيه.

---

[1]– ينظر: البداية والنهاية، 355/6. والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، 465-468.

[2]– السيرة النبوية الصحيحة، 16/1.

[3]– ينظر: السنّة ومكانتها في التشريع، السباعي، 102.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 445/12-446.

[5]– سبقت ترجمته في: ص95.

وإنّ هذا القول الذي ادّعاه "دلافيدا - della vida" هنا لا يقوله إلاّ أحد شخصين؛ أوّلُهما: شخص لم يطّلع مطلقا على أيّ كتاب أصيل من مصادر السيرة. وثانيهما: شخص معاند يعرف الحقيقة وينكرها جحوداً وعنادا، وكلا الطّرفين ليسا من التحقيق المعرفي والبحث العلمي في شيء.

ذلك أنّ تصفّحا سريعا لأيّ مصدر من مصادر السيرة، يستطيع أن يدرك القارئ من خلاله أنّ حياة الرسول ﷺ التي تقدّمها مصادر السيرة «واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها؛ فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته، وطفولته وشبابه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة، إلى أن بعثه الله رسولا كريما، ثم **نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله سنة فسنة**، مما يجعل سيرته ﷺ واضحة وضوح الشمس، حتى قال بعض النقاد الغربيين: إن محمدا ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس»[1].

بل إنّ مصادر السيرة النبوية الصحيحة تقدّم أدق التفاصيل في حياة رسولنا الشخصية؛ كأكله، وقيامه، وقعوده، ولباسه، وشكله، وهيئته، ومنطقه، ومعاملته لأسرته، وتعبده، وصلاته، ومعاشرته لأصحابه[2]، وما إلى ذلك من شمائل وخصال وأحوال يُتأسّى ويُقتدى بها.

– **ميزة الشمولية في أخبار سيرته ﷺ**: إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهي تحكي لنا سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله بالرسالة، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب في حنو العاطفة، وحسن المعاملة، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية، مما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجبات الصحبة، ويفي بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين، والمعاهد الصادق[3].

فسيرة رسول الله ﷺ سيرة شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية ومصلح، وكل قائد وسياسي، وكل أب و زوج، وكل صديق، وكل مربي.. وهكذا[4].

كلّ هذه الأحوال ترد ضمن تسلسل زمنِيّ وتاريخيّ واضح يبدأ من مولده، وطفولته، وشبابه، إلى بعثته، ونزول الوحي عليه، ثم بداية دعوته، وما لقيه فيها هو وأتباعه من شدّة وبلاء، إلى هجرته،

---

[1]– السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 15.

[2]– المصدر نفسه، 15-16.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 17-18.

[4]– المصدر نفسه، 18.

وإقامته لدولته في المدينة، وجهاده للمشركين في أرجاء جزيرة العرب، وانتصار دعوته وانتشارها داخل الجزيرة وخارجها، وإتمامه لتبليغ رسالة ربّه، إلى أن توفي ودفن بالمدينة ﷺ.

فكيف يُعقل بعد ذلك أنّ يقول "دلافيدا - della vida" إنّ سيرته مجرد "**مذكّرات حربية**"؛ إنّ كلامه هذا يوحي وكأنّه لم يطّلع على أيّ كتاب في السيرة عدا كتاب "المغازي" للواقدي[1]، وهذا عيب في باحث يكتب بحثاً علميًّا في موسوعة بحجم "دائرة المعارف"، وإن كان هذا الاحتمال بعيدا.

إنّ الشمولية والتسلسل التاريخيّ لسيرة النبي محمد ﷺ « لم يتيسر مثلها ولا قريب منها لرسول من رسل الله السابقين، فموسى عليه السلام لا نعرف شيئا عن طفولته وشبابه قبل النبوة، إلا بعض الإشارات في القرآن، ونعرف الشيء القليل عن حياته بعد النبوة، مما لا يعطينا صورة مكتملة لسيرته[2]، ومثل ذلك يقال في عيسى عليه السلام، فنحن لا نعرف شيئا عن طفولته إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة، من أنه دخل هيكل اليهود، وناقش أحبارهم، ثم نحن لا نعلم من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته، وقليلا من أسلوب معيشته، وما عدا ذلك فأمر غير معروف[3].

المطلب السادس : الزعم بأن السيرة النبوية مقتبسة من سير الأنبياء السابقين

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**السيرة**" [فقرة: 13]: «**وأصول سيرة النبي بمعنى الكلمة الصحيح من نوع آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف، ذلك أن هذه السيرة يرجع أصلها إلى التحول الذي طرأ على شخصية محمد في ضمير المسلمين الديني، وإلى الأثر الحاسم الذي أحدثته عناصر مختلفة بعينها في هذا التحول، وإلى شيء آخر فوق هذا كله، وهو أن احتكاك المسلمين باليهودية والمسيحية ورغبتهم في أن يضعوا منشئ الإسلام في كفة منشئ هذين الدينين، قد شجّعاهم على وضع تلك القصص التي حاطوا بها شخص النبي، والتي أحدثت هذا التحول الشامل في طبيعة شخصيته من مولده** (بل قبل مولده) **إلى وفاته وبدلتها تبديلا.**

ذلك أن النبي الذي أعلن بصريح العبارة في خلال حياته الفانية أنه إنّما يعد نفسه بشرا كسائر البشر، قد أصبح في النهاية يمثل الصورة الظاهرة لكمال الخلق الإلهي، وغدت حياته أشبه بنسخة من حياة موسى وعيسى، وأسبغ على أدق تفاصيلها طابع الوحي والخوارق، وحسبنا أن نذكر في هذا

---

[1]– ذلك أنّ هذا الكتاب ركّز على إيراد الغزوات والسرايا دون غيرها، أي: الجانب الجهادي والعسكري للسيرة.

[2]– للتفصيل في ما جاء عن سيرة موسى عليه السلام في أسفار التوراة؛ ينظر: الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، 49-51.

[3]– ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 16.

الصدد أن شبرنكر (Sprenger)، **قال منذ أمد طويل بوجود شبهة في أنّ تكون السيرة قد تأثرت بالسنن اليهودية والمسيحية»**[1].

ثم بعد عرضه لجملة من المؤلفين الأوائل للسير النبوية قال محرر المادة: «**وأقصى ما نخرج به منها لا يتعدى بعض الأساطير المتأخرة العهد التي لا شك في أن قيمتها كبيرة بالنسبة لتاريخ نشأة وتطور النحلة التي تدور حول شخصية محمد، على أن هذه المادة ليس لها قيمة على الإطلاق بالنسبة لقصة حياة النبي الأصيلة، أو قل إنها لا تعدو أن تكون رواية من الروايات للقصص المعروفة**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - della vida[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

يعتمد المستشرق "دلافيدا - della vida" في الفقرة (13) من مادة "السيرة" على منهجيّة "**المقابلة والمطابقة**" أو منهجية "الأثر والتأثر" من أجل التشكيك في أصالة السيرة النبوية، فيزعم بأنّ المسلمين استوحوا سيرة النبي ﷺ من قصص اليهود والنصارى عن موسى وعيسى عليهما السلام، من أجل تعظيم مُنشِئ الإسلام، ووضعه في مرتبة عليا، بيد أنّ الواقع التاريخي لتفاصيل سير محمد وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام تبيّن مدى الفرق الكبير بين قصص حياتهم، ومدى البون الشاسع بين سيرة حياة كل واحد منهم، فلكلّ نبيٍّ تفاصيل نشأة ومسيرة حياة دعوية تختلف عن الأخرى، من حيث البيئة والزمن والأهداف والإنجازات المحقّقة، هذا فيما يختصّ بمسيرة حياتهم الإيمانية والدعوية.

أمّا ما يتعلّق بتصوير كلّ من اليهود والنصارى والمسلمين لنبيّهم فتختلف عنه أيضا اختلافا شاسعا، على ما سيأتي بيانه في التفصيل الموالي عن خصائص سيرته ﷺ.

- **من خصائص السيرة النبوية عن سير بقية الأنبياء والرسل:** سيرة النبي ﷺ حلقة من سلسلة النبوات والرسالات، وللنبوة والرسالة خصائصها وميزاتها، فسيرة النبي ﷺ مع اشتراكها في خصائص النبوات والرسالات لها مميّزاتها وسماتها الخاصة، ومن أهم خصائص سيرة النبي محمد ﷺ من حيث وقائعها وأصالة نقلها ما يلي:

أ)- الصحة والأصالة: ما وصلنا من سيرة النبيّ ﷺ يمكن اعتباره أصح سيرةٍ لتاريخ نبيّ مرسل، أو عظيم مصلح؛ فقد وصلت إلينا سيرة رسول الله ﷺ من أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتا، مما لا يترك مجالا للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى[4].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 12/446-447.

[2]- المصدر نفسه، إص1، 12/454.

[3]- سبقت ترجمته في: ص95.

[4]- ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، 13.

في الوقت الذي نجد فيه وقائع سيرة **موسى** عليه السلام اختلطت الصحيحة بما أدخل عليها اليهود من زيف وتحريف، ولا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحاضرة لنستخرج منها سيرة صادقة لِموسى عليه السلام، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكّون في بعض أسفارها[1]، ومن الشواهد على ذلك: ما ذكره سليمان الندوي: من أنّ أسفار اليهود التي تضمنت سير هؤلاء الأنبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروب من الشكّ في كلّ سفر من هذه الأسفار، فإنّ مؤلفي "دائرة المعارف البريطانية" أنفسهم توصلوا إلى تحقيق أنّ هذه الأسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرون كثيرة[2]، من غير أن يعرف كاتبها؛ وهذا وحده كاف للتشكيك في صحة سيرة موسى عليه السلام كما وردت في التوراة، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشيء من صحة سيرته إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة[3].

بالإضافة إلى ذلك فإنّ التوراة الموجودة؛ فيها لكلّ حادثة روايتان مختلفتان، وحكايتان متباينتان، كما حقّق ذلك بعض علماء الألْمان، وربّما دفع بعض هذه الروايات بعضا فتعارضت أولاها بأخراها، ونحن نواجه الوصف المتعارض في سير الرجال والحوادث جميعا[4]، وللتوسع في هذا الموضوع تُراجع مادة "Bible" من "دائرة المعارف البريطانية" باللغة الإنجليزية[5].

ومثل ذلك يقال في **سيرة** نبي الله **عيسى** عليه السلام، فهذه الأناجيل المعترف بها رسميا لدى الكنائس المسيحية إنما أقرت في عهد متأخر عن السيد المسيح بِمئات السنين، وقد اختيرت -دون مسوغ علمي- من بين مئات الأناجيل التي كانت منتشرة في أيدي المسيحيين يومئذ[6].

ومع ذلك فإنّ الأناجيل الأربعة[7] التي اقتصروا عليها لم يلق أحد من الذين جمعوها عيسى عليه السلام، وإذا تساءلنا: عمّن رووا هذه الأناجيل؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كلّ الجهل[8].

ثم إن نسبة هذه الأناجيل لكاتبيها لم يثبت عن طريق علمي تطمئن النفس إليه، فهي لم ترو بسند متصل إلى كاتبيها، على أن الخلاف قد وقع أيضا بين النقاد الغربيين في أسماء بعض هؤلاء الكاتبين من يكونون؟ وفي أي عصر كانوا؟[9]

---

[1]- المصدر السابق، 14.

[2]- الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، 45.

[3]- ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 14.

[4]- ينظر: الرسالة المحمدية، 45.

[5]- ينظر: The Encyclopaedia Britannica , 3/849-894 .

[6]- السيرة النبوية دروس وعبر، 14.

[7]- وهي: إنجيل **متّى**، وإنجيل **مَرْقس**، وإنجيل **لوقا**، و وإنجيل **يوحنا**. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، 126/19.

[8]- ينظر: الرسالة المحمدية، 46. والتوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة حسن خالد، 18.

[9]- السيرة النبوية دروس وعبر، 14-15.

والأدهى أنه لا يعلم يقينا اللغة التي كتبت بها هذه الأناجيل في الأصل، وفي أيّ زمان كتبت؛ فقد اختلف مفسرو الأناجيل اختلافا شديدا في تعيين زمان جمعها، وتدوينها[1].

فإذا عُرف هذا وعُلم أنّ القرآن الكريم سجّل جوانب هامة ومختلفة من سيرته ﷺ، وهو كتاب دوّن بين يدي رسول الله ﷺ، ونقل بطريق التواتر حفظا وكتابة جيلا بعد جيل.

كما أنّ تدوين سيرة النبي ﷺ كانت بين يدي أصحابه ﷺ وهم شهود العيان على سيرته، ونقلة هديه وشمائله وأحواله، وأن المحدثين كانوا في طليعة من تولّى تدوينها ونقلها، كما وضعوا أدقّ قواعد النقل والنقد التاريخي للمرويات، من أجل نقل سنة وسيرة النبي ﷺ صافية صحيحة، وصيانتها عن العناصر الدخيلة والأخبار الموضوعة والمصنوعة.

فقد تَهيأ لَها «جهابذة المحدثين من طبقة التابعين وتلاميذهم لكتابتها في وقت مبكر؛ مستقين أخبارها من الصحابة الذين كانوا شهود عيان ومشاركين في الأحداث، فلم يقع انقطاع بين الأحداث والتدوين يؤدي إلى الضياع أو التحريف أو التهويل، وعندما نستعرض أصحاب كتب السيرة نجد معظمهم من المحدثين وليسوا من الأدباء أو القصاصين ولذلك أهميته، فهم معروفون بالتوثيق، ولهم مناهج نقدية واضحة، وأساليبهم جدية بعيدة عن المبالغة والحشو والخيال»[2].

فإذا علم هذا تبين مدى البون الشاسع بين سيرة المصطفى ﷺ وسيرة النبيين الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام في الصحة وأصالة المادة التاريخية.

وهذا ما يدلّ على أنّ كلام المستشرق "دلافيدا - della vida" يردّه الواقع العلمي والتاريخي لتدوين سيرة النبيَّيْن المذكورين، مقارنة بسيرة النبي محمد ﷺ.

ب)- الواقعية: تصوّر لنا روايات السيرةِ النبِيَّ محمداً ﷺ على أنّه كان واقعيا بعيدا عن الخيال، وكان إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، وذلك في دعوته، وهجرته[3] وحروبه، وفي جلّ أحوال حياته ومسيرة رسالته لأنّ الإسلام دين المنطق والعقل، ومعجزته الخالدة هي أنه دين الفطرة السليمة[4].

لذلك لا يستقيم وصف المستشرق "دلافيدا - della vida" للسيرة النبوية بالمبالغة في ذكر الخوارق، ومحاولة المؤرخين المسلمين -في زعمه- تصوير سيرته فوق صفة البشريّة.

---

[1]- ينظر: الرسالة المحمدية، 46. وأيضا: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 115.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 44/1.

[3]- على سبيل المثال ينظر: ص494. في تخطيطه وأخذه بالأسباب في هجرته إلى المدينة مع التوكل على تعالى.

[4]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 6.

أمّا ما جاء في سيرة المصطفى ﷺ من إثبات الوحي والمعجزات النبوية، فالرسول محمد ﷺ ليس في ذلك بدعا من الرسل قبله، فقد تلقى الوحي من الله تعالى كما تلقوا، وجعل الله له معجزات حسية كما كان لهم أيضا معجزات حسيّة.

لكن زيادة على ذلك فإنّ السيرة النبوية المبنية على الروايات الصحيحة رواية ودراية بعيدة عن تلك المبالغات التي حاول "دلافيدا - della vida" التهويل من شأنها، بل السيرة حافلة بما يؤكّد بشرية محمد ﷺ، وأخذه بالأسباب المعتادة في حياة الناس، كما أنّ منهج النقد التاريخي الذي وضعه علماء الإسلام للروايات سندا ومتنا، حريّ بأن يكشف عن تلك الروايات التي يرد فيها ما ذكره من مبالغات وأساطير ليست من حقيقة الإسلام وسيرة نبيه ﷺ في شيء، ذلك أنّ علماء الحديث والسير تصدّوا لتلكم الروايات، ونقدوها سندا ومتنا –على ما سبق بيانه–، وإن كان قد يذكرها ويستند إليها من ليس له تحقيق ودراية بها من بعض المؤلفين في السيرة قديما وحديثا.

إنّ القواعد التي وضعها المحدثون في نقل الروايات ونقدها تيسر «لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث أو معجزات، أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل الراغب في إضفاء الصفة المدهشة على رسول الله ﷺ أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه من جلالة المقام وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة»[1].

ج)– البشرية: على العكس مما ذكره المستشرق "دلافيدا - della vida" محرر مادة "السيرة" فإن سيرة الرسول ﷺ تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة؛ فلم تخرجه عن إنسانيته، و لم تغرق حياته بالأساطير، و لم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا، وإذا قارنّاها بما يرويه المسيحيون عن عيسى عليه السلام، والوثنيون عن آلهتهم المعبودة، اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته ﷺ وسيرة هؤلاء، ولذلك أثر بعيد المدى في السلوك الإنساني والاجتماعي لأتباعهم، فادّعاء الألوهية لعيسى عليه السلام ولبوذا جعلهما أبعد منالا من أن يكونا قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، بينما ظل وسيظل محمد ﷺ المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:21][2].

والقرآن الكريم يقرّر بصراحة بشرية النبي محمد ﷺ في غير ما آية؛ فإنّه لَما اشتطّ كفار قريش في طلب المعجزات من رسول الله ﷺ كما كانت تفعل الأمم الماضية، أمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ

[1]– السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 13.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 16-17.

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: 93]، هكذا يقرر القرآن بصراحة ووضوح أن محمدا ﷺ إنسان رسول، وأنه يعتمد على مخاطبة العقول والقلوب في دعوى الرسالة أكثر من الاعتماد على الخوارق والمعجزات، فيقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: 125][1].

كما أنّ الأحاديث تصرّح أيضا **ببشرية النبي محمد** ﷺ؛ منها مثلا: ما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّمَا **أَنَا بَشَرٌ**، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا))[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّمَا **أَنَا بَشَرٌ** أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي))[3].

وكان رسول الله ﷺ ينهي أصحابه عن المبالغة في تعظيمه؛ فيقول: ((لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا **أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**))[4].

وإنما نهاهم عن المبالغة في مدحه خشية أن يجر ذلك مع الأيام إلى إسباغ صفات الألوهية عليه كما حصل لِمن أطرى عيسى بن مريم من النصارى، وقد تمسك ﷺ بصفة العبودية لله وصفة الرسالة، فهو عبد الله ورسوله، وفيه تتمثل العبودية الصادقة لله فهو أكثر البشر عبادة وطاعة وأشدهم التزاما بتعاليم الرسالة[5].

ولَمّا سُئلت عائشة رضي الله عنها: ماذا كان يَعملُ رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: «كَانَ **بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ**؛ يَفْلِي ثَوبهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[6].

فأين ما قرّره المستشرق "دلافيدا" من هذه الآيات والأحاديث الصريحة في بشريّة محمد ﷺ؟!

إنّه يزعم أنّ النبي ﷺ كان يقول ببشريّته في حياته، وأنّ المسلمين انحرفوا عن هذا المسلك فأخرجوه عن معنى البشريّة في روايات السيرة، وما هي مصادر روايات السيرة؟ إنّ أوثق مصادرها القرآن

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 21-22.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (مع الفتح)، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، 133/5. **ومسلم**، الصحيح (مع النووي)، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظّاهر واللّحن بالحجّة، 7/12.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة، 652/1. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة، 85/5. واللفظ للبخاري.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (مع الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: 16]، 582/6. **وأحمد**، المسند، 302/1. من حديث عمر رضي الله عنه، واللفظ لأحمد.

[5]- السيرة النبوية الصحيحة، 588/2.

[6]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 263/43. **وابن حبان**، في صحيحه، 488/12. وصححه شعيب الأرنؤوط.

والحديث، وهذه هي الآيات والأحاديث بين أيدينا ما زالت تصرّح ببشريّة النبي ﷺ بكلّ وضوح، فإنّ الرواة لم يخفوا هذه الروايات و لم يحرفوها، بل أخرجوها في كتب السنة المشهورة الصحيحة.

والرواة لم يخفوا مثلا: ما وقع من رسول الله ﷺ في حادثة الإفك من حيرة وتأثر يدلّ بوضح على بشريته، وأنه لا سلطان له على الوحي ولا يقدر على استحضاره ولا الإضافة إليه[1].

فهذه صورة النبي ﷺ في الإسلام، وهو أرفع البشر، له الحب والتوقير والدعاء، وله الدرجة الرفيعة، لكنه لا يتجاوز مقام العبودية والطاعة لله، ولا يلقي على نفسه صفات الألوهية، ولا يدعو الناس إلى عبادته، بل يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويجعل نفسه مثلهم الأعلى في عبادة الله وطاعته[2].

– كلام المستشرق "درمنغم" في ذلك: بيّن "درمنغم -Dermenghem" ما يفهمه كلّ منصف -متجردٍ عن الأهواء- عندما يقرأ السيرة النبوية، فإنّه يَخرج بتصوّر عام ونتيجة لا يمكن أن يرى معها النبيَّ ﷺ إلاّ أنّه رسول من الله تعالى، وليس إلهاً، ولا ملِكاً من الملوك؛ وهو ما عبّر عنه المستشرق "درمنغم" بقوله: «إن محمدًا [ﷺ] الذي خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم **من الطاعة لرجل يبلّغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين**.. وكان ينهى عن عدّه ملِكًا.. ولقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه **لم يغتر بشيء من هذا كله**»[3].

د)– الوضوح: إن حياة رسول الله ﷺ وسيرته واضحة كوضوح الشمس في جميع مراحلها[4].

هـ)– الدلالة على النبوة[5]: إن سيرة محمد ﷺ وحدها تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته، إنها سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر، لا عن طريق الخوارق والمعجزات، بل عن طريق طبيعي بحت، فلقد دعا فأوذي، وبلغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الحرب فحارب، وكان حكيما موفقا في قيادته، فما أزفت ساعة وفاته إلا كانت دعوته تلف الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان، لا عن طريق القهر والغلبة، ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد، ومن عرف قصر المدة التي استغرقتها رسالته حتى وفاته، وهي ثلاث وعشرون سنة، أيقن أن محمدا رسول الله حقا، وأن ما كان يمنحه الله من قوة وثبات وتأثير ونصر ليس إلا لأنه نبي حقا.

وما وقع له ﷺ من المعجزات لم يكن الأساس الأول في إيمان العرب بدعوته، لأن المعجزات المادية تكون حجة على من شاهدها، ومن المؤكد أن المسلمين الذين لم يروا النبي ﷺ و لم يشاهدوا معجزاته،

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 415/2.

[2]– المصدر نفسه، 585/2.

[3]- The life of Mohamet , Emile Dermenghem, 322.

[4]– ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، 15.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، 19–22. ويراجع في ذلك أيضا: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 112–113.

إنما آمنوا بصدق رسالته للأدلة العقلية القاطعة على دعواه النبوة، ومن هذه الأدلة العقلية: القرآن الكريم، فإنه معجزة عقلية، تلزم كل عاقل منصف أن يصدق محمدا ﷺ في دعوى الرسالة.

وهذا يختلف تماما عن سير الأنبياء السابقين المحفوظة لدى أتباعهم، فهي تدلنا على أن الناس إنّما آمنوا بهم لما رأوا ما جرى على أيديهم من معجزات وخوارق، دون أن يحكموا عقولهم في مبادئ دعواهم فتذعن لها، وأوضح مثل لذلك السيد المسيح عليه السلام، فإن الله حكى لنا في القرآن الكريم أنه جعل الدعامة الأولى في إقناع اليهود بصدق رسالته أنه: يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي المرضى، ويحيي الموتى، وينبئهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، كل ذلك بإذن الله جل شأنه.

والأناجيل الحاضرة تروي لنا أن هذه المعجزات هي وحدها التي كانت سببا في إيمان الجماهير دفعة واحدة به، وفي "سفر أعمال الرسل"[1] أكبر دليل على ذلك، حتى ليصح لنا أن نطلق على المسيحية التي يؤمن بها أتباعها أنها دين قام على المعجزات والخوارق، لا على الإقناع العقلي؛ ومن هنا نرى هذه الميزة الواضحة في سيرة الرسول ﷺ، أنّ إيمان من آمن به كان عن اقتناع عقلي وجداني، وإذا كان الله قد أكرم رسوله بالمعجزات الخارقة، فما ذلك إلا إكراما له ﷺ، وإفحاما لِمعانديه المكابرين، ومن تتبع القرآن وجد أنه اعتمد في الإقناع على المحاكمة العقلية، والمشاهدة المحسوسة لعظيم صنع الله، والمعرفة التامة بما كان عليه الرسول من أمية تجعل إتيانه بالقرآن الكريم دليلا على صدق رسالته ﷺ؛ ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: 50-51].

ففي هذه الخصائص الجليلة لسيرة المصطفى ﷺ ردّ على دعاوى المستشرق "دلافيدا-della vida"، الذي حاول التشكيك في أصالة السيرة النبوية وحقائقها بطرائق شتّى، اعتمد فيها على قلب حقائق السيرة تارة، وعلى إخفائها والتعمية عليها عن عمد تارة أخرى، وقدّم مطاعن وشبهات واهية، من غير استنادا أدلّة وشواهد علمية غالبا، إلاّ بعض أقوال ونظريّات زملائه من المستشرقين الذين يلتقون معه في حملة التشكيك في السيرة، وإثارة الشبهات حول أصالتها.

[1]- ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، سفر أعمال الرسل، 180 وما بعدها. والوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 105-111.

الفصل الثاني:
وقائع مرحلة ما قبل البعثة

وفيه ثلاثـــة مباحث:

المبحث الأول: مولد النبي ﷺ والحوادث المواكبة له

المبحث الثاني: نسبه ﷺ

المبحث الثالث: نشأته ﷺ وشبابه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : مولد النبي ﷺ والحوادث المواكبة له

يقدّم هذا المبحث مناقشة لِما ورد في "دائرة المعارف" من بعض الوقائع التي واكبت مولد المصطفى، وكذا الكلام على تحديد تاريخ مولده ﷺ.

المطلب الأول : حادثة أصحاب الفيل

الفرع الأول: التفسير المادي للطير الأبابيل

أولا- عرض ما جاء في "الدائرة":

– جاء في مادة "**أبرهة**" [فقرة: 1]: «ونستطيع أن نجد صلة بين هذه الحرب التي لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل عام (570م)[1] وبين تلك القصص العربية التي تعتمد على القرآن (سورة الفيل) والتي تشير إلى حملة أبرهة الفاشلة على مكة والكعبة.

وإلى جانب هذا النسيج من القصص المعتمد على القرآن رواية ضعيفة مؤداها أن وباء الجدري كان قد انتشر في ذلك الوقت، وهكذا يمكن أن نفترض أن هذا الوباء كان سبباً في تقهـــقر أبرهة أو على الأقل كان ذريعة له إلى العدول عن تلك الغزوة الشاقة»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** Buhl-[3].

ثانيا- التحليل والمناقشة: قبل مناقشة ما جاء في "الدائرة" عن حادثة الفيل أسوق قّصة أصحاب الفيل باختصار.

[1]- موجز قصة أصحاب الفيل: لَمّا غلب "أبرهة الحبشي" على بلاد اليمن، وكان نصرانيًّا، شيَّد كنيسة عظيمة البنيان، وأَلْزم النّاسَ بالحجّ إليها، قاصدا صرف العرب عن الكعبة، فعَمَد بعضُ العرب فاسْتَغفل الْحَجبَة وتغوّط فيها، فلما علم أبرهة استشاط غضبا، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش كبير لا قبل لأهل مكة والعرب به، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائل العرب، ولكنه تغلب عليهم، وعند مشارف مكـــة وجدوا إبلا لعبد المطلب بن هاشم، فاستاقوها، فذهب عبد المطلب إليه، وكان جميل الْهَيْئة تعلوه الْمهابة والوقار، فاستعظـــمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلّمه في الإبل عجب وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا تكلمنـــي في بيت فيه عزّك، وشرفك، وشرف آبائك؟! فـــقال عبد المطلب كلمة صارت مثلا: «أنا رب الإبل، **وللبيت رب يَحمـــيه**»، فأعاد إليه إبِـــلهُ،

---

[1]- وفي المطبوع: (750م) وهو خطأ مطبعي ظاهر.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 62/1.

[3]- سبقت ترجمته في: ص150.

ثم رجع عبد المطلب إلى مكة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بالبيت، وكان في جيش أبرهة فيل عظيم، فصار كلما وجّهوه إلى الطريق المؤدّي إلى مكة أبى وبرك، وإذا وجّهوه إلى غير طريق مكة سار وأسرع، ثم أرسل الله عليهم طيرا أبابيل، في مناقيرها وأرجلها حجارة صغار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليس كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزّق جسمه ومات، وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، ونكّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل، وقد ذكر الله سبحانه هذه القصة في سورة الفيل[1]؛ فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

ثانيا– روايات قصّة الجدري[2] والردّ على "بول – Buhl": حاول المستشرق "بول - Buhl" أن يستند على روايات ورد فيها أنّ جيش "أبرهة" هلك "بداء الجدري" من أجل تفسير حادثة الفيل تفسيرا ماديّا بحتا، بعيدا عن المعجزات الربانية، وما ورد في سورة الفيل من إهلاك هذا الجيش بالطير الأبابيل، فهل هذه الروايات تفيد بأنّ داء الجدري هو الذي أهلك الجيش دون الطير الأبابيل؟

قصّة الجدري التي أشار إليها "بول - Buhl" جاء فيها ثلاث روايات، هي:

– **الرواية الأولى:** عند عبد الرزاق في "تفسيره": من **حديث ابن عباس** ﷺ قال: «لَمّا أَرسل اللهُ الْحجارة على أصحاب الفيل، جَعَل لا تَقع منها حجرٌ بِرَجلٍ منهم إلاّ **نَفَط مكانه**، قال: فذلك أوّلُ **ما كان مِنَ الجدريّ**»[3].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 43/1-54. وسيرة ابن حبان، 34/1-39. والبداية والنهاية، ابن كثير، 139/3-142. وفتح الباري، ابن حجر، 257/12.

[2]– **الجدري:** هو مرض جلدي معد وخطير، يتَمَيَّز بطفح يتقيح في الجلد، يظهر في الوجه، ثم ينتشر في أعضاء أخرى من الجسم، وقد يؤدّي إلى الموت، أو إلى التشوّه أو العمى. ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 110/1. والموسوعة العربية العالمية، 234/8.

[3]– تفسير عبد الرزاق، 461/3. وقد رواه عبد الرزاق عن: عبد الكريم بن مالك الجزري عن عكرمة عن ابن عباس. لكن "عبد الكريم" (المتوفى: **127** هـ) وهو ثقة عند الأكثر، كما في "تهذيب الكمال، المزي، 254/8-255". و"تهذيب التهذيب، ابن حجر، 374/6": ليس من شيوخ عبد الرزاق (الذي ولد سنة **126** هـ، وتوفي **211** هـ) ينظر: تهذيب الكمال، 52/18. وميزان الاعتدال، الذهبي، 609/2. وحسب تاريخ وفاتهما وتاريخ مولد عبد الرزاق فإنهما لم يلتقيا، فدلّ هذا على الانقطاع في الرواية.

كما أنّ الغالب في "تفسير عبد الرزاق" أنّه يروي بواسطة معمر وقتادة وغيرهما عن عبد الكريم؛ ينظر مثلا المواضع التالية: 280/1، 328. و21/3، 202، 339؛ فلا ندري إن كانت هذه الرواية من تدليس عبد الرزاق القليل كما ذكر عنه ابن حجر في "طبقات المدلسين، 34"، أم أنّه خطأ مطبعي، أو سقط في المخطوط. (مع أنّي: راجعت الرواية في طبعتين: طبعة دار الكتب العلمية (1419)، 461/3، وطبعة مكتبة الرشد بالرياض (1410-1989)، 396/2؛ فوجدت الشيء نفسه).

وفي لفظ ابن سعد والطبري: «... فأَقْبلت الطّيرُ من البحر أبابيل، مع كلّ طيرٍ منها ثلاثة أحجار: حجَران في رجليه وحجرٌ في منقاره، فقَذَفت الحجارةَ عليهم، لا تُصيب شيئا إلاّ هشَّمته، وإلاّ نَفِط ذلك الموضع، فكان ذلك أوّلَ ما كان الجدريّ»[1].

– **الرواية الثانية:** عند البيهقي وأبي نعيم من **حديث عكرمة:** في تفسير قوله تعالى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: 3]؛ قال: «كانت طيرًا نَشأَتْ مِن قِبَل البحر... لَمْ تُرَ قبل ذلك ولا بعده، فأَثَّرت في جلودهم **أمثالَ الْجُدريّ**، فإنه لَأَوّل ما رُئي الْجُدريّ[2]»[3].

وفي رواية الطبري: «فإذا أصاب أحدهم خرج به الجُدَرِيّ»[4].

– **والرواية الثالثة:** عند ابن إسحاق من **حديث يعقوب بن عتبة**[5]: أورد ابن إسحاق رواية "يعقوب بن عتبة" بعد سياقه للرواية التي تذكر كيف أنّ الطير الأبابيل أصابت جيش أبرهة فظهر فيهم داء قطع أجسادهم، وكانت صورته على جلودهم كمثل الجدري والحصبة، وسياقه كالآتي:

قال ابن إسحاق: « فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان[6]، مع كلّ طيْرٍ منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك... فخرجوا يَتَساقطون بكلّ طريقٍ، ويهلكون بكلّ مهلك... وأُصيب "أبرهة" في جسدِه، وخرَجوا به معهم تَسقُط أنامِلُه أُنْمَلَةً أُنْمُلةً... حتّى قدِمُوا به صنعاء وهو مثل فرخ الطّائر، فما مات حتّى انْصَدَع صدره عن قلبه، فيما يَزعُمون»، ثم ذكر رواية "ابن عتبة" فقال ابن إسحاق: «حدَّثني **يعقوبُ بن عُتبة** أنّه حُدِّث: أنّ أوّل ما رُئيت الْحَصْبة[7] والْجدريّ بِأرض العرب ذلك العام»[8]، وكذا ذكر الطبري وابن كثير الرواية عن ابن إسحاق بالسياق نفسه[9].

---

[1]– الطبقات الكبرى، 74/1. وتاريخ الطبري، 138/2.

[2]– أي: أول ما رؤي الجدري عند العرب. كما ذكر: الزرقاني في "شرحه على المواهب اللدنية، 165/1".

[3]– دلائل النبوة، 123/1. وحلية الأولياء، 333/3.

[4]– تفسير الطبري "جامع البيان"، 633/24.

[5]– **يعقوب بن عتبة** بْن المغيرة بْن الأخنس: وثقه يحيى بن مَعِين، وأبو حاتم والنَّسائي، والدارقطني، وذكره ابن حبان في الثقات. ينظر: التاريخ الكبير، البخاري، 389/8. والثقات، ابن حبان، 639/7. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 392/11.

[6]– **البلسان:** شجرٌ صِغارٌ كثير الورَق، يَميل إلى البياض، ينْبُت بِمصر. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 152/1. وتاج العروس، الزبيدي، 463/15.

[7]– **الحصبة:** مرض جلدي معدٍ يشبه الْجُدَرِي، يصيب الأطفال خاصة، ويصيب الكبار أيضا. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 246/1. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة باحثين، 420/9.

[8]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 53/1–54. والسير والمغازي، ابن إسحاق، 65.

[9]– تفسير الطبري، 642/24–643. والبداية والنهاية، 147/3–148.

والملاحظ أن هذه الروايات على اختلاف ألفاظها لا تقرّر ما ذكره المستشرق "بول-Buhl" أصلا، وذلك من وجوه:

– **الوجه (1)**: أنّ هذه الروايات تثبت أن الله ﷻ أرسل طيراً على جيش أبرهة رمتهم بالحجارة فأهلكتهم.

– **الوجه (2)**: أنّ أَثَر الحجارة التي رمتهم بها الطيور كان ظهور أورام ونفط على الجلد تماثل داء الجدري، وتدل على ذلك رواية البيهقي: «فأثّرت في جلودهم **أمثالَ الْجُدريّ**»؛ وهذا إنّما يدلّ على أنّ الحجارة التي قذفت بها الطيور هي التي أحدثت تلك الأورام الجدرية، أو داء الجدري، وبالتالي فإن غاية ما تدلّ عليه هذه الروايات هو: أنّ ظهور داء الجدري في جيش أبرهة كان من أثر الطير الأبابيل التي رمتهم بالحجارة –بقدرة من الله عز وجلّ–، ولا تعني أبدا أنّ الطير الأبابيل هي نفسها داء الجدري، لأنّ الجدري هنا هو الأثر والطير الأبابيل هي المؤثِّر – بإذن الله–؛ وشتان بين الأَثَر والمؤثِّر.

– **الوجه (2)**: أمّا قول "بول-Buhl" بأنّ: «**وباء الجدري كان قد انتشر في ذلك الوقت**»؛ فهذا من سوء فهم المستشرقين للسان العرب إذا كان نقل من مصدر عربي، أو من سوء تعبير المترجم إن نقل عن مصدر أجنبي، فإنّ الروايات التي بين أيدينا تفيد: بأنّه بعد رَمْي الطير الأبابيل لِجيش أبرهة بتلك الحجارة أصابهم داءٌ هو الجدري أو كالجدري، هشّم أجسادهم وأتلفها ونخرها حتى الموت؛ فكان هذا أول مرة يرى داء الجدري في أرض العرب، في جيش أبرهة بعد أن أصابته الطير الأبابيل، وقرينة ذلك لفظ «**رُئي**، أو **رئيت**» في الرواية، بمعنى أول ظاهرة رآها الناس وشهدوها، ولا تدلّ على أنّ ذلك الداء كان وباء منتشرا في أرض العرب حينئذ كما توهّم "بول-Buhl"، وأنّه هو السبب الوحيد والمباشر لهلاك جيش أبرهة، وأنه لم تكن هناك طير أبابيل، ولا أنّها رمتهم بحجارة من طين، كما أوعز المستشرق "بول-Buhl".

– **الوجه (4)**: إنّما استند "بول-Buhl" وغيره[1] على رواية يعقوب بن عتبة، والعبارة الأخيرة في رواية ابن عباس وعكرمة، معزولة عن سياقها الذي يوضحها، وفق "**منهجية الانتقاء الكيفي**"، لكنّ التأمل في هذه الروايات بتمامها، دون بتْرِها عن سياقها التي وردت فيه، أو الاستناد إلى بعض منها دون البعض الآخر؛ لا يُمكّن من نفي الطير الأبابيل بداء الجدري، لأن الروايات نفسها تبيّن بأنّ الطير الأبابيل هي التي تركت – بقدرة من الله تعالى– هذا الداء ساريا في الجيش يعيث فيه فتكا وعذابا حتى الموت، نكالا وعقابا من الله ﷻ، وتكريما لبيته العظيم، وعلامة بين يدي مبعث سيد المرسلين ﷺ.

[1]– كما ذهب إلى هذا الرأي من المستشرقين أيضا: – المستشرق مونتجمري وات في "محمد ﷺ في مكة، 68"، وغيره.
– وكذلك المستشرق "درمنغم" في كتابه "حياة محمد" ينظر: "The life of Mohamet , Dermenghem, 20-24".

– **الوجه (5)**: إنّ استدلال المستشرق "بول-Buhl" "برواية الجدري" لنفي معجزة ردّ الله تعالى لِجيش أبرهة بالطير الأبابيل يكشف عن ثغرتين منهجيّتين في طرح المستشرق للقضيّة، هما:

– **الأولى: الاعتماد على الضعيف والواهي لتقرير الحقائق**: فقد قرّر المستشرق "بول" ضعفَ رواية الجدري، عندما قال: بأنّ هناك «**رواية ضعيفة مؤداها أن وباء الجدري قد انتشر ...**»، ثم اعتمد على هذه الرواية لصياغته فرضيّته المزعومة، فقال: «**وهكذا يمكن أن نفترض أن هذا الوباء كان سبباً في تقهقر أبرهة**»؛ لذا يمكن القول بأنّ "بول -Buhl" أَضعفَ نظريّته بنفسه عندما بيّن وهَنَ ما تستند إليه، لأنّ ما بُنِيَ على ضعيف؛ فسيكون أضعف وأوهى مِمّا بُنِيَ عليه، كما أنّ في طرحه هذا أبلغُ مثال على أنّ المستشرقين لا يجدون ضيرا في الاستدلال بما هو ضعيف ما دام يخدم أهداف المدرسة الاستشراقية.

– **الثانية: عدم التقيّد بالأمانة العلمية**: و لم يلتزم المستشرق "بول -Buhl" بالأمانة العلمية –أو على الأقل بالدقّة العلمية– عندما ذكر بأنّ "**مؤدى رواية الجدري أن: وباء الجدري كان قد انتشر في ذلك الوقت**"، مع أنّ الرواية لا تفيد أصلا بأنّ الجدري كان منتشرا آنذاك في بلاد العرب، وإنّما رُئي في جيش أبرهة فحسب بفعل الحجارة التي رمتهم بها الطيرُ الأبابيل.

فالمستشرق "بول -Buhl" تصيَّد هذه الرواية، وانتقى منها أمرا معزولا عن سياقه هو "داء الجدري"، وحاول جعله مستندا لنفي هذه المعجزة الربانية التي سجلها القرآن وصورها أحسن تصوير، واتخذ "بول -Buhl" ذلك ذريعة لإبطال إحدى المعجزات التي تشهد لقداسة الكعبة المشرّفة.

لكنّ المنهج العلميّ القويم يفرض عليه أن يقدّم الرواية بتمامها وسياقها كما وردت المصادر الأصيلة، دون تشويه لحقائقها، أو انتقاء لجزئيات منها على حساب أخرى.

– **الوجه (6)**: جاء في الآية: أنّها حجارة من طينٍ، فأيْن الطّينُ مِنَ الْجراثيم الْجُدَرِيّة؟![1]

– **الوجه (7)**: كما أنّه لو انتشر في ذلك الوقت "وباء الجدري"؛ فلماذا هلك الأحباش وحدهم، و لم يهلك معهم غيرهم من العرب؟ فمتى كان ميكروب الجدريّ أو غيره يُميِّز بين قرشيٍّ وحبشيٍّ؟[2]

فلا يعقل أن يصيب هذا الوباء جيش أبرهة دون غيره من العرب الذين مرّ بهم أو الذين نزل قريبا منهم على مشارف مكة.

– **الوجه (8)**: إذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول ﷺ؛ فمن المعقول أن "سورة الفيل" نزلت على النبي ﷺ في وقت كان يعيش فيه أناس من أهل مكة رأوا حادثة الفيل بأعينهم، وبعضهم من أعداء النبي ﷺ؛ فلو لم تكن الطيور والحجارة المذكورة حقيقيةً؛ لظَهَر من العرب من يسارع إلى

[1]– تتمة أضواء البيان، عطية سالم، 105/9.

[2]– ينظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد النجار، 26. وتتمة أضواء البيان، 105/9.

تكذيب هذه السورة، ويعلن ذلك على رؤوس الأشهاد وينتهزها فرصة للكيد من محمد ﷺ والطعن فيه، والعرب ناقشت وراجعت النبي ﷺ فيما ليس لهم به علم، أفلا يُراجعونه فيما علموه وعاينوه؟[1]

– **الوجه (9)**: ثُمّ متى كان أيّ ميكروبٍ يَفْتِك بقومٍ وبسرعةٍ، فجَعَلهم كعصفٍ مأكولٍ؟ مع أنّ: كلمة ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾؛ تُشعِر بالسّرعة في إهلاكِهم، والعصف اليابس الّذي تعصف به الرّيحُ لِخِفّتِه[2].

● **تنبيه**: أقحَم بعض الكتّاب والعلماء المعاصرين من المسلمين[3] هذا الافتراضَ في تفسير الحادثة، مع أنّه عند الرجوع إلى الرواية التي اعتمد عليها المستشرقون في بناء هذا الافتراض يتبيّن أنّها لا توافقه أصلا، حيث ظهر بطلان هذا الافتراض بالروايات المعتمد عليها نفسها.

لكن **الفرق بين القولين**؛ قول المستشرقين وقول بعض العلماء المسلمين: أنّ المستشرقين حاولوا بهذا القول إظهار الأمر على أنّه لا علاقة له بالمعجزة والخوارق، وإنّما هو وباء عادي أصاب الجيش كما قد يصاب غيره، وبالتالي فليس هناك تعظيم وحماية من الله عز وجلّ لهذا البيت العتيق، أمّا الكتاب المسلمون فإنهم حتى مع قولهم بذلك –وعلى عكس غرض المستشرقين– صوروا الحادثة على أنها معجزة، و لم ينكروا أن يكون الله عز وجلّ صرف جيش أبرهة عن هدم الكعبة، وإنّما كان قصدهم تفسير الحادثة بمعطيات تواكب العصر، وتُساير التطوّرات العلمية الحديثة، وتكون قريبة من عقول الناس وأذهانهم، ولكن مع هذا القصد النبيل فإنّ الإعجاز في ردّ جيش أبرهة بهذا أو ذاك يبقى قائما.

لذا نجد الأستاذ أبو زهرة يذكر أنّه يُمكن القول: «بأنّ الحجارة كانت تحمل معها جرثومة هذه الأمراض الفتاكة، **ولكن ما لا يقبل** هو القول بأن الطير هي جراثيم ذلك المرض، لأن هذا يكون مخالفا لنص الآية الكريمة، إذ أن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة»[4].

قال الأستاذ أبو شهبة –بعد إشارته لهذا الافتراض الخاطئ الذي ذهب إليه بعض المستشرقين وتبعهم فيه بعض الكتاب المسلمين– : «فكيف يرجّح رأي ضعيف يعارض ظاهر القرآن على رأي صحيح يشهد له ظاهر القرآن؟! الحق أن هذا التشكيك ليس له ما يبرره، أما إنكار ما قصه القرآن،

---

[1]– ينظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد النجار، 26.

[2]– تتمة أضواء البيان، عطية سالم، 105/9.

[3]– منهم: الأديب **محمد حسين هيكل** في كتابه "حياة محمد، 119–120": الذي جعل هذا الافتراض حقيقة علمية، وراح يفسر الطير الأبابيل بداء الجدري، ولو رجع إلى هذه الرواية لأدرك أنها لا توافق ما أوهمه المستشرقون – على ما سبق بيانه–، ولظهر له بطلان تأويله هذا بتلكم الروايات نفسها، وقد ردّ عليه محقق "سبل الهدى والرشاد، مقدمة التحقيق، 21/1": وأنكر عليه تقريره لبعض الأمور الخاطئة التي تأثر فيها بالكتاب الغربيين.

– كما اعتمد هذا الافتراض الإمام **محمد عبده**: في تفسير الحادثة، وإن كان كلامه أبعد عن المبالغة في الاعتماد عليه كما فعل "هيكل". ينظر: القول المبين، 426.

[4]– خاتم النبيين ﷺ، 133/1.

وقد كان من المشهورات المسلمات عند العرب، واستعظامه على قدرة الله سبحانه وتعالى، فأثر من ضعف الإيمان واليقين، ولوثة سرت إلى البعض من المستشرقين والمبشّرين»[1].

الفرع الثاني : التفريق بين متشابه الأسماء في قصّة "أبي رغال"

أولا- عرض ما جاء في "الدائرة":

– جاء في مادة "[أبو] **رغال**": «**وتقول الأسطورة أنه هو الرجل المشؤوم الذي قاد أبرهة (انظر هذه المادة) إلى الأرض المقدسة، وأنه توفي في ذلك المكان**»[2]. المحرر هو المستشرق: **كور** –A.Cour[3].

– وفي مادة "**ثقيف**": «**وتذهب رواية مغرضة إلى أن قسي ثقيف هذا هو عين أبي رغال الغادر الذي أرشد جيش أبرهة الحبشي إلى مكة**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[5].

ثانيا- التحليل والمناقشة : تكلّم المستشرق "كور –Cour" في مادة "[أبو] رغال" عن شخصيّة "أبي رغال" على أنّه هو الذي كان دليل جيش أبرهة إلى مكة، بينما اعتبَر المستشرق "لَمنس-Lammens" في مادة "ثقيف": "أبا رغال" الذي أرشد جيش أبرهة الحبشي إلى مكة هو نفسه "قسيّ" جدّ قبيلة "ثقيف" التي تنتسب إليه، مع أنّ أوّل ما يلاحظ على هذا القول أنّ جدّ ثقيف قديم جداً على أن يدرك حادثة الفيل، فهل يصحّ جَمع "لَمنس –Lammens" بينهما؟

جاءت في قصّة "أبي رغال" روايات فرّقت بين شخصيّتين بهذه التسمية، وهذه الروايات هي كالآتي:

[1]– قصّة "أبي رغال" الأوّل: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لَمّا مَرّ النّبِيُّ ﷺ بالْحِجر[6] قال: ((لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ -يَعْنِي النَّاقَةَ- تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ،

---

[1]– السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 170/1.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 340/1.

[3]– **كور** "A.Cour" (ت: 1945م): مستشرق فرنسي، عُيّن أستاذاً للعربية في قسنطينة بالجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، له عدّة مؤلفات وبحوث، منها: "شاعريّة ابن زيدون الأندلسي"، و"قسنطينة عام (1802م)" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 844/2.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 205/6.

[5]– **لَمنس هنري** "H.Lammens" (1862–1937م): مستشرق وراهب يسوعي، بلجيكي المولد فرنسي الجنسية، تعلم اللاهوت في إنجلترا، وكان أستاذا للأسفار القديمة في كلية روما، ثم استقر ببيروت فتولى إدارة جريدة "البشير" التبشيرية، ودرّس في الكلية اليسوعية، من آثاره: "تاريخ سوريا"، و"مهد الإسلام"، و"القرآن والحديث"، وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1068/3. موسوعة المستشرقين، بدوي، 503. الأعلام، الزركلي، 99/8.

[6]– **الحِجْر**: موضع بوادي القرى بين المدينة والشام، وبها كانت منازل ثمود قوم صالح عليه السلام، وتبعد الحجر عن المدينة حوالي (344 كلم) شمالا. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 221/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 93.

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، فَأَهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلاّ رَجُلاً وَاحِدًا، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ)) قيل: مَنْ هو؟ قال: ((**أَبُو رِغَالٍ**، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ))[1].

● وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول حين خرَجْنا معه إلى الطّائف، فمَرَرْنا بقبرٍ، فقال رسول الله ﷺ: ((هَذَا قَبْرُ **أَبِي رِغَالٍ**، وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ مَعَهُ))؛ فابْتَدرَه النّاسُ فاسْتَخْرجوا الْغُصْنَ[2].

وفي لفظ ابن حبان والبيهقي: قوله ﷺ: ((هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ **وَهُوَ أَبُو ثَقِيفٍ** وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ))، والمعنى : أنّه أبو **قبيلة ثقيف**[3]؛ أي: جدهم الأكبر، كما روى عبد الرزاق عن **الزّهريّ** أنه قال: «**أَبُو رِغَالٍ أَبُو ثَقِيفٍ**»[4].

فهذه الروايات تدلّ على أنّ "**أبا رغال**" هو **رجل من ثمود** قوم النبي صالح عليه السلام.

وعلى القول بثبوت رواية عبد الله بن عمرو ﷺ وقول الزهري، فإنّ أبا رغال هذا هو الجد الأكبر لقبيلة ثقيف، كما تدلّ على ذلك الزيادة التي عند ابن حبان والبيهقي، ولفظ الروايتين يحتمل أن يكون هو ثقيف بحد ذاته، أو أنّه أبوه.

وعلى القول بضعف حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، بالإضافة إلى اعتبار أنّ ثمود بادت جميعا و لم يبق لهم عقب؛ فإنّ أبا رغال المذكور قد لا يكون جدّ ثقيف، بل حتّى ولو قلنا بتحسين حديث "عبد الله بن عمرو" ﷺ باعتبار أنّ له شاهداً من حديث جابر ﷺ، فإنّ حديث جابر حينئذ يشهد له

---

[1]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 66/22. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، 77/14. **والحاكم**، المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأعراف، 351/2، واللفظ له.

والحديث: صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وابن كثير في "تفسيره، 440/3"، وحسّن إسناده ابن حجر في "فتح الباري، 460/6".

[2]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (مع عون المعبود)، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب نبش القبور العادية، 240/8. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، 78/14. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 297/6. واللفظ لأبي داود.

والحديث: قال فيه المزي "تهذيب الكمال، 11/4": «حسن عزيز»؛ ووافقه في تحسينه بشار عواد معروف، لكن ضعّفه شعيب الأرنؤوط في تحقيق "صحيح ابن حبان، 78/14"؛ لأن في سنده "بُجير بن أبي بُجير" ولم يوثقه إلا ابن حبان، وذكر ابن حجر في "تهذيب التهذيب، 418/1": أنّ "بُجيراً" مجهول؛ فإذا أُخذ في الحسبان توثيق ابن حبان "لبجير"-مع سكوت البقية عنه-، وكون حديث جابر السابق شاهداً له كما ذكر ابن كثير "البداية والنهاية: 318/1"؛ فإنّ في ذلك قد يرفعه من دائرة الضعف - والله أعلم-.

[3]- **ثقيف**: قبيلة كبيرة من هوازن، من العدنانية، اشتهروا باسم أبيهم "**ثقيف**"، واسْمه: **قسيّ بن منبه** بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس بن عيلان، واستقرت ثقيف في مدينة الطائف الحصينة وما حولها. ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 25/1. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 148/1.

[4]- تفسير عبد الرزاق، 84/2. وتفسير الطبري، 297/10.

في أصل القصة فحسب، أما زيادة أنّ: «أبا رغال هو أبو ثقيف»؛ فلا يشهد لها حديث جابر ﷺ لأنّها ليست إلا في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

وهناك رواية أخرى لأهل الأخبار تعطي تفسيرا آخر لشخصية "أبي رغال": حيث تعتبر بأنّ ثقيف جد القبيلة ليس "أبا رغال" وإنّما هو قاتل "أبي رغال"، وأن "ثقيف" سمّي "قسيّا" لأنّه قسى عليه وقتله[1].

وهذه الرواية يمكن أن تفهم على احتمالين: **الأول**: أنّ "أبا رغال" هذا هو شخصية أخرى غير المذكورة في الحديث، وعندئذٍ لا مانع من الأخذ بهذه الرواية في الأخبار التاريخية ما دامت توافق العقل، ولا تُخالف الروايات الصحيحة.

و**الاحتمال الثاني**: هو تقديم هذه الرواية غير المسندة -والتي لا زمام لها ولا خطام- في تفسير شخصية "أبي رغال" على الرواية الحديثية الموثقة بالإسناد المتصل وبالحسّ والتاريخ؛ فهذا الاحتمال مردود.

و**الحاصل**: أنّ حديث جابر ﷺ وحديث عبد الله بن عمرو ﷺ يدلان على أنّ "أبا رغال" هو رجل من قوم النبي صالح عليه السلام، وأنّه هلك مع قوم ثمود في القصة المذكورة، وأنّ ذلك حدث قبل قرون عديدة وسنين مديدة من عصر النبي ﷺ، سواء أكان "أبو رغال" هذا هو جدّ "ثقيف" الذي ينتسبون إليه أم لا؛ فهذا هو **"أبو رغال" الأول**.

[2]- قصّة "أبي رغال" الثاني: وهي مذكورة في كتب السيرة ضمن حادثة أبرهة وأصحاب الفيل:

قال **ابنُ إسحاق**: «فبعثوا مَعَه [أي: مع أبرهة] "**أبا رغال**" يدُلّه على الطّريقِ إلى مكّةَ، فخَرَج "أبرهةُ" ومعه **أبو رغالٍ** حتّى أَنْزَله الْمُغَمِّس، فلمّا أَنْزَله به مات أبو رغال هنالك، فرَجَمَت قبْرَه العربُ»[2].

رواية ابن إسحاق هذه وإن كانت غير موثقة على منهج النقد التاريخي عند المحدثين، ولكنّ أصلها ثابت من قصة أبرهة الحبشي وأصحاب الفيل في القرآن والسنة، ولا مانع حينئذ من قبول هذه الرواية في تفاصيل الأحداث ما دامت لم تخالف أمراً ثابتا تاريخيّا أو حسّا أو عقلا، خاصة وأنّها رواية تدل عليها القرائن، وهي مشهورة مستفيضة في كتب السيرة والتاريخ.

والملاحظ أنّ هذه الرواية تحدّثنا عن شخصية "أبي رغال" بأوصاف مخالفة تماما لشخصية أبي رغال في الروايات السابقة - من حديث جابر وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وغيرها -:

فالأوّل: من قوم ثمود وحادثته أنّه منعه الحرم بإذن من الله تعالى من الهلاك مع قوم ثمود، فلما خرج من الحرم هلك بما أُهلكوا به، وذلك قبل قرون عديدة من مولد النبي ﷺ ومبعثه.

---

[1]- ينظر: المعـــارف، ابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، 91. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 203/6؛ وقال "جواد عليّ" بعد ذِكر هذه الرواية: وهو خبر وضعه أناس من ثقيف للدفاع عن أنفسهم، إذ اتُّهموا بأن "أبا رغال" منهم.

[2]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 47/1. وينظر: تاريخ الطبري، 132/2. وسيرة ابن حبان، 35/1-36.

أما **الثاني**: فكان دليلَ "أبرهة الحبشي" ومرشده إلى مكة، وأنّه هلك في مكان قريب من مكة، وكان ذلك في زمن قريب من مولد النبي ﷺ.

وبالتالي فإنّ هذه الروايات مجتمعة تدلّ على أنّ هناك شخصيّتين مختلفتين تماما، في حدثين مختلفين، وقعا في زمنين متباعدين، مع التشابه في الاسم، وفي سوء منقلب كلّ منهما وشؤمه، وفي تعلّق مكان وقوع الحادثتين بمكّة؛ "**فأبو رغال الأول**" قديم جّدا وقعت قصّته في زمن النبي صالح عليه السلام، و"أبو رغال الثاني" وقعت قصّته بعد ذلك بعشرات القرون وفي عام الفيل الذي صادف مولد المصطفى ﷺ.

وهو ما نبّــه عليه الإمام ابن كثير في "تاريخه" حيث قال: «والجمعُ بيــن هذا[1] وبين ما ذَكَــر ابنُ إسحاق أنّ أبا رغال هذا الْمُتَأخِّر، وافَق اسْمُه اسمَ جدِّه الأعلى، ورَجَمهُ النّاس كما رجموا قبر الأول أيضاً»[2]، وكذا فرّق بينهما الزرقاني[3].

ومع ذلك فإنّ المستشرق "لَمنس –Lammens" وقع في خطأ علميّ عندما خــلَط بين شخصيّتَي "أبي رغال" للتشابه في الاسم، ولم يفرّق بينهما مع البون الشاسع بين زمنيهما.

[1]– يقصد بذلك قصة "أبي رغال" الواردة في حديث جابر ﷺ وعبد الله بن عمرو ﷺ.

[2]– البداية والنهاية، 143/3.

[3]– ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 7/4.

المطلب الثاني : تحديد تاريخ مولده ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**أبرهة**" [فقرة: 2]: «... **وعام هذا الحادث** [أي: حادثة أصحاب الفيل] **الذي يعرف "بعام الفيل" نسبة إلى الفيلة التي استخدمها أبرهة: هو عام (570م) كما تقول المصادر المتأخرة، ويعتبر هذا العام في العادة عام مولد النبي»**[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** -Buhl[2].

– وفي مادة "**تأريخ**": «**وبمقتضى هذا التاريخ يكون مولد محمد ﷺ في سنة (882) للإسكندر**[3]»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **بلسنر** -M.Plessner[5].

– وجاء في مادة "**حمزة**" [فقرة: 1]: «... **على أنه إذا صح رأينا الذي يحتّم إسقاط عشر سنين من عمر النبي وهو يتراوح بين الستين والخامسة والستين على حدود القول الشائع فإنه ينبغي إسقاط عشر سنين**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 62/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– **تعقيب محمد مسعود** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 471/4-472]: «**صح ما ذكره مؤلف المادة من أنّ مولد النبي محمد ﷺ كان في سنة: 882 من عهد ذي القرنين، الموافقة سنة: 571 من التاريخ المسيحي، وسنة 216 من التاريخ العربي (الجاهلي) الذي أشهُره هي أشهُر التاريخ الهجري الحاضر بأسمائها وترتيبها، وسنة أربعين (40) من ملك كسرى أنو شروان، كما توافق الأيّام التي تلت قران السيارين زحل والمشتري في برج العقرب، وهو القران المعروف بـــ"قران ملة الإسلام" أو "قران الملة" فحسب... وقد ثبت بالحساب الفلكي الدقيق أن هذا القران حدث سنة 571م، كما جاء في كتاب "الكامل في أسرار النجوم" وكتاب "القرانات" لأحمد بن عبد الجليل وكلاهما من مخطوطات دار الكتب الأهلية بباريس. وهذا دليل على أنه صلوات الله عليه ولد في تلك السنة وفي فصل الربيع منها، في الأيام أو الأسابيع القليلة التالية لشهر مارس أي: في شهر نيسان (أفريل). ولكن في أيّ يوم من هذا الشهر كان مولده ﷺ وما مقابله من التاريخ العربي؟ الجواب: إنّ الذي عليه الإجماع في مولده ﷺ هو أنّه كان لثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول... لكنّ الحقيقة أن تاريخ مولده ﷺ مختلف فيه بفروق أيام قليلة، فقد قيل أنّه كان لعشر ليال مضت من ربيع الأول، وذهب الحافظ الدمياطي إلى أنّه كان لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقال ابن دحية "أنه كان لثمان مضت منه، وأنّه هو الذي لا يصحّ غيره، لأنّ عليه إجماع أهل التاريخ".**

وقد تناول المغفور له محمود حمدي باشا الفلكي المصري الذي شرّف مصر ورفع رأسها عاليا بين علماء أوربا في مستهل النصف الثاني من القرن الماضي ببحوثه ومصنفاته التي طبعت كلّها في دار الطباعة الإمبراطورية بباريس، تناول ذلك الاختلاف بالتحقيق والتمحيص... فأدى به التحقيق الدقيق والتمحيص العميق إلى تقرير الحقيقة الآتية وهي: أنّ مولد النبي ﷺ كان في ليلة الإثنين الموافق 9 من ربيع الأول سنة 216 من تاريخ العرب. وقد ساق في مساق التدليل على صواب تحقيقه هذا اثنى عشر وجها تاريخيا وفلكيا، تخلص منها إلى أنّ التواريخ المختلف فيها لمولده عليه السلام وهي: 8، 10، 12 من ربيع الأول ليس منها ما يطابق وقوعه يوم الإثنين، وأن الإثنين إنّما كان يوم 9 ربيع الأول الموافق 20 أفريل سنة 571 من ميلاد المسيح».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 471/4.

[5]– **بلسنر** "M.Plessner" (1900-1973م): مستشرق يهودي، درّس العربية في ألمانيا، وفي القدس المحتلة، له دراسات قليلة منها: "ابن وحشية"، و"المخطوطات العربية في إستانبول". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 793/3. موسوعة المستشرقين، بدوي، 131.

أخرى من عمر حمزة[1]»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[3].

– وفي مادة "**زمان**": «**وعام الفيل** (571م) **عند بعض المؤرخين هو العام الذي ولد فيه محمد** عليه السلام»[4].

محرر المادة هو: **محمد عبد الهادي أبو ريدة**[5].

– وفي مادة "**محمد** ﷺ **نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 2]: «**من الصعب الإجابة بدقة قاطعة عن أول سؤال يفرض نفسه على كاتب السيرة، وهو متى ولد محمد** ﷺ **؟ لقد استغرق نشاط محمد** ﷺ **في المدينة نحو عشر سنوات (من وقت هجرته عام 622م إلى عام وفاته وهو 632م)... ومع ذلك فليس ثَمّة سبب وجيه يدعونا إلى الشك فيما ذهبت إليه قصيدة ينسبها البعض إلى أبي قيس بن أبي أنس، والبعض الآخر إلى حسان بن ثابت، من أن دعوة محمد** ﷺ **إلى الإسلام في مكة دامت عشرا وبضع سنين. ويذهب كتّاب السيرة عادة إلى أنه كان عند بدء الدعوة في الأربعين، بينما يذكر البعض أنه كان في الثالثة والأربعين. فإن أخذنا هذا وغيره من التواريخ التي ذكرناها في الحسبان، أمكن القول بأن محمداً** ﷺ **ولد حوالي عام (570م)، ومع ذلك فإنه حين تذكر الروايات أنه ولد عام الفيل، فالواجب اعتبار هذا القول غير مقبول حيث إن هجوم أبرهة على مكة حدث قبل عام (570م) بمدة طويلة، والأفضل القول إنه ولد بعد عام (570م) خلال العقد الثامن من القرن السادس، وأن نترك موضوع تَحديد عام مولده مفتوحا**»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – F.Buhl[7].

– وجاء في مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 1]: «**وقد ولد محمد** ﷺ **في مكة سنة (570م)**»[8].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** - M.Watt[9].

---

[1]– **تعقيب أحمد شاكر** [على هامش المادة في الموضع نفسه من "الدائرة"]: « **لماذا كان رأي لَمنس أنه يجب إسقاط عشر سنين من عمر رسول الله** ﷺ**؟ لا أدري، ولكنه لا غرض له إلا أن يفتري على المسلمين ويرميهم بالكذب**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/8.

[3]– سبقت ترجمته في: ص211.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 378/10.

[5]– **محمد عبد الهادي أبو ريدة** (1909–1991م): مفكّر مصري، خريج قسم الفلسفة في جامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه من سويسرا، اشتغل أستاذا في جامعة القاهرة، كما درّس مدة في السّوربون بفرنسا، ثم عمل أستاذا في قسم الفلسفة بجامعة الكويت، من مؤلفاته: "مبادئ الفلسفة والأخلاق"، و"نصوص فلسفية عربية" وغيرها.

ينظر: موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org/wiki/محمد_عبد_الهادي_أبو_ريدة).

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9112/30.

[7]– سبقت ترجمته في: ص150.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9596/31.

[9]– سبقت ترجمته في: ص59.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

تكلّم المستشرقون في نصوصهم المذكورة عن تاريخ مولد النبي ﷺ، ويبدو أنّ جلّهم ركّز على تحديد سنة مولده، دون ذكر الشهر واليوم الذي ولد فيه، لذا سأتكلّم عن سنة مولده أولا، ثم أقفي بالكلام على شهر ويوم مولده.

أولا- تحديد سنة مولده ﷺ: المشهور الذي عليه جماهير علماء الحديث والسير والتاريخ[1] أنّ النبي محمداً ﷺ **ولد عام الفيل**[2]، وعام الفيل هو: العام الذي وقعت فيه حادثة الفيل[3] السابق ذكرها.

وخالف في ذلك: **ابن أبزى** فقال: قبل عام الفيل بعشر سنين، **وموسى بن عقبة** فقال: بعد الفيل بثلاثين سنة، وقال **أبو زكريا العجلاني**: بعد الفيل بأربعين عاما، وفي رواية ضعيفة عن **شعيب بن شعيب** عن أبيه عن جدّه: بعد الفيل بثلاث وعشرين سنة، وكذا ما رواه **الكلبي** -وهو متروك كما سبق[4]- عن ابن عبّاس: قبل الفيل بخمس عشرة سنة؛ وكلّها أقوال مبنية على **روايات منقطعة وضعيفة** وواهية كما ذكر الذهبي وابن كثير وأكرم ضياء العمري[5].

ولضعف هذا الخلاف وانقراضه؛ حكى بعض العلماء الإجماع على أنه ﷺ ولد عام الفيل: كإبراهيم بن المنذر شيخ البخاري، وخليفة بن خياط[6].

---

[1]- حتى يكاد يكون إجماعا، بل حُكي فيه الإجماع - كما سيأتي-، ولوقوع الخلاف فالأولى القول: بأنه يكاد يكون إجماعا، أو أنه أمر متفق عليه مع خلاف ضعيف لا يعتدّ به.

[2]- وقد رجّح ذلك وصحّحه كثير من علماء هذا الشأن قديما وحديثا؛ ومنهم على سبيل المثال: ابن إسحاق كما في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 158/1-159". وخليفة بن خياط في "تاريخه، 53". والطبري في "تاريخه، 155/2-156". وابن حبان في "سيرته، 33/1". وابن الجوزي في "سيرته، 14". والذهبي في "تاريخ الإسلام، 482/1-483". وابن القيم في "زاد المعاد، 74/1". وابن كثير في "البداية والنهاية، 375/3-377". وأبو شهبة في "سيرته، 173/1". والعمري في "سيرته، 96/1"، وغيرهم كثير.

[3]- **عام الفيل**: هو العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي غزو مكة وهدم الكعبة فرده الله عن ذلك بالآية الباهرة التي وصفها القرآن - على ما سبق تفصيله-، فاستعظم العرب هذا الحادث، وأرّخوا به، وقالوا وقع هذا في عام الفيل، وولد فلان في عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السّنين وهكذا. ينظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 82. وفقه السيرة، البوطي، 44.

[4]- ينظر: ص163.

[5]- ينظر: تاريخ خليفة بن خياط، 52-53. وتاريخ الإسلام، 483/1-484. والبداية والنهاية، 380/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 97/1. بل إن الذهبي "تاريخ الإسلام، 485/1": لم يستبعد أن يكون من قال ولد بعد الفيل بثلاثين وأربعين عاما، وقع في زلّة لسان؛ فكأنّه أراد أن يقول يوما فقال عاما.

[6]- ينظر: تاريخ خليفة بن خياط، 53. وتهذيب الأسماء واللغات، 23/1. والبداية والنهاية، 377/3-380.

تنبيه: حكاية ابن المنذر وابن خياط هنا للإجماع لا تعني عدم اطّلاعهما على الخلاف في ذلك، فإنّ كلا منهما ذكر قول مَن قال بخلاف هذا القول، فخليفة بن خياط مثلا ذكر قول من قال بخلافه ثم ضعفه وجعل الأمر محلّ اجتماع؛ وبالتالي فهما عارفان بالخلاف، والذي يظهر أنّهما حكيا الإجماع على ذلك لضعف الخلاف في المسألة، ولقلّة من خالف، حتى إنهم يعدّون على الأصابع - كما سبق-، ثم استقر الإجماع بعدهم وانقرض الخلاف، ولم يعد هناك من يقول بخلافه.

بينما جعل ابن الجوزي الأمر: محلّ اتفاق[1].

كما دلّت الروايات الصحيحة المتصلة إلى بعض الصحابة أنّه ﷺ ولد عام الفيل، ومنها:

- **حديث ابن عباس** ﷺ قال: «وُلِد النّبيّ ﷺ عامَ الفيل»[2].
- وحديث **قيس بن مخرمة** ﷺ قال: «وُلِدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل»[3].
- وحديث **قباث بن أشيم** ﷺ قال: «وُلد رسول الله ﷺ عام الفيل، وتَنبَّأ على رأس الأربعين مِنَ الفيل»[4].

قال **إبراهيم بن المنذر**[5] (من شيوخ البخاري): «الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل»[6].

وعام الفيل: الذي ولد فيه رسول الله ﷺ يوافق عدّة تواريخ كما ذكر المستشرق "بلسنر-Plessner" محرر مادة "تاريخ"، والأستاذ "محمد مسعود" في تعقيبه على مادة تاريخ؛ فيوافق:

- سنة (882) من تاريخ الإسكندر[7]، كما جاء في مادة "تاريخ".
- وسنة (40) من تاريخ كسرى أنو شروان، وقيل: سنة (42)[8].
- وذلك: قبل الهجرة بثلاثة وخمسين (53) سنة[9].

---

[1]- ينظر: تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير، 14. وصفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري ومحمد قلعه جي، 52/1.

[2]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين، 658/2. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 75/1. واللفظ للحاكم. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[3]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب المناقب، باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ، 63/10. وأحمد، المسند، 422/29. والحديث: صححه الحاكم، وحسنه الترمذي، وكذا الذهبي في "تاريخ الإسلام، 483/1"، وشعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[4]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر قباث بن أشيم ﷺ، 724/3. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 78/1.

والحديث: فيه ضعف يسير لأن في سنده الزبير بن موسى، ولم يوثقه سوى ابن حبان "الثقات، 332/6"، لكن الحديثين السابقين يشهدان له – والله أعلم–.

[5]- ترجمته في: تهذيب الكمال، المزي، 207/2. تهذيب التهذيب، ابن حجر، 166/1.

[6]- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 74/3. وتاريخ الإسلام، 483/1.

[7]- وقيل: سنة (881). ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 377/3. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 523/8.

[8]- ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 92/1. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، 118/2. والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 415/1. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 522/8.

[9]- ينظر: عيون الأثر في المغازي والسير، ابن سيد الناس، 34/1. وفقه السيرة، الغزالي، 61.

●ويوافق: سنة (570) أو (571) لِميلاد المسيح عليه السلام[1]، ورجح "مونتجمري وات- Watt" في نصّه المذكور من مادة "مكة" أنّ مولده سنة (570م)، بينما رّجح الأستاذ "أبو ريدة" في مادة "زمان" سنةَ (571م)، ورجّح ذلك أيضا الأستاذ "محمد مسعود" في تعقيبه المذكور على مادة "تاريخ".

ويرجع الخلاف في ذلك إلى: تقدير السنة الذي ولد فيها النبي ﷺ بالعام الميلادي، هل وافق عام (570م)، أم (571م)[2].

أو ربّما يوافق: العقد الثامن من القرن السادس الميلادي (أي: ابتداء من 580م وما بعدها)، على ما ذكره المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد"، أو نَحوه في سنة (581م): كما ذكر الأستاذ المؤرخ جواد علي، والمستشرق بروكلمان[3].

● **الردّ على دعوى المستشرق "بول- Buhl"**: لكن الأستاذ "جواد علي" والمستشرق "بروكلمان" كانا أدقّ من "بول -Buhl" محرر مادة "محمد ﷺ"، لأنّ جواد علي اعتبر عام الفيل بالنسبة لِمولده ﷺ عاملا ثابتا، ثم قدره بالتقويم الميلادي على أنّه العامل المتغيّر، فذكر جواد علي وبروكلمان أنّ عام الفيل يوافق سنة (570/ 571م) في المشهور، ثُمّ قدّره "جواد علي" -على رأي آخر- سنة (581م)، بينما رجّح "بروكلمان" أن يكون بعد (570م) بعدة سنوات.

في حين أنّ المستشرق "بول - Buhl" هنا عكس الأمر؛ فجعل الصحيح الثابت -الذي هو عام الفيل- بالنسبة لمولد النبي ﷺ عاملا متغيّراً، حَسْب تغيّر تقديره بالسنة الميلادية، وهذا خطأ منهجيّ في التقدير؛ لأنّ الصحيح أن يُجعل عام الفيل هو الأصل الثابت الذي يقاس به مولد النبي ﷺ، لا أن يكون تقويم عام الفيل بالتاريخ الميلادي هو الأصل الثابت في ذلك.

---

[1]- وهو ما ذهب إليه كثير من المستشرقين المشتغلين بالتقاويم كما ذكر جواد علي في "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 53/1". وينظر أيضا: حضارة العرب، غوستاف لوبون، 101. وتاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، 32. ومحمد ﷺ في مكة، مونتجمري وات، 93. ودائرة المعارف الإسلامية، إص1، 378/10، إص3، 9596/31.

وذهب إلى ذلك أكثر الباحثين والعلماء المسلمين المعاصرين كما ذكر أكرم ضياء العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 97/1". وينظر في ذلك : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 173/1. والقول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد النجار، 79. وفقه السيرة، الغزالي، 61. والسيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 157. وغيرهم.

[2]- ولعلّ عام الفيل قد وقع بعضه سنة (570م)، وبعضه سنة (571م)؛ لأنّ العام الهجري في الغالب لا يوافق الميلادي، للاختلاف في عدد الأيام بينهما، فيأتي بعض العام الهجري في أواخر الميلاد وبدايته، والعكس صحيح، ولعلّ هذا الأمر هو الذي قوّى الخلاف بين هذين العامين (750 / 751م)، ولا إشكال في ذلك ما دام مولده ﷺ ثابت أنّه في عام الفيل، وهو تقويم معتبر عند العرب آنذاك والمؤرخين بعدهم؛ سواء أصادف سنة (750م) أم (751م) أم غيرها من التقاويم.

[3]- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 507/3-508. وتاريخ الشعوب الإسلامية، 32. (معتمدا في ذلك على رأي لَمنس؛ وقد ناقشه المترجم في هذا الرأي، فيراجع هناك).

كما يمكن أن نسجّل عدّة ملاحظات ومؤاخذات على هذه الدعوى التي ذهب إليها المستشرق "بول -Buhl"، والتي منها:

- الملحظ (1): تقليد المستشرق "بول - Buhl" للمستشرق "لَمنس- Lammens" في ذلك: من خلال ما جاء في النص المذكور من مادة "حمزة"؛ يُعلم مستند المستشرق "بول -Buhl" في دعواه، وأنّه إنما كان مقلدا فيه لِلمستشرق "لَمنس"، وهو معروف بين أوساط المستشرقين والعلماء المسلمين بالافتراضات المبالغ فيها، والتي تعبّر عن نزعة عدائية ظاهرة للإسلام ونبيه ﷺ، ومقصد المستشرق "لَمنس- Lammens" من هذا الرأي صريح في التشكيك في نبوة محمد ﷺ، حيث حاول أن يؤخّر مولد النبي ﷺ عشر سنوات، حتى ينقض القول المعروف بِمبعثه على رأس الأربعين من عمره؛ ويخرج بذلك إلى القول بأنّه ما دام الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين ومحمد ﷺ صدع بالدعوة على رأس الثلاثين فهو ليس نبياً[1]، وهذا الأمر يجيب عن الإشكال الذي طرحه الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه على هذه الجزئية من مادة "حمزة"، ويبين هدف المستشرق "لمنس" من هذا الافتراض الخاطيء المخالف للحقائق التاريخية والشرعية المجمع عليه عند المسلمين.

وغفل "لمنس- Lammens" ومن تعبه من المستشرقين عن أنّ مبعث النبي ﷺ على رأس الأربعين من عمره – بغضّ النظر عن تاريخ مولده– أمرٌ ثابت في القرآن الكريم، ومتواتر بين الصحابة الذين كانوا شاهدين كلهم على أمر بعثته وهو خطب جلل، لو سلّمنا جدلا أنه لم تكن لهم عناية بأمر مولده، لأنّ مولده لم يكن الحادث الأعظم الذي غيّر مسار التاريخ ومسار حياتهم، بل هو بعثته ﷺ.

بل إنّ هذا الافتراض ليس له أثر في دراسات المستشرقين، بل حتى في "دائرة المعارف" نفسها؛ حيث نجد المستشرق "بول-Buhl" في "محمد ﷺ"[2]، والمستشرق "أندس" في مادة "مجاور"[3]، والمستشرق "وات" في مادة "مكة"[4] من "الدائرة" يقرّرون أن مبعث النبي ﷺ كان في سنّ الأربعين.

والمستشرق "لَمنس" معروف عند الباحثين المستشرقين والمسلمين بتعسّفه وشذوذ آرائه وطعونه الصريحة في الإسلام[5] واعتماده على الواهي والشاذ وما لا يعتدّ به.

---

[1]- ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، 32؛ الهامش: تعليق الأستاذ عمر فروخ. والاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، 58-59.

[2]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9114/30.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، إص3، 9037/29.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، إص3، 9597/31.

[5]- ينظر كلام بعض المستشرقين والعلماء المسلمين عن تعسّف "لَمنس" ومجافاته للمنهج العلمي في كتاباته عن الإسلام في: الاستشراق والمستشرقون، السباعي، 48. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 503-504. ومن المستشرقين: محمد ﷺ في مكة، مونتجمري وات، 44. وأيضا: كتاب المستشرق "درمنغم": "The life of Mohamet , Dermenghem, X".

– الملحظ (2): قيام رأي "بول- Buhl" على منهجية "تقديم الضعيف على الصحيح الثابت": الأمر الصحيح الذي تثبته الروايات وتعضّده أقوال العلماء قديما وحديثا بأنّ مولد رسول الله ﷺ كان عام الفـــيل، وهو الذي ينبغي أن يعتبر أصلا ومستندا تُبنى عليه بقية التقديرات، حيث دلّت عليه الروايات الصحيحة عن الصحابة ﷺ، وهم الذين عاصروا شهودَ العيان على حادثة الفيل التي أعظمها العرب وأرخوا بها، وبذلك كان قولهم حجة ودليلا تاريخيا لا يصحّ مخالفته، تقاس عليه بقية الافتراضات والاحتمالات؛ فيقال ولد الرسول محمد ﷺ عام الفيل، سواء وافق هذا العامُ سنةَ (570م) أم (751م) أو (581م).

وهو ما جزم به علماء الحديث والسيرة والتاريخ ولم يصحّحوا غيره كإبراهيم بن المنذر "شيخ البخاري"، وخليفة بن خياط وابن الجوزي والذهبي وابن كثير وأكرم ضياء العمري وغيرهم، واعتبروا قول من قال بخلافه ضعيفا ومستندا إلى الضعيف والواهي من الروايات – كما سبق بيانه–؛ وعلى ذلك كان قول المستشرق "بول -Buhl" محرر مادة "محمد" قولا معتمدا على الضعيف والشاذ، معارضا للصحيح المعروف والمتفق عليه، ولا يستبعد من المستشرق وغيره سلوك هذا المسلك لتقرير رأي قد يخدم غرضا من أغراضهم، أو يشكّك – أو على الأقل يثير الشكّ– في أمر مقرّر في السيرة النبوية، ويساعد على الطعن – ولو بطريق غير مباشر– في نبوة محمد ﷺ.

لذا يبقى القول المعتمد في تقدير مولده ﷺ بالعام الميلادي أنّه: يوافق (570 أو571م) وهو قول الأكثرين، وتؤيده الدراسات الفلكية الحديثة التي قام بها علماء فلك مسلمون في أوربا والعالم العربي، كما ذكر محمد مسعود في تعليقه المذكور على مادة "تاريخ".

– الملحظ (3): عدم أخذ المستشرقِين برأي "بول - Buhl" و"لَمنس- Lammens" في سنة مولده ﷺ: زيادة على ما سبق فإن نظرية المستشرقَيْن "لمنس" و"بول" في تأخير مولده ﷺ إلى ما بعد (580م) لم تلق أيّ أثر أو رواج بين المستشرقين أنفسهم، فضلا على أن تلقى قبولا عند علماء الإسلام، بل حتى المستشرقون الذين حرّروا مواد "دائرة المعارف الإسلامية" لم يعتمدوا هذا الافتراض فيما كتبوه، فبعد تتبعي لمجموعة من نصوص المستشرقين في "دائرة المعارف" – إضافة إلى النصوص الصريحة المذكورة هنا- وجدتهم يعتمدون في تقدير التاريخ الميلادي للسنوات الهجرية في مجموعة من أحداث السيرة على اعتبار أنّ مولده ﷺ كان بين (570-571م).

ومن الأمثلة على ذلك: ما جاء في مادة "العمارة": حيث جعل المستشرق "كرسويل -Creswel" سنة (5 هـ): توافق سنة: (627م)[1]، وفي مادة "مكة" ذكر المستشرق "وات - Watt" أنّ بداية نزول الوحي عليه ﷺ كان سنة (610م)[2]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

– **الملحظ (4): عدم أخذ المستشرق "بول - Buhl" نفسه برأيه هذا فيما حرّره في "الدائرة":** بل حتى المستشرق "بول -Buhl" نفسه، وكذا في مادة "محمد ﷺ" نفسها – بعد صفحات قليلة من هذا الافتراض الخاطئ- نجده ينقض قوله ويقدر التاريخ الميلادي بالتاريخ الهجري على أساس أن مولده ﷺ كان سنة (570م) ويكرّر ذلك في مواضع عدة[3]؛ مما يؤكّد عدم صحة افتراضه تطبيقيا من خلال ما كتبه هو نفسه أو كتبه غيره من المستشرقين في "دائرة المعارف".

ثانيا– تحديد اليوم والشهر الذي ولد فيه النبي ﷺ: لم يرد الكلام على تحديد يوم وشهر مولده في نصوص المستشرقين السابقة[4]، وإنّما تكلّم على ذلك الأستاذ "محمد مسعود" في تعقيبه السابق على مادة "تاريخ".

فقد ثبت في الروايات الصحيحة أنّ مولده ﷺ كان في: يوم **الإثنين** من شهر **ربيع الأول**؛ وهو ما جزم به ابن إسحاق وابن حبان وابن كثير وغيرهم[5]، وجعله ابن الجوزي محلّ اتفاق[6].

وصحّ الخبر بذلك عن نبينا محمد ﷺ في "صحيح مسلم" أنه ولد يوم **الإثنين**: فعن أبي قتادة الأنصاريّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئِل عن صوم يوم الإثنين؟ فقال ﷺ : ((ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ))[7].

كما دلّت الروايات الصحيحة على تحديد مولده بشهر "**ربيع الأول**"، فعن ابن عباس وجابر رضي الله عنهما أنّ: «رسول الله ﷺ ولد عام الفيل يوم الإثنين الثاني عشر من

---

[1]– ومولده ﷺ في (53 ق.هـ)، فهذا يعني: أنه اعتمد على أن مولده (570م)، ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7449/24.

[2]– وهذا يعني أنّه ولد عام (570م) وبعث في الأربعين من عمره. ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9597/31.

[3]– ينظر على سبيل المثال المواضع الآتية من مادة "محمد نبي الإسلام" –بعد كلامه هذا بصفحات–: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9128/30 و9134 و9140 و9142 و9144 و9146.

[4]– وإذا كان المستشرق "بول - Buhl" يقول في مادة "محمد" أنّه "**من الصعب الإجابة بدقة قاطعة عن: متى ولد محمد ﷺ؟**"؛ فمن باب أولى –حسب ما يوحي كلامه– أن يصعب البحث في شهر أو يوم مولده، لكنّ الأمر ليس كذلك كما سيتبيّن من خلال هذا العنصر.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 158/1. والسيرة النبوية، ابن حبان، 33/1. وعيون الأثر في المغازي والسير، ابن سيد الناس، 33/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 319/2-320.

[6]– تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير، 14. وصفة الصفوة، 52/1.

[7]– أخرجه : **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر، 74/8. **وأحمد**، المسند، 224/37.

ربيع الأول»[1]، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف فإنّ هناك مراسيل كثيرة عن التابعين تشهد له في أنّ مولده كان شهر "ربيع الأول"[2].

وقيل في شهر مولده ﷺ: أنّه في رمضان وقيل غيره[3]، غير أنّ ابن كثير ضعّف ذلك وعدّه غريبا جدّا وشاذًّا[4]؛ والخلاف في ذلك ضعيف لتوافر عامة العلماء على أنه ولد في شهر ربيع الأول.

لكن وقع **خلاف معتبر**: في **تحديد يوم مولده** ﷺ من شهر ربيع الأول، قال ابن الجوزي: «**اتفقوا** على أن رسول الله ﷺ ولد **يوم الإثنين في شهر ربيع الأول عام الفيل. واختلفوا** فيما مضى من ذلك الشهر لولادته على أربعة أقوال أحدها: أنه ولد لِليلتين خلتا منه، والثاني: لثمان خلون منه، والثالث: لعشر خلون منه، والرابع: لاثنتي عشرة خلت منه»[5].

أما قول الأستاذ محمد مسعود في تعقيبه على مادة "تاريخ": «**إنّ الذي عليه الإجماع في مولده عليه السلام هو أنّه كان لثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول**»؛ فهو تساهل بيّن، لأنّه وقع خلاف معتبر في تحديد يوم مولده من شهر ربيع الأول خاصة، كما يبيّنه ابن الجوزي في كلامه السابق.

وإن كان **المشهور** كما ذكر ابن كثير[6] أنه في: **الثاني عشر** منه، وهو قول ابن إسحاق[7].

- **تحديد يوم مولده من ربيع الأول بالحساب الفلكي**: أيّدت الدراسات الفلكيّة التي أجراها العالم الفلكي "محمود باشا المصري" -كما ذكر "محمد مسعود" في تعقيبه على مادة "تاريخ"-: أن ولادة

---

[1]- ذكره: ابن كثير في "البداية والنهاية، 375/3" وعزاه لابن أبي شيبة في "المصنف" (لكن لم أقف عليه في المطبوع)، لكنّ هذا الحديث فيه انقطاع كما ذكر ابن كثير "البداية والنهاية، 270/4".

[2]- هناك مراسيل قويّة تشهد لكون شهر مولده هو "**ربيع الأول**" (وإن اختلفت في تحديد يوم مولده ﷺ من هذا الشهر)، ومنها: مراسيل: محمد بن جبير بن مطعم، وأبي جعفر الباقر، والشعبي، وسعيد بن المسيب وغيرهم؛ أوردها الذهبي في "تاريخ الإسلام، 484/1-485" وابن كثير في "البداية والنهاية، 375/3"، وروى بعضها ابن عساكر في "تاريخ دمشق، 75/3".

[3]- ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 33/1. والبداية والنهاية، 376/3. وإمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين المقريزي، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، 7/1.

[4]- ينظر: البداية والنهاية، 376/3. والفصول في سيرة الرسول، لابن كثير أيضا، 9.

[5]- صفة الصفوة، 52/1.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، 375/3.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 158/1.

ملاحظة: الذي يظهر أن سبب شهرة هذا القول؛ هو **أولا**: رواية ابن عباس ﷺ في ذلك (وهي ضعيفة)، **وثانيا**: أنّه قول محمد بن إسحاق؛ فاشتهر هذا القول لشهرة "سيرته" التي هذّبها ابن هشام وتلقاها العلماء بالقبول وألفوا على منوالها ومشوا على خطّتها، خاصة وأنّ قول ابن إسحاق جمع بين ما هو مجزوم به في مولده وهو: (الإثنين، ربيع الأول، وعام الفيل)، وما هو غير مجزوم به، وهو: (الثاني عشر)، ولم يَفْصل بين الأمرين كما فعل ابن الجوزي في نصه السابق، ونص ابن إسحاق هو كالآتي كما في "تهذيب السيرة لابن هشام، 158/1": «قال ابنُ إسحاق: وُلِد رسول الله ﷺ يومَ **الإثنين، لاثنتَيْ عشرة** ليلةً خلَت مِن شهر **ربيع الأوّل، عامَ الفيل**».

النبي ﷺ كانت يوم: الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل، الموافق لـ: (20) أو (22) أبريل سنة (571م)[1]، وهو القول الذي رجّحه المنصورفوري وغيره[2].

ومع ذلك لا يمكن التسليم بهذا القول على سبيل الجزم، إذ قد يتطرّق الخطأ إلى مثل هذه الحسابات الفلكية، خاصّة مع تغيّر أيام وأشهر السنة القمرية باستمرار، فقد يقع الخطأ أحيانا في تحديد يوم عيد الفطر أو نحوه بين المتوقّع والواقع، فما بالك إذا تعلّق الأمر بمئات السنين، ولو صحّ حديث ابن عباس وجابر لكان مرجّحا قوياً، لكن يبقى الاختلاف يسيرا في تحديد يوم مولده في حدود أيام معدودة، فيكون أقوى تلك الأقوال باعتبار الروايات وهذه الحسابات هو: الثاني عشر أو التاسع.

- **تصويب عبارة "بول-Buhl"**: بعد هذا العرض يمكن القول إنّه **ليس من الصعب** معرفة تاريخ مولده ﷺ باليوم والشهر والسنة[3]؛ خلافا لِما ذهب إليه "بول- Buhl" في نصّه المذكور مادة "محمد ﷺ" عندما قال: بأنّه "**من الصعب الإجابة بدقة قاطعة عن: متى ولد محمد ﷺ؟**".

وإنّما يتأتّى ذلك بعد النظر في الروايات ومقارنتها، ومعرفة قيمتها العلمية، والنظر في الشواهد التاريخية؛ ومنها شهادة المعاصرين للنبي ﷺ ومعرفة قولهم في هذا الشأن، والاعتبار بأقوال علماء الحديث والسّيَر والتاريخ في ذلك، ومعرفة ما توافروا عليه وما صحّحوه، وكذا ما ضعّفوه وجعلوه من الشاذ والواهي.

[1]- ينظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 157. والرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، 62.

[2]- ينظر: رحمة للعالمين، 34. والرحيق المختوم، 62.

[3]- حتى أنّ **البيهقي** وهو من علماء الحديث والسيرة المتقدمين عقد في كتابه "دلائل النبوة، 1/71-75" ثلاثة أبواب خاصة بذلك، وهي: "باب بيان **اليوم** الذي ولد فيه الرسول ﷺ"، و"باب **الشهر** الذي ولد فيه"، و"باب **العام** الذي ولد فيه الرسول ﷺ".

المطلب الثالث : الحوادث التي صاحبت مولده ﷺ

الفرع الأول : حادثة بحيرة ساوه[1] ونار الفرس وسطيح الكاهن

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**إصطخر**": «... **بيت نار في إصطخر يقال له بيت نار الإلهة أناهيذ (الطبري، ج1 ص814)، ويقال إن نيران هذا المعبد انطفأت في الليلة التي ولد فيها محمد**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **سنريك** - M.Streck[3].

– وفي مادة "**ساوه**": «"لساوه" شأن عظيم في القصص الخاصة بالنبي محمد ﷺ، فقد جاء في قصّة شائعة (**انظر التفاصيل في شبرنكر**، Das Leben und die Lehre des Mohammad، ج1 ص134. **ونولدكه**، Geschichte der Perser und Araber، ص253 **وما بعدها**) **أنّ بحيرة في جوار "ساوه" غاضت ليلة مولد الرسول، وكان موضعها لا يزال قائما في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد دل بعضهم القزويني عليه**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **شيدر** - H.H.Schueder[5].

– وفي مادة "**سطيح بن ربيعة**": «**وهذه القصة حلقة من حلقات "أعلام النبوة" أي الآيات التي تبرهن على صدق رسالة محمد ﷺ ففي ليلة مولده عليه السلام وقعت ظواهر عجيبة في أرجاء مَملكة فارس كافة، وعجز ملك فارس (كسرى أنو شروان) عن أن يَجد عند سحرته تفسيرا لهذه الظواهر... وعجز عبد المسيح أيضا عن تفسير هذه العجائب، فلجأ إلى خاله "سطيح"... فتنبأ له الكاهن بسقوط دولة الفرس وفتح العرب لها...**»[6]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[7].

---

[1]– **ساوه**: مدينة بين الرّيّ وهَمَذان (في إيران اليوم)، بينها وبين كل منهما ثلاثون فرسخًا [أي حوالي: 145 كيلو متر]، وكانت معمورة إلى عام (617 هـ) ثم خربها التتار. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 179/3؛ وذكر "الحموي" أنّ بحيرة هذه المدينة هي المذكورة في الرواية.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 245/2.

[3]– **ستريك** "M.Streck": مستشرق ألماني، اشتغل أستاذا في جامعة "يُنا" الألمانية، من آثاره: "أرض بابل القديمة في كتب الجغرافيين العرب"، و"اللغة العربية"، و"كربلاء"، ولم يذكر العقيقي تاريخ وفاته. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 734/2.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 167/11.

[5]– **هانس شيدر** "Hans Schueder" (1896-1957م): مستشرق ألماني، تعلّم العربية والفارسية، واشتغل أستاذا لهذه اللغات في جامعة "كونسبرج"، ثم جامعة برلين، تدور دراساته غالبا حول إيران، من آثاره: "أبحاث إيرانية"، و"ألمانيا والشرق"، وغيرها. ينظر: المستشرقون، 783/2. موسوعة المستشرقين، بدوي، 380.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 390/11-391.

[7]– سبقت ترجمته في: ص95.

ثانيا- التحليل والمناقشة: الحوادث الثلاثة التي وردت في نصوص المستشرقين المذكورة أنّها وقعت ليلة مولده ﷺ هي كالآتي:

[1]- انطفاء نار المجوس في بلاد فارس؛ كما ورد في مادة "إصطخر"، لكن لا يُسلّم للمستشرق "سترك -Streck" أنّ نار "بيت إصطخر" هي التي انطفأت بالتحديد، على حسب رواية الطبري التي أحال عليها، لِما يلي:

- أنّ في بلاد فارس بيوت نار أخرى غير نار إصطخر[1].
- والرواية عامة -كما سيأتي في سياقها-، وليس في أيّ من ألفاظها التحديد الذي ذكره.
- كما أنّ الطبري لم يذكر أنّ نار "بيت إصطخر" هي التي جاء في الرواية بأنّها انطفأت[2].

أمّا قول "سترك-Streck": «**يقال إن نيران هذا المعبد** ...»؛ فلم أقف من قال ذلك -من علماء المسلمين في التاريخ والجغرافيا- غيره، لذا يبقى كلامه مجرد احتمال في تفسير الرواية لا يمكن الجزم به لِما ذُكر.

[2]- أن بحيرة "ساوه" غاض ماؤها؛ على ما ذكر محرر مادة "ساوه".

[3]- قصة تعبير الكاهن "سطيح" لرؤيا ملك الفرس آنذاك؛ كما في مادة "سطيح".

فهذه الحوادث الثلاثة وردت في رواية واحدة؛ عن مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه قال: «لَمّا كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، ارتَجَس إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شُرفَة، وخمدت نار فارس، و لم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوه»، ثم تأتي رؤيا "الموذبان" ملك فارس وتفسير الكاهن "سطيح" لرؤياه في قصة طويلة[3].

وهذا الحديث تفرد به مخزوم عن أبيه، وتفرد بروايته عنه أبو أيوب يعلى بن عمران البجلي؛ كما بيّن ابن عساكر حيث قال: «وهو غريب لا نعرفه إلا من حديث مخزوم بن هانئ عن أبـــيه، تفرد به أبو أيوب البجلي»[4]؛ وهي رواية غير ثابتة على منهج المحدثين، لأن "مخزوم بن هانئ" والراوي عنه "يعلى بن عمران" غير معروفين[5].

---

[1]- ومنها: بيت نار مدينة "أردستان"، و"جور"، و"كاريان" وهي مدن فارسية. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 146/1 و181/2 و429/4. ويقول الإدريسي في "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 424/1": «وبجميع أرض فارس وفي كل مكان منها بيوت نيران، **وهي كثيرة** يفضلون بعضها على بعض».

[2]- ينظر: تاريخ الطبري، 37/2-38.

[3]- أخرجه: **البيهقي**، دلائل النبوة، 126/1. و**الطبري**، التاريخ، 166/2. و**ابن عساكر**، تاريخ مدينة دمشق، 361/37 و221/72.

[4]- تاريخ مدينة دمشق، 221/72.

[5]- ذكر أكرم العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 100/1" أنه: «لم يقف لَهما على ترجمة». كما بحثت -بنفسي- في كتب الرجال وتراجم الرواة؛ و لم أجد لَهما ترجمةً، ويظهر أنّهما لا يعرفان إلا بهذا الحديث فيما وقفت عليه -والله أعلم-.

فهذا الحديث إسناده ضعيف[1]، وقال فيه الذهبي: «هذا حديث منكر غريب»[2].

وروى نحوه: معروف بن خرّبوذ[3] عن بشر بن تيم الْمكّي[4]، كما ذكر ابن عساكر لكن لَم يسنده[5]، وعزاه ابن حجر: إلى كتاب "الصحابة" لعبدان[6].

وبيّن ابن حجر: أنّ ذِكر عبدان "لبشر" في الصحابة بسبب هذا الحديث غلط، لأنّ "بشر بن تيم" ليس صحابيا وإنّما يروي عن التابعين، وبذلك: يكون هذا الخبر مرسلا كما قرّر ابن حجر[7].

كما تعرّض لنقد هذه الرواية **محمد رشيد رضا**، وجعلها من الروايات الضعيفة، فقال: «ولا يلتفت إلى شيء منها فإن العبرة بما يروي المحدثون، لا بما يهذي به القصاصون»، ثم استشهد بغرابة الرواية على ضعفها، ذلك أنّ «أمثال هذه الغرائب من شأنها أن تستفيض وينقلها الجماهير، و لم يروها أهل الصحاح كالبخاري ومسلم بل تركوها لعدم الثقة برواتها»، ثم بيّن أنّ ما في الصحيح يغني عن الاعتماد على مثل هذه الروايات الضعيفة فقال: «وحسبنا ما في كتاب الله تعالى والأحاديث والآثار الصحيحة في آياته وفضائله عليه أفضل الصلاة والسلام فلا حاجة لنا بأمثال هذه الروايات»[8].

وانتقد الشيخ **محمد الغزالي** بشدة هذه الرواية وجعلها من قبيل الموضوعات والروايات الواهية، ثم قرّر أمرا هاما يفيد بأن سيرة النبي ﷺ بما فيها من إنجازات عظيمة تغني عن مثل هذه القصص، وأكّد على المعنى الذي سبق ذكره عن محمد رشيد رضا، فقال **الغزالي**: «محمد ﷺ غني عن هذا كله؛ فإنّ نصيبه الضخم من الواقع المشرّف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها»[9].

أما قول محرر مادة "ساوه": بأنّ «**لساوه شأن عظيم في القصص الخاصة بالنبي محمد ﷺ**»: ففي هذا الكلام مبالغة في تقدير القيمة العلمية للرواية، لكون علماء الإسلام لم يقبلوا كلهم هذه الراوية،

---

[1]- كما ذكر محمد النجار في: القول المبين، 84. لكنّ كثيرا من العلماء المتقدمين لم يتعرض لنقد هذه الرواية لما أوردوها في كتبهم فيما اطلعت عليه، عدا نقد الذهبي لها دون تفصيل، وإشارة ابن عساكر لغرابتها.

[2]- تاريخ الإسلام، 491/1.

[3]- **معروف بن خربوذ**: من صغار التابعين، ضعفه ابن معين، وذكره ابن حبان في "الثقات، 439/5"، كما روى البخاري ومسلم انتقاءً من حديثه، وله أوهام كما ذكر ابن حجر في "هدي الساري (مقدمة فتح الباري)، 626"، و"تقريب التهذيب، 540".

[4]- **بشر بن تيم** أو بشير: ليس صحابيا، فإنما يروي عن التابعين؛ لذا ذكره ابن حجر في القسم الرابع؛ أي: فيمن ذكر في كتب الصحابة غلطا. ينظر: الإصابة، 474/1 و481. كما مال الذهبي في "تجريد أسماء الصحابة، 52/1": إلى أنّه تابعي.

[5]- تاريخ مدينة دمشق، 363/37.

[6]- ينظر: الإصابة، 481/1-482.

[7]- ينظر: المصدر نفسه، 481/1.

[8]- مجلة المنار، مجلد 8، 873-874.

[9]- فقه السيرة، 62.

وأنكرها جماعة منهم: كالذهبي ومحمد رشيد رضا والغزالي وغيرهم، وإن كان علماء التاريخ والسير قد يوردونها، ولكن إيرادهم لها لا يدلّ على تصحيحهم لها غالبا كما هو مقرر في مناهج المؤلفين[1].

الفرع الثاني : ازدياد حراسة الملائكة للسماء ورمي الشهب

– جاء في مادة "**السحر**"[**فقرة**: 1]: «**ومن البين أن المقصود "بالآن"[2]: منذ أن بعث محمد ﷺ رسولا، قد وجدوا الملائكة خاصة واقفين لهم بالمرصاد... وكان هؤلاء العرب يعرفون مثل هذه الشهب... على أنه لَمّا ولد محمد ﷺ كان شأن الملائكة قد ازداد زيادة عظيمة**»[3].

المحرر المادة هو: **ماكدونالد** - D.B.Macdonald[4].

ذكر المستشرق "ماكدونالد -Macdonald" أنّ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9] يدلّ على المبعث، وهذا صحيح، ومذكور في كتب التفسير[5]، لكنّ ما قرّره مِن أنّ ازدياد أمر القذف بالشهب بعد مولده ﷺ لا يصح، فالقذف بالشهب كان معروفا عند العرب قديما في الجاهلية، ثم ازداد واشتدّ بعد بعثة النبي محمد ﷺ لا بعد مولده كما ذكر المستشرق "ماكدونالد"، وإن كان ما ذكره من ازدياد أمرها عند مولده ورد في رواية ضعيفة، تخالف الروايات المستفيضة الثابتة عن الصحابة ﷺ، لذا سأبدأ بإيراد هذه الرواية ونقدها، ثم أذكر الروايات الصحيحة في هذا الشأن وكلام أئمة الحديث والسيرة في ذلك.

أولا- الروايات في أنّ ذلك كان بعد مولده ﷺ: رُوي عن معروف بن خربوذ[6] أنّه قال: «كان إبليس يخترق السماوات السبع، فلما وُلد عيسى عليه السلام حجب من ثلاث سماوات فكان يصل إلى أربع سَماوات، فلما ولد النبي ﷺ حجب من السماوات ورميت الشياطين بالنجوم»[7]؛ وهذه الرواية

---

[1]– بيّن أكرم العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 16/1": أنّ المتقدمين ركزوا على جمع الروايات ونقلها، ولم يعتنوا كثيرا بنقدها أو بيان ما فيها من عبر ومعان، بينما فعل المتأخرون بعض ذلك، ونجد تعليق الذهبي هنا مثلا نموذجا حيا لِهذا التصرف.

[2]– أي: في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:9].

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 306/11-307.

[4]– **ماكدونالد دنكن بلاك** "Duncan Macdonald" (1863- 1943م): مستشرق أمريكي الإقامة، بريطانيّ الأصل، تعلّم العربية والعبرية، وكان له نشاط تبشيري، وله كتابات عن الثقافة الإسلامية، منها: "علم الكلام في الإسلام"، و"أوجه الإسلام" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1001/3. والأعلام، الزركلي، 330/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 538.

قال السباعي في "الاستشراق والمستشرقون، 46" عنه: «مِن أشدّ المتعصّبين ضدّ الإسلام والمسلمين، يصدر في كتاباته عن روح تبشيريّة متأصّلة».

[5]– ينظر في ذلك: تفسير الطبري، 328/23. وتفسير ابن كثير، 240/8-241.

[6]– **معروف بن خربوذ:** من صغار التابعين فيه ضعف يسير، وله أوهام. تقدّمت ترجمته في الصفحة السابقة.

[7]– رواه: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 70/3.

ضعيفة جـــدا[1]، كما أنّها من قول أحد صغار التابعين وليست رواية موقوفة ولا مرفوعة، وقد خالفت الصحيح المعروف عن ابن عباس ﷺ وغيره؛ فهي من المناكير، ولا يستبعد أن تكون من أوهام الضعفاء وأغلاطهم.

وقرينة ذلك أنّ هناك رواية أخرى في معناها عند الطبري - بغضّ النظر عن صحتها- مخالفة لما في هذه الرواية وموافقة للروايات الصحيحة المسندة في كون قذف الملائكة بالشهب ازداد بعد مبعث النبي ﷺ خاصة، حيث جاء فيها عن وهب بن منبه أنّه قال: «فلَمْ يَزلْ على ذلك [أي: إبليس] يصعدُ في السّماوات، حتّى رَفَع الله عيسى بنَ مريم، فحُجب مِن أربع، وكان يَصْعد في ثلاث، فلمّا **بَعَث** الله **محمّدًا** ﷺ حُجب من الثّلاث الْباقية»[2].

كما أنّ هذه الفكرة من رواسب الجاهلية، فقد كان هذا الاعتقاد شائعا عند العرب آنذاك، ونفاه النبي ﷺ، كما جاء في الحديث الصحيح:

عن ابن عباس ﷺ، قال: بينما رسول الله ﷺ جالسٌ في نَفرٍ مِن أصحابه إذْ رُمِيَ بنجم فاسْتنار، فقال رسول الله ﷺ: ((مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ لِمِثْلِ هَذَا فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ؟)) قالوا: **كُنّا نقول**: يَموت عظيم أو **يُولد عظيمٌ**[3]، فقال رسول الله ﷺ: ((فَإِنَّهُ **لا يُرْمَى بِهِ** لِمَوْتِ أَحَدٍ **وَلا لِحَيَاتِهِ**؛ وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ لَهُ حَمَلَةُ العَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَهْلَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيُخْبِرُونَهُمْ ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَتَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيُرْمَوْنَ فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ))[4]؛ وفي ذلك دليل آخر على ضعف هذا القول.

---

[1]- ذلك أنّه يرويها: الزبير بن بكار عن **محمد بن الحسن** بن زبالة المخزومي، و"**ابن زبالة**": اتفق المحدثون النقاد على ضعفه، فقال يحيى بن معين وأبو داود: كذّاب، وقال فيه النسائي والأزدي: متروك الحديث، وقال البخاري: عنده مناكير. ينظر: الكامل، ابن عدي، 372/7. وضعفاء ابن الجوزي، 51/3. وميزان الاعتدال، الذهبي، 514/3.

[2]- تفسير الطبري، 334/16.

[3]- ولو كان ذلك وقع في مولده ﷺ لما نفا الأمر بالكلية، ولخصّص منه مولده، إذ لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة.

[4]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (مع شرح النووي)، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، 324/14. **والترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب التفسير، باب ومن سورة سبأ، 65/9. واللفظ له.

كما ذهب **القسطلاني** في "المواهب اللدنية" إلى: أنّ اشتداد الرمي كان بعد مولد النبي ﷺ، لكنّه لم يعزُه إلى مصنَّف حديثي[1].

ثانيا- الروايات في أنّ ذلك كان بعد مبعثه ﷺ: الذي تثبته الروايات الصحيحة أنّ ازدياد قذف الشهب على الشياطين لِمنعهم من استراق خبر السماء كان بعد مبعث رسول الله ﷺ، قال ابن حجر: «والذي تضافرت به الأخبار أن **ذلك وقع لهم من أول البعثة**»[2]؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: «كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي[3]، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، **فلما بُعِث** رسول الله ﷺ **مُنِعوا مقاعدهم**، فذكروا ذلك لإبليس... فقال لهم إبليس: ما هذا إلاّ من أمر قد حدث في الأرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يصلي بين جبلين، أراهُ قال: بِمكّة، فلَقوهُ فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض»[4].

ويوافقه ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أيضا من طريق آخر عند البخاري ومسلم[5]؛ والروايات في ذلك كثيرة، ساق جملة منها البيهقي وابن كثير فتراجع هناك[6].

قال **ابن إسحاق**: «فلمّا تقارب أمر رسول الله ﷺ **وحضر مَبعَثه، حجبت الشّياطين** عن السّمع، وحيل بينها وبين الْمَقاعد التي كانت تقعد لاستراق السّمع فيها، فرموا بالنّجوم، فعرفت الجنّ أنّ ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد»[7].

وقد كان الرمي بالشهب موجودا قبل البعثة ومعروفا عند العرب في الجاهلية، لكـــنّ الأمر الحادث بعد البعثة النبوية هو ازدياده واشتداده.

وهو ما بيّنه ابن شهاب **الزهري** عندما سأله معمر: أكان يُرمَى بِها في الجاهليّة؟

---

[1]- ينظر: المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني)، 201/7؛ وعزاه الزرقاني في "شرحه على المواهب" للزبير بن بكار، وهو الصواب لكنها من قول معروف بن خربوذ وهي رواية واهية كما سبق، فلعله وهم من القسطلاني، وإلاّ فالمروي عن ابن عباس وغيره من أوجه كثيرة أنه بعد المبعث كما سيأتي عند: البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.

[2]- فتح الباري، 856/8.

[3]- وفسر النبي ﷺ كيفية قعود الجن لاستراق السمع: أنهم يكونون واحدا فوق واحد، فمتى احترق الأعلى طلع الذي تحته مكانه، وكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون فيها ويزيد الكاهن مائة كذبة. ينظر: سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، 196/2.

والحديث في ذلك أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾ [الحجر: 18]، 483/8.

[4]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب التفسير، باب سورة الممتحنة، 170/9. **وأحمد**، المسند، 283/4-284. وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على المسند.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (مع الفتح)، كتاب التفسير، باب سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾، 854/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح، 220/4.

[6]- ينظر: دلائل النبوة، 234/2-239. والبداية والنهاية، 43/4-48.

[7]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 204/1.

فقال الزهري: «نعم، ولَكنّها غُلِّظت واشتدّ أمرها حين بُعث النّبيّ ﷺ»[1]؛ وقال البيهقي معلقا على كلام الزهري: «وهذا يوافق ظاهر الكتاب، لأنه قال خبراً عن الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8]؛ فأخبرت الجنّ أنّه زِيدَ في حراسة السّماء وشهبها حتّى امتلأت منها ومنهم»[2].

والملاحظ أنّ المستشرق "ماكدونالد" عندما يقول: "**وكان العرب يعرفون مثل هذه الشهب، فلَمّا ولد محمد ﷺ كان شأن الملائكة قد ازداد زيادة عظيمة**"، يشبه قوله هذا في سياقه كلامَ الزهري السابق، لكنّ خطأ "ماكدونالد -Macdonald" يكمن في أنّه: جعل اشتداد أمر الشهب بعد المولد، والصواب أنّه بعد المبعث كما في حديث ابن عباس ﷺ وكلام الزهري.

ثالثا- مناسبة اشتداد الحراسة والشهب لِمبعثه ﷺ: يقول **ابن إسحاق** في ذلك: «فلَمّا سَمِعت الْجنُّ الْقرآنَ مِن النّبِيّ ﷺ عَرفت أنّها مُنعت مِن السّمع قبل ذلك؛ **لِئلا يُشْكل الوحيُ بِشيءٍ من خبر السّماء** فيَلتَبِس الأمرُ»[3].

وقال **ابن كثير**: «في منْعِ الجانِّ ومَرَدة الشّياطين من استراق السّمع حين أُنزِل القرآنُ لِئلاّ يَخْتَطف أحَدُهم منه ولو حرفًا واحدًا فيُلْقيه على لِسان وَلِيِّه؛ فَيَلْتَبِسُ الأَمْرُ ويَختلط الحقّ؛ فكان من رحمة الله وفضله بخلقه أن حجبهم عَنِ السَّمَاءِ، كما قال الله تعالى إخبارًا عنهم في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 8-9]»[4]؛ وحَمْل هذه المناسبة في ازدياد الحراسة والرمي بالشهب على البعثة، أولى من حَمْلها على المولد؛ لأنّ الوحي بدأ يتنَزّل بعد البعثة.

---

[1]- تفسير الطبري، 501/19. ودلائل النبوة، البيهقي، 237/2-238.

- هذا هو القول الراجح الذي جزم به الزهري والبيهقي والسهيلي "الروض الأنف، 195/2-196"، وغيرهم، وجعله المقريزي قول الأكثرين "إمتاع الأسماع، 6/5". وهناك قول آخر مرجوح بأنّ الشهب لم تكن في الجاهلية وإنّما كانت بعد مبعث رسول الله ﷺ، لِما جاء في حديث ابن عباس ﷺ عند البيهقي وغيره "دلائل النبوة، 241/2-422": «لم تكن سماء الدنيا تحرس في الفترة»، فهو محمول على أنّها لم تكن تحرس حراسة شديدة كما بيّن البيهقي في الموضع السابق، وابن كثير في "البداية والنهاية، 47/4".

فقوله مخالف لهذه الأقوال جميعها، ومخالف للروايات الصحيحة الثابتة، التي تؤيد بمجموعها القول الأول وهو اختيار الأكثرين.

- وينظر بيان الخلاف وتوجيهه في: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 204/2-205. وفتح الباري، ابن حجر، 857/8-858.

[2]- دلائل النبوة، البيهقي، 239/2.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 205/1. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 535/1.

[4]- البداية والنهاية، 43/4.

الفرع الثالث : رؤيا أمّـه آمنة

– جاء في مادة "**آمنة**" [فقرة: 1]: «**والروايات التي تتصل بالرؤى التي كانت تراها آمنة أثناء حملها (ابن سعد، ج1 ص60–61. الطبري، ج1 ص968–979) ما هي إلا من قبيل الخرافات، ويجب أن لا نستخدمها كما فعل "شبرنجر" في القول بأن الحالات العصبية التي كانت تنتاب النبي قد ورثها عن أمّه**[1]»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

صحّ من الإرهاصات المصاحبة لِمولده ﷺ حادثتان:

– **الأولى: حادثة أصحاب الفيل:** في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، وهي ثابتة بالقرآن والسنة، وقد أعظم العرب هذه الحادثة، فأرّخو بها، فكانت حجة عليهم، وذكرهم الله ﷻ بها، وامتنّ عليهم بقدرته وعظمته، في مقابل ضعفهم، وسبق الكلام عليها في المطلب الأول من هذا المبحث.

– **والثانية: رؤيا أمّه آمنة:** التي أشار إليها المستشرق "بول - Buhl" في مادة "آمنة"، وهي ثابتة عن النبي ﷺ، من حديث العرباض بن سارية ﷺ: أنّ الرسول ﷺ قال: ((إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ[4] فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، **وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**))[5]، وجاء نحوه عن أبي أمامة الباهلي ﷺ وغيره[6].

---

[1]– **تعقيب محمد عرفه** [في هامش المادة المتعقّب عليها من "الدائرة]: «**يسرّنا هنا أنّهم ردّوا على شبرنجر في زعمه أن رسول الله كانت له حالات عصبية تنتابه وأنّه ورثها عن أمه ونحن نوافقهم على هذا الرد، ولكننا لا نوافقهم على زعم أن رؤية الرؤى التي كانت تراها آمنة من قبيل الخرافات فليس من المستحيل رؤيا آمنة، ولا الرؤيا تدلّ على أن صاحبها ذو حالات عصبية تنتابه**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 630/2.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– أي: كان بعدُ تراباً لم يُصوَّر و لم يخلق، أو الطريح الملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه. ينظر: لطائف المعارف فيما لِمواسم العام من الوظائف، ابن رجب، 82. والمواهب اللدنية، القسطلاني (مع الزرقاني)، 62/1.

[5]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 379/28–380 و385. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره، 313/14. **والحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 656/2. واللفظ لأحمد.

وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وهو صحيح لغيره كما ذكر شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على "مسند أحمد" و"صحيح ابن حبان"، وللحديث شواهد كثيرة منها الحديثان المواليان عن أبي أمامة ﷺ، ورواية ابن إسحاق؛ فيرقى إلى درجة الصحيح لغيره.

[6]– **حديث أبي أمامة:** أخرجه: **أحمد**، المسند، 596/36. **والطبراني**، المعجم الكبير، 175/8. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 84/1.

وحسنه الهيثمي "مجمع الزوائد، 222/8" وقال: «له شواهد تقويه»، كما صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة، 62/4"، وذكر شعيب الأنؤوط في تحقيقه على "مسند أحمد" أنه: صحيح لغيره؛ لشواهده، ومنها الحديث السابق واللاحق.

– **ورواية ابن إسحاق:** عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ: أخرجها: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 51. **والحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 656/2. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 83/1. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في "البداية والنهاية، 413/3": إسناده جيد قوي.

وفسّر ابن رجب هذا النور بأنه: إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي يهتدي به أهل الأرض، وتزول به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15- 16] [1].

كما نبه ابن كثير إلى مناسبة ذكر الشام في الحديث دون غيرها، فقال: «وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها»[2]، وذكر المناوي أنّ المراد بذلك: أول ما يفتح من بلاد الشام؛ لِما ما ورد في رواية ابن إسحاق: «نور أضاءت له قصور بصرى[3]»[4]؛ وهو ما تَحقّق بالفعل في خلافة أبي بكر ﷺ حيث كانت "بُصرى" أوّل ما فُتح من بلاد الشام[5].

وهل كانت رؤيا منام أو رؤيا عين؟ ففي ذلك خلاف؛ فقيل: إنها رؤيا منام، ويشهد لذلك لفظ الرواية عند الطبراني، وفيها: ((رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّهَا وَضَعَتْ نُورًا))[6]، وقيل: إنّها رؤيا عين[7].

والرواية بألفاظها تحتمل الأمرين كما يفهم من كلام ابن رجب والمناوي، ولا ضير في ذلك ما دامت الرؤيا على الحالين بشرى، والأهم تحقّق تلك البشارة بانتشار الإسلام وامتداد ملكه في تلك الأصقاع.

ولدلالة هذه الرواية على تحقّق علم من أعلام النبوة في الرؤيا وانتشار الإسلام في بلاد الشام، أنكر المستشرق "بول -Buhl" هذه الرواية مع دلالة التاريخ والواقع المشاهد عليها، وجعل الرواية من الخرافات، واكتفى بِمجرّد "**النفي الكيفي**" للحادثة، فلم يورد أيّ دليل يثبت دعواه هذه، مع أنّ خبر الرؤيا موثّق بالروايات المتّصلة من أوجه متعدّدة إلى النبي ﷺ، بحيث لا يسع الباحث المنصف إلاّ قبولها، لكنّ نفرا من المستشرقين دأبوا على تصحيح الضعيف، وتضعيف الصحيح، لا لبرهان أو دليل علمي، ولكن لأغراض استشراقية، والتي منها إنكار ما كان فيه دلالة على النبوة.

---

[1]- لطائف المعارف فيما لِمواسم العام من الوظائف، 87-88.

[2]- تفسير ابن كثير، 444/1. وينظر: كلام ابن رجب في ذلك: لطائف المعارف، 88-89.

[3]- **بُصْرى**: مدينة كانت من أعمال دمشق، تقع في منتصف المسافة بين دمشق وعمّان، وموضعها اليوم قرب مدينة درعا، التي احتلّت مكانها. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 441/1. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 43.

[4]- فيض القدير شرح الجامع الصغير، 573/3.

[5]- ينظر: تفسير ابن كثير، 444/1. ولطائف المعارف، ابن رجب، 86-87. وفيض القدير، المناوي، 573/3.

[6]- المعجم الكبير، 253/18. من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

[7]- ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 51/2. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 222/1.

المبحث الثـاني : نسـب النبي ﷺ

المطلب الأول : شرف نسبه ﷺ عامة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 3]: «**وأما عن نسبه فإنّ عدة قصائد قديمة لشعراء مثل حسان بن ثابت والأعشى وكعب بن مالك، قِيلت في النّبيّ ﷺ أو في جعفر أو حمزة أو أبي لهب تؤكد ما ذكرته الروايات من أنه من بني هاشم، أي أنه من أنسب عشائر مكة**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**حرف الضاد**": «**وفي حديث أن النّبي كان يفاخر بأنه من أهل الضاد**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **شاده** – A.Shaade[4].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

استند المستشرق "بول -Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" إلى أبيات من الشعر لتقرير شرف النبي محمد ﷺ، بينما كان ينبغي أن يورد روايات حديثيّة تبيّن ذلك، أو على الأقل يشير إليها، لكونها أوثق وأوضح في الدلالة على شرف نسبه.

أولا– الروايات الصحيحة في شرف نسبه ﷺ: ومنها:

أ)– ما جاء في **حديث هرقل**: في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه ضمن قصة كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم: أن أبا سفيان هو وجماعة من قريش كانوا في تجارةٍ بالشام، وهم يومئذ على الكفر، سألهم "هرقل" أسئلة عن الرسول ﷺ؛ فلَمّا سأل هرقل أبا سفيان: «كيْف نَسبُه فيكُم؟»؛ قال أبو سفيان: «**هو فِينا ذو نَسبٍ**»، ثم قال هرقل: «فكذلك الرُّسُل تُبْعث في نسب قَومها»[5].

فالتنوين في قول أبي سفيان: «**ذو نسبٍ**»؛ يدل على التعظيم؛ فكأنّه قال: هو فينا ذو نسبٍ كبيرٍ أو حسب رفيع كما بيّن ابن حجر[6]، وأبو سفيان من أعيان قريش، وكان حينئذ على الكفر، وكان

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 21/15.

[4]– **شاده** "A.Shaade" (1883– 1952م): مستشرق ألماني، درَس اللغات الشرقية، وعُيّن أستاذا في "هامبورج"، وفي الجامعة المصرية، له: دراسة عن "سيبويه"، وله "العربية واللغات السامية" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 775/2.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الوحي، 43/1–44، وكتاب التفسير، 270/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، 147/12–149.

[6]– فتح الباري، 274/8.

أحرص على ذكر أيّ شيء ينقص من قدر النبي ﷺ – كما أفادت الرواية–، وقد قال ذلك في جماعة من كفار قريش؛ «وسمع ذلك مِن قوله مَن كان معه من قريش، فلم يُخالفه أحد منهم»[1].

ب)– حديث الاصطفاء: شرف نسب النبي ﷺ ليس شرفا ماديا فحسب، بل هو شرف مادي ومعنوي أيضا، فهو سليل نسب شريف في المكانة الاجتماعية المرموقة، لكون أجداده من أعيان قومهم في الكرم والفضل والحكمة والأعمال الجليلة والسمعة الحسنة، زيادة على ذلك فنسبه يتصل بنسب نبيّيْن كريمين، هما: إسماعيل عليه السلام، وأبوه إبراهيم عليه السلام.

يقول النبي ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ **اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ**، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، **وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**))[2].

ج)– أما الأشعار التي أشار إليها "بول - Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، فهي كالتالي:

– قول كعب بن مالك: لَه حسبٌ فوق كلّ الأنامِ ** **مِن هاشم** ذَلِكَ الْمرتَجى[3]

– وقول حسان: ونَحنُ وَلَدنا مِن قريش عظيمها ** ولدنا نَبيّ الخير **من آلِ هاشِمِ**[4]

– وقول الأعشى : وآليتُ لا آوي لَها من كلالــة ** ولا من حَفًى حتّى تُلاقي محمّدَا

متى ما تناخي عند باب **ابنِ هاشمٍ** ** تراحي وتلقى مِن فواضله نَدى[5]

وورد ذلك في رثاء حسان وكعب لِحمزة وجعفر رضي الله عنهما[6]، كما ذكر المستشرق "بول".

فقد أعرض المستشرق "بول - Buhl" عن هذين الحديثين الموثّقيْن بالنقل التاريخي المتصل السند إلى المصطفى ﷺ، وقال بأنّ ما أشار إليه من أشعار كعب وحسان "**تؤكد ما ذكرته الروايات من أنــه من بني هاشم**"، لكنّ الصواب أنّ مثل هذه الروايات الصحيحة هي التي تؤيّد ما جاء في تلك الأشعار، كما أنّ ما ثبت بالروايات الموثقة بالإسناد المتصل لا يحتاج إلى سند شعري يثبت صحته، وإن كانت لا تُنكَر أهمية القصائد والأبيات الشعرية –خاصة الشعر الجاهلي– كوثيقة تاريخية لا يستغني عنها

---

[1]– شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، 240/14.

[2]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، 52/15. **والترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، 53/10. واللفظ له. من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

[3]– الطبقات الكبرى، ابن سعد، 247/2.

[4]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 566/2.

[5]– المصدر نفسه، 386/1-387. والبداية والنهاية، ابن كثير، 250/4-252.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 155/2-156 و385-386. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 48/2.

المؤرخ في قراءة بعض الأحداث التاريخية ومعرفة تفاصيلها[1]، لكن تبقى منهجية المحدثين في نقل الأخبار ونقدها أوثق طريقة لِمعرفة وتمييز صحيح الروايات من غيرها.

ثانيا- الاستدراك على "شاده -Shaade" في استناده إلى حديث الضاد: هذا الحديث مذكور في كُتُب الأحاديث المشتهرة على الألسنة، وكتب الموضوعات، بلفظ: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ»؛ وهو حديث لا يصحّ عن النبي ﷺ مع شهرة تداوله، ولا يُعرف له سند ولا أصل، وإن كان معناه صحيحا على العموم، فقد ذكره السخاوي في "المقاصد الحسنة" وقال: «معناه صحيح، ولكن لا أصل له كما قاله ابن كثير»[2]، وهو ما ذكره السيوطي[3].

وعدّه جملة من علماء الحديث من قبيل الأحاديث الموضوعة، قال الملا علي القاري: «فإن **الحفّاظ أجمعوا** على أنه حديث موضوع»[4]، وذكره القاري والشوكاني في كتابيهما في الأحاديث الموضوعة[5].

وذكر أبو شهبة من علامات الوضع في متن الحديث: أن التعبير بالضاد عن اللغة العربية أمر مستحدث[6].

وعلى هذا فلا يمكن نسبة هذا الحديث إلى النبي ﷺ، زيادة على ذلك فإن المعنى الذي ذكره المستشرق من مفاخرة النبي ﷺ بانتسابه إلى أهل الضاد، لا تدلّ عليه هذه الرواية، وإنّما تدل على فصاحة النبي ﷺ وبلاغته، قال الصالحي الشامي: «والمعنى أنه ﷺ **أفصح العرب** لكونهم هم الذين ينطقون بها ولا توجد في لغة غيرهم»[7]، فغاية ما يدل عليه لفظ الحديث فصاحة الرسول ﷺ، وهذا أمر مقرّر في كتب السيرة والشمائل[8]؛ وليس في الرواية معنى المفاخرة بالنسب ونحو ذلك كما توهّم المستشرق محرر المادة.

---

[1]- للتفصيل في أهمية النص الشعري في نقل الحدث التاريخي، وما قد يكون في بعض النصوص الشعرية من الوضع والاختلاق. ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 1/70-71.

[2]- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، 167.

[3]- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، 56.

[4]- شرح الشفا، 2/515.

[5]- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، 116. والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، 327.

[6]- الوسيط في علوم الحديث، 357.

[7]- سبل الهدى والرشاد، 1/429-430.

[8]- ينظر على سبيل المثال: المواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، القسطلاني، 5/291-301. وسيرة أبي شهبة، 2/612-613.

المطلب الثاني : شرف بني هاشم

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**قصيّ**": «هو الجد الخامس للنبي محمد ﷺ، وتجمع المصادر على أن نسبه هو قصي بن كلاب بن مـــرّة بن كعب بن لؤي بن فهر أو قريش بن غالب (ابن الكلبي ، الجمهرة).

... أصبح قصي سيد مكة وحارس الكعبة فأعاد بناء الأخيرة، ونظم العبادة فيها ووحّد العشائر القرشية المتناثرة في كيان صلب أكد سيادتهم على البلدة مستقبلا...

وإلى ثاني هؤلاء الأبناء [أي: عبد مناف] ينتهي نسب النبي محمد ﷺ إذ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** – L. della vida[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 4]: «... أنّه [أي: النبي ﷺ] من بني هاشم، أي أنه من أنسب عشائر مكة، ومع ذلك فإن أعداء النبي ﷺ من أهل مكة يقولون له كما توضح الآية (**31**) من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾، أي أنّهم كانوا أكثر استعداداً لقبول دعوته لو أنّه كان من كبار رجال مكة أو الطائف، وعلى أي الأحوال فما كان يُمكن مقارنـــة بني هاشم بكبار العشائر مثل: مخزوم وأميّة.

ويوحي ما روي عن فـــقر محمد ﷺ وبعض أقربائه أن بني هاشم كانوا وقت شبابه في ضائقة...

وقد كان أعمامه هم أول الشخصيات التاريخية الواضحة من أقاربه: أبو طالب (واسمه عبد مناف)، والعباس، وحمزة، وعبد العزّى (أو أبو لهب)»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وفي مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 2]: «وهو من بني هاشم التي لم تكن يوم ميلاده من العشائر الثرية، لكنها كانت قبل مولده أكثر أهمية وثراء، وكانت داخلة في حلف الفضول...»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** – M. Watt[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7191/23.

[2]– سبقت ترجمته في: ص95.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9596/31.

[6]– سبقت ترجمته في: ص59.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- شرف بني هاشم ومآثرهم: تعددت مآثر عشيرة النبي ﷺ في مكة، فكان "**قُصيّ**" جد هاشم، أبرزَ رجالات قريش في عصره، وقد ذكر المستشرق "دلافيدا –della vida" في مادة "قصي" شرفه وسيادته في قومه.

فهو الذي نظّم إدارة مكة عن طريق استحداث دار الندوة التي يعقد فيها ملأ قريش اجتماعاتهم، كما أنه وزّع الرِّفادة والسِّقاية[1] والحج واللواء بين عشائر قريش[2].

وكان "**هاشم** بن عبد مناف" أوّل من سنّ الرّحلتين لقريش: رحلتي الشّتاء والصّيف، وأوّل مَن أطعم الثّريد[3] بِمكّة، كان اسمه "**عمروا**"، وسُمّي "هَاشما" لأنه هشّم الخبز وأطعمه لقومه بِمكّة وللحجاج، ويقول الشاعر في ذلك:

عمرو الّذي هشم الثّريد لقومه ** قومٌ بِمكّـــة مسنتين عجاف[4]

سُنّت إليه الرّحلتان كلاهـــما ** سفر الشّتاء ورحلة الأصياف[5]

وبعد موت هاشم بن عبد مناف، وَلِيَ السّقاية وَالرِّفادة من بعده أخوه الْمُطَّلِب بن عبد مناف، وكان ذا شرف فِي قَوْمِهِ وفضل، وكانت قريش تُسمِّيه "الفَيض" لسماحته وفضله[6].

أمّا ما ذكره المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:3" من أنّ شخصية أجداده غير واضحة المعالم إلا أعمامه، فهو أمر مبالغ فيه، ذلك أنه وردت أخبار مثل التي سبق ذكرها وغيرها تتحدث عن أجداد النبي ﷺ وآبائه، وفيها بيان شيء من شرفهم، ومكانتهم الاجتماعيّة المرموقة في مكة، أمّا أعمامه فلعلّ كثرة ما جاء عنهم من أخبار راجع لكونهم عاصروا الرسالة، فنقلت أخبارهم ضمن أخبار السيرة النبوية وسير الصحابة إذ أسلم بعضهم.

---

[1]– **الرفادة:** هي ما كانت قريش تترافد به، أي: تتعاون عليه كلّ بقدر طاقته، لإطعام الحجيج أيّام موسم الحج حتّى ينقضي. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 242/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 238/3.

– **والسقاية:** هي توفير الماء للحجيج (خاصة زمزم) والإشراف على سقايتهم في الموسم. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 620/3. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وفريق عمل، 1082/2. أما "**دار الندوة**" فسيأتي تعريفها في: ص496.

[2]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 91/1. وينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 129/1-130.

[3]– **الثريد:** هو الخبز يخلط بالمرق واللحم. ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 268/1 و202/7.

[4]– **مسنتون:** أي: مجدبون، في حالة جدب وقحط. **عجاف:** أي: بلغوا النهاية في الهزال. ينظر: سبل الهدى، 395/6. وشرح الزرقاني على المواهب، 207/5. وذلك أن أهل مكة أصابهم قحط وشدة فرحل إلى فلسطين، فاشترى منها دقيقاً كثيراً وكعكاً وقدم بذلك إلى مكة، فأمر به فخبز ثم نحر جزوراً وجعلها ثريداً عمّ به أهل مكة، ولا زال يفعل ذلك حتى استكفوا. ينظر: سبل الهدى، 395/6.

[5]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 136/1.

[6]– المصدر نفسه، 137/1.

ثانيا- محاولة المستشرق "بول-Buhl" التقليل من شرف بني هاشم: لا شكّ أنّ كفار قريش المعاصرين للنبي ﷺ اعتمدوا على معايير فاسدة[1] في تقويم الأشخاص، وموازين اصطفاء الله تعالى للأنبياء والمرسلين، يتبيّن ذلك من مقالتهم التي ذكرها المستشرق "بول"، والتي جاءت في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

بيد أنّ معايير كفار قريش المادية في تقدير العظمة باطلة عند أهل الأديان، ذلك أنّ عظمة الأنبياء والحكماء ومن نحا نحوهم لا تقاس بتقدمهم على غيرهم في السلطان والمال والوجاهة، وإنّما هناك معايير معنوية وعملية وفكرية أخرى هي الأساس في رفعتهم وتقدّمهم، وهذا لا ينفي أن يكون الأنبياء من أهل الشرف في النسب بين قومهم، كما في حديث "هرقل" السابق عن ابن عباس رضي الله عنه.

فلو رجعنا على سبيل المثال إلى حال الأنبياء مع أقوامهم، لتبيّن بطلان معايير كفّار قريش التي جعلوها مناط اصطفاء الأنبياء وموازين تقدير مكانتهم، فعلى حسب معاييرهم كان النمرود أولى بالنبوة من إبراهيم عليه السلام، وفرعون أحرى بها من موسى ﷺ، وبهذا المقياس أيضا يكون ما قصّه القرآن من قول فرعون لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 51-52]؛ يكون قوله حجة في رفعة منزلته على منزلة النبي موسى عليه السلام، ولكان ملوك الروم والملأ الوجهاء من بني إسرائيل أولى بالنبوة كذلك من عيسى عليه السلام، والأمثلة على ذلك كثيرة.

لكن الملاحظ أنّ المستشرق "بول -Buhl" لم ينقل مقالة مشركي قريش لينقدها أو يبيّن بطلانها، وإنّما عقّبها بكلام يوحي بأنّه يدعّم مقالتهم وربّما يستلهم منها، فعندما يقول: «**وعلى أي الأحوال فما كان يمكن مقارنة بني هاشم بكبار العشائر مثل: مخزوم وأميّة**»؛ فكلامه لا يختلف كثيرا عن مقالتهم، بل قد يكون مستمداً منها وموافقا لها، غير أنّهم جعلوها في القريتين وهو جعلها في بطنين[2] من بطون قريش، كان منهما ألدّ أعداء النبي ﷺ[3].

صحيح أنّ "بول -Buhl" ذكر أنّ كون النبي ﷺ من بني هاشم؛ فهذا يعني "**أنّه من أنسب عشائر مكة**"، لكنّ عبارته بعد ذلك توحي بأنّه حاول التقليل من شرف "بني هاشم" حين قال «**لا يمكن**

---

[1]- ينظر: بيان الرازي لذلك في: تفسيره، 186/17.

[2]- **البطن:** في اصطلاح علماء الأنساب هو ما دون القبيلة وفَوْق الفخذ، مثل: بطن بني هاشم، وبني زهرة وبني أمية. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 54/13. والمفصل في تاريخ العرب، جواد علي، 509/1.

[3]- المقصود بذلك: أبو جهل من "بني مخزوم"، وأبو سفيان من بني "أميّة" الذي قاد قريشا بعد هلاك أبي جهل، ثم أسلم بعد ذلك.

مقارنة بني هاشم بكبار العشائر مثل: مخزوم وأميّة»، مع أنّ المقارنة بين هذه القبائل القرشيّة متاحة وممكنة، وبنو هاشم كانوا أنداداً لتلك القبائل وإن جاوزوهم في شيء من المال والثراء[1].

فشرف بني هاشم أمر لا يخفى على كل من طالع تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، حيث كان لأجداده من الوجاهة والمكانة العلِيّة بين قومهم ما يجعلهم من ساداتهم، ناهيك عما امتازوا به من الجود والكرم ونبل الخصال.

– أما "**بنو مخزوم**": فهذا أبو جهل وهو "مخزومي" يجعل من "**بني هاشم**" و"**بني مخزوم**" نِدَّين فيقول: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرّكب **وكنا كفرسي رهان**، قالوا: منّا نبِي يأتيه الوحي من السماء، **فمتى ندرك هذه؟!**»[2].

فقوله: "**كنا كفرسي رهان**": أي: أنّهما ندّان متنافسان، متساويان في الفضل[3]؛ ففي هذه الرواية ردّ على قول "بول - Buhl"، وأنّه يمكن مقارنة "بني هاشم" بـــ"بني مخزوم" بشهادة سيّد "بني مخزوم".

– وأمّا "**بنو أميّة**": فهم بنو عمومة "بني هاشم" ولهذا عندما سأل "هرقل" ركبَ قريش: من أقرب الناس نسبا بهذا النبي ﷺ، قال أبو سفيان: «أنا أقربهم نسباً»[4]؛ فهاشم هو: بن عبد مناف، وأميّة: هو بن عبد شمس بن عبد مناف[5].

كما كان يُقاس شرف العشيرة آنذاك بالمسؤولية الدينية والاجتماعية التي تتولاّها في مكة، فإذا كان "لبني أمية" اللواء، فقد كان "لبني هاشم" السقاية والرفادة[6]، أمّا "بنو مخزوم" فشاركوا في هذه المسؤوليات بأموالهم فكان لهم الشرف لذلك[7]، وعلى كلّ فأوجه المقارنة والمقاربة بين هذه البطون القرشيّة كثيرة خلافا لدعوى "بول -Buhl"، وهي أحياءٌ متقاربة في الشرف، وإنّ كانت "بنو مخزوم"

---

[1]– غير أنّ شرف النسب يبقى قائما حتّى مع نقص المال والسلطان في بعض الأحوال كما ذكر "بول" في إشارته إلى الضائقة المالية التي مرّ بها "أبو طالب" في شباب النبي ﷺ، وإن كانت الروايات تشير إلى أنّ تلك الضائقة أصابت قريشا عامة. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 246/1.

وفي الكلام المروي عن أبي طالب ضمن خُطبة زواج النبي ﷺ بخديجة ﵂ بيان شرف النبي ﷺ وأنّه لا يقاس بالمال عندهم دائما، وفيه ردٌّ على نظرة المستشرق لشرف النسب، ومعاييره المختلة في تقديره، حيث قال أبو طالب: «ثم إن ابن أخي هذا لا يوزن به فتى من قريش إلاّ رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وهو وإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة». ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 154/2.

[2]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 190. ودلائل النبوة، البيهقي، 206/2-207.

[3]– ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 378/1.

[4]– صحيح البخاري (الفتح)، 43/1.

[5]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 48/1.

[6]– ينظر: المنتظم، ابن الجوزي، 216/2. والقول المبين، النجار، 50-51.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 316/1.

و"بنو أمية" فاقوا "بني هاشم" في المال والثراء زمَنَ النبي ﷺ، لكنّ المال ليس هو المقياس الوحيد في الشرف عند العرب، بل عند عقلاء الناس في كلّ زمان ومكان.

وكذلك نجد المستشرق "مونتجمري وات –Watt" في مادة "مكة" قاس الشرف والمكانة بين القوم بالمال والثراء، وغفل عن أنّ مكانة "بني هاشم" في قريش تسمو عن تلك المعايير المادية، لِما كان لهم من الشرف المعنوي والديني والمكانة الاجتماعية المرموقة بفضل ما تميزوا به من الخصال النبيلة والأفعال الجليلة، ولما كان لهم من وظيفة عالية المقام في مكة؛ حيث كانوا المشرفين على أعمال السقاية والرفادة، بل إن النبي ﷺ ولد في كنف جدّه عبد المطلب الذي كان من سادات مكة آنذاك.

المطلب الثالث : جد النبي ﷺ وأبوه وأمه

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الدية**": «**وقد افتدى عبد المطلب ولده عبد الله بتضحية عشر نوق، وكان عليه أن يكرر التضحية عشر مرات، ومن ثم عدّت حياة الرجل مساوية لِمائة ناقة، وقد تقرر ذلك في كتاب بعث به محمد ﷺ إلى عمرو بن حزم**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **فايـر** - T.H.Weir[2].

– وفي مادة "**عبد الله بن عبد المطلب**"[فقرة: 1]: «**قرشي من بني هاشم وهو والد الرسول ﷺ.**

الشائع أنه كان في الرابعة والعشرين من عمره حين مات (570م)، وتذهب إحدى الروايات التي تتسم بالطرافة –وربما كانت تستند إلى بعض الواقع– إلى أن عبد المطلب كان قد أقسم لئن رزقه الله بعشر من الذكور وبلغوا الإدراك ليضحّيَن بواحد منهم، فلما تَحقق له ما تَمناه ضرب القداح فخرج السهم على ولده عبد الله، وانتهى الأمر أخيرا بأن افتداه بِمائة بعير.

وحدث في أثناء سفره للتجارة أن مرض مرضا أفضى إلى موته بالمدينة وسط بني النجار أخواله ودفن بدار النابغة»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** - M.Watt[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 380/9.

[2]– **هانس فاير** "Hans Weir" (1909–1981م): مستشرق ألماني، تخرّج من جامعة "هاله"، وعُيّن أستاذا للدراسات الشرقية في جامعة "مونستر" بألمانيا، اشتهر بتأليفه لِمعجم "عربي–ألماني"، ومن بحوثه: "الدّروز"، و"نحو اللغة العربية". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 806/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 431.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7178/23.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

– وفي مادة "**عبد المطلب بن هاشم**": «**عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ... ونستمد من المصادر العربية أن عبد المطلب كان من كبار رجال مكة وهو معروف بينهم بسيد قريش**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** - Watt.

– وجاء في مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 5]: «**ومما يذكر أن أبا محمد ﷺ مات قبل مولده، وهو شخصية تبدو في المصادر غير واضحة المعالم، ويمكن أن يكون اسمه "عبد الله" قد حلّ فيما بعد محل اسم وثني. وجدّه "شيبة" أو "عبد المطلب"، والعلاقة بين الاسمين غامضة غموض الصلة بين عبد المطلب وبني المطلب. أما من ناحية أمّه آمنة بنت وهب فكانت لَها صلة غير واضحة بالمدينة، ولا نكاد نعلم شيئا آخر مؤكداً عن نسب محمد ﷺ غير ذلك**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[3].

– جاء في مادة "**آمنة**"[فقرة: 2]: «**ويرجع القول بأن آمنة كانت من وجوه قومها إلى الأساطير التي لصقت بالتواريخ فيما بعد**[4]»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– شرف "عبد المطلب" ووجاهته في قومه: حافظت عشيرة "بني هاشم" على مكانتها المرموقة في قريش زمن عبد المطلب، وهو من كفل الرسول ﷺ بعد وفاة أبيه، وكان جدّه يحبه ويكرمه، إلى أن مات والنبي ﷺ ابن ثمان سنين[6]، لذا لا يستبعد أن النبي ﷺ أخذ بعض صفات النبل والحكمة والشرف التي كان يمتاز بها جدّه.

وقد نبّه المستشرق "مونتجمري وات –Watt" في مادة "عبد المطلب" إلى ما كان عليه "عبد المطلب بن هاشم" جدّ النبي ﷺ من الشرف والفضل والسؤدد في قومه.

يقول ابن كثير عن "عبد المطلب": «وساد في قريش سيادةً عظيمة، وذهب بشرفهم ورئاستهم؛ فكان جِماعُ أمرهم عليه، وكانت إليه السِّقاية والرِّفادَة بعد الْمطّلِب [وهو: عمّه]، وهو الّذي جدّد

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7191/23.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 9113/30.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– **تعقيب محمد عرفه** [على هامش المادة في الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**ومن العجب أن ابن هشام يروي أن وهب بن عبد مناف بن زهرة إلى آمنة كان سيد بني زهرة شرفا ونسبا، وأنّ آمنة كانت أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا... فيرد ذلك أصحاب "الدائرة" بدون دليل ويزعمون أن ذلك من الأساطير التي لصقت بالتاريخ فيما بعد... ولم يأتوا ولا بشبهة تفسد هذه الروايات، وماذا عليهم أن تكون آمنة ممدودة من أوسط الناس نسبا وموضعا!**».

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 630/2.

[6]– ينظر في ذلك: دلائل النبوة، البيهقي، 188/1 و20/2–22.

حفر زمزم»[1]، وحَفْرُها كان شرفا كبيراً خُصّ به جدّ النبي ﷺ، لِمكانة هذه البئر من المسجد الحرام، ولأنّها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فكانت مفخرة بني عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب[2].

• **الاستدراك الأول على المستشرق "بول"**: أمّا ما ذكره "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ/فقرة: 5" عن الغموض الذي يكتنف اسم عبد المطلب، فإمّا أن يكون نابعا من سوء فهم المستشرق للغة العربـــية، أو من سوء بحثه لهذه الجزئية في مصادر السيرة والتاريخ.

ذلك أنّ الاسم الأصلي لجدّ النبي ﷺ معروف في كتب السيرة، وهو: "**شيبة**"[3]، كما أنّ لقـــبه "عبد المطلب" وهو اسم الشهرة الذي عرف به، ولم يُغفل المؤرخون سبب تسميته به، وهي قصة مشهورة في كتب السير والتاريخ، ملخصها: أنّ هاشم بن عبد مناف تَزوّج امرأة شريفة من بَني عَديّ بن النّجّار في المدينة، فولدت لِهاشم غلاما اسمه "شَيْبة"، فأقام عند أخواله بالمدينة سبع سنين بعدما مات أبوه هاشم، إلى أن جاء عمّه المطلب بن عبد مناف وذهب به إلى مكة، فدخل به مكّة مُرْدِفا له على بعيره، فقالت قريش: هذا عبد الْمطلب ابتاعه، فقال المطّلب: بل هو ابنُ أخي هاشم، قدِمتُ به من المدينة؛ ثم غلب إطلاق اسم عبد الْمطّلب عليه بدلا من شيبة[4].

فالحادثة تبين كيف أنّ الناس ظنوا أنّ شيبة بن أخي المطلب هو عبد اشتراه، فقالوا: عبد للمطلب، ومع أنّ المطلب صحح تصورهم إلى أنّ ما جرى به إطلاقهم أولا غلب عليهم بعد ذلك؛ فصاروا يطلقونه عليه أكثر من اسمه الأصلي، وإطلاق ألقاب وأسماء ثانية غير الاسم الأصلي على الأشخاص كثير في عرف العرب آنذاك، ومن أمثلة ذلك: أبوه هاشم، وجده قصيّ، غلب عليهما هذان الاسمان، مع أن: اسم هاشم هو: عمرو، واسم قصي: زيد[5]، فهي قصة معقولة وواضحة.

– **الاستدراك الثاني على المستشرق "بول"**: في الرواية السابقة شاهد آخر على عدم دراسة المستشرق "بول -Buhl" لنسب النبي ﷺ دراسة وافية تمكّنه من استيعاب الوقائع، واستنتاج الروابط بينها، فهو يذكر: أنّ هناك "**غموضا في الصلة بين عبد المطلب وبني المطلب**"، لكن الواقع أنّه لا غموض بينهما، إلاّ إذا كان المستشرق لا يفرّق بين معنى لفظي "عبد" و"بني"، وهو أمر غير مستبعد من المستشرقين.

---

[1]– البداية والنهاية، 3/355-356.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 3/340. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 1/91.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/137. وتاريخ الطبري، 2/246.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/137-138. وتاريخ الطبري، 2/246-248. والبداية والنهاية، 3/355-356.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 1/181.

ذلك أنّ الرواية السابقة في تسمية عبد المطّلب تبين الفرق بين اسم "عبد المطلب" وعشيرة "بني المطلب": "**فالمطلب**" هو عم "عبد المطلب" الذي سُمّي نسبةً إلى عمّه كما سبق في الرواية، أمّا "**بنو المطلب**": فهم أبناء المطلب بن عبد مناف[1]، وهم بنو عمومة "**بني هاشم**"، لأنّ المطّلب أخو هاشم.

ثانيا- نذر عبد المطلب: تكلّم المستشرق "مونتجمري وات –Watt" في نصّه المذكور من مادة "عبد الله بن عبد المطلب" عن حادثة نذر عبد المطلب أن ينحر أحد أولاده إن رزقه الله عشرة من الأولاد، ثُمّ فداؤه لابنه عبد الله بمائة من الإبل[2]، وهي حادثة تتجلّى فيها معاني حفظ الله تعالى لنبيه ورعايته له، وتوحي «بما خطّه القدر الإلهي من ميلاد الرسول ﷺ من أبيه عبد الله بن عبد المطلب؛ فقد حفظ الله حياة عبد الله بما صرف عبد المطلب عن نحره»[3].

والملاحظ أنّ عرض المستشرق "وات –Watt" لسياق القصّة جاء بأسلوب فيه شيء من التشكيك، وإن ذكر بأنها ربّما قد تستند إلى حقائق، و لم يبيّنها، لكنّ هناك روايات صحيحة تشهد لأصل القصة، منها ما ذكره المستشرق "فاير- Weir" في مادة "الدية" من أنّ ذلك يؤيده «ما جاء في كتاب رسول الله ﷺ إلى عمرو بن حزم»، هكذا جاء في نصّ مادة "الدية"؛ وهو غلط[4]، والصواب: أنّ النبي ﷺ بعث الكتابَ مع عمرو بن حزم ﷺ إلى أهل اليمن[5].

كما أنّ أصل القصّة ثابت من حديث ابن عباس ﷺ، وفيه قوله: «كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافى له عشرة رهط، أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل»[6]، ويشهد للقصّة

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 137/1.

[2]- تفصيل القصة في: المصدر نفسه، 151/1-155. والبداية والنهاية، 344/3. من رواية ابن إسحاق دون إسناد.

[3]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 93/1.

[4]- ولو قال: "كتبه لعمرو" لصح، لأنه كتبه له وبعثه معه كما ذكر ابن حجر "الإصابة، 512/4"، وقد يكون خطأ مطبعياً، أو خطأ من المترجمين.

[5]- من حديث عمرو بن حزم ﷺ: أخرجه: **النسائي**، السنن (السندي)، كتاب القسامة، ذكر حديث عمرو بن حزم في العقول، 428/8-429. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب التاريخ، باب كتب النبي ﷺ، 507/14. والحديث كما ذكر ابن حجر في "التلخيص الحبير، 57/4-58": ضعفه بعض الحفاظ، وصحّحه آخرون: كالحاكم وابن حبّان والبيهقيّ. وينظر التفصيل في تحقيق شعيب الأرنؤوط على "صحيح ابن حبان، 507/14-(الهامش)".

[6]- أخرجه: **ابن أبي شيبة**، المصنف، 104/3. **والطبري**، في تاريخه، 239/2؛ واللفظ له. وذكر أكرم العمري في "سيرته، 93/1" أنّ: كل منهما رواه بإسناد صحيح رجاله ثقات عن ابن عباس ﷺ.

كذلك حديث حكيم بن حزام ﷺ عند الطبري[1]، بالإضافة إلى روايات عن بعض التابعين والمؤرخين الثقات كالزهري وأبي مجلز وابن إسحاق[2].

وإن كان في راوية ابن إسحاق غير المسندة بعض الزيادات التي لا يتابع عليها، والتي يمكن أن يُستشف منها شيء المبالغة والإضافات الواهية، فلو كان وصف المستشرق "وات -Watt" محددا برواية ابن إسحاق مع شيء من الالتزام بالمصطلحات العلمية البعيدة عن التهكم - كما في قوله "تتسم بالطرافة"-؛ لكان تحليله أقرب إلى الدقة والالتزام بروح البحث العلمي النزيه.

ثالثا- أبوه عبد الله بن عبد المطلب: قول "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" بأنّ "**شخصية والد النبي ﷺ تبدو في المصادر غير واضحة المعالم**"، كلام غير دقيق، ولا يُعبّر عن الحقيقة العلمية للروايات التاريخية، لأن والد النبي ﷺ توفي وعمره خمس وعشرون سنة، أي في مرحلة مبكرة من شبابه، وهذا من أسباب قلة المعلومات عنه، ومن أسباب عدم بروزه زيادة على ذلك أنه كان من أصغر أبناء عبد المطلب.

وينبغي التنبّه إلى أن ذلك لو صحّ إطلاقه، فليس له أيّ تأثير على نسب النبي ﷺ أو نبوته؛ فهل كلّ الأنبياء والمرسلين تعرف سيرة آبائهم؟ وهل يشترط أن يكون آباء الأنبياء من المشهورين والمعروفين؟!

لكن مع ذلك يمكن استخلاص بعض المعالم العامة لشخصيّة "عبد الله بن عبد المطلب" من خلال بعض الروايات التي تقدّمها مصادر السيرة والتاريخ[3]، وهي كالآتي:

- أنّه الولد العاشر لعبد المطلب.
- كان شرفه ووجاهته في قومه من شرف أبيه؛ الذي كان من سادات قريش، وذلك ما دعاه إلى أن يختار له امرأة من علية القوم وأبوها من سادات قريش كذلك، و لم يتزوج غير آمنة و لم تلد آمنة ولا عبد الله غير رسول الله ﷺ.
- تدل الروايات على حبّ عبد المطلب الشديد لولده عبد الله، ومن دلائل ذلك ما وقع في حادثة نذر عبد المطلب وفدائه له بمائة من الإبل.
- كما تدلّ على ملازمة عبد الله لوالده واحترامه له، وطاعته له وعدم مخالفة أمره.
- كان عفيفا شريفا ينأى عن سفاسف الأمور، وعاش خمسا وعشرين سنة.

---

[1]- ينظر: تاريخ الطبري، 515/11. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 100/15.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 151/1-155. ودلائل النبوة، البيهقي، 87/1، 98/1. وتاريخ الطبري، 240/2. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 68/1.

[3]- تنظر هذه الروايات في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 153/1-156. وطبقات ابن سعد 76/1-80. وأنساب الأشراف، البلاذري، 91/1-92. ودلائل النبوة، البيهقي، 87/1-88، 99/1-106. وتاريخ الطبري، 239/2-246.

- كان يصل رحمه ويتفقد أقاربه في المدينة وغيرها، وكانت له علاقات طيبة مع إخوته وأخواله، وقد دافعوا عنه بشدة لَمّا أراد والده ذبحه في الحادثة المشهورة.
- كانت له مشاركات في قضاء حوائج أسرة عبد المطلب، والقيام ببعض المهام التجارية ونحوها، كما هو شأن سفره الذي مات فيه.
- كان جوادا كريما رحيما معطاءً، ولا غرْو في ذلك إذ هو سليل أسرة تمتاز بالجود والكرم.
- **اسم "عبد الله بن عبد المطلب"**: طريقة أخرى اعتمدها المستشرق "بول - Buhl" للغمز في نسب النبي ﷺ، فزعم بأن تسمية "عبد الله": قد "**حلّت فيما بعد محل اسم وثني**"، وهذه دعوى لا تستند إلى أي دليل أو قرينة صحيحة، وهو افتراض يمكن أن توجه إليه عديد الإشكالات والتساؤلات، منها:
  - هل كانت كل أسماء العرب في الجاهلية لها معان وثنية ؟
  - وهل هذه التسمية لم تكن موجودة في الجاهلية ؟ وما هو الدليل على هذه الفرضية؟

ولا شكّ بأن جواب هذه التساؤلات يدفع ما ذهب إليه المستشرق "بول" محرر مادة "محمد ﷺ"، ويبين مدى مجانبتها للحقائق التاريخية.

ذلك أنّ كثيرا من أسماء العرب في الجاهلية لم تكن لها معاني وثنية، بل كان بعضها له دلالة إيمانية وتوحيدية، ومنها مثلا اسم: عبيد الله و "عبد الله" وغيرها.

فنجد من الذين تسموا "بعبد الله" في الجاهلية مثلا: "**عبد الله بن جدعان**" من سادات قريش في الجاهلية وهو الذي عُقد حلف الفضول في بيته[1]، ومنهم: **عبد الله بن أبي أمية** من بني مخزوم كان في بداية أمره معاديا للإسلام ثم أسلم واستشهد[2]، وكذا جدّ كـــل من: الوليد بن المغيرة **بن عبد الله**، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة **بن عبد الله**[3]، وغيرهم كثير مما يدلّ على أنّ هذا الاسم كان موجودا وشائعا عندهم، فلا عجب أن يسمى به والد النبي ﷺ.

رابعا- شرف نسب أمّ النبي ﷺ: لم يكتف المستشرق "بول -Buhl" بمحاولة غمز نسب النبي ﷺ من جهة أبيه، بل تعدّى ذلك إلى محاولة التشكيك في شرف نسب أمّه أيضا، وهو ما يفهم من كلامه في نصّه المذكور من مادة "آمنة"، وقد ردّ عليه الأستاذ "محمد عرفه" مستندا إلى ما ذكره ابن هشام وغيره، وهو أمر مقرر في كتب السير والتاريخ؛ يذكرون ما كان عليه "وهب" والد "آمنة" أمّ النبي ﷺ من الوجاهة والشرف بين قومه، حيث كان سيد "بني زهرة" ومن أشراف قريش، كما كانت بنته

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 133/1-134. وسيأتي الكلام على حلف الفضول في: ص269.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 298/1. والإصابة، ابن حجر، 10/4-11.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 265/1.

آمنة من أفضل نساء قريش نسبا وموضعا[1]، حيث بيّنت كتب التاريخ والأنساب أنّ بني زهرة كانوا من وجهاء مكة وشاركوا في حلف الفضول[2].

وإذا تقرّر أنّ عبد المطلب كان من وجهاء مكة وسادتها، فمن الطبيعي أن يختار لابنه عبد الله – الذي يعزّه ويحبه كثيرا– امرأة من أشراف مكة ومن بنات سادات قريش.

ذلك أنّ الشواهد التاريخية تشير إلى أنّه كان في قريش من كل حيّ وعشيرة سادة لهم مكانتهم ومترلتهم المرموقة في مكة كان من أهمهم: بنو هاشم، **وبنو زهرة**، وأيضا: بنو مخزوم وبنو أمية[3].

– **الوهم الذي وقع فيه المستشرق "بول"**: أمّا ما ذكره "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" من عدم وضوح علاقة آمنة بالمدينة، فقد يكون من سوء فهمه، أو عدم اطلاعه، ولو راجع فقط "تهذيب سيرة ابن إسحاق" لابن هشام لأدرك أنّه ليس هناك علاقة نسب بين آمنة والمدينة كما توهّم من زيارتها للمدينة التي ماتت فيها، وإنّما هناك علاقة خؤولة بين النبي ﷺ وبين بني عدي بن النجار[4]، ذلك أنّ أمّ عبد المطلب – زوجة هاشم– كانت من بني النجار في المدينة كما في القصة المذكور سابقا عن تسمية عبد المطلب بهذا الاسم، وهذا الأمر موجود في إطلاق العرب، يطلقون على الجد أبا، وعلى الحفيد ابنا، وعلى أخوال الجد أخوال الحفيد وهكذا.

لكن قد يكون المستشرق وقع في هذا اللّبس من جهة عدم معرفته – أو على الأقل معرفته السطحية– بأعراف العرب والإطلاقات الواسعة لِمعنى الأبوة والبنوة، وما يتبعها من خؤولة وعمومة.

والملاحظ أنّ عرض المستشرق "مونتجمري وات -Watt" في مادة "عبد الله" كان أدق من عرض "بول -Buhl" في هذه الجزئية؛ ذلك أنّ "وات -Watt" عندما ذكر خبر وفاة والد النبي ﷺ، أشار إلى أنه توفي عند أخواله، وبذلك يتضح مما جاء في مادة "عبد الله" أن خؤولة النبي ﷺ بالمدينة هي من جهة أبيه لا من جهة أمّه، فكان حريّا بالمستشرق "بول" أن يراجع هذه المادة من "دائرة المعارف" التي يساهم في تحريرها، قبل أن يطرح هذا الإشكال الذي ينمّ عن عدم معرفته واطّلاعه الدقيق والوافي –أو ربما عدم استيعابه– لبعض المعطيات الواضحة المتعلقة بالسيرة النبوية.

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 156/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 102/1. وتاريخ الطبري، 240/2. وأنساب الأشراف، البلاذري، 7/10.

[2]– ينظر: أنساب الأشراف، 12/2 و7/10. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 86/4 و91.

[3]– ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 246/5.

[4]– كما بيّن ابن هشام في: تهذيب سيرة ابن إسحاق، 168/1 و86/7-87. والبيهقي في: دلائل النبوة، 188/1.

فهذه ثلاثة أوهام[1] وقع فيها المستشرق "بول -Buhl" كلّها مرتبطة بقصّة تسمية "عبد المطلب" وعلاقة أمّه المدنية، وقدوم عمّه "المطلب" به إلى مكة، الأمر الذي يرجّح أنّه لم يطّلع على هذه الرواية المشهورة أصلا، مع ورودها في "سيرة ابن هشام" وهي من مصادره، وقد يكون مرّ عليها سريعا دون استيعاب، لكن يبدو أنّه لم يغفل عن هذه الرواية فحسب، بل غفل عن روايات صحيحة وهامة غيرها أيضا، كما يدلّ على ذلك استناده فيما سبق[2] إلى تقرير شرف "بني هاشم" بأبيات من الشعر، مع وجود روايات حديثية موثّقة في ذلك، وهذه القرائن كلّها تؤكّد أنّ دراسة المستشرق "بول-Buhl" لنسب النبي ﷺ اتّسمت بالسطحيّة والقصور، وأنّها أبعد عن الدراسة الوافية والاستيعاب التام، لذا لا يستقيم أن يطلق حكما جزافيّا عاما في هذا الموضوع؛ مثل الحكم الذي أطلقه في قوله «**ولا نكاد نعلم شيئا آخر مؤكداً عن نسب محمد ﷺ غير ذلك**»، فهو لم يستوعب الروايات الواردة في الكتب المشهورة كـــ"سيرة ابن هشام"، فضلا عن أن يستوعب الروايات الأخرى المؤكَّدة في المصنفات الحديثية، فإنّ ذلك يحتاج إلى بحث موسّع واستقراء تام، هو بعيد عنه كلّ البعد.

[1]- إضافة إلى الخطأين السابقين في: ص243. في الاستدراك (1) و (2) عليه.

[2]- ينظر: ص234-235.

المبحث الثالث : نشأة النبي ﷺ وشبابه

المطلب الأول : نشأته ﷺ يتيما

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**آمنة**" [فقرة: 3]: «**وتوفيت آمنة بالأبواء، ولَمّا يبلغ النبي السادسة من عمره إبان زيارتها للمدينة مع ولدها** (ابن هشام، ج**1** ص**107**. ابن سعد، ج**1** ص**73**. الطبري، ج**1** ص**980**)»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**أبواء**"[فقرة: 1]: «**وتقول الرواية الشائعة إن آمنة أم النبي توفيت ودفنت بالأبواء عند عودتها من المدينة، ويقال إن جماعة من أهل مكة رأوا قبل مسيرهم إلى غزوة أحد أن ينبشوا قبر آمنة ويتخذوا من ذلك رهينة على النبي، ولكن قوماً آخرين نهوهم عن ذلك، ونستطيع أن نعرف عدم صحة هذا كله من رواية أخرى** (الطبري: ج**1** ص**980**) **تقول إن قبر آمنة في مكة**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendoef[4].

– وجاء في مادة "**عبد الله بن عبد المطلب**" [فقرة: 2]: «**وإن ورود كلمة "اليتيم" في القرآن الكريم لتشير من غير شك إلى فقدان محمد** ﷺ **المبكر لوالديه**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** –Watt[6].

– وفي مادة "**محمد** ﷺ **نبيّ الإسلام**" [فقرة: 6]: «**ويؤكد القرآن في سورة الضّحى أن محمداً** ﷺ **نشأ يتيما، وهو الأمر الوحيد تقريبا الذي نعرفه عن نشأته الأولى**»[7]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** –Buhl.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 630/2.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 306/1-307.

[4]– **ركندورف** "H.Reckendorf" (1863– 1924م): مستشرق ألماني، اشتغل أستاذا للعربية في فرايبورج، أغلب دراساته في النحو العربي، من مؤلفاته: "النحو العربي الوصفي"، و"الجناس في اللغة العربية" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 731/2.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7178/23.

[6]– سبقت ترجمته في: ص59.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- وفاة أبيه وأمّه ونشأته يتيما: مات "عبدُ الله" والد النبي ﷺ وأمّه حامل به، فوُلِد ﷺ يتيما[1]، كما ذكر محرّر مادة "عبد الله بن عبد المطلب" ، ثم ماتت أمّه "آمنة" وله من العمر ستّ سنين[2] كما جاء في مادتي "أبواء" و"آمنة"، لذلك نشأ **يتيم الأب والأم**؛ قال ابن كثير: «وهذا أبلغ اليُتْم، وأعلى مراتبه»[3].

وجاء ذكر يتمه ﷺ في القرآن في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴾ [الضحى: 6]، كما ذكر "وات -Watt" في مادة "عبد الله بن عبد المطلب".

لكن ليس هذا كل ما نعرفه عن طفولة النبي ﷺ ونشأته كما ادّعى المستشرق "بول -Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ"، بل يتمه ﷺ جزء من أخبار نشأته، ولعلّ ما دعاه إلى إصدار هذا الحكم المجافي للحقائق التاريخية والعلمية هو إنكاره لِجلّ أحداث طفولة ونشأة الرسول ﷺ الواردة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، كما يدلّ عليه كلامه بعد سوقه لهذه الدعوى، وسيأتي في العناصر الموالية مناقشته هو وغيره ممن أنكر بعض الأحداث التي وقعت في طفولته وشبابه ﷺ.

- **ملاحظات على دعوى المستشرق "بول"**: تتلخّص في النقاط الآتية:

أ)- أنّ هذه الدعوى لا تستند إلى أي دليل سوى الإنكار و"**النفي الكيفي**".

ب)- الملاحظ أنّ هذه الدعوى لا تتّسم بالواقعيّة، لأنّنا نجد المستشرق "بول -Buhl" نفسه يذكر ما ينقضها، كما في مادة "حليمة" الآتي ذكرها حيث تكلّم بالتفصيل عن رضاعة النبي ﷺ في بني سعد وحادثة شقّ الصدر[4]، فكيف يدّعي غموض نشأته؛ ثم يتكلّم عن تفاصيل متعلقة برضاعه وطفولته، فأيّ تناقض واضطراب هذا ؟!

ج)- أضف إلى ذلك أنّه جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" نفسها عدّة موادّ تحدث فيها محرّروها من المستشرقين على عدّة أحداث متعلّقة بنشأته ﷺ سيأتي إيرادها، منها على سبيل المثال: ذكر المستشرق "وات -Watt" في مادة "مكة" النبي ﷺ صحب في صباه عمّه في رحلاته التجارية[5]، وتكلّم المستشرق "فنسنك -Wensinck" في مادة "ميكائيل": عن حادثة شق الصدر[6]، وفي مادة "رجب" ذكر

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 158/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 187/1. والسيرة الصحيحة، العمري، 95/1.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 168/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 423/3.

[3]- البداية والنهاية، 383/3.

[4]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 59/8.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، إص3، 9597/31.

[6]- ينظر: المصدر نفسه، إص3، 9833/31.

المستشرق "بلسنر-Plessner": مشاركة النبي ﷺ في حرب الفجار في صباه[1]؛ فهذه الإحالات تدلّ على أنّ دعوى "بول -Buhl" ليس لَها أثر أو قبول حتّى عند زملائه المستشرقين المساهمين في تحرير نصوص مواد "دائرة المعارف".

د)- وحتّى لو سلّمنا جدلا بقلّة المعلومات عن نشأة النبي ﷺ، فإنّ ذلك لا يُعدّ منقصة في سيرة الرسول ﷺ، فطفولة النّبيّيْن موسى وعيسى عليهما السلام ونشأتهما أيضا لا نعلم عنها إلا القليل[2]، وليس ذلك بمنقصة في سيرتهما ولا في سيرة محمد ﷺ.

ثانيا- المكان الذي دُفنت فيه أم النبي ﷺ "آمنة": اتّفق أهل السير والتاريخ أنّها توفيت بالأبواء[3]، بينما وقع الخلاف في المكان الذي دفنت فيه، لأن جلّ الروايات المشتهرة لا تبين ذلك، وقد ذكر النووي وغيره الخلاف في موضع قبرها، تتلخّص هذه الأقوال فيما يلي:

- **القول الأول:** أنّ قبرها بالأبواء، إذ دُفـــنت حيث ماتت، وهو الأشـــهر وقول الأكثر، ورجّحه: ابن سعد، وابن الجوزي، وياقوت الحموي، والنووي وغيرهم[4].

وهو القول الذي اعتمده "بول -Buhl" في مادة "آمنة"، واعتبره "ركندورف-Reckendoef" في مادة "أبواء" "**الروايةَ الشائعة**" أي: الأشهر.

- **القول الثاني:** أنّ قبرها بمكة، أشار إليه المستشرق "ركندورف-Reckendoef" في مادة "أبواء"، ويَستند هذا القول إلى رواية الطبري من طريق الواقدي عن عثمان بن صفوان[5]، وعزاه البلاذري إلى البصريين وضعفه، كما ضعفه أيضا ابن سعد[6].

فالقول الأول هو القول الأشهر والأرجح تاريخيا، وهو الذي اختاره المحققون من علماء السيرة والتاريخ كابن سعد والبلاذري والنووي وغيرهم.

---

[1]- ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 8/49-50.

[2]- ينظر: الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، 49-51. و السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 16.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 168/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 188/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 47/1. وزاد المعاد، ابن القيم، 75/1؛ وذكر أنه لا خلاف أنها توفيت بالأبواء.

- **والأبواء:** قرية بينها وبين المدينة حوالي أربعة وعشرين ميلا [أي: 38 كلم]، بها واد من أودية الحجاز، وآبار كثيرة ومزارع. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 79/1. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 17. والسيرة الصحيحة، العمري، 345/2.

[4]- ينظر على الترتيب: الطبقات الكبرى، 94/1. وتلقيح فهوم الأثر، 18. ومعجم البلدان، 79/1. وتهذيب الأسماء واللغات، 108/4.

[5]- ينظر: تاريخ الطبري، 166/2.

[6]- ينظر على الترتيب: أنساب الأشراف، 95/1. والطبقات الكبرى، 94/1.

أمّا الرواية التي ذكرها "ركندورف-Reckendoef" عن عزم المشركين على نبش قبر "آمنة" في مسيرهم لغزوة أحد ثم إعراضهم عن ذلك، فهي رواية مرسلة غريبة رواها الواقدي وهو ضعيف؛ فلا تصح على منهج المحدثين[1]، وإن كان قد يُتساهل في إيرادها ما دامت تذكر بعض تفاصيل السيرة، ولا تخالف الروايات الصحيحة ولا أصلا شرعيا، ولا يُستند إليها في إثبات أو نفي حكم شرعي.

لكن لا يستقيم استناد "ركندورف-Reckendoef" إلى القول بأنّ قبر "آمنة" في مكة (وهو قول ضعيف) من أجل ردّ رواية "الطبري" من طريق الواقدي في "محاولة نبش قبر آمنة يوم أحد" (مع ملاحظة ضعفها)، فاستدلاله هذا ليس في محلّه، من وجوه:

أ)– أنّ الطبري وإن كان ذكر: رواية الواقدي في أنّ قبر "آمنة بنت وهب" في مكة، فقد ذكر أيضا رواية ابن إسحاق في كون: قبر آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة[2].

ب)– أضف إلى ذلك أنّ الطبري لم يرجّح أنّ قبر آمنة في مكة.

ج)– ثُمّ إنّ ما أورده الطبري يدلّ على ترجيح أنّ قبرها بالأبواء، لأنّ الرواية بذلك جاءت من طريق ابن إسحاق، أمّا الرواية بأنّه بمكة فجاءت من رواية الواقدي وهو ضعيف، وابن إسحاق أوثق منه.

د)– كما ضعّف البلاذري وغيره أنْ يكون قبر "آمنة" بمكة، فقال البلاذري: «وذلك غير ثبت»[3]، وقال ابن سعد: «هو غلط وليس قبرها بمكة، قبرها بالأبواء»[4].

صحيح أنّه لا يمكن الجزم برواية عزم مشركي قريش في "أُحُد" على نبش قبر "آمنة" على قواعد المحدثين، لكن لا يستقيم أيضا تضعيفها استناداً إلى رواية أخرى أضعف منها.

وعلى كلٍّ فقصّة محاولة نبش القبر وإن لم يثبت فيها نقل صحيح، فلا يوجد ما يناقضها أو يردّها تاريخيا وشرعيا، وهو أمر غير مستبعد من المشركين، قال المقريزي: «وهمّت قريش وهي بالأبواء أن تنبش قبر آمنة أم النبي ﷺ ثم كفهم اللّه عنه»[5].

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 206/1. وتاريخ الطبري، 511/2-512؛ من طريق الواقدي.

والواقدي ضعيف عند المحدثين، رواه عن "عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبي" يروي عنه الواقدي وهو غير معروف ولم أقف له على ترجمة، ولعله من الأخباريين.

[2]– ينظر: تاريخ الطبري، 511/2-512.

[3]– أنساب الأشراف، 95/1.

[4]– الطبقات الكبرى، 94/1.

[5]– إمتاع الأسماع، 132/1.

المطلب الثاني : موقف "الدائرة" من بعض الأحداث الواقعة في طفولته ﷺ

الفرع الأول: حادثة شق الصدر

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**حليمة**": «من نساء بني سعد بن بكر، وهي مرضع النبي ﷺ وفقا لِما ورد في الحديث؛ وقد خرجت في سنة شهباء في نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء وأخذت آخر الأمر محمدا وكان يتيما، وسرعان ما غمر بيتها فيض من الخير والبركة؛ وقد جاء النبي إبان إقامته عندها ملكان فشقا صدره واستخرجا منه علقة سوداء. ووردت بعدئذ في تواريخ غزوات النبي إشارة أو إشارتان إلى نسبه لبني سعد.

وعلى ذلك فإن القصة كلها إنّما هي من قبيل قصة الطفولة الواردة في الإنجيل كان الباعث عليها كما يدل على ذلك سياق القصة أن كل نبي حق يجب أن يكون قد رعى الغنم مرة...

أما قصة تطهير الصدر التي قالت روايات أخرى إنّها وقعت في زمن آخر غير هذا الزمن (الطبري، ج1 وما بعدها وص1157) فالظاهر أنها لا تعدو أن تكون تجسيما[1] للآية الأولى من سورة "ألم نشرح"»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[3].

- وجاء في مادة "**شرح**": «وكلمة شرح أطلقت على السورة الرابعة والتسعين من القرآن وأول آياتها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]، وقد نَمت قصة حول هذه الآية، وهي أن محمّداً عليه السلام حين كان بين يدي مرضعته جاءه ملكان وشقا صدره وأخرجا قلبه وغسلاه، ثم ردّاه إلى مكانه، ولهذا فهي تسمى "الشرح"»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **كارادو فو** - Carra De Vaux[5].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نبيّ الإسلام**" [فقرة: 7]: «فقصة تطهير قلبه من العلقة السوداء مثلا قد لا تكون غير تفسير للآية الأولى من سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl.

---

[1]- **تعليق المترجم** [على هامش المادة المتعقَّب عليها]: «**قصة شق صدر النبي وغسل قلبه بالثلج الخ.. من الإسرائيليات وليس لها سند من الحديث الصحيح**».

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 59/8.

[3]- سبقت ترجمته في: ص150.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 188/13.

[5]- **كارادو فو** "Bon Carra de vaux" (1867- 1953م): مستشرق فرنسي، عُين أستاذا في المعهد الكاثوليكي في باريس للغات الشرقية وبخاصة العربية، من آثاره: "عقيدة الإسلام"، "العبقريات السامية"، وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 263/1. موسوعة المستشرقين، بدوي، 462.

[6]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30.

– وجاء في مادة "**ميكائيل**": «**وقد ذكر اسم ميكائيل بأنّه الملك الذي شق صدر النبي محمد** ﷺ»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[2].

ثانيا– التحليل والمناقشة: أنكر بعض المستشرقين في هذه النصوص من "دائرة المعارف" حوادث متعلّقةً بطفولته ﷺ اعتماداً على طرائق مختلفة، وفيما يلي بيان ذلك:

[1]– إنكار رعيه للغنم في بادية "بني سعد"[3]: مع أنّ رعي الغنم ليس أمرا ذا بال، ولا يستبعد من أيّ أحد عاش في بيئة يغلب عليها تربية الأغنام والإبل ونحوها، نجد المستشرق "بول -Buhl" يحرص كلّ الحرص على نفي ذلك بأسلوب "**النفي بالمطابقة**"؛ ذلك أنّ رعْـــي الغنم لَمّا كان من أحوال الأنبياء -كما يبيّن حديث أبي هريرة الآتي ذكره عن النبي ﷺ- حاول المستشرق "بول" نفي ذلك عن النبي ﷺ، حرصا منه على إنكار كلّ ما له علاقة بدلائل نبوة محمد ﷺ، وأما ما ذكره من تشابه بين "قصة رعيه للغنم في بني سعد" وبين ما جاء في الإنجيل، فهذا إن ثبت لم يكن حجة؛ إذ أنّ التشابه بين الحوادث في التاريخ موجود، ولا يعني ذلك نفيَ السابقِ منها للاّحق ولا العكس كما قرّر المستشرق "درمنغم"[4]، أضف إلى ذلك أنّه لا يمكن أن تكون هناك مطابقة بين القصتين؛ فإنّ النبي ﷺ رعى الغنم في بادية بني سعد وهو لا يجاوز الخمس سنين[5]، ثم رعاها في مكة في صغره وفي مطلع شبابه على سبيل الإجارة، وهذا الوصف حتما غير موجود فيما نقله "بول -Buhl" عن الإنجيل[6]، وحتى لو سلمنا بشيء من التشابه من حيث رعيه الغنم في "بني سعد" فلكلّ قصة شخصياتها وإطارها الزماني والمكاني.

فقد جاء في حديث عتبةَ بن عبد السُّلميّ ﷺ عند أحمد وغيره: ذِكرُ رعي النبي ﷺ للغنم في بادية "بني سعد"[7]، كما رعى النبي ﷺ الغنم في مكة، فعن أبي هريرة ﷺ: أنّ النبي ﷺ قال: ((**مَا بَعَثَ** اللهُ

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9833/31.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– **بنو سعد**: هم بنو سعد بن بكر بن هوازن من قيس بن عيلان، كانت منازلهم في جنوب شرق مدينة الطائف. ينظر: معجم قبائل العرب، عمر كحالة، 513/2، وأيضا: 84/1.

[4]– يقول المستشرق "درمنغم": «فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ **إذا اقتضى تطابق الدليلين** تهادمهما بحكم الضرورة، **بدلا من أن يؤيّد أحدهما الآخر؟!**». ينظر كتابه: "The life of Mohamet , X".

[5]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 90/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 105/1.

[6]– ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا [2/1–52]، 91–93. يل إنّ كلّ مَن يطّلع على قصّة طفولة المسيح عليه السلام في "إنجيل النصارى" في هذا الموضع وغيره يدرك اختلافها التام بين طفولة النبي محمد ﷺ كما وردت في السيرة.

[7]– ينظر: مسند **أحمد**، 195/29. ومستدرك **الحاكم**، 673/2. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

نَبِيًّا **إلاّ رَعَى الغَنَمَ**))، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: ((نَعَمْ، **كُنْتُ أَرْعَاهَا** عَلَى قَرَارِيطَ[1] لِأَهْلِ مَكَّةَ))[2].

أمّا قصة إرضاع حليمة السعدية له في بني سعد وما ظهر عليه ﷺ من البركة فهو خبر مستفيض في كتب السيرة والتاريخ والدلائل، وهو من رواية ابن إسحاق عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه[3].

[2]- إنكار حادثة شقّ الصدر: اعتمد المستشرق "بول -Buhl" في مادة "حليمة" ثم في مادة "محمد ﷺ" على "**منهجية المقابلة والمطابقة**" لإنكار "حادثة شقّ الصّدر" الواقعة في طفولته ﷺ؛ حيث اعتبر أن هذه الحادثة ليست إلاّ تفسيراً للآية الأولى من سورة الشرح، وفي مادة "حليمة" أضاف إلى المنهج السابق منهجية القراءة المادية حين اعتبر الحادثة تجسيدا حسيا للآية.

وكذلك اعتمد المستشرق "كارادە فو-Carra De Vaux" المنهج نفسه في مادة "شرح" عندما ربط القصة بالآية في نقده للحادثة.

وزاد الطين بلّة تعقيبُ المترجِم على مادة "حليمة" الذي ذكر فيه: أن القصة ليست ثابتة وإنما هي من قبيل الإسرائيليات، مع أنّ قصة "شق صدر النبي ﷺ" في طفولته ليست من الإسرائيليات، بل هي روايات إسلامية خالصة يرويها المحدثون الثقات عن الصحابة وعن النبي ﷺ.

فقد جاء في صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغِلْمان، فأخذه فَصرَعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقة، فقال: هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه - يعني ظِئْره[4]- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون»، قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك الْمِخْيَط في صدره»[5].

---

[1]- **قراريط:** جمع "قيراط" وهو جزء من النّقد (الدينار أو الدرهم). ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 557/4.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، 557/4.

[3]- أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 48-50. ومن طريقه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 212/24-214. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 132/1-135. وقال الذهبي في "تاريخ الإسلام، 498/1": هذا حديث جيد الإسناد. وحسّنه العلي في "صحيح السيرة، 40". ورأى أكرم ضياء: في تحسين الحديث تساهلا. ينظر التفصيل في: السيرة الصحيحة، 102/1-103. لكن هذا التساهل قد يكون مقبولا لكون الحديث خاصا بالسيرة ومن رواية ابن إسحاق -وهو من أئمة هذا الشأن- ولا معارض له، ولأنّ أصل القصة ثابت.

[4]- الظئر: هي المرضعة. ينظر: شرح الشفا، علي القاري، 751/1.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 282/2-283. **وأحمد**، المسند، 489/19. **والحاكم**، المستدرك، كتاب التفسير، 575/2.

كما جاء في المسند وغيره عن عتبةَ بن عبد السُّلميّ ﷺ حكايةُ رسول الله ﷺ لقصة شقّ الْمَلَكين صدره وغسله ثم لأُمِهِ في بادية بني سعد في حديث طويل[1].

وتَرِد عدّة ملاحظات على ربط المستشرقَيْن "بول Buhl-" و"كارادە فو Carra De Vaux-" بين الآية الأولى من سورة الشرح وبين اختلاق قصة شقّ الصدر -في زعمهما -، واتخاذ ذلك ذريعة لردّ الحادثة، وهي كالآتي:

أ)- تفسير آية من القرآن الكريم لا يحتاج إلى اختلاق قصة أو وضع حديث من أجل تصوير المعنى حسّياً أو تمثيله مادّياً، فإنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، ويكفي في تفسيره معرفة الدلالات اللغوية والشرعية، ولو كان الأمر كما زعما إذاً لاحتاجت كل آية إلى اختلاق حادثة أو قصة من أجل تفسيرها.

ب)- بعد الرجوع إلى كتب التفسير نجد بيان المفسرين لِمعنى الآية مخالفاً لِما عرضه المستشرقَان من كون علماء الإسلام إنما اختلقوا هذه الحادثة لتفسير معناها وتجسيده.

ذلك أنّ أوّل **معنى** يذكره **المفسرون للآية** هو أن المراد من الآية: ألم نفتح ونوسِّع ونُلَيِّن لك قلبكَ بالإيمان والنّبوّة والعلم والحكمة؟ وهو استفهام تقريري؛ أي: قد شرحنا لك صدرك وجعلناه فسيحا رحيبا لتحمل أعباء النبوة وحفظ الوحي؛ فيكون معنى "الشرح": نفسح ونبسط ونوسع ونليّن[2]، وهذا التفسير المعنوي لشرح الصدر هو القول الغالب عند المفسرين، يقول الزحيلي: «والأكثرون على أن الشرح أمر معنوي»[3].

وهناك تفسير آخر لشرح الصدر ذكره بعض المفسرين على أنّه وجه ثانٍ من أوجه معنى الآية - لا أنه الوجه الوحيد في تفسيرها- وهو: شرَحَ صدرَه بِما وقع في حادثة شق الصدر في طفولته وفي ليلة الإسراء والمعراج[4].

وذهب ابن كثير وعطية سالم إلى التوفيق بين القولين: لأنّ أثر حادثة شقّ الصدر هو الشرح المعنوي الذي جاء في التفسير الأول، وعليه فلا منافاة بين القولين، بل هما متكاملان[5].

فالملاحظ أن أكثر علماء التفسير خاصة القدامى منهم لا يذهبون إلى تفسير الآية بحادثة شقّ الصدر، كما في تفسير عبد الرزاق والطبري والبغوي وابن الجوزي وغيرهم؛ يكتفون بالتفسير المعنوي

---

[1]- ينظر: مسند **أحمد**، 195/29. ومستدرك **الحاكم**، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 673/2. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسن الهيثمي إسناد أحمد في "مجمع الزوائد، 222/8".

[2]- ينظر: تفسير الطبري، 492/24. وتفسير البغوي، 274/5. والتفسير المنير، وهبة الزحيلي، 293/30-294.

[3]- التفسير المنير، 294/30.

[4]- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 104/20. وتفسير ابن كثير، 429/8. والتفسير المنير، 294/30.

[5]- ينظر: تفسير ابن كثير، 429/8. وتتمة أضواء البيان، 573/8.

للآية ولا يذكرون غيره[1]، مع أنهم يروون أو يذكرون الحادثة في مواضع أخرى، وهذا إنّما يدلّ على أنّ الرواية معروفة مشتهرة في كتب الحديث والسيرة على أنّها من إرهاصات النبوة، أكثر من كونها وجها من أوجه تفسير الآية، وهذا يبطل ما ذهب إليه المستشرقان من أساسه.

ج)– حتّى ولو كان التفسير الوحيد لمعناها هو ما جاء في الحادثة فلا يدلّ ذلك على إبطال الرواية أو نفيها، فكيف وهو وجه ثانٍ لتفسيرها ذكره بعض المفسرين وأعرض عنه الأكثرون لكون التفسير الأول هو الأصل الذي لا يستغنى عنه في بيانها، لذا أرجع علماء آخرون التفسير الثاني إلى الأول، وجعلوا التفسير المادي بحادثة شق الصدر يصبّ في سياق التفسير المعنوي، فلا منافاة بينهما.

د)– كما أن القول الثاني في تفسير الآية إنّما يؤيد صحة حادثة شق الصدر ويقوّيها، ولا يسقطها أو ينفيها؛ خلافا للمنهج الخاطيء الذي اعتمده المستشرقان لإنكار الحادثة، بنقض الرواية لكونها تفسّر الآية، عوض أن تؤيدها؛ لذا نجد المستشرق "درمنغم" يبيّن بعبارة دقيقة خطأ هذا المنهج في التعامل مع الروايات والوقائع التاريخية فيقول: «فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلا من أن يؤيّد أحدهما الآخر؟»[2].

[3]– حكمةُ حادثة "شقّ الصدر" وكونها من الإرهاصات والمعجزات: لا شك أن تطهيره ﷺ من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوّة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله؛ فنَشأ على أكْمل الأحوال من العصمة مِن الشّيطان، وقد دّلت أحداثُ صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثمًا و لم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه[3].

كانت حادثة شقّ الصدر «عملية تطهير معنوي، ولكنها اتّخذت هذا الشكل المادي الحسي؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم»[4]؛ فالله عز وجلّ قادر على شرح صدر نبيه ﷺ دون هذه الواقعة الحسية، ولكنّه سبحانه جعل الحادثة إرهاصا لنبوته ودلالة من دلائل صدق رسالته ﷺ، وعلامة على رعايته وحفظه له؛ هذا هو الأمر الذي أراد المستشرقون إخفاءه وإنكاره والتعمية عليه من خلال ردّهم لهذه المعجزة الباهرة، لأنّ في إثباتها إثبات لنبوته ﷺ؛ إذ لا يحصل هذا الأمر إلا لنبي مرسل.

---

[1]– ينظر: تفسير عبد الرزاق، 438/3-440. وتفسير الطبري، 492/24. وتفسير البغوي، 274/5. وتفسير ابن الجوزي، 460/4.

[2]- The life of Mohamet , Emile Dermenghem, X.

– وترجمة عبارته من: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين)، عماد الدين خليل، 130/1-131.

[3]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 257/7. والسيرة الصحيحة، أكرم العمري، 104/1.

[4]– فقه السيرة، البوطي، 47.

قال ابن حجر: «جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مِمّا يجب التسليم له دون تعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك»[1] على الله تبارك وتعالى.

الفرع الثاني : ختانه ﷺ

– جاء في مادة "**ختان**": «**كما تبدو أهمية الختان من الرواية التي تقول إن النبي ولد مختونا (طبقات ابن سعد، ج1، القسم الأول، ص64)**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[3].

ذكر المستشرق "فنسنك -Wensinck" رواية مولد النبي ﷺ مختونا، واكتفى بها لشهرتها، لكنّ موضوع ختانه ﷺ وقع فيه اختلاف على قولين:

– **القول الأول**: أنه ﷺ ولد مختونا، وهو قول أكثر علماء السيرة، وجاءت في ذلك روايات: عن ابن عباس ﷺ[4] وعن أبيه العباس ﷺ موقوفا[5]، وعن أنس بن مالك ﷺ مرفوعا[6]، لكنها لا تثبت على منهج المحدثين كما بيّنت في تخريجها، وذكر ابن القيم عن ابن الجوزي وابن العديم أنه لا يثبت في ذلك شيء[7]، وقال ابن كثير: «وقد ادّعى بعضُهم صحّته لِما ورد له من الطّرق حتّى زعم بعضهم أنّه متواتر، وفي هذا كلّه نظر»[8]، وبيّن أكرم ضياء العمري وهَن طرقها رغم تعدّدها فقال: «الأحاديث في

---

[1]– فتح الباري، 257/7.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 216/8.

[3]– سبقت ترجمته في: ص49.

[4]– ينظر: الكامل، ابن عدي، 399/2. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 411/3؛ وفي إسناده "جعفر بن عبد الواحد": له مناكير ومنسوب إلى الوضع والكذب، كما بيّن ابن عدي، وجعل حديثه هذا من البواطيل. وقال السيوطي "مناهل الصفا، 44": سنده واه.

[5]– أخرجه: **ابن سعد**، الطبقات الكبرى، 82/1. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 114/1. وآفته "يونس بن عطاء": يروي الموضوعات ولا يجوز الاحتجاج بخبره؛ كما في "لسان الميزان، ابن حجر، 333/6. وضعف الحديث السيوطي في "مناهل الصفا، 44".

[6]– عن النبي ﷺ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي»؛ أخرجه: **الطبراني** في "المعجم الأوسط، 188/6". **وابن عساكر** في "تاريخ دمشق، 412/3-413". من طريق "سفيان بن محمد": ذكر ابن عدي في "الكامل، 482/4-484": أن له مناكير، ويسرق الحديث، وقال فيه: بيّن الضعف. وأيضا من طريق "الحسن بن عرفة" لكن لم يروه عنه ثقة، وقال الذهبي "ميزان الاعتدال، 279/4" فيما رُوي عنه: أنه حديث شبه موضوع. كما ضعف الحديث ابن الجوزي وغيره، في حين حسّنه ضياء الدين المقدسي. للتفصيل في الكلام على هذه الأحاديث ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 80/1-81. ولسان الميزان، 175/6. المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 232/1-233. والسيرة الصحيحة، أكرم العمري، 99/1-100.

[7]– ينظر: زاد المعاد، 80/1-81. المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 232/1-233.

[8]– البداية والنهاية، 388/3.

ذلك كلها معلولة بعلل قادحة بحيث لا تنهض مجتمعة للاحتجاج بها، لأن معظمها لا يخلو من وضاع أو متهم»[1].

مع ذلك فإن أغلب من ألّف في السيرة اعتمد هذا القول لشهرته، لكن المحققين من علماء الحديث والسيرة منهم من أثبت ذلك ومنهم من نفاه ومنهم من توقف.

– **القول الثاني:** أن عبد المطلب خَتَنَهُ يومَ سابعِهِ وجعل له مأدبة وسماه محمداً، جاء في ذلك رواية عن ابن عباس ﷺ فيها ضعف[2]، لكن قال الذهبي: إنّها أصحّ من حديث العباس أنه ولد مختونا[3].

والثابت أن العرب كانوا يختتنون آنذاك كما يستفاد من حديث ابن عباس ﷺ[4] عند البخاري[5] في كتاب النبي ﷺ إلى "هرقل"، كما يرى أكرم العمري أن قيام جده عبد المطلب بواجبه نحو حفيده اليتيم من ختان ووليمة على عادة قومه لا يحتاج إلى أدلة[6].

لكن يبقى المرجِّح القوي لأحد القولين صعب المنال، والله أعلم بالصواب.

- **تصويب عبارة المستشرق "فنسنك"**: وعلى هذا فإنّ ما ذكره "فنسنك -Wensinck" محرر المادة من أنّ ما رُوي عن النبي ﷺ: أنّه "وُلد مختونا"؛ يدل على أهمية الختان عند المسلمين، فهو كلام غير دقيق من وجهين: **الأول:** أن ذلك غير ثابت عنه بوجه يمكن الجزم به.

والثاني: أن الروايات الواردة في ذلك لا تدلّ بلفظها أو معناها على أهمية الختان عند المسلمين كما توهّم المستشرق "فنسنك"، لكنّ أهمية الختان عند المسلمين نابعة من كونه: سنة فطرية وشرعية قائمة[7]، فكلام المستشرق غير دقيق رواية ولا دراية.

---

[1]– السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 99/1.

[2]– أخرجه: **ابن عبد البر**، الاستيعاب، 51/1. وفي إسناده ابن أبي السري فيه ضعف، والوليد بن مسلم يدلس وقد عنعن، وقال العراقي فيه الحديث: سنده غير صحيح. ينظر: سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، 347/1. والسيرة الصحيحة، 100/1. في حين حسنه الأستاذ ابن طرهوني في "صحيح السيرة، 290/1-293"؛ وأجاب عن علل تضعيفه، وذكر له شواهد تراجع هناك.

[3]– ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 485/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 100/1.

[4]– سبق تخريجه في: ص234.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 45/1.

[6]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 100/1.

[7]– جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن: الختان من سنن الفطرة؛ ينظر: صحيح **البخاري**، (الفتح)، كتاب الاستئذان، باب الختان، 105/11. وصحيح **مسلم** (النووي)، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، 186/3. من حديث أبي هريرة ﷺ.

الفرع الثالث : موقف "دائرة المعارف" من قصة بحيرا الراهب

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**النّسطريون**[1]" [فقرة: 1]: «كما أن النبي ﷺ كان له موقف إيجابي تجاه النساطرة، وقد التقى بهم في اليمن، وفي طريق التجارة بين اليمن والعراق ومن بين هؤلاء "قس بن ساعدة" من نجران، الذي يقال إن محمداً ﷺ سمعه وهو يعظ في عكاظ»[2]. المحرر هو: **ب.هولمبرج** -B.Holmberg[3].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نبيّ الإسلام**" [فقرة: 8]: «كذلك فإنه من الأوفق رفض تصديق ما قيل عن رحلاته للتجارة إلى الشام أثناء طفولته في صحبة أبي طالب، ثم كتاجر فيما بعد لحساب خديجة[4]، فالقالب الذي صيغت فيه هذه الروايات (كما في قصة الراهب المسيحي بحيرا) يوحي بأنّها روايات هادفة»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[6].

- وفي مادة "**بحيرا**" [فقرة: 1]: «اسم راهب نصراني: يذكرون أن النبي محمدا عندما بلغ الثانية عشرة من عمره خرج إلى الشام مع عمه أبي طالب في قافلة له. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام أو ما جاور تلك المدينة لاحظ راهب كان يقطن تلك الجهة في صومعة له أن أحد أفراد ذلك الركب كانت تظـــلّله غمامة، وأنّ الشجرة التي جلس تَحتـــها قد تهصّرت أغصانها حتى أظلته. وقد صنع الراهب بحيرا لهذا الركب طعاما ودعاهم إليه، فاجتمعوا إليه إلا محمداً إذ تركوه لحراسة القافلة. ولَمّا نظر بحيرا في القوم لم ير بينهم صفة الشخص الذي وصفته كتبه أنه آخر الأنبياء، فسألهم عمّا إذا كان قد تَخلّف أحد منهم، فلما أخبروه الخبر أصر على أن يحضر هذا الغلام إلى طعامه. ولما جاء الغلام ودخل إلى القوم أخذ بحيرا يلحظه لحظا شديداً ثم سأله بحق اللات والعزى أن يُخبره عمّا يسأله عنه، ولكن محمدا أظهر بغضه للآلِهة الوثنية ثم أجاب الراهب عما ســـأله عنه، فـــتأكد هذا أنه هو النبي الموعود ونصح عـــمه

---

[1]- **النسطورية**: أو النّساطرة: فرقة من النصارى، نسبة إلى نسطور بطريك القسطنطينية في القرن الخامس الميلادي، الذي يقول: إن مريم لم تلد إلها، بل هي والدة المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، فالمسيح عندهم هو ابن الإله. ينظر: تفسير البغوي، 724/1. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، مانع الجهني، 1161/2-1162.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9904/31.

[3]- **هولْمبرج** "Borje Holmberg": مستشرق سويدي، ولد سنة (1924م) ، اشتغل أستاذا في جامعة "هولمبرج" في السويد. ينظر: موسوعة "ويكيبيديا" بالإنجليزية على الرابط: (https://en.wikipedia.org/wiki/Börje_Holmberg).

[4]- **تعقيب هيئة التحرير** [في هامش المادة المتَعقَّب عليها]: «أمّا ما يتعلّق بالرحلة إلى الشّام فهي روايات متواترة في كتب السيرة ولا مجال لإنكارها، ورحلات الشّتاء والصيف وردت في القرآن: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ [قريش: 1-2]، وتشير كتب التاريخ إلى العلاقات التجارية بين الحجاز والشام، وبين الحجاز واليمن، وبين الحجاز ومصر، لذلك نرى أنّ إنكار مؤلّف المقال رحلة الرسول ﷺ في تجارة إلى الشّام غير مبني على أساس علميّ».

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30-9114.

[6]- سبقت ترجمته في: ص150.

أبا طالب أن يحذر عليه من اليهود، تلك هي القصة التي يرويها ابن هشام (ص115 وما بعدها). ويذكر بعض المؤلفين الآخرين أن أبا بكر كان حاضرا ذلك الحادث وكان حتى في ذلك الوقت نفسه على استعداد للاشتراك في الحوادث المقبلة[1]. ويذكر المسعودي (ج1 ص146) أن هذا الراهب كان يدعى جرجس[2] وأنه من عبد القيس، أما الحلبي (ج1 ص157) فيذكر أنه كان يسمى جرجيس أو سرجيوس.

ويذكرون إلى جانب هذه القصة قصة أخرى لِمقابلة أخرى شبيهة بالأولى حدثت بعدها بنحو اثنتي عشرة سنة، فهم يذكرون أن محمداً خرج في رحلة إلى الشام في مال لِخديجة وبرفقته غلام له يقال له ميسرة، وهناك في بصرى قابل راهبا آخر يسمى نسطور عرف في محمد علامات خاصة تدل على أنه هو النبي الجديد. ويذكرون كذلك أن بعض أهل الروم حضروا إحدى هذه المقابلات وكان غرضهم البحث عن النبي الجديد. ولا نجد في أقدم المصادر عن النّبي (ابن هشام، ص119-120) اسم هذا الراهب. أما في المصادر النصرانية والإسلامية المتأخرة فإن هذا الراهب يدعى سرجيوس أما اسم بحيرا وهو مشتق من الكلمة الآرامية بحيرا ومعناها المنتخب فهو لقب له.

وليس لدينا ما نقوله إلا القليل من الناحية التاريخية عن صحة هذه الأساطير لأن المعلومات تنقصنا في هذا الموضوع، وهذه القصص قسم خاص من مجموعة الأساطير التي أحاطت بسيرة النبي محمد، ولهذا نظائر كثيرة من نفس هذا النوع، وكلها ترمي إلى أن "أهل الكتاب" عرفوا من كتبهم من قبل ببعثة النبي محمد[3]»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[5].

– وفي مادة "**بصرى**": «وتذهب الروايات إلى أنّ النبي محمداً زار بصرى صحبة عمّه أبِي طالب، وكان يعيش في بصرى راهب اسمه "بحيرا" عرف في محمد النبي المنتظر»[6]. محرر المادة هو: **بول** – Buhl.

---

[1]– **تعقيب** (1) **أحمد شاكر** [في هامش المادة المتَعقَّب عليها]: حضور أبي بكر تلك الحادثة لم يثبت، بل استغربه علماء الحديث، ورأوا أن ذكره خطأ من الراوي. قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (ج1 ص138): «قد وردت هذه القصة بإسناد رجاله ثقات، من حديث أبي موسى الأشعري، أخرجها الترمذي وغيره، ولم يسمّ فيها الراهب، وزاد فيها لفظة منكرة، وهي قوله: وأتبعه أبو بكر بلالا، وسبب نكارتها أن أبا بكر حينئذ لم يكن متأهلا، ولا اشترى يومئذ بلالا، إلا أن يحمل على أن هذه الجملة مقتطعة من حديث آخر، وأدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهمٌ من أحد رواته». وكذلك ضعفها الحافظ ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية، ج 2ص285).

[2]– **تعقيب** (2) **أحمد شاكر**: كذا في نسخة المسعودي المطبوعة ببولاق (ج1 ص35) وفي جميع الكتب التي نقلت ذلك عن المسعودي سمى باسم "جرجيس" بزيادة ياء بعد الجيم الثانية.

[3]– **تعقيب** (3) **أحمد شاكر**: «ليست هذه القصص بالأساطير، بل كثير منها ثابت بأسانيد صحيحة، وعلم أهل الكتاب بالبشارة بمحمد ﷺ في كتبهم ثابت عند المسلمين بنص القرآن الصريح، وليسوا في حاجة إلى افتعال أساطير يؤيدون بها ما أثبته الوحي المنزل من عند الله، وهو ثابت أيضا عند المسلمين فيما قرأه من كتب أهل الكتاب مما بقي في أيديهم من الصحيح من أقوال أنبيائهم المنقولة في كتبهم».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/396-397.

[5]– سبقت ترجمته في: ص49.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/396-397.

– وفي مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 3]: «**وكان معظم أقاربه يعملون في التجارة، فصحب محمد عمّه أبا طالب في رحلاته التجارية للشام**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **وات** –M. Watt[2].

ثانيا– التحليل والمناقشة:

[1]– تخريج رواية "قصّة بحيرا وبيان" صحتها: السياق الذي ذكره محرر مادة "بحيرا" جاء في "تهذيب السيرة" لابن هشام من رواية ابن إسحاق دون سند[3]، وذكر الطبري القصة من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر مرسلا[4].

وجاءت قصة "بَحيرا الراهب" مسندة من حديث أبِي موسى الأشعري ﷺ عند الترمذي وابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي وغيرهم[5].

[2]– الردّ على التشكيك في صحّتها: رواية "قصّة بحيرا الراهب" صحيحة ثابتة في مصنفات الحديث والسيرة، ومشهورة عند علماء السيرة والتاريخ، لكنّ المحدثين النقاد اعترضوا على بعض الألفاظ الواردة في متن الحديث، ورأوها من الأوهام مع ثبوت أصل القصة، ومن ذلك:

– **الوهم الأول:** ذِكْر "أبي بكر" و"بلال" رضي الله عنهما في الحديث غلط ووهم، كما نبّه أحمد شاكر هنا في تعقيبه على مادة "بحيرا"؛ وذلك: أنّ عُمْر رسول الله ﷺ كان إذ ذاك اثنتي عشرة (12) سنة أو أقلّ، وأبو بكر ﷺ أصغر منه بسنتين ونصف، وبالتالي لم يكن متأهلا لذلك، أما بلال ﷺ فإنّ أبا بكر لم يشتره إلا بعد البعثة ولعله لم يكن ولد بعدُ حينئذ؛ وهو ما قرّره الأئمة النقاد كابن سيد الناس والذهبي وابن كثير وابن حجر وغيرهم[6].

---

[1]– المصدر نفسه، إص3، 9597/31.

[2]– سبقت ترجمته في: ص59.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 180/1–182. ودلائل النبوة، البيهقي، 26/2–27.

[4]– ينظر: تاريخ الطبري، 277/2. كما جاءت القصة من مرسل التابعي الجليل أبي مجلز عند ابن سعد في "طبقاته، 68/1".

[5]– أخرجه: **الترمذي** (تحفة)، أبواب المناقب، باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، 64/10. **والحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 672/2. **وابن أبي شيبة**، المصنف، 317/6. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 24/2–25. والحديث **حسّنه** الترمذي وصححه الحاكم، وقال ابن كثير "الفصول في السيرة، 10" وابن حجر "الإصابة، 476/1": إسناد رجاله ثقات، كما صححه الألباني في تخريج "فقه السيرة للغزالي، 66". لكن المحدثين انتقدوا بعض العبارات في متن الرواية كذكر أبي بكر وبلال فيها، فهو وهم كما سيأتي.

[6]– ينظر على الترتيب: عيون الأثر، 55/1. وتاريخ الإسلام، 503/1. والبداية والنهاية، 441/3. والإصابة، 475/1–476.

كما ذكر الذهبي أنّه جاءت رواية أخرى ليس فيها ذكر "أبي بكر" و"بلال"؛ مما يؤكّد -بطريق الرواية والإسناد إضافة إلى دلالة المتن- أن ذلك وهم من أحد الرواة كما قرّر ابن حجر[1].

- **الوهم الثاني**: ونقدَ الذهبي أيضا الجمع بين تظليل الغمامة وفَيء الشجرة في الرواية، فقال: «فإذا كان عليه غمامة تظلّه؛ كيف يُتصوّرُ أنْ يَميل فَيْءُ الشّجرة؟ لأنّ ظلّ الغمامة يُعْدِم فَيْءَ الشّجرة الّتي نَزل تَحتها»[2]، ولعل ذكر الغمامة هو الخطأ، فإن ابن كثير ذكر أن الغمامة لم تذكر في رواياتٍ أقوى[3].

هذه الدقة في نقد المتن وتحرير ألفاظه ومحاكمة مضامينه للحقائق التاريخية الثابتة والحسّ؛ إنّما تعكس عناية المحدثين بنقد متون الأخبار -عكس ما يزعمه المستشرقون- وأنّهم الروّاد في ذلك، كما تدلّ على تجرّد المحدثين والمؤرخين النقاد عن الخلفيات الفكرية التي يدّعي المستشرقون أنّ الروايات إنّما وضعت لتدعيمها، فإنّ المرويات معروضة للنقد عندهم، وإن كانت تتضمن مدحا للنبي ﷺ أو رفعا من شأنه؛ ذلك أنهم لا يقبلون من ذلك إلا ما صحّ وثبت، وهم أحرص الناس على نفي وتوهين الروايات التي لم تتوفر فيها شروط الصحة والقبول، أو كانت مخالفة للأصول والحقائق الثابتة أو المنطق الصحيح، وإنّك لتجد إماما كبيرا كالذهبي يضعف حديث قصة بحيرا بسبب نكارة بعض ما جاء في الرواية، لكن تبقى العبرة بتصحيح غيره من المحدثين النقاد للرواية، مع بيانهم للألفاظ الواهية فيها.

وعلى العكس من منهج المحدثين العلمي الدقيق نجد المستشرقين مثلا يختلفون في نظرتهم إلى رواية "قصة بحيرا" بين موقفين؛ **الموقف الأول**: مِنهم مَن أثبتها لمقصد فاسد هو إثبات أن النبي ﷺ نقل تعاليم دينه عن رهبان نصارى وغيرهم[4]، و**الموقف الثاني**: مِنهم مَن نفاها - كالمستشرقَيْن "بول - Buhl" و"فنسنك - Wensinck"- تَحرّجا من دلالتها على: صدق رسالته ﷺ بشهادة رهبان النصارى، فتكون بذلك علَماً من أعلام النبوة.

[1]- ينظر: تاريخ الإسلام، 503/1. والإصابة، 476/1.

[2]- تاريخ الإسلام، 503/1.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 441/3.

[4]- ينظر: حياة محمد، المستشرق بودلي، 48-49. وينظر مناقشة ذلك في: السيرة النبوية، أبو شهبة، 216/1.

وإذا كان الإمام الذهبي نقد رواية "بحيرا" نقدا موضوعيا قائما على قواعد علمية بحتة في نقد السند والمتن، فإنّ "فنسنك-Wensinck" في مادة "بحيرا" - مع أن له اشتغالا بدراسة السنة وهو واضع "مفتاح كنوز السنة"- لَمّا عجز عن إدراك تلكم القواعد العلمية الموضوعية الدقيقة[1]، سلك نهج المعاندين للأنبياء والرسل في الأعصار القديمة، فنجده يستند إلى حججهم الواهية في ردّه لهذه الرواية عندما يقول: «**أنها من الأساطير**»، وكان حريّا به أن ينأى عن هذا المنهج القائم على "**النفي الكيفي**" الكلاسيكي، وهو من مدرسة تدّعي التجديد والموضوعية والبحث العلمي المتجرد.

مع اختلاف الموقفين يتضح أنّ المعيار الأساس والمشترك عند المستشرقين في نفي أو إثبات الحقائق التاريخية والروايات الخاصة بالسيرة هو كونها تدعم أهداف ومقاصد المدرسة الاستشراقية، وهي هنا نفي كل ما فيه إثبات لنبوته ﷺ، أو إثبات كلّ ما يمكن تأويله أو توظيفه بوجه من الوجوه في الطعن في نبوة محمد ﷺ أو التشكيك في ربانية الإسلام الذي جاء به.

ومع ذلك نجد بعض المستشرقين أبدى موقفا منصفا من هذه الرواية -خارج "دائرة المعارف"- كالمستشرق والأديب الإنجليزي "كارليل": حيث أثبت صحة القصة من جهة، وبيّن من جهة أخرى أنّ المنطق لا يقبل الاستدلال بها على تلقي النبي ﷺ عن الرهبان[2].

– ملحظ هام: لعلّ **الموقف الثاني** - وهو المطروح في "دائرة المعارف" من خلال مادتي "محمد ﷺ" و"بحيرا"- يعبّر عن إدراك بعض المستشرقِين لِوهن القول الأول نظريا ومنطقيا، حيث أن الرواية لا تحتمله أصلا، وأظهر من ذلك -حتى لِمن ليس له معرفة بالروايات- أنّ المنطق لا يقبل أنّ صبيا صغيرا لم يتجاوز الثانية عشر من عمره يحمل من قسيس في جلسة عابرة ما يؤهله لصياغة دين متكامل ومنهج حياة.

---

[1]- الأمر **الملاحظ** على عامة المستشرقين أنهم لا يتوجهون لنقد الروايات على طريقة المحدثين من حيث معرفة رواة السند والاتصال بين حلقاته، ولا حتى نقد ألفاظ الحديث، فهل هذا نابع من عدم فهمهم لهذا العلم وعجزهم عن ممارسته؟ أم أنّه رغبة منهم عنه؟

وواقع دراساتهم يبيّن أن الأمرين كليهما عاملان في نهجهم ذاك؛ فمن جهة هم عاجزون عن الخوض في تفاصيل نقد السند والمتن لِما يستلزمه ذلك من استقراء ومعرفة واسعة بالمرويات والرواة ونحو ذلك، ومن جهة أخرى هم راغبون عنه - مع حاجتهم إليه- لعدة أسباب، منها: – محاولة إثبات أن منهجيتهم في نقد الروايات التاريخية أصح وأقوى.

– محاولة هدم هذه المنظومة العلمية القوية، القائمة على نقد السند والمتن، والتي بناها المسلمون في عدة قرون من الزمن، وهم أشد المنتقدين والرافضين لها، فلو اعتمدوها لكان ذلك حجة عليهم.

– إدراكهم أنّ نقد الروايات على أساس قواعد المحدثين نقد موضوعي؛ فلو التزموا به لما استطاعوا خدمة أهداف وأغراض مدرستهم المشككة في السنة والسيرة وأصول الإسلام، لكن منهج النقد الغربي الفضفاض هو الكفيل بتحقيق أهدافهم وإرضاء أهوائهم؛ فينفون وِفْقه ما شاءوا بأعذار وافتراضات واهية، ويثبتون ما شاءوا بأعذار واهية ما دام ذلك يخدم أغراض المدرسة الاستشراقية.

[2]- الأبطـــال، ترجمة محمد السباعي، 61.

وإنّما يعكس تبنّي "الدائرة" لهذا الموقف المنكر للحادثة أصلا تطوراً في آراء المستشرقين عندما يعرفون وهن الافتراضات القديمة وعدم صمودها أمام أدنى انتقاد، كما يعكس التناقض في آرائهم، لكن لِمقصد واحد وغرض مشترك وإن كان أصحابه يخبطون خبط عشواء اضطراباً وتناقضاً.

[3]- اسم "بحيرا": يُحتمل أن "بحيرا" هو اسم هذا الراهب، ويُحتمل أنْ يكون لقبه، وأنّ اسمه: جرجيس أو سرجس أو سرجيس[1]، لكنّ ما في الرواية من إيحاءات ومعانٍ يغني عن ذلك.

[4]- سفر النبي ﷺ للتجارة في مال خديجة: أما ما ذكره محرر مادة "بحيرا" سفر النبي ﷺ في شبابه إلى اليمن والشام للتجارة في مال خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فهي رواية جاءت عند: الحاكم والبيهقي من حديث جابر رضي الله عنه مختصرا[2]، وعن الزهري وابن إسحاق مطولا[3].

أمّا إنكار المستشرق "بول - Buhl" للحادثة في مادة "محمد ﷺ" فهو إنكار كسابقه في إنكار "قصة بحيرا"؛ غير مبني على أساس علميّ.

ملاحظة: التنبيه الذي ذكرته لَجنة الترجمة حول عدم استناد المستشرق "بول -Buhl" إلى أساس علمي في إنكاره لهذه الحادثة؛ **لفتة وجيهة**، لأنّ **بناء قوله على أساس علمي** يستدعي منه دراسةً قائمة على نقد المتن والسند، لكنّ الملاحظ أنّنا لا نجد المستشرقين يعتمدون على دراسة الأسانيد وفق منهج المحدثين، فهل هذا نابع من عدم معرفتهم بهذه القواعد وفهمهم لها؟ أم من عدم قدرتهم على ممارستها؟

إنّ واقع دراساتهم في "دائرة المعارف" وغيرها يؤكّد **حقيقة هامة**؛ مفادها: عدم فهمهم لهذا العلم فهما صحيحا دقيقا يمكّنهم من الخوض في مسائله الدقيقة، وتطبيق قواعده على الروايات محل الدراسة، كما نلمح من كتاباتهم عدم قدرتهم أصلا على ممارسة هذا النوع من النقد العلمي الدقيق؛ لأن ممارسته تقتضي معرفة واسعة بالرواة وأحوالهم، والمرويات وألفاظها، وفهما جيّدا للغة العربية، بالإضافة إلى الفهم العميق لقواعد علوم الحديث، وكلّ ذلك يفتقر إليه عامة المستشرقين افتقارا شديداً، يعوزهم أن يمارسوا هذا المنهج النقديّ الرّصين، ولو استطاعوا ممارسة هذا المنهج لما ادّخروا لذلك جهدا، ولكنهم يدركون تماما أنهم سيخوضون سبيلا لا يمكنهم أن يتفوقوا فيه أبدا على رواده

---

[1]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 140/2. وسبل الهدى والرشاد، الشامي، 145/2. والسيرة الحلبية، الحلبي، 172/1. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 362/1-363.

[2]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، 200/3. **والبيهقي**، السنن الكبرى، كتاب الإجارة، باب جواز الإجارة، 195/6. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفيه عنعنة أبي الزبير لكن يُتساهل في عنعنته خاصة في أخبار السيرة مما لا يستدل به في حكم شرعي، كما أنّ له شاهدا من مرسل الزهري مطولا - كما في الهامش الموالي-. وينظر التفصيل في شواهده والكلام عليه: صحيح السيرة، محمد طرهوني، 321/1-322. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 112/1-113.

[3]- مرسل الزهري رواه: **عبد الرزاق**، المصنف، 313/5. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 68/2. أما ابن إسحاق فذكر القصة دون سند؛ ينظر: السير والمغازي (لابن إسحاق)، 81. والزهري وابن إسحاق ثقتان وإماما السيرة والمغازي.

وأئمته الذين جعلوه صرحا شامخا لا يستطيع المتحذلقون خوض غماره؛ وبذلك كان علم مصطلح الحديث وقواعده خصيصة لهذه الأمة؛ كما أنّ النقل بالسند المتصل بالثقات من خصائصهم.

المطلب الثالث : موقف "الدائرة" من بعض الأحداث الواقعة في شبابه ﷺ

الفرع الأول : حرب الفِجَار

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**رجب**": «وكانت **الحروب المحرمة التي نشبت في رجب بين قريش وهوازن واشترك فيها محمد في صباه تعرف باسم حرب الفجار**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بلسنر**-Plessner[2].

- وفي مادة "**الفجار**" : «أما حرب الفجار **فكانت بين قريش وكنانة من جانب وقيس وعيلان (دون غطفان) من جانب** آخر، **وذلك في الأشهر الحرم مع نهاية القرن السادس الميلادي، وتشير المراجع التي بين أيدينا إلى أنها استغرقت ثمانية أيام استمر فيها النضال موصولا.**

وعلى الرغم مما يقال من أن النبي ﷺ شارك في حرب الفجار إلا أن التفاصيل تختلف فيما بينها، فيقول البعض إنه ساهم في القتال في "شمطة" حيث هزمت قريش، وتثني "الأغاني" على شجاعته في هذا اليوم، على حين يقول البعض الآخر إنه كان يجمع النّبال لأعمامه، ولكن يستفاد من أيام العرب أنه لم يشترك في الفجار من أعمامه سوى الزبير»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **ي.فوك** -J.W.Fuck[4].

ثانيا- التحليل والمناقشة: من الأحداث التي وقعت في نشأة النبي ﷺ، والتي تدلّ على تَهيئة الله عز وجل له من أجل القيام بأمر عظيم في المستقبل؛ مشاركته ﷺ في حرب الفجار.

وحرب الفِجَار: هي: حرب وقعت بين كنانة ومعها قريش، وبين قيس ومعها هوازن، بعد أن قتل رجلٌ من كنانة رجلاً من هوازن، فانضمّت قريش إلى كنانة استجابة للحلف الذي بينهما[5].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 8/49-50.

[2]- سبقت ترجمته في: ص215.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 25/7786-7787.

[4]- **يوهان فوك** "Johann Fuck" (1894- 1974م): مستشرق ألماني، اشتغل أستاذا للعربية في جامعتي "ليبزيج" و"هاله" بألمانيا، من مؤلفاته: "الدراسات العربية في أوربا"، و"العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/798. وموقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org/wiki/يوهان_فك).

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/184-186. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1/182-183.

وسُمّيت "بحرب الفِجَار": لأنّ القتال كان في الشهر الحرام؛ ففجروا فيه، مصدر: فَاجَر مفاجرةً، كقاتل مقاتلة، والفِجَار معناه تبادل الفجور، أي: من الطّرفين، لأنّهما أقدما على القتال في الشهر الحرام، وابتداء القتال فيه كان حراما في الجاهلية، ولعله بقية من بقايا إبراهيم عليه السلام[1].

مشاركة الرسول ﷺ في حرب الفجار وإن كانت عرضية أو ثانوية، إلاّ أن فيها حكما جليلة؛ مثل اكتساب الجرأة والشجاعة والإقدام، والتمرن على القتال منذ ريعان شبابه[2].

لكن هناك ملاحظات على ما جاء في مادتي "رجب" و"الفجار" عن الحادثة أسوقها فيما يلي:

[1]– المشهور أنّ النبي ﷺ لم يشارك مباشرة في القتال، وإنّما كان يجمع النبال لأعمامه ويناولها لهم، وهو الذي اقتصر عليه ابن إسحاق والبلاذري وغيرهما وجزم به السهيلي[3].

لكن وردت رواية عن الواقدي أنه رمى بأسهم[4]، مع ملاحظة أنّ هذه الروايات لم تثبت بسند صحيح على منهج المحدثين[5]، وابن إسحاق إمام هذا الشأن وهو أوثق من الواقدي.

[2]– بعد مراجعة كتاب "الأغاني" لم أجد ما ذكره المستشرق "فوك -Fuck" من التغني بشجاعة النبي ﷺ في الموقعة وإنشاد الشعر في ذلك، بل ما أورده "الأصفهاني" من الشعر هو في التغني بشجاعة آخرين، وإنّما ذكر "الأصفهاني" ما جاء في بعض الروايات - وإن كانت غير ثابتة من وجه موثوق- أن النبي ﷺ كان إذا حضر مع فئة انتصروا[6]؛ في إشارة إلى بركة حضوره، لا إلى شجاعته في القتال كما فهم "فوك -Fuck"، ولعلّ سوء فهمه للغة العربية وإطلاقاتِها هو ما أوقعه في هذه الأوهام والأغلاط.

[3]– لا يصحّ ما ذكره "فوك -Fuck" من أنّ "الزبير بن عبد المطلب" هو المشارك الوحيد من أعمام النبي ﷺ فيها لِما يلي:

أ)– أن عامّة كتب التاريخ والسيرة تذكر أن النبي ﷺ شارك مع أعمامه[7]، لا مع واحد منهم فحسب.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 185/1-186. وخاتم النبيين، 182/1. ولسان العرب، ابن منظور، 48/5.

[2]– ينظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي الصلابي، 55.

[3]– ينظر على التوالي: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 186/1. وأنساب الأشراف، 103/1. والروض الأنف، 147/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 453/3. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 506/1.

[4]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 102/1.

[5]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 111/1.

[6]– ينظر: الأغـــاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس والسعافين وبكر عباس، 46/22-47. وينظر روايات في معناها في: السيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي، 186/1.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 186/1. والسيرة الحلبية، 187/1. والبداية والنهاية، 453/3.

ب)– نجد ما ذكره "فوك-Fuck" من مشاركة عمّه "الزبير" واردا في "تاريخ اليعقوبي" الذي أحال عليه، ولكن ليس فيه أنّه هو المشارك الوحيد، وإن كانت هناك عبارة موهمة لذلك، وسياقها كالآتي: ذكر اليعقوبي: أنّ الزبير بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ كان قائد بني هاشم في هذه الحرب، ثم ذكر: أنّه رُوي أنّ: أبا طالب منع أن يكون فيها أحد من بني هاشم، فحضرها "الزبير" مستكرها؛ فهذه الرواية قد توهِم ما ذكره المستشرق "فوك"، لكن هذا التوهّم يُصحّحه ما ذكره اليعقوبي بعد ذلك مباشرة: أنه يروى أن أبا طالب كان يحضر في أيام هذه الحرب ومعه رسول الله ﷺ[1].

وهذا يدلّ على أنّ ما ذكره اليعقوبي هو مجرد رواية لم يجزم بها و لم يسندها، بل ساقها بصيغة التمريض (رُوي)، ثم ساق بعدها مباشرة ما يعارضها ويوافق ما يذكره عامة علماء السيرة والتاريخ من أنّ النبي ﷺ حضر الموقعة مع أعمامه، و لم يتفرد عمّه "الزبير" بحضور الحرب كما توهّم المستشرق.

وإذا كان صاحب "الأغاني" أيضا ذكر عن أبي عبيدة ابن المثنى[2] أنه لم يشهد الفجار من بني هاشم إلا الزبير بن عبد المطلب، فإنّه ذكر بعد ذلك رواية تفيد أن أبا طالب وغيره من بني هاشم حضروا الموقعة، كما بيّن من قبلُ أنّ "الزبير" كان **قائد بني هشام**[3] وبالتالي لم يكن يحضرها وحده.

الفرع الثاني : حضوره ﷺ حلف الفضول

أولا– عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**الحلف**": «**وحلف الفضول اسم حلف عقده بعض عشائر قريش للأخذ بناصر المظلومين... ويقال إن محمدا ﷺ شهد إبرام هذا الحلف وامتدحه كثيرا، وقيل هذا أيضا في حلف المطيبين** (**انظر الطبري: التفسير، ج5 ص35**).

وقد نُهي عن الحلف في الإسلام لأن هذا الدين يجعل المسلمين كلهم إخوة، ومن ثم نسب إلى النبي أنه قال: ((لا حلف في الإسلام))»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **أرندنك** –V.Arendonk[5].

– وفي مادة "**مكة المكرمة**"[فقرة: 4]: «**في حوالي سنة (605م) جرى حلف يقال له حلف الفضول... وكان السبب الظاهري لعقد هذا الحلف هو مساعدة تاجر يمني في استرداد مال له عند رجل من سهم.**

---

[1]– تاريخ اليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، 337/1.

[2]– **معمر بن المثنى النحوي**: عالم في اللغة وأيام العرب، فيه ضعف، توفي سنة (210هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 445/9. وميزان الاعتدال، الذهبي، 155/4. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 246/10.

[3]– الأغـــاني، 52/22-53 و45.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 50/8.

[5]– **فان أرندنك** "van Arendonk": مستشرق هولندي، ولد سنة (1881م)، اشتغل أستاذا للعربية في جامعة ليدن بهولندا، من مؤلفاته: "الزيدية في اليمن"، و"تاريخ المعتزلة" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 671/2.

ويرى المستشرق "كايتاني" (Caetani) أنّ هذا الحلف لم يكن مناوئا للظلم أو عدم العدالة بشكل عام، وإنّما كان حلفا للعشائر الضعيفة التي تمارس التجارة في محاولة منها لكبح جماح الممارسات الاحتكارية التي تمارسها العشائر الأقوى والأكثر غنى، كما أن عدم رد الديون (كما في حالة اليمنيّ الآنف ذكره) قد تجعل غير المكيين يحجمون عن إرسال قوافلهم إلى مكة مما يؤدي إلى زيادة مكاسب تجار مكة الأثرياء أصحاب القوافل»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** -M.Watt[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- تعريف حلف الفضول: هو ميثاق كريم يدعو إلى الدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين وحماية الغرباء وإعانة المستضعفين، وكان بعد حرب الفجار في دار عبد الله بن جدعان بِمكة، وتعاهد فيه كلّ من بني هاشم وبني المطلب وبني أسد وبني تيم وبني زهرة على: أن يحموا الضعفاء والمظلومين حتى يأمن كل إنسان على ماله وعياله، وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب، وكان الرسول محمد ﷺ وقت حضوره هذا الحلف في العشرين من عمره[3].

[2]- التفريق بين حلف المطيّبين وحلف الفضول: قول المستشرق "أرندنك -Arendonk" في مادة "الحلف": «**وقيل هذا أيضا في حلف المطيبين**»؛ يظهر من هذا الكلام عدم تفريقه بين الحلفين "حلف المطيّبين" و"حلف الفضول"، لكنهما يَختلفان:

- **فحِلف المطيبين:** كان قديما بعد وفاة "قصيّ" وتنازُعِ "بني عبد مناف" و"بني عبد الدار" على الرفادة والساقية، وهذا الحلف لم يشارك فيه النبي ﷺ، فقد كان قبل مولده بزمان كما قرّر البيهقي، و لم يحمل من معاني الانتصار للعدالة مثل حلف الفضول الذي شارك فيه الرسول ﷺ[4].

- أما **حلف الفضول:** فوقع في شباب النبي ﷺ وحضره، وكان يثني عليه بعد ذلك، وكان مقصده نصرة المظلومين[5].

وقد يُطلق على هذا الحلف أيضا "حلف المطيّبين"، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ((شَهِدْتُ **حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ** مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ حُمر النَّعَمِ وَأَنِّي

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9593/31-9594.

[2]- سبقت ترجمته في: ص59.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 133/1-134. والبداية والنهاية، ابن كثير، 456/3. والقول المبين، النجار، 99-100.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 130/1-132. والسنن الكبرى، البيهقي، 596/6. والسيرة الحلبية، الحلبي، 191/1. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 112/1.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 133/1-134. والسيرة الحلبية، 188/1-192. والبداية والنهاية، 456/3-459.

أَنْكُثُهُ))[1]؛ وإنما ورد في الحديث باسم **حلف المطيبين**، لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول؛ وهم: بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو تيم وبنو زهرة[2].

وبالتالي فإنّ حلف الفضول يطلق عليه أيضا حلف المطيبين - لا العكس- للمناسبة المذكورة، ولعلّ هذا الإطلاق الذي ورد في رواية الطبري وغيره هو الذي أشكل على محرر المادة فلم يفرق بين الحِلفين، وقرينة ذلك إحالته على "تفسير الطبري"، فعبارة المستشرق توهم أنّ النبي ﷺ حضر الحِلفين وهذا غلط، فإنّما حضر حلفا واحدا فحسب، وهو الحلف الثاني، إذ أنّه لم يدرك الأول أصلا.

[3]- الرد على التفسير المادي لِمقاصد الحلف:

- **سبب الحلف ومقصده:** ذكر المستشرق "وات -Watt" في مادة "مكة" قصة سبب الحلف، وهي تردّ على افتراض المستشرق "كايتاني" الذي أورده "مونتجمري وات -Watt"؛ وذلك أنّ الحلف قام بعد أن سَلب التاجرُ حقّ اليمني، ولم يجد من يعينه على ردِّ مظلمته[3]، وتدلّ الروايات التي أوردها أهل السيرة على أنّ الحلف كان موجها لردّ حـــقّ المظلوم سواء أكان تاجراً أم غير تاجر، من أهل مكـــة أو من غيرهم؛ قال ابن إسحاق: «فتعاقدوا وتعاهدوا **على أن لا يَجدوا بِمكّة مظلومًا من أهلها وغيرهم** مِمّن دَخلها مِن سائر النّاس إلا قاموا معه... حتّى تُردّ عليه مظلمتُه»[4].

لذا فإنّ ما ذكره المستشرق "وات" عن "كايتاني" يعتبر محاولة لإفراغ الحلف من فحواه المعنوي والأخلاقي؛ وهو نتيجة لتفسير الحوادث التاريخية تفسيرا ماديا يتنافى والمقاصد المعنوية لها.

كما ينبغي ملاحظة: – أنّه لو كان هذا الحلف موجها أصلا ضدّ أكابر تجار مكة -حسب افتراض كايتاني- لثار هؤلاء التجار ضد الحلف ومنعوه أو تحالفوا ضدّه، وهو ما لم يُنقل في المصادر التاريخية.

– ولو سلمنا جدلا أنّ من مقاصد الحلف الأساسية العمل على تقليل نفوذ كبار التجار، والحدّ من احتكارهم للسوق؛ لكان ذلك أيضا من باب التحالف على رفع الظلم والغبن عن المستضعفين.

– كلام النبي ﷺ على هذا الحلف بصيغة الرضا والثناء يدلّ على أنّ مقصده الأكبر كان ردّ الظلم والأخذ بالحق لِمن طلبه، ونبذُ الظلم فطرة بشرية لا تحتاج إلى دليل، وكان الجوار والحماية عند العرب من الأعراف السائدة في مجتمعهم فلا يستبعد عقدهم لمثل هذا الحلف من أجل ذاك المقصد.

---

[1]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 193/3. **والحاكم**، المستدرك، كتاب المكاتب، 237/2. **والطبري**، في تفسيره، 684/6. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، كما صححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[2]- ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 15/2. والبداية والنهاية، 460/3. والسيرة الصحيحة، 112/1.

[3]- تفصيل القصّة في: الروض الأنف، السهيلي، 46/2-47. والبداية والنهاية، ابن كثير، 456/3-457. وسبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، 154/2.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 133/1-134.

[4]- معنى حديث "لا حلف في الإسلام": أما حديث النبي ﷺ: ((**لا حِلْفَ فِي الإِسْلامِ**، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلاّ شِدَّةً))[1]، الذي ذكره "أرندنك –Arendonk"؛ فمعناه: أن الحلف الذي أبطله الحديث هو حلف التوارث[2]، وما يمنعه الشرع، أو ما تعلّق بالمفاسد، أو ما كان في الجاهلية من تَحالُف القبائل بأن يقوم بعضها مع بعض وينصره ويحارب من حاربه ويسالِم مَن سَالَمه، وأما التحالف على طاعة الله والمؤاخاة في الله والتّناصر في الدّين والتعاوُن على البِرّ والتّقوى وإقامةِ الحقّ فهو أمر مرغب فيه؛ ويدلّ على ذلك الشطر الثاني من الحديث: ((وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلامُ إِلَّا شِدَّةً))؛ أي: تأكيدا وحفظا، وفيه إشارة إلى حلف الفضول لنصرة الحق والمظلوم الذي شهده الرسول ﷺ[3].

ويُحتمل أنْ يكون المراد: أنّ الأُخوّة في الإسلام حلّت محلّ الْحلف فِي الجاهليّة؛ فقد ألّف الله تعالى بين المسلمين بالإسلام، وجعلهم به إخوة متناصرين مُتعاضدين يدًا واحدة بِمَنْزلة الجسد الواحد، فأغناهم بالإسلامِ عن الحِلف، بل الذي توجِبه أُخوّة الإسلام لِبعضهم على بعض أعظم مِمّا يَقتَضيه الحلف[4].

الفرع الثالث : مشاركته ﷺ في تجديد بناء الكعبة

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**العمارة**"[فقرة: 1]: «**نظرًا لتهدم بعض جدران الكعبة المشرَّفة قامت قريش بهدمها وإعادة بنائها، وكان عُمْر محمد ﷺ يومذاك خمسة وثلاثين عاما وذلك في سنة (608م)**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **كرسويل** –K.A.Creswel[6].

- وفي مادة "**لعقة الدّم**[7]": «**اقترح رجل من بني مخزوم على الطرفين أن يحكّموا أول داخل للبيت من**

---

[1]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه، 123/16. **وأبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الفرائض، باب الحلف، 100/8. من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

[2]- حيث كانوا يورثون الحليف السدس دائما فنسخ ذلك. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 617/10.

[3]- ينظر: شرح النووي على مسلم، 123/16. و حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 101/8. وفتح الباري، 617/10. وعون المعبود، شرف الحق العظيم آبادي، 100/8-101.

[4]- ينظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 100/8-101. وفتح الباري، 597/4.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7447/24.

[6]- **كرسويل كابَل** "Creswel Keppel Archibald" (1879-1974م): مستشرق بريطاني، متخصّص في الآثار الإسلامية، درَس في "لندن"، وزار الشرق الأوسط، وعيّن أستاذا للآثار الإسلامية في جامعة القاهرة، وقضى بها معظم حياته. من مؤلفاته: "الحصون في الإسلام"، و"الآثار الإسلامية في مصر" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 569/2. الأعلام، الزركلي، 224/5.

[7]- **لعقة الدم**: تسمية أُطلقت على حلفٍ وقع في حادثة تجديد الكعبة، ذلك أنّه لما تخاصموا على من يضع الحجر الأسود في مكانه حتى أنهم تحالفوا وأعدّوا أنفسهم للقتال؛ قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، وتعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة؛ فسُمّوا "لعقة الدم". ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 66/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 487/3.

باب بني شيبة، وكما هو معروف كان أول داخل هو النبي ﷺ، ونجد هذه القصة بحذافيرها في: تاريخ الطبري، الجزء الأول، صفحة 1138»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **شارل بيلات** - Pellat[2].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نبيّ الإسلام**" [فقرة: 9]: «**أما عن قصة دور محمد ﷺ في إعادة بناء الكعبة فهي أيضا غير جديرة بالتصديق... غير أنّ هذه المصادر لا تكاد تذكر شيئا عن حياة محمد ﷺ من وقت زواجه (وهو في الخامسة والعشرين) حتى قبيل مبعثه في الأربعين أو الثالثة والأربعين**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

ثانيا– التحليل والمناقشة: لم ير المستشرق "كرسويل-Creswel" غضاضة في إثبات مشاركة الرسول ﷺ في تجديد بناء الكعبة الذي وقع في شبابه ﷺ، وتحدث عن ذلك بموضوعية ونزاهة في النص المذكور من مادة "العمارة"، في حين لم يلتزم المستشرق "بول -Buhl" المنهجَ العلمي الموضوعي والطرح المعرفي المتجرد عن الخلفيات الفكرية والعقدية، لذا نجده ينكر ما وقع من مشاركة النبي ﷺ في تجديد بناء الكعبة، فيقول بأنّ "**القصة غير جديرة بالتصديق**"؛ لكن لِماذا؟ هذا ما لم يبيّنه! واكتفى في طرحه بِمنهجيّة "**النفي الكيفي**" غير الْمبَرّر، وغير المستند إلى دليل علمي موضوعي يدعّم رأيه.

وهذا العرض المتباين للموضوع نفسه من قبل مستشرقَيْن في موسوعة واحدة؛ هو من التناقضات الكثيرة في "دائرة المعارف الإسلامية" بين المستشرِقين أنفسهم.

[1]– ملخّص حادثة تجديد الكعبة: أن النبي ﷺ لَمّا كان في سن الخامسة والثلاثين -كما ذكر محرر مادة "العمارة"- اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة، لِما أصابَها من حريق وسيل جارف صدّع جدرانها، وأوهى بنيانها، وذلك لأن الكعبة كانت رضما[5] فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع، و لم يكن لها سقف، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها[6].

وكانوا قد جزّءوا العمل وخصوا كل قبيلة بعمل معين، وكانت المهمة الخاصة بقريش هي نقل الحجارة ورفعها[7] كما يشير إلى ذلك حديث جابر ﷺ في الصحيحين[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8812/28.

[2]– سبقت ترجمته في: ص96.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9113/30-9114.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– **الرّضم**: حجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط أو طين. ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 169/2.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 192/1-193. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 66/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 227/1.

[7]– ينظر: السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلابي، 62.

[8]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، 554/3. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة، 45/4-46.

[2]- تحكيم النبي ﷺ بينهم في وضع الحجر الأسود: فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى كادوا يقتتلون، ثم اتفقوا أن يُحكِّـــموا أوّلَ مَن يدخل من باب المسجد، فدخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: **هذا الأمين، قد رضينا**؛ فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه في وسطه، ثم أمرهم برفعه جميعا ثم أخذه فوضعه مكانه[1].

أما ما ذكره محرر مادة "لعقة الدم" عن الرجل الذي أشار عليهم بتحكيم أول من يخرج من باب بني شيبة فهو "أبو أمية بن المغيرة المخزومي"[2].

ولَما كانت هذه القصة تدلّ على المكانة الأدبية للنبي ﷺ بين قومه في شبابه وقبل بعثته، وتُظهر ما أيّد الله تعالى نبيّه ﷺ به -قبل البعثة- من الحكمة وسداد الرأي، بحيث توصّل إلى حلّ موفق وعادل يرضي الجميع، ويحقن الدماء ويرفع الخصومة والشحناء[3]؛ فهو موقف عظيم من رجل عظيم، ولَمّا كانت الرواية تبرهن على اعتراف القوم بصدق النبي ﷺ وأمانته - قبل نبوته- وهو بعد في شبابه؛ من أجل ذلك كلّه حرص المستشرق "بول - Buhl" على نفي الحادثة وإنكارها.

بينما نجد المستشرق "بيلات -Pellat" محرر مادة "لعقة الدم" ذكر القصة دون أن يتعرض لنفـــيها أو التشكيك فيها، مما يدلّ على اختلاف أنظار المستشرقين لبعض جزئيات السيرة النبوية، فيراها بعضهم أمورا تشهد لصحّة نبوته ﷺ - وهو أمر يجب نفيه عندهم بكل سبيل- أو على الأقل لشيء من فضائله؛ لذا يسارعون إلى نفيها والتشكيك فيها، ويتعذرون لذلك بحجج واهية، في حين لا يرى آخرون أنها من الأمور الهامة التي ينبغي التركيز عليها للتشكيك في نبوته ﷺ، كما يحتمل أن يكون البعض الآخر له طرح موضوعي لبعض أحداث السيرة.

[3]- من الأعمال الجليلة في شبابه ﷺ: أمّا قول المستشرق "بول -Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ/ فقرة:9": بأنّ «**المصادر لا تكاد تذكر شيئا عن حياة محمد ﷺ من وقت زواجه (وهو في الخامسة والعشرين) حتى قبيل مبعثه**»؛ فهو كلام غير صحيح ولا محرَّرٍ علمياً؛ ذلك أنّ مصادر السيرة: تذكر أعمالا جليلة قام بها النبي ﷺ في تلك المرحلة وقبلها، ثُمّ إنّ المستشرق شكّك في حادثة هامّة وقعت في هذه المرحلة، وهي مشاركته ﷺ في بناء الكعبة، وحكمه بين المتخاصمين على وضع الحجر

---

[1]- جاءت القصة من حديث علي ﷺ؛ عند: **الحاكم**، المستدرك، 629/1. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 56/2-57. وحسن إسناده شعيب الأنؤوط في "تحقيقه للمسند: 262/24"، وله شاهد من حديث السائب بن عبد الله ﷺ - في هذه القصة-؛ أخرجه: **أحمد**، المسند، 262/24. **والحاكم**، المستدرك، 628/1؛ وصحّحه، كما صححه شعيب الأرنؤوط أيضا في الموضع السابق.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 197/1. وتاريخ الطبري، 290/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 487/3. إضافة إلى الحديثين السابقين. و"باب بني شيبة": يعرف اليوم بباب السلام. ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 228/1.

[3]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 116/1. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 209.

الأسود، وهي حادثة هامة أعرض عنها "بول-Buhl" لِما فيها من فضيلة أدبية واجتماعية للنبي ﷺ قبل بعثته.

كما كان إسهامه ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعا وشاملا، ومغطّيا شتَّى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، وأن يسهم عاملا في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعا شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقا أو يقيم عدلا[1]؛ فقد شارك في الحياة السياسية في مدينته مكة:

- فحضر حلفَ الفضول، وكان هدف هذا الحلف هدفًا ساميًا لم تألفه القبائل المعتزة بعصبيتها، هذا الهدف هو نصرة المظلوم بصرف النظر عن قرابته وقبيلته.
- ومن قبلُ اشترك إلى جانب أعمامه من بني هاشم وقريش في حرب الفجار -كما سبق-، فاكتسب إلى جانب خبرته السياسية خبرة حربية؛ وهذه أعمال وقعت قبل المرحلة التي ذكرها "بول-Buhl"، ومن الأعمال التي وقعت في المرحلة التي ذكرها [من زواجه بِخديجة إلى البعثة]:
- أنّ النبي ﷺ اشترك في تنظيم القوافل التي كانت تسيرها قريش إلى الشام، فمارس التجارة في مال خديجة بعد أن تزوجها؛ فاكتسب خبرة بالمعاملات التجارية ومعرفة بطبائع الإنسان وأحوالهم، كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس.
- كما اشتهر بصفة خلقية هي الأمانة؛ حتى سمي بين الناس قبل المبعث بالأمين، فكانت له أخلاقه المرتضاة التي كانت تحببه إلى الناس قبل أن يعارض آراءهم، وثمة صفة أخرى اشتهر بها هي صفة القدرة على الحكم وسرعة البديهة في حسم الأمور، يشهد بذلك حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من البناء، فأظهر من سرعة الخاطر وقوة البديهة ما حسم الموقف وأرضى المتنازعين، كما كشف هذا الموقف عن قيمة محمد ﷺ في الحياة الاجتماعية في مكة بحيث ارتضاه رجال الملأ حكمًا ورضوا بحكمه.
- ثم إنه كان إلى هذا كله ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن نستنتجه من ميله إلى التحنث -وهو التفكير والتأمل- معتزلاً في غار حراء[2].
- ومن الأعمال التي تذكرها المصادر في هذه المرحلة أيضا: كفالة النبي ﷺ لابن عمّه عليّ رضي الله عنه مواساةً لعمّه أبي طالب، وهو تصرّف نبيل، ينمّ عن كرمه ومجازاته للإحسان بالإحسان، وهو أمر أنكره المستشرق "بول-Buhl" أيضا كما سيأتي في العنصر الموالي.

---

[1]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 40.

[2]- ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 208-209.

وبالتالي فليس من الأمانة العلمية أن ينكر "بول-Buhl" أهم أحداث السيرة في المرحلة التي حدّدها [بين زواجه من خديجة وبعثته] وما فيها من دلالات هامة، مع ورودها في مصادر الحديث والسيرة والتاريخ، ثم يقول إنّ "المصادر لا تكاد تذكر شيئا" في هذه المرحلة؛ فهل سيكون كلامه هذا عندئذ إلا مجانبة للأمانة العلمية والإنصاف؟!

الفرع الرابع : كفالة النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه

– ورَد في مادة "**[أبو] طالب**": «**عبد مناف بن عبد المطلب عمّ النبي، وهو الذي كفل ابن أخيه اليتيم عند وفاة جده عبد المطلب، وتقول الروايات إن محمداً كان يصحبه في رحلاته التجارية، وإنه – اعترافا منه بجميل عمه أبي طالب الذي كان فقيراً كثير العيال – قام بتربية ابنه عليّ في داره، وربّما كانت هذه الرواية من انتحال المتأخرين، لأنّها لا تتفق مع ما يروي عن أخلاق أبي طالب**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** -Buhl[2].

إنكار المستشرق "بول - Buhl" لكفالة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه لا يصحّ لأمور:

[1]– بيّنت الروايات أنّ سبب كفالة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: كان عندما أصاب قريشا فاقــةً، وكان أبو طالب كثير العيال زيادةً على القحط، فاتفق النبي ﷺ وعمه العباس رضي الله عنه على أن يكفل كل منهما ولدا لأبي طالب[3]؛ وعليه فلو كان المسلمون قد اخترعوا كفالة النبي ﷺ لعليّ رغبة في نسبة هذه المكرمة إليه، لَما نسبوا مثلها للعباس رضي الله عنه حتى ينفرد النبي ﷺ بذلك دون غيره[4].

[2]– هذا الفعل ليس فيه منقصة لأبي طالب، ولا يخدش ذلك من مروءته شيئا -كما زعم المستشرق- خاصة وأنّ هذه المواساة وقعت من ابن أخيه الذي رباه وكفله منذ صباه، فكان ذلك إعانة قريب لقريبه، كما كان من باب ردّ الجميل ومجازاة الإحسان بالإحسان، وردّ الجميل والإحسان إلى القريب خلق إنساني، ليس فيه منقصة لأيٍّ من الطرفين.

[3]– كما أنّ ما يدعّم ذلك أيضا هو إسلام عليّ رضي الله عنه المبكر مع صغر سنه[5]، وما ذلك إلاّ لشدة قربه من النبي ﷺ حيث تربّى في حجره فكان من أقرب الناس إليه بعد خديجة رضي الله عنها.

[4]– أن المستشرقة محرّرة مادة "علي" وفي "دائرة المعارف" نفسها أثبتت ذلك و لم تنكره[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 361/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 246/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 62/4.

[4]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية -أضاليل وأباطيل-، إبراهيم عوض، 142.

[5]– كما في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 246/1. وتاريخ الطبري، 310/2.

[6]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7415/24.

[5]– إنّما يدلّ هذا الإنكار من المستشرق "بول -Buhl" على حرص المستشرقين على سلب كلّ ما فيه مَكرُمة للنبي ﷺ، وإعلاء لشأنه سواء كان من المعجزات، أم من الأمور العادية التي يشترك فيها مع سائر الناس؛ يقول الأستاذ إبراهيم عوض: «وإنّي لأتساءل: ما الذي في كفالة النبي عليه السلام لابن عمه مما يستعصي على القبول حتى يرفض الكاتب الروايات التي جاءت بها؟ إن من الواضح أنّه لا يريد أن يسلم للنبي عليه السلام بهذه المكرمة رغم أنّها ليست من مكرماته الكبار!»[1].

الفرع الخامس: عصمته ﷺ قبل النبوة

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نبيّ الإسلام**" [فقرة: 10]: «**أما ما ينبغي أن يعطى أكبر قدر من الاهتمام فالمشاكل المتعلقة بظهور محمد ﷺ كمصلح ديني، (قبل أن يبعثه الله نبيا ورسولا) وإن كانت هذه المشاكل تثير للباحث صعوبات بالغة بالنظر إلى طبيعة المصادر والتعقيدات المواكبة لتفسيرها...**[2] **ففي سورة الضحى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ **[الضحى: 7]، وفي الآية (52) من سورة الشورى** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[4].

حاول المستشرق "بول -Buhl" في هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ" أن يطعن في النبي ﷺ استناداً إلى بعض الآيات القرآنية، لكنّ ذلك لا يتأتّى مطلقا، إذ أنّ معنى الآيات مخالف تماما لِمزاعمه حول مشاركة النبي ﷺ لقومه المشركين بعض أعمالهم الشِّركيّة، أو المخالفة لِمكارم الأخلاق، وفيما يلي بيان معاني الآيات التي استند إليها تمويها وتدليسا وإرجافا:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية –أضاليل وأباطيل–، إبراهيم عوض، 142.

[2]– **تعليق هيئة التحرير** [دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9114/30]: «جاء في المتن موضع النقط (...) افتراض المستشرق أنّ سيّدنا محمّد ﷺ كان في مستهلّ حياته يشارك قومه معتقداتهم الدينية على ضوء مفهومه للآيتين الكريمتين، والثابت أنّه ﷺ لَم يشارك في المعتقدات الوثنية قط، ومفهوم الضلالة والهداية الوارد في الآية الكريمة قد فسرها قصّة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام سورة الأنعام الآية (74) وما بعدها، وهي تجربة يمر بها الأنبياء في بدايتهم الأولى وفي الشروحات ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضحى: 7] أي عمّا أنت عليه اليوم (فهدى) أي: فهداك إلى توحيده ونبوّته... ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: عن تفاصيل الشريعة... فهداك أي: أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة، وقال قوم (ضالا) لم تكن تدري القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام، (عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما). وقال قوم آخرون: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: ناسيا فذكّرك، أو (ضالا) بمعنى طالبا للهادية فهداك الله بتوحيده ومعرفته. (انظر تفسير الطبري "الجامع لأحكام القرآن"، **97/20**)».

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9114/30–9115.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[1]- قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7] قال الإمام ابن عاشور: «ليس الْمُراد بالضّلال هنا اتّباع الباطل، فإنّ الأنبياء **معصومون مِن الإشراك قبل النّبوءة باتّفاقِ علمائنا**»[1]؛ وهو ما قرّره أيضا القاضي عياض وغيره[2].

ولو كان ﷺ موافقا لَهم على ما كانوا عليه من الشرك لاحْتَجّوا عليه بذلك، وهو ما لَمْ يَحصل أو يُنقل، قال ابن عاشور: «ولَم يزل علماؤنا يَجعلون ما تواتر مِن حال استقامته ونزاهته عن الرّذائل قبل نبوءته دليلا من جملة الأدلّة على رسالته، بل قد شافه القرآن به المشركين بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: 69]، ولأنّه لم يؤثر أنّ المشركِينَ أفحموا النبي ﷺ فيما أنكر عليهم من مساوئ أعمالِهم بأن يقولوا فقد كنت تفعل ذلك معنا»[3].

ولقد جاء في تفسير الآية ستة أقوال:

- **التفسير الأول**: أي: **غافلا عن معالم النبوة**، وأحكام الشريعة، فهداك إليها، قاله الجمهور منهم ابن عباس والحسن، والضحاك، وهو الْمراد من الآية الثانية التي استند إليها المستشرق "بول Buhl-" وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشّورى: 52]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: 3][4]؛ قال الإمام الفخر الرازي: «والْمراد منَ الضَّالِّ: الْخالي عن العلم، لا الْموصوف بِالاعتقاد الخطأ»[5]؛ والضلال على هذا أيضا: هو التّحير[6].

- **والتفسير الثاني**: أنه ضَلَّ وهو صبي صغير في شعاب مكة، فردَّه الله إلى جده عبد المطلب. **والثالث**: أنه لَمّا خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورده إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك قاله سعيد بن المسيب.

والرابع: أن المعنى: ووجدك في قوم ضُلاَّل، فهداك للتوحيد والنبوة، قاله ابن السائب. **والخامس**: ووجدك ناسياً، فهداك إلى الذِّكْر... **والسادس**: كنتَ ضالاّ عنِ النُّبوّة، مَا كنت تَطْمعُ في ذلك ولا خطَر شيءٌ مِنها في قلبك[7].

---

[1]- التحرير والتنوير، 400/30.

[2]- ينظر: شرح الشفا، علي القاري، 206/2.

[3]- التحرير والتنوير، 400/30.

[4]- ينظر: تفسير البغوي، 268/5. وزاد المسير، ابن الجوزي، 458/4. وتفسير الرازي، 197/31.

[5]- تفسير الرازي، 197/31.

[6]- ينظر: إمتاع الأسماع، المقريزي، 213/11.

[7]- ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 458/4. وتفسير الرازي، 198/31.

والملاحظ أنّ هذه الأقوال العلمية في تفسير الآية مجانبة للتفسير المغرض الذي طرحه المستشرق "بول -Buhl"، وتردّ قوله من أساسه.

فالمستشرق طرحَ الموضوع بأسلوب غلب عليه التمويه ومجانبة الحقائق العلمية والتاريخية، وكان حريّا بمن يدّعي المنهج العلمي المحايد أن يطرح -على الأقل- ما تقدمه روايات السيرة والتاريخ، ثم يناقش فحواها ويحلّل مضامينها، وفق منهج موضوعيّ بعيد عن العصبيات الفكرية والعقدية للمدرسة الاستشراقية، لكنه على العكس من ذلك أغفل المعاني الصحيحة للآيات القرآنية المذكورة، وحاول اختلاق تفسير جديد لَها، مبني على ادعاءات وافتراضات لا تحتملها النصوص والروايات التاريخية، بل هي مجرّد تأويلات فاسدة لأغراض استشراقية معروفة.

قال ابن كثير: «وكان **الله** سبحانه قد **صانه وحماه من صغره، وطهره من دنس الجاهلية** ومن كل عيب، ومنحه كل خلق جميل حتى لم يكن يعرف بين قومه إلا بالأمين، لما شاهدوا من طهارته وصدق حديثه وأمانته»[1].

وهذا من توفيق الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، فكان ﷺ كما ذكر البيهقي: يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام -مِما كان قد بقِيَ في قومه- في حجّهم ومناكحهم وبيوعهم، دون الشّرك، فإنه لَم يشرك بالله قطّ، ومن دلائل ذلك ما ورَد في الروايات مِن بغضه للاّت والعزّى[2]، ومنها:

أ)- ما جاء في حديث ابن إسحاق عن "قصّة بحيرا": أن بحيرا الراهب قال للنبي ﷺ: «يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه» -وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما- فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: ((لا تَسْأَلْنِي بِاللاّت والعزّى شيئا، فو الله مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطُّ بُغْضَهُمَا))، فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسلك عنه، قال: سلني عما بدا لك...[3].

ب)- وعن زيد بن حارثة ﷺ قال : «كان صنمٌ مِن نُحاسٍ يُقال له: "إساف ونائلة" يَتَمسّح به الْمُشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطُفتُ معه، فلَمّا مَررتُ مَسحتُ به، فقال رسول الله ﷺ: ((لا تَمَسَّهُ))، قال زيد: فطُفنا، فقُلت في نفسي: لَأمسّنّه حتّى أنظر ما يقول، فمسحتُه، فقال رسول الله ﷺ: ((أَلَمْ تُنْهَ؟)) قال زيد: فوالّذي أكرمه وأنزل عليه الكتابَ ما استَلمتُ صَنمًا حتّى أَكرمهُ الله بالّذي أكرَمهُ، وأَنزلَ عليه الكتاب»[4].

---

[1]- الفصول في سيرة الرسول، 11.

[2]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 37/2. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 117/1.

[3]- السير والمغازي، ابن إسحاق، 75. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 11/3.

[4]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب زيد بن حارثة ﷺ، 238/3. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 34/2. والحديث: صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

فهذه الروايات وغيرها استدلّ بها علماء الحديث والسيرة على عصمة الله تعالى للنبي ﷺ من الشرك قبل البعثة[1]، بالإضافة إلى إجماع العلماء على ذلك -كما تقدّم-، ومع كلّ هذه البراهين لم يأتِ "بول-Buhl" بدليل تاريخي صحيح وصريح يدعّم دعواه، غير تأويله البعيد للآيتين السابقتين، وقد سبق بيان كلام المفسرين لمعناهما، وأنّه لا يوافق ما ذكره المستشرق، وهم أهل اللسان وأصحاب هذا الشأن.

- **ملاحظات عامة على إنكار إرهاصات النبوة في نشأته وشبابه ﷺ:** إنّما تدلّ بعض الأقوال التي ذهب إليها المستشرقون في "دائرة المعارف" من خلال: التفسير المادي لِحادثة الفيل، وإنكار حادثة شق الصدر، ورعيه للغنم، ومشاركته في تجديد بناء الكعبة، وقصة بحيرا الراهب وغير ذلك؛ على حرص المستشرقين على نفي كلّ ما يؤيد صدق نبوة محمد ﷺ من معجزات، وحتى إرهاصات وقعت قبل مبعثه.

كما أنّ أحداث السيرة النبوية لا ينبغي أن تفرغ من أبعادها الروحية، فهي حياة نبي مؤيد، وإنّما يدلّ اعتماد القراءة المادية لوقائع السيرة على سعي المستشرقين لطمس المعالم الروحية في سيرته ﷺ، بنفي كل ما يؤيد نبوته ويدل عليها، ويلحقه بركب النبيين والمرسلين.

الفرع السادس: إرهاصات النبوة قريبَة العهد بالبعثة

أولا- تحنثه ﷺ في غار حراء :

- جاء في مادة "**مجاور**": «**ولَمّا دخل ﷺ في السنة المتممة للأربعين من عمره الشريف، حبّب إليه الخلاء والبعد عن الخلق والانقطاع إلى الحق، إذ في العزلة صفاء القلب، فكان يتعبّد بغار حراء الليالي ذوات العدد فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر، وكانت عبادته على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل بالتأمل في عجائب صنع الله، وقيل بالذكر. (ابن هشام: السيرة، ج1 ص152)**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **و.إندس** - W.Ends[3].

عَرَض المستشرق "إندس -Ends" الحادثة بأسلوب بعيد عن النفي والتشكيك كما هو عادة كثير من المستشرقين في "الدائرة"[4]، لكن ما جاء في نصّه المذكور من مادة "مجاور" يحتاج إلى بيان وتدقيق في النقاط الآتية:

---

[1]- ينظر هذه الروايات وغيرها في: دلائل النبوة، البيهقي، 2/30-37. والبداية والنهاية، ابن كثير، 3/444-450. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/114-117.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 29/9037.

[3]- **إندس** "W.Ends": لم أقف على ترجمته، لكن ورد في فهرس المحرّرين في النسخة الأجنبية "للدائرة" أنّ هذا المستشرق يشتغل أستاذا بجامعة فرايبورغ بألمانيا. ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 7/V".

[4]- ومع ذلك لا يظهر مِن نص المادة إن كان المستشرق لم يشكّك في الحادثة إنصافا، أم أنّه تابع في ذلك من أثبتها من المستشرقين بِمقصد الاستناد إليها في نفي نزول الوحي على النبي ﷺ وأن ظهور دعوته وبروزه كمصلح ديني كان نتيجة تلك المدة الطويلة من التفكر والتأمل في غار حراء؛ لا أنّ الوحي هو الذي كان يتنزل عليه موجها لِمسيرة دعوته ورسالته، كما هو الشأن عند "بول" و"كايتاني" في مادة "محمد ﷺ": من "الدائرة، 30/9115".

أ)– التحنث: هو التعبد، وأصل الحِنثِ: الإثم؛ فمعنى يَتحنّث: يتجنّبُ الحِنث[1]، كما يأتي التحنث بمعنى: التحنّف، أي: اتّباع الحنيفية وهي دين إبراهِيم عليه السلام، والفاء تبدل ثاءً في كثيرٍ مِن كلامهم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السّيرة يتحنّف بالفاء[2].

واختلفت تفسيرات العلماء حول كيفية تعبّده ﷺ في غار حراء، وقد بسط الصالحي الشامي والحلبي هذه الأقوال التي ذكرها المستشرق وغيرهما[3]، وهي تدور حول ما يلي:

– كان تعبده ﷺ التفكر في ملكوت الله، وعظيم خلقه، وجليل قدرته، مع الانقطاع عن الناس لِما في الخلوة من خشوع القلب وصفاء الذهن وهدوء البال، وقد لجأ محمد بن عبد الله ﷺ إلى العبادة عن طريق التأمل والتفكير، حينما وضحَ له أن مكة قد أحاطت بها ظلمات الشرك والضلال وغرقت إلى الأذقان في عبادة الأصنام والأوثان، فتساءل في نفسه كيف يمكن أن يعبد الإنسان العاقل صنمًا لا يعقل ولا يفكر ولا يسمع ولا يبصر؟ وكيف يمكن أن يوجد هذا العالم بما يحويه من عجائب، دون حاجة إلى موجد عظيم سميع بصير قوي قادر عليم حكيم؟

كان من الطبيعي أن يضيق محمد ﷺ بهذا الجو الخانق، وينفر من هذه البيئة الفاسدة؛ فعمد إلى الانعزال عن الناس والانقطاع إلى الله تعالى كما صنع إبراهيم عليه السلام [4]، وهذه المعاني أشار إلى بعضها "إندس –Ends" في مادة "مجاور".

– وربما كان تعبّده بشيء مما بقي عند الناس موافقا للتوحيد من شرع إبراهيم عليه السلام [5].

ب)– معنى المجاورة التي ذكرها المستشرق "إندس – Ends" هي: الاعتكاف، وذلك بالخلوة والتفرغ للذكر والعبادة، لكن هناك فرق دقيق بينهما، فالاعتكاف إنّما يكون في المسجد، أما المجاورة فقد لا تكون فيه، لذا أطلق على تحنث النبي ﷺ في غار حراء **مجاورة**[6].

ج)– ذكر "إندس –Ends" أنّ بداية تَحنّثه ﷺ كانت في السنة التي بُعث فيها، وهو كذلك، أما ما جاء في رواية ابن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي قال: «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كلّ

---

[1]– شرح النووي على مسلم، 260/2.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 235/1. وفتح الباري، ابن حجر، 31/1.

[3]– ينظر: سبل الهدى والرشاد، 73/8–74. والسيرة الحلبية، 339/1.

[4]– ينظر: سبل الهدى والرشاد، 74/8. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 255/1. والقول المبين، النجار، 105–106.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 14/4. وفتح الباري، 445/12. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 205/1.

[6]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 256/2. وفتح الباري، 346/4. وفي "صحيح البخاري (الفتح)، 329/4" عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ **يُجَاوِر** في العشر الأواخر من رمضان»؛ أي: يعتكف.

سنةٍ شهرًا»[1]؛ فقوله "كلّ سنة" يدل على تكرر ذلك منه أكثر من سنة، وإنّما كان ذلك في زمن فترة الوحي بعد نزول جبريل عليه السلام إليه أول مرة كما بين ابن حجر ومحمد رشيد رضا[2].

ثانيا- الرؤيا الصادقة :

- جاء في مادة "**وحي**" [**فقرة**: 1]: «**وكانت الرؤيا الصادقة التي تأتي واضحة كفلق الصبح هي أول تمهيد للوحي، وقد أشار كتّاب السير والمؤرخون لذلك كابن هشام في السيرة المعروفة باسمه، وكما في تفسير الطبري، وما كتبه ابن سعد**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[4].

ذكر المستشرق "فنسنك -Wensinck" في هذه الفقرة من مادة "الوحي" أحد إرهاصات النبوة التي سبقت نزول الوحي عليه في غار حراء بزمن يسير؛ وهي "**الرؤيا الصادقة**"، كما يبيّنه حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين أنّها قالت: «أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي **الرؤيا الصّادقة في النوم**، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصّبح»[5].

فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت بيّنة واضحة وتَحقَّق صدقُها[6]، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي[7]، والرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءً مِن النُّبوة[8].

واستمر ذلك معه ﷺ ستة أشهر حتى نزل عليه جبريل الأمين بالوحي القرآني في الغار[9].

---

[1]- رواه من طريق ابن إسحاق: **الطبري**، في تاريخه، 300/2. وابن هشام، تهذيب السيرة، 235/1. وعبيد تابعي كبير ثقة وأبوه عمير صحابي. ينظر: تهذيب التهذيب، 71/7. وهو حديث صحيح الإسناد، كما ذكر: ابن حجر في "فتح الباري، 31/1"، والقسطلاني في "المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 412/1"، والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 35".

[2]- ينظر: فتح الباري، 865/8. وتفسير المنار، 145/11.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10124/32.

[4]- سبقت ترجمته في: ص49.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، 440/12. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، 259/2-266. **وأحمد**، المسند، 112/43-114.

[6]- ينظر: فتح الباري، 26/1 و454/12. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 259/1.

[7]- أخرجه بهذا اللفظ موصولا: **الحاكم**، المستدرك، كتاب التفسير، 468/2. من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأخرج البخاري نحوه معلقا من مرسل عبيد بن عمير في "الصحيح (الفتح)، 314/1".

[8]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة، 467/12. من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[9]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 281/2. وزاد المعاد، ابن القيم، 83/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 259/1.

الباب الثاني:
وقائع العهد المكي
من البعثة إلى ما قبيل الهجرة

يتضمن فصلين:

الفصل الأول: من البعثة إلى بداية الدعوة الجهرية واضطهاد المسلمين

الفصل الثاني: من هجرة الحبشة إلى ما قبيل الهجرة للمدينة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:
من البعثة إلى بداية الدعوة الجهرية واضطهاد المسلمين

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نزول الوحي على النبي ﷺ وأساليب تشكيك "الدائرة" فيه

المبحث الثاني: مرحلة الدعوة السرِّية في مكة

المبحث الثالث: مرحلة الدعوة الجهرية بمكة ومعارضة المشركين لها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : نـزول الوحي على النبي ﷺ وأساليب تشكيك "الدائرة" فيه

يتطرّق هذا المبحث إلى بداية البعثة النبوية بنزول الوحي على المصطفى ﷺ في غار حراء، وكيف نظر المستشرقون إلى حقيقة الوحي، وما هي الطرائق والأساليب التي سلكها جملة من المستشرقين محرّري "دائرة المعارف" للتشكيك في نزول الوحي عليه ﷺ.

المطلب الأول : بدء نزول الوحي عليه ﷺ في غار حراء

الفرع الأول: نظرة "الدائرة" إلى حادثة بدء نزول الوحي

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**جبرائيل**" [فقرة: 1]: «... **والمتفق عليه فيما يظهر أنّ النبي سمع الروح دون أن يراه، وفي سورة النجم** (الآيات **5-6**) **آيات قوية التعبير صادقة يتضح منها أن النبي لم ير الوحي إلاّ في مناسبتين**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **كارادە فو** -Carra De Vaux[2].

- وفي مادة "**حراء**" [فقرة: 1]: «**واعتاد النبي أن يمكث هناك [أي: في غار حراء] مع زوجه، ونزل عليه الوحي في غار بهذا الجبل ومن ثم عرف بجبل النور، ولا يزال هذا الغار قائما...**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **فاير** -T.H.Weir[4].

- وجاء في مادة "**ملائكة**": «**فإن جبريل يطلق عليه في القرآن الكريم - دون ذكر اسمه - الروح الأمين** (سورة الشعراء الآية **193** إلى **195**) **الذي يترل بالوحي على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين، وهناك صفات كثيرة له - دون أن يذكر اسمه-** في سورة النجم (الآيات: **5-18**)، وسورة التكوير (الآيات: **19-21**)، **وعلى أنّه يظهر بوضوح للرسول ﷺ في الوحي**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** -Macdonald[6].

- وفي مادة "**وحي**" [فقرة: 2]: «... **أمّا أوّل الوحي الحقيقي حيث ظهر الملك جبريل للنبي ﷺ فكان في غار حراء، وقد اضطرب الرسول ﷺ من رؤية جبريل فهرع إلى زوجته خديجة طالبا منها أن تزمّله... وكان أول ما نزل من القرآن الكريم هي سورة العلق، وكان ذلك في شهر رمضان، وكان هذا أثناء**

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 6/276-278.

[2]- سبقت ترجمته في: ص253.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/352.

[4]- سبقت ترجمته في: ص241.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 31/9599.

[6]- سبقت ترجمته في: ص228.

تحنث الرسول ﷺ بهذا الغار... وكان الملك الذي يأتي بالوحي مرئيّا من قبل النبي ﷺ كما رآه آخرون (انظر: البخاري، **فضائل القرآن، باب 1**)»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** Wensinck-[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة: جاء في نصوص المستشرقين المذكورة الكلامُ على حادثة بدء نزول الوحي[3] في "غار حِراء"[4]، وتفصيل قصّة الحادثة ورد من حديث عائشة ﵂ في الصحيحين، قالت عائشة ﵂: «... حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الْمَلَك، فقال: **اِقرأ**، قال: **مَا أَنَا بِقَارِئٍ**، قال: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: **اقْرَأْ**، قُلْتُ: **مَا أَنَا بِقَارِئٍ**، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: **اقْرَأْ**، فَقُلْتُ: **مَا أَنَا بِقَارِئٍ**، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1-3]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: ((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي))، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ...»[5].

[1]- الاستدراك على بعض ما جاء في مادة "جبرائيل": تضمّن النص المذكور من مادة "جبرائيل/ فقرة:1" بعض النقاط التي تحتاج إلى مناقشة واستدراك، وهي:

أ)- دعوى سماع النبي ﷺ لِجبريل دون رؤيته: قال المستشرق "كارادە فو-Carra De Vaux": "**والمتفق عليه فيما يظهر أنّ النبي سمع الروح دون أن يراه**»، ثم قال: "**أن النبي لم ير الوحي إلاّ في مناسبتين**"، فهذا الكلام يغلب عليه التشويش والاضطراب، والصواب هو كالتالي:

- بل المتفق عليه بين الروايات التي تذكر قصة نزول الوحي عليه أوّل مرة أنّه رأى جبريل ﵇ **أولا** في الغار عندما لقنه الآيات الأولى من سورة "العلق"[6]، **وثانيا** عندما فتر الوحي وناداه جبريل قائلا: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا»؛ وفي كلّ هذه الحالات ظهر له جبريل ﵇ في صورة رجل،

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10125/32.

[2]- سبقت ترجمته في: ص49.

[3]- سيأتي تعريف **الوحي** في: ص318.

[4]- **غار حِراء:** "حراء": اسم جبل يقع في رأسه هذا الغار، ويسمى اليوم هذا الجبل "بجبل النور": ويقع في الشمال الشرقي من مكة المكرمة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 233/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 259/1.

[5]- عند: **البخاري ومسلم**، سبق تخريجه قريبا: ص281. وهذا اللفظ للبخاري.

[6]- **تنبيه:** الأمر المتفق عيه أنّ نزول جبريل بالوحي ومطلع سورة العلق في غار حراء كان يقظة لا مناماً؛ كما في حديث عائشة عند: البخاري ومسلم المذكور في متن هذه الصفحة، وحديث جابر ﵁ عند: **البخاري** "الصحيح (الفتح)، 377/6. **ومسلم** "الصحيح (النووي)، 269/2"، بينما جاء في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق والطبري (سبق تخريجه: ص281): أنّ ذلك كان مناما، لكنه محمول على التمهيد والتوطئة لِما جاء بعده يقظةً، فهو من الرؤيا الصادقة التي تحقّقت يقظة، كما بيّن الزهري وابن كثير "البداية والنهاية، 9/4" وابن حجر "الفتح، 31/1" وأبو شهبة في "سيرته، 264/1" وغيرهم.

وهو ما اتفقت عليه الروايات في حديث عائشة ﵂ وفيه: «**تَبَدَّى** لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا»[1]، وفي حديث جابر ﵁ وفيه قوله ﷺ: ((ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ))[2]، وكذا في حديث عبيد بن عمير وفيه: «فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا **جبـــريل فِي صُورَةِ رَجُلٍ** صَافٌّ قَدَمَيْهِ فِي أُفُـــقِ السَّمَاءِ»[3]؛ ونَحوه أيضا في حـــديث عبد الملك بن عبد الله وحديث ابن عباس ﵄[4]؛ وليس في واحدة من هذه الروايات ما يدلّ على أنّه لم يره؛ هذا هو المتفق عليه، أمّا خلافه الذي زعم "كاراده فو-Carra De Vaux" أنه متفق عليه؛ فليس أمرا صحيحا ولا متفقا عليه، مع ملاحظة أنّه لم يبيّن من اتفق عليه، وعلى أي أساس! إلاّ أن يكون تَمويها ونقلا غير محرّر علميا أراد أن يستند إليه في تقرير رأي سقيم.

- أضف إلى ذلك أنّ الأمر الذي أدّعاه المستشرق "كاراده فو"لم يوافقه فيه حتّى زملاؤه من المستشرقين محرري "دائرة المعارف" كما في نصوصهم المذكورة، حيث قال المستشرق "فنسنك-Wensinck" في مادة "وحي": "**وكان الملك الذي يأتي بالوحي مرئيّا من قبل النبي ﷺ كما رآه آخرون**"، وقال المستشرق "ماكدونالد- Macdonald" في مادة "ملائكة": "... **أنّه يظهر بوضوح للرسول ﷺ في الوحي**"، وفي كلام المستشرقَيْن ردّ على المستشرق "كاراده فو-Carra De Vaux".

[2]- تصحيح عبارة المستشرق "كاراده فو": فقوله "**لم ير الوحي إلا في مناسبتين**" كلام غير دقيق؛ لأنّ نزول الوحي على النبي ﷺ وقع كراتٍ ومراتٍ كثيرة لا يمكن حصرها أو عدّها، والوحي له صور مختلفة - سيأتي بيانها-[5]، والذي رآه الرسول ﷺ مرتين إنّما هو جبريل في خلقته الملائكية العظيمة كما ثبت في الروايات[6]، ذلك أنّ جبريل كان غالبا يتزل عليه بالوحي في صورة رجل، وإنّما رأى النبي ﷺ

---

[1]- حديث عائشة ﵂ عند: البخاري وأحمد؛ سبق تخريجه في: ص281.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، 37/1، وكتاب التفسير، 864/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، 269/2-270.

[3]- حديث عبيد بن عمير عند ابن إسحاق والطبري؛ سبق تخريجه في: ص281.

[4]- مرسل عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان عند: ابن إسحاق، السير والمغازي، 120-121. والبيهقي، دلائل النبوة، 146/2-148. وحديث ابن عباس ﵄ جاء عند: ابن سعد، الطبقات، 154/1، لكن فيه ضعف لكونه من طريق الواقدي.

[5]- ينظر: ص297.

[6]- سيأتي بيان ذلك في: ص443.

جبريل مرتين على صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سدّ الأفق، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها[1]، وابن مسعود رضي الله عنه[2]؛ وبهذا يتبيّن مدى التشويش والخلط الذي جاء في عبارة المستشرق.

الفرع الثاني : أوّل ما نزل من القرآن الكريم

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 11]: «**وتذهب بعض الروايات إلى أن السورة التي بدأت بها الدعوة هي سورة العلق، بينما تذهب أخرى إلى أنّها سورة المدثر، غير أنه ينبغي أن نأخذ في الاعتبار احتمال ألا تكون أوّليات السور قد دوّنت أو حفظت**»[3]. المحرر هو المستشرق: **بول** -Buhl[4].

- وفي مادة "**القرآن الكريم**" [فقرة: 2]: «**ويختلف العلماء مثلا حول ما إذا كانت أول السور التي نزل الوحي[5] هي سورة العلق أو المدثر (انظر: الإتقان، الجزء الأول، صفحة 23 وما بعدها)**»[6]، ثم يقول: «**ولا شك أن "ميور" مصيب في القول بأن ثَمة سورا سبقت نزول سورة "العلق" و"المدثر"**»[7].

محرر المادة هو المستشرق: **أ. ولش** -A. Welch[8].

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

ثانيا- التحليل والمناقشة: ذكر كلّ من المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" والمستشرق "ولش- Welch" في مادة "القرآن" الخلافَ حول أوّل ما نزل من القرآن على النبي ﷺ.

لكن ينبغي ملاحظة أنّ الخلاف في تحديد أول ما نزل من القرآن: خلافٌ ضعيفٌ؛ ذلك أنّ الذي قرّره علماء السيرة والحديث والتاريخ أنّ أوّل ما نزل هو **الآيات الأولى من سورة "اقرأ"**، وهو ما تدلّ عليه الروايات الصحيحة؛ حيث جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «... فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ:

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء، 377/6، وفي كتاب التفسير، 771/8.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، في الكتاب والباب السابقين، 376/6.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9115/30-9116.

[4]- سبقت ترجمته في: ص150.

[5]- هكذا في المطبوع، والصواب: «التي بها الوحي»، فلعله خطأ مطبعي.

[6]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8209/26.

[7]- المصدر نفسه، إص3، 8218/26.

[8]- سبق في: ص150.

مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]- حَتَّى بَلَغَ - ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]»[1].

كما جاء عن ابن عباس ﷺ [2] وعبيد بن عمير[3]: أنّ أوّل سورةٍ أُنزلت على النّبيّ ﷺ "اقرأ"، وروي ذلك عن غيرهم من الصحابة والتابعين[4].

وهو قول أئمة الحديث والسيرة كعروة بن الزبير والزهري وابن إسحاق والبيهقي وغيرهم[5]، قال النووي: «أوّل ما نَزل مِن القرآن "**اِقْرَأْ**" وهذا هو **الصّواب الذي عليه الجماهير من السّلف والخلف**، وقيل أوله "يا أيها المدثر" **وليس بشيء**»[6].

أما من قال بأنّ أول ما أنزل "المدثر" فمستندهم في ذلك حديث جابر بن عبد الله ﷺ في الصحيحين[7]؛ ولكن تفسير علماء فقه الحديث كابن حبان والبيهقي وابن كثير وابن حجر وغيرهم لحديث جابر ﷺ يدلّ على أنّه لا حجة فيه على كون "المدثر" أول ما نزل، وبيان ذلك فيما يلي:

أ)- أن حديث جابر ﷺ نفسه يدلّ على تقدم الوحي على حادثة نزول "المدثر"؛ حيث جاء في رواية الزهري [لحديث جابر] عند البخاري ومسلم: قول جابر ﷺ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ»، ثم ذكر قوله ﷺ: ((فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي **جَاءَنِي بِحِرَاءٍ**))؛ وفي ذلك دليل على تقدم نزول "اقرأ" في غار حراء على هذه الحادثة بتصريح الرسول ﷺ نفسه، كما أنّ في قول جابر: «يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ»؛ دليلٌ على تقدُّم وحيٍ سابق على هذا الإيحاء[8].

ب)- أما قول جابر ﷺ: «أوّلُ ما نَزَل سورةُ الْمدّثِّر»؛ فالمراد بالأولية هنا أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي- لما سبق في رواية الزهري لحديث "جابر"- أو بالأمر بالإنذار، وليس المراد بذلك أولية مطلقة، فكأنّ من قال: أول ما نزل "اقرأ"؛ أراد أولية مطلقة، ومن قال: إنها "المدثر"؛ أراد بقيد الإنذار أو بعد فترة الوحي[9].

---

[1]- عند البخاري ومسلم؛ سبق تخريجه: ص281.

[2]- حديث ابن عباس في: تفسير الطبري، 111/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 144/7.

[3]- "عبيد" تابعي كبير وحديثه في: تفسير عبد الرزاق، 444/3. وطبقات ابن سعد، 154/1. وتفسير الطبري، 530/24.

[4]- تراجع الروايات في: تفسير الطبري، 530/24-531. ومستدرك الحاكم، 240/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 157/2.

[5]- ينظر: تفسير الطبري، 530/24. ودلائل النبوة، البيهقي، 156/2-157. وفتح الباري، ابن حجر، 864/8-865.

[6]- شرح النووي على مسلم، 864/8-865.

[7]- سبق تخريجه في: ص286.

[8]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 40/4-41. وفتح الباري، 38/1.

[9]- ينظر: صحيح ابن حبان، 221/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 156/2. وفتح الباري، 865/8. والبداية والنهاية، 40/4.

ج)– الذي يظهر من حديث جابر أنّه لا يرى أولية مطلقة لنزول المدثر بدليل قوله: "وهو يحدّث عن فترة الوحي" وفي ذلك إقرار منه على تقدم مجيء المَلَك ونزول الوحي، وحتى لو سلمنا بأنّه يرى الأولية المطلقة لنزول المدثر فهو اجتهاد منه يعارضه حديث عائشة ﵂ وما نقله هو عن النبي ﷺ، قال الكرماني: «استخرج جابر "أول ما نزل يا أيها المدثر" باجتهاد، وليس هو من روايته، والصحيح ما وقع في حديث عائشة ﵂»[1].

أما ما ذهب إليه المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" والمستشرق "ولش- Welch" في مادة "القرآن الكريم": من تقوية احتمال تقدم نزول سور أخرى عن "اقرأ" و"المدثر" فهذا أيضا من باب الاتكاء على الضعيف الواهي ومعارضته بالصحيح الثابت والمتفق عليه؛ ذلك أنّ علماء الحديث والسيرة كالبيهقي والنووي وابن حجر والحلبي: لَمّا أوردوا **بعض الأقوال** التي تفيد: بأنّ أول ما نزل من القرآن: "الفاتحة"، أو "القلم"، أو "المزمل" أو غيرها، ينبهون إلى **شدة وهَن وضعف هذه الروايات**، وما فيها من علل كالانقطاع والشذوذ، وأنّها أضعف مِن أن تعارض الروايات الصحيحة القوية في أولية نزول "اقرأ" ثم "المدثر"[2].

ويدلّ اختيار المستشرقَيْن لهذا القول الضعيف والشاذ على افتقار المستشرقِين لآليات الترجيح وتحرير الأقوال، مِمّا يؤدي بهم إلى اختيار مثل هذه الأقوال البعيدة والواهية، لذا فإنّ اختيارهم هذا ليس مبنيّا على منهجيّة علمية، وإنّما هو اختيار لِهدف مرسوم مسبقاً، وهو التشكيك وزعزعة الثقة بثوابت السيرة النبوية، ومحاولة إظهار حقائقها في صورة مشوشة يعسر فيها التفريق بين الصحيح والضعيف.

الفرع الثالث : مواضيع الآيات الأولى نزولا ومغازيها

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 12]: «**وقد كانت الأفكار بسيطة في تلك السور الأولى المتوهجة عاطفة، ولا تقوم هذه الأفكار على أساس المفهوم التقليدي عن التوحيد، وإنّما تقوم على انطباع ديني وخلقي قوي، لم يكن ثمة مفر من أن يؤدي به إلى قطيعة بينه وبين الوثنية، وقد كان ذهنه مُمتلِـئا بالأخص بفكرة المسؤولية الأخلاقية التي ألقاه الله سبحانه وتعالى على الإنسان، وفكرة الحساب يوم القيامة، وقد أضاف القرآن الكريم إلى ذلك أوصافا حيّة لعذاب الكفرة في نار جهنم وتنعم المؤمنين بنعيم الجنة.**

[1]– فتح الباري، ابن حجر، 865/8. وينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 97/1.

[2]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 158/2-159. وفتح الباري، 865/8 و919. والمواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني)، القسطلاني، 413/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 371/1-372.

وثمة موضوع رئيسي آخر في تلك المرحلة الأولى السابقة على بدء المعارضة القوية له من جانب العائلات المكيّة واسعة النفوذ، ألا وهو آيات الله في الطبيعة مما ينبغي أن تقنع الناس متى فكروا فيها بأن هناك قوّة أعظم من قوة الإنسان، وثمة تأكيد على عجائب الحياة اليومية خاصة ظاهرة الإنسان الرائعة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[2].

سور القرآن التي نزلت بِمكة تبيّن العقائد والأعمال التي كلّف الله بها عباده، وأوصى رسوله ﷺ أن يتعهّد قيامها ونماءها، فقد كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة كبيرا، وكان يعرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوبهم معاني الإيمان، وحدث لهم تحول عظيم، ومن المعاني التي ركز عليها القرآن الكريم في البدايات الأولى للدعوة[3]:

[1]– توحيد الله عز وجل: فالإنسان ليس عبدا لكائن في الأرض، أو في السماء، لأنّ كل شيء في السماء والأرض عبد الله، يذعن لجلاله، ويذلّ في ساحته، ويخضع لحكمه، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء، ومن حقّ كلّ امرئ أن يهرع إلى ربّه رأسا، غير مستصحب معه خلقا آخر، كبر أو حقر، وحقّ على كلّ امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم، أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله، وأن يترل بهم إلى مكانهم المحدود؛ إن كانوا بشرا، أو حجارة، أو ما سوى ذلك، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرّد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة.

ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي كان يعبدها العرب، أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت، وأنّ البشر الذين أُلِّهوا في ديانات أخرى، ليسوا سوى عبيد لمن خلقهم ورزقهم، يتقدّمون عنده بالطاعة، ويتأخّرون بالمعصية، ولا شأن لهم في خلق أو رزق.

أشار المستشرق "بول -Buhl" في مطلع نصه إلى هذا الموضوع لكن بأسلوب غير واضح ولا دقيق.

[2]– النظر في آيات الله في الكون: حثّ الله عز وجل على النظر والتدبّر في عظيم خلق الله وبديع صنعه في هذا الكون، وما فيه من مخلوقات وعجائب، ثم الاتعاظ وأخذ العبرة بعد إعمال النظر والعقل، وذلك لمقصدين هامين:

الأول: بيان أن عظيم صنع الله عز وجلّ برهان على عظمته سبحانه وتفرّده بالخلق والتدبير لهذا الكون.

الثاني: بيان حقيقة بدء الكون ومصيره، وتذكير الناس بأن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9116-9117.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 92-94. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 103-112.

ذكر "بول -Buhl" في نصه هذه النقطة بأسلوب مجمل، وفيما ذكرته بيان لبعض ما أجمله.

[3]- **الدار الآخرة:** فهناك يوم لا شكّ في قدومه، يلقى الناس فيه ربّهم، فيحاسبهم حسابا دقيقا على حياتهم الأولى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 7-8]؛ فإمّا نعيم مقيم، وإما جحيم وعذاب أليم.

[4]- **وصف الجنة والنار:** كما ركز القرآن المكي على اليوم الآخر غاية التركيز، فقل أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين وأحوال المعذبين.

فوصف القرآن الكريم **أهوال يوم القيامة** ومعالِمها، من قبض الأرض ودكّها، وطيّ السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار وتسجيرها، وتكوير الشمس، وتناثر النجوم، وصوَّر القرآن حال الكفار وذلتهم وهوانهم وإحباط أعمالهم، وتحدّث عن ألوان العذاب في نار جهنّم، وكان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصحابة، فأصبح الرعيل الأول يرى هذه الأهوال رأي العين.

ذكر "بول -Buhl" هذا الموضوع، وعبّر عن أثره وأهميّته في نفوس المؤمنين بما سَمّاه "**المسؤولية الأخلاقية التي ألقاه الله سبحانه وتعالى على الإنسان، وفكرة الحساب يوم القيامة**".

[5]- **تزكية النفس:** وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجلّ، وترك أموراً أخرى حذرا من مغبّتها، ونهى عن اقترافها.

[6]- **تربية الصحابة على مكارم الأخلاق:** نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا؛ **فالأخلاق في التربية النبوية** شيء شامل يعمّ كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالكلام له أخلاق، هي: الإعراض عن اللغو مثلا، والتعامل مع الآخرين له أخلاق، هي: التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق، هي: أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق، هي: العفو والصفح، ونحوها من مكارم الأخلاق.

[7]- **التربية من خلال القصص القرآني:** إن القصص القرآني غنِيّ بالمواعظ والحكم والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أمورًا تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين فحسب، وإنما هي أعلى وأشرف وأفضل من ذلك؛ فالقصص القرآني مملوء بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة.

الفرع الرابع : فـتـرة الوحـي

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**إسرافيل**": «**وقد صحب النبي ثلاثة أعوام وبلغه الرسالة، ثم قام جبريل مقامه بهذا الأمر وأخذ يتزل إليه بالقرآن**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **فايس** - J.Feiss[2].

- وجاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 13]: «**وتقول الروايات إن "فترة" مدّتُها ثلاث سنوات فصلت بين وقت نزول الوحي عليه بالسور الأولى وبين نهوضه بالدعوة**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[4].

- وفي مادة "**وحي**" [فقرة: 3]: «... **وبعد ذلك أتت (فترة) انقطع فيها الوحي فقلق الرسول ﷺ، وانتهت هذه (الفترة) بنزول سورة المدثر أو سورة الضحى**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[6].

ثانيا- التحليل والمناقشة: المقصود بـــ"**فترة الوحي**": انقطاعه وعدم اتصاله، وتأخره مدة من الزمان[7].

وقد ذهب السهيلي والقسطلاني إلى تحديد مدة فترة الوحي بثلاث سنين، وهو قول مشهور عند علماء السيرة[8]، وهو القول الذي اعتمده "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، ويدلّ عليه مرسل عامر الشعبي[9]، وعبارة محرر مادة "إسرافيل" تعتمد على قول الشعبي.

قال أكرم ضياء العمري: «ولكن هذا المرسل [أي: مرسل الشعبي] لا يصح للاحتجاج به؛ لإرساله، وتفرده، ومثل هذا الخبر لابد أن يشتهر ويعرف في جيل الصحابة»[10].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 113/2.

[2]- لم أقف على ترجمته في كتب المستشرقين والأعلام المعاصرين، ولا في فهرس محرّري "الدائرة" في النسخة الأجنبية.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9116/30.

[4]- سبقت ترجمته في: ص150.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10125/32.

[6]- سبقت ترجمته في: ص49.

[7]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 37/1. وشرح الشفا، القاري، 91/1.

[8]- ينظر: الروض الأنف، 281/2-282. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 441/1.

[9]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 132/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 10/4.

[10]- السيرة النبوية الصحيحة، 124/1.

كما ذكر ابن حجر أنّ قول الشعبي يردّه ما جاء عن ابن عباس ﷺ أن الفترة كانت أياماً، وهو الذي رجّحه ابن حجر[1]، وجاء تحديد هذه الأيام بأربعين يوما، وقيل: خمسة عشر يوما، وقيل: اثني عشر يوما وقيل غير ذلك[2].

وتحديدها بأربعين يوما هو القول الأقرب للصواب[3]، لأن الفترة إنما كانت ليسترد النبي ﷺ أنفاسه، ويذهب عنه ما وجده من الروع والفزع لأول لقاء بين بشر وملك، وليحصل للنبي الشوق إلى لقاء جبريل بعد هذه الفترة[4]؛ قال الأستاذ أبو شهبة: «أما أن يقضي النبي ﷺ ثلاث سنين أو سنتين ونصف سنة من عمر الدعوة الإسلامية من غير وحي ودعوة فهذا ما لا تقبله العقول، ولا يدل عليه نقل صحيح»[5].

الفرع الخامس : سِنّ النبي ﷺ عند بعثته

– جاء في مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 5]: «**وفي حوالي سنة (610م) بدأ الوحي يهبط عليه**»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M. Watt[7].

– وجاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 14]: «**أما عن الفترة التي سبقت ظهوره، فليس لدينا ما نَهتدي به لتحديدها سوى تعبير غير قاطع ورد في الآية (16) من سورة يونس: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾، حيث إن كلمةَ "عُمراً" قد تعني خمسة وثلاثين أو أربعين أو ثلاثة وأربعين عاما**»[8].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** –Buhl[9].

تكلّم المستشرق "بول –Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:14" عن سنّ النبي ﷺ عند مبعثه ونزول الوحي عليه، وذكر أنّه"**ليس لدينا ما نَهتدي به لتحديد ذلك سوى تعبير غير قاطع**"؛ وهذا الإطلاق يُعبّر عن تجاهل المستشرق للروايات الصحيحة الموثّقة التي وردت في كتب الحديث والسيرة في ذلك، فهو من جهة يعتمد على كتب السير والتاريخ في تقرير بعض الوقائع، ويتجاهلها من جهة أخرى في وقائع

---

[1]– ينظر: فتح الباري، 37/1. وكذا: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 154/1.

[2]– ينظر: السيرة الحلبية، الحلبي، 372/1. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 441/1.

[3]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 264/1. والقول المبين، النجار، 111.

[4]– ينظر: فتح الباري، 37/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 264/1.

[5]– السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، 264/1.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9597/31.

[7]– سبقت ترجمته في: ص59.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9112/30.

[9]– سبقت ترجمته في: ص150.

أخرى، وليس له في ذلك ضابط، سوى الكيل بمكاييل مختلفة، والتأثّر الواضح بالخلفيات الفكرية والعقدية، التي تهدف إلى التشكيك في وقائع السيرة المعلومة المشهورة.

وإلاّ فإنّ الرجوع إلى مصادر السيرة والحديث والتفسير ينقض قوله من أساسه، لِما يلي:

[1]- عامة المفسرين يذكرون أنّ معنى "**العمر**" الذي لبثه النبي ﷺ في الآية هو أربعون سنة[1]؛ فلمّا كان الناس - مؤمنهم وكافرهم- وقت نزول الآية يعرفون سنّه، لم تكن هناك حاجة لبيانه، لكن بعد وفاة النبي ﷺ وفي الأجيال اللاحقة احتاج الناس لِمعرفة ذلك فبيّنه لهم شهود العيان الذين عاصروا النبي ﷺ وهم الصحابة ﷺ، وشهاداتهم ثابتة منقولة وهي مفسِّرة موضحة لِما جاء في الآية الكريمة، فعن ابن عباس ﷺ قال: «بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنةً»[2]، وقال أنس بن مالك ﷺ: «بَعثَه الله على رَأْس أربعين سنةً»[3]، وهو ما قرّره أئمة الحديث والسيرة والتاريخ[4].

لكن تعمَّد المستشرق "بول -Buhl" تجاهل الروايات التاريخية الموثقة من شهود العيان، ثم ذهب إلى القول بأنّ القرآن الكريم لم يحدّد سنّه ﷺ عند مبعثه، وليس في ذلك حجة تدعو إلى تجاهل ما جاء في الروايات الصحيحة عن الصحابة ﷺ، غير أنّ المستشرق اعتمَد هنا على منهجية من مناهج المدرسة الاستشراقية في نفي بعض حقائق السيرة أو على الأقلّ التشكيك فيها، وهي منهجية قائمة على نفي ما لم يأت في القرآن الكريم من أخبار السيرة النبوية، لكنّ هذه النظرة تُعبِّر عن خلل علمي ومنهجي في التصوّر؛ إذ أنّ المقرّر لديهم ولدى علماء الإسلام أنّ القرآن وإن وردت فيه بعض أخبار السيرة إلا أنّه لم يستوعب جميع أحداثها وحقائقها، إذ هو في الأصل كتاب هداية وتشريع.

[2]- الخلاف الذي ورد في الروايات وقع في تحديد سنّه عند البعثة بين أربعين وثلاث أربعين، وإن كانت رواية "ثلاث وأربعين" ضعيفة وشاذة، لِمخالفتها الروايات الصحيحة الأرجح منها[5]، وعلى فرض صحتها فهي محمولة، على الإرسال بعد فترة الوحي لِمن حدّدها بثلاث سنين[6]، وهو ما قد تُحمل عليه الآية لا ما ذكره المستشرق، ثُمّ إنّ علماء التفسير والسيرة أعلم بإطلاقات العربية وأعرف

---

[1]- ينظر: تفسير الطبري، 138/12. وتفسير البغوي، 414/2. وتفسير ابن كثير، 254/4.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، 282/7. وأحمد، المسند، 462/5.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، 690/6. ومسلم، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب صفة النبي ﷺ، 145/15.

[4]- ينظر: تهذيب سير ابن إسحاق (لابن هشام)، 233/1. وأنساب الأشراف، البلاذري، 103/1-104. وسيرة ابن حبان، 67/1. والروض الأنف، السهيلي، 250/2.

[5]- ينظر: تاريخ الطبري، 292/2. وفتح الباري، ابن حجر، 697/6. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 124/1.

[6]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 132/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 124/1.

بما يُحمل عليه لفظ "عمرا" من المعنى، كما أنّ الروايات السابقة وغيرها مخصّصة لعموم هذا اللفظ ومبيّنة له.

[3]- كما أنّ سياق الآية يدلّ على أنّها جاءت لبيان معرفة الناس بأخلاق رسول الله ﷺ وشهادتهم عليه بالصدق والأمانة، وهو الذي عاش بينهم زمناً ليس باليسير؛ وفي ذلك «حجّةٌ واضحة على كفّار مكّة، لأنّ النّبيّ ﷺ لم يبعث إليهم رسولا حتى لبث فيهم عُمُرًا مِن الزمن... فعرفوا صدقه، وأمانته، وعدله، وأنه بعيدٌ كلّ البعد من أن يكون كاذبا على اللّه تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين»[1].

[4]- نجد أنّ المستشرق "مونتجمري وات-Watt" يقرّر بكل وضوح وفي "دائرة المعارف" ما هو متفق عليه من أنّ مبعثه ﷺ كان لأربعين سنة، حيث ذكر في مطلع مادة "مكة/ فقرة:1" أنّ مولده ﷺ كان سنة (570م)، ثم بعد ذلك قال في نصّه المذكور من مادة "مكة/ فقرة:5": «**وفي حوالي سنة (610م) بدأ الوحي يهبط عليه**»؛ أي أنه كانت له أربعون سنة عند مبعثه ﷺ.

الفرع السادس : صور نزول الوحي على النبيّ ﷺ

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**دحية**"[فقرة: 1]: «**وكان دحية تاجراً غنيا جميلا حسن الصورة، وكان من أصحاب النبي... وشبهه النّبي بجبريل، وأيّد الخبرُ بأن جبريل كان يأتيه مراراً على صورة دحية الكلبي**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** -Lammens[3].

- وفي مادة "**وحي**" [فقرة: 4]: «... **وقد أظهر جبريل للنبي ﷺ قطعة قماش مكتوبا عليها هذه السورة، وقال له: اقرأ[4]، فقال الرسول ﷺ: ما أنا بكاتب[5]، وفي آخر الأمر قرأ الملك الآيات فحفظها النبي ﷺ.**

ويتم استيعاب الوحي بالسمع، وهذا واضح من سورة القيامة، آية (16) وما بعدها: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾... **فقد أوردت كتب الحديث أحاديث كثيرة بهذا الشأن منها ما رواه أحمد بن حنبل في "مسنده" في الباب السادس من أنّه ﷺ كان يأخذه شبه السبات، وما رواه البخاري في باب الحج، وباب بدء الوحي حيث يتضح أن الرسول ﷺ كان يتفصد**

---

[1]- أضواء البيان، الشنقيطي، 153/2. وينظر: تفسير ابن كثير، 253/4-254.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 170/9.

[3]- سبقت ترجمته في: ص221.

[4]- **تعليق المترجم** [في هامش المادة المتعقّب عليها من "الدائرة"]: «**حكاية قطعة القماش هذه لا ندري لها أصلا**».

- **ملاحظة على "تعليق المترجم"**: سيأتي في الصفحة الموالية بيان أنّ القصّة لَها أصل، لكنّها وقعت مناما.

[5]- **تعليق المترجم** [في هامش المادة المتعقّب عليها من "الدائرة"]: **الروايات المتواترة: (ما أنا بقاريء).**

عرقا عندما يأتيه الوحي حتى في اليوم الشديد البرد، وروى الترمذي في باب المناقب وصفا للرسول ﷺ عندما يترل عليه الوحي»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- ملاحظات واستدراكات على بعض ما ورد في مادة "وحي": الملاحظ أنّ طرح المستشرق "فنسنك-Wensinck" لِموضوع الوحي وبداية نزوله على الرسول ﷺ كان طرحا أقرب ما يكون إلى الموضوعية والأمانة العلمية في النقل والعرض، بحيث قارب ما ذكره في المادة ما جاء في الروايات الصحيحة عند المحدثين وعلماء السيرة، كما أنه جانب التأويلات المتعسفة التي كثيرا ما يحشرها المستشرقون حشراً ضمن عرضهم لوقائع وأحداث السيرة النبوية، ولكن هناك بعض الأوهام والنقاط اليسيرة فيما كتبه تحتاج إلى تدقيق وتوضيح، وهي كالآتي:

أ)- قوله: «**أظهر جبريل للنبي ﷺ قطعة قماش مكتوبا عليها هذه السورة**»؛ هذا المعنى ورد في مرسل عبيد بن عمير بلفظ: «فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ، وَأَنَا نَائِمٌ، بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، فَقَالَ اِقْرَأْ»[3]؛ حيث يدلّ لفظ هذه الرواية على أنّ الواقعة كانت مناماً، وفيها ذكر الكتاب من الديباج، ثم تحقّقت بعد ذلك يقظة فكانت من الرؤيا الصادقة[4] كما هو مبيّن في حديث عائشة ﵂[5]، ولكن ليس في حديث "عائشة ﵂" ذكر إخراج جبريل ﵇ للكتاب، وهي الحادثة المشهورة التي كانت يقظة لا مناماً وكان فيها أول نزول القرآن، وأول لقاء مباشر للرسول ﷺ مع المَلَك، فكان ينبغي للمستشرق "فنسنك-Wensinck" أن يفرّق بين الروايتين ولا يخلط بينهما، لكونهما روايتين لحادثتين مختلفتين واحدة مناماً والأخرى يقظة، وسياق كلام المستشرق يدلّ على أنّه يتكلم عن الحادثة التي وقعت يقظة لكن ليس فيها ما ذكره عن الكتاب من القماش، فكان الأولى أن يبين أنّها في رواية أخرى، ويُحتمل أنّه التبس عليه الأمر فلم يفرق بين الروايتين وحسبهما حادثة واحدة، لكن الصواب التفريق بينهما كما فعل علماء فقه الحديث والسيرة.

ب)- أما قوله: "ما أنا **بكاتب**" فهو خطأ آخر، فالذي ورد في روايات الصحيحين وغيرهما: ((مَا أَنَا **بِقَارِئٍ**))، كما سبق في حديث "عائشة ﵂"، أمّا قول المترجم: "الروايات **المتواترة**" فكلام غير دقيق ولا محرر على اصطلاح المحدثين، والصواب أن يقال: الروايات الصحيحة أو الثابتة ونحو ذلك.

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10125/32.

[2]- سبقت ترجمته في: ص49.

[3]- عند الطبري وابن إسحاق، سبق تخريجه: ص281. من هذا البحث.

[4]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 446/12. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 247/2.

[5]- أي: قولُها: «فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»؛ وسبق تخريجه: ص281.

[2]– نزول جبريل في صورة "دحية": كان جبريل عليه السلام كثيرا ما يترل بالوحي على النبي ﷺ في صورة "دحية بن خليفة الكلبي" رضي الله عنه، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «وكان جبريلُ عليه السلام يَأتي النَّبيَّ ﷺ في صورة دِحْية»[1]، ونحوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا[2]، وهو معنى ما ذكره "لمنس- Lammens" في مادة "دحية": من تشبيه النبي ﷺ لجبريل بدحية الكلبي كما في حديث جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ))[3]، قال الذهبي: «ولا رَيب أنّ "دِحية" كان أجمل الصحابة الموجودين بالمدينة، وهو معروف، فلذا كان جبريل ربّما نزل في صورته»[4].

كما كان يأتيه جبريلُ في صورة رجل غير "دحية الكلبي" رضي الله عنه، وقد يأتيه في صورة رجل أعرابي[5].

[3]– صور نزول الوحي على النبي ﷺ: كان الوحي يترل على رسول اللّه ﷺ في صور متنوعة، ومراتب مختلفة، أشار إليها المستشرق "فنسنك -Wensinck" في مادة "وحي"، و فصّلها علماء فقه الحديث والسيرة وهي كالآتي[6]:

الصورة (1): أن يأتيه الوحي في النوم "الرؤيا الصادقة"، لأنّ رؤيا الأنبياء وحي[7].

الصورة (2): أن ينفث الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه[8].

الصورة (3): أن يَتمَثّل له المَلَك رجلاً، فكان يأتيه في صورة دحية الكلبي -كما في العنصر السابق-، أو في صورة أعرابي، أو في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشّعر.

الصورة (4): أن يَتمَثّل له المَلَك في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح يتناثر من أجنحته اللؤلؤ والياقوت، وقد وقع ذلك مرتين.

---

[1]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 102/10. وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند والألباني في "السلسلة الصحيحة، 104/3".

[2]– أخرجه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 260/1. وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد، 257/8": «فيه عفير بن معدان وهو ضعيف»، لكن يشهد له حديث ابن عمر السابق.

[3]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء، 299/2-300.

[4]– سير أعلام النبلاء، 554/2.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 91/1. وسبل الهدى والرشاد، الشامي، 265/2. والسيرة الحلبية، الحلبي، 361/1.

[6]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 257/2-258. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 107/1-108. وزاد المعـــاد، ابن القيم، 77/1-79. وسبل الهدى، 263/2-265. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 281/1-285. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 269/1-271.

[7]– وسبق بيان ذلك في: ص281.

[8]– **تنبيه:** يحتمل أنّ هذا النوع هو الذي أوقعَ الإلباسَ على محرر مادة "جبرائيل"، عندما قال بأنّ النبي ﷺ سمع الوحي دون أن يراه، لكن في ذلك وهم منه وخطأ في التصوّر، إذ أن هذا نوع من أنواع تلقي الوحي، وهناك أنواع أخرى ذكرها الرواة والعلماء غيرها يرى فيها النبي ﷺ جبريل في صورة رجل وهي الأكثر -وكانت في أول نزول الوحي عليه- أو في صورته الملائكية وقعت مرتين.

الصورة (5): أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليه، فيتلبّس به الملك، حتى إن جبينه ليتفصّد عرقا في اليوم الشديد البرد.

ذَكَرَ هذه المرتبة في تلقّي الوحي "فنسنك -Wensinck" في نصّه المذكور من مادة "وحي"، والحديث الذي أشار إليه عند البخاري والترمذي: هو حديث عائشة ﵂: أن الحارث بن هشام ﵁ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ))، قالت عائشة ﵂: «ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فينفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقًا»[1].

الصورة (6): أن يكلمه اللّه تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما في الإسراء والمعراج.

الصورة (7): أن يكلمه اللّه تعالى في النوم.

الصورة (8): مجيء الوحي كدويّ النحل.

الصورة (9): الإلهام: وهو العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلب نبيه ﷺ وعلى لسانه عند بيان الأحكام.

الفرع السابع : ذهاب النبي ﷺ مع خديجة ﵂ إلى ورقة بن نوفل

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**بحيرا**" [فقرة: 2]: «**فنجد مثلا أن تيوفانس "Theophanes" وجرجيوس فرانتز "Georgius Pharntzes": يذكران أنه بعد ظهور جبريل لأول مرة وإصابة النبي بالغشيان ملئت خديجة فزعا فلجأت إلى راهب ملحد منبوذ يدعى سرجيوس فطمأنها وأكّد لها أن الملك جبريل يرسل لجميع الأنبياء**[2]»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[4].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الوحي، باب [دون تسمية]، 24/1. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، 128/15. **والترمذي**، الجامع (تحفة)، كتاب المناقب، باب ما جاء كيف ينزل الوحي على النبي ﷺ، 78/10.

[2]- **تعقيب أحمد شاكر** [في هامش المادة المتعقَّب عليها من "الدائرة"]: «**الزعم بأنّ قصة خديجة كانت مع من يدعى "سرجيوس" خطأ، ومخالف للروايات الصحيحة الثابتة، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم قصّة تعبّد النبي ﷺ في غار حراء ومجيء الملَك إليه بالوحي أول مرة...وفيها: ((فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ فَقَالَ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ –وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ–: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: ((كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ))، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ))**. إلى آخر الحديث، **وهو مشهور معروف في أول صحيح البخاري، فهذا صريح في أنّها ذهبت به إلى ابن عمّها العربي النسب، ولَم تذهب إلى رجل أعجمي يُدعى "سرجيوس"**».

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 398/3.

[4]- سبقت ترجمته في: ص49.

– وفي مادة "**خديجة**"[فقرة: 1]: «**ومهما يكن من شيء فإن الرواية ترسم صورة جذابة جدا للمعونة الأدبية التي أسدتها للنبي عندما اعتراه القلق والحيرة أول نزول الوحي**»[1]. المحرر هو: **بول**-Buhl[2].

– وفي مادة "**ورقة بن نوفل**" [فقرة: 1]: «**وكان ورقة يرى في محمد ﷺ – مثله في ذلك مثل الراهب بحيرا – يرى فيه شيئا غير عادي... وكان ورقة من المخلصين الأوائل لِمحمد ﷺ والمطلعين على أسراره وعلم بأمر الوحي عندما أتاه للمرة الأولى، وورقة هو الذي قال لِمحمد ﷺ أنّ ما أتاه أتى من قبله عيسى وموسى (عليهما السلام)، إنّه الناموس**»[3]. محررة المادة هي المستشرقة: **فكـا** -v.vacca[4].

ثانيا– التحليل والمناقشة:

[1]– استدراكات على بعض ما ذكره "فنسنك –Wensinck" في مادة "بحيرا": المقرّر في كتب الحديث والسيرة والتاريخ[5] أنّ النبي ﷺ عندما نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي ذهب مع زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تسأله عن هذا الأمر الذي جاء محمداً ﷺ، وهو المقرر عند المستشرقين أنفسهم كما هو مبيّن في نصّي مادة "خديجة" ومادة "ورقة" السابقتين، وهو ما ذكره غيرهما أيضا خارج "دائرة المعارف" كالمستشرق "بودلي" و"مونتجمري وات - Watt" في كتاباتهما[6] وغيرهم.

غير أنّ المستشرق "فنسنك" ذهب في مادة "بحيرا" إلى قول غريب مفاده أنّ خديجة ذهبت مع النبي ﷺ إلى راهب يسمّى "سرجيوس" وهو خطأ علمي تردّه مصادر الحديث والسيرة والتاريخ بل ومصادر المستشرقين أنفسهم فضلا عن "دائرة المعارف"، وفيما يلي بعض الملاحظات على قوله هذا:

أ)– جاء في حديث عائشة رضي الله عنها ضمْن الحديث الطويل في قصّة بدء الوحي: «فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ "**وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ** بن أسَد بن عَبد العُزَّى" ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ.... وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي،

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 236/8.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10133/32.

[4]– **فكا فرجينيا** "Virginia Vecca" (1891–1988م): مستشرقة إيطالية، ولدت في روما سنة، وأقامت فترة في القاهرة، وتعلّمت العربية على مستشرقين، وعُيّنت محررة "لمجلة الشرق الحديث"، من آثارها: "اليهود والعرب في فلسطين"، وغيرها. ولها عدّة كتابات في "دائرة المعارف الإسلامية". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 405/1.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 440/12. وصحيح مسلم (النووي)، 265/2–266. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 238/1. وتاريخ الطبري، 299/2–300. وسيرة ابن حبان، 65/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 261/1.

[6]– ينظر على الترتيب: حياة محمد "الرسول"، 65. ومحمد ﷺ في مكة، 101 و103 و120.

مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ[1] الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى»[2]؛ وهو حديث صحيح مشهور مروي في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وما جاء فيه يثبت أنّ "ورقة" رجل قرشي عربي من أهل مكة كان على دين النصرانية في الجاهلية كما في مادة "ورقة بن نوفل" من "دائرة المعارف الإسلامية"[3]، وهو يدلّ على خطأ قول المستشرق "فنسنك" كما بين العلامة "شاكر" في تعقيبه السابق على مادة "بحيرا".

ب)– قول "فنسنك -Wensinck" "**راهب منبوذ**"؛ تشعر هذه العبارة بأنّ المستشرق أراد من خلالها أن يقول بأنّ كلامَ "ورقة بن نوفل" لا قيمة له عند الرهبان النصارى المعتبرين، مع ملاحظة أنّه ليس من الدقة إطلاق مصطلح "راهب" على "ورقة"، حيث تذكر الروايات أنّه تنصّر وكان من الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام في الجاهلية، ولا يعني بالضرورة أن كلّ من كان على دين النصرانية وقرأ الإنجيل أو غيره هو "راهب"، ولعلّ قول المستشرق بأن النبي ﷺ وخديجة ﵂ ذهبا إلى راهب منبوذ يسمى "سرجيوس" من أحد أساليب التشكيك في نزول الوحي على نبيّنا محمد ﷺ التي انتهجها بعض المستشرقين في "الدائرة" -كما سيأتي-، فالمستشرق "فنسنك" وإن كان طَرْحه في مادة "وحي" أقرب ما يكون إلى الإنصاف والتجرد العلمي، فإنّ طرحه في مادة "بحيرا" كان أبعد ما يكون عن الإنصاف والتحرر من الخلفيات العقدية والنزعات الاستشراقية المغرضة، بل وأبعد عن التحرير العلمي الدقيق الذي كثيرا ما تميّز به هذا المستشرق، وفي النقطة الموالية دلالة واضحة على ذلك.

ج)– من العجب أنّ مستشرقا كبيرا مثل "فنسنك -Wensinck" واضع "مفتاح كنوز السنة" والمشرف الرئيس على وضع "المعجم المفهرس" والباحث الكبير في مجال السنة النبوية؛ يعزو حادثة نزول الوحي على النبي ﷺ ثم ذهابه إلى ورقة بن نوفل إلى كتابات أجنبية لبعض المستشرقين وهي مراجع غير أصيلة في هذا المجال، فيكتفي بالوسائط عن الرجوع إلى المصادر الحديثية والتاريخية الأصيلة في هذا الباب، وهو خلل منهجي وثغرة علمية كان يفترض بمن كان في مثل مكانته وثقله العلمي أن يتحاشاه، فلو نقل الحادثة كما جاءت في مصنفات السنة والسيرة لكان نصّه أبعد عن مثل هذه الأغلاط الفادحة وأقرب إلى الصواب، وأرفع من حيث القيمة العلمية لِما حرّره في مادته.

ذلك أنّ من الثغرات المنهجية في كتابات المستشرقين في "دائرة المعارف" وغيرها، ومن الأمور التي توقع كثيرا منهم في الأخطاء العلمية في نقل الروايات، ومجانبة الصواب في الافتراضات، هو الاعتماد

---

[1]– **الناموس:** هو صاحب السر، ونمست الرجل ونامسته: ساررته؛ والمراد بالناموس هنا جبريل ﵇ وسمي بذلك لأن اللّه تعالى خصه بالوحي. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 35/1. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 250/2-251.

[2]– سبق تخريجه: ص281.

[3]– إص3، 10133/32.

على الوسائط الأجنبية التي كتبها المستشرقون قديما مع ما قد تحمله من عدم الأمانة في النقل والتفسير، أو ما قد تحويه من التمويه والتشويه في عرض الوقائع، ويزيد الهوة في مجانبة الصواب افتراضات وتفسيرات أخرى تعسفية قد يُنشِئها الناقل اعتمادا على نقول خاطئة ومشوّهة، فيبتعد بذلك طَرْحه عن الحقيقة العلمية التي لا يصحّحها إلا الرجوع إلى المصادر العربية الأصيلة، والمنابع الحقيقية للمادة العلمية، ثم تفسيرها دون تَحيّز وتأثر بالنزعات الفكرية والعقدية.

د)– أنّ "سرجيوس" فهو اسم ذُكر للراهب "بحيرا" بشهادة المستشرق "فنسنك" في المادة نفسها وقبل أسطر من هذا النص، حيث قال: «**ولا نجد في أقدم المصادر عن النّبي (ابن هشام، ص119–120) اسم هذا الراهب [أي: "بحيرا"]، أما في المصادر النصرانية والإسلامية المتأخرة فإن هذا الراهب يدعى سرجيوس**»[1]؛ وهو **تناقض واضح** وقع في فيه المستشرق "فنسنك -Wensinck"؛ فهل يرى المستشرقُ بأنّ "سرجيوس": هو الراهب "بحيرا" التي كانت قصته[2] مع النبي ﷺ في صباه؟ أم هو: من ذهب إليه النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها بعد نزول الوحي عليه وهو في الأربعين من عمره؟ فما جاء في المادة يدلّ على خلط المستشرق "فنسنك" بين الشخصيتين، ولو لم يكن "فنسنك" هو محرر مادة "بحيرا" لأمكن احتمال أن يكون اختلطت عليه المعلومات فالتبس عليه الأمر في التفريق بين الشخصيتين، ولكن لَمّا كان "فنسنك-Wensinck" هو من قال بأنّ "بحيرا" هو سرجيوس ثم جعل "ورقة بن نوفل" راهبا يسمى سرجيوس؛ فيَرِد احتمال آخر يمكن أن يبين سبب هذا التناقض، وهو أنّ اعتماده على المصادر الأجنبية للمستشرقين كأساس في تَحرير مادتّه هو ما أوقعه في هذه الأخطاء والتناقضات، وإلاّ فإن مصادر السيرة والتاريخ والحديث تفرق بين شخصيتي الراهب "بحيرا" و"ورقة بن نوفل"، وتميز بين قصة كل منهما، وإنّما ذكر بعض المتأخرين من علماء التاريخ والسيرة المسلمين أنّ "بحيرا" يسمى: "جرجيس أو سرجس أو سرجيس" كما سبق بيانه[3].

هـ)– زيادة على ذلك كلّه فقول المستشرق لا يدلّ على التناقض في مادته التي حرّرها فحسب، بل على التناقض في "دائرة المعارف" أيضا، حيث نجد مثلا أن المستشرق "بول -Buhl" في مادة "خديجة" والمستشرقة "فكا -vacca" في مادة "ورقة" من "دائرة المعارف": يخالفانه في ما ذهب إليه، ويقرّران بوضوح أن من ذهب إليه الرسول ﷺ هو "ورقة بن نوفل" لا غيره؛ وفي ذلك نقضٌ لما قرّره "فنسنك" في مادة "بحيرا" وتصحيح لِخطأه.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 397/3، من مادة "بحيرا" سبق في: ص298. من هذا البحث.

[2]– سبق الكلام عليها في: ص260 وما بعدها.

[3]– ينظر بيان ذلك فيما سبق: ص265.

المطلب الثاني : أساليب تشكيك "دائرة المعارف" في الوحي

قسّمت هذا المطلب إلى عناصر حسب هذه الأساليب التشكيكيّة، بحيث يغني ذلك عن تقسيمه إلى فروع.

- الأسلوب الأول : التشكيك في نزول جبريل على الرسول ﷺ بالوحي:

اعتمد المستشرقون محررو "دائرة المعارف" لذلك عدة طرائق، وهي:

الطريقة الأولى: الزعم بأنّ النبي محمداً ﷺ اصطنع قصة نزول جبريل عليه بالوحي، وهذا ما ذهب إليه المستشرق "كارادە فو-Carra De Vaux" في مادة "جبرائيل".

- فجاء في مادة "**جبرائيل**" [فقرة: 2]: «**أو جبريل أشهر الملائكة عند المسلمين... وقد اصطنع النبي القصة التي تقول بأن هذا الرسول السماوي يتحدث إلى الأنبياء، واعتقد أنّه تلقى رسالته ووحيه منه**[1]».

ثم يقول: «**جاء في إنجيل لوقا (الإصحاح الأول، الفقرة 19)، حيث يقول الملك لزكريا: (أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا)...**»[2]. المحرر هو: **كارادە فو** -Carra De Vaux[3].

- الردّ على دعوى أن النبي ﷺ اصطنع القول بأنّ جبريل عليه السلام يتزل عليه بالوحي: الملاحظ أنّ هذا المطعن الذي ذكره المستشرق "كارادە فو-Carra De Vaux" في مطلع نصّه المذكور من مادة "جبرائيل"، جاء بأسلوب مباشر على غير عادة المستشرقين في العصر الحديث -من كتاب "الدائرة" وغيرها- الذين يعتمدون في غالب ما يبثوه من مطاعن وشبهات على الأسلوب غير المباشر في طرح القضايا ومناقشتها، وأسلوبه هذا إنّما يدلّ على بروز الخلفيات العقدية والنزعات العدائية للإسلام ونبيه ﷺ عند المستشرقين مع محاولتهم في كثير من الأحيان إخفاءها أو التعمية عليها بما يزعمونه من البحث الموضوعي والتجرد عن الخلفيات والأهواء، وهل يدلّ قوله هذا إلاّ على أنّه كلام معاند ومعاد لنبوّة محمد ﷺ -كما بيّن أحمد شاكر في تعقيبه-، مع أنّه كان من الحري به أن يطرح الموضوع بعيدا

---

[1]- **تعقيب الشيخ أحمد شاكر:** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 276/6] «**ليس من التحقيق العلمي التعبير عن النبي ﷺ بهذا، ولئن كان كاتب المقال لا يؤمن بنبوته كما هو البديهي، فقد كان جديراً به أن يعرف أنّ مئات الملايين تؤمن بصدقه، فلا يكتب ما يصادرهم في عقائدهم، رعاية لأدب القول، وهو يعلم أنّ الملائكة ووجودهم وأخبارهم من الغيب الذي وراء المادة، وأنّه لا يمكن إقامة الدليل العقلي القاطع على وجود الله أوّلا، ثم على صحة نبوة الأنبياء، وأنّه أرسلهم لهداية البشر، وأنهم أخبروا عن الملائكة، فمن آمن بهم وجب أن يصدّق خبرهم في كلّ ما تحدثوا به عن الغيب. وقد أمكن ذلك في مواضعه من علم الكلام، وأمكن إقامة الدليل على صدق الأنبياء المعروفين، وعلى صدق خاتمهم محمد ﷺ، بما أتوا به من المعجزات، وبما أُنزل عليهم من الهدى والبيّنات، ولن يضيرهم ولن يضير أديانهم إنكار المنكرين، ولا يتسع مقام التعليق تفصيل هذه الأدلة**».

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 276/6-277.

[3]- سبقت ترجمته في: ص253.

عن تلك النزعات التشكيكية التي لا تصدر في الغالب إلاّ من عامة مَن لا يؤمنون برسالته ﷺ، وأيّ بحث علمي في التمثّل بحجج قد تجود بها ألسنة كلّ معاند مكذّبٍ من عامة الناس، فإنّه بهذا المنهج المباشر في الطعن لينأى حتى عن منهجية المستشرقين المحدَثين في الطرح، ويشاكل طرح الرهبان والقساوسة والمبشرين في القرون الوسطى.

كما أنّ كلامه في مطلع النصّ المذكور من مادة "جبرائيل" فيه **تناقض واضح**؛ فقد زعم بأنّ النبي ﷺ هو من اصطنع فكرة مفادها أن الأنبياء يتلقون الوحي من الرسول السماوي -أي: الْمَلَك-، ثم بعد ذلك مباشرة ينقض ذلك ويردّ دعواهُ بنفسه، عندما يذكر نصا من "الإنجيل" يبيّن تلقي النبي زكريا عليه السلام الوحي الإلهي من "جبريل" عليه السلام[1]، وبالتالي فإنّ ما في الإنجيل يدلّ على تلقي الأنبياء الوحي من الرسول السماوي "جبريل"؛ وليس النبي ﷺ هو من ادّعى هذه الفكرة أو اصطنعه -وفق تعبيره-.

الطريقة الثانية: الطعن في نزول جبريل ﷺ بالوحي من خلال تسميته في القرآن المكي "بالروح"، "وروح القدس"، وتسميته في المدني "بجبريل"؛ في إشارة إلى أنه اقتبس ذلك من أهل الكتاب في المدينة، وهو الافتراض الذي قدّمه المستشرق "كارادە فو-Carra De Vaux" في مادة "جبرائيل/ فقرة:3"، والمستشرق "ولش - Welch" أيضا في مادة "القرآن/ فقرة:3".

- فجاء في مادة "**جبرائيل**"[فقرة: 3]: «**ومن المحتمل أن النبي لَم يسم لأول وهلة الروح الذي نزل عليه، لأنّ الآيات الثلاث التي ورد فيها اسم جبريل نزلت متأخرة، وفي سورة العلق التي تتّصل في أغلب الظن بأول ما نزل من الوحي، وما غشي محمداً عندما تلقى الرسالة لم يُعيّن الملك بالاسم أو باللقب، بل ذكر الخبر موجزاً مقتضبا، لا يتعلق بشخص، فقد جاء فيها: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ [العلق: 1-3]. وتذكر الرواية أن الوحي نزل أول ما نزل بِجبل حراء بالقرب من مكة، حيث قفل النبي راجعا والصوت يسترسل قائلا: (يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل)، ولعل هذه الرواية إنّما أضيفت فيما بعد، وأنّ الذي أوحى بها هو ما جاء في إنجيل لوقا (الإصحاح الأول، الفقرة 19)، حيث يقول الملك لزكريا: (أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا)...**

والظاهر أنّ النبي عرف جبريل من خبر البشارة الوارد في الإنجيل، ولكنه لم يكن في مقدوره أن يعرف الإنجيل من غير وساطة، ولعلّه سمع ذلك الخبر من أفواه بعض الفلاسفة أو الباحثين في الأديان أو من أحد الحنفية، وقد وصلهم هذا الخبر مشوها»[2]. المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** -Carra DeVaux[3].

---

[1]- ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا [19/1]، 88.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 277/6-278.

[3]- سبقت ترجمته في: ص253.

– وجاء في مادة "**القرآن الكريم**"[فقرة: 3]: «**وفي المرحلة المدنية الباكرة نجد في الآية 97 من سورة البقرة ما يشير إلى أن جبريل عليه السلام هو الموكول إليه الوحي** ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، **واعتمادا على هذه الآية الكريمة وعدد من الأحاديث الشريفة فسّر المفسرون (الروح) في الآية السابقة وهي سورة الشعراء الآية 193 على أن المقصود بها هو جبريل عليه السلام...**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ولش** Welch-[2].

• **الردّ على دعوى أنّ النبي ﷺ لم يطلق اسم "جبريل" على المَلَك إلاّ في وقت متأخر**: الرواية التي ذكرها المستشرق "كارادە فو" جاءت في حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا»[3]، وفي حديث عبيد بن عمير بلفظ: «يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، **وَأَنَا جِبْرِيلُ**»[4]، وهو اللفظ الذي ذكره "كارادە فو-Carra De Vaux"، لكنه حاول ردّ هذه الروايات الصحيحة؛ لِما فيها من إبطال احتماله الواهي بأنّ النبي ﷺ لم يسمّ جبريل بهذا الاسم إلاّ في وقت متأخر، وقد اعتمد المستشرق في ردّ هذه الرواية الثابتة على منهج "**المقابلة والمطابقة**" وهو منهج خاطيء، بالإضافة إلى أنّه لا يصحّ تطبيقه على هذه الرواية لما يلي:

[1]– أنه لا يوجد تشابه وتطابق بين ما ذكره عن الإنجيل (إنجيل لوقا)[5] وما جاء في هذه الرواية أصلا، فالفرق واضح بين العبارتين.

[2]– كما أن التطابق بين القصتين مستبعد كذلك لاختلاف الإطار الزماني والمكاني للحادثتين، واختلاف سياقهما وتفاصيل أحداثهما، وتباين الشخصيات الواردة فيهما أيضا.

فأحاديث "بدء الوحي" تتحدّث عن: نزول "جبريل" عليه السلام بالوحي على النبي ﷺ أوّل مرّة، وإعلامه أنّه "رسول الله" في مرّة أخرى، بينما تتحدّث قصّة الإنجيل: عن نزول جبريل عليه السلام ليبشّره بأنّه سيولد له مولود اسمه "يحيى"، كما تبيّن الفقرات [11 و12 و13] قبل الفقرة [19] التي ذكرها "كارادە فو-Carra De Vaux"، حيث جاء في هذه الفقرات: «فظهر له ملاك الرّبّ... فقال له الملاك: «لا تخف

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8166/30-8167.

[2]– سبق في: ص150.

[3]– صحيح البخاري (الفتح)، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله من الوحي، 441/12. وسبق في: 281.

[4]– مرسل صحيح قوي الإسناد سبق تخريجه في: ص281. خاصة وأنّ عبيداً حدّث به في حضرة الصحابي عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ويشهد لهذا اللفظ أيضا: مرسل عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان عند: ابن إسحاق والبيهقي، سبق في: ص286. وسبق أيضا حديث ابن عباس رضي الله عنه عند "ابن سعد" في الصفحة نفسها.

[5]– ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا [19/1]، 88.

يا زكريا، لأنّ الله سمع دعاءك **وستَلِد لك امرأتك اِبناً** تسمّيه "يوحنا"»[1]، ثم في الفقرات [18-19]: «فقال زكريا للملاك: كيف يكون هذا وأنا شيخ كبير، وامرأتي عجوز؟ فأجابه الملاك: **أنا جبرائيل** القائم في حضرة الله، وهو أرسلني لأكلّمك، **وأحمل** إليك هذه **البشرى**»[2].

[3]– ومع هذا الاختلاف والتباين بين العبارتين وبين أحداث كلّ قصّة، فإنّه حتى مع وجود تشابه أو تطابق بين حادثتين تاريخيتين، فلا يعني ذلك بالضرورة إسقاط إحداهما كما قرّر المستشرق "درمنغم" وغيره من العلماء والباحثين المسلمين[3].

[4]– وللاستدلال على أنّ النبي ﷺ لم يطلق هذا الاسم على "جبريل" إلاّ في وقت متأخر، وهو يقصد بالوقت المتأخر المرحلة المدنية من الدعوة، وغرضه من ذلك أنّ النبي ﷺ عرف اسم "جبريل" من اليهود، ولكن يجاب على ذلك بأمرين؛ **الأول:** إن كان عرف اسم جبريل من اليهود أو غيرهم فكيف عرف قصص الأنبياء والرسل وأخبار الساعة والبعث وغير ذلك من علم الغيب، الذي جاء في الآيات المكية، **والثاني:** لو كان النبي ﷺ لم يعرف اسم "جبريل" الذي يترل عليه بالوحي حتى هاجر إلى المدينة، أفما كان يبعث وهو في مكة من يسأل يهود المدينة عن الملك الذي يترل بالوحي على الأنبياء ثم يسميه، عوض أن ينتظر إلى أن يقدم المدينة.

[5]– إن كانت الآيات المكية تسمي جبريل "روح القدس" أو "الروح" أو "الروح الأمين، وهذه تسمية بالوصف وهي أبلغ لعرب قريش الذين قد لا يكون لهم معرفة بأسماء الملائكة كأهل الكتاب، فاقتضت حكمة الله ﷻ وهو الذي يترل ما يشاء على رسوله ﷺ –وليس النبي هو الذي يصطنع ذلك كما صوّر المستشرق "كارادة فو" تحاملا– أن يخاطب كلاّ بما يعرفون، وما يناسب أحوالهم كما شاء سبحانه وتعالى.

[6]– كما لا يدلّ ذكر "جبريل" في السور المكية باسم "الروح" ونحوه على أنّ النبي ﷺ لم يعرف تسمية "جبريل" إلاّ في وقت متأخر كما زعم المستشرق، لأنّ الروايات الصحيحة الواردة في المرحلة المكية ومنذ بداية بعثته تدلّ على أنّ إطلاق اسم "جبريل" على الملك الذي ينـــزل بالوحي على الرسول ﷺ كان معروفا مشهورا عند النبي ﷺ وأصحابه، كما في الحديث السابق: «يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَا **جِبْرِيلُ**»؛ والذي حاول المستشرق تضعيفه، وأيضا في روايات أخرى؛ مثل: أحاديث الإسراء والمعراج، ومنها مثلا قوله ﷺ: ((فَانْطَلَقْتُ مَعَ **جِبْرِيلَ** حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، إنجيل لوقا [1/11-13]، 88.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، إنجيل لوقا [1/18-19]، 88.

[3]– ينظر: ص257 و485 من هذا البحث.

قَالَ **جِبْرِيلُ**: قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ))[1]، وأيضا في رواية رجوعه ﷺ من الطائف وفيها قول النبي ﷺ: ((فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا **جِبْرِيلُ**))[2].

[7]– أخيرا ينبغي ملاحظة أنّ المستشرق نفسه لم يجزم بهذه الدعوى عندما جعل هذا القول مجرد احتمال، لكنه احتمال غير وارد لقيامه على افتراضات واهية لا تستلزم ما ذهب إليه، زيادة على المقصد من هذا القول الذي لا يخدم سوى أهداف المدرسة الاستشراقية المشككة في نبوته ﷺ.

الطريقة الثالثة: الزعم بأنّ القرآن لم يبيّن مصدر الوحي وكيفية تلقيه عن جبريل ﷺ:

– جاء في مادة "**القرآن الكريم**" [فقرة: 4]: «... **ارتبط القرآن الكريم بنبوة محمد ﷺ بحيث لا يمكننا فهم أي منهما دون فهم الآخر. ونظرة المسلمين السُّنّة لا تعدو أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المتحدث وأن محمدا ﷺ هو المتلقي، وأن جبريل هو الوسيط الموكل به توصيل كلام الله (الوحي) إلى محمد ﷺ بصرف النظر عن المتكلم (جبريل)، والمتلقي أو المخاطب (محمد ﷺ) لكن تحليل النص القرآني يُظهِر لَنا أن المسألة أكثر تعقيدا من ذلك؛ إذ لا توجد إشارة قط إلى مصدر الوحي أو صيغة المتكلم في السور والآيات التي يظهر أنها أقدم ما نزل من القرآن الكريم، ففي بعض الآيات ليست هناك أدنى إشارة إلى أن هناك رسالة من الله سبحانه وتعالى، انظر على سبيل المثال الآيات من 1 إلى 10 من سورة الشمس وكذلك القارعة والتكاثر والعصر**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **ولش** – Welch[4].

– وفي مادة "**وحي**" [فقرة: 5]: «**أمّا ما يبعثه الله أو يرسله أو يتزله فهو وحي، وقد يكون هذا الوحي مباشرا أو من خلال ملك... وتشير كثير من الآيات إلى وحي أوحي إلى أنبياء قبل محمد ﷺ كالآية (27) سورة المؤمنون: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ والخطاب لنوح عليه السلام... فكل الرسل والأنبياء قبل محمد ﷺ كانوا بشرا أوحى الله إليهم، وهذا المعنى واضح في سورة الأنبياء، آية (7): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾...**

فقداسة الوحي لا جدال فيها ولا لِجاج، وهذا واضح من الآيتين (3–4) من سورة النجم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾، ويؤكد القرآن الكريم على أمانة الرسول ﷺ في نقل الوحي، وهذا واضح من الآيتين (92–93) من سورة الأنعام : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، 364/6. ومسلم، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 290/2. من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء، 376/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى، 214/12-215. من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8166/30-8167.

[4]– سبق في: ص150.

﴿ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾... **لقد أمر محمد ﷺ إذن ألاّ يتّبع إلاّ ما يأمره به ربّه عن طريق الوحي، وبالتالي فلم يحرم أي طعام إلا ما أمره الله بتحريمه»**[1]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - A.J.Wensinck[2].

زعْمُ المستشرق "ولش -Welch" بأنّ "**القرآن لم يبيّن مصدرَ الوحي**" هي دعوى مصادمة للحقائق العلمية المتوافرة في القرآن وغيره من المصادر الإسلامية المختلفة الموضوعات والتخصّصات، فالواقع العلمي لِما جاء في القرآن الكريم يناقض تماما ما قرّره المستشرق؛ ذلك أنّ القرآن بيّن في أوائل السور وأقدم الآيات نزولا مصدرَ القرآن الكريم والوحي المنَزّل على سيدنا محمد ﷺ، وهذه بعض الآيات المكية على سبيل المثال -لا الحصر- تبّين ذلك وتردّ دعوى المستشرق "ولش -Welch":

[1]- في الآيات التي ذكرها "ولش -Welch" نفسه من سورة التكوير والانشقاق -وهي مكية- واستدلّ بها في غير معناها الصحيح؛ دلالة على مصدرية الوحي وكيفية نزوله.

ذلك أنّ السور التي ذكرها تدلّ بدلالة اللفظ أو التضمن على تنزيل الوحي من عند الله ﷻ، ولا يقتضي بالضرورة أن يبين القرآن الكريم في كلّ سورة مصدرية الوحي، لأنّ النبي ﷺ عندما كان يتلو القرآن على الناس كان ينسبه إلى الله تعالى، كما أنّ أول الآيات من سورة "اقرأ" نزولا تدلّ على ربانية الوحي، وتدع الناس إلى الاتجاه إلى الله ﷻ، وأنّه هو الخالق للإنسان ومصدر العلم والهداية.

[2]- ذكر المستشرق "فنسنك -Wensinck" في مادة "وحي/ فقرة:5" بعض الآيات المكية التي تبيّن مصدر الوحي، فذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3-4] وهي سورة مكية، وذكر غيرها كما في نصّه المتقدّم.

[3]- وهناك آيات أخرى كثيرة غير ما ذُكر، منها: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، وقال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: 1-6]؛ وهي مكية أيضا، والآيات المكية والمدنية في ذلك كثيرة جدّا، وفيها ردّ كاف على دعوى المستشرق "ولش -Welch" الزائفة.

[4]- كما بيّن القرآن الكريم ربانية مصدر الوحي، نفى أيضا مصدريته عن النبي ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49] وهي مكية، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15] وهي مكية كذلك.

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/10122-10124.

[2]- سبقت ترجمته في: ص49.

وكلّها آيات تدلّ على أنّ الوحي والقرآن الكريم منزل من الله عز وجلّ وأنّ النبي ﷺ مبلّغ عن ربه جلّ وعلا، وهو ما بيّنه المستشرق "فنسنك -Wensinck" في مادة "وحي" حين قرّر: بأنّ الوحي من الله تعالى، وأنّ النبي محمداً ﷺ هو المبلغ الأمين للوحي، وفي طَرْح المستشرق "فنسك" لمسألة مصدريّة الوحي ردّ وتصحيح علمي ومنهجي لِما جاء في مادة "القرآن"، يدلّ على اتسام نصّ مادة "وحي" بالروح العلمية، والالتزام بالموضوعية والحقيقة العلمية في هذا الموضوع خاصّة، خلافا لكثير مما كُتب في "دائرة المعارف".

[5]– كما نجد في نصّ مادة "القرآن" تناقضا بيْن ما جاء في مطلعها حين نسب القرآن الكريم –وهو من الوحي– إلى الله تعالى، وبيْن ما ذكره بعد ذلك من دعاوى تهدف إلى الطعن في ربانية الوحي.

– الأسلوب الثاني : التفسير المادي للوحي والزعم بأنه نابع من نفسه وفكره:

اعتمدوا في هذا الأسلوب على طريقتين:

– **الطريقة الأولى**: الاتّكاء على "نظريّة الوحي النفسي"[1] **والتأمل الفكري:**

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 15]: «**أما المؤكد فهو أن أمرًا غـــيّر وعيه بأكمله ومَلأه بقوة روحية قرّرت مجرى حياته، وإعلان ما يوحى به إليه، فبدأت بذلك مرحلة نبوته، وقد ذهب "كايتاني" إلى أن ظهور محمد ﷺ كمصلح ديني [قبل أن يبعثه الله نبيا] إنّما كان تدريجيًّا وعلى مدى فترات طويلة من التفكير والتأمل تصفها كتب السيرة بالتحنّث**»[2]. المحرر هو المستشرق: **بول** -Buhl[3].

اتّكأ المستشرق "بول -Buhl" في الشبهة التي طرحها في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:15" على نظرية المستشرق الإيطالي "كايتاني" المشكّكة في الوحي، واحتج لذلك بتحنث النبي ﷺ في غار حراء، وسبق بيان معنى التحنّث[4]؛ وهو ليس وحيا[5]، بل هو داخل ضمن إرهاصات النبوة، والتهيئة الربانية للنبي ﷺ لإنزال الوحي عليه؛ وشتان بين المهيِّء والمهيَّأ له.

---

[1]– **خلاصة** هذه **النظرية** كما بيّن **محمد رشيد رضا** في "الوحي المحمدي، 59" **وأبو شهبة** في "السيرة النبوية، 1/271-272": هي أن **الوحي إلْهام** كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك عبادة الأوثان وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية؛ فيتصور ما يعتقد وجوبه: إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة، أو بوساطة رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه، وهو إنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9115.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– ينظر: ص280.

[5]– فلا يستقيم الخلط بين التحنث البشري والوحي الرباني.

يقوم هذا المطعن الذي قدّمه المستشرق على التفسير المادي للوحي الرباني؛ بحيث يجعل الوحي ناتجا عن تأملات النبي ﷺ الشخصية وخواطره الفكرية، وهو ما يُطلق عليه "**الوحي النفسي**"، وهي شبهة أثارها قدماء المستشرقون من أمثال "كايتاني" وغيره[1]، ويمكن الرد على هذه الشبهة بما يلي:

[1]- ليس هناك أيّ دليل تاريخي من السيرة النبوية يثبت أنّ النبي ﷺ كان يفكّر في الإتيان بدين جديد، قال محمد رشيد رضا: «إن أكـــثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخـــيَّلة، أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخية ثابتة... وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها»[2]، وأما استناده إلى تحنّثه ﷺ في غار حراء فلا يدلّ على ذلك مطلقا، لأنّه كان من التهيئة الربانية لنبيه ﷺ، بل الشواهد تذكر أنّ بعض العرب - ومنهم جدّه "عبد المطلب"- كانوا ربّما اختلوا في ذلك الغار يتحنثون، ولعلّ ذلك من بقايا دين إبراهيم ﷺ في أهل مكة[3].

يقول المستشرق الفرنسي "دينيه"-رادّا على هذه الفرضية الاستشراقية المشككة في الوحي-: «حقّا إنّه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين: أنّ محمداً قد انتهز فرصة الخلوة هذه فروّى ورتّب عمله المستقبلي... أحقّا لم يلاحظوا أنّ هذا الكتاب خال من أيّة خطة سابقة على وجوده، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية... ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلا لهذا التحنث الطويل» إلى أن يقول: «لا شكّ أنّ محمداً لم يَدُر بخلده في تلك الفترة شيء مما يزعمه المستشرقون، و لم يروِّ في نفسه أية خطة أو منهج. حقيقة إنه في خلوته كان يتأمّل، ولكنه لم يكن يقدّر؛ ولقد استمر كذلك إلى أن حان الموعد الذي حدّدته العناية الإلهية لتتجلّى، عن طريق من اختارته رسولا»[4].

فالقرآن الكريم لا يعكس شخصية النبي ﷺ لا في أفراحه ولا في أحزانه ولا في انفعالاته البشرية، فقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها في عام واحد، وحزن عليهما حزنا شديدا حتى سمّي ذلك العام بعام الحزن، فهل يوجد في القرآن إشارة لذلك؟ الجواب: لا؛ فلو كان القرآن -كما زعم محرر المادة- نابعا من ذاته وتفكيره لظهرت فيه تلك المشاعر والميول البشرية.

---

[1]- للتوسع في تحليل هذا المطعن وبيان من قال به من المستشرقين ومناقشتهم يراجع: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 149-165. والوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، محمود ماضي، 123-131.

[2]- الوحي المحمدي، 151.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 235/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 104/1. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 238/2.

[4]- محمد رسول الله ﷺ، 107-108.

ثم إن القرآن الكريم في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول ﷺ، بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله أحيانا[1]، كما كان يوجّهه ويعلّمه أحيانا أخرى[2].

[2]– لو كان هذا الافتراض صحيحا؛ فكيف نفسر فزع النبي ﷺ بعد نزول المَلَك عليه بالوحي أوّل مرّة[3]؟! فلو كان التحنث هو سبيله إلى الاهتداء لدعوته التي أنشأها من التفكير الطويل؛ فما الداعي لهذا الفزع والذعر الذي أصابه، فرجع فزعا يقول "دثروني"، "زملوني"؟![4]

لذا يذكر محمد رشيد رضا: أنّ اختلاءه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوّة؛ لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك –أو عقب رؤيته – حصول مأموله وتحقق رجائه، و لم يَخَف منه على نفسه، وإنّما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال النّاس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى[5].

[3]– يُقال للمستشرق "بول -Buhl" ومن قال بقوله: هل ينكرون نزول الملائكة بالوحي عندما يتعلق الأمر بالإسلام وبنبي الإسلام، أم ينكرونه في حقّ بقية الأنبياء وبخاصة أنبياء اليهود والنصارى؟! فلئن كان إنكارهم محصوراً بنبي الإسلام ﷺ أظهر ذلك أنّ مقصدهم ليس مجرد تحليل ظاهرة الوحي، بل هو محاولة البرهنة على نفي صفة النبوة عن نبي الإسلام ﷺ؛ وهو دأب الكنيسة والمدرسة الاستشراقية وهدف من أسما أهدافهما، لكن النبي محمداً ﷺ ما كان بدعا من الرسل، بل تنزّل عليه الوحي الرباني كما تنزل على غيره من أنبياء الله، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: 163].

[4]– وهل يُعقل أن يأتي رجل أمّي عاش بين الأميين بمثل هذا الكتاب الذي فيه تفصيل قصص الأولين، وأخبار الغيب، وتعاليم الهداية والاستقامة في شؤون الدنيا والآخرة، دون أن يكون مؤيدا بالوحي من العليم الحكيم عز وجلّ؟!

---

[1]– مثل عتابه عن موقفه من الرجل الأعمى "عبد الله بن أم مكتوم في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: 1]، وعتابه له في مسألة أسرى بدر في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: 67].

[2]– مثل الآية السابقة حول تلقي الوحي في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: 16] وغيرها.

[3]– والمستشرق "بول - Buhl" نفسه يذكر في مادة أخرى في "الدائرة" قلق النبي ﷺ بعد نزول الوحي، حيث يقول في مادة "**خديجة**": «فإن الرواية ترسم صورة جذابة للمعونة الأدبية التي أسدتها للنبي **عندما اعتراه القلق والحيرة** أول نزول الوحي». "دائرة المعارف، 236/8" وسبق هذا النص في: ص299. فلو كان الوحي نابعا من تفكيره لَما وقع منه هذا القلق بعد لقائه بجبريل.

[4]– ينظر: الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 161. والسيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 49.

[5]– الوحي المحمدي، 161.

يقول أكرم ضياء العمري: «إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن الطبيعية، حيث تلّقى النبي ﷺ كلام الله "القرآن" بواسطة الملاك جبريل عليه السلام، وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له، دون أن يكون لرسول الله أي أثر في الصياغة والمعنى، بل تنحصر مهمته بحفظ الموحى وتبلغيه، وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه المحفوظة، وهو أسلوب مغاير تماماً لأسلوب القرآن»[1].

الطريقة الثانية: الاعتماد على بعض نظريّات علم النفس الحديث للتشكيك في الوحي:

– جاء في مادة "**السحر**" [فقرة: 2]: «... **ونخرج من هذا بأن السحر لابد وأنّه كان مرتبطا بالأسلوب الذي نزل به الوحي... زد على ذلك أن ثمة آية في القرآن تدل على أنّ الوحي كان في بعض الأحيان يأتي فيما نسميه الآن "الكلام التلقائي – Automatic Speech"، وقد نُهي النبي في الآية 114 من سورة "طه"، والآية 16 من "سورة القيامة" عن تَحريك لسانه بالوحي ليعجل به، أي أنه أمر بأن يستمع له وينصت فإذا انطلق قرأه النبي عليه السلام** (انظر صحيح البخاري، ج9 ص152 وما بعدها، طبعة بولاق 1315هـ: كتاب التوحيد)، وفي الآية 101 من سورة المائدة حُذر الحاضرون والمستمعون للنبي حين يتزل عليه الوحي أن يسألوه فجأة عن أشياء، ذلك أنه في حالة هذا الكلام التلقائي سيجيبهم بلا ريب، ويقول لهم الصدق الذي يسوؤهم، ويمكن للقارئ أن يرجع إلى جملة أحاديث بهذا المعنى في تفسير الطبري (ج7 ص48–52)»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** D.B.Madonald-[3].

اعتمد المستشرق "ماكدونالد-Madonald" على طريقة التفسير المادي للتشكيك في الوحي في نصّه المذكور من مادة "السحر/ فقرة:2"، لكنّه استند إلى **مفاهيم خاطئة** لبعض **الآيات** القرآنية، و**تأويلات فاسدة** لبعض **صور نزول الوحي** على النبي ﷺ، وفيما يلي بيان هذه الأخطاء والجواب عليها:

– **الغلط الأول:** تفسير بعيد عن الصواب ذكره "ماكدونالد –Madonald" لقصة نزول الآية (16) من سورة القيامة؛ وهي مبيَّنة فيما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «كان النبي ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي حرَّك به لسانه يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: 16]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عزّ وجلّ»[4].

---

[1]– السيرة النبوية الصحيحة، 1/129–130.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 11/310–311.

[3]– سبقت ترجمته في: ص228.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: 16]، 8/867–870. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقرآن، 4/218–219.

ومعنى ذلك: أن النبي ﷺ كان في ابتداء الأمر إذا لُقّن القرآن نازع جبريل عليه السلام القراءة؛ بأن يحرك لسانه بالقراءة مع جبريل -يستعين على الحفظ بالتكرار- فيتكلّم بِما يُلقى إليه منه أولا فأولا، وكانت هذه الملاحقة والمسارعة منه في الحفظ لسببين: **الأول**: لئلا ينفلت منه شيء أو خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، **والثاني**: من شدة حبه للوحي وتشوّفه له[1].

فنهاه الله عز وجلّ عن ذلك وأمره بأن يدع القراءة وينصت ويستمع من جبريل عليه السلام، حتى إذا فرغ جبريل قرأه، ووعد الله عز وجلّ أنه تكفّل بحفظه في صدر النبي ﷺ وآمنه من النسيان[2].

قال ابن كثير: «هذا تعليم مِن الله عز وجلّ لرسوله ﷺ في كيفية تَلقّيه الوحي مِن الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتَكفّل له أن يَجمعه في صدره، وأن يُيَسِّره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه»[3].

وإنّما وقع ذلك من الرسول ﷺ في أول الأمر عند مبدأ المبعث النبوي، وسورة القيامة مكية باتفاق[4]، ثُم كان ينصت بعد ذلك ويحفظ ما ألقاه الْمَلك دون نسيان كما هو مُبيَّن في رواية ابن عباس رضي الله عنه؛ وروايته في قصّة نزول الآية تدلّ بوضوح على مخالفتها تماماً لِما أراد المستشرق "ماكدونالد –Madonald" الاستشهاد بها عليه، لِما يلي:

أ)– أنّ ذلك وقع في حالات محدودة في بداية البعثة، لم يلبث أن تركه النبي ﷺ بأمر من الله جلّ وعلا، وبالتالي فلا يصحّ استشهاد المستشرق بالحادثة وكأنها أمر مطّرد ومستمر في نزول الوحي، وإن كان قيد ذلك بقوله: «**في بعض الأحيان**»، لكنّه لم يبيّن انقطاعها بعد ذلك.

ب)– كما أنّ "**الكلام التلقائي**"[5] الذي ذكره المستشرق لا وجه له في هذه الرواية؛ لأنّ النبي ﷺ كان في أشدّ حالاته الذهنية تركيزا، وكان يكرر الوحي مع الْمَلك أو بعده، ثم تركه بعد ذلك بإرادته.

---

[1]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 41/1 و870/8. وتفسير الرازي، 727/30.

[2]– ينظر: فتح الباري، 41/1. وتفسير الرازي، 728/30.

[3]– تفسير ابن كثير، 278/8.

[4]– ينظر: فتح الباري، 40/1 و870/8. والبداية والنهاية، ابن كثير، 57/4.

[5]– **الكلام التلقائي**: ويسمّى أيضا "**التداعي الحرّ**": هو مصطلح في **علم النفس** يرجع إلى مدرسة التحليل النفسي في بداية القرن العشرين على يد الطبيب النمساوي "**فرويد**"؛ ويقوم "التداعي الحرّ" على أن يسترخي الشخص ثم يتفوه بكل ما يخطر على باله، ويطلق العنان لأفكاره وخواطره ورغباته ومشاعره، ويتركها تسترسل من تلقاء نفسها دون تحفّظ، وتتداعى مهما بدت تافهة أو مؤلِمة أو سخيفة، أو عديمة الصلة بالموضوع؛ بينما ينصت الطبيب النفسي، ثم يُحلل تلك الأفكار **العشوائية**، محاولاً التقاط كلمات أو تعابير تنمّ عن مشاعر المفحوص الباطنية؛ والغاية هي مساعدة المريض على فهم مشاعره المكبوته وتقبّلها ومعالجتها.

ينظر: التوجيه والإرشاد النفسي، حامد زهران، 277. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 167/6 و423/25.

وإذا "الكلام التلقائي" أو "التداعي الحر" عند خبراء "علم النفس" نابعاً من نفس المتحدّث، ويعبّر عن شعوره ومكبوتات نفسه بطريقة حرّة وتلقائيّة، فإنّ النبي ﷺ في حالة نزول الوحي كان يتلقّى كلاما خارجا عن نفسه.

كما أنّ الكلام الذي يتلقّاه المصطفى ﷺ هو كلام مُحكم مفصّل لا عوج فيه، يقرّر سبل الخير وقوانين نظام عام متكامل البنيان، يهدف إلى تحقيق سعادة الناس في الدنيا والآخرة، بخلاف "الكلام التلقائي" الذي يتّصف بالعشوائية، ويتّسم بالذاتية والخصوصية؛ فشتّان بين الأمرين.

إنّ إقحام مثل هذه النظريّة النفسية الحديثة في تفسير الآية عبث ظاهر، يعكس محاولة بعض المستشرقين إعمال النظريات المادية في تفسير الوحي المحمدي ذي المصدر الغيبي، من أجل إفراغ السيرة خاصة والإسلام عامة من بعده الروحيّ الربّاني، لكنّ الفارق بين الأمرين يجعل ذلك أمراً مستحيلا، ويوقع أصحاب هذه الافتراضات في تناقضات لا متناهية.

ج)– أضف إلى ذلك أنّ هذه الحادثة لا علاقة لها بتأليف الوحي –كما حاول المستشرق "ماكدونالد – Madonald" أن يوحي للقارىء–، وإنّما لها علاقة بتعليم الله تعالى لنبيّه كيفية تلقي الوحي من جبريل عليه السلام، لذا كانت الحادثة في نفسها – على عكس ما أراد المستشرق الاستشهاد بها عليه– تدلّ على ربانية مصدر الوحي المنزل على نبينا محمد ﷺ.

– **الغلط الثاني:** في تفسير المستشرق "ماكدونالد -Madonald" الخاطئ والمغرض لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [المائدة: 101]، واختلاق رابط وهميّ بين هذه الآية والآية السابقة.

لكنّ كلام المستشرق "ماكدونالد" يدلّ على عدم فهمه للآية القرآنية؛ لأنّ ما ذكره مخالف لِمعناها تماما، ولأنّه استشهد بالإمام الطبري في توكيد تفسيره –وكأنّ في كتابه ما يدعم دعواه– فسأذكر تفسير الطبري للآية وسياقه للروايات في بيان معناها لأثبت أن استناد المستشرق إلى الطبري في المعنى الذي ذكره لا يصح مطلقا.

أ)– معنى الآية وسبب نزولها: قال **الطبري:** «هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام، امتحانًا له أحيانًا، واستهزاءً أحيانًا، فيقول له بعضهم:"من أبي"؟ ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته:"أين ناقتي"؟... وبنحو الذي قلنا في ذلك تظاهرت الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ»[1]، ثم ذكر رواية حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية، قال: «كان قومٌ يَسألون رسولَ الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرّجلُ: مَن أبِي؟ والرّجل تَضلُّ ناقته فيقول: أيْن ناقتِي؟ فأنْزَل الله فيهم

[1]– تفسير الطبري، 13/9.

هذه الآية»[1]، ثم ذكر روايات أخرى في نحو هذا المعنى بعض الصحابة والتابعين[2]، ثم قال: «**وقال آخرون:** نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ من أجل مسألة سائل سأله عن شيء في أمر الحجّ، ثم ذكر روايات في ذلك المعنى منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن: رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ))، فقال رجلٌ: أفِي كلِّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فأَعْرض عَنْه، حتّى عادَ مرّتَيْن أَوْ ثلاثًا، فقال: من السَّائِلُ؟ فَقَالَ: فُلانٌ، فَقَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ عَلَيْكُمْ مَا أَطَقْتُمُوهُ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ))[3]؛ فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، وذَكر روايات أخرى في المعنى نفسه عن غيره من الصحابة والتابعين»[4].

ثم ذكر **قولا ثالثا** مفاده: أنّها نزلت من أجل أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوَصيلة والحامي، وذكر من روي عن ذلك[5].

ثم قال **الطبري:** «**وأولى الأقوال بالصواب** في ذلك، قولُ من قال: نزلت هذه الآية من أجل إكثار السائلين رسولَ الله ﷺ المسائلَ، كمسألة ابن حذافة إياه مَن أبوه، ومسألة سائله إذ قال: "الله فرض عليكم الحج"، أفي كل عام؟ وما أشبه ذلك من المسائل، لتظاهر الأخبار بذلك عن الصحابة والتابعين وعامة أهل التأويل»[6].

وقال **الطبري** في المعنى الإجمالي للآية: «يقول تعالى... أيها المؤمنون السائلون عما سألوا عنه رسولي مما لم أنزل به كتابًا ولا وحيًا، لا تسألوا عنه، فإنكم إن أظهر ذلك لكم تبيانٌ بوحي وتنزيل ساءكم، لأن التنزيل بذلك إذا جاءكم إنما يجيئكم بما فيه امتحانكم واختباركم... ولكنكم إن سألتم عنها **بعد نزول** القرآن بها، وبعد ابتدائكم ببيان أمرها في كتابي إلى رسولي إليكم، ليسَّر عليكم ما أنزلته إليه من بيان كتابي، وتأويل تنزيلي ووحيي»[7].

ب)– وجه النهي عن السؤال عن هذه الأشياء وأشباهها: فالرجل الذي سأل عن أبيه: كان الناس أحيانا ينسبونه إلى غير أبيه، وحين سَأَل عن نَسبه لَم يأْمَن مِن أنْ يُلحِقه بغيره فيُفْتضح؛ لذا كانت أمّه بعد ذلك تلومه على سؤاله هذا فتقول: «ما رأيت ولدًا أعقّ منك قط! أتأمن أن تكون أمك قارفت

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، 355/8.

[2]– تفسير الطبري، 14/9-17.

[3]– أخرج نحوه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، 144/9. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[4]– تفسير الطبري، 18/9-21.

[5]– المصدر نفسه، 22/9-23.

[6]– المصدر نفسه، 23/9.

[7]– المصدر نفسه، 23/9-24.

ما قارفَ أهلُ الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس! فقال: والله لو ألحقني بعبدٍ أسود للحقتُه»[1]؛ فأدرك خطأه عند إقدامه على سؤال هو في غنًى عنه.

كما أنّ مَن سَأَل عَنِ الحج لم يأمن من أَنْ يُؤمَر به في كلِّ عام فيَسوءُه ذلك[2].

ونظير ذلك السؤال –على سبيل التعنت– عن أشياء سكت عنها الوحي رحمة بالناس، قال ابن كثير: «أي: ولا تَسْألوا عن الشّيء قبل كونه؛ فلعلّه أن يُحرّم مِن أجل تلك المسألة، ولِهذا جاء في الصّحيح: ((إِنّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ))[3]»[4].

وخلاصة ذلك: أن الله عز وجلّ نَهى عن السؤال عن أمور غير هامة ولا ضرورة إليها، وعن أمور سكت عنها الوحي، وأن السؤال إنّما يكون بعد نزول الوحي بشيء مجمل يحتاج إلى إبانة فيبيّنه النبي ﷺ فهو المفسر والمبين لما أنزل الله تعالى.

والحاصل من بيان معنى الآيتين: أنّ الواقع الصحيح للحوادث المتعلقة بالآيتين يدلّ على ورود كلٍّ منهما في أمر مغاير، **فالأُولى** لها علاقة بكيفية نزول الوحي؛ ولا علاقة له بعامة الناس، وفيه تعليم من الله تعالى لنبيه ﷺ. **والثانية** في ترك كثرة السؤال فيما لا ينبغي، ولها علاقة مباشرة بعامة الناس، خاصة في كيفية السؤال عن أمور دينهم أو دنياهم، وفي ذلك تأديب للناس خاصة.

فزعْم المستشرق "ماكدونالد-Madonald" أن النبي ﷺ نهى الناس الحاضرين عن السؤال حال نزول الوحي عليه! يعبّر عن سوء فهمه للآية، فالنهي عام عن السؤال عما لا فائدة منه ولا ضرورة إليه مطلقا قبل نزول الوحي أو بعده، وأيضا النهي عن السؤال عن أمور سكت عنها الوحي، فإذا نزل بتشريع أو نحوه فسيكون مبيّنا وإن كان مجملا بينه النبي ﷺ.

ولعل المستشرق وقع في هذا الوهم والْتَبس عليه الأمر من جهة قوله تعالى في آية المائدة: ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [المائدة: 101]؛ فرَبَط ذلك بالنهي عن السؤال بوقت نزول الوحي، وهو خطأ ظاهر نابع من عدم فهم المستشرق للقرآن الكريم، ولإطلاقات اللغة العربية، ولكلام المفسرين أيضا[5]، فإنّ

---

[1]– المصدر السابق، 9/16-17.

[2]– تفسير البغوي، 92/2.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال، 324/13. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك كثرة سؤاله عما لا ضرورة إليه، 160/15. عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

[4]– تفسير ابن كثير، 380/1.

[5]– تشير إحالة المستشرق "ماكدونالد" على "تفسير الطبري" فيما قرّره من أوهام وأغلاط في تفسير الآيتين إلى أحد أمرين: – إمّا عدم الأمانة في نقل كلامه، وهو أمر غير مستبعد من المستشرقين. – وإمّا عدم فهمه لكلامه إن نقل من الأصل العربي، أو عدم فهم المترجِم إن نقل من "كتاب مترجَم"؛ ذلك أنّ: التأليف في العصور الأولى امتاز بقوة الأسلوب، وفحولة المعاني، والتزام أساليب العرب ومذاهبهم في البيان؛ **فدعت الحاجة إلى حسن فهم العربية وأساليبها؛ ليحسن التعامل مع روايات السيرة**، إذ المطلوب في فهمها والاستنباط منها أن يتم وفق قواعد العربية وأساليبها دون تعسف أو تَمحّل في التفسير. ينظر: سيرة أبي شهبة، 26/1. والسيرة الصحيحة، العمري، 20/1.

الطبري نفسه - الذي استدلّ به- بيّن أن معنى ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ ﴾: بعدما يترل كما في نصه السابق حين قال: « ولكنكم إن سألتم عنها **بعد نزول** القرآن بها»[1]؛ فلا علاقة للآية بوقت نزول الوحي كما فهم المستشرق غلطا ووهماً؛ ثم العجب من ربطه ذلك بالسحر، وبناؤه افتراضات خاطئة على هذه الأوهام والأغلاط الفادحة في الفهم؛ وما بُني على واه فهو أشدّ وهنا.

والملاحظ أنّ في طريقة عرض المستشرق للحادثتين تشويه للوقائع وتَمويه على القارئ في تأويلها؛ من خلال توظيف القصة في غير محلّها، زيادة على تحريف بعض حقائقها والتصرف المغرض في حيثياتها، ولا يخفى ما في ذلك من عدم الأمانة العلمية في النقل ثم في التحليل والتفسير.

الأسلوب الثالث: الزعم بأنه تلقّى تعاليم دعوته عن الحنفاء والنصارى: أمّا دعوى تأثّر النبي ﷺ بالحنفاء فسيأتي بيانها ومناقشتها في المبحث الموالي عند ذكر الحنفاء.

وأمّا الزّعم بأخذه عن النصارى، فسبق الكلام على ذلك في قصّة الراهب "بحيرا"، كما حاولت المستشرقة "فكا" أيضا في مادة "زيد" إقحام هذه الطريقة للتشكيك في ربانية الوحي من خلال أحد الصحابة وهو "زيد بن حارثة" رضي الله عنه، مع أنّه ليس معدوداً من الحنفاء ولا من النصارى.

- فجاء في مادة "**زيد بن حارثة**" : «**وزيد ينحدر من قبيلة كانت تضرب قرب دومة الجندل، وكان عدد المعتنقين للنصرانية هناك كثيرا، كما كان أثر اليهودية واضحا، وربما كان أثر زيد في تطور تفكير النبي كبيرا**[2]»[3]. محررة المادة هي المستشرقة: **فكـــا** - v.vacca[4].

- **الردّ على دعوى تأثّره بما عند "زيد بن حارثة" من علم أهل الكتاب:** استندت المستشرقة "فكا- Vacca" إلى انحدار "زيد بن حارثة" من مكان يكثر فيه اليهود والنصارى، إلى افتراض مفـــاده: أنّ النبي ﷺ تأثّر بما كان عند "زيد" رضي الله عنه من علم أهل الكتاب، لكنّ هذا الافتراض واه جداً، لِما يلي:

أ)- بيّنت الروايات أنّ: "زيد بن حارثة" رضي الله عنه وقع في الرّق وهو غلام صغير (له ثمان سنين)، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له[5]؛ وبالتالي لم يكن هذا هذا الغلام الصغير في هذه السن قادراً على جمع تعاليم النصرانية التي سيؤثر بها على الرسول ﷺ - كما زعمت المستشرقة "فكا"-.

---

[1]- تفسير الطبري، 9/23-24.

[2]- **تعقيب هيئة التحرير** [على هامش المادة]: «**هذه الدعوى ساقها الكاتب من غير أن يأتي عليها بدليل أو شبه دليل**».

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 10/11.

[4]- سبقت ترجمتها في: ص299.

[5]- ينظر: تاريخ الطبري، 290/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 448/6. والروض الأنف، السهيلي، 290/2.

ب)– لا يوجد ما يَثبُت تاريخيًّا أنّ "زيداً" كان على النصرانية أو غيرها قبل الإسلام، ولا تعني نشأته بين نصارى العرب أنّه كان نصرانيا، إذ قد يكون بعض أفراد قبيلةٍ ما على النصرانية دون أفراد آخرين.

الأسلوب الرابع: الربط بين الوحي والسحر والكهانة للتشكيك في الوحي النبوي:

من خلال ما كتبه المستشرقون في ذلك نلمح أنّ لهم طريقتين في طرح هذه الشبهة:

الطريقة الأولى: الاتكاء على بعض أوجه نزول الوحي للتشكيك في ربانية الوحي:

– حيث جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 16]: «... **ولا يلمح القرآن الكريم إلا قليلا إلى طريقة حدوث هذا الوحي، وربّما كان الدثار الذي أشارت إليه سورة المزمل وسورة المدثر يشير إلى نوع من الاستعداد لتلقي ما يوحى به على نهج كهان العرب الأقدمين.**

وثمة ضوء غير مباشر يلقيه على الموضوع اتّهام أعدائه بأنه مجنون، أو كاهن، أو ساحر، حيث إن الاتّهام يبيّن أن محمداً ﷺ –في لحظات تلقّيه الوحي– كان يترك لديهم انطباعا كذلك الذي يحدثه المجنون أو الكاهن أو الساحر، وهي شخصيات كانت مألوفة في شبه الجزيرة.

وبالإضافة إلى ذلك نجد روايات عدّة تصف حالته في مثل تلك اللحظات وصفاً أوفى، ويُمكن اعتبارها صحيحة حيث إنه لا يمكن أن يكون المسلمون في العهود المتأخرة قد اخترعوها، بينما كانت هذه النوبات الغريبة تُمثل بالنسبة لِمعارفه أصدق دليل على ألوهية مصدر الوحي»[1]. المحرر هو: **بول** Buhl-[2].

ومناقشة ما ورد في هذا النص ستأتي مع مناقشة النصوص الواردة في الطريقة الموالية.

الطريقة الثانية : محاولة اصطناع تداخل بين الوحي النبوي والسحر والكهانة:

– وفي مادة "**السحر**" [فقرة: 3]: «**وكان السحر في نظر محمد ﷺ، وفي نظر بيئته شيئا حقيقيا، وإن كان ما ينطوي عليه من غرض وما يتوسل إليه به من هدف قد يكون في معظمه باطلا... ونظرة القرآن إلى السحر تقوم على عالم الأرواح الخاص بالجن والشياطين، ومن الواضح أن المقصود بذلك الجن الكفار الأشرار**»[3].

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9116/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 305/11.

ثم يقول: «**أما في نظر النبي ﷺ فقد كان السحر وحيا وثنيا يأتي من عالم الأرواح، وإلى هنا فهو حق، ولكن الوسطاء فيه سواء كانوا أرواحا أو بشرا قد حرفوه وزادوا عليه وهو بهذه الصورة باطل**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** –D.B.Madonald[2].

– جاء في مادة "**الحمدلة**": «**بل إن الفاتحة كانت قد بدأت تتخذ في السُّنة قيمة سحرية؛ ففيها قصة الرجل الذي استعملها رقية تشفي من لدغ الثعبان[3]، وموافقة النبي له (البخاري، كتاب التفسير)[4]**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** –D.B.Madonald.

هذه الطريقة في التشكيك في الوحي مستفادة خاصة من كلام المستشرق "ماكدونالد-Madonald" في مادة "السحر" وفي مادة "الحمدلة"، والمستشرق "بول" في مادة "محمد ﷺ".

والمستشرق "ماكدونالد-Madonald" وإن كان لم يصرح بنسبة النبي ﷺ إلى السحر أو الكهانة، ولكن عبارته موهمة، ويظهر أنّه حاول جهده إيجاد روابط بين الوحي المحمدي والسحر والكهانة من خلال كلامه في المادتين المذكورتين، لغرض التشكيك في ربانية الوحي، أو –على الأقلّ– الإيحاء بوجود علاقة بين السحر وما جاء به النبي محمد ﷺ.

فما هو الوحي؟ وما هو السحر والكهانة؟ وهل هناك تداخل بين هذه الأمور إلى درجة يعسر فيها التفريق بين النبي المؤيد بالوحي، وبين دجل الساحر أو الكاهن، أم أنّها مختلفة تماما؟

- **الفروق بين الوحي والسحر والكهانة:**

[1]– من حيث التعريف:

أ)– تعريف الوحي: عرّفه **ابن حجر:** بأنّه «الإعلام بالشرع، وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي **الموحى:** وهو كلام اللّه المنزل على النبي ﷺ»[6].

وقال **الزرقاني** في تعريفه: «أنْ يُعلِم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم؛ بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»؛ ثم ذكر بعض صوره فقال: «ويكون على **أنواع شتى:** منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه كما كلم الله موسى تكليما، ومنه ما يكون إلهاما

---

[1]– المصدر السابق، إص1، 311/11.

[2]– سبقت ترجمته في: ص228.

[3]– قوله بأنّ اللدغ كان من ثعبان، ليس دقيقا، فأكثر الروايات لا تبين من أيّ شيء لدغ الرجل، كما أنّ قرائن اللغة والرواية تقوّي أن اللدغ كان من عقرب، فقد بيّن ابن حجر: أنّ اللدغ في الإطلاق العربي يكون من الحية أو العقرب أو غيرهما، وأكثر ما يستعمل في العقرب، وقد أفادت رواية الأعمش عند الترمذي وابن ماجه تعيين العقرب. ينظر: فتح الباري، 575/4.

[4]– سيأتي تخريجه في: ص321.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 84/8.

[6]– فتح الباري، 12/1.

يقذفه الله في قلب مصطفاه، ومنه ما يكون مناما صادقا، ومنه ما يكون بوساطة أميـــن الوحـــي جبريل عليه السلام، وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها، ووحي القرآن كله من هذا القبيل وهو المصطلح عليه **بالوحي الجلي**»[1]، وسبق بيان هذه الصور وغيرها.

ب)– تعريف السحر: وهو علم يستفاد منه حصول ملكة يقتدر بها على أفعال غريبة بأشياء خفية، وهو مبنيّ على التمويه والتخيّل؛ ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقلّ به الإنسان، وذلك لا يحصل إلاّ لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، وهو من الأمور التي تُميّز الساحر عن النبي[2].

ج)– تعريف الكهانة: هي ادّعاء معرفة الأسرار، وأحوال الغيب، وأخبار المستقبل، والاستعلام في ذلك بالجن والشياطين، وهو من فروع السحر[3].

[2]– من حيث المصدر: إذا كانت أمور السحر والكهانة مبنية على ما يلقيه الجن والشياطين إلى أوليائهم من الإنس، فإن الوحي مصدره من الله عز وجل بواسطة المَلَك المرسل، أو دون واسطة.

ذلك أنّ السحرة والكهان يستعينون بالجن في معرفة بعض أخبار الغيب في الحاضر أو المستقبل، وكانت الجنّ تقعد مقاعد في السماء لاستراق السمع، لكن بعد مبعث النبي محمد ﷺ اشتدت حراسة السماء وأُرسلت عليهم الشهب الحارقة[4]، كما أشار إلى ذلك "ماكدونالد-Madonald" في مادة "السحر".

وقد بيّن النبي ﷺ كيفية استراق الجن أخبار السماء وإلقائها إلى أوليائهم من سحرة وكهان الإنس، وما في استراقهم من التلفيق والكذب والتحريف، ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ قال: ((إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ** – وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ – فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، **حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ**، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، **فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**))[5]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه قوله ﷺ: ((وَتَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ

---

[1]– مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/63-64.

[2]– ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، 1/57، 936. وتفسير البغوي، 1/148.

[3]– ينظر: كشف الظنون، حاجي خليفة، 1/14 و2/1524. ومناهل العرفان في علوم القرآن، 5/213.

[4]– سبق بيان ذلك في: ص228-229.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: 23]، 8/683.

فَيُرْمَوْنَ، فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ))[1]، وهذه الروايات مبّينة لِما ذكره المستشرق "ماكدونالد" في نهاية نصّه المذكور من مادة "السحر"، ومقيِّدة للإطلاق الموهِم الذي أشار إليه في مطلع الفقرة حين قال: «**وكان السحر في نظر محمد ﷺ وفي نظر بيئته شيئا حقيقيا**»، فالسحر من حيث وجوده وتعاطيه وتأثيره حقيقة، لكن من حيث ما يقدمه من تنبؤات أو أعمال سحرية فأكثره كذب وإيهام وتلبيس، وعلى هذا فما يأتي به السحرة والكهان جلّه باطل، يقلُّ فيه إصابة الحق، أمّا ما يأتي به الوحي فهو الحق المبين الذي لا شائبة ولا مراء فيه؛ كما قال المستشرق "فنسنك -Wensinck" في نصٍّ سابقٍ من مادة "وحي": «**فقداسة الوحي لا جدال فيها ولا لِجاج... لقد أُمِر محمد ﷺ إذن ألاّ يتّبع إلاّ ما يأمره به ربّه عن طريق الوحي**»[2].

[3]– من حيث الحاملين له: الوحي من خصائص الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله عز وجلّ لتبليغ أمانة ثقيلة ورسالة جليلة، والأنبياء والرسل هم خيرة الناس وأقومهم خلقا وأرفعهم إيمانا وأكثرهم صلاحا، أما السحر والكهانة فهي من أعمال الدجالين والمخادعين، الذين يتحالفون مع مردة الشياطين للقيام بأعمال خارقة للعادة يخدعون بها الناس، ويقدمون خدماتهم لأناس من أجل إلحاق الضرر بآخرين، وجلّ أعمالهم مبنية على الكيد والتزييف والوهم، كما قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء: 221-223]، فهم أبعد الناس عن الهداية في أنفسهم فضلا عن هداية غيرهم.

يقول الإمام الرازي: «فإنّ السّاحر هُو الَّذي يَمنع مِن طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشّيطان»[3].

[4]– من حيث الأهداف: إذا كان أقصى ما يقدمه السحر للناس هو: الإتيان بالخوارق والعجائب التي تبهر الناظرين، وأقصى ما تقدمه الكهانة هو: الإخبار بتنبّؤات لأحداث مستقبلية، فإنّ كلاهما عاجز عن الإتيان بما يأتي به الوحي زيادة على ذلك من: الهداية والإرشاد، وسنّ الأحكام والشرائع والقوانين التي تنظم حياة الناس، وتبيّن سبيل السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة.

فما هي أهداف النبوة والوحي؟ وما هي أهداف السحر والكهانة؟

إنّ أقصى ما كان يهدف إليه القصاص والكهان هو المال والجاه والسلطان والمنزلة المرموقة بين الناس، وليس لهم رسالة نبيلة لهداية الناس، بينما جاء الوحي برسالة عظيمة، شاملة ومتكاملة فيها سعادة الدنيا والآخرة، وقصة النبي ﷺ مع "عتبة بن ربيعة" خير شاهد على ذلك عندما بلّغه أن قومه

---

[1]– عند **مسلم**، **والترمذي**، سبق تخريجه في: ص229.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/10123-10124.

[3]– تفسير الرازي، 367/26.

عرضوا عليه المال والملك، فقال "عتبة": «إن كنت **إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا**، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أدري ما تقولون؛ **ما جئتكم** بما جئتكم به **لطلب أموالكم، ولا الشرف** فيكم، **ولا الملك** عليكم، **ولكن الله بعثـــني إليكم رسولاً** وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً...»[1]؛ فبيّن لَهم الرسول ﷺ أنّه إنّما جاء بدعوة ورسالة ربانية هي فوق كل إغراءاتهم، وهي واقعة تدلّ على الهدف الأسمى لرسالته، وأنه لم تكن أقصى أهدافه الملك والمال والجاه، وإذاً لاكتفى بذلك منهم، ووافق قومه، وكفى نفسه مشقّة مواجهتهم، ولكنه استمر في رسالته رغم كلّ المشاق التي واجهته، وأيّ مجنون أو كاهن أو ساحر يصبر ويتحمل كل تلك الصِّعاب والعقبات، إلاّ أن يكون نبيًّا مؤيَّداً من الله عز وجلّ ليبلغ للناس رسالة عظيمة.

[5]– من حيث الآثار: السحر منه ما هو داء ومنه ما هو دواء، أمّا القرآن الكريم الموحى به إلى النبي محمد ﷺ فلا يكون إلاّ دواء وشفاء، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 82]، قال الشنقيطي: «يشمل كونه شفاءً للقلب من أمراضه؛ كالشَّكّ والنِّفاق وغير ذلك، وكونه شفاءً للأجسام إذا رُقِيَ عليها به، كما تدلّ له قصة الذي رقى الرجل اللّديغ بالفاتحة»[2].

أمّا حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في "قصة الصحابي الذي رقى بالفاتحة سيّدَ حيٍّ من العرب لُدِغ"[3]، وهو الحديث الذي ذكره "ماكدونالد -Madonald" في مادة "الحمدلة"؛ هو من باب التطبّب بوحي الله وبكلامه عز وجلّ، وهو من الرقية[4] الشرعية المستثناة من رقى الجاهلية التي كانت في أغلبها مبنية على السحر والشعوذة والشرك، ولكن المستشرق خلط بين الأمرين إما عن عمد، أو عن عدم تنـــبّه للفارق الكبير بين الأمرين.

وأحاديث النبي ﷺ في الرقى توضح الفيصل بين الرقى السحرية والرقى الشرعية، فعن عوف بن مالك ﷺ قال: كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ((اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ))[5]، وأغلب رقى الجاهلية كانت ضربا من السحر

---

[1]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 197–198. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 295/1. وتفسير الطبري، 87/15–90.

[2]– أضواء البيان، 181/3.

[3]– الحديث أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، 572/4. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، 269/14.

[4]– **الرُّقْية**: هي العوذة التي يعالج بها صاحب الآفة كالحمى والصّرع وغير ذلك مِن الآفات، أو هي كلامٌ يُستَشفى به مِن كلّ عارض. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 254/2. وفتح الباري، ابن حجر، 572/4.

[5]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، 268/14.

والشرك، ولعل هذا ما أشار إليه المستشرق "ماكدونالد -Madonald" في قوله: «... وحيا وثنيا»، ووجه اعتبار ذلك من الشرك أنّهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله تعالى، ولا يدخل في ذلك الرقية الشرعية بأسماء الله وكلامه عزّ وجل[1]؛ قال ابن حجر: «أجْمَع العلماءُ على جواز الرُّقَى عند اجْتِماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللِّسان العربِيّ، أو بما يُعْرف معناهُ مِن غيره، وأن يُعْتَقد أنّ الرّقية لا تُؤثِّر بذاتِها بل بذات الله تعالى»[2].

فإذا كان مصدر الوحي والقرآن الكريم من الله عز وجلّ أصالة، وكان مصدر السحر من الجن والشياطين وما يلفّقونه بأمور مركبة من حق وباطل، فإنّ القرآن الكريم -وهو الوحي الصادق المنزل مِن عند مَن بيده الضر والنفع- هو الأولى بأن يحصل منه الشفاء من الأسقام المادية والروحية، قال ابن القيم: «ومن المعلوم أنّ بعض الكلام له خواصُّ ومنافع مجربة، فما الظّنّ بكلام ربّ العالمين -الذي فضْله على كل كلامٍ كفضل الله على خلقه- الذي هو الشّفاء التّامّ، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة... قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 82]، فما الظنّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها... وحقيقٌ بسورةٍ هذا بعض شأنها أن يُستَشفى بها مِن الأدواء، ويُرْقى بها اللّديغ. وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاصِ العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كلّه إليه، والاستعانة به، والتوكّلِ عليه، وسؤالِه مَجامِع النِّعم كلّها، وهي الهداية التي تَجلب النعم، وتدفع النِّقم مِن أعظم الأدوية الشافية الكافية»[3].

وهذا البيان يوضّح خطأ رَبْط "ماكدونالد -Madonald" في مادة "الحمدلة" بين استعمال القرآن الكريم للعلاج البدني والنفسي؛ فيكون دواءً وشفاء، وبين السحر الذي كثيرا ما يستعمل للإضرار وأذية الناس في أرواحهم وأبدانهم فيكون داء أكثر منه دواءً.

[6]- ذمّ السحر والكهانة في القرآن والسنّة: فالسحر من خلال نصوص القرآن والسنة هو قرين: الكفر والشرك والإضرار، أما الوحي والقرآن الكريم فهو منبع الهداية والرحمة والشفاء.

فقد ذمَّ القرآنُ الكريم والنبيُّ ﷺ السحرَ والسحرةَ والكهانةَ والكهّان، فقال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 102]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: 69].

---

[1]- ينظر: فتح الباري، 241/10-242.

[2]- المصدر نفسه، 240/10.

[3]- زاد المعاد، 162/4-163.

وقال ﷺ: ((مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ))[1].

[7]- **نفي السحر والكهانة عن النبي ﷺ من القريب والعدوّ:** نفى القرآن الكريم عن النبي ﷺ كلّ أوصاف (السحر، والكهانة، ونحوها)؛ وإنكار مثل هذه الأوصاف يشير إلى أنّها كانت تُعتبر منقصة عندهم.

- **نَفْيُ كفّار مكة ذلك عن النبي ﷺ:** نجد كفار قريش أنفسهم - وهم ألدّ أعداء النبي ﷺ آنذاك- لَمّا عرفوا السحر والكهانة وعرفوا الوحي من النبي ﷺ؛ أقرّوا بأنّ ما جاء به النبي ﷺ ليس من قبيل السحر ولا الكهانة، فعن ابن عباس ﷺ: «أن "**الوليد بن المغيرة**" اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قول بعضكم بعضا... فقالوا: نقول: كاهن، فقال: **ما هو بكاهن**؛ لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن[2] وسجعه، فقالوا: نقول مجنون، فقال: **ما هو بمجنون**؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، فقالوا: نقول: شاعر، فقال: **ما هو بشاعر**؛ قد عرفنا الشعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: **ما هو بساحر**؛ قد رأينا السحار وسحرهم، ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، إن أصله لغدق، وإن فرعه لَجنا، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته ... فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: 11-26]»[3].

---

[1]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 331/15. **والحاكم**، المستدرك، كتاب الإيمان، 49/1، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، واللفظ له.

[2]- **زمزمة الكاهن**: صوت ضعيف وخفي لا يكاد يفهم، يديرونه في خياشيمهم وأفواههم من غير صريح نطق. ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 18/3-19. وشرح الشفا، القاري، 562/1.

[3]- أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 150-151. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 200/2. وحسنه الصوياني "الصحيح من أحاديث السيرة، 55". وجاء نحوه عن ابن عباس ﷺ في: مستدرك الحاكم، 550/2. وصححه ووافقه الذهبي.

الأسلوب الخامس: التشكيك في ربّانية القرآن الكريم والزعم بأنه من تأليف محمد ﷺ:

يمكن أن تستشفّ من خلال نصوصهم في هذا السياق اعتمادهم على طريقتين:

الطريقة الأولى: الزعم أنّ القرآن نسب الوحي إلى النبي محمد ﷺ:

– جاء في مادة "**القرآن الكريم**"[فقرة: 5]: «... **وفي بعض الآيات الأخرى يبدو وكأن محمدا ﷺ هو المتحدث، كما في سورة التكوير آية 15–21 وسورة الانشقاق (آية 16–19)**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ولش** - Welch[2].

بعد أن ادّعى المستشرق "ولش- Welch" في مادة "القرآن": أنّ القرآن لم يبيّن في العهد المكي مصدر الوحي -وسبق مناقشة ذلك-، ذكر أن بعض الآيات تدلّ على أنّ النبي محمدا ﷺ هو المتحدث بالقرآن[3]، والآيات التي استشهد بها هي:

أ)– قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: 19-20].

ب)– والآيتان الأخريان اللتان ذكر أنّهما في سورة الانشقاق، فلعلّ ذلك وهم منه؛ فليس فيهما ما يشير إلى ذلك، ولكنه ربّما أراد الآيات (41-43) من سورة الحاقة في معنى الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فهل هذه الآيات تدل على أنّ الوحي من النبي محمد ﷺ ؟ **والجواب:** أنّها لا تدلّ على ذلك مطلقاً، كما ذكر المترجم في تعليقه المذكور، ولو رجع المستشرق إلى أيّ تفسير للقرآن بين يديه -وهو الذي كان يُظهِر للقارئ في آخر هذه الفقرة أنه يراجع كلام المفسرين- لأدرك ذلك، وأسوق نبذاً من كلام المفسرين في هذه الآيات؛ يدحض زعمه بأنّها تدلّ على أن القرآن من عند غير الله:

أ)– آيات سورة التكوير: قال الطبري في معناها: «إن هذا القرآن لتنزيل رسول كريم؛ يعني: جبريل، نزّله على محمد بن عبد الله»[4]، وقال البغوي: «إنّه يعني: القرآنَ، لَقَولُ رسولٍ كريمٍ: يعني جبريلَ؛ أي نزَل به جبريل عن الله تعالى»[5]، وهو المعنى الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنه والشعبي والحسن وعامة المفسرين[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8167/30.

[2]– سبق في: ص150.

[3]– أي: المتحدّث به عن الله، لا من نفسه؛ ففي لفظ المستشرق نفسه ردّ عليه.

[4]– تفسير الطبري، 163/24.

[5]– تفسير البغوي، 217/5.

[6]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 408/4. وتفسير الرازي، 69/31. وتفسير ابن كثير، 338/8.

ولعلّ الوهم واللبس وقع للمستشرق "ولش- Welch" من كلمة "رسول" فحسبها تعني رسول الله إلى الناس محمداً ﷺ، بينما هي تعني: رسول الله إلى النبي محمد ﷺ "وهو جبريل عليه السلام" الذي يرسله الله تعالى بالوحي إلى النبي محمد ﷺ وإلى غيره من الأنبياء عليهم السلام، وهذا يدلّ على سوء فهم المستشرق لإطلاقات العربية.

ب)- آيات سورة الحاقة: ذكر الطبري والبغوي وابن كثير وغيرهم أن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: 40]، أي: تلاوة رسول كريم يعني محمداً ﷺ، وإنّما أضافه إلى النبي ﷺ على معنى التبليغ[1]، وليس معنى ذلك أنّه كلام محمد ﷺ وأنّ مصدره ونظمه منه، قال ابن قتيبة: «لم يرد أنه قول الرسول، وإنما أراد أنه قول الرسول عن الله تعالى، وفي الرسول ما يدل على ذلك، فاكتفى به من أن يقول عن الله»[2]؛ أما عن **مناسبة نسبة الوحي في الآيات إلى جبريل عليه السلام وإلى محمد ﷺ**: فذكر الإمامان الرازي وابن كثير: أن مناسبة نسبته إلى جبريل عليه السلام لأنه هو الذي أنزله على النبي محمد ﷺ من السماوات إلى الأرض، أما مناسبة نسبته إلى النبي ﷺ فلكونه هو الّذي أظهره وبلّغه للخلق، ودعا النّاس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته ﷺ[3].

كما أن الله ﷻ أردف ذلك مباشرة بقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: 43]؛ فأزالت هذه الآية أي التباس قد يقع فيه من لا يفهم إطلاقات اللسان العربي ومعاني القرآن الدقيقة من أمثال "ولش- Welch" الذي أراد الاستشهاد بتلك الآيات على معنى فاسد لا تدلّ عليه بأيّ وجه.

والملاحظ: أنّ التفسيرات التي قدمها المستشرقون لظاهرة الوحي تعكس التناقض الواقع في هذه المدرسة في معالجة القضية الواحدة، مع التنبّه إلى وحدة الهدف والمقصد التي تنجرّ وراءه، فهي لا تعدو أن تكون محاولات وأساليب مختلفة للطعن في الوحي المحمدي والتشكيك في ربانيته، يقول أكرم ضياء العمري: «ولا شك أن الهروب من الاعتراف بالوحي هو الدافع إلى التفسيرات العديدة المتناقضة لظاهرة الوحي، والتي قدمها المستشرقون وأتباعهم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

إن ظاهرة الوحي ظلت تواجه المستشرقين فلا يتمكنون من إعطاء تفسير لها بل يقعون في الحيرة والتناقض، ويلجأون إلى الاتهامات القديمة التي سبق أن قالها العرب الجاهليون في مكة عند نزول الإسلام مما رده القرآن»[4].

---

[1]- ينظر: تفسير الطبري، 242/23. وتفسير البغوي، 149/5. وتفسير ابن كثير، 217/8.

[2]- زاد المسير، ابن الجوزي، 333/4.

[3]- ينظر: تفسير الرازي، 633/30. وتفسير ابن كثير، 217/8.

[4]- السيرة النبوية الصحيحة، 130/1.

الطريقة الثانية: التعامل مع القرآن على أنه كلام النبي ﷺ في مواضع كثيرة من "الدائرة":

تدعيما لدعوى المستشرقين بأنّ القرآن الكريم ليس وحيا إلهياً، وتأكيدا منهم على بشريّته، وأنّه من تأليف النبي محمد ﷺ، صاغه من وحي نفسه الملهمة، أو أخذ تعاليمه عن رجال من أهل الكتاب؛ نجد كثيراً من المستشرقين في "دائرة المعارف" **ينسبون ما جاء في القرآن إلى النبي ﷺ**؛ ومن ذلك مثلا:

– ما جاء في مادة "**اللّه**": «**إن محمداً كان يقول إن الله قريب جدا في كل لحظة، بل هو أقرب إلى الناس من حبل الوريد** (سورة ق، الآية **16**)[1]»[2]. المحرر هو المستشرق: **ماكدونالد** -Macdonald[3].

– وجاء في مادة "**جهنم**": «**أنّ النبي قال في آية أخرى:** ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ **[الملك: 6]**»[4]. المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** - Carra De Vaux[5].

– وفي **مواضع أخرى**: نجد المستشرق يذكر أنّ ما جاء في بعض الآيات هو «تفسير **من عند محمد**»[6]، أو هو «رأي النبي ﷺ **في هذه الآية**»[7]، أو أنّ محمداً ﷺ «**يقول في آية كذا**»[8]، أو أنّ يقول المستشرق محرّر المادة بعد إيراده لبعض الآيات: «**إنّ أقوال محمد هذه** ...»[9] إشارة إلى تلك الآيات.

– كما أنّ هناك مواضع أخرى تشير ضمنيًّا إلى نسبه ما جاء في القرآن الكريم إلى النبي ﷺ[10].

• **من الشواهد على أنّ القرآن ليس من عند محمد ﷺ**: إضافة إلى الشواهد السابقة الدالّة على أنّ الوحي ليس أمراً نابعا من نفس النبي محمد ﷺ ولا من فكره، أورد هنا شواهد أخرى تثبت أنّ القرآن خاصة لا يمكن أن يأتِي به النبي ﷺ من تلقاء نفسه، وإنّما هو كلام ربّ العالمين، نزل به الروح الأمين على الرسول الأميّ محمد ﷺ، ليكون نبراسا وهداية للناس أجمعين، في كلّ عصر ومصر؛ وآية ذلك أنّ هذا الكتاب العظيم «معجز للخلْق بلفظه ونظمه وأسلوبه وهدايته، وتأثيره وعلومه؛ ولم يكن في استطاعة محمّد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ولا مواهبه، من علومه ومعارفه، وفصاحته وبلاغته... بل فيه آيات صريحة ناطقة بأنه لم يكن يعلم شيئا من علومه، وبأنه كان يعجز كغيره عن الإتيان بمثله، وهو ما

---

[1]– أي: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 561/2.

[3]– سبقت ترجمته في: ص228.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 196/7.

[5]– سبقت ترجمته في: ص253.

[6]– المصدر نفسه، إص1، مادة "الله"، 559/2-560.

[7]– المصدر نفسه، إص1، [مد: الله، 561/2]، [مد: جبريل، 278/6].

[8]– المصدر نفسه، إص1، مادة "الله"، 568/2. ومادة "أمّي"، 644/2.

[9]– المصدر نفسه، إص1، مادة "أمّة"، 633/2.

[10]– ينظر المواضع الآتية في: المصدر نفسه، إص1، [مد: أصول، 273/2]، و[مد: الله، 562/2]، و[مد: الجنّة، 141/7].

أمره تعالى أن يقوله للناس في تحدّيه إياهم واستدلاله به على نبوته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15]»[1].

وفيما يلي بعض الشواهد التي تردّ على قول المستشرقين بأنّ القرآن من تأليف محمد ﷺ، وتدلّ على أنّه معجز للخلق، ويستحيل أن يكون من عند محمد ﷺ، ولا من عنده غيره من الخلق[2]:

– **الشاهد (1)**: القرآن الكريم في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها في تراكيبهم، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم، وهي عبارة عن التعبير باللفظ الْمُعجِب عن المعنى، المناسب للمقام الذي أورد فيه الكلام، بلا زيادة ولا نقصان في البيان، والدلالة عليه[3].

وإعجازه من هذا الجانب له أوجه كثيرة اعتنى العلماء ببيانها[4]، أذكر منها وجهين:

الوجه الأول: قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى؛ بمعنى أن تَجد بيانا قاصدا مقدَّرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير؛ تجده قد جلّى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا، يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها، كما قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1][5].

الوجه الثاني: تأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان وحقائق العرفان، وحسن العبارة، وسلامة التركيب، وسلامة الترتيب؛ حيث امتاز القرآن بالنّظم الغريب والوزن العجيب، والأسلوب الْمخالف لِما اعتاده فصحاء العرب، وما استنْبَطه بُلغاؤُهم من نظم الكلامِ: منثوره؛ مرسلاً وسجعًا، ومنظومه؛ قصيدًا ورجزًا، في أربعة أنواع؛ بحيث لا يُمكن عدُّ نظم القرآن وأسلوبه واحدا منها[6].

فنظام القرآن في اتساقه العجيب وائتلافه الرائع؛ يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور[7].

---

[1]– الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 167.

[2]– لمزيد من التفصيل في هذه الشواهد ينظر: الإتقان، السيوطي، 4/306-315. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 1/160-191.

[3]– ينظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي، 3/775. وأيضا: الإتقان في علوم القرآن، 4/307-308.

[4]– ينظر تفصيلها في: إظهار الحق، 3/775-785. ومناهل العرفان، الزرقاني، 2/309-324.

[5]– ينظر: مناهل العرفان، 2/324.

[6]– ينظر: الإتـــقان، 4/314. وإظهار الحق، 3/785. وتفسير المنار، 1/165.

[7]– ينظر: مناهل العرفان، 2/309.

– **الشاهد (2): تحدّي القرآن لفصحاء العرب وعجزهم عن معارضته:** نزل القرآن الكريم بآيات كثيرة يتحدّى فيها أرباب البيان وأصحاب البلاغة واللسان من العرب[1]؛ «فأعجزَ أساطينَ الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية، وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيًّا»[2].

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: 23]؛ والمعنى: أنّه إنْ عجزتُم عن الإتيان بسورة تساوي سورةً من القرآن في هدايتها، وتضارعها في أسلوبها وبلاغتها، وأنتم فرسان البلاغة، وعَصْرُكُم أرقى عصور الفصاحة، وقد اشْتهر كثيرون مِنكم بالسَّبْق في هذا الميدان، ولَم يكن محمد ﷺ مِمّن يُسابِقكم مِن قبل هذا البرهان؛ لأنّه لَمْ يُؤت هذا الاستعدادَ بِنفسه، و لم يَتمرّن عليه أو يَتكَلّفْه لِمُباراة أهله؛ فاعلموا أنّ ما جاء به بعد أربعين سنةً فأعجزَكم بعد سبقكم؛ لم يكن إلاّ بِوحي إلَهيّ، وإمدادٍ سماويّ، لَمْ يَسْمُ عقلُه إلى عِلمه، ولا بيانُه إلى أسلوبه ونَظْمه[3].

فكيف يُتصور أنّ الفصحاء والبلغاء من العرب العرباء الكثيرين، وهم أهل الأنفة والإباء، المشهورين بغاية العصبية والحمية الجاهلية، وتهالكهم على المباراة والمباهاة، والدفاع عن الأحساب؛ يتركون الأمر الأسهل الذي هو الإتيان بمقدار أقصر سورة من مثله، ويختارون الأشد الأصعب من إشهار السيوف، وبذل المهج والأرواح، ويبتلون بسبي الذراري ونهب الأموال، ومخالفهم الْمُتحدّي يقرعهم إلى مدة على رؤوس الملأ بأمثال هذه الآيات؛ فثبت بذلك أنّ بلاغة القرآن وإعجازه كانت مسلمة عندهم وكانوا عاجزين عن المعارضة[4].

بل تروي السيرة أنّ بعض فصحاء العرب من أهل الزيغ والإلحاد كمسيلمة الكذّاب، أرادوا مضاهاة السور القصار من القرآن فحسب؛ فجاءوا بكلام تافه وقبيح[5]، كما يروي التاريخ أنّ أبا العلاء المعري

---

[1]– ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 4/303-305.

[2]– مناهل العرفان، الزرقاني، 2/332.

[3]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 1/159.

[4]– ينظر: الإتـــقان، 4/304. وإظهار الحق، رحمة الله الهندي، 3/790-791. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 1/163.

[5]– ينظر: شرح الزرقاني على المواهب الدنية، 6/439-440. وتفسير المنار، 1/188-189.

والمتنبي وابن المقفع حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن؛ فما كادوا يبدؤون هذه المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم، بعدما لَمسوا بأنفسهم وُعُورَة الطريق واستحالة المحاولة[1].

«وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علو ونزول، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه يطل على الجميع من سمائه، وهو يشعّ نورا وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ولا يزل كما كان غضّا طريّا، يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلا في صراحة الحق وقوته وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88]»[2].

– **الشاهد (3)**: أنّ كلام النبي ﷺ الذي نطق به في حديثه يختلف في بيانه وبلاغته عن القرآن المعجز، فالفرق كبير وواضح بين أسلوب القرآن وأسلوب الرسول ﷺ كما يظهر في أحاديثه، ومعروف لدى نقاد الأدب استحالة أن يكتب الكاتب بأسلوبين متمايزين تَمايز أسلوبَي القرآن والحديث[3].

– **الشاهد (4)**: هداية القرآن وصنيعه في القلوب، وتأثيره العجيب في النفوس[4]؛ يقول محمد رشيد رضا: «ولَمْ يُعرف في تاريخ البشر أنّ كلامًا قارَب القرآنَ في قوّة تأثيره في العقول والقلوب، فهو الّذي قَلَب طِباع الأمّة العربيّة وحوّلَها عن عقائدها وتقاليدها، وصَرَفها عن عاداتِها وعداواتِها... وبدّلَها بأُمِّيّتها حكمةً وعلمًا، وبِجاهِلِيَّتِهَا أدبًا رائعًا وحلمًا، وألّف من قبائلها المتفرّقة واحدةً سادت العالم بِعقائدها وفضائلها وعدلِها وحضارتِها، وعلومها وفنونِها»[5].

– **الشاهد (5)**: اشتمال القرآن على الإخبار بالغيب من ماض؛ كقصص الرّسل مع أقوامهم، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: 1- 4]؛ وفيها خبرٌ عن الغيب ظهَر صدقه بعد بضع سنين من نزول الآية، حيث ظهرت الروم على فارس بعد سبع سنين من نزولها[6].

---

[1]– مناهل العرفان، 335/2؛ قال الزرقاني: وأغلب الظنّ أنهم كانوا يعتقدون من أعماق قلوبهم بلاغة القرآن وإعجازه من أول الأمر وإنما أرادوا أن يضموا دليلا جديدا إلى ما لديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البيانية.

[2]– المصدر نفسه، 333/2.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 51/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 609/2. والسيرة وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، 62.

[4]– ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 312/4. والوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، 168.

[5]– تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 168/1-169.

[6]– ينظر: تفسير القرطبي، 2/14. وتفسير المنار، 169/1-170.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67]؛ وقد وقع كما أخبر مع كثرة من حاول قتله فعصمه الله تعالى، حتى انتقل من الدار الدنيا إلى منازل الحسنى في العقبى[1]؛ فهذه الأخبار وغيرها في الإعلام بالغيب دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآن مِنْ عند الله تعالى، إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه[2].

– **الشاهد (6)**: جَمْعه لِمعارف سامية ولتعاليم عالية لم تعهدها العرب عامة ولا محمد ﷺ خاصة، فقد اشتمل القرآن على العلوم الإلَهيّة، وأصول العقائد الدينيّة، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريعات السّياسية، والاجتماعيّة، والماليّة، الموافقة لكلّ زمانٍ ومكانٍ؛ وبذلك يَفْضل كلَّ ما سبقه مِنَ الكتب السّماويّة، والشّرائع الوضعيّة، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقيّة والغربيّة، مَن آمن منهم، ومن لم يؤمن؛ وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية؛ توضح لك ذلك الإعجاز الباهر، خصوصا إذا لاحظت أنّ الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أميّا نشأ وعاش ومات بين أمّة أميّة[3].

يقول محمد رشيد رضا: «هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز؛ فإنّ هذه العلوم... هي أعلى العلوم، وقلّما يَنْبُغ فيها من الّذين ينقطعون لدراستها السّنين الطِّوال إلاّ الأفرادُ القليلون، فكيف يستطيع رجل أمِّيّ لَم يقرأ و لم يكتب ولا نشأ في بلد علمٍ وتشريعٍ أن يَأتِي بما في القرآن منها تَحقيقا وكمالا، ويؤيِّده بالحجج والبراهين بعد، أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئا منها، و لم ينطق بقاعدةٍ ولا أصل من أصولِها، ولا حكم بفرع من فروعها؛ إلاّ أن يكون ذلك وحيًا من الله تعالى؟!»[4].

– **الشاهد (7)**: أنّ الْقرآن يَشتمِل على بيان كثيرٍ من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنّبات والحيوان والإنسان، ويَصِف خَلْق السّماوات والأرض والسّحاب والماء، وقد حفظ ذلك كلّه فيه بِكلِمِه وحروفِه منذ أربعة عشر قرنًا ونيِّف، ثُمّ عجَزت هذه القرون الّتي ارْتَقت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناءَ آيةٍ مِن آياته، أو تُبْطل حكمًا من أحكامه، أو تكذِّب خبرًا من أخباره، وهي الّتي جَعَلت فلسفة اليونان دكًّا، ونسختْ شرائع الأمم نسخًا، وترَكت سائر علوم الأوائل قاعًا صفصفًا[5].

---

[1]– ينظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي، 806/3. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 170/1.

[2]– ينظر: تفسير المنار، 170/1.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 171/1. وأيضا: مناهل العرفان، الزرقاني، 82/1.

[4]– تفسير المنار، 172/1.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، 172/1-173. والتوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، 149-154.

هذا إضافة إلى اشتماله على تَحْقيق كثيرٍ مِنَ المسائل العلميّة والتّاريخيّة الّتي لَمْ تكُنْ معروفةً في عصر نزوله، ثُمّ عُرِفت بعد ذلك بِما انْكَشف للباحثين والْمحقّقين مِن طبيعة الكون وسُنَن الله في الْخلق، ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: 22]؛ ذكر محمد رشيد رضا: أنّ المفسرين كانوا يقولون فيها: أنّه تشبيهٌ لِتأْثير الرّياح الباردة في السّحاب بِما يكون سببًا لِنزول الْمطر كتلقيح ذكور الحيوان لإناثه، ولَمّا اهتدى علماء أوربّة إلى هذا وزعَموا أنّه مِمّا لَم يُسْبقوا إليه مِنَ العلم، صرّح بعضُ الْمُطّلعين على القرآن من المستشرقين المدرّسين للعربية في الجامعات الغربية بِسبْق العرب إلى معرفة ذلك بقرون عديدة؛ نَعَم إنّ أهل النّخيل من العرب كانوا يعرفون التّلقيح إذ كانوا يَنْقلون بأيديهم اللّقاح من طلع ذكور النّخل إلى إناثها، ولكِنّهم لَمْ يكونوا يعلمون أنّ الرّياح تفعلُ ذلك[1].

ومن ذلك أيضا: أطوار خلق الجنين في القرآن، ووصف أنواع السحاب[2]، والأمثلة في ذلك كثيرة.

يقول محمد رشيد رضا: «فهذا النّوع من المعارفِ الّتي جاءت في سياقِ بيان آيات الله وحِكَمه، كانت مجهولةً لِلعرب أو لِجميع البشر في الغالب، حتّى إنّ المسلمين أنفسهم كانوا يَتَأوّلونَها ويُخرجونَها عن ظواهرها، لِتُوافق المعروف عندهم في كلِّ عصرٍ من ظواهر وتقاليد أو نظريّات...؛ فإظهار تَرَقّي الْعلم لِحقيقتِها الْمُبيَّنة فيه مِمّا يدلّ على أنّها مُوحًى بِها من الله تعالى»[3].

– **الشاهد (8)**: أن الرسول ﷺ كان يُعرف بين قومه بالصادق الأمين، وصفه بذلك أعداؤه، كما في قصة "أبي سفيان" [قبل إسلامه] مع هرقل، فقال "هرقل" لأبي سفيان: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال "أبو سفيان": «لا»، ثم قال "هرقل" مبينا مراده من السؤال: «وسألتك هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[4].

كما بيّن الله عزّ وجلّ أنّ حياة الرسول ﷺ وسيرته الطاهرة قبل البعثة دليل على صدق نبوّته، فقال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: 16]؛ وذلك أنّه ﷺ وُلد فيهم، وترعرع بينهم، ونشأ أمام أعينهم، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدّهر قبل بعثته، فعرفوا

---

[1]– ينظر: تفسير المنار، 1/175-176.

[2]– للتفصيل في بيان هذه الأمثلة الإعجازية للقرآن التي اكتشفها العلم الحديث وغيرها ينظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، 171-201 و236-245. والإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد الله المصلح، مع عبد المجيد الزنداني، والنجار وآخرون، 51-69 و152-164. وينظر موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على رابط: http://quran-m.com/.

[3]– ينظر: تفسير المنار، 1/177.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 1/44. والحديث عند البخاري ومسلم؛ سبق تخريجه في: ص234.

أخلاقه كل المعرفة، وجرّبوا عاداته وأعماله؛ ولم يؤثروا عليه كذباً، ولا جرّبوا عليه ذلك من قبل، فكيف يترك الكذب على الناس ويكذب على الله[1]؟!

- **الشاهد (9)**: في حادثة الإفك توضيح دقيق على عدم بشريّة القرآن الكريم، فلو كان القرآن من عند رسول الله ﷺ لَبادر لتلاوة آيات منه تبريء عائشة رضي الله عنها، لِتخرس الألسن قبل أن يشيع ذكر كلام الإفك، لأنّ هذه الواقعة حدثت مع أحبّ الناس إليه، ومع حرص النبي ﷺ على عائشة وحبّه لَها ولأبيها، فإنه لم يتمكن من استحضار الوحي الذي انقطع عنه شهراً، ليجري عليه الابتلاء والامتحان، فلو كان الوحي إلهاماً أو انبثاقاً من فكره، فإن الحوافز الكثيرة التي أثّرت في كيانه وأقلقت فكره وحفّزت عاطفته، كانت كفيلة بانطلاق الوحي لإنهاء الصراع والقلق، والألم في نفسه عليه الصلاة والسلام، ولكن الرسول كما حكى القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]؛ ولا سلطان له على الوحي ولا يقدر على استحضاره ولا الإضافة إليه[2].

[1]- ينظر: مناهل العرفان، الزرقاني، 327/1 و148/2. والرسالة المحمدية، سليمان الندوي، 22.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 416/2.

المبحث الثاني : مرحلة الدعوة السريّة في مكة

المطلب الأول : بداية الدعوة السرية

الفرع الأول: الأمر بالدعوة بعد البعثة

أشار كلّ من المستشرق "بول-Buhl" في نصّه السابق من مادة "محمد ﷺ/ فقرة:13"[1]، والمستشرق "فنسنك -Wensinck" في نصّه السابق من مادة "وحي/ فقرة:3" [2]: إلى بداية النبي ﷺ في الدعوة السريّة بنزول سورة المدثر بعد فترة الوحي، لكن دون بيان منهما لِذلك.

لذا سأبيّن سياق بدء الدعوة النبوية السريّة بإيجاز[3] قبل الكلام على بعض الأمور المتعلّقة بهذه المرحلة:

أ)- حصلت النبوة لِمحمد ﷺ: بنزول قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] في غار حراء، وكانت هذه الحالة حال **نبوة وإيحاء وبعثة**.

ب)- وحصلت له ﷺ **الرسالة**: بنزول "**سورة المدثر**" **بعد فترة** الوحي، فأُمر أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله عز وجل.

وبذلك **بدأت الدعوة السرية**، «فكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة [في سورة المدثر] إيذانا للرسول ﷺ بأنّ الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه، وأنّه أمام عمل جديد يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقو على عنائه، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته»[4]؛ ثُمّ حمي الوحي بعد هذا وتتابع، وقام حينئذ رسول الله ﷺ في الرّسالة أتَمّ القيام، وشَمّر ﷺ عن ساق العزم؛ وقام يدعو إلى الله القريبَ والبعيدَ، والكبير والصغيرَ، والحرّ والعبد، والرجال والنساء، والأسود والأحمر، فاستجاب له عباد الله من كلّ قبيلة[5].

ومع أنّ المجتمع المكي - شأن سائر الجزيرة العربية - كان يعتمد في تنظيمه على القبيلة، لكنّ انتشار الإسلام لم يرتبط بالعصبية القبلية، ولا العشائرية، فلم يكن نصيبه من أفراد بني هاشم أعظم من بقية عشائر قريش؛ بل كان انتشاره في المرحلة المكية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، ولعل هذا

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9116/30. تقدّم نصه في: ص292.

[2]- المصدر نفسه، إص3، 10125/32. تقدّم نصه في: ص292.

[3]- ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 538/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 42/4. والفصول في سيرة الرسول، ابن كثير، 12. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 443/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 360/1.

[4]- فقه السيرة، الغزالي، 90.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، 42/4. والفصول في سيرة الرسول، 12-13.

الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية[1] الجاهلية ورواسبها السلبية.

ج)– ثم انقضت مرحلة **الدعوة السرية**، **وبدأت** مرحلة **الدعوة الجهرية** بنزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: 214]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: 94][2].

الفرع الثاني: السابقون الأولون في الإسلام

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**[أبو] بكر**": «وكان من أوائل من أجابوا دعوته، ولكن ما يؤكده البعض من أنه كان أول من أسلم من الرجال أمر مشكوك فيه»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - F. Buhl[4].

– وفي مادة "**ابن مسعود**": «وتروى قصة عجيبة عن دخوله في الإسلام: لقي النبي محمدٌ وأبو بكر عند فرارهما من وجه المشركين (لم تذكر مناسبة هذا الفرار) عبدَ الله بن مسعود يرعى غنما، فسألاه قليلا من اللبن، ولكنه كان مؤمّنا على الغنم فامتنع، وعند ذلك اعتقل[5] النبي شاة ومسح ضرعها فانتفخ وفاض منه اللبن بغزارة، ثم أعاد النبي الضرع بعد ذلك إلى حالته الأولى.

ويعتبر عبد الله بحق من أوائل السابقين إلى الإسلام، وكان يجب أن يقال له "سادس ستة" (أعني سادس من أسلم). وتذكر روايات أخرى أنه اعتنق الإسلام قبل أن يدخل الرسول بيت الأرقم، بل وقبل أن يعتنق عمر الإسلام»[6]. محررها هو المستشرق: **فنسنك** - wensinck[7].

– وفي مادة "**[أبو] عبيدة**": «وهو أحد المسلمين العشرة الذين وعدهم النبي بالجنة، كان في طليعة من اعتنقوا الإسلام»[8]. محرر المادة هو المستشرق: **أويسترب** -J.Oestrup[9].

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/132-133.

[2]– ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 1/550-552. وزاد المعاد، ابن القيم، 1/84. والبداية والنهاية، ابن كثير، 4/96-104. والسيرة النبوية الصحيحة، 1/141.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/311.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– **اعتقل الشاة:** إذا وضعَ رجلَها بين فخذِه وساقِه فحلبَهَا. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 4/72. والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 3/281.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/276.

[7]– سبقت ترجمته في: ص49.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/376.

[9]– **أويسترب** "J.Oestrup" (1867- 1938م): مستشرق دنماركي، درس اللغة العربية والتركية، وزار بعض الدول العربية، ودرّس بجامعة كوبنهاجن، من مؤلفاته: "صحراء سوريا"، و"حكايات من دمشق" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/846.

– وجاء في مادة "**الأرقم**"[فقرة: 1]: «**وقد اعتنق الإسلام وهو حدث، وكان من أوائل الذين آمنوا**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf[2].

– وفي مادة "**الزبير بن العوام**": «**وكان الزبير من السابقين إلى الإسلام، وتذهب الرواية إلى أنّه خامس من آمن بمحمد ﷺ من الصبيان، وهو أيضا أحد العشرة الذين وعدهم النبي بالجنة**»[3].

المحرر هو المستشرق: **فنسنك** – wensinck.

– وفي مادة "**زيد بن حارثة**"[فقرة: 2]: «**وكان زيد يصغر محمدا بعشر سنوات، وهو من السابقين في الإسلام، إن لم يكن أولهم جميعا**»[4]. محررة المادة هي المستشرقة: **فكا** – v.vacca[5].

– وجاء في مادة "**سعيد بن زيد**"[فقرة: 1]: «**وقد أسلم قبل أن يدخل النبي محمد بيت زيد بن الأرقم**»[6]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** – wensinck.

– وفي مادة "**طلحة**": «**صحابي من المبشّرة أي من أولئك الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة... وكان أيضا من السابقين الأولين إلى الإسلام**»[7]. المحرر هو: **ليفي دلافيدا**-Levi della vida[8].

– وفي مادة "**العشرة المبشرون بالجنة**": «**لم يرد مصطلح "العشرة المبشرون بالجنة" في أحاديث الرسول ﷺ لكن المصطلح – على أيّة حال – مستوحى من جملة أحاديث الرسول ﷺ، إذ وردت الراويات عن (عشرة يدخلون الجنة...) تليها قائمة بالأسماء. وقد اختلفت الروايات في هذه القائمة وإن كانت هناك أسماء متفق عليها بلا جدال وهي أسماء: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، وفي بعض الروايات يأتي ذكر النبي ﷺ قبل أسماء هؤلاء التسعة (سنن أبي داود، باب 8. أحمد بن حنبل) وفي روايات أخرى يتمّم أبو عبيدة بن الجراح الأسماء العشرة، ولا يوجد اسم الرسول ﷺ (الترمذي، مناقب – باب 25. أحمد بن حنبل: ج1 ص193)**»[9].

المحرر هو المستشرق: **فنسنك** – wensinck.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 630/1-631.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 340/10.

[4]– المصدر نفسه، إص1، 10/11.

[5]– سبقت ترجمتها في: ص299.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 435/11.

[7]– المصدر نفسه، إص1، 245/15.

[8]– سبقت ترجمته في: ص95.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7333/23.

– وفي مادة "**عليّ بن أبي طالب**" [فقرة: 1]: «**ابن عمّ الرسول ﷺ وزوج ابنته... وهو من أوائل من آمنوا برسالة محمد ﷺ، والجدل يدور بين الشيعة والسنة فيما إذا ما كان هو ثاني من آمنوا بعد خديجة، أو الثالث بعد خديجة وأبي بكر، وكان في ذلك الوقت في نحو العاشرة أو الحادية عشرة على أقصى تقدير، وقد أخذه محمد ﷺ في بيته ليخفّف العبء عن أبيه أبي طالب الذي كان يعاني الفقر**»[1].

محررة المادة هي المستشرقة: **فيشيا فاجليري** - V.Vaglieri[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 17]: «**وقد كانت خديجة – باتفاق كافة الروايات– أول من آمن به، كما تذكر المصادر أن من أوائل أشياعه أبا بكر، والعبد المعتق زيد بن حارثة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وابن عم محمد ﷺ عليّ بن أبي طالب**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** -F. Buhl.

ثانيا- التحليل والمناقشة: أَطلَق علماء السيرة على مَن أسلم في مرحلة **الدعوة السريّة** لقب "**السابقين الأولين** في الإسلام"، وقد ورد في نصوص المستشرقين المذكورة أسماء بعض أهم السابقين الأولين في الإسلام، وأسماؤهم هي:

1– **خديجة** رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ: يدل حديث بدء الوحي السابق ذكره[4] على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول من عرف خبر النبوة ونزول الوحي، وأنها صدّقت الرسول وآزرته وثبتته وخففت عنه؛ فلا غرابة أن تكون أول من آمن كما قال الزهري وابن إسحاق[5]، قال ابن الأثير: «خديجة أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة»[6].

لكن لم يذكر ذلك محرر مادة "خديجة"[7]، بينما ذكر أنّها أول من أسلم محرر مادة "محمد ﷺ"، وأشارت إلى ذلك محررة مادة "عليّ".

2، 3، 4– **أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب وزيد بن حارثة** رضي الله عنهم: اختلفت الروايات في أوّل مَن أسلم بعد خديجة رضي الله عنها أهو أبو بكر أم عليّ، وهو خلاف بين الصحابة والتابعين وعلماء أهل

---

[1]– المصدر السابق، إص3، 7415/23.

[2]– **فيشيا فاجليري** "Veccia Vaglieri" (1893–1989م): مستشرقة إيطالية، باحثة في التاريخ الإسلامي وفقه اللغة، من مؤلفاتها: "قواعد العربية"، و"نبذ عن أدباء العرب المعاصرين" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 404/1.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9115/30.

[4]– وهو حديث عائشة رضي الله عنها سبق تخريجه في: ص281.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 240/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 143/2 و160. والسيرة الصحيحة، العمري، 133/1.

[6]– أسد الغابة، 80/7. وتاريخ الإسلام، 539/1.

[7]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 234/8–236.

السنة[1] لا بين السنة والشيعة فحسب[2] كما ذكرت "فاجليري -Vaglieri"، لأنّ القول بأنّ عليّ ﷺ أول من أسلم لم يقل به الشيعة فقط كما قد توهم عبارة المستشرقة، بل قال به جماعة من علماء السنة أيضا كما سيأتي، وبيان أقوالهم فيما يلي:

القول الأول: أنّ عليّا ﷺ هو أول من أسلم، قال به: ابن إسحاق ومجاهد وقتادة وابن حبان وغيرهم[3]، والمرجّح أنه كان له عشر سنين حين أسلم كما قرّر ابن إسحاق والذهبي وابن حجر[4].

القول الثاني: بأنّ أبا بكر ﷺ هو أول من أسلم - بعد خديجة ﵂ -، وهو قول: ابن عباس ﷺ وإبراهيم النخعي والشعبي ومحمد بن المنكدر وغيرهم[5].

أمّا قول المستشرق "بول -Buhl" في مادة "[أبو] بكر" بأنّ «**ما يؤكده البعض من أنه كان أول من أسلم من الرجال أمر مشكوك فيه**»، فهو إطلاق غير دقيق ولا محرّر علميّا، إذ كان الأولى أن يعبّر عن الخلاف بعبارة أدقّ من كلمة "مشكوك"، فلو قال: "أمر مختلف فيه" مثلا لكان كلامه أقرب للدقّة.

القول الثالث: وهو أقل شهرة من سابقَيه: يذهب إلى أنّ زيد بن حارثة ﷺ - مولى الرسول ﷺ- هو أوّل من أسلم، قال بذلك: عروة بن الزبير والزهري[6]، وإلى هذا القول أشار محرّر مادة "زيد" دون بيان لكونه أحد الأقوال في القضية.

الترجيح: الأولى اعتماد مسلك الجمع بين هذه الأقوال - مع إمكانه - كما هو صنيع جملة من المتقدمين والمتأخرين من أمثال الواقدي وابن راهويه وابن الصلاح والنووي وابن كثير وغيرهم[7]؛ فيكون: - أول مَن أسلم **من الرجال** الأحرار وأظهر إسلامه: أبو بكـــر ﷺ.

- **ومن النساء:** خديجة ﵂.

---

[1]- قال أبو شهبة في "الوسيط في علوم الحديث، 531": «والذي يظهر لي في كثرة هذه الآراء والأقوال المتغايرة أن كلا أخبر بما علم، وقد يكون عند أحدهم من العلم ما ليس عند الآخر، وقد يقول أحدهم قولا ثم يظهر له خلافه، فيرجع عنه إلى غيره، ولا ينقل عنه الرجوع، وأن اللغة العربية باب التجوز فيها واسع، فقد يقول قائل: فلان أول الناس إسلاما مثلا ويريد أنه من أولهم، أو أنه بالنسبة لمن تأخر عنه، فكن على ذكر من هذا إذا عرض لك ما يشبه هذا».

[2]- وإنّما انتقد علماء الرواية ما جاء من مغالاة ومبالغات في بعض الروايات الشيعية الضعيفة والواهية في تحديد يوم إسلامه، وأنّه صلّى قبل المسلمين الآخرين بسبع سنين. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 4/66-67. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/134.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/245 و247. ودلائل النبوة، البيهقي، 2/161-165. وسيرة ابن حبان، 1/67. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 1/247.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/245. وتاريخ الإسلام، 1/539. وفتح الباري، 7/92.

[5]- ينظر: مستدرك الحاكم، 3/67. والبداية والنهاية، 4/66 و71. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 1/445-447.

[6]- ينظر: مستدرك الحاكم، 3/237. والبداية والنهاية، 4/73. والسيرة النبوية الصحيحة، 1/135.

[7]- ينظر: البداية والنهاية، 4/67. وفتح المغيث، السخاوي، 3/112-113. وتدريب الراوي، السيوطي، 501. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 1/455. والسيرة النبوية الصحيحة، 1/135. والسيرة لأبي شهبة، 1/285.

- ومن **الصبيان** : عـــليّ ﷺ.

- ومن **الموالي**: زيد بن حارثة ﷺ.

- ومن **العبيد**: بلال بن رباح ﷺ.

ويظهر من الروايات أنّ إسلام كلّ من: خديجة، وعليّ، وأبي بكر، وزيد ﷺ كان متقاربا جدّا؛ لذا اشتد الخلاف فيهم أيّهم الأسبق، لكن ينبغي ملاحظة أنّ إسلام أبي بكر ﷺ خاصة كان أنفع لدعوة الإسلام حينذاك أكثر من البقيّة - كما نبّه ابن كثير[1]- وذلك لِخصائص جليلة تَميّز بها، أهمها[2]:

– مكانته الاجتماعية الرفيعة في مكة، قال ابن إسحاق: «وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه، مُحبّبا سهلا، وكان أنسبَ قريشٍ لقريش، وأعلم قريش بها... وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يَأْتونه ويأْلَفونه لغير واحدٍ من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته»[3]، وقال ابن كثير: «وإسلامُه [أي: أبي بكر] كان أنْفعَ مِن إسلام مَن تَقدّم ذكرُهم؛ إذ كان صَدْرًا مُعظّمًا، ورئيسًا في قريشٍ مكرّمًا، وصاحِب مالٍ، وداعِيةً إلى الإسلام»[4].

– سِنّه مقارنة بعلي وزيد رضي الله عنهما.

– كونه كان أول من أسلم وأظهر إسلامه من الرجال.

– كان يواسي بماله المستضعفين من المسلمين كما في قصته مع بلال ﷺ عندما اشتراه وأعتقه وخلّصه من تعذيب المشركين.

– كما أسلم بدعوته مجموعة من خيرة الصحابة السابقين في الإسلام ومنهم: عثمان بن عفان والزّبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ[5].

5، 6، 7– **الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح** ﷺ: هؤلاء الثلاثة المذكورون في: مادة "الزبير"، ومادة "طلحة"، ومادة "[أبو] عبيدة" أسلموا بدعوة أبي بكر -كما تقدّم آنفا-، وكانوا من العشرة الأوائل السابقين في الإسلام.

8، 9، 10– **الأرقم وسعيد وابن مسعود:** – أما **الأرقم بن أبي الأرقم**: فيعدّ في العشرة أو الإثني عشر الأوائل في الإسلام، وذكر ابن إسحاق أنّ إسلامه كان قبل إسلام "سعيد بن زيد"[6].

---

[1]- ينظر: البداية والنهاية، 67/4.

[2]- يراجع في ذلك: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 250/1-251. والبداية والنهاية، 67/4-73. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 34/1.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 250/1.

[4]- البداية والنهاية، 67/4.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 250/1-251. والبداية والنهاية، 75/4.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 253/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 35/1. والإصابة، ابن حجر، 197/1.

– **وسعيد بن زيد بن عمرو:** وهو أيضا من السابقين في الإسلام، أسلم قبل إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، وقبل دخول الرسول ﷺ بيت الأرقم[1]، كما ذكر محرر مادة "سعيد بن زيد".

– وأمّا **عبد الله بن مسعود:** فذكر "فنسنك -wensinck" في مادة "ابن مسعود" الراوية في قصة إسلامه، وهي راوية ثابتة في كتب السنة والسيرة[2] ذكرها محرر المادة مختصرة، وطرح إشكالا حول مناسبة الفرار المذكور في الرواية، وبيان ذلك فيما يلي:

أ)– صحيح أنّ رواية إسلامه أبهمت مناسبة فرار النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ من المشركين في هذه الحادثة، لكن يمكن تحديد زمنها ومناسبتها بالتقريب من خلال بعض القرائن التاريخية الأخرى؛ وهي:

– جاء في مصادر السيرة والتاريخ أنّ ابن مسعود أسلم قديما قبل دخول الرسول ﷺ بيت الأرقم[3]؛ وهذا يدلّ على أنّه أسلم بمكة في السنين الثلاث الأولى للبعثة في مرحلة الدعوة السرية.

– دلت الروايات على أنّ النبي ﷺ والمؤمنين الأوائل في هذه المرحلة كانوا يفرون إلى شعاب مكة؛ يستخفون بصلاتهم عن أعين المشركين[4]، فيكون قول ابن مسعود في الرواية: "فرّا من المشركين" محمولا على تلك المناسبة – والله أعلم –[5].

ب)– أمّا الرواية التي أشار إليها المستشرق "فنسنك": فجاءت عن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: «لقد رَأيتُنِي سادِس ستّةٍ ما على الأرض مسلمٌ غيرنا»[6]، فهذا محمول على أنه قال ذلك في حدود علمه؛ إذ

---

[1]– ينظر: طبقات ابن سعد، 292/3. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 495/2. والإصابة، 87/3؛ وترجمته هناك.

[2]– من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ نفسه أخرجه: **أحمد**، المسند، 82/6. **وابن حبان**، في صحيحه، 432/14. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 171/2-172. وحسنه الذهبي في "تاريخ الإسلام، 696/1"، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، 112/3. وأسد الغابة، 381/3. والسيرة الحلبية، 403/1.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 263/1.

[5]– **تنبـــيه:** نبّه ابن كثير إلى أن هذا الفرار لم يكن عندما خرج النبي ﷺ وأبو بكر مهاجرين إلى المدينة –وإن كان أبو نعيم ذكر الرواية في هذا السياق– فقال ابن كثير في "البداية والنهاية، 483/4": «فقوله في هذا السِّياق: "وقد فرَّا مِن المشركين" ليس المرادُ منه وقت الهجرة، إنّما ذلك في بعض الأحوال قبل الهجرة؛ فإنّ ابنَ مسعود مِمّن أسلَم قديمًا وهاجَر إلى الْحَبَشَةِ... وقصّتُه هذه صحيحةٌ ثَابِتَةٌ في الصِّحاح وغيرها والله أعلم».

ولعل "أبا نعيم" التبست عليه هذه القصة بقصة أخرى وقعت في طريق هجرة النبي ﷺ إلى المدينة –وهي في "صحيح البخاري (الفتح)، 11/7"– مع راعٍ آخر حلَب أبو بكر من شاته وكان مع النبي ﷺ في الهجرة، وهو ما نبّه عليه ابن حجر في "فتح الباري، 14/7".

[6]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، 354/3. **وابن حبان**، في صحيحه، 537/15. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان.

كان أكثر من آمن آنذاك يُسِرّ إسلامه كما نبّه ابن حجر وأكرم ضياء العمري[1]، وجَعَل ابنُ إسحاق: ابنَ مسعود ﷺ هو الواحد والعشرون (21) في ترتيبه للأربعين السابقين الأوائل في الإسلام[2].

- **حديث العشرة المبشرين بالجنة:** الحديث الذي ذكره "فنسنك -wensinck" في مادة "العشرة المبشرون بالجنة" جاء من حديث سعيد بن زيد ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: ((عَشْرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ))، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ الْعَاشِرَ، قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَسَكَتَ. قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ: ((هُوَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ))[3]؛ وهؤلاء العشرة المبشرون بالجنّة كلّهم من: السابقين الأولين في الإسلام[4].

ومن حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ، قال: قال الرسول ﷺ: ((أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ))[5].

لكنّ هاته الروايات لا تعني أنّ هؤلاء العشرة هم الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة فقط، بل هناك أحاديث أخرى تدلّ على تبشيره ﷺ لصحابة آخرين في مناسبات أخرى[6]، وإنّما يُذكر العشرة مجمعين في هذه الفضيلة، لورودهم في حديث واحد.

قال المناوي: «إنما بُشِّر العشرة بكونهم فيها، واقتصر عليهم مع أن عامة أصحابه فيها و لم يبشرهم، لأن عظمة الله قد ملأت صدور أولئك وصفت أرواحهم... فلا تضرهم البشرى لموت شهواتهم وحياة قلوبهم بالله، وأما غيرهم فلم تؤمن نفوسهم، فكَتَم عنهم خوفا عليهم »[7].

---

[1]- ينظر: فتح الباري، 31/7 و215. والسيرة النبوية الصحيحة، 139/1-140.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 252/1-254.

[3]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب السنة، باب في الخلفاء، 12-262. وأحمد، المسند، 174/3 و177. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب مناقب الصحابة، ذكر سعيد بن زيد، 463/15. واللفظ لأبي داود، والحديث صححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على "المسند"، و"صحيح ابن حبان".

[4]- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 93/3. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 115.

[5]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ﷺ، 171/10. **وأحمد**، المسند، 209/3. واللفظ للترمذي؛ وصححه الأرنؤوط في تحقيقه على "المسند".

[6]- ينظر: شرح النووي على مسلم، 62/16-63.

[7]- فيض القدير شرح الجامع الصغير، 317/4.

الفرع الثالث: دار الأرقم وأهميتها في بدايات الدعوة

– جاء في مادة "**الأرقم**"[فقرة: 2]: «... **ومع أن بني مخزوم كانوا من أشد الناس عداوة للرسول إلا أن ذلك لم يمنع الأرقم من أن يكون من أخلص أنصاره، حتى إنه قدّم بيته للنبي أيام محنته ليجتمع فيه المسلمون، وفيه وجد النبي مكاناً آمناً صالحاً لنشر دعوته، وفي هذا الوقت أخذت الجماعة الإسلامية في النمو وانضم إليها أشخاص كثيرون منهم حمزة وعمر، وما إن أسلم عمر حتى ترك النبي بيت الأرقم، ولم تذكر لنا الروايات على وجه التحقيق تاريخ التجاء النبي إلى هذا البيت ولا مدة مكثه فيه، ولكننا نستطيع القول بأن ذلك كان بين عام (615م) وعام (617م)، ولم يذكر ابن هشام شيئا عن بيت الأرقم ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون قد ألم بقصة هذا البيت، وكذلك عرف الطبري هذه القصة وأرّخ بِها ولكنه مع ذلك لم يذكرها قطّ في حديثه عن سيرة النبي... وقد أصبحت للمدة التي قضاها النبي في بيت الأرقم أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي لمعرفة ترتيب السابقين إلى الإسلام لِما لهؤلاء السابقين من مكانة وفضل بين المسلمين**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** -Reckendorf[2].

أولا- سبب دخوله ﷺ دارَ الأرقم: في المدة التي كان يدعو الناس فيها خفية بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: 1-2]؛ كان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين، وذات مرّة بينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب الرسول ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا منهم بلحى بعير فشجّه، فهو أول دم أهريق في الإسلام، ثم دخل ﷺ وأصحابه مستخفين في دار الأرقم: أي بعد هذه الواقعة[3].

ثانيا- مكانة دار الأرقم في الدعوة: كانت دار الأرقم منتدى يجتمع فيه المسلمون، ويعبدون الله سرا، ويتعهّدهم النبي ﷺ بالتربية، ويلقنهم تعاليم الإسلام وأصوله، كما ذكر "ركندورف-Reckendorf" في مطلع نصّه المتقدّم من مادة "الأرقم"، وكان من يريد أن يدخل في الإسلام يأتي إلى "دار الأرقم" مستخفيا خشية أن يناله أذى قريش، فأسلم فيها جماعة كثيرة، وكانت هذه الدار عند الصفا[4].

ولِما كان لهذه الدار من أثر في بداية دعوة الإسلام؛ دُعيت دارُ الأرقم "دارَ الإسلام"[5].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 631/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 263/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 402/1-403.

[4]– ينظر: مستدرك الحاكم، 574/3. والإصابة، ابن حجر، 197/1. والسيرة، لأبي شهبة، 289/1.

[5]– ينظر: مستدرك الحاكم، 576/3. وطبقات ابن سعد، 184/3.

ومن دلالات الأهمية التاريخية لهذه الدار بالنسبة للسيرة النبوية أنْ عَمَد جملة من علماء الحديث والسيرة والتاريخ من أمثال الزهري والواقدي والطبري –وغيرهم ممن جاء بعدهم– إلى التأريخ بِدار الأرقم في حوادث السيرة الأولى خاصة عند الكلام على السابقين الأوائل في الإسلام[1].

أمّا تحديد تاريخ دخول النبي ﷺ بيت الأرقم ومدة مكثه فيه، فليس هناك تحديد دقيق في كتب السيرة والتاريخ لذلك - كما ذكر المستشرق "ركندورف-Reckendorf"-، لكن هناك بعض القرائن التي تشير إلى أنّ ذلك كان بين السنة الثالثة إلى السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة كما ذكر الحلبي مستندا إلى بعض الشواهد التي جاءت في سيرة ابن إسحاق وغيرها[2]، وهو ما يوافق من التاريخ الميلادي ما بين (613-615م) أو (614-616م)[3]، وقد تقدّر أيضا بما بين (615 إلى 617م) عند اعتبار طول مدة فترة الوحي، وهو ما ذهب إليه "ركندورف -Reckendorf"، وبذلك يعلم أنّ تحديد المستشرق ليس فيصلا في الموضوع بل هو مجرد احتمال وارد كما قد يرِد غيره.

الفرع الرابع : كون أتباع الرسول ﷺ في بداية دعوته من الضعفاء

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 18]: «**غير أن أكثر من اتبعه في مكة كانوا أحداثا، أو مِمن لا يتمتعون بمركز اجتماعي مرموق، في حين رفض اتّباعه الأغنياء وذوو النفوذ،** ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ **سورة مريم آية (73)**. ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ **سورة المزمل آية (11)**. ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ **سورة هود آية (27)**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - F. Buhl[5].

الكلام الذي ذكره المستشرق "بول -Buhl" في هذه الفقرة من أنّ أتباع النبي ﷺ في بداية دعوته كانوا من الأحداث والضعفاء، كلام صحيح من حيث العموم، لكن ليس على إطلاقه، بل عليه جملة ملاحظات، أهمها:

---

[1]– ينظر: طبقات ابن سعد، 37/3 و112 و203. وتاريخ الطبري، 419/4 و494/11 و513.

[2]– ينظر: السيرة الحلبية، 403/1. والمنهج الحركي للسيرة النبوية، 48/1.

[3]– هذا التقدير مع اعتبار قصر مدة فترة الوحي إلى أربعين يوما كما سبق (ص293)، مع دخولها في مدة الدعوة السرية المقدرة بثلاث سنوات كما في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 262/1".

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9118/30.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

أ)- ينبغي تقييد ذلك ببداية دعوته ﷺ في مكة -كما ذكر المستشرق "بول" نفسه- إذ أنّ أتباعه بعد ذلك ازدادوا شيئا فشيئا خاصة بعد الهجرة، ثم بعد فتح مكة، ليجتاح الإسلام بعد ذلك جزيرة العرب قاطبة.

ب)- لو قلنا أنّ غالبية أتباع النبي ﷺ في البداية كانوا ضعفاء لَما كان في ذلك منقصة، إذ أنّ هؤلاء الضعفاء وقفوا مع الرسول ﷺ وساندوا دعوته، حتى بلغت أوجّ قوتها ودخل فيها ذووا الجاه والمال والسلطان، وفي ذلك منقبة عظيمة لهم.

ج)- ضعفاء الناس هم أتباع الرسل والأنبياء، والنبي محمد ﷺ ليس بدعا في ذلك، فأتباع نبي الله نوح عليه السلام كانوا من ضعفاء قومه وفي ذلك يقول تعالى - حكاية عن قوم نوح-: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]؛ قال البغوي: «وذلك سُنّةُ الله تعالى أنّه جعل في كلّ قريةٍ أتباعَ الرّسلِ ضعفاءهم»[1]، وشهد بذلك رجل نصرانيّ عالم بكتب اليهود والنصارى، هو "هرقل" عظيم الروم، كما في قصة سؤاله "أبا سفيان" عن النبي محمد ﷺ وفيها قول هرقل: «وسَألتُك: أشراف الناس اتّبعوهُ أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضعفاءهم اِتّبعوه، **وهم أتباع الرّسل**»[2]؛ فلمّا كان في ذلك علامة على صدق نبوة محمد ﷺ وتوافق أحواله مع أحوال من سبقه من الأنبياء، وأنّه ما كان بدعا من الرسل، جعل هرقل ذلك من الشواهد على صدق نبوّته ﷺ.

قال ابن كثير: «فإنّه ليس بعار على الحق رذالة من اتّبعه... بلِ الْحقّ الّذي لا شَكّ فيه أنّ أتْباعَ الْحقّ همُ الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء»[3].

ج)- كما أنّ هناك من الباحثين مَن لا يُسلِّم بأنّ غالبيّة أتباع النبي ﷺ في بداية الدعوة كانوا من الفقراء والضعفاء، حيث يرى الأستاذ الصلابي: أنّ السابقين الأولين في الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، لأن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من العدد الكلي للداخلين في الإسلام آنذاك؛ لا يقال عنه **أكثرهم** ولا **معظمهم**[4].

ويقول الأستاذ صالح الشامي: «نحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية، لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة... لقد كان الإسلام ينساب إلى النفوس الطيبة، والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة التي هيأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل خديجة وأبو بكر وعلي

---

[1]- تفسير البغوي، 157/2.

[2]- عند: البخاري ومسلم، سبق تخريجه: ص234.

[3]- تفسير ابن كثير، 316/4.

[4]- ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 88.

وعثمان والزبير، وعبد الرحمن، وطلحة، وأبو عبيدة والأرقم وغيرهم ﷺ، وهم من سادة القوم وأشرافهم»[1].

وعلى كلٍّ فحتى لو اعتبرنا الضعفاء غالبية أتباع النبي ﷺ في بداية الدعوة فهذا ليس منقصة **أولا**، **وثانيا** فإنّ ذلك لا ينفي أنّه كان من السابقين الأولين رجال ونساء من علية القوم وأشرافهم، ومن أهل العقل والمال والحكمة في قريش؛ وخاصة منهم أبو بكر ﷺ -وسبق بيان مكانته الاجتماعية الرفيعة في مكة آنذاك[2]- وخديجة وأبو عبيدة وعثمان والأرقم ﷺ، ثم حمزة وعمر وغيرهم ﷺ ممن أسلم في الدعوة السرية أو بداية الدعوة الجهرية، وكلّهم كانوا سندا قويا لدعوة الرسول ﷺ.

المطلب الثاني : دعوى أخذ النبي ﷺ عن الحنفاء

الفرع الأول: الرد على دعوى أخذ النبي ﷺ عن الحنفاء إجمالا

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أمية بن أبي الصلت**" [فقرة: 1]: «**ومحمد و"أمية" وغيرهما من الرجال المتدينين كزيد بن عمرو وورقة ومسلمة اقتبسوا جميعا من مصادر واحدة، سواء أكانت مدونة كما يرى "Schulthess" أم مروية كما يذهب إليه "Noldeke"**»[3]. المحرر هو المستشرق: **هـ.براو** -H.H. Brau[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 19]: «... **إنه لم يكن هو وحده الذي يبحث عن دين يقول بالتوحيد، فقد حُكي عن عدة أشخاص ذُكرت أسماؤهم كانوا غير راضين عن الوثنية القديمة للعرب ويبحثون عن عقيدة أكثر عقلانية، وقد كان منهم ابن عم لِخديجة هو ورقة بن نوفل، وكان هناك الحنفاء الذين لم تحفظ الراويات عنهم غير صورة باهتة...**

ومن الصعب أن نحدد مدى تأثر محمد ﷺ بالأفكار والحركات المختلفة القائلة بالتوحيد والتي شهدتها شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن السابع الميلادي»[5]. المحرر هو المستشرق: **بول** - F. Buhl[6].

---

[1]- المصدر السابق، 88-89.

[2]- ينظر: ص338. من هذا البحث.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 662/2.

[4]- لم أقف على ترجمته.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9115/30.

[6]- سبقت ترجمته في: ص150.

ثانيا- التحليل والمناقشة: **الحنفاء** هم: أفراد من العرب ظهروا قبل البعثة النبوية، لم يقنعهم ما عليه قومهم من عبادة الأصنام، وغير ذلك من مظاهر هذا التحلّل الروحي والفساد الاجتماعي[1]، وبدلا من أن يرى المستشرقون في ذلك دليلا على أنّ الجو كان يستدعي ظهور نبي يصلح الأحوال المتردية، نراهم كعهدهم فيما يتعلّق بالإسلام ونبيّه ﷺ يتهمونه بالأخذ عن هؤلاء الحنفاء.

[1]- فنجد المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" يرى: أنّه من **الصعب إيجاد** علاقات بين الحنفاء والنبي ﷺ؛ ذلك أنّ المستشرقين جهدوا كلّ الجهد في محاولة إثبات أن النبي ﷺ اقتبس دينه عنهم، لكنّ الروايات والحقائق التاريخية تردّ ذلك، وإذ لم تسعفهم الروايات في إثبات هذه النظرية المسطّرة ابتداءً من أجل إثبات بشرية الوحي المحمدي، تَجدهم يتشبثون ببعض الافتراضات الواهية القائمة على استنتاجاتٍ خاطئة لا تثبتها الروايات لفظا ولا معنى، بل تدلّ في أحيان كثيرة على بطلانها.

[2]- ثم إنّ الحنفاء وإن كانوا على بيّنة من أمرهم فيما يتعلّق بنبذ الأصنام وإنكار بعض مظاهر الانحراف العقدي والسلوكي في المجتمع العربي، إلاّ أنّهم لم يكونوا على بيّنة من أمرهم في اتباع شريعة أو دين معيّن، حيث تذكر الروايات أنّهم خرجوا في أنحاء البلاد يبحثون عن دين صحيح ينبذ الشرك وعبادة الأوثان، فمنهم من تنصّر "**كورقة بن نوفل**"، ومنهم من لم يقتنع بأيّ دين، لا النصرانية ولا اليهودية ولا غيرهما "**كزيد بن عمرو**" وكان ينتظر النبيّ الموعود المذكور عند اليهود والنصارى لكنه لم يدرك البعثة[2]؛ وهذا إنّما يدلّ على أنّ الحنفاء أنفسهم كانوا في حاجة إلى هذا الدين الجديد الذي جاء مصدقا لما بين يديه، ومصحّحا لِما حرّفه الأحبار والرهبان، وخاتما للرسالات السماوية.

كما يدلّ ذلك على أنّهم كانوا أضعف وأبعد من أن يعلّموا النبي ﷺ أو يرشدوه إلى أيّ دين أو شريعة جديدة؛ وهم أنفسهم حائرون في معرفة الدين القويم، إلاّ أن يأتِيَ الوحي بالبينة لصراط الله المستقيم.

يقول محمد رشيد رضا: «إن هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لِمسألة الوحي **قليلة المواد ضيقة النطاق** عن أن تكون مصدرا لوحي القرآن؛ وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل "بحيرا"، و"نسطور"، وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها... وأن القرآن نزل مصدقا لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم، ونزل أيضا مهيمنا عليها؛ أي: رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (48)

[1]- ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 115-119. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/80-84. والقول المبين، النجار، 59.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/222-223.

من سورة المائدة... ومثل هذه الأحكام العليا عليهم، لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان»[1]؛ لذا لا يستقيم أبدا زعم "براو - Brau" بوحدة مصادر النبي ﷺ والحنفاء.

كما يبيّن محمد رشيد رضا سُمُوّ المعارف القرآنية على ما عند أهل الكتاب من كتب مُحرَّفة، فضلا عن الشيء اليسير الذي قد أخذه عنهم بعضُ الحنفاء، فيقول: «أنّ في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد، وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحدا من اليهود والنصارى قال به، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى، ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته، وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري، وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه وغير ذلك؛ **بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلهية** ما صحّ منها وما لم يصح»[2].

[3]– ثم إن أحوال الحنفاء من دعوة الإسلام بعد البعثة المحمدية اختلفت:

– فمنهم مَن كان مِن الحنفاء في الجاهلية فلما جاء الإسلام أعرض عنه وبقي في جاهليّته مثل: "**أميّة بن أبي الصلت**" الذي كان يحدّث الناس عن نبي عربي يخرج في ذلك الوقت، وكان يرجو أن يكون هو، فلما أُرسل النبي محمد ﷺ كفر به تكبرا وجحودا[3].

– ومنهم مَن آمن بالنبي ﷺ وصدّق بما جاءه من ربّه كورقة بن نوفل[4].

– ومنهم مَن تنصّر "**كعثمان بن الحوريث**"، و"**عبيد الله بن جحش**"[5].

وهذه الأحوال المختلفة للحنفاء بعد الدعوة الإسلامية تدلّ على أنّهم لم يكونوا أساتذة النبي ﷺ إطلاقاً، وأنّ ما جاء به لم يكن من عندهم، ولا من عند غيرهم من البشر؛ لأنّ المنطق يفرض أنّ دعوته لو كانت نابعة من تأثيرهم، لَلزم أن يكون موقفهم غير ذلك، فإمّا أن يؤمنوا به جميعا ويؤازروه ويجعلهم مقدّمين في دعوته ومستشاريه المقربين، وإمّا أن يكشفوا أمره أمام الناس وينازعوه النبوة، ويقولوا نحن أولى بها منك لكونك إنّما أخذت عنّا، لكن كلّ ذلك لم يحصل فدلّ على ربانية نبوته.

---

[1]– الوحي المحمدي، 156.

[2]– المصدر نفسه، 157.

[3]– ينظر: البداية والنهاية، 3/274-283.

[4]– سواء قلنا بإسلامه استنادا لذلك وغيره، أو قلنا بأن هذا الإيمان منه لا يعتبر إسلاما لأنّه كان بعد الوحي وقبل الرسالة والأمر بالدعوة، ففي كلا الحالتين هو على الأقلّ مصدّق بما أُنزل على الرسول ﷺ. وسيأتي بيان الكلام على إسلامه في: ص348.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/223-224.

الفرع الثاني : الرّد على دعاوى أخذه عنهم على سبيل التفصيل

أولا– ورقــة بن نوفل:

– جاء في مادة "**خـديجة**" [فقرة: 2]: «**ولا مشاحة في أن ابن عمها [أي: خديجة ﵂] ورقة بن نوفل (انظر هذه المادة) كانت له يد في استمالتها إلى الأغراض التي يهدف إليها النبي**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** -F. Buhl[2].

– وفي مادة "**ورقة بن نوفل**" [فقرة: 2]: «**ورقة بن نوفل بن أسد القرشي، ابن عم خديجة بنت خويلد، شجع محمداً ﷺ في بداية أمره، فقد كان يعتبر من جماعة الحنفاء في مكة التي كانت ترفض الوثنية فاتجهوا لدين إبراهيم الخليل واعتبروه الدين الحق، وقد أصبح ورقة مسيحيا، وكان رجلا معتدلا لا يعرف اللغة العبرية ودرس التوراة والإنجيل...**

لكن الروايات لا تذكر أن ورقة قد أسلم، ويفسّر هذا – على نحو ضعيف – بأنّه مات في السنة الثالثة من نزول الوحي قبل أن يؤمر محمد ﷺ بالدعوة، وقد أُصيب ورقة بالعمى في آخر أيامه، ويقال إن النّبي ﷺ رآه في منامه بعد موته في ثياب بيض مما يعني أنّه في الجنة»[3]. المحررة هي: **فكـــا** – v.vacca[4].

[1]– الرد على دعوى توجيه "ورقة" للنبي ﷺ في دعوته: كلام المستشرق "بول -Buhl" في مادة "خديجة/ فقرة:2" عن قصّة بدء نزول الوحي وذهاب النبي ﷺ مع خديجة إلى "ورقة بن نوفل" يوهم بأنّ: "ورقة" هو من دفع النبي ﷺ إلى الشروع في دعوته وأملى عليه أغراضها، وبذلك يكون منشأ دعوة الرسول ﷺ -وفق زعمه- ومنبعها من "ورقة"، وهو ما لا يستقيم مطلقا لأنّ: ما ورد في الرواية نفسها يردّ ذلك؛ حيث جاء فيها قول "ورقة بن نوفل": «**وإن يُدْرِكني** يومُك أنصرك نصرا مؤزراً»؛ لكن بعد ذلك فَتَر الوحي وانقطع مدّة، ثُمّ بدأ النبي ﷺ بالدعوة السرية بعد وفاة "ورقة"، وهذه الوقائع التي بيّنَتها الرواية لَها دلالات تنفي قول المستشرق، منها:

أ)– أنّ هذه العبارة تدلّ على أنّ "ورقة" لم يكن يعلم متى سيأتي الوحي بأمر النبي ﷺ بالدعوة؛ وهل سيدركه – لكبر سنّه– أم لا؟ كما تدلّ العبارة على تَمنّيه بلوغَ بدء النبي ﷺ بالدعوة؛ فلو كان هو المدبِّر لقيام محمد ﷺ بدعوته لكان يدري متى يبدأ، ولكان الأولى به أن يَحضّ محمداً ﷺ على بدء الدعوة مباشرة ما دام أنه وجد من ينصره ويؤازره، ولكن التاريخ يثبت أن ذلك لم يكن؛ لأنّ واقع الروايات تدلّ على أنّه لا "ورقة" ولا محمد ﷺ كان لهما يد في أمر النبي ﷺ بالدعوة والنذارة التي

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 236/8.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10133/32.

[4]– سبقت ترجمتها في: ص299.

جاءت بعد موت "ورقة" و لم يدركها، والمنطق يقتضي - على فرضيّة "بول -Buhl"- أنّه كان حريّا بالرسول ﷺ أن ينهض بالدعوة مباشرة بعدما أعلن "ورقة" دعمه له ومساندته إياه ما دام حيّا، لا أن ينتظر كلّ مدة فترة الوحي، وفي ذلك وجه من وجوه ردّ افتراض المستشرق "بول".

ب)- ثم إنّه لَمّا يستند إلى رواية بدء الوحي في تقرير أنّ ورقة بن نوفل هو من أوعـــز إلى النّبي محمد ﷺ بأنه هو الرسول الموعود وأرشده إلى بدء الدعوة، فهو يكيل بمكيالين، لأنّ الرواية نفسها تقرّر أنّ ورقة بن نوفل أكّد أنّ الوحي الذي نزل على محمد ﷺ نزل قبله على موسى ﷺ، فلماذا ينفون هذا ويثبتون ذاك؛ وهما في رواية واحدة؟ وهل هذه الازدواجية المتناقضة في الاستدلال بالنصوص التاريخية موافقة للمنهج العلمي المتجرد؟ على العكس من ذلك تكشف هذه الطريقة في قراءة النصوص التاريخية وعرضها خللا علميا ومنهجيا كبيرا، يقوم على الإعراض عن دلالاتها الواضحة والصريحة، والاعتماد على "**منهجيّة الانتقاء الكيفي**"، لتقرير افتراضات خاطئة لا تحتملها ألفاظ الرواية ولا سياقاتها التاريخية التامة؛ كلّ ذلك من أجل إثبات نظريّات مرسومة مسبّقا، تغذّيها العصبيات والخلفيات العقدية والفكرية للمدرسة الاستشراقية، التي يبحثون لها عن مبرّرات واهية.

ج)- إنْ كان النبي محمد ﷺ تعلّم من "ورقة بن نوفل" أو غيره من الحنفاء، أفلم يكونوا هم أولى بادّعاء النبوة ما داموا هم الأساتذة وهو التلميذ - حسب افتراضهم -؟

[2]- إسلام ورقة بن نوفل: وهو الموضوع الذي أثارته المستشرقة "فكا -Vacca" في مادة "ورقة"، وقد اختلف أئمة السيرة والتاريخ في إسلامه على قولين:

القول الأول: ذهب ابن عساكر والذهبي والحلبي وغيرهم إلى أنّ تصديقه للنبي ﷺ ليس إسلاما: لكونه مات بعد النبوة وقبل الرسالة[1].

القول الثاني: بينما ذهب ابن القيم وابن كثير والمقريزي وابن حجر وغيرهم: إلى القول بإسلامه، استنادا لِما دلّ عليه حديث عائشة ﵂ في بدء الوحي في الصحيحين[2] من أنّه صدّق وآمن بالوحي[3]، ولِما جاء عن عائشة ﵂: أنّ خديجةَ سألَتْ رسول الله ﷺ عنْ ورقَةَ بن نوفل، فقال: ((قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَاب بَيَاضٍ، فَأَحْسِبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ بَيَاضٌ))[4].

---

[1]- ينظر: تجريد أسماء الصحابة، الذهبي، 128/2. والإصابة، ابن حجر، 475/6. والسيرة الحلبية، الحلبي، 393/1.

[2]- سبق تخريجه: ص281. من هذا البحث.

[3]- ينظر: تهذيب الأسماء واللغات، النووي، 143/3. وزاد المعاد، ابن القيم، 19/3. والفصول في سيرة الرسول، ابن كثير، 13. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 34/1. وفتح الباري، ابن حجر، 20/8؛ وبقية الروايات في الاستدلال لإسلام "ورقة" تراجع هناك.

[4]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 430/40. والحديث فيه ضعف؛ لضعف ابن لهيعة كما ذكر الأرنؤوط في تحقيقه للمسند؛ وأخرج نحوه من طريقين آخرين فيهما ضعف أيضا: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب الرؤيا، باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ، 467/6.

و لم يَستبعد ابن حجر احتمالَ تأخّر موت "ورقة" إلى السنة الثالثة من البعثة[1]، لكنّ الذهبي استبعَد ذلك و لم يثبته[2].

وعلى كلٍّ فقد مات على التصديق بالنبي والإيمان به[3]؛ فحتّى مع اعتبار تصديقه بِما أُنزل على النبي محمد ﷺ قبل الرسالة ليس إسلاما، فإنّه على الأقلّ يشير إلى موقف واضح "لورقة بن نوفل" تجاه ما جاء به محمد ﷺ من الحقّ المبين.

ثانيا- زيد بن عمرو بن نفيل :

- جاء في مادة "**زيد بن عمرو**" بن نفيل: «**مكي من الحنفاء توفي قبل بعثة محمد عندما كان الرسول في نحو الخامسة والثلاثين من عمره. وقد نبذ زيد الوثنية وأمسك عن الدخول في المسيحية أو اليهودية...**

ويُعد زيد في الحديث مؤمنا صادقا وإن كان قد توفي قبل الإسلام، وأجاز النبي ﷺ الصلاة عليه، وقال إنّه من أهل الجنة»[4]. محررة المادة هي المستشرقة: **فكا** – v.vacca[5].

- وفي مادة "**سعيد بن زيد**"[فقرة: 2]: «**وكان أبوه زيد بن عمرو من الحنفيّة ومن المعتقدين بالتوحيد، طرح عبادة الأوثان وحذّر معاصريه من الوثنية، واعتقد في ملة إبراهيم... ويقال إنه توفي في العام الذي بنيت فيه الكعبة، ويقال إنّ محمداً ﷺ شارك في إقامتها**[6]»[7]. المحرر هو: **فنسنك** -Wensinck[8].

لَم يرد في "دائرة المعارف الإسلامية" الزعم بأنّ النبي ﷺ أَخَذ عن "زيد بن عمرو بن نفيل" كما هو ظاهر من النصّين المذكورين، لكن سأتطرّق إلى بيان نقطة جاءت مبهمة في مادة "زيد بن عمرو".

- **معنى إذن النبي ﷺ في الصلاة على "زيد بن عمرو بن نفيل"**: تكلّم عن ذلك محرّر مادة "سعيد بن زيد" ومحرّرة مادة "زيد بن عمرو"، وكان "زيد" من أبرز الحنفاء في الجاهلية، ومات قبل بعثة النبي ﷺ بسنوات[9].

أمّا قول المستشرقة "فكا-Vacca" في مادة "زيد": «**وأجاز النبي ﷺ الصلاة عليه**»؛ فهو مَحمول على الصلاة بالمعنى اللغوي[10]، أي: الدعاء والاستغفار له، وهو ما تدلّ عليه رواية ابنه سعيد بن زيد

---

[1]- ينظر: الإصابة، 476/6. وشرح الزرقاني على الواهب اللدنية، 402/1.

[2]- ينظر: تاريخ الإسلام، 113/2. وسير أعلام النبلاء، 129/1.

[3]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 84/1.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 13/11-14.

[5]- سبقت ترجمتها في: ص299.

[6]- سبق الكلام على مشاركة النبي ﷺ في تجديد بناء الكعبة في: ص272.

[7]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 435/11.

[8]- سبقت ترجمته في: ص49.

[9]- ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 116-119. ودلائل النبوة، البيهقي، 121/2-127.

[10]- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 300/3. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 522/1.

بن عمرو ﷺ قال: «قُلتُ يا رسولَ الله إنَّ أبي كان كما قد رأَيْتَ وبلَغَك، ولَوْ أدْرَكَك لآمَنَ بك واتَّبعك، فاسْتَغْفِر له؟ قال: ((نَعَمْ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ))[1].

ثالثا- شعر أمية بن أبي الصلت:

– جاء في مادة "**أمية بن أبي الصلت**"[فقرة: 2]: «**شاعر عربي من قبيلة ثقيف... والآراء الدينية في كلام أمية مطابقة لِما جاء في القرآن إلى حد كبير، ويكاد الاتفاق يقع كلمة كلمة في كثير من الأقوال (انظر أبحاث: Kamenetkzy)، ولهذا أثيرت بالطبع مسألة اعتماد أحد القولين على الآخر، فيذهب هيوار إلى أن أشعار أمية بن أبي الصلت التي تتضمن قصصا من قصص التوراة... هي من المصادر الصحيحة التي استمد منها القرآن رأسا، على أن صحة هذه القصائد إلى أمية أمر مشكوك فيه، شأن أشعاره في ذلك شأن الشعر العربي القديم بوجه عام... أما القول بأن محمداً قد اقتبس شيئا من قصائد أمية فهو زعم بعيد الاحتمال، لأن أمية كان على معرفة أوسع بالأساطير التي نحن بصددها كما كانت أساطيره تختلف في تفصيلاتها عما ورد في القرآن، وفي هذا حجة أيضا على أن أمية لم يقتبس شيئا من القرآن وإن كان هذا غير مستحيل من الوجهة التاريخية**»[2]. المحرر هو المستشرق: **هـ. براو** -Brau[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 20]: «... **وكذا أمية بن أبي الصلت الذي تتفق قصائده في كثير من النقاط مع القرآن؛ وهي قصائد كان يمكن أن تكون ذات أهمية عظيمة لو أنّ – جزء منها على الأقل – ثبتت صحة نسبته إليه**»[4]. المحرر هو المستشرق: **بول** -F. Buhl[5].

• **الرد على ربط شعر "أمية بن أبي الصلت" بالقرآن الكريم:** ذهب المستشرق "براو-Brau" في مادة "أميّة" إلى محاولة التشكيك في ربّانية الوحي القرآني، اعتمادا على "**منهجيّة المقابلة والمطابقة**" في تفسير وقائع السيرة؛ بناء على مشابهةِ بعض ما ورد في القرآن لشيءٍ مِمّا جاء في شعرٍ منسوبٍ إلى "أمية بن أبي الصلت"، فهل يستقيم ذلك؟ وهل ثبت هذا الشعر أصلا حتّى يُجعل مقياسا وأصلا في هذا الافتراض الخاطئ؟ جواب ذلك في النقاط الآتية:

---

[1]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 187/3. **وابن إسحاق**، السير والمغازي، 119. وإسناده ضعيف من أجل عبد الرحمن المسعودي: فقد اختلط؛ كما ذكر شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند والهيثمي في "مجمع الزوائد، 417/9". وذكر الذهبي في "تاريخ الإسلام، 519/1" وابن كثير في "البداية والنهاية، 326/3" والهيثمي في "المجمع، 417/9": روايات أخرى صحيحة في معناه تراجع هناك.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 660/2-661.

[3]– سبق في: ص344.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9115/30.

[5]– سبق في: ص150.

[1]– تَحمَّس لِهذا الرأي كلّ من المستشرقين "هوار" و"باور" و"فردرش شولثيس"، لكن بعض المستشرقين الآخرين شكّكوا فيه، وردّوا هذا الافتراض؛ لأنّ جلّ شعر "أمية" منحول عليه لا يمكن إثبات صحّته، وهو ما بيّنه المستشرق بروكلمان وغيره[1]، وكذا محرر مادة "محمد ﷺ" ومادة "أمية" هنا في "الدائرة".

[2]– أن محرر مادة "محمد ﷺ" المستشرق "بول -Buhl" أقرّ بأنّ هذا الشعر المنقول عن أمية والذي يزعمون أن النبي ﷺ اقتبس منه: هو شعر **منحول وغير صحيح**، كما في نصّه المذكور.

وهو الأمر الذي قرّره مستشرقون آخرون من أمثال "بروكلمان" و"أندريه" وغيرهما، يقول بروكلمان: «أكثر ما رُوي من شعره [أي: شعر أمية] **منحول عليه**، ما عدا مرثيته لقتلى بدر»[2].

[3]– وهو ما بيّنه أيضا كثير من العلماء والمؤرخين المسلمين كطه حسين وجواد علي ومحمد عرفه وغيرهم؛ يقول **طه حسين**: «هذا الشعر الذي يضاف إلى أمية بن أبي الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبي ﷺ أو جاءوا قبله إنّما **انتُحل انتحالا**»[3].

ويقول **جواد علي**: «ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن أن يشك في وضعه وصنعه، ومقدار نص العلماء نصا على أنه لغيره»، ثم وهّن مقدمات هذه الدعوى فقال: «وقد كان عليهم أن يثبتوا أولا إثباتا قاطعا صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر، لا أن يفترضوا مقدَّما أنه شعر أصيل صحيح»[4].

[4]– كما أنّ كلام "أمية" شعر، والقرآن الكريم ليس بشعر؛ وهو أرفع من أن يكون شعرا أو نثرا ككلام الناس، فهو زيادة على كونه معجزا بما جاء فيه من المعاني والعظات، هو معجز في نظمه وتراكيبه، التي أعجزت الشعراء والبلغاء، فهل أخذ النبي ﷺ النظم أيضا من "أمية" وشعر أمية كباقي شعر العرب، يقول طه حسين: «فما كان شعر أمية بن أبي الصلت **إلاّ شعرا كغيره من الشعر**؛ لا يستطيع أن ينهض للقرآن، كما لم يستطع غيره من الشعر أن ينهض للقرآن»[5].

[5]– أنّه لو كان النبي ﷺ أخذ من شعر "أمية" لكان "أمية" هو أوّل من يفضحه في ذلك، لأنّه لم يُسلم وكان يرجو أن يكون النبيَّ الموعود في العرب، وكلّ هذه العوامل تدعوه لأن يكون أحرص على ذكر أيّ مثلب يعلمه عن النبي الجديد، وأن ينشد الشعر في بيان أنّ النبي محمداً ﷺ –حسب زعمهم– يقتبس من شعره، وهذا ما لم يحصل، و لم ينقله التاريخ.

---

[1]– ينظر: تاريخ الأدب العربي، 113/1. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 492/6-494.

[2]– تاريخ الأدب العربي، 113/1.

[3]– في الأدب الجاهلي، 148.

[4]– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 494/6. وينظر أيضا: 495/6-496.

[5]– في الأدب الجاهلي، 147.

يقول المؤرخ جواد علي: «إن "أمية" نفسه لو كان يعلم ذلك أو يظن أن محمدًا إنما أخذ منه، لَما سكت عنه وهو خصم له، منافس عنيد، أراد أن تكون النبوة له، وإذا بها عند شخص آخر يترل الوحي عليه، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته، أما هو فلا يتبعه أحد... هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد أي ظن وإن كان بعيدا يفيد أن الرسول قد أخذ فكرة منه، أو من الْمَورِد الذي أخذ أمية نفسه منه؟ لو كان شَعَر بذلك، لنادى به حتما، ولأعلن للناس أنه هو ومحمد أخذا من منبع واحد، وأن محمدا أخذ منه، فليس له من الدعوة شيء، ولكانت قريش وثقيف أول القائلين بهذا القول والمنادين به»[1].

[6]– أمّا قول "براو-Brau" في مادة "أمية": بأنّ موارد النبي ﷺ وأمية وغيره واحدة، فقد سبق الكلام عن قصور هذه الموارد عن الإحاطة بما جاء في القرآن من التصحيحات والإضافات على الكتب السماوية السابقة[2]، والمستشرق "براو" نفسه هو من قرّر أنّ هناك فروقا بين تفاصيل ما في شعر "أميّة" وما في القرآن واحتجّ بذلك على بطلان فرضية أخذ النبي ﷺ من شعر "أمية" حيث يقول في مادة "أمية": «**أما القول بأنّ محمداً ﷺ قد اقتبس شيئا من قصائد أمية فهو زعم بعيد الاحتمال، لسبب بسيط هو أنّ أمية كان على معرفة أوسع بالأساطير التي نحن بصددها، كما كانت أساطيره تختلف في تفصيلاتها عما ورد في القرآن، وفي هذا حجة أيضا على أن أمية لم يقتبس شيئا من القرآن**»[3].

ويبيّن **جواد علي** مدى الاختلاف بين ما جاء به القرآن وما كان عند "أمية" أو غيره فيقول: «لقد كان أمية شاعرا –ما في ذلك شك– لإجماع الرواة على القول به، وقد كان ثائرا على قومه، ناقما عليهم، لتعبدهم للأوثان، وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية، ولكني لا أظن أنه كان واقفا على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته، وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك؛ إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص، لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى، ولا عند الأحناف»[4].

كما أنّه «لو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به، وكيف يعقل سكوته عن هذا، وهو أمر مهم جدًّا بالنسبة إليه، وسيف يحارب به الإسلام؟ ولما سكت مسيلمة

---

[1]– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 492/6.

[2]– ينظر: ص345-346.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 661/2. وأيضا: إص3، 1203/4.

[4]– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 495/6.

ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة إليه في أثناء حروب الردة، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة»[1].

ويقول الأستاذ **محمد عرفه** في تعليقه على مادة "أمية": «الدليل هو أن النبي أتى بالقرآن وفيه من أخبار الأولين ما لم يكونوا يعلمون، وفيه من المواعظ والنذر ما لا عهد لهم به، وقد تحداهم وجعله دليلا على أنه من عند الله، وقد **اجتهد المخالفون المعاصرون للتنزيل أن يجدوا للقرآن مصدرا** فلم يفلحوا... **فلو كانت مشابهة بين شعر أمية والقرآن لَجعله المشركون مصدرا من مصادره** أو على الأقل لقالوا إن الأخبار التي تذكرها وتقول: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، قد ذكرها أمية بن أبي الصلت في شعره، ولكنهم لم يجعلوها مصدرا من مصادره و لم يقولوا له شيئا مما ذكرناه؛ فهذا يدلنا على أنه لم تكن مشابهة بين شعر أمية والقرآن المجيد»[2].

[7]– تشير الروايات الصحيحة إلى أنّ النبي ﷺ لم يكن له اطلاع أصلا على شعر "أمية" إلاّ في وقت متأخر، لذا كان يسأل أحيانا أناسا من قبيلته أن ينشدوه شيئا من شعره، حيث جاء عن الشّريد بن سويد ﷺ، قال: «رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يومًا، فقال: ((هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟)) قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: (هِيهْ) فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: (هِيهْ) ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: (هِيهْ) حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ»[3]؛ فلو كان له إلمام بشعره ما سأل عنه غيره؟

وإسلام "الشريد" متأخر، حيث كان قبل بيعة الرضوان بيسير[4]، وهذه الحادثة أيضا وقعت في وقت متأخّر في حجة الوداع[5]، فمن أين استقى النبي ﷺ القرآن قبل أن يطّلع على شعر أمية؟ ومن أين استقى بعد وفاة "أمية" سنة تسع للهجرة؟ بل هو كلام ربّ العالمين، فيه من العلم والحكمة ما يقصر عنه عقل وعلم "أمية" وأمثاله معه.

[8]– لو كان ذلك صحيحاً ما أسلم أهل بيته، فقد ذكر أهل الأخبار والسير إسلام أولاده حين أسلمت ثقيف كلها، فأسلم أبناؤه: ربيعة والقاسم ووهب، وهم مذكرون في الصحابة[6]، وفي إسلام هؤلاء ما يكفي لرد هذه الدعوى، فلو رأوا القرآن أو بعضه منحولاً من شعر أبيهم لفضحوا ذلك، ولَما كانوا في عداد المؤمنين.

---

[1]– المصدر السابق، 493/6.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 661/2.

[3]– أخرجه: **مسلم**، كتاب الشعر، [دون باب]، 17/15. و**أحمد**، المسند، 224/32.

[4]– ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، 629/2. والإصابة، ابن حجر، 276/3.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 293/3.

[6]– ينظر: أسد الغابة، 424/5. والإصابة، 384/2 و308/5 و487/6.

المبحث الثالث : مرحلة الدعوة الجهرية بمكة ومعارضة المشركين لها

بعد الكلام على مرحلة الدعوة السرّية إلى الإسلام في مكة، فإنّ هذا المبحث يتعرض إلى ذكر بداية مرحلة الدعوة الجهرية، وما واجهها من اضطهاد ومعارضة شديدين من كفّار قريش.

المطلب الأول : بداية الدعوة الجهرية وأذية "أبي لهب" للنبي ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في "[**أبو**] **لهب**": «فقد أظهرت هذه المرأة [أي: زوجة أبي لهب] كل صنوف العداء نحو النّبيّ، وأثارت عليه حقد زوجها، لأنّنا نجد في سورة المسد – إلى جانب العقاب الذي سيناله أبو لهب – إشارة إلى ما ستلاقيه في النار من عذاب وهوان... ويتضح من سياق هذه السورة أن معنى الآية الرابعة هو أن هذه المرأة ستجمع في جهنم الحطب الذي سيوقد تلك النار (البيضاوي، في تفسير هذه الآية) وليس أنّها كانت تجمع في حياتها الحطب، أو بعبارة أخرى الحسك، و تنثره في طريق النبي كما يقول بعض المفسرين (انظر على وجه المثال: الطبري، ج30 ص192. والبيضاوي) ولا أنّها كانت كثيراً ما تهين النبي وتعيّره بفقره. ويذهب كثير من محدثي العرب – اعتماداً على رواية ابن عباس– إلى أن سبب نزول هذه السورة العدائية التي تتنبأ بعذاب أبي لهب هو: أنّ النبي بعد أن نزلت الآية 214 من سورة الشعراء ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ نادى وهو على "الصفا" (في روايات أخرى "منى") قومه بمكة قائلاً: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاقترب منه أبو لهب وقال: تباً لك ألهذا دعوتنا؟ فنزلت سورة المسد ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، ولا تختلف رواية ابن إسحاق عن "عبّاد" اختلافا محسوسا عن هذه الرواية، ويروي ابن إسحاق رواية أخرى – ذكرها عنه ابن هشام– هي: أن أبا لهب فاه بعبارة فيها احتقار للنبي في مناسبة أخرى وكان ذلك بحضور هند بنت عتبة، جاء فيها من ألفاظ السباب "تباً"، على أنه لابد أن يكون قد سبق ذلك جملة مواقف عدائية أساء فيها أبو لهب إلى النبي، مما جعل الأخير يسخط على عمه مثل هذا السخط الشديد الذي لا شفقة فيه، مع أن أبا لهب كثيراً ما وقف في صف أخيه أبي طالب عندما عادى الأخير أهل مكة في ظرف سابق، وبذلك يكون قد وقف في صف النبي بطريق غير مباشر (ابن هشام، ص244)... وإذن فهذه الآية تفصح عن نشوة الانتصار بهلاك أبي لهب الذي حدث قبل نزولها (انظر وفاته فيما بعد)، وتدل على أنها نزلت بعد وقعة بدر بقليل من الزمن، ولم يشهد أبو لهب الواقعة بنفسه، إما لأنه كان مريضا كما تقول بعض الروايات، وإما لأنه تشاءم من رؤيا سيئة رأتها عاتكة

كما تقول روايات أخرى، وأرسل بدلا منه عاصي بن هشام الذي كان أبو لهب قد ربح جميع أمواله في الميسر فاستعبده نظير دينه»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بارث** J. Barth – [2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 21]: «**ويبدو أن عمّه عبد العزى (أبا لهب) كان الوحيد ذا النفوذ في العشيرة الذي عارضه، وهي معارضة أضحت من القوة بحيث لعنه القرآن الكريم هو وزوجه في سورة المسد**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

تكلّم المستشرق "بارث-Barth" في مادة "[أبو] لهب" عن بداية الدعوة الجهرية وما كان من إذاية أبي لهب للنبي ﷺ في بداية الدعوة وبعدها.

أولا- نزول الوحي بأمر الجهر بالدعوة: بيّن ابن إسحاق كيف كان **الأمر بالجهر بالدعوة** فقال: «ثُمّ إنّ الله عزّ وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي النّاس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمْرَه واسْتَتَر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه»[5]، وقد انقضت مرحلة الدعوة السرية بنزول الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214][6].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: ((يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ)) - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: ((أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟)) قَالُوا: نَعَمْ، **مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاّ صِدْقًا**، قَالَ: ((فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ))؛ فقال أبو لَهب: تَبًّا لك سائر اليوم، أَلِهذا جَمعْتَنا؟ فنَزَلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 1-2]»[7]؛ وجاء نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم أيضا[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 393/1-395.

[2]– **بارث جاكوب** "Jacob Barth" (1851-1914م): مستشرق ألماني يهودي، عُيّن أستاذا اللغات السامية في جامعة برلين، وله: "الآداب العربية والعبرية" و"شرح الكتاب المقدس". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 723/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 61.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9123/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– تهذيب سيرة ابن إسحاق (لابن هشام)، 262/1.

[6]– ينظر: تاريخ الطبري، 318/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 141/1.

[7]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، 636/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، 101/3-102. واللفظ للبخاري.

[8]– ينظر: **صحيح البخاري**، (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، 636/8-637. **وصحيح مسلم**، (النووي)، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، 97/3-98.

عند المقارنة بين هذا السياق الوارد في حديث ابن عباس للقصّة ونحوه مِمّا ورد في كتب الحديث والسيرة، وبين سياق المستشرق للقصة نلمح عدّة ملاحظات أهمّها:

الملحظ الأول: لم يذكر المستشرق "بارث" قولهم للنبي ﷺ: «ما جَرَّبْنا عليك إلاّ صدقًا»؛ وهذا الحذف لهذه الشهادة من المشركين على صدق النبي ﷺ، قد لا يكون وقع سهواً، بل ربّما كان مُتعمَّداً، اعتمادا على "**منهجية الانتقاء الكيفي**" في التعامل مع الوقائع؛ حيث يذكر أموراً ويعرض عن أخرى، لِما درج عليه المستشرقون من التّعمية على كلّ ما يرفع شأن النبي ﷺ، أو يثبت صدق نبوّته وربّانية رسالته.

الملحظ الثاني: أما نسبة "بارث-Barth" روايةَ "عبّاد" في "قصة الجهر بالدعوة" إلى ابن إسحاق: فلعله **وهْـــم**، لأنّ رواية "عباد بن عبد الله الأسدي" في قصة الجهر بالدعوة، **ليست من طـــريق ابن إسحاق** -فيما وقفت عليه-[1]، بل هي من طريق: شريك عن الأعمش عن المنهال عن عباد عن علي ﷺ؛ عند "أحمد" وغيره[2].

وإنّما روى ابن إسحاق القصة عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي رضي الله عنهما كما في الجزء المطبوع من رواية يونس بن بكير "لسيرته"[3]، وعن حسين بن عبد الله مرسلا في رواية ابن هشام وتهذيبه "لسيرته"[4]، وليس في أيّهما أنه روى القصة من حديث "عباد بن عبد الله".

وهناك ملاحظات أخري في الجزئية الموالية.

ثانيا- إذاية "أبي لهب" وزوجته للنبي ﷺ: وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أ)- توجيه التغليظ في ذمّ "أبي لهب": ردّ القرآن الكريم على إذاية أبي لهب وامرأته للنبي ﷺ بصورة حاسمة ومغلّظة، كما أشار إلى ذلك "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، لكن لم يُصب المستشرق "بارث- Barth" في وصفه لسورة المسد "**بالسورة العدائية**"[5] من أجل ما جاء فيها من ذمّ لأبي لهب وزوجته، الأمر الذي يدعو إلى التساؤل: لِماذا هذا التغليظ الشديد في ذمّ القرآن لأبي لهب؟

---

[1]- للتأكد من ذلك راجعت سياق الرواية في مجموعة من كتب الرواية والسيرة: خاصة "سيرة ابن إسحاق" برواية "يونس بن بكير" و"ابن هشام"، وكتب التاريخ والتفسير، فلم أقف على رواية "عباد" إلاّ من طريق شريك عن الأعمش.

[2]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 225/2. وكذا ذكره البيهقي في "دلائل النبوة، 180/2" وابن كثير في "البداية والنهاية، 103/4".

[3]- ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 145.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 351/1.

[5]- يُستشفّ من خلال هذه العبارة وغيرها في نصّ المادة تعاطف المستشرق مع "أبي لهب" وهو من مشركي قريش، في حين لا نجد هذا التعاطف مع النبي محمد ﷺ، ولا مع أصحابه المستضعفين، تجاه ما وقع عليهم من الاضطهاد في مكّة كما سيأتي.

طَرَح الإمام الرازي هذا الإشكال، وأجاب عليه فقال: «والجواب: مِنْ وجوهٍ؛ **أحدُها**: أنّه كان يصْرِف النّاس عن محمد عليه الصّلاة والسّلام بِقولِه: إنّه مجنون والنّاس ما كانوا يَتّهمونه، لأنّه كان كالأبِ له، **فصار ذلك كالْمانِع من أداء الرّسالة إلى الخلق.**

وثانيها: أنّ الحكمة في ذلك أنّ محمداً لو كان يُداهِن أحداً في الدّين ويُسامِحه فيه، لكانت تلك المداهنة والمسامَحة مع عمّه الذي هو قائمٌ مقامَ أبيه، فلمّا لَم تَحْصُل هذه المداهنة معه انْقطَعت الأطماع وعلم كلّ أحدٍ أنّه لا يسامِح أحداً في شيءٍ يَتعلّق بالدّين أصلا»[1].

فأبو لهب مع قرابته للنبي ﷺ لم يكتف بكفره، و لم يقف موقف النصرة والحماية التي وقفتها عشيرة النبي ﷺ من بني هاشم -رغم عدم إيمان كثير منهم - وعلى رأسهم عمه "أبو طالب"، وهو موقف تمليه عليهم الأعراف الاجتماعية السائدة آنذاك، و لم يكن أبو لهب في ذلك محايدا؛ بل كان موقف "أبي لهب" أشرّ هذه المواقف؛ حيث ناصب للنبي ﷺ العداء، وحمل لواء الأذية وقطيعة الرحم والسخرية والصدّ عن النبي ﷺ وعن دينه ودعوته، وهو بهذا الموقف -مع قرابته الشديدة للرسول ﷺ- أدْعا للتأثير في الصدّ عن النبي ﷺ ودينه من غيره، كما قّرر الرازي في كلامه السابق، لذا ذمّه الله تعالى وقبّح فعاله ومآله، أشد الذم والتقبيح، وتوعده بالخسران وسوء المنقلب والعاقبة.

ذلك أنّ «موقف العمّ أشدّ من موقف الغريب البعيد في نفس النبي ﷺ، وتأثيره في سير الدعوة وعرقلتها أقوى من موقف الغريب البعيد كذلك في الناس؛ لأنّه يقوّي حجّتهم إذا هم انصرفوا عن إجابة الدعوة ووقفوا منها موقف المناوأة والعناد»[2].

يقول محمد رشيد رضا: «**وكان أشدَّ المشركين صدًّا للنّاس عنه** وتكذيبًا له كلّما دعا أحدًا منهم إلى الإسلام، **وكان كلامُه مَقبولاً عندهم أكثر مِن كلام سائر الرّؤساء** الذين جاهروا بِعداوَته كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان بن حرب **لقرابته**»[3].

ويبيّن ابن كثير في هذا السياق مدى العداوة التي كان يبديها أبو لهب للنبي ﷺ ودعوته فيقول: «وكان كثيرَ الأذيّة لِرسول الله ﷺ والبُغْضة له، والازْدِراء به، والتّنقُّص له ولِدينه»[4].

ب)- أذيّة زوجة أبي لهب للنبي ﷺ: جاء في تفسير قوله تعالى عنها: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] أوجه: - فقال مجاهد وعكرمة وقتادة والثّوريّ: أنّها كانت تَمشي بالنّميمة، اختاره ابن كثير[5].

---

[1]- تفسير الرازي، 351/32.

[2]- سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن الكريم، محمد دروزة، 166/1.

[3]- تفسير المنار، 107/11.

[4]- تفسير ابن كثير، 514/8.

[5]- ينظر: تفسير الطبري، 720/24. وتفسير ابن كثير، 515/8.

– وعن ابن عباس والضحّاك: كانت تَضَع الشّوك في طريق رسول الله ﷺ، واختاره ابن جرير الطبري، وابن إسحاق وغيرهما[1]، قال الطبري: «وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ»[2].

– وقيل: كانت تُعيِّر النّبيّ ﷺ بالفقر، وكانت تَحتْطِب، فعُيِّرتْ بذلك، لكن ضعّف ابن الجوزي هذا القولَ[3].

قال الحلبي: «ولا مانع من اجتماع الأوصاف الثلاثة»[4]؛ فقد «كانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه»[5].

الملحظ الثالث: أمّا قول "بارث Barth-": بأنّ "**أبا لهب وقف بطريق غير مباشر في صف النبي ﷺ**" فهذا استنتاج خاطيء، تردّه وقائع السيرة؛ لأنّ أبا لهب وإن كان وقف مع أخيه "أبي طالب" -في موقف وحيد ذُكر في السيرة- حميّة ونصرة لعشيرته[6]، فإنّ عداءه الشديد للنبي ﷺ لا تشفع فيه مثل هذه المواقف البعيدة وغير المباشرة، مع تلك المواقف الصريحة والمباشرة في الصدّ عن النبي ﷺ ودعوته، وهي مواقف عدائية كثيرة كانت قبل وبعد نزول "سورة المسد" كما أشار المستشرق نفسه إلى ذلك بقوله: «**لابد أن يكون قد سبق ذلك جملة مواقف عدائية أساء فيها أبو لهب إلى النبي**»، ومنها على سبيل المثال -زيادة على الحادثة السابقة التي كانت سببا لنزول سورة "تبت"-:

ما جاء عن ربيعة بن عباد الدّيلي رضي الله عنه قال: «رأيتُ النّبيَّ ﷺ بذي المجاز يَدْعو النّاسَ، وخَلْفَهُ رجلٌ أَحْول، يقول: لا يَصُدَّنَّكم هذا عن دين آلِهتكم، قلت: مَنْ هذا؟ قالوا: هذا عَمُّه أبو لهب»، وفي رواية أن أبا لهب كان يقول: « إنّه صابئٌ كاذبٌ»[7].

ويُضاف إلى ذلك: **وقوفه مع أعداء الرسول** ﷺ من قريش في مقاطعة المسلمين وبني هاشم، ورغبته عن نصرة النبي ﷺ كما نصره بقيّة عشيرته من بني هاشم في تلك المقاطعة الجائرة، قال ابن إسحاق: «وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، دعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من دفع

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 24/719-721. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/355. وتفسير ابن كثير، 8/515.

[2]– تفسير الطبري، 24/721.

[3]– ينظر: تفسير الطبري، 24/720. وزاد المسير، ابن الجوزي، 4/503. وتفسير ابن كثير، 8/515.

[4]– السيرة الحلبية، 1/412.

[5]– السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 1/293.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/371.

[7]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 25/403-405. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 2/185؛ واللفظ لأحمد. وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من أبي لهب»، ثم ذكر أنّ أبا طالب غمز أبا لهب وأغلظ له في القول؛ لِما كان من موقفه الذي نصب فيه لِعداوة رسول الله ﷺ مع من نصب له[1].

ولو كان موقف "أبي لهب" محايدا تجاه النبي ﷺ أو أنّه التزم الصمت حيال دعوته؛ لأمكن – ربما– أن يكون لاستنتاج المستشرق وجه مقبول، أما مع مواقفه تلك فلا يمكن التسليم بذلك الافتراض القائم على موقف نادر وعابر.

وهناك دليل آخر على أن "أبا لهب" لم يكن له أي أثر أو دور في نصرة النبي ﷺ – مع مسارعته في عداوته وإذايته–؛ وهو أنّه بعد وفاة "أبي طالب" وفي حياة "أبي لهب" لم يحمه وينصره مع قرابته له، بل استجار الرسول ﷺ "بالمطعم بن عدي" الذي قدّم له الحماية وأجاره مشيا على عادة العرب آنذاك في الجوار والحماية[2].

الملحظ الرابع: الاستدراك على "بارث -Barth" في زمن نزول سورة المسد: الحديث الصحيح المشهور السابق في سبب نزول سورة المسد، من رواية ابن عباس وغيره في الصحيحين، يدلّ على أنها نزلت في بداية الدعوة الجهرية بعد حوالي ثلاث أو أربع سنين من البعثة النبوية، وهذه الرواية الصحيحة المشهورة تدلّ على الخطأ العلمي والتاريخي الذي وقع فيه "بارث -Barth" محرر المادة عندما **اعتبر أنّ السورة نزلت بعد غزوة بدر** وبعد وفاة "أبي لهب"، لكنّ الصحيح أنّ السورة نزلت ردًّا على أبي لهب الذي سبّ النبي ﷺ في تلك الحادثة [أي: بداية الجهر بالدعوة في مكة]، وتوعدته بالخسران في الدنيا والآخرة، ثم تحقق ذلك في وفاته كما جاء في الروايات؛ من جهة موته على الكفر، ومن جهة الكيفية المخزية التي هلك بها، قال الإمام الرازي: «هذه **الآيات** تَضمَّنتِ **الإخبارَ عن الغيب** من ثلاثة أوجه؛ **أحدها**: الإخبار عنه بالتَّباب والخسارِ، وقد كان كذلك. **وثانيها**: الإخبارُ عنه بِعدم الانتفاع بِماله وولده، وقد كان كذلك»؛ ثم ذكر حديث أبي رافع مولى رسول الله وفيه أنّ: أبا لهب هلَك بالعدسة[3] عقب غزوة بدر بعدما بلغه ما كان من نصر المسلمين وهزيمة المشركين، ثُمّ مات كمداً من ذلك، قال أبو رافع: «فو الله ما عاشَ إلا سبعَ لَيالٍ حتّى رَماهُ الله عزّ وجلّ بالعدسة فقَتَلته، فلقد تَرَكه ابْناهُ لَيلتَيْن أو ثلاثًا مَا يَدْفِنانه حتّى أنْتَن في بَيته –وكانت قريش تَتَّقي "العَدسَة" وعَدْوَتَها كما يَتّقي النّاسُ الطّاعون– حتّى قال لهما رجلٌ مِن قريش: وَيْحكما! ألا تَستحِيان أنّ أباكُما قد أنْتَن في بَيْته لا

[1]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 148–150. والبداية والنهاية، ابن كثير، 125/4.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 381/1. وتاريخ الطبري، 347/2–348.

[3]– **العدسة**: قرحَة قاتلة كالطاعون، تشبه حبّة "العدس" تخرج في موضع من الجسد، تقتل صاحبها غالبا، كانت العرب تتشاءم بها، ويرون أنها تعدى أشدّ العدوي. ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 121/5. والنهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 190/3.

تُغَيِّبانه! فقالا: إنّا نَخْشى هذه القرحةَ، قال: فانْطلِقا فأنا معكما، فما غَسّلوه إلا قذفًا بالْماء عليه من بعيد، ما يَمسّونه، ثُمّ احْتَملوه فدَفَنوه بأعلى مكّة إلى جدارٍ، وقَذَفوا عليه الحجارة حتّى وارَوْه»[1].

ثم قال الرازي -بعد سياقه لهذه الرواية-: «فهذا معنى قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2]، **وثالثها**: الإخبار بأنّه مِن أهل النّار، وقد كان كذلك لأنّه مات على الكفر»[2].

والملاحظ: أنّ المستشرق "بارث -Barth" حاول تزييف الحقائق التاريخية حين اعتبر أنّ الآية نزلت بعد غزوة بدر، وما يدل على أنّ هذا الافتراض الخاطيء كان عن عمدٍ ولغرضٍ، هو أنّ نزول السورة في بداية الدعوة الجهرية بمكة ثم تحقّق ما أخبرت به بعد غزوة بدر؛ هو علم من أعلام النبوة، فالقصة من هذه الناحية تدلّ على صدق النبي ﷺ وما جاء به من الوحي الرباني كما في نص الرازي السابق، ويقول ابن الجوزي -مبينا ذلك-: «وفي هذا دلالة على صحة نبوّة نبيّنا محمّد عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان ذلك، إذا لو قالا بألسنتهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلقا في الرّدّ على رسول الله ﷺ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطنا ولا ظاهرا، فأخبره بذلك»[3]، وهو ما قرّره ابن كثير وغيره[4].

ولَمّا كان من أغراض المدرسة الاستشراقية ردّ وإنكار كلّ ما فيه دلالة على نبوة الرسول ﷺ وصدق دعوته؛ عمد المستشرق -مخالفا الروايات الصحيحة المشهورة والأمر المتفق عليه بين علماء السيرة والتاريخ- ودون دليل علمي صحيح إلى تشويه وتزييف حقيقة تاريخية معلومة مشهورة، من أجل أن لا يكون في الآية أيّة دلالة على تحقّق وعد الله وصدق ما جاء به من خبر الغيب، فالقول بأنها نزلت بعد هلاك أبي لهب، ينفي تحقّق ما أخبر به القرآن قبل وقوعه.

---

[1]- تاريخ الطبري، 461/2-462. ودلائل النبوة، البيهقي، 145/3-146.

[2]- تفسير الرازي، 352/32-353.

[3]- زاد المسير، 503/4.

[4]- ينظر: البداية والنهاية، 114/9. والتفسير المنير، الزحيلي، 460/30.

المطلب الثاني : موقف أهل مكة من دعوة النبي ﷺ

الفرع الأول : عدم تعرّض المشركين للنبي ﷺ في بداية دعوته وسبب ذلك

– ورد في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 22]: «**لَم يلق محمد ﷺ في البداية معارضة ذات شأن، بل وصادفت دعوته تربة خصبة في حالات ليست بالقليلة. وقد نفهم من الآية (62) من سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أنّه أثار في البداية توقعات كثيرة لدى المكيين... وقد زاد عزوف الأغنياء وذوي النفوذ عن رسالته حين أضحت العواقب الكاملة لأفكاره واضحة، وهاجم صراحة وثنية أهل مكة. أما قبل ذلك فما كان أكثرهم يكترثون باجتماع المسلمين للعبادة أو بنشاط محمد ﷺ**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

تكلّم المستشرق "بول -Buhl" في هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ" على عدم اكتراث كفار قريش وزعمائها بالنشاط الدعوي للنبي محمد ﷺ في بداية دعوته، فما هي خلفيات ذلك؟

يبدو أن دعوة النبي ﷺ في هذه البدايات الأولى وإن كانت سرية وفردية، إلاّ أنّ أنباءها بلغت قريشاً، لكنّها لم تكترث بها؛ وهذا عائد إلى كون فكرة مطاردة النبي ﷺ ومنع دعوته بالقوة لم تكن –آنذاك– مما اتفق عليه زعماء قريش، ذلك أنّه لَمّا اعتزلهم وتحفظ في دعوته وصلاته، لم يكن منهم إلاّ مجاراة الحالة والسكوت عليها[3].

حيث كان النبي ﷺ يتجنب المعاندين والطغاة – مؤقتا- مع عدم الشدة في خطابهم، كما قصر دعوته مؤقتا على مَع من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة، وكان يتجنّب إقامة الصلاة جماعة وتلاوة القرآن جهرا على ملأ من الناس، وفي فناء الكعبة رعاية لأصحابه الضعفاء خاصة[4].

وفشا الإسلام في مكة بين جماعة ممن نوّر الله قلوبهم؛ وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما، ولعلّها حسبت محمدا ﷺ أحد أولئك الديّانين الباحثين عن دين إبراهيم، أو المتمردين على الوثنية، من أمثال: أمية بن أبي الصلت، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل وأشباههم، وغيرهم من متحنفي العرب، لا يلبث أن يخفت صوته، ويضيع في ضجة الحياة القائمة في مكة وفيما حولها، والتي تموج بحركة المال وحركة الأدب والشعر في موسم الحج وفي أسواقه، غير أنّها مع ذلك توجّست خيفة من ذيوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته[5].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9118/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: سيرة الرسول ﷺ – صور مقتبسة من القرآن الكريم، دروزة، 162/1.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 162/1-163.

[5]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 96. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 219.

يقول ابن إسحاق في ذلك: «لَمّا بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه و لم يردّوا عليه - فيما بلغني- حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته[1]... ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهرا لأمره لا يرّده عنه شيء؛ فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يَعْتِبهم من شيء، أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم»[2].

ومضت رسالة الإسلام قدمًا تشقّ طريقها وإن كان ذلك في بطء ووجدت قريش نفسها أمام رجل آخر، ودعوة أخرى، وأمام جماعة أخذت تتكون في داخل مكة؛ فإن محمدًا لم يكتف بالتعبد والبحث عن الحنيفية، أو المدارسة الدينية كما يفعل غيره من المتحنفين والمتبرمين بالوثنية والساخطين على الأصنام، وإنما هو يدعو إلى دينه في حماس ومثابرة وإن كان في هدوء وأخذ بالحسنى، وهو يتلو كلامًا بليغًا ينفرد بأسلوب رائع لا يجده المكيون فيما ألفوا من أساليب الشعراء أو البلغاء أو سجع الكهان، وهو يكتسب كل يوم أتباعًا يؤمنون بأنه رسول الله، وأن ما يتلوه ليس من قول بشر، وهو يدعو إلى مبادئ جديدة أخذت في الوضوح والظهور[3].

أما ما ذكره عن عزوف الأغنياء وأصحاب النفوذ عن دعوته فقد كان لأسباب وعوامل ماديّة - كما يشير إليه كلامه- وعوامل أخرى معنوية دينية واجتماعية ونحوها، بيانها في العنصر الموالي.

الفرع الثاني : دوافع تكذيب مشركي مكة للنبي ﷺ

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**[أبو] سفيان**" [فقرة: 1]: «**زعيم الحزب الذي عادى النبي من أشراف مكة... وكان أبو سفيان تاجراً ثرياً من الأشراف، قاد قوافل مكة الكبيرة عدة مرات، وقد وقف موقفاً عدائياً حيال ما جاء به النبي، شأن الكثيرين من كبار تجار تلك المدينة...**»[4]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 23]: «**وقد جاءت مهاجمة آلهة مكة تدريجيا، فقد ذكر أن الحرم المكي هو لله ربه الذي يعترف المكيون أيضا بأنه ربهم الأعلى** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ **سورة الزمر** آية (**38**)... **وسيحمي الله بيته والحرم ويباركهما لو أذعنوا لإرادته،** ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ **سورة النمل** آية (**91**)... **حينئذ أدرك تجار مكة أن**

---

[1]– ذكر الزرقاني في "شرح على المواهب اللدنية، 462/1": بأن ابتداء المعاداة في السنة الرابعة للبعثة، وكمالها واشتدادها كان في الخامسة.

[2]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 264/1.

[3]– ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 219.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

التحول للإسلام قد يهدد أسواقهم وتجارتهم. وقد كان هذا في الواقع النقطة الرئيسية في معارضتهم لمحمد ﷺ، ويثبت ذلك محاولات القرآن العديدة تَهدئة مخاوف قريش في هذا الصدد، وكان هناك بالإضافة إلى ذلك موقف التجار المحافظ في مجال الدين، وعداؤهم للأفكار الجديدة الغريبة عليهم، خاصة فكرة البعث والنشور بعد الموت...

وكثيراً ما يشير القرآن الكريم بِحق إلى افتقار أعدائه إلى المنطق إذ يعترفون بأن "الله" هو الإله الحق دون استنباط النتائج المنطقية من هذه الحقيقة، غير أن حتى أكثر حججه إفحاماً لم تفلح في اختراق السدّ المنيع الذي أقامه تعصّبهم على أساس من مصالحهم المادية، وحين كان خصومه يهزؤون به إذ لم يتحقق ما أنذرهم له[1] من عقاب الله، ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ سورة ص آية (16)، ذكر القرآن الكريم أن أقوام الأنبياء قبله كذبوهم فحق عليهم بتكذيبهم أشدّ عقاب، ولم تكن هذه التهديدات بعقوبة في الحياة الدنيا جزء من أوائل السور بدليل أن دعوته لم تثر في البداية عداء قومه»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** –Buhl.

– وفي مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 6]: «**لقد سبّب نزول القرآن (الكريم) اضطرابا كبيراً في مكة لأن أهلها كانوا ماديين فكيف يَمنّ بذكرهم بالله واليوم الآخر، لقد نبّه القرآن الكريم أثرياء مكة بضرورة الاعتناء بالفقراء والذين لم يصيبوا حظا من الدنيا، وذكرهم بأنّهم إن كانوا أقوياء بما لهم فالله أقوى وأكبر، لقد أحس التجار أن الدين الجديد يهدّد وضعهم، وأدرك التجار الشبان بالذات ذلك، وكان أبو جهل خير مثال على ذلك فقد أحسّ أن كون الوحي يهبط على محمد ﷺ فإن ذلك قد يعطيه قوة سياسية كبيرة.**

ومن هنا ظهرت المعارضة للدين الجديد، لقد مارس كبار التجار ضغوطا شديدة على محمد ﷺ وصحبه لترك الدين الجديد»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M.Watt[4].

ثانيا- التحليل والمناقشة: ركّز كل من المستشرق "وات -Watt" في مادة "مكة" والمستشرق "بول - Buhl" في مادة "محمد ﷺ" وكذا مادة "[أبو] سفيان" على: بيان الدوافع الماديّة وراء تكذيب مشركي قريش لنبوّة محمد ﷺ، لكنّ نصوص القرآن الكريم ووقائع السيرة النبوية تبيّن أنّ العوامل المادية وإن كان لها أثر في موقف قريش، إلاّ أنّ دوافعهم تتعدّاها إلى عوامل أخرى معنويّة وروحيّة هامة، لا يمكن الإعراض عنها في تفسير موقفهم.

---

[1]– هكذا في المطبوع، والصواب: "به"، فلعله خطأ مطبعي.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9118/30-9119.

[3]– المصدر نفسه، إص3، 9597/31.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

[1]- الدوافع المادية لِموقفهم: «عاشت مكة في بحبوحة من الحياة أمدا طويلا، آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، وترجع هذه السعة إلى عاملين؛ الأول: مهارة أهلها التجارية. والثاني: مكانة الحرم الدينية...

فلما ظهر فيها الإسلام، ودعا محمد ﷺ إلى الحق، ردّت يده في فمه، وأحدقت به وبمن معه، وملكها العناد من أول يوم، وأعلنت أنّ مركزها - عاصمة للوثنية، ومجمعا للأصنام، ومثابة للحجيج- سيزول إن هي استمعت إلى هذا الدين، وأمكنته من البقاء؛ ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام، اعتبروها دفعا عن **كيانهم المادي، ووضعهم الاقتصادي**، إلى جانب ما هنالك من **عوامل أخرى**»[1].

لكن الرسول ﷺ حاول - جاهدا- أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي مُتِّعوا به، فأبى الظالمون إلا كفورا: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القصص: 57][2]؛ فبين الله تعالى أَنَّهُ «لَمّا جعَل الْحرَم آمناً، وأكْثرَ فيه الرِّزق حال كونِهم معرِضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان؛ فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى»، وفي مقابل ذلك أكّد «لَهم أنّ الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الّذي يزيل هذه النِّعم، لا الإقْدام على الإيمان»[3]، فقال تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا ﴾ الآية [القصص: 58]، وهذا المعنى هو ما عبّر عنه المستشرق "بول-Buhl" بقوله «**وسيحمي الله بيته والحرم ويباركهما لو أذعنوا لإرادته**».

لكن ينبغي التنبّه إلى أنّ المكانة المادية التي خاف صناديد قريش زوالها بإسلامهم؛ لا تقتصر على الجانب الاقتصادي فحسب، بل تتعدّى ذلك إلى جوانب ماديّة أخرى: اجتماعية وأدبية ومعنوية هامة.

فآية القصص تبيّن أنّ من أهم **دوافع معارضة** المشركين لدعوة الرسول ﷺ «الأسباب التي تتصل بالتقاليد القائمة من: خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معا على ما كان لهم ولِمكة من مركز، ومنافع أدبية ومادية عظيمة، بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له؛ فقد كان البيت مثابة وأمنا لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم... كما كانوا يعتبرون قريشا إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية؛ وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب ووفرة الحرمة... وكان ذلك الخوف ناشئا من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سببا لإنصراف الناس عن مكة والحج، أو تَجهّم العرب لِمكة وأهلها، كما تُلْهِم آية "القصص"»[4] السابقة.

---

[1]- فقه السيرة، الغزالي، 143-144.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 144.

[3]- تفسير الرازي، 25/6-7.

[4]- سيرة الرسول - صور مقتبسة من القرآن الكريم-، محمد دروزة، 181/1.

صحيح أنّ المصلحة المادية كانت عاملاً من العوامل التي دفعت قريشًا إلى الوقوف في وجه دعوة النبي ﷺ، ولكن هذا لا يعني أنّ هذا العامل هو العامل الرئيسي الوحيد في معارضة المشركين لدعوته، بل هناك عوامل أخرى معنوية وروحيّة أهمّ؛ ركّز عليها القرآن أكثر من تركيزه على هذا الجانب، بدليل تكرّر محاججة المشركين فيها أكثر من محاججتهم في الدوافع المادية والاقتصادية ونحوها، أما ما ذكره "بول -Buhl" عن طمأنة المشركين في هذا الجانب فإنّما جاء ذلك في الآية السابقة و لم يتكرّر كثيرا كما توهّم المستشرق "بول".

[2]- الدوافع المعنوية لِموقفهم: إنّ «**الدوافع الحقيقية** التي قادت المشركين وزعماءهم إلى مقاومة الدعوة... **لا تنصبّ على الجانب المادي فحسب**، بل تمتد إلى كل مساحات التصوّر والشعور والحياة الجاهلية، وإن كان للجانب (المادي) أهمية كبيرة بين هذه الدوافع إلا أنه لا يمكن أن يغطي المساحة كلها ويحجب **الدوافع الأخرى، الدينية** والنفسية والسياسية والثقافية، عن أعين الباحثين، ذلك أن مقاومة المشركين للإسلام، رغم الجمود الظاهر لديانتهم، يمكن تعليله بأن دينهم، وإن لم يكن يؤدّي دورا كبيرا ظاهرا في حياتهم اليومية، إلا أنه كان متغلغلا ومتعمقا في اللاشعور فيهم، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه، كما أنه لطول أمد استقراره لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه. ولكن الإسلام بنقده لدينهم كان تحدّيه موجها لا إلى عقائدهم فحسب، بل إلى ذاتيتهم وإلى كيانهم الروحي، فاندفعوا يدافعون عنه بقوة»[1].

ولهذا يمكن ردّ معارضة المشركين لدعوة النبي ﷺ لأسباب أخرى هامة نبّه عليها القرآن، وأهمّها:

أ)- اعتراضهم على الوحدانية: لم يكن كفار مكة ينكرون بأن الله خلقهم وخلق كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: 38]، لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار وأشد استغراب، كما قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة "ص": 5][2].

وبهذا يُعلم عدم دقة عبارة المستشرق "بول - Buhl" عندما قال بأنّ "**مهاجمة آلهة مكة كانت تدريجيا**" مستدلاّ بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: 38]؛ فإنّ هذه الآية إنّما تدلّ على أنّ مشركي قريش مع إيمانهم بأنّ الله عز وجل هو الخالق فإنّهم كانوا يجعلون له أنداداً وشركاء من الأوثان ونحوها، يعبدونهم ويتقرّبون إليهم، فأمرهم الله تعالى بخلع كلّ تلك الأنداد

[1]- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 84-85.

[2]- ينظر: سيرة الرسول -صور مقتبسة من القرآن-، محمد دروزة، 179/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 118.

والشركاء والتوجه بالعبادة والتقرب إليه وحده دون سواه؛ فاستدلّ الله تعالى عليهم بما يؤمنون به على إثبات ما لا يؤمنون به.

فالوثنيّة «تزعم الإيمان بإله خلق السماوات والأرض، وفي الوقت نفسه تشرك معه آلهة أخرى هي مزدلف إليه ووسيلة، ولَمّا كان خالق السماوات والأرض بعيدا عن مرأى الأعين، فقد أنس العبّاد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم، والتي يتردّدون عليها صباحا ومساء، حتى صارت صلتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأصيل»[1]؛ «ومن هنا أنكر عليهم الله تعالى هذا الخلط الذي أفضى إلى صرف العبادة إلى من لا يستحقها»[2].

هذا التناقض الذي وقع فيه المشركون هو ما عبّر عنه "بول -Buhl" بقوله: «**وكثيراً ما يشير القرآن إلى افتقار أعدائه إلى المنطق؛ إذ يعترفون بأن "الله" هو الإله الحق؛ دون استنباط النتائج المنطقية من هذه الحقيقة**».

صحيح أنّ النبي ﷺ في بداية الجهر بالدعوة لم يتعرض لذكر آلهتهم؛ يقول ابن إسحاق في ذلك: «فلما بَادَى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يـــبعد منه قومه و لم يردّوا عليه -فيما بلغني- **حتى ذكر آلهتهم وعابها**، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته[3]»[4]؛ ولكن هذا لا يعني أنّ النبي ﷺ ما كان يدعو إلى خلع عبادة الأصنام واتخاذ الأنداد منذ بداية دعوته ومن اليوم الأول، كما قد تُوهِم عبارة المستشرق، وكلّ ما تدلّ عليه الرواية: أنّه تَجنَّب **مؤقتا الشدة في مخاطبة** المشركين والمعاندين، فكان يدعو الناس إلى عبادة الله وحده[5] والإيمان بنبوته دون أن يتعرّض لذكر آلهتهم، لأنّ توحيد الله عز وجلّ بالعبادة؛ يقتضي خلع الأنداد والأصنام.

ب)- رسوخ عصبية تقليد الآباء والتمسك بما تركوه في المجتمع العربي: وذلك أنّ الوثنية اتّصلت فيهم بشعائرها وعاداتها واعتقاداتها عقوداً متتابعة، فكل جيل جديد يرث عن أسلافه هذه الوثنية، فترسخت على مر الأيام، لما كانوا عليه من تعظيم الأسلاف؛ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]، وقد أعماهم هذا التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل[6].

---

[1]- فقه السيرة، الغزالي، 81.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 570/2.

[3]- ذكر الزرقاني في "شرحه على المواهب، 462/1": بأن ابتداء الإظهار والمعاداة كان في السنة الرابعة للبعثة، وكماله واشتداده في الخامسة.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 264/1.

[5]- ويدلّ على ذلك ما ذكره ابن إسحاق في موضع آخر: «أنّ رسول الله ﷺ كَفّ عن سبّ آلِهَتهم، **وجَعَل يَدْعوهم إلى الله**». ينظر: المصدر السابق، 357/1.

[6]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 84/1.

«فكان عندهم تغيير دين الآباء والأجداد عار لا يلائم كبار رجالات مكة وشيوخها، أولئك الذين كان يقود خطاهم إحساس رجعي متأصل في نفوسهم»[1]، وهو ما بيّنه القرآن الكريم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [سبأ: 43]، وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: 21]، وغيرها.

ج)– كفرهم بالآخرة: قابل المشركون دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر بالسخرية والتكذيب: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [سبأ: 7-8]، وكانوا ينكرون بعث الموتى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: 29]، كما كانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة؛ وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة[2].

ولعل هذا العامل كان من أهم مواضيع القرآن المكي وروداً وتوكيدا حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه، مما يدلّ من دون ريب على أنّه كان من أهم المواضع التي ثار حولها الجدل واللجاج والتشادّ بين النبي ﷺ والعرب، ولقد حكى القرآن كثيرا من مواقفهم وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة؛ تدلّ على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حينا والمكذب حينا والمستهزئ حينا والمتحدي حينا[3].

د)– العنصرية القبلية: كانت العصبية الاجتماعية الضيّقة وما تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية، من أهم عوامل معارضة الدعوة النبوية[4]، وهو ما أفصح عنه "أبو جهل" صراحة كما جاء في الروايات، فعن الزهري: أنّ «الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد [أي: من القرآن]؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه؛ فقام عنه "الأخنس"»[5].

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ: أنّ أبا جهل قال له [أي: قبل أن يسلم المغيرة]: «فو الله أني لأعلم أن ما يقول [أي: الرسول ﷺ] حقٌّ، ولكنّ بني قصيّ قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة،

---

[1]– دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 85.

[2]– ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 119-120. وسيرة الرسول مقتبسة من القرآن، دروزة، 181/1-183.

[3]– ينظر: سيرة الرسول مقتبسة من القرآن، 182/1.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 179/1.

[5]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 190. ودلائل النبوة، البيهقي، 206/2-207.

فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أَطْعَموا وأطعمنا، حتى إذا تَحاكّت الرّكب، قالوا: منّا نبِيّ؛ والله لا أفعل[1]»[2].

هـ)- اعتراضهم على شخص رسول الله ﷺ: وذلك من وجهين: **الأول**: أنه بشر؛ وفي زعمهم ينبغي للرسول أن يكون من الملائكة. **والثاني**: تحقيرهم للرسول محمد ﷺ نفسه؛ فكيف أن يختاره الله عز وجل من بينهم، وفيهم من هو أعظم منه مالا وجاها[3].

يقول الأستاذ دروزة: «ولعلّ من أهم الأسباب الأصلية: ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع... حيث كان الزعماء الأغنياء... يتمتعون بنفوذ السيادة: يأمرون فيطاعون، ويدعون فيستجابون، ويسنّون فيتبعون، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا، فلما أخذ النبي ﷺ يدعو بدعوته ويبلّغ عن ربه، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيرا، كما لم يكن بارزا في مجال الزعامة، بُغِتوا وعظم عليهم أن يكون هذا داعية يستجاب، ومرشدا يهتدي به الناس، ولواء ينضوون إليه دونهم... فاستنكروا الأمر واستكبروا وقالوا إنّه لو كان حقا لكانوا هم المنتدبون للدعوة والمكلفون بالمهمة؛ لأن الناس إنما يستجيبون إليهم، وتساءلوا كيف يترل عليه الذكر من بينهم؟!»[4].

وهذا الاعتراض ذكره المستشرق "فنسنك" في مادة "وحي" وسيأتي بيانه في العنصر الموالي[5] فيراجع هناك.

- ملحظ هام: إن جلّ مرتكزات القرشيين في حوارهم مع أبي طالب، أو مع النبي محمد ﷺ نفسه من أجل إقناعه بالعدول عن دعوته، ما كانت تنصبّ على الدفاع عن مصالحهم المادية، بقدر ما كانت تركّز على معتقداتهم الدينية وقيمهم الاجتماعية، كما نلمح من خلالها إدراكهم الكامل لأبعاد عبارة "لا إله إلا الله" وخطورتِها الشاملة إزاء وجودهم الجاهلي كـلّه؛ ومن أمثلة ذلك ما قصّه ابن إسحاق فقال: «مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب... فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد **سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا**، فإما أن تكفه عنّا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه فنكفيكه وإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّ ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه»[6].

---

[1]- أي: لا أُسلِم.

[2]- أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 210. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 207/2. وحسنه الألباني في "صحيح السيرة، 162".

[3]- ينظر: تفسير الرازي، 185/17. وسيرة الرسول، دروزة، 178/1-179 و184. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 121.

[4]- سيرة الرسول مقتبسة من القرآن، 178/1-179.

[5]- بعد صفحتين.

[6]- السير والمغازي، ابن إسحاق، 147-148. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 264/1-265.

فهذا النصّ يبيّن مآخذات كفار قريش على النبي ﷺ، وهي مشتملة على **جوانب دينية واجتماعية** وأدبية سبق بيان جملة منها، ومع ذلك لم يشيروا إلى الجوانب المادية، وإن كانوا أخفوها في صدورهم وأظهروها في مناسبات أخرى -كما سبق-، لكنها تعبِّر عن جوانب موضوعية هامة في اعتراضاتهم الصريحة على الرسول ﷺ والتي لم يخفوها، وكانوا يصدعون بِها في كلّ مناسبة، وإن أخفوا أحيانا الجوانب الذاتية والمادية التي ذكرها المستشرقان.

[3]- أثر القراءة المادية في افتراض "وات-Watt": المستشرق "وات -Watt" وإن كان واحدا من الذين رفضوا الأخذ بِمنطق التفسير المادي للتاريخ (الذي يجعل العوامل المادية هي القاعدة الأساسية لتفسير كل ظاهرة تاريخية)، ويرى فيه توجها أحادي الجانب للتفسير التاريخي، إلا أنه يتشبّث بدور العامل الماديّ عموما، والاقتصادي على وجه الخصوص في الحركة التاريخية[1]، فنجده يقول في مقدمة كتابه "محمد ﷺ في مكة": «وهذا يعني أن المؤرخ من منتصف القرن العشرين -مع عدم إهمال الجوانب الدينية والفكرية للحركة التي بدأها محمد ﷺ أو التقليل من شأنها- يريد أن يسأل أسئلة كثيرة عن الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وحتى أولئك الذين ينكرون (وأنا منهم) أن هذه العوامل هي وحدها التي تحدد مجريات الأحداث يعترفون بأهميتها، لهذا فإن السمة الخاصة لهذه السيرة لمحمد ﷺ هي أنها لا تنقب في المصادر المتاحة بدقة أكثر فحسب، بل إنّها تعطي اهتماما أكثر لهذه العوامل المادية وتحاول الإجابة عن أسئلة لم تثر من قبل»[2].

فهو من جهةٍ في هذا النص من كتابه "محمد ﷺ في مكة" يقرّر أنّ التفسير التاريخي ينبغي ألا يجعل العوامل المادية هي وحدها المحددة لِمجريات الأحداث التاريخية للسيرة النبوية وغيرها، وأنّه يجب عدم إهمال العوامل الدينية والفكرية والاجتماعية الأخرى، ومن جهة أخرى نجده هنا في مادة "مكة" ينقض نظريته هذه عندما يعتبر الدوافع الاقتصادية هي الأساس في معارضة المشركين للرسول ﷺ، وهي عبارة تُوهِم إهماله لبقية العوامل الأخرى، التي ذكرها بعد ذلك إجمالا، وهذا ما جعل تفسيره وافتراضه قاصرا عن الهدف الذي سطّره في تنظيره السابق عندما قال: «وتحاول الإجابة عن أسئلة لم تثر من قبل»، فطرحه هنا في "دائرة المعارف" لهذه القضية ناقص وغير متكامل؛ لأنه يقلّل بطريقة غير مباشرة من بقية العوامل المعنوية الهامة، والتي بيّنتُ أنّ بعضها أهم من العامل الاقتصادي الذي اعتمده، بينما نجد في القرآن الكريم ومصادر السيرة الأصيلة والمعاصرة طرحا متوازنا لجميع هذه العوامل؛ لذا يمكن القول: إنّ القرآن الكريم وكتب السيرة القديمة والمعاصرة تجيب بوضوح ودقة عن أسئلة يظنّ

[1]- ينظر: المستشرقون والسيرة، عماد الدين خليل، 107-108.

[2]- محمد ﷺ في مكة، 41.

المستشرق "وات -Watt" أنّه أوّل من طرحها وعالجها، لكنّ الواقع العلمي يثبت عكس ذلك فإنّه يطرح إشكالا أجابت عنه المصادر الإسلامية بدقة متناهية، بينما عالجه هو بطريقة ناقصة وغير متكاملة، بدليل الميزان الذي وضعه هو نفسه في توجيه القراءة المادية للوقائع التاريخية.

«إن هذه الافتراضات، التي ينقض بعضها بعضا، تعود لكي تنتقض نهائيا بمجرد عرضها على (الواقعة التاريخية) نفسها... إذا ما أردنا البحث الموضوعي الجاد، وإلا فإن التخمين والاستنتاج والإسقاط المعاصر على التاريخ، دون رؤية وارتكاز على أبعاد الواقعة نفسها يقودنا ولا ريب إلى (إسرائيليات) من نوع جديد، تتدثر بدثار العلم والموضوعية وما هي منهما بشيء!!»[1].

المطلب الثالث : أساليب المشركين في الصد عن الدعوة

اعتمد مشركو مكة أساليب شتّى للصد عن دعوة النبي ﷺ، ومحاولة قمعها بالوسائل الماديّة والمعنوية، وتتلخّص هذه الأساليب حسب ما ورد في "الدائرة" إلى ما يلي:

الفرع الأول : أسلوب الأذيّة القولية بالسخرية والتكذيب والتشويه

بعد أن جهر النبي ﷺ بدعوته، أخذ الكفار يبثّون الدعايات الكاذبة حول شخصيّة محمد ﷺ ودعوته، يمكن استنتاج عدّة طرق دعائيّة اعتمدها المشركون للصدّ عن الإسلام، وهي كالآتي:

الطريقة الأولى: الاعتراض على بشريته ﷺ واصطفائه من بينهم

– جاء في مادة "**وحي**" [**فقرة**: 6]: «**وقد دهش المعاصرون لِمحمد ﷺ لتلقيه الوحي، فكيف يوحى إلى رجل منهم، وهذا واضح من سورة يونس**، آية (**2**): ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾، **لكن القرآن الكريم أكّد بشرية محمد ﷺ وأنّه بشر فعلا منهم لكن يوحى إليه، وهذا واضح من سورة الأنعام**، آية (**50**): ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ ...»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[3].

لَمّا بدأ الرسول ﷺ في الدعوة إلى الإسلام تعجّب أهل مكة من ذلك، وقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: 94]، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ۖ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: 24]؛ فأنكروا أن يرسل الله رسولا من البشر[4].

---

[1]– دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 88.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10123/32.

[3]– سبقت ترجمته في: ص49.

[4]– ينظر: سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، 250/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 75/1.

وهو التعجّب الذي ذكره "فنسنك -Wensinck" في مطلع هذا النصّ من مادة "وحي".

ويبيّن الإمام الرازي أوجه تعجّب كفار قريش من نزول الوحي على النبي محمد ﷺ فيذكر: أنّ هذا التّعجُّب يَحتمِل وجهين؛ **الوجه الأول**: أَنْ يَتعجّبوا مِن أنْ يَجعل الله بشراً رسولاً.

و**الوجه الثاني**: أن يَتعجّبوا مِن تَخصيص محمد ﷺ بالوحي والنّبوّة مع كوْنه فقيرًا يتيمًا[1].

[1]- فجواب الوجه الأول من تعجّبهم هو كالآتي:

أ)- بيان خلفية هذا التعجب: كان العرب يتخيّلون أن النبِي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر، ويستطيع أن يفعل ما لا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد؛ ولعل ما كان يبلغهم عن الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة مما كان يقوّي صحّة هذا التخيل فيهم، فلما رأوه مثلهم ومنهم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه بشر مثلهم.. جحدوا نبوته وكذبوا صلته بالله، ونعتوه بالمجنون والشاعر أو الساحر أو الكاهن[2].

ب)- إبطال القرآن لهذا التعجّب: أنكر الله ﷻ هذا التعجب، وجَعْله ذريعة لإنكار نبوّة محمد ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس: 2]؛ "**فالاستفهام للإنكار**"، لأنّهم إنّما جَعلُوه لأنفسهم - توهّما- أُعجوبةً يَتَعجّبون منها؛ فجرى ذلك مجرى التعنّت والتحكم الفاسد، لغرض الاسْتِهزاء وإنكار الرسالة، وكان ذلك من صور تَفنُّنهم في أساليب التّكذيب والتَّهكُّم[3]، و**الحقيقة** أنّ هذا **التعجّب** ليس إلاّ وهما **توهّموه واصطنعوه** من عند أنفسهم تكذيبا وجحودا، وقد ردّ الله عليهم هذه الدّعوى الكاذبةَ -الّتي هي منْعُ إرسالِ البشر- من أوجه:

الوجه الأول: أنّ الرّسُل الْماضين قبل محمدٍ ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشرٌ؛ وقد بيّن الله عز وجلّ أنه ما أرسل رسولا إلا من البشر، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: 43]؛ فكيف يُتَعَجَّب منه مع أنّه قد سَبقَه نظير من الأنبياء السابقين؟![4]

و**الوجه الثاني**: هذه الشّبهة هي من شُبَه كثيرٍ من الأمم الْمُكذِّبة قبل النبي ﷺ، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التّغابن: 6]، وكذلك قالت الأمم لِرُسلِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: 10]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرة[5].

---

[1]- ينظر: تفسير الرازي: 185/17.

[2]- ينظر: سيرة الرسول مقتبسة من القرآن، دروزة، 184/1. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 86.

[3]- ينظر: تفسير الرازي، 185/17-186 و410/21. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 211/15-212.

[4]- ينظر: تفسير الرازي، 185/17. وتفسير ابن كثير، 574/4. وسيرة أبي شهبة، 75/1.

[5]- ينظر: تفسير ابن كثير، 574/4 و569/6.

والوجه الثالث: يبيّن الرازي بطلان الوجهين -السابقين[1]- لتعجّب الكفار من إرسال محمد ﷺ من بينهم، فيذكر: أنّ العقل شاهدٌ بأنّه لا بُدّ من مُنَبِّهٍ ورسولٍ يُعرِّف الناس ما يَحْتاجون إليه في أديانهم كالعبادات وغيرها، وإذا ثَبَت هذا؛ فالأولى أن يُبْعث إليهم مَن كان مِن جنسهم لِيَكون سكونُهم إليه أكْمَل، وإلْفُهم به أقْوى فيَفْقهوا عنه، ويَفْهموا منه، ويقتدوا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 95]؛ وبهذه الأوجه الثلاثة يبطل الوجه الأول من تعجّبهم.

[2]- أمّا **جواب الوجه الثاني** من تعجّبهم: فإنّ محمدًا ﷺ كان مَوْصوفًا بصفات الخير والتّقوى والأمانة، وما كانوا يعيبونَهُ إلاّ بكوْنه يتيمًا فقيرًا، وهذا في غاية البُعْد، لأنّه تعالى غنيٌّ عنِ العالمين فلا يَنْبغي أن يكون الفقر سببًا لِنُقْصان الحال عنده، ولا أن يكون الغِنى سببًا لكمال الحال عنده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]؛ ثم يقول الرازي: «فثَبَت أنّ تَعجُّب الْكفّارِ مِنْ تَخصيص الله تعالى مُحمّدًا بالوحي والرّسالة كلامٌ فاسدٌ»[2].

الطريقة الثانية : اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والكهانة :

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- مادة "**السحر**" [فقرة: 4]: «**وقيل عن محمد ﷺ بأنه رجل مسحور (سورة الإسراء، الآية 14، سورة الفرقان الآية 7. وكذلك قيل عن موسى** (سورة الإسراء، الآية **100**)، **واتهم محمد أنّه "مُسحَّر" (سورة الشعراء،** الآيتان 184، 252)... **وذكرت الآية الثانية من سورة الأنبياء اتّهامات شتّى رُمي بها النّبيّ ﷺ، فقيل: إنّ رسالته "سحر" وإنها "أضغاث أحلام" وإنه افترى القول، بل هو "شاعر"، وإن قومه طلبوا منه أن يأتيهم بآية كما فعل الأنبياء الأولون. وجاء في الآية 4 من سورة "ص" أنّ الكفار قالوا إنّه "ساحر كذاب"، وكذلك قيل عن موسى** (سورة غافر، الآية **23**)... **وجاء في الآية 23 من سورة المدثر (أقدم ما نزل في ذلك من القرآن)، ما رمي به محمد ﷺ من أن رسالته هي "سحر يؤثر"... ولم ترد كلمة كاهن في القرآن إلا مرتين، أطلقها أهل مكة في الموضعين على محمد**[3]»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** - D.Madonald[5].

---

[1]- أي: تعجبهم: (أ)- من كونه بشر. (**ب**)- ومن تخصيص الله له بالوحي من بينهم مع يتمه وفقره، في مقابل جاههم وغناهم.

[2]- تفسير الرازي، 186/17.

[3]- في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29]، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: 41-42].

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 309/11-310.

[5]- سبقت ترجمته في: ص228.

– وجاء في مادة "**موسى** عليه السلام": «**وقد وُجّهت لِموسى عليه السلام نفس الاتهامات التي وجهت إلى محمد ﷺ وهي محاولة صرف الناس عما كان عليه آباؤهم وتضليلهم (سورة يونس الآية 78)، وأنّه كان يمارس السحر (سورة يونس الآية 79 وما بعدها)**»[1]. المحرر هو المستشرق: **ب. هيلر** - B. Heller[2].

– وفي مادة "**نوح**": «**وتذكر الآيات في القرآن الكريم ما دار بين نوح عليه السلام والمشركين من قومه، وهو لا يختلف كثيرا عما كان يدور بين الرسول ﷺ ومشركي قريش... وقد مسّه الجن (سورة القمر آية 9)، ولم يؤمن به إلاّ أراذل القوم والمغلوبين على أمرهم (سورة هود آية 27)**»[3].

المحرر هو المستشرق: **ب. هيلر** - B. Heller.

ثانيا- التحليل والمناقشة: ذكر المستشرق "ماكدونالد -Macdonald" في مادة "السحر" بعض الاتّهامات التي ذكر القرآن أنّ المشركين وجّهوها للنبي ﷺ، لكنّ ما ذكره يحتاج إلى تفصيل، حيث لم يبيّن إن كان المشركون يرون أنّ هذه التّهم صادقة في حق النبي ﷺ، أم أنهم قالوا بذلك جحودا وصداً للناس عن دعوته.

كما أنّ إطلاق هذه التّهم عليه؛ تدفع إلى التساؤل عما إذا اقتصر توجيه هذه الدعاوى الباطلة من قِبل المشركين على النبي محمد ﷺ مع قومه، أم أنّ الأنبياء السابقين له واجهوا أيضا التّهم نفسها من مشركي أقوامهم؟ وهو ما أشار إليه المستشرق "ماكدونالد-Macdonald" في مادة "السحر"، وبيّنه المستشرق "هيلر-Heller" في مادتي "موسى" و"نوح".

[1]– قولهم بتلك التّهم جحودا مع علمهم ببطلانها: لَمّا جاء النبي محمد ﷺ أهلَ مكة بالهدى والبينات من ربّه، اتّهمه كفار مكة بأنّه: ساحر، وكاهن، ومجنون، وشاعر، وغيرها من التّهم التي يعرفون هم أنفسهم أنّها تُهَم باطلة قبل غيرهم، وقد سبق الكلام[4] على بطلان نسبة النبي ﷺ إلى السحر والكهانة وغيرها.

وصعّد مشركو مكة الدعاية الإعلامية ضد دعوة الرسول ﷺ، وتفنّنوا في لَمزه ﷺ بشتّى الأوصاف المخالفة للحقيقة؛ من أجل صدّ الناس عن سبيل الإيمان به، بل كانوا يعقدون لذلك المجامع واللقاءات حتّى يَجتمع رأيهم في أمره ﷺ كما جاءت الروايات بذلك، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن "الوليد بن المغيرة" **اجتمع إليه نفر من قريش** وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معـــشر قريش

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9792/31.

[2]– **هيلر بيرنات** "Bernat Heller" (1857-1943م): مستشرق مجري، اختصّ في دراسة العلوم الإسلامية والعلوم اليهودية، وله أبحاث حول: القصص والأسماء اليهودية في التراث الإسلامي. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 909/3.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9990/32.

[4]– ينظر: ص318 وما بعدها. وسبق بيان بطلان نسبة النبي ﷺ إلى السحر والكهانة وغيرها فتراجع هناك.

إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، **فأجمعوا فيه رأياً واحداً**، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قول بعضكم بعضا... **فقالوا: نقول: كاهن، فقال: ما هو بكاهن**؛ لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه، فقالوا: **نقول مجنون**، فقال: **ما هو بمجنون**؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، فقالوا: **نقول: شاعر**، فقال: **ما هو بشاعر**؛ قد عرفنا الشعر برجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر، **قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر**؛ قد رأينا السحار وسحرهم، ما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، إن أصله لغدق، وإن فرعه لجناً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، **وإن أقرب القول لأن تقولوا: ســـاحر**؛ فقولوا: ساحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»[1].

ففي هذه الرواية[2] دلالة واضحة على أنّ **أكابر كفار مكة لا يقرّون** في أنفسهم بهذه الأوصاف، ويعرفون بطلانها في حقّه ﷺ، لكنّهم قالوا بها **جحوداً وصدّا** للناس عن اِتّباع الرسول ﷺ.

– أمّا "**عتبة بن ربيعة**" - وكان من سادات قريش و لم يسلم- فلمّا سَمِع القرآن من الرسول ﷺ ورجع إلى كفار قريش؛ قال بعضهم لبعض: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به»؛ فقالوا: ما وراءك؟ قال: «ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، **والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة**؛ يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به قالوا: **سَحَرك** والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»[3].

– وهذا "**النضر بن الحارث**" مع كفره وأذيته للرسول ﷺ يخاطب قريشا قائلا: «يا معشر قريش، إنّه والله لقد نزل بكم أمرٌ ما ابْتُليتُم بِمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر، **ولا والله ما هو بساحر، ولا بكاهن، ولا بشاعر**؛ قد رأينا هؤلاء وسمعنا كلامهم، فانظروا في شأنكم»[4].

---

[1]– عند: ابن إسحاق والبيهقي والحاكم، سبق تخريجه: ص323. من هذا البحث.

[2]– بل عقد الإمام البيهقي في "دلائل النبوة، 2/198-207" باباً سَمّاه: "باب **اعْتِرافِ مُشركي قريش بِما في كتاب الله تعالى مِنَ الإعجاز وأنّه لا يُشبِه شيئًا من لُغاتِهم مع كونِهم مِن أهل اللّغة وأَرْباب اللّسان**"؛ ثم ذكر فيه روايات في هذا السياق.

[3]– أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 207-208. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 2/205. من طريق ابن إسحاق عن التابعي محمد بن كعب مرسلا، وحسنه الألباني في "تخريج فقه السيرة (للغزالي)، 108" والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 113".

[4]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 200-201. ودلائل النبوة، البيهقي، 2/201. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 1/559.

فهؤلاء المشركون من سادات قريش **عتبة والوليد والنضر** -مع كفرهم- ينفون كلّ هذه الأوصاف والألقاب الكاذبة عن النبي ﷺ، ويبرهنون على عدم موافقتها لما جاء به محمد ﷺ، لكنّهم اختاروها من أجل تشويه صورته عند الناس، مع معرفتهم -بصريح قولهم- أنّها أوصاف بعيدة كلّ البعد عن حقيقة الرسول ﷺ، ودعوته التي جاء بها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ [1] ﴾ [الأنعام: 33]، قال الطبري: «معنى: إنهم لا يُكذبونك فيما أتيتهم به من وحي الله، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا، بل يعلمون صحته، ولكنهم يَجْحَدون حقيقته قولا فلا يؤمنون به... وكان بعضهم[2] قد تبين أمرَه وعلم صحة نبوّته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوّته **حسدًا له وبغيًا**»[3].

[2]- اتهام الأنبياء السابقين بذلك: أخبر الله عز وجلّ أنّ الأنبياء السابقين للرسول محمد ﷺ نُسبوا أيضا إلى الجنون والسحر ونحوهما، لَمّا جاءوا قومهم بالهدى والبينات من ربهم، فقيل ذلك لنوح عليه السلام كما ذكر المستشرق "هيلر-Heller" في مادة "نوح"، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [القمر: 9]، وقيل ذلك **لموسى** عليه السلام: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: 38-39].

- فقد اتُّهم النبي محمد ﷺ بأنه: ساحر ومجنون؛ كما اتُّهم نوح وموسى عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء والرسل.
- وأنكر مشركو قريش أن يرسل الله نبيا من البشر؛ وهو أيضا ما قاله قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: 24]، وقوم صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: 153-154].

---

[1]- والجمع بين كونهم لا يكذبون محمدا ﷺ ولكنهم يجحدون بآيات الله كما ذكر الإمام الرازي في "تفسيره، 12/518-519" من وجهين: **الأول**: أنّ القومَ لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بنوّتك بألسنتهم وظاهِر قولِهم. **والثاني**: لا يَقُولون إنّك أنت كذّاب؛ لأنّهم جَرَّبوك زمنا طويلا وما وَجَدوا مِنك كذبًا الْبتَّة وسَمَّوْك بالأمين، ولكن جَحَدوا صِحّة ما جئت به من النبوة والرسالة.

[2]- ومع ذلك كان منهم أناس يكذّبون ما جاء النبي به ﷺ ويعتقدون عدم صدقه أو عدم صدق ما جاء به، قال الطبري في "تفسيره، 9/220": «وذلك أن المشركين لا شكَّ أنه كان منهم قوم يكذّبون رسولَ الله ﷺ ويدفعونه عما كان الله -تعالى ذِكره- خصّه به من النبوّة، فكان بعضهم يقول: "هو شاعر"، وبعضهم يقول: "هو كاهن"، وبعضهم يقول: "هو مجنون"، وينفي جميعُهم أن يكون الذي أتاهم به من وحي السماء، ومن تنزيل رب العالمين؛ قولا».

[3]- تفسير الطبري، 9/219-220.

• وكذلك اتُّهم موسى عليه السلام بأنه ساحر وأنّ ما جاء به سحر، كما ذكر "هيلر -Heller" محرر مادة "موسى"؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: 75-76].

فقد تشابهت أقوالهم وحججهم الواهية، لَمّا تشابهت قلوبهم الجاحدة والمعاندة[1]؛ وإنهم إنّما قالوا ذلك عتوّا وطغيانا، فكأنما أوصى المتقدمون منهم المتأخرين بذلك أو اجتمعوا واتفقوا على قول واحد.

هذا التشابه بين الموقفين هو ما عبّر عنه "هيلر -Heller" في نصّه من مادة "نوح" بقوله: «**ما دار بين نوح** عليه السلام **والمشركين من قومه، وهو لا يختلف كثيرا عما كان يدور بين الرسول** ﷺ **ومشركي قريش**».

ونبّه القرآن الكريم إلى هذا التوافق الذي ذكره المستشرق "هيلر" بين أقوال السابقين واللاحقين من المكذّبين بالرسل، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: 52]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: 43].

«فبيَّن الله تعالى أنّ مقالَةَ هؤلاء قد سَبقهم إليها أشباهُهُم ونُظَراؤهم مِنَ الأمَم السّالِفة الْمُكذِّبة لِلرُّسل، تَشابَهت قُلوبُهم، فقالوا مثل مقالَتِهم»[2]؛ قال الطبري: «كما كذبت قريش نبيها محمدًا ﷺ، وقالت: هو شاعر، أو ساحر أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذّبة رسلها الذين أحلّ الله بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاء القوم... من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون، كما قالت قريش لِمحمد ﷺ»[3].

الفرع الثاني: أسلوب الأذيّة الفعلية للنبي ﷺ وأصحابه

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**[أبو] جهل**"[فقرة: 1]: «**كان أحد سادات مكة الذين عادوا النبي عداء شديداً. وقد اشترك بحماس زائد في كل المؤامرات التي دبّرت ضد النبي، ويقال إنه أساء معاملة الضعفاء من المسلمين، كما أنّه قتل امرأة، وكان يتعقب النبي للإساءة إلـــيه، ولم يمنعه من إيذائه إلا رُؤى معجزة، ويخطئ بعض المفسرين فيصلون بين هذه الرؤى وبين ما ورد في القرآن: سورة العلق، الآية السادسة وما بعدها**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

---

[1]– ينظر: تفسير ابن كثير، 400/1.

[2]– المصدر نفسه، 224/7.

[3]– تفسير الطبري، 550/21.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 322/1.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

– وجاء في مادة "**عمّار بن ياسر**": «**وقد كانوا من المسلمين الأوائل [أي: عمار وأبوه وأمّه] وقاسوا أشد العذاب، وقيل أنّ عمّاراً هاجر إلى الحبشة وبعد الهجرة عاد إلى المدينة**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** - H.Reckondorf[2].

– وفي مادة "**بلال بن رباح**": «**أول مؤذن، وهو عبد من أصل حبشي... وقد اجتذبت الدعوة النبوية في أول عهدها بلالا فانضم إلى جماعة النبي الصغيرة، واضطهده أعداء الرسول من أجل ذلك ولكنه ظلّ صادق الإسلام الأمر الذي حبب إلى أبي بكر شراءه وإعتاقه**»[3]. المحرر هو: **بول** - Buhl.

– وفي مادة "**فاطمة**"[فقرة: 1]: «**وتروي كتب السيرة أن أبا جهل كان يلقي على الرسول ﷺ أقذارا أثناء صلاته، وأن فاطمة رضي الله عنها كانت هي التي تطهره وتغسل ما ألقى الكفار من نجاسات وتبكي، وكان الرسول يقول لها: ((لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك))**» ، ثم قالت بعد ذلك: «**أنّها لعنت من أهان أباها وهو يصلي، وكان المعتدي الآثم هو عقبة بن أبي معيط**»[4].

محررة المادة هي المستشرقة: **فيشيا فاجليري** -V.Vaglieri[5].

ثانيا- التحليل والمناقشة: ذكر المستشرق "بول -Buhl" في مادة "[أبو] جهل" والمستشرقة "فاجليري - Vaglieri" في مادة "فاطمة" صورا من الأذية الكبيرة التي كان يلقاها النبي ﷺ وأتباعه من المسلمين على يد "أبي جهل" وغيره من صناديد قريش، وفيما يلي تفصيل ذلك:

[1]– تحريض أبي جهل على تعذيب مَن دخل في الإسلام: كان أبو جهل "عمرو بن هشام" أشدّ الناس عداوة لرسول الله ﷺ وأكثرهم إذاية للمسلمين، وكان يحرّض كفار قريش على تعذيب من دخل في الإسلام من أجل أن يردوهم عن دينهم، وجاء عن النبي ﷺ وصفه: بأنّه ((فِرْعَوْن هَذِهِ الأُمَّةِ))[6]، قال ابن إسحاق: «وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسَفّهن حلمك، ولنُفَيِّلن[7] رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به»[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7510/24.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 73/4.

[4]– المصدر نفسه، إص3، 7708/25-7711.

[5]– سبقت ترجمتها في: ص336.

[6]– عند: **أحمد والطبراني**؛ وسيأتي تخريجه في: ص782.

[7]– من فيّل رأيه: أي أضعفه وخطّأه. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 467/4. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 708/2.

[8]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 279/1.

[2]- تعذيب أبي جهل مع بعض المشركين لآل ياسر: كان عمار بن ياسر ﷺ مولًى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون -وعلى رأسهم أبو جهل- يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء[1] مكة[2]، ومرّ بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال: ((صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ))[3]، فمات ياسر - أبو عمار- من العذاب، وطعن أبو جهل سُمَيّة بنت خياط -أم عمار- بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام[4].

و"سمية أم عمار" هي المرأة التي ذكر المستشرق "بول -Buhl" أنّ أبا جهل قتلها و لم يذكر اسمها.

[3]- إذاية أبي جهل للنبي ﷺ: هذه بعض الحوادث التي جاءت في رواياتٍ صحيحة تبيّن شدة أذيّة أبي جهل للنبي ﷺ ومسارعته في ذلك:

الحادثة الأولى: عن أبي هريرة ﷺ قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمَّد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأَطَأنّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي، زعم لِيَطأ على رقبته، قال: فما فجئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَخندقًا من نار وهَوْلاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: ((لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا)) قال: فأنزلَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [العلق: 6-13]؛ يعني: أبا جهل»[5].

الحادثة الثانية: عن ابن عباس ﷺ: « كان النبي ﷺ يصلّي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ، فزَبَرَه[6]، فقال أبو جهل: إنّك لتعلم ما بِها نـــاد أكثر منّي، فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: 18]، فقال ابن عباس: «واللهِ لو دعا نادِيَه لأَخذتْه زبانية الله»[7].

---

[1]- **الرمضاء:** هي شدّةُ الحر، وتطلق على: الأرضُ أو الحجارة أذا حَميت من شدة وقع الشَّـــمس عليها. ينظر: لســـان العـــرب، ابن منظور، 160/7. وسبل الهدى، الشامي، 362/2.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 320/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 188/3. وفقه السيرة، الغزالي، 103.

[3]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، 438/3. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 282/2، من حديث جابر ﷺ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[4]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 282/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 147/4.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب صفة القيامة، باب قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق: 7]، 203/17-204.

[6]- **فزبره:** أي: زجَر النبيُّ ﷺ أبا جهل. ينظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، 196/9.

[7]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب تفسير القرآن، باب سورة "اقرأ"، 195/9-196. **والحاكم**، المستدرك، كتاب التفسير، 530/2. والحديث صححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي.

الحادثة الثالثة: وهناك روايات أخرى كثيرة في هذا الشأن، منها ما ذكرته محررة مادة "فاطمة" من أنّ: أبا جهل حرض مرّة كفار قريش على إهانة النبي ﷺ وهو يصلي عند الكعبة، فقام أشقاهم "عقبة بن أبي معيط" وألقى سَلاَ الجزور[1] بين كتفيّ النبي ﷺ وهو ساجد، وأنّ النبي ﷺ دعا عليهم، ثم قال ابن مسعود - راوي الحادثة -: فو الله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر[2].

لكنّ المستشرقة "فاجليري -Vaglieri" وقعت في خطأين في سياقها لِهذه الرواية:

الخطأ الأول: أنّها خلَطت بيْن حديث ابن مسعود ﷺ السابق في الصحيحين وبيْن حديث آخر عند أصحاب السّير عن عروة بن الزبير، وذلك عندما ذكرت أنّ الرسول ﷺ قال لفاطمة ﷺ -بعد أن أزالت عنه الأذى-: ((لا تَبْكِي يَا بُنَيَّة، فَإِنَّ اللهَ مَانِعٌ أَبَاكَ))[3]، وهذه العبارة إنّما وردت في حديث عروة بن الزبير لا في حديث ابن مسعود، لأنّ ما جاء في حديث ابن مسعود أنّها لَمّا أزالت عنه الأذى دعا على نفر من قريش، كما ورد في حديث ابن مسعود أنّه ألقى جزوراً بين كتفيه وهو ساجد عند الكعبة، بخلاف ما ورد في حديث "عروة" بإنّه ألقى التراب على رأسه ثم دخل النبي ﷺ بيته فغسلته عنه فاطمة ﷺ.

فالروايتان متباينتان في السياق؛ ويظهر أنّهما في حادثتين مختلفتين لكن المستشرقة "فاجليري-Vaglieri" خلطت بينهما.

والخطأ الثاني: هو أنّها ذكرت في البداية أنّ "أبا جهل" هو مَن ألقى الأقذار على النبي ﷺ وهو يصلي، ثم بعد ذلك بصفحات نقضت ذلك وقالت بأنّه "عقبة بن أبي معيط"، والصواب: أنّ الذي رمى الأقذار عليه هو "عقبة بن أبي معيط"، وأنّ الذي حرّضه على ذلك هو أبو جهل، كما هو مقرّر في بعض ألفاظ الحديث[4].

وهذا يدلّ على مدى التشويش الذي وقعت فيه المستشرقة في تحرير رواية حادثة من السيرة النبوية.

واكتفيت بالتركيز على الروايتين الأوليين لعلاقتهما بسورة "العلق"، حيث ذهب المستشرق "بول-Buhl" في مادة "[أبو] جهل" إلى تَخطئة الربط بين حادثة منع أبي جهل للنبي ﷺ من الصلاة عند الكعبة وبين الآيات الواردة في أواخر سورة العلق، ونَسَب هذا القول إلى **بعض المفسرين**.

---

[1]- **سَلاَ الجزور:** هي الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة والجزور. **والجزور:** هو ما يجزر من الإبل، أي: يذبح ويقطع. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 455/1 و90/10.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى، 767/1. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، 210/12. من حديث ابن مسعود ﷺ.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 416/1. وتاريخ الطبري، 344/2.

[4]- ينظر: فتح الباري، 455/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 148/1-149.

بيد أنّ روايات السيرة الصحيحة وأقوال المفسرين تدلّ على أنّ "بول-Buhl" هو المخطئ من أوجه:

أ)- أمّا قوله: "**بعض** المفسرين" فهذا الكلام يوهم أنّ الربط بين حادثة منع أبي جهل النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة وآيات سورة العلق هو قول ذهب إليه **بعض المفسرين** فحسب، وهذا غير صحيح؛ بل هو **قول جلّ المفسرين** من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة التفسير، فقال به: ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وقتادة[1]، وهو ما ذهب إليه عامة المصنفين في التفسير من المتقدمين والمعاصرين: كالطبري والبغوي وابن الجوزي وابن كثير وابن عاشور وغيرهم[2].

وهو القول الذي عزاه الإمام الرازي إلى: **أكثر المفسرين**، ثم ذكر **قولا ثانيا** مفاده: أنّ المراد كلّ إنسان ينهى عن الصلاة وطاعة الله[3]؛ لكن حتّى هذا القول الثاني -الذي ذكره الرازي- يمكن إدراجه ضمن القول الأول لكونه يدور في فلكه، ولا تنافي بينهما البتة؛ لأنّ «هذه الآية وإن نزلت في حـــقّ أبي جهل، إلا أن كلّ من ينهى عن طاعة اللّه فهو شريك في وعيد أبي جهل»[4]؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، زيادة على أنّ القول الثاني الذي ذكره الرازي لم يعزه لأحد وهو قول يقتضيه القول الأول، لذا لم يذكره أكثر المفسرين على أنّه قول آخر مستقل عنه.

فالقول الذي خطّأه "بول-Buhl" هو قول عامة المفسرين -إن لم يكن قول الجميع- لا قول بعضهم كما قال المستشرق، وكأنّه قصد بهذا الإيهام الإيماءَ إلى أنّ هذا القول ليس قولا معتبرا عند جميع المفسرين، فيمكن تخطئة من قال به، لكنّ الواقع العلميّ يثبت خطأ إطلاقه هذا، ويبيّن قوّة هذا القول؛ **أوّلا:** بالروايات الصحيحة الواردة فيه كحديث أبي هريرة رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنه السابقين وغيرهما، **وثانيا:** بكثرة القائلين به من المفسرين المتقدمين والمتأخرين.

ب)- لم يستند المستشرق "بول-Buhl" إلى أيّ دليل علمي في تخطئته للمفسرين القائلين بهذا القول، وحتّى عبارته "بعض المفسرين" التي قد تبدو أنّها تدعّم ما يقوله لأوّل وهلة، تبيّن بعد الرجوع إلى مصنفات المفسرين وأقوالهم في المسألة ما فيها من الخطأ والإيهام.

ج)- الرؤيا المعجزة التي أشار إليها "بول-Buhl" هي ما جاءت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق حين فرّ أبو جهل وقال: «إِنّ بَيْنِي وبَيْنَه لَخَندقًا من نارٍ وهوْلاً وأجْنِحةً»، وهي معجزة غيبية حاول المستشرق نفيها والتشكيك فيها، بإنكار أن يكون في القرآن الكريم ما يدعّمها ويثبتها.

---

[1]- تفسير عبد الرزاق، 443/3. وتفسير الطبري، 533/24-534.

[2]- ينظر على الترتيب: تفسير الطبري، 533/24. وتفسير البغوي، 281/5-282. وتفسير ابن الجوزي، 467/4. وتفسيـــر ابن كثير، 438/8. والتحرير والتنوير، 443/30-444. والتفسير المنير، الزحيلي، 323/30-324.

[3]- تفسير الرازي، 219/32.

[4]- التفسير المنير، 326/30.

د)– اعتمد المستشرق على التمويه والإيهام المنافي للأمانة العلمية، من أجل إنكار الأمور الغيبية والمعجزات النبوية التي جاءت في هذه الحادثة، وهو ما يبيّنه ابن عاشور في قوله: «وهذه الآيَةُ معجزةٌ خاصّةٌ مِنْ معجزات القرآن؛ فإنّه تَحدّى أبا جهلٍ بهذا، وقد سَمِع أبو جهل القرآن وسَمِعه أنْصارُه، فلم يُقْدِم أحد منهم على السطو على الرّسول ﷺ مع أنّ الكلامَ يُلْهِب حَمِيّته»[1].

[4]– إذاية المشركين لبلال ﷺ: من الذين عُذِّبوا عذابا شديدا من أجل إسلامهم "بلال بن رباح" ، فقد لاقى من "أمية بن خلف" أنواعًا من الأذى، وألوانًا من التعذيب لا يصبر عليها إلا مؤمن قوي الإيمان، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره، ثم يضع حجرًا على صدره، ويقول له: ستظل هكذا حتى تكفر بمحمد وتؤمن باللات، ولكن بلالا لا يعبأ بالآلام ولا بالبلاء، ويأبى إلا أن يعلن عن صادق إيمانه، فلا ينفك يردد ويقول: «أَحَد، أَحَد»، ثم اشترى أبو بكر بلالاً وأعتقه[2].

وهذا التفصيل الذي جاء في مادة "[أبو] جهل" ومادة "بلال" من المستشرقَيْن يستفاد منه ما يلي:

أ)– إثبات "بول-Buhl" و"فاجليري-Vaglieri" تعذيبَ المشركين للمستضعفين من المسلمين من أجل فتنتهم في دينهم، خلافا لبعض المستشرقين الذين أنكروا اضطهاد المشركين للمسلمين في مكة.

ب)– إثباتهما للأذية الشديدة التي لقيها النبي ﷺ ومن آمن به في بداية الدعوة بمكة.

الفرع الثالث : حماية أبي طالب للنبي ﷺ ودفاعه عنه

– جاء في مادة "**[أبو] طالب**"[فقرة: 1]: «**وعندما بدأ أهل مكة يضطهدون النبي لِمهاجمته عقائدهم ناصره أبو طالب بصفته رب الأسرة، ورفض أن يتخلى عن القيام بهذا الواجب الأبوي رغم اعتراض المكيين واحتجاجهم. وحذا حذوه بقية بني هاشم عدا أبي لهب... على أن النظرية الشائعة التي لا شك في صحتها، هي أنّ أبا طالب –مع أنه ظلّ مخلصا تمام الإخلاص لابن أخيه– كان يعتـــبر دعوته وهما من الأوهام، ولَمّا كانت هذه النظرية لا توافق العلويين بحال فقد لفقوا جملة أحاديث تقول بإسلامه مع تفاوتها في النّص على ذلك صراحة، ونتج عن هذا أن تقدم خصوم العلويين بأحاديث أخرى يصف النبي فيها العذاب الذي سوف يلاقيه عمه المشرك في النار، ذلك العذاب القليل من غير شك**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول**–Buhl[4].

---

[1]– التحرير والتنوير، 452/30.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 277/1–278. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 175/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 342/1. والقول المبين، النجار، 121.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 361/1–362.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

تكلّم المستشرق "بول- Buhl" في نصّه المذكور من مادة "[أبو] طالب" عن الحماية والدّعم الذي كان يقدّمه له عمّه أبو طالب، لكن هناك بعض الملاحظات على ما ذكره أسوقها فيما يلي:

أولا- حماية أبي طالب للنبي ﷺ: من الأمور المشهورة في السيرة النبوية أنّ: أبا طالب كان يحوط النبي ﷺ ويغضب له وينصره، وكان يحميه ويردّ عنه كلّ من يؤذيه وهو مقيم على دين قومه[1]، بخلاف عمّه أبي لهب الذي ناصب النبيَّ ﷺ العداءَ مع مشركي قومه، قال ابن إسحاق: «وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، دعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه... إلا ما كان من أبي لهب»[2].

ثانيا- نظرة أبي طالب لدعوة النبي ﷺ: أما قول "بول -Buhl" بأنّه "**كان يعتبر دعوته وهما من الأوهام**": فهو قول تأباه القرائن التاريخية التي تذكر أنّ أبا طالب وغيره من مشركي قريش لم يكونوا يكذّبون النبي ﷺ بل كانوا يجحدون ما جاء به تعنّتا[3] أو لمقاصد أخرى في نفوسهم[4].

كما أنّ أبا طالب لم يكن يكذّب النبي ﷺ، كيف وهو الأعلم بصدقه وأمانته واستقامة ما جاء به من البينات والهدى، وهو ما أفصح عنه في غير ما مناسبة كما جاء في الروايات، ففي حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه: أنّ كفار قريش لَمّا شَكَو لأبي طالب رسول الله ﷺ، قال لهم أبو طالب: «والله ما كذَبَنا ابن أخي قطُّ فارجعوا»[5].

لكن ما حمل أبا طالب على البقاء على دين قومه هو تمسّكه ببعض الأعراف الجاهلية العمياء، وخشيته أن يلومه قومه في مخالفته دين آبائه، وهو ما صرّح عنه بنفسه في بعض أشعاره كقوله:

واللَّه لَنْ يَصِلوا إليك بجـــمْعِهِمْ ** حـــتّى أُوَسَّدَ فِي التّراب دفينَا
فامْض لأَمْرِك ما عليك غَضاضةٌ ** أبْشِرْ وقَـــرَّ بذاك مِنك عُيونَا
ودَعوْتَني وعَلِمْتُ أنّك ناصِحِي ** فلقدْ صَدَقت وكنت قِدْمُ أمينَا
وعَرضْتَ دينًا قد عَـــرفتُ بأنّه ** مِنْ خَيْر أديـــان البَريّة ديـــنَا
لولا الْمَلامةُ أو حَذاري سُبّـــة ** لَوَجَدْتَني سَمحًا بذاك مُبـــينَا[6]

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 243/7. والسير والمغازي، ابن إسحاق، 148-155. والسيرة الصحيحة، العمري، 183/1.

[2]- السير والمغازي، 148-150. والبداية والنهاية، ابن كثير، 125/4.

[3]- ينظر كلام ابن حجر في المعنى في ما يتعلّق "بأبي طالب" خاصّة في: الإصابة، 200/7.

[4]- ينظر: ص373-374.

[5]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، 668/3. **وابن إسحاق**، السير والمغازي، 155. وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة، 194/1"، وأكرم العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 160/1".

[6]- السير والمغازي، ابن إسحاق، 155. والبداية والنهاية، 108/4-109.

فهذه الأبيات تبيّن بعض أسباب عدم إيمان أبي طالب، وتؤكّد -بتصريحه- أنّه لا يعتبر الدين الذي جاء النبي ﷺ وهما بل يعتبره من خير الأديان، وإن صدّته عنه بعض التقاليد الجاهلية.

قال ابن كثير: «وقد قدّمنا... ما قالَه [أي: أبو طالب] فيه [أي: في النبي ﷺ] منَ الْمَمَادح والثّناء، وما أظْهَر له ولأصحابه من الْمودّة وَالْمحبّة والشَّفقة في أشعاره التي أسْلَفْناها، وما تَضمّنَتْه من العيب والتّنَقُّص لِمَنْ خالَفه وكذَّبه، بتلك العبارة الفصيحة، البليغة، الهاشِميّة، الْمُطّلِبيّة، التي لا تُدانَى ولا تُسامى، ولا يُمْكِن عربيًّا مُقاربَتُها، ولا مُعارضَتُها، وهو في ذلك كُلّه يَعْلم أنّ رسول الله ﷺ صادقٌ، بارٌّ، راشدٌ... ولكنْ مع هذا لَمْ يُقدِّر الله له الإيمان»[1].

وهو الأمر الذي يبيّنه الحديث الصحيح في قصّة وفاته، وفيه: أنّ النبي ﷺ لَمّا دعاه إلى قول "لا إله إلا الله"؛ قال أبو طالب: «لوْلا أنْ تُعيِّرني قريش، يقولون: إنّما حَمَله على ذلك الجَزَع؛ لأَقْررتُ بِها عَيْنك»[2].

بذلك يُعلم أنّ ما قرّره "بول-Buhl" بشأن نظرة أبي طالب لدعوة النبي ﷺ هو الوهم والغلط، لعدم موافقته للوقائع التاريخية، التي تدلّ على خلاف ما قاله تماماً.

ثالثا- الروايات في وفاة أبي طالب على الكفر وقيمتها العلمية:

[1]- ذكر المستشرق "بول-Buhl" أنّ العلويين لفّقوا جملة من أحاديث تقول بإسلامه؛ فهذا القول وإن كان صحيحا على العموم إلاّ أنه لا يستقيم إطلاق هذه التهمة على "العلويين" هكذا دون تقييد، فهو إطلاق موهم لا تقرّه القواعد العلمية والمنهجية، ولهذا نجد الإمام ابن حجر أكثر دقّة ومنهجية عندما فصّل هذا الأمر في "الإصابة"، قال ابن حجر: «ولقد وقفت على تصنيف **لبعض** الشيعة أثبت فيه إسلام أبي طالب»، ثم ذكر جملة من الروايات التي جاءت في هذا المصنّف، ونقدها سندا ومتنا، وبيّن ما فيها من الضعيف والواهي والمناكير، وحدّد مخرج الضعف، والمتهم فيها، كما بيّن عدم دلالة ما استندوا إليه من الروايات الصحيحة على ذلك[3].

وهو ما عبّر عنه بعبارة موجزة في موضع آخر حيث قال: «ووَقَفْت على جزءٍ جَمَعه بعضُ **أهل الرّفض** أكْثرَ فيه من الأحاديث الواهية الدّالّة على إسلام أبي طالب، ولا يَثْبُت من ذلك شيءٌ»[4].

[2]- إذا كان في الشطر الأول من عبارة المستشرق "بول -Buhl" بعضُ الصواب، فإنّ الشطر الثاني من عبارته كان مجانبا تماما للصواب، عندما قال: «**ونتج عن هذا أن تقدم خصوم العلويين بأحاديث**

---

[1]- البداية والنهاية، 314-315.

[2]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، 298/1.

[3]- ينظر: الإصابة، 189/7-202.

[4]- فتح الباري، 244/7.

أخرى يصف النبي فيها العذاب الذي سوف يلاقيه عمه المشرك في النار»، والحديث الذي أشار إليه محرر المادة أنه يصف عذاب أبي طالب، جاء من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ: أنّه قال للنبي ﷺ: «مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟»، قال ﷺ: ((هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ))[1]، ومن حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنّ النبي ﷺ –ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ– فقال: ((لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ))[2]، وحديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ))[3]؛ قال ابن حجر: «فهذا شأن من مات على الكفر، فلو كان مات على التوحيد لنجا من النار أصلا، والأحاديث الصحيحة، والأخبار المتكاثرة طافحة بذلك»[4].

فهذه الأحاديث في الصحيحين، وقد حاول المستشرق هنا التشكيك في صحّتها، وهو بذلك يجعل من هذه الأحاديث التي هي في أعلى درجات الثبوت والصحة من وضع خصوم العلويين، ولا يخفى ما في ذلك من الطعن في مصداقية الصحيحين.

واستند في ردّ هذه الروايات الصحيحة إلى الخلافات السياسية والمذهبية بين العلويين وخصومهم على سبيل الإطلاق والإبهام، وهو افتراض خاطئ تردّه الأدلة العلمية والمنهجية، ومنها:

أ)– أنّ المستشرق عندما قدّم هذا الافتراض متعذّرا له بالخلافات السياسية والمذهبية لم يبيّن من هم المتهمون بوضع هذه الأحاديث، أو في أيّ زمن وضعت حتى تُعلم طبقتهم وما إلى ذلك من أحوالهم، كما فعل ابن حجر في نقده لروايات بعض الشيعة في هذا الموضوع على ما سبق ذكره، فدعواه جاءت عريّة عن هذه التفاصيل المهمّة التي تجعل من الممكن مناقشته مناقشة علمية دقيقة مبنية على الشواهد والقرائن التاريخية، لأنّ رواة هذه الأحاديث معروفون وأحوالهم معروفة مدوّنة، بحيث لا يصعب معرفة مخرج الوضع وتحديد مورده، لكن المستشرق اكتفى بالعموميات التي يتعذّر بها المستشرقون كلّما وردت روايات يرون فيها مدحا أو ذمّا لأحد العلويين أو خصومهم، واتخذوا ذلك ذريعة للطعن في جملة من أحاديث الصحيحين من بينها الحديثين السابقين وغيرهما، لكن البحث العلمي يستلزم التدقيق والبيان لإثبات فرضية ما، خاصة إن كانت تخالف الثوابت العلمية الصحيحة.

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، 242/7-243. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، 104/3. واللفظ للبخاري.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، 243/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، 105/3. واللفظ للبخاري.

[3]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، 106/3. **وأحمد**، المسند، 387/4.

[4]– الإصابة، 202/7.

ب)– أنّ أحاديث وفاة أبي طالب على الكفر لم يرْوِها خصوم العلويين فحسب، بل جاءت من روايات العلويين أنفسهم، ومن ذلك مثلا: حديث علي بن أبي طالب ﷺ: أنّه أتى النّبيّ ﷺ فقال: إنَّ أَبَا طَالِب مَاتَ، فَقَالَ: ((اذْهَبْ فَوَارِهِ))، قَالَ: إِنَّهُ **مَاتَ مُشْرِكًا**، قَالَ: ((اذْهَبْ فَوَارِهِ))، فَلَمَّا وَارَيْتُهُ رَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: ((اغْتَسِلْ))[1]، وكذلك حديث العبّاس السابق في الصحيحين.

ج)– أنّ وفاة أبي طالب على الكفر ثبتت من أحاديث أخرى كثيرة الطرق ومختلفة المخارج[2]، فكيف يجتمع كلّ هؤلاء الرواة من أقطار مختلفة على هذا الغرض الذي افترضه المستشرق محرر المادة.

د)– أنّ القواعد العلمية الدقيقة التي وضعها المحدثون لكشف الكذب والوضع في الأحاديث كفيلة بردّ أيّ حديث وُضع لغرض سياسي أو مذهبي، وأحاديث الصحيحين مرّت على مجموعة كبيرة من النقاد وصيارفة الحديث في أعصار مختلفة، ولو كان في أحاديثها ما ذكره "بول-Buhl" لكانوا الأولى بردّها وإنكارها، كيف والمحدثون هم أوّل مَن نبّه إلى أثر الخلافات السياسية والمذهبية في وضع الأحاديث.

هـ)– كما تَرِد على افتراض المستشرق جملة إشكالات، هي: ماذا يضرّ "خصوم العلويين" أن يكون أبو طالب أسلم أم لا؟ وهل عدم إسلام أبي طالب يعدّ طعنا في علي بن أبي طالب ﷺ ؟ ولِماذا لم يطعن "خصوم العلويين" في الروايات الكثيرة التي تبيّن دفاع أبي طالب عن النبي ﷺ وذبّه عنه، ويضعوا أحاديث تناقضها - كما فعلوا في إسلامه بزعم المستشرق "بول"-؟! هذه التساؤلات تبيّن أنّ قول المستشرق "بول" مجرّد افتراض واه، لا تثبته الشواهد التاريخية ولا القواعد العلمية.

الفرع الرابع : إسلام "حمزة" و"عمر" وتقويتهما لصفّ المسلمين

أولا- إسلام حمزة ﷺ: – جاء في مادة "**حمزة**"[فقرة: 2]: «**وفي أول الأمر وقف حمزة من الدين الجديد موقف العداء شأنه في ذلك شأن سائر بني هاشم، على أن لجاج أبي جهل في خصومة النبي استثاره، ومن ثم يقال إنه دخل في الإسلام بعد نزول الوحي على محمد بسنتين، أو بستٍّ في روايات أخرى**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens[4].

كان إسلام حمزة ﷺ في مبدأ أمره عن حمية واندفاع بسبب العصبية القبلية التي كانت تمتلئ بها نفوس العرب آنذاك؛ ولكن لم يلبث أن شرح الله صدره للإسلام.

وذلك: أن أبا جهل مرّ بالرسول ﷺ يومًا عند الصفا، فسبّه وشتمه وأسْمعه ما يكـــره فأعرض عنه النبي ﷺ ولم يرد عليه بكلمة، وكان حمزة رجلاً قوياً من أعزّ رجالات قريش وأشدّهم شكيمة، فلما

---

[1]– أخرجه: **النسائي**، السنن (مع السندي)، كتاب الطهارة، باب الغسل من مواراة المشرك، 119/1. **وأحمد**، المسند، 153/2. وصححه ابن خزيمه وابن حجر. ينظر: الإصابة، 200/7.

[2]– ينظر الروايات في وفاة أبي طالب: تاريخ الإسلام، الذهبي، 610/1 إلى614. والبداية والنهاية، الذهبي، 307/4 إلى313.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/8.

[4]– سبقت ترجمته في: ص211.

رجع من صيده في ذلك اليوم علم بما أصاب ابن أخيه من سفاهة أبي جهل، فامتلأ غضبًا، وذهب إلى الكعبة و لم يقف مسلِّمًا على أحد ممن كان عندها، وقصد أبا جهل وقال له: كيف تسبّ محمدًا وأنا على دينه؟ وضربه بقوسه وتحدّاه، وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل، فمنعهم وقال: دعوا أبا عمارة؛ فإني والله لقد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحا، ثم أعلن حمزة إسلامه ووقف في صفّ المسلمين[1].

قال ابن إسحاق: « فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع؛ فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه... فكان حمزة ممن أعز الله به الدين»[2].

ثانيا- إسلام عمر بن الخطاب ﷺ : – جاء في مادة "**عمر بن الخطاب**": «**لقد عادى عمر بن الخطاب الإسلام معاداة شديدة في بداية الأمر، لكنه – بعد أن أسلم – تَحول إلى الطرف النقيض فراح يدافع عن الإسلام بالشدة نفسها التي كان يعاديه بها من قبل. وربّما أثّرت هذه الحقيقة في الروايات المتعلقة بإسلامه وهو ما تقدمه لنا على أن ذلك تَمّ فجأة عندما استمع عمر ﷺ – مصادفة – لبعض آيات من القران الكريم كانت تُتلى في بيت أخته فاطمة التي كانت قد أسلمت مع زوجها سعيد بن زيد... وكانت نصرته للإسلام ومؤازرته له ذات نفع كبير بسبب شخصيته القوية أكثر منها بسبب عشيرته**»[3]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[4].

– وجاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 24]: «**وقد ذكر عروة بن الزبير أن محمداً ﷺ نجح في استمالة بعض رجال مكة البارزين (ومن بينهم عمر بن الخطاب) إلى رسالته، وذلك بعد هجرة عدد من أتباعه إلى الحبشة**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

كان عمر بن الخطاب رجلاً قوياً مهيباً، وكان في جاهليته من ألدّ أعداء الإسلام، ومن أشد الناس إيذاء للمسلمين، وكان رسول الله ﷺ يرى أنّ في إسلامه أو إسلام أبي جهل كسبا كبيرا للإسلام والمسلمين، فلذلك كان يدعو الله أن يهدي أحد الرجلين إلى الإسلام، فعن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ؛ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ))[7]؛ وقد استجاب الله الدعاء، فكان أحب الرجلين عمر بن الخطاب ﷺ[8].

---

[1]– ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 171. والقول المبين، محمد النجار، 131.

[2]– السير والمغازي، 171-172.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7499/24.

[4]– سبقت ترجمته في: ص95.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9124/30.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

[7]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب المناقب، باب مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، 115/10؛ وقال الترمذي: حسن صحيح. **وأحمد**، المسند، 506/9.

[8]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 351/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 177/1.

وقد كان إسلام حمزة ﷺ قبل أيام من إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، وكان إسلام عمر بعد هجرة الحبشة الأولى[1]، كما ذكر "بول -Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ".

فلمّا أسلم عمر ﷺ اعتزّ به الإسلام، وصلى المسلمون عند الكعبة دون أن يتعرض لهم المشركون؛ قال ابن مسعود ﷺ: «ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر»[2]، وقال أيضاً: «والله مَا اسْتَطعْنا أن نُصلّي عند الكعبة ظاهرين حتّى أسْلَم عُمر»[3].

لقد كان إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما بحقّ فتحًا وأساسًا متينًا، أعز الله به الإسلام والمسلمين[4].

أمّا قصّة إسلام عمر التي ذكرها المستشرق "دلافيدا-della vida" فجاءت من رواية ابن إسحاق دون سند[5]، ومن مرسل الزهري بسند صحيح إليه[6]، قال أكرم ضياء العمري: «قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها وضرب زوجها سعيد بن زيد، ثم اطّلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه، لم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة»[7]؛ أي: على منهجية المحدثين.

ثُم قال العمري: «ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر وروعة تصويره لمشاهد القيامة، وصفة الجنة والنار، كان له تأثير كبير في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به، وعدم ثبوت الروايات حديثياً لا يعني حتمية عدم وقوعها تاريخياً»[8].

ولكن لا يمنع ذلك من الاستشهاد بتلك الروايات[9] ما دام لا يوجد ما يعارضها أو يخالفها، خاصة وأنّها جاءت عن ابن إسحاق والزهري وهما إماما هذا الشأن والمقدمان فيه، ولا يوجد ما يُعارضها، ولهذا نجد الحافظ ابن حجر يقرّر أنّ: الباعث لعمر ﷺ على دخوله في الإسلام ما سمع في بيت أخته فاطمة من القرآن[10].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 342/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 177/1. والقول المبين، النجار، 130.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ، 53/7.

[3]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، 90/3. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 342/1. والقول المبين، 130.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 343/1-344. ودلائل النبوة، البيهقي، 219/2.

[6]- ينظر: مصنف عبد الرزاق، 325/5-326؛ ووردت القصّة من طرق أخرى ضعيفة السند: أوردها بالتفصيل: محمد بن طرهوني في "صحيح السيرة، 319/2-329"؛ وحسّن القصّة بمجموع طرقها.

[7]- السيرة النبوية الصحيحة، 180/1.

[8]- المصدر نفسه، 181/1.

[9]- وردت القصّة من طرق أخرى ضعيفة السند: أوردها بالتفصيل: محمد بن طرهوني في "صحيح السيرة، 319/2-329"؛ وحسّن القصّة بمجموع طرقها.

[10]- ينظر: فتح الباري، 222/7.

الفصل الثاني:
من هجرة الحبشة إلى ما قبيل الهجرة للمدينة

وفيه أربعـــة مباحث:

المبحث الأول: الهجرة إلى الحبشة بعد اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأتباعه

المبحث الثاني: قصة الغرانيق والمقاطعة العامة وخروج النبي ﷺ إلى الطائف

المبحث الثالث: نظرة "دائرة المعارف" إلى حادثة الإسراء والمعراج

المبحث الرابع: التحضير للهجرة إلى المدينة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : الهجرة إلى الحبشة بعد اضطهاد الْمشركين للنبي ﷺ وأتباعه

المطلب الأول : التشكيك في اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأتباعه المسلمين

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**أمّة**"[فقرة: 1]: «**وقد أرسل الله لكل أمة رسولا (سورة الأنعام، آية 42. سورة يونس، آية 47)... ولكن هؤلاء الرسل أوذوا وكذّبوا كما وقع لِمحمد (سورة المؤمنون، آية 44. وسورة العنكبوت، آية 18)... وقد كُذّب وأوذي أشدّ الإيذاء، شأن من سبقه من الرسل...**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ر.بارت** – R.Paret[2].

– وفي مادة "**عـاد**": «**وقد عاملوا الرسول الذي أرسل إليهم، وهو أخوهم هود بِمثل ما عامل المكيون محمداً ﷺ من بعد سواء بسواء، فأرسل الله عليهم ريحا صرصراً عاتية صرعتهم إلا هودا وقلة من المتقين**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 25]: «**وتقص الروايات بتفصيل واف ما لقيه محمد ﷺ وأتباعه من الاضطهاد والأذى على أيدي أهل مكة، وهو ما تصوره كتب السيرة على أنه من الأحداث المهمة في حياة محمد ﷺ إبان الفترة المكية، غير أنها للأسف روايات غير واضحة قابلة لتفسيرات هي الأخرى غامضة**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

نجد المستشرق "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" يحاول إنكار اضطهاد مشركي مكة للنبي ﷺ وأتباعه، وهو إنكار لأمر مستفيض مشهور في السيرة النبوية لا يمكن لأحد تجاهله إلا مكابرة وجحوداً، ولهذا عندما أراد المستشرق أن يبرّر قوله هذا ضاقت عليه كلّ سبُل المستشرقين ومناهجهم للتشكيك في أحداث السيرة، و لم يجد دليلاً على قوله إلاّ أنْ يزعم بأنّ الروايات الواردة في ذلك غامضة وغير واضحة، ولَمّا أعوزته التفسيرات المادية للتشكيك فيها جعل تلك الأحداث قابلة لتفسيرات غامضة لا يعرفها هو، ولكنه –على الأقل– يريد فتح الباب ربّما لِمستشرق آخر يفكّ غموضها، وهي نزعة انتقد المستشرق "وات-Watt" اعتمادها من قبل بعض المستشرقين، حيث يذكر

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/632-633.

[2]– سبقت ترجمته في: ص137.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 15/453.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9121.

في مقدمة كتابه "محمد ﷺ في مكة" تهافتهم في ركوب كلّ تفسير فيه نقد لسيرة النبي ﷺ؛ وأنّهم كلّما «ظهر لَهم أيّ تفسير نقدي يبدو معقولا ومنطقيا لواقعة من الوقائع مالوا إلى تصديقه»[1].

ولعلّ المستشرق "بول-Buhl" اعتمد في هذا الافتراض على ما ذكره "وات -Watt" في كتابه "محمد ﷺ في مكة": من أنّ الاضطهاد لم يكن عنيفا، وأنّه عُرِض بشكل مبالغ فيه[2]، لكن المستشرق "بول-Buhl" هنا عرض افتراضه بصورة أكثر تطرّفا من موقف المستشرق "مونتجمري وات".

فهل هذا القول الذي ذكره المستشرق "بول-Buhl" له أثر في كتاباته هو، وكتابات غيره من المستشرقين في "دائرة المعارف"؟ وهل الروايات الواردة في اضطهاد النبي ﷺ وأتباعه غامضة ولا يمكن تفسيرها كما زعَم؟

أولا- كتابات المستشرقين في مواد "دائرة المعارف" تردّ قول المستشرق "بول-Buhl": محرّرو "دائرة المعارف الإسلامية" من المستشرقين وفي مواد عديدة منها يُثبِتون اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه في مكة على سبيل الإجمال والتفصيل، وقد تقدّم إيراد جملة من نصوصهم في العناصر السابقة وكذا في هذا العنصر، وأذكرها إجمالا فيما يلي:

– سبق في **مادة "[أبو] لهب"**: ما ذكره المستشرق "**بارث**-Barth" من إذاية أبي لهب وزوجته للنبي ﷺ بالقول والفعل[3].

– كما سبق في **مادة "مكة"**: ما ذكره المستشرق "**وات**-Watt" مِن بيان ما تعرّض له النبي ﷺ وأصحابه من ضغوط من أجل ترك دينهم[4].

– وتقدّم قريبا في **مادة "[أبو] جهل"** و"**عمار بن ياسر**" ما تعرض له آل ياسر من التعذيب الشديد[5].

– وما أثبتته أيضا "**فاجليري**-Vaglieri" محررة مادة "**فاطمة**": من إذاية المشركين للنبي ﷺ[6].

– وكذا ما ذكره "**ماكدونالد** -Macdonald" في مادة "**السحر**": من تعرض النبي ﷺ للأذى المعنوي والتشويه له ولدعوته، من خلال اتهام المشركين له بأنه: ساحر، وكاهن، ومسحّر[7].

وهذه النصوص كلها تقدّمت في العناصر السابقة، أما عن النصوص التي بين أيدينا فورد فيها ما يلي:

---

[1]– بنظر: محمد ﷺ في مكة، 121-122، وأيضا قبلها: 44.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 246.

[3]– ينظر ما سبق في: ص354-355.

[4]– ينظر ما سبق في: ص363.

[5]– ينظر ما سبق في: ص376-377.

[6]– ينظر ما سبق في: ص377.

[7]– ينظر ما سبق في: ص373-374.

– أثبت المستشرق "**بارت** -Paret" محرر **مادة** "**أمّة**" تَعرُّض سائر الأنبياء والرسل لِما تعـــرّض له النبي ﷺ من الاضطهاد والإيذاء، وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ لم يكن بدعا من الرسل؛ وفي ذلك أيضا تفسير من التفسيرات التي سماها المستشرق "بول" غامضة، أبان عنها أحد زملائه من المستشرقين، بينما تركها المستشرق "بول" غامضة لِحرصه على التعمية عن كلّ ما فيه دلالة على صدق نبوته ﷺ.

وبذلك يُعلم بأنّ **ما جاء** في "**الدائرة**" في مواد أخرى **ينقض قول** "بول-Buhl" ويردّه.

ثانيا- نقض المستشرق "بول-Buhl" لقوله بنفسه في مواد أخرى من "الدائرة": والأعجب من نقض كتابات المستشرقين في "دائرة المعارف" لقول "بول-Buhl"، أن نجد بعض كتاباته هو نفسه في مواد أخرى من "الدائرة" تنقض قوله هنا في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:25" وتردّه، ومن ذلك:

– ما جاء في **مادة** "**[أبو] جهل**" من إثبات المستشرق "بول" نفسه لتعذيب أبي جهل لآل ياسر وقتله لامرأة "ياسر"، ثم ما تعرّض له النبي ﷺ من أذية فعلية من قِبل أبي جهل[1].

– ثم هو نفسه يذكر أيضا في مادة "**بلال**" بعض ما كان يقاسيه بلال ﷺ من التعذيب الشديد[2].

– ثم نصّه المذكور هنا من مادة "**عاد**" يشير إلى سوء معاملة قوم عاد لنبيهم كما فعل مشركو مكة.

فالمستشرق "بول-Buhl" يردّ قولَه بنفسه بِما كـــتبه في هذه المواد؛ فأيّ تناقض هذا؟!

وبذلك يُعلم أنّ الافتراض الخاطئ الذي قدّمه في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:25" ليس له أثر في كتابات المستشرقين في مواد "الدائرة"، بل وحتى في كتاباته هو نفسه، وأنّ قوله ليس سوى افتراضٍ خاطئ مبنيّ على مجرد التمويه والتعمية على الروايات الصحيحة وحقائق السيرة النبوية.

ثالثا- وضوح روايات الاضطهاد من حيث مبانيها ومعانيها ودلالاتها: لم يبيّن "بول-Buhl" مكمن الغموض في روايات اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأتباعه، هل هو في ألفاظها وسياقها؟ أم أنّه في دلالاتها وأبعادها ومقاصدها؟ وإن كان أشار إلى نوع من الغموض - الذي يراه - فيما يدور حولها من تفسيرات وقراءات.

ولَمّا سبق ذكر بعض الاضطهادات المادية والمعنوية **التفصيلية** التي مارسها كفار قريش عـــلى النبِي ﷺ وأتباعه في مكة، أُورِد هنا بعض الروايات التي تتحدّث **إجمالا** على تلك الاضطهادات:

قال ابن مسعود ﷺ - وهو شاهد عيان-: «أوّل من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار، وأمّه سُمّية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في

[1]- ينظر ما سبق في: ص376.

[2]- ينظر ما سبق في: ص377.

الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد وَاتَاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنّه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأعطوهُ الولدانَ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أَحَدٌ، أَحدٌ»[1].

وعن سعيد بن جبير، قال: قلتُ لِعبد الله بن عبّاس: أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ فقال: «نعم؛ والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويُعطّشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي به، حتى أنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة»[2]؛ قال ابن كثير: «وفي مِثْل هذا أَنْزل اللهُ تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: 106]؛ فهؤلاء كانوا مَعْذورين بما حَصَل لَهم مِنَ الإهانة والعذاب البليغ»[3].

وقال ابن إسحاق: «ثُمّ إنّهم عَدَوْا على من أسلَم، واتّبعَ رسولَ الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم؛ يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم»[4].

[1]- فروايات الاضطهاد واضحة لا غموض فيها من حيث مبانيها ومعانيها، وما تجسّده من دلالات وعبر، وهي موافقة للسنن الكونية في اضطهاد الأنبياء والمصلحين في كلّ عصر ومصر.

[2]- كما أنّها واضحة في دلالتها على نبوته ﷺ، من حيث موافقة هذه الحالة المحمدية لحال الأنبياء السابقين له ﷺ، فهو ليس بدعا من الرسل، حيث وقع له ما وقع لغيره من عقبات وأذية في مسيرة الدعوة إلى الله إلى أن حقّق الله عز وجلّ لهم وعده بالنصر والغلبة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأنعام: 34]، وفي حديث كتاب النبي ﷺ إلى "هرقل": لَمّا سأل "أبا سفيان" عن مقارعتهم للنبي ﷺ، جعل "هرقل" ذلك من علامات نبوته، وبيّن أنّ الرسل تُمكّن بعد الابتلاء، فقال: «وسَألتُك: هل قاتَلْتُموه فزَعَمْت أنّكم قاتَلْتموه، فتكون الحرب بينكم وبَيْنَه سجالاً يَنالُ مِنكم وتَنالون منه، وكذلك الرُّسُل تُبْتلى ثُمّ تكون لَهم العاقِبة»[5].

---

[1]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 382/6. **والحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر بلال بن رباح ﷺ، 320/3. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[2]- أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 192. **والبيهقي**، السنن الكبرى، كتاب المرتد، باب المكره على الردة، 363/8. وحسنه الصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 71".

[3]- البداية والنهاية، 148/4.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 277/1.

[5]- عند البخاري ومسلم؛ سبق تخريجه: ص234.

وهذا المعنى قرّره "بول-Buhl" نفسه في مادة "عاد" عندما ذكر أنّ هود عليه السلام عُومل كما عُومل النبي محمد ﷺ من المعارضة والاضطهاد، وكذا ما ذكره "بارت -Paret" في مادة "أمّة"، وهو ما أكّده القرآن الكريم في غير ما آية، منها آية سورة الأنعام [34] السابقة.

فقد اقتضت سنة الله عز وجل ابتلاء الأنبياء وأتباعهم لتمحيص قلوبهم وتطهير أنفسهم، والسمو بهممهم وترسيخ يقينهم وإيمانهم، ثم يكون لَهم بعد ذلك النصر والتمكين.

[3]- وهي واضحة من حيث كونها موافقة للسنن الكونية في اضطهاد دعاة التجديد من الأنبياء وغيرهم من المصلحين والمفكرين في أي عصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات التقليدية المنغلقة، فالاضطهاد أمر معقول يستلزمه المنطق في مثل هذه الأحوال، فكل مصلح يُعارض ويتعرض للأذى هو وأتباعه، يقول المستشرق "بودلي-Bodlay" في هذا المعنى: «ولم يختلف ما لاقاه محمد عمّا لاقاه المسيح، وكان هذا هو الحال مع كلّ مصلح في هذه العصور المحافظة لَما كانت التقاليد هي القانون»[1]، ولهذا توقع ورقة بن نوفل الاضطهاد قبل وقوعه -كما في الصحيح- عندما قال للنبي ﷺ: «لَمْ يَأْتِ رجلٌ قطُّ بِمِثل ما جِئْتَ به إلاّ عودِيَ»؛ وفي رواية: «إلاّ أوذِيَ»[2]؛ فقد «كان محمد ﷺ كريما عند قومه، حبيبا إليهم يألفونه، ويثقون به الثقة المطلقة، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى، فانقلب أكثر من بمكة المكرمة مخالفين، ثم مناوئين لدعوته، مستنكرين لها ابتداء، ومقاومين ومعادين، ومضطهدين في الجملة لمن اتّبعوه»[3].

[4]- من دلالات وقائع اضطهاد النبي ﷺ وأصحابه: من أهمّ التفسيرات المقدَّمة لَها فيما يلي:

أ)- جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، وإظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء، هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 1- 3]؛ وإذا كانت هذه هي سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلا حتى مع أنبيائه وأصفيائه؛ من أجل ذلك أوذي الرسول ﷺ، وأوذي من قبله الأنبياء والرسل، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله ﷺ رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل[4].

---

[1]- الرسول -حياة محمد-، 87.

[2]- من حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين؛ سبق تخريجه: ص281. وينظر: فتح الباري، ابن حجر، 36/1.

[3]- خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 427/1.

[4]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 12/3. وفقه السيرة، البوطي، 78-79.

ب)- كما أنّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنْزِل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد[1]؛ فبقدر إيمان الأتباع بصدق مَن يتّبعونه وصدق ما جاء به يكون تحملهم وثباتهم؛ وفي ذلك دلالة على: صدق دعوة محمد ﷺ **أولا**، وعلى قوة إيمان أتباعه بصدق نبوته وما جاء به **ثانيا**.

وهو المعنى الذي أشار إليه المستشرق "مونتجمري وات-Watt" بوضوح في كتابه "محمد ﷺ في مكة" عندما قال: بأنّ هناك «أساساً طيّباً للاعتقاد في إخلاص محمد ﷺ؛ فاستعداده **لتحمل الاضطهاد في سبيل معتقداته**، وسُموّ **الرجال الذين آمنوا برسالته** والذين اعتبروه قائدا لهم، وعظمة ما تمخضت عنه جهوده من انجازات؛ كل هذا يبرهن على تكامله الأساسي (نظرته الكلية)»[2].

ج)- الابتلاء طريق التمكين؛ فهما مرتبطان ارتباطا وثيقا، فقد جرت سنة الله تعالى ألا يُمكّن لأمّة إلا بعد أن تَمرّ بمراحل مختلفة من الاختبار[3]، قال ابن القيم: «فمَن آمنَ بالرُّسل وأطاعَهم عاداهُ أعداؤهم وآذوهُ فابتُلي بما يؤلِمه، وإن لَم يُؤمن بهم ولَم يُطِعهم عوقِب في الدنيا والآخرة، فحَصل له ما يُؤلِمه... لكنّ الْمؤمن يَحْصُل له الألَمُ في الدّنيا ابتداءً، ثُمّ تَكون له العاقِبَة في الدّنيا والآخرة... واللهُ تعالى **ابْتَلى أولِي العزْم** من الرّسل، فلمّا صَبروا **مكّنهم**»[4]، وقال سيد قطب: «وما بالله -حاشا لله- أن يعذّب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة؛ فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق... وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه... والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث... وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلّمون الراية في النهاية؛ مؤتَمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[5].

د)- واصل الرسول ﷺ وأصحابه الدعوة إلى الإسلام دون تزحزح وسط كلّ تلك العقبات والمضايقات المادية والمعنوية، صحيح أنّ الموانع التي تفنّن مشركو مكة في وضعها في وجه الدعوة

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 50.

[2]- محمد ﷺ في مكة، 121.

[3]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 13/3. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 124.

[4]- زاد المعاد، 13/3.

[5]- في ظلال القرآن، 2721/5.

أبطأت سيرها، لكنّها لم توقفها، «وإذا كان السير بطيئا، فهو متواصل من غير وناء ولا قصور... وإن كانت العقبات، فهي لا تعوق السير، وإن أبطأته»[1]، وذلك يدلّ على عظم ما تحمله النبي ﷺ وأصحابه من الأذى والمكاره في سبيل إنجاح الدعوة.

هـ)- الدلالة على سلمية الإسلام ونبذه للعنف: كان المسلمون -على ضعفهم- يرغبون في الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم، لكن الرسول ﷺ أمر أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر، وعدم مقارعة القوة بالقوة، والعدوان بالعدوان، حرصًا على حياتهم ونظرًا لمستقبل الدعوة، وإمساكًا بزمام الدعوة الوليدة أن يئدها الشر وهي لا تزال غضَّة طرية، ولعل المشركين كانوا يحرصون على مواجهة حاسمة مع الدعوة تُنهي أمرها، لكن الحكمة الإسلامية فوتت عليهم الفرصة[2].

فقد مكث رسول الله ﷺ سنين عديدة وهو يدعو إلى الله بالحجة والموعظة الحسنة، فدخل في الإسلام في هذه الفترة من الدعوة خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وتحمّل المسلمون ولا سيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم من صنوف العذاب والبلاء ألوانا، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، لأن الإسلام إنما غزا القلوب وأسر النفوس بسماحة تعاليمه: في العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، فهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فلا عجب أن أسرعت إلى اعتناقه النفوس، واستجابت إليه الفطرة السليمة، وتحمّلت في سبيله ما تحملت، فاستعذبت العذاب، وركبت الوعر، وضحت بكل عزيز وغال في سبيله[3].

وهذا إنّما يدلّ **بوضوح على سلمية الإسلام وسماحته** رغم ما واجهه من عنف، وأنّ وسيلة دعوته الأولى هي الإقناع واليقين والإيمان[4]، لا الإكراه والبطش والعنف، لذلك لم تنفع كلّ محاولات المشركين العنيفة في ردّ أصحاب النبي ﷺ عن دينهم، لأنّه الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب المطمئنة، وينوّر صفاؤه العقول السليمة.

والحاصل: أنّ هذه التفسيرات والدلالات الروحية التي يحملها هذا الفصل من فصول السيرة النبوية، والتي تصبّ جلّها في صدق نبوته ﷺ ونجاحه في دعوته بعد البلاء وتحمل المشاق، ثم سلمية

---

[1]- خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 475/1.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 158/1-159.

[3]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 93/2-94.

[4]- وإنّما شُرع الجهاد بعد ذلك «لا لإرغام أحد على الدخول في الإسلام -كما زعموا-، وإنما كان للدفاع عن العقيدة، وتأمين سبلها ووسائلها، وتأمين المعتنقين للإسلام، وردّ الظلم والعدوان، ونشر عبادة الله في الأرض». ينظر: المصدر السابق، 95/2.

دعوته في أصلها وفحواها، كلّ هذه التفسيرات وغيرها يأباها المستشرق "بول-Buhl" ويراها غامضة ومستعصية البيان، ما دامت تفسيرات تدعّم نبوته ﷺ، وتبرهن على أنّ مسيرة رسالته كمسيرة غيره من الأنبياء والمرسلين، ولَمّا كان التفسير المادي الذي اعتمده المستشرقون للتّعمية على كثير من المعاني والدلالات الروحية والإيمانية لأحداث السيرة لا يوجد له مدخلا في هذا الحدث[1]، فإنّ كلّ تلك التفسيرات والنتائج التي تخالف أهداف المدرسة الاستشراقية التي ينتمي إليها المستشرق عنده باطلة وغامضة، فهو يسعى – ما استطاع إلى ذلك سبيلا– أن يكيّف أو على الأقلّ يفسّر كل جزئية من جزئيات السيرة النبوية وفق الأهداف الاستشراقية المشككة في نبوة محمد ﷺ.

المطلب الثاني : الهجرة إلى الحبشة وأسبابها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الحبشة**": «ولَمّا كانت مكة قد ازدهرت نوعا ما في عهد محمد فقد أشار النبي نفسه على بعض المكّيين الذين دخلوا في الإسلام بالهجرة إلى الحبشة حتى لا يغريهم أهل قريش بالارتداد عن الدين الجديد الذي اعتنقوه، إلا أنّ المؤرخين المسلمين يزعمون أن ثَمة سببا آخر لهذه الهجرة، فهم يقررون أنه كانت هناك هجرة ثانية إلى الحبشة وأن محمدا أنفذ رسولا يحمل كتابا إلى ملك الحبشة، وهذا كله حديث خرافة»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **جويدي** -I. Guidi[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 26]: «ويتحدث ابن سعد عن هجرتين إلى الحبشة، قائلا إن معظم المهاجرين من الجماعة الأولى عادوا إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، في حين كان معظم مهاجري الجماعة الثانية لا يزالون في الحبشة وقت الهجرة، وحين تركوا الحبشة توجهوا مباشرة إلى المدينة، أمّا ابن هشام والطبري فلا يتحدثان إلا عن هجرة واحدة للمسلمين من مكة إلى الحبشة، غير أن كافة هذه الروايات تتفق على أن اضطهاد المسلمين في مكة كان إلى حد كبير وراء قرار محمد ﷺ إرسال عدد من أتباعه يطلبون المأوى بين مسيحيّي الحبشة، أما "مونتجمري وات" فيذهب في كتابه "محمد في مكة" إلى أن الأمر أكثر تعقيدا مما توحي به الروايات الإسلامية، وأن ثَمة ما يوحي بأن نوعا من الخلاف قد

---

[1]– ذلك أنّ المستشرق أو غيره –في هذه الحادثة بالذات– لا يمكن مثلا أن يفسر تحمل المسلمين لاضطهاد المشركين على أنّه كان طمعا في أرباح مالية ومغانم دنيوية، إذ أنّ وقائع هذه الأحداث لا تسعف هذا التفسير أصلا، لكون الفقراء منهم بقوا على حالهم كما عُذب أيضا أغنياء وتجار ميسورون، بل أحيانا كان من وجوه الاضطهاد التضييق عليهم في أموالهم وأرزاقهم.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 282/7.

[3]– **جويدي إجنتسو** "Guidi Ignazio" (1844–1935م): مستشرق إيطالي، درس العربية في روما، من مؤلفاته: "دراسة نص كليلة ودمنة"، وله دراسات عن "الحبشة". ينظر: المستشرقون، العقيقي، 375/1. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 212.

دبّ بين المسلمين ولعب دوراً في هذه الهجرة، وأن بعض المهاجرين ربّما توجه إلى الحبشة لممارسة التجارة، ربما لمنافسة العائلات التجارية الكبيرة في مكة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** -Buhl[2].

- وفي مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 7]: «**فهاجر بعض أتباعه [أي: أتباع الرسول ﷺ] إلى الحبشة هربا من أذى قريش...**»[3]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** -M. Watt[4].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا- الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة: ثبت أنّ المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين[5]:

أ)- فالهجرة الأولى: كانت في شهر رجب لسنة خمس من البعثة، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[6].

لكن لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلا حتى بلغتهم أخبار تفيد بأنّ أهل مكة قد أسلموا، فقرّروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال [أي: بعد أشهر] من نفس السنة، ثم تبيّن بأنّ الخبر مجرد إشاعة[7].

ب)- أما الهجرة الثانية: فكان عدد المهاجرين فيها اثنين أو ثلاثة وثمانين رجلا سرد ابن إسحاق أسماءهم، ومن النساء ثماني عشرة امرأة، سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها[8].

ثانيا- استدراكات على تفصيل المستشرق "بول" لآراء المؤرخين في التفريق بين الهجرتين:

[1]- جاء سياق ابن سعد للهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة واضحا[9]، أمّا سياق ابن هشام لَهما فكان غير واضح بحيث يوهم القارئ بأنّه يتحدث عن هجرة واحدة إلى الحبشة فحسب[10] كما فهم المستشرق "بول-Buhl"، لكن عند التدقيق يتبيّن أنه ذكر -فيما أورده عن ابن إسحاق- هجرتين إلى الحبشة، لما يلي:

أ)- أن ابن هشام إنّما نقل أخبار هجرة الحبشة عن ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام هي تهذيب لسيرة ابن إسحاق -برواية البكائي-، والروايات عن ابن إسحاق تؤكد تفريقه بين الهجرتين إلى الحبشة، من

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9121-9122.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 31/9597.

[4]- سبقت ترجمته في: ص59.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 7/235. وزاد المعاد، ابن القيم، 1/95. وفتح الباري، ابن حجر، 7/237. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 1/169.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 4/165. وفتح الباري، 7/237. والسيرة الصحيحة، 1/169.

[7]- ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 1/161. وزاد المعاد، 1/95.

[8]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/323-330. وزاد المعاد، 1/95. وفتح الباري، 7/238.

[9]- ينظر: طبقات ابن سعد، 1/149-162.

[10]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/322 وما بعدها.

ذلك قول ابن إسحاق في رواية "يونس بن بكير" لسيرته[1]: «وكانت الفتنة الآخرة التي أخرجت من كان هاجر من المسلمين **بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم** إلى أرض الحبشة»[2]، كما بيّن ابن حجر تفريق ابن إسحاق بين أصحاب الهجرتين في قوله: «وسَرَد ابن إسحاق أهل الهجرة الثانية وهم زيادة على ثمانين رجلا»[3].

ب)- كما أنّ العدد الأول الذي ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق للمهاجرين إلى الحبشة - مع سرد أسمائهم- هو عشرة رجال وأربع نسوة، وقال عنهم: بأنهم أول من خرج من المسلمين إلى الحبشة[4]؛ فهو عدد المهاجرين في **الهجرة الأولى**، ثم ذكر عدداً آخر لهم هو: ثلاثة وثمانون رجلا -مع سرد أسمائهم[5]-؛ وهو عدد أصحاب **الهجرة الثانية**؛ وهذا التّباين في عدّ المهاجرين إلى الحبشة دليل واضح على ذكر ابن هشام لِهجرتين إلى الحبشة لا هجرة واحدة، وإن كان تفريق ابن هشام بينهما غير ظاهر مثل تفريق ابن سعد والطبري، لذا وقع المستشرق "بول" **في هذا الوهم** و لم يكن ما قرّره دقيقا.

[2]- أما ما يمكن اعتباره **خطأً علميا** ظاهراً -لا مجرد وهم- **وقع فيه المستشرق "بول"**: فهو قوله بأنّ الطبري أيضا ذكر هجرة واحدة للحبشة؛ فلئن كان تفريق ابن هشام بين الهجرتين إلى الحبشة غير واضح، فإنّ هذا لا يصحّ عن الطبري؛ لأنّ تفريقه بينهما ظاهر وبيّن، حيث ذكر هجرتين إلى الحبشة في عدة مواضع من كتابه بعبارة صريحة[6].

ثالثا- أسباب هجرة المسلمين إلى الحبشة: ذكر "بول-Buhl" أن الروايات الإسلامية متفقة على أنّ اضطهاد مشركي مكة للمسلمين كان أهم سبب لِهجرتهم إلى الحبشة، وهو ما دلّت عليه الروايات الصحيحة عن عدد من الصحابة كأم سلمة وعائشة وجعفر بن أبي طالب ﷺ وغيرهم[7]؛ وحديث أم سلمة ﷺ "زوجة النبي ﷺ" -وهي شاهد عيان وممن هاجر إلى الحبشة- يصور الظروف

---

[1]- وهذا النص غير موجود في "تهذيب السيرة لابن هشام" وسبق بيان أن هناك اختلافات زيادة ونقصا بين رواةِ سيرة ابن إسحاق؛ ينظر: ص131. من هذا البحث.

[2]- السير والمغازي، 213.

[3]- فتح الباري، 238/7.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/1-323.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، 323/1-330.

[6]- وذلك في قسم "السيرة" من كتابه؛ ينظر: تاريخ الطبري، 329/2، وما بعدها. كما ذكر ذلك أيضا في تراجم الصحابة من مهاجري الحبشة، ينظر: 419/4، 494/11 و506 و532 و554 وغيرها.

[7]- **حديث أم سلمة:** عند "ابن إسحاق" و"البيهقي" سيأتي في الهامش الموالي. وفيه ذكر **جعفر بن أبي طالب** ﷺ السبب نفسه لِملك الحبشة عند كلامه عن حيثيات هجرتهم إلى بلده، كما في لفظ رواية أحمد في: المسند، 173/37.

- أما **حديث عائشة** ﷺ فرواه ابن إسحاق بإسناد حسن: وهو في سياقها لقصة عزم أبي بكر ﷺ على الهجرة إلى الحبشة ثم إجارة ابن الدغنة له. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 372/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 171/1.

التي أحاطت بهذه الهجرة، حيث تقول: «لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لَهم رسول الله ﷺ: ((إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ))؛ فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمناً على ديننا، و لم نخش منه ظلماً»[1].

وكون اضطهاد مشركي مكة للمسلمين هو الباعث على هجرة الحبشة هو ما قرّره أئمة الحديث والسير والتاريخ: كعروة بن الزبير والزهري وابن إسحاق والطبري وابن كثير وغيرهم[2].

أ)– خلفيّة فرضيّة المستشرق "بول": عند الرجوع إلى كتاب المستشرق "وات-Watt" "محمد ﷺ في مكة" نلاحظ أنّ المستشرق "بول-Buhl" لم يعرض رأي "وات-Watt" بصورة كاملة، لأنّ "وات" عند كلامه عن أسباب الهجرة إلى الحبشة لم يقتصر على السبب الذي ذكره "بول-Buhl" عنه بل ذكر أسبابا أخرى لَها؛ **أولها**: الهروب من الاضطهاد، **وثانيها**: البعد عن خطر الارتداد، **وثالثها**: ممارسة النشاط التجاري، **ورابعها**: السعي للحصول على مساعدة حربية من الأحباش[3].

وخامسها: ما ذكره "بول-Buhl" في نصه السابق، وإن كان "وات-Watt" يعتبر السبب الذي طرحه "بول" هنا هو أهمّ تلك الأسباب[4]، فما فحوى هذا السبب؟

ب)– فحوى نظرية "وات-Watt": يظهر من طرح المستشرق "بول-Buhl" أنّه يتبنّى الرأي الذي ذكره عن "وات" في سبب الهجرة إلى الحبشة، حيث يرى "وات-Watt": أنّه وقع انقسام حادّ في الرأي بين الجماعة الإسلامية الناشئة، نتج عنه منافسة بين **مجموعتين** فكريتين: **إحداهما** على رأسها أبو بكر ﷺ، والأخرى على رأسها عثمان بن مظعون ﷺ؛ من أجل ذلك – يرى "وات"– أن الرسول ﷺ أوعز لِمخالفي أبي بكر بالهجرة إلى الحبشة تفاديا للأخطار التي قد تنجم عن هذا الخلاف[5].

---

[1]– أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 213. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 301/2. والحديث حسن لتصريح ابن إسحاق بالتحديث عن الزهري؛ ينظر: صحيح السيرة النبوية، الألباني، 170–180. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 170/1.

[2]– ينظر: طبقات ابن سعد، 159/1. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 321/1. وتاريخ الطبري، 328/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 165/4. وفتح الباري، ابن حجر، 237/7.

[3]– ينظر كتاب "وات-Watt": محمد ﷺ في مكة، 239–241.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 242.

[5]– فصّل المستشرق "مونتجمري وات" رأيه هذا في كتابه: محمد ﷺ في مكة، 239–245.

ج)- الرد على فرضية "وات-Watt" في سبب الهجرة إلى الحبشة: الفرضية التي قدّمها "وات" ونقلها عنه "بول-Buhl" في "الدائرة" ليست إلاّ استنتاجاً واهياً، تردّه الوقائع التاريخية للسيرة، وتبيِّن أنّ ما استند إليه من قرائن لا تصلح أن تكون دلائل لصحّة هذه النظرية، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

[1]- ينبغي ملاحظة أنّ كون الاضطهاد هو سبب الهجرة إلى الحبشة؛ حقيقةٌ تاريخيّة قرّرها عدد من الصحابة الذين واكبوا تلك الأحداث كأم سلمة وعائشة وجعفر بن أبي طالب ﷺ، وهو ما قرّره أيضا عامة علماء السيرة والتاريخ -كما سبق- وذكره "بول-Buhl" نفسه عنهم، ولو وُجد هذا السبب الذي افترضه "وات-Watt" لذكرته الروايات ونقله أئمة الحديث والسير عن هؤلاء الصحـــابة أو غيرهم، لكونهم شهود العيان الذين واكبوا الحادثة، وهم بلا شكّ الأعلم بحيثياتها وملابساتها، خاصة وأنّهم قد تعرّضوا لسرد وقائع الحادثة وأبعادها بالتفصيل فلو كان ما ذكره "وات-Watt" موجوداً لذكروه، وهو ما لم يقع؛ فدلّ ذلك على عدمه أصلا، وهذا الاستدلال غاب عن المستشرق "وات" هنا مع أنّه كان يستند إليه أحيانا في كتابه[1] عندما يقرّر تضعيف افتراض ما بدليل عدم ذكر المؤرخين إياه ونقل الروايات له، لكنه تنكّب عن منهجه هذا هنا فكان ذلك حجة عليه.

[2]- إذا كان السبب الحقيقي للهجرة إلى الحبشة كما قرّره علماء السيرة والتاريخ قائما على دلائل وروايات صريحة عن شهود العيان المواكبين للحدث، فإنّ السبب الذي ذكره "مونتجمري وات-Watt" ليس إلاّ افتراضا خاطئا، لا يوجد دليل صريح يثبته من الوقائع التاريخية أو نصوص الرواة والمؤرخين، بل هو قائم على بعض الاستنتاجات الخاطئة والتأويلات المغرضة، ولم يقل به أحد من علماء السيرة والتاريخ المتقدمين ولا المتأخرين، زيادة على معارضته لِما قرّروه؛ إذ لا يوجد في كتب السيرة والتراجم ما يدلّ دلالة صريحة -أو حتى غير صريحة- على وجود أيّ نـــزاع أو تنافس بين "عـــثمان بن مظعون"[2] و"أبي بكر الصديق" رضي الله عنهما وقع في مكة وأحدث انقساما في الجماعة الإسلامية، فضلا على أن ينحاز لكل منهما أتباعٌ في جماعتين مختلفتين -كما زعم "وات-Watt"-.

[3]- تفنيد الشواهد التي استند إليها "وات-Watt" في افتراضه: إنّ الوقائع التي اعتمد عليها المستشرق "وات" لإثبات نزاع بين أبي بكر وعثمان بن مظعون رضي الله عنهما لا تدلّ على هذا النزاع المزعوم أصلا، حيث استند "وات-Watt" لتقرير فرضيّته إلى ما يلي:

- **الشاهد الأول:** أنّ عثمان بن مظعون ﷺ حاول أن يُدخل في الإسلام بُعدا تقشفيا، أو أمورا متعلقة بالزهد لم يوافق عليها النبي ﷺ.

---

[1]- ينظر على سبيل المثال في: المصدر السابق، 240 و285.

[2]- ترجمته في: طبقات ابن سعد، 300/3. الاستيعاب، ابن عبد البر، 1053/3. الإصابة، ابن حجر، 381/4.

– **الشاهد الثاني:** ما ذكره ابن هشام من أنّ ابن مظعون ﷺ كان قائد المهاجرين إلى الحبشة.

– **الشاهد الثالث:** أنّه وردت مقولة عن عمر بن الخطاب ﷺ يقلّل فيها من شأن ابن مظعون ﷺ.

فهذه الشواهد مجتمعة تدلّ – عند "وات-Watt"– على وجود تنافس ونزاع بين عثمان بن مظعون وجماعته في مقابل أبي بكر وعمر بن الخطاب وجماعتهما[1].

• وجواب **الشاهد الأول:** أنّ سيرة الصحابي الجليل "عثمان بن مظعون" ﷺ تدلّ على أنّه كان رجلا مجتهدا في العبادة عازفا عن ملذات الدنيا، وكانت له حماسة شديدة للإقبال على التعبد شأنه شأن بعض الصحابة الآخرين[2]، لكن النبي ﷺ كان دائِما يعرّفهم بسماحة الإسلام ويبيّن أنّ المنهج الأسلم هو الاعتدال بين رعاية الأمور الدنيوية التي جبل الله الناس عليها، والإقبال على الآخرة والزهد في الدنيا، ولا يعني ذلك البتة أنّ عثمان بن مظعون –ولا غيره– كان يحاول أن يُدخل في الإسلام بُعداً تقشّفيّا من عنده – كما في عبارة المستشرق "وات - Watt" السابقة–، لأنّ اجتهاده في العبادة كان لنفسه و لم يلزم به أحداً غيره، كما أن "ابن مظعون" كان يسلّم لتوجيهات النبي ﷺ في هذا الشأن ويلتزم بها، وأكتفي بذكر روايتين توضحان ذلك: **الأولى:** في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «رَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ على عثمانَ بن مظعون التَّبتُّلَ، ولَوْ أذِن لَهُ **لاَخْتَصَيْنَا**[3]»[4].

والرواية الثانية: هي ما رواه ابن سعد عن أبي قلابة الجرمي مرسلا: «أَنَّ عثمان بْنَ مظعونٍ ﷺ اتَّخذ بيتًا فقَعد يَتعَبّد فيه فبَلَغ ذلك النَّبِيّ ﷺ فأتاهُ... فقال: ((يا عثمانُ إنّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي بالرَّهبانِيّة (مَرَّتَين أو ثلاثًا)؛ وإنّ خَيْر الدّينِ عند اللهِ الْحنيفِيّة السَّمْحة))»[5]؛ فهاتان الروايتان وغيرهما من الروايات[6] فيها بيان ما كان عليه ابن مظعون ﷺ من الزهد والاجتهاد في العبادة، قال ابن الأثير: «وكان من أشد النّاس اجتهادًا فِي العبادة، يصوم النهار ويقوم الليل، ويجتنب الشهوات ويعتزل النساء، واستأذن الرسول ﷺ فِي التبتل والاختصاء، فنهاه عَن ذلك»[7]؛ فهذا غاية ما تدلّ عليه تلك

---

[1]– ينظر: محمد ﷺ في مكة، 243. ويُقارن سياقه بما جاء في: طبقات ابن سعد، 3/301-305.

[2]– ينظر روايات في هذا الشأن: الاستيعاب، ابن عبد البر، 3/1054. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 3/154-155.

[3]– **التَّبتل:** هو الانقطاع عن النكاح وما يتبعه من ملذات الدنيا، والإقبال على عبادة الله، أمّا التبتل في الآية فهو الإخلاص. **والخصاء** أو **الاختصاء:** هو انتزاع الخصيتين اللتين بهما قوام النسل أو تعطيلهما عن عملهما. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 9/148.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء، 9/147. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، 9/251.

[5]– أخرجه: **ابن سعد**، الطبقات الكبرى، 3/302. ورجاله ثقات غير "معاوية بن عياش" لم يُذكر فيه جرح ولا تعديل، لكن الحديث يتقوى بشواهده، فهو صحيح لغيره، وصحّحه ابن حجر في "تغليق التعليق، 2/41-42" والألباني في "السلسة الصحيحة، 4/386".

[6]– ينظر روايات أخرى في معناها: الطبقات الكبرى، 3/301-302. وسير أعلام النبلاء، 1/154-158.

[7]– أسد الغابة، 3/589.

الروايات، وليس فيها ما يشيـــر إلى أنّه كان يرمي من وراء ذلك إلى الإحداث في الدين أو مُخالفة النبي ﷺ كما زعم "وات-Watt"، بل كان يستأذن الرسول ﷺ في بعض ما يراه لنفسه، ثم يلتزم بتوجيه رسول الله ﷺ ولا يعدوه.

• وجواب **الشاهد الثاني**: أنّه لم يَثبُت أنّ ابن مظعون كان أمير المهاجرين إلى الحبشة، بل جاء عن الزهري أنّه أنكر أنْ يكون لِمهاجرة الحبشة أمير في تلك الهجرة[1]، بينما ذكر الواقدي أنّ أميرهم كان "جعفر بن أبي طالب" ﷺ[2]، وعلى فرض صحة ما جاء عن ابن هشام، فإنّ عبارته هي كالتالي: «وكان عليهم [أي: المهاجرون للحبشة] عثمان بن مظعون»[3]، وقد استنتج "وات-Watt" من ذلك قرينة تفيد بأنّ ابن مظعون كان قائد جماعة معارضة هاجرت معه إلى الحبشة، والملاحظ أنّه عرض قول ابن هشام بسياق يخدم استنتاجه فاستعمل عبارة **"قائد"**؛ وفرقٌ بين عبارته وعبارة ابن هشام، وهذا الصنيع هو من التعسّف في عرض النصوص وفهمها، لأنّ كون "عثمان" ﷺ كان أميراً في الطريق على بعض مهاجري الحبشة لا يدلّ مطلقا على أنّه كان قائدهم في توجّه فكريّ معارضٍ.

• وجواب **الشاهد الثالث**: أنّ ما ذكره عن "عمر" ﷺ ورَد سياقُه عند "ابن سعد" كالآتي: عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عتبة أنّه بلَغَه: «أنّ عمرَ بن الْخطّاب قال: لَمّا توفّيَ عثمانُ بن مظعون وفاةً لَمْ يُقْتل؛ هَبَط مِنْ نَفسي هبْطةً ضخمةً، فقُلتُ: انْظُروا إلى هذا الّذي كان أشَدَّنا تَخلِّيًا مِنَ الدّنيا ثُمّ مات ولَمْ يُقْتل، فلَمْ يَزَلْ عثمانُ بتلك الْمنْزِلة مِنْ نفسي حتّى توفِّيَ رسولُ الله ﷺ فقلت: وَيْكَ إنّ خِيارَنا يَموتون! ثُمّ توفّيَ أبو بكر فقُلتُ: وَيْكَ إنّ خِيارَنَا يَموتون!؛ **فرَجَع عُثْمانُ في نَفْسِي إلى الْمنْزِلةِ الّتي كانَ بِها قبل ذلك**»[4]؛ وهذه الرواية: **أولا** ضعيفة لكونها من طريق الواقدي (وهو ضعيف)، **وثانيا** ليس فيها دلالة على ما استنتجه المستشرق "وات" إطلاقا، بل على العكس من ذلك تدلّ على تعظيم عمر بن الخطاب ﷺ لِمنزلة "عثمان بن مظعون" ﷺ، لكن لعلّ المستشرق "وات" لم يفهم الرواية فظنّها تدلّ على تقليل عمر من شأن ابن مظعون.

فمعنى الرواية: أنّ عمر بن الخطاب كان يحسب أن خيار الناس وأفضلهم يستشهدون قتلا في ساحة الجهاد، لذا هبطت منزلة "ابن مظعون" ﷺ عنده لَمّا مات على فراشه ولم يستشهد (مع كثرة عبادته)، وهو ما يدلّ عليه الشطر الأول من الرواية الذي استفادَ منه المستشرق استنتاجه الخاطئ،

---

[1]- ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 364/2.

[2]- ينظر: الطبقات الكبرى، 25/4.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 323/1.

[4]- الطبقات الكبرى، 305/3. والحديث ضعيف لسببين، الأول: ضعف الواقدي. والثاني: الانقطاع في بداية السند لقول عبيد الله "بلغني". وينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، تعليق المحقق على الرواية (الهامش)، 160/1.

لكن بعد أن رأى عمر بن الخطاب ﷺ عنه أنّ خيار الناس وأفضلهم على الإطلاق: رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ ماتا في فراشيهما دون أن يُقتلا، صحّح مفهومه السابق، ورجعت منزلة "عثمان بن مظعون" ﷺ رفيعة عنده كما كانت من قبل، وفي هذا الشطر الأخير من الرواية ردّ صريح على استنتاج المستشرق "وات" الخاطئ، ودليل على سوء فهمه للرواية.

بعد عرض دلائل "وات-Watt" على فرضيته والجواب عليها، يمكن ملاحظة ما يلي:

– أنّ المستشرق "وات" عرض الروايات التي استشهد بِها بسياق مخالف لسياقها الحقيقي في مصادرها الأصيلة، وفق "**منهجية الانتقاء الكيفي**"؛ بغية تكييفها حسب ما يَخدم فرضيّته.

– سوء فهم نصوص الروايات أحيانا، وإعطاء تأويلات بعيدة عن معناها الصحيح أحيانا أخرى.

– وهذه المنهجية في عرض النصوص وتفسيرها منافية للأمانة العلمية والطرح العلمي الموضوعي؛ لكن هذا ما درج عليه عامة المستشرقون من تقوية الضعيف في مقابل تضعيف الصحيح الثابت.

لذا **يمكن القول:** إنّ ما قدّمه المستشرق "وات-Watt" من معطيات تشهد لصحة فرضيّته، لا يمكن أن ترقى لأن تكون أدلة علمية، بل هي مجرد استنتاجات غير صحيحة، مبنية على التمويه والتأويل الفاسد للنصوص روايات السيرة.

[4]– لَمّا استنتج المستشرق "وات-Watt" أنّ النبي ﷺ أبقى جماعة أبي بكر ﷺ في مكة وأمر جماعة عثمان بن مظعون بالهجرة إلى الحبشة من أجل تهدئة هذا النزاع، غفل عن حقيقة تاريخية هامة تنقض قوله هذا من أساسه، وهي أنّ أبا بكر الصديق ﷺ هو الآخر استأذن النبي ﷺ في الهجرة إلى الحبشة فأذن له[1]، فخرج مهاجراً إلى الحبشة، لكن لقيه "ابن الدغنّة" -وهو من سادات العرب- **بعد مسيرة يوم أو يومين** وألَحّ عليه في الرجوع، وقال أنّ مثله لا يَخرج ولا يُخرج، فرجع أبو بكر معه إلى مكة ودخل في جواره، كما جاء في حديث عائشة ﷺ في الصحيح، وفيه قولها: «فلَمّا ابْتُلي المسلمون؛ **خَرج أبو بكر مهاجرًا قِبَل الحبشة** ...»[2] ثم ذكرَت القصة؛ وفي ذلك دلالة على أنّ النبي ﷺ لم يعزم على إبقاء أبي بكر ﷺ (وجماعته) بِمكة وإرسال آخرين معارضين له للحبشة كما زعم "وات-Watt" و"بول-Buhl"، وإنّما كان عَزْم أبي بكر ﷺ -بموافقة النبي ﷺ- أن يكون من المهاجرين إلى الحبشة لولا "ابن الدغنة" الذي حرص على رجوع أبي بكر ﷺ لِمكة وأدخله في جواره وحمايته من أذى قريش.

ولو لم يكن إلا هذا الدليل التاريخي على بطلان نظريّة "وات-Watt" و"بول-Buhl" لكان كافيا لنقضه.

---

[1]– هذه الجزئية وردت في رواية ابن إسحاق لحديث عائشة ﷺ؛ ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 372/1.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (مع الفتح)، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ، 598/4.

[5]– تدلّ روايات السيرة حول هجرة الحبشة أنّ النبي ﷺ لَمّا أشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة كانوا مُخيّرين في ذلك بين من أراد الهجرة ومن أراد البقاء بمكة على حسب أحوالهم واستطاعتهم، وأنّه ﷺ لم يكلّف مجموعة منهم بالهجرة دون آخرين، ولو كان هناك تحديد لَما احتاج أبو بكر رضي الله عنه إلى استئذان النبي ﷺ في الهجرة إلى الحبشة، ولَما كان بإمكانه أن يخالف أمر الرسول ﷺ ويرجع مع ابن الدغنة، فلو صحّ رأي "وات-Watt" لَلَزم أن يحدّد النبي ﷺ قائمة معينة لِمَن يهاجر ومَن لا يهاجر؛ بحسب أتباع الجماعتين المختلفتين –بزعمـــه–، وهو ما لم يقع ولا يوجد ما يشهد له تاريخيا، وفي ذلك دلالة أخرى على عدم وجود الانقسام المزعوم أصلا.

[6]– ثُمّ لِماذا لم يقع هذا الخلاف والانقسام – المزعوم – بين الجماعة الإسلامية في المدينة؛ ليحملهم على هجرة أخرى؟ مع أنّ دواعي الخلاف كانت أقوى في المدينة؛ لكثرة المسلمين وتوسّع النشاط العسكري والقيادي، الذي قد تقوم من أجله نزاعات وانقسامات لولا تماسك الجماعة المسلمة بقيادة الرسول ﷺ، أما أحوال المسلمين في مكة قبل الهجرة للحبشة –على العكس من ذلك– كانت تتوفّر على عوامل التماسك أكثر من دواعي الاختلاف والتراع؛ لقلّة المسلمين آنذاك واضطهاد المشركين لهم، وهو ما يَحملهم على الوقوف صفّا واحدا لمواجهة ما يحدق بهم من الأخطار.

[7]– كما أنّ الافتراض الذي قدّمه "وات-Watt" لا يوافق المنطق الصحيح؛ فلو أنّ النبي ﷺ كلّما وقع خلاف بين أصحابه أمَر جماعة منهم بالهجرة دون أخرى، لَحمَل ذلك كثيرا منهم على الخروج من دينه أفواجا، كيف ومباعدة الأوطان وهجر الديار من الأمور التي تستوحشها النفوس؛ إلاّ إذا أُكرهت على ذلك بعد أن فُتنت ومُنعت قهراً من الدخول في الدين الذي اطمأنّت إليه، فكان الأنس به في ديار الغربة فسحة تروّح بها عن ضنك مفارقة الأهل والديار.

[8]– كما أنّ هذه الفرضية لا تعكس الصورة الصحيحة لطريقة معالجة النبي ﷺ للإشكالات التي قد تظهر في جماعة المسلمين [مع التنبّه إلى أنه لم يقع أصلا ما زعمه "وات-Watt" من نزاع]؛ لأنّ طريقة معالجته ﷺ للأمور أعمق من ذلك بكثير، وهو ما تدلّ عليه مواقفه مع الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه في بعض الأفكار التي كانت تظهر له أحيانا، فكان أسلوب النبي ﷺ في مراجعته فيها قائما على الحكمة والإقناع وبيان معاني التشريع الإسلامي ومقاصده وسماحته –كما في الروايتين السابقتين وغيرهما–، وكان عثمان بن مظعون رضي الله عنه في كلّ مرة يسلّم لأمر رسول الله ﷺ ولا يخالفه، لذا كان النبي ﷺ يعرف له فضله وإخلاصه وكان يُحبّه ويبجّله، وصلّى عليه وقبّله عندما مات وذكره

بخير[1]، وهذه الدلائل كلّها تبرهن على عدم مخالفته البتّة لتعاليم الرسول ﷺ، أو إظهاره لأيّ معارضة تشقّ صفّ المسلمين كما زعم المستشرق "وات".

وأذكر هنا موقفين –على سبيل المثال– يبيّنان أنّ معالجة النبي ﷺ لِمثل هذه الخلافات –لو وقعت– تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، التي تتسلّل بعذوبة إلى القلوب المؤمنة فتملؤها انشراحا وطمأنينة، وتزيح عنها غشاوة الأفكار الهدامة والمفرِّقة، **فالأول:** ما جاء في الصحيحين عن جابر ﷺ قال: «كُنّا مع النَّبيّ ﷺ في غزاةٍ، فكَسَع رجلٌ منَ المهاجرين، رجلا منَ الأنصار، فقال الأنصاريّ: يا لَلْأنصار، وقال الْمُهاجريّ: يا لَلْمهاجرين، فقال رسولُ الله ﷺ: ((مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟)) قالوا: يا رسول الله كَسَع رجلٌ منَ الْمهاجرين رجلاً منَ الأنصار، فقال: ((**دَعُـــوهَا**[2]؛ **فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**))[3].

والموقف الثاني: في الصحيحين أيضا من حديث أنس ﷺ: أنّ النبي ﷺ لَما قسم غنائم حنين، قال بعض الأنصار: يعطي قريشا ويتركنا، فجمع النبي ﷺ الأنصار وقام فيهم خطيبا، فقال: ((فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ؛ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟؛ فَوَ اللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ)) فَقَالُوا: بَلَى، **يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ رَضِينَا**»[4].

من هذين المثالين –والأمثلة كثيرة– يتجلى بوضوح أنّ المنهج النبوي في معالجة أيّ نزاع أو خلاف قد يزعزع صفّ المسلمين يقوم على الحكمة والموعظة الإيمانية العقلية الوجدانية البليغة، لا على ترحيل طائفة دون أخرى كما يوحي افتراض "وات-Watt" و"بول-Buhl" الخاطئ.

[9]– الملاحظ أنّ المستشرق "وات-Watt" بعد أن قدّم فرضيّته القائلة بأنّ شقاقا وقع بين المسلمين في مكة كان السبب الأهم وراء هجرتهم للحبشة، خلص في الأخير إلى أنّ النبي ﷺ نجح في معالجة هذا الخلاف وتحاشى النتائج السيئة له لَمّا قرّر إرسال بعضهم إلى الحبشة، وأنّ "عثمان بن مظعون" ﷺ (وجماعته) –بزعم "وات"– قد قبلوا بالوضع الخاص لأبي بكر ﷺ، ورجعوا إلى جماعة المسلمين ودافعوا عن الإسلام[5]؛ وبالتالي: يُفهم من هذا التصوير (الافتراضي) الذي قدّمه "وات-Watt" ما يلي:

– أنّ الشقاق الذي تَصوَّر وقوعه بين جماعة المسلمين لم يكن له أيّ أثر سيّء على الإسلام ودعوته، لنجاح الرسول ﷺ في معالجته بسرعة قبل أن يستفحل، هكذا بدأ "وات-Watt" هذا

---

[1]– ينظر روايات في ذلك: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 3/303-304. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 1/159-160.

[2]– أي: دَعُوا دعوة الجاهلية. و"منتنة": أي كلمة قبيحة. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 8/828.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، 9/667. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، 16/208. واللفظ لمسلم.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، 6/301. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الزكاة، باب أعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، 7/212-213. واللفظ لمسلم.

[5]– ينظر كتاب "وات-Watt": محمد ﷺ في مكة، 244-245.

السيناريو "المختلق" وأفاه، لكن ما هو غرضه من هذا الافتراض (المتوهم) ما دام لا يظهر منه طعن في الرسول ﷺ ورسالته ودعوته؟

جواب ذلك: أنّ الذي يظهر من افتراض المستشرق "وات-Watt" لهذه القصة المصطنعة أنّ له أهدافا لا تبدو من أوّل وهلة، بل تحتاج لشيء من التمعن والنظر، لعلّ منها:

– **الهدف الأول**: حاول "وات-Watt" من خلال هذا الافتراض أن يوحي بأنّ النزاع والشقاق تسلّل إلى الجماعة الإسلامية منذ بداياتها الأولى، وإنْ كان ما ذكره من عدم تأثيره في وحدة الصفّ يضعف هذا الإيحاء نوعا ما، لكنّه من حيث العموم يبقى قائِما عند مَن يعتقد صحة هذا الافتراض.

– **الهدف الثاني**: إتمام ما بدأه في الموضوع السابق لِهذا؛ عندما زعم أنّ اضطهاد مشركي مكة كان خفيفاً هيّناً، وليس بتلك الصورة الشديدة التي قدّمتها المصادر الإسلامية[1]، فلو قال بأنّ الاضطهاد هو السبب الأهم للهجرة إلى الحبشة للزم من ذلك أن يكون الاضطهاد قاسيا وشديدا، وهو ما ينقض قوله السابق؛ لذا بحث المستشرق "وات" عن أسباب أخرى لهذه للهجرة جعلها هي الأهمّ، وتعذّر لها بافتراضات واهية، كلّ ذلك من أجل تشويه وقائع السيرة المكية، وقلب الحقائق التاريخية، بتفسيرات فاسدة واستنتاجات بعيدة عن الواقع العلمي الصحيح للمصادر الأصيلة والروايات الموثقة.

[10]– يعود "وات-Watt" ليعتمد على المنهج المادي مرة أخرى عندما يفترض أنّ من أسباب الهجرة إلى الحبشة السعي إلى ممارسة النشاط التجاري، ولكن "وات-Watt" –و"بول-Buhl" الذي تبنّى رأيه– غاب عن ذهنهما أنّ الطريقة التي كانت بِها الهجرة إلى الحبشة تخالف تَماما ما هو متعارف عليه تاريخيا عن الرحلات التجارية لقريش والعرب آنذاك، لأنّ المعروف أنّ تلك الرحلات كانت على شكل قوافل تجارية تحمل البضائع والسلع المحلية، لتنقلها إلى أسواق خارجية في بلدان أخرى، ثم سرعان ما تعود تلك القوافل محمّلة بسلع أخرى متوفرة في تلك البلاد لتبيعها في أسواق البلد الأصلي وتنتفع بِها[2]، وهو ما لا ينطبق أصلا على هيئة الهجرة للحبشة، لا في طريقة خروجهم ولا في ذهابهم ورجوعهم، لأنّها كانت هجرة حقيقية، فقد خرجوا متسلّلين سراًّ، وكثير منهم صحبوا معهم نساءهم وأبناءهم[3]، ثم لماذا لم يخرجوا للتجارة حتى هذا الوقت؟ ولو خرجوا لقصد التجارة فليس هناك من

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 246-247. وبحث بعنوان: المستشرقون والسيرة النبوية (ضمن: مناهج المستشرقين)، عماد الدين خليل، 155/1-156.

[2]– ينظر وصف لجوانب من الأسفار التجارية لقريش والعرب في: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 232/13-240 و108/14. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 99/1-101. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 78/1.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 323/1-330. وطبقات ابن سعد، 159/1.

سبب وجيه يدعو المؤرخين إلى إخفاء ذلك، ولكن المستشرق ذكر هذا السّبب الماديّ وغيره ليعمّي على الدوافع الدينية الروحية الحقيقة لِهجرة الحبشة.

[11]- أسباب أخرى لِهجرتهم: طرح "وات-Watt" تساؤلا حول تأخّر **بعض** المهاجرين إلى الحبشة[1] في الرجوع إلى المدينة لغاية العام السابع للهجرة، مع أنّه كان من المفترض أنْ يرجعوا للمدينة قبل ذلك لَما صارت مأمنا للمهاجرين من اضطهاد المشركين، وجواب ذلك: أنّ علماء السيرة والباحثين المسلمين ذكروا أسباباً أخرى لهجرة الحبشة غير السبب الأهم [وهو الاضطهاد] لعلّ من أبرزها:

- **الفرار بالدين:** خشية أن يفتنهم المشركون في دينهم؛ قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون مِن أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم»[2]، وهو سبب ذكره "مونتجمري وات" أيضا في كتابه وإنْ كان قلّل من أهميته[3].
- **نشر الدعوة خارج مكة**[4]: وهو من الأسباب التي تفسّر بقاء بعض المهاجرين هناك إلى وقت متأخر، حيث تَمثّل الرسول ﷺ في أرض الحبشة قاعدة آمنة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها حرية الدعوة إلى الإسلام، فتظفر الجماعة المسلمة بِمجال جديد للدعوة خارج مكة، لذا لا يستبعد أن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل، ولعل ما روي عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش، ووفادة بعضهم على النبي ﷺ مسلمين ما يُستأنس به على صحة هذا الخاطر، إذ يبرز أثر نجاح لهذه الدعوة في هاتيك الديار[5].
- **البحث عن مكان آمن للمسلمين** (وقاعدة أمنية احتياطية): وهذا سبب آخر يفسّر بقاء بعض المهاجرين هناك إلى العام السابع للهجرة ويجيب عن تساؤل "وات-Watt" بدقّة؛ فقد هاجر إلى الحبشة رجال لَهم مِن عصبياتهم ما يعصمهم من الأذى ويحميهم من الفتنة، منهم جعفر بن أبي طالب وبعض فتيان بني هاشم معه، وأيضا: الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة المخزومي، وعثمان بن عفان الأموي وغيرهم، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدا، وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش، وأبناؤها

---

[1]- مع **ملاحظة**: أنّ أكثر المهاجرين إلى الحبشة رجعوا إلى مكة وهاجروا إلى المدينة، وبعضهم رجع مباشرة إلى المدينة، كما سيأتي.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/1.

[3]- ينظر: محمد ﷺ في مكة، 241.

[4]- ولم يذكر "وات" هذا السبب مع الأسباب الخمسة السابقة؛ لأبعاده الدينية والروحية التي يحاول المستشرقون إخفاءها والتعمية عليها دائما مقابل إقحام الأبعاد المادية بتعسف وتفسيرات بعيدة.

[5]- ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، 29/1. وسيرة الرسول، دروزة، 265/1. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 65.

الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم، فرارا من الجاهلية، وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان -وأبوها من سادات قريش آنذاك-[1].

ثم إنّ رسول الله ﷺ لم يبعث في طلب بقيّة مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب، وبدر وأحد والخندق والحديبية؛ فقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في غزوة الخندق، وبعد أن ردّ الله الكافرين بغيظهم؛ قال الرسول ﷺ: ((الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ))[2]؛ بذلك انتهى الخطر في اجتياح المدينة بعد الخندق - كما في النص النبوي - وجاء صلح الحديبية ليؤكد هذا المعنى، وحين اطمأن الرسول ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة آمنة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين؛ عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو؛ إنه الفقه السياسي الأعظم، والتخطيط النبوي الأعمق من الرسول ﷺ وهو يمضي في بناء دولة الإسلام، ويدرس كافة الاحتمالات المتوقعة، ويبحث في كل مكان عن الأرض المناسبة لقيام دولة الإسلام أو لحماية العقيدة فيها[3].

[12]- نقض المستشرق "وات" لفرضيّته في "الدائرة": والعجب من المستشرق "وات-Watt" كيف يُجلب بخيله ورجله لتقرير افتراض جديد يخالف به الحقائق العلمية والتاريخية للسيرة النبوية في كتابه "محمد ﷺ في مكة" ثم يتبنّاه المستشرق "بول-Buhl" في "دائرة المعارف"، لنجد "وات-Watt" نفسه -صاحب الفرضية- يخالف فرضيّته ويقرّر بكل بساطة في مادة "مكة المكرمة" ما قرّره عامة أئمة السيرة والتاريخ ووثقته كتب السيرة؛ من أنّ الاضطهاد هو سبب الهجرة إلى الحبشة، دون أن يشير أدنى إشارة إلى سببه المزعوم الذي اعتبره في كتابه السابق أهم الأسباب.

رابعا- أما قول المستشرق "جويدي-Guidi" في مادة "الحبشة": «**حديث خرافة**»: فهو يحتمل أنّه يقصد كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي، أو الهجرة الثانية للحبشة مع كتابه ﷺ إلى النجاشي، أما الهجرة الثانية فقد سبق الكلام على ثبوتها تاريخيا وتقرير المستشرق "بول" لذلك.

أمّا إرسال الرسول ﷺ كتابا إلى النجاشي ملك الحبشة فهو ثابت في الصحيح[4]، وتدلّ الشواهد التاريخية أنّ النبي ﷺ أرسل كتابه إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمريّ، وأنّ ذلك كان بعد أن بعثت قريش عمرو بن العاص وعبد اللّه بن أبي ربيعة بعد وقعة بدر إلى النجاشي؛ رجاء أن يرفض

---

[1]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، 1/66-67.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (مع الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 7/505.

[3]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، 1/67-68.

[4]- من حديث أنس ﷺ في: صحيح مسلم (مع النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار، 12/158.

قبول هؤلاء المسلمين في جواره، ويرُدّهم إلى أعدائهم مرة أخرى، فلما سمع رسول اللّه ﷺ ببعث قريش عمرا وابن أبي ربيعة، بعث عمرو بن أمية الضمريّ وكتب معه إلى النجاشي[1].

لكن ردّ ذلك "ابن سيد الناس"؛ لأن عمرو الضمري لم يكن قد أسلم بعدُ حينئذ (فقد شهد بدرا وأحدا مع المشركين ثم أسلم بعد ذلك سنة أربع)[2]، وقد ورد أنّ عمرو بن العاص ﷺ وفد على النجاشي بعد الأحزاب؛ وعليه لا يشكل إرسال عمرو بن أمية للنجاشي في تلك المرة لأنه كان قد أسلم حينئذ، فيكون ذكر مجيء عمرو بن أمية إلى النجاشي عقب بدر اشتباه من بعض الرواة[3].

وقيل أنّ ذلك كان: سنة سبع عندما كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم للإسلام[4].

وعلى كلٍّ فإرسال هذا الكتاب لم يكن مصاحبا للهجرة الثانية كما قد يُفهم من عبارة المستشرق "جويدي-Guidi"، بل كان بعدها بزمن.

والملاحظ أنّ المستشرق "جويدي" اعتمد "**منهج النفي الكيفي**" في إنكار كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي، وهي منهجية غير علمية، تقوم على الإنكار المجرد عن الدلائل والشواهد.

خامسا- تناقضات في عرض موضوع الهجرة إلى الحبشة: عندما نجري مقارنة يسيرة بين ما جاء في نص مادة "محمد ﷺ" ومادة "الحبشة" ومادة "مكة" نلاحظ عدة تناقضات:

أ)- التناقض الصارخ بين موقفي "وات-Watt" في كتابين مختلفين من جهة، وبين "وات-Watt" و"بول-Buhl" في "دائرة المعارف" من جهة أخرى، يرجع بنا إلى تلكم التناقضات السابقة[5] التي كثيرا ما يقرّر فيها المستشرقون فرضيات استشراقية جديدة لإنكار الحقائق التاريخية وافتراء أحداث لم تحصل أصلا بغية تشويه الصورة المشرقة لسياق السيرة النبوية، ثم بعد ذلك سرعان ما يخالفون هم أنفسهم -أو غيرهم من المستشرقين- فرضياتهم ليعودوا إلاّ النسق الأصلي للسيرة، وكأنّهم عجزوا أن يجدوا نسقا جديدا يتوافقون عليه بينهم، بل ويحملون أنفسهم على سرده في كلّ كتاباتهم، لذا نقض بعضهم قول بعض وأقواله أحيانا أخرى.

ب)- كما نجد المستشرق "جويدي-Guidi" محرّر مادة "الحبشة": يقرّر أن اضطهاد المسلمين هو سبب الهجرة إلى الحبشة، في حين يحاول المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" أن يقلّل من أهمية هذا السبب ويذكر أسبابا أخرى، مع أنّه ذكر اتفاق المؤرخين المسلمين عليه.

---

[1]- ينظر: تاريخ الطبري، 652/2. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 80/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 40/1-41.

[2]- ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 339/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 274/2.

[3]- ينظر: تاريخ الطبري، 30/3. والسيرة الحلبية، 276/2-277.

[4]- ينظر: عيون الأثر، 339/1. وإمتاع الأسماع، 64/6.

[5]- ينظر ما سبق في مولده ﷺ: ص221.

ج)– وإذا كان "جويدي-Guidi" أنكر أن تكون هناك هجرة ثانية للحبشة، فإنّ "بول-Buhl" يثبت الهجرتين (الأولى والثانية).

الفرع الثالث: استدراكات على بعض ما ورد في مادة "النجاشي"

– جاء في مادة "**النجاشي**"[فقرة: 1]: «**ويقرّر ابن قتيبة أنّ حاضنة النبي ﷺ كانت امرأة حبشية هي أم أيمن، كما أن ابن سعد في كتابه "الطبقات" يقول: إن النبي ﷺ كان يعرف الحبشيّة، ويمكن في ذلك مراجعة كل من السهيلي والبخاري... ولا بد أن الرسول ﷺ اعتبر النجاشي محايدا إن لم يكن حليفا حين أشار على أتباعه بالهجرة إلى الحبشة... ولَمّا هاجر جماعة من المسلمين إلى الحبشة نزولا على نصيحة النبي ﷺ بعثت قريش طائفة من رجالها في أثر هؤلاء المهاجرين، ولكنها وصلت متأخرة عند خليج الشعيبة[1] قرب جدة، ومهما تكن مرات مجيء هؤلاء المهاجرين إلا أن جميع المصادر تتفق على أن النجاشي أحسن لقاء هؤلاء المسلمين المهاجرين إليه، ووقف إلى جانبهم ضد عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ورفيقه عمرو بن العاص وكانا قد جاءا إلى الملك ليحملاه على رد المسلمين وعقد مجلس أمام النجاشي وقسّه، وقام جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ وعرض في إيجاز إنجازات النبي ﷺ، وتلا آيات من القرآن الكريم لم ير فيها النجاشي ما يشير إلى أن الإسلام عدو للنصرانية، فلما سمع من القرآن ما سمع قال: (والله ما عيسى بن مريم إلا ما قلت)، ثم قال للمهاجرين : (اذهبوا فأنتهم آمنون بأرضي، من سبّكم غرم)، وعاد عبد الله وعمرو بن العاص إلى مكة. ثم أذن النجاشي لثلاثة وثلاثين من المهاجرين عنده بالعودة إلى مكة**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **أ.فان دونزل** –E. Van Donzel[3].

مناقشة ما ورد في هذا النص من خلال النقاط التالية:

أولا– كون "أم أيمن" بركة بنت ثعلبة رضي الله عنها –حاضنة النبي ﷺ–[4] أصلها من الحبشة لا يُستفاد منه بالضرورة أن النبي ﷺ أخذ عنها اللغة الحبشية، إذ لا يوجد ما يثبت ذلك تاريخيا من وجه صحيح ولا ضعيف، وأمّا ما ذكره المستشرق "دونزل-Donzel" من أن ابن سعد قال: بأنّ الرسول ﷺ كان يعرف الحبشية فلم أقف عليه في "الطبقات"[5]، وإذا كان يقصد بذلك ما أورده ابن سعد من قصة النبي ﷺ مع

---

[1]– **خليج الشعيبة**: مرفأ للسفن على ساحل جدة. ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 178/2. وسبل الهدى، الشامي، 297/5.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9878/31-9879.

[3]– **فان دونزل** "E.J. Van Donzel": مستشرق هولندي، وهو مدير المعهد الهولندي لفقه لغات الشرق، من مؤلفاته: "الرسائل الإثيوبية لجوب لودولف". ينظر: معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، 525.

[4]– ترجمتها في: طبقات ابن سعد، 179/8. الاستيعاب، ابن عبد البر، 1793/4. أسد الغابة، ابن الأثير، 290/7.

[5]– والمستشرق لم يحدّد الموضع الذي أخذ منه ذلك بالجزء والصفحة أو الباب.

"أم خالد" ﵂[1]، وهو ما يدلّ عليه إحالته على السهيلي[2] والبخاري حيث أوردا نفس الرواية، لكن عبارة المستشرق "دونزل" –على هذا– غير دقيقة، لأنّ ابن سعد لم يقل إنّ الرسول ﷺ كان يعرف اللغة الحبشية وإن كان أورد تلك الرواية.

أمّا تَكلُّم النبي ﷺ في تلك الحادثة وغيرها في مناسبات نادرة[3] ببعض الألفاظ غير العربية والحبشية هنا، فلا يدلّ بالضرورة على أنّ الرسول ﷺ كان على معرفة بهذه اللغات، فبحكم العلاقات التجارية بين هذه الأقطار آنذاك قد تنتشر في المجتمع المكي بعض الألفاظ الحبشية أو الفارسية أو غيرها، ولا يعني ذلك أنّ كلّ مَن عرف تلك الكلمات يُتْقن التكلم بلغة القوم ولسانهم.

وقد كان غرض النبي ﷺ من التكلم بهذه الكلمة الحبشية ملاطفة الطفلة الصغيرة "أم خالد" واستمالة قلبها، وكانت تعرف الحبشيّة لأنها قد ولدت بأرض الحبشة[4].

وعلى كلّ فالرواية تحتمل أن يكون النبي ﷺ على معرفة بالحبشية وغيرها ويكون ذلك من خصائصه، كما تَحتمل أن يكون على معرفة ببعض الكلمات لا باللغة، قال ابن حجر: «كأَنّه أَشارَ [أي: البخاري] إلى أنّ النّبيَّ ﷺ كان يَعْرِفُ الأَلْسنة لأنّه أُرْسِل إلى الأُمم كُلِّها على اخْتِلاف ألسنَتِهم، فَجميع الأمم قَوْمُه بالنِّسْبة إلى عُموم رِسالَتِه، فاقْتَضى أنْ يَعْرِف أَلْسنَتَهم لِيفْهَم عنهم ويَفْهَموا عنه، ويُحْتَمل أنْ يُقال لا يَسْتَلْزِم ذلك نُطْقَه بجمِيع الأَلْسنة لإمكان التّرْجُمان الْمَوْثوق به عندهم»[5].

ثانيا– عَرَض المستشرق "دونزل-Donzel" قصة مهاجري الحبشة مع النجاشي التي جاءت في حديث "أم سلمة" ﵂[6]، لكن في عرضه بعض المخالفات لسياق الرواية، وهي كالآتي:

أ)– قول المستشرق أنّ الرسول ﷺ كان يعتبر النجاشي محايداً، وصف غير دقيق لنظرته ﷺ إلى ملك الحبشة، والوصف الصحيح هو ما جاء في حديث "أم سلمة" ﵂ المذكور في قولها: «... فقال لهم

---

[1]– نص **الرواية**: عند **ابن سعد** في "الطبقات، 186/8": عن أمّ خالد بنت خالد بن سعيد رضي الله عنهما، قالت: أُتِي رسولُ الله ﷺ بِثِياب فيها خَميصةٌ سوداءُ صغيرةٌ فقال: مَنْ تَرَوْن أَكْسو هذه الخميصة؟ قالتْ: فأسْكَت القومُ فقال: ائْتُوني بأُمِّ خالد، قالت: فأُتِيَ بي رسولَ الله أُحْمَلُ فأَلْبَسَنيها بيَده وقال: ((أَبْلِي وأَخْلِقي بقَبولِها)) مرَّتَيْن أو ثلاثًا. وجَعَل يَنْظُرُ إلى علَمٍ في الْخميصة أصْفرَ أو أحْمرَ، فقال: ((**هذا سَنَا** يا أُمَّ خالدٍ، **هذا سَنَا** يا أُمَّ خالدٍ))؛ قالت: **والسَّنَا**: بلسان الحَبَشِيّة الحَسَنُ. وفي رواية عند البخاري: «**سَنَهْ سَنَهْ**».

والحديث أخرج نحوه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب من تكلم بالفارسية والرطانة، 220/6؛ وكتاب اللباس، باب ما يدعى لمن لبس ثوبا جديدا، 374/10.

[2]– ذكرها في: الروض الأنف، 128/3-129.

[3]– ينظر الروايات في ذلك: فتح الباري (مع صحيح البخاري)، ابن حجر، 220/6-222.

[4]– ينظر: الكواكب الدراري شرح البخاري، شمس الدين الكرماني، 75/21. وفتح الباري، 522/10.

[5]– فتح الباري، 221/6.

[6]– عند: **ابن إسحاق والبيهقي**، سبق تخريجه: ص399.

رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة **ملكاً لا يُظلم أحد عنده**، فالْحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً»، ووصفه بالعدل هو أقرب لشخصية النجاشي، ولا أدلّ على ذلك من موقفه الرشيد الذي رفض فيه أن يُسلّم المهاجرين المسلمين إلاّ بعد السماع منهم، وبذلك أتاح الفرصة لكي يعرض المسلمون قضيتهم العادلة، ومبادئ دينهم القويم[1].

ب)- الحوار الذي ذكره بين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والنجاشي جاء فيه بعض الاختصار المخلّ، حيث ذكر أنّ النجاشي قال مباشرة بعد سماعه للآيات بأنّ عيسى بن مريم عليه السلام كما قلت، لكن الذي في الرواية: أنّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن قرأ على النجاشي صدراً من سورة مريم، قال النجاشي: «إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة الذي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين»، ثم دعاهم مرة أخرى بعد هذا المجلس، بعد أن قال له عمرو بن العاص: أنهم يقولون في عيسى قولا عظيما، فأرسل النجاشي إليهم فسألهم فقال له جعفر: «نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول»؛ فدلّى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عويداً بين أصبعيه، فقال: «ما عَدا عيسى بن مريم مما قلتَ هذا العود»[2]، وهذه العبارة الأخيرة أيضا من كلام النجاشي لم يحسن المستشرق "دونزل-Donzel" صياغتها كما في الأصل العربي.

إن مبادرة قريش لإرسال وفد من أجل استعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية وملكها عرف بالعدل، وهي قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطرا على قريش في المستقبل[3]، لكن خطّة المشركين فشلت بفضل عدل النجاشي، وحسن عرض المهاجرين المسلمين لقضيتهم، بكل صدق ووضوح، وبلا تردد أو مداراة.

الفرع الرابع : أسماء بعض المهاجرين إلى الحبشة

سبق بيان أنّ هناك هجرتين إلى الحبشة، كان تعداد المهاجرين في الهجرة الأولى منهما: أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وفي الثانية كانوا: ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة[4]، وأكتفي هنا ببيان بعض أسماء الصحابة الذين جاء ذكرهم في "دائرة المعارف" أنّهم من مهاجرة الحبشة.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 200.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 337/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 303/2.

[3]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 174/1-175.

[4]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 165/4. وفتح الباري، ابن حجر، 237/7-238. والسيرة النبوية الصحيحة، 169/1.

أولا- جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

– جاء في مادة "**جعفر**" بن أبِي طالب: «**وهو ابن عم النبي، وكان جعفر من السابقين إلى الإسلام، هاجر مع المسلمين في هجرتم الثانية إلى الحبشة، وتذهب الرواية الشائعة إلى أنّه كان في الواقع زعيم المهاجرين والمتحدث بلسانهم في حضرة النجاشي... ولَم يعد إلى بلاد العرب إلاّ في عام (7 هـ– 628م)[1]، بعد وقعة خيبر مباشرة...**» [2]. المحرر هو المستشرق: **نسترشتين** –Zetterstéen[3].

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام، هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ومعه امرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها[4]، وهو من تولى الكلام عن مهاجرة الحبشة لَمّا دعاهم النجاشي يستفسر عن دينهم وقولهم في عيسى عليه السلام؛ فكانت كلمته في غاية الإقناع والتأثير[5]، ثم إنّه قدم من الحبشة مع من معه من المسلمين على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فتلقاه النبي ﷺ، وقال: ((مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَفْرَحُ؛ بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ))[6]، وكان قدوم جعفر وأصحابه من أرض الحبشة في السنة السابعة من الهجرة[7].

ثانيا- سودة بنت زمعة وزوجها وأخوها:

– ورد في مادة "**سودة بنت زمعة**": «**الزوجة الثانية للنبي ﷺ... وقد صحبت سودة زوجها الأول السكران بن عمرو، وأخاها مالكا في الهجرة الثانية إلى الحبشة، وعاد الزوجان إلى مكة قبل الهجرة، وتوفي السكران بها، وكان قد تنصَّر**» [8]. محررة المادة هي المستشرقة: **فكا** – v.vacca[9].

سودة بنت زمعة زوجة النبي ﷺ، هاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، مع زوجها الأول السكران بن عمرو[10]، وأخيها مالك بن زمعة[11].

---

[1]– في المطبوع: (628 هـ) وهو خطأ مطبعي ظاهر.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 472/6.

[3]– سبقت ترجمته في: ص112.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 257/1 و323. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 25/4.

[5]– في حديث أم سلمة رضي الله عنها عند "ابن إسحاق والبيهقي"، سبق تخريجه: ص399. من هذا البحث.

[6]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر الهجرة الأولى إلى الحبشة، 681/2. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 246/4. وصحّحه الحاكم، وحسنه لشواهده الألباني في تخريجه "فقه السيرة للغزالي، 350"، والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 405-406".

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 359/2. والاستيعاب، ابن عبد البر، 242/1.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 352/12.

[9]– سبقت ترجمتها في: ص299.

[10]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، 154/4. الاستيعاب، 685/2. الإصابة، ابن حجر، 113/3.

[11]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، 154/4. أسد الغابة، ابن الأثير، 23/5. الإصابة، 538/5.

أما "سودة" وزوجها السكران بن عمرو رضي الله عنهما فعادا إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، ثم توفي السكران بن عمرو بمكة قبل الهجرة، فتزوّجها النبي ﷺ، وهاجرت إلى المدينة[1].

وأمّا أخوها "مالك بن زمعة" ﷺ فكان قدومه إلى المدينة مع جعفر ﷺ سنة سبع للهجرة[2].

- **ضعف خبر تنصّر "السكران بن عمرو"**: ذكرت المستشرقة "فكـــا" أنّ "السكران بن عمرو" تنصر، وهذا الإطلاق غير ثابت، لاختلاف المؤرّخين في ذلك أوّلا، ولضعف هذا القول ثانيا.

بيان ذلك: أنّ ما ذهب إليه عامة أئمة السيرة أنّ السكران بن عمرو مات مسلما و لم يتنصّر، وهو قول موسى بن عقبة وابن إسحاق، ورجّحه البلاذري والنووي وابن كثير وابن حجر وغيرهم[3].

أمّا أبو عبيدة النحوي فذكر أنّه تنصّـــر ومات بالحبشة[4].

قال البلاذري: «وقال قوم: منهم أبو عبيدة معمر، إنه قـــدم مكة ثم رجـــع إلى الحبشـــة مرتدا أو متنصّرا، فمات بها، والخبر الأول أصح وأثبت»[5]، ولا شكّ أنّ قول موسى بن عقبة وابن إسحاق أصح وأوثق من قول أبي عبيدة لضعفه[6]، ولتقدّمهما في هذا الشأن؛ لذا رجّح عامة أئمة السيرة والتاريخ قول موسى بن عقبة وابن إسحاق أنّ السكران بن عمرو ﷺ مات مسلما بِمكة.

فكان الأولى بالمستشرقة "فكا" أن تشير إلى الخلاف في ذلك – على الأقلّ– للأمانة العلمية، خاصّة وأنّها اكتفت بذكر القول الضعيف في المسألة[7].

ثالثا- عبد الله بن جحش ﷺ وأخويه:

– ورد في مادة "**عبد الله بن جحش**": «**وقد أسلم عبد الله مع أخويه عبيد الله وأبي أحمد اللذين شاركاه الهجرة إلى الحبشة، غير أن عبيد الله تنصر هناك ومات بِها، أما عبد الله فقد عاد إلى مكة**»[8].

المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** -M.Watt[9].

---

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 8/42-43. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/ 368.

[2]– ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 1/219. والإصابة، 5/538.

[3]– ينظر: أنساب الأشراف، 1/219. وتهذيب الأسماء واللغات، 2/348. والبداية والنهاية، 8/207. والإصابة، 3/113.

[4]– ينظر: أنساب الأشراف، 1/219. وتاريخ الطبري، 3/161. والإصابة، 3/113.

[5]– أنساب الأشراف، 1/219. قوله: "الخبر الأول"؛ أي: قول موسى بن عقبة وابن إسحاق الذي ذكره أولا.

[6]– سبقت ترجمته في: ص268. من هذا البحث.

[7]– كما يُحتمل أنّها لم تقف على الخلاف في هذه الجزئية، ربّما لأنّها اعتمدت على الطبري، والطبري اقتصر على نقل القول الضعيف الذي ذكرته، لكنها اعتمدت أيضا على ابن سعد؛ وسياقه يدلّ على أنه مات مسلما، فكان ينبغي أن تتنبّه لذلك. ينظر: تاريخ الطبري، 3/161. وطبقات ابن سعد، 4/154.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 23/7162.

[9]– سبقت ترجمته في: ص59.

هاجر عبد الله بن جحش ﷺ[1] إلى الحبشة مع أخيه عبد بن جحش ﷺ -أبو أحمد-[2]، ورجعا إلى مكة قبل الهجرة، ثم هاجرا إلى المدينة[3]، أما عبيد الله بن جحش فهاجر إلى الحبشة مع أخويه وزوجته "أم حبيبة" رملة بنت أبي سفيان ﷺ، لكنه تنصّر ومات هناك، في حين بقيت زوجته "أم حبيبة" ﷺ على إسلامها، ثم تزوجها النبي ﷺ سنة سبع للهجرة[4].

رابعا- عثمان بن عفان ﷺ:

- وفي مادة "**عثمان بن عفّان**": «**وشارك عثمان ﷺ في الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، وبعد عودته لمكة المكرمة هاجر إلى المدينة المنورة**»[5]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[6].

عثمان بن عفان ﷺ هو أولّ من خرج مهاجراً إلى الحبشة ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة[7].

ومهاجرة الحبشة كثيرون؛ استقصى ابن إسحاق ذكر أسمائهم في "سيرته"، واستدرك عليه ابن كثير بعض ما فاته فتراجع أسماؤهم هناك[8].

---

[1]- ترجمته في: طبقات ابن سعد، 65/3. أسد الغابة، ابن الأثير، 194/3. الإصابة، ابن حجر، 31/4.

[2]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، 76/4. الاستيعاب، ابن عبد البر، 820/2. أسد الغابة، 508/3. الإصابة، 321/4.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 324/2 و470. والاستيعاب، 878/3. وأسد الغابة، 90/3.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 362/2-363. والطبقات الكبرى، 77/8. والإصابة، 140/8-141.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7200/23.

[6]- سبقت ترجمته في: ص95.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/1 و365. والاستيعاب، 1038/3. وأسد الغابة، 481/3.

[8]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/1-330. والبداية والنهاية، 165/4-177.

المبحث الثاني : قصة الغرانيق والمقاطعة العامة وخروج النبي ﷺ إلى الطائف

المطلب الأول : قصة الغرانيق وبطلانها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**القرآن الكريم**" [فقرة: 6]: «حديث الغرانيق: يذكر الطبري عند تفسيره للآية **25** من سورة الحج، وكذلك في "تاريخه" المعروف قصة غريبة يزعم رواتها أن محمدا ﷺ قد ركن إلى قريش شيئا ما، وذكر آيات تمتدح آلهتهم في سورة النجم وأدخل في السورة آيات غير قرآنية إذ قال بعد ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: **19–20**]: ((تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى))، فلما سمع غير المسلمين من قريش ذلك سجدوا مع المسلمين، وقلّ الخلاف بينهم وبين محمد ﷺ، وعندما سمع المهاجرون المسلمون في الحبشة الذين هاجروا تخلصا من إيذاء قريش بأمر هذا التآلف الجديد عادوا إلى مكة لكنهم اكتشفوا أن هذه الفقرات الخاصة بالغرانيق قد دسها الشيطان وأن الرسول ﷺ قد أنكرها. وهذه الحكاية تشير كل الشواهد إلى أنها مكذوبة وتفتقد الأساس التاريخي، فسورة الحج نزلت بعد سورة النجم كما أن إسناد حديث الغرانيق إسناد ضعيف، فالقصة موضوعة وتفسير مفتَعل للآية **52** من سورة الحج، ومن المستشرقين الذين أنكروا هذه القصة تَماما بيرتون (j. burton) في بحث نشره سنة **1970**م، وكيتاني (Caetani)، وهو الرأي الذي يتفق معه كاتب المقال»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **أ.ت. ولش** - A.T.Welch[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 27]: «ويقول عروة بن الزبير إن معظم هؤلاء المهاجرين عادوا إلى مسقط رأسهم حين قوي الإسلام بدخول عدد من ذوي النفوذ فيه، مثل عمر بن الخطاب وحمزة.

غير أن ثمة قصة مختلفة عن عودتهم إلى مكة كانت محل جدل كبير، فالطبري يذكر أنه أثناء تلاوة محمد ﷺ لسورة النجم بحضور عدد من مشركي مكة، وحين وصل في تلاوته إلى أسماء ثلاثة من آلهتهم المفضلة، وهي اللات والعزى ومناة نطق الشيطان على لسانه جملتين قصيرتين هما: ((تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى)) ، وقد فسّر المشركون هاتين الجملتين على أن محمداً ﷺ اعترف بآلهتهم وبجدوى شفاعتها عند الله الذي يعتبرونه كبير الآلهة، فسجد الحاضرون منهم مع المسلمين بعد انتهاء تلاوة السورة ... وتقول الرواية إن ذلك أدّى إلى مصالحة عامة بين محمد ﷺ وأهل مكة، وإن المسلمين الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة شرعوا في العودة إلى بلادهم غير أنّهم حين عادوا تبيّنوا أن جبريل عليه السلام

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 26/8168-8169.

[2]– سبق في: ص150.

كان قد أخطر محمداً ﷺ أن جملتي الغرانيق ليستا جزء من السورة وإنّما هما من تلبيس الشيطان، فاضطر المسلمون العائدون إلى طلب حماية بعض العشائر قبل تمكنهم من دخول مكة من جديد، هذه القصة الغريبة التي نجدها أيضا في ابن سعد (دون سيرة ابن هشام) يرفضها معظم المسلمين ويرونها اختراعا لاحقا، وإن معظم كتّاب السيرة من الأوروبيين يقبلونها على أساس أنه من غير المعقول أن تكون من اختراع المسلمين في عصور تالية. غير أن هذا السبب غير كاف في حد ذاته، ولا يمكن قبول القصة كما رواها الطبري والواقدي وابن سعد كحقيقة تاريخية لأسباب عدّة أوردها القرآن الكريم، وإن لم يكن من المستبعد تَماماً احتمال وجود أصل لَها»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا- موجز قصة "الغرانيق"[3]: وردت قصة الغرانيق في بعض كتب التفسير والتاريخ[4] وحاصلها: أنّ الرسول ﷺ قَرأ يوما بمكّة سورة "النّجم" فلَمّا بَلَغَ قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: 19-20]، أَلْقى الشَّيطانُ على لِسانه: "تلك الغَرَانيق العُلى، وإنّ شَفاعَتَهُنّ تُرْتَجى"، قالوا: ما ذَكَر آلهَتنا بخيرٍ قَبْل اليوم، فسجَدَ وسَجَدُوا، فأنزل الله عزّ وجلَّ هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: 52].

ثانيا- موقف "دائرة المعارف" من قصة الغرانيق: جاء موقف المستشرقَيْن موافقا لِموقف عامة علماء الإسلام من ردّ قصة الغرانيق وعدم إثبات صحتها، حيث ردّها "ولش-Welch" في مادة "القرآن" وذكر ذلك أيضا عن كلّ من المستشرقين "بيرتون-burton" و"كيتاني-Caetani"، كما ردّها أيضا "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ" و لم يستبعد أنّ لها أصلا، وهو قولٌ ذهب إلى نحوه ابن حجر[5].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9122/30-9123.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- **الغرانيق**: المراد بها ههنا: الأصنام، وهي في الأصل الذّكور من طير الماء، وقيل طير الماء مطلقا، إذا كان أبيض طويل العنق، واحدها غُرنوق؛ وكانوا يزعمون أن الأصنام تقرّبهم من اللّه وتشفع لهم فشبّهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 364/3. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 369/2.

[4]- قصة الغرانيق جاءت في: مسند البزار، 296/11. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 160/1. وتفسير الطبري، 603/16-608. ودلائل النبوة، البيهقي، 285/2-287، وغيرها وسيأتي سياق بعض طرقها. وينظر: فتح الباري، ابن حجر، 558/8.

[5]- قال ابن حجر بأنّ لقصة الغرانيق أصلا استنادا إلى بعض المراسيل صحيحة الإسناد إلى مرسليها [كما سيأتي: ص419]، وتبعه في ذلك السيوطي، وقوله بأنّ لها أصلا جاء في مقابل قول ابن العربي والقاضي عياض الّذَين قالا بأنها موضوعة، لكنّه لا يقول بظاهر الرواية بل يفسّرها حسب ما يوافق أصول الشريعة وعصمته ﷺ كما بين أبو شهبة. ينظر: فتح الباري، 559/8. وسيرة أبي شهبة، 367/1-368.

بينما ذهب كثير من المستشرقين –وعزاه "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" لِمعظمهم– إلى تصحيح قصّة الغرانيق، وربّما استند إليها بعضُهم في تقرير ما يطعن في نبوة محمد ﷺ وربانية القرآن الكريم، وممن ذهب إلى ذلك من المستشرقين: "وليم موير" و"بروكلمان" و"مونتجمري وات" وغيرهم[1].

ومِمّن ردّ القصة أيضا من المستشرقين "يوهان فوك" وبيّن: أن بعض المستشرقين صدّق القصة وبعضهم كذّبَها حسب الهوى[2].

– **ملاحظة**: من الغريب أنّ المستشرق "ولش-Welch" في مادة "القرآن" يستدل على ضعف القصة بضعف إسنادها، ذلك أنّ عادة المستشرقين أنهم لا يبنون نقدهم للروايات على هذا الأصل[3]، بل وينتقدون علماء الإسلام في اعتمادهم عليه كأصل لدراسة الروايات ونقدها.

ثالثا- بيان بطلان قصة الغرانيق سنداً ومتناً: عامة علماء الحديث والسيرة والتفسير يردّون القصة سندا ومتنا كما ذكر المستشرق "بول" في مادة "محمد ﷺ"، وبيان بطلانها فيما يلي:

أ)– من جهة السند: قال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل»[4].

وأورد القاضي عياض عدّةَ مآخذ على القصة في السند والمتن، حيث يقول: «أمّا الْمأخذ الأوّل: فيكفيك أن هذا حديثٌ لم يُخرِّجْه أحدٌ من أهل الصِّحة، ولا رواه ثقةٌ بسَندٍ سليم متَّصِل، وإنما أُولِع به وبِمثله المفسِّرون والمؤرِّخون المولَعون بكلِّ غريب... ومَنْ حُكيت هذه الحكايةُ عنه منَ المفسِّرين والتابعين لم يُسْنِدْها أحدٌ منهم، ولا رَفَعها إلى صاحبٍ، وأكثرُ الطُّرق عنهم فيها ضعيفةٌ واهية»[5].

كما قرّر ضعفها من جهة الإسناد أيضا: ابن حزم وابن العربي والشوكاني[6] وغيرهم.

فقد وردت القصّة من: حـــديث **ابن عباس** ﷺ[7]، لكنه ضعيف كما بيّن البزار والقاضي عياض وابن حجر وغيرهم[8].

---

[1]– ينظر: حياة محمد ﷺ، هيكل، 177. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 364/1. وتاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، 34-35 (وناقشه في ذلك عمر فروخ في الهامش). ومحمد ﷺ في مكة، مونتجمري وات، 207-215.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 172/1.

[3]– لكن ينبغي **ملاحظة** أنّ: كلامه هذا ليس نابعا من دراسته للأسانيد، وإنّما هو مجرد تكرار لما قرّره علماء الإسلام في نقد الرواية.

[4]– تفسير الرازي، 237/23. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، القسطلاني، 18/2.

[5]– الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بشرح القاري)، 227/2-228.

[6]– ينظر: المصدر نفسه، 227/2. وإمتاع الأســـماع، المقريزي، 229/11. وفتح القدير، الشوكاني، 546/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 365/1-366.

[7]– أخرجه: **البزار**، في مسنده، 296/11. **والطبري**، في تفسيره، 607/16-608.

[8]– ينظر: مسند البزار، 296/11. والشفا بتعريف حقوق المصطفى (بشرح القاري)، 228/2-229. وفتح الباري ، 558/8. ونصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، الألباني، 27-34.

كما وردت من مرسل **محمد بن كعب** القرظي **والزهري ومحمد بن قيس** وغيرهم[1]، وهي مراسيل ضعيفة كما ذكر ابن حجر[2]، لكن جاءت من ثلاثة مراسيل أخرى صحيحة السند إلى مرسليها، وهي مراسيل كل من: **سعيد بن جبير، وأبي العالية وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث**[3].

قال ابن حجر: وكلّها سوى طريق سعيد بن جبير **إمّا ضعيف وإلاّ منقطع**، ثم ذَكر صحة مرسل أبي العالية وأبي بكر بن عبد الرحمن أيضا[4].

وقال ابن كثير: «قد ذَكَر كثيرٌ مِنَ الْمفسِّرين هَهُنا قِصّة الغرانيق... ولكِنّها مِنْ طُرُقٍ كلّها مُرسلةٌ، ولَمْ أَرَها مسندة من وجه صحيح»[5].

لكن هذه المراسيل وإن كانت أسانيدها صحيحة إلى قائليها، فلا يوجد ما يشهد لَها من طريق صحيح مسند إلى شهود العيان في العهد النبوي، ولا حجّة بِها مادامت الدلائل تعارض ما جاء في متونها، خاصة وأنّ «ما قالته المراسيل المعتبرة يصطدم مع عصمة النبوة في قضية الوحي، ويعارض التوحيد وهو أصل العقيدة الإسلامية؛ لذلك فإنها مرفوضة متـــنا»[6].

وقد بيّن أبو شهبة والألباني أنّه لا حجة في هذه المراسيل، خاصة مع تعلّقها بِمقام النبوة، ومخالفتها لأصول الشريعة[7].

وذهب: محمد بن إسحاق ابن خزيمة وابن العربي والقاضي عياض والرازي وأبو شهبة وغيرهم: إلى أنّها **موضوعة**[8]، وهو ما ذهب إليه المستشرق "ولش-Welch" في مادة "القرآن".

ب)– من جهة المتن: قال الرازي: «أمّا أهل التّحقيق فقد قالوا هذه الرّوايةُ باطلةٌ موضوعةٌ واحْتَجُّوا عليه بالقرآن والسُّنّة وَالْمعقول»[9]، فمتن الرواية باطل من أوجه، أهمها:

---

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 160/1. وتفسير الطبري، 603/16-609. ودلائل النبوة، البيهقي، 285/2.

[2]– ينظر: فتح الباري، 558/8.

[3]– أخرجها: الطبري، في تفسيره، 606/16-608.

[4]– ينظر: فتح الباري، 558/8.

[5]– تفسير ابن كثير، 441/5.

[6]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 171/1.

[7]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 368/1-369. ونصب المجانيق، الألباني، 43-46. **تنبيه:** صحيح أنّ المرسل المحتف بقرائن القبول محتج به عند المحدثين، كما قرّر الإمام الشافعي في "الرسالة" وفصل ذلك ابن رجب في "شرح علل الترمذي، 302/1-304"، لكن المراسيل المذكورة في قصة الغرانيق يمكن اعتبارها من المراسيل المحتفة بقرائن الردّ، مع بطلان متنها.

[8]– ينظر: تفسير الرازي، 237/23. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 365/1.

[9]– تفسير الرازي، 237/23.

[1]– مخالفتها للقرآن: ثم إن هذه القصة مخالفة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: 42]؛ وأيّ بشر أصدق إيمانا وأشد توكلا على الله من الأنبياء ولا سيما خاتمهم ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3-4]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: 44-46]؛ ولو جوّزنا شيئا من ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء، ووجد المارقون سبيلا للتشكيك في الأديان[1].

[2]– مخالفتها لنظم السورة وسياقها: كما أنّ آيات سورة النجم نفسها تدلّ على فساد هذه القصة، حيث يقول سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: 19-22]؛ فقد جاءت الآيات على هذا الأسلوب الإنكاري التهكمي بالأصنام وعابديها، وقال تعالى بعد الموضع الذي زعموا أنه ذكرت فيه الجملتان: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: 23]؛ فكيف يعقل أن تحشر في هذه الآيات –التي أوضحت حقارة الأصنام وسفه من يقدسونها– جملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام وتجعلان لها شفاعة مرجوة؟! فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بين جملتي "الغرانيق" وبين ما قبلها وما بعدها، ولكان النظم مفككا، والكلام متناقضا، وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون وهم أهل اللّسان والفصاحة، وأصحاب عقول لا يخفى عليها مثل هذا؟! ولا سيما أعداؤه الذين يتلمسون له العثرات والزلات، فلو أن ما روي كان واقعا؛ لشغب عليه المعادون له، ولاتخذ منه اليهود بعد الهجرة متّكأً يستندون إليه في الطعن على النبي ﷺ والتشكيك في عصمته، ولكن شيئا من ذلك لم يكن[2].

[3]– مخالفتها لسياق صحيح السنة: كما استدل الرازي والقاضي عياض والقسطلاني وغيرهم على وهَنِ الرواية بمخالفة متنها لرواية البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه: «أنّ النّبيّ ﷺ قَرَأ سورة النّجم وسَجَد معه الْمُسْلِمون والْمُشْرِكون والإِنس والْجِنّ»[3]؛ وروي هذا الحديث من طرق كثيرة، وليس فيها البتة قصة الغرانيق[4]، وفي ذلك دلالة على أنّ «البخاري اقتصر على هذا الجزء الصحيح من القصة»[5].

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 23/237-238. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/370-371.

[2]– ينظر: الشفا (بشرح القاري)، 2/230-231. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/371-372. والقول المبين، النجار، 138-139.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين، 2/714.

[4]– ينظر: الشّفا (بشرح القاري)، 2/229. وتفسير الرازي، 23/237. والمواهب اللدنية (الزرقاني)، القسطلاني، 2/18.

[5]– السيرة النبوية، أبو شهبة، 1/367.

[4]- معارضتها لأصول الشريعة: وذلك من وجهين:

الوجه الأول: لا يصحّ مطلقا تجويز تعظيم الأوثان على الرسول ﷺ، فهذه القصّة تتنافى مع تاريخ محمد ﷺ؛ لأنّه منَ المعلوم بالضّرورة أنّ أعظم سَعْيه كان في نفيِ الأوثان[1].

والوجه الثاني: أنّ الأمة أجمعت على عصمته ﷺ من مثل هذا، وكل ما جاءت به تلك الروايات الباطلة ممتنع في حقّه ﷺ أن يقوله من قِبل نفسه عمدا أو سهوا، وهو في اليقظة أو هو وسنان لِمكان العصمة منه[2]، قال القاضي عياض: «وقد قررنا **بالبراهين والإجماع** عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا، أو أن يتشبّه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوّل على الله لا عمدا ولا سهوا ما لم يُنـــزِّل عليه»[3].

[5]- الاضطراب في متونها: مِما يقلل الثقة بالقصة المزعومة اضطراب رواياتِها اضطرابا فاحشا، فقائل يقول: كان ﷺ خارج الصلاة، وآخر يقول: إنه كان في الصلاة، وآخر يقول: بل حدّث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسان النبي ﷺ، وآخر يقول: أعلمهم الشيطان أن النبي قرأها، ومن قائل: إن النبي قال هذا وهو ناعس، وآخر يقول: إن الشيطان انتهز سكتة من سكتات النبي في القراءة فقرأها حاكيا صوت النبي ﷺ، كما رويت «تلك الغرانيق العلا» بألفاظ مختلفة، والاضطراب يذهب الثقة بالرواية ويوهنها كما هو مقرر في علوم الحديث[4].

[6]- تفسير القصة على فرض صحتها: وعلى فرَض القول بصحّة قصّة الغرانيق فهي محمولة على: أنّ النبي ﷺ كان يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات، فأوْقَع الشّيطان في مَسامع الْمُشركين ذلك -مِنْ دون أَنْ يَتَكَلَّم به الرسُول ﷺ-، فتَوَهَّموا أنّه صَدَر عن الرسُول ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنّما كان مِنْ صَنيعِ الشّيطانِ لا مِنْ رسولِ الرّحمن ﷺ؛ ويؤيد ذلك بعض روايات القصة، وما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير: «في أمنيّته» بمعنى: في تلاوته[5].

هذا التفسير -على تقدير الصحة- استحسنه بعض علماء الحديث والتفسير: كالطبري وابن العربي والقاضي عياض وابن كثير وابن حجر والشوكاني وغيرهم[6].

---

[1]- ينظر: تفسير الرازي، 237/23. وحياة محمد ﷺ، هيكل، 179.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 370/1-371.

[3]- الشفا (بشرح القاري)، 229/2-230.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 227/2-228. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 366/1.

[5]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 559/8. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 30/2. والسيرة الصحيحة، العمري، 171/1.

[6]- ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (بشرح للقاري)، 234/2-236. وتفسير ابن كثير، 443/5-444. وفتح الباري، 559/8. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 30/2. وفتح القدير، الشوكاني، 546/3-547. وسيرة أبي شهبة، 368/1.

لكن حتّى هذا التوجيه لم يسلم من المآخذات والإشكالات كما بيّن الرازي وأبو شهبة[1]، غير أنّه من باب التنَزّل في الحجاج، قال الأستاذ أبو شهبة: «الحقّ أن الإمامين عياضا وابن العربي ينكران القصة نقلا وعقلا، وإنما ارتضيا هذا التأويل على فَرض تسليم الصحة، وهو لون من ألوان الحجاج والتنَزّل مع الخصم»[2].

رابعا- سبب عودة مهاجري الحبشة إلى مكة: إذا كانت قصة الغرانيق غير صحيحة؛ فكيف نفسر رجوع مهاجرة الحبشة إلى مكة بعد أن أمّنهم النجاشي في بلده وأكرم وفادتهم؟

السبب (1): رواية البخاري تقدّم السياق الصحيح لِسبب رجوعهم من الحبشة: ما ورد في رواية البخاري من سجود المشركين مع النبي ﷺ عندما قرأ سورة النجم[3]، يشير إلى أنّ ذلك كان سبَباً لبلوغ إشاعةٍ إلى مهاجري الحبشة مفادها أن أهل مكة أسلموا وسجدوا مع الرسول ﷺ[4]، وفي هذه الرواية الصحيحة غنية عن قصّة الغرانيق الواهية وما تحويه من معانٍ تصادم أصول الشريعة.

لكن ما سبب سجودهم مع النبي ﷺ إذا لم نقُل بصحّة قصة الغرانيق؟

– **سبب سجود المشركين**: كان سجود المشركين مع الرسول ﷺ لِما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة، والفصاحة البالغة، وعيون الكلم، الجوامع لأنواع من الوعيد والإنكار، والتهديد والإنذار، وقد كان العربي يسمع القرآن فيخر له ساجدا، وقد يكون سجودهم لِما اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستمعون إلى أخبار هلاك الأمم السالفة؛ خاصة وأنّ خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنُذُرها؛ كانت روعة الحقّ قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تَمالكوا أن يخرّوا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين[5].

فهذا الجواب يفكّ الإشكال الذي ذكره المستشرق "بول" حول عودة مهاجرة الحبشة، مع القول بردّ قصة الغرانيق، لأنّ "بول -Buhl" تحدّث عن سبب رجوع المسلمين من الحبشة وردّ قصة الغرانيق، ولَم يقدّم رواية البخاري كتفسير صحيح للشائعة التي ذكر المؤرخون أنّها كانت العامل الأهم لعودة المسلمين إضافة إلى إسلام حمزة وعمر.

يضاف إلى هذا أسباب أخرى مستفادة من الشواهد التاريخية للسيرة، وهي:

---

[1]– ينظر: تفسير الرازي، 23/238-239. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 369/1.

[2]– سيرة أبي شهبة، 368/1.

[3]– تقدّم الكلام على رواية البخاري وتخريجها، وبيان عدم ورود قصة الغرانيق فيها على كثرة طرقها، حيث اقتصر البخاري على هذا الجزء الصحيح من القصة؛ و"**في الصحيح غُنية عن الضعيف**" كما قال البيهقي في "دلائل النبوة، 254/2" وابن كثير في "البداية والنهاية، 78/8".

[4]– ينظر: البداية والنهاية، 224/4. وفقه السيرة، الغزالي، 112-113.

[5]– ينظر: سيرة أبي شهبة، 367/1. وفقه السيرة، الغزالي، 112. والسيرة الصحيحة، العمري، 172/1.

السبب (2): كما تدلّ الملابسات التاريخية المواكبة لحادثة رجوع مهاجري الحبشة أن يكون من العوامل التي دعّمت فكرة رجوعهم إضافة إلى الإشاعة السابقة، هو: إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما؛ لأنّ إسلامهما عزّز جانب المسلمين وكان بعد الهجرة الأولى للحبشة[1]، وهذا السبب أشار إليه المستشرق "بول" في مادة "محمد ﷺ"، لكن ليس العامل الوحيد لرجوعهم من الحبشة.

السبب (3): استنتجه الأستاذ أبو زهرة: وذلك أنّ مشركي مكة لَمّا فشل سعيهم في إعادة مهاجري الحبشة عن طريق الرسولين (عمرو بن العاص وابن أبي ربيعة) اللذين ذهبا إلى النجاشي، قامت قريش بعد ذلك بخديعة أخرى حيث أشاعت تلك الإشاعة التي تفيد أن أهل مكة أسلموا حتّى يعود المهاجرون إلى مكة بإرادتهم[2]، ولعلّ ما دعّم هذه الخديعة وقوّى جانب الإشاعة ما سبق من سجود المشركين مع الرسول ﷺ وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، لكن يبقى هذا الاستنتاج مجرّد احتمال لعدم تصريح الروايات التاريخية به.

المطلب الثاني : مقاطعة قريش للنبي ﷺ وبني هاشم

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "[**أبو**] **طالب**"[فقرة: 2]: «**ولَمّا أعلن أهل قريش إقصاء بني هاشم عن المجتمع المكي اعتكفوا في حيهم بهذه المدينة الذي عرف بشِعب أبي طالب، وعاشوا هناك مضطهدين كل الاضطهاد مدة من الزمن، ولذلك نجد أن النبي خسر خسارة عظيمة بموت عمه المخلِص أبي طالب قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنوات وبعد بعثته بعشر**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 28]: «**غير أن هناك قصة أخرى من الفترة المكية يصعب تفسيرها، وهي قصة مقاطعة بني هاشم، فقد كانت مساندة عشيرة محمد ﷺ له هي التي وفرت له الحماية أثناء صراعه مع أهل مكة، فمعظم أفراد عشيرته أدوا واجبهم في شهامة تجاهه، وإن لم يؤمن برسالته إلا القليلون منهم... ولذا فقد كان من الطبيعي أن يحاول أهل مكة في النهاية أن يضعفوا بني هاشم بأسرهم دون أن يجلبوا على أنفسهم عار إراقة الدماء في هجوم صريح، غير أن القصة التي تروي كيف**

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 342/1. والقول المبين، النجار، 142/1. وحياة محمد ﷺ، هيكل، 175.

[2]– ينظر: خاتم النبيين ﷺ، 498/1-499.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 361/1.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

اضطروا الهاشميين إلى الانسحاب إلى شعبهم في مكة، وكيف أقسموا ألا يتزاوجوا أو يتاجروا معهم تبدو مبالغا فيها، وقد اعترفت القصة بنفسها بفشل محاولة أهل مكة.

ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون ثروة خديجة تأثرت تأثرا شديدا نتيجة التزامات محمد ﷺ تجاه المعوزين من أتباعه، ونتيجة عداء كبار القوم من التجار ذوي النفوذ، ونجد القرآن الكريم هنا أيضا خاليا من الإشارة إلى الواقعة التي تعتبرها كتب السيرة حدثا مهما في حياة محمد ﷺ...

وعندما ماتت زوجه خديجة وعمه أبو طالب في فترة زمنية قصيرة، زاد وضعه حرجا»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول**–Buhl.

– وفي مادة "**النوفليون**"[فقرة: 1]: «**وانضمت النوفليون إلى معظم قريش في مقاطعتهم لبني هاشم حين أَبَى أبو طالب – باعتباره كبيرهم– أن يَمنع محمداً ﷺ من الدعوة للإسلام أو يمنع جواره له، وحينذاك قام مطعم بن عدي النّوفلي فكان خامس خمسة شجبوا المقاطعة**»[2]. المحرر هو المستشرق: **وات**-Watt[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- بداية المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية لبني هاشم: بعد أن أسلم "حمزة وعمر" واشتد بهما ساعد المسلمين، ورأت قريش أنّ عدداً كبيراً من المسلمين هاجر إلى الحبشة وصاروا في أمن وقرار، وعجزت قريش عن إرجاعهم وأصبح وجودهم في هذه البلاد يبعث على القلق، وأنّ الإسلام بدأ يفشو في القبائل، فكرت قريش في سلاح جديد تقاوم به هذا الخطر الذي صار يحدق بها، وكان هذا السلاح هو مقاطعة اقتصادية واجتماعية شاملة لِكلّ من وافق على حماية رسول الله ﷺ[4].

قال الزهري: «واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسولَ الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جَمَع بني عبد المطّلب، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ شِعْبهم، ويَمنعوه مِمّن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حَمِّية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، وأَجْمَعوا على ذلك؛ اجْتَمَع المشركون مِنْ قريش، فأجْمعوا أمرهم ألاّ يُجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلِّموا رسولَ الله ﷺ للقتل، وكَتَبوا في مكرهم صحيفة وعُهودًا ومواثيق؛ لا يقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا يأخُذُهم بهم رأفةٌ حتى يسلموه للقتل»، ونحو هذا السياق جاء عن عروة بن الزبير أيضا[5].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9123/30-9124.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 9996/30.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 350/1. والقول المبين، النجار، 145-146.

[5]– دلائل النبوة، البيهقي، 311/2-312. والبداية والنهاية، ابن كثير، 208/4.

وإزاء هذه المقاطعة الجائرة الغاشمة انتقل كل من بني هاشم وبني المطلب ومعهم الرسول ﷺ إلى "شِعْب أبي طالب"[1] في ناحية من مكة، يعانون الحرمان ألوانًا، حتى لقد بلغ من سوء حالهم أن أكلوا أوراق الأشجار، و لم يتخلف عن الانضمام إلى محمد ﷺ من بني هاشم سوى عمه أبي لهب الذي أسرف في تعصبه للأصنام وفجر في بغضه للإسلام، و لم يرع للقرابة حرمة ولا للرحم مودة[2].

وكان أبو طالب يخاف على الرسول ﷺ، فإذا أَخذ النّاسُ مضاجعهم أمَر رسُول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتّى يَرى ذلك مَنْ أراد مكرًا به واغتياله، فإذا نام النّاس أَمر أحدَ بَنيه أو إخوته أو بني عمِّه فاضْطجَع على فِراش رسول الله ﷺ، وأَمر رسُول الله ﷺ أنْ يأتِيَ بعض فُرُشهم فيَنام عليه[3].

فلبِث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنينَ، واشتَدّ عليهم البلاءُ والْجَهدُ، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يَتركوا لَهم طعامًا يَقدم مكّة وَلا بيعًا إلاّ اشتروه، وكانت قريش تبادرهم إلى الأسواق فيشتروها ويغلّوها عليهم، وضيّق الحصار على المسلمين، وانقطع عنهم العون، وقلّ الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه، وحتى سمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشِّعب، وكان مشركو مكة يكرهون ما فيه بنو هاشم من البلاء، حتى كره عامة قريش ما أصاب بني هاشم، وأظهروا كراهيتهم لتلك الصحيفة القاطعة الظالمة وأرادوا أن يبرءوا منها[4].

ثانيا- إنهاء المقاطعة ونقض الصحيفة: وهو ما أشار إليه المستشرق "وات-Watt" في مادة "النوفليون"، حيث كان النوفليون وهم "بنو نوفل"[5] من الذين وافقوا قريشا في صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب أول الأمر، ثم كان واحد من أكابرهم وهو "المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف" أحد الخمسة الذين توافقوا على نقض الصحيفة الظالمة -كما ذكر "وات-Watt"-، والأربعة الباقون هم: "هشام بن عمرو، وزهير بن أمية المخزومي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب"، و**المطعم بن عدي** هو الذي قام إلى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة أكلتها، ثم نُقضت الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشِّعب[6].

---

[1]- **الشِّعب:** الشِّعب والشُّعب بالكسر والضم، هو: الطريق في الجبل، أو ما انفرج بين جبلين، ويقع "شِعب أبي طالب" بأعلى مكة، على بعد ميل ونصف من الكعبة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 225/2 و347/3. والسيرة الحلبية، الحلبي، 59/1.

[2]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 213/4. والقول المبين، النجار، 146.

[3]- دلائل النبوة، البيهقي، 312/2.

[4]- ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 159-160. ودلائل النبوة، البيهقي، 312/2.

[5]- **بنو نوفل:** بطن من بني عبد مناف، من **قريش**، وهم: بنو نوفل بن عبد مناف بن قصي. ينظر: معجم قبائل العرب، عمر كحالة، 1202/3.

[6]- ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 165-167. ودلائل النبوة، البيهقي، 312/2-313. وفقه السيرة، الغزالي، 121-122.

ثالثا- استدراكات على بعض ما جاء في مادة "محمد ﷺ": الملاحظ في عَرْض "بول-Buhl" لحادثة المقاطعة العامة في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:28" أنّه يستعمل نفس المنهجية التي استعملها من قبل للتشكيك في شدّة اضطهاد مشركي مكة للمسلمين[1]، فادّعى أنّه يصعب تفسير حادثة مقاطعة قريش لبني هاشم، والواقع أنّ المستشرق "بول" -كما في حادثة الاضطهاد- لَمّا لم يجد تفسيراً ماديّا يخرِج به الحادثة عن أبعادها المعنوية والروحية قال ذلك، فالمستشرق "بول" لا يعجزه أنّ يأتي بتفسير واضح ظاهر يتراءى لكلّ مَن يقرأ تفاصيل الحادثة، كيف والمستشرق وغيره لا يصعب عليهم حشد الشواهد والقرائن التاريخية لاختراع أمور غير موجودة أصلا -كادعاء نشوء خلاف بين الجماعة الإسلامية كان سببا في هجرة الحبشة- ما دام هذا الاستنتاج يخدم التفسير المادي لحوادث السيرة، أمّا هذه الحادثة -وحادثة الاضطهاد قبلها- فقد أعجزت "بول-Buhl" عن إعطائها بعدا ماديّا يشوه به سياقها التاريخي، لأنّه لا يستطيع أنّ يقول إنّ المسلمين وغيرهم تحمّلوا الاضطهاد وكابدوا مشقّة المقاطعة العامة من أجل مصلحة اقتصادية أو نحوها من الأمور المادية.

لكن التفسير المادي للسيرة ليس المسلك الوحيد لتشويه حقائق السيرة عنده، لذا لَجأ "بول-Buhl" إلى مسلكين آخرين لخدمة هذا المقصد، وهما: - **الأول**: التهوين من شأن شدّة المقاطعة.

- **والثاني**: أنّ هذه الحادثة مع أهمّيتها لم يذكرها القرآن.

فبعد أنْ ذكر بأنّ روايات وقائع الحادثة مبالَغ فيها، دعّم قوله بأنّ المشركين فشلوا فيها، ولكن هذا الفشل لم يتحقّق بتلك السهولة التي يصوّرها المستشرق، بل كان إنهاء المقاطعة الجائرة بعد سنين من الجَهد والمشقّة والمعاناة، ومع إشارته في مادة "[أبو] طالب" إلى أنّها دامت مدة من الزمن، إلاّ أنّه لم يحدّد تلك المدة وتركها مبهمة، بينما لم يشر في مادة "محمد ﷺ" إلى المدة إطلاقاً؛ ويبدو أنّه **أغفل** ذكر **تلك التفاصيل الهامّة** لأنّها لا تتوافق مع تَهوينه من شأن المقاطعة وشدّتِها.

بيد أنّ ما غفل عنه "بول-Buhl" هو: أنّ المقاطعة بَحدّ ذاتها تستلزم قطع سبل المعيشة عن المقاطَعين، ثُمّ إذا عُلم أنّها استمرت ثلاث سنين فهذا يقتضي أنّ مَن سُلّطت عليهم سيعانون من نقص في الْمؤن والطعام وضروريات المعيشة، وما دام المستشرق أثبت أنّ ثَمّة مقاطعة مدعّمة بعهد وميثاق؛ فإنّه لن يستطيع أن ينكر مدى المعاناة والضّرر الّذَين لحقا بِالمقاطَعين، لذا كان قوله بأنّ الروايات بالغت في ذلك ما هو إلاّ محاولة غير محبوكة للتعمية عن التفسير الروحي الحقيقي للحادثة.

إنّ التفسير الواضح لهذه الحادثة والذي يتبادر إلى ذهن كلّ من يقرأ وقائعها هو مدى الصّبر والتضحيات الجسيمة والشاقّة التي كابدتها عشيـــرة النبي ﷺ ومن وافقهم مسلمهم وكـــافرهم

[1]- ينظر: ص389 و391.

لِحمايته ﷺ؛ أمّا المسلمون فكان صبرهم نابعا من إيمانهم الثابت بدينهم، واعتقادهم بأنّ كلّ ما يلقونه هو في سبيل الله ونصرة دينه، أمّا المشركون من بني هاشم وبني المطلب فكان تحملهم لكلّ تلك المشاقّ والتضحيات نابعا من إيمانهم العميق بالأعراف الجاهلية وتمسكهم بمبادئها في تلاحم العشيرة والقبيلة لنصرة أفرادها وحمايتهم.

وفي مقابل ذلك نقرأ مدى حرص كفار قريش على قتل النبي ﷺ للتخلّص من دعوته، ولكن يأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون.

كلّ هذه التفسيرات يأباها "بول-Buhl" لِمصادمتها لأهداف المدرسة الاستشراقية المشكّكة في النبوة وفي مثل هذه المعوّقات والعقبات التي واجهت دعوة النبي ﷺ.

أمّا الأمر الآخر: الذي ذكره "بول-Buhl" من أجل التهوين من شأنّ المقاطعة وزعزعة الثقة بحقيقتها، هو قوله بأنّها لم ترد في القرآن مع أهميتها، وهو منهج آخر من مناهج المستشرقين للتشكيك في بعض أحداث السيرة النبوية سبق بيانه[1]، فإنّ القرآن الكريم كتاب هداية لا كتاب تاريخ، ولا يعني البتة عدم ورود حدث من أحداث السيرة في القرآن دليل على عدم وقوعه أصلا، لأنّ القرآن أحد مصادر السيرة النبوية وليس المصدر الوحيد، بل هناك مصادر أخرى هامة وموثقة تأخذ منها وقائع السيرة، كالأحاديث النبوية والروايات التاريخية لكتب المغازي والسير ونحوها.

رابعا- وفاة أبي طالب وخديجة ﷺ: ما إن غادر بنو هاشم شعب أبي طالب حتّى أصيب الرسول ﷺ بوفاة عمه أبي طالب وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث[2]، كما ذكر "بول-Buhl" في مادة "[أبو] طالب" ومادة "محمد ﷺ".

موت أبي طالب أفقد رسول الله ﷺ سنداً كبيراً؛ فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية، لِما قد يصيبهم من أضرار مادية ونفسيه كما تبيّن من حادثة المقاطعة، وقد تجلى ذلك في رحلة النبي إلى الطائف طلباً للنصرة، ثم دخوله في جوار المطعم بن عدي، ثم استمراره في طلب النصرة من القبائل الأخرى بعد إخفاق محاولة الطائف[3].

ولئن اعتبر المستشرق "بول-Buhl" في مادة "[أبو] طالب" موت "أبي طالب" خسارة كبيرة، فيمكن القول أنّه وإن كانت مهمة أبي طالب قد انتهت، فإن الله تعالى حيّ لا يموت، وهو القوي العزيز الذي هيأ أسباب الحماية والنصر لرسوله ﷺ، وبه -وحده- تكون النصرة الدائمة المتجددة في الشدائد.

---

[1]- ينظر: ص154.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 242/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 183/1.

[3]- السيرة النبوية الصحيحة، 184/1. وينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 381/1 و416.

أما **خديجة بنت خويلد** ﵂ فقد توفيت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين، في نفس العام الذي توفّي فيه أبو طالب؛ ففجع الرسول ﷺ بهاتين الفجيعتين في عام واحد، وحزن عليهما حزنًا شديدًا لما كان لهما من أثر بالغ في نصرة الإسلام والدفاع عنه ضد أعدائه، فلا عجب إذا سمي هذا العام في حياة الرسول ﷺ بعام الحزن، لكثرة ما أصابه ﷺ فيه من الهموم والأحزان[1] .

المطلب الثالث : خروج النبي ﷺ إلى الدعوة في الطائف

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**حراء**"[فقرة: 2]: «**وفيه [أي: غار حراء] اختفى النبي في عودته من الطائف حتّى استطاع دخول مكة**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **فاير** - T.H.Weir[3].

– وفي مادة "**الطائف**": «**ولا عجب إذن أن يفكر محمد بعد ما لقيته رسالته في مكة في أن يجتذب إليه أهل الطائف الذين عرفوا بالذكاء، ولكنه لم يوفق في ذلك فلم يجد بدّا من أن ينصرف إلى الأنصار**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[5].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 29]: «**وقد حاول نشر دعوته في الطائف، غير أن الروايات تذكر أن هذه المحاولة فشلت وعرّض نفسه أثناءها للخطر، وبعد رحلته إلى الطائف شمله رجل من مكة، هو مطعم بن عدي بحمايته حتى يأمن عند دعوته إلى بلده، وهي قصّة تؤكدها قصيدة لحسان بن ثابت**»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[7].

– وفي مادة "**النوفليون**"[فقرة: 2]: «**ولَمّا مات أبو طالب خلفه أبو لهب وصارت له الزعامة فحجب حماية بيته لمحمد، وترتب على زيارة محمد ﷺ للطائف أن يلتمس الرسول ﷺ حماية قبيلة أخرى قبل أن يعود ليدخل مكة فكان المطعم بن عديّ النوفلي هو الذي أدخله جواره، وربّما كان ذلك على أن يكفّ محمد ﷺ عن الدعوة ولا نجد ذكراً للمطعم بعد الهجرة**»[8]. المحرر هو المستشرق: **وات** -Watt[9].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 415/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 185/1.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 352/7.

[3]– سبقت ترجمته في: ص241.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 56/15.

[5]– سبقت ترجمته في: ص221.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9124/30.

[7]– سبقت ترجمته في: ص105.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9996/32.

[9]– سبقت ترجمته في: ص59.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- خروج النبي ﷺ إلى الطائف: لَمّا مـــات أبو طالب ونالت قريش من الرسول ﷺ من الأذى ما لم تكن تـــنال منه في حياة عمه أبي طالب، خـــرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ﷺ يلتمس النصرة من ثقيف وهي من أهم قبائل العرب بعد قريش، رجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من دعوة الإسلام[1].

فلما وصل إلى الطائف عَمَد إلى نفَرٍ مِن "ثقيفٍ"، هم سادةُ "ثقيف" وأشْرافُهم يومئذ، فجَلَس إلَيهم رسولُ الله ﷺ، فدَعاهُم إلى الله، وكلّمَهُم بِما جاءَهم له مِنْ نُصْرَتِه على الإسلام، والقيامِ معه على مَن خالَفه مِن قومه، ولكنهم لم يستجيبوا له وواجهوه بالجحود والإعراض، والسخرية والاستهزاء، بل أغروا بالنبي ﷺ سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، ورشقوه بالحجارة حتى أدموه، فخَلَص منهم ورِجلاه يَسِيلان دماً، وألْجأُوهُ إلى حَائِطٍ لِعُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وهُما فيه، فانْصَرَف إلى ظِلِّ شجرةٍ واستراح، فلما رأى عتبة وشيبة ما أصاب محمدًا ﷺ من جهد وتعب رقّا له، وتحركت فيهما نخوة الكرم، فأرسلا إليه عبدهما المسيحي "عدّاسًا" بطبق من العنب، فأتاه "عدّاس" به وكلّم النبيَّ ﷺ وتأثّر به وأسلم[2].

وذكر ابن سعد: أنّ ذلك كان سنة عشر من المبعث، وأنّ مدة إقامته ﷺ بالطائف كانت عشرة أيام[3].

ثانيا- أسباب خروجه إلى الطائف: بيّن ابن إسحاق بعض أسباب توجّه النبي ﷺ إلى الطائف، فقال: «خَرَج رسولُ الله ﷺ إلى الطّائف، يَلْتَمس النُّصرة مِنْ ثقيفٍ، والْمَنَعة بِهم مِن قومِه، ورَجاءَ أنْ يَقْبَلوا منه ما جاءهُم به من الله عزّ وجلّ»[4]؛ إذن فالنبي ﷺ توجه نحو الطائف من أجل البحث عن مكان جديد تنطلق منه الدعوة ويوفر لَها الحماية والمنعة، وفي سبيل توسيع نطاق الدعوة خارج مكة من جهة الأخرى[5].

لكن لماذا توجه النبي ﷺ إلى الطائف دون غيرها؟ يبّرر المستشرق "لمنس-Lammens" في مادة "الطائف" اختياره ﷺ للطائف أنّه كان بسبب ما عرفوا به من الذكاء، وهو في الحقيقة سبب غير وجيه ولا موافق للأجواء التاريخية السائدة آنذاك.

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 419/1. والقول المبين، النجار، 149.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 419/1-421. والبداية والنهاية، ابن كثير، 337/4-340. والقول الْمبين، 149-150. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 185/1.

[3]- ينظر: طبقات ابن سعد، 165/1. وفتح الباري، ابن حجر، 380/6.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 419/1.

[5]- ينظر: خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 546/1. والمنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، 133/1.

ذلك أنّ ما تدلّ عليه الشواهد التاريخية أنّه اختار الطائف لأمور؛ **أولها:** موقعها الجغرافي، فهي قريبة من مكة المكرمة، **وثانيها:** أنّ قبيلة ثقيف بالطائف لا تقل أصالة عن قريش في الحسب والنسب والمنعة، فهي أنسب ما يكون لتكون البديل عن مكة، والطائف تلي مكة في الأهمية عند العرب[1].

وثالثها: أنّ للطائف من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة ما لِمكة[2]، فهم أهلٌ لنصرته إن أرادوا.

ثالثا- رجوع النبي ﷺ من الطائف ودخوله في جوار المطعم بن عدي: لَمّا رجع النبي ﷺ من الطائف لَم يدخل مكة مباشرة، بل توقّف عند غار حراء[3] كما ذكر محرر مادة "حراء"، وذلك أنّ رسول الله ﷺ توجّس منهم شراً، وعلم أنّهم ازدادوا عليه حنَقاً وغيظا بعد أن ذهب يستنصر عليهم بثقيف، فبعث إلى بعض أشراف مكة يطلب منهم الجوار والحماية، فأجابه إلى ذلك المطعم بن عديّ، ثم دخل النبي ﷺ مكة المكرمة في جوار "المطعم بن عدي"؛ الذي أعلن أمام قريش أنّه قد أجار محمداً ﷺ، فقبلت قريش جواره[4]، وقد ذكر ابن إسحاق شعراً لِحسان بن ثابت يرثي فيه "المطعم بن عدي" ويشيد بفضله في نقض الصحيفة الجائرة وإجارة المصطفى ﷺ وفيه قوله:

فلَوْ كان مَجْدٌ يُخْلد الدّهرَ واحِدًا ** مِن النّاس، أبْقى مَجْدُه اليومَ **مُطْعِمَا**

أَجَرْتَ رسولَ اللَّه مِنهم فأَصْبَحوا ** عبِيدك ما لَبّى مُهِلٌّ وأحْرَمَا[5]

وهو الشعر الذي أشار إليه المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، ثم إنّ "المطعم ين عدي" مات كافراً بعد الهجرة وقبل غزوة بدر بنحو سبعة أشهر[6]، لذا لا نجد "للمطعم" ذكراً بعد الهجرة كما ذكر "وات-Watt" في مادة "النوفليون" غير رثاء "حسان بن ثابت" له في هذه الأبيات.

لكن هذا الجوار -على ما يبدو- كان محصوراً على الحماية الشخصية، لا على حرية الدعوة، لذلك استمر الرسول ﷺ في البحث عن موطن آخر يستطيع أن ينطلق منه للدعوة إلى دين الله[7]، هذا ما يعنيه هذا الجوار، لا ما ذكره "وات-Watt" بأنّه يعني كفّ النبي ﷺ عن الدعوة، ذلك أنّ الأحداث التالية تدلّ على استمرار الدعوة -مع كلّ العوائق- إلى أن تكلّلت بالهجرة إلى المدينة.

---

[1]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، 1/133-135.

[2]- ينظر: خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 1/546.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/381. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 1/165.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/381. وتاريخ الطبري، 2/347. وسيرة أبي شهبة، 1/404.

[5]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/380.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 4/343. والسيرة الحلبية، الحلبي، 1/507.

[7]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية، 1/140.

رابعا- الرد على تفسير "لَمنس" و"بول" للحادثة: وصَفَ المستشرق "لَمنس-Lammens" رحلة النبي ﷺ إلى الطائف وعدم استجابة أهلها لدعوته بأنّ النبي ﷺ لم يوفق فيها، بينما وصفها "بول-Buhl" بالفشل، وزاد الطين بلة عندما نسب هذه العبارة للروايات، وكلّ ذلك من التمويه وعدم الأمانة في عرض الوقائع وتفسيرها.

بيد أنّ العبارتين اللتين وصف بِهما المستشرقان خروج النبي ﷺ للطائف غير معبِّرتين عن الأبعاد الحقيقية والعميقة للحادثة، بل هما نابعتان من أقلام ما فتئت تطلق العبارات المتهافتة في حقّ النبي ﷺ ودعوته، والذي يظهر أنّ المستشرق "بول-Buhl" لا يقلّ تهافتا عن المستشرق "لَمنس-Lammens" في الطعن على النبي ﷺ، وإن كان هذا الأخير أكثر شهرة بين أوساط المستشرقين والمسلمين من "بول-Buhl"، لكن كتاباته في "دائرة المعارف" تكشف ذلك بجلاء، وإنْ حاول المستشرق "بول" تطوير أسلوبه شيئا ما عن أسلوب "لَمنس-Lammens" المكشوف في الطعن وإثارة الشبهات.

إنّ القراءة العميقة والمتجردة لرحلة النبي ﷺ إلى الطائف تبرز للمتأمل فيها تفسيرين؛ **الأول:** العبارة الأصوب هي أن نقول إنّ أهل الطائف لم يستجيبوا لدعوة النبي ﷺ. **والثاني:** هو أنّ النبي ﷺ وإن لم يحقّق كلّ أهدافه من هذه الرحلة و لم يجبه أهل الطائف لسؤله، فإنّه حقّق فيها عدة انتصارات وتطورا لا بأس به في مسيرة دعوته، وهذان التفسيران يمكن أن ينأيا بالباحث عن وصف رحلته بالفاشلة.

ثم متى كان تكذيب الناس للأنبياء والرسل فشلا ؟ فهل عدم إيمان قوم نوح به إلاّ قليل منهم يعدّ فشلاً؟ وهل عدم استجابة كثير من قوم موسى وعيسى عليهما السلام لدعوتهما فشلٌ؟ وهكذا...

إن المتأمل في دعوة الأنبياء يجد الإعراض الكثير من قبل أقوامهم، في مقابل تحمّل المشاق والمصاعب من الأنبياء لتبليغ الناس وتوجيهم، وقد بيّن الله تعالى تكذيب الناس للرسل وحدّد مهمة الأنبياء فقال تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت: 18]، ولكنه طغيان القراءة المادية والسطحية المغرضة للحطّ من دعوة النبي ﷺ بأيّ مسلك وعبارة متهافتة.

خامسا- من انتصارات الرحلة وما حقّقته من أهداف: رغم عدم استجابة الطائف للنبي ﷺ، فإنّ هذه الرحلة حقّقت بعض الانتصارات وأحدثت شيئا من التقدم في مسار الدعوة النبوية، كما يتّضح ذلك من خلال ما يلي:

[1]- مع أنّ هذه الرحلة النبوية لم تكن محققّة الاستجابة، ولكنّها كانت جهادا في سبيل الدعوة من صاحبها[1]، وقدمت دروسا للأمة في الصبر على الأذى، والتحمل لأعباء الدعوة وتكاليفها.

[1]- ينظر: خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 547/1.

وهذا الأذى الذي لقِيَه النبي ﷺ هو ما أشار إليه "بول-Buhl" في قوله: «**عرّض نفسه للخطر...**»؛ لكنّ النبي ﷺ لَمّا كان «يقوم بأعظم دعوة في الوجود، فسيهون في سبيلها كل أمر مهما كان عنيفا، وكل شديدة مهما كانت بالغة»[1].

[2]– هذه الرحلة النبوية هي أول مرة توجّه فيها الرسول ﷺ إلى الدعوة خارج مكة، في خطوة ترمي إلى تغيير مركز انطلاق الدعوة، وإن كان قد هيأ مركزا احتياطيا له في الحبشة من قبلُ[2].

هذا فيما يتعلّق بدلالات الرحلة على العموم، أما ما يتعلّق ببعض التفاصيل التي تبين بعض الانتصارات والتي أغفل المستشرقان ذِكرها، فهي كالتالي:

[3]– إسلام الفتى النصراني "عداس" كما سبق.

[4]– **أمر ملك الجبال**: جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: ((لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ؛ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ"، قَالَ: "فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ"، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))[3]؛ فبيّن الله تعالى بأنه يضع في يده كل القوى، وأنه لا يمكن أن يهون عند الناس والله تعالى معه، فمن كان مع الله تعالى لا يهون أبدا[4].

وفي ذلك دلالة على أنّ كلّ هذا الإيذاء والردّ القبيح واللئيم لم يثن الرسول ﷺ عن مهمته كداعية؛ فلئن كانت مهمة السياسي أن **ينتصر**، فإنّ مهمة الداعية أن **تنتصر دعوته**، وحين يأتيه العرض من ربه تعالى أن ينتقم له ويخيَّر بين الأمرين، يَختار دعوته على شخصه ويقدّمها على الانتصار لنفسه[5].

---

[1]– المصدر السابق، 549/1-550.

[2]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، 135/1.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، 376/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب اللقطة، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، 214/12-215. واللفظ لمسلم.

[4]– ينظر: خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 550/1.

[5]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، 136/1.

[5]- إيمان نفر من الجن بعد استماعهم للقرآن: كان النبي ﷺ حريصا بأن يتّبع الناس دعوة الحق، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأوثان، ولقد شكا أن قومه لا يتبعونه، فبيّن الله تعالى أنّ له أتباعا من الجن، وأنّ بعض الجن قد استمعوا إليه عندما كان يصلي بعد رجوعه من الطائف، واستجابوا وآمنوا به، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 29-30][1].

والملاحظ أنّ المستشرقَيْن اعتمدا "**منهجية الانتقاء الكيفي**" عندما اقتصرا على ذكر ما يدعّم تفسيرهما للحادثة، وأعرضا عمّا يردّه؛ فلم يتطرقا لذكر "قصّة عداس" و"ملك الجبال" و"استماع الجن للقرآن" أو الإشارة إليها أصلا، مع أنها مذكورة في أشهر كتب السيرة كسيرة ابن هشام مثلا، وما ذلك إلاّ لِما في هذه التفصيلات من إشارات لشيء مِما حقّقه النبي ﷺ في هذه الحادثة من مكاسب لدعوته.

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/421-422. وخاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 1/550-551.

المبحث الثالث : نظرة "دائرة المعارف" إلى حادثة الإسراء والمعراج

يتطرّق هذا المبحث إلى مناقشة ما ورد في "الدائرة" حول حقيقة الإسراء والمعراج، وبعض ما وقع فيه، ثم إلى بيان الأساليب التي انتهجها بعضُ كتّاب "الدائرة" للتشكيك في هذه المعجزة والردّ عليهم.

المطلب الأول : حقيقة الإسراء والمعراج وتاريخ الحادثة

الفرع الأول : مفهوم الإسراء والمعراج

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**إسراء**"[فقرة: 1]: «**ورد هذا اللفظ في القرآن في سورة الإسراء:** ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]... **نلاحظ أن الروايات فسرت هذه الآية على ثلاثة أوجه:**

[1]– **تذهب أقدم هذه الروايات، وقد اختفت من التفاسير الحديثة، إلى أن هذه الآية تشير إلى صعود محمد إلى السماء، وأهم ما في هذه الروايات (البخاري، ج2 ص185. مسلم، ج1 ص59. الطبري: التفسير، ج15. وانظر Der Islam، ج6 ص12، 14): هو أنّها احتفظت بالمعنى البدائي لقصة الصعود التي صورت على أنّها بداية لتعاليم النبوة التعبدية... وهذا القول يفسر عبارة "المسجد الأقصى" بالسماء، وفي الحق إن الرواية القديمة تستعمل كلمة "إسراء" مرادفة لكلمة "معراج".**

[2]– **والرواية الثانية: وهي الوحيدة في جميع التفاسير المتأخرة، تفسر "المسجد الأقصى" ببيت المقدس، وليس هناك سبب ظاهر لهذا التفسير، ويظهر أن هذا التفسير أوحت به سياسة الأمويين التي رمت إلى تعظيم بيت المقدس على حساب مكة التي كان يحكمها حينذاك عبد الله بن الزبير (جولد زيهر، Muh Stud، ج2 ص55... ويظهر أنّ الطبري قد رفض الأخذ بهذا التفسير وهو لا يذكره في تاريخه، بل يظهر أنّه كان أميل إلى تأييد التفسير الأول (der islam، ج6 ص2، 5، 6، 12، وفي الطبري: التاريخ، ج1 ص1157...[1].**

وتتفق الروايتان الأولى والثانية في تفسير كلمة "عبد"، الواردة في الآية الأولى من سورة الإسراء بمحمد، ويظهر أن هذا صواب (Der Islam، ج6 ص13)...

---

[1]– ذكر المعلّق على المادة "**أبو عبد الله الزنجاني**" الآراء في تفسير الإسراء هل هو بالروح أم بالجسد، ثم قال: «**أخذ "شريك"– Schrieke" كاتب هذه المقالة خلاصة ما ذكر في كتب القدماء من المفسرين والمحدثين من غير تأمل ونظر في دلائل الآراء والنصوص الواردة فيها لتظهر له الحقيقة، بل إنه لا يخلو من ميل إلى تشويه حقائق الإسلام المضيئة**»، لكنه لم يركّز على ردّ المطاعن والمغالطات الواردة فيها إلاّ ما جاء في هذا النص الذي ذكرته، بل راح يناقش قضية هل كان الإسراء بالروح أم بالجسد، وسيأتي الكلام عليها. [ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/107-109].

[3]– أما التفسير الثالث للآية الأولى من سورة الإسراء فيعتمد على الآية الثانية والستين من السورة نفسها إذ ورد فيها كلمة الرؤيا بمعنى الإسراء، وهذا يتضمن أن الرحلة الليلية لم تكن رحلة حقيقية وإنّما كانت رؤيا»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **شريك**-B.Schrieke[2].

– وفي مادة "**المعراج**" [**فقرة**: 1]: «**يقصد به –اصطلاحا– الصعود، وبالذات صعود الرسول ﷺ للسماء...**

يفسر الإسراء بأنّه الرحلة من مكة إلى المسجد الأقصى، والمعراج بأنّه الصعود للسماء، واعتبر أنّه حدث في تاريخ آخر لاحق على الإسراء...

وتسوق الأحاديث تفاصيل أكثر عن المعراج، وهنا نجده مرتبطا بالإسراء، بحيث أن المعراج تَمّ من ذلك المكان المقدس، وإن كنّا نجد روايات تقول إن المعراج كان من مكة، ولا تذكر شيئا عن الإسراء»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **روبنسون** – B.W.Robinson[4].

ثانيا– التحليل والمناقشة: طرَح كلّ من المستشرق "شريك-Schrieke" في مادة "الإسراء" والمستشرق "روبنسون-Robinson" في مادة "المعراج" عدة إشكالات حول حقيقة الإسراء ومفهومه، أوردها في النقاط الآتية مع الاستدراك على ما جاء في نصّيهما من أخطاء ومطاعن:

[1]– تعريف الإسراء والمعراج:

أ)– الإسراء: – لغة : من أسرى وسرى، بمعنى واحد؛ وهو: السير ليلا[5].

– واصطلاحا: هو إسراء الله تعالى بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس في جزء من الليل، ثم رجوعه من ليلته[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/106-109.

[2]– **شريك** "B.Schrieke": لم أقف ترجمة له في كتب الأعلام المعاصرين، لكن وجدت في موقع "الموسوعة الحرة ويكيبيديا" (بالإنجليزية) ترجَمةً لأحد الأعلام باسم "Bep Schrieke"، ولم أقف على شيء يمكّنني من الجزم بأنّه هو [كأن يُذكر في ترجمته أنّ له كتابات في "دائرة المعارف" كما يفعل العقيقي وغيره]، لكن القرائن المتعلّقة بحياته تقوّي احتمال أن يكون هو؛ حيث ورد في ترجمته: أنّه أكاديمي أنجليزي: عاش ما بين (1890-1945م)، وجلّ المستشرقين محرّري "الدائرة" عاشوا في هذه الحقبة في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وما بعده، كما أنّه كان متخصّصا في تاريخ جزر الهند الشرقية (أندونيسيا).

ينظر: موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://en.wikipedia.org/wiki/Bep_Schrieke).

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9408-9410.

[4]– **وليام روبنسون** " Basil William Robinson" (1912-2005م): مستشرق بريطانيا، متخصّص في تاريخ الفن الشرقي، وخاصة الفن الإسلامي، وله مؤلفات في هذا المجال.

ينظر: موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://fr.wikipedia.org/wiki/Basil_William_Robinson).

[5]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 3/252. ومختار الصحاح، الرازي، 147. ولسان العرب، ابن منظور، 14/381.

[6]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 2/385. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 4/209. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/408.

ذكر "شريك-Schrieke" في مادة "الإسراء" هذا التعريف العام كوجه من أوجه تفسير الإسراء، وحاول تضعيفه، لكنّ هذا الوجه هو المفهوم الحقيقي للإسراء، على ما سيأتي تفصيله.

بينما نجد المستشرق "روبنسون-Robinson" محرر مادة "المعراج" ذكر المفهوم الصحيح للإسراء، فأثبت ما حاول "شريك-Schrieke" نفيه في مادة "الإسراء".

ب)- المعراج: - لغة: من عرج يعرج عروجا، بمعنى: الصعود والارتقاء، والمعراج: السلم والمصعد[1].

- **واصطلاحا:** هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السماوات السبع، وما فوق السبع، في جزء من الليل[2].

والملاحظ أنّ التعريف الذي قدّمه محرر مادة "المعراج" لم يذكر فيه من أين كان المعراج، وإن أشار إليه بعد ذلك بصورة غير واضحة عندما قال: «**بحيث أن المعراج تَم من ذلك المكان المقدس**».

[2]- مناقشة التفسيرات التي ذكرها "شريك-Schrieke" للإسراء":

• **التفسير الأول:** اعتبره "شريك-Schrieke" من أقدم التفسيرات، لكنّه في الحقيقة لَم يقل به أحد من المتقدّمين ولا المتأخرين، وهذا الوجه في تفسير الإسراء مختلق اصطنعه المستشرق، وبيان ذلك فيما يلي:

أ)- لا يوجد من علماء التفسير والحديث والسيرة من فسّر الإسراء في الآية بالصعود من مكة إلى السماء، لأنّ المعنى اللغوي للفظ الإسراء مناف أصلا لهذا التفسير، وإنّما ينطبق ذلك المعنى على المعراج لا الإسراء كما سبق في التعريف اللغوي والاصطلاحي للّفظين.

ب)- كما لا نجد منهم مَن يفسّر "المسجد الأقصى" بالسماء، بل كلّهم يفسرونه ببيت المقدس، وحتّى الإمام ابن الجوزي الذي يحرص على استيعاب الأقوال والأوجه التفسيرية لكلّ آية لم يذكر هذا التفسير أصلا[3]، والأهمّ من ذلك أنّ الإمام الرازي قطع الطريق على تفسير المستشرق "شريك" عندما بيّن أنّه لا خلاف في تفسير "المسجد الأقصى": ببيت المقدس، فقال: «وقوله: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: **اتَّفَقوا** على أنّ الْمُراد منه بيت الْمقدِس»[4]؛ وبالتالي لا يوجد من قال بالتفسير الذي ذكره "شريك-Schrieke".

ج)- ثُمّ إنّه لا يصحُّ استناده في ذلك للإمام الطبري، لأنّ ما ذكره الطبري مخالف لتفسير "شريك-Schrieke" الأول وموافق لتفسيره الثاني، قال الطبري: «وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصّواب، أن يُقال:

---

[1]- ينظر: لسان العرب، 322/2. والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، 198.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 296/20. والبداية والنهاية، ابن كثير، 276/4. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 408/1.

[3]- ينظر: تفسير الطبري، 420/14. وتفسير البغوي، 105/3. وزاد المسير، ابن الجوزي، 8/3. وتفسير ابن كثير، 5/5.

[4]- تفسير الرازي، 292/20.

إنّ الله عزّ وجلّ أخْبَر أنّه **أَسْرى بِعبده مِن الْمسجد الْحرام**... وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾؛ يعني: **مسجد بيتِ الْمقدس**»[1]، وهو ما ذكره في غير ما موضع من كتابه وأورد الروايات الكثيرة فيه[2]؛ وهذا يعني أنّ قوله ينطبق على التفسير الثاني الذي ذكره "شريك-Schrieke" لا الأول، والعجب أن المستشرق "شريك" يصادم هذه الحقائق عندما يقول إنّ الطبري رفض التفسير الثاني في "تاريخه"، وهذا أيضا غير صحيح البتة؛ لأنّ الطبري لم يفصّل الكلام على الإسراء في "تاريخه"، واكتفى برواية واحدة ظاهرها أنّ المعراج كان من مكة إلى السماء مباشرة[3]، و لم يقل الطبري أنّ هذا هو الإسراء ولا دلّت الرواية على ذلك أصلا، ولن يستطيع المستشرق أن يأتي بنصّ واحد من كلام الطبري فيما زعمه، إنّما اعتمد في عزوه على مجرّد التمويه والمغالطة، ونصّ الطبري السابق في "تفسيره" ظاهر في أنّ الإسراء كان من مكة إلى بيت المقدس، وهو بهذا موافق للتفسير الثاني - عند "شريك-Schrieke"- وللعلماء قاطبة، وما في "تاريخه" أيضا موافق لذلك على عكس ما ذكره المستشرق وهْماً أو إيهاماً.

د)- كما أنّ استناده إلى البخاري ومسلم في تقريره هذا التفسير لا يصحّ، لأنّه لم يقل أحد منهما أنّ الإسراء كان إلى السماء لا إلى بيت المقدس[4].

هـ)- سوء الفهم الذي وقع فيه "شريك-Schrieke": كل ما هنالك أنّه وردت بعض الروايات عند البخاري ومسلم والطبري أساء المستشرق فهم سياقها، وهي على قسمين:

- **السياق الأول:** بعض الروايات التي يدلّ ظاهرها على أنّ الْمِعراج كان من مكة إلى السماء، ولا تتحدّث عن الإسراء[5].

وبالتالي فسّر "شريك-Schrieke" الإسراءَ في الآية -اعتمادا على هذا السياق- بالمعراج من مكة إلى السماء، وهو فهم خاطئ لسياق الروايات، لأنّ هذه الروايات إنّما تتحدث عن المعراج لا عن الإسراء؛ فلا يصحّ تفسير الإسراء بموجبها، كما أنّها لا يمكن أن تُفسَّر بمعزل عن الروايات الأخرى واضحة السياق وهي مفسّرة لَها، والتي حدّدت من أين وإلى أين كان الإسراء والمعراج، فبعض الروايات قد يستشكل تفسيرها أحيانا لِكون سياقها جاء مقتضبا ومختصراً، لكنّ فهمها لا يستشكل إذا فُسّرت على ضوء الروايات الأخرى المبيّنة لَها.

---

[1]- تفسير الطبري، 420/14.

[2]- ينظر مثلا: المصدر نفسه، 414/14 و415 و420 و422 و436 و443 و448 وغيرها.

[3]- ينظر: تاريخ الطبري، 308/2. ولعلّ الطبري اكتفى بتفصيل القول على الإسراء في تفسيره، و لم يفصّل الكلام عليه في "تاريخه".

[4]- وقد راجعت روايات البخاري ومسلم في الإسراء والمعراج، فلم أجد التفسير الذي ذكره المستشرق، وسيأتي قريبا ذكر بعض مواضع الروايات التي ورد فيها بيان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس في: ص439.

[5]- ينظر بعض المواضع في: صحيح البخاري (الفتح)، 595/1، 364/6 و451، 252/7. وصحيح مسلم (النووي)، 284/2. وتاريخ الطبري، 308/2.

فلِماذا لم تذكر بعض الروايات الإسراء إلى بيت المقدس وتكلمت عن المعراج إلى السماء مباشرة؟

نلاحظ أنّ المستشرق "روبنسون-Robinson" محرر مادة "المعراج" تنبّه لهذا السياق في الروايات، لكنّه استشكله و لم يذكر له توجيها أو جوابا.

ويجيب ابن حجر عن هذا السؤال فيبيّن: أنّ ذلك محمول على اختصار الراوي للحديث، حيث يذكر بعض الرواة ما لم يذكره الآخر[1]، فمثلا: نجد بعض الرواة لأحاديث أنس ﷺ في الإسراء والمعراج: منهم مَن يذكر قصة الإسراء فقط، وبعضهم يذكر قصة المعراج، وبعضهم يذكرهما معا[2]، وقد يكون ذلك أيضا بسبب أنّ الراوي سُئِل عن تفاصيل المعراج فتطرّق إليها مباشرة.

والملاحظ أنّ أكثر الروايات تسهب في بيان تفاصيل المعراج كما ذكر المستشرق "روبنسون"؛ وذلك لِما جاء فيه من عظيم الآيات والتشريعات الذي يحتاجها المكلّف: كوصف السماوات وأبوابها والجنة والنار وما فيهما، والكلام على بعض الأنبياء والملائكة وسدرة المنتهى وفرض الصلوات وغير ذلك.

– **السياق الثاني:** بعض الروايات التي يستهلّها الراوي بقوله: «لَيْلَةَ أُسرِيَ به...»، أو بقوله ﷺ: ((لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي...))، ثم يتحدّث عن المعراج[3]، فتوهّم المستشرق "شريك-Schrieke" أنّ هذا السياق يعني: أن الإسراء معناه صعوده ﷺ للسماء، وهذا فهم خاطئ ناتج إمّا من عدم إتقان المستشرق لتراكيب اللغة العربية إن كان اعتمد على مصدر بالعربية، أو إمّا عمّا قد يقع من الخلط في التراكيب وتصريف الكلمات عند الترجمة من لغة إلى لغة إن كان نقل من نص مترجم.

والمعنى الصحيح لهذا السياق في تلك الروايات: أنّ الراوي يذكر ما وقع من تفاصيل المعراج في ليلة الإسراء[4]؛ باعتبار أنّهما في ليلة واحدة، بدليل ما يأتي في الرواية بعد العبارة السابقة من قول الراوي: «... ثُمّ عَرَجَ به إلى السّماء» أو قوله ﷺ: ((... فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ))[5]؛ لذا كان ينبغي للمستشرق "شريك-Schrieke" أن يفهم من هذا السياق تفريق الرواية بين الإسراء والمعراج.

وقد يطلق بعض العلماء عبارة "الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات" كما في تبويب صحيح مسلم[6]، وهي في عبارات قليلة ونادرة؛ من باب التجوز والاختصار، لكنهم لا يريدون بذلك بيان المعنى الاصطلاحي للإسراء ولا أنّه لم يكن لبيت المقدس كما زعم المستشرق "شريك".

---

[1]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 596/1. وأيضا: المواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، القسطلاني، 10/8.

[2]– ينظر بعض المواضع في: البخاري (الفتح)، 252/7-253. وتفسير الطبري، 422/14. ودلائل النبوة، البيهقي، 362/2.

[3]– ينظر بعض المواضع في: صحيح البخاري (الفتح)، 6/ 708، 252/7، 584/13. وتاريخ الطبري، 308/2.

[4]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 385/2. وتفسير ابن كثير، 9/5.

[5]– ينظر بعض المواضع في: البخاري (الفتح)، 595/1، 452/6، 584/13. ومسلم (النووي)، 284/2.

[6]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 274/2؛ وهو تبويب النووي، وتفسيره للإسراء واضح في "شرحه على مسلم، 309/2".

بهذا يتبيّن: أنّ البخاري ومسلم والطبري لم يقولوا بالتفسير الذي ذكره المستشرق "شريك" ونسَبه إليهم، فيحتمل أن يكون ذلك سوء فهم منه لِما أوردوه من الروايات المذكورة آنفا، كما يُحتمل أنّه حرّف في النقل عنهم عمداً، وإلاّ كيف نفسّر إعراضه عن تلكم الروايات الكثيرة عند البخاري ومسلم والطبري في تفسير الإسراء بأنّه كان من المسجد الحرام إلى بيت المقدس.

والحاصل: أنّ تفسيرَ "شريك-Schrieke" للإسراء ليس إلاّ تفسيراً استشراقياً فيه ما فيه من التشويش والخلط بين المفاهيم، وزاد من فظاعته نِسبتُه إلى علماء الإسلام المتقدمين زوراً، من أجل إيهام القارئ بأنّ له مستندا من كتبهم.

- **التفسير الثاني**: الذي ذكره المستشرق "شريك-Schrieke" يبيِّن أنّ: الإسراء كان من مكة إلى بيت المقدس، ويفسّر "المسجد الأقصى" في الآية "ببيت المقدس"، وهو المعنى الصحيح للإسراء لغة واصطلاحا، لكن نجد "شريك-Schrieke" يحاول تضعيفه جريا على منهج المدرسة الاستشراقية في تقديم الضعيف الواهي بل والمختلق (كما في التفسير الأول) على الصحيح المشهور، فتفسيره الأول مع أنّه لا أصل له في كتب الحديث والتفسير والسير وغيرها استدلّ لصحته وجعله تفسيراً أصيلا، بينما قال في التفسير الثاني الصحيح أنّه: ليس له سبب ظاهر يَستند إليه، ثم اتّكأ في دعواه على نظرية المستشرق "جولد زيهر" الواهية في وضع الأمويين لأحاديث ترمي إلى تعظيم بيت المقدس على حساب مكة، ثُمّ نسَب هذا القول إلى الإمام الطبري -وتقدّم آنفا بيان أنّه لا يصحّ نسبته إليه-، أمّا الإشكالان الأوّلان فجوابهما كالتالي:

أ)- زعَم المستشرق "شريك-Schrieke" أنّ هذا التفسير لا يوجد ما يدّل عليه، بينما استدلّ على التفسير الأول الخاطئ بالبخاري ومسلم والطبري، مع أنّه لا يوجد ما يثبته عندهم، وتقدّم في العنصر السابق بيان أنّ ما استند إليه من هذه الكتب إنّما هي مجرد روايات أساء فهما أو تَحامَل في تأويلها على غير وجهها.

ذلك أنّ روايات البخاري ومسلم والطبري وغيرهم واضحة في بيان أنّ الإسراء به ﷺ كان من مكة إلى بيت المقدس[1]، كما أنّ كلام أئمة التفسير واضح أيضا في تفسير "المسجد الأقصى" في الآية "ببيت المقدس" وذكرت آنفا كلام الإمام الرازي في اتفاقهم على هذا التفسير[2].

بهذا عُلم أنّ التفسير الثاني هو الصحيح الذي تدلّ عليه الروايات الصحيحة وكلام أئمة الحديث والتفسير والسير، وأنّ التفسير الأول لا أصل له، ولا يوجد ما يثبت صحّته.

---

[1]- ينظر بعض المواضع في: صحيح البخاري (الفتح)، 254/7، 497/8-498. وصحيح مسلم (النووي)، 275/2-276. وتفسير الطبري، 414/14 و415 و420 و422 و436 و443 و448.

[2]- ينظر: ص436.

ب)– أمّا استناده إلى النظرية الزائفة للمستشرق "جولد زيهر"، والتي مفـــادها أن: أنّ عـــبد الملك بن مروان كان خائفا من أن يأخذ عبد الله بن الزبير البيعة من الشاميين الذين يحجون إلى بيت الله الحرام؛ لذلك التجأ إلى حيلة، وهي الحج إلى قبة الصّخرة بالقدس بدلا من الحج إلى مكة، ولقد أراد عبد الملك أن يُلبس عمله هذا ثوبا دينيا، فأسند إلى الزهري تبرير هذا الهدف السياسي، باختراع حديث موصول إلى النبي ﷺ ونشره بين الناس[1].

ويظهر أنّ "شريك-Schrieke" يطبّق هذه النظرية على الأحاديث التي تقصّ الإسراء بالمصطفى ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، فهل يصحّ هذا التطبيق أم أنّه تعلّق ببعض حطام نظرية "جولد زيهر"؟

- **بطلان نظريّة المستشرق "جولد زيهر"**: بعد وضع نظرية "جولد زيهر" في ميزان النقد العلمي والتاريخي ظهر ما فيها بالثغرات والأخطاء العلمية، من بينها على سبيل الاختصار:

– **الخطأ (1)**: أنّ الزهري لم يَلْقَ عبد الملك بن مروان إلاّ بعد سنوات عديدة من مقتل ابن الـــزبير: لأنّ وفاة ابن الزبير كانت عام (73هـــ)[2]، وإنما لقي ابن شهاب عبد الملك سنة (82هـــ)[3]، وحينئذ لم يكن عبد الملك في حاجة إلى أن يقدّم له الزهري هذه الخدمة التي زعمها "جولد زيهر".

– **الخطأ (2)**: تؤكّد الروايات التاريخية أنّ الزهري عندما سافر إلى الشام ولقي عبد الملك، كان شابا في بداية طلب العلم، لم يجاوز الخمسة والعشرين من عمره؛ ولا يُعقل أن يكون الزهري في تلك السِّن ذائع الصيت عند الأمّة، بحيث تتلقّى منه بالقبول حديثا موضوعا، يدعوها فيه للحج إلى قبة الصخرة بدلا عن الكعبة[4].

– **الخطأ (3)**: لم يختلف المؤَرِّخونَ في أن الذي بنَى "قُبّة الصّخرة" هو الوليد بن عبد الملك، هكذا ذكر ابن عساكر والطبري وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم، ولم نجدهم ذكروا ولو رواية واحدة في نسبة بنائها إلى عبد الملك ولا شك أن بناءها –كما يزعم جولد زيهر– لتكون بمثابة الكعبة يحج الناس إليها بدلاً من الكعبة، حادث من أكبر الحوادث وأهمها في تاريخ الإسلام؛ فلا يعقل أن يَمر عليه هؤلاء المُؤَرِّخُون مرّ الكرام، وقد جرت عاداتهم أَنْ يُدَوِّنُوا ما هو أقل من ذلك خطراً أو أهمية، كتدوينهم وفاة العلماء وتولي القضاء وغير ذلك، فلو كان عبد الملك هو الذي بناها لذكروها[5].

---

[1]– ينظر طرح "جولد زيهر" لهذه النظريّة في كتابه: دراسات محمدية، 60-65. وينظر للتفصيل في بيانها والجواب عليها: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، 191 و205-219.

[2]– ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 379/3.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 328/5. والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، 218.

[4]– ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، 218.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، 217.

وقد اعتنى الشيخ مصطفى السباعي بتفنيد هذه النظرية والردّ عليها علميا في كتابه "السنة ومكانتها في التشريع" وغيره، فظهر لكثير من المستشرقين وهن تلك النظرية وما اشتملت عليه من أخطاء فادحة، حتّى إنّ المستشرق "شاخت-Schacht" -حامل رسالة "جولد زيهر-Goldziher" بعده- عندما اجتمع به السباعي في جامعة "ليدن" بهولندا، أقــرّ بأخطاء "جولد زيهر" الصريحة، وقــال بأنّ: «جولد زيهر أخطأ»[1].

- **بطلان استناد "شريك-Schrieke" إلى نظريّة "جولد زيهر"**: بعد أن تداعت نظرية "جولد زيهر" أخَــذ "شريك-Schrieke" بعض حطامها[2] وقدّمه في هذا الافتراض الذي هو أوهى من نظــرية "جولد زيهر" نفسها، إذ لم يبيّن من وضع هذه الأحاديث؟ وهل هي موضوعة كلّها؟!

فلم يذكر "شريك-Schrieke" اسم واضع تلك الروايات، ولم يُبيّن مَن أمر بوضعها من حكّــام بني أميّة كما بيّن "جولد زيهر" في افتراضه، وإنّما لَم يتعرّض لهذه التفاصيل إلاّ لعلمه بتفكّك نسيج المعطيات التفصيلية التي قامت عليها تلك النظرية.

ثم هل أحاديث الإسراء إلى بيت المقدس تعظم مكانته في مقابل مكانة المسجد الحرام بمكة؟

كلاّ؛ إنها لا تدلّ على ذلك أصــلا، ولا تزال هذه الأحاديث مُثبتةً في كتب السنة الصحيحة، ومع ذلك ما زال المسلمون يفرّقون بين منزلة المسجد الحرام ومنــزلة المسجد الأقصى، وما زال المسجد الحرام قبلتهم وما زالوا يحجون إلى مكة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يــدلّ على أنّ: روايات الإسراء لا تُنقِص من منزلة المسجد الحرام شيئا، بل هي مشتملة على معاني التوافق والترابط والتسلسل بين رسالات الأنبياء.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «لكنّ إرادة الله مضت... وورث النبيّ العربيّ تعاليم إبراهيم وإسماعيل ويعقوب... فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكلّ في حقيقة واحدة أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام، وأن ينتقل إليه الرسول ﷺ في إسرائه، فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذي درج -قديما- في رحابه... ثم يجمع الله المرسلين السابقين... ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة؛ إنّ النبوات يصدّق بعضها بعضا، ويُمهّد السابق منها للاّحق»[3].

---

[1]- ينظر: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، 71.

[2]- حتّى أنّ أحد المستشرقين ذكر للسباعي (في لقاء جمعه معه) أكّد للسباعي تهاوي نظرية "جولد زيهر" عند المستشرقين أنفسهم؛ حيث قال هذا المستشرق (وهو "نيبرج"): «إن جولد زيهر كان في القرن الماضي مرجعاً للمستشرقين، أما في هذا العصر -بعد انتشار الكتب المطبوعة في بلادكم عن العلوم الإسلامية- فلم يعد جولد زيهر مرجعاً كما كان في القرن الماضي.. لقد مضى عهد جولد زيهر في رأينا!». ينظر: السنة مكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، 16.

[3]- فقه السيرة، 131.

– ثم إنّ الحكام الأمويون كانوا يعظّمون المسجد الحرام ويعرفون منزلته، وخاصّة عبد الملك بن مروان المتهم بهذه الفرية؛ فقد كان قائما بأمور الحج إلى بيت الله الحرام، وكَتَب إلى الحَجّاج أن يقتدي بابن عمر ﷺ في المناسك أيام الحج[1].

– أضف إلى ذلك أنّ أحاديث الإسراء يرويها أيضا بعض الرواة المعروفين بمجانبتهم للأمويين وميلهم للعلويين؛ مثل: ابن إسحاق والواقدي[2] وغيرهما، ولو كانت تلك الأحاديث موضوعة لِخدمة سياسة الأمويين –كما زعم "شريك–Schrieke"– لكانوا أبعد الناس عن روايتها ولأَنكروها.

– ولو سلّمنا بقوله جدلا؛ فلماذا لم يقم العباسيون الذين أسقطوا حكم الأمويين بإنكار هذه الروايات وجعلها في خانة الموضوعات ما دامت لم تكن سوى دعايات إعلامية للأمويين بزعمه؟ إنّ عدم تطرّق أياد العباسيين لِمحوها لَدليل على أنّ أياد الأمويين لم تكن لتتطرّق من قبلُ لوضعها.

ج)– عَمَد المستشرق "شريك–Schrieke" إلى التشكيك في الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس؛ بغرض الإيحاء إلى أنّ تعظيم المسلمين لبيت المقدس ليس له مستند أصيل في الإسلام، وأنّ الظروف السياسية فقط هي التي أوجدت تلك المكانة الرفيعة لبيت المقدس عند المسلمين.

مما سبق يتبيّن أنّ المستشرق "شريك" أخذ كلام المفسرين والمحدّثين من غير تأمل ونظر، وعَمَد إلى تشويه حقائق الإسلام المضيئة؛ كما قال الأستاذ "الزنجاني" في تعقيبه السابق على مادة "إسراء".

- أما **التفسير الثالث**: فيتعلّق بمسألة أخرى سيأتي الكلام عليها، وهي هل كان الإسراء يقظة أم مناما؟ وإن كان القول الذي ذكره بأنّه كان رؤيا لا يتوافق مع التفسيرين الأولين الذين ذكرهما.

ثالثا– تصويب ما جاء في مادة "المعراج" عن آيات من سورتي "التكوير" و"النجم":

– جاء في مادة "**المعراج**" [فقرة: 2]: «**تتحدث سورة التكوير الآيات من 19 إلى 25، وسورة النجم الآيات من 1 إلى 12 عن رؤية بدت للنبي الكريم، ثمّ تتحدّث الآيات من 12 إلى 25**[3] **من سورة النجم**

---

[1]– ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 327/5.

[2]– نُسب كلّ من ابن إسحاق والواقدي للتشيّع، وإن كان تشيّعهما غير ظاهر لكن ربّما كانت لهم بعض الميول للأسرة العلوية، كما كانت لهما علاقة جيدة ببعض الحكام العباسيين، وهذا الأمر وإن كان غير مؤثّر في روايتهما كما سبق، لكنّه يورد في مثل هذا السياق محاجّة لِمثل ما يورده المستشرق "ولش" هنا. ينظر فيما يتعلق **بابن إسحاق**: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 16/2–17 و21. والمغازي الأولى، هورفتس، 80–81. ونشأة علم التاريخ، الدوري، 34. وفيما يتعلق **بالواقدي**: تاريخ بغداد، 6/4–12. والفهرست، ابن النديم، 127. ونشأة علم التاريخ، 36.

– **رواية ابن إسحاق** لحديث الإسراء في كتابه: السير والمغازي، 295. وفي: تهذيب سيرته (لابن هشام)، 396/1–397.

– **ورواية الواقدي** لحديث الإسراء في: الطبقات الكبرى، 166/1.

[3]– **تنبيه:** تنتهي الآيات التي تتحدّث عن هذه الرؤية عند الآية (18) لا الآية (25).

عن رؤية أخرى؛ وفي الحالتين لا تتكلم الآيات عن صعود للرسول بذاته للسماء، بل رؤيته لصورة سماوية تقترب منه»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **روبنسون** – B.Robinson[2].

أشار المستشرق "روبنسون-Robinson" في هذه الفقرة إلى: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [التكوير: 23]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: 6-14].

ثم ذكر "روبنسون-Robinson" أنّ آيات سورة التكوير والآيات الأولى (7، 8، 9) من سورة النجم تتحدّث عن رؤية رآها النبي ﷺ، ويقصد بذلك رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، فقد دلّت الروايات على أنّ الرسول ﷺ لَم ير جبريل عليه السلام في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها إلاّ مرّتين[3]؛ وهما:

– أما **الرؤية الأولى**: فكانت في الأرض في بداية البعثة النبوية[4]، حيث كان رسول الله ﷺ في الأرض فهَبَط عليه جبريلُ عليه السلام وتَدلّى إليه واقْتَرَبَ منه، فكان مِنه قَابَ قوسَيْن أو أدْنى، وهو على الصّورة الّتي خَلَقه الله عليها لهُ سِتّمائة جَناحٍ قد سدّ أفق السماء[5]، ويدلّ على هذه الرؤية حديث عائشة رضي الله عنها: الذي يقول فيه "مَسْروق": كنتُ عِنْد عَائِشَةَ رضي الله عنها فقلتُ: أَلَيْس الله يقول: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [التكوير: 23]، ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: 13]، فقالَتْ: «أنا أوّلُ هذه الأمّة سَأَل رسول الله ﷺ عنهما، فقال: إنّما ذاكَ جِبْريلُ؛ **لَمْ يَرَهُ في صُورَتِهِ الّتي خُلِق عليها إلاّ مرَّتَيْن**، رَآهُ مُنْهَبِطًا من السّماء إلى الأرض سادًّا عِظمُ خَلْقه ما بين السّماء والأرض»[6].

– وأمّا **الرؤية الثانية**: فإنّ الرسول ﷺ رآه مرّة أخرى عند سدرة المنتهى في السماء السابعة، وذلك بعد أن عُرج به إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج[7]، فعنِ ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنّه قال في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: 13]؛ قال رسولُ الله ﷺ: ((رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ))[8]؛ إذن **فالرُّؤْيةُ الأولى**: هي الْمَذكورَةُ في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9408/30.

[2]– سبقت ترجمته: ص435.

[3]– حيث كان غالِبُ ما يَأْتِي جبريلُ إلى النّبيِّ ﷺ في صورة رجُل آدمي إلا في هاتين المرتين. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 9/9.

[4]– وقد سبق الكلام عليها في الفصل السابق: ص286. من هذا البحث.

[5]– ينظر: تفسير البغوي، 302/4. وتفسير ابن كثير، 451/7.

[6]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: 13]، 11/3. **وأحمد**، المسند، 165/43. واللفظ لأحمد.

[7]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 371/2. وتفسير ابن كثير، 445/7.

[8]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 31/7. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 372/2. والحديث حسّنه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند، وقال ابن كثير في "تفسيره، 451/7": إسناده جيِّد قويّ.

﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [الآيات: 6-9]، وقوله تعالى في سورة التكوير : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الآية: 23]. أَمَّا **الرؤية الثّانية:** فهي الْمذكُورةُ فِي سورة النجم في قــوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [الآيات: 13 -15][1].

لكن الملاحظ أنّ عرض المستشرق "روبنسون-Robinson" لهذه القضيّة جاء ناقصا من أوجه:

أ)- قوله: أنّ هذه الآيات تتحدّث عن "**رؤية بدَت للنبي الكريم**"، و لم يذكر ماذا رأى، لكنّه أشار إليها بعد ذلك في قوله: "**رؤيته لصورة سماوية**"؛ يعني: بذلك جبريل عليه السلام في صورته الملائكية التي خلقه الله عز وجل عليها، فجاءت عبارته مبهمة وغير واضحة.

ب)- ذكر المستشرق بأن الرسول ﷺ لم يصعد للسماء بل رأى صورة سماوية [يعني: جبريل] تقترب منه، وهذا الوصف إنّما ينطبق على الرؤية الأولى التي كانت في الأرض فحسب، أمّا الرؤية الثانية فكانت في السماء بعد صعود النبي ﷺ إليها في المعراج، وإن كانت آية النجم لا تذكر الصعود لفظا إلاّ أنّها تدلّ عليه معنى، لأنّ الله تعالى ذكر أنّ هذه الرؤية كانت عند "سدرة المنتهى" وهي في السماء السابعة[2]، وهذا يستلزم أنّ ذلك كان في المعراج، والمعراج فسّره المستشرق من قبلُ بصعوده ﷺ للسماء، وهنالك كانت هذه الرؤية، فلا وجه لقوله بأنّ الآيات لا تتكلم عن صعود للنبي ﷺ بذاته ما دامت تشير إليه.

فالمستشرق "روبنسون" وإن كان أثبت رؤيتين، فإنّ وصفه لا ينطبق إلاّ على الرؤية الأولى التي كانت في الأرض، وفاتته الرؤية الثانية في السماء ليلة المعراج، وكان الأولى أن يركّز عليها لتعلّقها بموضوع المادة التي حرّرها، ولا يستبعد أنّه حاول من طرحه المضطرب هذا تَشويهَ حقيقتها.

الفرع الثاني : طبيعة الإسراء والمعراج

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- في مادة "**إسراء**"[فقرة: 2]: «**وقد اختلف علماء المسلمين فيما إذا كان الإسراء حدث في نوم محمد أم في يقظته وفيما إذا كان أسري بروحه أم بجسده، ويذهب أهل السنة إلى أن الإسراء كان بالجسد إبان يقظته، ويؤيد الطبري في تفسيره (ج15 ص13) هذا الرأي تأييدا قاطعا معتمدا على البراهين الآتية:**

[1]- إن لم يكن النبي قد أسري به بجسده، فإنّ الإسراء لا يعطينا دليلا على نبوته...

[2]- جاء في القرآن أن الله أسرى بعبده، ولم يقل إنّه أسرى بروح عبده.

---

[1]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 371/2. وتفسير ابن كثير، 445/7.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 266/7-267.

[3]– إذا كان النبي أسري بروحه فقط لم تكن هناك حاجة إلى البراق لأن الحيوان يحمل الأجساد لا الأرواح (Der Islam، ج**6** ص**13**. **وانظر تفاسير الطبري والبيضاوي والبغوي)»**[1].

محرر المادة هو المستشرق: **شريك** - B.Schrieke[2].

– وفي مادة "**المعراج**" [فقرة: 3]: «**ويذهب الأصوليون من المفسرين إلى أنّه كان بالجسد يقظة... وقد ثار نفس السؤال حول طبيعة المعراج، من حيث كونه بالروح أم بالجسد، ولدينا هنا تفاسير ثلاثة:**

(أ)– **كان الإسراء بالروح...**

(ب)– **كان الإسراء بالجسد، أمّا المعراج فبالروح، وذلك حين يربط بين الحادثين.**

(ج)– **كان المعراج بالجسد والروح، والتي كان فيها النبي في كامل وعيه، وهنا تكمن المعجزة التي أصبحت مجالا للجدل الديني**»[3]. المحرر هو المستشرق: **روبنسون** –Robinson[4].

– وفي مادة "**براق**"[فقرة: 1]: «**وقد أشير في القرآن (سورة الإسراء: الآيتين 51 و59. سورة النجم: 1–18) إلى رؤيا للنبي رأى فيها أنّه حمل من مكة إلى بيت المقدس، وصعد من هناك إلى السماء**»[5].

المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** -Carra De Vaux[6].

ثانيا- التحليل والمناقشة: طرَح كلّ من المستشرق "شريك-Schrieke" في مادة "الإسراء" والمستشرق "روبنسون-Robinson" في مادة "المعراج" خلافاً قديماً حول طبيعة الإسراء والمعراج؛ هل كان بالروح أم بالجسد، يقظة أو مناما، وقد اختلف علماء الحديث والسيرة في ذلك إلى عدّة أقوال، تتلخص فيما يلي:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 110/2.

[2]– سبقت ترجمته: ص435.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9409/30-9413.

[4]– سبقت ترجمته: ص435.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 485/3.

– **تعقيب** (1) **"أحمد شاكر" على مادة "براق"** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/3]: «**وقد تعرض الكاتب للإشارة إلى الإسراء والمعراج وعبّر عنهما بأنّهما رؤيا للنّبيّ ﷺ، وله شيء من العذر في هذا، إلاّ في نسبته إلى النبي، فإنّ الأحاديث الصحيحة المتواترة صريحة في أنّهما لم يكونا في عالم الرؤيا، إنّما كانا في اليقظة بالجسم والروح، وكان هذا موضع الإعجاز، وكان هذا مِمّا أنكرته قريش، ومِمّا ارتدّ بسببه بعض ضعفاء الإيمان إذ ذاك، ولَم تكن قريش لتكذّب رجلا يدّعي أنّه يرى رؤيا في المنام، فإنّ هذا مِمّا يمكن أن يكون لكل إنسان، إنّما هم ينكرون شيئا معجزا خارجا عن حدود القدرة البشرية، وكاتب المقال إنّما تبع في كلامه بعض مَن أخطأوا من الكاتبين الإسلاميين فزعموا أنّ الإسراء والمعراج بالروح، توهّما منهم لحديث زعموه من عائشة أنّها ما فقدت جسم رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وهو حديث لا أصل له ولا إسناد، بل هو حديث مكذوب مفترى، وعائشة كانت حين الإسراء طفلة صغيرة، والنبي ﷺ إنّما دخل بها بالمدينة، والإسراء كان بمكة قبل الهجرة**».

[6]– سبقت ترجمته: ص253.

– **القول الأولى:** أنّ الإسراء والمعراج **كان بالجسد والروح معا يقظة** لا مناما؛ وهو قول الأكثر من الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين[1]، قال ابن حجر: «وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة»[2]، ورجّحه هنا في "الدائرة" الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه على مادة "براق" كما هو ظاهر في نصّه المذكور آنفا.

وهو القول الذي ذكره "شريك–Schrieke" ونسبه إلى أهل السنة، والواقع أنّ هذا الإطلاق غير دقيق لأنّ هذه المسألة وقع فيها الخلاف بين أهل السنة أنفسهم كما ذكر القاضي عياض وغيره[3]، فلا يصحّ تعميم هذا القول على أهل السنة، لأنّ منهم مَن لم يقل به.

ونسبه "روبنسون–Robinson" إلى الأصوليين من المفسرين، بينما هو قول غيرهم أيضا.

– **القول الثاني:** أنّ **الإسراء كان بالجسد** يقظة **والمعراج كان بالروح** في المنام[4]؛ قال القاري: «وهذا يشبه قول المعتزلة»[5]، وهذا القول ذكره المستشرق "روبنسون"، ولم يذكره "شريك".

– **القول الثالث:** أنّ الإسراء والمعراج **كان بالروح وأنّه رؤيا** منام؛ مع اتّفاقهم أنّ رؤيا الأنبياء حقّ ووحي بخلاف رؤيا غيرهم، وينسب هذا القول لعائشة ﵂ ومعاوية ﵁ والحسن البصري[6].

هذا القول أشار إليه "شريك"، وذكره "روبنسون–Robinson" كأحدَ الأقوال في المسألة، بينما تبنّاه المستشرق "كاراده فو–Carra De Vaux" في مادة "براق" ولم يذكر غيره، ولعلّ ذلك كان منه تبعا لإنكاره ما وقع في الإسراء من معجزات كركوبه ﷺ البراق، فرأى أنّ القول بأنّ الإسراء كان رؤيا هو أقرب للتشكيك في حادثة الإسراء أصلا، لذلك أمعن في القول به، ولم يذكر فيه خلافا.

تنبـــيه: ذهب كل من ابن القيم وابن كثير: إلى أنّه ينبغي التفريق بين القول بأنّ الإسراء والمعراج كان بالروح وبين القول أنه كان مناما، وأنّ الأقرب إلى قول عائشة ﵂ ومن تابعها أن يقال أنّ ذلك كان بروحه ﷺ حقيقة في اليقظة لا في المنام[7]، قال ابن القيم: «ولكن يَنْبغي أن يُعلَم الفرق بين أن يُقال: كان الإسراء مناما، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، وعائشة ومعاوية لم يقولا: كان مناما، وإنما قالا: أُسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق بين الأمرين؛ فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة، فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء،

---

[1]– ينظر: الشـــفا (بشرح القاري)، القاضي عياض، 410/1. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 67/3.

[2]– فتح الباري، 247/7.

[3]– ينظر: الشـــفا (بشرح القاري)، 408/1. وفتح الباري، 247/7.

[4]– ينظر: الشـــفا (بشرح القاري)، 411/1. وسبل الهدى، 68/3. وفتح الباري، 248/7.

[5]– ينظر: شرح الشـــفا، 411/1.

[6]– ينظر: تفسير الطبري، 444/14–446. والشـــفا (بشرح القاري)، 409/1. وسبل الهدى، 69/3.

[7]– ينظر: زاد المعاد، 36/3–37. والبداية والنهاية، 283/4–284.

أو ذُهب به إلى مكة وأقطار الأرض، وروحه لم تصعد و لم تذهب... وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسرى بها، وعُرج بها حقيقة... ومعلوم أنّ هذا أمرٌ فوق ما يراه النائم، لكن لَمّا كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، حتى شُقَّ بطنه وهو حي لا يتألّم بذلك، عُرج بذات روحه المقدّسة حقيقةً من غير إماتة، ومن سواه لا ينال بذات روحه الصُّعود إلى السماوات إلا بعد الموت والمفارقة»[1].

وباعتبار هذا التفريق يمكن أن يتحصّل لنا خمسة أقوال في المسألة إضافة إلى القول الموالي.

– **القول الرابع**: قول آخر ذهب إليه بعض أهل العلم[2]: وهو أنّ الإسراء والمعراج **وقع مرتين؛ مرّة في المنام توطئة** وتمهيداً، **ومرة ثانية في اليقظة** أي: بالروح والجسد؛ ذهب إليه "ابن ميسرة" من التابعين و"المهلب" شارح البخاري وابن العربي والسهيلي وغيرهم[3]، كما صوّبه ابن كثير وابن حجر مع ترجيحهما للقول الأول[4]؛ علماً بأنّ هذا الرأي لا يخالف القول الأول بل يضيف عليه.

وذكر ابن كثير وابن حجر أقوالا أخرى قريبة من هذه على أنّها اجتهادات لبعض العلماء[5].

– **الترجيح**: والذي يترجّح من هذه الأقوال هو القول الأول كما قرّر الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه على مادة "براق"، والقول الرابع أيضا وارد ولا يخالفه، وذلك للأدلة التالية:

أ)– أنّ الآية الأولى من سورة الإسراء تدلّ على ذلك:

– في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]: فالتّسبيحُ إنّما يكونُ عند الأمور العِظام، ولَو كان منامًا لَم يكن فيه كبيرُ شيءٍ ولَم يكن مُسْتعظَمًا[6].

– وأخبر الله ﷻ أَنَّهُ ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾: ولَم يُخبِرنا أنّه أسرَى بِروح عبده؛ فالمراد بالعبد هنا مجموع الروح والجسد، وهو استدلال الطبري وغيره[7] كما ذكر المستشرق "شريك-Schrieke".

ب)– لو كان الإسراء والمعراج مناما لما كان فيه آية، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: 18]، فرؤيا المنام لا تكون معجزة، ولا فيها دليل على نُبُوَّته، ولو كانت مناما لَما بادَر كفّارُ قريش إلى تَكْذيبه، ولا ارْتَدّ بعض ضُعَفاء الإيمان آنذاك، فمثل هذه المنامات لا يُنكر ولا يُعدّ من المحال،

---

[1]– زاد المعاد، 36/3.

[2]– هو بمثابة الجمع بين هذه الأقوال والروايات الواردة فيها.

[3]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 258/3. وفتح الباري، ابن حجر، 248/7.

[4]– ينظر: البداية والنهاية، 284/4. وفتح الباري، 249/7.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، 284/4-285. وتفسير ابن كثير، 42/5. وفتح الباري، 249/7.

[6]– ينظر: تفسير ابن كثير، 43/5.

[7]– ينظر: تفسير الطبري، 447/14. وتفسير الرازي، 296/20.

لأن أيّ أحد من الناس قد يرى في نومه أنه يسير مسيرَة سنةٍ، فكيف بِمسيرة شهرٍ أو أقلّ؟! بل لم يكن ذلك الإنكار منهم إلاّ وقد علموا أنّ خبره عن إسرائه إنّما كان بجسمه في حال يقظته[1].

وهو استدلال الطبري كما ذكر "شريك-Schrieke"، واستدل به أيضا أحمد شاكر في تعقيبه السابق.

ج)– أنّ هذا القول هو ما ذهب إليه الأكثرون من علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين وعلماء السيرة والتاريخ، وهو الذي تواردت عليه الروايات الصحيحة، قال ابن كثير: «وهذا مَذْهب جمهور السّلف وَالْخلفِ»[2]، وعدّد القاضي عياض جماعة من قال به من الصحابة والتابعين والأئمة المتقدمين؛ ثم قال: «وهو قولُ أكثرِ الْمُتَأخّرين مِنَ الفقهاء والْمحدّثين والمتكلّمين والمفسّرين»[3]، وهو القول الذي «تَظاهرت بِه الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ» كما قال الطبري والبغوي وابن حجر[4].

د)– لو كان الإسراءُ بِروحِه لَما احتاج إلى أن يُحمل على البراق، وإنَّما يكونُ ذلك لِلْبدَن لا لِلرُّوح[5].

هـ)– **الجواب على ما ورد عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما:** أمّا ما رُوي عن عائشة ﵂ أنّها قالت: «ما فُقِد جسدُ رسولِ الله ﷺ، ولَكنّ اللهَ أسْرى بِرُوحه»[6]؛ فهو حديث ضعيف سندا ومتناً[7]، وهّنه القاضي عياض وحكم عليه الحافظ ابن دحية بالوضع، فهو **غير ثابت سنداً**، لأنّ ابن إسحاق قال فيه: «حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة»؛ فسنده منقطع.

كما يردُّ هذا الأثَر **من حيث متنه:** أنّ السيدة عائشة ﵂ لم تكن حينئذ قد دخل بها النبي ﷺ، فإن من المتفق عليه أن الرسول ﷺ لم يبْن بها إلا بعد الهجرة، والإسراء إنّما كان بِمكة قبل الهجرة كما بيّن القاضي عياض والقسطلاني والصالحي الشامي وغيرهم[8]، وكذا أحمد شاكر في تعقيبه السابق.

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 446/14-447. والشفا (بشرح القاري)، القاضي عياض، 412/1. وتفسير ابن كثير، 43/5.

[2]– البداية والنهاية، 281/4.

[3]– الشفا (بشرح القاري)، 410/1-411.

[4]– ينظر: تفسير الطبري، 446/14. وتفسير البغوي، 105/3. وفتح الباري، 247/7.

[5]– ينظر: تفسير الطبري، 447/14. وتفسير الرازي، 296/20. وتفسير ابن كثير، 44/5.

[6]– أخرجه: **ابن إسحاق**، السير والمغازي، 295. وسيرة ابن هشام، 399/1. ومن طريقه: **الطبري**، في "تفسيره"، 445/14.

[7]– أمّا قول الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه السابق: إنّه "لا سند له"، فربّما لأنّه يرى أنّ ابن إسحاق لَمّا لم يبيّن الواسطة بينه وبين عائشة كان إسناده في حكم المعدوم، كما يظهر من عبارته في مقال له "بِمجلة المنار، 675/35".

[8]– ينظر: الشفا (بشرح القاري)، 420/1. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 7/8. وسبل الهدى، الشامي، 70/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 411/1.

أما ما روي عن معاوية ﷺ أنّه قال: «كانت رؤْيا مِنَ الله صادقةً»[1]، فهو أيضا حديث ضعيف لا يثبت عن معاوية، حيث رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن معاوية ﷺ، و"يعقوب" (المتوفى: 128هـ) ثقةٌ إلا أنّه لم يدرك معاوية (المتوفى: 60 هـ)؛ فالحديث منقطع[2].

كما يمكن حمل الروايتين على القول الرابع، فتكون الرؤيا توطئة وإيناساً لِما وقع بعدها يقظة بالروح والجسد، فإنَّ المصطفى ﷺ كان لا يَرَى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلَق الصّبح[3].

الفرع الثالث : تاريخ حادثة الإسراء والمعراج

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 30]: «**وتذهب بعض كتب السيرة إلى أن قصة الإسراء الشهيرة حدثت خلال هذه الفترة العصيبة من حياة محمد ﷺ. ويقصّ ابن سعد قصة المعراج ثم قصة الإسراء على أنهما حادثتان مستقلتان وقعتا بعد زيارة محمد ﷺ للطائف. بل إنه يذكر تاريخين محددين لهاتين الحادثتين، قائلا إن معراج النبي ﷺ إلى السماء من موقع قرب الكعبة (بين مقام إبراهيم وزمزم) حدث في ليلة السبت 27 من رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، وأن الإسراء به ليلا من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس حدث في "الليلة السابعة عشرة من شهر ربيع الأول السابق للهجرة، والمعروف أن الروايات المتأخرة تربط بين هاتين القصتين في سياق واحد.**

وينبغي أن نذكر أيضا أن روايات أخرى في كتب السيرة تنسب هذين الحدثين إلى تواريخ متباينة من حياة النبي ﷺ بعد تكليفه بالرسالة؛ فابن هشام يذكر الإسراء أولا ثم المعراج ويقول إنّهما حدثا قبل وفاة خديجة وأبي طالب. أما الطبري فلا يورد غير قصة المعراج من المسجد الحرام بِمكة إلى السماء الدنيا ثم طواف جبريل به في كل من السماوات السبع، قبل أن يصحبه إلى الجنة، ويذهب الطبري إلى أن المعراج حدث قبل نهوض محمد ﷺ بدعوة قومه إلى الإسلام، ويربط القصتين إحداهما بالأخرى»، ثم يقول: «**فقد تكون تجربة الإسراء والمعراج قد رفعت من معنوياته لو أنها كانت قد حدثت في تلك الفترة[4] حتى لو أنها كانت بالروح لا بالجسد**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

---

[1]– أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 400/1. ومن طريقه: **الطبري**، في "تفسيره"، 445/14.

[2]– ينظر: سبل الهدى، الشامي، 69/3. ومجلة "المـــنار"، 675/35، مقال لأحمد شاكر بعنوان "في الإسراء والمعراج".

[3]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 284/4. وفتح الباري، ابن حجر، 248/7.

[4]– يقصد: بعد وفاة زوجته خديجة ﵂ وعمه أبي طالب، وبعد رجوعه من الطائف.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9124/30-9125.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

– وفي مادة "**المعراج**" [فقرة: 4]: «**وطبقا لابن سعد فقد وقع الإسراء في السابع من ربيع الأول، والمعراج في السابع عشر من رمضان...**»[1]. المحرر هو المستشرق: **روبنسون** –Robinson[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة: تطرّق المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" إلى الكلام على تحديد تاريخ حادثة الإسراء والمعراج، إلاّ أنّ عرضه للمسألة غلب عليه الخلط والتشويش بحيث لم يسُق الأقوال في ذلك بوضوح، كما وقع في بعض الأوهام جرّاء سوء الفهم أو عدم الإحاطة جيداً بحيثيات الموضوع، لذا سأعرض باختصار الأقوالَ في ذلك أولا، ثم أتطرّق إلى الأقوال في التفريق بين الإسراء والمعراج من حيث حدوثهما، والتي أشار إليها لكن لم يعرضها بشكل واضح أيضا.

[1]– الاختلاف في تحديد تاريخ الحادثة: اختلف علماء السيرة والتاريخ في تحديد تاريخ الإسراء والمعراج إلى عدة أقوال، بعضها متقارب وبعضها الآخر بعيد، وهذه الأقوال هي كالآتي:

– **القول الأول:** أنها وقعت قبل البعثة النبوية بسنة ونحوها، حيث أرّخ الزهري لحادثة الإسراء والمعراج أنّها قبل الهجرة بسنة، وهو قول موسى بن عقبة وعروة بن الزبير، ورجحه ابن حزم والنووي والمقريزي وغيرهم[3].

حيث وقعت حادثة الإسراء والمعراج تطمينا ومواساة للنبي ﷺ بعد وفاة عمّه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها ورحلته الأليمة إلى الطائف، فكانت رحمةً من الله ﷻ بعبده ونبيّه ﷺ بعد تلك الشدائد المتلاحقة[4]، وهو ما أشار إليه "بول-Buhl" بقوله "أنّها حدثت في فترة عصيبة من حياته ﷺ".

وذهب آخرون إلى أنّها قبل الهجرة بسنة وبضعة أشهر؛ فقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهرا، وقيل: بثمانية عشر شهرا ونحو ذلك[5].

ولَمّا كانت هذه الأقوال بينها تقاربٌ مقارنةً بالقولين التاليين جعلتها في سياق واحد، وهي أرجح من القولين الآتيين.

أمّا تأريخ "ابن سعد" الذي ذكره "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" و"روبنسون-Robinson" في مادة "المعراج": فهو الذي رواه عن الواقدي أنّ المعراج كان: ليلة السّبت **لِسبع عشرةَ** خلَتْ مِنْ شهر

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9410/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص435.

[3]– ينظر: تفسير البغوي، 110/3. وتاريخ الإسلام، الذهبي،616/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 269/4–270. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 47/1–48. وفتح الباري، ابن حجر، 254/7.

[4]– ينظر: المواهب اللدنية (الزرقاني)، 69/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 407/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 188/1.

[5]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 355/2. وفتح الباري، 254–255.

رمضان قبل الهجرة بِثمانية عشر شهرًا، وأنّ الإسراء كان: ليلة **سبع عشرةَ** مِنْ شهر ربيع الأوّل قبل الهجرة بِسنةٍ[1].

والملاحظ أنّ كلا المستشرقيْن وقعا في خطأٍ عند نقلهما لتأريخ ابن سعد للحادثة، فأخطأ "بول-Buhl" في تاريخ المعراج وأصاب في الإسراء، وعلى العكس منه أخطأ "روبنسون-Robinson" في تاريخ الإسراء وأصاب في المعراج، فلعلّه وهم منهما في النقل، وقد يكون خطأً مطبعيّا.

أمّا عن تفريق الواقدي -فيما نقله عن ابن سعد- بين تاريخ الإسراء وتاريخ المعراج، فلعلّ ذلك راجع إلى قوله بأنّ الإسراء وقع منفصلا عن المعراج ولم يكونا في ليلة واحدة -وسيأتي التطرق للخلاف في ذلك قريبا-، فذهب إلى هذا القول قصد الجمع بين الأقوال السابقة الذكر لتقاربِها.

- **القول الثاني**: أنّهما وقعا بعد البعثة النبوية بأشهر، لكنّه قول ضعيف ردّه ابن عبد البر وغيره[2].

وقد نسبَه المستشرق "بول-Buhl" للطبري عندما قال بأنّ : "**الطبري ذهب إلى أن المعراج حدث قبل نهوض محمد ﷺ بدعوة قومه**"، أي: قبل بدأ الدعوة الجهرية، لأنّ الطبري أورد حديث الإسراء والمعراج في "تاريخه" بعد نزول الوحي وأثناء الدعوة سراً وقبل الجهر بالدعوة[3].

أمّا قول "بول-Buhl" أنّ الطبري ذكر قصة الإسراء دون المعراج، فهو مشابه لِما قاله "شريك-Schrieke" في مادة "إسراء" وسبق تفصيل الكلام عليه[4]، وبيان أنّ الطبري أورد بالتفصيل روايات الإسراء والمعراج في "تفسيره" وعلّق عليها، بينما لم يفصّل الكلام على ذلك في "تاريخه".

- **القول الثالث**: أنّهما وقعا قبل البعثة النبوية، لكنّه قول شاذ ولا يَثــبُت كما قرّر ابن حجر[5]، قال القاضي عياض: «لا خلاف أنّها [أي: حادثة الإسراء والمعراج] كانت بعد الوحي»[6].

لذا يمكن القول أنّ حادثة الإسراء والمعراج وقعت قبل الهجرة إلى المدينة بسنة إلى سنة ونصف.

[2]- التفريق بين حادثة الإسراء والمعراج من حيث وقوعهما: سبق بيان أنّ الإسراء والمعراج مختلفين من حيث معناهما اللغوي والاصطلاحي، لكن هل كان وقوعهما في ليلة واحدة أم أنّهما وقعا منفصلين؟

---

[1]- ينظر: طبقات ابن سعد، 166/1.

[2]- ينظر: إمتاع الأسماع، المقريزي، 198/8.

[3]- ينظر: تاريخ الطبري، 307/2-309.

[4]- ينظر: ص436. من هذا البحث

[5]- ينظر: فتح الباري، 249/7 و254.

[6]- الشفا (بشرح القاري)، 393/1.

أشار المستشرق "بول-Buhl" إلى هذا الأمر عندما ذكر تفريق ابن سعد بين تأريخ الإسراء والمعراج، وعندما قال: بأنّ الروايات المتأخرة تربط بين القصّتين، لكنه لم يتطرّق إلى عرض القضية بوضوح، وهي قضية وقع الخلاف فيها بين علماء السيرة والتاريخ، وبيان ذلك باختصار فيما يلي:

القول الأول: أنّ الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة، وهو قول الجمهور من علماء الحديث والتفسير والسير[1].

القول الثاني: أنهما وقعا منفصلين، فكان الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة أخرى[2].

القول الثالث: أنّ الإسراء كان مرتين؛ فوقع الإسراء في المرة الأولى إلى بيت المقدس دون العـــروج به ﷺ إلى السماء، وفي المرة الثانية كان الإسراء والمعراج متّصلين في ليلة واحدة[3].

القول الرابع: أنّ الإسراء وقع عدة مرات، كما وقع المعراج عدة مرات في ليال مختلفة، وهو قول بعيد جداً كما بيّن ابن القيم وابن كثير وابن حجر؛ إذ لا يعقل أن يتكرّر سؤال الأنبياء والملائكة عليهم السلام عن النبي ﷺ وتفرض الصلوات في كل مرة[4].

سبب الاختلاف: اعتمد من قال بتعدّد الإسراء والمعراج أو بوقوعهما منفصلين على ما وقع من اختلاف في سياق الراويات[5]؛ إذ جاء في بعضها ذكر الإسراء وأنّه أخبر به قريشا دون المعراج[6]، وجاء في بعضها ذكر المعراج دون الإسراء[7]، وجاء في أخرى ذكرهما متّصلين[8].

لكن لا حجة في ذلك على التعدّد كما قرّر ابن كثير وابن حجر والقسطلاني، وبيّنوا أنّه: محمول على اختصار الراوي لسياق الخبر؛ فيذكر بعض الرواة ما لم يذكره الآخر، كما قد يحذف بعض الرواة شيئا من الخبر تارة، وينشط تارة أخرى فيسوقه كله، أو أنّ ما يذكر هو الأهم عنده، وتارة يُحدّث المخاطب بما هو أنفع له[9]، أو بحسب سؤاله، ولعل بعض الرواة قد يقتصر -أحيانا- على إيراد قصة المعراج على حدة لِما اشتمل عليه من الآيات الكبرى والأمور الغيبية العظيمة مما ليس في الإسراء.

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 247/7. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 13/8.

[2]- ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي،638/1. وتفسير ابن كثير، 42/5. وفتح الباري، 248/7.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، 284/4-285. وفتح الباري، 248/7.

[4]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 38/3. وتفسير ابن كثير، 42/5. وفتح الباري، 249/7.

[5]- ينظر: زاد المعاد، 38/3. والبداية والنهاية، 285/4. وفتح الباري، 249/7.

[6]- كما في حديث جابر ﷺ عند **البخاري ومسلم**، وحديث ابن عباس ﷺ عند **أحمد**؛ الآتي تخريجهما في: ص465. من قصة إخبار النبي ﷺ قريشاً بأوصاف بيت المقدس للبرهنة على صدق ما أخبر به من الإسراء؛ وهذه الروايات لم يُذكر فيها المعراج.

[7]- كما في حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما عند **البخاري ومسلم**؛ سيأتي تخريجه قريبا في: ص454.

[8]- كما في حديث أنس ﷺ مرفوعا من طريق ثابت البناني؛ عند **مسلم**؛ سبق تخريجه: ص459. وفي سياق **الطبري** في "تفسيره، 414/14" لحديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

[9]- ينظر: تفسير ابن كثير، 42/5. وفتح الباري، 598/1 و248/7. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 10/8.

والصحيح أنّ الإسراء والمعراج وقعا في اليقظة متّصلَيْن في ليلة واحدة، وهو الذي عليه جماهير العلماء وأئمة التحقيق.

المطلب الثاني : صفة الإسراء والمعراج وموقف أهل مكة من الحادثة

استعرَضَ بعض المستشرقين من محرّري "دائرة المعارف" جملة من الوقائع التي حدثت في الإسراء والمعراج، وقد تراوح عرضهم لَها بين الصحة والخطأ أو الوهم من جهة، وبين الطعن والتشكيك فيها من جهة أخرى أحيانا، وتفصيل ذلك فيما يلي:

الفرع الأول : الموضع الذي أسرى منه النبي ﷺ وركوبه البراق

أولا- عرض نصوص المستشرقين: – ورد في مادة "**إسراء**" [فقرة: 3]: «**وقصة الرحلة الليلة إلى بيت المقدس هي كما يأتي: كان محمد نائما ذات ليلة بالقرب من الكعبة بمكة (أو في بيت أم هانئ، Der Islam، ج6 ص11) فأيقظه جبريل وأتاه بحيوان ذي جناح يسمى البراق... ولَمّا اعتلى محمد هذا الحيوان رحل مع جبريل إلى بيت المقدس، وصادفا في طريقهما قوى مختلفة خيرة وشريرة (مشكاة المصابيح، ص521. البغوي: مصابيح السنة، ج2 ص179) وزارا الخليل وبيت لحم (النسائي: السنن، ج1 ص77)، وقابلا في بيت المقدس إبراهيم وموسى وعيسى، وقد وصف البخاري هذه المقابلة (البخاري، ج2 ص174 وما بعدها)**»[1]. المحرر هو المستشرق: **شريك** - B.Schrieke[2].

– وفي مادة "**براق**" [فقرة: 2]: «**أطلق هذا الاسم الذي يتصل باسم البرق في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي امتطاه النبيّ ليلة المعراج... والحيوان الذي امتطاه النبي لا يصفه القرآن ولا يذكر اسمه، ولكن المفسّرين يقولون إنّ محمداً كان في تلك الليلة في الحِجر بالبيت الحرام وجاءه جبريل بالبراق... وهناك أوصاف مستفيضة للبراق تصوّره في شكل فرس لَها رأس امرأة وذيل طاووس**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **كارادە فو** - B.Carra De Vaux[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 110/2.

[2]– سبقت ترجمته: ص435.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 485/3. – **تعقيب (2) "أحمد شاكر" على مادة "براق"**: «في حديث الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ ليلة أسري به أتي بدابة "دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه" وهذا هو الوصف الوارد في الأحاديث الصحاح للبراق... وهذا الوصْف وَصَفه به النبي ﷺ؛ وليس من أقوال المفسّرين كما يزعم كاتب المقال، وإن لم يصدّق هو وأمثاله ذلك فلا شأن لنا بإقناعهم، إذ أنّ هذه الشؤون من الغيب الذي لا يدخل تحت الحسّ والمشاهدة، فلا يؤمن به إلاّ من يؤمن بأصل الإسلام... وهذا البراق ليس حيوانا كما يظن الكاتب من ظاهر لفظ "دابة" الذي عبر به عنه في الأحاديث، لأنّه من أمور الغيب التي أخبرنا بها النبي ﷺ مما وراء هذه المادة التي في متناول الحسّ البشري».

[4]– سبقت ترجمته: ص253.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- الموضع الذي أسري منه بالنبي ﷺ: ذكَرَ "شريك-Schrieke" في هذه الفقرة من مادة "إسراء" الموضعَ الذي أُسري بالنبي ﷺ منه، وقد اختلفت ظواهر النصوص في تحديد هذا الموضع، حيث أفادت بعض الروايات أنّه كان في الحِجر عند البيت الحرام؛ كما في الصحيح من رواية قتادة عَنْ أنس ﷺ عن مالك بن صعصعة ﷺ بلفظ: ((بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ))[1]، ومرة بلفظ: ((بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ[2] - وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ-))[3]، وأفادت روايات أخرى عند ابن إسحاق والطبراني أنّه: كان في بيت أمّ هانئ بنت أبي طالب ﷺ[4]، ووقع في الصحيحين من رواية الزهري عن أنس ﷺ عن أبي ذر ﷺ: ((فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ))[5]، فكيف يُجمع بين هذه الأقوال؟

أورد ابن حجر جمعا حسنا بين هذه الروايات مفاده: أنّه ﷺ نام في بيت أمّ هانئ، ففرج سقف بيته فنزل منه المَلَك فأخرجه من البيت إلى المسجد الحرام، فكان به مضطجعا وبه أثر النعاس، ثُمّ ذهب به المَلَك إلى باب المسجد فأركبه البراق[6].

وقد أحسنَ المستشرق "شريك-Schrieke" عندما جمع بين الروايتين على سبيل الاحتمال، لكنّ مسلك التوفيق الذي اعتمده ابن حجر هو الأولى؛ لرفعه التعارضَ الظاهري بين ألفاظ الأحاديث.

[2]- تصويب بعض الأخطاء العلمية الواردة في مادة "إسراء/ فقرة: 3":

أ)- ذكر "شريك-Schrieke": أنّ النبي ﷺ وجبريل عليه السلام "صادفا في طريقهما إلى بيت المقدس قوى خيّرة وشريرة"، وعزا ذلك إلى "مصابيح السنة" و"مشكاة المصابيح"، لكن لم أقف على هذا المعنى فيما أورداه من روايات[7]، وإنّما جاءت رواية تشير إلى ذلك عند الطبري والبيهقي من حديث أنس ﷺ، وفيها: «... وَسَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ سِرْ يَا مُحَمَّد، فَسَارَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَ فَإِذَا شَيْءٌ يَدْعُوهُ مُتَنَحِّيًا عَنِ الطَّرِيقِ يَقُولُ: هَلُمَّ يَا مُحَمَّدُ،

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الوحي، باب ذكر الملائكة، 363/6-364. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 290/2.

[2]- المراد **بالحطيم** هنا الحِجْر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 255/7.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، 252/7. **وأحمد**، المسند، 374/29.

[4]- ينظر حديث أم هانئ ﷺ عند: **الطبراني**، المعجم الكبير، 432/24؛ لكنّ فيه: عبد الأعْلى بن أبي الْمُساوِر، وهو "متروكٌ كذّابٌ" كما قال الهيثمي في "مجمع الزوائد، 76/1". ونحوه عند **ابن إسحاق** في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 402/1"؛ وفيه: الكلبي وهو متروك، وضعفه ابن كثير في "تفسيره، 40/5" و"البداية والنهاية، 275/4".

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، 451/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 284/2.

[6]- فتح الباري، 256/7.

[7]- ينظر: مصابيح السنة، البغوي، 76/4-83. ومشكاة المصابيح (مع شرحه مرقاة المفاتيح)، التبريزي، 3756/9-3774.

فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: سِرْ يَا مُحَمَّدُ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَ، قَالَ: فَلَقِيَهُ خَلْقٌ مِنَ الْخَلْقِ، فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَوَّلُ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا آخِرُ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا حَاشِرُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: ارْدُدِ السَّلامَ يَا مُحَمَّدُ، فَرَدَّ السَّلامَ، ثُمَّ لَقِيَهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الأُولَى، ثُمَّ الثَّالِثَةَ كَذَلِكَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَعُرِضَ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَالْخَمْرُ وَاللَّبَنُ فَتَنَاوَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اللَّبَنَ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ وَلَوْ شَرِبْتَ الْمَاءَ لَغَرِقْتَ وَغَرِقَتْ أُمَّتُكَ، وَلَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ لَغَوَيْتَ وَغَوِيَتْ أُمَّتُكَ... ثُمَّ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: أَمَّا الْعَجُوزُ الَّتِي رَأَيْتَ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِ تِلْكَ الْعَجُوزِ، وَأَمَّا الَّذِي أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ فَذَلِكَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَرَادَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَلَّمُوا عَلَيْكَ فَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلامُ»[1]؛ فإن كان يقصد ما مرّا عليه في هذه الرواية من الدنيا في صورة عجوز وإبليس وهي قوى الشرّ، وبالقوى الخيّرة –وفق تعبيره– الأنبياء الثلاثة، فليس في "مصابيح السنة" ولا "المشكاة" ذِكر لذلك، أمّا إن قَصَد ما عُرض على النبي ﷺ من الماء والخمر واللبن –وهذا مُستبعد– فهو مذكور عندهما.

ب)– جاء عند "النسائي" أنّ الرسول ﷺ صلّى ببيت لحم[2] ليلة الإسراء[3]، لكن ليس عند "النسائي" أنّه ﷺ زار مدينة الخليل[4] يومئذ أو صلّى فيها، وإنّما جاء ذلك في رواية أخرى معدودة في الموضوعات من طريق بكر بن زياد الباهلي عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَرَّ بِي جِبْرِيلُ بِقَبْرِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ انْزِلْ فَصَلِّ هُنَا رَكْعَتَيْنِ...» ؛ وهذا **حديث موضوع** كما بيّن ابن حبان وابن الجوزي والذهبي، تفرّد به بكر الباهلي: متروك، وقال فيه ابن حبان: دجال يضع الْحَدِيث عَلَى الثِّقَات[5]، وهذا الحديث لا يوجد في كتب السنة المشهورة.

لذا كان ينبغي للمستشرق "شريك–Schrieke" أن يتحرّى الأمانة العلمية في العزو ويفرّق بين الروايتين خاصة مع الوهن الشديد في الثانية، وأن لا ينسب "لسنن النسائي" ما ليس فيه، وهذا الأمر وقع منه سابقا مع الطبري كما هو مبين هناك.

---

[1]– أخرجه: **الطبري**، التفسير، 422/14. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 362/2. وقال ابن كثير في "تفسيره، 11/5–12": «وفي بعض ألفاظه نكارة وغرابة».

[2]– **بيت لحم**: مدينة على بعد (8 كلم) جنوب القدس، في منطقة الضفة الغربية بفلسطين المحتلة، ولد فيها عيسى بن مريم عليه السلام. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 521/1. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 378/5.

[3]– من حديث أنس ﷺ؛ ينظر: سنن النسائي، كتاب الصلاة، فرض الصلاة، 221/1.

[4]– **الخليل**: مدينة فلسطينية تقع في الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الجهة الجنوبية الغربية من القدس، فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام في مغارة تحت الأرض، وبالخليل سمّي الموضع واسمه الأصلي حبرون. ينظر: معجم البلدان، 387/2. والموسوعة العربية العالمية، 378/5.

[5]– الحديث أخرجه: ابن الجوزي، في الموضوعات، 113/1. وذكره ابن حبّان في "المجروحين، 197/1" وحكم عليه بالوضع، ووافقه الذهبي في "ميزان الاعتدال، 345/1"، وهو ما قرّره ابن كثير في "الفصول في السيرة، 133".

ج)– قال "شريك–Schrieke": أنّ **البخاري وصَف** مقابلة الرسول محمد ﷺ مع إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، والصواب أن يقول: وقد روى البخاري ما جاء في هذه المقابلة؛ لأنّ الإمام البخاري إنّما روى في ذلك أحاديث مرفوعة إلى النبي ﷺ أو موقوفة على بعض الصحابة ﷺ[1]، وأقوال البخاري إنّما هي في تبويبه لكتابه.

[3]– **أوصاف البراق في الروايات:** وفيما يلي بيان لأوجه تسمية البراق، وأوصافه في الروايات الصحيحة والضعيفة:

أ)– تعريف البراق: هو اسم الدابة التي ركبها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، مشتق من البرق لسرعته في السير، أو من البريق لشدّة صفائه وبريقه أو لكونه أبيض، أو من قولهم شاة برقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض مواضع سوداء، ولا ينافيه وصفه في الحديث بأنّه أبيض لأنّ البرقاء من الغنم معدودة في البياض[2].

ب)– تنبيه حول وصفه بالحيوان: وقع "شريك–Schrieke" في نفس الخطأ الذي وقع فيه "كاراده فو–Carra De Vaux" في مادة "براق" عندما وصفا "البراق" الذي ركبه النبي ﷺ بالحيوان.

ذلك أنّ الروايات الإسلامية الصحيحة وحتى الضعيفة لا تصف البراق إلاّ بالدابة كما وصَـــفه النبي ﷺ، وهو المصطلح الذي درج عليه علماء الحديث والسيرة والتاريخ في وصف البراق تبعا لذلك، لذا لا يصح أن يوصف البراق بكونه حيوانا كما بيّن الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه على مادة "براق"؛ لأنّ لفظ الدابة أعم في العربية من جنس الحيوانات ونحوها[3]، ونحن لا يمكن أن ننسب البراق إلى جنس الحيوانات لأنّه من عالم الغيب، ولأنّ النبي ﷺ لم يكن ليغيب عنه هذا الوصف –ولا الصحابة ولا المؤرخون– لو كان ينطبق عليه.

ولعلّ ما أوقع المستشرقَيْن في هذا الوهم والغلط ما يقع في الترجمة من مزالق عندما لا تراعى المصطلحات الدقيقة، وما قد يكون بين ألفاظ اللغة العربية من أشباه ونظائر تؤثّر في المعنى، وربّما في التعبير عن الحقيقة التاريخية كما في هذا الموضع.

ج)– أوصاف البراق في الأحاديث الصحيحة: هي كالآتي:

---

[1]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 520/6 و580.

[2]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 275/2. وفتح الباري، ابن حجر، 259/7. وشرح الشفا، علي القاري، 36/1.

[3]– **الدابة:** لفظٌ عامٌّ لكلّ ما يدُبُّ على الأرض، مِمّا يعقل وما لا يعقل، من الحيوانات والإنس والجن، كما غلب إطلاق هذا اللفظ على ما يركب. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 369/1–370. وتاج العروس، الزبيدي، 393/2، 246/34.

– **في الصحيحين:** أنّه دابّة أبيض طويل، دون البغل وفوق الحمار، يَضع حافِره عند منتهى طرْفِه، وفي رواية: يَقع خَطْوُه عند أقصى طرْفِهِ[1].

– وعند **غيرهما** زيادةً على ما سبق: أنّه كان مُلْجَمًا مُسْرَجًا[2].

وهذه الأوصاف وردت في أحاديث مرفوعة إلى الرسول ﷺ وموقوفة على بعض الصحابة ﷺ، وليست من أوصاف المفسرين ولا المؤرخين كما توهّم "كارادە فو-Carra De Vaux".

– **كما وردت أوصاف أخرى في أحاديث ضعيفة:** من أشهرها: أنّ له في فخذَيْه جناحان يحفز[3] بِهما رِجْلَيه[4]، وأنّه كان في سيره: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه[5].

وساق ابن حجر وغيره أوصافاً أخرى في روايات أضعف وأوهى من هذه ليس هذا موضع بسطها فتراجع هناك[6].

أمّا ما ينسجه القصّاص والشعراء والفنانون والرسامون وغيرهم من مبالغات وخرافات، فهي أعمال أقرب ما تكون إلى التصوير الخيالي المجرد منها إلى الطرح العلمي الذي يعتمد على الروايات التاريخية الموثوقة، وإنّما الحجة في الروايات الصحيحة كما أشار الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه السابق، ولو أنّ "كارادە فو-Carra De Vaux" اعتنى بِما تقدّمه الروايات الإسلامية الصحيحة والمقبولة عوض التكلّم عن خيالات الشعراء والفنانين وغيرهم لكان كلامه أقرب إلى الطرح العلمي الموضوعي.

د)– أمّا ما يتعلّق بتشكيك "كارادە فو-Carra De Vaux" في حقيقة البراق والقول بأنه أسطورة وخرافة فسيأتي قريبا التطرق إلى ذلك في أساليب تشكيك كتّاب "الدائرة" في الإسراء والمعراج.

---

[1]– ينظر المواضع الآتية من: صحيح البخاري (الفتح)، 364/6، 252/7. وصحيح مسلم (النووي)، 275/2 و290.

[2]– من حديث أنس ﷺ؛ أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، 447/8-448. **وأحمد**، المسند، 107/20. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند.

– **مُلْجَمًا مُسْرَجًا:** أي وُضع عليه اللِّجامُ والسّرجُ، واللجّام: طوق جلديّ يُوضع في فم الحصان ونحوه، يستخدمه الرّاكب للسَّيطرة والتّحكُّم في الفرس. والسّرج: هو رحل الدابة. ينظر: تحفة الأحوذي، المباركفوي، 448/8. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار مع فريق، 1996/3.

[3]– أي: يحثّ بهما رجليه على سرعة السير. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 75/8.

[4]– جاء هذا الوصف من رواية ابن إسحاق في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 397/1، وهو حديث **ضعيف** فيه انقطاع كما أنه مرسل عن الحسن بن أبي الحسن. وتفسير الطبري، 415/14-416. من مرسل الحسن أيضا: وهو **ضعيف جدّا** ففيه محمد بن حميد وسلمة بن الفضل الأبرش وكلاهما ضعيف جدا كما في "ميزان الاعتدال، 192/2 و530/3".

كما جاء من رواية الواقدي في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 166/1؛ والواقدي ضعيف.

[5]– من حديث ابن مسعود ﷺ؛ أخرجه: الحاكم، المستدرك، 648/4. والبزار، في مسنده، 14/7-15؛ والحديث ضعيف: تفرد به "أبو حمزة ميمون الأعور" وهو ضعيف كما بيّن الحاكم والذهبي في "تاريخ الإسلام، 618/1"، و"ميزان الاعتدال، 234/4".

[6]– ينظر: فتح الباري، 259/7-260. والسيرة الحلبية، الحلبي، 521/1. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 74/8-76.

الفرع الثاني : حادثة شق الصدر ووصف المعراج

– جاء في مادة "**المعراج**" [فقرة: 5]: «**ومن هذه الروايات ما يجعل المعراج تاليا لشقّ صدر الرسول، وذلك بعد البعثة بقليل كإعداد لِمرحلة النبوة، ومنها ما لا يربط بين الحدثين، على أساس أنّ شق الصدر كان في مرحلة الطفولة.**

وتزيد بعض الروايات في التفصيل لتصف السلم الذي كان به الصعود للسماء، فتتحدث عن بهائه وروعته، ويطلق على هذا السلّم اصطلاحا "المعراج"»[1]. المحرر هو المستشرق: **روبنسون**-Robinson[2].

أولا– حادثة شقّ الصدر ليلة الإسراء: أشار المستشرق "روبنسون-Robinson" إلى ما يظهر من اختلاف بين بعض الروايات التي تجعل وقوع حادثة شقّ الصدر في طفولة النبي ﷺ، وبعضها بعد البعثة بقليل، وأخرى ليلةَ الإسراء والمعراج، فما هو المسلك العلمي الصحيح في تفسير هذه الروايات؛ أهو الجمع أم الترجيح؟

ذلك أنّه جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ...»[3]، وهذا في بادية بني سعد.

وجاء في قصّة الإسراء والمعراج في الصحيحين: عن أنس عن أبي ذرّ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((... فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ...))[4].

سلك جمع من علماء الحديث والسِّيَر منهج الجمع بين هذه الروايات[5]، حيث ثبت في روايات الصحيحين أنّ شقّ الصدر وقع **مرتين**؛ مرة في طفولته في بادية بني سعد، ومرّة ليلة الإسراء والمعراج[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9410/30.

[2]– سبقت ترجمته: ص435.

[3]– عند: **مسلم وأحمد**، سبق تخريجه: ص255.

[4]– سبق تخريجه: ص454. وحادثة شقّ الصدر ليلة الإسراء جاءت في الصحيحين أيضا من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، وسبق تخريجه أيضا في: ص454.

[5]– مع ملاحظة أنّ ابن احزم والقاضي عياض سلكا مسلك الترجيح، فأنكرا وقوع شقّ الصدر ليلة الإسراء، واعتبرا ما ورد من ذلك في "الصحيحين" وهماً من أحد الرواة وهو "شَريك بن عبد الله"، لكن اعتُرض عليهما بأنّ وقوع شقّ الصدر ثبت في الصحيحين أيضا من غير طريق "شَريك"، وهي طرق: الزهري وقتادة والبناني. ينظر: شرح الشفا، القاري، 420/1. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 48/8. والسيرة الصحيحة، العمري، 189/1.

[6]– ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 499/1. وفتح الباري، ابن حجر، 597/1. وشرح الشفا، 419/1–420.

والمرّة الثالثة جاءت في غير الصحيحين، وقد وقعت عند البعثة وقبل الإسراء والمعراج، حيث ورد في حديث عائشة ﵂: «فَأَخَذَنِي جِبْرِيلُ... ثُمَّ شَقَّ عَنْ قَلْبِي فَاسْتَخْرَجَهُ ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْتَخْرِجَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ ثُمَّ لَأَمَهُ»[1].

ولكلٍّ من هذه المرات حكمة؛ **فالأولى:** كانت في زمن الطفولة لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم **الثانية:** عند المبعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم **الثالثة:** وقعت ليلة الإسراء والمعراج ليتأهب للمناجاة، والترقّي إلى الملأ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنى[2].

ثانيا- المعراج الذي صعد به إلى السماء: جاء في رواية أبي سعيد الخدري ﵁ عند ابن إسحاق والبيهقي، أنّ العروج إلى السماء كان في المعراج -وهو كالسلم يرقى فيه-، حيث ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ((لَمَّا فَرَغْتُ مِمَّا كَانَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، أُتِيَ بِالْمِعْرَاجِ، وَلَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي يَمُدُّ إِلَيْهِ مَيِّتُكُمْ عَيْنَيْهِ إِذَا حُضِرَ، فَأَصْعَدَنِي صَاحِبِي فِيهِ، حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ))، وهذا الحديث فيه ضعف[3]، لكن في حديث أنس ﵁ من طريق ثابت البناني عند "مسلم" إشارة إلى ذلك كما ذكر ابن حجر[4]، وفيه: قوله ﷺ: ((فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ... ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ))[5].

قال ابن كثير: «والمقصودُ أنّه ﷺ لَمّا فَرَغ من أمْرِ بيت المقدس نُصِب له المعراج وهو السُّلَّم، فصَعد فيه إلى السّماء، و لم يكن الصعود على البراق... بل كان البُراق مربوطا على باب مسجد

---

[1]- أخرجه: **أبو داود** الطيالسي، في مسنده، 125/3. **وأبو نعيم**، دلائل النبوة، 215/1. والحديث **إسناده ضعيف** كما بيّن محقّق "مسند أبي داود"؛ فإسناد الطيالسي فيه من لم يسمّ في قوله "عن رجل"، وإسناد أبي نعيم فيه "داود بن المحبر" وهو ضعيف جدا، ينظر: ميزان الاعتدال، 20/2، مع ذلك حسن البوصيري إسناد "الطياسلي" في "إتحاف الخيرة المهرة، 480/3"، واستشهد بالحديث على الشقّ في هذه المرة ابن حجر والقسطلاني وغيرهما.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 257/7. والمواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، القسطلاني، 49/8-50.

[3]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 403/1. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 390/2-391. وإسناد ابن إسحاق منقطع، وإسناد البيهقي فيه أبو هارون العبدي وهو متفق على ضعفه، كما ذكر ابن كثير "تفسير، 25/5-26" والذهبي "تاريخ الإسلام، 640/1" وبيّنا ضعف إسناد الحديث، وأنّ في متنه غرابة ونكارة، لكن استشهد بالحديث على المعراج ابن حجر وابن كثير، ولعل ذلك لِما يشهد له من حديث "البناني" عند مسلم، كما قد يُفهم مما يأتي ذكره - هنا- عن ابن حجر وابن كثير. كما روى ابن سعد من طريق الواقدي [وهو ضعيف جدا] حديثا فيه ذكر هذا المعراج في "الطبقات الكبرى، 166/1".

[4]- ينظر: فتح الباري، 261/7.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 274/2-275.

بيت المقدس؛ ليرجع عليه إلى مكة، فصَعد مِنْ سَماءٍ إلى سَماءٍ في الْمِعراج حتّى جاوَز السّابعة، وكلّما جاء سماءً، تلَقَّتْه مِنها مُقَرَّبوها، ومَن فيها مِنْ أكابِر الملائكة وَالأنبياء»[1].

الفرع الثالث: فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والاختلاف في رؤيته لربه

أولا- فرض الصلوات الخمس:

- جاء في مادة "**الصلاة**": «**فعندما أسري بمحمد إلى السماء العليا فرض الله على أمّة محمد خمسين صلاة كل يوم، ثم رجع محمد بذلك من حضرة الله حتى مر على موسى فسأله موسى عما فرضه الله على أمّته، قال: فارجع إلى ربّك، فإن أمّتك لا تطيق ذلك، ومن ثم جعل الله الصلوات الخمسين خمسا وعشرين، ثم رجع إلى موسى، فأجابه بمثل ما أجابه من قبل، ويتكرّر هذا من محمد حتى استقرّت الصلوات على خمس (البخاري، كتاب الصلاة، باب 1. مسلم، كتاب الإيمان، حديث 294...)**»[2].

المحرر هو المستشرق: **فنسنك**-wensinck[3].

حديث أنّ الله تعالى فرض الصلاة ليلة الإسراء والمعراج خمسين صلاة، ثم مراجعته ﷺ لربّه في ذلك، حتى خفّفها الله ﷻ إلى خمس صلوات في كلّ يوم وليلة رحمة منه ولطفاً بعباده؛ جاء من حديث: أنس عن أبي ذرّ رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم[4]، ومن حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما عندهما[5]، ومن حديث أنس ﷺ موقوفا عندهما أيضا[6]، ومن حديثه ﷺ مرفوعا عند مسلم[7].

ثانيا- الاختلاف في رؤية النبي ﷺ لربّه تعالى:

- جاء في مادة "**الجنّة**": «**ولم يَرَ محمد نفسه الله، بل هو قد رأى جبريل، وذلك في حالة الغشيان المذكورة سورة النجم، الآية 16 من القرآن، ولم يدرك سدرة المنتهى ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ وقد ورد**

---

[1]- البداية والنهاية، 276/4.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 173/14-174.

[3]- سبقت ترجمته: ص49.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، 595/6-596. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 284/2.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، 252/7-254. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ، 290/2.

[6]- من طريق شريك بن عبد الله؛ أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله عزّ وجل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، 583/13-585. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، 283/2.

[7]- من طريق ثابت البناني؛ عند: **مسلم**، تقدّم تخريجه في الصفحة السابقة.

في خبر ذكر في (مختصر العجائب، ص9) أن النبي سأل جبريل: ((هل رأيت ربك؟)) فتململ الملك وأجاب: ((أي محمد، إن بيني وبينه سبعين ألف حجاب من النور، إذا قربت من أحدهما احترقت))[1]»[2].

المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** -Carra De Vaux[3].

ذكر "كارادە فو-Carra De Vaux" في مادة "الجنة" أنّ النبي ﷺ لَم ير الله تعالى، لكن لم يبيّن أنّ هناك خلافا في ذلك؛ حيث وقع الخلاف بين الصحابة ﷺ والعلماء في رأيته ﷺ لربّه عز وجلّ ليلةَ الإسراء والمعراج على قولين:

– **القول الأول**: ذهبت عائشة ﷺ إلى إنكار أن يكون النبي ﷺ رأى ربّه تعالى، وهو أيضا قول ابن مسعود ﷺ، حيث قالا رضي الله عنهما: إنّما رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها[4]، وعزا الدارمي هذا القول إلى جمهور الصحابة، كما قال به جماعة من المحدثين والمتكلمين[5].

– **القول الثاني**: وذهب ابن عباس ﷺ إلى: أنّه ﷺ رأى ربه عز وجل، وفي رواية عنه: أنّه رآه بفؤاده، كما قال بإثبات الرؤية أيضا: عروة بن الزبير وابن خزيمه والنووي وغيرهم[6].

لكن الذي يترجّح -والله أعلم- أنّ الرسول ﷺ لم ير ربه تعالى ليلة الإسراء بل رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما، وهو ما عليه جمهور الصحابة ﷺ، وقالت عائشة ﷺ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ، وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ»[7]؛ وما يؤيد قول عائشة ﷺ هو رفعها ذلك إلى النبي ﷺ حيث جاء في لفظ "مسلم": عن مسروق قال: أَلَمْ يَقُل اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: 23]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 13]؟ فَقَالَتْ: **أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ:** ((إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ...))[8].

---

[1]– **تعقيب أحمد شاكر على مادة "الجنّة"** [على هامش المادة]: «**وأما هذا الحديث الأخير الذي نقله عن كتاب (مختصر العجائب) فهو حديث موضوع مكذوب، كما نص عليه ابن الجوزي وغيره (انظر اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (ج1 ص8–9) والكتاب الذي نقل عنه الكاتب لا قيمة له، ولا يحتج بما يروى في مثل هذه الكتب إلا من لا يعرف شيئا من علوم الحديث**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 144/7.

[3]– سبقت ترجمته: ص253.

[4]– حديث عائشة ﷺ سيأتي في هذه الصفحة. وحديث ابن مسعود ﷺ عند **أحمد** وغيره سبق في: ص443.

[5]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 79/1. والفصول في السيرة، ابن كثير، 18. وفتح الباري، ابن حجر، 773/8. وشرح الشفا، علي القاري، 424/1.

[6]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 3/6–7. والفصول في السيرة، 131. وفتح الباري، 773/8. وشرح الشفا، 423/1–424.

[7]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدهم "آمين" والملائكة في السماء، 377/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 13]، 11/3. واللفظ للبخاري.

[8]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، في الكتاب والباب السابقين، 11/3.

ويؤيده أيضا حديثٌ مرفوعٌ آخرٌ عن أبي ذر ﷺ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: ((نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ[1]))، وفي رواية: ((رَأَيْتُ نُورًا))[2].

- **حديث "مختصر العجائب"**: أما الحديث الذي ذكره "كاراده فو" من "مختصر العجائب" فهو حديث موضوع كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه، ذكره بنحو هذا السياق أصحاب الموضوعات[3].

فالعجب من المستشرق كيف يعتمد على مثل هذه الروايات الموضوعة، ويترك الأحاديث الصحيحة في الموضوع -والتي ذكرت بعضاً منها آنفا-، ولعل ذلك إنّما يشير إلى أنّ المستشرق "كاراده فو-Carra De Vaux" قد لا تكون له معرفة بعلوم الحديث وبمظانّ الأحاديث الصحيحة.

الفرع الرابع : ذكر اجتماع النبي ﷺ ببعض الأنبياء ليلة الإسراء

- جاء في مادة "**عيسى** عليه السلام": «**عندما عُرج بمحمد ﷺ إلى السماء التقى بإبراهيم وموسى والمسيح، ولما سأل عن الساعة أخبره المسيح عليه السلام أنه هو نفسه - أي المسيح - سيكون دلالة عليها.**

لكن المسيح عليه السلام رغم كونه (عِلْم للساعة) لا يعرف وقت قيامها بالضبط، إذ لا يعرف وقتها إلا الله»[4]. المحرر هو المستشرق: **قنواتي** - G.C.Anawati[5].

الحديث الذي ذكره الأب "قنواتي-Anawati" عن سؤال عيسى عليه السلام عن الساعة ليلة الإسراء والمعراج جاء عند أحمد وغيره عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ، قال: ((لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، قَالَ: فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ: لا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: لا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى عِيسَى، فَقَالَ: أَمَّا وَجْبَتُهَا[6]، فَلا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلاّ اللهُ ذَلِكَ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ، قَالَ: وَمَعِي قَضِيبَيْنِ، فَإِذَا رَآنِي؛ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ...)) الحديث[7].

---

[1]- أي: أن النور منعني من الرؤية. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 774/8.

[2]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: ((نور أنى أراه))، 15/3-16.

[3]- ينظر: الموضوعات، ابن الجوزي، 116/1. واللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، السيوطي، 22/1-24. والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني، 442-443؛ (مع تعليق عبد الرحمن المعلمي في الهامش).

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7535/24.

[5]- **جورج شحاته قنواتي** "Georges Anawati" (1905-1993م): مصري من الآباء الدومينيكيين المسيحيّين، ولد بالإسكندرية، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، وتخصّص في الدراسات الاستشراقية والفلسفة الإسلامية، من آثاره: "مؤلفات ابن سينا" و"المدخل إلى علم الكلام" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1056/3. وإتمام الأعـــلام، نزار أباظة ومحمد المالح، 68.

[6]- "وجبتها": أي: قيامها. ينظر: حاشية السندي على ابن ماجه، 517/2.

[7]- أخرجه: **ابن ماجه**، السنن (السندي)، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم، 517/2. **وأحمد**، المسند، 19/6. **والحاكم**، المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، 534/4؛ واللفظ لأحمد. والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

ويبيّن الإمام ابن كثير المغزى من هذا الحديث فيقول: «فهؤلاء أكابر أولي العزم مِنَ الْمرسَلين، ليس عندهم علمٌ بوَقت السّاعة على التّعْيين، وإنّما ردُّوا الأمْرَ إلى عيسى عليه السلام فتَكلّم على أشْراطِها؛ لأنّه ينْزِلُ في آخر هذه الأُمّة منفِّذًا لأحكامِ رسولِ الله ﷺ ويَقْتُل المسيح الدّجّال، ويَجعلُ اللهُ هَلاك يأجوج ومَأْجوج ببرَكة دُعائِه، فأَخْبر بِما أعْلَمه الله تعالى به»[1].

ثم أشار "فَنَواتي-Anawati" إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 61]، أي: أنّ نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان من علامات قرب الساعة وأماراتِها[2]، وهو مع ذلك لا يعلم متى الساعة كما في الحديث السابق، بَل إنّ النبي «محمداً ﷺ وهو سيّدُ البشر قال لِجبريل عليه السلام وهو مِن ساداتِ الْملائكة -حين سَأله عن السّاعة- فقال: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ))»[3] كما في حديث جبريل المشهور[4].

الفرع الخامس: مكانة بيت المقدس في الإسلام

- جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 31]: «**قيل إن نهاية رحلة الإسراء كانت عند جبل المعبد بالقدس، حيث أمّ محمد ﷺ الأنبياء (عليهم السلام) قبله في الصلاة، ثم عرج إلى السماء من عند نتوء صخري عالٍ نجده اليوم في قبة الصخرة الشهيرة، ثم عاد جبريل ومحمد (عليهما السلام) إلى مكة وانتهت بعودتهما تلك الرحلة الليلية، وقد أدّى ارتباط سيرة محمد ﷺ بجبل المعبد في هذه القصّة إلى أن أضحت القدس عند المسلمين ثالث المدن المقدّسة بعد مكة والمدينة**»[5]. المحرر هو المستشرق: **بول**-Buhl[6].

ورد في هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ" نقاط تحتاج إلى بيان واستدراك، وهي كالآتي:

أولا- قول "بول-Buhl": "**جبل المعبد**"؛ هذا مصطلح يهودي[7]، إذ لا نجده مذكوراً في كتب علماء الإسلام، والمصطلح المتعارف عليه في المصنفات الإسلامية هو: بيت المقدس أو المسجد الأقصى[8].

ثانيا- ثم ذكر المستشرق "بول-Buhl" أنّ ارتباطَ بيت المقدس بِحادثة الإسراء في السيرة هو سبب تلك المكانة الرفعية له في الإسلام، والحقيقة أنّ مكانة بيت المقدس ليست متعلّقة بحادثة الإسراء فحسب كما يوهم تقرير المستشرق، بل هناك شواهد إسلامية أخرى على هذه المكانة من بينها:

---

[1]- تفسير ابن كثير، 3/522-523.

[2]- ينظر: تفسير البغوي، 4/166. وتفسير ابن كثير، 7/236.

[3]- تفسير ابن كثير، 7/185.

[4]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة السَّاعة، 1/213-225.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9125.

[6]- سبقت ترجمته في: ص150.

[7]- ينظر: مجلة البيان، العدد 107، سنة 1996، 40-41.

[8]- ينظر مثلا: تفسير الطبري، 14/436-443. وتفسير الرازي، 20/292. والبداية والنهاية، ابن كثير، 4/269-280.

أ)– قال الله تعالى فيه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]؛ فقد بارَك اللهُ سبحانه المسجد الأقصى بِبَركات الدّنيا والآخرة، لأنّه مقَرُّ الأنبياء ومَهبط الْملائكة والوحي ومنه يُحْشَر النّاسُ يوم القيامة[1].

ب)– هو ثاني مسجد بُني في الأرض؛ كما في حديث أبي ذرّ ﷺ، قال: قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِع في الأرض أوَّل؟ قال: ((المَسْجِدُ الحَرَامُ)) قال: قلتُ: ثُمّ أيٌّ؟ قال: ((المَسْجِدُ الأَقْصَى))[2].

ج)– هو أولى القبلتين؛ فعن البراء بن عازم ﷺ قال: «صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صُرِفْنَا نَحْوَ الْكَعْبَةِ»[3].

د)– أنّه ثـــالث الحرمين، ولا تشدّ الرحال بعد المسجدين إلاّ إليه، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: ((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))[4]؛ قال النووي: «فيه بيان فضيلة هذه المساجد الثلاثة، ومزيّتها على غيرها»[5].

هـ)– كما عدّد ابن كثير بعض فضائله وخصائصه في الإسلام فقال: «وأنّه أوّلُ الْقِبلتَيْن، وثاني الْمسجدين، وثالثُ الْحرَمين، لا تُشدّ الرّحال بعد الْمسجدين إلاّ إليه، ولا تُعقد الْخَناصِر بعد الْمَوْطِنَيْنِ إلاّ عليه، وإليه أُسرِيَ برسول الله ﷺ مِنَ المسجد الحرام، وصَلّى فيه بالملائكة الْمُقَرّبين والأنبياء والرّسُل الكرام، ومنه كان المعراجُ إلى السّماوات... وهو أرض الْمحشَر والْمَنْشر يومَ التّلاق، وهو مَقَرُّ الأنبياء ومقصد الأولياء، وقد أُسِّس على التّقْوى من أوّل يوم»[6].

من أجل هذه الشواهد وغيرها كان بيت المقدس يُمثّل تراثاً دينيًّا وتاريخيًّا وحضاريًّا كبيراً للمسلمين بعد مسجد مكة والمدينة مباشرة إضافة إلى كونه مسرى رسول الله ﷺ، لذا كانت مآثره في الإسلام أوسع بكثير مِمّا اقتصر عليه المستشرق "بول-Buhl".

الفرع السادس : موقف أهل مكة من الإسراء والمعراج

أولا– موقف أهل مكة إجمالا من الحادثة: – جاء في مادة "**إسراء**"[فقرة: 4]: «**ولَمّا وقف محمد بالحِجر رأى بيت المقدس ووصف لقريش ما رآه فلم يصدّقوه** (**البخاري، ج2 ص221. مسلم،**

---

[1]– ينظر: تفسير البغوي، 105/3. وفتح القدير، الشوكاني، 246/3.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، 492/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساجد، 3/5.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة، 650/1. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، 13/5. واللفظ لمسلم.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، 82/3. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، 238/9. واللفظ لمسلم.

[5]– شرح النووي على مسلم، 239/9.

[6]– البداية والنهاية، 591/16.

ج1 ص62. تفسير الطبري، ج15 ص5)، ووضعت القصة على نحو يوفق بين التفسيرين الثاني والثالث، وذلك كما يأتي: سافر محمد ليلا إلى بيت المقدس ثم عاد ووصف في مكة ما رآه فلم تصدقه قريش بل وأنكر ذلك منه بعض المسلمين، وحاول محمد التدليل على صدق روايته ولكنه نسي التفصيلات فأراه الله بالفعل بيت المقدس، Der Islam، ج6 ص15 وما بعدها)»[1].

المحرر هو المستشرق: **شريك** - B.Schrieke[2].

تحدّث المستشرق "شريك-Schrieke" عن موقف أهل مكة من الحادثة؛ ذلك أنّ رسول الله ﷺ عندما أخبر قومه بما وقع معه من الإسراء والمعراج صدّقه المؤمنون وكذّبه المشركون، حيث جاء في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنّ الرسول ﷺ قال: ((لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ))[3].

وجاء تفصيل القصة عند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: ((لَمَّا كَانَ لَيْلَة أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ))؛ فَقَعَدَ مُعْتَزِلاً حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((نَعَمْ)) قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ)) قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: ((إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟)) قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) قَالَ: فَلَمْ يُرِه أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((نَعَمْ))؛ فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ))، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: ((إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ))، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلكَذِبِ - زَعَمَ -، قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، قَالَ: فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ))... فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ[4].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 109/2.

[2]- سبقت ترجمته: ص435.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء، 247/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، 307/2.

[4]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 28/5. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 363/2. والحديث حسنه ابن حجر "فتح الباري، 250/7" وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

ولعلّ كفّار قريش لَم يتعرضوا لِمجادلته في حادثة العروج به ﷺ إلى السماء؛ لأنّ ذلك عندهم من جنس قوله إنّ المَلَك يأتيه بالوحي من السماء في أسرع من طرفة عين، وقد كذّبوا بذلك من قبل مع قيام الحجة على صدقه بالمعجزات الباهرة، بخلاف إخباره ﷺ أنّه جاء بيت المقدس في ليلة واحدة ورجع؛ فإنّهم صرّحوا بتكذيبه فيه وطلبوا منه نعت جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنّه لم يكن رآها قبل ذلك، فأمكنهم استعلام صدقه فيها، فكان في ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقاء الجاحد والمعاند[1].

ثانيا- موقف أبي بكر ﷺ خاصّة من الحادثة:

- جاء في مادة "**الصديق**": «**ويقول ابن إسحاق: إن أبا بكر لُقّب بهذا اللقب حين تزعزع إيمان المسلمين بالنبي ﷺ إثر حديثه عن المعراج، فشهد أبو بكر بأن النبي قد صدق كل الصدق في وصفه لبيت المقدس، ورد إليهم بذلك ثقتهم في النبي، وثمة رواية أخرى تقول: إن النبي شكا لجبريل قلّة إيمان قومه، فأجابه جبريل: ((أبو بكر يصدّقك، فهو الصديق))**»[2]. المحررة هي المستشرقة: **فكا** -v.vacca[3].

كانت حادثة الإسراء فتنة للكافرين الذين زاد عنادهم وكفرهم، ولبعض ضعفاء الإيمان ممن زلزل الحادث إيمانهم، فكفروا و لم يعودوا إلى حظيرة الإيمان حتى قتلوا، وصدّق النبيَّ ﷺ أبو بكر ﷺ وكلّ من آمن به سوى تلك القلّة من ضعفاء الإيمان[4].

أشارت المستشرقة "فـــكا-Vacca" إلى موقف أبي بكر الصديق ﷺ في هذه الحادثة، وهو الموقف الذي كان له الأثر البالغ في نفوس المشركين والمؤمنين، بل وفي نفس الرسول ﷺ؛ حيث وقف مساندا له لعادته، وكان لِجوابه الذي اتّسم باليقين والحكمة والعقل الراجح أثر في حسم مادة الفتنة وتثبيت قلوب المؤمنين، فعن عائشة ﷺ قالت: «لَمّا أُسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبَح يَتحدّث الناس بذلك، فارتدّ ناس مِمّن كانوا آمنوا به وصدّقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئِـــن كان قال ذلك لقد صَدَق، قالوا: أَوَ تصدِّقه أنه ذهب اللّيلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبِـــح؟

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 248/7 و252.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 173/14-174.

[3]- سبقت ترجمتها: ص299.

[4]- ينظر: المواهب اللدنية (بشرح الزرقاني)، 68/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 192/1.

قال: نعم؛ إنّي لأُصدِّقه فيما هو أبْعدُ من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدْوةٍ أو روْحةٍ؛ فلذلك سُمّي أبو بكر "الصّدّيق"»[1].

ظهر إيمان أبي بكر ﷺ القوي في هذا الحدث الجلل، وكان جوابه في منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر ونزول الوحي من السماء، فبين لهم أنه إذا كان الأمر غريبا على الإنسان العادي فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ؛ فاستحقّ بموقفه هذا لقب "الصديق"[2].

أمّا ما ذكرته المستشرقة "فـــكا-Vacca" من تصديق أبي بكر ﷺ لوصف النبي ﷺ لبيت المقدس، فقد ورد في حديث شدّاد بن أوس ﷺ؛ الذي فيه: ((ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ الصُّبْحِ بِمَكَّةَ، فَأَتَـــانِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ كُنْتَ اللَّيْلَةَ؟ فَقَدِ الْتَمَسْتُكَ فِي مَكَانِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ فَصِفْهُ لِي، فَفُتِحَ لِي شِرَاكَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، لا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاّ أَنْبَأْتُهُمْ عَنْهُ، فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّه))[3]؛ وقال ابن كثير بعد أن أورد هذا الحديث: «ولا شَكَّ أنّ هذا الحديثَ مُشْتملٌ على أشياءَ منها ما هو صحيحٌ كما ذَكَره البيهقيّ، **ومنها ما هو منكرٌ**، كالصّلاةِ في بيت لَحمٍ، **وَسؤالِ الصّدّيقِ عَن نعت بيت المقدس**، وغير ذلك، والله أعلم»[4].

فهذا الحديث فيه أنّ أبا بكر هو الذي سأل النبي ﷺ عن صفات بيت المقدس، لكنّ الذي في الصحيحين كما في حديث جابر ﷺ وأيضا في حديث ابن عبّاس ﷺ عند أحمد المتقدّمين[5] أنّ الْمشركِين هم الّذين سَأَلوا رسولَ الله ﷺ عن ذلك كما بيّن ابن كثير[6]، ويُحتمل أنّ أبا بكر ﷺ سأله عن ذلك ليُبَرهِن للناس على صدقه ﷺ[7] وسأله المشركون أيضا، ولكنّه صدّق وآمن بينما هم عاندوا وكذّبوا بعدما تبيّن لَهم صدقه، ويشهد لِهذا الجمع ما ورد عند ابن إسحاق من مرسل الحسن، وفيه: «... وذهَب النّاسُ إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنّه جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلى فيه، ورجع إلى مكة، فقال لهم أبو بكر: إنّكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يُحدّث به النّاسَ، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق... ثُمّ أَقْـــبَل حتّى

---

[1]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، 65/3. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 361/2. واللفظ للحاكم، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[2]- ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، علي الصلابي، 225-226.

[3]- أخرجه: **البزار**، في مسنده، 409/8-410. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 356/2-357؛ وصحّحه البيهقي.

[4]- تفسير ابن كثير، 27/5.

[5]- قبل صفحتين في: ص465.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، 281/4.

[7]- وذلك لأنّه صدّق خبر الرسول ﷺ ثم سأله كالمستشهد لصدقه كما في مرسل الحسن عند ابن إسحاق الآتي ذكره.

انْتَهى إلى رسول الله ﷺ»، ثم سأله أبو بكر ﷺ عن صفته، فوصفه الرسول ﷺ؛ قال الحسن: «**فجَعَل رسولُ اللّه ﷺ يَصِفُهُ لأبي بكر، ويَقولُ أبو بكر: صدَقْتَ، أشهدُ أنّكَ رسولُ الله**»[1].

أمّا ما ذكرته المستشرقة من قول رسول الله ﷺ لِجبريل عليه السلام: ((يَا جِبْرِيلُ إِنَّ قَوْمِي لا يُصَدِّقُونَنِي؛ قَالَ: يُصَدِّقُكَ أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ الصِّدِّيقُ))، فهو حديث جاء عند ابن سعد بهذا اللفظ[2].

المطلب الثالث : أساليب تشكيك محرري "الدائرة" في معجزة الإسراء والمعراج

قسّمت هذا المطلب إلى عناصر حسب كلّ أسلوب، بحيث يغني ذلك عن تقسيمه إلى فروع.

الأسلوب الأول : التشكيك في الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس:

حاول المستشرق "شريك-Schrieke" في مادة "إسراء/ فقرة:1" أن يشكّك في الإسراء بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وادّعى أنّ معنى "المسجد الأقصى" في الآية الأولى من سورة الإسراء هو السماء وليس بيت المقدس، ونسب ذلك إلى بعض العلماء مغالطة وتَمويها، وقد سبق مناقشة ذلك بالتفصيل[3] وبيان عدم صحّة ما نسبه إليهم بدليل ما قرّروه في كتبهم، وأنّ المراد "بالمسجد الأقصى" في الآية هو "بيت المقدس" باتفاق المفسرين.

الأسلوب الثاني : الاعتماد على منهجية المقابلة والمطابقة:

– جاء في مادة "**إسراء**"[فقرة: 5]: «**وصلى محمد بهؤلاء الأنبياء، وهذا يدل على تقدمه على جميع الأنبياء الذين اجتمعوا هناك، وتشبه مقابلة النبي لهؤلاء الأنبياء في بيت المقدس ظهور عيسى على جبل تابور، وربما نسجت على منوالها...**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **شريك** - B.Schrieke[5].

كما اعتمد المستشرق "شريك-Schrieke" على أسلوب آخر في مادة "إسراء" بقصد زعزعة الثقة بروايات الإسراء، عندما اعتبر صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء في بيت المقدس ليلة الإسراء نسجت على منوال قصّة أخرى وردت في بعض الأناجيل النصرانية، وهي دعوى قائمة على منهجية "**النفي بالمطابقة**" أو "**المقابلة والمطابقة**" للطعن في الروايات التاريخية، وهي منهجية استشراقية منافية للمنهج

---

[1]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 399/1.

[2]– الطبقات الكبرى، 127/3. وإسناده ضعيف لضعف "أبي معشر نجيح" ينظر: ميزان الاعتدال، الذهبي، 246/4.

[3]– ينظر: ص436-442.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 105/2.

[5]– سبقت ترجمته: ص435.

العلمي الموضوعي، وتعدّ من الثغرات المنهجية في كتابات المستشرقين، كما بيّن بعضهم مثل المستشرق "درمنغم" وسبق بيانه في غير ما موضع[1].

ثُمّ إنّه لا يمكن أن يكون هناك تطابق بين القصّتين للاختلاف الواضح بينهما من حيث أحداث القصتين والشخصيات الوارد فيهما، وكذا ما يتعلّق بالظرف الزماني والمكاني لهما.

أضف إلى ذلك أنّ التشابه بين الأحداث التاريخية لا يقتضي بالضرورة نسج إحداهما عن الأخرى.

الأسلوب الثالث : الطعن في رواية أنس ﷺ لِخبر الإسراء والمعراج:

– جاء في مادة "**أنس بن مالك**": «**والأحاديث التي رواها عن المعراج وغيره لم تبرأ من القصص الخيالي**»[2]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -wensinck[3].

أولا– اعتماد منهجية الطعن في أهم شيء في بابه: اعتمد المستشرق "فنسنك-Wensinck" في هذا النص من مادة "أنس" على أسلوب يحقّق الطعن في أكبر قدر ممكن من أحاديث الإسراء والمعراج، حيث سلك منهجية: "**التركيز في الطعن على أهم شيء في بابه**"؛ ذلك أنّ أحاديث أنس ﷺ في الإسراء والمعراج لَها أهمية بالغة في هذا الموضوع بالذات لأمور منها:

أ)– أنّ أكثر تفاصيل قصة الإسراء والمعراج وردت في أحاديث أنس ﷺ، والمتتبع لرواياته على اختلاف عباراتها وطرق روايتها، يلحظ أنّ أنساً ﷺ كان حريصا على جمع أكثر قدر من المعلومات والتفاصيل الخاصة بالحادثة، وهذا ما يفسّر روايته لقصّتها عن بعض الصحابة عن النبي ﷺ أحيانا، وعن النبي ﷺ مباشرة أحيانا، وسياقه لَها بلفظه أحيانا أخرى، كما تعدّد رواة تلك الأحاديث عنه.

ب)– أنّ طرق أحاديث الإسراء والمعراج في الصحيحين تدور على أنس ﷺ على اختلاف أصحابه عنه كما قال ابن حجر[4].

ولذلك كان التشكيك في رواية أنس ﷺ يحقّق هدفين هامين – بالنسبة للمدرسة الاستشراقية–؛ **الأول**: "**الطعن في الشطر الأكبر والأصح من روايات الإسراء والمعراج**"؛ بضرب جملة كبيرة من روايات الحادثة وما احتوته من تفاصيل هامة لا يمكن الاستغناء عنها في الموضوع، **والثاني**: "**الطعن في الصحيحين**"؛ بضرب جملة من أحاديث الصحيحين لَها علاقة بموضوع هام من سيرته ﷺ.

---

[1]– ينظر: ص485.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 48/3.

[3]– سبقت ترجمته: ص49.

[4]– ينظر: فتح الباري، 596/1.

كما يُلاحظ أنّ المستشرق "فنسنك" لم يكتَفِ بروايات أنس ﷺ وإن ركّز عليها في الذكر، بل أشار إلى روايات غيره من الصحابة ﷺ، وهي دون شكّ روايات تعضّد بعضها بعضا وتزيد في القيمة التاريخية للخبر المنقول، وتجعله أكثر وثاقة، وأبعد عن القصص الخيالي الذي وصفها به "فنسنك-Wensinck".

ثانيا- رواية أنس معتضدة بروايات غيره من الصحابة: أحاديث الإسراء والمعراج ثابتة بالنقل المستفيض عن النبي ﷺ، ليس من رواية أنس فحسب، بل من رواية غيره أيضا، ذلك أنّ الواقع الحديثيّ لروايات أنس لحديث الإسراء والمعراج يؤكّد أنها معتضدة بروايات غيره من الصحابة، وهذه الروايات ثابتة من طريق الثقات بأسانيد متصلة أكثرها في الصحيحين؛ حيث نجد أنّ أنسا ﷺ نفسه يروي الحديث عن: - مالك بن صَعْصَعة ﷺ، عن النبي ﷺ[1].

- كما يرويه: عن أبي ذر الغفاري ﷺ، عن النبي ﷺ[2].

- ويرويه أيضا: عن النبي ﷺ مباشرة، بلا واسطة[3].

وتابع "أنسا" على روايته، صحابة آخرون بروايات تشهد لبعضها؛ ومنها:

- حديث أبي هريرة ﷺ[4]. - وحديث ابن عباس ﷺ[5].

- وحديث جابر بن عبد الله ﷺ[6]. - وحديث ابن مسعود ﷺ[7]، وغيرهم.

وأورد ابن كثير في تفسيره لِمطلع سورة الإسراء روايات أنس ﷺ في الإسراء والمعراج، وأعقبها برواية غيره من الصحابة، ثم قال ابن كثير: «قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة في كتابه "التنوير في مولد السراج المنير" وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد **تواترت الروايات في حديث الإسراء** عن: عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبَي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء

---

[1]- عند **البخاري ومسلم**؛ سبق تخريجه في: ص454.

[2]- **عندهما** أيضا؛ سبق تخريجه في: ص460.

[3]- عند **مسلم**؛ من طريق البناني، سبق تخريجه في: ص459.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [النازعات: 15]، 520/6. وصحيح مسلم (النووي)، الكتاب والباب السابقين، 300/2.

[5]- ينظر: صحيح البخاري، (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، 254/7. وصحيح مسلم (النووي)، الكتاب والباب السابقين، 293/2-294.

[6]- عند **البخاري ومسلم**؛ سبق تخريجه في: ص465.

[7]- ينظر: صحيح مسلم (النووي)، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، 3/3-4.

ابنتي أبي بكر الصديق ﷺ أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8]»[1].

الأسلوب الرابع : اعتبار معجزات الإسراء والمعراج من الأساطير ونسج الخيال:

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أنس بن مالك**": «والأحاديث التي رواها عن المعراج وغيره لم تبرأ من القصص الخيالي[2]»[3]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -wensinck[4].

– وفي مادة "**المعراج**" [فقرة: 6]: «وتبنى **القصص بصفة رئيسية على أساس رواية ابن عباس، ابن عم الرسول ﷺ وهو ما يأخذه في الاعتبار في قصة المعراج بعض المؤلفين المعروفين إلاّ أن أغلبها مشكوك في نسبته لِمؤلف معين**... وبذلك وجدت الرغبة في إضفاء بُعد للرسول يتجاوز التأريخ له، فنسج من قصة شق الصدر والإسراء والمعراج وحدة واحدة تتجاوز المنطقة الهامة في أعماق الخيال الديني»[5].

المحرر هو المستشرق: **روبنسون** –Robinson[6].

– وفي مادة "**براق**" [فقرة: 3]: «أطلق هذا الاسم الذي يتصل باسم البرق في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي امتطاه النبيّ ليلة المعراج... وقد وشّيت هذه الأسطورة كثيراً وأصبحت باعثا من البواعث المحبوبة التي توحي إلى الشعراء وأهل الفن»[7]. المحرر هو : **كارادە فو** -Carra De Vaux[8].

---

[1]– تفسير ابن كثير، 45/5.

[2]– **تعقيب "أحمد شاكر" على مادة "أنس"** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 48/3]: «وأما زعم الكاتب أن روايته لحديث المعراج فيها قصص خيالي: فإنه زعم باطل لا دليل عليه، لأن رواية أنس تأيدت برواية كثير من الصحابة غيره، بل إن الحديث في مجموعه ورد متواترا لا شك في صحته، وقد جمع الحافظ ابن كثير في تفسيره أكثر الروايات الواردة فيه بأسانيدها (ج**5** ص**107–143**) غاية الأمر أن الحديث دل على معجزات للنبي ﷺ لا يريد الكاتب أن يصدق بصحتها، فهذا شيء مرجعه لعقيدته، لا نتحكم فيها، ولكن لا علاقة له بالقواعد الصحيحة الدقيقة التي يرجع إليها في صحة الأحاديث وضعفها».

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 48/3. **تنبيه:** هذا **النص مكرر**؛ سبق في: ص269؛ ذكرته في الأسلوب الثالث لبيان تركيزه في الطعن على روايات أنس لأهميّتها، بينما ذكرته في الأسلوب الرابع هنا لبيان تشكيكه في الروايات بجعلها من الأساطير والخرافة.

[4]– سبقت ترجمته: ص49.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9411/30-9413.

[6]– سبقت ترجمته: ص435.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 485/3.

– **تعقيب (3) "أحمد شاكر" على مادة "براق"** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/3]: «... **وقد كان لكاتب المقال مندوحة أن يتحاشى الألفاظ الجافة في تعبيره إذ يزعم أنّه «في الأساطير للدلالة على حيوان خرافي» وليس من الأساطير ما ثبت عند علماء الإسلام بالتواتر، الذي لا شك عند المسلمين في صحته واليقين به**».

[8]– سبقت ترجمته: ص253.

ثانيا- التحليل والمناقشة: إنّ التشكيك في الإسراء والمعراج من خلال الزعم بأنّ ما جاء فيه من معجزات هو مجرد: أساطير، وخيالات... ونحوها من الكلمات الجوفاء، ليست إلاّ حججاً واهية، اعتمد عليها المكذبون والمعاندون للرسل عليهم السلام في كّل زمان ومكان.

ولكن المستشرقين لَمّا دأبوا على التشكيك والطعن في نبوة محمد ﷺ بكلّ سبيل، ما كان لهم أن يسلّموا بوقوع معجزة الإسراء والمعراج، كيف وهي من الدلائل البالغة على نبوته ﷺ وربانية دعوته، لذا لم يجد بعض المستشرقين سوى تلك الحجة القديمة التي كثيرا ما تعذّر بها أعداء الأنبياء والمرسلين، وفي مثل هذا الأسلوب ونحوه دلالة ظاهرة على بعد المستشرقين عن روح البحث العلمي النّزيه في الدراسات الإسلامية عامة والسيرة النبوية خاصة، وهو ما يفضح ادعاءهم للتجرد والموضوعية.

وقد اعتمد المستشرق "فنسنك-Wensinck" في مادة "أنس" هذا المنهج أيضا للطعن في روايات الإسراء والمعراج، فضلا عما سبق مناقشته من اعتماده على منهجية **الطعن في أهم شيء في بابه**، حين ركّز على الطعن في رواية "أنس" رضي الله عنه خاصة.

ولكن أنّى للمستشرق "فنسنك" أن يوهن الثقة بتلك الروايات التي نُقلت عن الصحابة الذين واكبوا تلك الوقائع، وقد رواها عنهم ثقات المحدثين الذين اعتنوا بِها أيّما عناية حفظا وضبطا وتوثيقا، وأحوال هؤلاء الرواة معروفة مدوّنة، ورواياتهم مدروسة موثّقة، بحيث لا يتطرّق إليها الوهم والغلط، فضلا عما ذكره "فنسنك-Wensinck" من القصص الخيالية البعيدة عن الوقائع التاريخية الصحيحة.

فمنهج النقد العلمي الذي اتّبعه علماء الحديث أكبر من أن تُزعزَع أصوله بمثل هذه الدعاوى التي لم تقم على بيّنات وأدلة علمية، سوى الإمعان في التكذيب والإنكار على طريقة كفار قريش ومن قبلهم من المكذبين بمعجزات الأنبياء.

أمّا ما ذكره "روبنسون-Robinson" من أنّ روايات الإسراء والمعراج "**أغلبها مشكوك في نسبته لِمؤلِّف معيّن**"، وإن كان لم يوضّح كلامه ويحددّه بدقة حتى يتبيّن مقصده، إلاّ أن الواقع العلمي لروايات الإسراء يوضّح أنّها منسوبة إلى رواة مشهورين بالعدالة والحفظ والضبط ابتداء من المصنّف وانتهاء إلى الصحابي المعاصر للحدث، أمّا إن كان يقصد كتباً مجهولة غير منسوبة إلى مؤلّف معين أوردت بعض أخبار المعراج أو نحو ذلك، فإنّ في كتب الحديث والسيرة والتاريخ المعروفة المشهورة ما يكفي ويُغني عن مثل تلك المؤلفات المجهولة التي قد يكون اطلع عليها.

ولئن كان المستشرق "شريك-Schrieke" زعم أنّ المسلمين نسجوا بعض جزئيات الإسراء عن قصص نصرانية، فإنّ المستشرق "روبنسون-Robinson" يزعم أنّ بعض ما وقع في الحادثة من شق

صدره والعروج به إلى السماء من نسج الخيال الديني، وكلا القولين مجرّد دعاوى لا تستند إلى دليل علمي، الغرض منها التشكيك في معجزة الإسراء وما اشتملت عليه من دلائل النبوة.

فما وقع للنبي ﷺ من شقّ الصدر والعروج به إلى السماوات وما رؤى هناك من الآيات العظـــام، كل ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لإنكاره، لأنّ مقدرة الله تعالى لا يستحيل عليها شيء[1]، حتى ولو كان الأمر أكبر من ذلك.

ولئن كانت الخلفية العقدية للمستشرقين لا تسمح لهم بالإيمان بِمثل هذه المعجزات؛ فإنّهم مطالبون على الأقل باحترام المصدر الغيبي لرسالة محمد ﷺ، وإبداء موقف موضوعي بغير حكم مسبق، يتجاوز كل الإسقاطات التي من شأنها أن تعرقل عملية الطرح العلمي المتجرد لوقائع السيرة النبوية.

لذا كان من الإنصاف أن ينأى المستشرقون كتّاب "دائرة المعارف" عن مثل تلك العبارات الجوفاء كما ذكر الشيخ "أحمد شاكر" في تعقيبه على مادة "براق".

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 257/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 189/1.

المبحث الرابع : التحضير للهجرة إلى المدينة

المطلب الأول : دعوة القبائل في مواسم الحج وبدء إسلام الأنصار

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 32]: «وتتزايد الروايات في المصادر عن أحداث السنوات الأخيرة التي قضاها محمد ﷺ في مكة وما حولها من القرى قبل هجرته إلى المدينة، وإن كانت الأغراض والمصالح اللاحقتين قد صبغتا الكثير من هذه الروايات... ومع ذلك يمكن القول بوجه عام أن محاولته الإصلاح الديني في بلدته قد فشلت...

وقد ثابر محمد ﷺ في سعيه إلى العثور على ميدان جديد لنشاطه خارج مكة رغم استقباله السيّء في الطائف... وقد كانت تفد إلى مكة قبائل عديدة لِحضور أسواق الربيع والخريف، وكذا لأداء شعائر الحج عند الكعبة، و هو ما هيّأ لمحمد فرصا ممتازة كي يحاول العثور على موطن جديد لنفسه ولأتباعه، وبعد عدّة مفاوضات فاشلة، وَجَد تربة طيبة لِمطامحه في بعض رجال يثرب (التي سُمّيت فيما بعد بالمدينة)، وربما سهل عليه الوصول إلى اتفاق معهم وجود أقارب له فيها.

من حسن الحظ أن لدينا معلومات عن الأحوال في المدينة عشية ظهور الإسلام، غير أنّها لا تزال معلومات قليلة لا توفر إجابات عن الكثير من الأسئلة المهمة، غير أنه يمكننا أن نفترض أن كثرة عدد اليهود بها ساهمت في إلْمام سكانِها العرب بفكرة التوحيد...

لقد كان المسلمون على حقّ إذ اتخذوا من سَنَة هجرة محمد ﷺ وأتباعه من موطنه بِمكة إلى يثرب (المدينة، أو مدينة النبي) بداية لتقويمهم. فقد كانت بداية مرحلة دامت عشر سنوات من حياة محمد ﷺ أسّس خلالها مجتمعا دينيا جديدا نَما في فترة قصيرة للغاية فأضحى نواة إحدى الحضارات الكبرى في تاريخ العالم»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– جاء في مادة "**الأوس**" [فقرة: 1]: «قبيلة بالمدينة... ولم يكن للأوس نصيب في المفاوضات الأولى التي جرت في مكة بين محمد وبين أهل المدينة؛ ولكنهم اشتركوا في العهد الذي عاهدوا فيه بحماية النبي والذي مهد السبيل لاستيطان محمد المدينة»[3]. المحرر هو المستشرق: **ركندورف**-Reckondorf[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9124-9127.

[2]– سبقت ترجمته: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/150-151.

[4]– سبقت ترجمته: ص249.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- الدعوة في مواسم الحجّ: لَمّا استحكمت عداوة قريش لرسول الله ﷺ وأصروا على خلافه وإيذائهم له ولأصحابه، وأَبَى أهل الطائف نصرته والدخول في دعوته، يَمّم ﷺ وجهه إلى قبائل العرب الأخرى في أسواق التجارة ومواسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة؛ فلم يَدَع رسول الله ﷺ فرصة تفوته للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة، فكان يعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به، ويتركوا عبادة الأوثان، ويستمعوا إلى هدي القرآن، وأن يتابعوه ويمنعوه حتى يبلّغ رسالة الإسلام[1].

لكنّ كفار قريش واجهوا سعي الرسول ﷺ بضروب من الدعاية الكاذبة لصدّ الناس عنه، فكان عمّه أبو لهب يَمشي وراءه في المواسم والأسواق ويقول: لا يَغْلِبَنّكم هذا عَنْ دينكم ودين آبائِكم، إنّه صابئ كاذب[2]، وكان أبو جهل ربّما فعل مثل ذلك أحيانا[3]، بل كان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة؛ فيزوّده قومه بهذه الوصيّة: "احذر غلام قريش لا يفتنك!"[4].

فكان نتيجة تلك الدعايات المشوّشة أنْ أعرضت القبائل عن إجابة الرسول ﷺ لدعوته، وردّه بعضهم ردّا قبيحا، وقد شاء الله تعالى أن يدّخر فضل الاتّباع والنصرة للأنصار ﷺ[5].

ومن القبائل التي أتاها الرسول ﷺ ودعاها إلى الله ودخل مع بعضها في مفاوضات فأبت الاستجابة له: "فزارة" و"مرة" و"حنيفة" و"سليم" و"كندة" و"بنو عامر بن صعصعة" وغيرهم؛ فما وجد في هؤلاء قلبا مفتوحا، ولا صدرا مشروحا، بل كان الراحلون والمقيمون يشيرون إليه بالأصابع، ويتواصون بالبعد عنه[6].

ويلخصّ جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ هذه المرحلة من دعوة النبي ﷺ فيقول: «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، بعكاظ ومجنّة في المواسم بِمنى، يقول: ((من يؤوينِي، من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟))؛ حتّى إن الرجل لَيَخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفْتِنك، ويَمشي بين رحالِهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله له من يثرب، فآويناه وصدّقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويُقرِئه القرآن، فينقلب إلى

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 422/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 429/1. وفقه السيرة، الغزالي، 139.

[2]- عند أحمد والبيهقي، سبق تخريجه: ص358.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 346/4.

[4]- ينظر: مسند أحمد، 347/22. ودلائل النبوة، البيهقي، 442/2. وفقه السيرة، الغزالي، 140.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 424/1-425. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 431/1.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 424/1-425. وشرح الزرقاني على المواهب، 73/2. وفقه السيرة، الغزالي، 140.

أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يَبق دارٌ من دور الأنصار إلاّ وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام»[1].

• **الاستدراك على "بول -Buhl"**: لكن يرى المستشرق "بول-Buhl" في مطلع نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ" أنّ الروايات زايدت وضخّمت هذه الأحداث التي سبقت الهجرة النبوية إلى المدينة، مع أنّ "بول -Buhl" نفسه يذكر هذه الأحداث بالتفصيل ويصّحح بعضها -كما سيأتي الكلام على بيعة العقبة-[2]، كما أنّه لم يبيّن ما هي الأغراض والمصالح التي سبغت هذه الروايات وأثّرت فيها، فكلامه فيه تعميم وغموض زيادة على عدم التدليل عليه، مِمّا يجعله قولا بعيداً عن المنهج العلمي الواضح في طرح القضايا ومعالجتها، إضافة إلى الأغراض الاستشراقية للتشكيك في حقائق السيرة النبوية والتي أمعن فيها "بول-Buhl" أكثر من غيره، فنجده هنا يتجاسر على التشكيك في روايات هذه المرحلة -دون تحديد أو دقة-، ثم نجده بعد ذلك في النص نفسه يتحمّس لتصحيح رواية من روايات هذه المرحلة، وما ذلك إلاّ لتذبذب معايير التصحيح والتضعيف عند المستشرقين وعدم خضوعها لقواعد علمية واضحة، فنجدهم يصحّحون ما شاءوا من أجل توظيفه في خدمة أهوائهم وأهداف المدرسة الاستشراقية الرامية للتشكيك في حقائق الإسلام، كما يضعّفون ما شاءوا لكونه مصادما لأهدافهم، وهذا ما يبيّنه الشيخ أحمد شاكر بقوله: «إن المطّلع على أقوال هؤلاء الناس [أي: المستشرقين] يَرَاهم يَقبلون من الأحاديث أضعفها إسناداً وأوهاها رواية، إذا وافق رأيَهم وهَواهم، وإن كان في كتاب من كتب التاريخ أو السير أو غيرها بدون إسناد، ويَحكمون بالكذب والوضع على أكثر الأحاديث الصّحاح، بِما أجمع المسلمون على صحته وثبوته، ولن تَجِد لهم قاعدة أو خطّة يسيرون عليها في قبول الأحاديث أو رفضها... ولكنّ القوم لا يَرمون إلى التّحقيق العلمي، والبحث العقلي وإنّما يرمون إلى التشكيك؛ ثم إلى الشّكّ»[3].

ثانيا- الردّ على عبارة الفشل في وصف "بول-Buhl" للحادثة: لا يُمكن اعتبار ما جاء في تلك المحاولات التي قام بِها الرسول ﷺ **"مفاوضات فاشلة"** كما قال المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:32" لِما يلي:

[1]- أنّ تلك المحاولات والمفاوضات تكلّلت بالنجاح وتحقيق الهدف المرجو.

---

[1]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 22/346-347. **والحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 2/681؛ واللفظ لأحمد، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[2]- ينظر: ص481.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/591؛ في تعقيبه على مادة "الله".

[2]– أنّ الفشل في حقيقة الأمر هو ما يؤدّي إلى اليأس والتوقف عن السعي لتحقيق الهدف المنشود، أمّا الإصرار والمضيّ قدُما رغم المعارضة والعقبات فهو النجاح بعينه حتّى ولو لم يتحقّق الهدف المراد، فكيف وقد حقّق النبي ﷺ هدفه على أكمل وجه وأبلغ صورة؛ فوجد الأتباع المخلصين، من أهل المدينة الذين آمنوا به وآووه في ديارهم ونصروه حتّى بلغ الرسالة وأدّى الأمانة.

[3]– مع كلّ ما واجه النبي ﷺ من إعراض الناس عن دعوته فإنّه ﷺ لم يخامر اليأس قلبه، واستمرّ مثابرا في جهاد الدعوة[1] إلى دين الله عز وجل، و"كذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة" كما قال "هرقل" النصراني –ملك الروم وكان عنده علم بالكتب السابقة– في حديث ابن عباس المشهور[2]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: 110].

كما لا يمكن القول أنّ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فيها دلالة على فشل دعوته في بلدته، بل الصواب الذي يفرضه المنطق الصحيح والعقل الصريح هو القول بنجاح دعوته قبل الهجرة وبعدها؛ لِما يلي:

[1]– أنّ الهجرة إلى المدينة جاءت بعد إسلام الكثير من أهل مكة من: الأحرار والعبيد والموالي وأهل الشرف وغيرهم، وإنّما أعاق الدعوة بمكة نفر من ذوي النفوذ والجاه الذين سعوا جاهدين من أجل تشويه صورة الإسلام والنبي ﷺ بالدعاية الكاذبة والمضلّلة داخل مكة وخارجها.

[2]– أنّ دعوة النبي ﷺ قبل الهجرة كان لها أتباع خارج مكة المكرمة أيضا؛ كالحبشة[3] والطائف[4]، كما أسلم عدد من أشراف بعض القبائل خارج مكة كـــ: أبي ذر الغفاري ﷺ من قبيلة غفار[5]، وضماد الأزدي ﷺ من أزد شنوءة باليمن[6]، كما بلغت دعوته ﷺ عالَم الجن وسمعوا منه القرآن[7]، ثم آمن به بعد ذلك جلّ أهل المدينة التي هاجر إليها فآواه أهلها وآمنوا به ونصروه حتى بلّغ الرسالة.

[3]– لقد كان المسلمون في الهجرة إلى المدينة يخرجون إلى قوة يتجمعون بها، فهم لم يخرجوا فارين بدينهم فحسب، كما في هجرة الحبشة، بل هم في هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى، وفي ذلك فرق واضح بين هجرتي الحبشة وهجرة النبي ﷺ إلى يثرب[8].

---

[1]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 140.

[2]– عند البخاري ومسلم سبق تخريجه في: ص234.

[3]– من ذلك: إسلام النجاشي وإيواؤه لكثير من مسلمي مكة في أرضه، كما سبق: ص407-412.

[4]– من ذلك إسلام الغلام النصراني "عداس" كما سبق: ص429.

[5]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 208/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 85/4-90.

[6]– ينظر: البداية والنهاية، 92/4. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 145/1.

[7]– بعد رجوعه ﷺ من الطائف؛ سبق ذكر ذلك في: ص433.

[8]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 608/1.

لذلك لم تكن الهجرة إلى المدينة مجرد نجاة من عدو، أو هروب من محنة؛ بل كانت الهجرة فاتحة تاريخ جديد، وكانت بالنسبة للمسلمين في الأرض، ابتداء وجودهم وتاريخهم[1].

وهذا الأمر نفسه هو ما عبّر عنه "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" بقوله أنّ الهجرة "**كانت بداية أسّس خلالها محمد ﷺ مجتمعا دينيا جديدا أضحى نواة إحدى الحضارات الكبرى في تاريخ العالم**"؛ فإذا قارنا هذا الكلام الذي يبيّن فيه المستشرق "بول" - بعبارة بديعة- ما قدّمته الهجرة من نصر لدعوة الرسول ﷺ، مع قوله السابق الذي يوحي بأنّ الهجرة تعبّر عن فشل دعوة النبي ﷺ؛ تبيّن مدى التناقض والارتباك الذي اكتنف تحليله لقضية الهجرة، وأنّ قوله يردّ بعضه بعضاً.

[4]- أضف إلى ذلك أنّ التأريخ بالهجرة يوحي بأهميتها الحاسمة في دعوة الإسلام؛ يقول أكرم العمري: «فالهجرة حدث عظيم استحق أن يكون بداية العام الهجري الجديد عند المسلمين منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التقويم الهجري»[2].

وهو ما ذكره المستشرق "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" عندما قال بأنّ "**المسلمين كانوا على حقّ إذ اتخذوا من سَنَة الهجرة بداية لتقويمهم**"؛ في إشارة منه إلى أهمّية الهجرة في مسار الدعوة النبوية، وهذا نقض آخر من "بول-Buhl" نفسه لوصف الفشل الذي أطلقه من قبلُ.

[5]- إنّ المتأمل في كلام المستشرق يلاحظ أنّ معايير النجاح والفشل عنده مختلّة، أو أنّه يحاول أنْ يُموّه الحقائق على القارئ، ويلبس الحق بالباطل عمداً لأغراض استشراقية معروفة، حتّى ولو كان كلامه كمن يريد إخفاء ضوء الشمس في رابعة النهار؛ لذا كان تمويهه مكشوفا لكلّ قارئ مهما كان مستواه المعرفي، ذلك أنّ ما حقّقه النبي ﷺ من انتصارات لدعوة الإسلام بعد هجرته إلى المدينة، ثمّ دخول الرسول ﷺ إلى مكة فاتِحا بتلك القوة والسماحة العظيمتين، لا يبقى لأيّ عاقل أدنى حجّة يستقيم معها القول البتة بفشله في تلك المرحلة، دون ربطها بالمرحلة التي تلتها، وما كان فيها من نجاحات عظيمة أدّت إلى أنْ تصير تلك البلدة "مكة" التي أخرج أهلها رسول الله ﷺ وأصحابه المدينةَ الأولى في الإسلام، بعد أن أسلم أهلها وصار مسجدها قبلة لجميع المسلمين وإليه يحجّون.

[6]- ثم هل يستقيم القول بأنّ عدم إيمان الناس بنبيّ من الأنبياء يعدّ فشلا ؟!

[7]- كما أنّ الهجرة من مكان إلى مكان من أجل تبليغ الدعوة والبعد عن أذى الكفار والمعاندين أمر يشارك فيه النبيُّ محمد ﷺ كثيراً من الأنبياء السابقين له؛ فمثلا هاجر: إبراهيم عليه السلام من العـــراق إلى الشام من أجل تبليغ الدعوة[3].

---

[1]- فقه السيرة، منير الغضبان، 342.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، 234/1. وينظر في التأريخ بالهجرة: البداية والنهاية، ابن كثير، 510/4-512.

[3]- ينظر: تفسير البغوي، 296/3-297. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 578/2.

كما كانت مدينة القدس مُهاجَر الأنبياء قبل الرسول محمد ﷺ[1]؛ فهل يعدّ ذلك فشلا؟! كلاّ؛ بل ذلك من سنن الله تعالى في الخلق ومن هدي الأنبياء والمرسلين في مسيرة دعوتهم.

[8]- ثُمّ إنّ المستشرق "بول -Buhl" نفسه يذكر أنّ النبي ﷺ **"ثابر في سعيه"** إلى أنّ حقّق هدفه، بيد أنّه اختار عبارة "الفشل" غير المقبولة للتعبير عن جهاد النبي ﷺ لتبليغ الدعوة، وكرّرها مراراً، فاستعملها من قبل في الكلام على رحلته ﷺ إلى الطائف، ثم في دعوة الناس في المواسم، ثم عند الكلام على الهجرة، ولو استعملها مرة فحسب لأمكن الاعتذار له.

يلاحظ من النقاط السابقة أنّ المستشرق "بول-Buhl" عندما يُحاول أن ينسب بعض مُحاولات النبي ﷺ في سبيل تبليغ الدعوة - والتي يشاركه فيها كثير من الأنبياء- إلى الفشل؛ يعتمد **"منهجيةَ الانتقاء الكيفي"** في التعامل مع حقائق السيرة النبوية، وهي منهجية فاشلة، لأنّه لن يستطيع بموجبها أنّ يُخفي انتصارات الدعوة المحمدية.

وحتى لو كان ما ذكره فشلا - وفق تعبير المستشرق الذي لا نقرّه-؛ فهو الفشل الذي يأتي بعده النصر المبين، ولن يستطيع المستشرق "بول-Buhl" أن يقنع أيّ عاقل بأنّه فشل خالص ما دام التاريخ والواقع يشهدان على ما كان بعده من النصر والظهور على الأعداء، بل وتحول كثير من المخالفين إلى أتباع وموافقين مخلصين.

ثالثا- بداية إسلام الأنصار:

[1]- اللقاء الأول للنبي ﷺ بنفر من الأنصار من الخزرج: لَمّا أراد الله سبحانه إظهار دينه وإعزاز نبيّه وإنجاز وعده؛ خرج رسول الله ﷺ في موسم الحج، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة ساق الله نفرا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فكانوا طلائع هذا النور الذي أبى الله إلا أن يكون من المدينة[2].

حيث جاء في رواية ابن إسحاق أن: البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد من الخزرج في موسم الحجّ عند عقبة منى[3]؛ فلما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج.

---

[1]- ينظر: تفسير البغوي، 471/1. وفتح القدير، الشوكاني، 417/1. والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 84/10.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 428/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 434/1.

[3]- كان ذلك في: السنة الحادية عشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات. وذكر ابن إسحاق: أنهم كانوا ستة نفر من الخزرج. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 429/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 521/3.

قال: أَمِن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا: بلى؛ فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأجابوه وأسلموا[1].

[2]- تَهيئة الله تعالى الأنصارَ لاستجابة دعوة النبي ﷺ: كان من أسباب مسارعة أهل يثرب إلى قبول دعوة الإسلام -كما في تتمّة رواية ابن إسحاق السابقة-: أن اليهود كانوا يسكنون معهم في المدينة، ومعلوم أنّهم أهل كتاب وعلم، بينما هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانت تقع بين اليهود وبين الأوس والخزرج وقائع وحروب، فكان إذا وقع شيء منها قالت اليهود لهم: «إن نبيا مبعوثا الآن قد أظلّ زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم»؛ فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله تعالى، قال بعضهم لبعض: «تعلمون -والله- أنه النبي الذي توعّدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه»؛ فلا عجب أن أسرعوا إلى إجابته، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم، وندعوهم إلى الإسلام ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك[2].

فهذه الرواية تقدم بعض المعطيات عن أحوال المدينة قبل الهجرة النبوية والتي من أهمّها:

أ)- أنّ أهل يثرب كانوا يمتازون عن سائر العرب بمجاورتهم لليهود وإلفهم عقيدةَ التوحيد[3]، كما أشار إلى ذلك المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ"؛ وهذا يعني أن لا غرابة على أذهانهم الحديثُ عن الله تعالى وكتبه ورسله لِما يسمعونه دائما من اليهود، وقد كان الخزرج مهيَّئين نفسيا تَهيئة تامة لسماع حديث الإسلام، فقد كانوا يحسّون دائما بالحسرة أمام اليهود، فهم أميون ليس عندهم رصيد يواجهون به اليهود فيقفون أمامهم مبهوتين لا يدرون ما يقولونه، ولعلّ هذا الشعور الذي امتلأت به نفوسهم كان من الأسباب التي جعلت قلوبهم مستعدة لقبول الإسلام[4].

ب)- كما كان بين الأوس والخزرج صراع قوي على المجد المادي والأدبي في مدينة يثرب، أوجدته العصبية الجاهلية، كثيرًا ما أدى إلى حروب دامية بينهما، ولعل استشعار الأنصار حاجتَهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها تلك الحروب، لعل ذلك كان سبباً هيَّأه الله تعالى لإسلامهم[5].

---

[1]- من رواية: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 428/1. عن "عاصم بن عمر بن قتادة المدني" -وهو تابعي ثقة وإمام في المغازي- عن أشياخ من قومه؛ يعني: من الصحابة، والحديث **حسن** حيث صرّح ابن إسحاق بالتحديث، كما ذكر العمري في "السيرة الصحيحة، 196/1" والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 106".

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 428/1-429. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 434/1-435.

[3]- فقه السيرة، الغزالي، 142.

[4]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 153/1-154. والقول المبين، محمد النجار، 162.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 368/4. والقول المبين، 161. والسيرة النبوية الصحيحة، 196/1.

ثم ذكر ابن إسحاق قيام أولئك النفر من الخزرج بالدعوة في المدينة؛ فكانوا طليعة الدعاية الموفقة للإسلام في يثرب التي أثمرت سريعا وفشا الإسلام في المدينة[1].

هذا اللقاء هو الذي أشار إليه المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأوس" وذكر أنّه لم يكن للأوس "**نصيب في تلك المفاوضات**" -كما دلّت عليه الرواية-، بينما شاركوا في العهد الذي جاء بعدها ويقصد بذلك: بيعة العقبة الأولى والثانية الآتي ذكرهما، فكانوا فيها جنبا إلى جنب مع الخزرج.

المطلب الثاني : بيعة العقبة الأولى والثانية

الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 33]: «**وبعد أن أقام محمد ﷺ علاقات مع بعض أهل المدينة القادمين إلى مكة للحج عام (621م)، بدأ هؤلاء في نشر الإسلام في المدينة جنبا إلى جنب مع رجال أرسلهم هو إليها. وهكذا تمكن بعد اجتماع تَمهيدي في العقبة من أن يعقد خلاله حج العام التالي (سنة 622م) وفي المكان ذاته، اتفاقا رسميا مع عدد كبير من أهل المدينة، تعهدوا فيه نيابة عن مواطنيهم أن يأخذوه عندهم وأن يحموه حمايتهم لأيّ منهم، وهو تعهد يسري أيضا – كما أوضح التاريخ اللاحق – على أتباعه المكيين متى هاجروا إلى المدينة، ولا شك في أن الروايات مصيبة إذ لم تذكر سوى وعد أهل المدينة بحماية محمد ﷺ دون التزام بأمر سواه. وما كان بالوسع أن تبقى هذه المفاوضات سرًّا على أهل مكة. فما علموا بها حتى أثارت مرارة شديدة، وبدأت – على حد قول عروة – فتنة ثانية تعرض لها المؤمنون، لابد أنها ثبّتت عندهم قرار الهجرة إلى المدينة**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

– وفي مادة "**البراء بن معرور**": «**من صحابة النبي، وهو واحد من الأنصار الخمسة والسبعين الذين اجتمعوا في موسم الحج عند العقبة في صيف سنة (622م) ليحالفوا النبي. وكان البراء بن معرور الخزرجي شيخا مسنّا وله مقام كبير، ولَمّا قال النبي إنه يريد أن يعاهدوه على أن يمنعونه مِمّا يَمنعون منه نساءهم وأبناءهم أخذ البراء بيده وعاهده على ذلك باسم الحاضرين جميعا وبايعه.**

وفي هذا الاجتماع نفسه الذي سُمّي باسم بيعة العقبة الثانية اختير اثنا عشر نقيبا من الجالية الجديدة في يثرب وجعل البراء بن معرور زعيما لبني سليمة»[4]. المحرر هو المستشرق: **نسترشتين**-Zetterstèen[5].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 430/1. وفقه السيرة، الغزالي، 146.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9127/30.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 481/3.

[5]– سبقت ترجمته في: ص112.

– وفي مادة "**بشر بن البراء**": «**صحابي اشترك وأبوه البراء بن معرور في بيعة العقبة الثانية**»[1].

المحرر هو المستشرق: **نسنرشنين**-Zetterstèen.

– وفي مادة "**حواري**": «**ونحن نجد في الوقت نفسه أن صيغة الجمع "الحواريون" تطلق على اثني عشر شخصا، يقال إن محمدا في بيعة العقبة الثانية (أو شهود هذه البيعة) أقامهم نقباء على أهل المدينة قائلا لهم: (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي)، كما أننا نجد الأثر النصراني شائعا في غير ذلك من أخبار هذه البيعة، فقد تواتر القول بأن مجموع من شهدها بلغ سبعين أو اثنين وسبعين شخصا، وجليّ أن هذه الأخبار تقيس في ذلك على الروايات الإنجيلية الخاصة بالحواريين السبعين أو الاثنين والسبعين (إنجيل لوقا، الإصحاح 10، آية 1 ، 17)**.

ويقال أن من الحواريين الإثني عشر تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، هم: سعد بن عبادة، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن أبي خيثمة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وأبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصلت، ورافع بن مالك.

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الحواريين كلهم من قبيلة قريش وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام»[2]. المحرر هو: **فنسنك**-wensinck[3].

– وفي مادة "**سعد بن عبادة**" [فقرة: 1]: «**من صحابة النبي ﷺ... ونحن نلتقي به أول ما نلتقي في تاريخ الإسلام في أخبار بيعة العقبة الثانية، فقد ذُكر ضمن الرجال التسعة من الخزرج الذين اختيروا "نقباء" للمؤمنين الجدد بالإسلام**»[4]. المحرر هو المستشرق: **نسنرشنين**-Zetterstèen.

– وجاء في مادة "**سعد بن معاذ**" **الأوسي**: «**... وقد دخل سعد في الدين الجديد بفضل مصعب بن عمير الذي صحب الإثني عشر رجلا من المدنيين الذين اشتركوا في بيعة العقبة الأولى عند عودهم إلى بلدهم، وقام بدعوة ناجحة للإسلام فيها**»[5]. المحرر هو المستشرق: **نسنرشنين**-Zetterstèen.

– وفي مادة "**عبد الله بن رواحة**"[فقرة: 1]: «**وكان أحد النقباء الإثني عشر في بيعة العقبة الذين لهم يد غراء في إسلام أهل المدينة**»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **شاده** - A.Shaade[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 656/3.

[2]– المصدر نفسه، إص1، 137/8.

[3]– سبقت ترجمته في: ص49.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 407/11.

[5]– المصدر نفسه، إص1، 410/11.

[6]– المصدر نفسه، إص3، 7167/23.

[7]– سبقت ترجمته في: ص234.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا– بيعة العقبة الأولى: جرت بيعة العقبة الأولى في العام التالي على لقاء وفد الخزرج، حيث حضر اثنا عشر رجلاً؛ **عشرة من الخزرج واثنان من الأوس**، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى لكنهم تمكنوا بنفس الوقت من اجتذاب رجال من الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[1].

وبيعة العقبة الأولى هي التي عناها المستشرق "بول" في مادة "محمد ﷺ" في قوله "**اجتماع تَمهيدي في العقبة**"، وذكر أنّها "كانت عام (621م)"، وهو ما يوافق العام الثاني عشر من البعثة[2].

لَمّا تَمّت بيعة العقبة الأولى، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه –وهو قرشي من أهل مكة– ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام بمعاونة أسعد بن زرارة –وهو من أهل المدينة–، وأسلم على يديهما "سعد بن معاذ" –وهو من سادات يثرب آنذاك– كما ذكر "تسترشتين–Zetterstéen" في مادة "سعد بن معاذ"، ثم رجع "مصعب" إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية[3]، وهذا ما عناه "بول–Buhl" بقوله: "**بدأ هؤلاء في نشر الإسلام في المدينة جنبا إلى جنب مع رجال أرسلهم هو إليها**".

ثانيا– بيعة العقبة الثانية وأهدافها: لَمّا انتشر الإسلام في المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، قدم وفد من الأنصار في موسم الحج التالي فبايعوا بيعة العقبة الثانية[4].

وفيما يلي بيان لبعض تفاصيل الحادثة مقتصرا في ذلك على ما جاء في نصوص المستشرقين السابقة:

[1]– ذكر المستشرق "بول–Buhl" أنّها "كانت عام (622م)"؛ وهو ما يوافق العام الثالث عشر للبعثة، أمّا تحديدها باليوم والشهر فكانت في: أوسط أيّام التّشريق، وهي ليلة الثّاني عشر مِن ذي الحجّة قبل الهجرة بأشهر[5].

[2]– كان عدد من حضر العقبة الثانية: خمسة وسبعون مسلمًا من الأنصار، ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان؛ منهم: اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس[6].

كذا جاء في رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه الآتي ذكرها.

---

[1]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 374/4. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 197/1.

[2]– ينظر: السيرة الحلبية، الحلبي، 521/3. والقول المبين، محمد النجار، 161.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 434/1–437. والسيرة النبوية الصحيحة، 198/1.

[4]– ينظر: البداية والنهاية، 394/4. والسيرة النبوية الصحيحة، 198/1.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، 513/4. والسيرة الحلبية، 521/3. والقول المبين، 161.

[6]– ينظر: البداية والنهاية، 400/4. والقول المبين، 166.

[3]– من الذين حضروا بيعة العقبة الثانية على ما ورد في مواد متفرقة من "الدائرة":

– "**البراء بن معرور**" وابنه "**البشير**" رضي الله عنهما: كما في مادتي "البراء بن معرور" و"البشير بن البراء"، وكان "البراء" سيد وفد الأنصار وزعيمهم يومئذ، وهو أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ –على خلاف في ذلك– ثم بايع بعده القوم[1].

– كما شارك في هذه البيعة أيضا: "**سعد بن عبادة**" و"**عبد الله بن رواحة**" كما المادتين المذكورتين آنفا باسميهما في "الدائرة".

وهؤلاء الثلاثة "البراء" و"سعد" و"ابن رواحة" ﷺ كانوا من النقباء الإثني عشر في العقبة الثانية، وبقيّة الإثني عشر هم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، ورافع بن مالك بن العجلان، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، والمنذر بن عمرو ﷺ؛ وهؤلاء التسعة من الخزرج.

وكذا: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، وأبو الهيثم بن التيهان ﷺ؛ وهؤلاء الثلاثة من الأوس[2]، وقد سرد أسماءهم المستشرق "فنسنك" في مادة "حواري".

[4]– بعد أن تَمت بيعة العقبة الثانية طلب الرسول ﷺ اختيار اثني عشر زعيما يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عليهم في تنفيذ بنود هذه البيعة ، حيث جاء في رواية كعب بن مالك ﷺ –وهو أحد المشاركين فيها–: «قال رسول الله ﷺ: ((أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ))، فأَخْرَجوا منهم اثْنَيْ عشَر نقيبًا، تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوس»[3]، ثم روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر: «أنّ رسولَ الله ﷺ قال لِلنُّقَباء: ((أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءُ، كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي))– يعني المسلمين– قالوا: نعَمْ»[4].

[5]– اتّخذ المستشرق "فنسنك–Wensinck" من عدد المشاركين في العقبة الأولى والثانية ذريعةً للقول بأنّ هذه الرواية التي وردت في السيرة تأثّرت بالروايات النصرانية، معتمدا في ذلك على منهجية "**المقابلة والمطابقة**" التي تقدّم الكلام على وهنها مراراً، كما أنّ استنتاجه هذا لا يستقيم لأمور:

أ)– لو أجرينا مقارنة يسيرة بين القصّتين لو جدنا اختلافا كبيرا بينهما من حيث: الظرف الزماني والمكاني الذي حصلتا فيه، وكذا في وقائع القصتين ومجريات أحداث كلّ منهما، بل حتى في مهام الإثني عشر أو السبعين رجلا في القصتين؛ فبيعة العقبة كان المقصد منها البيعة على الطاعة والنصرة

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 439/1 و447.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 443/1–444. والبداية والنهاية، 403/4. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 451/1–452.

[3]– أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 443/1. و**أحمد**، المسند، 93/25. والحديث حسن كما في تحقيق "المسند" وتخريج الألباني "فقه السيرة للغزالي، 150"، وصحّحه ابن حبان كما ذكر ابن حجر "فتح الباري، 276/7".

[4]– أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 446/1؛ وهو مرسل.

وما إلى ذلك مما سبق بيانه، أمّا مهامّ الإثني عشر والسبعين في "إنجيل لوقا" فكانت الدعوة والتبليغ في ظروف وأحوال مختلفة تماما عن قصة العقبة كما هو ظاهر في سياق القصّة من "إنجيل لوقا"[1]، وإنّما هناك تشابه طفيف بين القصتين في العدد فحسب، ومن العجب أن يتهافت مستشرق كبير كـــ"فنسنك-Wensinck" إلى القول بالاستنتاج السابق اعتمادا على مثل هذه المقارنة السطحية الظاهرة البطلان.

ب)- وحتى التشابه السطحي في العدد الذي استند إليه "فنسنك-Wensinck" غير موجود؛ ذلك أنّ الروايات الإنجيلية تذكر اثنين وسبعين رجلا[2] أمّا أصحاب العقبة ففي عددهم خلاف، والأصح أنّهم كانوا خمسة وسبعين كما قرّر ابن إسحاق وابن كثير[3]، ولو كان الرواة المسلمون نسجوا هذه القصة عن النصارى -كما زعم- لَما اختلفوا في عددهم.

ج)- ثم متى كان وجود بعض التشابه بين الوقائع التاريخية دليلا على بطلان أحدهما، وإنّما هو منهج واهٍ اخترعه المستشرقون للطعن في كثير من حقائق السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، يقول الشيخ أحمد شاكر في هذا المعنى: «... **فإن هذا لا يصلح دليلا على الشك في صحة ما ورد في التاريخ الإسلامي، والتاريخ تتشابه أحداثه؛ فلا ينفي المتقدم المتأخر، ولا ينفي المتأخر المتقدم**»[4].

بل يمكن القول أنّ التشابه بين بعض وقائع التاريخ أحيانا -وهو تشابه جزئي غالبا- قد يكون دليلا على اعتضاد أحدهما بالآخر وتصديقه له، وهذا ما يقرّره المستشرق "درمنغم-Dermenghem" عندما يقول: «فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، **بدلاً من أن يؤيّد أحدهما الآخر؟!**»[5].

[6]- ذكر المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ": أنّ الروايات لم تذكر سوى مبايعة الأنصار على الحماية، وهذا غير صحيح؛ لأنّ الروايات التي تحدثت عن بيعة العقبة أفادت أنّ البيعة تضمنت بنوداً أخرى زيادة على الحماية والنصرة، حيث جاء في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: «فرَحَل إليه مِنّا سبعون رجُلاً حتّى قَدِموا عليه في الْموسِم، فواعَدْناهُ شِعْبَ العَقَبة، فاجْتَمَعْنا عندهُ من رجُلٍ ورَجُلَيْن حتّى تَوافَيْنا، فقُلنا: يا رسولَ الله، علامَ نُبايعُك، قال: ((**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا**

---

[1]- ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا، 106-110.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، إنجيل لوقا، 109.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، 400/4.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 486/5؛ في تعقيبه على مادة "تميم الداري".

[5]- The life of Mohamet , Dermenghem, X.

فِي اللهِ، لا تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ))، قال: فقُمْنا إليه فبَايَعْناه...»[1].

صحيح أنّ حديث كعب بن مالك ﷺ –الذي سبق قريبا شطر منه[2]– لم يذكر سوى المبايعة على النصرة، حيث جاء فيه: أن الرسول ﷺ قال: ((أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ)) ؛ ولعل اقتصار حديث كعب بن مالك ﷺ على ذكر مبايعة الحماية فقط هو ما أوقع المستشرق "بول-Buhl" في هذا الوهم، ففاته أنّه جاء في حديث آخر – هو حديث جابر ﷺ– ذكر المبايعة على أمور زيادة على النصرة، ثم ما دعّم وهمه أيضا إيراد ابن إسحاق لِحديث "كعب" ﷺ في "سيرته (بتهذيب ابن هشام)" المشهورة بينما لم يورد حديث "جابر" ﷺ الذي تضمن تلك الزيادة.

وحتى لو اعتبرنا البيعة لم تذكر سوى الحماية، فما هو مقصد النبي ﷺ من طلب الحماية؟

جاء هذا المقصد موضّحا في الروايات بنصِّ النبي ﷺ، حيث ورد في مطلع حديث جابر ﷺ: أن الرسول ﷺ كان يخاطب النّاس فِي المواسم والأسواق، فيقول: ((مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؛ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ؟))[3]، وفي رواية أخرى عن جابر ﷺ أيضا: أنّ مِمّا خاطب به رسول الله ﷺ الناسَ في الموقف، قوله: ((هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي))[4]؛ فأفادت هذه الروايات: أنّ **طلب الحماية** كان **لأجل التمكن من تبليغ** الدعوة.

ولعلّ سبب تحمس المستشرق "بول-Buhl" لتصحيح تلك الرواية[5] على غير عادته في التشكيك في الروايات الصحيحة للسيرة النبوية، هو أنّه حاول أن يوحي من خلالها أنّ مقصد النبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة كان حمايته من أذى قومه فحسب، بمعنى أنّ هدفه كان هدفا ماديا محضا؛ لذلك أوردتُ بقية بنود البيعة زيادة على الحماية، ثم بيّنت مقصد النبي ﷺ من طلب الحماية، حتّى يتّضح أنّ هدف النبي ﷺ من الهجرة هو هدف دعويّ وروحيّ؛ ألا وهو تبليغ الدعوة وأداء رسالة الإسلام بعيدا عن مضايقات المشركين، وهذا الهدف يحتاج إلى حماية ونصرة حتّى يتحقّق؛ وهو ما كان بالفعل.

[7]– أشار المستشرق "بول-Buhl" إلى وصول خبر بيعة العقبة الثانية إلى كفار قريش وما كان منهم من ردّة فعل عنيفة تجاه ما حصل.

---

[1]– عند **أحمد والحاكم** سبق تخريجه في: ص475-476.

[2]– تقدّم قبل صفحتين.

[3]– جزءٌ من الحديث السابق.

[4]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب فضائل القرآن، 195/8. **والحاكم**، المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، 669/2؛ واللفظ للحاكم. والحديث صححه الترمذي، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[5]– أي: رواية كعب بن مالك التي لم تذكر سوى المبايعة على الحماية –كما سبق قريبا–.

وبيان ذلك: أنّه بعدما تَمّت بيعة العقبة الثانية بلغ خَبَرُها كفّارَ قريش، لكن لم يتسنّ لهم التأكد من الخبر إلاّ بعد مسير وفد الأنصار إلى المدينة فخرجوا في طلبهم وأدركوا رجلين منهم، أفلتَ أحدهما منهم، أما الثاني وهو سعد بن عبادة ﷺ فأمسكوه ورجعوا به إلى مكة، وضربوه وعذبوه إلى أن أجاره بعض أهل مكة ممن يعرفهم فأطلق سراحه ثم عاد إلى المدينة[1].

وروى عروة بن الزبير -كما ذكر "بول-Buhl"-: اشتداد البلاء على المسلمين من المشركين بعدما كان من أمر العقبة، حيث نالهم من الأذى المادي والمعنوي ما لم ينلهم من قبلُ حتّى هَفَت نفوسهم إلى الانتقال من تلك البيئة الفاسدة، وصاروا يشكون للنبي ﷺ ذلك، ويطلبون منه أن يأذن لهم في الهجرة إلى دار يأمنون بها[2].

لقد آلم المشركين وأقض مضاجعهم انتشار الإسلام بالمدينة هذا الانتشار السريع، فأوغلوا في إيذاء المسلمين، ونالوا منهم غاية النيل، وضيّقوا عليهم السبل والمسالك، ولهذا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة بعد ذلك[3].

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/448-450.

[2]- ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 1/175.

[3]- ينظر: إمتاع الأسماع، المقريزي، 1/55. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/457.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عـبد القادر للعلوم الإسلاميّة قسنطينة

كلية أصول الدّين

قسم: الكتاب والسّنة

تخصّص: السنة في الدراسات الحديثة والمعاصرة

رقم التّسجيل: .....

الرّقم التّسلسلي: .....

عنوان البحث

مباحث السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية"

- دراسة تحليلية نقدية -

رسالة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في: السنة في الدراسات الحديثة والمعاصرة

إعداد الطّالب:

محمـــد بن قيـــدة

إشـــراف الأستاذ الـــدكتـــور:

حميـــد قـــوفـــي

لجنـــة المناقشـــة

أ.د. مختار نصيرة	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د. حميد قوفي	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقرّرا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
د. إبراهيم بن مهية	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د. محمد السعيد مصيطفى	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة غرداية
د. نبيل زياني	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة الشادلي بن جديد الطارف
د. سامية دردوري	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة باتنة 1

(الجـزء الثاني)

السّنـــة الـــجامعيّة: 1438-1439هـــ/2017-2018م

نوقشت يوم: الأربعاء 23 شعبان 1439هـــ/ الموافق لـــ: 2018/05/09م

الباب الثالث:

وقائع العهد المدني

من الهجرة إلى الوفاة

يتضمن فصلين:

الفصل الأول: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبناؤه المجتمع الإسلامي بها

الفصل الثاني: من صلح الحديبية إلى وفاة النبي ﷺ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:
هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبناؤه المجتمع الإسلامي بها

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: خروج النبي ﷺ وأصحابه مهاجرين إلى المدينة

المبحث الثاني: وصول النبي ﷺ إلى المدينة وشروعه في الإجراءات التنظيمية

المبحث الثالث: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ونصرة الأنصار للنبي ﷺ وأصحابه

المبحث الرابع: علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب وموقفهم من دعوته

المبحث الخامس: جوانب من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مجتمع المدينة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : خروج النبي ﷺ وأصحابه مهاجرين إلى المدينة

المطلب الأول : أسباب الهجرة إلى المدينة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الأنصار**"[فقرة: 1]: «**ونجح محمد في تحبيب الإسلام إلى فريق من رجال المدينة الذين كانوا يتوجهون إلى مكة حاجين، وذلك في وقت تحرج مركزه فيه من جراء الدعوة التي كان يبشر بها، وما إن اطمأن لتأييدهم حتى هاجر إلى المدينة عام (622م) ولقي فيها هو وجماعته ما كانوا ينتظرون من عون**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف**-Reckendorf[2].

– وجاء في مادة "**الهجرة**"[فقرة: 1]: «**والسبب في ترك محمد ﷺ مكة هو فقد الدعم الذي كان يجده من "أبي طالب" بعد وفاته، وانتقال زعامة قبيلته إلى أبي لهب الذي كانت له علاقات تجارية مع ألد أعدائه من المشركين، وكان على محمد ﷺ أن يجد حماية (جوار) قبيلة نوفل بعد عودته من الطائف، مما يوحي بأن عمه أبو لهب قد رفض حمايته، وبعد عدة محاولات بذلها الرسول ﷺ ليجد بيئة لنشر دعوته، منها زيارته للطائف، استطاع أخيرا أن يعقد اتفاقا ناجحا مع ممثلي يثرب في العقبة فيما يُعرف بـــ"بيعة الحرب" لكون أهل المدينة وافقوا على حماية محمد ﷺ بقوة السلاح، لو دعت الضرورة لذلك**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M.Watt[4].

– وفي مادة "**مكة المكرمة**" [فقرة: 8]: «**لكن عمّه أبا طالب توفي حوالي سنة (619م) فترأس العشيرة عم آخر لِمحمد ﷺ هو أبو لهب الذي كان تاجرا كبيرا، وكان يرى أن من المصلحة رفع حـــماية العشيرة عن محمد ﷺ، وعلى أية حال فقد قبل الرسول ﷺ سنة (622م) الدعوة للتوجه للمدينة المنورة فهاجر إليها**»[5]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات**–M.Watt.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أشار المستشرق "وات–Watt" في مادّتَي "مكة" و"الهجرة" إلى بعض أسباب الهجرة إلى المدينة؛ والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/53-54.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/10033.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/9597.

– **السبب (1): البلاء والاضطهاد للمسلمين في مكة:** وشدة إيذاء المشركين للرسول ﷺ ولأصحابه، وقد بلغ هذا الأذى أشدّه بعد وفاة أبي عمه طالب[1]، و لم يكن عمّه أبو لهب المغالي في عداوة النبي ﷺ لِيقدم له الحماية مثل ما فعل أبو طالب[2]، كما ذكر "وات-Watt" في مادة "الهجرة".

وهو ما عبّر عنه المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأنصار" بقوله: "**وذلك في وقت تحرج مركزه فيه من جراء دعوته**".

لذا كان الرسول ﷺ يفكر دائما في طلب الحماية خارج مكة، فخرج إلى الطائف، ثم كان يسعي في المواسم وبعض الأسواق من أجل ذلك[3]، ومع أنّ جوار "المطعم" أمّن له حماية شخصية إلاّ أنّها لا تخوّل له تبليغ دعوة الإسلام كما ينبغي في مكة[4]، فكلّ تلك الاضطهادات والمضايقات مَنَعَته من تبليغ رسالة ربّه؛ لذا كان يقول ﷺ: ((هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي)) [5].

– **السبب (2): وجود حماية للدعوة بعد بيعة العقبة الأولى والثانية:** ففي هاتين البيعتيـــن وضح للرسول ﷺ أن أهل يثرب مخلصون له وللإسلام، وأنهم سيدافعون عنه وينصرونه، فقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ في العقبة الثانية على الطاعة والنصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم؛ لذلك سميت "بيعة الحرب"[6]، كما ذكر المستشرق "وات-Watt" في مادة "الهجرة".

كما تبيّن للرسول ﷺ أن المدينة قد أصبحت بعد إسلام الكثيرين من الأوس والخزرج مكانًا طيبًا يمكن أن تنمو فيه الدعوة الإسلامية وتترعرع، وأصبح للمسلمين فيها إخوان مؤمنون صادقون في دار أمن وإيمان، وإسلام وسلام[7].

وهو ما أشار إليه المستشرق "ركندورف" في قوله: "**ولقي فيها هو وجماعته ما كانوا ينتظرون من عون**".

لَمّا تهيأت هذه الظروف أمَر رسول الله ﷺ مَن معه بمكة من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، واللُّحوق بِإخوانِهم من الأنصار، لأنّ الله عزّ وجَلّ قد جَعَل لَهم إخوانًا ودارًا يأْمَنون بِها[8].

---

[1]– سبق تفصيل ذلك في: ص427 و429. وينظر: القول المبين، النجار، 173.

[2]– سبق بيان ذلك في: ص357.

[3]– ينظر ما سبق: ص475.

[4]– ينظر ما سبق: ص430.

[5]– عند **الترمذي والحاكم**، سبق تخريجه: ص486.

[6]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 409/4. والقول المبين، 174. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 199/1.

[7]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 457/1. والقول المبين، 174.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 468/1.

– **السبب (3): المؤامرة الكبرى:** التي اتفق المشركون فيها على قتل رسول الله ﷺ والتخلص منه ليخلو الجو لهم، ويرجع المجد والسلطان لآلهتهم المزعومة، وعقائدهم الفاسدة[1].

المطلب الثاني : خروج المسلمين مهاجرين إلى المدينة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الهجرة**"[فقرة: 2]: «**وحتى قبل ذلك شجّع الرسول ﷺ أتباعه على التوجه للمدينة حتى لم يبق في مكة سواه وأبو بكر وعليّ ونساؤهم**»[2]. المحرر هو: **مونتجمري وات**–M.Watt[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 34]: «**وقد ذُكر أنهم تسللوا في جماعات كبيرة أو صغيرة حتى لم يبق بمكة سوى محمد ﷺ وأبي بكر وخادم لأبي بكر... والأرجح أن يكون تَخلّف محمد عن الآخرين جزءً من خطته أن تبقى الهجرة غير ملحوظة على قدر الإمكان**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

لَمّا أذن النبيُّ ﷺ لِمسلمي مكة في الهجرة إلى المدينة؛ خرجوا إليها فرادى وجماعات، فكان أول من خرج: أبو سلمة المخزومي زوج أم سلمة رضي الله عنهما، ثم تتابع المهاجرون بعده، و لم يبق منهم إلا أبو بكر وعليّ رضي الله عنهما –كما ذكر "وات–Watt"–، وقليل من المستضعفين الذين لم تمكنهم أحوالهم من الهجرة، وقد كان بقاء أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما بأمر من رسول الله ﷺ[6].

وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة، لكن شيئا من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبيةً لداعي الإيمان[7].

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 1/480–482. والقول المبين، محمد النجار، 174.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/10033.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9127.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/468 و480. والقول المبين، 171.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/469–477. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/202.

من أجل هذا التتبع الشديد من المشركين، كان المؤمنون يتسللون ويخرجون من مكة في ظلام الكتمان والخفاء، يَحذرون قريشًا ويخشون خطرها ويرجون ألاَّ تَحول بينهم وبين الهجرة[1].

وقد ذكر المستشرق "بول-Buhl" أنّ بقاء النبي ﷺ في مكة إلى أن هاجر جلّ أصحابه يدخل ضمن مخطّط النبي ﷺ الرامي إلى جعل الهجرة سريّة قدر الإمكان، ولكن عبارة المستشرق في الحقيقة قاصرة عن تصوير الواقعة بأبعادها وحيثياتها بشكل متكامل؛ وذلك لِما يلي:

[1]– أنّ تَوقيت هجـــرة النبِيّ ﷺ كان بـــإذن الله ﷻ؛ فلما أذن له تعالى هاجـــر، كما ذكـــر ابن إسحاق[2].

[2]– أنّ بقاء النبي ﷺ بِمكة إلى أن هاجر أصحابه قد يُؤخذ منه أنّه كان من ضمن المخطط النبوي في سرية الهجرة، كما قد يؤخذ منه إشرافه على هجرة أصحابه، وتوجيههم واطمئنانه عليهم[3]، حتّى إذا أتَمّوا سعيهم بين يديه وأمام عينيه لَحق بهم إلى دار الهجرة.

[3]– صحيح أنّ المهاجرين كانوا يحرصون على سريّة خروجهم إلى المدينة حتّى لا يتعرّضوا للمضايقات والمكائد التي تعيق سيرهم، لكن بعد هجرة مجموعة كبيرة منهم وقبل هجرة الرسول ﷺ كان أمر هجرة المسلمين أمرا غير خفيّ عن المشركين، بل إنّ كفار قريش تعرّضوا لبعض المهاجرين وحاولوا صدّهم عن الهجرة وكادوا بهم كما سبق ذكره.

[4]– أنّ مخطّط النبي ﷺ في الهجرة كان أوسع مما اقتصر عليه المستشرق "بول-Buhl"، ومع ذلك لم يكن ليستغني به عن الرعاية الإلهية، وهو ما لم يذكره المستشرق "بول"، لأنّ المدرسة الاستشراقية تهدف إلى محو المعاني الروحية والربانية للسيرة النبوية، في مقابل إبراز المعاني المادية والبشرية، وهذا ما يفسّر ذكره للتخطيط النبوي البشري وإهماله للعناية الربانية في مسيرة الهجرة النبوية.

فإذا كنّا «لا نعرف بشرا أحقّ بنصر الله، وأجدر بتأييده، مثل هذا الرسول ﷺ؛ الذي لاقى في جنب الله ما لاقى، ومع ذلك فإنّ استحقاق التأييد الأعلى لا يعني التفريط في استجماع أسبابه وتوفير وسائله؛ ومن ثمّ فإنّ رسول الله ﷺ أحكم خطّة هجرته، وأعدّ لكلّ فرض عدته، و لم يدع في حسبانه مكانا للحظوظ العمياء»[4].

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 612/1. والقول المبين، النجار، 170.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 480/1 و484.

[3]– وكأنّه ﷺ كان ينتظر تأمين هجرة أصحابه قبل أن يهاجر هو. كما ذكر عماد الدين خليل في "دراسة في السيرة، 111".

[4]– فقه السيرة، الغزالي، 159.

فمن أهم حيثيّات التخطيط النبوي البشري الْمُحتَفّ برعاية الله عز وجلّ وتوفيقه ما يلي[1]:

أ)- استبقى النبي ﷺ معه عليّا وأبا بكر وادّخرهما لِمهام خاصة، وأذن لسائر المؤمنين بتقدّمه إلى المدينة.

ب)- كما كَتَم أسرار مسيره، فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسّة، و لم يتوسّع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

ج)- واستأجر دليلا خبيرا بطريق الصحراء؛ ليستعين بخبرته على مغالبة المطاردين.

د)- واتّفق الرسول ﷺ مع أبي بكر على تفاصيل الخروج، فلم تكن الهجرة مباشرة، إنما كان القرار النبوي ابتداء في غار ثور ثلاثة أيام، حتى يهدأ الطلب من مكة، كما تخيّروا الغار الذي يأوون إليه جنوبا في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين، وحدّدوا الأشخاص الذين يتّصلون بهم في أثناء اللّجوء إليه، ومهمّة كل شخص.

هـ)- كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى الغنم لإخفاء أثرهما حتى لا يستطيع العدو أن يتابع الأثر ويصل إليهما.

و)- كما اختارا طريق الساحل؛ وهو طريق غير معتاد، ومن أجل هذا احتاج الركب إلى الدليل الخبير في مجاهل الطرق ومسارها.

مع كلّ هذه الترتيبات وغيرها مما هو مبسوط في كتب السيرة، فقد وقعت الحادثتان المشهورتان، اللتان كان يمكن أن يحصل بهما إحباط الخطة، وإنهاء الجماعة المسلمة في الأرض، وهذا إنّما يدلّ على أنّ التخطيط البشري وإن كان في أعلى مستوياته، فهو محتاج إلى العون الإلهي.

- أما **الحادثة الأولى**: فهي وصول المشركين للغار، كما في الصحيح، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»؛ فقال ﷺ: ((يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟))[2].

- **والحادثة الثانية**: هي لَحاق "سراقة بن مالك" بهما يريد القبض عليهما وتقديمهما لقريش، لكن النبي ﷺ دعا عليه فساخت يدا فرسه في الأرض وسقط عنه، فعلم أنّ ذلك من فعـــله ﷺ، فكلّم الرسولَ ﷺ وسأله أن يدعو له، ورجع إلى مكة، وجعل لا يلقى أحداً من الناس في طلب الرسول ﷺ إلاّ ردّه، وقال: كُفيتم هذا الوجه، فأمسى حارسا لهما بعد أن كان أول النهار جاهدا عليهما[3].

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 160-162. وفقه السيرة النبوية، منير الغضبان، 335- 337. وينظر تفاصيل هذه الأحداث في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 482/1-491. ودلائل النبوة، البيهقي، 473/2-484.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، 321/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، 214/15. من حديث أبي بكر رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 489/1-490. وصحيح البخاري (مع الفتح)، 760/6.

ففي هاتين الحادثتين إضافة إلى ما سبق دلالةٌ على قوة توكّل النبي ﷺ على ربّه عز وجلّ مع أخذه بالأسباب والتخطيط المحكم، وعلى العناية الإلهية التي احتفّت بمسيرة محمد ﷺ في الهجرة وغيرها.

المطلب الثالث : مكر المشركين بالنبي ﷺ ومحاولة قتله

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**دار الندوة**": «... وسُمّي [أي: البناء] بدار الندوة لأن قريشاً كانت تجتمع فيها للمشاورة في أمورها... وفي دار الندوة اجتمعت قريش لترى رأيها في محمد وحضر هذا الاجتماع إبليس، وكان ذلك قبل الهجرة مباشرة (ابن هشام، ص323)»[1]. المحرر هو المستشرق: **فاير** -Weir[2].

– وفي مادة "**عليّ بن أبي طالب**"[فقرة: 2]: «وفي كتب السيرة أنه نام في مكان الرسول ﷺ في الليلة التي هاجر فيها الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، حتّى أن المتآمرين على قتل النبي ﷺ أصابتهم الدهشة عندما رأوا ابن عمه ينام في موضعه»[3]. المحررة هي المستشرقة: **ف. فاجليري**-V.Vaglieri[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 35]: «... وتقول روايات أخرى قد تكون شيعيّة إن عليًّا أيضا بقي في مكة حتى اللحظة الأخيرة... ومن الصعب أن نقدر مدى استطاعة قادة مكة أن ينجحوا لو أنّهم شاءوا منع محمد ﷺ وأتباعه من الخروج، والراجح أن أهل مكة وقت الهجرة لم يكونوا يرون في محمد ﷺ خطرا عليهم سواء بقي في مكة أو رحل إلى المدينة»[5].

– وجاء أيضا في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 36]: «أما عن الرواية التي أضيفت إليها فيما بعد تفاصيل والتي تقول إن محمداً ﷺ وأبا بكر بَقِيَا في مكة حتى غادرها غيرهما من المسلمين آمنين، ثم اختبآ في غار بالطريق، فقد نجد لَها سندا في الآية (40) من سورة التوبة، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾»[6].

المحرر هو المستشرق: **بول**-Buhl[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 92/9.

[2]– سبقت ترجمته في: ص241.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7415/24.

[4]– سبقت ترجمتها في: ص336.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9127/30.

[6]– المصدر نفسه، إص3، 9127/30-9128.

[7]– سبقت ترجمته في: ص150.

– مادة "[**أبو**] **جهل**"[فقرة: 2]: «**وقد أشار أبو جهل أثناء المؤامرات التي كانت تدبرها قريش قبيل الهجرة، أن تختار كل عشيرة رجلا منها لقتل النبي**»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** -Buhl.

– وفي مادة "**الهجرة**"[فقرة: 3]: «**ولكن قريشا قد ساورها الشك (وليس كل ما يروى عن الهجرة مؤكّدا)**[2] **فوافقت القبائل على أن يقوم شاب من كل قبيلة بضرب محمد ﷺ ضربة واحدة؛ فتضطر قبيلته أن تقبل الدية فيه، لعجزها عن محاربة القبائل كلّها أخذا بثأره، ولكن محمداً ﷺ يتمكن من الهجرة بصحبة "أبي بكر" سراً، تاركا "عليّا" مكانه على سبيل التمويه**»[3]. المحرر هو: **وات**-M.Watt[4].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا– تآمر كفار قريش في "دار الندوة"[5] على قتل الرسول ﷺ: بعد أن رأى مشركو قريش أنّ الديار قد خلت من أهلها، وأن المسلمين تركوا مكة مهاجرين إلى المدينة، وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دارٌ يأرز إليها، وحِصنٌ يحتمي به، وتوجست خيفةً من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد ﷺ، وعلمت أيضاً أن محمداً لا بد أن يدرك أصحابه اليوم أو غداً؛ من أجل ذلك عزموا على اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ في هذا الأمر.

اجْتَمَع كفّار قريش فِي "دار النّدوة" ولَم يَتَخلّفْ أحدٌ من أهل الرّأي والْحِجَا منهم، لِيَتشاوروا في أَمْره ﷺ، وحضَر معهم إبليسُ في صورة شيخٍ كبيرٍ مِن أهل نَجدٍ، فتَذاكروا أمْر رسول الله ﷺ، فأَشارَ كُلّ أحدٍ منهم بِرأيٍ، والشّيخُ يرُدّه ولا يَرْضاه، حيث رأى بعضهم: أن يسجن حتى يموت، ورأى آخر: أن ينفي من مكة فلا يدخلها وتنفض قريش يديها من أمره، لكن استُبعِدَ هذان الاقتراحان لعدم جدواهما واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل؛ حيث قال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدون إليه ثم

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 323/1.

[2]– روايات الهجرة النبوية منها ما هو صحيح ثابت في الصحيحين وكتب السيرة، ومنها ما هو ضعيف واه، وقد بيّن ذلك بالتفصيل الأستاذ أكرم العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 201/1–223".

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10033/32.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

[5]– **دار الندوة**: هي الدار التي أسّسها قصي بن كلاب، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام، وكانت فسيحة وسيعة، وفيها كانت قريش تقضي شئونها العامة والمهمة، وقد سميت الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها للتشاور.

وأهم **خصائص دار الندوة**: – أنها كانت دار مشورة قريش، فيها يجتمع ملؤها للتشاور والفصل في أمورها.

– كما كانت قريش تعقد لواءها إذا خرجت للحرب، ومنها كانت ترحل قوافلها للتجارة.

– كما كانوا يزوّجون فيها بناتهم، وغير ذلك من الأمور السياسية والاجتماعية العامة.

ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 125/1. والروض الأنف، السهيلي، 35/2. ولسان العرب، ابن منظور، 315/15. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 94/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد إبراهيم الشريف، 102.

يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا ورضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي لكم غيره؛ فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون عليه[1]، ورضي المؤتمرون بهذا الحلّ للمشكلة التي حيّرتهم، وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه.

وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: 30][2].

ثانيا- خروج النبي ﷺ وتركه علياً رضي الله عنه على فراشه: لَمّا وقعت هذه المؤامرة أعلَمَ الله تعالى نبيه بما دبروا؛ فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، وأخْبَرهُ بمكر القوم، فلَمّا كانتْ عَتَمةٌ مِن اللّيل اجْتَمعوا على بابه يَرْصُدونه متَى يَنام، فيَثِبُون عليه، فلمّا رَأى رسولُ الله ﷺ مكانَهم، دعا ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأَمَره أنْ يَبيت على فراشِه، ويَتَسَجّى بِبُرْدٍ له أخضر ففَعل، ثُمّ خَرَج رسولُ الله ﷺ على الْقَوْمِ وهُمْ على بابه، وقد أخذ الله بأبصارهم، فلم يره أحد منهم، ونثر على رءوسهم كلهم التراب -زيادة في النكاية بهم- وهو يَقرأ قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾؛ إلى قوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: 1-9]، ثم ذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور، فلما أصبحوا قام عليّ رضي الله عنه من فراش النبي ﷺ وعلموا أنّه خاب سعيهم[3].

فهذا التدبير المحكم الذي أشار به جبريل عليه السلام لَبّس الأمر على المشركين المتربصين بالنبي ﷺ، فكانوا إذا نظروا من خلل الباب ظنّوا أنّ النائم هو الرسول ﷺ، بينما هو الفتى الشجاع علي رضي الله عنه[4]، وهو التمويه الذي ذكره المستشرق "وات-Watt" في مادة "الهجرة".

ثالثا- التشكيك في محاولة قتل النبي ﷺ:

[1]- بداية حاول المستشرق "بول-Buhl" أن يشكّك في صحّة نوم عليّ رضي الله عنه في فراش النبي ﷺ ليلة خروجه مهاجرا إلى المدينة تمويها للمشركين المتربّصين به، فزعم أنّها روايات شيعيّة، لكن عند الرجوع إلى أسانيد الرواية وطرقها يتبيّن أنّ ذلك غير صحيح؛ حيث جاءت القصّة من حديث ابن عباس رضي الله عنه بإسناد حسن من طريق معمر[5]، كما جاءت من رواية الزهري[6] وهو محدث ثقة -بعيد

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/480-482. ومصنف عبد الرزاق، 5/389-390. وتاريخ الطبري، 2/370-372.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/484. ودلائل النبوة، البيهقي، 2/465. وتفسير ابن كثير، 4/44.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/482-483. وتاريخ الطبري، 2/372-373. ودلائل النبوة، البيهقي، 2/470.

[4]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 1/475.

[5]- أخرجه: **عبد الرزاق**، المصنف، 5/389-390. و**أحمد**، المسند، 5/301؛ وحسّنه ابن كثير في "البداية والنهاية، 4/451" وابن حجر في "فتح الباري، 7/295".

[6]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 2/466. وفتح الباري، ابن حجر، 7/295.

كلّ البعد عن التشيّع- وكان مقرّبا من الأمويين وهم الخصوم السياسيين للشيعة والعلويين، وجاءت من رواية قتادة[1]، وكلّهم محدّثون ثقات لم ينسب أحد منهم إلى التشيّع، وهم أثبت مِن أن تؤثّر في روايتهم مثل تلك الحزبيات الفكرية أو السياسية الضيقة.

صحيح أنّ ابن إسحاق روى القصة من ثلاث طرق إحداها طريق "الكلبي"[2] وهو منسوب إلى التشيّع، ولكنّ ابن إسحاق رواها أيضا من طريق آخر رواته ثقات وغير منسوبين إلى التشيع، وهي طريق: ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ﷺ[3].

بذلك يُعلم الخطأ العلمي الذي وقع فيه "بول-Buhl" عندما عزا القصة لروايات الشيعة؛ ذلك أنّ القصة ثابتة من رواية المحدثين الثقات الذين ليس لهم أية صلة بالشيعة أو رواياتهم.

وإذا كان المستشرق "بول" يشكّك في القصة تدعيما لِقوله الآتي بنفي محاولة المشركين قتل النبي ﷺ ليلة هجرته، فإن المستشرقة "فاجليري" محررة مادة "عليّ" وكذا "وات-Watt" محرر مادة "الهجرة" يثبتان القصة كما هو ظاهر في نصيّ المادتين.

[2]- ثم إنّ "بول-Buhl" يصادم الحقائق الثابتة المشهورة للسيرة النبوية، بل ويخالف العقل والمنطق الصحيح عندما يقول بأنّ كفار قريش لم يحاولوا قتل النبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة، والردّ على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: من كلام المستشرق "بول-Buhl" نفسه في موضع آخر، وهو نصّه المذكور من مادة "[أبو] جهل/ فقرة:2"؛ حيث أثبت هناك محاولة المشركين قتل النبي ﷺ، وذكر أنّ "أبا جهل" هو من أشار على مشركي قريش بخطّة قتل النبي ﷺ التي نفّذوها، وهذا تناقض آخر يضاف إلى تناقضاته السابقة.

الوجه الثاني: الجواب على ما استدلّ به "بول -Buhl": دعّم قوله بافتراض خاطئ لا يوجد ما يُسنده تاريخياً عندما قال بأنّ "**أهل مكة لم يكونوا يرون في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة خطراً عليهم**"، وهذا مخالف تماما لسياق أحداث الهجرة وما بيّنته روايات السيرة الصحيحة ودلّت عليه، لِما يلي:

أ)- لقد كانت الهجرة ترتيبا للدعوة، وخروجا من موطن لا قوة للإسلام فيه إلى بلد يكون للإسلام فيه قوة، ويكون له فيها السلطان لإنشاء دولة إسلامية[4]؛ وهذا أمر يرهب كفار قريش.

---

[1]- ينظر: مصنف عبد الرزاق، 5/389-390.

[2]- محمد بن السائب: سبقت ترجمته في: ص163.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/480-482. والصحيح من أحاديث السيرة، الصوياني، 141.

[4]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1/616.

ب)- لَمّا رأى المشركون أن مكة المكرمة قد خرج منها أتباع محمد ﷺ ليتجمّعوا، وليكوّنوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقضّ على المشركين، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد ﷺ وأتباعه، فلابد أن تكون تلك القوة عليهم، لذا كان عليهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يستفحل وتتحقق المآرب، وإذا كان الأتباع قد هاجروا، ولم يبق إلا ضعيف أو عبد، فإن محمدا ﷺ لا يزال بين ظهرانيهم، وهو الرأس وغيره أتباع؛ فإذا نالوا منه، فقد تحقق مأربهم[1].

وهو ما بيّنه ابن إسحاق في قوله: «لَمّا رأت قريش أن رسول الله ﷺ، قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم؛ عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لِحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة... يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ **حين خافوه**»[2].

كما بيّنت الروايات التاريخية التي ذكرت الواقعة هذا الشعور بالخوف الذي انتاب مشركي مكة من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وتقوية ذلك لِجانبه -على العكس مما افترضه "بول-Buhl"-، حيث جاء في رواية ابن عباس ﷺ عند ابن إسحاق: أنه قال بعضهم لبعض عندما اجتمعوا في دار الندوة: «إنّ هذا الرّجل قد كان مِن أمرِه ما قد رأيتُم، فإنّا والله **ما نَأمَنُه على الوُثوب علينا** فيمن قد اتّبعه مِن غيرنا، فأجْمعوا فيهِ رأيًا»[3].

فلا يمكن لعاقل بعد هذه الروايات الموثقة والشواهد التاريخية أن يقول: بأنّ قريشا في ذلك الظرف لم تكن ترى في محمد ﷺ خطراً على كيانها، وهم الذين ساموه أشد العذاب هو وأتباعه وحاولوا قتله قبل ذلك غير مرّة، أفهم تاركوه الآن بعد أنْ صار تهديداً لَهم أكثر من ذي قبل؟!

ج)- كما أنّ عزم المشركين على قتل الرسول ﷺ في هذه الحادثة نص عليه القرآن الكريم كما في الآيات المذكورة آنفا، فالعجب من "بول -Buhl" كيف يكشف بهذا القول عدم موضوعية طرحه وأنّه يكيل بمكيالين، حيث نجده أحيانا -كما سبق في عدة مواضع[4]- يشكّك في بعض الوقائع التاريخية بدليل عدم ورودها في القرآن الكريم، والآن يشكّك في حدث أثبته القرآن، ويُخالف منهجه السابق في الاستدلال، بل إنّه يقع في تـــناقض آخر عندما يثـــبت -بعد ذلك- في "محمد ﷺ/ فقرة:36": أنّ النبي ﷺ وأبا بكر اختبآ في الغار؛ فلِمَ يختبئ لو لم يحاول المشركون قتله؟!

---

[1]- المصدر السابق، 617/1.

[2]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 480/1.

[3]- المصدر نفسه، 481/1. وتاريخ الطبري، 371/2.

[4]- ينظر مثلا: ص427.

د)– زيادة على ذلك فقد خالفه بعض المستشرقين في "دائرة المعارف" نفسها؛ كما في مادة "دار الندوة" ومادة "عليّ" عندما أثبتا هذه الواقعة، وهذا من التناقضات الكثيرة –التي سبق التنبيه عليها– في "دائرة المعارف"، حيث ينفي مستشرق في مادة ما أمراً ويثبته مستشرق آخر في مادة أخرى.

المطلب الرابع : خروج النبي ﷺ مهاجرا رفقة أبي بكر رضي الله عنه

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**[أبو] بكر**": «... **وروت ابنته أنه بكى من الفرح عندما بلغه أنه سيصحب النبي في هجرته... ووصل أبو بكر إلى الذروة عندما اختاره النبي ليصحبه في هجرته من مكة، وكوفئ على تلك الصداقة التي ضحى فيها بنفسه بأن خلد اسمه[1] في القرآن فأشار إليه بأنه "ثاني اثنين"**»[2].

المحرر هو المستشرق: **بول**-Buhl[3].

– وفي مادة "**أسماء بنت أبي بكر**": «**وسميت "ذات النطاقين" لأنّها لَمّا لم تجد ما تشدّ به زاد النبي وأبيها عند الهجرة شقت ثيابها وشدّته بها... ولَمّا هاجر النبي وأبو بكر واختفيا في الغار ثلاثة أيام كانت أسماء تزودهما بالطعام والشراب كل مساء**»[4]. المحرر هو المستشرق: **ركندورف**-Reckendorf[5].

– وفي مادة "**بريدة بن الحصيب**": «**شيخ قبيلة أسلم بن أفصى ومن صحابة النبي، وقد أسلم حين مرّ النبي ﷺ مهاجرا بالغميم، وأسلم من كان معه وهم نحو ثمانين أسرة، ولم يفد بريدة إلى المدينة إلا بعد وقعة أحد**»[6]. المحرر هو المستشرق: **نسترشتين**-Zetterstèen[7].

– وفي مادة "**الحَمَام**": «**وقد أرسل الله حمامتين وحشيّتين فوقفتا على فم الغار الذي اختفى فيه النبي، وحمام الحرم من نسل تينك الحمامتين**»[8]. محرر المادة هو المستشرق: **روسكا** -J.Ruska[9].

---

[1]– لعل الأدق أن يقال: خلد ذكره، لأنه لم يذكر باسمه.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 312/1.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 170/2.

[5]– سبقت ترجمته في: ص249.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 612/3.

[7]– سبقت ترجمته في: ص112

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 67/8.

[9]– **جوليوس روسكا** "Julius Ruska" (1867–1949م): مستشرق ألماني، درَس اللغات الشرقية، وتخصّص في تاريخ العلوم عند المسلمين، من آثاره: ترجمة "الأحجار من عجائب المخلوقات للقزويني" و"الكيمياويون العرب" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 772/2. وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، 289.

– وفي مادة "**الهجرة**"[فقرة: 4]: «**هجرة محمد ﷺ من مكة إلى المدينة في سبتمبر (622م)**» [1].

– وفي مادة أيضا "**الهجرة**"[فقرة: 5]: «**ولكن محمداً ﷺ يتمكن من الهجرة بصحبة "أبي بكر" سراً... وهي الحادثة التي ذكرها القرآن الكريم في الآية (40) من سورة التوبة بقوله تعالى:** ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾... **وقضى الاثنان ثلاثة أيام في كهف، ثم صاحبهما عامر بن فهيرة أحد عتقاء "أبي بكر"، وأعرابيّ كدليل، ممتطين راحلتين واتّخذوا طريقا غير مألوف للمدينة... والسبب في اضطرار محمد ﷺ للاختفاء أثناء الرحلة غالبا أن فقد جوار نوفل بخروجه من مكة وهو في طريق الوصول إلى المدينة لن يكون في حماية أتباعه في المدينة**» [2]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M.Watt [3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– صحبة أبي بكر للنبي ﷺ في الهجرة: ذكر المستشرق "بول-Buhl" في مادة "[أبو] بكر" اختيار النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه لِيَصْحبه في الهجرة، ولقد بيّن ابن إسحاق سياق ذلك فقال: «وكان أبو بكر... حين استأْذَن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال له رسول الله ﷺ: لا تَعْجَل؛ لعل الله يجد لك صاحبا، قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين، فاحْتَبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك» [4]؛ ويؤيده ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن قصة الهجرة في الصحيح [5].

كما جاءت رواية أخرى تبيّن أنّ هذا الاصطفاء لأبي بكر في صحبة الرسول ﷺ كان بوحي، فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: ((مَنْ يُهَاجِرُ مَعِي؟ قال: أبو بكرٍ الصِّدّيق)) [6].

وفي اصطفاء أبي بكر رضي الله عنه لِهذه الصحبة وما خُصّ به من مرافقة الرسول ﷺ في تلك السفرة، وما كان منه مِنَ الحرص عليها، ثم ما أبداه في طريقهما من حسن الصحبة والخوف على رسول الله ﷺ وفدائه إياه بنفسه وماله وأهله؛ منقبة ظاهرة وفضيلة عظيمة لأبي بكر رضي الله عنه لم يشاركه فيها أحد، وهو المعنى الذي أشار إليه "بول" في قوله: «**ووصل أبو بكر إلى الذروة عندما اختاره النبي ليصحبه في هجرته**»، وما من شكّ أنّ فضائل أبي بكر رضي الله عنه التي تدلّ على تقدّمه كثيرة قبل هذه الحادثة وبعدها [7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10033/32.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 10033/32-10034.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

[4]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 480/1.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 288/7.

[6]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب الهجرة، 6/3؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[7]– ينظر تفصيل ذلك في: تفسير الرازي، 50/16-53.

لكن خاصيّة هذه الفضيلة وما زادها تعظيما ذكر الله عزّ وجلّ للحادثة في القرآن، وتَخليد ذكر أبي بكر ﷺ فيه مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: 40]، كما ذكر "بول-Buhl" في مادة "[أبو] بكر" و"وات-Watt" في مادة "الهجرة".

ثانيا- بعض ما كان في طريق هجرتهما: جاء في نصوص: مادة "[أبو] بكر" ومادة "أسماء" ومادة "بريدة" ومادة "الهجرة" ذكرُ بعض الوقائع التي حدثت في طريق هجرة المصطفى ﷺ وصاحبه أبي بكر ﷺ للمدينة، وجلّ هذه الوقائع قصّتها بالتفصيل أم المؤمنين عائشة ﵂ -وقد واكبت الحدث- فقالت: «... وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي)) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ))...

قالت: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: ((أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ))، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ))، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ[1] بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((نَعَمْ))... قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ[2]، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِ[3]، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلاَمٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ[4] مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلاَّ وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ -مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ- مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاَثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ[5]، هَادِيًا خِرِّيتًا -وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ[6]-... وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا

---

[1]- أي: أريد المصاحبة. "فتح الباري، 294/7".

[2]- **السفرة:** الزاد الذي يصنع للمسافر، والجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه. "المصدر السابق، 294/7".

[3]- وفي رواية: "ذات النطاقين"، والنّطاق: ثوب تلبسه المرأة تشد به وسطها؛ ليرتفع به ثوبها عن الأرض. "المصدر السابق، 157/6 و294/7".

[4]- **ثقِفٌ:** حاذق فطن، ولقن: سريع الفهم. **فيدّلج:** أي يخرج بسَحَر إلى مكة. " المصدر السابق، 296/7".

[5]- هو: "عبد الله بن أريقط". ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 488/1. وفتح الباري، 297/7.

[6]- هو مدرج في الخبر من كلام الزهري. "فتح الباري، 297/7".

إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلاَثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ»[1].

فجاء في هذه الرواية الصحيحة مِمّا ورد في نصوص المستشرقين السابقة:

أ)– اختباء النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ في غار ثور ثلاث ليال لتضليل المطاردين، كما جاء في مادة "أسماء" ومادة "الهجرة".

ب)– أنّ أسماء بنت أبي بكر ﷺ لَمّا لم تجد ما تربط به السُّفرة شَقّت نطاقها نصفين، فشدّت بأحدهما الزاد وانْتَطقت بالآخر؛ لذلك كانت تسمى "ذات النطاقين"، كما ذكر محرر مادة "أسماء".

ج)– أنّه بعد أنْ مكث الرسول ﷺ وصاحبه في الغار ثلاث ليال، انطلقا على راحلتين ومعهما عامر بن فهيرة – مولى أبي بكر– يخدمهما، واستأجرا رجلا خبيرا بمجاهل الطرق ومساربها وهو "عبد الله بن أريقط"؛ كدليل يستعينان بخبرته على مغالبة المطاردين، وسلكا طريق الساحل وهي طريق غير معتادة، حفاظا على سريّة سيرهما وتضليلا للمطاردين لهما، كما ذكر "وات–Watt" في مادة "الهجرة".

– أمّا ما ذكره "بول-Buhl" من "بكاء أبي بكر ﷺ فرحاً بصحبة النبي ﷺ في الهجرة": فقد وردت هذه الزيادة في حديث عائشة ﷺ من طريق ابن إسحاق؛ قالت: «... فقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ))، فقال أبو بكر: «الصُّحْبَةَ يا رسولَ الله»، قَالَ: ((الصُّحْبَةَ))، قالت: «فو الله مَا شعرتُ قطُّ قبل ذلك اليومِ أَنّ أحَدًا يَبْكي مِن الْفرَح، حَتَّى رَأيتُ أبا بكرٍ يَبْكِي يومئذٍ»[2]؛ فقد «بكى أبو بكر ﷺ من فرط السرور؛ لأنه أدرك مدى النعمة التي مَنّ الله بها عليه، إذ شرفه بصحبة الرسول ﷺ في هذا الوقت العصيب»[3].

– وأمّا **رواية الحمامتين:** التي ذكرها "روسكا-Ruska" في مادة "الحمَام" فهي رواية ضعيفة جاءت من حديث أبي مصعب المكّيّ قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس يُحدِّثون أنّ النّبيَّ ﷺ لَمّا كان لَيلة بَاتَ في الغارِ أَمَر الله تبارك وتعالى شجرةً فنَبَتتْ في وَجْه الغار، فستَرتْ وجه النّبيّ ﷺ، وأمَرَ اللهُ تبارك وتعالى الْعنكبوتَ فنَسَجتْ على وَجْه الغار، وأَمَر اللهُ جلّ وعزّ حَمامتَيْن وحشِيَّتين فوَقَعتا بفَم الغار، وأَتَى الْمشركون من كلِّ بطنٍ حتّى إذا كانوا مِنَ النّبيّ ﷺ على قَدْر أربعين ذِراعًا معهُمْ قسيُّهمْ وعِصيُّهُم تقدَّم رجُلٌ منهم فنَظَر فرَأى الْحمامتَيْن فرَجَع؛ فقال لأَصْحابه: ليس في الغار شيءٌ، رأيتُ

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، 7/287–289.

[2]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/485.

[3]– القول المبين، محمد النجار، 175.

حمامتَيْن على فَمِ الغار فعرَفْتُ أنْ ليسَ فيه أحدٌ»[1]؛ قال ابن كثير: «وهذا حديثٌ غريب جدًّا من هذا الوجه»[2]، وقال أكرم ضياء العمري: «وقد ورد حديث ضعيف جداً يفيد أن الرسول ﷺ لما بات في غار ثور أمر الله شجرةً، فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وحشيتين، فوقعتا بفم الغار، وأن ذلك سبب صدود المشركين عن الغار، ومثل هذه الأساطير تسربت إلى مصادر كثيرة في الحديث والسيرة»[3].

أمّا نسيج العنكبوت على الغار فقد ثبت من حديث ابن عباس ﷺ؛ وفيه قوله: «... فاقْتَصّوا [أي: المشركون] أَثَره... فمَرُّوا بالغار، فرَأوا على بابه نسْجَ العنكبوتِ، فقالوا: لَوْ دخَل هاهُنا، لَمْ يكن نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ»[4].

– وأما **إسلام "بريدة بن الحصيب"**[5] ﷺ: فذكر أهل السير: أنّ رسول الله ﷺ لَمّا هاجر من مكة إلى المدينة وانتهى إلى الغميم[6] أتاه بريدة بن الحصيب، فأسلم هو ومن معه، وكانوا زهاء ثمانين بيتًا فصلى الرسول ﷺ العشاء فصلوا خلفه ثم رجع "بريدة" إلى بلاده وأقام بأرض قومه، ثم قدم على الرسول ﷺ بعد أحد، فشهد معه مشاهده[7]، كما ذكر "تسترشتين-Wetterstéen" في مادة "بريدة".

ثالثا- تاريخ هجرته ﷺ: كان خروج النبي ﷺ من بيته مع أبي بكر ﷺ ليلة الخميس السابع والعشرين (27) من **صفر** في العام الثالث عشر للبعثة، الموافق للثاني عشر (12) سبتمبر (662م)[8].

أما من ذكر أنّ خروجه كان يوم الاثنين فهو محمول على بداية مسيره من غار ثور، حيث كان بعد ذلك بثلاثة أيام وهو يوم الاثنين كما أفاد ابن حجر[9].

قال الحاكم: «تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين»[10].

---

[1]– أخرجه: **ابن سعد**، الطبقات، 1/ 177. **والبزار**، المسند، 245/10؛ وفي سنده "أبو مصعب المكي" مَجهول، وعنه "عوين (أو عون) بن عمرو" منكر الحديث؛ وقد تفرد به هو وشيخه أبو مصعب كما بيّن البزار. ينظر: لسان الميزان، ابن حجر، 388/4 و106/7. والسيرة الصحيحة، العمري، 208/1 (الهامش). والصحيح من أحاديث السيرة، الصوياني، 153.

– وإنّما حسّن ابن كثير وابن حجر حديث ابن عباس ﷺ في نسيج العنكبوت فقط، لا رواية الحمامتين هذه كما سيأتي.

[2]– البداية والنهاية، 453/4-454.

[3]– السيرة النبوية الصحيحة، 208/1.

[4]– أخرجه: **عبد الرزاق**، المصنف، 389/5-390. **وأحمد**، المسند، 301/5؛ وحسّنه ابن كثير "البداية والنهاية، 451/4" وابن حجر "فتح الباري، 295/7" والصوياني "الصحيح من أحاديث السيرة، 146".

[5]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، 182/4. الاستيعاب، ابن عبد البر، 185/1. الإصابة، ابن حجر، 418/1.

[6]– **الغميم**: موضع بين مكة والمدينة، يقع على بعد (64 كلم) من مكة. ينظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 263-264.

[7]– ينظر: الطبقات الكبرى، 182/4. والاستيعاب، 185/1. والبداية والنهاية، 610/11.

[8]– ينظر: فتح الباري، 305/7. ورحمة للعالمين، محمد المنصورفوري، 78.

[9]– ينظر: فتح الباري، 295/7.

[10]– المصدر نفسه، 294/7.

المبحث الثاني : وصول النبي ﷺ إلى المدينة وشروعه في الإجراءات التنظيمية

المطلب الأول : وصوله إلى المدينة وبناؤه للمسجد النبوي

الفرع الأول : وصول النبي ﷺ إلى المدينة

– جاء في مادة "**الهجرة**"[فقرة: 6]: «... **فوصلوا [أي: النبي ﷺ ومن معه] قباء في: 12 ربيع الأول (طبقا لرواية ابن إسحاق) الموافق: 24 سبتمبر (622م)**»[1]. المحرر هو المستشرق: **وات**–M. Watt[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 37]: «**وقد وصل محمد ﷺ إلى قباء يوم 12 من ربيع الأول من العام الهجري الأول (24 سبتمبر عام 622م)**»[3]. المحرر هو المستشرق: **بول**–Buhl[4].

ذكر المستشرقان "وات–Watt" و"بول–Buhl" تاريخ وصوله ﷺ إلى قباء[5] وهي في ضواحي المدينة، وهو كما قالا؛ فقد توافر أئمة الحديث والسيرة والتاريخ: كالزهري وابن إسحاق والطبري وابن كثير وغيرهم على أنّ النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وصلا إلى قباء يوم: الاثنين الثاني عشر (12) من **ربيع الأول** في العام الثالث عشر للبعثة، وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق لـــ: (24) سبتمبر (622م)[6].

وبوصول النبي ﷺ وصحبه إلى قباء تَمّت خير هجرة عرفتها الدنيا لقوم مؤمنين، وأعظم حادث تاريخي كان له أكبر الأثر في تاريخ الإسلام والمسلمين، بل في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها[7].

وأقام رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة[8]، أسس خلالها مسجد قباء، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، وهو أول مسجد بني في الإسلام، ثم دخل المدينة يوم الجمعة[9].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10034/32.

[2]– سبقت ترجمته في: ص59.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9128/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– **قُـباء**: تقع جنوب غرب المدينة، وهي اليوم مدينة عامرة، متصلة بالمدينة عمرانيا وتعدّ من أحيائها، ويقع مسجدها الذي بناه الرسول ﷺ، جنوب المسجد النبوي بستة أكيال (6 كلم). ينظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 248–249.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 299/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 492/1. وتاريخ الطبري، 381/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 512/2. والمنتظم، ابن الجوزي، 63/3. والفصول في السيرة، ابن كثير، 25. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 84–85.

[7]– السيرة النبوية، أبو شهبة، 295/7.

[8]– وقيل: أربعة أيام. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 305/7–306. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 218/1.

[9]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 493/1–495. وفتح الباري، 306/7–307. وفقه السيرة، الغزالي، 170.

الفرع الثاني : بناء المسجد النبوي بالمدينة

– جاء في مادة "**العمارة**"[فقرة: 2]: «**العمارة في عصر الرسول ﷺ: وعندما هاجر محمد ﷺ بنى داراً له ولآلِه [الصواب مسجدا]**[1] **وهو عبارة عن مساحة مربّعة حوالي مائة ذراع من الطوب (اللّبن)، وتوجد في الضلع الجنوبي ظلّة من جذوع النخل التي استخدمت كأعمدة لحمل السقف المكون من سعف النخل والطين، وبنيت تجاه الجدار الشرقي من الخارج حجرات صغيرة لزوجات الرسول ﷺ وكانت كلها تفتح على صحن المسجد**»[2]. المحرر هو المستشرق: **كرسويل** – K.A.C.Creswel[3].

كان أول ما قام به الرسول ﷺ بالمدينة هو بناء المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدنيا[4].

جاء في "صحيح البخاري" عن عروة بن الزبير: أنّ النبي ﷺ «ركب راحلته، فسار يَمشي معه الناس حتى بَرَكت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبدًا[5] للتمر، لِسُهيل وسَهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحِلتُه: ((هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ المَنْزِلُ))؛ ثُمّ دَعَا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد، لِيتَّخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نَهَبُه لك يا رسول الله، فأَبَى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هِبَةً حتّى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، وطَفِق رسول الله ﷺ يَنقُل معهم اللّبِن في بُنيانه»[6].

وكان في ذلك المكان نخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبشت، وبالنخل فقُطعت، وصفت في قبلة المسجد، وأقيمت حيطانه من اللبن[7] والطين الذي يعجن ويسوى على شكل أحجار صالحة للبناء، وجعل سقفه من جريد النخل، وأعمدته جذوع النخل، وفرشت

---

[1]– الظاهر أنّ الكلام بين قوسين هو كلام المترجم، حيث صوّب عبارة المستشرق محرر المادة.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7448/24.

[3]– سبقت ترجمته في: ص271.

[4]– فقه السيرة، الغزالي، 177.

[5]– **المربد:** هو الموضع الذي يجفف فيه التمر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 307/7.

[6]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، 299/7.

[7]– **اللّبِن:** هو الطوب النّيِّء، يُـبْنَى بِهِ دون أن يطْبخ. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 177/2. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 814/2. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 177/2.

أرضه من الرمال والحصباء، وجُعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع[1]، والجانبان مثل ذلك أو دونه فهو مربّع[2]، وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع[3].

وبنَى بيوتا في الجهة الشرقية حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين، وسقوفها من جذوع النخل والجريد، وهي حجرات أزواجه ﷺ[4].

أمّا قول المستشرق "كرسويل-Creswel" أنّه "بنَى داراً له ولأهله"، فهو كلام غير دقيق كما ذكر المترجم في العبارة التي بين قوسين، لأنّ الصواب: أنّه بنَى المسجد[5]، ثم بنى حوله حجراتٍ كمساكن له ولأهله كما بيّن المؤرخون والرواة، وهو ما ذكره المستشرق "كرسويل" نفسه بعد ذلك عندما قال: «**وبنيت تجاه الجدار الشرقي من الخارج حجرات صغيرة لزوجات الرسول ﷺ وكانت كلها تفتح على صحن المسجد**»، فدلّت هذه العبارة أنّ كلامه السابق كان من المفروض أن يكون عن المسجد، لا عن دارٍ للنبي ﷺ كما أوهمت عبارته الأولى.

الفرع الثالث : أسماء المدينة المنورة

– في مادة "**الفأل**"[**فقرة**: 1]: «**كما أنه ﷺ أطلق اسم "طيبة" على ما أصبحت "المدينة" بعد ذلك، بدلا من "يثرب" التي يتضمن أصلها فكرة الافتراء (تشويه السمعة)**»[6]. المحرر هو: **ت.فـهد**-T.Fahd[7].

ذكر الأستاذ "فهد" في هذه المادة إطلاق النبي ﷺ اسم "المدينة" و"طيبة" على المدينة المنورة، وفيما يلي بيان أسماء المدينة التي ذكرها المحرر وغيرها:

---

[1]– **الذراع**: مقياس يُقارب في طوله الذّراع، يتراوح (بين: 55 إلى 64 سنتيمتر). ينظر: المعجم الوسيط، 311/1. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار، 808/1.

[2]– قُدّرت مساحته بحوالي: 2475 م^2 (100×100 ذراع). ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 49/23.

[3]– ينظر: طبقات ابن سعد، 184/1-185. والبداية والنهاية، ابن كثير، 533/4. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 177/2-184. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 299.

[4]– ينظر: طبقات ابن سعد، 185/1. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 185/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 35/2.

[5]– لا يُستبعد أنّ المستشرق أراد بهذه العبارة التعمية على أنّ النبي ﷺ عندما دخل المدينة كان بناء المسجد أول عمل قام به، فذكر بأنّه بنى بيته ﷺ ليوهم القارئ أنّه أول عمل قام به قبل بناء المسجد، ولكن هذا التمويه لا ينطلي على من كان له أدنى اطلاع على السيرة النبوية.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7664/24.

[7]– **فهد توفيق** "Toufic Fahd" (1923-2009م): باحث من أصل لبناني، اشتغل أستاذا في جامعة "ستراسبورغ" بفرنسا، وكان رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية (بكليّة العلوم الشرقية) فيها، وله عدّة مؤلفات في تاريخ الجزيرة العربية قبل وبعد الإسلام، خاصة فيما يتعلّق بعلوم الزراعة عند العرب. ينظر: النسخة الأجنبية "لدائرة المعارف": The Encyclopidia of Islam, 2/VI. وموقع جريدة المستقبل اللبنانية على رابط: (http://www.almustaqbal.com/v4/Article.aspx?Type=np&Articleid=355279).

أ)– يثرب: هُوَ اسْم الْمَدِينَة قبل الإسلام فسمّاها النَّبِي ﷺ "المدينة" و"طيبَة"، ونَهاهم عَن تَسْمِيتها "بيثرب"[1]، قال ﷺ: ((أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى[2]، يَقُولُونَ "يَثْرِبُ"، وَهِيَ "المَدِينَةُ"))[3]؛ أي: أنّ اسْمها الذي يَليقُ بِها هو "الْمدينة"[4].

وسبب كراهة هذه التسمية أنّ معنى "يثرب": إمّا من التّثريب الّذي هو التّوبيخ والْملامة، أو مِنَ الثَّرْبِ وهو الْفَسادُ وكلاهُما مُسْتقبَح؛ وكان ﷺ يُحبّ الاسم الْحَسَن ويَكرهُ الاسم القبيح[5].

ب)– المدينة: سَمّاها بذلك النبي ﷺ، كما في الحديث المذكور آنفا، والروايات في ذلك متكاثرة، كما ورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم في غير ما موضع، كقوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة: 120].

ج)– طيبة: سماها رسول الله ﷺ بذلك، فعن زيد بنِ ثابت ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّهَا **طَيْبَةُ** – يَعْنِي– الْمَدِينَةَ))[6].

د)– طابة: كما في حديث جابر بن سَمُرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ **طَابَةَ**))[7]؛ قال ابن حجر: «**والطّابُ والطِّيبُ** لُغتان بِمعنى؛ واشْتِقاقُهما مِنَ الشّيء الطّيِّب، وقيل لِطَهارة تُرْبَتها، وقيل لِطيبِها لِساكِنها، وقيل مِنْ طيب العَيْش بِها»[8].

وقد ذكر العلماء للمدينة أسماء أخرى، منها: **المطيبة، والمسكينة، والدار، ودار الهجرة** وغيرها[9].

---

[1]– هدي الساري مقدمة فتح الباري، ابن حجر، 333.

[2]– أي: تغلبهم في فضلها. ينظر: فتح الباري، 113/4.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، 112/4–113. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، 218/9. من حديث أبي هريرة ﷺ، واللفظ للبخاري.

[4]– ينظر: فتح الباري، 113/4.

[5]– المصدر نفسه، 113/4–114. وينظر: الروض الأنف، السهيلي، 172/4. وزاد المعاد، ابن القيم، 309/2.

– أمّا ما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟** ﴾[الأحزاب: 13]؛ فهو حكاية عن قوم غير مؤمنين وهم المنافقون. ينظر: الروض الأنف، 173/4. وفتح الباري، 113/4.

[6]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟** ﴾ [النساء: 88]، 323/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، 220/9. واللفظ لمسلم.

[7]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، 221/9.

[8]– فتح الباري، 115/4.

[9]– للتفصيل في ذلك ينظر: تفسير ابن كثير، 389/6. وفتح الباري، 115/4. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 286/3–295.

المطلب الثاني : تنظيم النبي ﷺ للمجتمع المدني بعد الهجرة

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**أمّة**"[فقرة: 2]: «**وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيّين، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، أسّس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعا جماعة سياسية واحدة، بما فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ر.بارت** – R.Paret[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 38]: «**وقد فرضت المهام التي كانت تنتظره عبئا عظيما تَطلَّب قدرات دبلوماسية**[3] **وتنظيمية كبيرة، فأثبت أنه كفء لِمجابَهة التّحدي من جميع الوجوه...**

وقد يكون من بين الاعتبارات الأكثر أهمية في إلغاء هذه الترتيبات الأولى بالمدينة الاتفاق الذي أبرمه محمد مع كافة القبائل والعشائر المهمة»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– الدعائم الأولى لبناء مجتمع المدينة ومقاصدها: إن تنظيم مجتمع المدينة بعد وصول اللاجئين الفارين بدينهم إليه من شتّى البقاع ليس بالعمل الهيّن، بل هو أمر شاقّ يتطلّق كفاءة عالية في تسيير الأمور وتنظيم أحوال ذلك المجتمع من جوانب عدّة داخلية وخارجية، وهو الأمر الذي نبّه عليه "بول-Buhl" في مطلع هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ".

من هنا شغل رسول الله ﷺ أوّل مستقرّه بالمدينة بوضع الدعائم التي لا بدّ منها لقيام رسالته، وتبين معالمها في الشؤون الآتية: 1– صلة الأمّة بالله.

2– صلة الأمّة بعضها بالبعض الآخر.

3– صلة الأمّة بالأجانب عنها، ممن لا يدينون دينها[6].

4– وأكدّ النبي ﷺ هذه الصِّلات بكتابة "معاهدة المدينة"؛ بيْن المسلمين من جهة، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى.

أمّا بناؤه مسجد المدينة فقد سبق بيانه، وأما الأمرين الآخرين فسيأتي بياهما في الكلام على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومعاهدة النبي ﷺ لليهود في المدينة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 633/2.

[2]– سبقت ترجمته في: ص137.

[3]– سيأتي التعريف بهذا المصطلح قريبا في: ص518.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9128/30-9130.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

[6]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 176.

ثانيا- الركائز المادية والمعنوية في بناء مجتمع المدينة: على أنّ بناء النبي ﷺ للمجتمع المدني وفق الدعائم المذكورة، ليس بناءً ماديا بحتاً، كما نلمح من نصّي المستشرقَيْن "بول-Buhl" و"بارت-Paret"، وليس أثره كذلك مادياً خالِصا، بحيث يبرز مواهب محمد ﷺ الدبلوماسية والتنظيمية فحسب، بل هو بناء على الصعيدين الماديّ والمعنوي، ومن دلائل ذلك:

[1]- أنّ أول ما بدأ به الرسول ﷺ بعد وصوله المدينة كان **بناء المسجد**، وذلك من أجل أن تتوطد به القيم الروحية للأمة؛ «فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي، فالمجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه»[1].

[2]- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ وهو **رابط معنوي** بين المسلمين المهاجرين والأنصار، يجعل آصرة العقيدة والإيمان -وهي عوامل روحية- أساس الارتباط بين أفراد المجتمع المدني.

ومن **ثمرات** نظام **المؤاخاة**: أنّه ساهم في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام، فتسقط بذلك فوارق النسب واللون والوطن، ولا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[2].

ولا تَخفى الطبيعة الروحية لهذا العمل الهام، وكذا آثاره المعنوية العظيمة في مجتمع المدينة.

[3]- أنّ المجتمع المدني الجديد أُرسيت قواعده وشُيّد بنيانه على أساس روابط العقيدة التي استعلت على ارتباطات القبيلة وعصبيتها وسائر الروابط الأخرى، وبرزت فكرة الأمة الواحدة كما يتضح من مضمون دستور المدينة المنورة[3]، وقد جعل الإسلام رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم، وإن أقرَّ بعض الأواصر الأخرى إذا انضوت تحت هذا الأصل، مثل الأرحام التي حث الإسلام على وصلها، لكن هذه الصلات ينبغي أن تنضوي تحت آصرة العقيدة[4].

وخلاصة القول: أن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقيدياً يرتبط بالإسلام، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح، وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن

---

[1]- فقه السيرة، البوطي، 143.

[2]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 179-180. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 313-314.

[3]- وفيه: أنّ «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم؛ إنهم **أمة واحدة من دون الناس**». ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 501/1.

[4]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 239/1 و249.

ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين[1].

فهذه الأسس الكبرى التي عمل النبي ﷺ على إرسائها في المدينة مبكراً؛ تنوعت طبيعتها وآثارها بين **مراعاة الجوانب المادية والمعنوية** في التدبير والتنظيم، وهكذا تكون أعمال الأنبياء في هذا الشأن، وإذا كان المستشرق "بول" ركّز على إبراز عبقرية الرسول ﷺ الإدارية والتنظيمية في المجتمع المدني كأيّ قائد أو زعيم بارع، من خلال إظهار الجوانب المادية فحسب، فلن يستطيع أن يعزل هذا التنظيم المحمدي عن روح النبوة والرسالة، لأنّ الشواهد التاريخية الكثيرة - والتي ذكرتُ أهمّها- تدلّ بوضوح على تضافر العوامل المادية والمعنوية في الأعمال التنظيمية الأولى التي قام بها الرسول ﷺ لمجتمع المدينة.

ثالثا- كتابة "دستور المدينة": من أهم الدعائم التي قام عليها مجتمع المدينة وكانت عاملا حاسما في نجاح الرسول ﷺ في تنظيم هذا المجتمع وتسييره على أكمل وجه منذ بداياته الأولى، قيام النبي ﷺ بكتابة المعاهدة التي يطلق عليها تسمية "الصحيفة" أو "دستور المدينة"؛ حيث «عقد الرسول ﷺ معاهدة بين المسلمين من جهة، واليهود والمشركين[2] من أهل المدينة المنورة من جهة أخرى، وادَعَهم فيها وأقرّهم على دينهم وأموالهم»[3].

وبمقتضى «هذه المعاهدة نظّم الرسول ﷺ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لسكان المدينة المنورة من المسلمين والمشركين واليهود»[4].

وبذلك تم تنظيم العلاقات بين أبناء هذا المجتمع على اختلاف دياناتهم في دولة الإسلام الأولى دولة النبوة، وحقق هذا الميثاقُ العدلَ التام للجميع والارتياح والرّضا من قبلهم؛ فحقوقهم محفوظة، وواجباتهم محددة، والعدو الوحيد لأبناء هذا الوطن الإسلامي بكل فئاته هم كفار قريش[5].

رابعا- التحالف السياسي مع يهود المدينة: أمّا قول المستشرق "بارت-Paret": بأنّ الرسول ﷺ «**أسّس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعا جماعة سياسية واحدة، بما فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية**»، فهو كلام صحيح إلى حدّ ما، ولكن يحتاج إلى بيان؛ ذلك أنّ النبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة وجد فيها ثلاثة أصناف من الناس وهم: المسلمون، واليهود، والمشركون؛

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 252/1.

[2]- أمّا **المشركون** في المدينة آنذاك: فجاء في الميثاق بند يحكم علاقة الأفراد المشركين في التجمع الإسلامي، نصه: «وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن». ينظر: المنهج الحركي للسيرة، منير الغضبان، 211/2.

[3]- الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 71.

[4]- المصدر نفسه، 72.

[5]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، 211/2.

فأمّا **المسلمون** فعمل على **توحيدهم** وتقوية روابط الأخوة في الدين بينهم على اختلاف قبائلهم وعشائرهم، وأمّا **غير المسلمين** فلم يسلك معهم الرسول ﷺ مسلك الخصام والصدام، بل عمل على **مهادنتهم** وأبدى رغبة المسلمين في التعاون السياسي والعسكري مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها، ورعاية الحقوق العامة والخاصة، وأنّ حرية الدين مكفولة للجميع، وهذا ما عبّر عنه "بارت-Paret": "**بالجماعة السياسية الواحدة**"؛ لكن إيراد المستشرق "بارت" هذه العبارة في مادة "أمّة" قد يوهم أنّ الرسول ﷺ جعل المسلمين واليهود أمّة واحدة، وإن كان تقييد "بارت-Paret" لهذه الوحدة بالتعاون السياسي دقيقاً.

وحتى يزول هذا الإيهام الذي قد يُفهم من عبارة المستشرق "بارت-Paret" ينبغي تقرير ما يلي:

[1]- أن النبي ﷺ جعل المسلمين أمّة واحدة، دون غيرهم من اليهود والمشركين في المدينة؛ حيث جاء في "دستور المدينة": أنّ «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم؛ إنهم **أمة واحدة من دون الناس**»[1]؛ بمعنى أنّهم «أمة تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس الدم، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قبلتهم ووجهتهم، ولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس "من دون الناس"؛ فهذه الروابط تقتصر على المسلمين **ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء**»[2].

[2]- أما ما جاء في بند من بنود معاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة الذي يقول: «وإن يهود بني عوف **أمة مع المؤمنين**، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[3]، فقوله هنا: "أمة مع المؤمنين" ليس مقصوده أنّهم أمة واحدة في الدين؛ وإنّما المقصود نصرتهم للمؤمنين ومعاونتهم على عدوّهم بالنفقة، الأمر الذي عبّر عنه المستشرق "بارت" بالتعاون السياسي، وهو ما وضّحه "أبو عبيد القاسم بن سلاّم" في بيانه لِهذا البند من المعاهدة فقال: «إنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه في شيء؛ ألا تراه قد بيّن ذلك فقال: "لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم"»[4].

[3]- لقد نصّت المعاهدة على تعاون أهل المدينة -من المسلمين واليهود- في ردّ كل اعتداء يقع عليها من الخارج، وبذلك توحّدت صفوف أهل المدينة وأصبح لهم هدف واحد؛ هو الدفاع عن

---

[1]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 501/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 556/4.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 292/1.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 503/1. والبداية والنهاية، 557/4.

[4]- الأمـــوال، تحقيق خليل هراس، 266.

المدينة ضد كل اعتداء خارجي[1]، حيث جاء في الوثيقة: «أنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين... وأنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة»[2].

بهذه المعاهدة عمل الرسول ﷺ أن يجعل أهل المدينة كلّهم على اختلاف أديانهم وميولهم وأهوائهم يدا واحدة على أعدائهم؛ من أجل أن تكون المدينة كلها صفًّا واحدًا وقوة واحدة، وحتى لا يطمع في المدينة طامع وينال منها عدو[3]، وهذا التحالف السياسي ضد الخطر الخارجي هو ما قصده المستشرق "بارت –Paret" عندما قال في مادة "أمة": بأنّ الرسول ﷺ «**أسّس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جماعة سياسية واحدة، بما فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته**».

خامسا– ملخّص الأعمال التنظيمية الأولى وأبعادها الروحية: يتضح مِمّا سبق أنّ النبي ﷺ عندما وصل المدينة قام بإجراءات تنظيمية حاسمة، كان لَها الأثر البالغ في استقرار مجتمع المدينة، ونجاح النبي ﷺ في تسييره من مختلف النواحي –بشهادة المستشرقين أنفسهم–؛ ويلخّص الشيخ الغزالي تلك الإجراءات وما جنته من ثمار فيما يلي:

أ)– بتقوى الله والإخلاص له: من خلال بناء مسجد المدينة؛ دُعمت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد.

ب)– بالإخاء الحق (بين المهاجرين والأنصار): تماسك بنيان المجتمع، وتوثقت أركانه.

ج)– بالعدل والمساواة والتعاون: رسمت سياسة الأجانب، وعُومل أتباع الأديان الأخرى، حيث ظهر ذلك في معاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة وغيرهم من التركيبات الاجتماعية داخل وخارج المدينة.

ومن ثمّ استقرت الأوضاع، ووجد المسلمون متسعا لتجديد قواهم، وترتيب شؤونهم[4].

هكذا استطاع النبي ﷺ تنظيم المجتمع المدني منذ بداياته الأولى، وأثبت كفاءة عالية في التخطيط والتنظيم والتسيير وسياسة الأمور من جميع الوجوه كما ذكر المستشرق "بول-Buhl"، لكن ذلك لن يكون بِمنأى عن العون الإلهي والرعاية الربانية التي حفّ الله عز وجلّ بِها نبيَّه ومسيـــرةَ دعوته لِدين الله تعالى.

---

[1]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 73.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 503/1. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 286/1.

[3]– ينظر: القول المبين، النجار، 197. والرسول القائد، 74.

[4]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 187.

المطلب الثالث : دستور المدينة وأهميته ودلالاته

الفرع الأول : نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**القصاص**": «وتتفق الوقائع المستخلصة من السيرة النبوية على هذا المعنى، ففي دستور دولة المدينة، الذي يتعلق بالفترة المدنية المبكرة، نص فيه: على إنه إذا قتل أي شخص مؤمنا وأدين المتهم، فيجري عليه القصاص، حتى لو أعلن وليّ الدم رضاه عما تَمّ، وأن على كل المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة على القاتل، وأن يقوموا بدور فعال ضده، ومن هنا انتقل القصاص من نطاق الحياة القبلية إلى المجتمع السياسي الديني (الأمة) وانعكس ذلك في التشريع... إن اعتبار الدليل الذي يفصح عنه القرآن وشواهد السيرة النبوية، يدل على أن محمد ﷺ لم يقرّ الانتقام، لكنه سمح بالقصاص ليكون بديلا عن الأخذ بالثأر والانتقام الشخصي... وسعى لتحريره من الأعراف القبلية لعرب الجاهلية»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ج.شاخت** - J.Schacht[2].

– وفي مادة "**الهجرة**"[فقرة: 7]: «وفي الوثيقة التي تسمّى أحيانا بدستور المدينة فإن هؤلاء الذين قاموا بالهجرة يسمون بالمهاجرين، ولهم وضع موحد في مقابل الأنصار في المدينة»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** -M.Watt[4].

– وفي مادة "[**بنو**] **قينقاع**"[فقرة: 1]: «ولَما أعطى النبي محمد ﷺ العهد في صورة العلاقات التي تكون بين المؤمنين وبين غيرهم من الطوائف التي تعيش في المدينة لا نجد ذكرا بعدئذ لبني قينقاع أكثر مِمّا ورد ذكره عن بني النضير وقريظة، ومن هنا جاز لنا أن نرجح – كما رجح وات في كتابه: "محمد في المدينة"– أن هذا العهد في صورته الحالية إنما كتب في الفترة التي أعقبت التخلص من بني قريظة وذلك في نهاية السنة الخامسة للهجرة (أبريل **627**م)»[5]. حرّر المادة: **فنسنك** "Wensinck"/و**بارت** "Paret"[6].

– وفي مادة "**محمد** ﷺ **نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 39]: «... ومن حسن الحظ أن ابن إسحاق حفظ لنا وثيقة بالغة الأهمية خاصة بهذا الاتفاق، تسمى عادة بدستور المدينة، ويبدو أن هذه الوثيقة لا تنتمي إلى عام محمد الأول في المدينة كما زعم البعض، حيث إنّها تعكس التوتّر اللاحق الذي طرأ على علاقة النبيّ ﷺ بالأطراف اليهودية في التسوية.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8324/27-8325.

[2]– سبقت ترجمته في: ص50.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10034/32.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8482/27-8483.

[6]– سبقت ترجمة "فنسنك" في: ص49. وترجمة "بارت" في: ص137.

وينمّ الاتفاق عن مواهب محمد ﷺ الدبلوماسية العظيمة، إذا يضع فيه الاعتبارات العملية في المقام الأول، صحيح أنه نصّ على أن الأمر لله ولرسوله يفصلان في كافة الشؤون المهمة، غير أن الأمة كانت تشمل يهوداً ووثنيين مما دعا إلى الاحتفاظ إلى حد كبير بالأشكال القانونية عند قبائل العرب القديمة.

ولكن المواد التي نصّت عليها هذه الوثيقة لم يكن لها مع ذلك أهمية عملية كبيرة ولم يذكرها القرآن البتة رغم قول بعض المفسرين أن الآية (56) من سورة الأنفال تشير إليها ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾، وعلى أي الأحوال فقد باتت غير ذات موضوع بسبب التغير السريع الحاسم الذي طرأ على الأحوال في المدينة»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة:

أولا- "دستور المدينة" في المصادر الأصيلة: نظّم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة "**بالكتاب**" و"**الصحيفة**"، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة "**الدستور**" و"**الوثيقة**"[3].

ويبدو أنّ الإمام **ابن إسحاق** هو أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً في "سيرته"[4]، لذا نسب المستشرق "بول-Buhl" حفظ نصّ الوثيقة لابن إسحاق، ويرجع ذلك أيضا لِشهرة كتابه في هذا المجال.

كما جاءت "الوثيقة" أو "دستور المدينة" عند غير ابن إسحاق، حيث أوردها: أبو عبـــيد القاسم بن سلام في كتابه "الأموال"، وكذا البيهقي في "السنن" وابن سيد الناس في "سيرته" وغيرهم[5].

أضف إلى ذلك أنّ بنوداً من الوثيقة وردت في كتب المصنفات الحديثية المشهورة؛ في نصوص أحاديث صحيحة، احتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم، حيث أورد البخاري ومسلم بعضها[6]، كما ورد بعضها في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجة والترمذي[7].

ثانيا- التفريق بين وثيقتين في "دستور المدينة": تشير الروايات إلى أن الوثيقة في الأصل وثيقتان؛ إحداهما: تتعلق بموادعة اليهود كُتبت قبل بدر أول قدوم النبي ﷺ المدينة، والثانية: تتعلق

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9128/30-9130.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 272/1.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 501/1-504. والسيرة النبوية الصحيحة، 272/1.

[5]- ينظر: الأموال، 260-266. والسنن الكبرى، 184/8. وعيون الأثر، 227/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 555/4-556.

[6]- ينظر على سبيل المثال: صحيح البخاري (الفتح)، 106/4، 336/6، 51/12. والسيرة النبوية الصحيحة، 279/1.

[7]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 275/1.

بحلف المهاجرين والأنصار وتحديد التزاماتهم وكتبت بعد بدر، لكن المؤرخين جمعوا بين الوثيقتين[1]، ثم تداولتها كتب السيرة على أنّها وثيقة واحدة وشاع تسميتها "بالصحيفة" أو "دستور المدينة".

فقد جاء في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين»[2]؛ و لم يذكر اليهود فيه، وما يؤيد ذلك أيضا: أن البيهقي ساق البنود المتعلقة بالمهاجرين والأنصار وليس فيها إشارة لليهود[3].

كما يشهد لذلك: مضمون الوثيقة؛ حيث أنّ البنود التي تتحدث عن الحلف بين المهاجرين والأنصار وردت في سياق واحد، ثم جاءت بعدها بنود الحلف مع اليهود في سياق واحد أيضا، مِمّا يشير إلى أنّها في الأصل وثيقتان تَمّ الدمج بينهما، لورود بنود كلّ حلف على حدة.

ثالثا- وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار: تحدث المستشرق "وات-Watt" في مادة "الهجرة" عن الوثيقة التي كتبها الرسول ﷺ بين المسلمين من مهاجرين وأنصار، وتهدف هذه الوثيقة كما ذكر "وات-Watt" إلى توحيد جماعة المسلمين وتوثيق ما بين المهاجرين والأنصار من إخاء وحلف، من خلال توضيح التزامات المسلمين من مهاجرين وأنصار وبيان حقوقهم وواجباتهم[4]، بحيث:

[1]- تضمنت الوثيقة بنوداً تنظم علاقة المسلمين ببعضهم وتحدد واجباتهم وحقوقهم؛ فبنود هذه الوثيقة «بالنسبة للمؤمنين أمر من الله تعالى بتنظيم مجتمعهم، وتعاونهم الاجتماعي والاقتصادي، وتنظيم شؤون السياسة بينهم، والتأليف بين بطونهم وقبائلهم، والتعاون على إقامة الخير، ودفع الشر، وبيان حكم الإسلام في العمل على منع الظلم والتظالم بينهم آحادا وجماعات»[5].

[2]- تبدأ الوثيقة ببيان الأطراف المتحالفة فهي "**بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم**"؛ كما نصّ البند الأول (1) منها.

ثُمّ يقرر البند الثاني (2) "**أنهم أمة واحدة من دون الناس**"؛ أي: أنّهم أمة تربط أفرادَها رابطة العقيدة، فالإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين ويجعل منهم أمة واحدة، وأن جميع الفوارق

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 281/1.

[2]- أخرجه: أحمد، المسند، 504/11. وفيه: حجاج بن أرطاة صدوق يدلس، لكن يشهد له حديث جابر ﷺ في "صحيح مسلم (النووي)، 209/10"؛ فهو حسن بهذا الشاهد كما ذكر إبراهيم العلي في "صحيح السيرة، 138".

[3]- السيرة النبوية الصحيحة، 281/1. وينظر: السنن الكبرى، للبيهقي، 184/8.

[4]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 59/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 276/1.

[5]- خاتم النبيين، أبو زهرة، 670/2.

والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة[1]، فمفهوم الأمة قائم على أساس الدين دون غيره من العصبيّات الجاهلية.

[3]- كما أكّدت الوثيقة على المسؤولية الجماعية، واعتبرت سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة[2]؛ حيث جاء البند الثالث عشر (13)[3] من "دستور المدينة": «**وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى** منهم أو ابتغى دَسِيعة ظلم[4]، أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم»، وفي البند الخامس عشر (15): «وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، **وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس**»[5].

[4]- أما ما جاء في الوثيقة عن القصاص كما أشار المستشرق "شاخت-Schacht" في مادة "القصاص"؛ فورد في البند الواحد والعشرين (21): «وإنّه من اعتبط[6] مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى وليّ المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه»[7]؛ أي: أنّ من قُتل بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به ويقتل، إلا إذا اختار أهل القتيل أخذ الدية بدل القصاص أو وقع منهم العفو[8].

وبنصّ هذا البند يُعلم الخطأ الذي وقع فيه المستشرق "شاخت" عندما قال: «**فيجري عليه القصاص، حتى لو أعلن وليّ الدم رضاه عما تَمّ**»؛ فالصواب عكس ذلك تماماً، فإنّ لوليّ الدم أن يرضى بالدية أو العفو عن القاتل بدل القصاص، لأنّ البند يقول: «... **إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل**».

ثُمّ إنّ عبارة المستشرق في حدّ ذاتها تحتاج إلى تدقيق، لأنّ وليّ الدّم - بطبيعة الحال- لن يرضى عن هذا الفعل، وإنّما نقول: يرضى بالدية أو العفو مع إنكاره للفعل الشنيع؛ وشتان بين الأمرين.

ثُم إن البند يوجب على كافة المؤمنين -بما فيهم أهل القاتل- أن يتعاونوا على تطبيق الحكم عليه وعدم حمايته مهما بلغت درجة قرابته[9]، وهو ما عبّر عنه المستشرق "شاخت" بالدور الفّعال ضد القاتل.

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 501/1. وفقه السيرة، البوطي، 153. والسيرة النبوية الصحيحة، 292/1.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 294/1.

[3]- حسب ترقيم الأستاذ أكرم ضياء العمري. ينظر: المصدر نفسه، 292/1-283.

[4]- **دَسِيعة ظلم**: أي عظيمةً من الظلم، ويجوز أن يراد بالدسيعة العطية، أي: ابتغى أن يدفع إليه عطية على وجه الظلم، فأضافها للظلم؛ لأنها سبب الدفع. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 423/5.

[5]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 502/1-503. والسيرة النبوية الصحيحة، 283/1.

[6]- أي: قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 348/7.

[7]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 503/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 283/1.

[8]- ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 172/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 295/1.

[9]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 295/1.

بهذا التعاون الفاضل تستقر الأمور على خير الجماعة، وما يجلب لها النفع، ويدفع عنها الضر؛ وذلك يشير إلى حرمة كل شخص على أهله في دائرة البر لا في دائرة الاعتداء أو الانتقام[1]، وبذلك انتقل "القصاص" من "نطاق العصبيّات القبلية الجاهلية الضيّقة إلى رحابة المجتمع الديني [أو: الأمة] وانعكس ذلك في التشريع" كما أفاد المستشرق "شاخت-Schacht".

رابعا- وثيقة معاهدة اليهود: لئن كان النبي ﷺ بإخائه بين المهاجرين والأنصار بلغ الغاية في الحكمة والتدبير، فقد كان العمل البارع الآخر الذي يدل على الحنكة السياسية والقدرة الفائقة على سياسة الأمور هو ما قام به من موادعة اليهود ومحالفتهم، حيث كتب كتابا وادع فيه اليهود وعاهداهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم[2]، وأخذ منهم العهد على التعاون السياسي والعسكري كما سبق تفصيله، وهو بدون أدنى شك عمل عظيم "**ينمّ عن مواهب النبي محمد ﷺ الدبلوماسية[3] العظيمة**" كما قال المستشرق "بول-Buhl"، وتظهر المزايا البديعة لهذا العمل الدبلوماسي الهام من خلال المعطيات السياسية والاجتماعية الآتية:

[1]- عندما جاء النبيّ ﷺ إلى المدينة، وجد بها يهودا توطّنوا، ومشركين مستقرين، وبوجود النبي ﷺ على رأس المسلمين المهاجرين والأنصار وسط هذين الفريقين؛ اهتمّ بصلة الأمّة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها، وقد سنّ الرسول ﷺ في ذلك قوانين التسامح والتجاوز، التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصّب والشحناء.

ذلك أنّ الرسول ﷺ لم يتّجه تفكيرهُ إلى رسم سياسةٍ للإبعاد والإقصاء أو المصادرة والخصام، مع كونه في موقف قوة، بل قبِل - عن طيب خاطر- وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهداهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه[4].

[2]- بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة، فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم، فتراعى حرمة العقيدة، ولا يكون لأحد عليهم سبيل فيها[5].

---

[1]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 675/2.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 57/2.

[3]- **دبلوماسية:** مصدر صِناعي، يقصد به **بالمعنى العام:** براعة التّعامل مع الآخرين، وطريقة تعاملٍ بين النّاس تقوم على التّوصُّل إلى الهدف بوسائل بعيدة عن العنف، تتّسم باللّباقة والدّهاء، وتقول: رجُلٌ دِبلوماسِيّ: أي لبِقٌ بارِعٌ في التعامل مع الآخرين. **وبالمعنى الخاص:** هو مصطلح سياسي يختصّ: بفنّ ممارسة العلاقات الدّوليّة وفق نظم ووسائل، مثل: التّفاوض، أو إبرام المعاهدات والاتّفاقات.
ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة باحثين، 261/10. معجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار مع فريق عمل، 723/1.

[4]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 183.

[5]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 674/2-675.

[3]– بمقتضى هذه الوثيقة أصبح سكان المدينة المنورة آمنين فيها من القتل والاغتيال والغدر، ولكلٍّ دينه الذي هو عليه[1].

[4]– وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرما آمنا، وأصبح كلّ من المسلمين واليهود في أمنٍ من جانب الآخر[2].

[5]– هذا الميثاق يجعل أهل المدينة المنورة مسلمين ويهودا أهل ولاء واحد، عدوهم واحد، ومناصرتهم واحدة، وذلك ليكون أمن الجميع واحدا، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة المنورة فقد هاجم المدينة كلها، حيث أصبح اليهود ملزمين بمعاونة المسلمين إذا ما دهم المدينة عدو؛ وبذلك توحّدت صفوف أهل المدينة وأصبح لهم هدف واحد؛ هو الدفاع عن المدينة ضد كل اعتداء خارجي[3].

[6]– لقد أنجز الرسول ﷺ بهذه المعاهدة الاستعدادات كافة لِحشد قواته في مكان واحد تحت قيادة واحدة، فأصبحت مهيّئة للدفاع عن الإسلام[4].

خامسا– الردّ على دعاوى "فنسنك" و"بارت" و"بول" حول معاهدة اليهود: لكن المستشرقين ما كانوا ليدعوا هذه المزايا العظيمة لِمعاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة تظهر للقارئ دون أن يقدّموا شبهات تعمّي عليها وتشوّش وضوحها، ولَمّا كانت بنود الوثيقة وملابساتها غاية في الدلالة على سماحة الإسلام وحكمة نبيّه ﷺ، نجد بعض المستشرقين من كتّاب "دائرة المعارف" توجّهوا إلى مسلكين آخرين من شأنهما أن يعمّيا على الخصائص البديعة لهذه المعاهدة، وهما:

المسلك الأول: محاولة تحريف تاريخ كتابة المعاهدة؛ فتأخيرهم لتاريخ المعاهدة إلى وقت متأخّر يعزل الحادثة عن سياقها الزمني الصحيح، وما توحيه المعاهدة في ذلك السياق الزمني من أبعاد سياسية واجتماعية سبق التنبيه إليها، والتي منها: سماحة نبي الإسلام ﷺ وتعايشه مع أصحاب الأديان، وقدرته على سياسة الأمور بنجاح.

وهو ما ذكره المستشرقان "فنسنك-Wensinck" و"بارت-Paret" في مادة "[بنو] قينقاع" نقلا عن المستشرق "وات-Watt" في كـــتابه "محمد في المدينة"، ثم كـــرّره المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:39".

والمسلك الثاني: محاولة "بول-Buhl" التشكيك في أصالة الحادثة لعدم ذكر القرآن الكريم لَها.

وجواب هاذين المسلكين في التشويش على أهمية معاهدة يهود المدينة فيما يلي:

---

[1]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت، 73.

[2]– السيرة النبوية، أبو شهبة، 60/2.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 676/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 60/2. والرسول القائد، محمود شيت، 73.

[4]– الرسول القائد، 73.

[1]- حول تاريخ كتابة معاهدة النبي ﷺ لليهود: أمّا **المسلك الأول** الذي استند إليه هؤلاء المستشرقون -زيادة على كونهم قدّموا هذا الزعم دون أيّ مبرّر أو دليل تاريخي- فإنّ في مصادر السيرة والتاريخ التي ذكرت الحادثة ردّ كاف على دعواهم، لأنّ المصادر صرّحت بأن موادعة اليهود تَمّت أول قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة[1]، يقول البلاذري: «وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادع يهودها وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه وأن ينصروه على من دهمه»[2].

ويقول الطبري: «ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة مُنصرَفه من بدر، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها، على أن لا يعينوا عليه أحداً وأنه إن دهمه بها عدو نصروه»[3]، وهكذا يبيّن بوضوح نصُّ الطبري أن وثيقة موادعة اليهود كانت عند قدومه ﷺ المدينة قبل غزوة بدر.

كما أنّهم عندما يقولون بأنّ المعاهدة وقعت بعد التوتر الذي حدث عقب ذلك مع اليهود، فإنّ هذا الكلام غير محرّرٍ تاريخيّا لِما يلي:

أ)- أنّ التوتّر الذي أشار إليه إنّما وقع بعد غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة[4]، وبالتالي فالقول بذلك يحدث ثغرة في سياق الأحداث، ألا وهي: كيف كانت علاقة الرسول ﷺ مع اليهود بعد دخوله المدينة إلى غاية ما بعد غزوة بدر؟ **والجواب** على هذا السؤال يقتضي احتمالين؛ **الأول:** أنّ اليهود كانوا في خصومة مع الرسول ﷺ وهذا لم يقل به أحد حتى المستشرقون أنفسهم.

والاحتمال الثاني: أنهم كانوا متوافقين معه وآمنين على دينهم مع ذلك، وهو ما تدلّ عليه بنود الوثيقة، ويشهد له عدم الدخول في نزاع مع اليهود إلاّ بعد غزوة بدر.

فزعْمُ "فنسنك-Wensinck" و"بارت-Paret" و"بول-Buhl" إنّما ينطبق عليه الاحتمال الأول وهو باطل تاريخيا لأنّه لا يوجد ما يدلّ على وقوع نزاع مع يهود المدينة قبل بدر؛ وبالتالي فهذا الإشكال يضعف زعمهم ويردّه.

ب)- كما أنّ نص الطبري السابق يؤكّد أنّ الحلف إنّما وقع قبل هذا التوتّر أصلا.

ج)- إضافة إلى ذلك: نجد بنود الحلف تشير إلى أنّه وقع قبل حصول أيّ توتر أو اختلاف مع اليهود، ذلك أنه ينصّ على التعاون السياسي والعسكري مع اليهود عندما يَدْهم المدينة تهديد خارجي، ولا يُعقل التحالف على ذلك بعد التوتر والنزاع خاصّة، بل غالبا ما يكون التحالف بعد النزاع على الاكتفاء بالتوافق على ما يزيل أسباب النزاع والخلاف، وهو ما لم يُذكر في الوثيقة.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 276/1-277.

[2]- أنساب الأشراف، 286/1.

[3]- تاريخ الطبري، 479/2.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 480/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 299/1.

د)– بل إنّ في التوتّر الذي ذكره المستشرق ردّ على دعواه، لأنّ سبب وقوع التوتّر هو نقض اليهود لعهد النبي ﷺ وميثاقه الذي كان بموجب هذه الوثيقة[1]، وفي ذلك دليل على تقدّم آخر الوثيقة على التوتّر.

[2]– جواب المسلك (2): حول عدم ذكر القرآن لمعاهدة اليهود: أما استناد "بول-Buhl" إلى هذا المسلك فسبق الكلام عليه مراراً، **وحاصله:** أنّ القرآن كتاب هداية وليس كتاب تأريخ؛ فلم يستوعب جميع أحداث السيرة، وإنّما ذكر بعضها للموعظة وأخذ العبرة منها، ولا يعني عدم ورود حادثة ما في القرآن الكريم أنّها غير صحيحة، فالقرآن من مصادر السيرة وليس هو المصدر الوحيد، بل هناك مصادر أخرى كالروايات الحديثية والتاريخية وغيرها.

والعجب من المستشرق كيف يحاول توهين الثقة بحادثة ما بعدم ورودها في القرآن مرات في مادة "محمد ﷺ"، ثم نجده ينكر بعض الحوادث التي ذكرها القرآن ونصّ عليها[2]، وهذا إنّما يدلّ على: أنّه يكيل بمكيالين، وأنّه ليس له منهج منضبط في التعامل مع روايات السيرة النبوية، وعلى أنّه تَحكُمُه العصبية العقدية والخلفيات الفكرية الاستشراقية وما تخدمه من أهداف معلومة.

ثم إنّ "بول -Buhl" نفسه يوهن قوله عندما يذكر الآية التي تشير إلى المعاهدة، أمّا إنكاره لدلالة الآية على المعاهدة فلا عبرة به، لأنّ العبرة في ذلك بأقوال المفسرين الذين ذكروا بأنّها تدل على معاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة أول قدومه إليها[3]، مع التنبّه إلى أنّه حتى ولو لم يكن في الآية دلالة على الحادثة فليس في ذلك دليل على عدم أصالتها لأنّ القرآن لم يستوعب أحداث السيرة كلّها كما تقدّم.

سادسا– أمّا قول المستشرق "بول-Buhl": أنّ "**المواد التي نصّت عليها هذه الوثيقة لم يكن لها مع ذلك أهمية عملية كبيرة**"، فهو مناقض لقوله قبل ذلك في الفقرة نفسها عن "دستور المدينة": أنّه "**يضع فيه الاعتبارات العملية في المقام الأول**"، ومن أين عرف المستشرق "بول" أنّ "دستور المدينة" يقوم على الاعتبارات العملية، لولا ما توحيه موادّه من الأهمية العملية في تلك الأحوال الخاصة لدولة الإسلام.

يقول الأستاذ أحمد الشريف: «ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم»[4].

كما أنّ المزايا الاجتماعية والسياسية للوثيقة –المذكورة آنفا– من الشواهد البيّنة على الأهمية العملية لهذا الدستور في تلك المرحلة الحاسمة من سياق أحداث السيرة النبوية.

---

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 21/2–22. وتاريخ الطبري، 479/2. والسيرة لأبي شهبة، 394/2–395.

[2]– ينظر: ص499.

[3]– ينظر: تفسير البغوي، 146/1 و302/2. وتفسير الرازي، 497/15. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 43/10.

[4]– مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 316.

سابعا- استمراريّة جلّ الأحكام التشريعية للوثيقة: أمّا قول المستشرق "بول-Buhl": أنّ مواد الوثيقة "**باتت غير ذات موضوع بسبب التغير السريع الذي طرأ على الأحوال في المدينة**"، فإن قصَد بذلك نقض بنود المعاهدة مع اليهود فهذا الإطلاق صحيح، مع بقاء ما توحيه تلك الوثيقة في الظرف الزماني الذي قامت فيه من معاني سماحة رسول الإسلام ﷺ وقدرته على سياسية الأمور، أمّا ما يتعلّق بالنواحي التشريعية للوثيقة فقد بقيت جملة من أحكام بنودها سارية المفعول، كما دلتّ على ذلك نصوص من الوثيقة وردت في «أحاديث صحيحة؛ احتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم»[1].

وأذكر على سبيل المثال -لا الحصر- بعض الأحكام السارية التي أكدّها القرآن أو النبي ﷺ بعد ذلك في عدة مناسبات، والتي منها:

- أنّ المسلمين أمة واحدة.
- تَحريم المدينة[2].
- أنّ المردّ عند الاختلاف إلى الله ورسوله ﷺ.
- تشريع القصاص[3].
- أنّه لا يُقتل مؤمن بكافر؛ وهو ما نصّت عليه الوثيقة، وأكد الرسول ﷺ بعد ذلك يوم فتح مكة[4].
- كما أنّ هناك نصوصاً تشريعية تطابق ما في "الوثيقة التي بين المهاجرين والأنصار" ذكرها رسول الله ﷺ في مناسبات أخرى متأخرة عن وقت كتابة الوثيقة[5]؛ مِمّا يدلّ على استمراريّة ما جاء فيها بتأكيد النبي ﷺ لكثير من أحكامها بعد كتابتها بزمن.

فهذه الشواهد وغيرها تدلّ على عدم صحة إطلاق "بول-Buhl" لكون بنود الوثيقة لم تكن ذات بال بعد ذلك، فكان الأولى أن يُقيِّد كلامه بمعاهدة اليهود، التي وقع نقضها بعد ذلك.

والحاصل: أنّ النبي ﷺ استطاع بهذه التدابير المحكمة عند وصوله للمدينة المنورة أن يُحقّق الوئام والتآلف بين الأطياف المختلفة فيها، الأمر الذي عزّز جانب الأمن والاستقرار الاجتماعي والسياسي في مجتمع المدينة.

---

[1]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 275/1.

[2]- كما في: صحيح البخاري (الفتح)، 336/6. والسيرة النبوية الصحيحة، 279/1-280.

[3]- ينظر: التفسير المنير، الزحيلي، 201/5.

[4]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 279/1.

[5]- ينظر تفصيل ذلك في: المصدر نفسه، 280/1-281.

المبحث الثالث : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ونصرة الأنصار للنبي ﷺ وأصحابه

يتطرق هذا المبحث إلى تفصيل الكلام حول طبيعة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة، ومدى أهميّة هذا الإجراء، وإلى الأثر الكبير للأنصار من الأوس والخزرج على السواء في نصرة دين الله عزّ وجلّ ونبيّه ﷺ، خلافا لبعض المستشرقين الذين حاولوا التشكيك في ذلك.

المطلب الأول : مصطلح المهاجرين والأنصار وأسباب المؤاخاة وآثارها

الفرع الأول : إطلاق مصطلح المهاجرين والأنصار

أولا- عرض ما جاء في "دائرة المعارف":

– جاء في مادة "**الأنصار**" [فقرة: 2]: «**لقب الذين آمنوا بالنبي من أهل المدينة وآووه وأيدوه بعد هجرته من مكة، ويقال لهم أحيانا "أنصار النبي"... ويظهر أن محمداً استغل التشابه الموجود بين لفظ أنصار ونصارى فجعل عيسى يطلق على الحواريين "أنصار النبي" (سورة آل عمران آية 52. سورة الصف، آية 14)، وكثيرا ما يردد النبي أن المؤمنين يجب أن يكونوا أنصاراً لله، وهو يخص الأنصار والمهاجرين بأنهم السابقون إلى الإسلام، وقد تبعهم باقي المؤمنين (سورة التوبة، آية 100). وإذا استثنينا الآية (117) من سورة التوبة فإن الآية (100) منها هي الآية الوحيدة التي أطلق فيها لفظ الأنصار بصفة مباشرة على المؤمنين من أهل المدينة**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** - Reckendorf[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- مفهوم "الأنصار" لغة واصطلاحا:

أ)- لغة: الأنْصار: جمع ناصِر، وقد نَصَرهُ يَنْصُره نَصْراً، إذا أعانَه على عدُوِّه وشَدّ منه[3].

قال الزبيدي: «الأنْصار: وهم أَنْصار النبيّ ﷺ من الأوس والخزرج[4]، نصروا النبيَّ ﷺ فِي ساعةِ العُسرة، غلَبَتْ عليهم الصِّفة فَجرى مَجْرى الأسماء، وصَارَ كأنّه اسمُ الحيّ»[5].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 54/3.

[2]- سبقت ترجمته في: ص249.

[3]- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 64/5. ولسان العرب، ابن منظور، 211/5.

[4]- **الأوس:** بطن عظيم من الأزد، يُنسبون إلى: الأوس بن حارثة. **والخزرج:** يُنسبون إلى: الخزرج بن حارثة. وهما ابنا "قيلة" وهو اسم أمّهم، أمّا أبوهم فهو: حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر الأزدي، موطنهم الأصلي باليمن، ثم هاجروا إلى المدينة قبل الإسلام.
ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 140/7. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 50/1 و343.

[5]- تاج العروس من جواهر القاموس، 225/14.

ب)- **واصطلاحا:** هم أولئك الذين استجابوا إلى الإسلام ونصروا رسولَ الله ﷺ وآووْا أصحابَه من أهل المدينة أوسها وخزرجها، وهو لقب إسلامي؛ فقد سماهم اللّه تعالى بذلك في كتابه العزيز[1]، وأثنى عليهم، لنصرتِهم رسول اللّه ﷺ[2].

[2]- مفهوم "المهاجرين" لغة واصطلاحا:

أ)- لغة: المهاجرون جمع مهاجر؛ والهِجرة: الخُروج من أرض إلى أرض، والهجر: ضد الوصل، وهَجرتُ الشّيء هجراً إذا تركتُه وأَغفلته، وَسُمّي الْمهاجرون بذلك: لأنهم تَرَكوا ديارهم ومساكِنهم لله، فكُلّ مَن فارَق بلدهُ وسكَن بلدًا آخَر، فهو مُهاجرٌ[3].

ب)- واصطلاحا: هم الْمؤمنون الذين هاجروا من مكة وما حولَها إلى المدينة فرارا بدينهم وامتثالا لأمر الله تعالى[4].

[3]- الردّ على فرضيّة المستشرق "ركندورف" حول إطلاق لقب الأنصار: أمّا قول المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأنصار" بأن: «**محمداً ﷺ استغل التشابه الموجود بين لفظ أنصار ونصارى فجعل عيسى يطلق على الحواريين "أنصار النبي" في سورة آل عمران وسورة الصف**»؛ فهو يريد أنّ يقرّر بذلك أمرين:

الأول: أنّ القرآن الكريم من تأليف النبي محمد ﷺ، وهو ما دندن كثير من المستشرقين في "دائرة المعارف"، وسبق الجواب على ذلك في الباب السابق[5].

والثاني: أنّ النبي محمداً ﷺ اختلق تلك القصّة اعتماداً على التشابه المذكور.

لكن هذا الافتراض الذي طرحه المستشرق "ركندورف-Reckendorf" خاطئ لعدة اعتبارات منها:

أ)-أنّ الله تعالى هو الذي بيّن في القرآن: أنّ **عيسى أطلق على الحواريين "أنصار الله"**، وليس محمداً ﷺ.

ب)- إنّما جاء في القرآن: أنّ النبيَّ عيسى عليه السلام أطلق على الحواريين وصف "أنصار **الله**" وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف: 14]، وكذلك في سورة آل عمران [الآية: 52]، فقول المستشرق أنّه أطلق عليهم وصف "أنصار **النبي**" خطأ ظاهر.

---

[1]- في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: 100].

[2]- ينظر: تفسير البغوي، 382/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 169/9. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 181/3. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 306/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 41/2.

[3]- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 245/5. ولسان العرب، ابن منظور، 251/5.

[4]- ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 148/10. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 39/2. والسيرة الصحيحة، العمري، 234/1.

[5]- ينظر: ص326 وما بعدها.

ج)– ليس هناك حاجة أو هدف واضح يدعو النبي ﷺ لاختلاق قصّة تذكر أنّ الحواريين كانوا أنصارا لعيسى عليه السلام، فإنّه من البديهي أن يكون لكلّ نبي أتباعا مخلصين وأنصاراً معاونين، ولا وجه لِمحاولة ادعاء أنّ النبي محمداً ﷺ اصطنع قصّة أنصار عيسى عليه السلام.

د)– في مقابل ذلك كان هدف النبي ﷺ من إطلاق لقب "الأنصار" على المؤمنين من أهل المدينة واضحا وبيّنا؛ ذلك أنّ «النبي ﷺ عمل على إقامة الاستقرار بين الجماعة اليثربية، حيث فشلت لُحْمَة الدم -في المدينة- في أن تكون رباطًا يؤلف بين الناس، فأحلّ النبي ﷺ محلها رابطة العقيدة؛ وأصلح أولاً بين الأوس والخزرج، وحرص على إزالة كل ما من شأنه أن يذَكِّر بالعداء القديم بينهما، فجمعهما في اسم واحد هو: الأنصار؛ وإنا لنلمس هذا الغرض واضحًا في تسمية المسلمين من أهل يثرب بالأنصار، فقد عرفوا جميعًا بهذا الاسم، وصار علمًا عليهم جميعًا، وفي هذا إبعاد لروح العصبية وإدماجها تحت هذا الاسم الواحد، يذكرهما دائمًا بالتآلُف لغرض أسمى وهو نصرة المبدأ الإسلامي، والاندماج في غرض أكبر من الأغراض القبلية»[1].

فقد استحقّ "الأنصار" هذا اللقب لأنّهم نصروا دين الله تعالى ونبيّه محمداً ﷺ، وهو في الأصل وصف لهم، لكن "غَلبت عَلَيْهِمُ الصِّفة؛ فَجَرَى هذا اللفظ مَجْرَى الأَسماء وَصَارَ كأَنه اسْمُ الْحَيِّ" كما ذكر ابن منظور والزبيدي[2].

هـ)– معنى الآية (16) من سورة الصف هو: دعوة الله ﷻ جميع المؤمنين إلى أن ينصروا دين الله تعالى[3]، سواء كانوا مهاجرين أو أنصاراً ومن جاء بعدهم من المسلمين في كلّ زمان ومكان، وليست الآيتين محصورتين في الأنصار من أهل المدينة فحسْب كما ظنّ المستشرق "ركندورف"، فمن نصر دين الله في أيّ زمان ومكان بعد ذلك فهو من أنصار الله وداخل في هذه الفضيلة وممتثل لهذا الأمر الربّاني.

ثُمّ إنّ لقب الأنصار أطلقه القرآن الكريم على المؤمنين من أهل المدينة في موضعين من سورة التوبة؛ في الآية (100) ثم في الآية (117)، لذا فإنّه لا مبرّر للمستشرق "ركندورف-Reckendorf" عندما يستثني الآية (117) من سورة التوبة حتّى يقرّر بأنّ الآية (100) هي الوحيدة التي أطلق فيها لقب الأنصار على المؤمنين من أهل المدينة.

---

[1]– مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 315. وينظر: تاج العروس، الزبيدي، 225/14.

[2]– ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 211/5.

[3]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 279/4. وتفسير الرازي، 532/29. وتفسير ابن كثير، 113/8.

الفرع الثاني : أسباب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وآثارها

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**الأنصار**" [فقرة: 3]: «**وكان عدد من هؤلاء يعيشون على الكفاف، فاضطروا إلى الاستعانة في الرزق بإخوانهم من أهل المدينة... كانت جماعة المؤمنين تنقسم إذن إلى مهاجرين وأنصار، وظل هذان الفريقان منفصلين انفصالا واضحا بالرغم من أن محمداً قد جاهد من أول الأمر في أن يصل ما بينهما قدر طاقته، وذلك بمؤاخاته بين أفرادهما، وكان أخص صحابة النبي دائما من المهاجرين**»[1].

المحرر هو المستشرق: **ركندورف** - Reckendorf[2].

– وفي مادة "**بلال بن رباح**"[فقرة: 2]: «**ويقول ابن إسحاق إنّ محمداً آخى بينه وبين أبي رويحة الخثعمي، ولذلك ظهر اسمه في الديوان مع أبي رويحة... وتذهب رواية أخرى إلى أنّ هذه المؤاخاة كانت بينه وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وفي مادة "**سعيد بن زيد**": «**وهاجر سعيد إلى المدينة مع المسلمين حيث آخى النبي بينه وبين رافع بن مالك الزرقي أو أبيّ بن كعب كما في رواية أخرى**»[5]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك**-wensinck[6].

– وفي مادة "**الخزرج**"[فقرة: 1]: «**وتعرف هاتان القبيلتان بالأنصار تشريفا وتكريما لِما كان لهما من شأن هام في قيام الإسلام... ومهما يكن من الأمر فإن الحروب المتقطعة بين هاتين القبيلتين وما كان يعقبها من وقائع الأخذ بالثأر ظلت موصولة لا يخمد لها أوار، وحدث التغير الشامل نتيجة لِهجرة النبي محمد من مكة إلى يثرب... وهناك تعاهد مع القبائل التي كانت إلى ذلك الحين دائبة على مناهضة الدعوة الإسلامية، على معاونته في قتال عشيرته من أهل مكة**»[7]. المحرر هو: **كرنكوف**– F.Krenkow[8].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 40]: «**... كان ثَمة خطر آخر يتمثل في استمرار جذوة النّزاع القديم المرير بين الطائفتين الرئيسيتين بالمدينة، وهما الأوس والخزرج، وكان يمكن للنار أن تشتعل من جديد في أية مناسبة...**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 54/3.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 73/4.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 435/11.

[6]– سبقت ترجمته في: ص49.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 311/8-312.

[8]– **كرنكوف فريتس** "Freitz Krenkow" (1872-1953م): مستشرق ألماني الأصل، ثم انتقل إلى إنجلترا وعاش فيها، درَس اللغات الشرقية، واهتم بتحقيق ونشر كثير من الكتب الأدبية والتاريخية العربية، منها: "جمهرة اللغة لابن دريد"، و"المنتظم في التاريخ لابن الجوزي" وغيرها، ينظر: المستشرقون، العقيقي، 530/2-532. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 473.

وكان على محمد ﷺ أن يكوّن جماعة متآزرة من هذه العناصر المختلفة. وكانت أولى المشاكل كيفية توفير الوسائل اللازمة لإعاشة المهاجرين الذين كان معظمهم لا يملك شيئا. وقد خفف من حدّة هذه المشكلة، بصورة مؤقتة على الأقل، مؤاخاة محمد ﷺ بين كل مهاجر ورجل من المدينة، غير أن الآية السادسة من سورة الأحزاب التي نزلت بعد موقعة بدر تفسر عادة على أنّها إلغاء للمؤاخاة، على الأقل فيما يتعلق بالمواريث، ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ ﴾ **[الأحزاب: 6]**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

ثانيا- التحليل والمناقشة: لا شك أن تدفق المهاجرين إلى المدينة ولّد مشاكل اقتصادية واجتماعية كان لابد من مواجهتها بقرار حاسم، فكان أن شُرِّع نظام المؤاخاة[2].

صحيح أنّ الإسلام اعتبر المؤمنين كلّهم إخوة؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات: 10]، وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم والتناصر في الحق بينهم، لكنّ المقصود هنا هو المؤاخاة الخاصة التي شرعت بعد الهجرة إلى المدينة، وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة[3]، ويمكن إبراز أهم العوامل التي دعت إلى تشريع المؤاخاة من خلال النقاط الآتية:

[1]– الحاجة الاقتصادية للمؤاخاة: واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوعة؛ من بينها المشكل الاقتصادي، ذلك أنّ المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، كما أن مهارتهم كانت في التجارة التي تمرست بها قريش، و لم تكن في الزراعة والصناعة؛ وهما يشكّلان أساسين مهمين في اقتصاديات المدينة، وبما أن التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم في المجتمع الجديد بسهولة، وكانت مشكلة معيشتهم وسكناهم تواجه الدولة الناشئة[4].

فظهرت بذلك الحاجة الاقتصادية للمؤاخاة التي أشار إليها "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة: 40" والمستشرق "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأنصار" والتي تقتضي مشاركة المهاجرين للأنصار في شيء من أرزاقهم.

ثُمّ إنّ الأنصار لم يجدوا في أنفسهم حرجا أو غيظا في مقاسمة المهاجرين أموالهم ومساكنهم، بل طابت نفوسهم بذلك، ففتحوا لهم قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعوهم بصدورهم قبل أن

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9129-9130.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 239/1.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 240/1.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 241/1.

يسعوهم بأموالهم، وأبْدَوا من التضحية والإيثار، وسخاء النفس؛ ما استحقّوا به الثناء والتخليد في كتاب الله العزيز: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9][1].

وقد بلغ كرم الأنصار حدًّا عالياً عندما اقترحوا على رسول الله ﷺ أن: "يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين" لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم، لكن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين في التمر[2].

أثّرت هذه المعاملة الكريمة في نفوس المهاجرين وقرت أعينهم بها، فلهجت ألسنتهم بكرم الأنصار وإحسانهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «قال الْمهاجرون: يا رسول الله، ما رَأَيْنا مثل قومٍ قدِمْنا عليهم أحْسَن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلا في كثيرٍ، لقد كفَوْنا الْمَؤونة، وأشركونا في الْمَهْنَأ[3]، حتّى لقد حسِبْنا أن يَذْهبوا بِالأجر كلّه، قال: ((لا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ))»[4].

لكن «رغم بذل الأنصار وكرمهم فإن الحاجة إلى إيجاد نظام يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة ظلت قائمة خاصة أن أنفة "المهاجرين" ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على "الأنصار" فكان أن شرّع النبي ﷺ نظام المؤاخاة»[5].

فقد ألْهَم الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ بهذا العمل الذي يعتبر غاية في حسن السياسة وأصالة الرأي وبعد النظر، فعقد بين المهاجرين والأنصار أخوّة بها يتعاونون ويترافقون، ويتناصرون ويتوارثون[6].

وبتشريع المؤاخاة تَمّ معالجة تلك الحاجة الاقتصادية التي نجمت عن الهجرة إلى المدينة.

[2]- الحاجة الاجتماعية للمؤاخاة: وهي الحاجة التي أشار إليها كلّ من المستشرقين محرِّري مواد "الأنصار" و"الخزرج" و"محمد ﷺ" في الفقرات المذكورة.

شُرعت المؤاخاة **لعوامل اجتماعية** مختلفة؛ منها ما له علاقة بالمهاجرين والأنصار معا، ومنها ما هو خاص بالمهاجرين، ومنها ما هو خاص بالأنصار فحسب، والتي يمكن إبرازها من خلال النقاط التالية:

---

[1]- ينظر: فتح القدير، الشوكاني، 238/5. وسيرة أبي شهبة، 53/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 242/1.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، 143/7. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 242/1.

[3]- أي: ما يقومُ بِالكفاية وإصلاح الْمَعيشة، وقيل: ما يَأْتيك بلا تعب، والمعنى: أشْركونا في ثِمار نَخيلِهم وكفَوْنا مُؤْنَة سقْيِها وإصلاحِها، وأعطَوْنا من ثِمارها. ينظر: تحفة الأحوذي، المباركفوري، 159/7.

[4]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، 158/7. **وأحمد**، المسند، 361/20؛ واللفظ له. وقال الترمذي: صحيح حسن.

[5]- السيرة النبوية الصحيحة، 243/1.

[6]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 49/2.

– **العامل** (1): كان المجتمع المدني الناشئ محتاجاً إلى روابط توحّد بين مكوناته المختلفة الانتماءات القبلية والجغرافية، وهو عامل اجتماعيّ له علاقة بالمهاجرين والأنصار معا وبمجتمع المدينة ككلّ.

لهذا ابتدأ عمل الرسول ﷺ في المدينة المنورة بإيجاد الروابط التي تربط آحاد الجماعة الإسلامية، وتكون وحدة تضم العناصر المختلفة الأنساب والأماكن، وأن يجعل من ذلك المجتمع المختلف أنسابا وقبائل، مجتمعا مؤتلفا في شعوره، تُمحى فيه الفوارق، والأمور التي تفرق ولا تجمع، والأمم إنّما تتكون بتأليف القلوب المتنافرة، وبِجَمعها على عقيدة الإيمان بالله والخضوع لأحكامه، من هنا كانت المؤاخاة تتجه أولا إلى تكوين **وحدة الجماعة المؤمنة**[1].

ولعلّ هذا العامل الهام في المؤاخاة هو ما أشار إليه المستشرق "بول-Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ" بقوله: «**وكان على محمد ﷺ أن يكوّن جماعة متآزرة من هذه العناصر المختلفة**».

لقد جسّد نظامُ المؤاخاة أساس الارتباط في الإسلام، عندما جعل رابطة العقيدة هي الأساس الأول في اجتماع الناس وتآلفهم؛ وهي أعلى أنواع الروابط وأرقاها، إذ تتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[2].

إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقيدياً يرتبط بالإسلام، فلا مجال فيه للعصبيات «القبلية والعشائرية الجاهلية، حيث حرّم الإسلام ذلك فقال ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ))[3]»[4].

- **الردّ على ادعاء المستشرق "ركندورف" انفصالَ روابط الأخوة بين المهاجرين والأنصار:** ينبغي أن يُفهم التفريق بين المهاجرين والأنصار الذي ذكره "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأنصار": على اعتبار أنّ لكلّ من المهاجرين والأنصار خصائص تميز كلّ منهما عن الآخر؛ لكنّ المهاجرين والأنصار وإن افترقوا في بلدانِهم الأصلية التي نشأوا فيها، وعشائرهم التي ينتسبون إليها، واختصّ المهاجرون بفضل الهجرة، كما اختصّ الأنصار بفضل إيواء النبي ﷺ وأتباعه من المسلمين ونصرتِهم، فإنّهم كانوا دوما كتلة واحدة تجمع بينهم رابطة العقيدة، وفريقا واحداً ولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين.

– أضف إلى ذلك أنّ لقب "المهاجرين" و"الأنصار" بحد ذاته هو عامل ربط، وليس عامل تفريق بينهما؛ لأنّه يبيّن فضل كل منهما وتضحيته في سبيل هذا الدين أوّلاً، ثم لكونه يجلّي الرابط الذي جمع بينهما في نصرة الدين ثانيا، لأنّ المهاجرين إنّما هاجروا إلى الأنصار في المدينة، والأنصار إنّما نصروا

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 249/2 و252.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 663/1.

[3]– أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الأدب، باب في العصبية، 19/14.

[4]– السيرة النبوية الصحيحة، 293/1.

وآووا المهاجرين إليهم من مكة وغيرها، فعندما نقول "المهاجرين والأنصار": فإنّما نحدّد العلاقة المتينة بينهما في حقيقة الأمر.

– كما قرّر القرآن الكريم حبّ الأنصار للمهاجرين الذي وفدوا عليهم فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر: 9]، وهو الحبّ والإخاء الذي جسده الأنصار عندما عرضوا على الرسول ﷺ أن يقاسموا المهاجرين نخلهم -وهو مصدر رزق كثير منهم-[1]، كما عبّر المهاجرون عن شعورهم بمنّة الأنصار عليهم وحبّهم للأنصار الذين أكرموهم وأحسنوا إليهم عندما قالوا للنبي ﷺ: «ما رأينا قومًا أبْذَل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزَلْنا بين أظهرهم»[2].

– ونصَّ القرآن الكريم على تسمية الفريقين فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة: 100]؛ فأثنى الله عز وجلّ عليهم جميعا في هذه الآية، ولقّبهما بهذين اللقبين تنويها بما يدلاّن عليه من فضيلتهم، وذَكرهم جميعا في سياق المدح، وجَعلهم القدوة لجميع المسلمين بعدهم.

وما كان القرآن الكريم ليقرّ هذه التفرقة لو كانت تستلزم الاختلاف وعدم التوافق ثُم يدعو إلى الأخوة بين المؤمنين، لقد ظلّ المهاجرون والأنصار متوافقين متّحدين في نصرة الإسلام، منذ أن جمع بينهم هذا الدين، وجمع بينهم الرسول ﷺ بالمؤاخاة في المدينة، و لم يُذكر قطّ - أو يسجّل التاريخ- أنّه وقع بينهم شقاق أو نزاع كبير أدى إلى صراع دامٍ أو شقّ لصفّ جماعة المسلمين في حياة النبي ﷺ ولا بعد موته.

وهذا التفريق بينهما في التسمية هو كالتفريق بين المسلمين بالأسماء والأسر المختلفة مثلا، على أنّهم جميعا أمة واحة وإخوة في الإيمان.

ولعلّ المستشرق "ركندورف-Reckendorf" غابت عن فكره هذه المعاني عندما قال: بأنّ المهاجرين والأنصار "**ظلا فريقين منفصلين انفصالا واضحا رغم مؤاخاة النبي محمد ﷺ بين أفرادهما**".

– **العامل (2)**: كما أنّ مفارقة المهاجرين لديارهم وذويهم في مكة ولّد لديهم شعوراً بالوحشة والغربة في هذا البلد الجديد عليهم، فكان تشريع المؤاخاة عامل مواساة لهم، وسبيلا إلى إدماجهم في المجتمع المدني ليصيروا جزء من مكوناته، قال السهيلي: «آخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا

[1]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 143/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 242/1.

[2]– عند الترمذي وأحمد، سبق تخريجه: ص528. وهذا اللفظ للترمذي.

المدينة؛ ليُذهب عنهم وحشة الغربة ويُؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض»[1].

فهذا العامل له علاقة بالمهاجرين فحسب و لم تشر إليه نصوص المستشرقين المذكورة.

– **العامل** (3): أمّا العامل الذي له علاقة بالأنصار فحسب والذي أشار إليه محرِّرَي مادة "الخزرج" ومادة "محمد ﷺ" فهو: «أن الأنصار لم يكونوا متآلفين فيما بينهم، حيث كانت العداوة مستعرة الأوار بين الأوس والخزرج قبل إسلامهم، فكان لا بد من العمل على نسيانها، وذلك بالمؤاخاة المحمدية»[2].

فقد كان التنافر شديداً بين الأوس والخزرج قبل هجرة النبي ﷺ؛ فكانوا يتقاتلون، وتقع بينهم الحروب من وقت لآخَر، وكان آخِر ما وقع من الحروب والنزاعات الدامية بينهم "يوم **بُعاث**"[3] الذي قتل فيه خلق كثير من الطرفين وفيهم من أشرافهم وأكابرهم، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة.

استشعر الأنصار حاجتهم – بعد التمزق والعداوة التي أحدثتها تلك الحروب– إلى من يؤلف بينهم، وحاجتهم إلى عقيدة تجمع شملهم، وتمكنهم من العيش بهدوء وسلام من جديد، فلمّا عرض الرسول ﷺ عليهم الإسلام قالوا: "إنا تركنا قومنا وبينهم ما بينهم من العداوة والبغضاء، فإن يجمعهم الله بك؛ فلا رجل أعزّ منك"[4]؛ وقد حقق الله تعالى رجاءهم هذا، **فصاروا بعد أن أنعم الله عليهم بالإسلام إخوانا متحابين متآلفين**، فكان محمد ﷺ هو الجامع بينهم، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم، وقد ذكّرهم الله بهذه النعمة في قوله عز شأنه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103][5].

• **محاولة "بول-Buhl" التعمية على تأليف الإسلام بين الأوس والخزرج:** حاول المستشرق "بول" التّعميةَ على هذا التآلف الواضح بين الأوس والخزرج الذي حصل بالإسلام وبنبيّه ﷺ، عندما ادّعي "**استمرارَ جذوة النّزاع القديم المرير بين الأوس والخزرج**"، ثُم حاول تبرير ذلك بقوله: «**وكان يمكن للنار أن تشتعل من جديد بينهم في أية مناسبة**»، لكنّ هذا الاستنتاج تردّه الحقائق التاريخية للسيرة، ومنها:

---

[1]– الروض الأنف، 178/4.

[2]– خاتم النبيين، أبو زهرة، 666/2.

[3]– **بُعَاث:** هو مكان على بعد ميلين من المدينة، حدثت فيه وقعة عظيمة بين الأوس والخزرج، كان النصر فيه للأوس على الخزرج، وقُتل فيها الكثير من الطرفين، وكانت قبل الهجرة بثلاث أو خمس سنين. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 555/1–556. وفتح الباري، ابن حجر، 141/7.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 429/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 41/2–42.

[5]– ينظر: خاتم النبيين، 589/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 42/2.

أ)– لعلّ المستشرق "بول-Buhl" يشير بقوله "**كان يمكن للنار أن تشتعل من جديد بينهم في أية مناسبة**" إلى وقائع نادرة جاءت في بعض الروايات؛ أذكر منها: ما جاء عند ابن إسحاق وغيره: أنّ رجُلاً مِن اليهود مَرَّ بملأٍ من الأوس والخزرج، فساءَه ما هم عليه مِنَ الاتِّفاق والأُلْفَة، فبَعَث رجلاً معه وأَمَره أَنْ يَجلس بَيْنهم ويُذَكِّرهم ما كان مِنْ حروبِهم يوم بُعاث وتلك الْحروب؛ ففعَل، فلَمْ يزَلْ ذلك دأْبُه حتّى حَمِيَت نفوس القوم وغضب بعضهمْ على بعض، وتَثَاوروا، ونادَوْا بشِعارهم وطلَبُوا أسلِحَتهم، وتَوَاعدوا إلى الْحرّة، فبَلَغ ذلك النّبيَّ ﷺ فَأَتَاهُمْ فجَعَل يُسكِّنهم ويقول: ((أبدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وأَنَا بَيْنَ أظْهُرِكُمْ؟)) فعَرَف القومُ أنَّها نزعةٌ مِن الشّيطان، وكَيْدٌ من عدوِّهم، فنَدِموا على ما كان منهم، وأَلْقَوا السّلاح، واصْطَلحوا وتعانقوا، ثُمّ انْصَرفوا مع رسول الله ﷺ سامِعِين مطيعين ﷺ[1].

فهذه الرواية تبيّن بوضوح مدى المغالطة التي في قول المستشرق "بول-Buhl"، وتبرهن على عدم موافقة استنتاجاته لواقع الروايات التاريخية، وأنّه اعتمد "**منهجية الانتقاء الكيفي**" في تحليل هذه الروايات؛ حيث **ذكر**: – إمكانيّة وقوع نزاع بين الأوس والخزرج في أية مناسبة.

لكنّه **لَم يذكر**: – أنّ النبي ﷺ كان سيعالج أيّ نزاع قد يحدث بينهم.

– وأنّ الإسلام سيجمع بينهم من جديد ويجعلهم يدركون خطأهم ويندمون على تصرفهم.

– وأنّهم وإنّ نزغ الشيطان بينهم في لحظة غضب فسيرجعون بسرعة إلى أخوة الإسلام.

كلّ هذه الأمور التي تدلّ عليها الرواية لم يذكرها المستشرق؛ وانتقى أمراً واحداً لغرض التعمية على المنقبة العظيمة للنبيّ ﷺ – بتوفيقٍ من الله تعالى– في التأليف بين الأوس والخزرج بالإسلام.

ب)– بعد أنّ ألّف الله عز وجلّ بين الأوس والخزرج بالإسلام وآخى بينهم الرسول ﷺ لم نسمع أنّه وقع بينهم عداوة أو خلاف حقيقي أدّى إلى حرب دامية أو نزاع مرير، وإنّما كانوا متآخين بالإسلام متعاونين على نصرة نبيّه ﷺ، ومازالوا كذلك في حياة الرسول وبعد مماته، فبالإسلام ونبيّه ﷺ قُطع دابر العداوة والبغضاء القديمة بينهم، وحلّ محلّها التآلف والتآخي، وهي نعمة امتنّ الله ﷻ بها عليهم في القرآن فقال: ﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا**﴾ [آل عمران: 103]، وما كان الله تعالى ليذكّرهم بهذه النعمة لو لم تكن واقعا مُعاشا بينهم.

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 555/1. تفسير الطبري، 627/5-628. وتفسير ابن كثير، 90/2. لكن في الرواية ضعف لما فيها من الانقطاع، لكون ابن إسحاق أبهم عمن روى فقال: "حدثني الثقة". وينظر كلام ابن حجر على الحديث في "الإصابة، 306/1"؛ لكن ذكرتُها على سبيل التنبيه إلى أنّها لا تدلّ أصلا على ما زعمه المستشرق "بول".

قال الصالحي الشامي: «كانت الأنصار في غاية التّنافر والتقاطع لِما وقع بينهم من حرب بعاث وغيرها، فزال ذلك بالإسلام كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63]»[1].

فدعوى "بول-Buhl" تصادم حقائق السيرة النبوية الظاهرةَ كظهور الشمس في رابعة النهار.

لذا نجد في "دائرة المعارف" نفسها من المستشرقين مَن يقرّ بهذه الحقيقة التي حاول "بول-Buhl" التعمية عليها، وذلك عندما يقول المستشرق "كرنكوف-Krenkow" في نصه المذكور من مادة "الخزرج": «**فإن الحروب المتقطعة بين هاتين القبيلتين وما كان يعقبها من وقائع الأخذ بالثأر ظلت موصولة لا يخمد لها أوار، وحدث التغير الشامل نتيجة لِهجرة النبي محمد من مكة إلى يثرب**»؛ وفي هذا الكلام ردّ على دعوى "بول-Buhl".

[3]- التوارث بالمؤاخاة ونسخ ذلك: جعل الرسول ﷺ كل رجل من المهاجرين يؤاخي رجلاً من الأنصار، فيصير الرجلان أخوين بينهما من الروابط ما بين الأخـــوين من قرابة الدم، وأنزل الرسول ﷺ هذه القرابة الحكمية مَنْزلة الأخوة الطبيعية، بأن جعل المتآخيين يرث أحدهما الآخر، فإذا مات المهاجر ورثه أخوه الأنصاري، وإذا مات الأنصاري ورثه أخوه المهاجر[2].

بذلك ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة، بحيث: يتوارث المتآخون دون ذوي أرحامهم، وهذا ما يرقي بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم[3].

ظلّ المهاجرون والأنصار يتوارثون بهذا النظام إلى أن استقرت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ووضع نظام التوارث الإسلامي على أساس القرابة الطبيعية، قال ابن سعد: «كان ذلك قبل بدرٍ، فلمّا كانت وقْعَة بدر وأنْزَل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]؛ فنَسَختْ هذه الآيةُ ما كان قَبْلها، وانْقَطَعت المؤاخاة في الميراث»[4].

وهو الأمر الذي بيّنه المستشرق "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ".

فكان ذلك التوارث نظامًا مؤقتًا لِمعالجة ظروف استثنائية مرت بها الدولة الناشئة، فلما أَلِف المهاجرون جوّ المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم، رجع

---

[1]- سبل الهدى والرشاد، 410/5.

[2]- ينظر: مكة والمدينة وفي الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 315.

[3]- ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 231/1. وفتح الباري، ابن حجر، 338/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 244/1.

[4]- الطبقات الكبرى، ابن سعد، 184/1.

التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص الآية المذكورة[1].

قال السهيلي: « فلما عَزّ الإسلام واجتمع الشَّملُ وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]؛ أعني في الميراث، ثُمّ جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]؛ يعني: في التَّوادّ وشُمول الدّعوة»[2]، وهذا يعني: أنّ ما أُلغي من نظام المؤاخاة هو الإرث أما "النصر والتوادّ والتعاون" فباقٍ، وهو ما بيّنه النووي في قوله: «وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى، والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باقٍ لم ينسخ»[3].

وعليه **يمكن القول**: بأنّ المؤاخاة وإن كان ظاهرها التأليف بين المهاجرين والأنصار، فإنّ حقيقتها وآثارها أوسع من ذلك؛ فهي تألّف بين الأنصار أنفسهم، كما أنّها تدمج المهاجرين اجتماعيا واقتصاديا في مجتمع المدينة وتجعلهم أفراداً منه.

بذلك كانت المؤاخاة علاجا للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية الطارئة في آن واحد.

[4]- بعض مَن آخى بينهم النبي ﷺ: جاء في النصين السابقين من مادتي "بلال بن رباح" و"سعيد بن زيد" ذِكْر مع مَن تآخى هذين الصحابيّين.

وإنّما أوردت ما جاء في "الدائرة" من مؤاخاة النبي ﷺ بين: بلال وأبي رويحة[4]، وبين: سعيد بن زيد ورافع بن مالك[5] على سبيل المثال، وإلاّ فقد شملت المؤاخاة: **تسعين** رجلاً؛ **خمسة وأربعين** من **المهاجرين** و**خمسة وأربعين** من **الأنصار**[6].

وقد اعتنى ابن إسحاق بإيراد أسماء جملة منهم فيما نقله عنه ابن هشام في "سيرته"[7] فتراجع هناك.

---

[1]- ينظر: مكة والمدينة وفي الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 315. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، 245/1.

[2]- الروض الأنف، 177/4-178.

[3]- شرح النووي على مسلم، 123/16.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 507/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 176/3. والاستيعاب، ابن عبد البر، 178/1.

[5]- ينظر: الطبقات الكبرى، 292/3. وأنساب الأشراف، البلاذري، 270/1.

[6]- ينظر: الطبقات الكبرى، 184/1. وأنساب الأشراف، 271/1.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 505/1-507.

المطلب الثاني : مشاركة الأوس والخزرج معا في نصرة النبي ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الأوس**" [فقرة: 2]: «ولما حثّ محمد معظم أتباعه على مؤاخاة أهل المدينة –بعد وصوله إليها بقليل– كان بين أهل المدينة قليل من الأوس، وظل الكثير منهم زمانا طويلا بمعزل عن الإسلام، بل كانوا معادين له.

وكانوا أحيانا مصدر تعب للنبي لمعارضتهم له في الدين ولحيادهم في جهاده الديني وغير ذلك، ولكنهم اعتنقوا الإسلام بالتدريج، بل اعتـــنقته الأسر اليهودية التي كانت مندمجة فيهم سياسيا.

وشهدت أوس الله "أبا عامر" حانقا ثابتا في معاداته لمحمد حتى إنه ذهب إلى مكة الوثنية مع خمسين من قبيلته»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf[2].

– وفي مادة "**الأنصار**" [فقرة: 4]: «وآزر الأنصار النبي أيضا في نشر دعوته، وكان غالب أتباعه في أول الأمر من قبيلة الخزرج بالمدينة، وعلى ذلك فإذا قيل الأنصار كانت هذه القبيلة هي المقصودة، أما قبيلة الأوس فقد وقفت من النبي موقفا محايدا، إن لم تكن قد ناصبته العداء أحيانا[3]»[4].

المحرر هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 151/3.

[2]– سبقت ترجمته: ص249.

[3]– **تعليق "أحمد شاكر" على مادة "الأنصار"** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 56/3–57]: «ادّعى الكاتب في هذا الموضع دعاوى لا توافق شيئا من الحقائق التاريخية الثابتة، فإنّه لَم يزعم أحد قط أن لقب "الأنصار" إذا أُطلق كان المقصود به الخزرج فقط، بل الأوس والخزرج كلاهما أطلق عليهما اسم الأنصار، وإنّما رأى الكاتب كلمة فنقلها على غير وجهها، ولعلّه لم يصل إلى حقيقة معناها في اللغة العربية، ونصّها في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج3 ص460–462) في قصّة بيعة العقبة الثانية من رواية ابن إسحاق عن مَعْبَد بن كعب بن مالك عن أخيه عبيد الله عن أبيهما كعب بن مالك وكان مِمّن شهد العقبة: إنّ العبّاس بن عبد المطّلب حضر مع النبي ﷺ لقاءَه الخزرج والأوس في موعدهم بالشعب. قال كعب: ((فلمّا جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول متكلّم، فقال: يا معشر الخزرج، قال: وكانت العرب مِمّا يسمّون هذا الحيّ من الأنصار الخزرج: أوسها وخزرجها))، وهذا حديث إسناده صحيح، ورواه ابن هشام في السيرة من رواية ابن إسحاق أيضا (ص294–297 طبعة أوربا... فلم يفهم كاتب المقال وجه الكلام، وظنّ أنّ إطلاق اسم "الخزرج" على الأوس والخزرج معناه أنّ "الأنصار" لقب الخزرج وحدهم، وفاته أنّ العرب يسمّون الفريقين "الخزرج" كقاعدتهم في التغليب بالكثرة أو بالشهرة أو ما إلى ذلك، كقولهم "العمران" و"القمران" ونحوهما.

وكذلك نقل الكاتب ((أنّ الأوس وقفت من النبي موقفا محايداً إن لم تكن ناصبته العداء أحيانا)) إلى آخر ما ألقاه هنا كأنّه حقيقة تاريخية مقرّرة: فإنّه شيء لم نجد له مثيلا ولا شبيها مِمّا في أيدينا من كتب التاريخ والسير والأحاديث، ولا نرى شبهة له في نقله هذا، وإنّ الأوس كانوا والخزرج سواء في نصرة النبي ﷺ ودعوته إلى الإقامة بين أظهرهم، وكان الحاضرون من الأنصار في البيعة الأولى (12) رجلا منهم رجلان من الأوس، ثُمّ شهد بيعة العقبة الثانية (73) رجلا وامرأتان، منهم (11) رجلا من الأوس، وشهد غزوة بدر (314) رجلا، منهم (83) من المهاجرين و(61) من الأوس و(170) من الخزرج، انظر سيرة ابن هشام (ص485)».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 54/3.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

طرَح المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في هاتين الفقرتين بعض الإشكالات، ناقشه الشيخ أحمد شاكر في بعضها، وبعضها يحتاج إلى مزيد تفصيل؛ وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولا- إطلاق اسم "الخزرج" على "الأوس والخزرج" معا: وقع المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في مادة "الأنصار" في وهمٍ لغوي وتاريخي ظاهر عندما ذكر بأنّ اسم "الأنصار" إذا أطلق فالمراد به قبيلة "الخزرج" فحسب، إذ هو يخالف بذلك أصلين لغويّين وتاريخين هامين هما:

- **الأصل الأول:** هو أنّ تسمية "الأنصار" لقب أطلق على قبيلتي "الأوس والخزرج" معا، لا على الخزرج فقط؛ هذا ما قرّره علماء اللغة كابن الأثير وابن منظور والزبيدي وغيرهم[1]، وكذا علماء التاريخ والسير كالمقريزي وابن حجر والدياربكري وغيرهم[2].

قال الزبيدي: «الأنصار: وهم أنصار النبيّ ﷺ من الأوسِ والخزرج»[3]، وقال ابن حجر: «الأنصار هم الأوس والخزرج»[4].

- **والأصل الثاني:** هو أنّ اسم "الخزرج" قد يطلق في لسان العرب على قبيلتي "الأوس والخزرج" معا على سبيل التغليب، مثل قولهم: "العمران" لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، و"القمران" للشمس والقمر، و"الأسودان" للتمر والماء ونحو ذلك[5]، كما بيّن الشيخ أحمد شاكر -في تعقيبه المذكور على مادة "الأنصار"- وغيره كما سيأتي.

أمّا حديث العقبة الذي ذكره "أحمد شاكر" في تعقيبه: من "مسند أحمد"[6]، والذي فيه إطلاق "الخزرج" على "الأوس والخزرج" معا، فقد بيّن علماء السيرة -كما بيّن أحمد شاكر- أنّ ما جاء في هذا الحديث هو من باب التغليب في العربية، قال الزرقاني: «جرت عادتهم تغليب الخزرج على الأوس والخزرج معا»[7]، وقال الدياربكري: «وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج»[8].

---

[1]- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، 134/4. ولسان العرب، 255/2 و580/11. وتاج العروس، 524/5 و225/14.

[2]- ينظر: إمتاع الأسماع، 169/9. وفتح الباري، 12/7 و140. وتاريخ الخميس، 306/1.

[3]- تاج العروس من جواهر القاموس، 225/14.

[4]- فتح الباري، 12/7.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، 245/5. وتاج العروس، 227/8 و478/11.

[6]- من حديث كعب بن مالك ﷺ عند **ابن إسحاق وأحمد** سبق تخريجه في: 484.

[7]- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 75/2.

[8]- تاريخ الخميس، 318/1.

بل إنّ الصحابي كعب بن مالك ﷺ -راوي الحديث- نبّه إلى هذا الإطلاق اللغوي في الحديث نفسه فقال: «وكانت العرب، إنّما يُسمّون هذا الحي من الأنصار: الخزرج؛ **خَزْرَجها وأوْسَها**»[1].

ولعلّ المستشرق "ركندورف-Reckendorf" غفل عن هذا الاستعمال في اللسان العربي والقاعدة اللغوية فوقع في خلطٍ جعله يعتبر تسمية "الأنصار" تُطلق على الخزرج فقط، بدلا من الصواب الذي يقرّر أنّ "الخزرج" تطلق على "الأوس والخزرج" معا، وأنّ الأنصار هم الأوس والخزرج جميعا.

وبالتالي لا يصحّ القول بأنّ اسم "الأنصار" إذا أطلق فالمراد به قبيلة "الخزرج" فقط، وإنّما الصواب هو القول: بأنّ اسم "الخزرج" إذا أطلق فالمراد به قبيلتي "الأوس والخزرج" معا.

لذا يمكن تصويب عبارة المستشرق "ركندورف" على النحو الآتي: اسم "الأنصار" إذا أطلق فالمراد به "الخزرج" لكن على اعتبار أنّ "الخزرج" هنا قبيلتي "الأوس والخزرج" معا من باب التغليب.

ولعلّ ما أوقع المستشرق "ركندورف" في هذا الوهم أيضا هو محاولته تقريرَ أنّ قبيلة الأوس لم تنصر النبي ﷺ كما فعلت الخزرج، فأراد أن يخرج "الأوس" من مشاركة "الخزرج" في مسمّى "الأنصار" أولا، ثُم يخرجهم من مشاركتهم في نصرة النبي ﷺ ثانيا، وهو ما أفصح عنه بعد ذلك كما في النقطة الموالية.

ثانيا- ادعاء المستشرق "ركندورف" أنّ الأوس لم تشارك الخزرج في نصرة الرسول ﷺ: حاول المستشرق "ركندورف" إخراج "الأوس" من فضيلة نصرة الرسول ﷺ؛ فزعم بأنّ الأوس "**وقفت من النبي موقفا محايدا، إن لم تكن قد ناصبته العداء أحيانا**"؛ لكن هل من دليل على هذه الدعوى؟

الجواب: أنّه لا يوجد دليل على ذلك، بل إنّ الوقائع التاريخية الثابتة للسيرة النبوية تُـــبَرهن -على عكس ما ذكر "ركندورف-Reckendorf"- أنّ الأوس كانوا جنبا إلى جنب مع الخزرج في نصرة الرسول ﷺ، ومن الشواهد على ذلك:

أ)- أنّ "الأوس" كانت تنافس "الخزرج" في نصرة الرسول ﷺ ودينه، **بشهادة أحد** الصحابة **من الخزرج** وهو كعب بن مالك ﷺ الذي قال: « وكان مِمّا صَنَع الله به لرسوله ﷺ أنّ هذين الحيَّيْن من الأنصار "الأوس والخزرج"؛ كانا يَتَصاوَلان[2] مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلَيْن، لا تصنع الأوس شيئا فيه عن رسول الله ﷺ غناءٌ إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام؛ قال: فلا يَنتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك»[3].

ب)- نجد للأوس حضوراً في بدايات اتصال الأنصار بالرسول ﷺ في مكة، حيث:

---

[1]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 441/1.

[2]- **تصاولا:** أَي: لا يَفْعل أحدُهما معه شيئًا إلا فَعَل الآخرُ مِثله، على سبيل المنافسة. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 388/11. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار مع فرقة عمل، 1337/2.

[3]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 273/2. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 33/4.

- شارك الأوس في **بيعة العقبة الأولى:** فكانوا إثني عشر رجلا أنصارياً، منهم **اثنان من الأوس**[1].

- ثم شاركوا في **بيعة العقبة الثانية:** فكانوا خمسة وسبعين مسلمًا من الأنصار، منهم **أحد عشر من الأوس**[2].

ج)- كما نجد للأوس حضوراً في الغزوات الأولى والوقائع الكبرى مع الرسول ﷺ في نصرة الإسلام، حيث: - شارك في **غزوة بدر** الكبرى **من الأوس: واحد وستّون** (61) **رَجُلا**، وقيل أكثر من ذلك[3].

- وشاركوا في **غزوة أحد** أيضا؛ **واستشهد** منهم يومئذ **أكثر من ثلاثين** رجلا[4].

كلّ هذه الشواهد والحقائق التاريخية الثابتة تردّ قول المستشرق "ركندورف" وتبيّن عدم موافقة قوله للواقع الصحيح للروايات المشهورة المعروفة عند مَن له أدنى اطلاع على سيرة المصطفى ﷺ.

- **الجواب على تعميم المستشرق "ركندورف" الخاطئ:** لَم يكتف "ركندورف-Reckendorf" بالادعاء أنّ الأوس وقفت على الحياد من نصرة النبي ﷺ بل ذهب في زعمه إلى أبعد من ذلك عندما ادّعى في مادة "الأنصار" بأنها "**ناصبته العداء أحيانا**" وكرّر المعنى نفسه في مادة "الأوس"، وهذا في حقيقة الأمر تعميم خاطئ فيه ما فيه من المغالطة والتمويه، وفيما سبق إيراده آنفا من شواهد على المشاركة القوية للأوس في نصرة الإسلام ونبيه ﷺ إلى جانب الخزرج ما يغني عن الإعادة.

كما أشار المستشرق "ركندورف" في مادة "الأوس" إلى فتنة المنافق "أبي عامر بن صيفي" الذي أظهر النفاق في بداية الأمر، ثم لَمّا أسلم غالب قومه من الأوس خرج إلى مكة قبل غزوة أحد مع خمسين شاباً من الأوس والتحق بقريش وشارك معهم في "أحد" ضد المسلمين، وإنّما كان معه نفر من بعض بطون "الأوس" خاصة "أوس الله"[5] كما ذكر "ركندورف" نفسه في مادة "الأوس".

فقبيلة الأوس بطون كثيرة، من بينها "أوس الله" وهي بطن من بطون الأوس كانوا مشركين أو منافقين، وتأخّروا عن الإسلام إلى ما بعد غزوة الخندق[6]، لكن بطونا أخرى من الأوس دخلوا في الإسلام منذ بداياته الأولى قبل الهجرة، ووقفوا مع إخوانهم الخزرج في نصرة النبي ﷺ.

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 433/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 374/4.

[2]- ينظر: البداية والنهاية، 400/4. والقول المبين، محمد النجار، 166.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 706/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 323/1 و330.

[4]- ينظر: عيون الأثر، 44/2.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/1-438 و585-586 و67/2. وعيون الأثر، 255/1.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 438/1. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 258.

لِذا ينبغي **التنبّه** إلى أنّ: فريقا من قبيلة الأوس دخل الإسلام ونصر النبي ﷺ، أمّا هؤلاء الذين يتكلّم عنهم "ركندورف-Reckendorf" فهم فريق من الأوس ومن الخزرج أيضا، مِمّن تَمسّكوا بشركهم أو كانوا منافقين[1]، وهؤلاء لم يكونوا في عداد الأنصار ولا المسلمين يوما، بل كانوا منافقين معادين للإسلام منذ البداية، لذا **لا يصحّ هذا التعميم** الذي يوهم أنّ الأوس كلهم كانوا معادين للنبي ﷺ.

ذلك أنّ النبي ﷺ لَما قدم المدينة، وتآلف المهاجرون والأنصار، وصاروا قوة مرهوبة في المدينة، وصارت للنبي ﷺ الكلمة النافذة على المسلمين جميعا، لا فرق بين مهاجري وأنصاري، وصارت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية، والقيادة السياسية والاجتماعية؛ حقد عليه وعلى دينه بعض العرب مِمّن كانت له الزعامة في المدينة، كما حقد عليه اليهود الذين غاظهم أن يكون النبي المبعوث في آخر الزمان من العرب، وتآمر من هؤلاء وأولئك فئات على الشر وعداوة الإسلام، و لم يكن في استطاعتهم أن يعلنوا عن الحقد والشر الخبيء في قلوبهم، فلم يجدوا بدا من التستر بالإسلام، يظهرونه ويبطنون الكفر والحقد والضغينة على الإسلام والمسلمين، وهم من يسمّون في الإسلام بالمنافقين[2].

فقد بيّن ابن إسحاق والبلاذري وابن كثير وغيرهم أنّه: كان في المدينة منافقون من قبيلتي الأوس والخزرج، وحتى من اليهود[3]؛ هؤلاء هم مَن ناصب النبي ﷺ ودينه والمسلمين العداء، وليس الأنصارُ المسلمون من الأوس والخزرج كما يوهم كلام المستشرق، لذا فإنّ التفصيل الصحيح هو كالآتي: كان الناس في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها ينقسمون إلى:

- **مسلمين:** وهم المهاجرون والأنصار من أهل المدينة: من قبيلتي الأوس والخزرج معا.
- **ومنافقين:** بعضهم من الأوس وبعضهم من الخزرج، ومن اليهود أيضا.
- **ويهود.**

فالفئة الأولى من المسلمين كلّهم ناصروا نبي الله ﷺ ودينه، أمّا بقيّة الفئات فهي التي نابصته العداء، لكن في الأخير كانت العاقبة والنصر والعزة والسيادة للمسلمين كما يشهد بذلك تاريخ السيرة.

فلو أنّ المستشرق "ركندورف-Reckendorf" بيّن هذا التفصيل و لم يعمّم قوله بحياد الأوس وعداوتهم للرسول ﷺ، وبيّن أنّ فريقا من الأوس ناصبوه العداء –وهم المنافقون– فحسب؛ لكان كلامه أقرب إلى التحقيق العلمي، وأبعد عن التمويه والتعميم الأعمى.

---

[1]– ينظر تقرير ابن إسحاق لذلك في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 513/1.

[2]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 42/2-43.

[3]– أورد ابن إسحاق أسماء بعضهم كما في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 519/1-531. والبداية والنهاية، ابن كثير، 9/5-14.

المطلب الثالث : التشكيك في نصرة الأنصار للنبي ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الأنصار**"[فقرة: 5]: «ومن الأنصار جماعة فرّقوا بين ما يقدمونه إلى محمد من العون بصفته نبيّا وما يقدمونه إليه بصفته من رجال السياسة... وفيما عدا ذلك نجد الأنصار قد قصروا مساعدتهم أول الأمر على الذود عن الدين، ولم يساهموا في الحروب التي شُنّت في سبيل الدعوة إلا كارهين، بل لم يشترك واحد منهم قط في الحروب الأولى التي وجهت إلى مكة، وكانت قلة حماسهم في المبادرة إلى الجهاد كثيرا ما تقلق بال النبي حتى آثر الاعتماد على عون الله ما دام عون الإنسان ليس بقريب[1].

وأخذ الأنصار ينصاعون للنبي شيئا فشيئا، كان عليهم تأييده في دعوته وعدم مساعدة خصومه، مثال ذلك أنهم أمروا بأن يكونوا عيونا للنبي على الكفار من أقاربهم، على أنّهم في الوقت نفسه احتفظوا – إلى حد ما – بحقّهم في إبداء الرأي، وطالبوا بتوقير أشخاصهم، وهو أمر أقرّهم عليه النبي.

ولم يكن هناك ما يدعو الأنصار إلى الأسف على تأييدهم للنبي إذ تحقق ما ورد في القرآن من: أن الله ينصر من ينصره.

وما أن خلص الأنصار من المحن حتى تحسنت حالهم بتدفق الغنائم على المدينة ونفاق تجارتها... ومن الواضح أنه لم يكن ليجد مؤيدين يطمئن إليهم في أيّـــة بلدة كما وجد الأنصار في المدينة... وأصبحوا [أي: الأنصار] مضرب المثل في التقوى وظلوا مخلصين لذكرى النبي مبرزين في علم الحديث، وكانت هذه الفضائل هي التي ردّ بها الأنصار على تفاخر أهل مكة بجاههم، وكانوا يشيدون كذلك بأنهم وحدهم الذين آووا المؤمنين في محنتهم، وبأن النبي اعترف لهم بهذا الفضل»[2].

المحرر هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf[3].

– وفي مادة "**الخزرج**"[فقرة: 2]: «... ولقد كان السابقون إلى الإسلام من أهل مكة موضع تقدير الناس وتبجيلهم على الدوام، إلا أن الأنصار ظلوا بقية حياة النبي دعامة قوية»[4].

المحرر هو المستشرق: **كرنكوف**– F.Krenkow[5].

---

[1]– **تعليق "أحمد شاكر" على هذه الفقرة من مادة "الأنصار"**[دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/57-59]: «هذا كلام ليس فيه شيء من التحقيق العلمي، ولا هو مِمّا يوافق أدب التحدث عن الأنبياء فإنّ النّبي ﷺ أعلم الناس بالله، وأرجاهم له، وأشدّهم خشية لله، واعتمادا عليه، ولا يعتمد إلا على الله، ولا يرجو النصر إلاّ من عنده سبحانه وتعالى، وليس في شيء من الصدق أن الأنصار لم يجاهدوا إلاّ كارهين، فإنّ كلّ الروايات متضافرة على خلاف هذه الدعوى الباطلة... صريحة في أنّ الأنصار لَم ينكصوا عن الجهاد، ولَم يتردّدوا في بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الدعوة إلى الله، وإلى الدين الحقّ الذي آمنوا به، وعاهدوا نبيّهم على السّمع والطاعة والنصر والتأييد».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/54-55.

[3]– سبقت ترجمته: ص249.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 8/311-312.

[5]– سبقت ترجمته: ص526.

– وفي مادة "**سعد بن عبادة**" [فقرة: 2]: «**وقد أثبت سعد في سائر غزوات النبي أنه نصير للإسلام لا تفتر له عزيمة ولا يملّ له ساعد، وكثيرا ما حمل لواء المسلمين في هذه الغزوات، وعرف خاصة بشدة الجود، فقد فرق على المسلمين التمر من جيبه الخاص في حصار بني النضير، كما زود الجند الذين حاصروا بني قريظة بالمؤن، وكذلك أعان الحملة على تبوك بإعانة سخية**»[1].

المحرر هو المستشرق: **نسترشتين**-Zetterstèen[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 41]: «**لم يكن بوسع محمد ﷺ في البداية أن يعتمد في ثقة إلا على أولئك الذين هاجروا معه من مكة (وهم من سُمّوا بالمهاجرين) وقد بات لِهؤلاء الأتـــباع المخلصين –الذين بقوا على ولائهم لمحمد ﷺ وعلى إيمانهم بقضيته خلال الأعوام المكية العصيبة– مكانة خاصة بين المسلمين، وقد دخل الإسلام بعض أهل المدينة قبل وصول محمد ﷺ إليها، غير أنهم كانوا يشكلون نسبة صغيرة من سكان يثرب.**

وقد اعتنق أهل المدينة الإسلام، بطيئا في بادئ الأمر، ثم في أعداد أكبر، وقد سَمّى أولئك الذين أسلموا منهم أثناء حياة محمد ﷺ بالأنصار وباتت لهم أيضا مكانة خاصة داخل الأمة الإسلامية لا يعلوها غير مكانة المهاجرين، ولم يصادف محمد ﷺ معارضة مباشرة من قبل القبائل العربية في المدينة إلا من بضع عشائر مثل أوس اللات...»[3].

– وأيضا في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 42]: «**فأما عن الأنصار فلم يكونوا ملزمين بغير الدفاع على محمد ﷺ لو أنه هوجم**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول**-Buhl[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– نصرة الأنصار للنبي ﷺ والردّ على تشكيك "ركندورف" في ذلك: حاول المستشرق "ركندورف-Reckendorf" أن يشكّك في نصرة الأنصار للنبي ﷺ ودينه، فزعم بأنّهم "**لم يساهموا في الحروب التي شُنّت في سبيل الدعوة إلا كارهين**"، لكنّه اعتمد في تدعيم قوله هذا على تشويه حقائق السيرة النبوية واستنتاج فرضيات لا توافق الواقع الصحيح لرواياتها، وذلك وفق منهجية "**الانتقاء الكيفي**" التي سبق التنبيه عليها مراراً.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 407/11.

[2]– سبقت ترجمته في: ص112.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9128/30.

[4]– المصدر نفسه، إص3، 9137/30.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

غير أنّه أقرّ بتأييد الأنصار للنبي ﷺ ونصرته حين قال بعد ذلك: "**ومن الواضح أنه لم يكن ليجد مؤيدين يطمئن إليهم في أيّة بلدة كما وجد الأنصار في المدينة**"، لكنّه أراد اختلاق فرضيّة تخدش - على الأقل- في تأييدهم ونصرتهم، فزعم بأنّهم تراخوا في نصرته والجهاد معه.

وفيما يلي بيان الروايات والشواهد التاريخية الدالة على نصرة الأنصار لرسول الله ﷺ، وتفانيهم في ذلك برحابة صدر منذ بداية اتصالهم به إلى أنّ نزل المدينة وجاهدوا معه، فمن ذلك:

[1]- أبدى الأنصار منذ الوهلة الأولى لاتصالهم بالرسول ﷺ ومبايعتهم إياه وإيمانهم بدينه عَزْمَهم على نصرته والذود عنه بأموالهم وأنفسهم، بل بايعوه على ذلك كما في جاء روايات **بيعة العقبة الثانية**[1]: ففي حديث جابر الأنصاري رضي الله عنه: أنّ الأنصار لَمّا اجتمعوا بالرسول ﷺ في العقبة الثانية قال لهم: ((**تُبَايِعُونِي** عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ... **وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي**، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَزْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ))، قال: «فقُمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو من أصغرهم- فقال: **رويدا يا أهل يثرب**، فإنّا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، **وإنّ إخراجَه اليوم مُفَارقة العرب كافّةً، وقتل خِيارِكم**، وأن **تعضّكم السيوف**، فإمّا أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينةً، فبيِّنوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أَمِطْ عنّا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة، ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه **فبايعناه**»[2].

كما جاء في حديث كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه -وهو شاهد عيان- أنّ الأنصار قالوا يومها: «نعم؛ والذي بَعَثك بالحقّ، **لَنمنعنّك** مِمّا نَمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله، **فنحن أهل الحروب**، وأهل الحلقة ورِثْناها كابراً عن كابرٍ»[3].

فهاتين الروايتين تدلاّن على أمور تردّ زعم المستشرق "ركندورف-Reckendorf" منها:

أ)- أنّ الأنصار منذ العقبة الثانية عاهدوا النبي ﷺ على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم، وأبدَوا استعدادهم لِخوض أيّ حرب في سبيل ذلك، لذا سَمّى عبادة بن الصامت رضي الله عنه هذه البيعة بـــ"**بيعة الحرب**"[4].

ب)- نبّه "أسعد بن زرارة" رضي الله عنه الأنصار إلى ما تستلزمه هذه المبايعة من التهيؤ للحرب ومناجزة العرب بالسيف، وبذل الأرواح في سبيل الله ونصرة دينه ونبيه ﷺ؛ فأبدوا استعدادهم التام لذلك.

---

[1]- ينظر عن العقبة الثانية: ص483-486.

[2]- عند أحمد والحاكم سبق تخريجه في: ص485.

[3]- عند ابن إسحاق وأحمد، سبق تخريجه في: ص484.

[4]- ينظر: مسند أحمد، 373/37. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 454/1.

ج)– كما تبيّن الروايتين العزم القويّ على نصرة الرسول ﷺ والذود عنه منذ ذلك الزمن المتقدّم، وهو ما يدلّ على انصياعهم الكامل لأمر الرسول ﷺ واستعدادهم التام لنصرته منذ الوهلة الأولى، على عكس ما صوّره المستشرق "ركندورف-Reckendorf" عندما زعم بأنّ عزمهم على نصرته وتأييد دعوته جاء متأخراً وأنّهم "**أخذوا ينصاعون للنبي ﷺ شيئا فشيئا**".

[2]– ثُمّ بعد أن هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وفّى الأنصار بوعدهم فآووه ونصروه منذ هجرته إلى أن توفي ﷺ، ومدحهم الله عز وجلّ وبيّن فضيلتهم تلك في القرآن فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: 74]، قال المفسرون: هم الأنصار الْمسلمون مِن أهل المدينة؛ آوَوْا إِخوانَهُم الْمهاجِرين في منازِلِهم، ووَاسَوْهم في أمْوالِهم، ونَصَروا الله ورسولَه بِالقِتال معهم[1].

وقال ابن كثير: «كان رسول الله ﷺ يقول في أيّام الْحجّ: "مَنْ رجلٌ يُؤويني حتّى أُبَلِّغ رسالةَ رَبِّي، فإنّ قريشًا قد مَنَعوني أنْ أُبَلِّغ رسالة رَبِّي"؛ حتّى قيَّض الله ﷻ له الأوس والْخزرج مِن أهل المدينة، فبايَعوه ووازَرُوه، وشارطُوه أن يَمْنَعوه منَ الأسود والأحمر إنْ هو هاجر إليهِم، **فلمّا هاجر إليهِم** بمن معه مِن أصحابِه **وَفَوا له** بِما عاهدوا الله عليه؛ ولِهذا سَمّاهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علَمًا عليهم ﷺ وأرضاهم»[2].

وقال ابنُ إسحاق: «فلمّا أذِن اللهُ تعالى له ﷺ في الْحربِ؛ بايَعه هذا الْحَيّ من الأنصارِ على الإسلام والنّصْرَة له ولِمن اتّبَعه»[3].

[3]– كما كان الأنصار حاضرين في الوقائع المشهورة والغزوات الكبرى مع رسول الله ﷺ، ومن ذلك: – أنّهم كانوا أكثر عدداً من المهاجرين في غزوة **بدر**؛ حيث شهدها ما يزيد عن **مائتين وإحدى وثلاثين** (231) رجلا من الأنصار، من جملة ثلاث مائة وأربعة عشر رجلا[4].

– **واستشهد** من الأنصار يوم **بدر: ثمانية** رجال[5].

– كما **شهدوا** معه **غزوة أحد والخندق وفتح مكة** وبقية الغزوات[6]، فأيّ نصرة أعظم من هذه؟!

فهل كان الأنصار كارهين عندما أبدوا عزمهم على نصرة النبي ﷺ وخوضهم الحروب في سبيل ذلك؟ وهل كانوا كارهين أيضا عندما شهدوا كلّ تلك الغزوات مع النبي ﷺ وقدّموا فيها الشهداء؟!

---

[1]– ينظر: تفسير البغوي، 312/2. وزاد المسير، ابن الجوزي، 227/2. وتفسير ابن كثير، 95/4.

[2]– تفسير ابن كثير، 113/8.

[3]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 468/1.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 706/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 354/2.

[5]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 122/3. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 331/1.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 122/2 و404 و409. وعيون الأثر، 39/2-41 و88. والبداية والنهاية، 539/6.

فلو أنّ حضورهم الغزوات معه كان في مناسبة أو مناسبتين لأمكن - ربّما - احتمال ذلك؛ أمّا وأنّ حضورهم كان مستمرّا فلا يستقيم القول بذلك مطلقاً ولو على سبيل الاحتمال.

[4]- ثُمّ إنّ بعض المستشرقين في "دائرة المعارف الإسلامية" نفسها أقرّوا بِما قدّمه الأنصار من جهود جبارة في نصرة النبي ﷺ ودينه، من ذلك: ما جاء في نصّ المستشرق "كرنكوف-Krenkow" المذكور آنفا من مادة "الخزرج" خاصة في قوله: «**أنّ الأنصار ظلوا بقية حياة النبي دعامة قوية**».

وهو ما قرّره أيضا المستشرق "تسترشتين-Zetterstèen" في مادة "سعد بن عبادة" عندما بيّن على وجه التفصيل الإسهامات الكبيرة لهذا الصحابي الأنصاري في نصرة الإسلام، وضرب أمثلة عن بعض مشاركاته بنفسه وماله في الغزوات النبوية لنصرة المصطفى ﷺ.

كما نبّه الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه على مادة "الأنصار": ما في فرضية المستشرق "ركندورف" من التهافت وبيّن أنّها مجرد دعوى باطلة، تردّها روايات السيرة الثابتة.

أمّا قول المستشرق أنّ الرسول ﷺ "**آثر الاعتماد على عون الله ما دام عون الإنسان ليس بقريب**"، فهذا الكـــلام مع كونه "لا يوافق أدب التحدث عن الأنبـــياء" كما ذكر أحمد شاكر في تعقيـــبه؛ فهو أيضا يعكس عدم فهم المستشرق "ركندورف" للمبدأ الذي يسير عليه النبي ﷺ في هذا الشأن أصلا، ذلك أنّ النبي ﷺ كان في قضاء أموره يبذل الأسباب المادية المتاحة لديه من الاستعانة بالأدوات والتخطيط والعامل البشري ونحو ذلك مع قوّة الاعتماد والتوكّل على الله عز وجّل، كما سبق التنبيه على شيء من ذلك في هجرته ﷺ، وهو ما فعله أيضا في غزواته وحروبه المختلفة؛ حيث كان اعتماده القويّ على نصر الله تعالى أوّلا، ثُم على ما أيّده الله تعالى به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فالأمران متلازمان وليس بينهما تعارض كما ظنّ المستشرق "ركندورف"، وهو ما بيّنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62]؛ قال الإمام مقاتل: «قوّاك بنصره وبالمؤمنين من الأنصار يوم بدر»[1].

[5]- ما تعذّر به المستشرق "ركندورف" وجوابه: ولعل المستشرق "ركندورف-Reckendorf" أخذ هذا الافتراض من عدم مشاركة الأنصار في الغزوات والسرايا قبل بدر، كما يشير إليه قوله "**بل لم يشترك واحد منهم قط في الحروب الأولى التي وجهت إلى مكة، وكانت قلة حماسهم في المبادرة إلى الجهاد كثيرا ما تقلق بال النبي**"؛ فظنّ بأنّه لا يوجد ما يبرّر موقفهم هذا، ثم استنتج منه تأخرهم عن نصرة الرسول ﷺ.

[1]- زاد المسير، ابن الجوزي، 222/2.

لكنّ تَتبّع الأحداث والروايات منذ بايع الأنصار النبي ﷺ في العقبة الثانية ثم كتابة "صحيفة المدينة"، ثم خروج النبي ﷺ مع المهاجرين والأنصار في غزوة بدر واستشارته لكليهما في الخروج للقتال، يقدّم المعطيات التي تفسّر هذا الإشكال الذي بَنَى عليه "ركندورف-Reckendorf" افتراضات خاطئة، وتبيّن بوضوح أنّ ذلك لا يدلّ على عدم رغبة الأنصار في نصرة الرسول ﷺ، أو تقاعسهم وتأخّـــرهم عنه، بل تدلّ على التزام النبي ﷺ بميثاق البيعة معهم، ومراعاته للنمط الاجتماعي والسياسي الذي اعتادوا عليه مقارنة بالنظام الاجتماعي والسياسي الجديد في المدينة، وبيان ذلك في العنصر الموالي.

ثانيا- أسباب عدم مشاركة الأنصار في السرايا الأولى حتى بدر: أشار المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:42" أنّ الأنصار لم يكونوا ملزمين بغير الدفاع عن النبي ﷺ داخل المدينة، لكنّه لم يبيّن سبب عدم هذا الالتزام، وفيما يلي بيان أسبابه:

[1]-كان من بنود "دستور المدينة" ألا تُجَارَ قريش ولا أموالها، وكان على الطرفين الالتزام بنصوص هذه الصحيفة، والدفاع عن الدولة من الاعتداء عليها[1].

حيث كان موقف الأنصار مختلفًا عن موقف المهاجرين بالنسبة لقريش؛ فإن المهاجرين كانوا في حالة حرب معلنة بينهم وبين أهل مكة بما عذبوهم وضيقوا عليهم، وبما أوقعوا عليهم من حصار اقتصادي حتى اضطروهم إلى الهجرة، وهم حين هاجروا استولت قريش على أموالهم، ثم إن بعضهم كان لا يزال محبوسًا في مكة يلاقي العذاب والاضطهاد، أما بالنسبة للأنصار فلم تكن هناك حرب معلنة بين الطرفين، و لم يكن هناك إلا ما تفرضه بنود الصحيفة من عدم إجارة قريش أو تجارها، ومن أمر الدفاع عن الدولة الجديدة[2].

[2]- لم يكن الأمر قد تبلور في نفوس الأنصار إلى ما يوضح الاعتداء على حقوق السيادة للدولة، وأن انتهاك حرمة أراضيها هو نوع من الاعتداء عليها؛ فقد كان القوم حديثي عهد بهذا النوع من التنظيم، و لم يعرفوا من قبل غير التنظيم القبلي أساسًا للحكم، فلم يدركوا بعد معنى سيادة الدولة ولا معنى الحدود السياسية لها، ولذلك وقفوا موقفًا محايدا إزاء مرور تجارة قريش بأرض الدولة اليثربية وتمسكوا بشروط بيعة العقبة، وكان النبي ﷺ يدرك هذا الوضع تمامًا؛ فلم يطلب من الأنصار الاشتراك في السرايا الأولى، حتى جاءت الحوادث فأدت بطبيعتها إلى اشتراك الأنصار في الوقوف في وجه قريش؛ ذلك أن قريشًا تحدت أهل المدينة ومنعتهم من زيارة الكعبة والدخول إلى مكة[3].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 283/1. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 346.

[2]- ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 346.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 346.

يدلّ على ذلك الحادثة التي وقعت مع "سعد بن معاذ" ﷺ: عندما ذهب إلى مكة معتمرا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: «**ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة**، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان **ما رجعت إلى أهلك سالِما**»، فقال له "سعد" ورفع صوته عليه: «أما والله لئن منعتني هذا؛ **لأمنعنّك** ما هو أشد عليك منه، **طريقك على المدينة**»[1].

تدل هذه الواقعة على أن "أبا جهل" يعتبر "سعد بن معاذ" ﷺ من أهل الحرب بالنسبة إلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة لم يكن قبل قيام الدولة الإسلامية فيها، إذ لم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إلى مكة؛ وهكذا أدى تحدي قريش لأهل المدينة إلى أن يقفوا مع المهاجرين في منع قريش من المرور في حدود إقليمهم، بِما أدى إلى موقعة بدر ثم ما تلاها بعد ذلك من مواقع[2].

[3]– حين بايع الأنصار النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية اشترطوا على أنفسهم أن يحموه ما دام في المدينة، و لم يشترطوا على أنفسهم أن يقاتلوا معه خارج حدود مدينتهم، لذلك اقتصرت السرايا التي سبقت بدر على المهاجرين، ونظرا لوجود الأنصار مع المهاجرين ببدر وتفوقهم العددي الكبير فقد أراد الرسول ﷺ معرفة رأيهم في الموقف الجديد؛ فكان أن شاور أصحابه عامة وقصد الأنصار خاصة[3].

لعلّ مراعاة النبي ﷺ لِهذا الأمر ومشورته للأنصار هو ما أشار إليه المستشرق "ركندورف" بقوله "**وكانت قلة حماسهم في المبادرة إلى الجهاد كثيرا ما تقلق بال النبي**"، لكنّه أغفل جواب الأنصار الذي سُرّ به النبي ﷺ وأراح باله كما جاء في روايات استشارة النبي ﷺ للأنصار قبل القتال يوم بدر، ومنها:

ما جاء في حديث ابن عباس ﷺ: «... فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن... ثم قال رسول الله ﷺ: ((أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ))؛ وإنما يريد الأنصار -وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا؛ فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا مِمّن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم- فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر، 351/7. من حديث سعد بن معاذ ﷺ.

[2]– ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 346. والسيرة النبوية عرض وتحليل، علي الصلابي، 363-364.

[3]– ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 346. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 358/2.

"سعد بن معاذ": والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: ((أجل))، قال سعد: «فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، **فامض يا رسول الله لِما أردت فنحن معك**، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، **وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء**، لعل الله يريك منّا ما تقر به عينك، فسِر على بركة الله»؛ قال: فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، ثم قال: ((سِيرُوا وَأَبْشِرُوا))»[1].

وعن أنس ﷺ: «أنّ رسول الله ﷺ شاوَر حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيّانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرْتَنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لَفَعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناسَ فانطلقوا حتى نزلوا بدرا»[2].

فهاتين الروايتين تقطعان الطريق على افتراض المستشرق "ركندورف-Reckendorf" من وجهين:

الوجه الأول: تفسّر رواية ابن عباس ﷺ سبب عدم مشاركة الأنصار في الوقائع التي كانت قبل بدر، وتبيّن عذرهم في ذلك، ونظَر النبي ﷺ لهذا العذر بعين الاعتبار.

والوجه الثاني: تدلّ هذه الروايات بوضوح على أنّ الأنصار لم يشاركوا في "بدر" ولا غيرها كارهين؛ ذلك أنّ النبي ﷺ لم يكتف باستشارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فحسب، ولكنّه لم يُقبِل على القتال حتى سمع مقالة الأنصار واستشارهم وأخذ رأيهم واطمأنّ إلى انشراح صدورهم للقتال معه في بدر، وهُم في الوقت نفسه، عبّروا عن رأيهم بكلّ صراحة، وأبدوا أنهم مقبلون على هذه المعركة – وأبعد منها- بكلّ انشراح ورحابة صدر، وأكّدوا تسليمهم التام للرسول ﷺ؛ الأمر الذي يبيّن أنهم لم يكونوا كارهين ولا مُكرَهين كما زعم المستشرق "ركندورف" بدليل ما صدر عنهم، وما صدر عن النبي ﷺ، كما جاء واضحا في هذه الروايات.

الجمع بين هذه المعطيات التاريخية للسيرة هو ما ينبغي أن تُفسّر على ضوئه إشكالية عدم مشاركة الأنصار في الوقائع التي كانت قبل "بدر"، وهذه المعطيات تبيّن أنّ الأنصار لم يتأخّروا عن نصرة النبي ﷺ يوماً، وأنّ انصياعهم للنبي ﷺ كان من البداية، ولَم يكن شيئا فشيئا كما زعم المستشرق "ركندورف-

---

[1]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 606/1-615. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 32/3-34. وصحّحه إبراهيم العلي "صحيح السيرة، 167"، وأكرم العمري "السيرة النبوية الصحيحة، 359/2"، وقال ابن كثير "البداية والنهاية، 71/5": له شواهد من وجوه كثيرة، من ذلك: رواية البخاري والنسائي وأحمد وغيرها.

[2]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، 174/12. **وأحمد**، المسند، 23/21-24.

Reckendorf" عندما استند إلى حادثة واحدة لتقرير دعواه، وأغفل بقيّة الحوادث والمعطيات التي تردّ ما قرّره، مشيا على "**منهجية الانتقاء الكيفي**" في عرض الوقائع التاريخية وتفسيرها.

ثالثا- توجيه كراهيّة القتال المذكورة في سورة الأنفال: أمّا ما جاء في القرآن عن خروج الرسول ﷺ والمسلمين إلى بدر في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: 5]؛ فليس في ذلك ما يدلّ على تأخّر الأنصار في الجهاد ونصرة النبي ﷺ لِما يلي:

1- الآية ليست خاصة بالأنصار فحسب، فقوله "**من المؤمنين**" يشمل المهاجرين والأنصار.

2- كراهية القتال المذكورة في الآية هي كراهة الطبع لِمشقة السفر والقتال، وليست كراهةً لأمر الله تعالى، كما في قوله تعلى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 216][1].

3- أنّ كراهيّة القتال هذه إنّما حصلت لبعضهم لا لكلّهم كما هو ظاهر في الآية[2].

4- أنّ كراهيّة القتال هذه حصلت لبعضهم؛ لأنّ النبي ﷺ والمؤمنين معه إنّما خرجوا للعير و**لم يتوقّعوا** المواجهة و**لم يستعدّوا** لها، فلمّا جاء أمر القتال كره بعضهم ذلك لقلّة عددهم وضعفهم مقارنة بالمشركين، ولعدم استعدادهم التام للقتال[3]، ولكنّ الله تعالى أراد تقوية شوكة المؤمنين بالنصر المبين في "بدر".

5- ثمّ إنّه زالَ من نفوسِ الْمؤمنين ما كان في قلوبِهم مِنَ الْكراهِية للقتال سريعا، واختفت على عجل مشاعر التردّد، وانطلق الجميع خفافا إلى غايتهم[4] بعد مشورة النبي ﷺ لأصحابه في المسير للقتال، وما أبداه كبراء المهاجرين والأنصار من العزم على التفاني في نصر الإسلام كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه السابق.

فالكراهة المذكورة ليست أمراً شائعاً ولا مستمراً كما صوّره المستشرق، بل هي حالة تردّد طارئة وأمر عارض في لحظة ضعف بشري لم يستسلموا له، وإلاّ ما كانوا ليقاتلوا وينتصروا ذلك النصر المبين.

رابعا- فضائل الأنصار: أشار المستشرق "ركندورف-Reckendorf" إلى بعض فضائل الأنصار بشيء من التشويش، فقال: «**وأصبحوا مضرب المثل في التقوى وظلوا مخلصين لذكرى النبي... وكانوا يشيدون كذلك بأنهم وحدهم الذين آووا المؤمنين في محنتهم، وبأن النبي اعترف لهم بهذا الفضل**».

وقد سبق التفصيل في فضيلة إيوائهم للنبي ﷺ ونصرته، وأنّ الله تعالى مدحهم في ذلك.

---

[1]- ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 189/2.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 457/15.

[3]- ينظر: فتح القدير، الشوكاني، 328/2. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 499/9.

[4]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 219. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 266/9.

أمّا قوله: «**وطالبوا بتوقير أشخاصهم، وهو أمر أقرّهم عليه النبي**»؛ فهو كلام غير دقيق، لأنّ النبي ﷺ أشاد بالأنصار وفضائلهم في غير ما مناسبة، و لم يكن الأنصار في حاجة إلى مطالبة النبي ﷺ بتوقيرهم لأنّ ذلك أمر حاصل وواقع أصلا.

وفيما يلي بعض من الأحاديث الكثيرة عن النبي ﷺ في مآثر الأنصار وفضائلهم:

– عن عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ أنّ الرسول ﷺ قال: ((لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا))[1].

– وعن البراء بن عازب ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: ((الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ))[2].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وقد عقد الإمام البخاري في "صحيحه" كتابا كاملا في "مناقب الأنصار"[3] أورد فيه الروايات في فضائلهم على الجملة والتفصيل.

– كما أشاد القرآن الكريم بفضيلتهم في نصرة النبي ﷺ ودينه فقال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: 74].

– واعترف لهم النبي ﷺ بهذا الفضل كما ذكر المستشرق "ركندورف"؛ حيث قال ﷺ: ((... أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ))[4]؛ وفي ذلك فضل له عليهم أيضا، فبنصرتِهم للرسول ﷺ ودينه بلغوا تلك المكانة العليّة في الإسلام.

خامسا– بيان بعض ما جاء في (الفقرة: 41) من مادة "محمد ﷺ":

[1]– أمّا قول "بول-Buhl" في هذه الفقرة بأنّ "**بعض أهل المدينة دخل الإسلام قبل وصول محمد ﷺ إليها، غير أنهم كانوا يشكلون نسبة صغيرة من سكانها**"؛ فالمقصود بذلك أنّ المسلمين كانوا يشكلون نسبة صغيرة في بداية الأمر، ثم انتشر الإسلام بالمدينة خاصة بعد وصول النبي ﷺ والمهاجرين إليها، بل نجد ابن إسحاق يذكر أنّ الإسلام أخذ ينتشر بسرعة في المدينة بعد بيعة العقبة الأولى والثانية «حتّى لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون»، باستثناء دور معدودة عدّدها ابن إسحاق[5].

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، 59/8.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان، 143/7.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 139/7.

[4]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 254/18. من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، والحديث حسنه الأرنؤوط في تحقيق "المسند"، وصحّحه ابن كثير في "البداية والنهاية، 98/7" والعلي في "صحيح السيرة، 456".

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/1.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة، دخل أهل المدينة في الإسلام "**بأعداد أكبر**" كما ذكر "بول -Buhl"، وصار المسلمون قوة مرهوبة في المدينة، وصارت للنبي ﷺ الكلمة النافذة على المسلمين جميعا، لا فرق بين مهاجري وأنصاري، وصارت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية، والقيادة السياسية والاجتماعية[1].

لكن بقيت أحياء قليلة من أهل المدينة على الشرك، قال ابن إسحاق: « واستجمع له إسلام هذا الحيّ مِن الأنصار، فلم يبقَ دارٌ من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها، إلا ما كان من: خطمة، وواقف، ووائل، وأُميّة، وتلك **أوس الله** (وهم حي من الأوس) فإنّهم أقاموا على شركهم»[2].

ولعلّ المعارضة المباشرة "لأوس اللات أو أوس الله"[3] التي أشار إليها المستشرق "بول"، هي:

– بقاؤهم على الشرك أولا، حيث أنّهم لم يتظاهروا بالإسلام كما فعل بعض المنافقين.

– ثم ثانيا مشاركة نفر منهم مع المشركين ضدّ النبي ﷺ في غزوة أحد والخندق[4].

لكن بعد غزوة الخندق أسلم من تخلّف من "أوس الله" عن الإسلام[5].

[2]– أشار المستشرق "بول -Buhl" في مطلع الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" إلى أنّ التفاضل بين المهاجرين والأنصار في المجتمع المدني صار على أساس إيمانيّ وعمليّ، لا على أساس العصبيات القبلية التي كانت في الجاهلية، مما يدلّ على أثر الإسلام في مجتمع المدينة آنذاك.

فالأنصار مع ما لهم من الفضائل العظيمة والمناقب الجزيلة، فإنّ حال المهاجرين من حيث الجملة أعلى درجة في الفضيلة من حال الأنصار، وقد بيّن **الإمام الرازي** الأوجه الإيمانية والعملية للتفاضل بينهما فقال: «ويَجِب أن يكون حالُ الْمهاجِرِين أعلى في الفضيلة من حال الأنصار لوجوهٍ:

– **أوّلُها**: أنّهم هم السّابقون في الإيمانِ الّذي هو رئيس الْفضائل وعنوانُ الْمَناقِب.

– **وثانيها**: أنّهم تَحمَّلوا العَناء والْمشَقَّة دهرًا دَهيرًا، وزمانًا مديدًا من كفّار قريش وصَبَروا عليه، وهذه الْحال ما حَصَلت للأنصار.

– **وثالثها**: أنّهم تَحمّلوا الْمضارَّ النّاشِئة من مفارَقة الأوطان وَالأَهْلِ والجيران، ولَم يحصل ذلك للأنصار.

– **ورابعها**: أنّ فَتْح الباب في قَبول الدّين والشّريعة مِنَ الرّسول ﷺ إنّما حَصَل من المهاجرين، والأنصار اقْتَدوْا بِهم وتَشبّهوا بِهم»؛ ثم قال: «فجُمْلة هذه الأحوالِ تُوجِبُ تَقْديم المهاجرين الأوّلين

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/42-43.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/500.

[3]– هي: تسمية لبعض بطون قبيلة الأوس في المدينة. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 6/18. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 4/136. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 258.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 1/206. ودلائل النبوة، 3/408.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/438. ولسان العرب، 6/18. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 258.

على الأنصار في الفضل والدّرَجة والْمَنْقبة، **فلِهذا السّبب أيْنما ذكر الله هذَيْن الْفريقَيْن قَدَّم الْمهاجرين على الأنصار**»[1].

الفرع الثالث : نصرة الأنصار للنبي ﷺ بالكلمة (شعراء النبي ﷺ)

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**حسان بن ثابت**": «... **كانت خدمات حسّان للنبي لا تقدّر**[2]، **فقد تولى الردّ على هجاء الكفار من الشعراء، وعرف النبي له هذه الخدمات، وكافأه بضيعة، ووهبه الجارية المصرية سيرين أخت مارية القبطية**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **فاير** - T.H.Weir[4].

– وفي مادة "**الخزرج**"[فقرة: 3]: «**وقد خرج أيضا من بين الخزرج شعراء النبي: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة**»[5]. المحرر هو المستشرق: **كرنكوف** - F.Krenkow[6].

– وفي مادة "**عبد الله بن رواحة**"[فقرة: 2]: «... **وكان النبي ﷺ عظيم التقدير له، ولاسيما لموهبته الشعرية، وقال المؤرخون عنه إنّه كان من الشعراء الذين يناضلون عن الرسول ﷺ**»[7].

المحرر هو المستشرق: **أ.شاده** - A. Schade[8].

– وفي مادة "**شاعر**": «**وقد وقف الرسول موقفا خاصا ضد الشعراء، ورُمِي هو نفسه بأنّه شاعر، فنـــزل الوحي منكراً ذلك في نهاية السورة السادسة والعشرين التي سُمّيت بسورة الشعراء...**

ومع أنّه لم يكن من الجائز أن يُقال إنّ النبي شاعر، فإنّه قد استعان كلّ الاستعانة بعدد من الشعراء، وخاصة حسان بن ثابت الذي نظم أبياتا لاذعة في هجاء خصوم النبي المكيين»[9]. المحرر هو: **كرنكوف**-F.Krenkow.

– جاء في مادة "**اللغة العربية**": «... **وكانت عادة المفاخرة هذه عميقة الجذور حتى أن محمداً ﷺ لَجأ إليها – بعد ذلك – في المدينة المنورة، رغم أنه كان – بشكل عام – معاديا لنفوذ الشعراء**»[10].

المحرر هو المستشرق: **هـ. جب** – H.Gibb[11].

---

[1]– تفسير الرازي، 516/15.

[2]– هكذا في المطبوع، وربّما يكون ذلك خطأً مطبعيًّا، وقد يكون المقصود: لا تقدّر بثمن.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 376/7.

[4]– سبقت ترجمته في: ص241.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 313/8.

[6]– سبقت ترجمته في: ص526.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7167/23-7168.

[8]– سبقت ترجمته في: ص234.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 71/13.

[10]– المصدر نفسه، إص3، 7267/23.

[11]– سبقت ترجمته في: ص111.

ثانيا- التحليل والمناقشة: من مظاهر نصرة الأنصار للنبي ﷺ وللإسلام أيضا نصرته بالشعر؛ لكونه وسيلة إعلامية ناجعة آنذاك، لذا لا يقلّ هذا النصر أهميّة عن نصرته ﷺ بالسيف التي تقدّم بيانها.

[1]- ذم القرآن والسنّة للشعر القبيح واستثناء الشعر الحسن من ذلك: ذكر المستشرق "كرنكوف-Krenkow" في مادة "شاعر" والمستشرق "جِب-Gibb" في مادة "اللغة العربية": أنّ النبي ﷺ كان له موقف معادٍ للشعر والشعراء، في إشارة إلى بعض الآيات والأحاديث التي ورد فيها ذمّ الشعر والشعراء، لكن هذا الذمّ ليس على إطلاقه، بدليل ما ذكره المستشرقان نفسيهما من اعتماد النبي ﷺ على الشعر والشعراء في بعض الأحوال، وبيان ذلك فيما يلي:

أ)- معنى آية الشعراء: قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: 224-227]، فهذه الآيات وإن كان في مطلعها ذمّ للشعراء المنحرفين عن جادة الحق والاستقامة، من أمثال المشركين الذين كانوا يهجون النبي ﷺ والمسلمين؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى استثنى في هذه الآيات أيضا المؤمنين الصالحين الذين غلب على أحوالهم تحري الحق والصدق، كما كان يقع من شعراء النبي ﷺ؛ فإنهم كانوا يهجون من يهجوه، ويحامون عنه ويذبّون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم[1].

«فدلّت الآيات على أنّ لِلشّعر حالتين: حالةٌ مذمومةٌ، وحالةٌ مأذونةٌ؛ فتعيّن أنّ ذمّه ليس لكونه شعرًا، ولكن لِما حفّ به مِنْ معانٍ وأحوالٍ اقتضت الْمذمّة»[2].

ب)- الأحاديث في ذمّ الشعر وفي تجويزه: ورَدَت أحاديثُ في ذمِّ الشّعر وذمّ الاستكثار منه، كما ووردت أحاديثُ أُخَر في إباحته وتَجويزه[3].

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ قال: ((لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا))[4]، ونحوه من حديث ابن عمر ﷺ[5]؛ فهذا الحديث محمول على الشعر القبيح المذموم، وعلى الإكثار من الشعر حتى يغلب على قلب المرء، ويشغله عن القرآن وعن ذكر الله تعالى كما بيّن أبو عبيد والبخاري وابن حجر[6].

---

[1]- ينظر: تفسير البغوي، 485/3. وفتح القدير، الشوكاني، 140/4.

[2]- التحرير والتنوير، ابن عاشور، 211/19.

[3]- ينظر: فتح القدير، 140/4.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، 672/10. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الشعر، 21/15. واللفظ للبخاري.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، 672/10.

[6]- ينظر: فتح الباري (مع البخاري)، ابن حجر، 672/10-674.

وفي مقابل ذلك جاء في الأحاديث ما يدلّ على أنّ الشعر الحسن جائز ومرغّب فيه، فعن أبَيّ بن كعب رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: ((إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً))[1]؛ قال ابن بطال: «ما كان في الشعر والرجز ذكر الله تعالى وتعظيم له ووحدانيته وإيثار طاعته والاستسلام له فهو **حسن مرغّب فيه**؛ وهو المراد في الحديث بأنّه حكمة، وما كان كذبا وفحشا فهو مذموم»[2].

[2]– أثر الشعر في الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ: استعمل شعراء مكة شعرهم كوسيلة إعلامية في إيذاء الرسول والإسلام، وفي هجاء المسلمين، وتمجيد قريش ورثاء من قتل من المشركين، وتعظيم أمر الجاهلية وسنة الآباء وما ألفوه عن آبائهم من أمور[3]؛ فكان نفرٌ مِن الشّعراء بمكة يَهْجون النبيّ ﷺ، وكان المشركون يُغْرَوْن بمجالِسِهم، وسَماع أَقوالِهم، ويَجْتَمع إليهم الأعرابُ خارِج مكّة يَسْتَمعون أشْعارَهم وأَهاجيهم، ومن هؤلاء: النّضر بن الحارث، وهُبَيْرة بن أبي وهبٍ، وأبو عزّة الْجُمحيّ، وابن الزّبعري، وأُميّة بن أبي الصّلت، وغيرهم[4].

من أجل ذلك اعتمد الرسول ﷺ على الشعر في ردّ عدوان المشركين، لِما كان له من أهمية إعلامية وتأثير كبير في الرأي العام لدى المجتمعات العربية آنذاك.

كان الرسول ﷺ يحثّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدفاع عن المسلمين وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان **الشعر يُمثّل الحملات الإعلامية** المؤثرة في دنيا العرب، إذ سرعان ما تطير الركبان بالقصائد من بلدة إلى أخرى، فيرفع أقوامًا ويخفض آخرين، ويشعل الحروب ويطفئها، وكانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا والغزوات، خاصة بعد بدر، وكان الصف الإسلامي يضمّ شعراء متخصصين، مثل: كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت، وكان "حسان" أشدهم على الكفار[5].

وهناك نوع آخر من أنواع الشعر اعتمده شعراء النبي ﷺ: هو شعر القتال؛ الذي كان في القتال الذي وقع بين المسلمين والمشركين واليهود، إلى أن انتصر الإسلام، فقد كان من عادة العرب، أنهم إذا

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر، 659/10.

[2]– فتح الباري، ابن حجر، 663/10.

[3]– ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 843/9.

[4]– ينظر: تفسير البغوي، 484/3-485. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 208/19.

[5]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 358/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 453.

تقاتلوا أنشدوا شعرا يفتخرون فيه بأنفسهم وبقبيلتهم وبشجاعتهم، ولا سيما حين يخرج فارس لمبارزة فارس آخر، وقد يقف الشعراء في صفوف المحاربين يحرضونهم على القتال والاستبسال[1].

كان لردّ شعراء النبي ﷺ على شعراء قريش ومن لفّ لفّهم، أثر كبير في نفوس المشركين[2]، وذلك لأنّ الشعر والخطابة كانا وسيلة الإعلام الرئيسية في ذلك الوقت.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: ((**اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ**))، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: ((**اهْجُهُمْ**))، فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يُحرِّكه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم... قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: ((**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ، مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ**))، وقالت رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى**))[3]، وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ كان يقول لِحسان رضي الله عنه: ((**اهْجُهُمْ - أَوْ هَاجِهِمْ - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**))[4].

قال النووي: «أمر الله تعالى بالجهاد في الكفار والإغلاظ عليهم، وكان هذا الهجو أشدّ عليهم من رشق النّبل، فكان مندوبا لذلك، مع ما فيه من كفّ أذاهم وبيان نقصهم، والانتصار بهجائهم للمسلمين»[5].

اعتبر الرسول ﷺ الشّعرَ قرينَ السلاح في الجهاد والدفاع عن الإسلام ونبيّه والمسلمين، بل جعله أشدّ على الكفار من رشق النبال كما في الحديث السابق، وفي حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: ((اهْجُوا بِالشِّعْرِ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ **يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ**، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَأَنَّمَا يَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ))[6]، وفي رواية: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ **يُجَاهِدُ** بِسَيْفِهِ **وَلِسَانِهِ**))[7].

---

[1]- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 843/9. ومن **الأمثلة** عن ذلك: شعر كعب بن مالك في غزوة "خيبر": ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 333/2-376. وشعر عبد الله بن رواحة في التشجيع على القتال في "غزوة مؤتة" ينظر: المصدر السابق، 375/2-376.

[2]- ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، 344/1. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 842/9.

[3]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، 72/16-73.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، 672/10. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الشعر، 21/15. واللفظ للبخاري.

[5]- شرح النووي على مسلم، 72/16.

[6]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 87/25. وحسّن إسناده الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[7]- مسند **أحمد**، 63/25. وإسناده صحيح كما ذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد، 123/8"، والأرنؤوط في تحقيق المسند.

[3]- من أبرز شعراء النبي ﷺ: كان لرسول الله ﷺ عدد من الشعراء الذين يدافعون عنه وعن دعوته ودولته ضد من يهاجِمون النبي ﷺ ويهجونه من شعراء مكة وغيرها، فكان شعراء الرسول ﷺ يتصدون للرد عليهم، وقد **أحرز الأنصار قصب السّبق في هذا الميدان**، ذلك أنّ أهمّ شعرائه ﷺ كانوا من الأنصار، فمن شعرائه البارزين الذين نافحوا عن عقيدة الإسلام ونبيّه إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول الله ﷺ:

أ)- حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ[1]: قال الذهبي: «سيِّد الشّعراءِ المؤمنين، المؤيَّدُ بِروح القدس... شاعرُ رسول الله ﷺ وصاحِبُه»[2].

كان يُكنّى "أبا حُسام"؛ لِمناضلته عن رسول الله ﷺ ولتقطيعه أعراض المشركين[3]، فقد كان هجاؤه شديدا عليهم، له وقع في نفوسهم أشدّ من وقع شعر بقية الشعراء عليهم[4]، كما يشير إلى ذلك ذلك حديث عائشة ﷺ السابق عند "مسلم".

ب)- عبد الله بن رواحة الأنصاري ﷺ[5]: قال ابن عبد البر: «وهو أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ»[6].

ج)- كعب بن مالك الأنصاري ﷺ[7]: قال ابن عبد البر: «كان أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردّون الأذى عنه»[8].

قال المقريزي: «كان لِرسول الله ﷺ ثلاثة شعراء يناضلون عنه بشعرهم، ويهجون كفار قريش وهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، **وهم من الأنصار** ﷺ»[9].

---

[1]- ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبد البر، 341/1. أسد الغابة، ابن الأثير، 6/2. الإصابة، ابن حجر، 55/2.

[2]- سير أعلام النبلاء، 512/2.

[3]- أسد الغابة، 6/2.

[4]- ينظر: الاستيعاب، 344/1. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 842/9-843.

[5]- ترجمته في: طبقات ابن سعد، 398/3. أسد الغابة، ابن الأثير، 235/3. الإصابة، 72/4.

[6]- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 898/3.

[7]- ترجمته في: الاستيعاب، 1323/3-1324. أسد الغابة، 461/4. الإصابة، 456/5.

[8]- الاستيعاب، 1323/3-1324.

[9]- إمتاع الأسماع، 42/10.

المبحث الرابع : علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب وموقفهم من دعوته

بعدما تقدّم الكلام على معاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة في بداية قدومه إليها، يبيّن هذا المبحث أسس تعامل النبي ﷺ مع أهل الكتاب عامة ومع يهود المدينة خاصة، وحرصه على دعوتهم إلى دين الحقّ الذي جاء به، وكذا موقفهم من دعوته، وذلك من خلال بعض وقائع السيرة التي أوردها المستشرقون في "دائرة المعارف"، كما يناقش بيان النبي ﷺ والقرآن الكريم لحقيقة تحريف أهل الكتاب لِما أنزل إليهم.

وأنبّه إلى أنّي لم أتعرَّض في هذا المبحث إلى الكلام عن الغزوات التي وقعت مع يهود المدينة، وإنّما أرجأتُ ذلك إلى الباب الأخير الخاص بالغزوات والسرايا.

المطلب الأول : اليهود والنصارى في المدينة وحقوق أهل الكتاب

الفرع الأول : أهل الكتاب في المدينة

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أهل الكتاب**"[فقرة: 1]: «**يسمِّي محمد**[1] **اليهود والنصارى بِهذا الاسم تَمييزا لهم عن عبدة الأوثان، وذلك لأن لهم كتبا منـــزلة هي التوراة والزبور والإنجيل، وهم وإن كانوا يتناقلونها مبدلة عن أصولها، إلا أن اعترافهم بها يجعل لهم مكانا ممتازاً بالنسبة لعبدة الأوثان**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **جولد زيهر** - Goldziher[3].

– وفي مادة "[**بنو**] **قريظة**"[فقرة: 1]: «**إحدى القبائل اليهودية الثلاث الكبرى في المدينة المنورة (يثرب)**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M.Watt[5].

– وفي مادة "[**بنو**] **قينقاع**"[فقرة: 2]: «**إحدى قبائل اليهود الثلاثة الكبيرة في يثرب**... »[6].

حرّر المادة: **فنسنك** "Wensinck"/و**بارت** "Paret"[7].

---

[1]– **قال الأستاذ جاد المولى معلّقا على هذه العبارة** [في الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**لقد سمّاهم الله في كتابه الكريم "أهل الكتاب"**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/106-107.

[3]– سبقت ترجمته في: ص167.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 26/8292-9293.

[5]– سبقت ترجمته في: ص59.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 27/8482-8483.

[7]– سبقت ترجمة "فنسنك" في: ص49. وترجمة "بارت" في: ص137.

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 43]: «**وبالإضافة إلى القبائل العربية في المدينة، كان هناك عدد من الجماعات اليهودية، وأهمها "الكاهنان" أي بنو النضير وبنو قريظة، ومن بين الجماعات اليهودية الأخرى كان بنو قينقاع فيما يبدو أهمّها**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– تسمية أهل الكتاب: هي تسمية أطلقها القرآن الكريم على الذين أوتوا التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى[3].

سُمّوا بذلك: لأنّهم أُنزل عليهم كتاب سماوي ودانوا به، فكانوا على شيء من علم الكتاب[4].

فأهل الكتاب وإن كانوا داخلين في مسمى الكفر مع المشركين إلاّ أنّ هذه التسمية تميّزهم عن المشركين من أهل الأوثان كما ذكر المستشرق "جولد زيهر-Goldziher" في مادة "أهل الكتاب"، لأنّهم يدينون بكتاب منَزّل –وإن كان محرفا–، أما المشركون العرب فلا يُنسبون إلى كتاب منَزّل يتّبعونه.

كما أنّ لأهل الكتاب أحكاما خاصة يتميّزون بِها عن غيرهم من الكفار، كجواز ذبائحهم وجواز الزواج من نسائهم دون غيرهن من المشركات[5].

[2]– اليهود في المدينة: اختلفت النظريات حول بداية ظهور اليهود في المدينة –والحجاز عامة –[6]، لكن أقواها يشير إلى أنّ بداية نزوحهم من الشام كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد؛ حيث كان الرومان هم أصحاب النفوذ والسلطان في الشام ومصر آنذاك، فلَمّا اضطَهدَ الرومانُ اليهودَ واشتد بهم التعذيب، اضطروا إلى الهجرة إلى شبه الجزيرة العربية التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم، واستقروا في أماكن متفرقة من بلاد الحجاز، ومن نسلهم كان يهود المدينة والحجاز عامة[7].

أما القبائل اليهودية الثلاث الكبرى التي كانت تسكن المدينة زمن النبي ﷺ فهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة[8]، كما في نصوص المستشرقين المذكورة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9129/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: تفسير الرازي، 326/11. وفتح القدير، الشوكاني، 616/1.

[4]– ينظر: تفسير الطبري، 129/8. وفتح القدير، 468/1.

[5]– ينظر: تفسير البغوي، 19/2. وتفسير ابن كثير، 40/3-42.

[6]– ذكر جملة من هذه النظريات المستشرق "ولفنسون إسرائيل" في كتابه: تاريخ اليهود في بلاد العرب، 2-7. وكذا المؤرخ العربي "جواد علي" في كتابه: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 511/6-518.

[7]– ينظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، 9-10. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 517/6-518. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 227/1.

[8]– ينظر: البداية والنهاية، 554/4. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 518/6-519.

كما وُجدت هناك بطون يهودية أخرى أصغر من القبائل الثلاث المشهورة، وكانت هذه البطون الصغيرة تابعة في سياستها لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة[1].

أما عن مساكن اليهود: فبعضها كان بداخل المدينة، وبعضها كان قريبًا منها، وبعضها كان بعيدًا عنها: – **فبنو قينقاع**: كانوا يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم.

– **وبنو النضير**: كانت مساكنهم بالعالية بوادي بطحان على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

– **وبنو قريظة**: كانوا يسكنون بمنطقة مهزور وهي تقع على بعد قليل من جنوب المدينة[2].

ثالثا– النصارى في المدينة: أما النصارى فكان تواجدهم قليلا في المدينة المنورة، ولم تكن جاليتهم قوية ولا كثيرة العدد فيها[3] كما كان اليهود.

الفرع الثاني : تقرير الإسلام لِحقوق أهل الكتاب

– جاء في مادة "**أهل الكتاب**"[فقرة: 2]: «**وعندما خضع أهل الكتاب للمسلمين جعل لهم محمد**[4] **حرية العبادة دون الوثنيين مقابل دفهم للجزية (انظر سورة براءة، آية 29)، وإذا واظبوا على أداء الالتزامات الخاصة المفروضة عليهم ضمن لهم ذلك حماية الحكومة الإسلامية لهم، شأنهم في ذلك شأن المعاهدين أو أهل الذمة.**

ويُعدّ التقصير في حماية أهل الكتاب إثما كبيرا في الإسلام، وبالطبع لا يمكن أن يتخذ ما فعله النبي ببني النضير وبني قريظة مثلا يقاس عليه، على أنه رغم نزعة التعصب التي كان يعبّر عنها بعبارات شديدة، كانت القاعدة المتبعة في معاملة الذميين هي التي وردت في الحديث المروي عن النبي: "من آذى يهوديا أو نصرانيا كنت خصما له يوم القيامة" (البلاذري: ص162)»[5]. المحرر هو المستشرق: **جولد زيهر**-Goldziher[6].

– وفي مادة "**عمر بن عبد العزيز**": «**وبالنسبة لنصارى نجران كان الرسول ﷺ قد أمّنهم على أرضهم مقابل دفع 2000 حلّة كل عام (كل حلّة بأربعين درهما)**»[7].

المحرر هو المستشرق: **نسترشتين**-Zetterstèen[8].

---

[1]– ينظر: القول المبين، محمد النجار، 70. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 245-246.

[2]– ينظر: القول المبين، 69. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 246.

[3]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 369/6. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 601/6-602.

[4]– **قال الأستاذ جاد المولى معقّبا على هذه العبارة** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي شرع لهم ذلك**».

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 107/3.

[6]– سبقت ترجمته في: ص167.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7505/24.

[8]– سبقت ترجمته في: ص112.

أولا- دفع أهل الكتاب للجزية مقابل دخولهم في حماية المسلمين: بعد فتح مكة وغزوة تبوك امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم، وأصبحت الدولة الإسلامية هي القوة السياسية المتفردة في زعامة الجزيرة، فلا بد من تحديد جميع سكانها موقفهم في الولاء؛ أما **بالنسبة للوثنيين من العرب:** فيجب عليهم أن يعتنقوا الإسلام كمظهر لدخولهم في النظام الجديد، وإقرارهم بانتمائهم للدولة والدين الجديد، وهذا ما كان في عام الوفود، إلاّ قلة كان لا بد من توجيه النداء إليها لتحديد موقفها.

وأمّا **أهل الكتاب:** فقد وافق الإسلام **على احتفاظهم بدينهم** إذا خضعوا سياسياً للمسلمين **وأدوا** إليهم **الجزية**؛ فكانت الجزية رمز ولائهم وخضوعهم للدولة ونظامها مع حرية التدين[1].

والجزية: ضريبة مالية يدفعها الرجال البالغون القادرون على الكسب من أهل الكتاب، ويعفى منها النساء والأطفال، على أن تقوم الدولة بكفالة الحماية لهؤلاء الناس وإعطائهم حقوق الرعية، وقد استمر هذا النظام بعد ذلك بالنسبة للبلاد التي فتحها المسلمون والتي كان أهلها يدينون بدين كتابي[2].

قال ابن القيم: « ثُمّ لَمّا نزلت "براءة" سنة ثَمان، أمَرَه بقتال جميع مَن لم يُسلِم من العرب؛ مَن قاتله أو كفَّ عن قتاله إلاَّ مَن عاهدَه و لم يَنْقُصْه مِن عهده شيئاً، فأمَرَه أن يَفِي له بعهده، **ولم يَأمره بأخذ الجزية مِن المشركين، وحارَب اليهود مرارا، ولم يُؤمَر بأخذ الجزية** منهم.

ثُمّ أَمَره بقتال أهل الكتاب كلِّهم حتى يُسلِموا، أو يُعطوا الجزية، فامتَثَل أمْر ربِّه فقاتَلهم، فأسلَم بعضُهم، وأعطى بعضُهم الجزية، واستمرَّ بعضُهم على مُحارَبتِه، **فأَخَذها ﷺ من أهل نَجْران وأَيْلة،** وهُم مِن نصارى العرب، ومِن أهل دوْمة الْجَنْدل، وأكثرُهُم عَرَبٌ، وأخَذَها مِنَ الْمجوس، ومِن أهل الكتاب بالْيَمن، وكانوا يَهودًا»[3].

ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما ذكره المستشرق "تسترشتين-Zetterstéen" في مادة "عمر بن الخطاب": من مصالحة النبي ﷺ نصارى "نجران" على جزية قدرها: ألفَيْ حُلّة، يُؤَدّونَها إلى الْمسلمين كلّ سنة، وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة[4].

ثانيا- حقوق أهل الكتاب في دولة الإسلام: كفلت الشريعة لأهل الكتاب في دولة الإسلام حقوقا، منها: - أنّ لهم الأمان على أرضهم وأموالهم وممتلكاتهم.

---

[1]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1106/2-1107. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 418. ودراسة في السيرة، خليل، 222. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 523/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 854-855.

[2]- ينظر: عون المعبود، العظيم آبادي، 198/8. وخاتم النبيين، 1111/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 418.

[3]- زاد المعاد، 83/5.

[4]- ينظر: سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 202/8-203. ودلائل النبوة، البيهقي، 389/5. وفتح الباري، 119/7.

– وأنهم لا يمنعون من أداء شعائرهم الدينية، ولا يفتنون في دينهم.

– وأنّ لهم حقّ الإعانة والحماية ورفع الظلم عنهم[1].

كما أنّ للذميين[2] رعاية خاصة في الإسلام كما ذكر المستشرق "جولدزيهر–Goldziher" في آخر نصّه المذكور من مادة "أهل الكتاب"، فقد أوصى بهم النبي ﷺ؛ وحذّر من ظلمهم أو هضم شيء من حقوقهم أو تكليفهم فوق طاقتهم، كما في حديث النبي ﷺ: ((أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[3]؛ أي: فأنا خصمه يوم القيامة[4]، وفي معناه الحديث الذي ذكره "جولدزيهر – Goldziher".

المطلب الثاني : دعوى سعي النبي ﷺ للحصول على تأييد اليهود وتوجيه ذلك

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**التحريف**"[فقرة: 1]: «**فقد سعى منذ بدء رسالته إلى الحصول على تأييد أهل الكتاب يهوداً ونصارى لاقتناعه بأنّ ما جاء في العهدين القديم والجديد يتفق وما دعا إليه مِمّا أُنزل عليه**[5]...

---

[1]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 389/5. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1110/2-1111. والتفسير المنير، الزحيلي، 240/26.

[2]– **الذميون**: أو "**أهل الذمة**": هم أهل العهد والميثاق الذين يوجب الإسلام معاملتهم بالعدل والمساواة بمقتضى ذمة الله ورسوله؛ ويقال لهم أيضا "**المعاهدون**" لأنّهم يقيمون في دار الإسلام بموجب معاهدة معقودة بينهم وبين المسلمين، يجب تنفيذ أحكامها واحترامها من الجانبين، ويحرم ظلمهم وتكليفهم ما لا يطيقون. ينظر: التفسير المنير، 175/10.

[3]– أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في الذمي، 211/8. من حديث أَنّ صَفْوان بن سُلَيْم عن عدّةٍ من أصْحاب رسول الله ﷺ. والحديث صححّه السخاوي "المقاصد الحسنة، 616" والألباني "السلسلة الصحيحة، 807/1".

[4]– ينظر: عون المعبود، العظيم آبادي، 211/8.

[5]– **تعقيب أمين الخولي على المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 604/4-605]: «**ساق الكاتب في هذه الفقرة دعاوى... وتسأل الكاتب الدليل أو شبه الدليل على واحدة من هذه الدعاوى، فلا تجد منه شيئا في مقاله! وذلك إخلال قوي بأسلوب البحث ولا شك... فأوّل ما نجد من ذلك أنّ الفكرة السائدة فيها ظل لِما قيل في غير موضع من "الدائرة" عن علاقة الرسول باليهود... والأمر الثاني: أنّ القول بسعي محمد إلى الحصول على تأييد أهل الكتاب..إلخ قلب واضح لفكرة إسلامية جليلة، وتشويه لَها، تشويها يعد من أقسى التحريف: تلك الفكرة هي تقرير القرآن في مكة كما في المدينة: أنّ الحقيقة الدينية التي جاءت بها الرسالات المختلفة واحدة، جهر القرآن بذلك في مكة في مثل سورة الشورى (13): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾... فهو يذكر وحدة شرائع الأنبياء... وهي فكرة ثابتة واضحة في وحدة الحقيقة الدينية، دون تخصيص بيهود أو نصارى... ومؤيداتها كثيرة في القرآن، فبأي حجة، بل بأي شبهة صرفت عن وجهها هذا الصرف، وحرفت هذا التحريف وعدت سعيا إلى تأييد اليهود والنصارى! وهلا يعدّ ذلك الصنيع من الكاتب إلاّ إخلالا عامدا بأسلوب الدراسة الصحيح أما دلالته عن الطوايا والنوايا فشيء لا نخوض فيه، ولا هو مِمّا يستطاع القول العلمي فيه... ولم يسع محمد إلى تأييد اليهود والنصارى بخاصة حتى يذهب اختلافه معهم، أو يحرج بذلك، وليس هنالك إلاّ دعاوى لا تؤازرها قرائن فضلا عن الأدلة».

ولو أنّ ما استعرضه من الآراء كان مناقضا لِما أُنزل في الكتب المقدّسة القديمة لانتفت دعواه فيما يؤكّد من أنّه صاحب رسالة إلهية»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**الحج**"[فقرة: 1]: «... **فقد خدع النبي فيما كان يعقده من آمال على جماعة اليهود بالمدينة، وأدت خلافاته معهم إلى قيام شقاق ديني بينه وبينهم**[3] **لم يكن عنه محيص...**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[5].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 44]: «**ومن دلائل حكمة محمد ﷺ السياسية محاولاته الأولى في المدينة استمالة اليهود هناك إلى دعوته بتأكيده على وجود أمور مشتركة بين العبادات اليهودية والعبادات الإسلامية، فقد فرض مثلا صوم العاشر من محرم على المسلمين، وكان – فيما يبدوا – صوما ليوم واحد على مدى أربع وعشرين ساعة، كصوم اليهود في يوم الكفارة، وهو العاشر من شهر تشرى في التقويم اليهودي. ويدلنا على أن هذه الشعيرة الإسلامية المؤقتة التي يبدو أنها لم تستمر إلا عاما واحداً مستمدة من عادة يهودية...**»[6].

ثم يقول: «**ومع ذلك ظل محمد ﷺ –كما كان في الماضي– لا يفكر إلا في إصلاح الديانتين السابقتين وهداية مشركي قريش للدين الجديد**[7]**، وإنّما كان سعيه منصبا على إعادة الديانة الحــقّة التي نادى بِها الأنبياء (عليهم السلام) منذ البداية**»[8]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 4/603-604.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– **تعقيب محمد حامد الفقي على المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/302-303]: «**لم تكن مخالفة النبي ﷺ لليهود والمشركين حين هاجر إلى المدينة عن آمال عقدها على أولئك اليهود خدع فيها بعد ذلك...**

ولقد كان أبدا يعقد آماله على تأييد الله ونصره، لا على اليهود ولا غيرهم، وكانت هذه المخالفة لاتّقاء شر اليهود وكتبهم حتى يستقر للإسلام نظام حكمه وشرائعه في المدينة... ولأجل أن يعذر إليهم – وهو يعرف بما علمه الله – مكر اليهود وخبثهم، وشدة عداوتهم للحق وللنظام والإصلاح، وحبهم العميق للشر وإثارة الفتنة وسعيهم الحثيث في الأرض بالفساد، مما كان واقعا في المدينة بسعاية اليهود بين الأوس والخزرج وإشعال نيران العداوة والحرب بينهم، وكان اليهود هم الذين نقضوا عهد رسول الله وبدأوه بإعلان العداوة والحرب، أما الشقاق الديني بين اليهود وبين رسول الله ﷺ، فإنّما كان عداوة من اليهود لله ورسوله والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/302.

[5]– سبقت ترجمته في: ص49.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9130-9131.

[7]– في المطبوع "قريش دين جديد" ولعلّه خطأ مطبعيّ؛ إذ لا يستقيم التعبير بهذه العبارة.

[8]– المصدر نفسه، إص3، 30/9133.

– وفي مادة "**اليهود**"[فقرة: 1]: «**عندما بعث الله محمداً (عليه الصلاة والسلام) برسالته، لم ينكر محمد ﷺ ولا القرآن الكريم الرسالتين السابقتين: اليهودية والمسيحية، فالدين الإسلامي –من وجهة نظر إسلامية– أتى من المصدر نفسه الذي أتت منه الديانتين السابقتين، فكلها ديانات من عند الله، وقد بُعث ﷺ ليصحّح الأخطاء التي وقع فيها أصحاب الديانتين السابقتين (أهل الكتاب) فهو بمثابة ناصح ومصحّح، فالديانة الإسلامية أتت لتؤكّد وتصحّح الديانتين السابقتين، لذا فمن غير المستغرب أن يشير محمد ﷺ للكتابين السابقين، ومن هنا لا نجد غرابة في وجود تشابه بين القرآن والكتب السابقة عليه...**

وتحدث القرآن الكريم عن صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام كما هو واضح في الآيتين (18–19) من سورة الأعلى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾، فقد كان محمد ﷺ يعلم إذن أنّ اليهود والمسيحيين ينسبون إلى إبراهيم الخليل تأليف الكتب المقدسة[1]...

ويطالب القرآن الكريم أهل الكتاب بالعودة إلى "ملّة إبراهيم" أما عيسى بن مريم فليس أكثر من نبي مرسل وهو عبد الله...»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **هينريش سوتر** S.Heinrich-[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– دعوى أنّ تقرير النبي ﷺ للتوافق بين ما جاء به وما عند أهل الكتاب كان لاستمالتهم: إنّ الافتراض الذي قدّمه المستشرق "بول-Buhl" في مادتي "التحريف" و"محمد ﷺ" وكذا المستشرق "فنسنك-Wensinck" في مادة "الحج": لا يُعبّر عن دراسة وافية للآيات القرآنية التي تتحدّث عن أهل الكتاب واليهود خاصة، ولا لأحداث السيرة النبوية المتعلّقة بتعامل النبي ﷺ مع أهل الكتاب.

كما أنّ هذا الافتراض مبنيّ على: **منهج التشويه أوّلا** كما أفاد "الخولي" في تعقيبه المذكور على مادة "التحريف"؛ حيث يعرض "بول-Buhl" الوقائع بصورة مخالفة لحقيقتها المقرّرة في المصادر الأصيلة للسيرة والتاريخ؛ وفق "**منهجية الانتقاء الكيفي**"؛ فيذكر من الوقائع ما يدعّم افتراضاته الخاطئة، ويتجاهل عن عمد الحقائقَ التي تردّ تلك الافتراضات وتدحضها.

ثم يعتمد **ثانيا:** على "**منهج التمويه**"، حيث يأوّلُ الوقائع على غير وجهها.

---

[1]– **تعقيب المترجِم على المادة** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**هذا كذب وسوء فهم وسوء طوية، فالتوراة والإنجيل من عند الله والقرآن الكريم نفسه يؤكّد هذا المعنى في آيات لا حصر لها، ولم ينسب القرآن الكريم ولا الرسول ﷺ لإبراهيم (وضع) أو (تأليف) الكتب المقدّسة، فالمؤلّف قد فهم الآيات السابقات فهما خاطئا بالتأكيد**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 32/10235–10236.

[3]– **سوتر هينريش** "Heinrich Suter" (1848–1922م): مستشرق سويسري، تعلم ودرَّس في "زوريخ"، وبها قرأ العربية، وتخصّص في تاريخ الرياضيات والفلك عند العرب، من مؤلّفاته: "تاريخ العلوم الرياضية"، و"الرياضيون والفلكيون العرب" وغيرها. ينظر: الأعـــلام، الزركلي، 69/8. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 355.

• **الردّ على فرضيّة "بول - Buhl" و"فنسنك-Wensinck"**[1]: الملاحظ أنّ المستشرق "بول-Buhl" استند إلى حقيقة تاريخية في السيرة النبوية؛ وهي: أنّ النبي ﷺ قرّر وجود توافق بين ما جاء به وما عند أهل الكتاب، ولكنه طرح هذه الحقيقة بشكل مشوه وبأسلوب مغرض، من أجل الوصول إلى نتيجة مفادها: أنّ النبي ﷺ إنّما قرّر ذلك محاولة منه لاستمالة يهود المدينة حتى يكسب دعمهم الديني والسياسي، فلمّا لم يتوافق معهم واشتد الخلاف بينه وبينهم غيّر موقفه منهم وادّعى أنّهم حرّفوا ما أنزل إليهم من كتب سماوية.

لكن هذا الافتراض الذي يطرحه المستشرق "بول-Buhl" بِما يتضمنه من مقدمة واستنتاج ادّعاه؛ ترِد عليه عدة إشكالات أهمها: – هل النبي ﷺ هو من قرّر ذلك ؟

– وهل قرّر موافقته لأهل الكتاب فحسب، أم موافقته لأنبيائهم أيضا؟

– ومن هم الذين قرّر القرآن الكريم موافقة النبي ﷺ لِما جاءوا به؟

– وهل قرّر القرآن الكريم موافقة ما جاء به النبي ﷺ لِما عند اليهود في المدينة فقط حتى نقول أنّ ذلك كان بغرض استمالتهم؟ أم أنّ تقرير هذا التوافق كان قبل ذلك أصلا في مكة؟

جواب هذه التساؤلات في النقاط الآتية:

[1]– ليس النبي ﷺ هو مَن قرّر مِن عنده حقيقة التوافق بين رسالته وما عند أهل الكتاب، بل إنّ الله تعالى هو الذي بيّن ذلك في القرآن الكريم، في حين نسب المستشرق "بول-Buhl" ذلك إلى النبي محمد ﷺ مشيا على قاعدة المستشرقين في نسبة ما جاء في القرآن الكريم إليه ﷺ، ولا يخفى ما في ذلك من تأثّر بالخلفيات العقدية، وعدم أمانة وتمويه يأباه منهج البحث العلمي المتجرد.

لذا كان من المفروض أن يفرّق بين ما في سنة النبي ﷺ وبين ما جاء في القرآن، ولو لم يكن المستشرق يؤمن أنّه من عند الله تعالى، لكن على الأقلّ يُميّز ذلك بقوله مثلا "جاء في القرآن كـــذا" أو "ذكر القرآن كذا" كما هي طريقة المستشرق "مونتمجري وات-Watt"[2] على سبيل المثال.

[2]– **ينبغي التنبّه** إلى «أنّ رسالة النبي ﷺ ما كانت تستمد صدقها من شهادة السابقين، إنّما كانت **قوّتها تُستمَدّ من ذاتها، وتحمل** في نفسها **الشهادة بصدقها، والبينات الناطقة** بأنّها **حقّ**، وأنها من الله العزيز الحكيم»[3]؛ أمّا ما ورد في القرآن من بيان موافقة ما جاء به الإسلام لِما عند أهل الكتاب؛ فإنّما هو تقرير لأمر واقع، وتنبيه إلى وحدة المصدر الإلهي لهذه الأديان، وإشارة إلى تصديق الرسالات السماوية لبعضها، على ما سيأتي تفصيله في النقطة الموالية.

---

[1]– مع ملاحظة أنّ طرح المستشرق "بول" كان مفصّلا، بينما ذكره المستشرق "فنسنك" في إشارة سريعة.

[2]– بيّن ذلك في مقدمة كتابه "محمد ﷺ في مكة، 40".

[3]– خاتم النبيـــين، أبو زهرة، 93/1.

[3]– المقدمات والنتائج التي تجاهلها المستشرق "بول" في دعواه: افتراض "بول-Buhl" يقوم على مقدمة مشوهة استخلص منها نتيجة خاطئة، لكنه أغفل مقدمات أساسية أخرى، وهي:

– **المقدمة الأولى: أنّ النبي ﷺ جاء مصدّقا للأنبياء:** فالقرآن الكريم لم يقرّر أنّ ما جاء به النبي ﷺ موافق لِما عند اليهود أو النصارى فحسب، بل قرّر قبل ذلك أنّ ما جاء به محمد ﷺ موافق ومصدّق لِما جاء الأنبياء السابقون، وذلك منذ العهد المكي وفي أوائل ما نزل من القرآن، فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: 13]، والمعنى: أنّ الله عز وجلّ شرع للناس وأنزل على الأنبياء من لدن نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ دينا واحدا متفقا بين كلّ الأنبياء[1]، قال الشوكاني: «بَيّن وأوضَح لكم مِنَ الدّين ما وصّى به نوحاً منَ التّوحيد ودين الإسلام وأُصول الشّرائع التي لَمْ يَخْتلِف فيها الرّسل ووافَقت عليها الكتب»[2].

يمكن أن نستخلص من هذه المقدمة التي تجاهلها المستشرق "بول - Buhl" تَماما عدة نتائج منها:

– **النتيجة (أ) للمقدّمة الأولى:** أنّ دين الله تعالى واحدٌ في كلّ أمّةٍ وعلى لِسان كلّ نبِيّ[3]، ومنهم محمد ﷺ، أو بعبارة أخرى: أنّ "**الحقيقة الدينية التي جاءت بها الرسالات المختلفة واحدة**" كما عبّر الأستاذ "الخولي" في تعقيبه المذكور على مادة "التحريف".

– **النتيجة (ب):** إنّ تقريره موافقة **الأنبياء أشمل** وأعمّ من **حصرها** على **أهل الكتاب**، لكون أهل الكتاب ورثوا شيئا من علم النبوة، ولكون كثير من هؤلاء الأنبياء إنّما جاء اليهود والنصارى بعدهم، فالقرآن إذن لا يريد بذلك استمالة أهل الكتاب فقط، بل هو يقرّر حقيقة تاريخية ودينية أكبر مِن أن تتعلّق بزمان محدّد وطائفة معينة، وهي أنّ رسالة النبي ﷺ وحي من الله تعالى، وأنّ ما نزل عليه هو امتداد لِما نزل على الأنبياء قبله، ومن هنا جاء هذا التوافق والتواصل المذكور.

تجاهَل المستشرق "بول-Buhl" هذه الحقيقة التي قرّرها القرآن الكريم لأنّها تنسف قوله من الأساس وتبرهن أنّ النبي ﷺ ما كان يريد أن يستميل اليهود بتقرير أنّ ما جاء به موافق لِما عندهم، بل هو حكاية أمر واقع عن موافقته لِرسالة الأنبياء قبلهم، ولشيء مما بقي من ذلك عندهم.

إن المستشرق وإن كان يتجاهل هذه الحقيقة في افتراضه الخاطئ، فإنّنا نجده يقرّرها بعد ذلك في المادة نفسها عندما يقول في آخر الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ": "**وإنّما كان سعيه منصبا على إعادة الديانة الحقّة التي نادى بِها الأنبياء منذ البداية**"، ومع ذلك يناقض هذه الحقيقة بدعواه الخاطئة.

---

[1]– ينظر: تفسير الرازي، 587/27. وسيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 329/1–330.

[2]– فتح القدير، 607/4.

[3]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 393/1.

– **النتيجة (ج)**: أنّ ما جاء به النبي ﷺ هو تصديق لرسالات الأنبياء السابقين وليس نقيضاً لها، وهذا التوافق بين أديانهم سببه وحدة المصدر الإلهي[1]، كما بيّن "هينريش-Heinrich" في مادة "اليهود".

– **المقدمة الثانية: تقرير هذا التصديق منذ العهد المكي**: بيّن القرآن المكي بوضوح التشابه بيْن الأديان ولم ينكره[2]، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: 37] وغيرها.

إنّ هذه الآيات المكية تدلّ على أنّ القرآن الكريم بيّن منذ العهد المكي أنّ ما أُنزل على محمد ﷺ موافق لِما عند أهل الكتاب[3] ولم ينكر ذلك كما نبّه المستشرق "هينريش-Heinrich" في مادة "اليهود".

وفي ذلك ردّ على دعوى المستشرق "بول" بأنّه إنّما قرّر موافقته لِما عندهم في المدينة استمالةً لهم، لأنّ مكة لم يكن فيها يهود، وإنّما احتكّ بهم في المدينة بعد الهجرة؛ فكيف يستقيم القول بأنّ النبي ﷺ سعى لاستمالتهم بتقرير موافقته لِما عندهم؟!

ولَمّا كان هذا الأمر مقرّراً منذ العهد المكي لا يمكن أن يكون من أجل أمر عارض في المدينة.

– **المقدمة الثالثة: تقرير كونه جاء مصدّقا لِما عند أهل الكتاب في المدينة**: كما قرّر القرآن المدني أيضا توافق ما جاء به النبي ﷺ مع ما عند أهل الكتاب، ودعاهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ وبالقرآن، فقال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: 47].

فجعل الله عز وجل الإيمان بالنبي محمد ﷺ والقرآن لا يتناقض مع الإيمان بالتوراة والإنجيل، ولكنّ الكفر بمحمد ﷺ والقرآن كفرٌ بالتوراة والإنجيل؛ وذلك «أَنَّهُ حَصَلت البِشارَة بمحمّد ﷺ وبالقرآن في التوراة والإنجيل فكان الإيمان بمحمد وبالقرآن تصديقاً للتوراة والإنجيل، وتكذيب محمد والقرآن تكذيباً للتّوراة والإنْجيل...؛ ومعلومٌ أنّ الله تعالى إنّما ذكر هذا الكلامَ لِيَكون حجّةً عليهم»[4].

لقد «كان من المتوقّع على ما تلهمه الآيات المكية والمدنية المذكورة وغيرها أنّ يَجد النبي ﷺ في اليهود سنداً وعضدا لدعوته، وأن يكونوا أوّل من يؤمن به ويصدّقه ويلتفّ حوله، لِما كان بين دعوته

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 574/2-575.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 575/2.

[3]– ينظر بيان ذلك وذكر آيات أخرى في: سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 328/1-331.

[4]– تفسير الرازي، 483/3.

وأسس دينهم من توافق، ولِما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنّه مصدق لما بين يديه، وبأنّه محتو حلّ المشاكل والخلافات»[1] التي وقعت بينهم.

ويمكن القول أنّ **النبي ﷺ كان يطمح** «**أن يتفهّم اليهود** دوافع حركته الدينية وأهدافها والعوامل المشتركة التي تربط الأديان السابقة، بما فيها اليهودية بالإسلام، لا سيما وأنهم يرون بأم أعينهم في صفحات كتبهم تلك التأكيدات المستمرة على نبوة محمد ﷺ... وهذا أمر منطقي بطبيعة الحال بالنسبة للدعوة الجديدة التي جاءت لتعلن أكثر من مرة أنها ليست سوى امتداد على نفس الطريق للدعوة الدينية الكبرى التي بدأها إبراهيم عليه السلام ونادى بها فيما بعد موسى وعيسى عليهما السلام»[2].

[4]– كما يمكن أنّ نفسِّر الخطاب الموجّه لأهل الكتاب في هذه الآيات: أنّه **تألّف لليهود** من أجل تسهيل استجابتهم لدعوته، لأنّه قد **يكون حافزا** لإيمانهم واستمالة قلوبهم وترغيبهم في الإيمان[3] بالنبي ﷺ والقرآن الكريم، لكنّ هذا **التألّف والتحفيز** ليس **لكسب سياسي** كما عبّر المستشرق "بول-Buhl"، ولا يمكن القول أنّ النبي ﷺ خُدع أمله فيهم لأنّه **كان في غنًى عن دعمهم الديني أو السياسي**؛ فهو مؤيد بنصر الله تعالى، واستطاع تحقيق النصر على الأعداء ونشر دينه من دونهم.

[5]– إنّ حرص النبي ﷺ على إيمان أهل الكتاب هو كحرص أيّ نبي على إيمان مَن يدعوهم مِن الناس، ثم زيادة على ذلك لِما خصّهم الله تعالى به من علم شيء من الكتب المنزلة.

لذلك فإنّ في دعوة النبي ﷺ لهم وحرصه على إيمانهم خير ومكرمة لهم أولا، قبل أن تكون مكرمة للنبي ﷺ والمسلمين كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم**﴾ [آل عمران: 110].

[6]– أهداف أخرى لبيان القرآن للتوافق بين ما جاء به وما عند أهل الكتاب: لا ينبغي أن يُفهم تأكيد القرآن أنّ ما جاء به مصدّق لِما عند أهل الكتاب كان لغاية واحدة فحسب، وهي تأليفهم أو استمالتهم إلى الإسلام كما توهّم المستشرق "بول-Buhl"، بل هناك أسباب أخرى هامة تجاهلها، فلِماذا إذن بيّن القرآن وجود توافق بين ما جاء به النبي ﷺ وما عند أهل الكتاب؟

بيّن القرآن الكريم ذلكَ لأهداف وغايات أخرى جليلة، أهمها ما يلي:

– **الهدف (أ)**: التنبيه إلى أنّ التماثل بين الأديان مرجعه إلى **وحدة المصدر الإلهي**؛ "**ومن هنا لا نجد غرابة في وجود تشابه بين القرآن والكتب السابقة عليه**" كما قال المستشرق "هينريش- Heinrich" في مادة "اليهود"، وهو الأمر الذي أغفله المستشرقان "بول-Buhl" و"فنسنك- Wensinck" فقرّرا افتراضهما الباطل بأنّ النبي ﷺ إنّما أبدى ذلك لاستمالة اليهود ولِما كان يعقده من آمال عليهم.

---

[1]– سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 125/2.

[2]– دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 271.

[3]– ينظر: تفسير الرازي، 473/3. وسيرة أبي شهبة، 104/2. وسيرة الرسول –صور مقتبسة من القرآن، 152/2.

– **الهدف (ب)**: بيان أنّ الله أرسل محمداً ﷺ مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل كما أنّه تعالى أرسل عيسى عليه السلام مصدقا وموافقا لِما جاءت به التوراة من العقائد والمبادئ، وتصحيح ما أفسده الناس منها، مع أحكام وتشريعات جديدة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الصف: 6]؛ فمحمد ﷺ ليس بدعا في ذلك.

– **الهدف (ج)**: بيان **جحود أهل الكتاب** لنبوته ﷺ مع علمهم بصدقها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]؛ ففي الآية «تعريض بأنّه **كان يَجب أنْ يكونوا أوّل مَنْ يُؤمِن به لِمعرفَتِهم به** وبِصِفته ولأنّهم كانوا هم الْمبشِّرون بِزمان محمد ﷺ والْمُسْتَفتِحون على الذين كفرُوا به فلمّا بُعِث كان أَمْرهم على الْعَكْسِ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]»[1].

– **الهدف (د)**: كما أنّ القرآن نبّه إلى موافقة ما جاء به محمد ﷺ لِما عند اليهود من باب «بيان **تَغْليظ كفرهم** وذلك لأنّهم لَمّا شاهدوا الْمُعْجِزَاتِ الدّالّة على صِدْقه، وعرفوا الْبِشارات الوارِدة في التّوراة والإنجيل بِمقدمه؛ كان كُفْرُهم أشدّ مِن كفر»[2] غيرهم؛ فكان **يحاجّهم بما عندهم**[3].

– **الهدف (هـ)**: توافقُ ما جاء به النبي ﷺ مع ما عند أهل الكتاب هو في حقيقته توافق مع ما أنزل الله تعالى على أنبيائهم لا مع ما حرّفوه وبدّلوه من تلقاء أنفسهم، وهو ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]؛ أي: أنّ النبي محمداً ﷺ جاء مُوَافقا للأنبياء قبله في التّوحيد، والنّبوّات، وأصول الشّرائع[4].

والحاصل: أنّ القرآن لم يقرّر موافقة بين ما جاء النبي ﷺ وما عند أهل الكتاب فحسب –كما زعم "بول -Buhl"–، بل قرّر قبل ذلك موافقته لِما جاء به الأنبياء قبله وقبل اليهود والنصارى.

كما لم يكن تقرير القرآن لِهذا التوافق في العهد المدني فقط، بل كان قبل ذلك في العهد المكي، وبالتالي لا يستقيم القول أنّ الآيات المدنية المبيّنة لذلك التوافق لم تقصد سوى استمالة يهود المدينة.

ثُمّ إنّ المستشرق "بول -Buhl" لا يستلزم الأمانة العلمية عندما يتجاهل هذه المقدّمات العلميّة وما تستلزمه من نتائج، وما ذلك التجاهل إلاّ لِما في تلك المقدمات والنتائج من إبطال لدعواه.

ثانيا– دعوى محاولة استمالة اليهود لكسب دعمهم السياسي: يقول الأستاذ "الخولي" في تعقيبه السابق على مادة "التحريف": "**لم يسْع محمد ﷺ إلى تأييد اليهود والنصارى، وليس هناك أدلة على ذلك**"؛ بل إنّ الأدلة والشواهد تشير إلى أنّ النبي ﷺ كان في غنًى عن الدعم السياسي والعسكري لليهود،

---

[1]– تفسير الرازي، 483/3.

[2]– المصدر نفسه، 484/3.

[3]– خاتم النبيين، أبو زهرة، 93/1.

[4]– ينظر: تفسير الرازي، 277/8.

وإنّما عاهدهم أول مرة لِحِكم أخرى جليلة غير السعي إلى كسب دعمهم؛ منها: إقامة الحجة عليهم، وحتى يكون المبادر إلى مدّ يد السلم والمصالحة إليهم، وحتى لا يفتح على نفسه عدة جبهات في آن واحد ودولة الإسلام لم يشتد ساعدها بعدُ، أمّا استغناؤه السياسي والعسكري عن اليهود فقد عبّر عنه النبي ﷺ غير ما مرّة، ومن ذلك: ما جاء في حديث أبي حميد الساعدي ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلّف ثنية الوداع إذا كتيبةٌ، قال: ((مَنْ هَؤُلاءِ؟))، قالوا: بنو قينقاع... قال: ((وَأَسْلَمُوا؟))، قالوا: لا بل هم على دينهم؛ قال: ((قُولوا لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا، فَإِنَّا لا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ))[1].

ويشهد لذلك أيضا ما جاء عن الزهري: أن الأنصار قالت يوم أحد ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ فقال ﷺ: ((لا حَاجَةَ لَنَا فِيهِمْ))[2].

دلّت هاتان الروايتان على أنّ رسول الله ﷺ رَفَض عونهم العسكري من أجل كفرهم، وهذا يبيّن على عكس ما قرّره المستشرقان "بول-Buhl" و"فنسنك-Wensinck" أنّ النبي ﷺ لم يكن يسعى لكسب دعمهم السياسي أو العسكري بقدر ما كان يحرص على هدايتهم للإسلام.

لذا فإنّه ليس هناك ما يبرّر قول المستشرق "بول" أنّ "**من دلائل حكمة محمد ﷺ السياسية محاولاته الأولى في المدينة استمالة اليهود إلى دعوته بتأكيده على وجود أمور مشتركة بين اليهودية والإسلام**"؛ وإنّما كان حرصه ﷺ على إسلامهم حرصَ نبِيّ على إسلام من بُعث فيهم، لا حرص سياسيٍّ على كسب دعم الأتباع وتكثيرهم.

بل **الصواب** القول: بأنّ من **دلائل نبوّته** ﷺ بيان القرآن الكريم لتوافق ما جاء به مع ما لم يُحرّف عند اليهود والنصارى من علم الأنبياء قبله، مع كون دعوته مصحّحه ومجدّدة لدعوة أنبياء الله تعالى.

وهو الأمر الذي بيّنه بوضوح المستشرق "هينريش-Heinrich" في مادة "اليهود"، كما أفصح عنه أيضا المستشرق "بول" نفسه في آخر الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" في قوله: «**ومع ذلك ظل محمد ﷺ – كما كان في الماضي– لا يفكر إلا في إصلاح الديانتين السابقتين**... **وإنّما كان سعيه منصبا على إعادة الديانة الحقّة التي نادى بِها الأنبياء منذ البداية**»؛ فهذا الكلام أقرب إلى الدقة والصواب من كلامه في بداية الفقرة.

ثالثا– دلالات صوم يوم عاشوراء: يبدو أنّ المستشرق "بول-Buhl" لم يستوعب دراسة الروايات الواردة في صيام النبي ﷺ ليوم عاشوراء أولا، وأنّه أساء تفسير بعضها ثانيا، فعندما استخلص أنّ صومه عاشوراء كان من أجل استمالة اليهود، فهو يشير إلى حديث ابن عباس ﷺ: «قدِم المدينة

[1]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب الجهاد، 133/2. وحسنه ابن حجر في "المطالب العالية، 356/17".

[2]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 64/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 350/5.

فوجد اليهود صيامًا يومَ عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟)) فقالوا: هذا يوم عظيم، أَنْجَى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: ((فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ))، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه»[1].

استنتج المستشرق "بول-Buhl" من هذا الحديث أنّ النبي ﷺ إنّما صام هذا اليوم من أجل استمالتهم وموافقتهم، لكن تفسيره هذا يردّه الحديث نفسه وأحاديث أخرى:

أ)– فقوله ﷺ في الحديث: ((فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ))؛ هذه العبارة منافية لِمعنى الاستمالة التي ذكرها المستشرق **أولا**، ومبيّنة أنّ هذا الصوم له علاقة مباشرة بنَبِيّ الله موسى عليه السلام وليس اليهود **ثانيا**.

ب)– دلّت روايات أخرى في الصحيحين أنّ قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية وكان النبي ﷺ يصومه في مكة، ثم وقع الأمر منه بصيامه في المدينة[2]، كما جاء مصرحا بذلك في حديث عائشة رضي الله عنها[3]، وابن عمر رضي الله عنه[4]، فصيام عاشوراء إذاً لم يكن في المدينة فحسب كما فهم المستشرق.

ج)– لو كان النبي ﷺ إنّما أمر بصيام عاشوراء رجاء استمالة اليهود فقط أوّل الأمر، فلماذا لم ينه عن صيامه بعد ذلك لَمّا وقع الخلاف مع اليهود وجحدوا بدعوته؟ بل إنّ النبي ﷺ أبقى على صومه وأمر بصيام يوم قبله أو بعده مخالفة لهم[5]، مما يدلّ على أنّ تعظيم عاشوراء له علاقة بِموسى ﷺ لا باليهود فحسب، خاصة بعد أن حرفوا تعاليمه و لم يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ الذي بشّر به.

خامسا– الملاحظ أنّ طرح المستشرق "هينريش- Heinrich" في مادة "اليهود" جاء أقرب إلى الدقة والموضوعية من طرح المستشرق "بول" في مادتي "التحريف" و"محمد ﷺ".

حيث بيّن "هينريش- Heinrich": – وحدة المصدر الإلهي بين الإسلام واليهودية والنصرانية.

– وأنّ النبي ﷺ بعث مصدّقا ومصحّحا للديانات السابقة.

– وأنّه لا غرابة في وجود توافق بين ما جاء به الإسلام وما قبله من الديانات السماوية ما دام المصدر واحداً.

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، 310/4. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصيام، باب صيام يوم عاشوراء، 13/8.

[2]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 312/4.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 310/4. وصحيح مسلم (النووي)، 6/8.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 222/8. وصحيح مسلم (النووي)، 8/8.

[5]– ينظر: فتح الباري، 311/4-312.

الفرع الثالث : تمَيّز المسلمين عن اليهود وغيرهم

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 45]: «**ويبدو أن معارضة يهود المدينة له كان لها – بالأخص – تأثير كبير في وضوح صورة الإسلام كدين متميز، فـــفي تلك المرحلة بالذات، ونتيجة لرفض اليهود الإيمان به، أضحى للجماعة الإسلامية الناشئة طابع خاص واضح**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**اليهود**"[فقرة: 2]: «**وفي المرحلة المدنية زاد محمد ﷺ علما باليهود وبأحوالهم فبدأ تدريجيا يضع حدودا فاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب ليتميّز بذلك المجتمع الإسلامي الجديد، وراح –من خلال القرآن الكريم– يدعو بني إسرائيل للتمسّك بعهد الله، كما في سورة البقرة الآية (40) وما بعدها: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾**»[3]. المحرر هو المستشرق: **هينريش سونر** –S.Heinrich[4].

جاء الإسلام رحمة للعالمين، مصدقا لِما جاءت به الأديان الربانية قبله، ومصحّحا لِما أفسده الناس فيها على مرّ السنين، فدعا اليهود والنصارى والمشركين والمجوس وغيرهم من أصحاب الديانات والنحل إلى الإيمان بالرسول محمد ﷺ والقرآن الكريم وما جاء به من الهدى، وجعل من انضوى تحت رايته أمة واحدة متميزة عن بقيّة الناس، هذا الأمر قرّره الإسلام وبيّنه النبي ﷺ منذ العهد المكي، وأكده في الأيام الأولى من العهد المدني حيث جاء في البند الأول من "دستور المدينة": أنّ المسلمين «أمة واحدة من دون الناس»[5].

فهذا الأمر مقرّر قبل اشتداد الخلاف بين النبي ﷺ ويهود المدينة، لا بعد معارضة اليهود للإسلام فحسب كما ذكر "بول-Buhl"، وإن كان الإسلام أكّد التميّز عن اليهود خاصة بعدّة تشريعات[6] بعد أذية يهود المدينة للنبي ﷺ وجحودهم لنبوته مع قيام الحجة عليهم بما يجدونه في كتبهم عن صحة نبوته.

ذلك أنّ أمة الإسلام تربط أفرادها رابطة العقيدة والرجوع إلى الشرع في مختلف الشؤون، وهي روابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل سواهم من اليهود أو غيرهم، ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمراً مقصوداً يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها.

---

[1]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9134/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10237/32.

[4]– سبقت ترجمته في: ص562.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 501/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 282/1.

[6]– ينظر: سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 159/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 292/1-293.

ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: ((مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ))[1]، وقال: ((لا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلا بِالنَّصَارَى))[2] والأحاديث في ذلك كثيرة وهي تفيد معنى تميز المسلمين واستعلائهم على غيرهم[3]، لكن هذا التميّز ليس مقصورا على اليهود فحسب.

وهذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزاً بين المسلمين وغيرهم، فكيان الجماعة الإسلامية مفتوح وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه[4] من يقتنع به ويقبل تشريعاته.

المطلب الثالث : موقف أهل الكتاب في المدينة من دعوة النبي ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– ورد في مادة "**اليهود**"[فقرة:3]: «**وكان اليهود يسمعون دعوة محمد ﷺ ويعرضون عنها ويقولون سمعنا وعصينا، ويقولون أيضا إنّ قلوبهم غير منفتحة لدعوته، وفي سورة البقرة الآية (88)**: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾... **كما يصفهم القرآن الكريم بأنّهم كانوا يسخرون من كلمات الله ويحرفونها عن مواضعها، ويستخدمون أسلوبا هازئا من الرسول ﷺ، ففي سورة البقرة الآية (104)**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾...

وقد أطلق محمد ﷺ عليهم اسم اليهود وهي كلمة كانت معروفة من قبل فيما يرى بعض المؤلفين، بينما يروي آخرون أنّها من الفعل هدى، وقد لاحظ محمد ﷺ –على غير المتوقع– أن اليهود والنصارى راحوا يتكاتفون ويتقاربون لمواجهة الدين الإسلامي ورفضه، لكن القرآن الكريم أكّد أن الدين الإسلامي لن ينحرف ليتواءم مع عقائد اليهود والنصارى، وأن العودة إلى ملّة إبراهيم التي يقرّرها الإسلام هي الطريق السويّ»[5]. المحرر هو المستشرق: **هينريش سونر** S.Heinrich-[6].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 46]: «**وترتبط في القرآن الكريم الأفكار الدينية الجديدة التي دعا محمد ﷺ إليها بأهل الكتاب، وهو تعبير يشير إلى طائفتي اليهود والنصارى. وكان هناك وعي**

---

[1]– أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، 51/11. من حديث ابن عمر ﷺ. وحسّنه ابن حجر في "فتح الباري، 334/10".

[2]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب الاستئذان، باب ما جاء في كراهية إشارة اليد بالسلام، 392/7؛ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وحسنه الألباني لشواهده في "السلسلة الصحيحة، 227/5".

[3]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 292/1-293.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 293/1.

[5]– ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10239/32.

[6]– سبقت ترجمته في: ص562.

بهذا الارتباط، بدليل ما تردد تأكيده في القرآن الكريم من اتفاق تعاليم الإسلام والتعاليم اليهودية والمسيحية...

وعلى اليهود والنصارى أيضا أن يشهدوا بصدق ما جاء به، حيث إن نفس الوحي كان قد أرسل إليهم من قبل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ **سورة النحل** آية (**43**)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ **سورة القصص** آية (**52**)...»[1].

ثم يقول: «**وقد كرس محمد ﷺ خلال عامه الأول في المدينة جهدا كبيرا من أجل أن يقبل هؤلاء السكان اليهود المتكلمون بالعربية دعواه أنه رسول الله، أما عن علاقاته بالمسيحيين في المدينة فلا يمكن تخمين طبيعتها إلا من الإشارات الواردة في القران الكريم إليهم، وبعد أن أصبح واضحا أن يهود المدينة لن يقبلوا دعواه النبوة، وردت بالقرآن آيات تعطي انطباعا بأن رأيه في النصارى أضحى بالتدريج أكثر تعاطفا،** ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾... **ورغم التشابه بين الإسلام واليهودية – كديانتي توحيد – في بعض النقاط إلا أنه بدا واضحا أن رغبة محمد ﷺ في إسلام يهود المدينة لن تتحقق، فمع أنهم كانوا يتوقعون في لَهفة ظهور المسيح، فما كانوا على استعداد للاعتراف لعربيّ بأنه المسيح اليهودي الذي ينتظرونه منذ أمد طويل.**

وما لبث محمد ﷺ أن نعى على اليهود أنه لَم يؤمن برسالته منهم غير نفر قليل، ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ **سورة آل عمران** آية (**110**)»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– جحود أهل الكتاب بنبوته ﷺ مع علمهم بصحّتها: قامت البراهين والحجج القاطعة لأهل الكتاب على صدق رسالة الرسول ﷺ، فقد كان اليهود والنصارى هم الذين يتحدثون عن موعد نبيّ أطل زمانه بينما كان المشركون العرب غافلين عن ذلك، لأنهم أميون ليس عندهم كتاب من عند الله يتبعونه[4].

لذا كان من المفترض أن يرحّب اليهود في المدينة بالإسلام، وأن يكون اليهود والنصارى أول المؤمنين بالنبي ﷺ، فإنّ محمدا ﷺ يدعو إلى توحيد الله، والاستعداد لحياة أرقى في الدار الآخرة، والدين

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9119-9120.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 30/9129-9132.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– ينظر: فقه السيرة، منير الغضبان، 622. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/121-122.

الذي جاء به وقّر موسى وعيسى عليهما السلام وأعلى شأنهما، ونوّه بما أنزل عليهما من الكتاب[1]، وهو الارتباط والتشابه بين رسالة النبي ﷺ وما عند أهل الكتاب الذي ذكره المستشرق "بول" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ".

لكنّ فريقا من اليهود والنصارى تَمسك برأيه حقّا كان أو باطلا، ولَم ينظر إلى الحجة والبرهان، وإنما سار على منهج التقليد الأعمى[2].

فلما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، مصدق لِما معهم من التوراة، ومؤكّد وصف النّبي المعروف عندهم، كفروا به حسدا للعرب، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، واستكبروا عن قبول دعوته وإجابته، وهم يعلمون أنه رسول الله، وآثروا الدنيا على الآخرة[3].

فبيّن الله عز وجل في القرآن الكريم قُبْح كُفْرهم، وتوجّه لهم بِالتّوبيخ والعتاب؛ لأنّهم أعْرَضوا عن الدَّعْوَةِ الْمحمّديّة، بعدما شاهدوا المعجزات الدّالّة على صِدْق رسول الله ﷺ، وعَرَفوا الْبشارات الوارِدة في التّوراة والإنجيل بِمَقْدمه؛ فكان كُفْرهم أشدّ[4].

ثانيا– بيان ما تجاهله المستشرقان "بول" و"هينريش" في نصّيهما: تجاهل المستشرقان في كلامهما عن موقف أهل الكتاب من دعوة النبي ﷺ حقيقتين من الأهمية بمكان، بحيث لا يمكن الكلام بصفة متكاملة في هذا الموضوع دون بيانهما، وإن كان المستشرق "بول" أشار إلى شيء منهما بطريقة فيها تشويه وتمويه ظاهر.

– الحقيقة الأولى: إخبار اليهود والنصارى بأنّه زمان ظهور نبي: راجت في البلاد العربية قبل البعثة أقوالٌ تذكر أن نبياً يُبعث في هذا الزمان، روّج ذلك النصارى الذين كانوا منبثين في الجزيرة العربية، واليهود في المدينة، حيث توافر النّقل عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يُخبرون بمبعثه وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لَمّا دعاهم إلى الإسلام[5].

فقد قال رجال من الأنصار: «إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهُداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكنّا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: "**إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن،**

---

[1]– ينظر: تفسير الرازي، 483/3. وفقه السيرة، الغزالي، 186.

[2]– ينظر: التفسير المنير، الزحيلي، 23/2.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 222/1.

[4]– ينظر: تفسير الرازي، 484/3.

[5]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 337/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 119/1.

نقتلكم معه قتل عاد وإرم"؛ **فكنا كثيرًا ما نسمعُ ذلك منهم**؛ فلمّا بعث الله رسوله ﷺ أجَبْناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتَوَعَّدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنّا به وكفررا به»[1].

كما توافرت الروايات بإخبار رهبان النصارى بقرب زمان ظهور نبي، كما أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه عن بعض رهبان النصارى في قصة إسلامه الطويلة[2]، والروايات في ذلك كثيرة[3].

وهو ما صرّح به القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف: 157]، قال ابن إسحاق: «وكانت الأحبار والرهبان من أهل الكتابين هم أعلم برسول الله ﷺ قبل مبعثه وزمانه الذي يترقب فيه من العرب، لما يجدون في كتبهم من صفاته... فيستفتحون به على أهل الأوثان من أهل الشرك، ويخبروهم أن نبياً مبعوثاً بدين إبراهيم اسمه أحمد»[4].

كما يبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [البقرة: 89]؛ ومع أنّ القرآن قرّر هذه الحقيقة إلاّ أنّ المستشرق "بول-Buhl" ينأى عنها هنا ويتجاهلها لِما فيها من ردّ لِما طرحه من افتراضات مغرضة، ومع أنّه كثيرا ما كان يستدلّ على ضعف حادثة ما في السيرة بعدم ذكر القرآن الكريم لَها –وكأنّه يسلّم بكلّ ما ورد في القرآن– فها هو الآن يتجاهل ما جاء في القرآن، وما ذلك إلاّ شاهد آخر على أنّه يكيل بمكيالين أو أكثر، وأنه ليس له منهج منضبط فيما يقرّره، وعلى أثر الخلفيات العقدية والفكرية فيما يطرحه عن السيرة النبوية.

بذلك **تُعلم المغالطة** التي في قول "بول-Buhl": «**أنهم كانوا يتوقعون في لَهفة ظهور المسيح، فما كانوا على استعداد للاعتراف لعربيّ بأنه المسيح اليهودي**»، فروايات السيرة تؤكّد أنّهم كانوا ينتظرون نبيّا يكون مهاجره إلى المدينة لا "**مسيحا**" كما أوهم المستشرق، وإنّما جاءت البشارة بالمسيح وقت عيسى عليه السلام فما آمنوا به كما لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ.

وهو ما فضحهم القرآن الكريم به كما في قوله تعالى: ﴿ **كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ** ﴾ [الصف: 14]، فقد أرسل الله فيهم المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من قبل –وهو من بني إسرائيل– فكفروا به.

---

[1]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 211/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 502/3.

[2]– ينظر: السير والمغازي، ابن إسحاق، 78–91. ومسند أحمد، 140/39–147. من طريق ابن إسحاق بسند حسن.

[3]– اعتنى بإيرادها: البيهقي "دلائل النبوة، 74/2–117" وابن كثير "البداية والنهاية، 502/3–520"؛ فتراجع هناك.

[4]– السير والمغازي، 83.

وقول المستشرق "**المسيح اليهودي**" يشير إلى سبب من أسباب عدم إيمانهم بالنبي محمد ﷺ، أي: أنّهم ما كانوا ليعترفوا بنبوة رجل ليس من جنس اليهود ونسلهم، وذلك أنّهم كانوا يَظُنّون أنّ الْمَبْعوث يكون مِن بني إسرائيل ومن سلالة اليهود؛ فلمّا بَعَث اللهُ تعالى محمدًا ﷺ من العرب، عظم ذلك عليهم فأَظْهروا التكذيب وخالفوا طريقهم الأوّل في التبشير بالنبي المنتظر[1].

وفي هذه العبارة شهادة من المستشرق "بول-Buhl" بأنّ اليهود «جعلوا الدِّينَ جنسيّةً، وصار الانْتِصار له عندهم عبارةٌ عنْ مُقاومة مَن لَم يكن مِنْ جنْسِهم، وإِنْ كان أقرب منهم إلى ما جاء في كتابِهم، بل إنّهم يَخْرُجون عن كتابِهم ويُحرِّفونه لِمُقاومة الغريب»[2].

– **الحقيقة الثانية: سبب عدم إيمان اليهود بنبوة محمد ﷺ:** مع أنّ النبي ﷺ منذ حلّ بالمدينة كتب بينه وبين اليهود عهدا -كما سبق- أمّنهم فيه على حريتهم الدينية وأموالهم وحقوقهم، فإنّهم ما لبثوا أن تطيّروا من قدومه إلى المدينة، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته، الأمر الذي كان يعني عزل اليهود والحد من نشاطهم الديني والاقتصادي على السواء، فضلا عن الوحدة العميقة التي أنشأها الإسلام بين الأوس والخزرج بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم، وخشوا على المركز الذي هم فيه، والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها[3].

ولما رأى اليهود أنّ الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم، ويتخذون النبي ﷺ مرجعهم الأعلى، ومرشدهم الأعظم وقائدهم المطاع، استشعروا الخطر العظيم الذي يحدق بمركزهم ومصالحهم الدينية والاقتصادية، لأن طبيعة الدعوة الإسلامية المنفتحة على العالم، وانتماء نبيها إلى العرب، وقيام دولتها في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود ونشاطاتهم المختلفة، يشكل بحدّ ذاته خطرا كبيرا على اليهود في دينهم ودنياهم على السواء، لأن نجاح الإسلام كفيل بحد ذاته بحصر اليهود وعزلتهم وكشفهم أمام العالم، ومن ثم ضرب وجودهم ومصالحهم في الصميم، الأمر الذي حفّز اندفاعهم في: خطة التنكر والحقد والتآمر والصدّ والتعطيل إلى نهايتها.. فقامت بينهم وبين النبي ﷺ محاجات ومجادلات ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة، جعلتهم يتورطون أحيانا في الوقوف إلى جانب الوثنية وامتداح أصنامها لمواجهة التوحيد الذي جاء به الإسلام[4].

---

[1]– ينظر: تفسير الرازي، 599/3. وفتح القدير، الشوكاني، 133/1.

[2]– تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 283/3. وينظر في هذا المعنى: دراسة في السيرة، عمال الدين خليل، 272.

[3]– ينظر: سيرة الرسول -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 122/2-123. ودراسة في السيرة، 273-274.

[4]– ينظر: سيرة الرسول -صور مقتبسة من القرآن، 125/2. ودراسة في السيرة، 272-273.

– **نستخلص** من ذلك: أنّ ما حمل اليهود على الكفر والجحود هو **الحسد والبغي والاستعلاء**، والحرص على المصالح الدنيوية، لأنّ ما جاء به الإسلام يفضح المزاعم الدينية التحريفية التي مارسها اليهود طويلا، ويفتح باب الخيرية في العالم على جميع الناس، ويقضي في طريقه على أسطورة "شعب الله المختار" وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مكاسب.

هذه الأسباب وغيرها وقفت دون إسلام اليهود فلم يؤمن بالنبي ﷺ منهم إلا القليل، أما الكثرة الكاثرة منهم فقد ناصبوا الإسلام وأهله العداوة، فالمستشرق "بول - Buhl" يذكر قلّة من آمن بالنبي ﷺ من اليهود، لكنه يتجاهل هاتين الحقيقتين الهامتين وما تستلزمانه من نتائج هامة، تضع أمر موقف أهل الكتاب وخاصة اليهود من دعوة النبي ﷺ في سياقه الصحيح.

ومن أبرز هذه **النتائج**: – بيان تناقض أهل الكتاب واليهود خاصة في التبشير بالنبي ﷺ ثم الكفر به.

– بيان تعصّب اليهود لجنسيتهم وجحودهم الحق إذا جاء من عند غيرهم.

– معرفة الأسباب الحقيقية وراء عدم إيمان اليهود بالنبي ﷺ.

إنّ الوقوف على هذه الخلفيات والحقائق الْمُبيِّنة لأسباب عدم إيمان اليهود خاصة بالنبي محمد ﷺ يكشف جانبا من جوانب حقيقة أخرى أشار إليها المستشرق "بول" وأساء تفسيرها، ألا وهي كثرة إيمان النصارى بالنبي ﷺ مقارنة باليهود، ذلك أنّ النصارى لا تقوم أفكارهم الدينية على أساس عرقي استعلائي مغلق كما هو شأن اليهود، من أجل ذلك كثر فيهم المؤمنون بالنبي ﷺ في عصره وبعده، كإسلام النجاشي ومن معه وإيوائه للمسلمين المضطهدين في بداية الإسلام، هذه الحقيقة أغفلها المستشرق "بول" لذا نجده يسيء تفسير التقارب في المودة بين النصارى والمسلمين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: 82]، بأنه كان نتيجة "**عدم قبول يهود المدينة لدعوة النبي ﷺ**"، وغفل "بول-Buhl" عمّا توحيه الآية من معان تردّ قوله، ومنها: – أنّ الله تعالى بيّن في آيات أخرى أنّ مِن أهل الكتاب مَن في نفوسِهِمْ شيءٌ من التّشوُّف إلى الهداية، والإقبال على الآخرة، والاستعداد لقبول الحق إذا جاءهم شيء مِن عند الله تعالى، والسّعي في مرضاته بحسب ما وصل إليه علمُهم، وأدّاهُم إليه نظَرُهم واجتهادهم[1]، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: 52-53]، وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]، فهذا حديث عن بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى ممن كانت لهم قابلية لقبول الحق والإيمان لما تميّزوا به من صفات قلبية وإيمانية.

[1]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 106/1.

– ثم بيّن الله عز وجل في آية المائدة أن تلك الصفات وجدت في بعض اليهود وهم قلّة، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق مقارنة باليهود[1].

فالأمر ليس مقصورا على النصارى فحسب كما فهم "بول-Buhl"؛ بل هو فيهم أكثر من اليهود، كما يستفاد من مجموع هذه الآيات، وعليه لا يمكن أن يستدل بالآية على تعاطف النبي ﷺ مع النصارى على حساب اليهود، لأنّ الإسلام دعا الفريقين إلى الإيمان، وبيّن بطلان ما هم عليه من الدّين المحرّف، لكن الآية تقرّر حقيقة واقعة في زمن النبي ﷺ وكذا بعده إلى يومنا هذا، يقول الشوكاني: «ومِمّا يدلُّ على كون النّصارى أقْرب منَ اليهود إلى الإسلام بطبيعة دين كلٍّ منهما –وِفاقًا لِتَعْليل الآية الكريمة– كثرةُ مَن يُسلِم من النّصارى في كلّ زمانٍ وقلّة من يسلم من اليهود»[2].

ثالثا– سوء أدب اليهود مع الرسول ﷺ: أشار المستشرق "هينريش-Heinrich" إلى سوء أدب اليهود مع الرسول ﷺ المذكور في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: 46]؛ فكانوا يقولون "**اسْمَع غَيْر مُسمعٍ**" أي: "اِسْمَع مِنّا ولا نَسْمع مِنك" أو "اسْمَع ما نقولُ لا سَمِعْت"، يقصدون بذلك الشتم والسخرية، وكانوا يقولون: "راعنا": وهي كلمة سب قبيح عند اليهود من الرعونة (وهي: الحمق)، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ قاصدين معنى السب والشتم[3].

كانوا يريدون بهذه العبارات الطعن في الدين، بقولهم: "لَو كان نبيًّا لَعلِم أنّا نسُبُّه"؛ فَفضحهم الله سبحانه وأطْلَع نبيّه ﷺ على ذلك[4]، كما أظهر تصرُّفهم هذا سوءَ أدبهم وأخلاقهم.

رابعا– قول اليهود السيّء في "جبريل" عليه السلام: – جاء في مادة "**ميكائيل**"[فقرة: 2]: «**ذُكر اسمه في قوله تعالى:** ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾... **روي في تفسيرها: أنّ اليهود كانوا يريدون أن يتأكدوا من صدق رسالة النبي محمد ﷺ فسألوه عدة أسئلة، فأجاب عليها كلّها إجابة وافية، وفي النهاية سألوه: من يتزل بالوحي عليه، ثم أجاب قائلا: إنّه جبريل، عندئذ أعلن اليهود أن هذا الملك عدوهم وأنّه ملك الهلاك والفقر، على عكس ميكائيل الذي قالوا إنّه حاميهم**»[5].

محرر المادة هو: **فنسنك**-Wensinck[6].

---

[1]– ينظر: التفسير المنير، الزحيلي، 216/4.

[2]– فتح القدير، 9/7.

[3]– ينظر: تفسير البغوي، 641/1. وتفسير الرازي، 93/10–94. وتفسير ابن كثير، 323/2.

[4]– ينظر: فتح القدير، 548/1.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9833/31.

[6]– سبقت ترجمته في: ص49.

ذكر المستشرق "فنسنك-Wensinck" في هذا النصّ من مادة "ميكائيل" صورة تبيّن موقفاً من مواقف اليهود الجحودية التي تتصل بوحي الله وبملائكته والنبي ﷺ، ولذلك عندما قال اليهود للنبي ﷺ: "إنّ جبريل هو عدونا من الملائكة"، نَزل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 97] كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[1].

فأعلمهم الله تعالى أنّ معاداة جِبْرِيلَ عليه السلام هي معاداة لِمِيكَائِيلَ عليه السلام، ومعاداة لَهما معا، بل معاداة لله تعالى، ولكل الملائكة وسائر الأنبياء والكتب[2].

فقولهم هذا مُؤذِنٌ بتَعنُّتهم وعنادهم، وشاهدٌ على فساد تَصوّرِهم وعدم تَدبُّرهم؛ لأنّهم إنّما أَظْهروا به عذرًا عن الإعراض عنِ الدّعوة الْمحمّديّة، وهو عذرٌ كاذبٌ ستَروا به السّبب في الواقع وهو الحسد على نزول القرآن على رجلٍ من غيرهم[3].

الفرع الثالث : إسلام عبد الله بن سلام من يهود المدينة

– جاء في مادة "**عبد الله بن سلام**": «من يهود بني قينقاع بالمدينة وقد أسلم على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فسمّاه بعبد الله، وكان اسمه في الجاهلية "الحصين" ويقال أنه أسلم لَحظة دخول النبي ﷺ المدينة، وقال آخرون بل كان إسلامه سنة ثَمان للهجرة، ومع أن هذا هو الأدعى للتصديق، إلا أن المسلمين يعتقدون أنه رأي خاطئ، ويَدعُونا إلى القول بذلك أننا لا نَجد اسْمه ضمن المقاتليـــن مع الرسول ﷺ في غزواته بعد هجرته للمدينة»[4]. المحرر هو المستشرق: **هورفنس**– J.Horovitz[5].

– وفي مادة "**[بنو] قينقاع**"[فقرة: 3]: «وهناك قينقاعي آخر هو عبد الله (الذي كان يسمى بالحصين) بن سلام (باللام المخففة) والموصوف بأنه "كبيرهم وأعلمهم" والذي يختم به ابن إسحاق قائمة هؤلاء القينقاعيين فإنه قد أسلم واهتدى في أعقاب دخول محمد ﷺ المدينة مباشرة وذلك حسبما ترويه الأخبار، وإن كان "هوروفتس" يرى أن الأصح والأقرب إلى الواقع أن عبد الله بن سلام إنما كان إسلامه في السنة الثامنة للهجرة، أي قبل عامين من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك حسب ما يذكره ابن حجر في "الإصابة"»[6]. حررّ المادة المستشرقان: **فنسنك** "Wensinck"/و**بارت** "Paret"[7].

---

[1]– ينظر: مسند أحمد، 284/4 و310. ودلائل النبوة، البيهقي، 266/6. والحديث حسنٌ كما ذكر الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[2]– ينظر: تفسير الرازي، 611/3. وتفسر ابن كثير، 342/1. والتفسير المنير، الزحيلي، 237/1.

[3]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 324/1. والتحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 619/1.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7172/23.

[5]– سبقت ترجمته في: ص112.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8485/27.

[7]– سبقت ترجمة "فنسنك" في: ص49. وترجمة "بارت" في: ص137.

أولا– إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه[1]: "ابن سلام" من بني قينقاع من ذرية يوسف عليه السلام، كان اسمه في الجاهلية "الحصين"، فسماه النبي ﷺ حين أسلم "عبد الله"، كما أسلم معه أهل بيته وعمته[2].

ذكر ابن الأثير والذهبي وابن حجر وغيرهم: أنّ إسلامه أول ما قدم النبيّ ﷺ إلى المدينة مهاجرًا[3].

وهو ما يدلّ عليه حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري في قصة إسلام "ابن سلام"، وفيه: « بَلَغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ»، فسأله فأجاب عنها الرسول ﷺ، فقال ابن سلام: "أشهد أنك رسول الله"، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: ((أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ؟))، فقالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيّرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: ((أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ))، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه»[4].

ثانيا– الاستدراك على "فنسنك" و"هورفتس" في تأخير إسلام "ابن سلام":

[1]– القول بأنّه أسلم سنة ثمان للهجرة قبل وفاة الرسول ﷺ بعامين، فهو قول رُوي عن الشعبي، بسند ضعيف كما بيّن الذهبي وابن حجر[5]، وبالتالي فهذا القول ضعيف جدّا لسببين:

– **الأول**: لأنّه مخالف لِما في صحيح البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه وهو شاهد عيان.

– **والثاني**: أنّه لم يثبت عن الشعبي، وحتى لو ثبت لَما كان أقوى من خبر أنس.

هذا ما بيّنه الذهبي في قوله: «فهذا قولٌ شاذٌّ مَردودٌ بِما في "الصّحيح": مِن أنّه أسلَم وقت هجرة النّبيّ ﷺ وقدُومه»[6].

[2]– أما ما ذكره "فنسنك-Wensinck" في مادة "[بنو] قينقاع" من كلام يشير إلى أنّ ابن حجر يرجّح أنّه أسلم سنة ثمان، فهي إمّا عبارة موهمة، أو نقل خاطئ؛ لأنّ:

أ)– ابن حجر يرجّح أنّه أسلم بعد الهجرة في غير ما موضع من كتبه[7].

---

[1]– ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبد البر، 921/3. وأسد الغابة، ابن الأثير، 265/3. والإصابة، ابن حجر، 102/4.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 151/1-517. والاستيعاب، 921/3. وأسد الغابة، 265/3.

[3]– ينظر: أسد الغابة، 265/3. وسير أعلام النبلاء، الذهبي، 414/2. والإصابة، 103/4.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، 437/6. **وأحمد**، المسند،113/19.

[5]– ينظر: سير أعلام النبلاء، 414/2. والإصابة، 103/4.

[6]– سير أعلام النبلاء، 414/2.

[7]– ينظر في: فتح الباري، لابن حجر، 164/7. وتهذيب التهذيب، له أيضا، 249/5. والإصابة، له أيضا، 103/4.

ب)- ذكر ابن حجر هذا القول بإسلامه سنة ثمان في كتابه "الإصابة" لكن لم يرجّحه، بل عبارته تدلّ على أنه يرجح أنّه أسلم بعد الهجرة للسببين السابقين.

ج)- ثُم إنّ ابن حجر في موضع آخر - ربما لم يطّلع عليه المستشرق- يخطّئ هذا القول، حيث يقول في شرحه على "البخاري": «وغلط من قال إنّه أسْلَم قبل وفاة النّبِيّ ﷺ بِعامَيْن»[1].

[3]- أمّا استدلال "هورفتس-Horovitz" على ترجيح هذا القول "**بعدم وجود اسمه ضمن المقاتلين في الغزوات الأولى بعد الهجرة**"، فهو لا يصلح لأن يكون دليلا يردّ الرواية الصحيحة عن أنس رضي الله عنه وأقوال علماء الحديث والسيرة، لأنّ علماء السيرة لم يستوعبوا ذكر أسماء كلّ مَن شارك في الغزوات الأولى لكثرتهم.

ومع ذلك نجد شاهدا عند الحافظ ابن حجر يردّ استدلال المستشرق "هورفتس"، حيث أفاد: أن "ابن سلام" رضي الله عنه ذُكر فيمَن شهد الخندق وما بعدها[2]، والخندق كانت سنة خمس للهجرة.

والملاحظ أنّ المستشرقين في نصوصهم المذكورة تمسّكوا بالقول الضعيف والشاذ كما بيّنه الذهبي وابن حجر، وهو خطأ منهجي كثيراً ما يقع فيه المستشرقون بسبب اختلال موازين الترجيح عندهم.

[1]- فتح الباري، 164/7.

[2]- ينظر: تهذيب التهذيب، 249/5.

المطلب الرابع : دعوى أنّ النبي ﷺ اتهم أهل الكتاب بتحريف كتبهم المنزلة

الفرع الأول : عرض ما جاء في "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**التحريف**"[1] [فقرة: 2]: «والذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة هو ما جاء بالقرآن من آيات اتَّـــهَم فيها محمد اليهود بتغيير ما أُنزل إليهم من كتب وبخاصة "التوراة" مستعملا التعبير "حرّفوا"...

وكان هذا الاتّهام في الواقع الطريقة الوحيدة لإخراج محمد من مأزق خطير حين احتكّ في المدينة باليهود... ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة انطوى على إدراك خاطئ أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود فكان في نظرهم مبطلا... ولَمّا كان اعتقاده أنّه رسول موحى إليه قوياً لا يتـــزعزع لم يبق له غير مخرج واحد، ذلك أنّ اليهود عمدوا آثمين إلى تحريف الكتاب وأنّه هو الذي أتى بالنص الصحيح[2]؛ وهي دعوى جريئة يسّرها عليه أنّ هذه الكتب كانت مجهولة تَماما من أتباعه المؤمنين بصدق كلماته[3].

---

[1]– **تعقيب أمين الخولي على مادة "التحريف"**[دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 603/4]: أشار الأستاذ الخولي إلى قول كاتب المادة: «اتَّهَم فيه محمد اليهود»، وقوله: «أمّا كيف صور هو لنفسه هذا التغيير»، وقوله: «الطريقة المبهمة التي تحدّث بها محمد في القرآن»؛ ثُمّ قال: «وما إلى ذلك من عبارات وإشارات مشابهة لِما ذكرته.. فإنّها كلها مما لا يحوج إليه بحث علميّ مطلقا، وكان أيسر الرعاية المؤدبة لعواطف الملايين من أصحاب الشؤون الإسلامية مما يقضي بتجنبها، إنّ هذه العبارات والإرشادات وأمثالها ما هي إلا عقيدة مخالف لأصحاب هذه الشؤون الإسلامية، وليست "دائرة المعارف" مجال إعلان هذه المخالفة، والعناية بمثل ذلك إخلال صريح بالمنهج العلمي.. وكلّ ما أقوله هنا أن أدعوا طلاب العلم، ورواد الحقائق إلى تجنّب مثل هذا الخطأ المنهجي تَجنّـــباً قويا».

[2]– **تعقيب أمين الخولي على هذه الفقرة من المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 605/4]: «... وثالث ما نلاحظ: أنّ دنيا البحث التاريخي تعجّ بالحديث عن تدوين هذه الكتب، ودرجة الثقة بها في التدوين... تؤيده ألوان مختلفة من البحث العلمي في مناقضات مع هذه الكتب، وأشباه هذا مما يتولاه الدارسون الغربيون أنفسهم، ولكن صاحب مقال "التحريف" لا يعرّج على شيء من هذا بل يرفع هذه الكتب عن كلّ شبهة، ويضع هذه التفسيرات غير المدلّلة ليجعل اتّهام محمد لَها أو تحدّثه عنها عملا باطلا، ويجعل عرضه لوقائعها عرضا خاطئا يثير عليه النقد والسخرية، ويجعل مناقضته لِما ورد فيها نافيا لدعواه الرسالة؟».

[3]– **تعقيب أمين الخولي على هذه الفقرة من المادة** [في الموضع السابق من: "دائرة المعارف"]: «إذا كانت هذه الكتب مجهولة تَماما من أتباع محمد المؤمنين بصدق كلمته، فهل كان اليهود الذين حول أتباعه ليسوا عربا مثلهم، وكانوا بحيث يعلمونهم من ذلك ما يجهلون ويغرونهم، أو على الأقل يغرون أعداءه الألدّاء من قومه بهذه التناقضات؟! وهل لَم يكن في أتباعه المؤمنين أنفسهم يهود بل يهود من خاصة اليهود، وعلمائهم كما هو معروف؟ ومثل هذا أو ذاك، ألم يقل الكاتب قبل الآن بقليل: أنّ هناك مأزقاً خطيراً وقع فيه محمد حين احتك باليهود في المدينة؟ فأين هذا المأزق إذا كان في جهل أتباعه بهذه الكتب ما يغطي موقفه؟ ولو كان يكفيه أن يسوي حسابه مع أتباعه الجاهلين بهذه الكتب، فقد كان في غنية عن أن يعرض لكتب اليهود مصدّقا أو مكذّبا، وكان بالأولى في غير حاجة إلى السعي للحصول على تأييد اليهود كما ذكر الكاتب قبيل ذلك، ووراء ما تقدم من فروض الكاتب وما تأخر أنّ الحديث عن النوايا والأغراض، ومعرفة ما جرأ وما شجع، شيء لا تناله الأدلّة العلمية، والتعرض له نوع من التحكم ليس من صنيع الباحثين الأبرياء».

وهنا موضع المناسبة التي يستعمل فيها محمد لفظ حرَّف (سورة البقرة، آية 70. سورة النساء الآية 48)... أمّا كيف صوّر لنفسه هذا التغيير فلم يتضح من كلماته، ولعلّ فكرة محدودة عن هذا التغيير لم تكن عنده، فقد كان معنيا بالوقائع ذاتها أكثر من عنايته بكيفية حدوثها[1].

وقد تضمّنت الآية (79) من سورة البقرة اتّهاما مباشرا بأنّهم زيّفوا النصوص ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

وإنّما يدل ذلك في نظره على أنّهم كلّما حاجوه عمدوا إلى حذف الفقرات التي تثبت صدق نبوّته، ويسوق لنا شواهد في الآية (156) من سورة البقرة، وهو يقول إنّهم استبدلوا كلمة "حطة" بكلمة أخرى مِمّا جرّ عليهم صارم العقاب.

وفي المأثور أن من الآيات المكتوبة ما نصّ على حدّ الزنا بالرجم (ابن هشام، ص394 وما بعدها)، وعلى وصف محمد بأنّه النبي المنتظر (ابن هشام، ص353)، وكان طبيعيا أن يرمي النبي النصارى بالتحريف أيضا، فقد قرر أنّهم هم الآخرون حرّفوا آيات كتابهم الشاهدة على صدق رسالته (انظر الآية 141 من سورة البقرة التي تشير إلى الذين أوتوا الكتاب، وانظر كذلك الآية 64 من آل عمران. وانظر فيما يختص بالتبشير بمجيء محمد: ابن هشام، ص388)»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 47]: «... ونذكر بالأخص أن الاختلاف بين ما كان يتلوه من آيات يذهب إلى أنّها مطابقة للكتاب الذي أنزل – من قبل – على موسى النبي عليه السلام، وبين ما كان يهود المدينة يعرفونه من كتابهم المقدس أثار سخرية اليهود، خاصة أنه كان كثيرا ما استشهد في الماضي بأولئك الذين أوتوا الكتاب من قبل بحيث لم يستطع الآن أن يتجاهل هذا النقد.

فأكّد القران أن اليهود لم يتلقوا غير جزء من الكتاب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ سورة النساء آية (44)... وذهب إلى أنه حتى هذا الجزء الذي تلقوه يحوي عدداً من القوانين الخاصة التي وضعت لتناسب عصراً ولّى، ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ سورة النساء آية (160)، ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا

---

[1]– **تعقيب أمين الخولي على هذه الفقرة من المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 606/4]: «يقول [أي: محرّر المادة]: "لعل فكرة محدودة عن هذا التغيير لم تكن عند محمد" مع أنّ الكاتب نفسه قد ذكر من آيات القرآن ما يعيّن عدة صور لهذا التغيير وكيف تَمّ. كالتزييف وكتابة الكتاب بأيديهم، وكتغيير النصّ عند قراءته، وككتمانهم ما في الكتاب من البـيّنات والهدى، وجعله قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، فكيف تذكر هذه الصور للتغيير، ثم يظن أن ليس عنده فكرة عن هذا التغيير! على أن الكاتب قبل ذلك يقول: "فقد كان معنيّا بالوقائع ذاتها أكثر من عنايته بكيفية حدوثها" وهذه العناية التي يقرّرها لتكفي لصرفه رأي الرسول عليه السلام عن الكلام في كيفية التغيير، ولا يكون من الصواب في شيء الاستدلال بخلو كلماته من كيفية التغيير على أنّه ليست عنده فكرة محدودة عنه».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 603/4–604.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ **سورة الأنعام آية (146) ... وقد تحداهم أن يظهروا توراتهم** ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ **سورة آل عمران آية (93)... ثُمّ اتُّهم معارضو محمد ﷺ في المدينة بإخفاء أجزاء من كتابهم المقدس،** ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة آية (42)... **إلى آخره، بل واتّهمهم بوضع آيات والزعم بأنها في كتابهم المقدس،** ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ **سورة البقرة آية (59)،** ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ سورة النساء آية (46)، **كذلك فقد اتجه إلى الاعتقاد بأن كتاب النّصارى المقدس لم يحفظ الرسالة ولا تعاليم النبي عيسى عليه السلام كما كانت في الأصل»**[1]. محرر المادة هو: **بول**-Buhl.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

قبل مناقشة كلام المستشرق "بول-Buhl" حول موضوع التحريف أقدم تعريفا موجزا بهذا المصطلح.

أولا- مفهوم التحريف: التحريف **لغة:** هو التغيير والتبديل والإمالة[2].

- **واصطلاحا:** هو تَغْيير أهل الكتاب كُتُبهم السّماويّة لِتُوافِق ما هم عليه مِنْ فاسد الأعمال، إمّا بتَبْديلها بِكلماتٍ أخرى، أو إزالتها تَماما، وإمّا بِكِتْمان بعضها، وإمّا بالتّأويل البعيد عن المراد بها[3].

ثانيا- أول ما يلاحظ على نصوص المستشرق "بول-Buhl" هو ما احتوته من عبارات نابية كقوله: "**اتَّهَم محمد اليهود**"، وقوله "**وكان هذا الاتّهام الطريقة الوحيدة لإخراج محمد من مأزق خطير**"، ثم قوله "**ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة انطوى على إدراك خاطئ أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود**"، وقوله: "**دعوى جريئة**"، وقوله: "**كيف صوّر لنفسه هذا التغيير**"؛ ونحوها مِن العبارات التي فيها سوء أدب مع نبي الإسلام ﷺ، وتَجرُّد صارخ عن روح البحث العلمي الموضوعي، وتشبّث بالغ بالعصبيات والخلفيات العقدية والفكرية للمدرسة الاستشراقية.

وهو أمر نبّه عليه أيضا الأستاذ "الخولي" في تعقيبه المذكور على مادة "التحريف".

ثالثا- كشف المغالطات التي قدمها "بول-Buhl": اختلق المستشرق تصوّرا مغلوطا حول بيان القرآن الكريم "لتحريف أهل الكتاب" ما أنزل إليهم من الكتب وخاصة اليهود، فزعم أنّ ما دفع النبي ﷺ إلى القول بالتحريف، هو أنّه "وقع في مأزق"؛ ذلك أنّه: حاول في البداية استمالتهم إلى دينه بتقرير أنّ ما جاء به مصدّق لِما عندهم، فلمّا لم يتّبعوه اتّهمهم بتحريف كتبهم.

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9132/30-9133.

[2]- ينظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، 229/1. ولسان العرب، ابن منظور، 43/9. وتاج العروس، الزبيدي، 135/23.

[3]- ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 568/1 و75/5. وينظر في ذلك: تفسير ابن كثير، 65/2.

وهذا الافتراض تردّه **حقائق السيرة النبوية والقرآن الكريم**؛ والتي تتلخّص فيما يلي:

- **الحقيقة الأولى: مأزق اليهود:** إنّ اليهود في حقيقة الأمر هم مَن كانوا في مأزق كبير لَمّا لم يؤمنوا بالنبي ﷺ للأسباب التالية:

أ)– أنّ الإسلام كَشَف تناقضهم؛ فهم الذين كانوا يبشّرون بظهور نبِيّ يقيم الدين، فلمّا بعثه الله تعالى من العرب كفروا به، ونقضوا قولهم الأول كما سبق تفصيله[1].

ب)– أزال الإسلام عنهم ميزة الاستعلاء القومي الذي كانوا يخصّون بِها أنفسهم دون بقية الناس، فيعتبرون أن الله الواحد هو إله إسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس، فإذا ما جاء محمد فدعا إلى هذا الإله الواحد للناس جميعا، بغضّ النظر عن أجناسهم، فإنه بذلك يزيل عن بني إسرائيل هذه الميزة التي استفتحوا بها على الآخرين[2] دهرا طويلا.

هذا هو السّبب الجوهري لجحود اليهود دعوة النبي ﷺ إضافة إلى الأسباب السابقة، لا أنّ عرضة لشرائعهم هو الذي جعلهم يرونه مبطلا كما قال "بول-Buhl" في هذه الفقرة من مادة "التحريف".

ج)– كما أنّ ما قرّره القرآن الكريم عن تاريخ اليهود مع أنبيائهم وأخلاقهم وتحريفهم ما أنزل إليهم كان **الفضيحة الكبرى لليهود** على مرّ تاريخهم، فقد بيّن القرآن[3]:

– ما كان عليه آباؤهم من العناد والمواقف الحجاجية والتعجيزية مع أنبياء الله، وقد قصّ القرآن أخبارهم في ذلك مع موسى عليه السلام، كقصّة ذبح البقرة، وعبادة العجل وغيرها.

– حقدهم ومكرهم ودسائسهم، وأنانيتهم، وحسدهم لأيّ نعمة ينالها الغير، وأنّها جبلّة وأخلاق متوارثة فيهم جيلا عن جيل.

– قتلهم للأنبياء وتكذيبهم لَهم ومكرهم بِهم.

– تعاونُهم مع المنافقين في المدينة ضد الإسلام ونبيه ﷺ.

– تورُّطهم في تفضيل الأصنام على التوحيد، عندما قالوا للمشركين أنّهم أهدى من المؤمنين بمحمد ﷺ، فنزل القرآن يندّد بهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 51]؛ حتّى أنّ مستشرقا يهوديا معاصرا هو "ولفنسون" أنكر بشدة ما بدَر منهم في هذا الموقف المشين[4].

---

[1]– ينظر: ص573. وأيضا: فقه السيرة، الغزالي، 143.

[2]– ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 336. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 272.

[3]– ينظر: سيرة الرسول –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 2/127-133. والتفسير المنير، الزحيلي، 1/201.

[4]– ينظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، 142.

• **الحقيقة الثانية: بيان القرآن المكي لانحراف أهل الكتاب عن كتبهم:** إنّ "بول - Buhl" عندما زعم بأنّ النبي ﷺ إنّما اتّهم اليهود في المدينة بالتحريف بعدما لم يؤمنوا به ووقع النزاع بينهم، فإنّ كلامه هذا يدلّ على عدم استقرائه التام لأحداث السيرة وآيات القرآن في الموضوع -وهذا أمر طبيعيّ من مستشرق أجنبي هَمّه بثّ المطاعن والشبهات حول الإسلام ونبيه ﷺ- وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنّ النبي ﷺ لم يقع بينه وبين النصارى من النزاع مثل ما وقع بينه وبين اليهود في المدينة، فلماذا بيّن القرآن تحريفهم للإنجيل؟ فبيان القرآن لتحريف الكتب السماوية إذن ليس ردّة فعل لنزاع أو عداء لطائفة ما كما زعم "بول - Buhl" في نظريته العرجاء.

الوجه الثاني: ليس بيان القرآن الكريم لانحراف أهل الكتاب عن دينهم واختلافهم وشكّهم في ما أنزل إليهم مقتصرا على القرآن المدني فقط كما حسب المستشرق "بول"؛ بل إنّ القرآن المكي بيّن ذلك أيضا كما قرّر الشيخ "محمد دروزة" في استقرائه للآيات المكية في شأن أهل الكتاب[1]، فقال الله تعالى عن أهل الكتاب عامة: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: 14]، وقال عن اليهود: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النمل: 76]، وقال في حق النصارى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: 34]؛ فهذه الآيات المكية المبينة لاختلاف أهل الكتاب واليهود خاصة في دينهم وما نزل عليهم من الحق في كتبهم؛ وفي ذلك إشارة إلى وقوع التحريف ضمنا، وأنّ التغيير لم يكن في الكتب السماوية فحسب بل في أصول دينهم أيضا، وأنّ القرآن الكريم جاء يصحّح ما وقع من ذلك، ويحسم مادة الخلاف بينهم بالحق المبين، كما تشير آية الشورى إلى الشكّ والريب الذي وقع فيه أهل الكتاب وخاصة اليهود في كتبهم، لأنّهم لم يحفظوها وضيّعوا جزءً منها، وفيه ذلك إشارة أخرى إلى التبديل والتحريف الذي أوقعهم في الشكّ.

وفي هذه الآيات «دعوة للانضواء إلى راية القرآن الذي يَمتّ إلى المصدر الذي تَمتّ إليه كتبهم، والذي يعود بدين الله إلى صفائه ومبادئه السامية»[2]، بعيدا عن خلافات أهل الكتاب، فالقرآن إذن بيّن منذ العهد المكي غلط أهل الكتاب في بعض أصول دينهم وأنّه جاء مصحّحا لَها، وفي ذلك دلالة على أنّ تقريره للتحريف لم يقتصر على العهد المدني -وإن كان بيانه فيه أكثر تفصيلا ووضوحا- فلا يمكن أن يكون هذا التقرير نابعا من تغيّر موقف النبي ﷺ من اليهود كما زعم "بول-Buhl".

---

[1]- ينظر: سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 1/342-344.

[2]- المصدر نفسه، 1/344.

• **الحقيقة الثالثة: مقاصد القرآن من تقرير التحريف:** ثم إنّ مقصد القرآن من بيان تحريف أهل الكتاب لكتبهم ليس هو إخراج النبي ﷺ من مأزق طارئ أو لِعداء عابر كما زعم "بول-Buhl"، بل هو تقرير حقيقة باقية على مرّ الأجيال لتكون فيصلا بين هذه الأديان، ولِحَكم أخرى جليلة منها:

أ)- أنّ تتعظ أمة الإسلام بحال أهل الكتاب الذين لم يحفظوا كتبهم ونسوا حظا منها، فضلوا واختلفوا وانحرفوا عن الدين الحق، وتحذر من الوقوع في مثل ذلك[1].

ب)- تقرير كون القرآن قد جاء بالحق، ووضع الأمر في نصابه، فلم تبق حجّة لِمحتجّ[2].

ج)- إقامة الحجة على أهل الكتاب بِما يعلمون؛ ليكون حجة عليهم في أنفسهم قبل أن يكون حجة لغيرهم عليهم.

د)- بيان أنّ الإسلام هو الدين الحقّ الذي يجب أن يرجع إليه جميع الناس من الكتابِيِّين وغيرهم.

• **الحقيقة الرابعة: اِنتفاء التوافق المطلق:** يبدو أنّ "بول-Buhl" أساء فهم بيان القرآن للتوافق بين ما جاء به النبي ﷺ والأديان السابقة، فحمله على إطلاقه، وليس الأمر كذلك لأنّ القرآن بيّن أنّه: جاء مصدّقا ومصحّحا للأديان السماوية السابقة، وأوضح مجال التوافق والاختلاف بينها:

أ)- فالتوافق: دلّت عليه الآيات الكثيرة التي ذكرت بأنّ القرآن جاء مصدّقا للكتب السماوية، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم ﴾ [النساء: 47]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورى: 13]؛ فالإسلام جاء موافقا لِما جاء به الأنبياء والأديان السابقة: من حيث المبادىء والأصول: كالتوحيد، والإيمان باليوم الآخر ونحو ذلك، ومن حيث وحدة المصدر الإلهي[3].

ب)- والاختلاف: جعله القرآن بَيْن الأديان السماوية في الشرائع والأحكام العملية المتعلقة بالأوامر والنواهي والحلال والحرام ونحو ذلك[4]؛ فقال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ [المائدة: 48]؛ قال ابن كثير: «هذا إخبارٌ عنِ الأُمم الْمخْتَلِفة الأديان، باعْتِبار ما بَعَث اللهُ به رُسلَه الكرام منَ الشّرائع **الْمختلفة في الأحكام، الْمُتّفقة في التّوحيد**»[5].

---

[1]- ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 144/6.

[2]- ينظر: سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 344/1.

[3]- ينظر: تفسير الرازي، 587/27. وتفسير ابن كثير، 194/7-195. وسيرة الرسول -صور مقتبسة من القرآن، 335/1-336. والتفسير المنير، الزحيلي، 237/1.

[4]- ينظر: تفسير ابن كثير، 129/3. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 342/6.

[5]- تفسير ابن كثير، 129/3.

زعم "بول-Buhl" في مطلع الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" بأنّ الاختلاف بين القرآن وما عند اليهود أثارَ سخرية اليهود من النبي ﷺ، وتَجاهل عن أنّ القرآن نفسه بيّن أنّ هناك قدراً مشتركاً بين الإسلام والأديان السماوية السابقة، وقدرا مختلفا فيه بينها؛ فلا وجه لسخرية اليهود بعد ذلك، وإنّما هو تحليل خاطئ للوقائع من المستشرق اعتمد فيه "**منهج الانتقاء الكيفي**" لتبرير هذا الزعم الباطل؛ حيث اتّكأ على حقيقة إثبات القرآن للتوافق، وفي المقابل أهمل حقيقة أخرى هامة تفيد بأنّ القرآن أيضا بيّن الاختلاف في الشرائع.

وفي مادة "التحريف" أيضا: زعم "بول-Buhl" أنّ ما أثار سخرية اليهود هو "**عرض النبي ﷺ الخاطئ للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة**"، وغفل عن حقيقة هامة أخرى هي أنّ القرآن الكريم جاء **مصدّقا لِما لم يحرّفوه من التوراة**، فتقرير القرآن "لتحريف اليهود" للتوراة يستلزم أن يُخالف بعض ما عندهم، فمثلا: هم يدّعون التوحيد ولكنهم أشركوا كما بيّن الله تعالى في قوله: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة: 30]، فالقرآن الكريم هنا يصحّح عقيدة التوحيد عندهم، ويبيّن أنّ هذا من تحريفهم لا مِمّا أمرهم الله به.

فذلك لا يدلّ كما زعم المستشرق "بول-Buhl" على عدم المعرفة بِما عندهم، لأنّ الإطلاع على ما عندهم متيسّر لأيّ واحد من الناس، وإنّما يدلّ على أنّ القرآن جاء مصححّا وشاهدا على الصحيح والمحرف في كتبهم، وهذا أمر لا يعلمه إلاّ الله ولا يكون إلاّ مِن عند الله.

يَتبيّن مِمّا سبق: **بطلان دعوى التوافق التام** التي بنى عليها المستشرق هذه المطاعن والافتراضات الخاطئة، لأنّ التطابق التام بين ما جاء به النبي ﷺ والأديان السابقة منتفٍ من وجهين:

الأول: أنّ تصديق القرآن للأديان السابقة لا يعني التطابق التام بينها لاختلاف الشرائع.

والثاني: أنّ تحريف أهل الكتاب لكتبهم وسّع مجال الاختلاف أيضا.

لذا بيّن الله تعالى أنّ **القرآن جاء "مصحّحا ومهيمنا"** على الكتب السابقة، و لم يقرّر أنّ هناك توافق تاماً حتّى يثير عرضه المخالف لَها سخرية اليهود كما زعم "بول-Buhl".

بهذا يُعلم مدى الخلط والتمويه الذي في كلامه عن "سخرية اليهود" في النّصين المذكورين من مادتي "التحريف" و"محمد ﷺ"، بل إنّ كفرهم وحجودهم -بغيا وحسدا- وتعصّبهم القومي هو الذي حملهم على: الكفر برسالة محمد ﷺ والاستهزاء والسخرية منه -كما سبق بيانه-، وهو ما حملهم من قبل: على تكذيب عيسى عليه السلام وغيره من أنبياء بني إسرائيل كيحيى وزكرياء عليهما السلام، وعلى قتل أنبياء الله والمكر بهم.

• **الحقيقة الخامسة: الشواهد على تحريف التوراة والإنجيل:** بيان القرآن الكريم لتحريف أهل الكتاب لكتبهم ليس اتهاما كما سمّاه "بول-Buhl"، ونسبه إلى المصطفى ﷺ منافيا بذلك النزاهة والتجرد في البحث العلمي، ومتمسكا بالخلفيات العقدية والفكرية التي جاء يدافع عنها أساسا بالطعن في أصول الإسلام وثوابته، بنسبة ما جاء في القرآن إلى النبي ﷺ تارة –مع ما يستلزمه ذلك من كون القرآن مفترى من الرسول ﷺ–، وبسوء الأدب مع رسول الله محمد ﷺ تارة أخرى.

ولكن هذا التحريف حقيقة ثابتة بالشواهد التاريخية أولا، وبالشواهد من نصوص تلك الكتب نفسها ثانيا، وبيان ذلك باختصار فيما يلي:

أ)– الشواهد من تاريخ تدوين هذه الكتب: على وقوع التحريف فيها:

– **الشاهد (1):** إنّ التوراة التي بأيدي اليهود الآن ليست هي التوراة التي أنزلت على موسى، لأن التّوراة التي كَتَبها مُوسَى عليه السلام كانت نسخة واحدة، وقد فُقدت باتفاق المؤرخين من اليهود والنصارى عند سبي البابليين لهم وإغارتهم عليهم في عهد "بخت نصّر"، و لم يكن عندهم غيرها و لم يحفظوها، ذلك أنّه لَما استولى "بخت نصّر" على القدس سنة (586) قبل الميلاد؛ حرق التوراة والمزامير، وقتل الأئمة من بني هارون عليهم السلام الذين كان كل واحد منهم يحفظ فصلا من التوراة[1].

والتّوراة الْموجودة الآن يَرْجع أصْلُها إلى ما كَتَبه "عزْرا" أو "عزير"[2] الْكاهن بِأمر مَلِكِ فارس آنذاك الّذي أذِن لِبَني إِسرائيل بالعودة إلى "القدس"، وأذِن له أن يكْتُب لَهم كتابًا مِنْ شريعة الرّبّ وشريعة الْملِك، وذلك بعد زمن موسى عليه السلام بمدة تزيد على الخمسة قرون[3].

– **الشاهد (2):** كَتَب "عزرا" الكاهن ما كَتَب من الشّريعة بعد فَقْدِها، وكان يَضَع خُطوطًا على مَا يشُكُّ فيه؛ فالْمَعْقول أنّه كَتَب ما تذَكَّره هو ومَن معه دُون ما نَسُوه، فكان منه الصّحيح قطعًا، ومنه الْمَشكوك فيه، ومنه الغلط، ومن ثَمّ وُجِد التّحريف، كما أنّ اليهود ليس لهم سند متصل إلى "عزرا"، وهو ليس له سند متصل إلى موسى عليه السلام مع أنه جاء بعده بقرون[4].

---

[1]– ينظر: إمتاع الأسماع، المقريزي، 4/161–162. وإظهار الحق، رحمة الله الهندي، 2/448–449. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، الجهني، 1/498. والكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر التثنية [31/9–29]، 254–255. وسفر عزرا [1/2]، 572.

[2]– اسمه "**عِزْرَا**" بالعبرية و"**عزير**" بالعربية: كاهنٌ يهوديٌّ شهيرٌ سَكَن بابل، وكان زعيم أحبار اليهود الّذين رَجَعوا بِقومِهم إلى "أورشليم" وجَدّدوا الهيكل وأعادَ شريعةَ التّوراة مِنْ حفظِه، فكان اليهودُ يُعَظِّمونه. ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 10/283. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 10/167–168. والكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر عزرا [1/7–7]، 579.

[3]– ينظر: تفسير المنار، 1/174. والتفسير المنير، الزحيلي، 6/126. والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، 1/495–500. والكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر عزرا [1/7–10]، 579.

[4]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 10/300–301 و12/86.

– **الشاهد (3)**: يذكر سليمان الندوي: أنّ أسفار اليهود قد خالج المحققين من العلماء الغربيين ضروب من الشكّ في كلّ سفر من هذه الأسفار، فإنّ مؤلفي "دائرة المعارف البريطانية"[1] أنفسهم توصلوا إلى تحقيق أنّ هذه الأسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بعدة قرون[2]، وهو ما أكّده قساوسة وعلماء مسيحيون أيضا[3].

– **الشاهد (4)**: أما الإنجيل: فإنّ الْمسيح عليه السلام لَم يكْتُب ما ذكّرَهم به من الْمواعظ وتوحيد الله، وكان مَن اتَّبعوه من الْعوامّ، ومن الصّيّادين، وقد اشْتَدّ اليهودُ في عَداوتِهم ومُطاردتِهم، فلمْ تكن لَهم هيئةٌ اجْتِماعيّةٌ ذاتُ قوّة وعِلمٍ تُدوِّن ما حفِظوه من إنجيل المسيح وتحفظه، بل تذكر كتبُهم الْمقدّسة[4] أنّ كثيرًا من النّاس كانوا يبُثُّون بين المسيحيين في عصرهم تعاليم باطلةً عن الْمسيح، حتّى إنّ الّذين كَتَبوا كُتُبا سَمَّوها الأناجيل كثيرونَ جدًّا، كما صَرّحُوا به في كُتبِهم المقدّسة وتواريخ الكنيسة، وما ظهرتْ الأناجيل الأربعة[5] الْمُعْتمَدة عندهم الآن إلاّ بعد ثلاثة قُرون من تاريخ الْمسيح، عندما صارَ للنّصارى دولةٌ بِدُخول "قُسْطنطين" ملك الرّوم في النّصرانيّة؛ فاعْتَمد الأناجيل الأربعة رُؤساءُ الكنيسة التي أسّسها "قسطنطين" الّذي تَنَصّر تنصّرًا سياسيًّا، وأدْخَل النّصرانيّة في دورٍ جديدٍ مَمْزوجٍ بالوثنيّة[6].

– **الشاهد (5)**: بدأ تَحْريف الإنْجيل مِنَ القرن الأوّل للميلاد، قَال بولس فِي "رِسَائل غلاطية": «غير أنّه يوجد قومٌ يُزعِجونَكم، ويُريدون أن **يُحَوِّلوا إنجيل الْمسيح**»، وفي ترجمة حديثة: «... بل جماعة تثير البلبلة بينكم، وتحاول **تغيير بشارة المسيح**»[7]؛ فبَيَّن "بولس" أنّه كان فِي عصره من القَرْن الأوّل أناسٌ يَدْعون الْمسيحيّين إلى إنْجيلٍ غيره **بالتّحويل**، أي: **التّحريف** كما فِي التّرجمة القديمة[8].

– **الشاهد (6)**: اخْتَلف علماءُ الكنيسة وعلماءُ التّاريخ في الأناجيل الأربعة الّتي اعْتَمدوها: مَنْ هم الّذين كَتَبوها؟ ومتى كَتَبُوها؟ وبأيِّ لغةٍ كُتِبت؟ وَكيف فُقِدت نُسخها الأصليّة؟ كما ترى ذلك مفصَّلا فِي "دائرة الْمعارف الفرنسيّة"، وفي غيرها من كُتب الدّين والتّاريخ[9].

---

[1]– ينظر: مادة "Bible": The Encyclopaedia Britannica , 3/849-894 .

[2]– ينظر: الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، 45.

[3]– ينظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي، 1/116-117.

[4]– ينظر في ذلك: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، رسائل غلاطية [7/1]، 285.

[5]– وهي: إنجيل **متّى**، وإنجيل **مَرْقس**، وإنجيل **لوقا**، وإنجيل **يوحنا**. ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة باحثين، 19/126.

[6]– ينظر: تفسير المنار، 1/174 و6/238.

[7]– الكتاب المقدس "العهد الجديد"، رسائل غلاطية [7/1]، 285.

[8]– ينظر: تفسير المنار، 6/240-241.

[9]– ينظر: إظهار الحق، رحمة الله الهندي، 1/151-157. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 6/241.

– **الشاهد (7)**: كما اختلف علماء اليهود أيضا في أسفار التوراة "كسفر العدد" و"يشوع" و"القضاة" وغيرها، و لم يترجح عندهم على سبيل الجزم إلى الآن: اسم مصنفيها وزمان تصنيفها[1].

– **الشاهد (8)**: إنّ الأناجيل الأربعة التي اقتصروا عليها لم يلق أحد من الذين جمعوها عيسى عليه السلام، وإذا تساءلنا: عمّن رووا هذه الأناجيل؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كلّ الجهل.

فالنّصارى ليس عندهم أسانيد مُتّصلةٌ ولا مُنْقطِعةٌ لكُتبِهم الْمقدّسة؛ وإنّما بَحَثوا ونَقّبوا في كتب الأوّلين والآخرين، فلم يَجدوا دليلا يُثْبِت أنّ لَها أصلاً كان معروفًا في القرون الثّلاثة الأولى لِلمسيح[2].

– **الشاهد (9)**: المتفق عليه بين النصارى هو أن إنجيلا من الأناجيل الأربعة لم يترل على المسيح من الله، بل إنها من تأليف المؤلفين الذين نسبت إليهم، ثم أضيفت عليها صفة التقديس[3].

ب)– الشواهد على التحريف مِمّا جاء في هذه الكتب: ومنها:

– **الشاهد (1)**: أن التوراة منها: عند اليهود نسخة، وعند السامرية نسخة أخرى، وعند النصارى نسخة أخرى، والنّسخ الثلاث مختلفة في كثير من الأمور غير متوافقة؛ فالتغيير لازم[4].

– **الشاهد (2)**: يظهر من نصوص التّوراة الّتي عندهم أنّها كتبٌ تاريخيّةٌ مُشْتملةٌ على كثيرٍ من تِلك الشّريعة الْمُنَزّلة، وفيها تَحريفٌ كثيرٌ لا يُمكن أن يكون منَ الأصل، وبعض نصوصها مصنفة على طريقة الكتب التي يؤلفها الناس ويوردون فيها مشاهداتهم وأحوالاً رأوها وسمعوها، مِمّا يشهد بأنّ كاتبها –غير موسى عليه السلام– جمع من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود، وميّز بين هذه الأقوال بأنّ ما كان في زعمه قولَ الله أو قولَ موسى، أدرجه تحت "قال الله" أو "قال موسى"[5].

– **الشاهد (3)**: أنّ التوراة والأناجيل الموجودة فيها لكلّ حادثة روايتان مختلفتان، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضا فتعارضت أولاها بأخراها، وقد أورد الإمام رحمة الله الهندي الاختلافات الواقعة في أسفار التوراة وفي الأناجيل فأوصلها إلى مائة وخمس وعشرين (125) اختلافا[6].

– **الشاهد (4)**: أورد الإمام "رحمة الله الهندي" في كتابه "إظهار الحقّ" مائة شاهدٍ من الكُتُب الْمُقدّسة عند اليهود والنّصَارى، على التّحريف اللّفظيّ والمعنويّ فيها؛ بالتبديل والزيادة والنقصان[7].

---

[1]– ينظر: إظهار الحق، 1/129-136، 2/476-477.

[2]– ينظر: تفسير المنار، 6/249. والرسالة المحمدية، الندوي، 46. والسيرة النبوية، السباعي، 14-15.

[3]– ينظر: رحمة للعالمين، محمد سليمان المنصورفوري، 844.

[4]– ينظر: إمتاع الأسماع، 4/161. وإظهار الحق، 2/429-432.

[5]– ينظر: إظهار الحق، 2/114-115. وتفسير المنار، 9/73.

[6]– ينظر: الرسالة المحمدية، 45. وإظهار الحق، 2/من 257 إلى 350.

[7]– وهي كالآتي: **شواهد التحريف بالتبديل**: إظهار الحق، 2/من 429 إلى 460. **وشواهد التحريف بالزيادة**: 2/من 463 إلى 512. **وشواهد التحريف بالنقصان**: 2/من 513 إلى 539.

وهذه بعض الأمثلة مع بيان مواضعها في الكتب المقدسة وهي شواهد مستقلة أيضا:

– **مثال عن التحريف بالزيادة:** جاء في "سفر التكوين"[1]: لفظ "حبرون"[2]، وهو اسم قرية كان اسمها في سالف الزمان "قرية رابع"، وبنو إسرائيل بعدما فتحوا فلسطين في عهد يوشع عليه السلام غيّروا هذا الاسم إلى "حبرون"، كما هو مصرح به في "سفر يشوع"[3] من أسفار التوراة نفسها، وعليه فهذه الفقرات ليست من كلام موسى عليه السلام، بل من كلام شخص كان بعد هذا الفتح والتغيير[4].

– **مثال عن التحريف بالنقصان:** سقطت فقرة كاملة من "إنجيل لوقا"[5] [الإصحاح: 21] بين الفقرتين (33) و(34)، كما يدل على ذلك النص نفسه من "إنجيل متى: (35/24-36)"[6] و"إنجيل مرقس: (31/13-32)"[7]: حيث جاءت الفقرة مُثبتَة في "متى" و"مرقس" وناقصة في "إنجيل لوقا"، وهو ما نبّه عليه أحد مفسري الأناجيل وطالب بزيادة الفقرة ليكون "إنجيل لوقا" موافقاً للإنجيليين الآخرين[8].

– **مثال عن التحريف بالتبديل**[9]: حذَف اليهود من التوراة لفظ "إسماعيل" ووضعوا بدله لفظ "إسحاق"، ولكنهم غفلوا عن كلمة كشفت عن هذا التزوير و الدسّ المشين، ففي "سفر التكوين" من التوراة: «فقال الرب: خذ إسحاق ابنك **وحيدك** الذي تحبه، واذهب إلى أرض موريا، وهناك أصعده محرقة على جبل أدلّك عليه...»[10] إلى آخر القصة.

وليس أدل على هذا التحريف من كلمة "**وحيدك**"، فإسحاق عليه السلام لم يكن وحيده قط، لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو مصرّح به في توراتهم، وقد بقي إسماعيل عليه السلام حتى مات أبوه الخليل، وحضر وفاته ودَفْنه، وهذه بعض نصوص أسفار التوراة في ذلك: جاء في "سفر التكوين" ما نصه: «وكان أبرام [أي: إبراهيم عليه السلام] ابن ست وثمانين (86) سنة لما ولدت له هاجر إسماعيل»[11]، وفي "سفر التكوين" أيضا بعد ذلك: «وكان إبراهيم ابن مائة (100) سنة حين ولد إسحاق»[12]؛

---

[1]– ينظر بعض المواضع في: الكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر التكوين [27/35]، 45. و [14/37]، 47.

[2]– **حَبْرون:** هي مدينة الخليل الفلسطينية التي فيها قبر إبراهيم عليه السلام. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 212/2.

[3]– ينظر: الكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر يشوع [15/14]، 278.

[4]– ينظر: إظهار الحق، 477/2-478.

[5]– ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا [33/21-34]، 131.

[6]– ينظر: المصدر نفسه، إنجيل متى [35/24-36]، 43.

[7]– ينظر: المصدر نفسه، إنجيل مرقس [31/13-32]، 79.

[8]– ينظر: إظهار الحق، 530/2-531.

[9]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 114/1-115.

[10]– الكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر التكوين [2/22]، 24. وينظر بقية القصة في: 24-25.

[11]– المصدر نفسه، سفر التكوين [16/16]، 18.

[12]– المصدر نفسه، سفر التكوين [5/21]، 23.

فالنصان الأخيران يدلاّن على أنّ إسماعيل عليه السلام هو الذي كان وحيد أبيه أربعة عشر سنة لا إسحاق عليه السلام، فثبت التحريف بدلالة نصوص كتبهم.

- **الشاهد (5)**: ما احتوته بعض النصوص المحرفة في التوراة والإنجيل من أمور باطلة: لا يصحّ عقلا ودينا نسبتها إلى الله تعالى ولا إلى أنبيائه عليهم السلام.

من أمثلة ذلك: -ما جاء في "سفر التكوين": أنّ النبي لوط شرب الخمر وزنى بابنتيه وحملتا بالزنا منه[1].

- وما جاء في سفر "الملوك الأول": أن النبي سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنَى المعابد لها[2]، وغيرها من الأمور التي لا تليق بالله تعالى وأنبيائه[3].

فكيف ينأى المستشرق "بول-Buhl" عن مثل هذه الطامات العظام التي لا يقبلها عقل ولا دين ليقول إنّ القرآن والنبي ﷺ اتهم أهل الكتاب بالتحريف، لكنّ مَثَله كمثل الإنسان لا يرى عيب نفسه ولو كان عظيما، ويتعرض لعيب غيره ولو كان صغيراً أو لم يكن عيباً أصلا.

- **الحقيقة السادسة: عدم جهل الصحابة التام بهذه الكتب:** أمّا قول "بول-Buhl" بأنّ «**الجهل التام لأصحاب النبي ﷺ بهذه الكتب يسّر عليه القول بالتحريف**»: فهي كذلك دعوى تدلّ على عدم قراءة وافية لأحوال السيرة في هذا الشأن؛ لتوافر الروايات والشواهد في السيرة النبوية الدالة على اطلاع فريق كبير من الصحابة على ما جاء التوراة والإنجيل، والأهم من ذلك -وهو أمر يعلمه المستشرق لكن ربّما ذهل عنه هنا- وهو أنّ مجموعة لا بأس بها مِمّن آمن بالنبي ﷺ في حياته كانوا يهوداً أو نصارى، وبعضهم كانوا أحباراً أو رهبانا، وكانوا على معرفة وافية بالتوراة والإنجيل كالنجاشي وسلمان الفارسي الذي صاحب مجموعة من الرهبان وعبد الله بن سلام وغيرهم، فكيف غفل كل هؤلاء عما ادّعاه "بول-Buhl" من اتّهام القرآن لأهل الكتاب بالتحريف؟ وإنّما كانوا على العكس من ذلك شهداءَ على هذا التحريف وعلى جحودهم ما جاء في الكتابين من الحقّ.

ومن شواهد السيرة التي تدلّ على اطلاع الصحابة على نصوص التوراة والإنجيل وعلى تيسّر ذلك خاصة في المدينة: انتشار ما كان يسمّى "بالْمِدراس" أو "المدارس" في المدينة أيام النبي ﷺ، وهي: بيوت خصّصها اليهود لِمدارسة التوراة وشرحها، وكانوا يقرؤون فيها كتبهم على الناس بالعبرية ويفسرونها بالعربية[4]، وكان يحضرها بعض الصحابة أحيانا لِمعرفة ما هم عليه من الباطل[5].

---

[1]- المصدر السابق، سفر التكوين [19/30-38]، 22.

[2]- المصدر نفسه، سفر الملوك الأول [11/1-13]، 426.

[3]- ينظر أمثلة أخرى في ذلك: المصدر نفسه، سفر التكوين [32/26-32]، 41. وإظهار الحق، رحمة الله الهندي، 1/12-14.

[4]- ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 6/550-555.

[5]- ينظر: تفسير البغوي، 1/145.

ومن الروايات التي تدلّ على ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ أنّه قال: «كان أهلُ الكتاب يَقْرءُون التّوراةَ بالعبْرانيّة، **ويُفَسِّرونَها بالعربيّة لأهل الإسلام**، فقال رسول الله ﷺ: ((لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: 136])) الآية»[1].

• **الحقيقة السادسة: بعض أوجه التحريف وكيفياته:** زعم المستشرق "بول -Buhl" بأنّ النبي ﷺ "**لم يكن عنده فكرة عن كيفية وقوع التحريف** [أو التغيير كما سماه] **لأنّه كان يعتني بالوقائع أكثر من كيفية حدوثها**"، ثُمّ إنّ المستشرق "بول" يناقض نفسه ويردّ قوله هذا عندما يذكر آيات تبيّن أوجه تحريفهم لكتبهم، وهو تناقض بيّنه الأستاذ "الخولي" في تعقيبه المذكور على مادة "التحريف".

ويزيد المستشرق "بول-Buhl" نقضا لقوله هذا عندما يسوق أوجه "التحريف" المذكورة في القرآن الكريم مع بيان موجز لَها في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ/فقرة: 47"، ليبرهن هو نفسه على أنّ القرآن الكريم فصّل كيفيات تغيير وتحريف أهل الكتاب لكتبهم، والتي منها:

[1]– **تغيير كلماتِ التّوراة:** وتَبديلها لِتُوافِق أهواءهم، إمّا: بتَبْديل الألفاظ بِألفاظ أُخرى، أو بزيادة ألفاظ، أو نقصانها[2]؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 79]، وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]، وقد سبق في بيان **الحقيقة الخامسة** ذكر أمثلة عن ذلك من كتبهم الموجودة اليوم.

[2]– **تغيير النصّ عند قراءته:** بإمالة اللسان بالكلمات والحروف لإيهام السامع معنًى غير المعنى المراد؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: 78] [3].

[3]– **تفسير وتبديل معاني** كتبهم السماوية: وحملها على تأويلاتٍ باطلةٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: 46][4].

[4]– **كتمانهم ما في الكتاب من الحقّ والهدى:** ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 146]، ومن الشواهد على ذلك ما وقع في حياة النبي ﷺ من: كتمان أحبار اليهود ورهبان النصارى نبوة محمد ﷺ، وككتمان اليهود أمر رجم الزناة المحصنين[5]، وهذه الحادثة الأخيرة التي أشار إليها "بول-

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، 214/8.

[2]– ينظر: تفسير الرازي، 93/10. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 114/5. والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 75/5.

[3]– شرح الإمام "ابن عاشور": لَيّ اليهود ألسنتهم بالكتاب بأنّه: تحريف اللّسان عن طريق النطق بحرفٍ مِنْ حروف الهجاء إلى طريق حرفٍ آخرَ يُقارِبُه لِتُعطِي الكلمة في أُذنِ السّامع جرس كلمةٍ أُخرى، لِيُوهِموا معنًى غير المعنى المراد. ينظر: التحرير والتنوير، 291/3.

[4]– ينظر: تفسير الرازي، 93/10. وتفسير المنار، 114/5. والتحرير والتنوير، 75/5 و143/6.

[5]– ينظر: التفسير المنير، الزحيلي، 54/2.

Buhl" في مادة "التحريف" ذكرها بالتفصيل المستشرق "هورفتس-Horovitz" في مادة "التوراة"، فقال: «**ويقول البخاري في تفسير الآية 87 من سورة آل عمران (المناقب، باب 26، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب6): إنّ النبي سأل اليهود كيف يفعلون بمن زنى منهم، فحاولوا أن يزيفوا عليه الجواب ويخفوا عنه الفقرة التي نصت التوراة فيها على الرجم (سفر التثنية، الإصحاح 22، الفقرة 23) فباءوا بالخيبة**»[1]، ثم يقول بعد ذلك: «**ولدينا من الحديث مثال على هذا الإخفاء: وهو أنّ اليهود رغبوا في أن يخفوا عن محمد فقرة التوراة التي تقضي برجم الزاني**»[2].

لكن "هورفتس-Horovitz" لم يكن دقيقا في عبارة "**يقول البخاري**" لأنّ البخاري إنّما روى الحديث بالسند المتصل إلى عبد الله بن عمر ﷺ؛ ونصه كالتالي: عن ابن عمر: «أنّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأةً زنَيَا، فقال لهم الرسول ﷺ: ((مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ))، فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرَّجم، **فأَتَوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم**، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: **ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم**؛ فقالوا: صدق يا محمد، إن فيها الرجم»[3].

[5]– **جَعْلها قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا**: بأن فَرَّقُوها قطعا يكتبونها من الكتاب الأصلي، ليتيسّر لهم إخفاء وإظهار ما شاءوا منها[4]، قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 91].

هذه بعض أوجه التحريف التي بيّنها القرآن الكريم وغيرها مِما هو مبسوط في كتب التفسير، والتي ذكر المستشرق "بول-Buhl" جملة منها في مادة "التحريف" وبتفصيل أكثر في نصه المذكور من مادة "محمد ﷺ" [الفقرة: 48]، فلا مجال بعد هذا التفصيل والبيان القرآني بشهادة ما كتبه المستشرق "بول" نفسه لأن يدّعي بعد ذلك أنّ النبي ﷺ لم تكن عنده فكرة عن كيفية التحريف أو التغيير، أو أنّه كان معتنيا بوقوع التحريف أكثر من كيفيته[5].

كل هذه الحقائق تجاهلها المستشرق "بول-Buhl" وراح يخبط خبط عشواء، بدافع العصبية العقدية والخلفية الفكرية، مع اعتماد "**منهج التمويه والانتقاء الكيفي**"، لكن طرحه المشوش لا يخفى غلطه على من كان عنده اطلاع على السيرة النبوية من عامة المسلمين فضلا عن العلماء والباحثين.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/6.

[2]– المصدر نفسه، 6/6.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المناقب، باب قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146]، 770/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، 296/11.

[4]– ينظر: تفسير الرازي، 63/13. والتفسير المنير، الزحيلي، 289/7.

[5]– مع **التنبيه**: إلى أنّه يقصد بهذه العبارة نسبة القرآن إلى النبي ﷺ، وأنا أقصد معرفة النبي ﷺ بهذه التفاصيل من القرآن الكريم.

المبحث الخامس : جوانب من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مجتمع المدينة

بعد الهجرة وقع تغيير شامل لكثير من جوانب الحياة المختلفة في المدينة، حيث جاء الإسلام بتشريعات جديدة على مستوى النظم السياسية، وعلى مستوى النسيج الاجتماعي، والسلوك والعادات والأعراف، وكذا الأفكار والعقائد الدينية والشعائر التعبدية؛ يحاول هذا المبحث تسليط الضوء على بعضها حسبما ورد ذكره في "دائرة المعارف".

المطلب الأول : علاقة النبي ﷺ بأصحابه ﷺ

الفرع الأول : مناقشة تعريف الصحابي في "الدائرة"

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**أصحاب**": «مفرده "صاحب"، أو "صحابة" ومفردها "صحابي": **هو اصطلاح في الإسلام أطلق بوجه خاص على صحابة النّبي، وكان هذا الاسم يطلق أولا على أولئك الذين اتصلوا بالنبي زمنا ما، واشتركوا معه في غزواته، ثم اتسعت دائرة الصحابة شيئا فشيئا ولم تقتض هذه التسمية وجوب اتصال الصحابي بالنبي اتصالا فعليا، وعدّ من الصحابة أيضا المؤمنون الذين لقوا النبي في حياته ورأوه ولو زمنا قصيرا دون أن يوضع سنّ هؤلاء في موضع الاعتبار**، (انظر: جولد زيهر في: Muh Studien، ج**2** ص**240**)»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **جولد زيهر** - Goldziher[2].

- جاء في مادة "**صاحب**": «**وكان يطلق عادة على جميع أولئك الذين اتصلوا بالنبي محمد ﷺ وماتوا على دين الإسلام (انظر مادة "أصحاب")، على أن هذا الاسم يرد كثيرا في المؤلفات الإسلامية بمعناه العام وهو الصاحب، وكان النبي يطلق على نفسه "صاحبكم" حين يتحدث إلى صحابته**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **كروثر غوردن** – T.Crouther Gordon[4].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 237/2.

[2]- سبقت ترجمته في: ص167.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 92/14.

[4]- لم أقف على ترجمته.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- تعريف الصحابي لغة واصطلاحا:

أ)- لغة: صَحِبه، صحابَة، وصُحبة: عاشَره، ورافقه، والأصل في هذا الإطلاق لِمن حصل له رؤية ومجالسة[1]، وعليه تكون "**الصحبة**" لغة بِمعنى العشرة والرؤية والمجالسة طالت أم قصرت[2].

ب)- المفهوم الاصطلاحي:

- الصحابي **في اصطلاح المحدثين:** هو من لقي النبيّ ﷺ مؤمنا به، ومات على الإسلام[3].

فيدخل فيمن لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى[4].

وهو التعريف المختار لدلالة الاستعمال اللغوي والاصطلاحي عليه؛ قال ابن حجر: «وهذا التعريف مبنِيّ على الأصح المختار عند المحققين، كالبخاري، وشيخه أحمد ابن حنبل، ومن تبعهما»[5].

- أما **في اصطلاح بعض الأصوليين:** فالصحابي هو من طالت صحبته للنبي ﷺ وكثرت مجالسته له على طريق الإتباع له والأخذ عنه[6].

ويرى السخاوي: أنّ تقييدَ الصحبة بالطول إنّما هو اصطلاح عند **بعض الأصوليين**، وأنّ **جمهورهم على اصطلاح المحدثين** من عدم اشتراط طول الصحبة[7].

وينبغي ملاحظة أنّ تقييد الصحبة بالطول هو **اصطلاح عرفي**؛ حيث تعارف الناس على استعمال هذه التسمية فيمن كثرت صحبته واستمر لقاؤه؛ كما بيّن الباقلاني وابن الجوزي وابن حجر[8].

وإلاّ فالاستعمال اللغوي والاصطلاحي للكلمة أوسع من ذلك، لذا استقرّ اصطلاح المحققين من المحدثين والأصوليين على تقييد مصطلح "الصحابي" **باللقاء** كما بيّن ابن حجر.

[2]- سبب الاعتبار باللقاء في الصحبة: سبب التوسّع الذي أشار إليه المستشرق "جولد زيهر" أنّ المحدثين نظروا إلى الرواية، لأنّ مَن لقي النبي ﷺ ولو مرّة واحدة وكان مميّزا فإنّه سينقل سنة عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو هيئة أو نحوها.

---

[1]- ينظر: المصباح المنير، الفيومي، 333/1. وتاج العروس، الزبيدي، 185/3. والمعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، 507/1.

[2]- ينظر: فتح المغيث، السخاوي، 79/3. والوسيط في علوم ومصطلح الحديث، أبو شهبة، 490.

[3]- ينظر: نزهة النظر، ابن حجر، 111. والإصـــابة، ابن حجر، 158/1. وتدريب الراوي، السيوطي، 485.

[4]- الإصـــابة، 158/1.

[5]- المصدر نفسه، 159/1.

[6]- ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، 293. وفتح المغيث، 84/3-85. والوسيط في علوم ومصطلح الحديث، 495.

[7]- ينظر: فتح المغيث، 79/3 و84.

[8]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 6/7. وفتح المغيث، 80/3.

مثل: ما وقع مع "أبي الطفيل عامر بن واثلة"[1].

ولهذا نجد ابن حجر عندما يناقش من يدخل في الصحابة يراعي في ذلك روايتهم، فمثلا عندما أشار إلى الصبيان الذين رآهم النبي ﷺ وحنّكهم -وهم دون سنّ التمييز- يقول: «نعم يصدق أنّ النبيّ ﷺ رآه **فيكون صحابيا من هذه الحيثية، ومن حيث الرواية يكون تابعيا**»[2].

وبالتالي فإنّ الصبيان الرضّع الذين حنّكهم الرسول ﷺ وهم دون سنّ التمييز ليسوا صحابة من حيث الرواية بل هم في طبقة التابعين، وإن شملهم شرف الصحبة من حيث أنّ النبي ﷺ رآهم، لكن لَمّا كانت حالة لقائهم بالنبي ﷺ لا تؤهّلهم لنقل شيء عن النبي ﷺ (لعدم تمييزهم)؛ لم يصّح أن يكونوا في طبقة الصحابة من حيث الرواية.

[3]- استدراك على "جولد زيهر" حول اشتراط التمييز: الكلام على التمييز حال لقاء النبي ﷺ يستدعي التنبيه على الوهم الذي وقع فيه "جولد زيهر-Goldziher" عندما قال: بأنّه «**عُدّ من الصحابة أيضا مَن لقي النبي في حياته دون أن يوضع سنّ هؤلاء في موضع الاعتبار**»، فهذا الكلام غلط؛ لأنّ المحدثين جعلوا السنّ محلّ اعتبار، **فاشترطوا تَمييز** الصحابي حال لقائه بالنبي ﷺ، وهو ما يدلّ عليه كلام يحيى بن معين وأبي زرعة وأبي حاتم وأبي داود وابن عبد البر وغيرهم؛ فإنهم لم يثبتوا الصحبة لأطفال [غير مُميِّزين] جيء بهم إلى النبي ﷺ فحنكهم ومسح على وجوهم أو تفل في أفواههم[3].

ولعل ما أوقع المستشرق "جولد زيهر-Goldziher" في هذا الوهم عدم تفريقه بين التمييز والبلوغ[4]؛ إذ **لا يُشترط البلوغ** في حد الصحابي عند المحدثين[5].

الفرع الثاني : تواضع النبي ﷺ لأصحابه وحبّهم له وتعظيمهم إيّاه

- جاء في مادة "**قيصر**"[فقرة: 1]: «**يبيّن عمر بن الخطاب الفارق بين حياة الرسول ﷺ المتقشفة وبين حياة كسرى وقيصر المترفتين، ونرى عروة بن مسعود أثناء الحديبية (وقد زار النبي ﷺ في معسكره)**

---

[1]- فإنّه رأى النبي ﷺ وله ثمان سنين، ونَقل عنه ماذا رآه يفعل ووصفه، فاستفدنا منه سنّة عن النبي ﷺ، لأنّه كان في سنّ تمييز تؤهله لذلك. ينظر ترجمته في: أسد الغابة، ابن الأثير، 176/6. والإصابة، ابن حجر، 193/7.

[2]- الإصـــابة، 159/1. وينظر قبل هذا الموضع: 155/1.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، 159/1. وتدريب الراوي، السيوطي، 485-486. والوسيط في علوم الحديث، أبو شهبة، 492.

[4]- **التمييز**: يحصل بفهم الخطاب وردّ الجواب، ويكون في حوالي سنّ الخامسة، ويختلف من طفل لآخر، أمّا سن **البلوغ**: فيكون بعد ذلك بسنوات عند بلوغ سنّ التكليف، فعلماء الحديث **اشترطوا سنّ التمييز** لأنّ السماع متعلّق بالفهم، **ولم يشترطوا البلوغ** وهو متعلّق بالتكليف. ينظر: الكفاية، الخطيب، 225/1. وفتح الباري، ابن حجر، 225/1. وتدريب الراوي، 305.

[5]- ينظر: فتح الباري، 6/7. وتدريب الراوي، 486. والوسيط في علوم الحديث، 492.

يتحدث إلى رفاقه المكيين فيقول إنه رغم كثرة زياراته للملوك ولقيصر وكسرى والنجاشي إلا أنه لم يَرَ أحدا يحبه أصحابه حب أصحاب محمد ﷺ له»[1]. المحرر هو المستشرق: **ر.بارت** - R. Paret[2].

أولا- تواضعه ﷺ لأصحابه وإكرامه لهم: عاش الرسول ﷺ بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب، فكان يُخالطهم في المسجد والسوق والبيت، والسفر والحضر[3].

فكان ﷺ يجالس الفقراء، ويختلط بأصحابه، وحيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يعود الْمريض، ويَمْشي مع الأرمَلَة والمسكين والضّعيف في حوائِجِهم، ويجيب الدعوة، ويحمل بضاعته من السوق، وكان في بيته في مهنة أهله[4].

وكان ﷺ رؤوفا رحيما بهم، يتعهد حاضرهم، ويسأل عمن غاب منهم، ويسلّم عليهم، ويشمّت عاطسهم، ويواسي فقيرهم، ويعين ضعيفهم، ويشاركهم في السراء والضراء، ويشيّع ميتهم، ويكسو عاريهم، ويشبع جائعهم، ويرعى أيتامهم، ويحنّك أطفالهم ويبارك عليهم، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور على نفوسهم[5].

ومن مظاهر إكرامه ﷺ لأصحابه ما كان يؤثرهم به من العطايا والهدايا؛ من ألبسةٍ وأموالٍ ونحوها؛ «فيَعُمّ خيرُه وبرُّه مَن هو بصِفة الفقر والْحاجَةِ، ومَن هو بصفة الْغنى والكِفاية أكْثَر مِمّا يَعُمّ الغيثُ النّاشِئة عنِ الرِّيح الْمرسلة»[6]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النّبيُّ ﷺ **أجْوَد النّاس بالخير**، وكانَ أَجْوَد ما يكون في رمضان حين يَلْقاه جبريل... فإذا لقِيَه جبريل عليه السلام **كان أجْوَد بالخير منَ الرّيح المرْسَلة**»[7].

ومن الأمثلة على ذلك: أنّه ﷺ كان يقْسِم بَيْن أصْحابِه ما يقْدِم عليه من الهدايا، ويَأخُذ منها لِنفسه ما يَختارُه، ففي "الصحيح": عن عبد الله بن أبي مُليكة: «أنّ النّبيّ ﷺ أُهْدِيت له أَقْبِيةٌ مِن ديباجٍ، مُزَرّرةٌ بالذّهب[8]، فقَسَمها في ناسٍ من أصحابِه»[9]، والروايات في ذلك كثيرة[10].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8464/27-8465.

[2]- سبقت ترجمته في: ص137.

[3]- ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 56.

[4]- ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 402/2. وزاد المعاد، ابن القيم، 157/1. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 575.

[5]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 323/1-332. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 637/2.

[6]- فتح الباري، ابن حجر، 150/4.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الصوم، باب أجود من كان النبي ﷺ في رمضان، 150/4. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، 99/15.

[8]- "**أقبية**": جمع قَباء، وهو ثوب ضيق مشقوق من الخلف، تسهل فيه الحركة. و"**الديباج**": نوع من الحرير. و"**مزررة**": أي، لها أزرار من ذهب. ينظر: فتح الباري، 332/10.

[9]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فرض الخمس، باب قسمة الإمام ما يقدم عليه، 272/6.

[10]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 339/10. والبداية والنهاية، ابن كثير، 171/2. وزاد المعاد، ابن القيم، 71/5-72.

كما كانت حياة رسول الله ﷺ بعيدة عن ترف الملوك وترفُّعِهم في متاع بيته وأحواله المعيشية المختلفة، والأمثلة على ذلك كثيرة في سيرته، منها ما أشار إليه المستشرق "بارت-Paret" في مادة "قيصر" من قصّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي يقول فيها: «... فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير... وإذا الحصير أثّر في جنبه... قال: فابتدرت عيناي، قال: ((مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّاب؟))، فقلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلاّ ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته... فقال: ((يَا ابْنَ الْخَطَّاب، أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟))، قلتُ: بلى»[1].

ثانيا- تعظيم الصحابة للنبي ﷺ: كانت أفعال النبي ﷺ وأقواله محل العناية والتقدير من الصحابة رضي الله عنهم، حيث كان ﷺ محور حياتهم الدينية والدنيوية، منذ أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة والظلام إلى الهداية والنور[2].

فكان الصحابة على قدر كبير من تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، ومن الشواهد على ذلك ما أشار إليه المستشرق "بارت-Paret"، من قصّة "عروة بن مسعود" في صلح الحديبية، وما حكاه من شدّة تعظيم أصحاب النبي ﷺ له مما لم يره عند الملوك كقيصر وكسرى والنجاشي، حيث جاء في الصحيحين: «... ثُمّ إنّ "عروة" جعل يرمُق أصحاب النبي ﷺ بعينيه... فرجع عروة إلى أصحابه [أي: من كفار قريش] فقال: «أي قوم؛ والله لقد **وفدْتُ على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي**، والله **إنْ رأيت ملكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ محمداً**، والله إنْ تنخَّم نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجُل منهم فدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النّظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها»[3].

نلاحظ مفارقة عجيبة بين تواضع النبي ﷺ لأصحابه وبساطة عيشه من جهة، وبين تعظيم أصحابه له أكثر من تعظيم الرعية لملوكهم من جهة أخرى؛ وفي ذلك دلالة على أنّ أمر النبي ﷺ أعظم من سلطة ملك أو حكمة مصلح، ولكنّها النبوة الذي بلغت به الذروة في الفضيلة الإنسانية.

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: 1]، 838/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء، 118/10-120. وهذا اللفظ لمسلم.

[2]- ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، السباعي، 56.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، 403/5-405. من حديث المسور من مخرمة ومروان بن الحكم.

الفرع الثالث : كون النبي ﷺ رأس دولة المدينة

– جاء في مادة "**عائلة**": «**ففي الفترة الثانية في المدينة، وهي الفترة التي أصبح النبي فيها رأس الدولة، أخذ يقيم العدل ويسنّ على مراحل مجموعة من القواعد تنبع من أحكامه في المسائل الفردية، وأصبح لهذه الأحكام قوة القانون المقرر**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لوسرف** - J.Lecerf[2].

– وفي مادة "**محكمة**": «**تولّى رسول الله ﷺ ولاية القضاء التي أسندها له صراحة آيات القرآن الكريم**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **ج.شاخت** - J.Schacht[4].

صار النبي ﷺ بحكم النظام الجديد الذي أنشأه في المدينة المنورة هو الرئيس الأوّل للدولة، فقد جعلت صحيفة "دستور المدينة" الفصلَ في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ورسوله ﷺ، حيث جاء في نصّ البند (23): «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ»، كما أنّ البند رقم (42) الذي جاء فيه: «وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ»[5]؛ يقرّر وجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سائر سكان المدينة.

وهو ما قرّره القرآن الكريم أيضا كما ذكر المستشرق "شاخت- Schacht" في مادة "محكمة"، فقال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 48]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 59].

والمغزى من ذلك هو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة وتفصل في الخلافات منعاً لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني لرئاسة الرسول ﷺ على الدولة، فقد حددت الصحيفة مصدر السلطات الثلاث؛ التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، فكان رسول الله ﷺ حريصاً على تنفيذ أوامر الله من خلال دولته الجديدة[6].

فقبل الإسلام لم يكن العربي ليخضع لدولة، وإنما كانت الوحدة السياسية والاجتماعي هي القبيلة، وكانت الدويلات التي نشأت في أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بوقت طويل قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية وتنازع وصراع وتفكك في سائر شبه الجزيرة، فلما جاء الإسلام أرسى مفهوم الدولة، وربط سائر القبائل والأفراد بها، فقامت دولة المدينة المنورة على أساس

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 440/15.

[2]– **لوسرف** "J.Lecerf": مستشرق فرنسي، لم أقف على ترجمة له في كتب تراجم الأعلام والمستشرقين المعاصرين، لكن ورد في أسماء المحرّرين للنسخة الأجنبية "للدائرة" أنه: أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية "باريس". ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 1/VI".

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9075/29.

[4]– سبقت ترجمته في: ص50.

[5]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 503/1–504. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 284/2–285.

[6]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 674/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 291/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 330.

فكري بحت وتوسعت لتوحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام، فكانت هذه نقلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية السياسي[1].

المطلب الثاني : أهل الصفة في المدينة ورعايتهم

الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**أهل الصّفّة**": «**هم أصحاب رواق المسجد. كان بين مسلمي مكة الذين صحبوا النبي في هجرته إلى المدينة وبين المهاجرين إلى المدينة من جهات أخرى طائفة لم يحملوا من ديارهم ما يقيم أودهم، وآخرون تركوا بلادهم التي كانوا يعملون فيها فأصبحوا فقراء يعانون آلام الجوع ولا يجدون ملبسا ولا مأوى، ولم يستطع إحسان أنصار المدينة أن يقضي على الفاقة التي كانت تغمر الأحياء التي يقطنونَها، وفي أثناء ذلك كان إذا جنّ الليل يوضع في صحن دار النبي وعاء فيه شعير محمص كان يشترى من مال المسلمين ليأكل منه الجائعون، وكان الذين لا يجدون مأوى يلجئون إلى الصّفّة، وهي الجزء الشمالي من المسجد. وكان ذا سقف وليس له ما يستر جوانبه، ومن أجل هذا كانوا يسمون أيضا "ضيوف الإسلام"، على أنّه يقال أيضا إن قوماً من المهاجرين المعدمين لم يدخلوا الصفة قط.**

ويختلف الرواة في عددهم (10، 30، 70، 92، 93، 400 شخص) وذلك لأنهم كانوا يختلفون من آن لآخر، ولأنّ عددهم كان في أول الأمر كبيرا، وكان أهل الصفة من حيث قبائلهم غرباء في المدينة»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf[3].

– وفي مادة "**فاطمة**"[فقرة: 2]: «**وقال لفاطمة [أي: علي ﷺ] (قد جاء الله بسبي للنبي ﷺ فاذهبي فاستخدمي – أي اطلبي خادما –)، قالت: أنا والله قد طحنت حتى محلت يداي، فأتت النبي ﷺ، فـقال: ما جاء بك؟ فقالت: جئت أسلّم واستحت أن تطلب طلبها ورجعت، فذهب عليّ معها، فقال رسول الله ﷺ: ((لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم))...**»[4]. محررة المادة هي المستشرقة: **ف. فاجليري** – V.Vaglieri[5].

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 234/1.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 105/3.

[3]– سبقت ترجمته في: ص249.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7713/25.

[5]– سبقت ترجمتها في: ص336.

– وفي مادة "**فقير**": «**وعند بعض المفسرين أن كلمة فقراء في سورة البقرة، الآية 273، تشير إلى أهل الصفة الذين عاشوا في مسجد الرسول ﷺ، وكرسوا وقتهم للصلاة والعبادة، والتفكر في ملكوت الله**»[1]. محررة المادة هي المستشرقة: **خ.أ. نظامي** – Kh.A.Nizami[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– الحاجة إلى إيواء أهل الصفة: استطاع الأنصار أن يستضيفوا المهاجرين الأوائل في بيوتهم، وأن يشاركوهم النفقة حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين بحيث لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم؛ فقد صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه أفواجا، وبالتالي كثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعُزَّاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصُّفة في المسجد[3].

ذلك أنّه لَمّا تَمّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة بقي حائط القبلة الأولى في مؤخر المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة و لم يكن له ما يستر جوانبه[4].

ثانيا– التعريف بأهل الصّفة: هم أناس فقراء كانوا يأوون إلى مكان مظلّل في مؤخر المسجد النبوي يسمى "الصفة"، أُعدّ لنزول الغرباء فيه مِمن لا مأوى له ولا أهل[5].

وأول من نزل الصفة المهاجرون، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها[6].

وكان أهل الصفة أخلاطاً من قبائل شتى وعشائر غريبة عن المدينة[7]، كما ذكر المستشرق "ركندورف".

[1]– عددهم: كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات والأحوال كما ذكر المستشرق "ركندورف- Reckendorf" في مادة "أهل الصفة"؛ وذلك بِحسب من يتزوج منهم أو يَموت أو يسافر، كما

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7863/25.

[2]– **خليق أحمد نظامي** "Kh.A.Nizami" (1925-1997م): باحث هندي، اشتغل أستاذاً بقسم التاريخ في جامعة "عليكرة" الإسلامية بالهند. ينظر: النسخة الأجنبية "للدائرة": "The Encyclopidia of Islam, 1/VI". والموسوعة الحرة "ويكيبيديا" بالإنجليزية على رابط: (https://en.wikipedia.org/wiki/K._A._Nizami).

[3]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 257/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 302-303.

[4]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 257/1-258. والسيرة النبوية عرض وتحليل، 302.

[5]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 727/6 و346/11. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 120/6.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 692/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 258/1.

[7]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 196/1. وتفسير البغوي، 377/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 259/1.

يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة، وقد يصل عددهم أحيانا إلى أربعمائة رجل، ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء، على أنّ عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً[1].

[2]- تسمياتهم: كانوا يعرفون بعدة تسميات أهمها:

- "**أهل الصّفة**" و"**أصحاب الصفّة**"[2] نسبة إلى صفّة المسجد التي كانوا يأوون إليها ويقيمون بها.

- و"**أضياف الإسلام**": كما ذكر محرر مادة "أهل الصفة"؛ فعن أبي هريرة ﷺ: «وأهل الصفة **أضياف الإسلام**، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد»[3].

- و"**الفقراء**" أو "**فقراء المهاجرين**": قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 273]، حيث ذكر بعض المفسرين أنّ هذه تشير إلى أهل الصفة[4]، وهو ما ذكره محرر مادة "فقير".

ثالثا- إحسان النبي ﷺ والمسلمين إليهم: كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم، كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم، ويكرمهم ويحسن إليهم، وكان ﷺ يؤمّن نفقتهم بوسائل متعدّدة ومتنوعة؛ منها:

أ)- كان النبي ﷺ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها[5].

ب)- كثيراً ما كان النبي ﷺ يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته، وهي الصورة التي أشار إليها المستشرق "ركندورف" في مادة "أهل الصفة"، لكن قوله "**كان إذا جنّ الليل يوضع في صحن دار النبي وعاء فيه شعير محمص كان يشترى من مال المسلمين**" فيه تعميم خاطئ؛ لأنّ النبي ﷺ كان ربّما أطعمهم في بيته من ماله الخاص وطعام أهل بيته[6]، أو ربّما أطعمهم أحيانا من طعام المسلمين الذي قَدِم إليهم[7]، بل بلغ أدبه معهم أن يعتذر إليهم إذا لم يكن الطعام الذي قدّمه إليهم جيدا، فقد قدّم لهم مرة صحفة[8] فيها طعام من شعير، وقال: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ طَعَامٌ لَيْسَ شَيْئًا تَرَوْنَهُ))[9]، وفي هذه الرواية دلالة صريحة أنّ ما قدمه لهم كان من طعام أهل بيته الخاصّ.

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 727/6 و347/11. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 259/1.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 692/1 و340/11. ودلائل النبوة، البيهقي، 103/6. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 157/10.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، 339/11-340.

[4]- ينظر: تفسير البغوي، 377/1. وتفسير الرازي، 67/7. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 73/3.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (مع الفتح)، 340/11 و346. والسيرة النبوية الصحيحة، 266/1.

[6]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 717/6. و الطبقات الكبرى، ابن سعد، 197/1.

[7]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، ، 340/11. ومجمع الزوائد، الهيثمي، 307/8.

[8]- **الصحفة**: آنية الطعام كالقصعة، وهي في الحجم بحيث تشبع الخمسة. ينظر: تاج العروس، 5/24. والمعجم الوسيط، 508/1.

[9]- الطبقات الكبرى، ابن سعد، 197/1. من حديث أبي هريرة ﷺ؛ وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد، 308/8": «رجاله ثقات».

ج)- كما كان النبي ﷺ يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء ليتعشوا عندهم؛ فيأخذ الصحابةُ بعضَهم، ومن بقي منهم يصحبهم النبي ﷺ إلى داره فيتعشون معه[1].

رابعا- إيثارهم على أهل بيته: بلغ إكرام النبي ﷺ لأهل الصفة إلى درجة أنّه آثرهم في بعض المناسبات حتى على خاصة أهل بيته كابنته فاطمة رضي الله عنها وزوجها علي رضي الله عنه، وذلك لفقر أهل الصفة وحاجتهم الشديدة، كما تدلّ على ذلك القصة التي ذكرها المستشرقة "فاجليري-Vaglieri" في مادة "فاطمة" رضي الله عنها، وملخّصها: أنّ ابنته فاطمة رضي الله عنها جاءت تطلب منه خادما من السبي وقد مَجَلت[2] يداها من الرّحى والعمل، فقالت فاطمة: «قد طحَنْتُ حتّى مَجَلَتْ يدايَ، وقد جاءَك اللهُ بِسَبْيٍ وسعةٍ فأخْدِمْنا»، فأبى النبي ﷺ وعلّمها وزوجها دعوات يدعوان بها عند النوم، وقال: ((وَاللهِ لا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ، لا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ))[3]، وروى أصل القصة البخاري في "صحيحه"[4].

فأعطى الرسول ﷺ في هذا الموقف صورة سامية من صور الإكرام والإحسان للمحتاجين، ودرسا بليغا في كيفية تحمّل القائد والراعي مسؤولية رعيّته، وتقديمه لحاجتهم على حاجة أهله وخاصّته ما دامت حاجتهم أشدّ.

خامسا- اشتغالهم بالعلم والعبادة والجهاد: أشار الأستاذ "نظامي" في مادة "فقير" إلى بعض أعمال أهل الصفة وجهودهم في المجتمع المدني، حيث كانوا يقومون بأعمال جليلة منها: انقطاعهم لطلب العلم، والاعتكاف في المسجد للعبادة؛ فكانوا في خلواتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبيّ ﷺ مثل أبي هريرة رضي الله عنه -الذي عرف بكثرة تحديثه- وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه وغيرهما[5].

وكانوا يشاركون في الجهاد ووقع منهم شهداء في مختلف الغزوات والسرايا، كما كانوا أيضا يعملون لكسب الرزق وتحصيل المعاش[6].

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 717/6. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 267/1.

[2]- **مجلت** اليد: أي: نَفِطَتْ منَ العمل، فيكون بين الجلد واللّحم ماءٌ، وصَلُبت وثخن جلدها من شدة العمل بالأشياء الصلبة. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 300/4. ولسان العرب، ابن منظور، 616/11.

[3]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 203/2. من حديث علي رضي الله عنه؛ وحسنه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 259/6 و91/7. من حديث علي رضي الله عنه.

[5]- ينظر: تفسير البغوي، 377/1. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 73/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 263/1-264.

[6]- ينظر: تفسير البغوي، 377/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 264/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 305.

المطلب الثالث : تشريعات دينية جديدة في المدينة

الفرع الأول : الفرق بين التشريع في العهد المكي والمدني

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 48]: «**أما الواجبات الدينية التي فرضها القرآن الكريم على محمد ﷺ وأتباعه خلال الفترة المكية فكانت بسيطة قليلة العدد فعلى المرء أن يؤمن بالله، وأن يلتمس منه الصفح عن خطاياه، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ الآيات، سورة المؤمنون (1–11). وعليه المحافظة على الصلاة حتّى بالليل ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ سورة هود آية (114). وعليه مساعدة الناس خاصة الفقراء منهم، وأن ينـــزّه نفسه من حب الثراء الخادع، وعن كل أشكال الغش، وهو أمر له أهمية في الحياة التجارية المكية ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ سورة الشعراء (182–183)، وعليه الالتزام بالعفة**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

تكلّم المستشرق "بول-Buhl" في هذه الفقرة عن قلّة التشريعات في العهد المكي مقارنة بالعهد المدني؛ وذلك راجع إلى طبيعة كل مرحلة من العهدين المكي والمدني:

[1]– **فالعهد المكي**: هو عهد قلّة وضعف ومحنة للمسلمين، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ العامة للدعوة عرضا قويا، وهو ما امتاز به الأسلوب المكي، كما أنّ حالة المسلمين لم تكن لتستدعي تشريعات كثيرة، لأنّ مثل هذا إنّما يكون في حالة الاستقرار وقيام بنيان رسمي[3].

- **ترسخ العقيدة والإيمان:** لقد كان المحور الذي تدور عليه الدعوة في مكة انتزاع العقائد الضارة من شرك ووثنية، وإنكار للبعث والنبوات، وتثبيت العقائد الصحيحة في النفوس من توحيد، وإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الأخر، وإقامة الأدلة العقلية والوجدانية والآفاقية على ذلك، ليؤمن مَن آمن عن بيّنة واقتناع، ويكفر من كفر عن تعنّت وعناد، وقد مكث النبي ﷺ في هذه الفترة يعلّم ويلقّن ويربّي ويتعهد، حتى صنع طرازا فريدا من الرجال، كانوا اللبنات الأولى التي منها أسس الإسلام وعليها قام صرحه العالي المنيف[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9117/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 374/2.

[4]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 13/2.

إن النقلة التي أحدثها الإسلام عميقة وشاملة، فعلى مستوى العقيدة يمثل طفرة من عبادة الأشياء المحسوسة كالأصنام والأوثان والكواكب التي يرونها ويلمسونها إلى عبادة الله الواحد الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، والذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: 103]؛ وهذه طفرة من "العقل البدائي" الذي يتعامل مع المحسوسات إلى "العقل الحضاري" الذي يتمكن من فهم معاني التوحيد والتنزيه لله رب العالمين[1].

- **الحكمة التشريعية في هذا التدرج:** طبيعي أن يكون اتجاه الدعوة في مكة إلى تصحيح العقائد، فقد بعث الرسول ﷺ بين قوم وثنيين لا يؤمنون ببعث ولا رسالة، فكان المنهج المنطقي القويم في الدعوة أن يؤمنوا بهذه الأصول أولا، حتى إذا اطمأنت قلوبهم بالإيمان، وانشرحت صدورهم للإسلام، سهل عليهم تقبل التشريعات من حلال وحرام[2]؛ وقد أشارت إلى هذه الحكمة التشريعية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «إنما نزل **أول ما نزل** منه سورة من المفصّل فيها **ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام**؛ ولو نزل أول شيء "لا تشربوا الخمر"، لقالوا: "لا ندع الخمر أبدا"»[3].

- **بعض التشريعات:** من هنا كان اتجاه الدعوة في مكة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وقد أشار المستشرق "بول" إلى بعضها، وتدور هذه التشريعات حول: الحث على الثبات على العقيدة، والصبر والتحمل في سبيلها، والأمر بالصلاة والصدق والعفاف، وبر الوالدين وصلة الرحم والعدل والإحسان، والتواصي بالحق والخير، والنهي عن الرذائل كالقتل ووأد البنات، والظلم والزنا، وأكل أموال الناس بالباطل إلى غير ذلك[4].

كما شرعت في مكة أصول العبادات كالصلاة والوضوء وشرعت الزكاة بمعناها العام[5].

[2]- أما **العهد المدني:** فكان عهد طمأنينة واستقرار وكثرةٍ مؤلّفة من فئات مختلفة، وقد توطّد فيه للإسلام كيان سياسي واجتماعي رسمي، لذا كانت هذه الفترة من عمر الإسلام أخصب الفترتين، ففيها نزلت معظم التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في الحلال والحرام، والعبادات والمعاملات والحدود والجنائيات، والحروب والمعاهدات، والعلاقات الدولية، والنظم السياسية، وذلك لأن حياة

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 232/1.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 13/2-15.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، 49/9.

[4]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 14/2.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 291/4. والسيرة النبوية الصحيحة، 624/2. وقد شرعت الزكاة بصورة عامة في مكة، ثم جاء تفصيل مقاديرها في المدينة، كما سيأتي بيانه في: ص618.

المسلمين في المدينة بدأت في الاستقرار، وأصبح لهم دولة وسلطان، ومن شأن الجماعة التي لها رابطة تربطها أن تكون في مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه في دينها ودنياها[1].

أحدثت هذه التشريعات تغييرا جذريا في حياة الناس على مختلف المستويات، وانقلبت صورة المجتمع في المدينة رأسا على عقد، وظهر أثر ذلك في أفكار الناس وسلوكهم وتصرفاهم.

فالنقلة كبيرة بين ما كان عليه الفرد في جاهليته وما صار إليه في إسلامه، ففي سلوك الإنسان اليومي أحدث الإسلام تغييرًا جذريًا؛ بحيث لم يعد العربي كما كان متفلتًا من ضوابط القانون في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية بل صار منضبطًا بضوابط الشريعة في جزئيات حياته من أخلاق وعادات وطعام وشراب وزواج وطلاق وبيع وشراء.. ولا شك أن العادات تتحكم في الإنسان ويصعب عليه التخلص منها، واكتساب عادات وصفات جديدة.. لكن ما ولده الإسلام في أنفسهم من إيمان عميق مكنهم من الانخلاع من الشخصية الجاهلية بكل ملامحها واكتساب الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها فاعتادوا على عبادة الله تعالى واتجهوا بكل نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي إليه، لأن العبادة في الإسلام شاملة لكل نشاط وحركة يقصد بها وجه الله تعالى، والتزموا بأداء الصلاة التي هي عماد الدين يوميًا خمس أوقات محددة[2].

وفي العناصر الموالية بيان بعض التشريعات التي كانت في المدينة حسبما جاء في "دائرة المعارف".

الفرع الثاني : تحويل القبلة

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 49]: «**وأما عن استقبال القدس الواقعة إلى الشمال أثناء الصلاة (وهو ما توقف بعد العام الأول من إقامة محمد ﷺ بالمدينة)، فإنه ليس من المؤكد ما إذا كان القصد منه استمالة يهود المدينة إلى الإسلام، حيث إن الروايات تختلف بصدد قبلة المسلمين في مكّة قبل الهجرة، ومن المستبعد أن يكون محمد ﷺ وأتباعه قد اتّخذوا الكعبة قبل الهجرة قبلة لهم، وإلا لكان من الصعب تفسير اختلاف الروايات بصدد هذا الموضوع، فإن كان محمد وأصحابه يستقبلون بيت المقدس في صلواتهم قبل الهجرة فإن هذا لا يعني بالضرورة اقتداءً باليهود حيث إن بيت المقدس كان القبلة في صلاة جماعات أخرى في الشرق الأدنى.**

وربّما كان المسلمون يستقبلون الشرق في صلواتهم بِمكة شأن بعض الجماعات المسيحية (قبل تحول القبلة للقدس ثم للكعبة المشرفة). أو ربما لم تكن لديهم قبلة على الإطلاق، وليس بالقرآن الكريم أي ذكر لهذه النقطة الفاصلة في حياة النبي وفي نشأة الإسلام.

---

[1]– ينظر: سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 374/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 15/2.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 232/1-233.

وقد يكون من الأفضل قبول افتراض أن يكون المسلمون اتخذوا من بيت المقدس قبلة لهم خلال عام محمد ﷺ الأول في المدينة كممارسة مؤقتة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

أولا– القبلة في مكة: أثار المستشرق "بول-Buhl" إشكالا حول قبلة النبي ﷺ في العهد المكي، ثُم راح يفترض الإجابات استنادا إلى قرائن عامة، ويبدو أنّه لَم يُوَفقّ إلى الجواب الصحيح لِهذا الإشكال، إذ لم يكن له منهج منضبط في الترجيح بين الروايات التي أشار إلى الاختلاف بينها حول هذا الموضوع.

لكن المستشرق غفل عن أنّ المرجّحات في هذه المسألة قويّة وإنْ بدا شيء من الاختلاف الظاهري بين الروايات.

فإنّ **القول المعتمد:** عند المحقّقين كالحاكم والسهيلي وابن سيد الناس وابن كثير وابن حجر وغيرهم؛ أنّ النبي ﷺ كان يتجه في صلاته بِمكة قبل الهجرة مستقبلاً بيت المقدس جاعلا الكعبة المشرفة بينه وبين بيت المقدس[3]؛ وهو ما صحّ عن ابن عباس رضي الله عنه حيث قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُصلّي وهو بِمكّة نَحو بَيْت الْمقدس، والكعبةُ بين يَديْه»[4].

وبِهذه الكيفية كانت تتوسط الكعبة الشريفة قبلته، فيكون الاتجاه إلى الكعبة الشريفة على ناحية بيت المقدس؛ فيجمع في صلاته بين القبلتين بأمر ربه، لكن لَمّا هاجر إلى المدينة المنورة لم يكن الجمع ممكنا، بل لا بد من استدبار إحدى القبلتين[5].

وهناك **قول آخر:** حيث ذهب بعض العلماء إلى أن الرسول ﷺ كان يصلي بِمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس[6].

لكن هذا القول ضعيف ومستبعد كما ذكر المستشرق "بول"، وقد انتقد الحافظ ابن حجر هذا القول وضعَّفه فقال: «وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس»[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9131/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: الروض الأنف، 67/4. وعيون الأثر، 273/1–274. وتفسير ابن كثير، 453/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 82/3. وفتح الباري، 129/1. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 349/2.

[4]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 203/2. **وابن سعد**، الطبقات الكبرى، 187/1. وقال الهيثمي "مجمع الزوائد، 12/2": «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[5]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 730/2.

[6]– ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 273/1–274. وفتح الباري، ابن حجر، 129/1. والسيرة الصحيحة، العمري، 349/2.

[7]– فتح الباري، 129/1.

وعليه تكون المرجّحات للقول بجمعه في مكة بين القبلتين أقوى من وجوه:

1- ثبوت الرواية بذلك عن ابن عبّاس، ولابدّ أنّه أخذ ذلك عمن شهدوا الحدث.

2- أنّ هذا القول يعتمد مسلك الجمع بين الروايات وهو مقدم على الترجيح.

3- أنّ النبي ﷺ لَمّا كان يَتحَرّى القِبلتين جميعًا في مكة؛ لَم يَبِن تَوجّهُه إلى بَيت المقدس لِلنّاسِ حتّى خَرج مِن مكّة؛ كما أفاد السهيلي وابن سيد الناس[1].

4- القول بتوجّهه للكعبة في مكة دون بيت المقدس ضعيف، لِما يستلزمه من وقوع النسخ مرتين.

5- أنّه قول جماهير علماء الحديث والسيرة والتاريخ كما أفاد ابن كثير[2].

6- أنّه يستصحب ما ورد في الروايات وكذا الآيات من صلاته ﷺ إلى بيت المقدس أولا.

7- أنّه يتوافق مع تشوّف النبي ﷺ إلى التوجّه نحو الكعبة قبل نزول الأمر الإلهي بذلك؛ وهو ما يبيّنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: 144]؛ وهذه الآية تبيّن بوضوح أنّ الله عز وجلّ هو المشرّع للقبلة وليس النبي ﷺ كما يستشفّ من عبارات المستشرق "بول- Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ"؛ لأنّ النبي ﷺ كان يحبّ التوجه نحو الكعبة المشرّفة ولكنه لم يستطع ذلك إلاّ بعد نزول الأمر الإلهي به.

لكن "بول- Buhl" يغفل عن هذا المعنى ويتجاهله تَماماً، ويذكر بأنّ القرآن لم يتكلّم عن القبلة في مكة، وقد سبق مراراً بيان أنّ القرآن لم يستوعب جميع تفاصيل السيرة، وإنّما يذكر بعض أحداث السيرة للعبرة والعظة، كما في موضوع تحويل القبلة حيث: نبّه إلى ربّانية هذا التشريع وتشوّف النبي ﷺ له، وأثره في مجتمع المدينة على إيمان المؤمنين وجحود الكافرين والمنافقين.

كما أنّ آيات تحويل القبلة تشير إلى معنًى غفل عنه المستشرق "بول"؛ حيث أنّ تقرير الآيات لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، يُستفاد منه توجّه النبي ﷺ إلى بيت المقدس أوّلا في مكة والمدينة بدلالة الاستصحاب، وهذا الأمر لا ينافي القول بجمع النبي ﷺ بين القبلتين في مكة، وأنّ ذلك تعذّر في المدينة، وبالتالي صار النبي ﷺ يتشوّف أكثر إلى التوجه نحو الكعبة كما دلّت الآية السابقة، وبذلك يكون في الآيات إشارة إلى هذا القول ضمنا.

لكن المستشرق "بول" ذهل عن هذا المعنى، ولَم يُوفّق إلى قول ابن عباس رضي الله عنه الذي يجمع بين الروايات، بل ارتاب في طرحه لعدم اعتماده للمرجحات السابقة التي بيّنها علماء الحديث والسيرة.

---

[1]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 67/4. وعيون الأثر، 273/1-274.

[2]- ينظر: تفسير ابن كثير، 453/1.

أما قول "بول-Buhl" بأنّه لم تكن هناك قبلة على الإطلاق في مكة، فهو قول بعيد جداً اضطره إليه طرحه المشوش للموضوع، ولا يوجد من قال به ولا ما يشهد له تاريخيّا، بل كلّ الروايات تدلّ على أنّ النبي ﷺ كان على قبلة وإن اختلفوا في تحديدها مع ضعف هذا الاختلاف.

ثانيا- تحويل القبلة وتاريخه: ثم لَما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة استمر في الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس **ستة عشر** (16) **شهرًا**، وفي منتصف رجب سنة اثنتين للهجرة أمره الله تعالى بالتحول في صلاته إلى الكعبة[1].

والمستشرق "بول-Buhl" نفسه يستبعد أنّ يكون توجُّه النبي ﷺ نَحو بيت المقدس في الصلاة فيه محاولة لاستمالة اليهود، وذلك لأمرين:

- **الأول:** أنّ التوجه نحو بيت المقدس كان منذ العهد المكي.
- **والثاني:** أنّ هذه القبلة ليست مقتصرة على اليهود، بل هي قبلة النصارى أيضا.

وقد سبق بيان أنّ النبي ﷺ كان في غنية عن السعي لاستمالة اليهود أو كسب دعمهم الديني والسياسي، وإنّما كان حرصه على إيمانهم كحرص كلّ نبي على إيمان مَن بُعث فيهم، خاصة وقد قام عندهم من البراهين والدلائل على صدق نبوته مما يجدونه في كتبهم ما لم يقم عند غيرهم.

الفرع الثالث : تشريع الأذان والتيمّم واتخاذ المنبر

أولا- تشريع الأذان :

- جاء في مادة "**أذان**": «**وتقول الرواية الإسلامية إن النبي تشاور مع أصحابه بعد دخوله المدينة مباشرة في العام الأول أو الثاني للهجرة في خير الطرق لتنبيه المؤمنين إلى وقت الصلاة، فاقترح بعضهم أن يوقدوا لذلك ناراً أو ينفخوا في بوق أو يدقوا ناقوسا (مثل: قطعة طويلة من الخشب تضرب بقطعة أخرى وكان يستعمله المسيحيون في الشرق للتنبيه إلى الصلاة) ولكن واحداً من المسلمين هو عبد الله بن زيد أخبر أنه رأى في المنام رجلا يدعو المسلمين إلى الصلاة من سقف المسجد، وامتدح عمر هذه الطريقة في الدعوة إلى الصلاة، و لَمّا اتفق رأى الجماعة على هذا الآذان أمر النبي باتباعه، ومن ذلك الوقت أخذ بلال ينادي المؤمنين إلى الصلاة بهذا الآذان الذي يستعمله العالم الاسلامي إلى وقتنا**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **جوينبل**-Th.Juynboll[3].

---

[1]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 47/5.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 560/1.

[3]- **جوينبل** "Th.W.Juynboll" (1866-1948م): مستشرق هولندي، من كتاباته: "كتاب الخراج ليحيى بن آدم"، و"الإسلام في جاوه" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 670/2.

تحدّث "جوينبل-Juynboll" عن تشريع الأذان الذي كان في **السنة الأولى** من الهجرة بالمدينة[1]، وذلك أنّ الصلوات الخمس فرضت في مكة «فكان المسلمون يصلّون ولا يؤذّون، لأن الظروف المحيطة بهم في مكة ما كانت تسمح بالدعوة إليها، والإعلان عنها، واستمر الحال على ذلك إلى ما بعد الهجرة، فلما اطمأن الرسول ﷺ وأصحابه بالمدينة، واستحكم أمر الإسلام، وبدأ تشريع الأحكام، وأصبحوا على حال تؤهلهم لإظهار شعائر الإسلام، فكّر النبي ﷺ في وسيلة للإعلان عن الصلاة»[2] وشاور أصحابه ﷺ في ذلك، في قصةٍ مشهورةٍ أشار إليها المستشرق "جوينبل" في مادة "أذان".

كما جاء تفصيل قصّة تشريع الأذان في روايات كثيرة[3]، منها: ما رواه "أبو داود" عن أبي عمير بن أنس بن مالك عن عمومة له من الأنصار، قال: اهتَمَّ النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا، فلم يعجبه ذلك، فذُكر له: القـــنع -يعني الشَّبُّور[4]-... فلم يعجبه ذلك، وقال: ((هو من أمر اليهود))، فذكر له الناقوس، فقال: ((هو من أمر النصارى))، فانصَرَف **عبد الله بن زيد** بن عبد ربّه وهو مهتمٌّ لِهمِّ رسول الله ﷺ **فأُرِي الأذان في منامه**، قال: فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال له: يا رسول الله إني لبين نائم ويقظان إذ أتاني آتٍ فأراني الأذان، قال: وكان **عمر بن الخطاب** ﷺ **قد** رآه قبل ذلك... فقال رسول الله ﷺ: ((يَا بِلالُ، قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ، فَافْعَلْهُ))، قال: فأَذَّن بلالٌ[5].

ولا تعني هذه القصة أنّ الأذان شُرّع بالرؤيا فحسب وإنما شُرّع بالوحي أيضا كما بيّن ابن حجر وأبو شهبة وغيرهما، وذلك من وجهين:

الأول: أن إقرار النبي ﷺ للرؤيا هو الذي شرّع الأذان، وهذا التقرير من وجوه السُّنة المعروفة[6].

والثاني: أنّ الوحي نزل بالأذان موافقا لرؤيا "ابن زيد" و"عمر" رضي الله عنهما كما أفاد ابن هشام[7].

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 103/2. وسبل الهدى، الشامي، 357/3.

[2]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 63/2. وينظر في هذا المعنى: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 508/1.

[3]- ومنها أيضا: - **حديث ابن عمر** ﷺ في: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الأذان، باب بدأ الأذان، 103/2. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، 100/4-101.

- **وحديث عبد الله بن زيد** ﷺ من طريق ابن إسحاق في: **جامع الترمذي** (تحفة الأحوذي)، أبواب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان، 480/1. وقال الترمذي: «حسن صحيح». **وسنن أبي داود** (عون المعبود)، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، 119/2.

[4]- **القنع والشبور:** هو البوق. ينظر: فتح الباري، 107/2. وعون المعبود، العظيم آبادي، 117/2-118.

[5]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، 117/2. **والبيهقي**، السنن الكبرى، أبواب الأذان والإقامة، باب بدء الأذان، 574/1. وصححه ابن حجر في "الفتح، 107/2" والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 180".

[6]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 679/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 65/2.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 509/1. وفتح الباري، 109/2. وخاتم النبيين، 679/2.

ثانيا- تشريع التيمم :

– جاء في مادة "**تيمّم**": «**ويُقال إنّه قد نزل الوحي بالتيمّم عندما خرج جماعة من المسلمين طلبا لعقد عائشة، وطال بَحثهم حتى نفد ما كان معهم من ماء**»[1]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[2].

تشريع الوضوء كان بمكة[3]، أمّا التيمم فتأخر تشريعه إلى ما بعد السنة الرابعة للهجرة بالمدينة[4].

أمّا قصة تشريع التيمّم[5] التي أشار إليها المستشرق "فنسنك-Wensinck" فجاءت في الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: « خرَجْنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنّا بالبيداء[6]... انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناسِ وليسوا على ماء وليس معهم ماء... فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول... فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، **فأنــزل الله آية التيمم؛ فتيمّموا**، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأوّل بَرَكتكم يا آل أبي بكر»، قالت: فبَعَثْنا البعير الذي كنت عليه، فأصبْنا العقد تحته»[7].

ثالثا- اتخاذ النبي ﷺ للمنبر :

– جاء في مادة "**منبر**"[فقرة: 1]: «**عرف المنبر زمن النبي... ففي "عرفة" امتطى النبي ناقته أثناء خطبته، وفي مناسبات أخرى حين كان يخاطب مجتمعه في فترة بعثته الأولى، حتى أواخرها يوم فتح مكة كان يخطب واقفا، وكما ورد في روايات اتخاذ النبي ﷺ للمنبر، كان النبي ﷺ يتّخذ له مكانا خاصا في مسجد المدينة يخطب منه... وينسب اقتراح صنع المنبر أحيانا للنبي ﷺ وأحيانا أخرى لغيره... وتتفق معظم الروايات على أن المنبر قد اتخذ في بادئ الأمر للخطبة، وأضافت أن الغرض منه كان إبلاغ حشد المصلّين صوت النبي ﷺ ويعلم أيضا بأن النبي ﷺ أقام الصلاة عليه، وأنّه عند السجود نزل عنه وعُني**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 158/6.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 287/2. والسيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 624/2.

[4]– ينظر: تلقيح فهوم الأثر، ابن الجوزي، 40. وفتح الباري، 564/1. والسيرة الحلبية، أبو الفرج الحلبي، 373/2.

[5]– والذي يظهر من سياق حديث عائشة ﵂ وغيره من الروايات والقرائن أنّ: قصة سقوط العقد هذه غير قصة سقوط القعد التي كانت في حادثة الإفك، وأنّ هذه القصة متأخرة عن حادثة الإفك، وهو ما قرّره: ابن سيد الناس "عيون الأثر، 140/2" وابن القيم "زاد المعاد، 231/3" وابن حجر "فتح الباري، 560/1 و563-564" فالقصتين مختلفتين لاختلاف سياقهما.

[6]– **البيداء:** هي ذو الحليفة بالقرب من المدينة في طريق مكة. ينظر: فتح الباري، 561/1.

[7]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التيمم، باب التيمم، 559/1. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحيض، باب التيمم، 76/4-78.

بأن يرى الناس صلاته وأن يتّبعوه فيها... وكثيرا ما كان يُطلق على منبر النبي ﷺ "الأعواد"، وهي تسمية مشتقّة من المادة المصنوع منها، وكان يتكون من درجين ومجلس»[1].

– وجاء أيضا في مادة "**منبـر**"[فقرة: 2]: «**ويخالف "بيكر" الروايات التي تشير إلى أن المنبر قد خُصّص أساسا للخطبة أول ما أُنشئ، وهو يرى أنّه خصص كرمز لعرش النبي ﷺ القوي الذي صار له الحكم، ويتّفق رأيه في ذلك مع الروايات التي تقول بأن المنبر قد أنشئ في السنة السابعة أو الثامنة أو التاسعة للهجرة، وهي السنوات التي ثبت فيها حكم النبي ﷺ، ولقد اتّخذ النبي ﷺ المنبر أيضا لإعلان التعليمات الهامة**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بيدرسن جرنفيل** - F. G. Bedersan[3].

[1]– بداية اتّخاذه ﷺ للمنبر: لَمْ يكن في مسجِد رسول الله ﷺ أوّل ما بُني منبرٌ يَخطُب النّاسَ عليه، بل كان ﷺ يَخطبُ النّاسَ وهو مسْتَندٌ إلى جذع نخلة عند مصلاّهُ في الْحائط القبليّ، وهو ما عبّر المستشرق "بيدرسن-Bedersan" بقوله «**أنّ النبي ﷺ كان له مكان خاص في مسجد المدينة يخطب منه**»، ثُم اتُّخذ له ﷺ الْمِنْبر في **السنة الثامنة** من الهجرة، وهو أول منبر في الإسلام[4].

فعن جابر بن عبد الله ﷺ: «أنّ النّبيّ ﷺ كان يقومُ يوم الجمعة إلى شجرةٍ أو نَخلةٍ، فقالت امْرأةٌ منَ الأنصار، أو رجلٌ: يا رسول الله ألا نَجْعَلُ لك منبرًا؟ قال: ((إنْ شِئْتُم))، فجَعَلوا له منبرًا»[5].

أما ما ذكره "بيدرسن-Bedersan" من نسبة الروايات اقتراحَ صنع المنبر للنبي ﷺ ولغيره أحيانا، فإنّه لا تعارض بين تلك الروايات، لأنّها تشير بمجموعها إلى: أنّ النبي ﷺ أمر بصنع المنبر بعد أن أشار عليه بعض أصحابه بذلك، فقبل النبي ﷺ بهذا الاقتراح وشاور أصحابه في ذلك ثم أمر بصُنعِه[6].

ولعلّ المستشرق خلَط بين "أَمْرِ النبي ﷺ بصنعه" وبين "اقتراح صنعه" من بعض أصحابه كما تبيّنه الروايات، ومنها: حديث جابر ﷺ السابق، وحديث سهل بن سعد وأنس رضي الله عنهما الآتييْن قريبا.

أمّا قوله أنّ منبره ﷺ كان "**يتكون من درجين ومجلس**"؛ فمعناه: أنّ المنبر كان ثلاث درجات، بحيث كانت الدرجة الثالثة مقعدا يجلس عليه النبي ﷺ، ويضع رجليه على الدرجة الثانية[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 31/9669-9671.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 31/9670.

[3]– **بيدرسن فريمان جرنفيل** "Bedersan. F.Grnville": مستشرق دنماركي، ولد سنة (1883م)، ودرس اللغات الشرقية، ودرّس في جامعة "كوبنهاجن"، من كتاباته: "الثقافة الإسلامية"، كما ترجم القرآن إلى الدنماركية. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 2/670.

[4]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 4/540 و6/398. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 10/95. وسبل الهدى، الشامي، 12/69.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، 6/735.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 2/510 و6/735. ومسند أحمد، 21/71 و22/117. وفتح الباري، ابن حجر، 2/512.

[7]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 8/680-681. وفتح الباري، ابن حجر، 2/513. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 10/96-97.

[2]– من أسباب اتخاذه ﷺ للمنبر: ثُمّ أشار المستشرق "بيدرسن-Bedersan" إلى بعض أسباب اتّخاذ النبي ﷺ للمنبر، وهي:

أ)– استعماله **للخطبة والصلاة يوم الجمعة** كما في الحديثين الآتيين.

ب)– ليخطب النبي ﷺ عليه في الناس إذا حدث أمر هام[1]، كما ذكر المستشرق في الفقرة [2] من المادة.

ج)– حتّى يرى المسلمون صلاته ويسمعوا صوته فيتعلّموا منه ويقتدوا به في الصلاة[2]، كما في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «أنّ رسولُ الله ﷺ أرْسَل إلى امْرأةٍ منَ الأنصار: ((مُرِي غُلاَمَكِ النَّجَّارَ، أَنْ يَعْمَلَ لِي أَعْوَادًا، أَجْلِسُ عَلَيْهِنَّ إِذَا كَلَّمْتُ النَّاسَ))؛ فأَمَرتْه بعملها من طرفاء الغابة، ثم جاء بها، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، فأمر بها فوضعت ها هنا، ثم رأيتُ رسول الله ﷺ صلّى عليها وكبّر عليها، ثم نزل القهقرى، فسجد في أصل المنبر ثم عاد، فلمّا فرغ أقبَلَ على النّاس، فقال: ((أَيُّهَا النَّاسُ، **إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا وَلِتَعَلَّمُوا صَلاَتِي**))»[3].

د)– **إسماع الناس** في الخطبة بعد أن كثروا؛ كما قال أنس رضي الله عنه: «كان رسولُ الله ﷺ إذا خَطَب يوم الْجُمعة، يُسْنِد ظَهْره إلى خشَبة، **فلمّا كَثُر النّاسُ**؛ قال: ((ابْنُوا لِي مِنْبَرًا))؛ **أراد أنْ يُسْمِعهم**»[4].

وهي أسباب موضوعية ذكرها المستشرق "بيدرسن-Bedersan" كما أشار إلى صلاته على المنبر المذكورة في حديث جابر رضي الله عنه، لكنه بعد ذلك في الفقرة [2] من المادة يذكر سببـــا آخر، وهو أنّ النبي ﷺ اتّخذ المنبر "**كرمز لعرش الحكم**"، وهذا السبب غير موضوعيّ ولا وجيه لِما يلي:

أ)– لا يوجد ما يشهد له أو يدلّ عليه من روايات السيرة النبوية، وقد سبق إيراد بعض الروايات التي تبيّن أسباب اتّخاذ المنبر عن الصحابة رضي الله عنهم وعن النبي ﷺ نفسه، ولو وجد هذا السبب لذكروه.

ب)– ذكَر "بيدرسن-Bedersan" أنّ النبي ﷺ إنّما توطد حكمه بعد السنة السابعة والثامنة للهجرة، وهذا صحيح إن كان المقصود منه خارج المدينة وما حولها، أمّا داخل المدينة فإنّ حكم النبي ﷺ توطّد فيها خلال السنتين الأوليين خاصة بعد بدر، سواء بين المسلمين أو غير المسلمين كما تشهد لذلك صحيفة "دستور المدينة"، فلو كان النبي ﷺ عازما على اتّخاذ مثل هذا العرش لاتّخذه منذ ذلك العهد.

ج)– إنّ سيرة النبي ﷺ كلّها شاهدة على تواضع النبي ﷺ الشديد لأصحابه –كما تقدّم بيانه–، وأنّه لم تكن بينه وبينهم حواجز أو رسميات كما هو حال الحكام، بل كان يجالس الناس في أحواله المختلفة

---

[1]– ينظر: مسند أحمد، 127/10. والبداية والنهاية، 690/8.

[2]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 48/5. وفتح الباري، 514/3.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر، 510/2. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساجد، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، 46/5-47.

[4]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 71/21. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 559/2. وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

في: المسجد والطرقات وأماكن العمل وغيرها دون أيّ ترفّع مما يشهد على أنّه نبي مرسل ومصلح مؤيد بالوحي، ولعلّ هذه المعاني هي التي أراد المستشرق التعمية عليها بقوله المختلق هذا.

د)– لو كان المنبر علامة العرش والحكم لاستعمله الخلفاء بعده أيضا لهذا الغرض وهو ما لم ينقل قطّ عنهم ولا عن غيرهم.

هـ)– لذا يمكن القول أنّ السبب الذي وافق فيه "بيدرسن-Bedersan" زميله المستشرق "بيكر": ليس إلاّ افتراضا مصطنعا تردّه حقائق السيرة النبوية، والروايات المبيّنة للأسباب الحقيقية لإتّخاذ المنبر.

الفرع الرابع : تشريع الزكاة وجبايتها

أولا- تشريع الزكاة :

– جاء في مادة "**زكاة**"[فقرة: 1]: «**وعلماء الإسلام يفسرون كلمة "زكاة" في العربية بأنّها "الطهارة" أو "النماء والزيادة"، والحقيقة أن النبي ﷺ استعملها بمعنى أوسع من ذلك بكثير، أخذاً عن استعمالها عند اليهود**[1]... **وكان المؤمنون بالنبي في أثناء الحقبة المكية كلّها قليلين، وإن كانوا قد امتلأوا حماسة، ولذلك لم يكن ثمة ما يدعو لوضع قواعد لتنظيم الإحسان الفردي، بل إنّ ذلك كان مستحيلا، ويرى علماء الإسلام أن الزكاة باعتبارها فرضا شرعيا لم تفرض إلا في المدينة... وترد كلمة صدقة مرادفة لكلمة زكاة تقريبا، ولا ريب أنّ النبي ﷺ قد عرف ذلك من يهود المدينة معرفة أدق... فإن النبي ﷺ لم يستعمل ما يتحصل من جملة هذه الصدقات لمساعدة المحتاجين فحسب بل هو استعمله خصوصا عند الضرورة في الإنفاق على مشروعاته الحربية وفي أغراض سياسية أخرى... ومهما يكن من شيء فإنّ طبيعة الزكاة في أيام النبي كانت لا تزال غامضة، ولم تكن ضريبة من الضرائب التي يقتضيها الدين... أمّا زكاة الفطر –وبحسب الحديث– كان النّبي ﷺ هو الذي أمر بها في السنة الثانية للهجرة، وبيّن مقدارها بيانا دقيقا، على أنّ هذا البيان غير ثابت ثبوتا قطعيا من الناحية التاريخية**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **ج.شاخت** - J.Schacht[3].

– وفي مادة "**صاع**": «**فإن مقدار الصاع الشرعي قد حدده النبي ﷺ شرعا في السنة الثانية للهجرة حين استَنّ تفصيلات الشعائر الصحيحة لعيد الفطر التي قُدِّرت بصاع على كل فرد من أفراد الأسرة... وقد سُمي مدّ المدينة مدّ النبي**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

---

[1]– **تعقيب مهدي علام** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**ليس من الدقة أن يقال إن الزكاة بمعنى الطهارة ليست عربية أصيلة وإنّما هي منقولة عن اليهودية، فمهما يكن ثمة اشتراك في معنى الكلمة بين العربية والعبرية فإن ذلك لا يعني ضرورة نقل إحداهما عن الأخرى، على أنّ الثابت في كتب اللغة أن استعمال الزكاة بمعنى الطهارة سابق عن الإسلام وليس من اقتباس النبي ﷺ عن اليهودية**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 10/355-361.

[3]– سبقت ترجمته في: ص50.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 14/105.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

[1]- معاني الزكاة: كلمة "**الزكاة**" في اللسان العربي ونصوص القرآن والسنة ترد على عدة معان، أهمها: الطهارة والنماء والزيادة[1]، وهي المعاني الثلاثة التي أشار إليها "شاخت-Schacht".

وهناك استعمالات أوسع للكلمة تشمل معان أخرى، مثل: المدح والبركة والصدقة والصلاح وغيرها من المعاني المنبَّه عليها في معاجم اللغة العربية[2] والتي ورد استعمال جلّها في القرآن.

لكن المستشرق يزعم أنّ هذا التوسّع في دلالات كلمة "الزكاة" الوارد في القرآن الكريم والسنة إنّما أخذه الرسول ﷺ عن اليهود بالمدينة؛ وهذا زعم باطل لِما يلي:

أ)- هذه المعاني المتعدّدة هي استعمالات عربية لهذا اللفظ العربي، ومن هنا جاء توسعّ القرآن والسنة في دلالات هذه الكلمة، قال ابن الأثير: «**وأَصْلُ الزَّكَاةِ فِي اللُّغة الطَّهارةُ والنَّماءُ والبركَة والمدح**، وكُلُّ ذلك قد **استُعمل** في القُرآن والْحديث»[3]؛ بمعنى: أنّ هذه المعاني أصل استعمالِها في اللسان العربي ثم وردت تلك المعاني في القرآن والحديث، فالقرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين.

ب)- لو كانت تلك المعاني مأخوذة عن اليهود لكان في ذلك سبيل لِطَعن اليهود والمشركين على النبيّ ﷺ؛ فكيف لم يعترض عليه اليهود أو المشركون -وهم أعلم باللسان العربي- ويحاجّوه بذلك؟!

ج)- أنّ المعاني الأوسع "للزكاة" التي وردت في الآيات المدنية وقع استعمالها جلّها في الآيات المكية أيضا، وفي مكة لم يقع اتّصال للنبي ﷺ باليهود مطلقا؛ فمن أين أتى النبي ﷺ بهذه المعاني؟! فدلّ ذلك على أنّه لا علاقة لهذه المعاني الواردة في القرآن باليهود كما زعم "شاخت -Schacht"، وإنّما هي استعمالات في اللسان العربي لأنّ القرآن الكريم نزل باللسان العربي.

ولَمّا كان مقصد المستشرق الطعن في القرآن الكريم أولا[4] فسأكتفي بإيراد أمثلة من القرآن توضّح الاستعمال الأوسع لِمعاني "الزكاة" زيادة على المعاني الثلاثة "الطهارة، النماء، والزيادة" التي ذكر أنّ النبي ﷺ أخذ المعاني الأوسع منها عن اليهود، حيث ترد "الزكاة" بمعان أخرى غيرها مثل:

- **الصدقة:** ورد هذا الاستعمال في: الآيات المكية: كقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: 13]؛ أي: صدقة تصدّق بِها على أبويه[5].

---

[1]- ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 17/3. ولسان العرب، ابن منظور، 358/14. وتاج العروس، الزبيدي، 220/38.

[2]- ينظر: مقاييس اللغة، 17/3. ولسان العرب، 358/14-359.

[3]- النهاية في غريب الحديث والأثر، 307/2.

[4]- كما يُفهم من كلامه أنّه لا يفرّق بين القرآن والسنة وينسب ما ورد في القرآن للنبي ﷺ على طريقة غيره من المستشرقين.

[5]- ينظر: تفسير البغوي، 227/3. وزاد المسير، ابن الجوزي، 122/3. ومثال آخر في: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 6/18.

- **المدح**: كما ورد هذا الاستعمال في الآيات المكية: كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32]؛ أي: لا تَمدحوها[1].
- **الصلاح**: وورد أيضا في الآيات المكية: مثل قوله تعالى: ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ﴾ [الكهف: 81]؛ أي: صلاحا[2].
- **زكاة المال**: بمعنى طهارته ونموّه وحصول البركة فيه[3]، قال ابن عاشور: «جاء **ذِكْر الزّكاة** في **آياتٍ** كثيرةٍ مِمّا **نَزَل بِمكّة** مثل سورة الْمزّمّل وسورة البَيِّنة وهيَ **مِنْ أوائِل سُوَر** القرآن، فالزّكاةُ قرينة الصّلاة»[4]؛ فورد هذا الاستعمال في عدد من الآيات المكية: كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: 20].

د)– يبدو أنّ الذي دعا المستشرق إلى القول بمثل هذا الزعم هو ظنّه أنّ فرض الزكاة بالمدينة يستلزم عدم ورود كلمة "الزكاة" في القرآن المكي بتلك المعاني واستعمالات المختلفة كما هو الحال في الآيات المدنية؛ لكن عدم إحاطته بالآيات المكية في هذا الباب - والتي ذكرت بعضها كنماذج- أوقعه في هذا الخطأ الشنيع؛ فإنّ كلمة "الزكاة" بمعانيها المختلفة وردت في القرآن المكي قبل أن يتّصل الرسول ﷺ بيهود المدينة، وبالتالي: فلا وجه أصلا لِدعوى المستشرق "شاخت -Schacht" بأنّ النبي ﷺ أخذ عن يهود المدينة التوسع في معاني الكلمة، ما دامت تلك المعاني واردة في القرآن المكي.

[2]– زمن فرض الزكاة: ذكر المستشرق "شاخت-Schacht" أنّ "**علماء الإسلام قالوا بأنّ الزكاة لم تفرض إلا بالمدينة**"، لكن هذا التعميم غير دقيق ولا محرّر علميا، فالأمر محلّ اختلاف.

– **القول الأول**: ذهب جملة من علماء الإسلام إلى أنّ: الزكاة فرضت في مكة، بينما كان تقدير أنصبتها وما يُخرج منها بالمدينة في السنة الثانية للهجرة.

وذلك استناداً إلى آيات مكية تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 141]، وقوله تعالى في سورة المزمل [الآية: 20]: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

---

[1]– ينظر تفسير الزكاة بهذا المعنى في: تفسير البغوي، 312/4. وتفسير ابن كثير، 462/7. وفتح القدير، الشوكاني، 136/5.
كما ورد هذا المعنى في الآيات المدنية؛ أي: يمدحون. ينظر: تفسير الرازي، 100/10. وتفسير ابن كثير، 332/2.

[2]– ينظر تفسير الزكاة بهذا المعنى في: تفسير البغوي، 210/3 و210/3. وتفسير الرازي، 491/21.
وهذا المعنى ورد في الآيات المدنية: كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 21]؛ أي: يصلح. ينظر: تفسير البغوي، 644/1. وتفسير ابن كثير، 227/3. ولسان العرب، ابن منظور، 358/14.

[3]– ينظر: تفسير الرازي، 486/3. وتفسير ابن كثير، 259/8.

[4]– التحرير والتنوير، 121/8.

قال ابن عاشور: «وقد فُرِضت الزّكاة في ابْتِداء الإسلام مع فَرْض الصّلاة، أو بعده بِقليلٍ... وقوْلُ بعض الْمفسِّرين: الزّكاةُ فُرِضت بالْمدينة، يُحْمل على ضَبْط مَقاديرها، وإنّما ضُبِطت الزّكاةُ بِبَيان الأنْواع الْمُزكّاة ومِقْدار النُّصب والْمُخرج منه، بالْمدينة، فلا يُنافي ذلك أنّ أصل وجوبِها في مكّة»[1].

ذهب إلى هذا القول: ابن عباس ﷺ وسعيد بن المسيب وابن خزيمة وغيرهم[2]، وهو ما رجّحه الرازي وابن كثير ومحمد الطاهر بن عاشور وأكرم العمري وغيرهم[3].

قول آخر: وقيل: أنّه حق في المال سوى الزكاة، وقيل: كان على سبيل الاستحباب[4].

كما أشار المستشرق "شاخت -Schacht" إلى أنّه لم تكن هناك حاجة إلى الزكاة في مكة؛ بيد أنّ وقائع السيرة التي تحكي ظروف المعيشة في مكة آنذاك تشهد على الحاجة إلى الزكاة في مكة، وهو ما بيّنه الإمام ابن عاشور بقوله: «... لأَنَّ افْتِراضها ضروريٌّ لإقامة أوَد الفُقَراء منَ الْمسلمين وهم كثيرون في صدر الإسلام، لأنّ الَّذين أسْلَموا قد نَبَذهم أهلوهُم ومَواليهم، وجَحدوا حقوقَهم، واسْتَباحوا أموالَهم، فكان منَ الضّروريّ أن يَسُدّ أهلُ الْجِدَة والقوّة منَ الْمُسلِمين خلّتهم»[5].

– **القول الثاني:** وذهب أكثر علماء الإسلام إلى أنّ فرض الزكاة إنّما كان بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة[6]؛ فهذا القول –وإن كان قول الأكثر– فليس قول الكلّ كما أوهم "شاخت -Schacht"، كما أنّه لا ينافي أن يكون فرض الزكاة بمعناها العام كان في مكة، لورود الآيات المكية بذلك، ثم وقع في المدينة تحديد مقادير الزكاة.

– **وجه الاستدراك على المستشرق "شاخت -Schacht"**: ثُم إنّ ما دعاني إلى استعراض قول من رجّح تشريع أصل الزكاة بمكّة، أمرين:

الأول: عدم إشارة "شاخت" إلى هذا القول مع قوّته وتعميمه القول الآخر على كافة علماء الإسلام.

والثاني: كأنّ المستشرق "شاخت" أراد الاكتفاءَ بعرض القول بفرضية الزكاة في المدينة فقط، لكون هذا القول – في ظنّه– يدعّم فرضيته الخاطئة السابقة في أنّ النبي ﷺ أخذ جملة من معاني الزكاة عن اليهود، لكنّ القول الثاني بكون أصل تشريعها في مكة يقطع الطريق تَماما على فرضيّته المزعومة.

---

[1]– المصدر السابق، 121/8. وينظر في هذا المعنى: تفسير ابن كثير، 359/2.

[2]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 84/2. وفتح الباري، ابن حجر، 336/3. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 122/8.

[3]– ينظر: تفسير الرازي، 164/13. وتفسير ابن كثير، 462/5. والتحرير والتنوير، 121/8 و137/21. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 626/2.

[4]– ينظر: زاد المسير، 84/2-85. وتفسير الرازي، 164/13. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 111/2.

[5]– التحرير والتنوير، 121/8.

[6]– ينظر: فتح الباري، 336/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 111/2.

والحاصل: أنّ الآيات المكية وردت فيها كلمة "الزكاة" بمعانٍ مختلفة، منها زكاة المال؛ سواء كان ذلك على سبيل الإيجاب أم الاستحباب، وذلك قبل أيّ اتصال للنبي ﷺ باليهود.

[3]- **زكاة الفطر وتقديرها**: تَحدّث المستشرق "شاخت-Schacht" عن زكاة الفطر وفرضها في السنة الثانية للهجرة، وهو كما قال[1]، لكنّه ذكر أنّ تقديرها ليس قطعيّا، وهو أمر يردّه عليه مستشرق آخر في مادة أخرى من "دائرة المعارف الإسلامية"، حيث ذكر "بول-Buhl"في مادة "صاع": أنّ تقدير زكاة الفطر وقع من النبي ﷺ بالصاع[2]، من أجل ذلك نسبت إليه هذه المقادير فقيل: صـــاع النبي ﷺ ومد النبي ﷺ[3]، فأكتفي بردّ المستشرق "بول" -وإن كان من غير قصد- على زميله المستشرق "شاخت -Schacht".

ولعلّ هذا الأخير يشير بذلك إلى اختلاف الفقهاء في تحديد الصاع، وهذا الاختلاف ناشئ عن تفسير الفقهاء للنصوص الشرعية من جهة، وعن اطلاع بعضهم على ما لم يطلع عليه الآخر من جهة أخرى، ولا يعني ذلك أنّ النبي ﷺ لم يقدّر زكاة الفطر بل ثبت -كما سبق - تقديره لها بالصاع، ثم اختلفوا في تقدير الصاع لا في تقدير زكاة الفطر نفسها، وإن كان علماء المدينة نقلوا تقديـــره عن النبي ﷺ بطريق التواتر والاستفاضة[4]، ومن علم حجة على من لم يعلم.

ثانيا- جباية الزكاة:

- جاء في مادة "**[بنو] مراد**"[فقرة: 1]: «واستعمله [أي: "فروة بن مسيك"] **الرسول ﷺ على الصدقة لكن إلى أيّ حد يصدق القول بأنّه عهد إليه بجمع زكاة كل قبائل اليمن.. ذلك ما لا نستطيع التأكّد منه**»[5]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا**-Levi della vida[6].

أشار محرّر مادة "[بنو] مراد" إلى بعث الرسول ﷺ السُّعاة لجباية الزكاة، الأمر الذي يدلّ على مدى نجاح دعوة النبي ﷺ، وتوسع سلطان الإسلام.

---

[1]- ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 352/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 54/5 و312. وفتح الباري، ابن حجر، 327/7.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر، 463/3. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، 81/7-84. وعون المعبود (مع سنن أبي داود)، العظيم آبادي، 5 /5.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 438/4 و728/11. وسنن أبي داود (عون المعبود)، 116/1. وتفسير الطبري، 59/11.

[4]- ينظر: فتح الباري، 728/11. وعون المعبود، 114/1.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9231/29.

[6]- سبقت ترجمته في: ص95.

كان ذلك في: مستهل المحرم من السنة التاسعة من الهجرة (9 هـ)؛ حيث بعث رسول الله ﷺ المصدِّقين[1] إلى القبائل العربية التي دخلت في الإسلام[2]، وقد أمَر رسولُ الله ﷺ الْمُصدّقينَ أن يأخُذوا العفو مِنهم، وأن يَتوقّوْا كرائِم أمْوالِهم ولا يظلموا[3]، ومنهم:

1- بريدة بن الحصيب إلى: أسلم وغفار. 2- وعيينة بن حصن إلى بني تميم.

3- عباد بن بشر الأشهلي إلى سليم ومزينة. 4- ورافع بن مكيث إلى جهينة، وغيرهم[4].

– **الاستدراك على "دلافيدا-della vida"**: أمّا "فروة بن مسيك المرادي"[5] ﷺ فقَدِم على الرسول ﷺ على رأس قبيلة "بني مراد" في السنة التاسعة أو العاشرة للهجرة (9 هـ)، وَاسْتَعمله النّبِيُّ ﷺ على مُراد وزُبَيد ومذحج كلِّها، وبَعَث معه "خالد بن سعيد بن العاص" على الزكاة، فكان معه حتّى وفاة الرسول ﷺ؛ هذا ما ذكره ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما[6]، فالذي استعمله النبي ﷺ على الزكاة ليس "فروة" كما ذكر "دلافيدا-della vida"، بل هو "خالد بن سعيد"، أمّا "فروة" فأمّره الرسول ﷺ على قومه في تلك الناحية، فلم يكن المستشرق دقيقا في تحديد مَن يباشر هذا العمل على الصدقات.

الفرع الخامس : إصلاحات اجتماعية على مستوى التصورات والتصرفات

أولا- تحريم الخمر:

– جاء في مادة "**الخمر**": «**وكان الخمر والميسر مجلبتين لغضب النبي، ولم يتحرج الحديث عن وصف حمزة بن عبد المطلب، وهو عمّ النبي بأنّه جزر في ثورة شراب إبلا لعليّ**[7] (**البخاري: كتاب الشرب**، باب 13، **كتاب الخمس**، باب1، **مسلم كتاب الأشربة، حديث** 1-2، باب 19).

ولم يكن تحريم الخمر في برنامج النبي منذ البداية[8]**، بل نحن نجد في الآية 67 من سورة النحل، مدحا في الخمر بوصفها آية من آيات الله للناس، وهذا نصها:** ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا

---

[1]– **المصَدّقون**: هم السّعاةُ العاملونَ على جمع الزكاة وتفريقها. ينظر: شرح النووي على مسلم، 101/7.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 460/3. وصحيح مسلم (النووي)، 304/12. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 600/2. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 121/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 252/2.

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، 121/2. وزاد المعاد، ابن القيم، 445/3.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 974/3. والطبقات الكبرى، 121/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 37/2.

[5]– ترجمته في: الطبقات الكبرى، 57/6-58. الاستيعاب، ابن عبد البر، 1261/3. أسد الغابة، ابن الأثير، 343/4.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 581/2-582. والطبقات الكبرى، 247/1. وإمتاع الأسماع، 98/2.

[7]– **تعقيب مهدي علام على المادة** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**نص الحديث: عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «أصبتُ شارفاً من مغنم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفا أخرى، فأنَخْتهما يوماً عند باب رجل من الأنصار أريد أن أحمل عليهما إذخرا لأبيعه، ومعي رجل صائغ من بني قينقاع، فأستعين به على وليمة فاطمة، وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت، معه قينة تُغَنِّيه، فقالت: ألا يا حمزة للشُّرُف النَّواءُ: فثار إليهما حمزةُ بالسيف، فجَبَّ أسنمتهما، وبَقَر خواصرهما، ثم أخذ من أكبادهما»**». (صحيح مسلم).

[8]– **تعقيب مهدي علام على الفقرة**: «**الذي ينبغي أن نلاحظه أنّ الإرادة الإلهية اقتضت أن تتدرج في تربية الجماعة الإسلامية حتى تصل إلى تحريم الخمر تحريما باتا قاطعا، وفي سياق الآيات الكريمة من حيث النّزول ما يقطع بهذا التدرج**».

وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾، **بيد أنّه قيل إنّ عواقب السكر قد ظهرت على الصورة التي بـــيّنا، فدفع ذلك النبي إلى أن يغيّر من اتجاهه... ولا يبعد أن يكون استنكار الخمر على هذا النحو قد فعل فعله هو والحوافز التي ذكرناها آنفا، فحمل ذلك النبي على تحريم الخمر»**[1]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[2].

إلى جانب الاعتياد على الأوامر الجديدة وحمل النفس عليها كان لا بد للمسلم أن يتخلص من كثير من العادات المتأصلة كشرب الخمر والأنكحة الجاهلية التي أبطلها الإسلام والربا وغيرها؛ وقد تخلص المسلمون من هذه العادات وغيرها استجابة لأمر الله تعالى[3].

أمّا تاريخ تحريم الخمر فكان في: السنة **الرابعة** من الهجرة[4].

طرح المستشرق "فنسنك -Wensinck" في هذا النص من مادة "الخمر" عدة إشكالات أناقشها في النقاط الآتية:

[1]– قصّة حمزة مع علي ﷺ: ذكر المستشرق قصّة نَحْرِ حمزة ﷺ ناقتين لعليّ ﷺ وهو في حالة سُكرٍ، وهي رواية ثابتة في صحيحي "البخاري ومسلم"[5]، وذكر الأستاذ "مهدي علام" في تعقيبه على المادة المذكور في الهامش نص الحديث فأكتفي به.

لكن ليس في هذه الرواية ما يدعو للتحرج الذي ذكره المستشرق "فنسنك"؛ لأنّ هذه الحادثة وقعت قبل تحريم الخمر كما هو مُبيَّن في رواية البخاري، بل إنّ حمزة ﷺ استشهد قبل تحريمها أصلا، فهي لم تُحرّم إلاّ بعد غزوة أحد –كما سبق– التي مات فيها حمزة ﷺ.

قال النووي: «وهذا الفِعل الّذي جَرى مِنْ حمزة ﷺ من شُرْبه الْخمرَ وقَطْع أسْنِمة النّاقتَيْن وبَقْرِ خواصرهما وأكل لحمهما وغير ذلك لا إثْم عليه في شيءٍ منه... لأنّهُ قبل تَحْرِيم الْخمر... فجَرَت منه في حال عدم التكليف فلا إثم عليه فيها، كمَنْ شرب دواءً لِحاجةٍ فزَال به عقْلُه»[6].

وفي الرواية أيضا دلالة على أضرار الخمر وآثارها السيئة على أفعال الناس وتصرفاتهم.

[2]– الحكمة من التدريج في تحريمها: أساء المستشرق "فنسنك-Wensinck" تفسير تدرّج الشارع في تحريم الخمر، عندما قال: "**ولم يكن تحريم الخمر في برنامج النبي منذ البداية**"؛ فنسب تَحريم الخمر للنبي ﷺ وهو إخلال بالأمانة العلمية في نسبة القول إلى غير قائله، لأنّ الله تعالى هو من حرّم الخمر في القرآن

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 450/8-452.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 233/1.

[4]– ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 352/2. إمتاع الأسماع، المقريزي، 201/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 402/2.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب المساقاة، باب الحطب والكلأ، 59/5. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، 207/13.

[6]– شرح النووي على مسلم، 209/13.

الكريم؛ في حين نجد الروايات تدلّ بوضوح على أنّ النبي ﷺ كان يتوقّع ويترقّب تحريمها، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَخطُب بالمدينة، قال: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، **إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّ اللهَ سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا**...))، قال: فما لبِثْنا إلاّ يَسيرًا حتّى قال النّبيُّ ﷺ: ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ**))[1]؛ ولو كان هو المحرِّم ما احتاج إلى توقُّع ما سينْزِل في أمرها.

والعبارة المناسبة لِطريقة الشريعة الإسلامية في "تحريم الخمر" أن يُقال: أنّ الله عز وجلّ **حرمها بالتدريج**[2]، لِحكم عظيمة ومقاصد جليلة، منها:

أ)- أنّ النفوس البشرية يشق عليها ترك ما تعوّدته وألفته دفعة واحدة؛ فقد عَلِم الله تعالى أنّ القومَ أَلِفوا شُرْب الخمر، فعلِم أنّه لوْ منعَهُم دفعة واحدةً لَشَقّ ذلك عليهم، فلا جَرَم أنْ جاء الإسلام في تَحريمها بِطريقة التّدريج، وفي ذلك تمام الرِّفْق واللطف بالناس[3].

ب)- كما كان التّدريج في تَحريم الْخمر؛ لِئلاّ ينفِر العرب منَ الإسلام، ويرَوْن فيه حرَجًا عليهم[4]، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إنّما نزل **أول ما نزل منه** سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام؛ **ولو نزل أول** شيء "**لا تشربوا الخمر**"، **لقالوا: "لا ندع الخمر أبدا"**»[5].

فلمّا وقع التحريم بهذه الطريقة الرفيقة كانت الاستجابة بالغة من المسلمين؛ الذين تعمّق الإيمان في قلوبهم، وتربّوا في السنين الخوالي على الإذعان لأوامر الله ورسوله مهما كانت مخالفة لأهواء نفوسهم.

---

[1]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، 3/11.

[2]- تحريم الخمر وقع بالتدريج على **أربع مراحل**: (1)- نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: 67]؛ وفي الآية إشارة إلى أنّ الخمر ليس أمرا حسنا.

(2)- ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]؛ وفيها بيان أنها إثم ضار، وأنّ إثمها أكبر من نفعها.

(3)- ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: 43]؛ فحرمت في الصلاة.

(4)- ثم أخيراً نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]؛ فكان التحريم القاطع والنهائي.

ينظر: تفسير البغوي، 1/276-277. وتفسير الرازي، 6/395-396. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/901-903.

[3]- ينظر: تفسير الرازي، 6/396. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 2/339. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/353.

[4]- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 6/127.

[5]- عند البخاري، سبق تخريجه في: ص606.

لقد كان شرب الخمر الذي أقلعوا عنه عادة متأصلة في حياة الفرد والمجتمع آنذاك، لكنّ المسلمين تخلصوا من هذه العادة وغيرها استجابة لأمر الله تعالى؛ فلما نزل تَحريم الخمر خرجت الأنصار بِدِنان الخمر إلى الأزقة وأراقوها، وقالوا: «انتهينا ربنا.. انتهينا ربنا»[1].

[3]- وهم المستشرق "فنسنك" في تفسير آية سورة النحل: ثم إنّ المستشرق وقع في وهم فادح عندما اعتبر أنّ الآية (67) من سورة النحل فيها مدح للخمر، والحقيقة قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67]، والمعنى: تتخذون منه مسكرا، وفي مقابل المسكر رزق حسن، فمَيَّز بينها وبين الرِّزْق الحسَن في الذِّكر، ولا يمكن أن يكون مقابل الرزق الحسن حسنا مثله؛ فهذه **الآية تشير إلى أن الخمر ليست أمرا حسنا** كما أفاد الرازي وأبو زهرة[2]؛ فالآية وإنْ كانت لا تحرّم الخمر فهي لا تَمدحها كما توهّم "فنسنك".

ثانيا- تصحيح أوهام الناس حول بعض الخرافات الشعبية:

- جاء في مادة "**الغول**": «ولكن النبي ﷺ أشار إلى **الاعتقادات الشعبية في موضوع الغيلان، وطبقا للحديث فقد أنكر وجودهم**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** - D.Madonald[4].

انتشرت في الجاهلية قصص وأخبار كثيرة عن الغيلان، أكثرها خرافات شعبية واعتقادات باطلة[5]، فأبطل النبي ﷺ تلك الاعتقادات الفاسدة والخرافات لِما فيها تعظيمٍ للمخلوق، وضعف التوكّل على الخالق عز وجلّ، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ[6]، **وَلا غُولَ**))[7].

و"**الغيلان**" جمع "غول": **والغول**: هي من جنس الْجِنّ والشياطين، كانت العَرب تَزْعُم أنَّ الغُول في الفَلاة تَتَراءى للناس باللّيل في صُوَر مرعِبَة، **وتتغول** تَغَوّلاً، أي: تَتلوَّنُ تلوُّنًا، فتُضِلّهم عنِ الطّريق وتُهلكهم[8].

لكنّ قوله ﷺ: "**لا غول**"؛ **لا يعني نفي وجود** "الغول" -كما قال "ماكدونالد-Madonald"- على ما حرّره جماعة من العلماء المحقّقين كالخطابي والسهيلي والنووي وغيرهم: وإنما يدلّ الحديث على:

---

[1]- ينظر: تفسير الطبري، 661/8-662. وتفسير البغوي، 277/1. وفتح الباري (وصحيح البخاري)، 47/10-48. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 233/1-234.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 235/20. وخاتم النبيين، 902/2.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7654/24.

[4]- سبقت ترجمته في: ص228.

[5]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 374/7. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 728/6.

[6]- "**لا عدوى**": المراد بذلك نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده؛ أنّ المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله عز وجل، فأرشد إلى أنّ ذلك حاصل بإرادة الله وقدره وأنّه لا تأثير له بنفسه. ينظر: شرح النووي على مسلم، 307/14. أما "لا طيرة" فسيأتي بيانها قريبا.

[7]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة، 311/14. **وأحمد**، المسند، 18/22-19.

[8]- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 396/3. وشرح النووي على مسلم، 310/14.

إبطال ما كانت العرب في الجاهلية تَتقوَّله من أخبار وخرافات حولَها؛ فيكون المعنى بقوله: "لا غول": أنّها لا تستطيع أن تضلّ أحدا أو تضره إلاّ بإذن الله تعالى، لذا أرشد الشارع إلى دفع شرّها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يُرِد بهذا النفي عدم وجودها[1].

ثالثا- تصحيح تصوّرات الناس حول الفأل والطيرة :

– جاء في مادة "**الفأل**"[فقرة: 2]: «**فالسيرة حافلة بما يدل على أن النبي ﷺ كان يستبشر أو ينفر من بعض أسماء القبائل والمناطق التي يَجتازها في غزواته [ومع هذا فقد قال: "ليس منا من ردته الطيرة"]، وأكثر من ذلك فقد أدخل تغييرات كثيرة على الأسماء بهدف مَحو أي أثر للوثنية العربية من المصطلحات الإسلامية وأيضا استبعاد أية أسماء غير مناسبة والتي تصدم آذان أتباعه، والتي لابد أن يسمعها تتردد من حوله، وبذلك يزيل أيّة تأثيرات كريهة مشؤومة يمكن أن تثيرها معاني هذه الأسماء، ولهذا السبب أَقْدم على تغيير القليل إلى الكثير، "والعاصي" إلى "المطيع"... وغير اسم "زيد الخيل" إلى "زيد الخير" وأطلق اسم سليمان على "سليمان بن صرد[2]" الذي كان يدعى يسار، وغير اسم حزم إلى سهل وهكذا...**

كذلك كان المظهر – بجانب الأسماء – مما يستبشر أو ينفر منه فقد كتب النبي ﷺ إلى عمّاله يطلب إليهم إذا هم أرسلوا إليه رسولا أن يكون جميل الاسم سمح الوجه...

ويبدو أنه من هذا المنطلق كان عداء النبي ﷺ للطّيرة، حتّى وهو يُمارس الفأل ويوصي به... ويؤثر عن النبي ﷺ أنه قال ما معناه: إن هناك ثلاثة أخطار يمكن للمرء أن يهرب منها وهي الطيرة والشك والغيرة.

قال رسول الله ﷺ: "لا شؤم وقد يكون اليُمن في الدار والمرأة والفرس" [ابن ماجه، نكاح، 55][3]، وقال أيضا: "سوء الخلق شؤم" [أبو داود، أدب، 124. أحمد بن حنبل][4]، وقال أيضا: "ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس" [مسلم، باب الصلاة][5]»[6]. محرر المادة هو: **توفيق فهد**-T.Fahd[7].

أقدّم بعض التنبيهات والإضافات على ما ذكره " توفيق فهد" في هذا النصّ من خلال النقاط الآتية:

---

[1]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 374/7. وشرح النووي على مسلم، 311/14. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 362/3.

[2]– في المطبوع "**بن طرد**" وهو خطأ كما في ترجمته: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 219/4. وأسد الغابة، ابن الأثير، 548/2.

[3]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب الأدب، باب ما جاء في الشؤم، 92/8. **وابن ماجه**، السنن (السندي)، كتاب النكاح، باب ما يكون في اليمن والشؤم، 615/1. من حديث حكيم بن معاوية ﷺ، والحديث ضعفه ابن حجر في "فتح الباري، 76/6".

[4]– أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، 48/14. **وأحمد**، المسند، 487/25. من حديث رافع بن مَكِيث ﷺ، وإسناده ضعيف، لإبهام راويه عن رافع بن مَكِيث.

[5]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام، 184/4.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7663/24–7666.

[7]– سبقت ترجمته في: ص507.

[1]– حديث: «ليس منا من ردته الطيرة» الذي ذكره "فهد -Fahd"؛ لم أقف على حديث بهذا اللفظ في كتب السنة المشهورة، وإنّما ورد حديثان نحوه:

الأول: حديث عمران بن حصين ﷺ: عن النبي ﷺ قال: ((**لَيْسَ مِنَّا** مَنْ تَطَيَّرَ))[1].

والثاني: حديث ابن عمرو ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ **رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ** مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ))، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ما كفّارةُ ذلك؟ قال: ((أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إِلاّ طَيْرُكَ، وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ))[2].

[2]– **استحبابه ﷺ للاسم الحسن**: كان الرسول ﷺ يحبّ الاسمَ الحسَن ويغير الاسم القبيح؛ قال الإمام عروة بن الزبير: «كان النبيّ ﷺ إذا سمع الاسم القبيح حَوّله إلى ما هو أحسن مِنه»[3].

والروايات الدالة على ذلك كثيرة[4] من بينها الأمثلة التي ذكرها الأستاذ "فهد"، حيث غيّر النبي ﷺ أسماء كثير من الصحابة ومنهم:

– "**زيد الخير**": بن مهلهل الطائي؛ وفد على النَّبِيّ ﷺ في وفد طيء سنة تسع (9 هـ) وكان اسمه "**زيد الخيل**" فسماه النبيّ ﷺ "**زيد الخير**"[5].

– "**مطيع**": بن الأسود القرشي العدوي؛ كان اسمه "**العاصي**" فسمّاه رسول الله ﷺ "**مطيعا**"[6].

– "**سليمان**": بن صرد الخزاعيّ؛ كان اسمه "**يسار**" فلَمّا أسلم سَمّاه الرسول ﷺ "**سليمان**"[7].

– "**حزن**": بن أبي وهب المخزومي القرشي: اقترح عليه النبيّ ﷺ اسم "**سهل**" لكنّه امتنع من تحويل اسمه إلى "سهل"[8] فلم يلزمه رسول الله ﷺ بذلك؛ إذ كانت تغييره ﷺ لِتلك الأسماء على سبيل الاختيار وليس الإلزام كما بيّن الطبري وابن بطال وابن حجر[9].

كما كان كتب النبي ﷺ إلى أُمَرائِه: إذَا بعثوا إليه رسولا أن يكون حسَنَ الوجه حسَنَ الاسم[10]، كما ذكر "فهد - Fahd".

---

[1]– أخرجه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 162/18. والحديث فيه ضعف يسير كما في "مجمع الزوائد، 103/5-104".

[2]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 623/11. **والطبراني**، المعجم الكبير، 22/13. وحسنه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[3]– ينظر: فتح الباري، 706/10.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 707/10-708. وأورد المقريزي جملة منها في "إمتاع الأسماع، 272/2-278" والصالحي الشامي في "سبل الهدى، 358/9-361".

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 577/2. ومعجم الطبراني الكبير، 202/10. وأسد الغابة، ابن الأثير، 376/2.

[6]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 187/12. وأسد الغابة، 184/5.

[7]– ينظر: مستدرك الحاكم، 609/3. وطبقات ابن سعد،219/4.

[8]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 706/10. وأسد الغابة، 5/2.

[9]– ينظر: فتح الباري، 705/10 و707.

[10]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 70/5. وفتح الباري، ابن حجر، 265/10.

[3]- ترغيبه ﷺ في الفأل الحسن وإبطاله للطيرة:

- **الفأل**: هو أن يسمع الإنسانُ اسْمًا حسنًا أَوْ كلمةَ خَيْرٍ، فيتيمّن به ويَنْشرِح لَها صدرُه ويَنشط فيما أخَذ فيه[1]، كما في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: ((**لاَ طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الفَأْلُ**))، قَالوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: ((**الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ** يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ))[2].

- و**الفأل الحسن** ضدّ **الطِّيَرة** الّتي نفَتْها وأبْطلَتْها الأحاديثُ الصّحيحةُ، وقد ذكر "فهد" جملة من الروايات عن النبي ﷺ في ذلك، سبق تخريجها في مواضعها من نصّ المادة، ويُضاف إليها هذا الحديث.

-و**الطيرة**: هي التشاؤم، و**أصل التّطيُّر**: أنّهم كانوا في الْجاهليّة يعْتَمِدون على الطّير؛ فإذا خَرَج أحدُهم لأمرٍ فإنْ رأى الطَّيْر طارَ يَمْنةً تيَمَّن به واسْتَمرّ، وإنْ رآهُ طارَ يسرةً تَشاءَم به ورَجَع؛ كما كانوا يتَطَيَّرون بِصوتِ الغراب، وبِمرور الظِّباء، فسمَّوا الكلّ تطيُّرًا، فجاء الشّرعُ بالنّهي عن ذلك كلّه[3].

أمّا قول "فهد-Fahd": "**كان عداء النبي ﷺ للطّيرة، حتّى وهو يُمارس الفأل**" فهو محمول على حرص الرسول ﷺ على معالجة ظاهرة الطّيرة في المجتمع العربي آنذاك، ذلك: أنّ الفأل عندهم كان من جملة الطيرة، حيث كانوا يتفاءلون بِما يتطيّرون به، لذا جاء الإسلام بالتفريق بين الفأل والطيرة، فأقرّ رسول الله ﷺ الفأل الحسن بالكلمة الطيبة، ونَهى عن التطيّر، لِما فيه من سوء الظن بالله تعالى، والتكلّف بتعاطي ما لا أصل له؛ إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدلّ بفعله على القبيح والحسَن[4].

فقولُه ﷺ: ((**لا طِيَرَةَ**)) في حديث الصحيحين السابق يُبْطِلُ حَسَن الطِّيرة ورديئَها، لأنّه خرافةٌ مَبْنيّةٌ على الاسْتِدلال على الْحُسن والْقُبح بِما لا يدُلّ عليه عقلاً وَلا شرعًا؛ فالطّيَرة كلّها لا خير فيها[5].

- و**الفرق بين الفأل والطيرة**: أن **الفأل**: من طريق حُسن الظنّ بالله، والْمؤْمِن مَأمورٌ بِحُسن الظّنّ بالله تعالى على كلِّ حالٍ، و**الطّيرة**: سُوءُ ظنٍّ بالله عز وجلّ بِغير سببٍ مُحَقّقٍ، فأبطل رسول الله ﷺ أن يكون لشيء منها تأثير في اجتلاب ضرر أو نفع[6].

وأَمَـــر: أن يفرح المسلم بالفأل، ويمضي على أمره مسرورا به، وإذا سمع المكروه أعرض عنه و لم يرجع لأجله، فإنْ سَأل اللهَ الخيرَ وَمَضَى مُتَوكِّلاً عليه لَم يَضُرّه شيءٌ مِن ذلك[7].

---

[1]- ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 262/4. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 125/6.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الطب، باب الفأل، 263/10. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، 313/14.

[3]- ينظر: فتح الباري، 262/10 و265.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 262/10.

[5]- ينظر: المصدر نفسه، 264/10.

[6]- ينظر: المصدر نفسه، 264/10-265. وسبل الهدى، 357/9.

[7]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 265/10. والتفسير المنير، الزحيلي، 13/26.

الفرع السادس : تنظيم المعاملات المالية وتهذيبها

– جاء في مادة "**التجارة**": «أمّا أن محمداً، وهو من طائفة التجار، كان يؤثر التجارة فأمر طبيعي في جمهورية تجارية كالمدينة يقوم رخاؤها كله على التجارة، أو قُل إنّ هذا على الأقل هو ما ينبغي أن نفسر به سورة قريش التي نزلت في الأيام التي سبقت نزاع النبي مع أشراف مكة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: 1–3]، أي: الكعبة، لكن محمداً قد رفع في الوقت نفسه صوته محذراً من الشرور التي بدأت تقترن بالتجارة، فقال: إنّ التجارة ينبغي أن تكون على مقتضى الشرع والعدل، وقد جاء في سورة المطفّفين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1–3]، (انظر سور الرحمن الآيات 7 إلى 9، ومن العهد المكي الثالث سورة الأنعام، الآية 152، سورة الأعراف، الآية 84).

وقد تغيرت نظرة النبي بعد ذلك تغييراً معينا يجب أن نردّه إلى العهد المكي، ولو أنّه ليس في القرآن شواهد على ذلك إلا في سور العهد المدني، إذ تحولت نظرته إلى التجارة بفعل آراء الزهاد من النصارى، وهو لم يحرمها، وإنّما رأى فيها ما قد يعوق المؤمنين عن عبادة الله، ويصرفهم عن الصلاة، ويظهر هذا بأجلى بيان في سورة النور المدنية، الآية 37 ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ومهما يكن من شيء فإنّ المحصّل من هذه الآية أنّ النبي كان يدرك إدراكا تامّا ما للتجارة من آثار سيئة في الحياة الدينية... ثم يقال إنّ النبي قد ذمّ من يغشّ البضاعة وبخاصة الطعام»[1].

المحرر هو: **هفننج**– W. Heffning[2].

حاول المستشرق "هفننج-Heffning" إثبات تَغيُّر نظرة النبي ﷺ للتجارة بين العهدين المكي والمدني، معتمدا في ذلك على النظرية التطورية المادية، وهو منهج شائع بين المستشرقين يعتمدونه لتقرير فرضيّات تخدم أهداف المدرسة الاستشراقية للتشكيك في نبوة محمد ﷺ، لكنّه لم يستطع أن يقدّم أدلة واضحة تثبت زعمه بتغيّر نظرة النبي ﷺ للتجارة في المدينة، فغلب على طرحه التشويش، وراح يخبط خبط عشواء في عرضه للموضوع، فهو من ناحية: يحاول أنّ يؤكّد وقوع تحوّل في نظرته ﷺ للتجارة بفعل زهاد النصارى، ومن ناحية أخرى ينفي هذا التحول: عندما يقرّر "أنّ النبي ﷺ لم يحرّم التجارة، وإنّما حذر من الاشتغال بها عن الطاعة والصلاة"؛ وهذه المعطيات لا تدلّ على أيّ تحوّل أو تغيّر في التشريع ما دامت التجارة باقية على إباحتها، لكن "هفننج - Heffning" ذهل عن كون تلك التنبيهات الشرعية دعت إليها الحاجة والأحوال في المدينة، فنبّه القرآن الكريم عليها وكرّر

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 4/581–584.

[2]– **هفننج** "W.Heffning": مستشرق ألماني، لم أقف على ترجمة له في كتب تراجم الأعلام والمستشرقين المعاصرين، لكن ورد ضمن أسماء المحرّرين في النسخة الأجنبية "للدائرة" أنه: أستاذ بجامعة "بون" الألمانية. ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 4/VI".

النبي ﷺ تلك التنبيهات مرات عديدة، وإنّما يدخل ذلك في سياق الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي الشامل الذي جاءت به التشريعات الإسلامية لإصلاح المعاملات والتصرفات التي كانت شائعة في المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام.

ولا يستقيم زعم المستشرق بحصول تغيّر في نظرة النبي ﷺ للتجارة لِما يلي:

[1]– أنّ النبي ﷺ نبّه أنّ "اللهَ لَمْ يَبْعَثْه بِالرَّهْبَانِيَّةِ" منذ العهد المكي –كما سبق بيانه–[1]، فلا وجه للقول بأنّه نزع إلى رهبانية النصارى في المدينة، ولأنّ القرآن المدني أيضا بيّن ابتداع النصارى للرهبانية التي لم يفرضها الله عز وجلّ عليهم، فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: 27].

[2]– غفل المستشرق عن أنّ النصارى في المدينة كانوا فئة قليلة جداً[2] وكذلك كانوا في مكة أيضا، فلا يستقيم القول أنّه تأثّر بهم حتى قدومه المدينة، ولو كان التأثر حاصلا فلماذا لم يكن في مكة؟ والحقيقة أنّ النبي ﷺ لم يتأثّر مطلقا برهبانية النصارى بل ذمُّ النبي ﷺ والقرآن الكريم لَها ثابت في العهد المكي والمدني كما تقدّم في النقطة السابقة.

[3]– هناك فرق كبير بين كون الشيء محرّما، وبين كونه مباحاً وحذّر الشارع من أن يلهي المسلمين عن العبادة، وهو أمر أقرّ به "هفننج-Heffning" نفسه في قوله "**وهو لم يحرمها**".

وقد استمرّ النبي ﷺ في التعامل بالتجارة إلى وفاته[3]، كلّ ما هناك أنّ الشريعة عملت على إصلاح المجتمع الإسلامي في معاملاته المالية المختلفة من وجهين أساسيين:

– **الوجه الأول:** التحذير من الاشتغال بالتجارة وغيرها من أمور المباحة عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة والطاعات المختلفة، كما في الآية التي ذكرها "هفننج-Heffning" من سورة النور، وأيضا في سورة الجمعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9].

مع ملاحظة: أنّه في مكة لم تكن هناك مساجد قائمة لصلاة الجماعة والجمعة، لذا فلم تكن هناك حاجة إلى التنبيه إلى أن تلهي التجارة المسلم عن صلاة الجمعة أو الجماعة.

---

[1]– ينظر: ص401.

[2]– كما سبق في: ص558.

[3]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 154/1. وسبل الهدى، الشامي، 11/9.

– **الوجه الثاني:** تحريم بعض صور البيع التي تشتمل على الغشّ أو الربا أو الغرر ونحو ذلك من المفاسد التي تلحق الضّرر بالفرد والمجتمع، وقد أشار إلى شيء من ذلك المستشرق "هفننج-Heffning" في آخر نصّه المذكور من مادة "التجارة".

ومن الأمثلة على هذا الوجه أيضا ما أشار إليه المستشرق "هفننج - Heffning" من تحريم الإسلام: **للتطفيف في الكيل والميزان**، وقد اختلف المفسرون في "سورة المطفّفين" هل هي مكية أو مدنية[1]، وحاصل قولهم أنّها: إمّا آخر ما نزل بمكة، أو أوّل ما نزل بالمدينة، والقول بأنّها نزَلت بَيْن مكّةَ والمدينة قول حسن، لأنّ التّطفيف كان فاشيًا في البلدين[2].

[4]– حين قامت الدولة الإسلامية في يثرب بعد الهجرة كانت بعض معاملات البيع الجاهلية سائدة في المدينة، مع ما فيها من مفاسد وأضراراً تلحق بالفرد والجماعة على السواء، فأخذ النبي ﷺ يعمل على تنظيمها، ويعلّم المسلمين أحكام البيوع والمعاملات المالية المختلفة وما يتعلق بها من الأحكام التي تنظم الجماعة الإسلامية وتكوّن منها المدينة الفاضلة، وهو في هذا يبلغ رسالة ربه[3].

وإنّما كان ذلك سبيلا من سبل تربية الأمة في شؤونٍ مختلفةٍ، والتي منها: تربيتها على الصدق في البيع، وعدم الاشتغال به عن الواجبات الشرعية.

– فكان **النبي ﷺ يحضّ على: الصدق والأمانة** والبرّ في البيع[4]، ونحوها من المعاني السامية التي تطرح البركة والصفاء في المعاملات المالية، وتحافظ على روح التسامح والتآخي بين المسلمين.

– وكان ﷺ **يتفقّد الأسواق** ويَعِظ التجار ويحذّرهم من الكذب والغشّ وغيرها من الأمور السيئة التي قد يقع فيها التاجر[5]، وهذا هو ديدن المصلح والنبي الهادي إلى طريق الله في شؤون الدنيا والآخرة.

كل هذه المعاني لم يفهمها المستشرق "هفننج" كما لم يفهمها قوم النبي شعيب عليه السلام عندما قصّ القرآن استنكارهم دعوة نبيّهم لإصلاح معاملاتهم المالية: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ **أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ** أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ **أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ** ﴾ [هود: 87]، فالنبي محمد ﷺ لم يكن بدعا من الرسل في ذلك بل كان يحتذي سيرة الأنبياء قبله في تبليغ أوامر الله التي تحقّق سعادة الناس في الدنيا والآخرة،

---

[1]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 413/4. فتح القدير، الشوكاني، 482/5.

[2]– ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 187/30.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 918/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 302.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 391/4. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 8/9.

[5]– ينظر بعض الروايات التي تدلّ على ذلك في: صحيح مسلم (النووي)، 143/2. ومسند أحمد، 56/26. ومجمع الزوائد، الهيثمي، 72/4-79. سبل الهدى، 8/9-10.

بحيث تنظم شؤونهم المالية والخُلقية والتّعبدية وغيرها من ونواحي الحياة المختلفة، فيكون الدين بذلك منهج حياة متكامل، لا مجرّد طقوس وعبادات لا أثر لها في حياة الفرد كما توهّم المستشرق "هفننج".

المطلب الرابع: المنافقون وخطرهم في مجتمع المدينة

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الأوس**" [فقرة: 2]: «**فإن من الأوس بطنا كانت تسمى "أوس مناة" ثم سُمّيت بعد الإسلام "أوس الله"...**

وظل أتباعه [أي: أتباع "أبي عامر"] المخلصون في المدينة على اتصال به سرا في المسائل الدينية، ولكنهم لم يجرءوا على اللحاق به، كما كان يرجو ذلك بعد هزيمة المسلمين في أحد... ويظهر أنهم رضوا بقبول الإسلام مصطبغا بتعاليم "أبي عامر"، ولكن محمدا أبَى عليهم أن يعتزلوا ويتعبّدوا في مسجد خاص بهم»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – Reckendorf[2].

– وفي مادة "**عبد الله بن أُبَي**" بن سلول" [فقرة: 1]: «**تقول المصادر إنّه لَما قدم النبي محمد ﷺ المدينة كان أهلها على وشك أن يتوجوا عبد الله بن أُبَيّ ملكاً عليهم، فلما أسلم غالبُ المدنيّين إلا شرذمة قليلين أَبَت الإسلام لم يَجد ابن أُبَيّ السلولي بُدّا من أن يعلن هو الآخر إسلامه جريا على ما جرت عليه هذه الكثرة، لكنه لم يكن أبدا بصادق الإيمان ولم يدخل الدين قلبه...**

ولم يكن موقف عبد الله بن أُبَي من محمد إلا معارضة باللسان فقط أولا، لكنه أخذ في العامين التاليين يَحيك المؤامرات ضده، فحاول حمل بني النضير على ألا يستجيبوا لِما أمرهم به محمد ﷺ فلا يرحلوا، بل لقد ذهب مذهبا أبعد من ذلك إذ وعدهم أن ينصرهم بالسيف، كما أنه في غزوة المريسيع استغل نزاعا بين أحد المهاجرين والأنصار لزلزلة الأرض تَحت أقدام المسلمين، ودفع رجالاً منهم ليخرجوا محمداً ﷺ والمهاجرين من المدينة.

ثم تلى ذلك بنشاطه المحموم في نشر شائعة الإفك. وكان خبره كزعيم للمنافقين معروفًا ثم لا نجد له نشاطا ضد النبي ﷺ بعد هذا، ولا نجده ضالعا في التآمر ضده حتى وقعة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. وقد يقال إنه لم يشارك في أحداث مسجد الضرار ويستدل على ذلك بأن النبي ﷺ شيع جنازته، وقد أظهر النبي ﷺ صبرا عظيما نحوه»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** – M.Watt[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 151/3.

[2]– سبقت ترجمته: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7156/23-7158.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 50]: «**غير أنه كان ثَمة عدد من الناس لم يعارضوه صراحة، وإن لم يقبلوا العلاقات الجديدة إلاّ على مضض. وكان من بين هؤلاء فئة أكثر إزعاجا للمسلمين من غيرها، اِلتفّت حول رجل من الخزرج هو عبد الله بن أَبَيّ الذي ما كان يغفل كل فرصة بوسعه انتهازها من أجل إضعاف مركز محمد ﷺ**»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– ظهور المنافقين في المدينة وخطرهم: بعد أن قدم النبي ﷺ إلى المدينة، وتوحّد المسلمون من المهاجرين والأنصار وصاروا قوة مرهوبة في المدينة، وصارت الكلمة النافذة للنبي ﷺ على المسلمين جميعا، وصارت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية، والقيادة السياسية والاجتماعية؛ حقد عليه وعلى دينه بعض العرب مِمّن كانت له الزعامة في المدينة، وتآمروا على الشر وعداوة الإسلام، ولم يكن في استطاعتهم أن يعلنوا عن الحقد والشر الخبيء في قلوبهم، فلم يجدوا بدا من التستر بالإسلام، يظهرونه ويبطنون الكفر والحقد والضغينة على الإسلام والمسلمين، وهم من يُسمّون في الإسلام "بالمنافقين"[3]، وقد عبّر عنهم المستشرق "بول - Buhl" في قوله "**ثَمة عدد من الناس لم يعارضوه صراحة ...**".

هؤلاء المنافقون وهم خليط من عرب المدينة ويهودها[4]، وإن لم يعلنوها حربا سافرة على الإسلام فقد كانوا أشد خطرا على الدعوة من غيرهم، لأن العدوّ المكاشف أهون شأنا من العدو المخالط المتستر تحت ستار من الخداع والتمويه؛ وبِهذا التستّر كان موقف المنافقين شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلي[5]، وهو المعنى الذي أشار إليه المستشرق "بول" في مادة "محمد ﷺ" عندما وصف المنافقين "**بالفئة أكثر إزعاجا للمسلمين**".

ثانيا– عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: عند دخول رسول الله ﷺ المدينة وإلى غاية غزوة بدر لم يكن النفاق قد ظهر بعد وإن كان موجوداً، فلقد كان معسكر الشرك واضحا بزعامة عبد الله بن أبي بن سول نفسه، والذي كانت الجرأة تصل به أحيانا إلى أن يطالب الرسول ﷺ بالكفّ عن الدعوة إلى الله[6] كما في حديث "أسامة بن زيد" رضي الله عنه في الصحيحين[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9128-9129.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/42-43.

[4]– فقد كان المنافقون من قبيلتي الأوس والخزرج ممن لم يؤمنوا ومن اليهود أيضا. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/527-531. والبداية والنهاية، ابن كثير، 5/9-14.

[5]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/16. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 339.

[6]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 2/247-248.

[7]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب التفسير، 8/290. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الجهاد والسير، 12/218.

وهو ما قصده "وات-Watt" بقوله أن موقف "ابن أبَي" في البداية ما كان إلاّ معارضة باللسان، لكنّ هذه المعارضة الصريحة -وإن كانت أخذت شكلا مختلفا بعد عزوة بدر-؛ حيث أظهر "عبد الله بن أبي بن سلول" الإسلام نفاقا والْتفَّ حوله المنافقون وحاكوا بزعامته المؤامرات ضدّ النبي ﷺ ودعوته[1]، فإن معسكر المنافقين إنّما برز بعد الانتصار الحاسم في بدر، فالقوة الإسلامية التي ظهرت في هذه الغزوة، جعلت هؤلاء المنافقين من المشركين واليهود، يتّخذون مظهرهم الإسلامي جُنة يتقون بها قوة أهل الإسلام، ويشيعون الخبال في صفوف المسلمين، ويخدعون الذين في قلوبهم ضعف[2].

تزعَّم المنافقين بعد بدر خاصةً رجل من العرب من سادات الخزرج، كان كـــثير الحقد على رسول الله ﷺ وذلك: أنّ قومه قبل قدوم النبي ﷺ إلى المدينة كانوا نظموا له الخرز[3] ليتوّجوه ويملّكوه عليهم، فلما انصرف قومه عنه، ومنهم أهله وولده حقد وضغن، ورأى أنّ رسول الله ﷺ قد اسْتَلَبَه ملكًا، وهو **عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي**؛ فلمّا رأى قومه قد أَبَوْا إلاّ الإسلام دخَل فيه كارهًا، وكانت عقدة الزعامة والمنصب تأكل قلبه، وانضوى تحت لوائه جماعة ممن أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فكان رأس المنافقين في المدينة يأتمرون بأمره[4].

ثالثا- من مكر "ابن أبَي بن سلول" ودسائسه: عدّد المستشرق "وات -Watt" جملة من مكايد ومؤامرات رأس المنافقين "ابن أبَي بن سلول" وبيّنها، فذكر:

(1)- **تحريضه يهود بني النضير على عدم الخروج ووعده بنصرتهم:** وذلك بعد أن أنذرهم النبي ﷺ بالجلاء، فطلب منهم الخروج من المدينة خلال عشرة أيام وإلا حاق بهم الهلاك، فاستعدوا للخروج لكن "ابن أبي بن سلول" حرضهم على التمرد وعدم الخروج ووعدهم بالنصر، فأعلنوا تمردهم وحاصرهم المسلمون[5].

وهو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: 11][6].

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 8/290-291. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/372.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 8/291. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/780.

[3]- **الخرز:** مفرده "**خرزة**": وهي حَبّة تُنظم في سلك أو خيط لتكون عِقْدًا يُتَزيّن به، أو سُبْحة، وخرزات الملك: جواهر تاجه. ينظر: معجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وفريق عمل، 1/630.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 8/290-291. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/584-585. وسيرة أبي شهبة، 2/43.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/526. وطبقات ابن سعد، 2/44. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/308.

[6]- ينظر: تفسير البغوي، 5/51-52. وزاد المسير، ابن الجوزي، 4/260.

(2)- **محاولة شقّ صفّ المسلمين:** ثم لَمّا انتصر المسلمون في غزوة المريسيع (أو بني المصطلق) سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، ذلك أنّه وقع بين بعض المهاجرين والأنصار خصومة بعد هذه الغزوة، فقال "ابن أبَي بن سلول" يومها: «أوَ قد فعَلُوا، والله لئِن رجَعْنا إلى المدينة لَيُخرجَنّ الأعزُّ مِنْهَا الأذلَّ»؛ يَعْنِي: بالأعزِّ نفْسهُ وَبالأذلِّ رسولَ الله ﷺ، وحرّض الناس على ألاّ ينفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن الرسول ﷺ، وفي قوله هذا نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ وفيها: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8][1].

كان مقصد المنافقين في هذه الحادثة أن يهدموا وحدة المسلمين ويزعزعوا ثقتهم بقيادتهم، ويشعلوا نار الفتنة بينهم، ولكن الله تعالى سلّم، وتمكن الرسول ﷺ من الحفاظ على وحدة المسلمين والخروج من الامتحان الصعب بنجاح[2].

(3)- في **حادثة الإفك**: هذه الجزئية سيأتي تفصيل الكلام عليه في الفرع الموالي.

(4)- كما كان "عبد الله بن أبي" مُحرّضاً على التخلف وعدم الخروج إلى القتال في غزوة تبوك[3].

وبعد هذه المواقف والأحداث اشتهر "عبد الله بن أبي بن سلول" بكونه رأس المنافقين في المدينة، فضعف مركزه في قومه فكانوا يعنفونه ويلومونه كلما أخطأ، بل إن ابنه "عبد الله بن عبد الله بن أبي" استأذن الرسول ﷺفي قتل أبيه، فنهاه وأمره بالرفق به وحسن صحبته[4].

(5)- الذي يظهر أنّ "ابن أبي بن سلول" لم تكن له علاقة مباشرة بحادثة "مسجد الضرار"، وليس دليلُ ذلك حضورُ النبي ﷺ جنازته مثلما توهّم المستشرق "وات -Watt"، كما أنّه لا يصلح أيضا أن يكون ذلك دليلا على عدم مشاركته في المؤامرات التي سبق بيانها ضد النبي ﷺ.

لكن الذي يدلّ على عدم مشاركته أنّه لم يُذكر فيمن كانوا على علاقة بـــ"مسجد الضرار"[5].

أما صلاة النبي ﷺ على "ابن أبي بن سلول" فكانت قبل النهي عن الصلاة على المنافقين، حيث صلى عليه النبي ﷺ مراعاة لِحكمٍ ومصالح بيّنها الخطابي وابن حجر، والتي منها: كمال شفقته على

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]، 830/8-831. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، 208/16. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 290/2-292. وتفسير البغوي، 99/5.

[2]- السيرة النبوية الصحيحة، 312/1.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 519/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 154/7-155.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 292/2-293. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 410/1.

[5]- ينظر أسماء المشاركين في مؤامرة مسجد الضرار في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 530/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 276/2.

من تعلّق بطرف من الدين، وتطييبُ قلب ولده "عبد الله" الرجل الصالح وإكرامه، ولِتَأَلُّف قومه من الخزرج لِرياسَتِه فيهم، فلَوْ لَمْ يُجب سؤال ابْنِه وتَرك الصّلاة عليه قَبْل وُرود النّهي الصّريح لَكان سُبّةً على ابْنِه، وعارًا على قَوْمه، فاستعْمَل أحْسَن الأمرين في السّياسة إلى أنْ نُهي فانْتَهى[1].

رابعا- صبر النبي ﷺ عليه: صدق المستشرق "وات-Watt" إذ يقول بأنّ "**النبي ﷺ أظهر صبرا عظيما نحو ابن أبَي بن سلول**"؛ فمع كلّ مكائده لرسول الله ﷺ التي فضحه الله بِها ومن معه -وسبق ذكر بعضا-، حتّى أنّ النبي ﷺ يأمر ابنه المؤمن "عبد الله" ببِرّه وحسن صحبته، بل إنّ "ابن أبَيّ بن سلول" عندما قال تلك المقولة القبيحة "ليخرجنّ الأعز منها الأذل"، وقال عمر رضي الله عنه: «يا رسولَ الله: دعني أضرِبْ عُنُق هذا المنافق»؛ قال ﷺ: ((دَعْــهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ))[2].

يظهر من هذا الصبر على "ابن أبي بن سلول" وغيره من المنافقين أنّ النبي ﷺ بلغ غاية الرأفة والحلم، فكانت شدة الجهل من المنافقين لا تزيده إلا حلما، كما يشير ذلك: مراعاته ﷺ لِمصلحة الدعوة الإسلامية وسمعتها بين الناس، ذلك أنّ: ممارسة القتل الجماعي أو الفردي تجاه أناس محسوبين من أتباعه -ولو فيما يبدو للناس-، سوف يعطي لأعدائه في الخارج سلاحا دعائيا ممتازا لِمهاجمة الإسلام[3].

بِهذا العقل الحكيم أدار الرسول الكريم ﷺ المدينة الفاضلة التي قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه، ونُفذت فيها النظم الإسلامية[4].

خامسا- من مكر "أبي عامر" المنافق: كان "أبو عامر بن صيفي" زعيم المنافقين من الأوس، وكان قد ترهّب في الجاهلية فسمي "الراهب"، لكن الرسول ﷺ سماه "الفاسق"، وهو الذي حارب الله ورسوله وكان وراء بناء مسجد الضرار، ومات بالشام غريبا طريدا وحيدا، وكان ابنه "حنظلة" من خيار المسلمين، استشهد يوم أحد وهو غسيل الملائكة[5].

بعد أن عجز "أبو عامر" عن المكر برسول الله ﷺ في المدينة فَرَّ إِلَى قريش قبل غزوة أحد، ثُمَّ لَحِقَ بعد أُحُد بِالشَّامِ وتَنَصَّرَ، فكانت جماعة من المنافقين من بعض بطون الأوس يتّصلون به سراً، وتآمروا

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 426/8.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8]، 831/8. و**مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، 208/16.

[3]- ينظر: فتح الباري، 426/8. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 647/2. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 305.

[4]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 225/1.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 584/1-586. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 43/2.

معه على بناء "مسجد الضرار" لترويج النفاق والفساد وإشاعة الفرقة والفتنة بين المسلمين، لكن الله تعالى أنبأ نبيّه بذلك؛ فأمر الرسول ﷺ بتدمير "مسجد الضرار" وحرقه، وذلك بعد غزوة تبوك[1].

وهو ما أشار إليه المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في نصّه المذكور من مادة "الأوس".

الفرع الثالث : من دسائس المنافقين "حادثة الإفك"

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**عائشة بنت أبي بكر**"[فقرة: 1]: «**وقد قامت أزمة حادة نجمت عن الحادث الذي وقع أثناء عودة النبي من غزوته لبني المصطلق في الشهر الخامس من سنة (627م) والتي صحبته فيها عائشة. ذلك أن عائشة خرجت عندما حطت القافلة رحالها في وقفتها الأخيرة قبل المدينة، لقضاء حاجة فأبعدت قليلا عن المعسكر، وسقط منها عقد فتلبثت بعض الوقت تفتش عنه. وكانت عائشة خفيفة الوزن حتى أن الرجال الذين كانوا يحملون هودجها إلى الجمل لم يحسوا بغيبتها، ومضت القافلة جميعا في طريقها قبل أن تعود إلى المعسكر. وجلست عائشة تنتظر حتى عثر عليها آخر الأمر شاب جميل هو صفوان بن المعطّل السلمي، فعاد بها في حراسته إلى المدينة، وكان ذلك منها زلة كبيرة في الظروف التي كانت سائدة آنذاك[2]، وخاصة أن الحجاب كان قد فرض على زوجات النبي. وكثر القيل والقال وجسّم الأمر، ولم يكن ذلك بفعل الأعداء الشخصيين لعائشة وأسرتها فحسب، بل بفعل عبد الله بن أبَيّ زعيم المنافقين أيضا. ذلك أن هذا الرجل كان قد أعلن خلال الغزوة عن سخطه على ازدياد سلطان محمد وهيبته. واتضح آخر الأمر أنه ما من شاهد قويّ ينهض ضد عائشة، ونزل الوحي على النبي (سورة النور، الآية 11 وما بعدها) متضمنا براءة عائشة ولوم أولئك الذين تقولوا عليها، وباء عبد الله بن أبَيّ بالخزي أمام الناس**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات** -M.Watt[4].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 51]: «**وقد حدثت في طريق العودة منها القصة المشهورة عن عائشة وحديث الإفك الذي هدد بقاءها زوجة للنبي لولا الآيات القرآنية التي برأتها... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ**

---

[1]- ينظر: تفسير البغوي، 387/2. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 225/1.

[2]- **تعليق "محمد كمال البنا" هذه الفقرة من المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 435/15]: «وصف الكاتب لما وقع من تصرف عائشة حين تخلفت عن الركب وعثر عليها صفوان كان منها زلة كبيرة، فيه خروج عن أدب التعبير كنا نرجو أن يتنـــزّه عنه، لا سيما وأنه ربط ذلك بفرض الحجاب على زوجات النبي، إذ الثابت من الروايات أن عائشة حين قعدت على جانب الطريق تلتمس أن يشعر القوم بغيابها فيعودون للبحث عنها، قد حرصت أن تحتجب، ولم ير صفوان غير سوادها، وحين كلمها لم تردّ عليه، وقرب لَها البعير واستأخر هو حتى ركبت، وانطلق بها يقود البعير حتى أدرك القوم».

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 432/15-433.

[4]- سبقت ترجمته في: ص59.

جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ **سورة النور آية (11)**»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة: بعد فشل محاولة المنافقين في إثارة العصبيات الجاهلية بين الصحابة، أعماهم الغضب وتوجّهوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنّوا حرباً نفسية مريرة من خلال الإفك الذي اختلقوه؛ فكانت حادثة الإفك المشهورة، لكنّ القرآن الكريم برّأ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبيّن أنّ الذي تولّى كبْرَ هذا الإفك هو "عبد الله بن أبي بن سلول" رأسُ المنافقين[3].

[1]– ملخّص حادثة الإفك: خرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق، بعدما شرع الله الحجاب للنساء، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لَها، فرجعت تبحث عنه فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبون أنّها فيه – إذ كانت حديثة السنّ نحيفة خفيفة – ومضى المسلمون إلى المدينة تاركيها في البيداء، وقد وجدت عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يعرفوا بخبرها ويعودوا إليها، فغلبتها عينها فنامت، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي وهو من خيرة الصحابة فحملها على بعيره، و لم يكلّمها كلمة، وانطلق يقود بها الراحلة إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ والمسلمين، وقد استغل المنافقون هذا الحادث ونسجوا حوله الأكاذيب، فاتّهمت أم المؤمنين عائشة بالإفك، وكان الذي تولى كبر ذلك رأس المنافقين "عبد الله بن أبي بن سلول" بحيث كان يذيعه ويشيعه بين الناس.

وضاق الرسول ﷺ ذرعاً بدعايات المنافقين وصرَّح بذلك للمسلمين، وهم مجتمعون في المسجد معلناً ثقته بزوجته وبالصحابي صفوان بن المعطل، فأبدى سعد بن معاذ استعداده لقتل من يروج ذلك إن كان من الأوس، فأظهر سعد بن عبادة معارضته لسعد بن معاذ لأن عبد الله بن أبي من الخزرج حتى كادت تقع الفتنة بين الأوس والخزرج لولا أن الرسول ﷺ هدأهم.

ومرضت عائشة فاستأذنت النبي ﷺ في الذهاب إلى بيت أبيها فأذن لها، ثم علمت بخبر الإفك فكانت "لا يرقأ لها دمع[4] ولا تكتحل بنوم"، وهي تنتظر أن يُعلِم الله نبيَّه ببراءتها برؤيا صادقة، وقد انقطع الوحي شهراً عانى خلاله الرسول ﷺ أشد المعاناة، فقد طعنه المنافقون في عرضه وآذوه في

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9144/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 574/8–577. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 410/1–411.

[4]– **لا يَرْقَـأ**: أي: لا ينقطع. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 593/8.

زوجه، ولا شك أنه كان يتطلع إلى الوحي وهو في أشد الحاجة إليه لتطمئن نفسه ويخرس ألسن النفاق، ويذب عن زوجته وأبيها اللذَيْن كانا أحبّ الناس إليه، ثم نزل الوحي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور 11] عشر آيات[1].

[2]- ملاحظات على عرض المستشرقَيْن للحادثة: تحدّث المستشرق "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" عن حادثة الإفك بصورة مقتضبة، بينما تحدّث عنها المستشرق "وات-Watt" في مادة "عائشة" بالتفصيل، بيد أنّه وردت في نصّه بعض العبارات المغرضة، والمجافية للأدب العلمي، التي يستشفّ منها شيء من التهويل في وصف الحادثة، مثل قوله: «**وجلست عائشة تنتظر حتى عثر عليها آخر الأمر شاب جميل هو صفوان بن المعطّل**»، وقوله: «**وكان ذلك منها زلة كبيرة في الظروف التي كانت سائدة آنذاك**»، فما الداعي لإقحام مثل هذه العبارات بعدما تبيَّن أنّ "حديث الإفك" هو مجرّد كذب وافتراء تقوّله المنافقون وأشاعوه لإيذاء النبي ﷺ والمسلمين؟!

إنّ المستشرق "وات-Watt" وإن كان في آخر نصّه المذكور يقرّر أنّ القرآن الكريم برّأ أم المؤمنين من هذا الإفك، وخاب سعي رأس المنافقين "ابن أبيّ بن سلول"، فإنّه لا وجه لإطلاق عبارة "**شاب جميل**" في وصف هذا الموقف[2]، لِما قد تتركه من أثر سيّء في نفس القارئ؛ ذلك أنّ هذا اللقاء الذي كان بين عائشة وصفوان بن المعطّل لم يكن فيه أيّ أثر لهذا الوصف، فقد غلبت العفّة والأدب على هذا اللقاء، كما ورد بيانه في روايات السيرة النبوية من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت في وصف الحادثة: «... وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرت وجهي بجلبابي، **ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه**، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 7/538-524 و8/574-577. وصحيح مسلم (النووي)، 17/155-167. من حديث عائشة رضي الله عنها. وتفسير البغوي، 3/389-392. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/410-411.

[2]- لم أقف على وصف "صفوان بن المعطّل" رضي الله عنه بالجمال في المصادر التي ذكرها المستشرق "وات-Watt" في آخر نصه من مادة "عائشة" في "دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 15/434"، كما لم أقف على هذا الوصف في مصادر ترجمة "صفوان بن المعطّل" التي رجعت إليها كـــ: الاستيعاب، ابن عبد البر، 2/725. وأسد الغابة، ابن الأثير، 3/31. والإصابة، ابن حجر، 3/356.

فيُحتمل أن يكون المستشرق "وات-Watt": قد اطّلع على هذا الوصف في مصدر من مصادر السيرة والتاريخ الأصيلة، أو أنّه نقله عن كتاب من كتب المستشرقين المغرضين، أو أنّه اختَلقَ هذا الوصف من أجل التشويش على صفاء الحادثة ووضوحها فحسب.

موغرين في نحو الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك وكان الذي تولى كـــبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول»[1].

كما أنّه لا يستقيم وصف تَخلّف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رَكْب الجيش بأنّه "**زلة كبيرة**"؛ لأنّ تخلّفها لم يكن مُتَعمّداً، بل وقع إثر **حوادث متلاحقّة تسبّبت مجتمعة في تخلّفها** عن الركب، بيّنتها أمّ المؤمنين بالتفصيل في قولها: «حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت **فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه**، قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب **عليه وهم يحسبون أنّي فيه**، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السنن فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ...»[2]؛ لقد شاء الله تعالى أن يسقط منها عقدها، وأن تتأخّر في البحث عنه دون أن تعلم بتخلّفها عن الرّكب، وشاء الله تعالى ألاّ يشعر حملة الهودج بغيابها، لكونها كانت حديثة السنّ ونحيفةً بحيث لم يستنكروا خفّة الهودج، كلّ هذه الوقائع كانت بمشيئة الله وتدبيره سبحانه؛ ذلك «أنّ حكمة الله عز وجلّ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق ﷺ بحديث الإفك خيرًا لهم؛ حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوة إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 11]»[3].

كما كانت حادثة الإفك قدر إلهي أراده الله تعالى لتحقيق الخير للمسلمين؛ فيعرفون به عدوهم، ويعلمون المنافقين من بينهم[4].

قال ابن القيّم: «فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، **والله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء**»[5]، وقال الرازي: «صارَ خيرًا لَهم: لِما فيه مِنْ شرفهم وبيانِ فضلهم؛ مِن حيث

---

[1]- صحيح البخاري (الفتح)، 539/7. وتقدّم تخريج الحديث في الصفحة السابقة.

[2]- المصدر نفسه، 538/7-539. وتقدّم تخريجه في الصفحة السابقة.

[3]- السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 586.

[4]- السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد علوش، 166.

[5]- زاد المعاد، 232/3.

نَزلت ثَمان عَشْرة آيةً كلٌّ واحدةٍ منها مُسْتقِلّةٌ بِبَراءة عائشة، وشَهِد الله تعالى بِكذِب القاذِفين، ونسَبَهُم إلى الإفك، وأوْجَب عليهم اللّعنَ والذَّمّ؛ **وهذا غايةُ الشَّرَف والفَضْل**»[1].

لكن يبدو أنّ المستشرق "وات -Watt" أراد من خلال هاتين العبارتين الْمُقحَمتين في وصف الحادثة إقحاما، أن يُشوّش على الحادثة، ويضع غشاوة مصطنعة على ظهور الكذب والافتراء الذي أرجف به المنافقون في حديث الإفك، مع أنّ "وات-Watt" نفسه قرّر في نصّه المذكور فصلَ القرآن الكريم في الحادثة بجلاء ووضوح يقطع الشكّ باليقين، ويردّ إفك المفترين وإرجاف المرجفين، وحريّ بفصل القرآن في الإفك أن يقطع أيضا تشويش المشوّشين من المستشرقين وغيرهم.

فتبقى آيات البراءة التي نزل بها القرآن الكريم في شأن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها وسام الشرف الذي وضعته العناية الإلهية في تاريخها وفضلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

الفرع الرابع : اعتراض المنافقين على تقسيم الزكاة

– جاء في مادة "**زكاة**"[فقرة: 2]: «**وقد أثار تصرف النبي في الصدقات نقدا من جانب المؤمنين، فقد اعترض البعض اعتراض شديدا لما أراد النبي بعد فتح مكة أن يتألف قلوب بعض سادات قريش، بأن أعطاهم من أموال الزكاة حتى يرضوا بالنظام الجديد، ونزلت آيات لتهدئة هذا التذمر (سورة التوبة، آية 58–60)**: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[3]»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **ج.شاخت** - J.Schacht[5].

لَم يُصب المستشرق "شاخت-Schacht" عندما نسب تذمّر البعض من تقسيم النبي ﷺ لأموال لزكاة إلى المؤمنين، ذلك أنّ التذمّر واللمز المذكور في الآية إنّما كان من جانب المنافقين لا المؤمنين، حيث: اعْتَرَض الْمنافقون على النّبِيِّ ﷺ ولَمزوه في قسمة الصّدقات، وتدلّ الروايات على أنّ هذا الْقولَ قالَهُ أفْرادٌ مِن الْمنافِقِين كما بيّن علماء التفسير[6]، فالآية [58] من سورة التوبة من جملة الآيات الكثيرة في

---

[1]– تفسير الرازي، 338/23.

[2]– ينظر: القول المبين، محمد النجار، 308. والسيرة النبوية في العهد المدني، علوش، 166.

[3]– **تعليق "محمد يوسف موسى" على هذه الفقرة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 363/10]: «**نزلت هذه الآية في بعض المنافقين الذين لم يعطهم الرسول من الصدقات لأنهم ليسوا من أهلها، فطعنوا عليه وقالوا يؤثر بها أقرباءه وأهل مودّته... أمّا عمل الرسول على تأليف قلوب البعض للدخول في الإسلام أو الثبات عليه، فهو أمر معروف وسياسة حسنة، ولم يكن هذا الصنيع مقصورا على القرشيين وحدهم**».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 357/10.

[5]– سبقت ترجمته في: ص50.

[6]– ينظر: تفسير البغوي، 359/2. وتفسير الرازي، 76/16. وتفسير ابن كثير، 165/4. وتفسير المنار، رشيد رضا، 421/10.

هذه السورة التي تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم للناس؛ حتى سميت سورة التوبة "بالفاضحة"[1] أي: للمنافقين.

فقد بقي الْمنافقون يَكيدونَ للنبي ﷺ والإسلام في السِّرّ، حتّى فضَحَهم اللهُ تعالى بِهذه السُّورة في آخر الأمْر فتَابَ بعضهُمْ، وماتَ زعيمُهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ بِغَيْظه وكُفْره، ولَم تَقُمْ لِلنّفاق قائِمةٌ مِن بعده[2].

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 801/8. والتفسير المنير، الزحيلي، 320/10.

[2]- تفسير المنار، 465/10.

الفصل الثاني:
من صلح الحديبية
إلى وفاة النبي ﷺ

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: صلح الحديبية في "الدائرة"

المبحث الثاني: رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء

المبحث الثالث: فتح مكة

المبحث الرابع: بعض الوقائع الهامة بعد الفتح وقبيل وفاته ﷺ

المبحث الخامس: مرض النبي ﷺ ووفاته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد التطرّق إلى المعالم الكبرى لبناء النبي ﷺ لِمجتمع المدينة في الفصل السابق، مع الكلام على أهمّ وقائع السيرة في بداية العهد المدني من خلال ما ورد في "الدائرة"، خصّصت هذا الفصل لإيراد بقية وقائع العهد المدني ابتداء من صلح الحديبية سنة ستّ للهجرة (6 هـ) إلى غاية وفاة النبي ﷺ، وأرجأت الحوادث التي كانت قبل الحديبية من المغازي إلى الباب الأخير الخاص بالغزوات والسرايا.

المبحث الأول : صلح الحديبية في "الدائرة"

بعد سنوات من الحروب والزّحوف بين المسلمين في المدينة بقيادة النبي ﷺ وكفار قريش في مكة ومن حالفهم أو سار على طريقتهم في عداوة الإسلام، جاء "صلح الحديبية" الذي مهّد الطريق لانتشار الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب وفتح مكة المكرمة، وفيما يلي تفصيل الكلام على هذا الصلح العظيم.

المطلب الأول : خروج النبي ﷺ إلى الحديبية ومقصده منه

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الحديبية**" [فقرة: 1]: «**وكان هذا الوادي المحل حوالي الهجرة مركزا لعبادة يقوم بها أهل تلك الناحية، وكان فيها بئر وشجرة مقدسة**[1]...

ولم يستطع النبي أن يعد نفسه قابضا على ناصية الحال إلا في الشهور الأخيرة من العام السادس للهجرة بعد أن قضى على العشائر اليهودية وأذل المنافقين في المدينة، ومن ثم رأى أن الوقت قد حان للتظاهر ضد مكة ردا على حصار الخندق، وهو الحصار الذي حاولته قريش، وقد اتخذ النبي كل الأهبة لهذا التظاهر بفضل السياسة التي التزمها... ويبدو أن النبي فكر أول الأمر في القيام بمظاهرة عسكرية.

فقد كان المفروض أن يسير في عدد يتفاوت بين 1400 و1600 من الرجال المسلمين، ولكنه عدّل خطته وأعلن أنه انتوى العمرة، وما كان الهدي الذي أخذه معه إلا استكمالا للخدعة[2].

---

[1]– **تعقيب أحمد شاكر** (1) **على المادة** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «هذا غير دقيق؛ إن لم يكن غير صحيح، فإنا لم نجد في المصادر التي أشار إليها كاتب المقال ولا في غيرها مما اطلعنا عليه ما يدل على أن هذه البقعة كانت مركزا لعبادة يقوم بها أهل تلك الجهة، وكلامه يوهم أن الشجرة التي يسميها "مقدسة" كانت بهذه الصفة في ذلك الوقت، وليس كذلك. إنها شجرة قديمة حدباء سميت بها الناحية كما قال الخطابي، ولكن لم يكن لها أي تقديس، وكل ما في الأمر أنه بعد أن بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها أو تحت شجرة غيرها بيعة الرضوان، توهّم بعض الضعفاء من المسلمين في عهد عمر أن لها ميزة خاصة، فلما أن رأى عمر ذلك خشي شبهة تعظيمها، مما قد يشعر بمعنى يتصل بالوثنية من قريب أو من بعيد، والإسلام إنما جاء أولا وبالذات لتوحيد الله توحيدا مطلقا من كل شائبة، توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وحارب الوثنية الظاهرة والخفية، حربا لا هوادة فيها. لَما رأى عمر ذلك أمر بقطع الشجرة حتى اندثر أثرها وخفي موضعها على من عرفها وحضرها وعلى من لم يعرفها وجاء من بعدهم».

[2]– **تعقيب أحمد شاكر** [في هامش الموضع نفسه]: «سيرة رسول الله ﷺ وأخلاقه معروفة، لم يقل أحد من ألدّ أعدائه أنه كان يخدع أحدا أو يرضى بالخداع، ولكن كاتب المقال لم يتورع أن يقول، فما ينقص هذا من قدر الرسول، إنما ينبّئ عن نفس القائل».

وكان المقدر أن يدخل مكة دخول الْملوك، أو أن يكره قريشا على مفاوضته، وكان حرسه العسكري من القوة بحيث يكسب احترام المكيين، ومن قلة العدد بحيث ينفي احتمال الهجوم ولكن القرشيين لم يخاطروا، وأخذوا الحذر فاحتلوا مشارف مكة، وما إن دخل النبي الحرم حتى بلغ طلائعهم فارتد إلى الحديبية أمام هذه المقاومة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس**–Lammens[2].

– وفي مادة "**سعد بن عبادة**"[فقرة: 1]: «**ولما صح عزم النبي على شن تلك الحملة على مكة التي انتهت بصلح الحديبية تجلى عزم سعد على القتال وتعطشه إليه، وقد أشار سعد على النبي ﷺ بوجوب اتّخاذ الحيطة الواجبة وتزويد المسلمين بالسلاح الذي لا غنى لهم عنه، إلا أنّ النبي أبَى أن يستمع لنصحه**»[3]. المحرر هو المستشرق: **نسترشنين**–Zetterstéen[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 52]: «**وقرب نهاية العام السادس الهجري رأى محمد ﷺ أن مركزه في المدينة أصبح من الثبات بحيث يمكنه الإقدام على خطوة أكبر، لقد كان هو وأتباعه لا يزالون مَمنوعين من زيارة مكة والأماكن المقدسة بها، غير أنه علم عن طريق عيونه في مكة – وربما كان عمه العباس من بينهم– أن المشاعر في مكة بدأت تتحول تدريجيا في جانبه...**

وفي شهر ذي القعدة من العام السادس (مارس 628م) أمر أتباعه أن يهيئوا الذبائح للقيام بعمرة معه في مكة ذاكراً أن الله قد وعده في رؤيا له بنجاح هذا الحلم القديم ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ سورة الفتح آية (27)»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– تاريخ الخروج إلى الحديبية: ذكر "لَمنس-Lammens" و"بول-Buhl" في نصّيهما الشهر والسنة التي خرج فيها النبي ﷺ للحديبية، وهو كما قالا؛ حيث كان خروجه إليها في: **ذي القعدة**، آخر سنة **ستّ** من **الهجرة**[7]، وحدّد الواقدي وابن سعد خروجه بيوم **الإثنين** في بداية شهر ذي القعدة[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/327-328.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 11/407.

[4]– سبقت ترجمته في: ص112.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9145.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

[7]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 4/91. والبداية والنهاية، ابن كثير، 6/206. وفي "صحيح البخاري (الفتح)، 7/548" عن أنس ﷺ: أنّ عمرة الحديبية كانت في ذي القعدة.

[8]– ينظر: مغازي الواقدي، 2/573. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 2/72-73.

ثانيا- مبدأ العزم على الخروج إلى البيت الحرام: رأى رسول الله ﷺ في المنام أنّه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وطافوا بالبيت واعتمروا، وذلك في غير تحديد للزمان، وتعيين للشهر والعام، وهي الرؤيا التي ذكرها المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:52"، فلمّا أخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، استبشروا وفرحوا فرحا عظيما، بعدما طال عهدهم بمكّة والكعبة التي رضعوا لبان حبّها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلاّ ارتباطا بِها وشوقا إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلّعت إليه تطلّعا شديدا[1].

ذلك أنّ المسلمين ورسولهم ﷺ لا زالوا يحنّون إلى مكة أم القرى، ويتشوقون لزيارة المسجد الحرام الذي تمتلئ نفوسهم بتقديسه وتعظيمه، إلا أن قريشًا كانت تحول بين المسلمين وبين دخول مكة، وهو وطنهم الذي أُخرجوا منه ظلمًا وعدوانا، فلمّا أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك، لم يشكّوا أنّ هذه الرؤيا ستتحقّق هذا العام، وقد صادف كلّ ذلك رغبة شديدة، وشوق عارم في نفوسهم، فتهيّأوا للخروج مع رسول الله ﷺ[2].

هذا جانب من الحوافز الإيمانية والنفسية التي حرّكت النبي ﷺ وأصحابه للخروج إلى مكة ذلك العام معتمرين، وهناك عوامل أخرى كان لها الأثر العملي على الإقبال على هذا التحرّك في مثل هذا الوقت، منها:

[1]- ذكر المستشرق "لَمنس -Lammens" في مادة "الحديبية" ما يُعبّر عن تعزّر موقف المسلمين داخل المدينة وخارجها، بعد الأحداث الأخيرة التي أشار "لَمنس -Lammens" إلى جملة منها، وأشار "بول-Buhl" إلى بعضها؛ وهي: إضعاف شوكة المنافقين وإجلاء اليهود، وهما فئتان متآمرتان على المسلمين داخل المدينة، وهذا الأمر "عزّز الموقف الداخلي" كما ذكر "بول-Buhl"، وكذا صدّ العدوان الخارجي الذي شنّته قريش مع ما حشدته من أحزاب في غزوة الخندق، فبعد تلك الحوادث وغيرها، أصبح المسلمون مرهوبي الجانب في الجزيرة العربية، وهو أمر ساهم في الإقدام على مثل هذه الخطوة، وهو ما عبّر عنه "لمنس -Lammens" بقوله «**ولم يستطع النبي أن يعد نفسه قابضا على ناصية الحال إلا في الشهور الأخيرة من العام السادس للهجرة**».

كما لا يخفى أن هذه التظاهرة الإسلامية تبرز قوة المسلمين في أرجاء الجزيرة، وتزيد موقفهم قوّة، خاصة بعد فشل غزوة الأحزاب، وكانت قريش تفطن لهذه المعاني عندما منعت المسلمين من دخول

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 164/4. وتفسير ابن كثير، 356/7. والسيـــرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 377.

[2]- ينظر: تفسير ابن كثير، 356/7. والقول المبين، النجار، 309-310. والسيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 377.

مكة وأداء العمرة[1]، ومع أهمية هذا العامل الذي ذكره المستشرق "لمنس"، فإنّ هناك عوامل أخرى هامة، منها:

[2]– الرغبة في تجميد الصراع ضد قريش، ذلك الذي استغرق معظم مساحات الدرب الطويل الذي اجتازته الدعوة الإسلامية، فإحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة – لَمّا خرجوا إلى مكة- آية على الرغبة العميقة في السلم، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة، وتأسيس علاقات أكثر هدوء وأمنا، وفي إظهار الإسلام لمن يحضر مكة في الموسم على أساس حقيقته القائمة على تحقيق السلام، ونشر العدل[2].

[3]– كما كان هذا التحرّك السلمي فرصة لإزالة الحواجز النفسية التي كانت تُحاجِز بين النبي ﷺ وبين قريش، بسبب الخلاف والنفور والحرب[3].

[4]– طُرد المسلمون من مكة وحوربوا، وظلّت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش، ولَمّا كانت قريش تعاديهم والحرم المكي الشريف تحت سلطانها، كان لابد **أن يُكشف** أمر قريش، **وأن يُعرف أَهُمْ يسهّلون** للنبي ﷺ وأصحابه أداء شعائر الحج، وهو حقّ لِجميع الناس، أم أنّهم يقفون في سبيله كما وقفوا دائما، وبالتالي معرفة إن كان موقف قريش العدائي للمسلمين يحملها على الخروج عن المهمة التي وُكّلت إليها، والتي تحصل من ورائها على مركزها بين العرب، وهي رعاية البيت الحرام وتَهيئته للزائرين، من أجل أداء شعائر الحج التي هي حق للجميع[4].

ومِن ثَمّ فإنّ أيّ محاولة من قبل قريش لصدّ المسلمين عن هذا الحق العام، ستجعل قلوب المشركين من العرب تهوى إليهم، وسيشعرون بأنهم يظلمون المسلمين عندما يمنعونهم من حج البيت والعمرة[5].

ثالثا– مقصد النبي ﷺ من خروجه: خرج ﷺ من المدينة متوجّها إلى مكة لأداء العمرة ومعه ما يزيد على ألف وأربعمائة من أصحابه في أصح الأقوال[6]، وعندما وصل النبي ﷺ مع المسلمين إلـــى

---

[1]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 269 و271. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 434/2.

[2]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 322. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 185. والسيرة في العهد المدني، علوش، 484.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1000/2.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 999/2-1000. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 369.

[5]– ينظر: الرسول القائد، 269.

[6]– حيث جاء عن شهود العيان من الصحابة أنّهم كانوا "**ألفا وأربعمائة**"؛ كما في: حديث **جابر** بن عبد الله ﷺ في "صحيح البخاري (الفتح)، 552/7" و**البراء** بن عازب ﷺ أيضا عند "البخاري (الفتح)، 549/7" و**معقل** بن يسار ﷺ في "صحيح مسلم (النووي)، 7/13" و**سلمة** بن الأكوع أيضا عند "مسلم (النووي)، 241/12-242"؛ لكن ورد في الصحيحين أيضا ["البخاري (الفتح)، 550/7" و"مسلم (النووي)، 6/13"] من حديث جابر ﷺ أيضا: أنّهم كانوا " **ألفا وخمسمائة**".

قال ابن حجر في "فتح الباري، 549/7": «**والجمع** بين هذا الاختلاف أنهم **كانوا أكثر من ألف وأربعمائة**، فمن قال ألفا وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال ألفا وأربعمائة ألغاه؛ ويؤيّد هذا الجمع قول البراء في رواية [البخاري (الفتح)، 550/7] أنّهم كانوا "**ألفا وأربعمائة أو أكثر**"، واعتمد على هذا الجمع النووي»، وعلى كلٍّ فالجمع ليس بمتعذر، والاختلاف ليس بكبير.

ذي الحليفة أحرموا بالعمرة، وساقوا الهدي سبعين بعيرا؛ ليعلم النّاس أنّه لا يريد حربا، وإنما خرج زائرا للبيت الحرام، ومعظّما له[1].

رابعا- الردّ على دعوى مسير النبي ﷺ إلى مكة بغرض غزوة عسكرية: أمّا قول "لَمنس-Lammens" أنّ النبي ﷺ خرج في حملة عسكرية، وأنّ إعلانه العزم على أداء العمرة كان خدعة من أجل الدخول إلى مكة، فإنّما هو اختلاق لأمر لم يرد أصلا، ومجرّد دعوى لا دليل عليها، تندرج ضمن ما عُرف به المستشرق "لَمنس" بين علماء المسلمين وحتّى المستشرقين بالتهافت المبالغ فيه، والآراء المغرضة التي تهدف إلى الطعن في الإسلام ونبيّه ﷺ بطريقة سافرة، هي أبعد ما يكون عن الطرح الموضوعي والأسلوب العلمي.

فكلامه افتراض مصطنع؛ لم يأت فيه بأيّ دليل تاريخيّ يثبته، ولن يستطيع ذلك، فإنّ كلّ الدلائل التاريخية للسيرة تبيّن أنّ الرسول ﷺ خرج معتمرا وما أراد قتالا، ومنها:

[1]- صرّح النبي ﷺ بمقصده من الخروج إلى مكة من خلال ما أوصى به "بديل بن ورقاء" أن يبلغه لقريش، حيث قال النبي ﷺ "لِبُدَيل": ((**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ**))[2].

[2]- كما بيَّنت الروايات الصحيحة عن الصحابة الذين واكبوا الحادثة، أنّ النبي ﷺ إنّما قصد بخروجه العمرةَ، حيث صرّح بذلك **ابن عمر** رضي الله عنه[3]، و**أنس** رضي الله عنه[4]، وفي حديث مروان والمسور بن مخرمة قالا: «خرج رسول الله ﷺ عام الْحديبية **يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً**، وساق معه الْهدي»[5].

بل هو ما قرّره أئمة الحديث والسيرة والتاريخ قاطبةً، قال ابن إسحاق: «خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة مُعتمرًا، لا يريد حربًا... وساق معه الْهدي، وأحرم بِالعمرة لِيأمَن النّاس مِن حربه، ولِيَعلم النّاسُ أنّه إنّما خرج زائرًا لِهذا البيت ومعظّمًا له»[6].

[3]- كما أنّ النبي ﷺ عبّر عن هذا القصد عمليّا في عدّة مواقف منها:

أ)- أنّ النبي ﷺ غيّر طريقه تجنّبا للقتال مع خالد بن الوليد كما سيأتي، وذلك لترك فُسْحة للتفاوض والحوار معهم سلميّا، «و لم يُرِد النبي ﷺ أن يلقى مقاتليهم، حتى لا يسبق السيف الرأي، وهو يريد أن يحج، ولا يريد أن يرغمهم، بل يريدهم مختارين، لأن الاختيار يؤلف، والقتال ينفر»[7].

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 4/6-7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/308. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/326.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، 5/404. من حديث مروان والمسور.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 3/685. ومسند أحمد، 31/212. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/308-309.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 3/757 و7/548. وصحيح مسلم (النووي)، 8/323.

[5]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 31/212. وحسّنه الأرنؤوط في تحقيق المسند، وأصله في: صحيح البخاري (الفتح)، 7/565.

[6]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/308.

[7]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 2/1001.

ب)– وعندما استشار الرسول ﷺ أصحابه في أن يغير على ديار الذين ناصروا قريشاً واجتمعوا معها لِيَدَعوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم، قال أبو بكر ﷺ: «**يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد**، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه»؛ فأقرّه النبي ﷺ على ذلك وقال: ((امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِ))[1].

ج)– وأكّد النبي ﷺ لقريش: أنّه لا يريد حرب أحد، وإنّما يريد زيارة البيت الحرام من خلال الرسل الذين أرسلهم إليهم لهذا الغرض، وكذا رسلهم الذين جاءوا إليه[2].

د)– ومن خلال إطلاق سراح مجموعات يتراوح عددهم بين الثلاثين والخمسين أو أكثر من رجال قريش، أغاروا على المسلمين فأسروهم، ثم خلّى النبيُّ ﷺ سبيلهم[3]؛ حتى يُثبت نياته السلمية عمليا ولا يترك حجّة لقريش تتشبث بها لتجميع العرب ضد المسلمين، لكونه ﷺ إنّما أتى للحج، وليطفئ حربا، ويبر رحما، ويزيل نفرة، وليذهب بالوحشة التي خلفتها الحروب[4].

[4]– كما أنّ إبرام النبي ﷺ للصلح مع قريش رغم ما قد يبدو فيه - لأوّل وهلة- من إجحاف في حقّ المسلمين يردّ دعوى "لَمنس-Lammens"، ويثبت عمليّا النوايا السلمية للنبي ﷺ.

[5]– أخيرا: لو كان النبي ﷺ أراد خدعة لأتَمّها في العام التالي بعد الحديبية حين خلّت قريش بينه وبين دخول مكة والبيت الحرام، فلو كان الأمر كما قال "لَمنس-Lammens" لكانت الفرصة سانحة لأن يَحتلّ مكة بناء على تلك الخطّة المزعومة، لكن لَمّا لم تكن هناك أيّ خدعة كما صوّرها المستشرق "لمنس" فإنّ النبي ﷺ وأصحابه أتَمّوا العمرة التي منعوا منها عام الحديبية، واعتمروا بكل هدوء، وسُميّت تلك العمرة بعمرة القضاء، لأنها كانت تَتِمّة لِعمرة الحديبية، وفي هذه النقطة دليل واقعيّ يردّ دعواه من أصلها.

– أمّا **إطلاق** علماء المغازي عليها **تسمية "الغزوة"**: فهو على سبيل التجوز؛ لأن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للقتال، وإنما خرجوا معتمرين، ولذلك ساقوا الهدي أمامهم، ولبسوا إحرامهم، و لم يأخذوا سلاحهم، سوى السيوف في أغمادها، وشَبَه الحديبية بالغزوة ينحصر في قيادة الرسول ﷺ وخروجه معهم، كما يَأخذ هذا الخروج المعنى للعام للغزو الذي يعني المسير إلى العدوّ[5]، وإن كان

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، 565/7. من حديث مروان والمسور.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 404/5. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 311/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 439/2.

[3]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 257/12. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 314/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 446/2.

[4]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 274. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1001/2.

[5]– ينظر: طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، النّسفي، 79.

الغزو في وقعة الحديبية لم يكن غزوا عسكريا بحتا، بل كان غزوا سلميا بِهدف العمرة إلى البيت الحرام[1]، قال الحافظ ابن حجر: «**ولا يلزم** من إطلاق **الغزوة** وقوع **المقاتلة**»[2].

خامسا- أهداف الخروج للعمرة: قرر الرسول ﷺ أن ينطلق ليعتمر بأصحابه في مكة بغرض تحقيق جملة من الأهداف أهمّها:

[1]- في خروج النبي ﷺ للعمرة إظهارٌ لحقيقة مشاعر المسلمين نحو البيت العتيق وتعظيمهم له عمليا، حتى تتأكد العرب من ذلك عن يقين لا يتطرّق إليه الشك، وإبطالٌ لدعاية قريش المعادية التي كانت تريد إظهارهم وكأنّهم لا يعترفون بحرمة الكعبة[3].

[2]- إشعار الناس جميعا أنّ علاقات الإسلام بالقوى الأخرى ليس شرطا لها أنْ تظلّ قائمة على الحرب والعنف والقتال، وأنّه بالإمكان أنْ تسودها فترات من السلم والتهادن[4].

[3]- إقرار حقيقة أن مكة ومقدّساتها ليست حكرا للوثنية تمارس فيها تقاليدها بحرية، وتسيطر على مقدّراتها، فتسمح بدخولها لمن تشاء وتمنع من تشاء، فالمسلمون أحفاد إبراهيم عليه السلام أبي الحنيفية، وبانِي الكعبة، هم أحق وأجدر بدخول البيت الحرام، وممارسة شعائرهم القائمة على التوحيد الخالص، وإحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم، فهم لا يبغون إلا أن ينالوا مثل ما لغيرهم من حق الاعتمار والحج، ولا يسوغ لأهل مكة أن يحرموا المسلمين من ذلك أبدا، ولئن استطاعوا قديما إقصاءهم، إنّهم بعد ما وقع من قتال لن يصرّوا على خطئهم القديم[5].

إنّ هذه التظاهرة السلمية أوقعت قريشا بين نارين؛ فهي إن تركت المسلمين يدخلون البيت معتمرين، زاد ذلك في قوة المسلمين وهيبتهم أمام الرأي العام العربي آنذاك، وفي ذلك إضعاف لموقف قريش وزعزعة كبيرة لهيبتها التي حاولت المحافظة عليها بين العرب، وفي المقابل إن صدّت المسلمين عن البيت كان في ذلك كشف لحقيقة الموقف العدائي لقريش، التي تُعتبر راعية للبيت، والأولى بها أن ترعى زائري البيت لا أن تصدّهم عنه، وفي الوقت نفسه كان في ذلك إظهار لموقف المسلمين المسالم والمعظم للبيت الحرام، وهذا يجعل الناس يراجعون مواقفهم تجاه دعوة الإسلام التي شُوّهت صورتها، ويجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا، وهو ما حصل فعلا بعد إبرام الصلح.

---

[1]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 15/3. والسيرة النبوية في العهد المدني، علوش، 483.

[2]- فتح الباري، 626/7.

[3]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 271. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 434/2.

[4]- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 185.

[5]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 322. ودراسة في السيرة، 185.

هذه الأهداف والثمرات العظيمة ما كانت الحرب ولا الغزو العسكريّ ليحقّقها، فضلا على أن يحقّقها سلوك سبيل الخدعة والمراوغة الذي ادّعاه "لَمنس-Lammens"، والنبي ﷺ كان أبعد نظرا وأكثر حكمة مِن أنْ يقدم على مثل هذه الخدعة التي تشوّه صورته وصورة الإسلام بين العرب، خاصة مع تعلّقها بالبيت الحرام وزيارته، وهي مقدّسات عند عامة العرب آنذاك، بل هو يحرص على ما يحسّن صورة دعوته أمام الناس جميعا، وينفي عنها الدعايات المغرضة، وحملات التشويه الكاذبة، وهو ما تحقّق فعلا بفضل تظاهرة الحديبية السلمية التي كان لها آثار عظيمة وجدّ هامة على الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب وخارجها، لكن "لَمنس-Lammens" لم يستوعب تلك الثمرات التي كان يهدف إليها النبي ﷺ من وراء مقصده السلمي، الذي تجسّد في الخروج للعمرة، ثُمّ إبرام الصلح في الحديبية، وهذا التحرّك السلمي أحرز تقدّما بالغا في مسار الدعوة المحمّدية[1]، فكان هو المقدَّم في ذلك الظرف، دون حاجة لأيّ عمل عسكريّ أو عدائيّ يزيد في تعقيد الأمور وتأزيمها.

والملاحظ أنّ افتراض المستشرق بعيد كلّ البعد عن الطرح العلمي الذي يعتمد على إيراد الشواهد التاريخية ودلالاتها، للوصول إلى استنتاجات منطقية؛ فهو لم يكلّف نفسه عناء الاستدلال على افتراضه الخاطئ، حتى يمكن الخوض معه في مناقشة القيمة العلمية لِما أورده من الشواهد، وكذا دلالاتها والتفسيرات المحتملة لها[2]، وإنّما اكتفى بالادّعاء المجرّد عن الدلائل، والدعوى ما لم تَقُم على بيّنات وأدلّة، تبقى محض مزاعم لا قيمة لها علميًّا، بل إنّها تنمّ عن الخلفيات الفكرية والعقدية التي ينطلق منها المستشرق لافتراض دعاوى تهدف إلى الطعن في النبي ﷺ ورسالته.

– **أخذ الأهبة من باب الاحتياط والتحرّز:** أمّا ما ذكره المستشرق "تسترشتين-Zetterstéen" عن إشارة سعد بن عبادة رضي الله عنه على النبي ﷺ بأخذ السلاح معهم، فلا يُؤخذ من ذلك "**تعطّش سعد بن عبادة للقتال**"[3] كما قال "تسترشتين-Zetterstéen"، وإنّما يُستفاد منه حرصه على أخذ الحيطة والحذر كما

---

[1]– كما سيأتي بيانه في: ص661.

[2]– فمثلا: نجد **المستشرق "وات"** يحاول مسايرة المنهج العلمي المبني على الاستدلال وإيراد الشواهد فيما يعرضه من أقوال وافتراضات (وإن كانت خاطئة)، حيث يركّز على إيراد الشواهد التاريخية التي تدعّم افتراضه، ويقدم لها التفسيرات التي تساند ما ذهب إليه، حتى أنّ القارئ ليسلّم لدعواه أول الأمر ويظنّها صواباً، كما فعل مثلا في افتراضاته حول "أسباب هجرة الحبشة" [سبق: ص400-401]، ولكن على الأقلّ فإنّ هذا المنهج يتيح للباحث مناقشة المستشرق في ضوء تلك الشواهد التاريخية، من حيث ثبوتها وقيمتها العلمية أولا، ومن حيث دلالاتها والتفسيرات الموضِّحة لها ثانيا، وعندئذ تتبيّن الثغرات والهنات التي احتوتها نظرية المستشرق، فيُقبل منها ما يقبل، ويردّ منها ما يردّ. أمّا **المستشرق "بول"** فجمع بين عوار المنهجين؛ فأحيانا يقدّم افتراضات عارية عن الاستدلال، وأحيانا يستدلّ لها، لكن كثيرا ما يكون استدلاله ظاهر البطلان، وغير محبوك بطريقة منهجية، ويغلب عليه التعسّف والتفسيرات البعيدة وغير المنطقيّة، والمتأثرة بالخلفيات الفكرية والعقدية الاستشراقية.

[3]– ادّعى "تسترشتين" هنا أنّ أحد المسلمين متعطّشٌ للقتال، بينما ادّعى المستشرق "بول" [كما سيأتي: ص776] في غزوة "بدر" أنّ المسلمين فزعوا من لقاء العدو، ومع تناقض القولين؛ يلاحظ أنّهما يصبّان في المقصد نفسه وهو: الطعن في صحابة الرسول ﷺ من الوجهين.

ذكر المستشرق نفسه بعد ذلك حين قال: «**وقد أشار سعد على النبي ﷺ بوجوب اتّخاذ الحيطة الواجبة**»، وهو التفسير الذي ينطبق على الرأي الذي أشار به سعد بن عبادة ﷺ، فلم يغب عن ذهن الصحابة والنبي ﷺ أنّهم قد يَلْقون مقاومة عسكرية، بِحكم العداوة القائمة بينهم وبين كفار مكة.

والملاحظ أنّ المستشرق لم يعرض الحادثة بصورة متكاملة، لِما يلي:

أ)- لم يذكر سبب عدم أخذ النبي ﷺ للسلاح معه، الذي هو مبيّن في هذه الرواية، حيث برّر ﷺ ذلك في رواية الواقدي: بأنّه لا يحب أخذ السلاح وقد خرج معتمرا[1]، ويبدو أنّ المستشرق أعرض عن هذه الجزئية من الرواية، لكونها تردّ رأيه الذي يظهر أنّه تابع فيه "لمنس" بأنّ النبي ﷺ خرج لحملة عسكرية، وإن كان كلامه في ذلك غير واضح تماما.

ب)- ذكر "تسترشتين-Zetterstéen" أنّ النبي ﷺ لم يأخذ برأي "سعد"، لكن هذا ليس على إطلاقه، لأنّ النبي ﷺ وإن كان لم يتجهّز بكامل السلاح الحربي المعتاد في غزواته، لكنّه حمل معه السلاح الخفيف -وكان قليلا كما ذكر الواقدي[2]- من باب الحيطة والحذر، وللدفاع عن أنفسهم في حالة الاعتداء عليهم، حيث كان النبي ﷺ يتوقّع أن يلقى مقاومة مسلحة من قريش[3].

سادسا- موقف قريش من خروج النبي ﷺ: لَمّا خرج الرسول ﷺ بأصحابه إلى مكة معتمراً، بعث عيناً إلى مكة هو "بسر بن سفيان الخزاعي" ليأتيه بخبر قريش[4].

وسار الرسول ﷺ حتى إذا كان بعسفان[5]، أتاه "بسر بن سفيان" بخبر قريش؛ وأبلغه أنها سمعت بمسيرهم، وجمعت لهم الجموع لصدّهم عن دخول مكة، وأنّ خالد بن الوليد خرج بخيلهم إلى "كراع الغميم"[6] طليعة[7]، فغير الرسول ﷺ طريق جيشه تجنبا للقتال مع خالد بن الوليد وخيالة المشركين، وسلك طريقاً وعرة بين شِعابٍ، فساروا فيه متحمّلين المشاق والصعاب عبر "ثنية الْمُرار"[8]، حتى

---

[1]- ينظر: مغازي الواقدي، 573/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 275/1.

[2]- ينظر: مغازي الواقدي، 573/2.

[3]- ينظر: القول المبين، النجار، 311. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 15/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 434/2-435. وهناك إشارة إلى هذا المعنى في: صحيح البخاري (الفتح)، 565/7.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 565/7. ومسند أحمد، 212/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 309/2.

[5]- **عُسْفان:** بلدة على مسافة (80 كلم) من مكة شمالا على طريق المدينة. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 122/4. والمعالم الأثيرة في السّنّة والسيرة، محمد شراب، 191-192.

[6]- **كراع الغميم:** الغميم: أي المغموم، وهو الشيء المغطّى؛ موضع بين مكة والمدينة، يقع على بعد (64 كلم) مِن مكّة على طريق الْمدينة. ينظر: معجم البلدان، 214/4. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 263.

[7]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 403/5-404. ومسند أحمد، 212/31. والسيرة النبوية الصحيحة، 436/2.

[8]- **ثنيّة المرار:** و"الثنية" الطريق بين جبلين، وهي طريق في فجّ واسع ينتهي في وادي الحديبية أسفل مكة. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 1205/4. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، 106.

وصلوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعسكر الرسول ﷺ بأصحابه في الحديبية ينتظر ما يكون من قريش[1].

– **استدراك على "لَمنس-Lammens"**: هذا التفصيلّ يكشف المغالطة التي جاءت في قول المستشرق "لَمنس": «**وما إن دخل النبي الحرم حتى بلغ طلائعهم فارتد إلى الحديبية أمام هذه المقاومة**»، وهذا كلام فيه قلبٌ للأحداث وتشويه ينافي السياق الصحيح للأحداث؛ لأنّ النبي ﷺ لم يجاوز الحديبية أصلا، فكيف ارتدّ إليها بعد المقاومة؟! وقوله "**أمام هذه المقاومة**" يوهم أنّه كان هناك صدام بين الطرفين تراجع على إثره المسلمون إلى الحديبية، وهو ما لم يحدث أصلا، فإنّ طليعة الفرسان بقيادة خالد التي لقيها النبي ﷺ في موضع يقع قبل الحديبية، لم يحدث بينها وبين المسلمين صدام عسكري، وإن تراءى الطرفان من بعيد، حيث تجنّب النبي ﷺ هذه الكتيبة بسلوك طريق وعرٍ بين مرتفعات ضيّقة **تقدّم من خلالها** إلى أنْ وصل إلى موضع الحديبية، وهناك جرت بينه وبين مشركي قريش المفاوضات وأبرم الصلح، ثم عاد المسلمون إلى المدينة، وعليه فسياق "لَمنس-Lammens" للقاء كتيبة خالد كان مشوّشا وغير دقيق.

– **ملحظ هام**: إنّ كفّار مكة بحكم مواكبتهم للحادثة، وإدراكهم لملابساتها، نظروا إلى عزم النبي محمد ﷺ على دخول مكة معتمرا من منظور آخر غفل عنه المستشرق "لمنس" بحكم عدم إدراكه التام والمتكامل لسياق الأحداث وملابساتها، وقصور نظره الذي اضطرّه إليه "افتراض الخدعة" المزعوم؛ فوجهة نظر مشركي مكة إلى دخول النبي لِمكة معتمرا (وليس بالضرورة أن يكون غازيا محاربا كما زعم "لَمنس") تتمثّل في: «أنّهم نظروا إلى الأمر من زاوية ضيقة، فرأت أنّ مهابتها ستترع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلدهم على هذا النحو؛ **بعدما وقع بينهم من حروب طاحنة**»[2].

يدلّ على ذلك حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة عند أحمد وابن إسحاق؛ وفيه: أنّ النبي ﷺ لَمّا أخبر "بديلَ بن ورقاء" مع رجال من خزاعة أنّه: لَمْ يأتِ لقتال، وإنّما جاء زائرا للبيت، ومعظّمًا لِحرمته، رَجَع "بديل" ومن معه إلى قريش، وقالوا: "يا معشر قريش، إنّكم تَعْجلون على محمّدٍ؛ إنّ محمّدا ﷺ لَمْ يَأتِ لقتال، وإنّما جاء زائرًا هذا البيت"، فقالوا – وهنا الشاهد–: «**وإنْ كان جاء ولا يريد قتالا، فو الله لا يدخُلُها علينا عنوةً أبدًا**، ولا تَتحدَّث بذلك عنّا العرب»[3].

---

[1]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 184/17. ومسند أحمد، 212/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 309/2-310. والرحيق المختوم، المباركفوري، 400.

[2]– فقه السيرة، الغزالي، 325.

[3]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 212/31-213. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 311/2. وحسنه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

سابعا– التعريف بالحديبية، وردّ زعم "لَمنس": الحديبية اسم لبئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً (22 كلم) إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وفيها حدائق الحديبية ومسجد الرضوان، وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي ومعظمها من الحِلِّ خارجه[1].

لكنّ تلك البئر والشجرة التي كانت في ذلك الموضع لم يكن لَها أيّ تقديس ولا تعظيم قبل نزول النبي ﷺ وأصحابه بِها، وادّعاء المستشرق "لَمنس-Lammens" لذلك أمر يحتاج إلى نصّ من كتب التاريخ، وهو ما لم يُذكر أصلا، فالعجب منه كيف يختلق أمورا لا أصل لها بتهافت بالغ، لغرض إلصاق بعض الشوائب الوثنية بالإسلام، مع أنّ محاربة الإسلام ونبيه ﷺ للوثنيّة بكلّ أشكالها أمر لا يخفى على من له أدنى اطّلاع على القرآن والسيرة النبوية، أمّا إن كان "لَمنس-Lammens" يقصد بأنّ البئر والشجرة صار لَهما تقديس بعد نزول النبي ﷺ بأصحابه ذلك الموضع، فهو أمر يحتاج إلى تدقيق في العبارة، مع ملاحظة أنّ الغربيين يتساهلون في مثل هذه الألفاظ "كالتقديس" و"التعظيم" ونحوها، فليس هناك تقديس للبئر أو الشجرة بعينهما، بدليل أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ أمر بقطعها[2]، سداً لذريعة إمكانية تقديسها أو نحو ذلك من مظاهر الوثنية، وفي ذلك ردّ على المستشرق، وبيان لكيفية سدّ المسلمين للذرائع التي يُحتمل أن توصل إلى الوثنية أو إلى التعلّق بشيء من مظاهرها، ويمكن القول أنّ الموضع اكتسب أهميّة تاريخية، بعد نزول النبي ﷺ به مع أصحابه وإبرامه لصلح الحديبية فيه، فلا يعدو أن يكون الأمر اهتماماً بتراث تاريخي، يذكّر بِحدث هام في السيرة النبوية العطرة.

المطلب الثاني : المفاوضات وإبرام الصلح

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الحديبية**" [فقرة: 2]: «... **ودخل في مفاوضات معهم واقتصر في مطالبه على طلب واحد هو أن يسمح له ولصحبه زيارة الكعبة، ولكن هذا الطلب رفض أول الأمر وتلت ذلك مفاوضات طويلة شاقة، ولم يجرؤ عمر على أن يسفر**[3] **لمكة لمفاوضة قريش فاختير عثمان لهذا الغرض، فقد كان له في جاه أسرته بني أمية أصحاب النفوذ حمى ومنعة، فلما أرجف بموته جمع محمد صحبه تحت شجرة الحديبية وطلب إليهم مبايعته، وهي البيعة التي يقال لها بيعة الحديبية وتسمى أيضا "بيعة الشجرة" أو "بيعة الرضوان" (وهي إشارة مبهمة للآية 18 من سورة الفتح) التي تواتر أنها تشير إلى هذه**

[1]– ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 229/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 94.

[2]– ينظر: طبقات ابن سعد، 76/2. وفتح الباري، ابن حجر، 558/7. ويُحتمل أنّ الشجرة جرفها السّيل قبل ذلك كما ذكر الطبري، أو أنّ التي أمر عمر ﷺ بقطعها شجرة أخرى نحو موضعها. ينظر: تفسير الطبري، 275/21.

[3]– مِن: سَفَر بين القوم، يُسْفر سفارة. ينظر: مختار الصحاح، الرازي، 148.

الحوادث... وبعد بضعة أيام وصل سفراء من مكة، وقد بحث العهد الذي كان مزمعا إبرامه حكما حكما وكلمة كلمة، واضطر محمد في ديباجة العهد أن يترك ذكر البسملة وأنه رسول الله، بل قطع على نفسه العهد بأنه يرد على قريش من يأتيه منهم ولكن المكيين لم يتعهدوا برد المسلمين، أما العمرة فقد سمح للمسلمين بأدائها في العام التالي على أن يكون معهم من السلاح السيوف في قربها ولا سلاح غيرها»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[2].

– وجاء في مادة "**[أبو] سفيان**"[فقرة: 2]: «**... واعتزل أبو سفيان الحرب تَماماً أثناء غزوة النبي التي انتهت بصلح الحديبية، لأن الحزب الذي كان يناصر الحرب ظل نافذ الكلمة في مكة**»[3].

المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وفي مادة "**بُدَيل بن ورقاء**"[فقرة: 1]: «**زعيم بني خزاعة، وهي قبيلة كانت تسكن بالقرب من مكة، وكانت عيناً للنبي تنبِّئه بما تدبّره قريش ثُمّ حالفته بعد عهد الحديبية الذي عُقد في العام السّادس للهجرة (628م). وكان أول ظهور بديل في معسكر الحديبية ليُخبر محمداً ﷺ أنّ قريشا ستقاتله وتصدّه، ثم عاد إلى مكة وكانت له دار بها فأعلم قريشا بما اعتزمه النبي**»[5].

المحرر هو المستشرق: **لمنس** – Lammens.

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 53]: «**... وكان الكثيرون في مكة يَميلون إلى تَمكينه من بُغيته، غير أن الحزب المتشدد، كان لا يزال قويا وأرسل جماعة مسلحة [للقائه]**[6] **ومنعه من دخول مكة، لذلك عسكر عند الحديبية حيث شرع في التفاوض مع بعض كبار أهل مكة، وحين فشلت هذه المفاوضات أرسل عثمان، الذي ضمنت له صلاته العائلية الحماية ممثلا له إلى مكة، فلما غاب عثمان عدة أيام شاع الخبر بين المسلمين أنه قتل، فتوتر الوضع، وقطع محمد ﷺ المفاوضات، وجمع أتباعه تحت شجرة، وطلب منهم أن يبايعوه على القتال في سبيل الله إلى النهاية، وهو ما فعله كافّتهم تقريبا...** ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ **سورة الفتح آية (18)، وبعد ذلك بقليل وصل عدد من رجال مكة ومعهم عثمان يعرضون حلا وسطا، هو أن يعود المسلمون أدراجهم هذه المرة دون عمرة، على أن يُسمح لهم بأداء العمرة في العام التالي، وقد قبل**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/328-329.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/355.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/473.

[6]– في المطبوع: "للقائد" ويظهر أنّه خطأ مطبعي، وما أثبته هو الموافق لسياق الكلام.

محمد ﷺ العرض وأبرم مع قريش هدنة مدتها عشر سنوات واعدا بتسلمهما كافة المكيين من الرقيق والموالي الذين يلجأون إلى المدينة»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

بعد أن تجنّب النبي ﷺ وأصحابه ملاقاة فرسان قريش بقيادة "خالد بن الوليد"، رجع خالد إلى مكة وأعلم قريشا بِما حصل[2]، ويبدو أنّهم استشعروا من هذا التحرك أنّ النبي ﷺ يتحاشى الصدام العسكري معهم[3]، خاصّة بعد أن بيّنوا الغاية التي خرجوا من أجلها إلى مكة عن طريق "بديل بن ورقاء" الذي كان أوّل وسيط بين النبي ﷺ وكفار مكة، حيث أبلغهم بمقصد النبي ﷺ وأنّه ما جاء محاربا، لكنّ قريشا أصرّت على منع المسلمين من دخول مكة وإن كانوا إنّما جاءوا معتمرين، ولا نيّة لهم في القتال، فخرجت لصدّ النبي ﷺ وعسكرت "ببَلْدح"[4][5].

أولا– بداية المفاوضات مع قريش: بذَل رسول الله ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام، وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك **أرسلت إليه من يفاوضه،** ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية[6]؛ لأنّ قريشا جرّبت حرب المسلمين، وأدركت مدى بأسهم وشدتهم في القتال، وهي لا تريد الدخول معهم في معركة دامية جديدة مادامت الوسائل السلمية لِمعالجة الموقف متاحة.

ثانيا– سفراء النبي ﷺ إلى قريش:

[1]– **بديل بن ورقاء:** لَمّا عسكر النبي ﷺ بالحديبية أتاه "بديل بن ورقاء" في رجال من "خزاعة"[7]، وكانت خزاعة عيبة نصح[8] رسول الله ﷺ مسلمها وكافرها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة، وقد دخلوا في حلف الرسول ﷺ في عهد الحديبية –كما سيأتي–، ثُمّ إنّهم سألوه عما جاء به، فأخبرهم أنه

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9145-9146.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 5/404. ومسند أحمد، 31/212-213. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/310.

[3]– ينظر: القول المبين، النجار، 312.

[4]– **بَلْدح:** واد بمكة، في الجهة الغربية منها. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 1 /480. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 49.

[5]– ينظر: مغازي الواقدي، 2/579. ودلائل النبوة، البيهقي، 4/133. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/438.

[6]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/327. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 663.

[7]– **خُزاعة:** قبيلة من الأزد القحطانية، تنسب إلى: عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو، كانوا بأنحاء مكة في مرّ الظهران وما يليه. ينظر: معجم البلدان، 5/104-105. معجم قبائل العرب، عمر كحالة، 1/338-339.

[8]– **العيبة:** ما توضع فيه الثياب للحفظ، والمعنى: أنّهم كانوا موضع النّصح. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 5/413.

لم يأت يريد حربا، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظّما له، فرجعوا إلى قريش بذلك؛ فاتهموهم، وقالوا: وإن جاء لا يريد قتالا فو الله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة[1].

وقد ذكر سفارة "بديل" بين النبي ﷺ وقريش المستشرقُ "لَمنس-Lammens" في مادة "بديل".

ورأى النبي ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم نواياه السلمية:

[2]- فبعث ﷺ **خراش بن أمية الخزاعي** إلى مكة: فأرادت قريش قتله لولا أن منعهم الأحابيش، حتى رجع إلى رسول الله ﷺ[2].

[3]- **العزم على إرسال عمر** رضي الله عنه: ثم أراد النبي ﷺ أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاعتذر عمر عن الذهاب إليهم قائلا: «يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي؛ وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفَت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلّك على رجل هو أعزّ منّي، عثمان بن عفان»[3]؛ وفي هذه الرواية بيان الأسباب التي من أجلها اعتذر عمر رضي الله عنه عن الذهاب إلى قريش، وهي أسباب واقعيّة لا تُعبّر عن "عدم جرأة عمر رضي الله عنه"[4] -كما ذكر "لَمنس-Lammens"- بقدر ما تُعبّر عن حرصه على نَجاح مهمة السفارة وتحقيق هدفها، لذلك اقترح على الرسول ﷺ رجلا آخر هو عثمان، لكونه أصلح لهذه المهمة منه، فلكل أمرٍ رجاله.

ومن الطبيعي أن يخشى عمر رضي الله عنه على نفسه من قريش، فما هو إلاّ رجل واحد، وقريش شديدة الحقد عليه من أجل مسارعته إلى عداوتهم وغلظته عليهم، وشوكة بني عدي - قبيلته - في مكة ضعيفة، وما نزل بخراش بن أميّة من قريش غير بعيد.

[4]- **إرسال عثمان:** قَبِل الرسول ﷺ عذر عمر رضي الله عنه ودعا عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لِحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته، فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فأكرمه وأجاره حتى بلّغ قريشاً رسالة رسول الله ﷺ[5].

ثالثا- بيعة الرضوان: وقد أخّرت قريش عثمان بن عفّان رضي الله عنه[6] وطال احتباسه عن المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل، فقال الرسول ﷺ: ((لا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ))؛

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 404/5. ومسند أحمد، 213/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 312/2.

[2]- ينظر: مسند أحمد، 216/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 314/2.

[3]- ينظر: مسند أحمد، 216/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 315/2.

[4]- وجرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإقدامه أمر لا يخفى من مواقفه التّترى في السيرة النبوية، ولكنّه نظر هنا إلى الأمر من جانب حرصه على نجاح المهمة، بأن يتولاه من هو أصلح لها منه.

[5]- ينظر: مسند أحمد، 216/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 315/2.

[6]- والظاهر أنّهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة، حيث كان بينهم مَن يعارض صدّ المسلمين عن البيت كما سيأتي. ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، 403.

ودعا إلى البيعة تحت شجرة سمرة هناك، فبايعوه على الموت، وعلى ألا يفروا، ولَمّا تمت البيعة للحاضرين ضرب الرسول ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال: ((وهَذِهِ لِعُثْمَانَ))، وهذه البيعة هي **بيعة الرضوان**؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]، ثم لم يلبث أن جاء إليهم سالما، وبذلك كفى الله المؤمنين القتال، وحقق رغبتهم في السلام[1].

رابعا- سفراء قريش إلى النبي ﷺ: لم تطمئن قريش إلى ما نقله "بديل بن ورقاء" ومن معه عن الرسول ﷺ، لعلمهم بتعاطفهم معه ﷺ، فأَرسَلت آخرين تطمئنّ إليهم للتحقّق من الأمر، وهم:

[1]- **عروة بن مسعود الثقفي**: هو الذي اقترح على قريش أن يقابل الرسول ﷺ ويسمع منه، ثم يأتيهم بالخبر اليقين، وهو غير متّهم فيهم، فبعثوه إليه، فأتى النبيَّ ﷺ وكلّمه، فقال له النبيُّ ﷺ نَحوَ ما قال لبديل وأصحابه، وأخبره أنّه لم يأت يريد حربًا، ثم قام من عند النبي ﷺ، وقد لاحظ تعظيم المسلمين للرسول ﷺ وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما رجع إلى قريش دعاهم لقبول المصالحة، فقال: إنّه قد عرض عليكم خطّة رشدٍ فاقبلوها، وقال: ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم[2].

[2]- ثم أرسلت قريش **الحليس بن علقمة**: سيد الأحابيش، فلما رآه الرسول ﷺ مقبلاً قال: ((هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ))[3]، وطلب من أصحابه أن يظهروا أمامه الهدي لِيَراه، وأن يلبّوا أمامه، فلما رأى "الحليسُ" ذلك رجع إلى قريش - ولم يصِلْ إلى رسول الله ﷺ إعظاما لِما رأى- وقال لهم: «رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت»، فقالوا: "أجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك"، فغضب الحليس وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاءه معظّما له!»[4].

[3]- ثم بعثوا **مكرز بن حفص**: فلما انتهى إلى رسولِ الله ﷺ كلّمه بنحوٍ مِمّا كلّم به أصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال الرسول ﷺ[5].

[4]- ثم أرسلت قريش "**سهيل بن عمرو**": فقال النبي ﷺ متفائلاً: ((لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ))[6]، وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو ألا يكون في صلحه إلا أن يرجع المسلمون عن العمرة

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 142/6 و69/7. وصحيح مسلم (النووي)، 3/13-4 و84/16. ومسند أحمد، 217/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 315/2-316. وفتح الباري، ابن حجر، 143/6. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 331/2.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 404/5-405. ومسند أحمد، 215/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 313/2-314.

[3]- أخرجه: **البخاري**، صحيح (الفتح)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، 405/5. من حديث مروان والمسور.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 405/5. ومسند أحمد، 214/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 312/2.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 405/5. ومسند أحمد، 214/31.

[6]- صحيح البخاري (الفتح)، 406/5. من حديث مروان والمسور أيضا.

عامهم هذا، وقد جرت مفاوضة طويلة بين الرسول ﷺ وسهيل بن عمرو، انتهت إلى عقد صلح الحديبية[1].

خامسا- بنود صلح الحديبية: وقع اختلاف في **مقدمة العقد** حيث أراد الرسول ﷺ إعطاءه صبغة إسلامية فاعترض سهيل بن عمرو، وكان علي بن أبي طالب يكتب العقد، فقال النبي ﷺ: ((اكْتُبْ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"))، فقال سهيل: أما "الرحمن" فو الله ما أدري ما هي، ولكن أكتب "باسمك اللهم" كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال النبي ﷺ: ((اكْتُبْ "بِاسْمِكَ اللهُمَّ"))، ثم قال: ((هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ))، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أكتب "محمد بن عبد الله"، فقال النبي ﷺ: ((وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ "مُحمّد بن عبد اللهِ"))[2].

أمّا بنود هذه المعاهدة فكانت كالآتي[3]:

أ)- أن يرجع الرسول ﷺ من عامه هذا، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون، فيدخلها المسلمون ويقيمون بها ثلاثا، ليس معهم من السلاح إلا السيوف في أغمادها.

ب)- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين؛ يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

ج)- ومن أحب أن **يدخل في عقد محمد** وعهده دخل فيه، ومن أحب أن **يدخل في عقد قريش** وعهدهم دخل فيه؛ فدخلت **خزاعة** في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت **بنو بكر** في عقد قريش.

د)- ومن أتى محمدا ﷺ من قريش بغير إذن وليه - أي هاربا منهم- ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه.

هـ)- وأنّ بينهم عيبة مكفوفة[4]، وأنّه لا إسلال ولا إغلال[5].

ذكر بعض هذه البنود من المصالحة "لَمنس-Lammens" في مادة "الحديبية"، و"بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" في نصّيهما المذكورين.

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، 405/5-406. ومسند أحمد، 217/31. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 316/2.

[2]- صحيح البخاري (الفتح)، 373/5 و406. ومسند أحمد، 218/31 و248-249. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 317/2.

[3]- ينظر: مسند أحمد، 218/31-219. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 317/2-318. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 333/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 442/2-443.

[4]- أي: بينهم صدر نقي من الغل والخداع؛ وهو إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها، والعزم على الوفاء بالعهد الذي تَمّ بينهم. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، 327/3. وفتح الباري، ابن حجر، 421/5.

[5]- أي: أي لا سرقة ولا خيانة. ينظر: فتح الباري، 421/5. وشرح الزرقاني على المواهب، 209/3.

وقد تبدو بنود معاهدة الحديبية لأول وهلة في مصلحة قريش، مع ما فيها من التنازل أو بعض الشروط المجحفة بالمسلمين، كما أشار "لَمنس-Lammens" إلى ذلك في نصّه المذكور من مادة "الحديبية"، لكنّ النبي ﷺ قبل هذه الشروط لأنه يصدع بأمر الله وإلهامه ولن يضيعه الله أبدا، ولحرصه على أن يسود السلام ويحفظ للبيت حرمته، ثُمّ ما لبثت أن كشفت الأيام عن أن النبي ﷺ قد ذهب فيها بالنصيب الأوفر، وحقق بواسطتها أهدافه الكبرى، فكانت بحقّ فتحا مبينا[1].

– **تنبيه:** أمّا قول المستشرق "بول-Buhl" أنّ "أبا سفيان بن حرب" اعتزل[2] في حادثة الحديبية[3]، فهو أمر لا يُمكن التسليم به، ولا يوجد ما يدلّ عليه، وإنّما كان شأنه كشأن بقيّة سادة مكة الذين أصروا على منع النبي ﷺ من دخولها، وفي "مسند أحمد" و"سيرة ابن إسحاق" ما يشير إلى ذلك، حيث ورد اسم "أبي سفيان" في الحادثة مع سادة قريش؛ ففي "المسند" من حديث مروان والمسور: «... فانْطَلَق عثمانُ حتّى **أتَى أبا سفيان وعظماء قريش**، فبَلَّغَهم عن رسولِ الله ﷺ »[4]، وفي رواية ابن إسحاق: «فبعثه [أي: بعث النبيُّ عثمانَ] **إلى أبي سفيان** وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ...»[5].

سادسا– الموقف المعارض لصدّ النبي ﷺ عن العمرة: أشار المستشرق "بول-Buhl" إلى وجود موقف في مكة معارض لصدّ النبي ﷺ وأصحابه عن البيت، فقال: «**وكان الكثيرون في مكة يَميلون إلى تَمكينه من بُغيته، غير أن الحزب المتشدد كان لا يزال قويا**»؛ وهؤلاء المعارضون لصدّه الذين أعلنوا موقفهم كما بيّنت الروايات هم: – "**الأحابيش**"[6] بزعامة "الحليس بن علقمة" الذي بعثته قريش إلى النبي ﷺ ليعرف سبب خروجه إلى مكة -كما سبق- فلمّا رجع إلى قريش قال لهم: "**إني رأيت ما لا يحل منعه**" فقالوا له: "اجلس، إنما أنت أعرابي، لا علم لك"؛ فغضب "الحليس" وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالَفْناكم، ولا على هذا عاقدناكم، **أيُصدّ عن بيت الله مَن جاءه**

---

[1]– ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 630. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد النبي ﷺ، أحمد الشريف، 374.

[2]– أمّا قوله "اعتزل الحرب" فلعلّه مشي منه مع قول "لمنس" السابق أنّ النبي ﷺ خرج في حملة عسكرية، وقد سبق ردّ ذلك والجواب عليه، ويُحتمل أن يكون مقصده: خروجُ قريش لصدّ النبي ﷺ ولو بالقتال، فكلامه غير واضح تماما.

[3]– جاء عند الواقدي "المغازي، 792/2" والزرقاني "شرح المواهب، 222/3": أنّ أبا سفيان لَمّا وقع نقض قريش لعهد الحديبية، وجاء إلى النبي ﷺ يحاول تجديد العهد، كان من جملة ما قال أبو سفيان للنبي ﷺ: "... إنّي **كنت غائبا يوم الحديبية** ..."، لكن هذه الرواية لا تشهد لقول المستشرق "بول" من وجهين؛ **الأول:** أنّ الغياب غير الاعتزال، حيث كان باقيا على عداوته للنبي ﷺ آنذاك، **والثاني:** أنّ معنى كلامه أنّه لم يكن حاضرا في المفاوضات المباشرة مع النبي ﷺ التي وقعت في معسكر المسلمين في الحديبية، والتي تولاّها "سهيل بن عمرو" و"مكرز" نيابة عن قريش، وليس معنى ذلك أنّ أبا سفيان كان غائبا تماما عن حادثة الحديبية، ورواية ابن إسحاق الآتي ذكرتُها مصرّحة بأنّه كان حاضرا فيها بمعسكر المشركين، وكان رأيه فيها كرأي سادة قريش.

[4]– مسند أحمد، 216/31.

[5]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 315/2.

[6]– "**الأحابيش**": هم مجموعة من قبائل الأعراب المجاورين لِمكة تحالفوا مع قريش. سيأتي تعريفهم في: ص863.

معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد»، فقالوا له: «مـــه -أي: كُفَّ عنّا- يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به»[1].

- ويضاف إليهم "**عروة بن مسعود**" الثقفي الذي اقترح على قريش مصالحة النبي ﷺ بعد رجوعه من عنده بعدما لاحظ قوّة المسلمين عن كثب، وكذلك "**خزاعة**" التي كانت موضع النصح للمسلمين بيّنت لقريش بعدما كلّمت النبي ﷺ أنّه إنّما جاء معتمرا فلا يعجلوا عليه، لكن قريشا لم تطمئنّ لقولهم لمعرفتها بتعاطفهم مع المسلمين، وكلام "بول-Buhl" يُشعر أنّ الموقف المعارض كان منذ سماع قريش بخروج النبي ﷺ إلى مكّة، لكنّ الذي دلّت عليه الروايات وسياق الوقائع أنّ هؤلاء أبدوا موقفهم المعارض بعدما التقوا بالنبي ﷺ وكلّموه، وتبيّنوا منه حقيقة عزمه على زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وعاينوا ذلك بأنفسهم، ورأوا إصرار قريش على صدّه، الأمر الذي جعلهم يتعاطفون مع النبي ﷺ وأصحابه، ويدافعون عن موقفه المسالم والمعظّم للمسجد الحرام.

المطلب الثالث : آثار صلح الحديبية وأهميته

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

- جاء في مادة "**الحديبية**" [فقرة: 3]: «**وقد خيب هذا العهد آمال الصحابة خيبة عظيمة، فقد كانوا ضاقوا صبرا بطول المدة التي قضوها في سكون، إلا أن النبي في الواقع قد كسب في صراعه مع مكة كسبا سياسيا عظيما، ذلك أنه لم يتنازل من ناحيته عن أية حقوق كان كسبها اللهم إلا مطالب بسيطة، كما أنه حمل أشراف قريش على مفاوضته مفاوضة الند واعترف به لأول مرة أمام العرب جميعا بأنه أصبح من أصحاب السلطان في البلاد، فقد دخلت قريش في مفاوضة مع ذلكم الرجل الذي كان شريدا يتزعم طائفة من الآبقين الذين قطعوا كل ما كان يربطهم من صلة بمنازلهم، فأسدلت بذلك دار الندوة (انظر هذه المادة) على الماضي ستار النسيان، ومن ثم أتيح لأبي القاسم أن يستغل ذلك إلى أقصى حد، وأن يفيد من حرية التنقل التي أباحها له هذا العهد إفادة كاملة، ولم تعد المدينة تخشى شيئا من مكة... واعتزم النبي في الوقت نفسه أن ينحر في الحديبية الهدي الذي جاء به**»[2]. المحرر هو: **لمنس** – Lammens[3].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 54]: «**وقد غضب بعض أتباعه عند سَماعهم الشروط التي قبلها النبي ﷺ، إذ كانوا مصمّمين على أداء شعائر العمرة في مكة ذلك العام، غير أن محمداً ﷺ أمر في هدوء بذبح الهدْي الذي أحضروه معهم، والذي كان المفروض أن يذبَحوه أثناء العمرة في مكة، ثم**

---

[1]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 312/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 211/6-212.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 329/7.

[3]- سبقت ترجمته في: ص211.

حلق رأسه وجبر أتباعه المتذمّرين أن يَحذوا حذوه، وما أدركوا إلا بعد مدّة أن محمداً ﷺ قام بحركة دبلوماسية باهرة بإبرامه صلح الحديبية، إذ جعل أهل مكة يعترفون به ندا لهم، وعقد معهم صلحا يبشر بالخير في المستقبل، وكسب إعجاب الكثيرين في مكة، وثمة ما يدل على أن عددا من قادة مكة كانوا قد غدوا على استعداد لِهجر وثنيتهم إلى التوحيد»[1].

– ثم جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 55]: «... **كذلك فإنه مِما كان له أهمية كبرى في التاريخ اللاحق للإسلام أن بعض أبرز الشخصيات المكية، كخالد بن الوليد القائد الحربي العبقري، وعمرو بن العاص الذي يكاد يُماثل خالداً في عبقريته والذي فتح مصر فيما بعد أثناء خلافة عمر، تَحوّلوا إلى الإسلام، ولابد أن هؤلاء المكيين أدركوا أن الغلبة ستكون لِمحمد ﷺ في شبه الجزيرة فانضموا صراحة إلى صفه**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– عدم رضا معظم الصحابة بشروط الصلح في البداية: لَما فرغ رسول الله ﷺ من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه: ((قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْـلِقُوا))، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلم يقم منهم أحد، فكأنّهم كانوا ما زالوا يأملون في دخول مكة، ثُمّ لَمّا رأوا النبيَّ ﷺ قام -بِمشورة من أم سلمة رضي الله عنها- فذبح بدنه وحلق رأسه؛ قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً[4]، ودعا رسول الله ﷺ لِمن حلق منهم ثلاثاً فقال: ((اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُحَلِّقِينَ))، ولمن قصَّر مرة، فقال في الرابعة: ((وَالْمُقَصِّرِينَ))[5].

أشار المستشرق "لَمنس-Lammens" في مطلع مادة "الحديبية" إلى "**خيبة الأمل**" التي أصابت صحابة الرسول ﷺ بعد إبرام صلح الحديبية ورجوعهم عن دخول مكة، حيث أحزنَ معظمَ الصحابة مَنْعُ قريش لهم من دخول مكة، فلم يتيسر لهم الطواف بالكعبة، و لم يبلغ الهدى محله، وهاجت في نفوسهم عواطفٌ من الغضب وخيبة الأمل، وانتابهم وجوم ثقيل لهذه النهاية الكئيبة، لأنّهم تصوّروا أنهم داخلون المسجد الحرام هذا العام، وها هم أولاء قد ارتدوا عنه، لكنّ رسول الله ﷺ بيّن أنهم عائدون إلى دخوله كما وُعدوا، فهو لم يذكر لَهم أنّهم سيطوفون به هذا العام[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9146/30.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 9149/30.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 407/5. ومسند أحمد، 251/31. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 446/2.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 708/3-709. وصحيح مسلم (النووي)، 71/9-72.

[6]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 334.

وفي الوقت نفسه شقّ عليهم ما كانوا يرونه إجحافا في حقّ المسلمين من شروط الصلح، و لم يقدّر كثير منهم الأهمية الكبرى للعهد الذي أبرم بين الفريقين في هذا المكان، لكن الله تعالى أظهر في القرآن الكريم هذه الأهمية، وأوضح الفوائد والبركات المترتبة على عقد هذا الصلح، وعدّه فتحا مبينا[1].

ففي الطريق إلى المدينة نزلت سورة الفتح[2]؛ وأسرع الناس إلى رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته، فقرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1]؛ فقال رجل: يا رسول الله، أفتح هو؟ قال ﷺ: ((نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ **إِنَّهُ لَفَتْحٌ**))[3].

نزل القرآن الكريم ليبين للمسلمين بأن هذا الصلح هو فتح مبين، ويؤكد أن النبي ﷺ كان على صواب في قبول الصلح، لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فَتَح بالصلح؛ **فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج**، وأن **التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير** لهم ولدعوة الإسلام[4].

حينئذ بدأ المسلمون يستبشرون بفوائد هذا الصلح قبل تحقّق أهدافه على أرض الواقع في الأحداث التالية، وعلى ضوء هذا السياق يُفسّر قول المستشرق "بول-Buhl": «**وما أدركوا إلا بعد مدّة أن محمداً ﷺ قام بحركة دبلوماسية باهرة بإبرامه صلح الحديبية**»؛ حيث **بدأت هذه المدّة** من وقت رجوعهم من الحديبية **بعد نزول** "سورة **الفتح**"، ثُمّ **ازداد إدراكهم** لِهذا الفتح **يقينا بعدما عادوا** إلى المدينة **وتوالت الأحداث** المؤكّدة للنتائج الباهرة لصلح الحديبية، وبدأ المسلمون حينذاك يلمسون بُعد نظر الرسول ﷺ وتباشير ما بشّرهم به من فتح قريب، وهي بعض أهداف الرسول ﷺ البعيدة التي لم يستطع المسلمون إدراكها في حينها؛ فظهرت لهم فوائد تلك الشروط التي صعب عليهم تقبّلها أوّل مرة، ورضي بها الرسول ﷺ؛ لبعد نظره ورجحان عقله، وإمداد الوحي له بالسداد في الرأي والعمل[5].

ثانيا- آثار صلح الحديبية ومكاسبه: أثبتت الأحداث التالية لصلح الحديبية الحكمة البالغة والنتائج الباهرة لهذا الصلح الذي سماه الله تعالى "**فتحًا مُبينًا**"، وبرهنت الحوادث الأخيرة على أنّ صلح الحديبية الذي تنازل فيه الرسول ﷺ لقبول كلّ ما ألحّت عليه قريش، ورأوا فيه انتصارا ومكسبا لهم، وتحمّله المسلمون لقوّة إيمانهم، وشدّة طاعتهم للرسول ﷺ، كان فتح باب جديد لانتصار الإسلام،

---

[1]- ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 629. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 446/2.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 564/7-565. والسيرة النبوية الصحيحة، 449/2.

[3]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجهاد، باب فيمن أسهم له، 289/7-290. **والحاكم**، المستدرك، كتاب قسم الفيء، 143/2. من حديث مجمّع بن جارية الأنصاري ﷺ، وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

[4]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 449/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 684.

[5]- ينظر: السيرة النبوية دروس وعبر، السباعي، 100. والرسول القائد، محمود شيت، 288.

وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم تسبق، وكان بابا إلى فتح مكّة، ودعوة ملوك العالم كقيصر وكسرى والمقوقس والنجاشيّ وأمراء العرب[1]، ويمكن إبراز أهمّ مكاسب هذا الصلح في النقاط الآتية:

[1]- صلح الحديبية فتح مبين: قال البراء بن عازب ﷺ: «تعدون أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحا، ونحن **نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية**»[2].

كان فتحاً لأنه تمهيد لدخول مكة المكرمة بالفتح الأعظم، يقول الإمام ابن القيم: «كان **صلح الْحديبية مقدِّمةً وتوطئةً بين يدي هذا الفتح العظيم**... وهذا شأْنُه - سبحانه - أنْ يُقدِّم بين يدي الأمور العظيمة مُقدِّماتٍ تكون كالمدخل إليها، الْمُنبِّهة عليها... فالرّؤيا الصّالِحة لرسول الله ﷺ كانت مُقدِّمةً بَيْن يدي الوحي في الْيَقَظة، وكذلك الْهجرةُ كانت مقَدِّمة بَيْن يَدَي الأمر بالجهاد، ومَنْ تأَمَّل أسْرَار الشّرْع والقدر، رأى من ذلك ما تبهر حكْمتُه الألباب»[3].

وقال ابن حجر: «فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1] المراد بالفتح هنا الحديبية؛ لأنها **كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين**، لِما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن، ورفع الحرب... ثُم تبعت الأسباب بعضها بعضًا إلى أن كمل الفتح»[4].

[2]- تسهيل أسباب الدعوة إلى الإسلام: كما كان صلح الحديبية فتحاً لقلوبٍ كانت مغلقة، وعقول كانت عليها غشاوة، بعدما أتاح فرصة نشر الإسلام وتبليغ دعوته أكثر من ذي قبل[5]، يقول الإمام الزهري: «**فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه**، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك»؛ ثم قال ابن هشام - معقِّبا على قوله -: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[6].

فمن أعظم ثمار هذا الصلح أنّ المسلمين استطاعوا في هذه الفترة السلمية، أن يقوموا بالدعوة إلى الإسلام، في ظلّ الأمن والسلام، وفي جوّ من الهدوء والسكينة؛ بحيث أتاح هذه الهدنة الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء لأن يختلط بعضهم ببعض، وتَمكّن من اختفى مِنَ الْمسلمين بِمكّة

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية، الندوي، 385.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، 549/7.

[3]- زاد المعاد، 370/3.

[4]- فتح الباري، 550/7.

[5]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1022/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 450/2.

[6]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/2.

مِن إظهار دينه، والدّعوة إليه، والْمناظرة عليه، ليطّلع المشركون على محاسن الإسلام، وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، وتطهير العقول والقلوب، من ألواث الشرك والوثنية، والعداء والخصومة، فمتى فهم الناس حقيقة الإسلام زالت الشكوك الكاذبة، وبطلت الظنون الخاطئة، فما كاد يمضي على هذا الصّلح عامين حتّى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة الماضية، وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل[1].

أشار إلى هذا التحول المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:54" فقال: «**وكسب إعجاب الكثيرين في مكة، وثمة ما يدل على أن عددا من قادة مكة كانوا قد غدوا على استعداد لِهجر وثنيتهم إلى التوحيد**»؛ ومن ذلك إسلام خالد وعمرو الذي ذكره "بول-Buhl" بعد ذلك في الفقرة (55).

[3]- إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص: من الأمثلة على أنّ صلح الحديبية كان فتحا للقلوب، دخول رجلين كبيرين من رجالات مكة في الإسلام؛ هما: - **خالد بن الوليد:** الذي كان قائد فرسان قريش، وبطل معارك عظيمة، وهو الذي أبلى في الله بلاء حسنا بعد ذلك، وفتح الله على يده الشام[2].

- ودخل في الإسلام **عمرو بن العاص:** داهية قريش، وأحد كبار القادة، وفاتح مصر من بعد ذلك[3]؛ وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية، فأسلما وحسن إسلامهما[4].

وكذا أسلم رجل ثالث لا يقلّ أهمية عن خالد وعمرو، وهو: **عثمان بن طلحة** حاجب الكعبة؛ وبإسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من أهل مكة وأصبحت مكة في حكم البلد الذي فتح أبوابه للدعوة الإسلامية، و لم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القيادة للمسلمين[5].

كما أتاح هذا الصلح لبعض القبائل فرصة الدخول في عقد محمد ﷺ والانضمام إلى صفوفه صراحة، وبخاصة قبيلة خزاعة -على ما سبق ذكره في بنود الصلح- التي كان جزء كبير من بطونها ضمن الأحابيش الذين كانت تعتمد عليهم قريشٌ؛ وبذلك ضمّ الرسول ﷺ جانباً كبيرًا من هذه القوى إلى صفّه، وأضعفت هذه التطورات مركز قريش الحربي إلى حدّ بعيد[6].

---

[1]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 370/3. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 630. والسيرة النبوية، الندوي، 386.

[2]- ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، 140/2. والإصابة، ابن حجر، 2/ 215-216. والسيرة النبوية، الندوي، 388.

[3]- ينظر: أسد الغابة، 232/4. والسيرة النبوية، للندوي، 388.

[4]- قصّة إسلامهما مفصّلة في: مسند أحمد، 314/29. ومستدرك الحاكم، 337/3. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 277/2-278.

[5]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 550/7. والإصابة، 373/4. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 375.

[6]- ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 375.

[4]– إنهاء الحرب الطاحنة بين الفريقين كان إيذانا بتفرغ المسلمين إلى الدعوة وتبليغها للناس كافة، في أنحاء الجزيرة وما يتاخمها من الدول والإمارات، وهذا ما وقع بالفعل، حيث كاتب النبي ﷺ الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام؛ وهذه الحركة العالية نقلت الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العالمي، وهزت عروش ملوك، وأدخلت ملوكا في الإسلام، وما كان هذا الأمر ليتم قبل صلح الحديبية[1].

وهذه النقطة من الأمثلة على ما ذكره "لَمنس-Lammens" من «**إفادة النبي ﷺ من حرية التنقل التي أباحها له هذا العهد**».

[5]– وكان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله ﷺ وما بدا منه من زهد في الحرب، ورغبة في الصلح، وحلم وأناة؛ أن تغيّرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد، إلى الدين الجديد، والداعي إليه، ونشأ في نفوسهم إجلال للإسلام وتقدير له لم يكن من قبل، فقد أثار موقف قريش الرأي العام العربي ضدها، لصدّها من قصد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، مما أكسب المسلمين عطف كثير من القبائل العربية ومن قريش نفسها، وكذا من أهل المنطقة المجاورة لقريش[2].

[6]– بمقتضى هذه المعاهدة اعترفت قريش بكيان المسلمين لأول مرة فعاملتهم معاملة النّد للنّد، بعد أن كانت تصورهم أمام الناس بأبشع الصور، مما كان صداه عميقا داخل مكة وأرجاء الجزيرة العربية، وفي ذلك تمهيد لاتساع نفوذ الإسلام وسطوته[3].

ذكر هذه النقطة "لَمنس-Lammens" في الفقرة المذكورة من مادة "الحديبية"، و"بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:54".

[7]– كان السلام المبرم يتيح الفرصة للمسلمين للتفرغ ليهود خيبر آخر معاقل اليهود التي استُغلت للتحريض على المسلمين في الخندق وما بعدها[4].

والحاصل: أنّ «شروط عهد الحديبية وإن بدت لأول وهلة في مصلحة قريش، فإن الأيام ما لبثت أن كشفت عن أن النبي ﷺ قد ذهب فيها بالنصيب الأوفر، وحقق فيها وبواسطتها أهدافه الكبرى»[5]؛ فكان صلح الحديبية بحقّ فتحا مبينا، وكان "**كسبا سياسيا عظيما**" وفق عبارة "لَمنس-Lammens".

هكذا أثبتت الوقائع التالية لصلح الحديبية **بُعد نظر النبي ﷺ وسلامة تقديره**، وكانت آية من آيات السياسة الحكيمة والدبلوماسية الفذة، حتى اعتبرت فتحًا مبينًا فاق في كل نتائجه أعظم الفتوح

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 340/2. والمنهج الحركي للسيرة النبوية، الغضبان، 55/3.

[2]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت، 288. والسيرة النبوية، الندوي، 387. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 439/2.

[3]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 340/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 450/2.

[4]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 278/3. وفتح الباري، ابن حجر، 550/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 450/2.

[5]– مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 374.

الحربية؛ فإنه لم يفتح البلاد وحدها، وإنما فتح العقول والقلوب للدين الجديد ومهد للفتح الأعظم بعد ذلك بسنتين، وهو فتح مكة فتحًا سلميًّا، وانضمامها إلى الدولة الإسلامية، وما أعقب ذلك من توحيد العرب، ودخول الناس في دين الله أفواجًا[1].

يقول ابن حجر في هذا المعنى: «كان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عزًّا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل لا يتكلمون عندهم بذلك إلّا خفية، وظهر من كان يخفى إسلامه؛ فذَلَّ المشركون من حيث أرادوا العزّة، وقُهروا من حيث أرادوا الغلبة»[2].

[8]– ومن ثمرات صلح الحديبية أيضا "**عمرة القضاء**" الآتي ذكرها في العنصر الموالي.

الفرع الثالث : عمرة القضاء

– جاء في مادة "**الحج**" [فقرة: 1]: «**وإنما استطاع النبي أن يسعى إلى تحقيق أغراضه بعد إذ خاب أهل مكة في حصار المدينة في السنة الخامسة للهجرة، وكان أول مجهود بذله في هذا السبيل هو غزوة الحديبية، وهي وإن لم تبلغه مكة إلا أنّ الصلح الذي عقده مع قريش مهد الطريق للعمرة في السنة التالية**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[4].

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 56]: «**وفي أواخر العام السابع الهجري (مارس 629م) أدى محمد ﷺ العمرة التي نصّ عليها صلح الحديبية، وأدى مناسكها عند الكعبة وفي الحرم المكي، وقد كان من بواعث رضاه الشديد – وهو الذي طُرد من بلدته قبل سبع سنوات – أن يتمكن الآن من زيارة مكة بصفته سيد المدينة غير المنازع**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[6].

استطاع المسلمون بمقتضى أحكام "صلح الحديبية" أن يدخلوا مكة في العام التالي؛ معتمرين، محلقين ومقصرين، آمنين من غير مناجزة ولا حرب، وهذا ما كان يريده المسلمون[7].

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 377.

[2]– فتح الباري، 427/5.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 303/7.

[4]– سبقت ترجمته في: ص49.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9148/30.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

[7]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 340/2.

وهو ما بشّر به الله عز وجل في قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27]؛ قال ابن كثير: «فكان هذا الوعدُ فِي سنَة الحديبية عام ستٍّ، ووَقَع إنْجازُه في سنَة سبعٍ، عامَ عمرة القضاء»[1].

ففي ذي القعدة في السنة السابعة من الهجرة (7 هـ) خرج الرسول ﷺ مع أصحابه إلى مكة قاصدا العمرة، كما اتفق مع قريش في صلح الحديبية[2]، فساروا إلى مكة، وأحرموا بالعمرة، وساقوا أمامهم الهدي، وخلّت قريش بينهم وبين مكّة، وأقفلوا بيوتهم، وتركوا منازلهم إلى التلال والجبال المشرفة عليها، وأخذوا ينظرون إلى الرسول وأصحابه، وهم يحيطون به إجلالاً وإكبارًا واعتمر النبي ﷺ وأصحابه، فلمّا انقضت الأيام الثلاثة التي سُمح للمسلمين بأن يقيموها في مكة عملا باتفاق، أذّن ﷺ في المسلمين بالرحيل، فعادوا إلى المدينة سالمين مغتبطين[3].

ولا شك أن دخول المسلمين مكة، وظهورهم بهذا المظهر الرائع أثر في نفوس الكثير من أبنائها، وعلت كلمة المسلمين في الحجاز، وكتب الله للمسلمين عزة ونصرًا، وللإسلام خلودًا وانتشارًا[4].

---

[1]- البداية والنهاية، 117/9.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 370/2. وفتح الباري، ابن حجر، 626/7.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 624/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 370/2-372. والقول المبين، النجار، 323.

[4]- ينظر: القول المبين، 324.

المبحث الثاني : رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء

أتاح صلح الحديبية الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل جزيرة العرب وخارجها، فبعد أن بذل النبي ﷺ جهدا كبيرا في نشر الإسلام في الجزيرة العربية بأساليب مختلفة، اختار أسلوبا جديدا لنشر الإسلام خارجها؛ تمثّل في مراسلة الملوك والرؤساء لدعوتهم إلى الإسلام، لأنّ رسالته عالمية لا تقتصر على أناس بعينهم، وغير محدودة المكان والزمان[1].

المطلب الأول : ذكر رسائله إجمالا وتاريخها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الخاتم**" : «**وتقص علينا الروايات بعض الأخبار عن خاتم النبي، فقد جاء في صحيح البخاري (طبعة بولاق 6291، ج7 (لباس) ص48) إن النبي رغب في أن يرسل كتبا إلى الروم، فقيل له إنهم لا يقرؤون كتابه إلا إذا كان مختوما، فاتخذ له خاتما من فضة، نقش عليه "محمد رسول الله"، ويقول المسعودي إنه اتخذ هذا الخاتم في المحرم سنة 7هـ، ويقال أيضا إن النبي اتّخذ في بادئ الأمر خاتما من ذهب، ولكنه نبذه عندما نهى عن الاختتام بالذهب**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **ألان** - J.Allan[3].

– وجاء في مادة "**دحية**"[فقرة: 2]: «**وضع مصنفو السيرة دحية مع ابن الخضرمي وعمرو بن العاص وغيرهما، مثُلا للسفراء الذين استعملهم النّبي سرّا لتأييد سياسته في الجزيرة العربية كلها وفي الربوع المتاخمة لها**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[5].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 57]: «**وتقول الروايات إن هذه هي الفترة –رغم الاختلاف حول تحديد التاريخ بدقة– التي أوفد فيها النبي ﷺ الرسائل إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، ونجاشي الحبشة، وهرقل الإمبراطور البيزنطي وملك فارس، وعدد آخر من الحكام يطالبهم باعتناق الإسلام**»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[7].

---

[1]– ينظر: القول المبين، محمد النجار، 330. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 454/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 173/8.

[3]– **ألان** "J.W.Allan": مستشرق بريطاني، لم أقف على ترجمة له في كتب تراجم الأعلام والمستشرقين المعاصرين، لكن ورد ضمن أسماء المحرّرين في النسخة الأجنبية "للدائرة" أنه: أستاذ بجامعة "أوكسفورد" بلندن. ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 4/VI".

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 170/9-171.

[5]– سبقت ترجمته في: ص211.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9146/30-9147.

[7]– سبقت ترجمته في: ص150.

– وفي مادة "**النجاشي**"[فقرة: 2]: «**ونعرف مما يذكره ابن سعد في "الطبقات" أن النبي ﷺ أرسل في السنة [السابعة][1] للهجرة ستة رُسُل إلى حكام وملوك الأقطار المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وكان من بينهم النجاشي**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **فان دونزل** - E.V. Donzel[3].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا– تاريخ إرسال الكتب: أرَّخ الواقدي والطبري إرسال هؤلاء الرسل في: **ذي الحجة سنة ستّ** للهجرة (6 هـ)؛ أي: في أواخرها[4]، وأرخ ابن سعد ذلك في **محرم من العام السابع**، وتابعه ابن القيم[5]، وهناك كتب تأخّرت إلى ما بعد ذلك مثل: كتابه إلى "جيفر" ملك عُمان وأخيه[6].

أشار إلى هذا الاختلاف في تحديد تاريخ إرسال الكتب المستشرق "بول-Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ"، لكنّه لم يبيّنه، وهو يسير يمكن التوفيق بين الأقوال فيه.

قال ابن كثير: «ولا خلاف بينهم، لأنّ بدء ذلك كان قبل فتح مكّة وبعد الحديبية، لقول أبي سفيان حين سأله هرقل: هل يغدر؟ فقال: "لا، **ونحن منه في مدة** ما ندري ما هو صانع فيها" [يعني: مدّة صلح الحديبية]، وفي لفظ للبخاري: "وذلك **في المدة التي مادّ** فيها أبو سفيان رسول الله ﷺ"، وقال ابن إسحاق: كان ذلك ما بين الحديبية ووفاته ﷺ»[7]؛ ويشهد لقول ابن إسحاق بعث عمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه كان بعد الفتح قريبا من وفاته ﷺ كما أفاد ابن حجر[8].

وحاول الزرقاني الجمع بين القولين، فقال: «أنَّ العزم على الإرسال والكتب في ذي الحجة، وتأخَّر البعث إلى أوّل المحرم»[9]؛ وفي سياق ابن سعد إشعار بذلك.

والمرجّح أنّ بعث الكتب كان بعد الحديبية في مطلع السنة السابعة للهجرة كما قال ابن سعد، وهو ما اقتصر عليه "دونزل-Donzel" و"ألان-Allan" في نصّيهما، وهو القول الذي رجّحه البلاذري وابن حبّان وابن حجر وغيرهم[10]، مع عدم استبعاد قول الزرقاني الذي يجمع بين القولين.

---

[1]– في المطبوع "السابقة" وهو خطأ فادح، لأنّ معنى ذلك السنة التي قبل الهجرة، وإنّما كانت الحادثة المذكورة في (7 هـ).

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9880/31.

[3]– سبقت ترجمته في: ص410.

[4]– ينظر: تاريخ الطبري، 644/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 468/6.

[5]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 198/1. وزاد المعاد، 116/1.

[6]– ينظر: تاريخ الطبري، 27/3 و29. والمنتظم، ابن الجوزي، 7/4 و9. والبداية والنهاية، 140/7.

[7]– البداية والنهاية، 468/6.

[8]– ينظر: فتح الباري، 120/8.

[9]– شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 62/5.

[10]– ينظر: أنساب الأشراف، 531/1. وسيرة ابن حبان، 292/1 و296. وفتح الباري، 159/8 و400/10.

لكن ينبغي ملاحظة أنّ بداية إرسال أكثر هذه الكتب كان في هذا التاريخ، بينما أُرسلت كتب أخرى بعد الفتح وقبل وفاة النبي ﷺ، ككتاب عمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه – وسيأتي–، وعلى هذا يُحمل قول ابن إسحاق السابق الذي ذكره عنه ابن كثير.

ثانيا– اتخاذه ﷺ خاتما لِختم الكتب: تكلّم المستشرق "ألان -Allan" في مادة "الخاتم" عن قصّة اتّخاذ النبي ﷺ لخاتم من فضّة لِختم كتبه الموجّه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام؛ وذلك أنّه لَما أراد أن يكتب إليهم، قيل له: إنهم لا يقبلون كتابا إلا مختوما، فاتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة، نقش عليه: "محمد رسول الله"، كان يختم به كتبه التي يرسلها.

ففي "الصحيحين" عن أنس بن مالك ﷺ: «لَمّا أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنّهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوما؛ فاتخذ خاتما من فضة، ونقشه: "محمد رسول الله"»[1]، وفي لفظ لِمسلم: «أن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، فقيل: إنّهم لا يقبلون كتابا إلا بخاتم، فصاغ رسول الله ﷺ خاتما حلقته فضة، ونقش فيه: محمد رسول الله»[2]؛ وهذه الرواية أعمّ.

قال أنس: «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: "محمد" سطر، و"رسول" سطر، و"الله" سطر»[3].

وتشير الروايات: إلى أنّ النبي ﷺ أتّخذ خاتما من ذهب أوّل الأمر، زاد النّسائي: ثلاثة أيام[4]، ثم طرحه ونَهى عن التختّم بالذهب، واتّخذ خاتما من فضة[5]، وهو ما ذكره "ألان-Allan" في نصّه من مادة "الخاتم".

وحدّد المستشرق "ألان-Allan" تاريخ اتّخاذ الخاتم بالعام السابع (7 هـ)، وهو كذلك؛ لأنّه لَمّا كان اتّخاذ النبي ﷺ للخاتم مواكبا لإرساله الكتب إلى الملوك، فإنّ تاريخ اتّخاذ الخاتم سيكون أيضا موافقا لتاريخ إرسال الكتب، وهو بداية السنة السابعة للهجرة كما بيّن ابن حجر وغيره[6].

ثالثا– ذكر رسائله ﷺ إلى الملوك إجمالا: بعد الحديبية بَعَث النبي ﷺ رسُلاً بكتبه إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام[7]:

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب اللباس، باب اتّخاذ الخاتم ليختم به، 399/10. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب اللباس، باب في اتخاذ النبي ﷺ خاتما لما أراد أن يكتب إلى العجم، 96/14-97.

[2]– صحيح مسلم (النووي)، 97/14.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب اللباس، باب هل يجعل نقش الخاتم ثلاثة أسطر، 404/10.

[4]– سنن النسائي (السندي)، 561/7.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 392/10. وصحيح مسلم (النووي)، 92/14-93؛ من حديث ابن عمر ﷺ.

[6]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 400/10. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 68/12.

[7]– ينظر: المعجم الكبير، الطبراني، 8/20. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 607/2. وجوامع السيرة، ابن حزم، 24-25. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 324/2. وفتح الباري، 160/8.

1- فبعث دحية بن خليفة الكلبي، إلى قيصر ملك الروم، واسمه هرقل.

2- وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز بن هرمز، ملك الفرس.

3- وعمرو بن أمية الضمري، إلى النجاشي ملك الحبشة.

4- وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي، إلى المقوقس ملك الإسكندرية، ومصر.

5- وشجاع بن وهب الأسدي، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وابن عمه جبلة بن الأيهم الغساني مِلِكَيْ تخوم الشام.

6- وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي ملك اليمامة.

7- والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين.

8- وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديَّيْن، مِلِكَيْ عمان.

9- والمهاجر بن أبي أمية المخزومي، إلى الحارث بن عبد كلال الحميري، أحد ملوك اليمن.

هذه أشهر كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام حسب ما جاء في رواية المسور بن مخرمة وابن إسحاق وابن هشام وغيرهم[1].

وذكر ابن سعد كتبا أخرى غيرها[2]؛ لكنّ بعضها معاهدات مع قبائل، وبعضها الآخر أقضية وتوجيهات شرعية في الزكاة ونحوها؛ ومن ذلك:

أ)- كتاب النبي ﷺ إلى خزاعة الذي أشار إليه محرر مادة "**الحلف**" فقال: «**وقد ورد اسم المطيبين في رسالة بعث بها النبي إلى خزاعة**»[3]. المحرر هو المستشرق: **أرندنك** - C.V.Arendonk[4].

أورَد هذه الرسالة الطبراني وغيره من حديث بديل بن ورقاء رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى خزاعة، وإلى بديل بن ورقاء وسروات بني عمرو: سلامٌ عليكم؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: فإنّي لم آتم بإِلِّكُمْ[5]، ولم أضع في جنبكم، وإن أكرم أهل تِهامة عليَّ لأنتم، ومن تبعكم من المطيّبين، وقد أخذتُ لمن هاجر منكم مثل ما أخذتُ لنفسي، ولو هاجر بأرضِه غير ساكن مكة، وإنكم غير خائفين من قبلي، ولا مُخوَّفين[6].

---

[1]- ينظر: المعجم الكبير، الطبراني، 8/20. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 607/2. وجوامع السيرة، ابن حزم، 24.

[2]- ينظر: الطبقات الكبرى، 202/1-217.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 50/8.

[4]- سبقت ترجمته في: ص268.

[5]- **السروات**: أي الأشراف. **والإلّ**: العهد، والمعنى: لم أخن عهدكم فآثم. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 378/14 و25/11.

[6]- المعجم الكبير، الطبراني، 8/20. وفي إسناده ضعف، قال الهيثمي "مجمع الزوائد، 172/8": «فيه جماعة لَم أعرفهم». ونحوه في: الأموال، أبو عبيد، 258. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 208/1-209.

فهذا الكتاب يبدو من سياقه أنّه يتضمن ميثاق حلف وتعاون مشترك بين النبي ﷺ وخزاعة، وكانت متعاطفة مع النبي ﷺ قبل الحديبية، ودخلت في حلفه علانية في "صلح الحديبية" كما تقدّم، حيث يبدو من عبارة الكتاب أيضا أنّه كان بعد "الحديبية".

ب)- ينبغي ملاحظة أنّ البعوث النبوية الدعوية كثيرة، لكن المقصود هنا البعوث بكتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، فقد ذكر ابن سعد وابن القيم بعوثا أخرى، لكنها من دون كتب، مثل بعث النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعييْن إلى الإسلام[1].

كما أنّ هذه البعثات كانت أحيانا وفودا نبوية لِمهمّات أخرى غير إيصال الكتب إلى الملوك؛ كجمع الزكاة وتعليم الناس الإسلام، والقضاء بينهم، كما أفاد الذهبي وابن كثير[2].

المطلب الثاني : ذكر بعض كتبه ﷺ الواردة في "الدائرة" تفصيلا

بعد سرد رسائل النبي ﷺ إجمالا كما وردت في الروايات وذكرها علماء السيرة والمغازي، سأركّز في هذا العنصر على بيان ما ذكره المستشرقون منها في "الدائرة" على سبيل التفصيل، وهي:

الفرع الأول : كتابه إلى هرقل قيصر الروم

أولا- عرض ما جاء في "دائرة المعارف":

- جاء في مادة "**قيصر**"[فقرة: 2]: «**وهناك عدد كبير من النصوص تشير إلى الرسالة التي يقال إن محمدا عليه الصلاة والسلام أرسلها على يد [دحية][3] الكلبي إلى حاكم بصرى كي يوصلها إلى الإمبراطور هرقل.**

وتتوارد أخبار جَمّة تشير إلى سؤال الإمبراطور لأبي سفيان عن النبي الجديد ﷺ، ويبدو منه أن "قيصر" كان على العكس من "كسرى" فارس ميالا إلى الإسلام، وأنه لا يمنعه من التصريح بهذا سوى خوفه من رعيته... (راجع في ذلك: صحيح البخاري والواقدي والسيرة لابن هشام وتاريخ الطبري وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام واليعقوبي والكامل لابن الأثير والمختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء)»[4].

المحرر هو المستشرق: **ر.بارت** - R. Paret[5].

---

[1]- ينظر: الطبقات الكبرى، 202/1-217. وزاد المعاد، 119/1.

[2]- ينظر: تاريخ الإسلام، 462/1-464. والبداية والنهاية، 323/7.

[3]- في المطبوع "لحية"؛ وهو خطأ مطبعي ظاهر.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8464/27-8465.

[5]- سبقت ترجمته في: ص137.

ثانيا- التحليل والمناقشة: تكلّم المستشرق "بارت-Paret" محرر مادة "قيصر" في نصّه المذكور عن كتاب النبي ﷺ إلى قيصر الروم، والقيصر: هو لقب لِملك الروم، وكان اسم هذا القيصر "هرقل"[1].

[1]- ذكر نصّ كتابه إلى هرقل: جاء في "الصحيحين" عن ابن عبّاس ﷺ في حديث طويل بيان: كتاب النبي ﷺ إلى "هرقل" ملك الروم؛ ونصه: ((**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾** [آل عمران: 64]))[2].

بَعَث النبي ﷺ الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، ولَما وصل الكتاب إلى هرقل، قال: ائتوني برجل من قومه أسأله عنه، فالتمسوه، فصادفوا أبا سفيان في ركب من قريش كانوا تجارا بالشام، في مدة صلح الحديبية، فجاؤوا بهم إليه، فسألهم بوساطة ترجمانه: أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا، فقال: أدنوه مني، ثم سأله "هرقل" أسئلة عن أوصاف الرسول ﷺ، توافق أوصاف من قبله من الأنبياء مما في كتب أهل الكتاب، وأوصاف النبي المنتظر المذكورة في كتبهم؛ وبعد أن سأله جملة من الأسئلة أجاب عنها أبو سفيان - وكان كافر آنذاك -، وهي الأسئلة التي أشار إليها المستشرق "بارت-Paret" في مادة "قيصر"؛ استخلص هرقل الحقّ من كلام أبي سفيان وقال: «إني سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك: هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا؛ فقلت: لو كان في آبائه ملك، قلتُ: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه: أضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم؛ وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا؛ فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطةً له، فزعمت أن لا؛ وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون؛ وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أن الحرب بينكم وبينه سجال، ينال منكم وتنالون منه؛ وكذلك الرسل تبتلى، ثم

---

[1]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 46/1. وشرح الزرقاني على المواهب، 4/5.

[2]- عند: **البخاري ومسلم**، من حديث ابن عباس ﷺ، سبق تخريجه في: ص234. وهذا اللفظ لِمسلم.

تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا يغدر؛ وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا؛ فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل ائتمّ بقول قيل قبله. ثم قال هرقل: بِم يأمركم؟ قال أبو سفيان: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال هرقل: **إن يكن ما تقول فيه حقاً؛ فإنه نبي**، وقد كنت أعلم أنه خارج و لم أكن أظنّه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه، لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، **وليبلغن ملكه ما تحت قدمي**[1].

[2]– عدم إسلام "هرقل": تشير الروايات إلى أنّ قيصر الروم "هرقل" كان من علماء النصارى العارفين بكتبهم، وأنّه عرف أوصاف النبي محمد ﷺ المذكورة في كتبهم، ولكنه آثر ملكه على الإسلام؛ ففي تتمة حديث ابن عباس ﷺ السابق: أنّ هرقل سأل عن العرب، فقيل: هم يختتنون. فقال هرقل: «هذا مُلْك هذه الأمة قد ظهر»، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم. وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِم[2] حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبِيّ ﷺ وأنه نبِيّ. فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم قال: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ، وقال: "إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت"؛ فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل»[3]؛ ولهذا قال ابن القيم: «وهَـــمَّ بالإسلام وكاد، ولَمْ يفعل»[4]، وكذا قـــال ابن كثير[5].

ويدلّ على ذلك أيضا مرسل ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: أنّ هرقل قال لدحية بن خليفة حين قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ: «واللّه إني لأعلم أن صاحبكم نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكن أخاف الروم على نفسي ولولا ذاك لاتّبعته»[6].

وقد أشار المستشرق "بارت-Paret" إلى ذلك عندما ذكر بأنّ: "هرقل" لم يسلم وإن كان "**ميالا إلى الإسلام، ولا يمنعه من التصريح بهذا سوى خوفه من رعيته**".

---

[1]– في **المصدرين السابقين**، من حديث ابن عباس ﷺ، سبق تخريجه في: ص234. واللفظ لِمسلم بشيء من الاختصار.

[2]– أي: لم يبرح مكانه. كما في: فتح الباري، ابن حجر، 59/1.

[3]– صحيح البخاري (الفتح)، 45/1-46. تتمة حديث ابن عبّاس السابق وهذه الزيادة للبخاري.

[4]– زاد المعاد، 117/1.

[5]– ينظر: الفصول في السيرة، 126.

[6]– تاريخ الطبري، 650/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 480/6.

لكن ورد في "صحيح ابن حبّان" ما يشير إلى أنّ "هرقل" ادّعى الإسلام و لم يسلم حقيقة، حيث جاء في حديث أنس ﷺ: «... وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: ((**كَذَبَ عدُوُّ الله، لَيْس بِمسْلِم**، وَهُو على النَّصْرَانِيَّةِ))»[1].

والحاصل: أنّ هرقل لم يُسلِم، فقد غلبه حبّ ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال الرسول ﷺ في كتابه إليه، ولكنه مع هذا كرّم دحية وردّه ردا جميلا[2].

ثالثا- التشكيك في كتابه ﷺ إلى "هرقل" ملك الروم:

- جاء في مادة "**دحية**"[فقرة: 3]: «**وأتاح له أصله الكلبي أن يكون على معرفة بالربوع التي تتاخم إقليم الشام... ومن ثَم كان رسولا للنّبي في السر، فقد روت السيرة أن النّبي أوفده إلى هرقل ليدعوه إلى الإسلام، وليس من سبب يدعونا إلى تصديق هذه الرواية، لأنها وشيت بتفصيلات قصصية..**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[4].

[1]- أشار المستشرق "لَمنس-Lammens" إلى جانبٍ من جوانب معايير اختيار النبي ﷺ لرسله إلى الملوك، فذكر أنّ اختيار "دحية الكلبي" كان بناء على معرفته بالمناطق المراد إرساله إليها، لأنّه سافر إلى تلك الأماكن وتاجر فيها[5]، فله معرفة وخبرة بها، مما يدلّ على أنّ النبي ﷺ اختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة واسعة بالجهات التي ذهبوا إليها، وبالناس الذين أرسلوا إليهم[6]، وهناك معايير أخرى تستفاد من اختيار "دحية الكلبي" وغيره من الرسل إلى الملوك، منها: أنّ النبي ﷺ اختار من يتمتع بحسن الفهم، وحسن العرض والخطاب، وصدق الإيمان والاعتقاد، إضافة إلى شجاعتهم الشخصية النابعة من ثقتهم في الله، واعتزازهم بالانتساب إلى الإسلام، وإن خالف ما عليه الناس، لأنّهم سيناقشون الملوك والرؤساء الذين تحتفّ بهم أبهة الملك، وقوة السلطان؛ ولتميّزهم بهذه الصفات قاموا بالمهام الموكلة إليهم أحسن قيام، ووفوا وحافظوا على الأمانة، وبلّغوا رسائلهم، وعرضوا قضيتهم بكل صدق، ووضوح، ودقة ملتزِمة بتعاليم الإسلام؛ فكانوا دعوة عملية صريحة[7].

---

[1]- أخرجه: **ابن حبان**، في صحيحه، كتاب السير، باب في الخلافة والإمارة، 358/10. وأبو **عبيد**، الأموال، 324. والحديث صحيح كما ذكر الأرنؤوط في تحقيق "صحيح ابن حبان"، والعلي في "صحيح السيرة، 477".

[2]- ينظر هذا الترجيح في: سيرة ابن حبان، 297/1. وشرح النووي على مسلم، 152/12. وزاد المعاد، ابن القيم، 117/1. والفصول في السيرة، ابن كثير، 126. وفتح الباري، ابن حجر، 52/1. وسيرة أبي شهبة، 360/2.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 170/9-171.

[4]- سبقت ترجمته في: ص211.

[5]- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 552/2. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 207/17 و142/73.

[6]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 48/3. والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، غلوش، 222.

[7]- ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، غلوش، 223.

[2]– شكّك المستشرق "لمنس" في "كتاب النبي ﷺ إلى هرقل" في نصّه المذكور من مادة "دحية"، وقال بأنّه «**لا يوجد سبب يدعونا إلى تصديق هذه الرواية**»، والحقيقة على العكس من ذلك تماما؛ فليس هناك سبب وجيه ولا دليل علمي يدعو إلى ردّ هذه القصّة وعدم تصديقها، وهي موثقة تاريخيا بأدقّ طرق الرواية، وأقوى الأسانيد المتّصلة، حيث وردت بالإسناد المتّصل في الصحيحين إلى شهود العيان الذين واكبوا الحادثة؛ فالإثبات موثّق بالأدلّة التاريخية، ولكنّ نفيه غير مؤيّد بأيّ دليل وجيه؛ "**نفيٌ كيفي**" غير مبرّر، وهو من الثغرات المنهجية المخالفة للبحث العلمي النّزيه.

والجواب على إنكاره غير المبرّر هو كالآتي:

أ)– سبب قَبُول الرواية هو سببٌ علميٌّ قويّ؛ لأنّ "الرسالة" ثابتة بالروايات المتكاثرة التي وردت في المصادر الحديثية والتاريخية الأصيلة، حتى قال المستشرق "بارت-Paret" في نصّه المذكور آنفا من مادة "قـــيصر": «**وهناك عدد كبير من النصوص تشير إلى الرسالة التي يقال إن محمدا ﷺ أرسلها على يد دحية الكلبي إلى الإمبراطور هرقل**»[1]؛ كما أنّ "بارت -Paret" أقرّ بالكتاب إلى قيصر الروم في مادة "قيصر" من "دائرة المعارف الإسلامية".

ب)– إنّما شكّك "لَمنس-Lammens" في الرواية بِسبب احتوت عليه من دلائل النبوة، التي اعتبرها "**تفاصيل قصصيّة**"، إشارة إلى ما وقع بين أبي سفيان و"هرقل" من أسئلة عن صفات النبي محمد ﷺ ودعوته، ثم استنتاجه من ذلك أنّه النبي الذي بشّرت به كتب النصارى حقّا، وهي أمور معلومة مذكورة في القرآن وفي روايات أخرى سبق بيانها، كمعرفة أهل الكتاب بالنبي محمد ﷺ وأوصافه والزمن الذي سيبعث فيه وما إلى ذلك.

ج)– يندرج هذا المطعن أيضا ضمن منهجية "**الطعن في أهم شيء في بابه**"، لأنّ كتاب النبي ﷺ إلى قيصر الروم هو أصحّ وأوثق رواية وصلت إلينا من بين بقية الكتب، حيث ثبت في صحيحي البخاري ومسلم نصّ الكتاب وتفاصيل إرساله، بينما ورد في الصحيحين ذكر كتب أخرى ككتابه إلى كسرى وإلى النجاشي باختصار[2]، دون ذكر نصوص هذه الكتب، أو التفاصيل الوافية عنها كما في رواية الكتاب إلى هرقل.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8464/27.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 158/8-159. وصحيح مسلم (النووي)، 158/12؛ حيث ورد باختصار: أنّ النبي ﷺ أرسل إلى: كسرى، وإلى النجاشي، وإلى كلّ جبّار، لكن ليس في البخاري ولا مسلم نصّ كتاب كسرى ولا النجاشي.

الفرع الثاني : كتابه إلى كسرى ملك الفرس

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**كسرى**": «**وكان كسرى قد مزق كتاب النبي محمد ﷺ الذي يدعوه فيه للإسلام، وجاء في حديث الرسول ﷺ ما يبشر بزوال مُلْك كسرى وقيصر، ومآل كنوزهم للمسلمين للإنفاق منها**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **موروني** - M.Morony[2].

- وفي مادة "**الأنباء**": «**واعتنق الوالي الفارسي "باذام" (باذان) وأسرته فيما بعد الدين الإسلامي، واعترفوا بسيادة النبي**»[3]. المحرر هو المستشرق: **نسترشتين** –Zetterstéen[4].

ثانيا- التحليل والمناقشة: أشار المستشرق "موروني-Morony" في مادة "كسرى" إلى كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس الذي بعثه مع عبد الله بن حذافة ﷺ، ونصّه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين؛ فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك))[5].

وفي "البخاري" عن ابن عباس ﷺ: «أنّ رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى[6]، فلما قرأه مزّقه، فحسبت ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن **يُمَزَّقوا** كل مُمزّق»[7].

وهو ما وقع بالفعل؛ فقد مَزَّق الله ملك كسرى "أبرويز" فقتله ابنه واستولى على عرشه، وذلك: أنّ كسرى -بعد أن وصله كتاب النبي ﷺ ومزّقه- أرسل إلى "باذان" عامله على اليمن أن ابعث من عندك برجلين جلدين إلى هذا الرجل فليأتياني به، فبعث إليه برجلين، وكتب إليه معهما كتابا، فقدما

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8609/27.

[2]- **موروني ميشال** "Michael Morony": مستشرق أمريكي، ولد سنة (1939م)، وهو أستاذ في جامعة "كالفورنيا" بأمريكا، متخصّص في التاريخ والدراسات الإسلامية. ينظر: النسخة الأجنبية "للدائرة": "The Encyclopidia of Islam, 6/VII". والموسوعة الحرة "ويكيبيديا" بالإنجليزية على رابط: (https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_G._Morony).

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 67/1.

[4]- سبقت ترجمته في: ص112.

[5]- أخرجه: **الطبري**، في تاريخه، 654/2-655. من مرسل يزيد بن أبي حبيب، ويشهد له حديث "سعيد بن المسيب" بنحوه عند أبي عبيد "الأموال، 31"؛ فالحديث حسن، كما في تخريج الألباني على "فقه السيرة للغزالي، 358". والعلي في "صحيح السيرة، 385".

[6]- **عظيم البحرين**: هو المنذر بن ساوى. **وكسرى**: هو أبرويز بن هرمز. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 159/8.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، 158/8-159.

المدينة ودفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وأمرهما أن يلاقياه غدا، وفي ذلك الوقت قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، حيث قام "شيرويه" بن كسرى على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما جاءاه من الغد أخبرهما بذلك، فقالا: هل تدري ما تقول؟ أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك، قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك، فرجعا إلى باذان، وأخبراه الخبر. وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: "إن هذا الرجل لرسولٌ"؛ وكان ذلك سببا في إسلام "باذان" ومن معه من أهل فارس باليمن[1]، وهو ما ذكره "تسترشتين- Zetterstéen" في مادة "الأبناء".

وتحقّقت بشارة النبي ﷺ بعد ذلك أيضا -كما ذكر "موروني-Morony" محرر مادة "كسرى"- عندما تَمزّقت الإمبراطورية الفارسية في الفتوحات الإسلامية، وهي التي حكمت نصف الدنيا لعدّة قرون، ثم زالت من الوجود[2].

الفرع الثالث : كتابه إلى ملك اليمامة

- جاء في مادة "**تـاج**": «**ويُقال إنّ النبي قد بعث إلى والي اليمامة النصراني أيضا كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام (ابن هشام، طبعة فستنقلد، 971. الطبري، ج1 ص985)**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بيوركمان**-Byorkman[4].

ذكر المستشرق "بيوركمان-Byorkman" محرر مادة "تاج" في هذا النص كتاب النبي ﷺ إلى ملك اليمامة؛ وذلك في السنة السابعة للهجرة[5] أيضا.

حيث أرسل النبي ﷺ سليط بن عمرو العامري بكتابٍ إلى "هوذة بن علي" ملك اليمامة النصرانيّ يدعوه إلى الإسلام، وكان نص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هـــوذة بن عليّ، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك»، لكن هوذة الحنفي اشترط على الرسول ﷺ بعد قراءته رسالته إليه أن

---

[1]- ينظر: تاريخ الطبري، 654/2-656. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 199/1.

[2]- ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 150. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 458/2.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 447/4.

[4]- **بيوركمان** "W.Byorkman": مستشرق ألماني، من آثاره: "الأدب العربي الحديث"، و"التعليم في الشرق الحديث" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 799/2.

[5]- ينظر: الطبقات الكبرى، 154/4. وسيرة ابن حبان، 267/1.

يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبي ﷺ قبول ذلك، وقال: بادَ وبادَ ما في يديه، وبعد فتح مكة علم النبي ﷺ بالوحي أن هوذة صاحب هذا الكتاب قد مات[1].

الفرع الرابع : كتابه إلى أميري "عُمان"

– جاء في مادة "**صُحار**": «**ولقد ظهر الاسم صحار أول ما ظهر في التاريخ سنة 8 هـ (630/629م) عندما سلم عمرو بن العاص السهمي وأبو زيد الأنصاري مبعوثا النبي كتابه إلى أميري البلدة جيفر وعبد (أو عباد)، وقد قبلا ما عرضه محمد ﷺ عليهما وأسلما، وظل عمرو بن العاص مقيما في عمان**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** A.Grohmann-[3].

– وجاء في مادة "**عمرو بن العاص**": «**ولقد قام محمد ﷺ في الحال** [أي: بعد إسلام "عمرو"] **بالاستفادة من العون الجديد، وبعد عدد قليل من الحملات الصغيرة قام بإرسال عمرو إلى عُمَان (بضم العين وفتح الميم المخففة) حيث فاوض حاكميها الأخوين وهما: جَيْفر وعباد ابنَيْ الجلندي (وكان ذلك في العام التاسع الهجري) فدخلا الإسلام، ولكنه (أي عمرو) لم يتمكن من رؤية الرسول ﷺ مرة أخرى حيث وصله نبـــأ وفاته**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** Wensinck-[5].

تكلّم المستشرق "كرومان-Grohmann" في مادة "صحار[6]" و"فنسنك -Wensink" في مادة "عمرو بن العاص" عن كتاب النبي ﷺ إلى مَلِكَيْ "عُمان"[7]، الذي أرسله في السنة الثامنة للهجرة كما ذكر المستشرق "كرومان"؛ وبالتحديد في: ذي القعدة من سنة ثَمان للهجرة[8]، حيث بعث الرسول ﷺ عمرو بن العاص ﷺ إلى ملِكَيْ عُمَان "جيفر" و"عبد" (أو عبّاد) ابني الْجُلندي الأزدي، والملك منهما "جيفر"، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتاباً وختم الكتاب؛ فأتاهما ودفع لهما الكتاب فقرآه، وبعد محادثات معهما حول الإسلام ونبيّه ﷺ؛ أسلما وصدّقا بالنبي ﷺ، وخلّيا بين عمرو وبين

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 607/2. وتاريخ الطبري، 645/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 338/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 146/14.

[3]– **كرومان أدولف** "Adolf Grohmann" (1887–1977م): مستشرق ألماني، أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة "ليدن" الهولندية، كما درّس في جامعة القاهرة، من آثاره: "أوراق البردى العربية" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 788/2.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7507/24–7508.

[5]– سبقت ترجمته في: ص49.

[6]– **صُحار**: هي مدينة عُمانية كبيرة، تمتدّ على ساحل خليج عمان، كانت مقر حكم عباد وجيفر ابنَي الجلندي، عندما حمل إليهما عمرو بن العاص رسالة الرسول ﷺ. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 393/3. والموسوعة العربية العالمية، 43/15–44.

[7]– **عُمَان**: اسم المنطقة التي تقع في الزاوية الجنوبيّة الشّرقيّة لِجزيرة العرب، بجانب اليمن، وهي اليوم سلطنةٌ مستقلّة عاصمتها "مسقط". ينظر: معجم البلدان، 150/4. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 216.

[8]– ينظر: طبقات ابن سعد، 201/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 140/7. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 36/2.

الصّدقة، والحكم فيما بينهم، وكانا عونًا له على من خالفه، فلم يزل عندهم حتى توفي رسول الله ﷺ وهو عندهم[1]، كما ذكر "فنسنك-Wensink".

ويبدو أنّ هذا الكتاب تأخر عن بقية الكتب إلى الملوك، وأنه كان بعد الفتح[2]، وكان آخر كتاب بعثه النبي ﷺ إلى الملوك كما أفاد ابن الجوزي[3].

الفرع الخامس : كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة

– جاء في مادة "**النجاشي**"[فقرة: 3]: «**أما كتاب الرسول ﷺ إلى النجاشي الذي تسميه المراجع العربية بالأصحيم بن أَبْجر، فقد حمله إليه عمرو بن أمية الضمري، وإذا أخذنا بما تقوله الروايات الإسلامية فقد أسلم النجاشي، "حتى صلى عليه النبي ﷺ لما مات وترحم عليه وسأل الله الغفران له"**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **فان دونزل** - E.V. Donzel[5].

– وفي مادة "**التّكبير**": «**ولَمّا نزل الوحي على محمد (رسول الله) ونعى إليه النجاشي في بلاد الحبشة خرج إلى المصلّى وصفّ من حوله صفوفاً، وأخبرهم بِموت النجاشي وكبّر عليه أربعا. (البخاري، كتاب الجنائز، باب 4، 55، 61)**»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[7].

تكلّم المستشرق "دونزل - Donzel" محرر مادة "النجاشي" عن كتابه ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، وجعله هو الذي أسلم وصلّى عليه النبي ﷺ، وذكر "فنسنك -Wensink" أيضا في مادة "التكبير" النجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ، ولكن هل هو نفسه الذي أرسل إليه كتابا يدعوه إلى الإسلام؟ جواب هذا الإشكال في التفصيل الآتي.

بعث الرسول ﷺ بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، ونصه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى

---

[1]– ينظر: طبقات ابن سعد، 201/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 335/2-337. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 365/11.

[2]– ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، 427. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 55/3.

[3]– ينظر: المنتظم، ابن الجوزي، 10/4.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9880/31.

[5]– سبقت ترجمته في: ص410.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 426/5.

[7]– سبقت ترجمته في: ص49.

الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله... والسلام على من اتبع الهدى»؛ ولما وصله الكتاب احترمه، وأسلم وشهد شهادة الحق[1].

كما طلب النبي ﷺ من النجاشي أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ عقب فتح خيبر[2].

ثُمّ توفي هذا النجاشي المسلم "**أصحمة بن أبجر**" في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك[3]، وهو الذي نعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، وكبر عليه أربعا[4].

ويبدو أنّه لَمّا مات وتخلف على عرشه ملك آخر؛ كتب إليه النبي ﷺ كتابا آخر يدعوه إلى الإسلام، يدلّ على ذلك ما جاء في "صحيح مسلم" عن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، **وليس النجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ**»[5]، لكن هذا النجاشي الثاني لا يُعلم هل أسلم أم لا.

قال ابن حجر: «وكاتب النجاشي الذي أسلم وصلى عليه لَمّا مات، ثُم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافرا»[6].

وبيّن الإمام القسطلاني الفرق بينهما فذكر أنّ: **النجاشي الأول** المسلم: اسمه «"أصحمة" هو الذي هاجر إليه المسلمون في رجب سنة خمس من النبوة، وكتب له النبي ﷺ كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري... فآمن به وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وتوفي في رجب سنة تسع من الهجرة، ونعاه النبي ﷺ يوم توفي، وصلى عليه.

وأمَّا **النجاشي** [أي: **الثاني**] الذي ولي بعده، وكتب له النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام فكان كافرًا، لم يعرف إسلامه ولا اسمه»[7].

لكن خلط بينهما بعض الرواة وكتّاب السيرة، يقول الزرقاني: «وقد خلط بعضهم و لم يميز بينهما، فظنهما واحدًا، وفي "صحيح مسلم" [أي: حديث أنس السابق] ما يرد عليه، ويصرّح بأنّهما اثنان»[8].

---

[1]- ينظر: تاريخ الطبري، 652/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 309/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 206/4-207.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 359/2. وتاريخ الطبري، 343/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 139/1.

[3]- ينظر: تاريخ الطبري، 122/3. وعيون الأثر، 331/2. وفتح الباري، ابن حجر، 240/7.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 240/7. من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، 158/12.

[6]- فتح الباري، 162/8.

[7]- المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 25/5-26.

[8]- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 26/5.

كما يظهر من عبارة المستشرق "دونزل-Donzel" في نصّه المتقدّم من مادة "النجاشي" عدم تفريقه بينهما.

ويؤيد التفريق بينهما أيضا أنّ هناك نصّين مختلفين لكتاب النجاشي؛ حيث ذكر ابن إسحاق نصًّا آخر للكتاب، ليس فيه اسم "الأصحم" كما في نصّ الكتاب السابق، وجاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسوله، فأسلم تسلم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]؛ فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك»[1]؛ ورجّح ابن كثير أنّ هذا النص هو للنجاشي الثاني الذي لا يُعلم إسلامه، أمّا النص الأول فهو للنجاشي المسلم[2].

فالمستفاد من الجمع بين الروايات؛ أنّ النبي ﷺ كاتب النجاشي الذي أسلم وصلّى عليه، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده وكان كافرا ولا يعرف إسلامه، وهذا الجمع يزيل الخلاف الظاهر بين الروايات، وهو ما ذهب إليه ابن حزم وابن الجوزي وابن القيم وابن كثير وابن حجر والقسطلاني وغيرهم[3].

المطلب الثالث : التشكيك في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 58]: «والرسائل بالصيغة التي وصلت إلينا **لا يُمكن قبول صحّتها حيث إنّها تحوي من التفاصيل ما يعكس مرحلة تالية من تاريخ الإسلام، بل إنه حتى لو نحن أغفلنا بعض هذه التفاصيل مِما قد يكون أقحم فيما بعد في الرسائل، فإن فحوى الرسائل لا يمكن أن تُبَرّر تقبل معظم الناس لَها، ذلك أنه من غير المعقول أن يُقبِل محمد ﷺ وهو السياسي والدبلوماسي المحنك، على اتخاذ هذه الخطوة قبل فتحه لِمكة، وإن كان من غير المستبعد أن يكون قد بعث برسائل إلى**

---

[1]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 308/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 205/4.

[2]– ينظر: البداية والنهاية، 205/4-206.

[3]– ينظر على التوالي: جوامع السيرة، 25. والمنتظم، 288/3-289. وزاد المعاد، 117/1 و603/3. والبداية والنهاية، 206/4-207. وفتح الباري، 162/8. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 25/5-26.

ولاة إمبراطوري بيزنطة وفارس على الحدود الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وفي اليمن، كذلك فإنه بوسعنا أن نقبل دون تردد أنه كان يراسل نجاشي الحبشة»[1].

– وجاء أيضا في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 59]: «**والحقيقة أن محمداً ﷺ وهو في ذروة قوّته لم يُجبر اليهود والنصارى الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية قط على اعتناق الإسلام، وإنما قنع بخضوعهم السياسي ودفعهم الجزية، والنتيجة السليمة إذن هي رفض الصياغة الراهنة لتلك الروايات التي تؤكد أن محمداً ﷺ سعى إلى إقناع إمبراطورَيّ بيزنطة وفارس وغيرهما من كبار الحكام خارج شبه الجزيرة باعتناق الإسلام، وأن نبحث عن الأسس التاريخية الحقيقية في المفاوضات ذات الطابع السياسي الغالب كتلك التي دارت مثلا مع مقوقس مصر الأكثر تعاطفا مع محمد ﷺ... ومع ذلك فقد تغيرت في ذلك الوقت طبيعة رسائل النبي ﷺ الموثوق بصحتها إلى القبائل العربية، إذ لم يعد قانعا باتفاق سياسي بحت، بل أصبح الآن وقد توطدت دعائم سلطته، يطالبهم أيضا باعتناق الإسلام بما يفرضه من أداء الصلاة وإيتاء الزكاة»**[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

– وفي مادة "**قيصر**" [فقرة: 3]: «**ولقد أخبر الرسول ﷺ بزوال ملك كسرى، وأنه إن مات قيصر فلن يكون هناك قيصر بعده**، (راجع في ذلك صحيح البخاري والواقدي والسيرة لابن هشام وتاريخ الطبري...»[4]. المحرر هو المستشرق: **ر.بارت** -R. Paret[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

إذا كان المستشرق "لَمنس-Lammens" شكّك في رسالة واحدة من رسائل النبي ﷺ إلى الملوك، فإنّ المستشرق "بول-Buhl" شكّك في جميع هذه الرسائل، وزعم بأنّه "**لا يُمكن قبول صحّتها بالصيغة التي وصلت إلينا**" واستند في دعواه إلى شبهات، تتلخّص فيما يلي:

– **الشبهة الأولى:** أنّها تحتوي على تفاصيل تعكس مرحلة متأخرة من تاريخ الإسلام.

– **والثانية:** أنه من غير المعقول أن يُقبِل محمد ﷺ وهو السياسي والدبلوماسي المحنك، على اتخاذ هذه الخطوة قبل فتحه لِمكة؛ وهو أمر له علاقة بتوقيت الإرسال، ومدى استراتيجيّة هذه الخطوة.

– **والثالثة:** أنّ النبي ﷺ لم يُجبِر أحداً من أهل الكتاب على اعتناق الإسلام، فمن باب أولى لن يسعى إلى إقناع ملوك الروم وفارس على اعتناقه؛ فيكون الغرض من الرسائل سياسيا.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9147/30.

[2]– المصدر نفسه، إص3، 9148/30.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8465/27.

[5]– سبقت ترجمته في: ص137.

وجواب هذه الشبهات في النقاط الآتية:

[1]– السبيل الأوّل لِمعرفة صحّة هذه الوثائق التاريخية هو الرواية والنقل الصحيح؛ وهذه الرسائل ثبت جلّها[1] بالنقل المتصل إلى من واكب تلك الوقائع وعاصرها من الصحابة، أو على الأقلّ كان قريب العهد بها، كرواية بعض التابعين من أمثال سعيد بن المسيّب والزهري[2]؛ الأمر الذي يجعل موضوع "الكتب" أو "الرسائل النبوية" في مجملها من «المسلّمات التاريخية والحقائق الدينية التي لا تقبل التشكيك... وهذا لا ينفي أن تشتمل هذه الأخبار على تفاصيل تحتاج إلى النظر والتمحيص»[3].

ثُمّ إنّ هذه الروايات الشفوية قد تعزّزت بآثار ملموسة، ما زالت محفوظة إلى يومنا هذا، تشهد على أصالة كتب النبي ﷺ إلى الملوك عامة، وأصالة هذه الكتب بعينها خاصة، ومن ذلك:

[2]– عثر المستشرق الفرنسي "بارتليمي -Barthelemy" على رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس مكتوبة على ورق جلدي قديم بناحية من صعيد مصر سنة (1850م)، ونشرها المجلة الآسيوية سنة (1854م)، وهي محفوظة في متحف طوب قابي بإستانبول، وقد وثّقها المسيو "بلين-Bellin" ووافقه المستشرق "نولدكه"، كما أعلن الدكتور "بوش -Busch" الألماني سنة (1863م) في مجلة المستشرقين الألمان العثور على رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى[4]، ونشر الأستاذ "محمد حميد الله" صورها في كتابه المتعلّق "الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"[5].

ولا شكّ بأنّ «اكتشاف هذه الوثائق في العصر الحديث –واتّضاح أنّ بعضها صحيح– يضيف بعدا جديدا في دراسات الرسائل النبوية، إذ يساعد على توثيقها، وتأكيد مدلولاتها»[6]؛ ويردّ على المشكّكين في أصالتها بالأدلة المادية الملموسة، إضافة إلى الأدلّة النّقليّة المسندة.

[3]– أما قول المستشرق "بول-Buhl" بأنّ هذه الرسائل «**تحتوي على تفاصيل ما تعكس مرحلة متأخرة من تاريخ الإسلام**»، فلعلّه يقصد بذلك ما أشار إليه المستشرق "بارت" من إخبار "**الرسول ﷺ بزوال ملك كسرى**"، وأنه "**إن مات قيصر فلن يكون هناك قيصر بعده**"؛ ونحو ذلك: مثل قول "هرقل":

---

[1]– فثبت بعضها إجمالا وتفصيلا كالكتاب إلى قيصر الروم مثلا، وثبت بعضها إجمالا دون بعض التفاصيل التي فيها ضعف، ككتاب النجاشي مثلا ثبت إرساله في الصحيح، لكنّ نصّه ليس ثابتا على طريقة المحدثين، وإن كان مقبولا تاريخيّا، إذ لا يوجد قرائن تردّه.

[2]– ينظر بعضها في: فتح الباري، ابن حجر، 56/1 و62-63. وصحيح السيرة، العلي، 383.

[3]– بحث بعنوان: الدراسات المتعلّقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره، (ضمن: البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية)، عز الدين إبراهيم، 256/6-257.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 274/6-276. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 459/2.

[5]– عرض صورها ومصادرها في: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، 107-108 و137 و146-147.

[6]– الدراسات المتعلّقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره، (ضمن: البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية)، 279/6-280.

بأنّه "سيبلغن ملك النبي ﷺ ما تحت قدميه"[1]، وقوله ﷺ في كتابه لِملك "اليمامة" "أنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر"[2]، وغيرها من الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ في هذه الكتب أو بعد إرساها، وهي من دلائل نبوته ﷺ، لذا أنكرها "بول-Buhl" مشيا على منهجية القراءة المادية في تفسير مثل هذه الوقائع، لأنّه لا يريد أن يقدّم للقارئ أي دليل على صدق نبوته ﷺ، ويكتفي دائما بتصويره كزعيم سياسي أو قائد عسكريّ ناجح، كلّ ذلك بمعزل عن النبوة والربانية، لكن النبي ﷺ بشّر بذلك ليس في كتبه فحسب، بل منذ العهد المكي وبداية العهد المدني.

وهو ما تحقّق فعلا فقد انتشر الإسلام بسرعة في الجزيرة العربية في حياته ﷺ، ثم بعد وفاته مباشرة امتدّ إلى بلاد الشام وفارس وما رواءهما، وتحقّقت نبوءة النبي ﷺ عن كسرى في حياته، حيث مزّقه الله بعدما أراد كيدا برسوله ﷺ؛ فقُتل ذليلا، وكان ذلك سببا في إسلام "باذان" ورعيّته كما سبق تفصيله.

وبعد مقتل كسرى على يد ابنه، تمزّق ملكه؛ وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على "يزدجرد" وتوّجوه، فكان آخر ملوك الفرس، وهو الذي واجه الزحف الإسلاميّ الذي أدى إلى انقراض الإمبراطورية الفارسية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضا كلّيا، وهكذا تحقّقت هذه النبوءة في ظرف ثمان سنين[3].

أمّا "هرقل" قيصر الروم فقد واجه بعد وفاة النبي ﷺ الزحف الإسلاميّ الذي أدّى إلى زوال ملكه بالشام، وانحصاره في أوربا وآسيا الصغرى[4].

[4]- كان النبي ﷺ حريصا على تبليغ دعوته إلى الناس كافّة، لكن الظروف السابقة حالت دون ذلك، لكونه في حرب دائمة مع قريش وحلفائها - إضافة إلى اليهود-، وكان حلفاء قريش منتشرين في الجزيرة العربية، الأمر الذي يجعل عملية إرسال الرسل إلى أصقاع مختلفة من البلاد، أمرا فيه كثير من المخاطرة، إن لم يكن غير ممكن أصلا، لكون جلّ الطرق التي سيمرّ عليها الرسل قد تكون في قبضة قريش أو إحدى حلفائها، لكن بعد "صلح الحديبية" تَهيّأت الظروف لإرسال مثل هذه البعثات، فصار التوقيت مناسبا تماما لهذه الخطوة، بعد الهدنة وتأمين الطرق، وهو الأمر أشار إليه "لَمنس-Lammens" في مادة الحديبية في نصٍّ سابق عندما قال «**ومن ثم أتيح لأبي القاسم ﷺ... أن يفيد من**

---

[1]- عند: **البخاري ومسلم**، من حديث ابن عباس ﷺ الطويل في قصّة هرقل سبق تخريجه في: ص234.

[2]- عند: **الطبري** وغيره، سبق قريبا في: ص678.

[3]- ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 150. والسيرة النبوية، الندوي، 407.

[4]- ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 711/1. والسيرة النبوية، الندوي، 400.

حرية التنقل التي أباحها له هذا العهد إفادة كاملة»[1]، لكن هذا الأمر الاستراتيجي والهام في توقيت إرسال هذه الكتب غفل عنه "بول-Buhl" فوقع في مثل هذا القول المتهافت.

[5]- حاول "بول-Buhl" في إلقاء شبهته الثانية أن يدسّ السمّ في العسل، وفق **منهجيّة البناء والهدم**؛ فوصف النبي ﷺ بالسياسي الدبلوماسي المحنك، ولكنّه أراد بهذا الوصف طمس معالم النبوّة في هذه الحادثة؛ فالنبي ﷺ كان سياسيا بارعا ودبلوماسيّا محنّكا حقيقة، ولكنّ ذلك لم يكن بمعزل عن النبوة والتأييد الرباني، ولولا الأمرين الأخيرين ما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه، بيد أنّ المستشرق "بول-Buhl" وغيره من المستشرقين يحاولون تصوير النبي ﷺ على أنّه مجرد قائد عسكري وزعيم سياسي بارع [أو "أمير" كما قول "دلافيدا-Della vida"] يسعى إلى توطيد ملكه خارج حدود جزيرة العرب، كلّ ذلك بعيدا عن النبوة ومعجزاتها، والتأييد الربّاني الذي احتفّت به مسيرته ﷺ؛ لذا نجدهم يمعنون في التفسير الماديّ لوقائع السيرة، لكنّ مضامين الرسائل نفسها تردّ ذلك، حيث نجدها تبيّن أنّ هذه الكتب هي رسائل من نبيٍّ إلى ملوك الناس وزعمائهم يدعوهم إلى الإسلام وتوحيد الله عزّ وجلّ، وإلى أن يخلّوا بينه وبين الناس لنشر دعوته ودين الله الذي ارتضاه للناس أجمعين.

فلو كان النبي ﷺ مجرّد قائد عسكري وزعيم سياسي فحسب؛ لكان - ربّما - نظر إلى الاعتبارات التي أوردها "بول-Buhl"، ولَخشِي عاقبة ذلك الأمر، لا سيما أنه يراسل ملوكاً أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكسرى والمقوقس، لكن لَمّا كان محمد ﷺ نبيّا هَمُّه تبليغ رسالة ربه للعالمين؛ قام بتلك الخطوة دون حاجة إلى الاعتبارات التي اصطنعها المستشرق "بول"، وشعاره: ((إِنِّي رَسُولُ اللهِ؛ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي أَبَدًا))[2]؛ لذا كان **إرسال** النبي ﷺ إلى الملوك **قبل الفتح أدلّ على النبوة** منه بعد الفتح.

[6]- لم يفرّق المستشرق "بول - Buhl" في نصّه الثاني من مادة "محمد ﷺ/ فقرة:59" بين **إجبار أهل الكتاب** على الدخول في الإسلام، وبين **دعوتهم إلى الإسلام**، فبنى "شبهته الثالثة" على عدم التفريق بين الأمرين، عندما قال بأنّ: «**محمداً ﷺ وهو في ذروة قوّته لم يُجبر اليهود والنصارى الذين يعيشون في شبه الجزيرة العربية قط على اعتناق الإسلام**»، ثُمّ استنتج من ذلك عدم قبول "**الصياغة الراهنة لتلك الروايات التي تؤكد أن محمداً ﷺ سعى إلى إقناع إمبراطوريّ بيزنطة وفارس وغيرهما من كبار الحكام خارج شبه الجزيرة باعتناق الإسلام**"؛ إشارة إلى كُتُب النبي ﷺ، لكنّ مضامين الرسائل الموجّهة إلى هؤلاء الملوك من أهل الكتاب وغيرهم، تبيّن أنّ النبي ﷺ لم يقصد منها إجـــبار أهل الكتاب منهم أو المجوس أو غيرهم على اعتناق الإسلام، وإنّما المقصد منها هو: دعوتهم إلى الإسلام، وأنْ يُخلّوا بينه والناس

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 329/7.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، 747/8. و**مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، 195/12. و**أحمد**، المسند، 349/25؛ واللفظ له. من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

من رعيّتهم حتّى يبلّغ النبي ﷺ رسالة الإسلام إلى جميع الناس، كما توضّح ذلك الآية التي أوردها الرسول ﷺ في جلّ رسائله، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64] ، ويوضّح ذلك أيضا قول النبي ﷺ في رسالته إلى "هرقل" ملك الروم: ((**وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**))؛ وهم رعيّـــته، فكان ينبغي على "بول-Buhl" أن يفرّق بين الدعوة إلى الإسلام وبين إكراه الناس عليه الذي ليس من منهج الإسلام كما قرّر هو نفسه، وأن لا يتّخذ ذلك ذريعة للتشكيك في المقصد الدعوي لرسائل النبي ﷺ إلى الملوك.

كما أنّ نصوص الرسائل النبوية المذكورة آنفا صريحة في كون المقصد منها دعوة الملوك إلى الدخول في الإسلام، وإقامة الحجّة عليهم، بتبليغهم رسالة الإسلام، فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر، وحسابهم عند الله ﷻ، ولا يوجد في تلك الرسائل ما يُعبّر عن "**الأغراض السياسية**" التي اصطنعها "بول-Buhl" بقصد التعمية عن الأغراض الدعوية التي هي مهمّة الأنبياء ووظيفتهم، وبهذا يظهر أنّ المستشرق حاول **بناء "أغراض سياسية"** ماديّة لرسائل النبي ﷺ؛ حتّى يصوّره كزعيم سياسي فحسب، في مقابل **هدم "الأغراض الدعوية"** الروحيّة؛ التي تعبّر عن نبوّة محمد ﷺ وسعيه لتبليغ رسالة ربّه ﷻ.

[7]– مضمون هذه الكتب يبيّن أنّ النبي ﷺ خاطب هؤلاء الملوك من منطلق أنّه رسول من الله يدعوهم إلى دين الحقّ، و لم يخاطبهم على أنّه سلطان يريد توطيد سلطانه وتوسيع مملكته –كما يوحي كلام "بول-Buhl"–، لذا فإنّ الملوك الذين استجابوا وأسلموا، حافظوا على سلطانهم وملكهم و لم يُسلب منهم كالنجاشي وجيفر وأخيه وباذان وغيرهم، في حين ذهب مُلْك من لم يستجب للإسلام منهم ككسرى وهرقل بعد ذلك، لا لقصد الملك، وإنّما لنشر رسالة الإسلام في تلك الربوع، وما حولها.

[8]– أضف إلى ذلك أنّ المستشرق "بول-Buhl" لما أقرّ بأن النبي ﷺ "سياسي ودبلوماسيّ محنّك" (وهو أمر مقبول دون عزله عن النبوة) كان ينبغي أن يتفكّر جيّدا في ثمرات تلك الرسائل سياسيا، هل أعطت أكلها أم لا؟ حتى يمكن الحكم على هذا العمل؛ إن كان خطوة دبلوماسية موفقة أم لا؟

– وفيما يلي بيان **بعض ثمرات هذه الرسائل ونتائجها:**

أ)– إن الرسائل المذكورة تفصح عن نفسها؛ فقد استطاعت أن **تنقل الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العالمي**؛ فهزّت عروش ملوك، وأدخلت ملوكا في الإسلام، واكتفى آخرون بإظهار الودّ والاحترام، في حين أشعرت الجميع بوجود الإسلام، كدين عالمي، وقوة يحسب لها حسابها[1].

[1]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 55/3. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 715 و723.

كان بإمكان المدينة أن تواجه حربا من دول الأرض القوية كالفرس والروم بعد هذه البعثات، لكنّ تبليغ الدعوة في الوقت المناسب وحي رباني، والله تعالى هو الذي يتكفل بحماية دينه، فحين كانت المدينة عاجزة عن مواجهة دولة الفرس الكبرى هيّأ الله تعالى لحماية نبّيه ﷺ ودعوته انقلاباً على كسرى من داخل بيته، أدى هذا الانقلاب لِمقتل الحاكم الطاغية وتراجع ابنه عن موقف أبيه المعادي للنبي ﷺ، وكان من ناحية أخرى فتحا جديدا بإسلام باذان عامل الفرس على اليمن ودخول أهل اليمن في الإسلام[1] على ما سبق تفصيله.

كما دخل في الإسلام نجاشي الحبشة، وحاكم البحرين، وملك عُمان[2].

بينما اشترك في موقف المهادنة قيصر الروم ومقوقس مصر، وحالَ بين القيصر وبين الإسلام خوفه على ملكه، وجزعه من أن تثور الرعية عليه، وقع ذلك في حضرة أبي سفيان الذي ساقه قدر الله إلى بلاط قيصر ليسمع رأيه في محمد ﷺ، واعترف هرقل أمامه بأنّه نبي، وأنّه سيبلغ ملكه إلى موضع قدمي "هرقل"، فكان في ذلك غزوٌ لأبي سفيان من داخله، وهو زعيم قريش آنذاك[3]، وبذلك وصلت أصداء الرسائل النبوية إلى زعماء قريش أيضا، مع أنّها كانت غير موجّهة إليهم.

ب)– ومن آثار الرسائل النبوية التي تردّ قول المستشرق "بول" أيضا من وقائع السيرة نفسها، وتردّ استدلاله بعدم مناسبة توقيت ما قبل الفتح لإرسالها؛ هو قدوم الوفود إلى النبي ﷺ بعد الفتح من كلّ حدب وصوب معلنين إسلامهم، لأنّ بعض هذه الوفود سبقتها دعوة من النبي ﷺ إلى ملوك ورؤساء تلك القبائل والبلدان، عن طريق البعوث الدعوية والرسائل النبوية الداعية للإسلام[4].

هذه النتائج وغيرها تدلّ على أنّ هذه الخطوة النبوية أعطت أكلها، وكانت **خطوة دبلوماسيّة موفقة** لا تتنافى مع "حنكته الدبلوماسيّة" كما توهّم "بول-Buhl" بالنظر إلى المقدمات من غير تأمل في النتائج والمآلات.

[9]– ثم إنّ "بول-Buhl" غفل عن أنّ "صلح الحديبية" في عرف النبي ﷺ وأصحابه هو "الفتح المبين" للإسلام ودعوته، حيث نزل فيه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: 1]، فكان النبي ﷺ والصحابة يعتبرونه فتحا مبينا[5]، كما في الحديث السابق الذي يقول فيه البراء بن عازب رضي الله عنه: «تعدون

---

[1]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 55/3.

[2]– ينظر: جوامع السيرة، ابن حزم، 25-26. وزاد المعاد، ابن القيم، 119/1. والمنهج الحركي للسيرة، 55/3.

[3]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، 56/3.

[4]– تشير إلى ذلك بعض الشواهد في: طبقات ابن سعد، 213/1-214.

[5]– ينظر: مستدرك الحاكم، 143/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 449/2.

أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحا، ونحن **نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية**»[1]، وذلك أنّ مقدّمة الفتح فتح؛ وهذا معنى هام يهدم قول المستشرق من أساسه؛ يبدو أنّه لم يستوعبه، الأمر الذي جعله يقع في مثل هذه المجازفة الغير متكاملة البنيان، والمصادِمة للثوابت التاريخية القوية، فسرعان ما تتهاوى أركانها.

[10]– بل إنّ جملة من المستشرقين في "دائرة المعارف" نفسها أقرّوا بهذه الكتب كما في نصوصهم المتقدم ذكرها[2]؛ حيث: أقرّ المستشرق "بارت-Paret" بكتاب النبي ﷺ إلى قيصر الروم في مادة "قيصر"، وأقرّ المستشرق "موروني-Morony" في مادة "كسرى" بكتابه إلى كسرى، والمستشرق "بيوركمان" محرر مادة "تاج" بكتابه النبي إلى ملك اليمامة؛ وكلّ من "كرومان" في مادة "صحار" و"فنسنك-Wensink" في مادة "عمرو بن العاص" بكتابه ﷺ إلى مَلِكَيْ "عُمان"؛ ففي هذه التقريرات وغيرها دليلٌ على أنّ قول "بول-Buhl" ليس له أثر حتّى عند زملائه في "دائرة المعارف" نفسها.

[11]– المسلمون ليسوا في حاجة إلى اختلاق مثل هذه الكتب، بل إنهم أنكروا بعض الكتب المختلقة التي نُسبت للنبي ﷺ، من ذلك مثلا: أنّ الخطيب البغدادي ردّ وثيقة تاريخية كانت موجودة في عصره؛ تَنسب إلى: النبي ﷺ أنّه وضع الجزية عن يهود خيبر، وكتب لهم عهدا بذلك، وأشهد عليه، حيث استدلّ الخطيب وابن كثير والقاري بشواهد تاريخية على بطلان هذه الوثيقة[3].

[12]– ثم ما الذي يدفع إلى اختلاق هذه الكتب، أهو البرهنة على عالمية الإسلام؟ وليس هناك من داع لذلك أيضا؛ لأنّ عالمية الإسلام مقرّرة في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28][4]؛ وهو أمر أقرّ به حتّى بعض المستشرقين المنصفين كالمستشرق "توماس أرنولد- Arnold"[5].

[13]– والملاحظ أنّ المستشرق "بول" وقع في تناقض عندما شكك في كلّ الرسائل، ثم أثبت رسائل أخرى، لكن لم يبيّن ما هو معيار القبول والردّ عنده في ذلك، مع أنّ بعض هذه الكتب التي أثبتها، ورد فيها أيضا إخبار بمغيّبات، وأمور وقعت بعد ذلك، وأرسلت كذلك قبل الفتح.

---

[1]– عند: **البخاري**، سبق تخريجه في: ص662.

[2]– من: ص671 إلى 679؛ في هذا المبحث.

[3]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 355/6. والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، علي القاري، 465-468. وتقدّم في: ص194. مزيد تفصيل عن نقد هذه الوثيقة يُراجع هناك.

[4]– ينظر: فقه السيرة، الغضبان، 680. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 143/1.

[5]– ينظر كتابه: الدعوة إلى الإسلام، 48-50.

المبحث الثالث : فتح مكة

استمرّ صلح الحديبية بين قريش وحلفائِها والنبي ﷺ وحلفائه مدّة من الزمن إلى أن نقضت قريش العهد، فتهيّأ الأمر لفتح مكّة وتخليصها من براثين الشرك والوثنيّة، وهذا المبحث يقدّم تفصيل ملابسات نقض قريش للعهد وما أعقبه من الفتح، وبيان نظرة "دائرة المعارف" لذلك.

المطلب الأول : نقض مشركي مكة للعهد وتأهيؤ النبي ﷺ للفتح

الفرع الأول : نظرة "دائرة المعارف" لِملابسات نقض العهد

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**بُدَيل بن ورقاء**"[فقرة: 2]: «**وكان بنو خزاعة قد فرّوا إلى الحرم أثناء حربهم مع بني بكر، وانحازت قريش إلى صفّ بني بكر الذين كانوا يتجرون معهم، وكان في عملها هذا نكث بعهد الحديبية الذي اعترف فيه بأنّ بني خزاعة حلفاء للنبي، وبهذا هيّأوا له الفرصة لِمهاجمة مكة**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس**–Lammens[2].

– وفي مادة "**الحديبية**" [فقرة: 4]: «**وما كانت لتعوز النبي الوسيلة إلى التحايل على القيود الثقيلة التي رضي بها، ونقض العهد الذي أبرمه**»[3][4]. المحرر المادة هو: **لمنس**–Lammens.

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 60]: «**ثم كان أن قرر الحزب المتشدد في مكة –ضد مشورة أبي سفيان– أن يناصر إحدى العشائر الموالية لقريش، وهي بكر، ضد قبيلة خزاعة الموالية لمحمد، وهو ما كان في عرف العرب وقتذاك يُمثل لدى الطرفين نقضا لصلح الحديبية، مما أتاح الفرصة للنبي أن يتحرر من شروط ذلك الصلح فيُهاجم قبائل المكيين بل ومكة لذاتها**»[5]. المحرر هو: **بول**–Buhl[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 473/3.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– **تعقيب أحمد شاكر** (3) **على المادة** [في هامش الموضع نفسه من "الدائرة"]: «**هذه أخت تلك الماضية ما جرؤ أجرأ عدو لله ولرسوله والإسلام أن يزعم أن رسول الله نقض العهد وهو أهل الوفاء وهو الآمر بالعدل، وهو الذي علّم الناس الصدق والإخلاص، وهو الذي جعل من علامة المنافق أنه إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف. وهو الذي كان يسميه قومه شابا فتيا باسم "الأمين" وصفا لخلقه فيهم وإقرارا منهم بِما يرونه من صدقه وأمانته، ثم عادوه وعاداه غيرهم فما أخذ عليه واحد منهم مأخذا في صدقه أو وفائه، ولكن الأب لَمنس اليسوعي لم ير على نفسه غضاضة أن يقول ما لم يقل أحد من هؤلاء**».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1–356.

[5]– المصدر نفسه، إص3، 9149/30–9150.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- ملابسات نقض قريش للعهد: تقدّم في "صلح الحديبية" أن بندا من بنوده يفيد أن: من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه[1]، ومعنى ذلك: أنّ القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءً من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق؛ وحسب هذا البند دخلت "**خزاعة**" في حلف **الرسول** ﷺ، ودخلت "**بنو بكر**" في حلف **قريش**، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى[2].

ومضى على الصلح قرابة عامين و لم يحدث من المسلمين ما يخلّ بالعهد[3].

لكن كانت بَيْن "بني بكر" و"خزاعة" عداوة وحروب وثارات في الجاهلية، ثم تشاغلوا عن ذلك لَمّا ظهر الإسلام، فلمّا كانت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر؛ اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا الثأر القديم من خزاعة حلفاء المسلمين، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر، وأغاروا على خزاعة ليلا، وهم على ماء قريب من مكة يقال له: "الوتير"[4]؛ فقتلوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالرجال والسلاح، فقاتل معهم رجال من قريش في خفية مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فقاتلوهم فيه، إلى أن لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له "رافع" في مكة.

بعد ذلك سارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه إلى المدينة المنورة حاملا أخبار نقض قريش وبني بكر لعهد الحديبية، فلما وصلها وقف على النبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس وقصّ عليه ما أصاب خزاعة من بني بكر وقريش في مكة وخارجها، وأنشده عمرو أبياتا يستنجد بالرسول ﷺ منها:

يا رب إنّي ناشد مُحمّدا حلف أبينا وأبـــيه الأتلدا[5]
فانصر رسول الله نصرًا أَعْتَدا[6] وادع عباد الله يأتوا مددًا
إن قريشًا أخلفـــوك الموعِدا **ونقضوا ميثاقك** المؤكّدا
هم بيّـــتونا بالوتيـــر هُجّدا **وقـــتلونا** ركعًا وسجّدا[7]

---

[1]- ينظر ما سبق: ص657.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 322/2. والرحيق المختوم، المباركفوري، 468.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 508/6. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 435/2.

[4]- **الوتير:** اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة، يقع جنوب غرب مكّة، على بعد (16 كلم). ينظر: معجم البلدان، الحموي، 360/5. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 331.

[5]- **الأتلدا:** الأقدم. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 382/3.

[6]- **أعتدا:** أي: حاضرًا. ينظر: المصدر السابق، 383/3.

[7]- هناك أبيات أخرى في الرواية، لكن اكتفيت بهذه الأبيات مراعاة للاختصار حسب سياق ابن حجر في "فتح الباري، 650/7".

فقال له رسول الله ﷺ: ((نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنُ سَالِمٍ))[1].

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة، حتى قدموا المدينة، فأخبروا النبي ﷺ بما أصابهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم؛ فعزم الرسول ﷺ على فتح مكة[2].

– وفي رواية الواقدي: أن قتلى خزاعة بلغوا عشرين رجلا[3].

– وأوضح موسى بن عقبة: أن الذين أعانوا بكرا على خـــزاعة فيهم من زعماء قريش: صفـــوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو[4].

هذه هي تفاصيل **نقض قريش** للعهد الذي ذكره المستشرقون في نصوصهم السابقة.

بعد هذا الحادث انتهت الهدنة بين قريش والمسلمين وحلفائهما، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر؛ حيث نقضت قريش ما تعهدت به في صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ فنصرت قبيلة بكر الموالية لها على قبيلة خزاعة الموالية للرسول ﷺ؛ وهذا الحادث **لا يسوّغ تحرّك النبي ﷺ فحسب، بل يوجبه عليه** وفاء بعهده مع خزاعة[5].

[2]– الردّ على تحامل المستشرق "لَمنس": كلام "لَمنس-Lammens" في نّصه الذكور من مادة "الحديبية" مناف للأدب مع الأنبياء، خاصّة في قوله: بأنّ النبي ﷺ **"ما كانت لتعوز الوسيلة إلى التحايل لنقض العهد"**؛ فهذا تحامل ظاهر على النبي الأمين ﷺ، الذي لم يستطع حتّى "أبو سفيان" عندما كان ألدّ أعدائه –وهو أعرف به– أن يلمزه بالغدر أو التحايل على العهود[6]، كيف وهو المشتهر بين قريش قبل الإسلام وبعده بالصادق الأمين، ولكنّ المستشرق "لَمنس" مشتهر بين المستشرقين وعلماء المسلمين بالتحامل والطعون المباشرة في الإسلام ونبيّه ﷺ.

لقد سبق بيان أنّ شروط صلح الحديبية وإن كانت تبدو في البداية ثقيلة على المسلمين ومجحفة في حقّهم، لكن فيما بعد أثبتت الوقائع اللاّحقة أنّها في صالح المسلمين، و"لَمنس-Lammens" نفسه أقرّ

---

[1]– أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/390-395. ومن طريقه: **البيهقي**، دلائل النبوة، 5/6-7. من حديث مروان والمسور ﷺ بإسناد حسن، كما ذكر العمري في "السيرة الصحيحة، 2/473" والعلي "صحيح السيرة، 402"، وله شواهد أوردها ابن حجر "فتح الباري، 7/650-651" منها: حديث أبي هريرة ﷺ في "مسند البزار" بإسناد حسن كما قال ابن حجر، وحديث عكرمة مرسلا عند ابن أبي شيبة "المصنف، 7/400".

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/395. والبداية والنهاية، ابن كثير، 6/513. والرسول القائد، محمود شيت، 332.

[3]– ينظر: مغازي الواقدي، 2/784.

[4]– ينظر: البداية والنهاية، 6/516. وفتح الباري، 7/651.

[5]– ينظر: الرسول القائد، 332. والقول المبين، محمد النجار، 343. والسيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 443.

[6]– يشير إلى ذلك: حديث ابن عبّاس السابق [ص234] في قصّة المحادثة الطويلة بين أبي سفيان و"هرقل" قيصر الروم الذي سأل عن أوصاف النبي ﷺ، وفيه: قول هرقل: «وسألتك: **هل يغدر**؟ فزعمت أن **لا يغدر**؛ وكذلك **الرسل لا تغدر**».

بذلك في موضع آخر من "دائرة المعارف" في مادة "الحديبية/ فقرة:3"، عندما قال: بأن «**النبي في الواقع قد كسب في صراعه مع مكة كسبا سياسيا عظيما**»[1]؛ فكلامه يردّ بعضه بعضاً.

ذلك: أنّ قريشاً تراجع موقفها بعد الصلح، كما تنازلت عن ذلك البند المجحف الذي أشار إليه "لَمنس-Lammens"، ولحقت كتيبة أبي جندل بالنبي ﷺ، وتزايدت قوة المسلمين كثيراً، أما قريش فعلى العكس من ذلك تناقصت قوّتها، وتراجع دعم حلفائها، ومنهم من دخل في الإسلام، وتآكلت قريش داخليا بعد أن أسلم الكثيرون منهم، ولَحق بعضهم بالنبي ﷺ في المدينة، وكانت خسارتهم شديدة حين فقدوا رجلين كبيرين من أهم القادة العسكريِّين لديهم هما "خالد" و"عمرو"، كما تراجعت قوة ومكانة قريش تراجعا ملحوظا؛ والحاصل أنّ صلح الحديبية «كان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عزًّا لهم... فذَلَّ المشركون من حيث أرادوا العزّة، وقُهروا من حيث أرادوا الغلبة»[2] كما قال ابن حجر، وتقدّم تفصيل آثار الحديبية في المبحث السابق.

لذا فإنّ قول المستشرق لا يستقيم أبدا، ولا يعكس حقيقة الوقائع والأوضاع السائدة في ذلك الظرف، ويكشف عن مدى سطحية فهمه وتحليله للأحداث، وعن عدم الإحاطة الجيّدة بآثار "الصلح" وتداعياته الجليلة، الأمر الذي أوقعه في أوهام فادحة، وأغلاط واضحة، كان ينبغي أن لا يقع في مثلها.

[3]– الهدف النبوي من غزو مكة: حاول كلّ من "لَمنس-Lammens" و"بول-Buhl" إخراج العزم على فتح مكة بعد نقض العهد عن سياقه الأصلي وهدفه الرئيسي الذي كان يهدف إليه النبي ﷺ، وحاولا أن يظهرا للقارئ أنّ نقض مشركي قريش للعهد "**أتاح فرصة الهجوم على مكة**" كما عبّرا عنه في نصّيهما المذكورين من مادة "بديل" ومادة "محمد ﷺ"، لكن واحدا منهما لم يضع الأمر في سياقه الصحيح الذي يعبّر عن الفرصة الحقيقية التي أتيحت للنبي ﷺ بعد حصول نقض العهد، ذلك أنّ إمعان المستشرقَيْن في **القراءة المادية** لمجريات السيرة النبوية، جعلهما يَغفلان – أو يُغفلان- أنّ النبي ﷺ كان يدعو إلى توحيد الله تعالى، بينما لا تزال مكة وبيت الله المحرم في ظلمات الشرك والوثنية العمياء، والله تعالى إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه، فإن كان هناك من فرصةٍ أُتيحت؛ فهي فرصةٌ لإحلال توحيد الله مكان الشرك، وتعاليم الشريعة السمحاء مكان الأعراف الجاهلية المنحرفة.

لكنّ التفسير الماديّ للأحداث بعيدا عن النبوة والرسالة جعلهما يقدّمان تحليلات منافية للوقائع التاريخية الواضحة، يذهبون فيها إلى التعاطف مع مشركي مكة مثلما فعل آباؤهم من قبل، ففضحهم

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 329/7.

[2]– فتح الباري، 427/5.

الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: 51].

لذا كان التحليل الصحيح للواقعة بعيدا عن قراءات المستشرقَيْن المادية الجوفاء؛ يبيّن أنّ نقض مشركي مكة للعهد لم يتح فُرصةَ "**الهجوم على المكيين**" أو "**على مكة**" كما عبّر "لَمنس -Lammens" و"بول -Buhl"، وإنّما أتاح الفرصة للنبي ﷺ بأن «يطهّر الكعبة من رّجس الأوثان، وقول الزّور، ويعيد مكة إلى مكانتها الأولى، فتكون مثابة للناس وأمنا، ويجعل البيت كما كان مباركا وهدى للعالمين؛ فهيّأ الله لذلك أسبابا، وساعدت عليها قريش من حيث لا تشعر، حيث وقع حادث لم **يسوّغ ذلك** فحسب، **بل أوجبه**»[1].

الفرع الثاني : تحضير النبي ﷺ للفتح ومجيء أبي سفيان لتجديد العهد

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– ورد في مادة "**[أبو] سفيان**"[فقرة: 3]: «ولَما **نقض هذا الصلح بسبب النزاع الذي قام بين قبيلتي بكر وخزاعة، خشي أبو سفيان عاقبة ذلك على مكة، فخرج إلى المدينة ليدبر الأمر، وقيل إن ابنته أم حبيبة، التي كانت قد تزوجت من النبي وقتئذ، أساءت معاملة أبيها إلى حد بعيد، كما أساء معاملته النبي نفسه، ولكن في الحقيقة كان التفاهم بين محمد وحميه كبير النفع للأول، ولذلك فلابد أن النبي قد تلقى أبا سفيان على ما تذكر الروايات وتفاوض معه في أمر تسليم مكة. ويتفق هذا مع ما صرح به النبي عندما بدأ يغزو مكة، من أن كل من يحتمي بدار أبي سفيان فهو آمن من كل خطر... وعرف محمد بفضل معاملته الحسنة لأبي سفيان إلى [أيّ حد][2] يدين هو لهذا الرجل الذي عمل بالحيلة على تسليم مكة**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - F.Buhl[4].

– وفي مادة "**فاطمة**"[فقرة: 3]: «**طلب منها أبو سفيان وكذلك من زوجها عليّ أن يتشفّعا له عند محمد ﷺ، بعد أن أدرك – أي "أبو سفيان"– أن محمداً سيفتح مكة لا محالة، وكان هذا الطلب وجيش الرسول محيط بمكة (المكرمة)**»[5]. المحررة هي المستشرقة: **ف. فاجليري** – V. Vaglieri[6].

---

[1]– السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، 443.

[2]– في المطبوع [إص1]"إلى أحد يدين"، وهو خطأ مطبعي، والتصحيح من الطبعة الجديدة "لدائرة المعارف الإسلامية، إص3، 348/2".

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1-356.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7715/25.

[6]– سبقت ترجمتها في: ص336.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- سفارة أبي سفيان إلى المدينة: أحسّت قريش - بعد فوات الأوان- بِخطئها، وعرفوا بأن ما صنعوه نقضٌ صريحٌ للذّمة والميثاق الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وندمت قريش وأدركت مغبة غدرها ونقضها للعهد، وشعرت بعواقبه الوخيمة، فقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها، ليجدّد العهد ويَمُدّ في المدة.

فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليحاول إصلاح ما أفسده قومه، فلقي بديل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه أتى النبي ﷺ، فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما جئت محمدا؟ قال: لا.

فلما وصل إلى المدينة دخل بيت ابنته أم حبيبة زوج الرسول، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، و لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلمه العهد وإطالة المدة؛ فلم يردّ عليه شيئا، و لم يحظ منه بطائل، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذّرّ لجاهدتكم به، ثم دخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة رضي الله عنها، والحسن غلام يدبّ بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رحما، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعنّ كما جئت خائبا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحـــك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

فقال لعلي بن أبي طالب في هلع ويأس: يا أب الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان ثم ركب بعيره وعاد من حيث أتى.

فلما قدم على قريش أخبرهم بما كان وإجارته بين الناس، فقالوا له: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويحك ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك[1].

هكذا فشل أبو سفيان في الحصول على وعد بتجديد المعاهدة، بعد وقوع الغدر وخيانة العهد من قريش[2]، وهو مع ذلك رجع خائبا إليهم، إذ لم يستطع معرفة نوايا الرسول ﷺ حول المرحلة القادمة؛ ذلك أنّ ما قدم به أبو سفيان أوقع أهل مكة في حيرة من أمرهم، فلا هم موقنون بأنّ النبي ﷺ سيغزوهم فيتجهزوا لذلك ويجمعّوا له الحشود من حلفائهم - مع قلّتهم-، ولا هم موقنون بأنّهم في أمان من المسلمين، بعد نقض العهد وعدم قبول النبي ﷺ تجديده، تشير إلى ذلك رواية عكـــرمة عند ابن أبي شيبة؛ وفيها: أنّ قريشا قالوا لأبي سفيان: «ما جِئْتَنا بِحربٍ فنحذَر، ولا بِصلحٍ فنأْمَن»[3].

- **الوهم الذي وقعت فيه المستشرقة "فاجليري-Vaglieri"**: ذكرت المستشرقة في مادة "فاطمة" أنّ أبا سفيان طلب منها ومن زوجها عليّ ﷺ أن يشفع أحدهما له عند الرسول ﷺ، ثم قالت: «**وكان هذا الطلب وجيش الرسول محيط بمكة (المكرمة)**»، وهذا وهم من "فاجليري- Vaglieri"؛ لأنّ هذا الطلب كان قبل ذلك في المدينة عندما ذهب أبو سفيان للرسول ﷺ يسأله تجديد العهد، ثم عاد خائبا إلى مكة، ثم بعد ذلك خرج النبي ﷺ إلى مكة، ولَقِيه أبو سفيان في معسكره بِمرّ الظهران قريبا من مكّة، وفي هذا اللقاء الثاني لم يكن طلب الشفاعة المذكور، وإنّما أسلم أبو سفيان وطلب الأمان لقريش على ما سيأتي تفصيله في الرواية التالية، ويظهر أنّ المستشرقة خَلَطت بين اللقاءين المذكورين؛ فجعلت طلب الشفاعة من عليّ وفاطمة رضي الله عنهما في اللقاء الثاني بالقرب من مكّة، لكنّ الصواب أنّه كان قبل ذلك في اللقاء الأول بالمدينة قبل خروج النبي ﷺ إلى مكة.

[2]- تجهيز النبي ﷺ لفتح مكة: لم يلبث رسول الله ﷺ أن أخذ يتجهز للخروج إلى مكة، وأمر الناسَ بالتجهيز للغزو و لم يعلمهم بوجهته، فتجهّز الناسُ، وأخفى مقصده وحرص على السرية حتّى لا تصل الأخبار إلى قريش[4].

فعن عائشة ﷺ: «أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة، فقال: ما هذا؟ أمركـــم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم فتجهز، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئًا غير أنه قد أمرنا

---

[1]- ينظر تفاصيل الحادثة في: مصنّف عبد الرزاق، 374/5-375. ومصنف ابن أبي شيبة، 400/7-401. وتَهذيب السيـــرة (لابن هشام)، 395/2-397. ودلائل النبوة، البيهقي، 9/5-10. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 436/2. وفقه السيرة، الغزالي، 373.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 473/2. والمنهج الحركي للسيرة النبوية، الغضبان، 118/3.

[3]- مصنف ابن أبي شيبة، 401/7. وفتح الباري، ابن حجر، 9/8.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 392/2. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 356/1-357. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 437/2.

بالجهاز»[1]، وفي حديث مروان والمسور: «وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمّي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم»[2].

وكان غرض رسول الله ﷺ من إخفاء وجهته هو: أن يبغت قريشا في عقر دارها من غير أن تأخذ أهبتها، وتستعد للقتال؛ حرصا منه على أنْ لا تراق الدماء في بلد الله الحرام[3].

يقول مصطفى السباعي في ذلك: «وتَجهّز لقتال قريش، إلا أنه لم يرد أن يخبر الناس عن وجهته؛ لئلا تستعد قريش، فتستباح حرمة البلد الحرام، وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى»[4].

واستنفر القبائل التي حول المدينة: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، حتى بلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل[5]؛ وهذا العدد الكبير يدل على تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة[6].

المطلب الثاني : دخول النبي ﷺ إلى مكة فاتحا وعفوه عن أهلها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 61]: «**وفي رمضان من العام الثامن الهجري (ديسمبر 629م) خرج على رأس جيش من المهاجرين والأنصار والبدو، فأثار خبر خروجه قلقا شديدا في مكة حيث كان عدد أولئك الراغبين في القتال يتناقص يوميا، وأصبح بإمكان الأكثر حذرا أن يتولوا مقاليد الأمور، وقد أرسل أبو سفيان مع آخرين، من بينهم صديق محمد بُديل بن ورقاء[7] الخزاعي لِمقابلة محمد ﷺ قرب مكة، معظمين إياه، وحصلوا منه على عفو عن قريش كلّها شرط ألا تقاومه بالسلاح، وهكذا تمكن النبي ﷺ من دخول بلدته دون قتال، واعتنق معظم أهلها الإسلام. وكان موقف النبي كريما للغاية، وحاول تأليف كافة القلوب بالعطايا السخية التي أصبحت تشكل وجها جديداً من وجوه إنفاق الصدقات** ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ التوبة: **60... معبرة عن سعادته بهذا النصر، وكذا تلك الآيات قوية التأثير** ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ

---

[1]– أخرجه: **البيهقي**، دلائل النبوة، 12/5. وسنده صحيح كما بيّن العلي في "صحيح السيرة، 404".

[2]– أخرجه: **البيهقي**، دلائل النبوة، 6/5-7. وسنده صحيح كما بيّن الصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 447".

[3]– السيرة النبوية، أبو شهبة، 437/2.

[4]– السيرة النبوية دروس وعبر، 106.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 5/8 و8. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 102/2.

[6]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 474/2.

[7]– في المطبوع "بديل بن ورقة"؛ وهو خطأ مطبعيّ ظاهر.

وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ الفتح (1–3)، ومن الشائق أن نلاحظ في هاتين السورتين ذكر غفران الله لذنوب محمد ﷺ بعد ذكر الفتح الذي فتحه الله له، مِما يوحي بأن تَحقق أحد الأهداف الرئيسية للنبي ﷺ، وهو استسلام بلدته دون قتال، فيه دليل مباشر على أن الله قد غفر له كافة ذنوبه»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**بُدَيل بن ورقاء**"[فقرة: 3]: «وأسرع بديل إلى المدينة ليتّفق مع النبي ولقي في طريقه أبا سفيان (انظر هذه المادة) الذي كان ذاهبا إلى المدينة ليجدّد العهد... ويظهر أن كليهما قد اتفق مع النبي على شروط تسليم مكة من غير قتال، وعرض خدمتهما في هذا السبيل. وزحف النبي إلى مكة على رأس عشرة آلاف رجل بدعوى الثأر لبني خزاعة وقبل أن يصل النبي إلى مر الظهران بيوم (منتصف رمضان من سنة 8 هـ/ أوائل يونيه من سنة 630م) خرج بديل وأبو سفيان يتجسّسان، ولو لَم يكونا قد اتفقا سرا فيما بينهما لَما استطاع أبو سفيان أن يقنع بديلا بالذهاب معه في هذه اللحظة الحرجة وهو زعيم خزاعة التي كانت سببا في الحرب، وقيل أنّهما أسلما بعد أن أُدخلا على النبي وقدّما خضوعهما إليه، ولا يمكن أن يكون بديل قد أسلم قبل ذلك لأن اسمه ذكر بين مسلمي فتح مكة، ومن مفاخره أن كل من دخل داره في مكة فهو آمن»[3]. المحرر هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[4].

– وفي مادة "**سُلَيم**": «وكان يجمع السليمية وأهل مكة مصالح مشتركة، ولذلك عادوا النبي أول الأمر، فلما تبيّن لهم أن انتصار الإسلام أمر لا شك فيه أخذ هؤلاء البدو الذين يقيسون الأمور بِميزان الواقع يفاخرون بإسلامهم، وفي عام 8 هـ (629–630م) اشتركت كتيبة سليمية قوية في غزو مكة الهيّن الذي حدث بعد وقعة حنين»[5]. المحرر هو المستشرق: **لمنس** – Lammens.

– وفي مادة "**غطفان**"[فقرة: 1]: «وقد كان "عيينة" في معسكر محمد ﷺ أثناء فتح مكة في العام الثامن للهجرة (630م)»[6]. محرر المادة هو المستشرق: **يي.فوك** -Fuck[7].

– وجاء في مادة "**[أبو] سفيان**"[فقرة: 4]: «كما فشلت المقاومة الحربية التي نظمتها تلك الشرذمة الضئيلة التي أصرت على الخصومة والعناد»[8]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9149/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 473/3–474.

[4]– سبقت ترجمته في: ص211.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 144/12.

[6]– المصدر نفسه، إص3، 7627/24.

[7]– سبقت ترجمته في: ص266.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 356/1.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- تاريخ الفتح: كان فتح مكة سنة ثَمان للهجرة باتفاق، والمشهور في كتب المغازي أنه ﷺ خرج في العاشر من رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه كما أفاد النووي وابن حجر والعمري[1].

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفاري وخرج **لِعَشْر** مضين من **رمضان**»[2].

ثانيا- نزولهم بِمر الظهران: وصل جيش المسلمين إلى "مرّ الظهران"[3] دون أن تعلم قريش بتحركه، وفي مر الظهران عسكر المسلمون، وعُمِّيت أخبارهم عن قريش؛ فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي يتحسّسون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم أن يخرجوا لِمصالحة الرسول ﷺ قبل أن يدخل عليهم مكة، وكان أبو سفيان وصاحباه يتناقشون بينهم في أمر الجيش المعسكر بمر الظهران وقد ظنه بعضهم "خزاعة" مما يدل على نجاح المسلمين في كتمان خبر تقدمهم إلى مكة، فلما أخبرهم العباس بأنه جيش المسلمين، سألوه عن رأيه، فطلب من أبي سفيان أن يمضي معه -وبجواره- إلى معسكر المسلمين، فوافَقَ، وقابل الاثنان الرسول ﷺ، فدعا أبا سفيان للإسلام فتلطف في الكلام وتردّد في الإسلام، ثم أسلم أبو سفيان بعد ذلك، فلمّا ذهب لينصرف أمر النبي ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الوادي حتى تَمرّ به جنود الله فيراها، فحبسه العباس وأطلعه العباس على قوة المسلمين حيث استعرض الجيش أمامه، قال العباس: **ومرت به القبائل على راياتها** كلما مرت قبيلة؛ قال أبو سفيان: من هؤلاء؟ فأقول: **سليم**، فيقول: **مالي ولسليم**، قال: ثم تمر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: مالي ولمزينة، حتى مرّت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان، فيقول: مالي ولبني فلان. حتّى مرَّ رسول الله ﷺ في كتـــيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عبّـــاس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصـــار. قال: ما لأحد بِهؤلاء قِـــبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظـــيما، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذاً. فأدرك أبو سفيان قوة

---

[1]- ينظر: شرح النووي على مسلم، 331/7. وفتح الباري، 231/4. والسيرة النبوية الصحيحة، 475/2.

[2]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 222/4. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 399/2. وحسنه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[3]- سيأتي تعريفه في: ص855.

المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم؛ ومضى أبو سفيان إلى مكة فأخبر قريشا بقوة المسلمين وأشار عليهم بعدم المقاومة[1].

في ضوء هذه الرواية أورد بعض الملاحظات على ما جاء في نصوص المستشرقين السابقة:

أ)– تشير هذه الرواية إلى مشاركة عدّة قبائل من خارج المدينة المنورة مع النبي ﷺ في فتح مكة، من بينها قبائل كانت معادية له، وحاربته منذ أمد قريب[2]، منها: قبيلة "**سليم**" التي ذكرها المستشرق "لَمنس-Lammens" في مادة "سليم"، وكذا شارك "عيينة بن صحن"[3] كما ذكر المستشرق "فوك-Fuck" في مادة "غطفان"، وأضاف الواقدي أنّه شارك بنفر من قومه "**فزارة**" في جيش الفتح[4].

ب)– ورد في نصّ "لَمنس-Lammens" من مادة "سليم" بأن "**غزو مكة حدث بعد وقعة حنين**"؛ وهذا خطأ علمي ووهم ظاهر، لأنّ غزوة حنين إنّما حدثت بعد فتح مكة، وقد يكون خطأً مطبعيًّا، حيث كُتب لفظ "بعد" عوضا عن "قبل".

ج)– لم يحسن المستشرق "لَمنس-Lammens" تفسير مقصد اللقاء الثاني لأبي سفيان مع النبي ﷺ "بمرّ الظهران" قبل الفتح، وتقدّم بيان فشل أبي سفيان في لقائه الأول مع النبي ﷺ في المدينة، بحيث لم يأت بقولٍ فصلٍ في القضيّة، الأمر الذي أوقع قريشا في حيرة من أمرها، فلم تدرك خطّة النبي ﷺ الآتية؛ ولم تعرف كيف تتصرّف، وهو ما قصده النبي ﷺ من تعمية خبر خروجه عن قريش، حتّى يفتحها سلميّا، ومن هنا خرج أبو سفيان في هذا اللقاء الثاني هو وحكيم وبديل يتحسّسان الأخبار، ولفظ "التحسّس" أولى من لفظ "التجسّس" - المذكور في النصّ - للتعبير عن الموقف، وفي هذا اللقاء لَم يَقَــع أيّ اتّفاق سرّي بين أبي سفيان والنبي ﷺ لِتسليم مكة كما زعم "لَمنس-Lammens"، وكأنّه يوعز بذلك إلى كون هذا الاتّفاق فقط [الذي لم يقع أصلا ولا يوجد ما يشهد له في مصادر السيرة] هو الذي مكّن النبي ﷺ من دخول مكة بطريقة سلمية ودون قتال إلا مناوشات قليلة، لكن الواقع الصحيح للحوادث التي توضّحه الروايات السابقة[5] يشير إلى أنّ النبي ﷺ هيّأ لفتح مكّة سلميّا منذ البداية؛ حيث:

---

[1]– ينظر: المعجم الكبير، الطبراني، 8/9-12. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/399-404؛ من حديث ابن عباس ﷺ بإسناد صحيح؛ وأورده ابن حجر في "المطالب العالية، 17/459-462" بسياق مفصّل، وقال: «حديث صحيح». وأخرج: البخاري في "الصحيح (الفتح)، 8/8" القصّة مختصرة من مرسل عروة.

[2]– شاركت "سليم" و"فزارة" الآتي ذكرهما ضد المسلمين في: غزوة الخندق وغيرها. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/215. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 1/223-224.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/561. والإصابة، ابن حجر، 4/639.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 2/803. وفتح الباري، ابن حجر، 8/11.

[5]– ينظر: ص695-696.

– لم يُعطِ أبا سفيان جوابا حاسما حول القضيّة.

– وعمّى الأخبار عن قريش، حتى لا تأخذ أهبتها للقتال فتراق دماء أكثر، مع العلم بأنّ قريشا لم تكن نداً للنبي ﷺ حتى لو تأهّبت للقتال، لكنّ هذا التأهّب كان سيجعل الخسائر في الأرواح أكبر.

– لَمّا باغت النبي ﷺ أهل مكة بجيش جرّار أصبح موقفهم ضعيفا، فصار الاستسلام هو الحلّ الأسلم والأكثر أمانا لهم، وهو ما فعله جلّهم، إلا شرذمة قليلة قاومت ثم سرعان ما فرّت.

– كان النبي ﷺ في غنًى عن الاتّفاق المزعوم بينه وبين أبي سفيان، لقوّة موقفه، وإنّما حاول أبو سفيان ومن معه أخذ الأمان من النبي ﷺ لأهل مكة، لأنّ النبي ﷺ كان داخلها لا محالة.

من أجل ذلك استعرض النبي ﷺ جيشه الكبير أمام أبي سفيان، حتى يدرك قوة المسلمين، وأنّه لا جدوى من المقاومة، فينقل ذلك إلى أهل مكة.

لذا كانت عبارة المستشرق "بول-Buhl" أدقّ في التعبير عن الحادثة، حين قال: «**أُرسل أبو سفيان مع آخرين، من بينهم صديق محمد بُديل بن ورقاء الخزاعي لِمقابلة محمد ﷺ قرب مكة، معظمين إياه، وحصلوا منه على عفو عن قريش كلّها شرط ألا تقاومه بالسلاح**».

لكنّ "لمنس" تجاهل هذه المعطيات أو لم يستوعبها فكان تفسيره بعيداً عن تصوير حقيقة الحادثة.

ثالثا– دخوله ﷺ مكة والعفو العامّ عن أهلها: زحَف النبي ﷺ من **مرّ الظهران** على مكة، فعيّن القادة وقسّم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، والزبير بن العوام على اليسرى، وأبو عبيدة على الرجالة[1].

دخل الرسول ﷺ مكة بكتائبه خاشعا لله، شاكرا لأنعمه؛ يقرأ سورة الفتح ويرجِّع في قراءتها وهو على راحلته، و لم يدخل الرسول ﷺ مكة دخول الفاتحين المتغطرسين، بل دخلها خافضا رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح[2].

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين يدخلون مكة، أنْ يَكُفّوا أيديَهم، وألاّ يقاتلوا إلا من قاتلهم[3]؛ حتّى يتم فتح مكة سلميا ودون قتال[4].

---

[1]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 177/12. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 406/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 478/2.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 17/8. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 405/2. والبداية والنهاية، 547/6-549. والسيرة النبوية الصحيحة، 482/2.

[3]– ينظر: السنن الكبرى، البيهقي، 203/9. من رواية موسى بن عقبة ومرسل عروة. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 409/2.

[4]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 339.

دخلت قوات المسلمين مكة من عدة جهات في آنٍ واحدٍ، فلم تلق مقاومة، إلا ما حدث من مناوشات خفيفة في "الخندمة"[1]؛ حيث الْتَحمت كتيبة خالد بن الوليد مع بعض مشركي قريش وحلفائهم الذين أصرّوا على القتال رغم ضعف موقفهم، وكان يقودهم صفوان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، لكنّ مقاومتهم باءت بالفشل؛ إذ لم يلبثوا أن تركوا مواضعهم وفرّوا منهزمين[2].

وهي "**المقاومة الضئيلة**" التي أشار إليها "بول-Buhl" في نصّه المذكور من مادة "[أبو] سفيان".

وفي رواية ابن إسحاق أن عدد قتلى المسلمين في الخندمة: بلغ ثلاثة من الفرسان، في حين قُتل من المشركين إثنا عشر رجلا[3]، وذكر موسى بن عقبة: أنّ قتلى المشركين بلغوا قريبا من أربعة وعشرين[4]، بينما جاء في رواية الواقدي إنهم بلغوا ثمانية وعشرين[5].

أما عامة أهل مكة فقد نالهم **عفو عام رغم** أنواع **الأذى** التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ومع قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم، فقال: ((مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟)) فقالوا: خيرا؛ أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: ((أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]))[6]، وفي رواية أنّه قال: ((اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ))[7].

فاختار الرسول ﷺ أن يعفو عنهم ويصبر على ما كان منهم، ويدع عقوبتهم، فقال: ((نَصْبِرُ وَلَا نُعَاقِبُ))[8]؛ تفضلاً منه وإحساناً.

«ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى»[9].

---

[1]- **الْخَنْدَمة**: اسم جبل بمكّة؛ في الجهة الشرقية منها، وقد شُقّت اليوم أنفاقٌ عبر جبال الْخَنادِم، مِن عند الْمسجد الْحرام وتَخرج عند "مَحْبس الجنّ" بِطرف العزيزيّة. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 512/5. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 115.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 407/2-408. والبداية والنهاية، 556/6-557.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 407/2-408. وفي "صحيح البخاري (الفتح)، 9/8": أنّه قُتل من المسلمين رجلان.

[4]- ينظر: السنن الكبرى، البيهقي، 203/9. من رواية موسى بن عقبة ومرسل عروة.

[5]- ينظر: مغازي الواقدي، 825/2-826.

[6]- أخرجه: **البيهقي**، السنن الكبرى، 199/9-200. من حديث أبي هريرة ﷺ، وسنده صحيح كما بيّن الصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 468". ورواه أبو عبيد في "الأموال، 143" مرسلا؛ وهو حسن كما ذكر العمري "السيرة الصحيحة، 481/2".

[7]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 412/2. بسند ضعيف، لكن يشهد لمعناه الحديث السابق والحديث الآتي.

[8]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 152/35-153. من حديث أُبَيّ بن كعب ﷺ، وحسنه الأرنؤوط في تحقيق المسند. وروى **الحاكم** في "المستدرك، 391/2" نحوه من حديث أُبَيّ ﷺ أيضا، وصحّحه ووافقه الذهبي.

[9]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 481/2.

يقول أبو زهرة: «وهو لم يكن فتحَ قتال، بل كان فتحَ قلوب، وأوسع فتح للدعوة إلى الإسلام... بل كان أمنا وسلاما، وتلاقي قلوب قد فرق بينها الجحود... فلما دخل محمد ﷺ مكة المكرمة... ألقى إليهم السلام والإكرام، وتلاقت العشائر التي تخاصمت ثم تهادنت، ثم سالمت ثم آمنت»[1].

هذا هو "**الموقف الكريم للغاية**" الذي أشار إليه المستشرق "بول - Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، لكنّ تأليف القلوب في هذا الموقف لم يكن "**بالعطايا السخية؛ التي أصبحت تشكل وجها جديداً من وجوه إنفاق الصدقات**" كما قال "بول-Buhl"؛ فهذا الأمر لم يكن عند فتح مكة، بل كان بعد ذلك في غزوة حنين[2].

وإنّما ألّف النبي ﷺ بين الناس في هذا الموقف (يوم الفتح) بإشاعة السلام بين الناس بعدما كانوا في خصومة وحرب، وبالعفو الشامل والصفح الجميل عمّن آذوه والمسلمين، فتلاقت القلوب بعد تنافرها، وتآلفت بعد عداوتها، كما في الكلام السابق لأبي زهرة والعمري.

- **الاستدراك على "لَمنس" في وصف دخول مكة:** اعتبر "لَمنس-Lammens" في مادة "سليم" فتح مكة "**غزوا هيّناً**"، ولعلّه عبّر بهذا الوصف عن عدم وقوع القتال في الحادثة إلاّ مناوشات خفيفة، وعن قلّة القتلى من الجانبين، لكنّه تنكّب في وصفه هذا عن اعتبار فتح مكة "**الفتح الأعظم**" في الإسلام الذي دانت به قريش للإسلام ثم سائر جزيرة العرب بعدها، هذا هو الوصف اللائق لفتح مكة، وإن لم يقع فيها قتال ملحمي كبير، ذلك أنّ النبي ﷺ حرص قبل وبعد خروجه من المدينة إلى مكة على أن يكون فتحه لها فتحا سلميا، دون قتال وإراقة للدماء على قدر الإمكان كما ذكر "بول-Buhl".

بل إنّ وصف المستشرق "لَمنس-Lammens" يُغفل ما كان لفتح مكة من الصدى الأكبر والأثر الأعظم على دعوة الإسلام داخل جزيرة العرب وخارجها؛ لِما لهذا البلد من مكانة عليّة عند العرب، ولقريش من منزلة رفيعة بين قبائل العرب؛ قال ابن إسحاق: «وإنما كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ؛ وذلك أن **قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم**، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلمّا افتُتحت مكة، ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال الله عزّ وجل: "**أفواجا**" يضربون إليه من كل وجه»[3].

---

[1]- خاتم النبيين، 1184/2.

[2]- سيأتي بيان ذلك في: ص935. - **تنبيه:** لا يستبعد أن يكون مقصد المستشرق "بول" من ذلك هو: التعمية على استمالة النبي ﷺ لأهل مكة للإسلام بما أبداه من السلم والعفو الجميل.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 406/2.

وقال ابن القيم: «هو **الفتح الأعظم** الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في **دين الله أفواجا**، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا»[1].

- **الاستدراك على "بول-Buhl" في آيات الفتح:** كان إسلام أهل مكة إيذانا بإسلام سائر أهل الجزيرة العربية، وبدخولهم في دين الله تعالى أفواجا، كما قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر][2]؛ يقول ابن عباس ﷺ: «﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ **وَٱلۡفَتۡحُ** ﴾: **فتح مكة**»[3]، وقال ابن كثير: «**والْمُراد بالفتح** هاهنا **فتحُ مكّة** قولاً واحدًا»[4].

أمّا المقصود بالفتح في آيات مطلع سورة الفتح التي ذكرها "بول-Buhl" فهو صلح الحديبية على القول الراجح والمشهور، لأنّ الآية نزلت بعد صلح الحديبية في طريق عودة النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة، وثبت عن النبي ﷺ ما يشهد لهذا التفسير؛ حيث سُئل - بعد نزول الآية- عن "عهد الحديبية": أفتح هو؟ فقال ﷺ: ((نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ **إِنَّهُ لَفَتْحٌ**))[5]، وقال البراء بن عازب ﷺ: «تعدون أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحا، ونحن **نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية**»[6]، وذهب أكثر المفسرين إلى تفسير الفتح في الآية بصلح الحديبية[7]، وإن كان منهم من حملها على "فتح مكة"[8].

---

[1]- زاد المعاد، 347/3.

[2]- ينظر: تفسير الطبري، 705/24-706. وتفسير البغوي، 318/5. والبداية والنهاية، ابن كثير، 508/6.

[3]- صحيح البخاري (الفتح)، 25/8-26.

[4]- تفسير ابن كثير، 513/8.

[5]- عند: **أبي داود والحاكم**. من حديث مجمِّع الأنصاري ﷺ، سبق تخريجه في: ص661.

[6]- عند: **البخاري**، سبق تخريجه في: ص662.

[7]- ينظر: تفسير الطبري، 238/21 و243. وتفسير البغوي، 222/4. وتفسير ابن كثير، 328/7. وفتح الباري، 550/7.

[8]- ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 125/4. وتفسير الرازي، 65/28. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 144/26.

المطلب الثالث : بعض الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد فتح مكة

الفرع الأول : من الأعمال التي قام بها داخل مكة

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**بلال بن رباح**"[فقرة: 3]: «ولَمّا فتح المسلمون مكة شرفه الله بالأذان من سقف الكعبة»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**صنم**": «ويقال إن النبي عليه السلام عندما دخل مكة ظافراً ضربها في أعينها بطرف قوسه قبل أن يأمر بسحبها من أماكنها وتدميرها في النيران؛ وكان بعض هذه الأصنام من الشجر مثل العزى، كما كان كثير منها مجرد أحجار مثل اللات... وأشهر الأصنام التي كانت لا تزال تُعبَد في الحجاز على عهد النبي هي: العزى واللات ومناة، وهي آلهة من الإناث، ثم هبل الذي كان أشهر الأصنام المذكورة فيما يظهر، وكان تمثاله من حجر الجرانيت الأحمر»[3]. المحرر هو المستشرق: **كرنكوف** - F.Krenkow[4].

– وفي مادة "**صورة**": «ويروى أيضا أن النبي عليه الصلاة والسلام أخرج الصور والتماثيل من الكعبة (البخاري: كتاب المغازي، باب 48)، وفي هذا أخبار مذكورة في السيرة، ويكفي أن نذكر هنا بالإضافة إلى ما تقدم حديثا يشبه بعض الشبه أسطورة كريستو موروس: حكى عليّ رضي الله عنه: "انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس، وصعد على منكبَي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفا، فنـــزل، وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي، قال: فصعدت على منكبيه، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إلَيّ أني لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تِمثال صُفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به، فقذفت به، فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنـــا ورسول الله ﷺ نستبق، حتى توارينا بالبيوت، خشية أن يلقانا أحد من الناس"، (أحمد بن حنبل، ج**1** ص**84**)»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - wensinck[6].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 62]: «ولم يطلب النبي ﷺ غير تحطيم الأوثان داخل مكة وخارجها»[7]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 313/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 357/14-358.

[4]– سبقت ترجمته في: ص526.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 374/14-375.

[6]– سبقت ترجمته في: ص49.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9150/30.

ثانيا- التحليل والمناقشة: من أهمّ الأعمال التي قام بها النبي ﷺ يوم فتح مكة هو تطهير المسجد الحرام من الأصنام والأوثان والصور الشركيّة التي كانت تحيط به من كلّ جانب، ثم أتبع ذلك بإرسال بعثات من أصحابه لتحطيم بعض الأصنام الكبرى في الأنحاء المجاورة لِمكة المكرمة، وقد ذكر كلّ من المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، و"كرنكوف-Krenkow" في مادة "صنم"، وكذا "فنسنك-wensinck" في مادة "صورة" عمل النبي ﷺ على تحطيم الأصنام داخل مكة وخارجها بعد الفتح.

وفيما يلي تفصيل الكلام على هذا العمل وغيره من الأعمال التي قام بهذا الرسول ﷺ داخل مكة:

[1]- تطهير مكة من الأصنام: بعد أن دخل رسول الله ﷺ مكة، أقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت الحرام، وكان بداخل الكعبة وخارجها أصنام تعبدها قريش، فأمر الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام منها، وشارك في ذلك بيده؛ فجعل يطعنها بالقوس، والأصنام تتساقط على وجوهها بمجرد إصابتها بقوسه، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة[1].

فعن أبي هريرة ﷺ قال: «... وأقبل رسول الله ﷺ إلى الحجر، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه... فجعل يطعنه في عينه، ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾ [الإسراء: 81]»[2].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت **ستّون وثلاثمائة** (360) نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ((﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: 49]))[3].

ثُمّ دخل ﷺ الكعبة فأزال ما بها من صور وتماثيل، حيث وجد داخل الكعبة صوراً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام وهم يستقسمون بالأزلام، فأمر بها فمُحِيت ولُطّخت بالزعفران؛ وقال: ((قَاتَلَهُمُ اللهُ؛ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَقْسِمُ بِالأَزْلامِ))[4].

بهذا قضى رسول الهدى ﷺ على الوثنية في معقلها الأكبر قضاءً مبرما، فبعد أن كانت تلك الحجارة -قبل ساعات- آلِهة مقدسة، صارت الآن مُجرّد جصّ وتراب وأنقاض؛ فارتفعت رايــة التوحيد،

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 416/2-417. والبداية والنهاية، ابن كثير، 571/6. والقول المبين، النجار، 350.

[2]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، 180/12-181.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، 20/8، وكتاب التفسير، 509/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب في إزالة الأصنام من حول الكعبة، 186/12.

[4]- أخرجه: **ابن أبي شيبة**، المصنف، 403/7. من حديث جابر ﷺ؛ وحسنه ابن حجر في "المطالب العالية، 469/17". وأخرج **البخاري** نحوه في: الصحيح (الفتح)، كتاب أحاديث الأنبياء، 468/6. من حديث ابن عباس ﷺ.

وتَمّ تطهير البيت العتيق من مظاهر الوثنية وأوضار الجاهلية؛ ليعود كما أراد له الله تعالى، وكما قصد ببنائه إبراهيم وإسماعيل مكانا لعبادة الله وتوحيده[1].

• **حادثة تحطيم عليّ ﷺ لِصنمٍ كان فوق الكعبة:** أمّا الرواية التي أوردها "فنسنك-wensinck" عن قصّة صعود عليّ ﷺ على كتفي النبي ﷺ وتحطيمه لصنم كان فوق سطح الكعبة، فجاءت من حديث عليّ ﷺ عند أحمد وغيره[2]، وأكتفي بالسياق المذكور في مادة "صورة"، فهو لفظ أحمد.

وهذا الحديث فيه ضعف؛ لجهالة "أبي مريم"[3]، والاختلاف في توثيق "نعيم بن حكيم"[4]، وقد ضعّف الحديث شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند، بينما صحّحه الحاكم، لكنّ عقّب عليه الذهبي بقوله: «إسناده نظيف والمتن منكر»[5]، ومن أوجه نكارة المتن أنّ ما جاء في الرواية من قوله: «**فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق، حتى توارينا بالبيوت، خشية أن يلقانا أحد من الناس**»؛ يشير إلى أنّها وقعت قبل الهجرة، وإنّما كان تحطيم الأصنام عند فتح مكة.

وحتّى مع التسليم بصحّتها لا يستقيم تشبيه المستشرق "فنسنك-wensinck" للحادثة بالأساطير الأوربية أو غيرها، لأنّ الرواية دلّت على أمور بعيدة عن تصوير تلك القصص ومشاهدها، ومنها:

أ)– تحطيم الأوثان التي تُعبد من دون الله، حتّى يُعبد الله وحده؛ فكان الأولى أن تُشبّه القصّة بقصّة أبي الحنيفيّة "إبراهيم" عليه السلام عندما حطّم أصنام المشركين ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: 58]؛ فهل تضمّنت القصص الأسطورية التي ضرب "فنسنك-wensinck" المثل بِها هذه المعاني العظيمة؟!

ب)– يبدو أنّ ما استشكله المستشرق من الرواية هو قوله: "**فصعدت على منكبيه، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إليّ أني لو شئت لنلت أفق السماء**"، وهذه العبارة إمّا أن يكون المراد بها: الإشارة إلى معجزة من معجزاته ﷺ، والمستشرقون ينكرون معجزات النبي ﷺ لدلالتها على النبوة، وإمّا أن يراد بها ما امتاز به النبي ﷺ من قوة البدن، وهو أمر يشاركه فيه غيره، فلا حاجة للمستشرق في إنكار مثل ذلك.

– أما **تحطيم الأصنام خارج مكة:** فسيأتي الكلام عليه في الفرع الموالي.

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 446/2. وفقه السيرة، الغزالي، 381. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 483/2.

[2]– ينظر: مصنف ابن أبي شيبة، 403/7–404. ومسند أحمد، 73/2–74. ومستدرك الحاكم، كتاب التفسير، 398/2.

[3]– ينظر: ميزان الاعتدال، الذهبي، 573/4. وتهذيب التهذيب، ابن حجر، 232/12–233.

[4]– ينظر: تهذيب الكمال، المزي، 464/29–465. وتهذيب التهذيب، 457/10–458.

[5]– مستدرك الحاكم، 398/2.

[2]- أذان بلال فوق الكعبة: بعد أن طُهّرت الكعبة من الأصنام أمر الرسول ﷺ بلالا رضي الله عنه فأذّن فوقها للصلاة[1]؛ «وأنْصَت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إنّ هذه الكلمات تقصف في الجـــوّ فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين، فلا يملكون أمام دويّها إلا أن يولوا هاربيـــن، أو يعودوا مؤمنين... هذه الصيحات المؤكدة تذكّر الناس بالغاية الأولى من محياهم، وبالمرجع الحق بعد مماتهم... إنّ صوت الحق يستخرج المرء من وراء الحجب المتراكمة ليلقي في روعه ما كان ينساه، وهو تكبير سيّد الوجود، ورب العالمين، سيده ومولاه»[2].

[3] و[4]- خطبة النبي ﷺ ومفتاح الكعبة:

- جاء في مادة "**خطيب**": «**فإنّ الرسول قام خطيبا، بعد فتح مكة (ابن هشام، طبعة فستنفلد، ص823...) وتحدّث إلى الناس في احتفال وسلطان**»[3]. المحرر هو: **بيدرسون** - J.Pedersen[4].

- وفي مادة "**[بنو] شيبة**": «**... وكانت حجابة الكعبة عندما فُتحت مكة في يد عثمان بن طلحة... وقد صحب عثمان النبي عليه السلام إلى الكعبة يوم فتح مكة، وطلب النبي منه مفتاحها، وتقول المصادر بصفة عامة أنّ عثمان سلّمه إليه... ولكن رواية ثالثة لا تزعم أن عثمان أسلم في العام الثامن للهجرة، تظهره قائما على شرفة الكعبة مُمسكا بالمفتاح يصيح في النبي عليه السلام: "لو علمت أنّه رسول الله لَم أمنعه"، ولكن عليّا تسلّق الشرفة ومدّ يده وأخذ المفتاح وفتح الباب بنفسه، وفي هذه الرواية يبِين التشيّع للعلويّين (الرازي: مفاتيح، ج2 ص460. القلشندي: صبح الأعشى، ج4 ص264)**.

والحديث الشائع أنّ النبي عليه السلام وفي حوزته المفتاح، قد فتح باب الكعبة ودخلها هو وعثمان وبلال وأسامة، وصلّى ركعتين في البقعة التي تعدّ اليوم أرضا حراما، ثُمّ خرج حاملا المفتاح في يده.

وفي هذه النقطة تختلف الأحاديث مرة أخرى في التفصيلات، ولكنّها تنتهي بردّ المفتاح لعثمان، ففي رواية أن النبي إمّا مدفوعا بنفسه أو برجاء العبّاس أو عليّ، قد مال على قوائم باب الكعبة، وقال قولا ختمه كما يلي: ((إن كلّ مأثرة كانت في الجاهلية ودم ودعوى -وقال مرة: ودم ومال- تحت قدمي هاتين إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت فإنّي أمضيهما لأهلهما على ما كانت))، فجعل السقاية للعبّاس ورد المفتاح لعثمان»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **ديمومبين** - G. Demombynes[6].

---

[1]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 78/5. والبداية والنهاية، ابن كثير، 575/6.

[2]- فقه السيرة، الغزالي، 383.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 388/8.

[4]- سبقت ترجمته في: ص613.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 463/13-465.

[6]- **ديمومبين جودفروا** "G.Demombynes" (1862-1957م): مستشرق فرنسي، اشتغل أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، من آثاره: "العالم الإسلامي حتى الحملات الصليبية". ينظر: الأعلام، الزركلي، 144/2. وموسوعة المستشرقين، بدوي، 271.

أ)- خطبة النبي ﷺ يوم فتح مكة: خَطَب الرسول ﷺ في الناس يوم فتح مكة عدة خُطب، وقف خطيبا في الأولى منها على باب الكعبة: وكبر ثلاثًا، ثم قال: ((لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمِيَّ هَاتَيْنِ، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ[1]))[2].

كما ألقى الرسول ﷺ خطبا أخرى بيّن فيها: إبطال بعض عادات الجاهلية، وأنّه لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة، وأكّد تحريم مكة إلى يوم القيامة، وغير ذلك من التوجيهات الشرعيّة والإيمانية[3].

وسبق بيان أنّ النبي ﷺ دخل مكة خاشعا خافضا رأسه تواضعا لله عز وجلّ، أمّا الاحتفاء الذي ذكره المستشرق "بيدرسون-Pedersen" في مادة "خطيب" فهو محمول على الاحتفاء بانتصار التوحيد على الشرك، وظهور سلطان الإسلام على الوثنية في بلد الله الحرام.

وأورد المستشرق "ديمومبين-Demombynes" هذه الخطبة دون عزوها إلى مصادرها، وبيّن ما فيها من إقرار النبي ﷺ لاستمرار السقاية والسدانة على ما كانت عليه من قبل[4].

ب)- مفتاح الكعبة: قدّم المستشرق "ديمومبين-Demombynes" روايات في شأن تقديم النبي ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة ﷺ يوم الفتح، وأخذ تلك الروايات من مصادر تاريخية وتفسيرية وحتى أدبية، وكلّ تلك الروايات تتفق: في أنّ عثمان بن طلحة ﷺ قدّم المفتاح للنبي ﷺ، ففتح به باب الكعبة ودخلها، ثم أرجع المفتاح إلى عثمان ﷺ، وأقرّه على حجابة البيت[5]، لكنّ الروايات التي أوردها تختلف من حيث قيمتها العلمية، وإن كان "ديمومبين-Demombynes" لم يميّز بينها وفق هذا الاعتبار.

فقد ذكر رواية الصحيحين دون تفصيل وعبّر عنها "**بالرواية الشائعة**"، وهي الرواية الأصحّ والأكثر دقّة وتوثيقا من بقيّة الروايات التي قدّمها، وجاءت من حديث عبد الله بن عمر ﷺ -وهو أحد الصحابة الذين شهدوا الحدث- الذي يقول: «قدم رسول الله ﷺ يوم الفتح فنزل بفناء الكعبة، وأرسل إلى عثمان بن طلحة فجاء بالمفتاح، ففتح الباب، قال: ثم دخل النبي ﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة

---

[1]- **السّدانة:** من السّدَن: وهو السِّتْر، وسِدانة الكَعْبة: خِدمتها، وفتْح بابِها وإغلاقُه، **والسّدانة:** هي **الْحِجابة**، وَسَدَنَةُ الْبَيْتِ: حَجَبَتُهُ. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 150/3. والنهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 355/2.

[2]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الديات، باب في دية الخطأ شبه العمد، 189/12. **وابن حبان**، في صحيحه، كتاب الديات، 364/13. **والبيهقي**، السنن الكبرى، 120/8. من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وصحّحه ابن حبان، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان، والعلي "صحيح السيرة، 425".

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 54/4 و61. ومسند أحمد، 587/11. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 485/2.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 436/2-437. والبداية والنهاية، ابن كثير، 586/6.

[5]- **الحجابة:** حرفة الْحاجِب، وهو البواب، والمقصود هنا: همُ الّذين بِأَيْدِيهم مفتاح الكعبة، **والْحِجابة:** هي **السّدانة**. ينظر: النهاية في غريب الحديث، 340/1. والمعجم الوسيط، مجموعة باحثين، 156/1.

وأمر بالباب فأغلق، فلبثوا فيه مليّا، ثم فتح الباب»، فقال عبد الله: «فبادرت الناس فتلقيت رسول الله ﷺ خارجا وبلال على إثره، فقلت لبلال: "هل صلى فيه رسول الله ﷺ؟" قال: "نعم"»[1].

وفي لفظٍ لِمسلم قال ابن عمر ﷺ: «أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأسامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: ((**ائْتِنِي بِالْمِفْتَاحِ**))، فذهب إلى أمّه فأبت أن تعطيه، فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي، قال: فأعطته إياه فجاء به إلى النبي ﷺ فدفعه إليه، ففتح الباب»[2].

تقدِّم رواية مسلم سبب تأخّر عثمان ﷺ في تقديم المفتاح للنبي ﷺ، وهي الأولى والأصحّ من الرواية التي أوردها "ديمومبين-Demombynes"، والتي تجعل السبب في ذلك هو رفض عثمان بن طلحة ﷺ إعطاء المفتاح للنبي ﷺ، مع أنّه كان مسلما وقتئذ، ولا يمكن أن يخالف أمر رسول الله ﷺ؛ زيادة على أنّ هذه الرواية التي ذكرها المستشرق واهية من عدّة أوجه، وهي:

– أنّها وردت في بعض كتب التفسير دون سند[3].

– أنّ ما جاء في الرواية من كون عثمان بن طلحة ﷺ: أَبَى أن يعطي المفتاح للنبي ﷺ، وصعد إلى السطح وقال: «لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه»؛ فهو وهم وغلط ظاهر، لأنّه كان مسلما آنذاك[4]، كما بيّن ابن حجر والقسطلاني[5].

– أنّ سياق الرواية فيه نكارة ومخالفة للصحيح كما أفاد ابن حجر والزرقاني[6].

الفرع الرابع : تحطيم الأصنام خارج مكة

كان تطهير البيت الحرام من الأصنام أكبر ضربة للوثنية في أرجاء الجزيرة العربية، لكون الكعبة أعظم مراكزها، وما إن تَمّ فتح مكة وطُهّرت الكعبة، وتَحطَّم "هُبل" الصنم الأعظم بمكة على يدي الرسول ﷺ، واستتب الأمن بوجه عام؛ حتى أخذ النبي ﷺ يرسل السرايا إلى القبائل المجاورة لِمكة، لدعوتِهم إلى الإسلام، وتحطيم أصنامهم الكبرى، وليعلن للقبائل جميعًا انتهاء عهد الوثنية؛ فهدمت العزى ومناة وسواع وغيرها[7]، وتفصيل ذلك فيما يلي:

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة، 23/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، 121/9-122.

[2]– صحيح مسلم (النووي)، 123/9.

[3]– ينظر: تفسير الرازي، 108/10. والإصابة، ابن حجر، 373/4. وشرح الزرقاني على المواهب، 471/3.

[4]– حيث أسلم في هدنة الحديبية مع خالد وعمرو كما سبق. وينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، 1034/3. والإصابة، 373/4.

[5]– ينظر: الإصابة، 373/4. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 473/3.

[6]– ينظر: الإصابة، 373/4. وشرح الزرقاني على المواهب، 471/3.

[7]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 142/7. والقول المبين، النجار، 351. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 149/3.

أولا- تحطيم "العزى":

– جاء في مادة "**ربيعة ومضر**"[فقرة: 1]: «**وتفخر مزينة بأنها أول قبيلة مضرية دانت للنّبي بالولاء (كان ذلك في زمن قديم يرجع إلى سنة 5 للهجرة فيما يقال، المصدر المذكور، "Sprenger"، ج3 ص201).**

وفي سنة (8 هـ) حطّم خالد بن الوليد صنم العزّى في نخلة، وهو الصنم الذي كانت تعبده قريش، وكنانة، و"جميع مضر" (الطبري، ج1 ص1638)»[1]. المحرر هو: **كندرمان** – H.Kindermann[2].

تحدّث المستشرق "كندرمان - Kindermann" في هذا النصّ عن تحطيم صنم "**العزّى**" الذي وقع بعد فتح مكّة بقليل؛ في أواخر شهر رمضان (سنة 8 هـ)، حين بعث الرسولُ ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى "**العُزّى**" ليهدمها، وكانت بنخلة[3]، وكانت مضر جميعا تعظمها، وقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، فخرج إليها خالد رضي الله عنه في ثلاثين فارسا حتى انتهى إليها فهدمها[4].

ثانيا- تحطيم "سُواع" و"مناة":

– جاء في مادة "**هذيل**": «**ولَمّا أخذ المسلمون في إزالة الأصنام من الكعبة بعد فتح مكة قام عمرو بن العاص بتحطيم "سُواع"، كما قام عليّ ونفر معه من المسلمين بتحطيم "مناة"... ثمّ شاركت هذيل قريشا في اعتناقهم الإسلام**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **ج.رينتز** - G. Rentz[6].

ذكر المستشرق "رنتز-Rentz" في مادة "هذيل" تحطيم صنمي "سواع" و"مناة" الذي كان بعد فتح مكة بيسير، وفي نفس الشهر الذي هُدمت فيه "العُزّى" [رمضان سنة 8 هـ]؛ حيث بعث الرسول ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى "**سُواع**" ليهدمه، وهو صنم لِهُذيل برُهاط[7] قريبا من مكة، ثم انتهى إليه فهدمه، ودخلت هذيل في الإسلام كما دخلت فيه قريش[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 41/10.

[2]– **كندرمان** "H.Kindermann": لم أقف على ترجمة له في كتب تراجم الأعلام والمستشرقين المعاصرين، لكن ورد في أسماء المحرّرين للنسخة الأجنبية "للدائرة" أنه: أستاذ بجامعة "كولونيا" في ألمانيا. ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 1/VI".

[3]– **نخلة:** موضع جنوب مكة، على الطريق بين مكة والطائف. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 1304/4.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 436/2. ومغازي الواقدي، 873/3-874. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 484/2.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 10037/32-10038.

[6]– **رينـــتز جورج** "George Rentz" (1912-1987م): مستشرق أمريكي، كان رئيس قسم البحوث والترجمة في مؤسسة "أرامكو"، وعُيّن في مهمّات بحث حكومية. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1021/3-1022.

[7]– **هُذَيل:** من قبائل الحجاز المهمة، تقع ديارهم في أطراف مكة، من جهة الشرق والجنوب، وبالأخص في أطراف مكة والطائف. ينظر: معجم قبائل العرب، كحالة، 1213/3. – **ورُهَاط:** موضع في بلاد هذيل يبعد عن مكّة حوالي (150 كلم). ينظر: معجم البلدان، الحموي، 107/3. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 144.

[8]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 111/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 142/7. وفتح الباري، ابن حجر، 853/8. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 772.

وفي الشهر نفسه أيضا [رمضان سنة 8 هـ] بعث الرسول ﷺ سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه في عشرين فارسا إلى "**مناة**"، وكانت بالْمُشلّل[1] بين مكة والمدينة، كان يعبدها في الجاهلية الأوس والخزرج وغسان وغيرهم ممن يجاورون الشام أو في طريقه، فانتهى إلى الصنم فهدمه وكسره[2].

ثالثا- هدم "اللات":

– جاء في مادة "**المغيرة بن شعبة**": «**استعمله الرسول ﷺ في هدم معبود الطائف وهيكله**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[4].

ذكر المستشرق "لَمنس-Lammens" في هذا النصّ من مادة "المغيرة" هدم صنم "**اللات**" في الطائف، وكان ذلك بعد أن قَدِم وفد الطائف على النبي ﷺ في المدينة مسلمين، فوجّه النبي ﷺ مع هذا الوفد المغيرة بن شعبة الثقفي وأبا سفيان بن حرب رضي الله عنهما -وكان لهما بثقيف مودة واحترام- ليقوما بهدم اللات صنم الطائف، فلمّا وصلوا شرع المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بهدم هذا الإله المزعوم، وأخذ يضربه بالمعول، وكان هذا الأمر شديدًا على ثقيف، حيث وقف رجال ثقيف واجمين، ونساؤهم متحسّرات يبكين، وكان أهل الطائف يظنون أنها ستثأر لنفسها، وقد سخر منهم المغيرة فرمى معوله وركض، فقالوا: ثأرت الربّة! فضحك، ونصحهم بترك هذه الحجارة التي لا تضر ولا تنفع، ودعاهم إلى توحيد الله تعالى، وعاد فأنجز المغيرة عمله؛ فقام هو ومن معه من الرجال بهدمها حجرا حجرا حتى سوّوها بالأرض، وبذلك زالت أسطورة اللات التي عبدت طويلا من دون الله، وانتشر الإسلام في ثقيف، وأسلم أهل الطائف عن آخرهم[5].

رابعا- تحطيم صنم "الفُلْس": – وفي مادة "**طيء**": «**وكان بنو طيء يعبدون في الجاهلية صنما يسمى "فلس"، وكان له معبد فوق جبل أجأ، وقد حطم علي بن أبي طالب هذا الصنم بأمر النبي ﷺ يعاونه مائة وخمسون من الأنصار**»[6]. المحرر هو المستشرق: **براو** -H.Brau[7].

---

[1]– **المشلول**: هي ثنية تأتي أسفل قديد من الشمال، على بُعد حوال (125 كلم) بين مكة والمدينة. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 301/1. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 69.

[2]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 111/2-112. والبداية والنهاية، ابن كثير، 142/7. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1216/2.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9525/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص211.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 541/2-542. ومغازي الواقدي، 970/3-972. ودلائل النبوة، البيهقي، 303/5. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 520/2. والقول المبين، النجار، 379.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 403/15.

[7]– سبقت ترجمته في: ص344.

تحدّث محرر مادة "طيء" عن سرية علي ﷺ لهدم صنم "الفُلْس"[1] في بلاد طيء[2].

وقع ذلك في **ربيع الآخر سنة تسع** للهجرة؛ حيث بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ إلى "الفُلْس" صنم طيّء ليهدمه، وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار، فشنوا الغارة عليهم مع الفجر، فهدموا صنم "الفلس" وخرّبوه، ولَما حارب عبّادُ هذا الصنم علياً ﷺ هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم، ثم عاد إلى المدينة المنورة[3].

كان لتحطيم هذه الأصنام أثر ضخم في اضمحلال قدسيتها، واجتثاث جذور الوثنية، وزلزلة أركانها من القواعد، وليس هذا أمرا سهلا في الحقيقة؛ فتحطيم تلك الآلهة المدعاة، وتحطيم الأصنام التي تملأ البيوت العربية؛ تعني هذه الأمور ثورة كاملة على الجاهلية وإزالة معالمها ومحو مقدساتها من النفوس، قبل البيوت وقبل أماكن العبادة، وقد استطاع الإسلام حقا في هذه الخطوات أن يهزم الجاهلية في أقل عدد من الخسائر في الأموال والأرواح، والتي كان بالإمكان أن ترافقها المذابح الجماعية في الأرض العربية[4].

بذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: 19-20]؛ وذهبت هيبة الأوثان من النفوس وزال سلطانها، وقضى الإسلام على الوثنية العمياء في أغلب جزيرة العرب، فاستنارت بنور التوحيد الوضاء، وأنشأ الإسلام للناس تشريعات جديدة كانت أساس الخير والبركة[5].

---

[1]- **الفلس**: بضم الفاء وفتحها وسكون اللام، من أصنام طيّء التي كانوا يعبدونها في الجاهلية، وكان يقع في وسط جبلهم الذي يقال له "أجأ". ينظر: معجم البلدان، الحموي، 273/4. وشرح الزرقاني على المواهب، 48/4. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 278/6.

[2]- **طيّء**: قبيلة كبيرة من كهلان القحطانية، تنتسب إلى طيء بن أدد بن زيد ابن كهلان، كانت منازلهم في نواحي جبلي "أَجَأ وسَلْمى" في مدينة حائل شمال السعودية اليوم. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 94/1 و238/3. ومعجم قبائل العرب، كحالة، 689/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شراب، 18.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 87/1. ومغازي الواقدي، 984/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 493/2.

[4]- ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 149/3-150.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 142/7. والقول المبين، النجار، 351. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 484/2.

المبحث الرابع : بعض الوقائع الهامة بعد الفتح وقبيل وفاته ﷺ

يتناول هذا المبحث الأحداث الكبرى التي وقعت بعد عام الفتح (8 هـ) وقبيل وفاة النبي ﷺ من غير الغزوات والسرايا، مما ورد ذكره في "دائرة المعارف".

المطلب الأول : حج أبي بكر بالناس في السنة التاسعة وإعلان "براءة"

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "[**أبو**] **بكر**"[فقرة: 2]: «**وقد بعثه النبي عام 9 هـ (631م) إلى مكة أميراً على الحج، ويحتمل أن يكون هو – وليس علياً كما تقول الروايات– الذي أبلغ المشركين في هذا الحج براءة الرسول مما كان بينه وبينهم من عهد**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وفي مادة "**الحج**"[فقرة: 2]: «**وفي السنة السابعة للهجرة شرّع النبي مناسك الحج في الكعبة، ولكن الفرصة لم تتهيّأ له لإقامة المناسك جهرا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، ولكنه لم ينتهز هذه الفرصة بشخصه بل أناب عنه في السنة التاسعة أبا بكر ليحج عنه بالناس إلى مكة، وبينما هو في طريقه لحقه عليّ بن أبي طالب، وكان أُمر بقراءة سورة "براءة" على الحجيج (سورة التوبة)، وكانت نزلت في هذه الأثناء، وقد حرم الحج في هذه الآيات على المشركين إلاّ الذين عاهدهم النبي عهدا خاصا**»[3].

المحرر هو المستشرق: **فنسنك** – Wensinck[4].

– وفي مادة "**براءة**": «**فالزمخشري يقول إنّه كان هناك عهد بين المسلمين وبين مشركي مكة وغيرهم من العرب، ثم إنّ المشركين نقضوا هذا العهد إلا أناسا منهم هم: بنو ضمرة وبنو كنانة، فقرأ محمد على المؤمنين الآية التي نزلت عليه وهي** ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **[التوبة: 1] ويفسّر المسعودي هذه الآية في كتابه "التنبيه والإشراف" ص360، فيقول: "ثم وجّه ﷺ أبا بكر ﷺ في ذي الحجة ليحج بالناس، ونزلت عليه سورة "براءة" فبعث بسبع آيات من صدرها مع عليّ بن أبي طالب، وأمره أن يقوم بها على الناس بمنى إذا اجتمعوا، وقال أذّن في الناس أنّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يَحجّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 313/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 303/7.

[4]– سبقت ترجمته في: ص49.

ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم تنادي ليرجع كل قوم إلى مأمنهم، ثم لا عهد لِمشرك ولا ذمّة"، وتقول الروايات إن هذه الحوادث وقعت سنة تسع للهجرة»[1]. المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** - Carra De Vaux[2].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

كلام المستشرق "فنسنك-Wensink" في مطلع نصه المذكور من مادة "الحج" فيه شيء من التشويش وعدم الوضوح لِما يلي:

أ)- قال: «**في السنة السابعة للهجرة شرّع النبي مناسك الحج في الكعبة**»: وهي عمرة القضاء، سبق الكلام عليها، و لم يكن في تلك السنة حجّ، والصواب أن يقول: "شرّع بعض مناسك الحج" وهي الخاصة بالعمرة، لأنّ مناسك الحج أوسع من مناسك العمرة.

ب)- وقال: «**لكن الفرصة لم تتهيّأ له لإقامة المناسك جهرا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، ولكنه لم ينتهز هذه الفرصة بشخصه بل أناب عنه في السنة التاسعة أبا بكر ليحج عنه بالناس إلى مكة**»: وفي هذا الكلام تداخل بين حجّ السنة الثامنة، والسنة التاسعة، وكان ينبغي التفريق بينهما، ففي السنة الثامنة للهجرة وهي عام الفتح: لم يحجّ النبي ﷺ، بل اعتمر قبل موسم الحجّ ورجع إلى المدينة.

أمّا في العام التاسع فأرسل أبا بكر على الناس في الحج، وأعلم الناس عن طريق عليّ ﷺ أنّه لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وسبب عدم حجّ النبي ﷺ في العام الثامن والتاسع بعد خضوع مكة له، أنّ المشركين كانوا لا يزالون يحضرون موسم الحجّ، فيطوفونَ بِالبيت عُراةً، على عادتِهم في ذلك، فكَره النبي ﷺ مُخالطَتهم، فلم يذهب بنفسه، حتى لا يكون في سكوته إقرار لِهذه الأمور الجاهلية، وبعث أبا بكر الصِّدّيق ﷺ أميرًا على الْحجّ في العام التاسع، ثُمّ لم يحج بعد ذلك العام مشرك، و لم يطف بالبيت عريان[3].

والحاصل: أنّ النبي ﷺ لم يحج عام فتح مكة (8 هـ)، بل اعتمر ورجع إلى المدينة، فحجّ المشركون والمسلمون معا في العام الثامن، فلما كان العام التاسع (9 هـ) أمّر أبا بكر ﷺ على الحج بالناس[4].

ولما خرج أبو بكر بالناس من المدينة نزلت سورة براءة، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب بصدر سور براءة ليعلنها على الناس في موسم الحج يوم النحر، وهو العاشر من ذي الحجة، فعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: «لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 73/4.

[2]- سبقت ترجمته في: ص253.

[3]- ينظر: تفسير الطبري، 309/11. وتفسير ابن كثير، 102/4-103.

[4]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 90/2. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 443/8. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 546/2.

للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: ((لا يُؤَدِّي عَنِّي إلاّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي))؛ ثم دعا علي بن أبي طالب ﷺ، فقال له: ((اُخْرُجْ بِهَذِهِ الْقصّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةٍ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمِنًى، أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ)).

فخرج علي بن أبي طالب ﷺ... حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر ﷺ بالطريق، قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية.

حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب ﷺ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: «أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته»، وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد مدة فهو إلى مدته؛ فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، و لم يطف بالبيت عريان»[1].

فكان أبو بكر ﷺ أميرا على الناس في هذا الحج، حيث أمره الرسول ﷺ أن يقيم للناس حجّهم، وكان علي ﷺ مأموراً بإبلاغ صدر سورة براءة، والتأذين في الناس بأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويساعده في النداء عدد من الصحابة منهم أبو هريرة ﷺ وغيره[2].

ففي الصحيحين عن حميد بن عبد الرّحمن، أنّ أبا هريرة ﷺ، قال: بَعَثني أبو بكر في تلك الحجّة فِي مؤذّنين بعثهم يوم النَّحْرِ يُؤذِّنون بِمِنى: أن لا يَحُجّ بعد العام مُشركٌ ولا يطوف بالبيت عُريان، قال حُمَيد: ثُمّ «أرْدف رسولُ الله ﷺ بعليٍّ بن أبي طالب، وأمَره أن يُؤذِّن ببراءة»، قال أبو هريرة: «فأذّن معنا عليٌّ يوم النّحر في أهل مِنًى ببراءة؛ وأن لا يَحُجّ بعد العام مُشرك، ولا يَطُوف بالبيت عريان»[3].

لكن المستشرق "بول-Buhl" في مادة "[أبو] بكر" لم يفرّق بين وظيفة أبي بكر ﷺ ووظيفة عليّ ﷺ، المبيّنة في هذه الروايات، فقال بأنّه «**يُحتمل أن يكون أبو بكر -وليس علياً كما تقول الروايات- الذي أبلغ المشركين في هذا الحج براءة الرسول مما كان بينه وبينهم من عهد**»، وهذا الاحتمال غير وارد أصلا،

---

[1]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 545/2-546؛ وهو مرسل إسناده حسن، لكن له شواهد يتقوى، منها: حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين الآتي ذكره، وحديث عليّ ﷺ في "مسند أحمد، 427/2"، وغيرها أوردها ابن كثير في "البداية والنهاية، 224/7-229". وينظر: تخريج الألباني "لفقه السيرة للغزالي، 419"، و"صحيح السيرة، العلي، 498".

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 404/8. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 546/2.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب التفسير، باب ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: 2]، 402/8-403. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، 165/9. واللفظ للبخاري.

لأنّ الروايات صرّحت بأنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ هو المكلّف بتبليغ رسالة النبي ﷺ حول أجل العهود، والأذان فيهم بصدر سورة "براءة"، ويعاونه في ذلك بعض الصحابة، وكان بإمكانه أن يكلّف بذلك أبا بكر ﷺ، لكنّه أبقاهُ على إمارة الحجّ، وكلّف علياً خاصة بالأذان في الناس؛ كما جاء مُبيّنا في رواية ابن إسحاق السابقة عن أبي جعفر، وفيها قوله ﷺ: ((لا يُؤَدِّي عَنِّي إلاّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي))؛ قال ابن حجر: «قال العلماء: إنّ الحكمة في إرسال عليٍّ بعد أبي بكر أن عادة العرب جرت بأن لا ينقض العهد إلا من عقده، **أو من هو من أهل بيته، فأجراهم** في ذلك على **عادتهم**»[1]، وقال محمد الغزالي: «وذلك من رسول الله ﷺ تَمشّ مع عادة العرب في عهود الدماء والأموال»[2].

وعدد الآيات التي بعث بِها الرسول ﷺ مع عليّ ﷺ من بداية سورة "براءة" بلغ ثلاثين أو أربعين آية، وليس "**سبع آيات**" كما ذكر المستشرق "كاراده فو-Carra De Vaux" في مادة "براءة"، فقد روى الطبري عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: «... وبعث عليَّ بن أبي طالب ﷺ بثلاثين أو أربعين آية من "براءة"، فقرأها على الناس»[3]، وهذه الرواية أقدم وأوثق من رواية المسعودي التي اعتمد عليها؛ قال ابن حجر: «أمره أن يؤذن ببضع وثلاثين آية، منتهاها عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 33]»[4].

لقد تضمّن صدر سورة براءة مفاصلة مع الوثنية وأتباعها، حيث منعت حج المشركين بعد العام التاسع وأعلنت الحرب عليهم، لكنها أمهلت المعاهدين منهم إلى انتهاء مدّتهم، وأمهلت من له عهد إلى أجل غير محدود أربعةَ أشهر، وأمهلت من لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم أي خمسين يوما تنتهي بنهاية المحرم، فإذا انتهت مددهم صاروا في حالة حرب مع المسلمين[5]؛ قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [براءة: 1-3] الآيات.

---

[1]- فتح الباري، 407/8.

[2]- فقه السيرة، 419.

[3]- تفسير الطبري، 309/11.

[4]- فتح الباري، 406/8.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 226/7. و فتح الباري، 405/8. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 546/2-547.

فبعد مضيّ اثنتين وعشرين سنة على دعوة الإسلام، بذل المسلمون خلالها كل جهد وسلكوا كل طريق مشروع لتبليغ الدعوة، ما زال بعض المشركين مصرّين على عبادة الأصنام، والطواف بالبيت العتيق وفق طقوس الجاهلية، فقد آن الأوان لمفاصلتهم ووضع حدّ لعنادهم وتجاهلهم لدعوة الحق[1].

فكان هذا التجمع الذي يحضره العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية، مناسبة ملائمة لإعلان الأوامر الربانية في إنهاء الوجود الوثني في جزيرة العرب والذي استمر عدة قرون وفي الكعبة المشرفة[2].

المطلب الثاني : قدوم وفود القبائل إلى المدينة

الفرع الأول : عام الوفود وعدم اقتصارها عليه

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**ربيعة ومضر**"[فقرة: 2]: «**وفي عام الوفود (9 هـ) دخلت في الإسلام عدة عشائر كبرى من مضر وربيعة مثل تميم، وثقيف، وعبد القيس، وبكر بن وائل، ولكن هذا لا يعني أن جميع بلاد العرب الوسطى قد خضعت للإسلام، وشاهد ذلك ما أبداه وفد عبد القيس للنّبي من حسرة بقولهم: (إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر)**»، ("Sprenger"، **ج3 ص374**)[3]. المحرر هو المستشرق: **كندرمان** – H.Kindermann[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 63]: «**وكانت أهم أحداث العام التاسع الهجري (630–631م) عند المسلمين تقاطر الوفود العديدة على المدينة من مختلف أنحاء شبه الجزيرة لأداء فروض الطاعة نيابة عن قبائلها لفاتح مكة**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

ثانيا- التحليل والمناقشة: بعد أن استسلمت قريش العدو الأكبر للإسلام وفُتحت مكة، ودخل رؤساء قريش في الإسلام، وتحطمت قوى هوازن وثقيف في حنين، وأسلمت هوازن؛ بدأت القبائل العربية تتوافد على المدينة معلنة الإسلام، أو مصالحة لرسوله ﷺ، وتتابعت الوفود من سائر

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 547/2.

[2]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 194/3. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 418.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 41/10.

[4]– سبق في: ص710.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9151/30.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

الجزيرة العربية لتعلن الولاء والطاعة للرسول ﷺ، ولتؤمّن مستقبلها قبل أن يصل إليها المد الإسلامي ويكتسحها تياره القوي، ولكثرة هذه الوفود وتتابعها في العام التاسع، سُمّي **بعام الوفود**[1].

قال ابن إسحاق: «فلما افتُتِحت مكة ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله -كما قال الله عز وجل - أفواجاً، يضربون إليه من كلّ وجه»[2].

لكن ينبغي التنبّه إلى أنّ قدوم الوفود إلى المدينة لم يقتصر على السنة التاسعة للهجرة فحسب، بل كان قدوم الوفود قبل تلك السنة وبعدها، وإنّما المقصود من تسمية هذه السنة بعام الوفود أنّ **أكثر الوفود قدِموا** في تلك السّنة؛ قال ابن كثير: «وتواترت الوفود **في هذه السّـــنة وما بعدها** على رسول الله ﷺ مذعنة بالإسلام، وداخلين في دين الله أفواجا»[3].

كانت هذه الوفود هي الثمرة الطبيعية لكفاح المسلمين الطويل، لأنها البرهان الواضح على أن صوت الإسلام قد أصبح مسموعًا في كل مكان، وأن الناس حينما سمعوه واطمأنوا إليه لبّوا النداء[4].

فقد أدركت القبائل العربية التي ظلت على وثنيتها ألاّ مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته المتفردة بالسلطان في الجزيرة كلها، وأن عنادها وتشبثها بمواقفها السابقة فقد مبرراته بدخول مكة في الإسلام، وانتماء هوازن أكبر القبائل الوثنية للدين الجديد[5].

- **الاستدراك على المستشرق "كندرمان" حول "وفد عبد القيس[6]"**: قال "كندرمان-Kindermann" في نصّه المذكور من مادة "ربيعة ومضر" بأنّ تواتر الوفود في السنة التاسعة «**لا يعني بأن جميع بلاد العرب الوسطى قد خضعت للإسلام**»، واستشهد على ذلك بما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنّ وفد عبد القيس أتوا النبيّ ﷺ، فقال: ((مَنِ الوَفْدُ، أَوْ مَنِ القَوْمُ ؟))، قالوا: ربـــيعة، قال: ((مَرْحَبًا بِالقَـــوْمِ

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 559/2-560. والقول المبين، النجار، 372. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 541/2. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 173/3.

[2]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 560/2.

[3]- الفصول في السيرة، 96.

[4]- ينظر: القول المبين، النجار، 372.

[5]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 215.

[6]- **عبد القيس:** قبيلة كبيرة، تنتسب إلى عبد القيس بن أَفْصَى بن دُعمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، كانت مساكنهم بتهامة بالبحرين. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 106/8-107. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 726/2.

أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى))، قالوا: إنّا نأتيك من شُقّة بعيدة، **وبيننا وبينك هذا الحيّ من كفّار مضر**، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمرٍ فصلٍ نُخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة»[1].

ظنّ المستشرق "كندرمان" أنّ قول وفد "عبد القيس": «**بيننا وبينك هذا الحيّ من كفّار مضر**»؛ كان في عام الوفود سنة تسع، لكن الصواب أنّ قولهم هذا كان قديما قبل الفتح كما أفاد ابن حجر وغيره؛ وذلك أنّ "لعبد القيس" وفادتان: **الأولى**: قبل الفتح في سنة خمس أو قبلها، وهي التي قالوا فيها "**بيننا وبينك كفّار مضر**". **والثانية**: بعد الفتح في سنة الوفود[2]، وحينئذ كان سلطان المسلمين قد شمل جلّ قبائل جزيرة العرب، لذا لا يستقيم استدلال "كندرمان-Kindermann" بهذا الحديث على أنّ تلك الحالة كانت سنة الوفود، بل كانت قديما قبل فتح مكة.

وقد ذكر ابن إسحاق جملة من الوفود في "سيرته"[3]، كما أورد البخاري في "صحيحه" بعضها[4]، بينما يُعتبر كتاب "الطبقات" لابن سعد[5] أوسع المصادر جمعاً لأخبار تلك الوفود[6]، قال ابن حجر: «ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين»[7] وفداً.

وأكتفي هنا بإيراد الوفود التي جاء ذكرها في "الدائرة" على التفصيل في العناصر الموالية.

الفرع الثاني: من وفود السنة التاسعة

أولا- وفد "بني تميم"[8]:

- جاء في مادة "**تميم بن مرّ**": «**ولَمّا جاء الإسلام كانت تميم -شأن غيرها من القبائل شرقي الجزيرة العربية- بعيدة عن سلطانه المباشر، ولَم تجد تميم فائدة في التحالف مع المسلمين إلاّ بعد انتصار النّبيّ على القبائل المجاورة، وسيادة الحكومة الدينية في المدينة على بلاد العرب الوسطى؛ فقد بعث التّميميّون إلى المدينة في العام الثامن للهجرة وفداً عقد مع النّبيّ حلفاً**»[9]. المحرر هو: **دلافيدا** -Levi della vida[10].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس، 171/1، وكتاب المغازي، باب وفد عبد القيس، 106/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، 251/1-256. واللفظ للبخاري.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 107/8. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 138/5-140.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/ من560 إلى598.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (مع الفتح)، 8/ من104 إلى128.

[5]- ينظر: طبقات ابن سعد، 1/ من 222 إلى269.

[6]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 541/2.

[7]- فتح الباري، 104/8.

[8]- بنو **تميم**: قبيلة كبيرة من العدنانية، تنتسب إلى: تميم بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، كانت منازلهم بنجد واليمامة حتى البحرين. ينظر: فتح الباري، 212/5. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 126/1.

[9]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 477/5.

[10]- سبقت ترجمته في: ص95.

– وفي مادة "**دارم**": «**ولَمّا جاءت السنة التاسعة للهجرة خضعت "تَميم" للنبي ودخلت في الإسلام، وقد كان أميرهم الذي تكلم باسمهم عند وفودهم على النبي عطارد، وهو من دارم**»[1].

المحرر هو المستشرق: **فاير** - T.H.Weir[2].

ذكر المستشرق "دلافيدا-Della vida" في مادة "تميم" أنّ وفد تميم قدم في السنة الثامنة للهجرة، لكن الصواب هو ما ذكره المستشرق "فاير-Weir" من أنّهم قدموا: **سنة تسع** للهجرة، كما قرّر ابن سعد وابن سيد الناس وابن حجر[3].

قَدِم وفد "بني تميم" إلى المدينة، وكان يترأسه عطارد بن حاجب في عدد من رجالات تميم وأشرافها، وعندما وصلوا المسجد ظهرا، نادوا رسول الله بصوت عال من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! ثلاث مرات، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، وخرج إليهم الرسول ﷺ وهو غير مرتاح لأسلوبهم البدوي الخشن في ندائه، ثم جرت مساجلة بين خطيبهم وشاعرهم، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم، ظهر فيها فضل الإسلام وتفوّق خطيبه وشاعره، وهو ما أقرّ به رؤساؤهم، ولَما انتهى الطرفان من إلقاء خطبهم وقصائدهم أعلن وفد بني تميم الإسلام، وأجازهم الرسول ﷺ فأحسن جوائزهم[4].

وثبت في "البخاري" خبر وفودهم على النبي ﷺ إجمالا، وأنّ الآيات الأولى من سورة الحجرات نزلت عند قدومهم؛ فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «أنّه **قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ**، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتُهما فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: 1]»[5]، ونحوه من حديث ابن أبي مليكة وفيه: «فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2]»[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 91/9.

[2]– سبقت ترجمته في: ص241.

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، 121/2–122. وعيون الأثر، 286/2. وفتح الباري، 105/8.

[4]– ينظر على التوالي: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 560/2–567. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 224/1–225. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 287/6. ودراسة في السيرة، عمال الدين خليل، 217.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب قال ابن إسحاق: غزوة عيينة بن حصن بني العنبر من تميم، 105/8.

[6]– صحيح البخاري (الفتح)، 750/8. وينظر: فتح الباري، 751/8.

أنزل الله تعالى هذا التأديب الإلهي بسبب وفد "تَميم"، موبّخا لهم على ما فعلوا؛ حين نـــادوا النبيء ﷺ من وراء الْحجرات لأنّ ما صدر مِن بني تَميم هو من قبيل رفع الصّوت عند النبي ﷺ، ولأنّ مُماراة أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتِهما كانت في قضيّة بني تَميم[1].

ثانيا- وفد "بنِي أســد"[2]:

– جاء في مادة "**أسَـد**"[فقرة: 1]: «**وفي بداية العام التاسع للهجرة (630م) وكان عام قحط ومجاعة عندهم، أعلن فريق من بني أسد الخضوع السياسي للإسلام، وتشير سورة الحجرات [الآية: 14–17[3]] إلى وفدهم ومفاوضاتهم، وكان مظهر هذا الخضوع دفع الصدقة، ولكنا لا نعرف على وجه التحقيق ما إذا كان الإسلام قد انتشر بين هذه القبيلة المشتّتة في مختلف البقاع أم لا، وبالرغم من أن بني أسد كانوا أيام النبي موضع الشكوى في كثير من المناسبات إلا أنه يلوح لنا أن ما نسب إلى وفدهم في المدينة من سوء الخلق تلفيق مغرض**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – H.Reckondorf[5].

– وفي مادة "**طليحة**" الأسدي [**فقرة**: 1]: «**وفي بواكير سنة (9 هــ) وفد طليحة إلى المدينة واحدا من عشرة رجال من بني أسد كانوا يمثلون على الأرجح فريقا فحسب من هذه القبيلة، وأعــلنوا الولاء للنّبيّ ﷺ، ويقال إن الآيات من 13 إلى 16 من سورة الحجرات قد نزلت في تأنيب هؤلاء على غطرستهم، على أن ثَمة رواية تقول إن طليحة وحده هو الذي دخل في الإسلام... وربما كانت هذه القصة بأكملها قد وضعت لتناظر قصة زيارة مسيلمة للمدينة**»[6].

محررة المادة هي المستشرقة: **فكــا** – v.vacca[7].

قدِم وفد "بني أسد" بن خزيمة في عشرة رهط على الرسول ﷺ في بداية **سنة تســع**، فيهم ضــرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وطليحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فقال متكلمهم: يا رسول الله، إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك و لم تبعث إلينا بعثًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 346/21-347. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 217/26. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 542/2.

[2]– بنو **أسد**: قبيلة كبيرة، تنتسب إلى: أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، كانت بلادهم في أرض نجد، وفي مجاورة طيء. ينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، 153/11. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 21/1.

[3]– في المطبوع (47)، وهو خطأ مطبعي ظاهر، إذ أنّ سورة الحجرات تنتهي عند الآية 18 فحسب.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/2.

[5]– سبقت ترجمته في: ص249.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 257/15.

[7]– سبقت ترجمتها في: ص299.

لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: 17]، وكان قُدومُهم الْمدينةَ عَقِب قدوم وفد بني تَميم المذكور في أوّل السّورة[1].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلَمنا وقاتلَتْكَ العرب ولم نُقاتِلْك، فقال رسولُ الله: ((إنّ فِقهَهم قليل، وإن الشّيطان يَنطقُ على ألسنِتِهم))، ونزلت هذه الآيةُ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ الآية [الحجرات: 17]»[2].

كما روى الطبري عن سعيد بن جبير أنّ الآية نزلت في بني أسد[3].

ثم إنّ طليحة بن خويلد ادّعى النبوّة في آخر حياة النّبيّ ﷺ، وبعد أن توفي ﷺ أرسل أبو بكر ﷺ خالدَ بن الوليد إلى "طليحة" فهزمه، ثم أسلم وحسن إسلامه[4]، وسيأتي ذكره في الْمُتنبِّئين.

- **الاستدراك على المستشرقَيْن "ركندورف" و"فكا"**: اعتمد "ركندورف-Reckondorf" على مجرّد "**النفي الكيفي**" للتشكيك في الحادثة التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية (17) من سورة الحجرات، واعتبر القصّة تلفيقا مغرضا، لكنّه لم يبيّن ما هي هذه الأغراض التي تجعل الرواة يلفّقون مثل هذه القصّة عن بني أسد، والواقع أنّ المستشرق لن يجد غرضا محدّدا يتعذّر به لإثبات دعواه بتلفيق القصّة، والحادثة ثابتة من رواية ابن عباس ﷺ وسعيد بن جبير وغيرهما.

أما المستشرقة "فكا-vacca" فقد اعتمدت على منهجية "**المقابلة والمطابقة**" للتشكيك في الحادثة، حيث افترضت أنّ قصّة قدوم "طليحة" مع قومه "بني أسد" وُضعت لتناظر قصّة قدوم "مسيلمة الكذّاب" مع قومه "حنيفة" - الآتي بيانها -، لكن يُعترض على هذا الافتراض بأمور أهمّها:

أ)- لم تُبيِّن الغرض من اختلاق هذا التناظر بين الحادثتين في زعمها.

ب)- تقدّم الكلام مراراً على بطلان هذا المنهج في التشكيك في الوقائع التاريخية ووقائع السيرة خاصّة، وأنّ التشابه بين بعض الوقائع لا يستدعي بالضرورة التشكيك في إحداها، كما أنّه لا يوجد تشابه ظاهر بين قصتي "وفد أسد" و"وفد حنيفة"، غير وجود رجل مع كلّ وفد منهما ادّعى النبوة بعد ذلك، وفي المقابل هناك اختلاف كبير بين قصّتي الوفدين:

- فوفد "أسد" نزلت فيه الآية المذكورة أما وفد "حنيفة" فلا.
- كما أنّ "طليحة" تاب وأسلم بعد ادعائه النبوة، أما "مسيلمة" فمات كافراً.

---

[1]- ينظر: طبقات ابن سعد، 223/1. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 266/6. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 263/26.

[2]- أخرجه: **البزار**، في مسنده "البحر الزخار"، 328/11. **والنسائي**، السنن الكبرى، 269/10. وإسناده صحيح، ورجاله ثقات كما ذكر العلي في "صحيح السيرة، 516" والصوياني في "الصحيح من أحاديث السيرة، 543".

[3]- ينظر: تفسير الطبري، 347/21 و397.

[4]- ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، 94/3. والإصابة، ابن حجر، 440/3. وشرح الزرقاني على المواهب، 211/5-212.

– والأهمّ من ذلك أنّ قصّة وفد "حنيفة مع مسيلمة" تبيّن كيف أنّ "مسيلمة" أظهر نواياه السيئة عند النبي ﷺ، وأنّه ﷺ أجابه وبشّر بقطع دابر فتنته[1]، وهو ما لم يكن في وفد "أسد وطليحة".

ثالثا- وفد "حنيفة"[2]:

– جاء في مادة "**حنيفة بن لُجَيم**"[فقرة: 1]: «**وفي عام الوفود (9هـ/ 631م) مثلت حنيفة أمام النبي، وعلى رأسها هارون بن حبيب المعروف بِمسيلمة، وهو الذي ادعى النبوة فيما بعد**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Schleifer[4].

كانت "بنو حنيفة" تحكم ريف "اليمامة"[5]، وجاء وفدهم إلى النبي ﷺ سنة تسع أو عشر للهجرة[6] فأسلموا، وكانوا سبعة عشر رجلا، فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب الذي جاء يراوغ ويداور لعله يصل إلى شيء، فكان جواب رسول الله ﷺ له حاسما، وأشار إلى ما سيكون منه من فتنة[7].

فعن ابن عباس ﷺ قال: «قدم مسيلمةُ الكذّاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمَّدٌ الأمر من بعده تبعته، وقَدِمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد- حتى وقف على مسيلمة في أصحابه[8]، فقال: ((لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ))»[9].

---

[1]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 111/8. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 542/2. وسيأتي ذكر الحديث في "وفد حنيفة".

[2]– بنو **حنيفة:** قبيلة كبيرة من العدنانية، تنتسب إلى: حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، كانت منازلهم في اليمامة. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 146/5. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 312/1.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 131/8.

[4]– لم أقف على ترجمته، وحتى النسخة الأجنبية "للدائرة" لم تنسبه إلى جامعة معيّنة كغيره، لكن وقف في شبكة الإنترنت على باحث متخصّص في التاريخ بهذا الاسم ينتسب إلى جامعة "ييل" الأمريكية، و لم يتسنّ لي التأكّد من أنّه هو محرّر المادة.

[5]– **اليمامة:** هي منطقة واحات وسط نجد بالجزيرة العربية، تحيط بها الرمال من جميع جهاتها، كانت تسكنها قبيلة "بني حنيفة". ينظر: معجم البلدان، الحموي، 442/5. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة باحثين، 27، 325.

[6]– ذكر الطبري في "تاريخه، 137/3" وابن حبان في "سيرته، 387/1": وفدهم قدم **سنة عشر**، بينما ذكر ابن حجر في "فتح الباري، 109/8": أنّ وفدهم قدم **سنة تسع**، وعزاه لابن إسحاق، و لم أقف على ما يرجّح بين القولين.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 576/2. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 240/1. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 177/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 542/2.

[8]– نبّه ابن حجر "الفتح، 112/8" وأبو شهبة "السيرة، 546/2" إلى أنّ: سياق قصة "مسيلمة ووفد حنيفة" في الصحيح يخالف رواية ابن إسحاق من أنّ: مسيلمة لَمّا وفد مع قومه، تركوه في رحالهم يحفظها لهم، وذكروه لرسول الله ﷺ، وأخذوا منه جائزته؛ وهذا مع شذوذه ومخالفته للصحيح ضعيف السند لانقطاعه، وأمر مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك، فقد كان يقال له: "رحمان اليمامة" لعظم قدره فيهم؛ فالمعول عليه هو ما في "صحيح البخاري".

[9]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، 111/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، 48/15.

ولَمّا عاد "مسيلمة الكذاب" إلى اليمامة تنــبّأ، وادعى أنه شريك الرسول ﷺ في النبوة، فاتّــبعه بنو حنيفة[1].

رابعا- وفد "بنـي بكـر"[2]:

– جاء في مادة "**بكـر**" بن وائل: «**وأرسل فريق من "بكر" وفداً إلى النبي في عام الوفود (9هــ/ 630م) أعلن إسلامه، وأمّر النبي المنذر بن ساوى على هذا الوفد وعلى عبد القيس**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Schleifer.

قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ، وكان فيهم: بشير بن الخصاصية، وعبد الله بن مرثد، وحسان بن حوط، وغيرهم فأسلموا، ويدلّ سياق ابن سعد وابن كثير أنّ قدومهم كان في عام الوفود سنة تسع للهجرة[4].

غير أنّ ذِكْر "شليفر- Schleifer" "للمنذر بن ساوى" في الوفد غلط؛ فإنّ المنذر بن ساوى كان أميــراً على البحرين، وراسله النبي ﷺ فأســلم وأقرّه ﷺ على إمارته، كما لم يرد ذكره في "وفــد بني بكر"، وإنّما ذُكر أنّه قدم مع وفد "عبد القيس"[5]، في حين ذهب ابن سيد الناس وابن حجر: أنّه لا يصح وفوده على النبي ﷺ أصلا[6].

خامسا- وفد "بلـيّ"[7]:

– جاء في مادة "**بَلِـيّ**"[**فقرة**: 1]: «**وجاء عام الوفود فذهب وفد من "بَلِــيّ"[8] إلى النبي وعلى رأسه رويفع بن ثابت ليعلن خضوعه**»[9].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Schleifer.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 577/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 99/2.

[2]– بنو **بكر**: قبيلة كبيرة من العدنانية، تنتسب إلى: بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى ابن معد بن عدنان، كانت ديارهم من اليمامة إلى البحرين وأطراف سواد العراق. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 86/1. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 93/1.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 45/4.

[4]– ينظر: طبقات ابن سعد، 239/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 363/7. وسبل الهدى، الشامي، 281/6.

[5]– ينظر: الاستيعاب، ابن عبد البر، 263/1. وشرح الزرقاني على المواهب، 33/5.

[6]– ينظر: عيون الأثر، 334/2. والإصــابة، 169/6-170.

[7]– **بَلِيّ**: على وزن "عليّ": قبيلة كبيرة من قضاعة ينسبون إلى: بليّ بن عمرو بن الحافّ ابن قضاعة، تقع مساكنها بين المدينة ووادي القرى، شرق البحر الأحمر. ينظر: معجم قبائل العرب، عمر كحالة، 105/1. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 54.

[8]– في المطبوع "**بِلَى**" وهو غلط، والصواب: **بَلِيّ**: على وزن "عليّ"؛ [بفتح الباء وكسر اللام، بعدها ياء النسب المشدّدة] كما في: فتح الباري، ابن حجر، 93/8. وشرح الزرقاني على المواهب، 359/3، وكما في تعريفها السابق.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 169/4.

– وفي مادة "**قضاعة**" [فقرة: 1]: «**استقبل النبي ﷺ في العام التاسع الهجري وفد بَلِيّ الذين أعلنوا اعتناقهم الإسلام (ابن سعد، ج1 ص330، وشرح المواهب للزرقاني، ج4 ص57–58، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج3 ص49)**»[1]. المحرر هو المستشرق: **كيسنر** - M.J.Kister[2].

تكلّم المستشرق "شليفر-Schleifer" في مادة "بليّ" والمستشرق "كيستر-Kister" في مادة "قضاعة" عن وفد "بَلِيّ"، وهم حي من قضاعة، قدم وفدهم في ربيع الأول من سنة تسع للهجرة، فأنزلهم رويفع بن ثابت البلوي عنده، وقدم بهم على الرسول ﷺ، فرحّب بهم، وأسلموا، وسألوه عن أشياء مِن أمر دينهم فأجابَهم، وأقاموا ثلاثة أيام، ثُمّ ودّعوا رسول الله ﷺ، وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم[3].

وما تدلّ عليه رواية ابن سعد أنّ "رويفع بن ثابت" لم يكن على رأس الوفد كما ذكر "شليفر-Schleifer" في مادة "بليّ"، وإنّما استضافهم "رويفع" وهم من قومه في بيته بالمدينة، وأنّ الذي كان على رأس الوفد هو شيخهم "أبو الضُّبَيْب"، ففي رواية ابن سعد عن رويفع قال: «قدم وفد من قومي... فأنزلتهم في مترلي»[4]؛ وقال الحلبي: «وفد على رسول الله ﷺ وفد من بليّ، منهم – وهو شيخهم– "أبو الضّبيب"؛ تصغير الضّب: الدابة المعروفة، نزلوا على رويفع بن ثابت البلوي»[5]، فهذا يدلّ على أنّه ما قدم على رأس وفدهم، وإنّما استقبلهم في مترله بالمدينة، بينما كان رأس وفدهم الذي قدم معهم من بلاد "بليّ" هو "أبو الضُّبيب".

كما تشير هذه الرواية إلى أنّ: "رويفع" هو من قبيلة "بليّ"، لكنّه أسلم قبل قدوم وفد قومه "بليّ"، وكان له مترل في المدينة.

سادسا- وفد "طيء": – جاء في مادة "**طيء**": «... **وفي سنة 9 للهجرة بعث بنو طيء إلى النبي ﷺ وفدا من بينه قيس بن جحدر الذي كان فيما يقال أوّل من أسلم منهم» (انظر: أسد الغابة، ج4 ص210)**»[6]. المحرر هو المستشرق: **براو** -H.H.Brau[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8344/27.

[2]– **كيستر جاكوب** "Jacob Kister" (1914–2010م): مستشرق يهودي من أصل بولندي، هاجر إلى فلسطين المحتلّة، ودرّس في قسم اللغة العربية في الجامعة العبرية بالقدس.

ينظر: موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://en.wikipedia.org/wiki/Meir_Jacob_Kister).

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 249/1. وزاد المعاد، ابن القيم، 574/3–575. والسيرة الحلبية، الحلبي، 330/3.

[4]– الطبقات الكبرى، 249/1.

[5]– السيرة الحلبية، 330/3.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 403/15.

[7]– سبق في: ص344.

قدم وفد قبيلة "طيء"[1] على رسول الله ﷺ، فلما انتهوا إليه كلموه، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وأجازهم، وكان في الوفد "زيد الخيل" وهو سيدهم، وسماه الرسول ﷺ "زيد الخير"[2].

وكان في الوفد أيضا: "قيس بن جحدر" الذي ذكره المستشرق "براو-Brau" في مادة "طيء"، لكن الرواية التي أوردها ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر تذكر: أنّه «وفد على النبيّ ﷺ»[3]؛ ولا تبيّن على وجه التحديد أكان قدومه هذا مع وفد طيء أم في مناسبة أخرى.

سابعا- وفد "بني فزارة[4]" و"بني مرة[5]":

- جاء في مادة "**غطفان**"[فقرة: 2]: «... **وفي العام التاسع من الهجرة (631م) ذهب وفد من فزارة وفزة برئاسة خارجة بن حصن والحارث بن عوف، إلى المدينة ليعلنا اعتناق قبيلتيهما للدين الجديد**»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **ي. فوك** -Fuck[7].

- وفي مادة "**ذبيان**": «**ودعا النبي في السنة الثامنة للهجرة "ذبيان" إلى الإسلام فقتلوا رسوله، ولكن الحارث بن عوف دفع ديته ثم دخلت القبيلة إلى الإسلام بعيد ذلك**»[8]. المحرر هو: **فاير** - T.Weir[9].

ذكر المستشرق "فوك -Fuck" **وفد "بني فزارة"**، الذي قدم على النبي ﷺ سنة تسع (9 هـ) بعد رجوعه ﷺ من تبوك، في بضعة عشر رجلا، فيهم خارجة بن حصن أخو "عُيينة"، وكانوا في شدة وجفاف، وقدموا على ركاب عجاف، مقرّين بالإسلام، وسألهم رسول الله ﷺ عن حال بلادهم، فشكوا إليه حالهم وجدب بلادهم، وطلبوا منه أن يدعو لهم، فصعد ﷺ إلى المنبر، ورفع يديه ودعا ربه مستسقيا، فاستجاب الله تعالى لنبيه ﷺ وأدرت السماء غيثا نافعا، ونال بني فزارة ما أزال شدتهم[10].

---

[1]- سبق تعريفها في: ص712.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 577/2. وتاريخ الطبري، 145/3. والبداية والنهاية، ابن كثير، 288/7.

[3]- الاستيعاب، 1284/3. وأسد الغابة، 395/4. والإصابة، 349/5.

[4]- **بنو فزارة:** هم بطن عظيم من غطفان، من العدنانية، وهم: بنو فزارة بن ذبيان ابن غطفان من قيس بن عيلان، كانت منازلهم بنجد ووادي القرى، ثم تفرقوا. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 133/3. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 918/3.

[5]- **بنو مرة:** بطن من فزارة بن ذبيان، كانت منازلهم بنجد. ينظر: معجم قبائل العرب، 1073/3.

[6]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7628/24.

[7]- سبقت ترجمته في: ص266.

[8]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 386/9.

[9]- سبقت ترجمته في: ص241.

[10]- ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 226/1-227. ودلائل النبوة، البيهقي، 143/6-144. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 394/6. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1379/2.

لكن رواية ابن سعد والبيهقي السابقة لا تذكر الحارث بن عوف في وفد "بني فزارة"، بل تذكر روايات أخرى أنّه قدم في وفد "بني مرة" وهم بطن من "فزارة"[1]، وهذا يحتمل أن يكون وفد "مرة" قدم مع وفد "فزارة" لكونهم منهم كما يشير إلى ذلك سياق الواقدي[2]، لأنّه ذكر أنّ وفدهم قدم بعد تبوك، وأنهم أيضا شكوا إلى النبي ﷺ الجفاف، وطلبوا منه الاستسقاء، مما يشير إلى أنّه قدم مع فزارة، ولعلّ "فوك -Fuck" اعتمد على ذلك التوافق بين قصّة الوفدين، ومن المحتمل أن يكون كلّ وفد منهما قدم على حدة، كما يشير إلى ذلك ورودهما في روايتين منفصلتين، وذِكْر علماء السير للوفدين منفصلين أيضا، وأن يكون: وفد "مرة" قدم بعد "فزارة" بيسير فتركوا بلادهم جدباء كما تركتها "فزارة"، وطلبوا من النبي ﷺ الاستسقاء كما طلبت فزارة، وإن كان هذا الاحتمال أضعف؛ فالأقرب أنّ: وفد فزارة قدم على النبي ﷺ بعد تبوك على رأسهم "خارجة بن حصن"، ومعهم "بنو مرة" خاصة، وعلى رأسهم "الحارث بن عوف"، فهذا التفصيل يجمع بين هذه الروايات، والله أعلم.

أمّا **وفد "بني مرة"**: الذي ذكره "فاير-Weir" في مادة "ذبيان": فقدموا على النبي ﷺ حين رجع من تبوك سنة تسع (9 هـ)، وكان رئيسهم "الحارث بن عوف" فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقالوا: والله إنّا لَمُسنِتون فادع الله لنا، فقال ﷺ: اللهمّ اسقهم الغيث، ثم أقاموا أياما، ورجعوا بجوائزهم، فوجدوا بلادهم قد أمطرت في ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رسول الله ﷺ، وأخصبت بعد ذلك بلادهم[3].

وأمّا **حادثة قتلهم لِمبعوث النبي ﷺ**: التي ذكرها المستشرق "فاير-Weir" في مادة "ذبيان": فجاءت من رواية الزبير بن بكار وابن عساكر **وملخّصها**: أن الحارث بن عوف أتى النبيّ ﷺ، فقال: ابعث معي من يدعو إلى دينك، وأنا له جار، فأرسل معه رجلاً من الأنصار، فغدرت به عشيرة الحارث فقتلوه، فجاء الحارث فاعتذر وودى الأنصاريّ[4].

ثامنا- وفد "نجران[5]":

– جاء في مادة "**الحارث بن كعب**": «**فلما سرت دعوة محمد في كافة أنحاء الجزيرة العربية بعث نصارى بلحارث حوالي سنة 8 للهجرة (630م) وفدا إلى النبي في المدينة جله من رجال الدين، ومن**

---

[1]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 354/7. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 1073/3.

[2]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 227/1. والبداية والنهاية، 354/7. والإصابة، ابن حجر، 683/1.

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، 227/1. وزاد المعاد، ابن القيم، 577/3-578. والبداية والنهاية، 354/7.

[4]– ينظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، 177/21. والإصابة، ابن حجر، 683/1. وشرح الزرقاني على المواهب، 218/5.

[5]– **نجران:** مدينة قديمة بالحجاز، سمّيت بنجران بن زيد ابن يعرب، وهو أوّل من نزلها، وتقع جنوب شرقي مكة على مسافة (910 كلم). ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 1298/4. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 314.

بينهم الأسقف أبو الحارثة، واتفقوا مع النبي على أن يلقوه في موضع بالقرب من المدينة، وهناك دعوا إلى المباهلة أو اللعان، ولكنهم لَمّا عرفوا نبوته خشوا ما يترل بهم، فسألوا النبي أن يعفيهم منها، فرضي النبي على أن يدفعوا جزية أكبر»[1]. المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** - Carra De Vaux[2].

– وفي مادة "**دار الصلح**": «**وقد عقد النبي صلحا مع نصارى نجران أمنهم فيه على حياتهم، وفرض عليهم إتاوة معينة... وتفصيل هذه الرواية في كتاب البلاذري**»[3].

المحرر هو المستشرق: **ماكدونالد** –Madonald[4].

– وفي مادة "**النّسطريون**"[5] [فقرة: 2]: «**ثم إن محمداً ﷺ وقّــع معاهدة مع "سيد" ملك نَجــران و"أبي الحارث" الأسقف النسطوري لنجران، وقد كفلت هذه المعاهدة الحماية للمسيحيين (أهل الذمة) في مقابل أن يدفعوا الجزية، التي أعفي منها القسس والرهبان**»[6].

المحرر هو المستشرق: هو: **ب. هولمبرج** - B.Holmberg[7].

تتحدّث النصوص المذكورة من "دائرة المعارف" عن "وفد نجران" الذي قدم على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة[8]، وليس في السنة الثامنة كما ذكر "كارده فو–Carra De Vaux" في مادة "الحارث".

– **وملخّص قصّة وفدهم:** أنّ النبيّ ﷺ أرسل إلى أهل "نجران" كتابا يدعوهم فيه إلى عبادة الله واحده ونبذ عبادة العباد، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالحرب؛ فلما جاءهم كتاب رسول الله خرجوا إليه في رجال من أشرافهم، منهم ثلاثة نفر كانت إليهم زعامة أهل نجران، وهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذي يصدرون عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد واسمه الأيهم (أو شرحبيل) كان مشرفا على الأمور الثقافية والسياسية، وأبو الحارث (أو أبو حارثة) بن علقمة أسقفهم وحبرهم[9].

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، وأخذ يجادلهم ويجادلونه في أمر عيسى عليه السلام ووحدانية الله تعالى، ثم دعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، فلمّا لم تُجدِ معهم المجادلة

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 245/7.

[2]– سبقت ترجمته في: ص253.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 81/9.

[4]– سبقت ترجمته في: ص228.

[5]– فرقة من النصارى، سبق التعريف بها في: ص260.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9904/31.

[7]– سبقت ترجمته في: ص260.

[8]– ينظر: تفسير ابن كثير، 5/2. وفتح الباري، 119/7. والسيرة الحلبية، الحلبي، 343/3. والسيرة الصحيحة، العمري، 456/2.

[9]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 573/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 385/5–386. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 546/2.

بالحكمة والموعظة الحسنة، وأبوا عن الإسلام؛ دعاهم إلى المباهلة[1] امتثالا لقول الله عزّ شأنه: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61]؛ فلما رأوا منه ﷺ الجد والتهيؤ تشاوروا، وخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقا، وأنه ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه، واجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا، وأمّنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكتب لهم بذلك كتابا، وأشهد على ذلك بعض المسلمين، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلا أمينا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح، ثم رجعوا إلى بلادهم، وطفق الإسلام يفشو فيهم، فلم يلبث العاقب والسيد إلا يسيرا حتى رجعا إلى النبي ﷺ فأسلما، وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفّى الله نبيّه[2].

وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: «جاء "العاقب" و"السيد" صاحبا نَجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نُعطيكَ ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا؛ فقال: ((لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ))، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: ((قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ))، فلما قام قال رسول الله ﷺ: ((هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ))»[3].

تاسعا- وفد "تغلب[4]": – جاء في مادة "**تغلب**": «**في عام تسع للهجرة قدم وفد من تغلب، بعضهم مسلمون وبعضهم نصارى عليهم صلبان مذهّبة إلى المدينة، وعقد النصارى منهم صلحا مع محمد أبقوا فيه على دينهم على أن لا ينصّروا أولادهم، ومع ذلك فقد يكون هؤلاء التغالبة هم أنفسهم الذين اقترحوا هذا الحلّ تَخلّصا من الجزية، ذلك أنّ النبي لم يُجبِر النصارى قطّ على الدخول في الإسلام (هكذا قال "Skizzen"، ج4 ص156)**»[5]. المحرر هو المستشرق: **كندرمان** – H.Kindermann[6].

---

[1]– **الْمُباهَلَةُ**: الْمُلاعَنة، والبَهْلَة: اللَّعْنة، والمباهلة: أن يَجتمع الْمختلفان فيقولان لَعْنةُ الله على الْمُبْطِل والمخالف للحقّ منّا. ينظر: طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، النسفي، 55. وعون المعبود، العظيم آبادي، 298/6.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 575/1-584. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 224/1-225. والبداية والنهاية، ابن كثير، 265/7-269. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 547/2-548. والرحيق المختوم، المباركفوري، 532-533.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، 117/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح، 273/15. واللفظ للبخاري.

[4]– **تغلب**: قبيلة كبيرة تنتسب إلى: تغلب بن وائل بن قاسط ابن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، كانت بلادهم بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 75/2. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 120/1-121.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 329/5.

[6]– سبقت ترجمته في: ص710.

قدم على رسول الله ﷺ وفد "بني تغلب" ستة عشر رجلا مسلمين ونصارى عليهم صلب الذهب، فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرّهم على دينهم على أن لا يصبغوا أولادهم في النصرانية، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم[1].

ومعنى: "**يُصْبِغوا** أولادهم في النصرانية": أي يدخلوهم فيها، وكانت النصارى تغمس أبناءها في ماء لهم ينصروهم بذلك[2].

ولا تعني هذه الرواية إكراه أولاد النصارى على الدخول في الإسلام كما فهم المستشرق "كندرمان - Kindermann"، وإنّما تعني تعهّدهم بعدم إكراهِ أولادَهم على دينهم، كما تشير إلى ذلك رواية تعاقد عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته مع "تغلب"، وفيها: «صالح عمر بن الخطاب بني تغلب بعدما قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم؛ عَلَى أن **لا يصبغوا صبيا، ولا يُكرِهوه على دينهم**»[3].

عاشرا- وفد "ثقيف[4]":

- جاء في مادة "**الطائف**": «... **في سنة من السنين التالية أقبل على النبي وفد من أهل الطائف، ليبحث في المدينة بالتفصيل أمر دخول أهل هذا البلد في الدين الجديد، الذي اعتنقوه في غير حماسة**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[6].

بعد أن رفع النبي ﷺ الحصار عن الطائف سنة ثمان للهجرة، ودعا لهم بالهداية[7]، أحسّت ثقيف بعد ذلك بأنهم صاروا منفردين بين العرب، وخصوصا أن مكة المكرمة التي تقرب منهم قد أسلمت وأذعنت، وأن القبائل شرعت تدخل في الإسلام، فائتمر بنو ثقيف بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ، ومن حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا؛ فاتفقوا على أن يبعثوا عبد ياليل بن عمرو مع رجال من قومه إلى الرسول ﷺ، فخرجوا حتى قدموا المدينة[8].

فكانت وفادتهم في رمضان سنة تسع (9 هـ) للهجرة، بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، وبعد سنة من غزوة الطائف، قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ وأسلموا[9].

---

[1]- ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 239/1. والبداية والنهاية، 364/7.

[2]- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، 238/8. وتاج العروس، الزبيدي، 517/22.

[3]- فتوح البلدان، البلاذري، 182.

[4]- **طيء**: قبيلة كبيرة من هوازن، كانت تسكن بالطائف، سيأتي تعريفها في: ص712.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 56/15.

[6]- سبقت ترجمته في: ص211.

[7]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 204/7. وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على غزوة الطائف في الباب الموالي.

[8]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 538/2-539. وجوامع السيرة، ابن حزم، 204. والبداية والنهاية، 204/7-206.

[9]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 537/2. والبداية والنهاية، 204/7-205.

ولعلّ المستشرق "لمنس" قَصَد من قوله بأنّهم "**اعتنقوا الإسلام في غير حماسة**" تلك الطلبات التي صدرت منهم؛ حيث طلبوا من النبي ﷺ أن يَدَع لهم صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها، فأبى ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً، فأبى عليهم ذلك رسول الله ﷺ، وسألوه أيضا أن يُعفَو من الصلاة، فأبى عليهم ﷺ ذلك، وسألوه ألا يهدموا أوثانهم بأيديهم، فأجابهم إلى ذلك، وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لِهدمها فهدماها[1].

حادي عشر- قدوم كعب بن زهير ﷺ على النبي ﷺ وإسلامه:

– وفي مادة "**كعب بن زهير**": «**شاعر عربي معاصر للنبي ﷺ... وقد تحول أخوه بجير عن دينه قبل السنة السابقة من الهجرة، ولكنه رفض بحماس أن يحذو حذوه، وكتب بعض الأشعار يهاجم فيها محمدا ﷺ فأهدر الرسول دمه، ومنذ ذلك اليوم ضاقت الأرض به، فاعتـــزم التوبة، وقدم نفسه دون إنذار في السنة التاسعة، في مسجد المدينة حيث كان محمد ﷺ حاضرا، وتلا عليه قطعته الشهيرة المعروفة باسم بانت سعاد وأعجب به الرسول ﷺ عند سماع المدائح، فطرح النبي ﷺ على كتفي الشاعر عباءته... "بردته"، التي جاء منها اسم "البردة"**»[2]. المحرر هو المستشرق: **ر. باسيه** – R.Passet[3].

كعب بن زهير ﷺ: من شعراء الصحابة[4]، أسلم ومدح النبي ﷺ في السنة التاسعة للهجرة[5].

ذكر المستشرق "باسيه–Passet" قصّة إسلامه في مادة "كعب بن زهير"، و**ملخّصها** كالتالي: كان "كعب بن زهير" يهجو النبيّ ﷺ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة (8 هـــ)، كتب إلى كعب بن زهير أخوه "بجير بن زهير" ﷺ –الذي أسلم قبله[6]– أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدا جاء تائبا، وإلا فانج إلى نجاتك، ثم جرى بين الأخوين مراسلات، فضاقت الأرض بما رَحُبت على "كعب"، وأشفق على نفسه، فـــقدم المدينة،

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 540/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 206/7-207.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8612/27-8613.

[3]– **باســـيه رينـــيه** "Rene Passet" (1855–1924م): مستشرق فرنسي، تعلم اللغات الشرقية في باريس، وعُيّن مدرسا للعربية في مدرسة الجزائر العليا سنة (1882م)، ثم تولّى إدارتها، وترأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة (1910م)، وتوفي بالجزائر، من مؤلفاته: "الشعر العربي قبل الإسلام" وغيره. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 223/1. والأعلام، الزركلي، 39/3.

[4]– ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبد البر، 1313/3. أسد الغابة، ابن الأثير، 449/4. الإصابة، ابن حجر، 444/5.

[5]– ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 143/2. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 94/2 و118. والسيرة الحلبية، الحلبي، 524/3.

[6]– ذكر علماء السير أنّه أسلم قبل أخيه، ويدلّ ما ذكروه في ترجمته أنّه أسلم قبل الفتح وشهد غزوة حنين، أمّا قول "باسيه –Passet" أنّه أسلم في "السنة السابقة **من** الهجرة"، فالظاهر أنّه يقصد سنة ثمان (8 هـــ). ينظر ذلك في: جوامع السيرة، ابن حزم، 194. والاستيعاب، ابن عبد البر، 148/1. والإصابة، ابن حجر، 403/1.

وجاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد فاستأمنه، وأسلم واعتذر إليه، وأنشد رسولَ الله ﷺ قصيدته التي أوّلها "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول"، ومنها:

إنّ الرّسول لَنُور يُستَضاء به مهنَّدٌ من سيوف الله مسلول

أُنبِئت أنّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فرح النبيّ ﷺ بتوبة "كعب" وإسلامه، وتكفيره عن ذنبه بمدح النبي ﷺ والإشادة بالإسلام والصحابة من المهاجرين والأنصار، وكساه النبي ﷺ بردته جائزة له[1].

الفرع الثالث: من وفود السنة العاشرة

أولا- وفد "الأزد":

- جاء في مادة "**الأزد**": «**وفي العام التاسع للهجرة استجاب فريق من الأزد لدعوة النبي ودخلوا في الإسلام طائعين... وتقول إحدى الروايات إن أزد شنوءة أرسلت وفدا إلى النبي في العام العاشر للهجرة**»[2]. المحرر هو المستشرق: **ركندورف** - Reckendorf[3].

ذكر المستشرق "ركندورف-Reckendorf" في نصّه المذكور "وفد الأزد"، وهم "أزد شنوءة"[4].

قدم وفد "أزد شنوءة" من اليمن، فأسلموا، وكانوا بضعة عشر رجلا، على رأسهم "صرد بن عبد الله الأزدي"، فلمّا أسلم وحسن إسلامه، أمّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم مَن كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ومن جاورهم، فقاتل "صرد" بمن أسلم من تلك الناحية أهل مدينة "جرش"[5] فافتتحها، ثم جاء بعد ذلك وفد جرش فأسلموا وحسن إسلامهم[6].

وذكر "ركندورف-Reckendorf" قولين في سنة وفودهم، لكن الذي ذكره أهل المغازي والتاريخ فيما وقفت عليه أنّ قدومهم كان في السنة العاشرة للهجرة (10 هـ)؛ وهو ما ذكره الطبري

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/501-515. ودلائل النبوة، البيهقي، 5/207-211. والبداية والنهاية، ابن كثير، 7/123-137. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 2/94.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/38.

[3]- سبقت ترجمته في: ص249.

[4]- **أزد شنوءة:** قبيلة كبيرة من اليمن، ينسبون إلى: "شنوءة"، وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 3/163. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 1/15.

[5]- **جُرَش:** بضم الجيم وفتح الراء، مدينة كبيرة باليمن. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 2/126.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/587-588. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 1/255. والبداية والنهاية، ابن كثير، 7/316. وسيرة ابن حبان، 1/385. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/1349.

وابن حبان وابن الجوزي وابن الأثير وغيرهم[1]، ولم أقف على من ذكر أنّ وَفْدهم قَدِم في السنة التاسعة، ولم يُبيّن المستشرق "ركندورف" مصادره التاريخية في ذلك، حيث اعتمد على مصادر أجنبية من كتابات المستشرقين، ولعلّ اعتماده على تلك الوسائط من أسباب وقوعه في هذا الوهم.

كما نجد "عمر كحالة" أيضا يذكر في "معجم القبائل": أنّ قدوم وفد "الأزد" كان سنة تسع (9 هـ)[2]، ولعلّه هو وغيره أخذوا ذلك من عموم كون السنة التاسعة سنةَ الوفود[3]، لكن لم يكن قدوم الوفود مقتصرا على سنة تسع للهجرة فحسب، بل استمرّ قدومهم في العامين العاشر والحادي عشر أيضا، حيث كان قدومهم في أوقات مختلفة؛ قال ابن كثير: «وتواترت الوفود **في هذه السنة** [أي: سنة (9 هـ)] **وما بعدها** على رسول الله ﷺ مذعنة بالإسلام، وداخلين في دين الله أفواجا»[4].

ثانيا- وفد "خثعم"[5]:

– جاء في مادة "**خثعم**": «**وليس من شك في أن صلة خثعم الأولى بالنبي كانت صلة عداء (الواقدي، ص387، الطبري، ج1 ص1730)، ولكنها بعثت إليه آخر الأمر وفدا منها واعترفت برسالته، وقبلت منه كتابا أعلن فيه محو جميع الأحقاد السابقة على الإسلام (ابن سعد، ج1 ص 2، 34، 78...)**»[6].

المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[7].

قَدِم وفد قبيلة "خثعم" إلى الرسول ﷺ سنة عشر (10 هـ)، فقالوا: آمنّا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله فاكتب لنا كتابا نتّبع ما فيه، فكَتب لَهم كتابًا شهِد فيه جرير بن عبد الله ومَن حضر[8].

---

[1]– ينظر: تاريخ الطبري، 130/3. وسيرة ابن حبان، 385/1. والمنتظم، 381/3. والكامل في التاريخ، 160/2. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 197/2.

[2]– ينظر: معجم قبائل العرب، 16/1؛ ولم أجد في المصادر التي أحال عليها أنّه كان سنة تسع، فلعلّه أخذ ذلك من عموم عام الوفود.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 560/2. والبداية والنهاية، 232/7.

[4]– الفصول في السيرة، 96.

[5]– **خثعم**: قبيلة شهيرة ينتسبون إلى "خثعم بن أنمار" كانت منازلهم بجبال السّراة وما والاها، وتبالة ونواحيها. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 89/8. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 331/1.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 230/8.

[7]– سبقت ترجمته في: ص95.

[8]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 261/1-262. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 331/6.

ثالثا- وفد "كندة"[1]:

– جاء في مادة "**الأشعث بن قيس**": «**وفد على النبي عام 10هـ (631م) على رأس جمع من قومه ليعلن إسلامهم**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** – H.Reckondorf[3].

قدم وفد "كندة" وعلى رأسهم "الأشعث بن قيس" في رجال من أشرافهم، فأكرم النبي ﷺ الوفد، وأعلن إسلامه، وعاد مرضيا آمنا مسلما[4].

وكان قدومهم في السنة العاشرة حسب ما ذكر ابن سعد والطبري وابن حبان وغيرهم[5].

رابعا- وفد "خولان"[6]:

– جاء في مادة "**خولان**" : «**وفي شعبان من السنة العاشرة للهجرة (631م) مثل وفد خولان أمام النّبِي في المدينة، وأعلنوا دخول قبيلتهم في الإسلام، وقد علمهم النبي نفسه قواعد الإسلام، ووعدوا بتحطيم صنمهم "عمّ أنس"، فمنحوا تشريفا لهم اثنتي عشرة أوقية من الفضة، ثم عادوا إلى أوطانهم**»[7].

محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** – A.Grohmann[8].

قدم وفد "خولان" وهم عشرة نفر في شعبان سنة عشر، فأعلنوا إسلامهم، وسألَهم رسول الله ﷺ عن صنمهم الذي كانوا يعبدونه، ويُقال له: "عمٌّ أنس"، فقالوا: بدلنا الله تعالى به ما جئت به، ولو قد رجعنا لَهدمناه، وتعلّموا القرْآن والسّنن، وأجازهم النبي ﷺ، فلمّا رجعوا هدموا الصّنم، وأحَلّوا ما أحلّ الله، وحرّموا ما حرّم الله[9].

---

[1]– **كندة:** قبيلة كبيرة، تنتسب إلى كندة، واسمه: ثور بن عفير بن عدي بن الحارث ابن كهلان، كانت بلادهم بجبال اليمن مما يلي حضرموت، وكان لهم ملك باليمن والحجاز. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 160/5. ومعجم قبائل العرب، كحالة، 998/3.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 216/2.

[3]– سبقت ترجمته في: ص249.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 585/2. وتاريخ الطبري، 138/3. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1345/2-1346.

[5]– ينظر: تاريخ الطبري، 138/3. وسيرة ابن حبان، 387/1. وشرح الزرقاني على المواهب، 160/5.

[6]– **خولان:** بطن من كهلان، من القحطانية، وهم: بنو خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد ابن كهلان، كانت بلادهم باليمن. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 214/5. ومعجم قبائل العرب، 365/1-366.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 47/9.

[8]– سبقت ترجمته في: ص678.

[9]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 245/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 316/2-317. والبداية والنهاية، 365/7.

المطلب الثالث : مدعو النبوة في حياة الرسول ﷺ

الفرع الأول : بداية ظهورهم

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 64]: «**وفي نحو ذلك الوقت [أي: قبيل وفاة النبي ﷺ] ظهر في عدة أنحاء من شبه الجزيرة العربية عدة أشخاص يدّعون النبوة، ويثيـــرون الاضطرابات بدعاويهم**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

دخلت السنة العاشرة على الإسلام وهو يبسط تعاليمه على حساب الوثنية المتقلصة في الجزيرة العربية، فإذا بعض القبائل في الجنوب تثور ضده؛ تحسب أنّ رجلا من قريش ملك العرب بادعاء النبوة، فليس يعجزها أن تقدم من مفاليكها من يزعم النبوة كذلك!! لعلّه يَملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله ﷺ[3].

فظهر مدعو النبوة في أواخر السنة العاشرة من الهجرة، وهم: مسيلمة الكذاب في اليمامة، والأسود العنسي في اليمن، وبعدهما طليحة الأسدي في نجد، وهؤلاء الثلاثة ظهروا في حياة النبي ﷺ[4].

الفرع الثاني : ذِكر من ادّعى النبوة في حياته ﷺ

أولا- مسيلمة الكذاب:

– جاء في مادة "**حنيفة بن لُجَيم**"[فقرة: 2]: «**وفي عام الوفود مثلت حنيفة أمام النبي، وعلى رأسها هارون بن حبيب المعروف بمسيلمة، وهو الذي ادعى النبوة فيما بعد، وزعم أنه صاحب النبي وخليفته، وقد ظهر مسيلمة الكذاب – كما يسميه النبي – على مسرح الحوادث عام (11هـ/631م) في الوقت الذي ادعى النبوة فيه العنسي وطليحة**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** – J.Schleifer[6].

تقدّم الكلام على قدوم "مسيلمة الكذاب" مع وفد بني حنيفة، وأنه عرض على النبي ﷺ أن يشركه في الأمر أو يجعله له من بعده، فأبَى عليه وأجابه بحزمٍ، ولَمّا عاد مسيلمة الكذاب إلى اليمامة، ارْتَدَّ وادّعى النبوة؛ وزعم أنه شريك رسول الله ﷺ في النبوة، وذلك في آخر سنة عشر للهجرة[7].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9156/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 430.

[4]– ينظر: تاريخ الطبري، 147/3.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 131/8.

[6]– سبق في: ص723.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 577/2. وزاد المعاد، ابن القيم، 534/3. وفتح الباري، ابن حجر، 112/8.

اسم "مسيلمة الكذاب" هو: مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب[1]، ويقال له: "مسيلمة بن حبيب" نسبة إلى جده[2]، قال السهيلي: «يكنى أبا ثمامة، وقيل: أبا هارون»[3]، فليس اسمه "هارون" كما قال "شليفر-Schleifer" في مادة "حنيفة"، بل ذُكر أنّه يُكنّى "أبا هارون".

اتّبع بنو حنيفة "مسيلمة الكذّاب" وارتدّ بعضهم بعد إسلامه، واستهواهم ضلال مسيلمة عن الحق، وذلك بسبب العصبية الجاهلية، حتى كان قائلهم يقول: "كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر"[4]؛ واستغلّ مسيلمة تعصب بني حنيفة له، وصار يموّه ويكذب، ويأتي بكلام يضحك الثّكلى[5]، يزعم أنه قرآن نزل عليه، غير أنّ كلامه لم يكن سوى ضربا من التفاهة والهذيان[6].

قضي على فتنة "مسيلمة الكذاب" وقتل في خلافة الصدّيق ﷺ في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة للهجرة (12 هـــ)، قتله "وحشيّ" الذي قتل حمزة[7].

وفي حديث ابن عباس ﷺ السابق أنّ النبي ﷺ خاطب "مسيلمة الكذاب" قائلا: ((لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ **لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ**))[8]؛ قال ابن كثير: «وأمّا "مسيلمة" فعقَره اللهُ على يديْ وحشيّ بن حرب، رَماه بالْحربة، فأنفذه كما تُعقَر الإبل»[9].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: ((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِخَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَ فِي كَفِّي سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَكَبُرَا عَلَيَّ، فَأُوْحِيَ إِلَيَّ أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا فَذَهَبَا، فَأَوَّلْتُهُمَا الكَذَّابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا بَيْنَهُمَا: صَاحِبَ صَنْعَاءَ، وَصَاحِبَ اليَمَامَةِ))[10].

فالكذّابان اللذان ذكرهما النبي ﷺ هما: **الأسود العنسي** الكذّاب الذي ادّعى النبوة **بصنعاء**، وسيأتي ذكره في العنصر الموالي، والآخر هو **مسيلمة الكذّاب**: ادّعى النبوة في بني حنيفة **باليمامة**[11].

---

[1]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 468/7.

[2]- ينظر: تاريخ الطبري، 137/3. ودلائل النبوة، البيهقي، 331/5.

[3]- الروض الأنف، 468/7.

[4]- ينظر: تاريخ الطبري، 286/3. والبداية والنهاية، ابن كثير، 475/9.

[5]- وكان مِمّا جاء به وزعم أنّه وحي: "يا ضفدع بنت ضفدع نقّي ما تنقّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين". ينظر: تاريخ الطبري، 284/3. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 529/14.

[6]- ينظر: زاد المعاد، 534/3. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 440/6. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1343/2.

[7]- ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، 27/2-29. والرحيق المختوم، المباركفوري، 535.

[8]- عند: **البخاري ومسلم**، سبق تخريجه: ص723.

[9]- البداية والنهاية، ابن كثير، 507/9.

[10]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، 111/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، 49/15-50.

[11]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 113/8. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 545/2.

ثانيا- الأسود العنسي:

- جاء في مادة "**الأسود**": «**لقب "عيهلة" ويقول البعض "عبهلة" العنسي... وهو الذي قام قبيل وفاة النبي بالفتنة في بلاد اليمن... وقُتل الأسود وهو نائم في مخدعه قبل وفاة الرسول بأيام قلائل**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **هورفنس** -Horovtiz[2].

- وفي مادة "**[بنو] مراد**"[فقرة: 2]: «**على أنّ حركة الردّة التي تزعمها الأسود العنسي الذي ادّعى النبوة في اليمن وجدت معارضة لها من جانب المراديين، فإنّ بعض زعماء اليمن قد ساندوا النبي ﷺ في مناهضتهم للأسود مما أدّى إلى فشله**»[3]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا**-Levi della vida[4].

ظهر الأسودُ العَنسيُّ، بصنعاء، وادّعى النبوة، واستعان على ذلك بالسحر والشعوذة، واسمه "عيهلة" أو "عَبْهَلة" بنُ كعب بن عوف، وهو من بني عَنْس، وهم بطنٌ من مِذْحَج[5].

وكان "باذان" أميرا على صنعاء من قبل النبي ﷺ، فلما مات باذان خلفه ابنه "شهر" بنَ باذان على اليمن، وسار "الأسودُ العنسي الكذاب" بعد أنّ تنبّأ إلى صنعاء فقتل "شهر بن باذان" وتزوج امرأته، وغلب "الأسود العنسي" على جلّ اليمن، فاجتمع من بقي من المسلمين هناك على أن يحيطوا به ويقتلوه، وقد نجحوا في قتله بمساعدة "المرزبانة" التي تزوجها "الأسود" بعدما قتل زوجها "شهر بن باذان" وكانت مقيمة على إسلامها، فقد سقته الخمر حتى سكر، فدخل عليه "فيروز" وقتله، قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي بذلك، فأخبر أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه صبيحة دفن النبي ﷺ[6].

كان أمر العنسيّ مُنذ أن أظهَرَ ادّعاء النبوة إلى أَنْ قُتِلَ: ثلاثة أشهر، أو أربعة أشهر[7].

وكان من بني مراد الذين قاموا ضدّ الأسود العنسي -كما ذكر المستشرق "ليفي دلافيدا"-: "فروة بن مسيك المرادي"[8]، وأيضا "قيس بن المكشوح المرادي"[9] الذي قتل "الأسود" مع "فيروز"[10].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 2/198-199.

[2]- سبقت ترجمته في: ص112.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 29/9231.

[4]- سبقت ترجمته في: ص95.

[5]- ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 7/471. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 14/522. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/584.

[6]- ينظر: تاريخ الطبري، 3/227-239. والبداية والنهاية، ابن كثير، 9/429-436. وفتح الباري، ابن حجر، 8/116-117.

[7]- ينظر: تاريخ الطبري، 3/239. والبداية والنهاية، 9/436. وإمتاع الأسماع، 14/528.

[8]- ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 6/57-58. الاستيعاب، ابن عبد البر، 3/1261. الإصابة، ابن حجر، 5/281.

[9]- ترجمته في: الاستيعاب، 2/773. الإصابة، 5/404.

[10]- ينظر: تاريخ الطبري، 3/236-237. وأسد الغابة، ابن الأثير، 4/425.

ثالثا- طليحة الأسدي[1]:

– جاء في مادة "**طليحة**" [فقرة: 2]: «**بن خويلد بن نوفل الأسدي... وافتتن طليحة سنة (10) للهجرة؛ وركز قواته في سميراء وادعى النبوة، ويقال إنه قدم شروطه للنبي ﷺ، فأنفذ إليه النبي ضرار بن الأزور ليكبح جماحه، ولم يعقب ذلك أي قتال ذي شأن حتى وفاة النبي**»[2].

المحررة هي المستشرقة: **فكا** - v.vacca[3].

ذكر الطبري وابن عساكر وابن الأثير وغيرهم: أنّ "طليحة بن خويلد" الأسدي ادّعى النبوّة في حياة النّبيّ ﷺ[4]، بينما ذكر ابن عبد البر وغيره: أنّه ادعى النبوة بعد وفاة النبي ﷺ[5].

وكان ادّعاء "طليحة بن خويلد" النبوةَ بعد "مسليمة الكذاب" و"الأسود العنسي"[6].

بعد أن ادّعى "طليحة الأسدي" النبوة في نجد[7] أَرسَل إليه النبيُّ ﷺ ضرارَ بن الأزور الأسدي ليقاتله فيمن أطاعه[8]، ثم توفي رسول الله ﷺ فعظُم أمر "طليحة"، وأطاعه الحليفان بنو أسد وغطفان، وكان يزعم أَنَّهُ يأتيه جبريل بالوحي، فأرسل إليه أبو بكر ﷺ خالدَ بن الوليد فهزمهم، وهرب "طليحة" إلى الشّام، ثم أسلم وحسن إسلامه[9].

---

[1]– ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبد البر، 773/2. الإصابة، ابن حجر، 440/3.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 257/15.

[3]– سبقت ترجمتها في: ص299.

[4]– ينظر: تاريخ الطبري، 256/3. وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 154/25. والبداية والنهاية، ابن كثير، 143/10.

[5]– ينظر: الاستيعاب، 773/2. والبداية والنهاية، 143/10.

[6]– ينظر: تاريخ الطبري، 147/3 و186. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 160/2.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 385/1. وتاريخ الخميس، 247/2.

[8]– ينظر: تاريخ الطبري، 187/3 و256. وتاريخ دمشق، 154/25-156.

[9]– ينظر: تاريخ دمشق، 153/25-156. والبداية والنهاية، 143/10. والإصابة، 440/3.

المطلب الرابع : حجة الوداع

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الحج**"[فقرة: 3]: «**فلمّا كانت سنة عشر للهجرة حج النبي نفسه بالنّاس، وفي الحديث روايات كثيرة عن هذه الحجة التي تسمى حجة الوداع**»[1]. المحرر هو: **فنسنك** -Wensinck[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 65]: «**وأخيرا تَمّت كافة الاستعدادات، وتَمكن محمد ﷺ في نهاية العام العاشر من الهجرة (مارس 632[3]م) من أداء أول حج إسلامي صحيح (حجة الإسلام) التي أصبحت نموذجا يُحتذى أبد الآبدين... ولا شك في أن المعالم الرئيسية للصورة التي يتم عليها الحج في العصر الحديث أساسها ما فرضه النبي ﷺ في تلك المناسبة المشهورة.**

ويقال إن حجة الوداع شَملت خطبة ألقاها النبي ﷺ وصلتنا عنها روايات بِها بعض الاختلاف، وهي خطبة تَمثل ذروة نشاطه وكفاحه، وقد تعبر عن مشاعره وقتها الآية الثالثة (3) من سورة المائدة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾»[4]. المحرر هو المستشرق: **بول**-Buhl[5].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

حَجَّ أبو بكر بالناس في السنة التاسعة للهجرة، وأعلم النبيُّ الناسَ عن طريق عليّ ﷺ في ذلك التجمع الذي يحضره العرب من كافة أنحاء الجزيرة العربية أنّه: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان -كما تقدّم تفصيله-[6].

وبعد أن تَمّت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وجاءت الوفود تترى إلى المدينة من كل ناحية مسلمة أو مصالحة، وأضحت الجزيرة العربية مؤمنة موحّدة، وبعد حجّ أبي بكر الصديق ﷺ بالناس سنة تسع، وإعلام العرب كافّة بإنهاء العادات الجاهلية في الحجّ؛ تَهيّأ الأمر للنبي ﷺ أن يَحج بالناس ليوقفهم على مناسكه كما شرعه الله من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولينفي عن الحج ما شابه من بدع ومستحدثات، ذلك أنّ دعائم

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 303/7.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– في المطبوع (732م)، وهو خطأ مطبعي ظاهر، وقد سبق قبله بصفحات أنّ فتح مكة كان سنة (629م).

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9155/30-9156.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

[6]– ينظر ما سبق: ص714.

الإسلام وشرائعه قد استقرت وبيّنها النبي ﷺ بقوله وعمله، ولم يبق من أصول الإسلام ما هو في حاجة إلى البيان القولي والعملي من النبي ﷺ إلا الحجّ[1].

ولعل هذه الأحوال والظروف التي مهّدت لِحجّ رسول الله ﷺ سنة تسع للهجرة هي التي أشار إليها المستشرق "بول- Buhl" في قوله "**وأخيرا تَمّت كافة الاستعدادات**" لِحجّ النبي ﷺ.

يُمثل الحجّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد فُرض في العام السادس أو التاسع من الهجرة[2]، وفي ذي القعدة من العام العاشر أعلن النبي ﷺ عزمه على الحج، وهي المرة الوحيدة التي حجّ فيها بعد الهجرة إلى المدينة، فتقاطر الناس من أرجاء الجزيرة للحجّ معه، وخرج من المدينة لِخمس بقين من ذي القعدة[3].

قال ابن القيم: «لا خلاف أنّه لَم يَحُجّ بعد هجرته إلى المدينة سوى حجّة واحدة وهي حجّة الوداع، ولا خلاف أنّها كانت سنة عشرٍ»[4].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذّن في الناس في العاشرة: أنّ رسول الله ﷺ حاج؛ فقدم المدينةَ بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتَمّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه»[5].

شهد هذا الموسم جمعٌ غفيرٌ من المسلمين[6] الذي قدموا من كلّ فج وصوب، مشاة وركبانا، تحدوهم الرغبة الصادقة في حج بيت الله الحرام، والحرص على أن يحظوا بشرف مصاحبة الرسول ﷺ والحجّ معه[7]؛ فالحجّ هذه المرة جاء مغايرا لِما ألفته العرب أيام جاهليتها، بعد أن انتهت العهود المعطاة للمشركين، وحُظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام[8].

لقد تعلّم المسلمون من رسول الله ﷺ صلاتهم وصيامهم وأمر زكاتهم، وعامة ما يتعلق بهم من عبادات وواجبات، وبقي أن يعلمهم مناسكهم وكيفية أدائهم شعائر الحج بعد أن طويت تلك التقاليد

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 567/2. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1460/2-1461. والرحيق المختوم، المباركفوري، 541.

[2]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 96/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 247/6. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 549/2.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 601/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 432/5. والسيرة النبوية الصحيحة، 549/2.

[4]- زاد المعاد، 96/2.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب حَجّة النبي ﷺ، 236/8-239.

[6]- قال جابر في حديث مسلم السابق: «نظرت إلى **مدّ بصري** بين يديه ﷺ، من راكب وماش؛ وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك»، وقدّر عددهم بحوالي: أكثر من أربعين ألفاً. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 491/7. والسيرة الحلبية، الحلبي، 361/3. وشرح الزرقاني على المواهب، 146/4.

[7]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 568/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 549/2.

[8]- فقه السيرة، الغزالي، 454.

الجاهلية المتوارثة أيام موسم الحج من تصدية وصفير وعري أثناء الطواف، وقضي عليها مع القضاء على الأوثان وتطهير بيت الله الحرام منها[1].

تعلّم المسلمون في حجّة الوداع مناسك الحج من النبي ﷺ حيث قال لَهم: ((خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ))[2]؛ حيث لقّن ﷺ صحابته الكرام مناسك الحج بصورة عملية، بأن قام بها وباشرها فعلا، و لم يكتف بالتعليم القولي والنظري فحسب؛ فجاءت حجّته ﷺ حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة ما يتعلق بالحج، وبالوصايا والأحكام العامة التي وردت في خطبة عرفات[3].

قال ابن إسحاق: «فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم: من الموقف، ورمي الجمار، وطواف البيت، وما أحلّ لهم من حجهم وما حرّم عليهم؛ فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع»[4].

وبذلك أصبحت "حجة الوداع" كما ذكر المستشرق "بول-Buhl" "**نموذجا يُحتذى أبد الآبدين**"؛ لذا «اهتم العلماء بحجة الوداع اهتماما كبيرا واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها، مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث»[5].

كما ألقى النبي ﷺ في حجّة الوداع عدّة خطب في مواقف مختلفة، فخطب في عرفات، وفي منى[6]، ومما جاء في خطبة الوداع التي ألقاها في عرفات في وسط أيام التشريق: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟)) قالوا: نَشهدُ أَنَّك قد بَلّغتَ، وأدَّيتَ

---

[1]- فقه السيرة، البوطي، 327.

[2]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، 9/64-65. **والنسائي**، السنن (السندي)، كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار، 5/298. **والبيهقي**، السنن الكبرى، أبواب دخول مكة، 5/204. من حديث جابر ﷺ، واللفظ للبيهقي.

[3]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/549. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 883.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/606.

[5]- السيرة النبوية الصحيحة، 2/549.

[6]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 3/723. وصحيح مسلم (النووي)، 8/249-250. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 2/117.

ونَصحْتَ، فقال: بِإصبعِهِ السَّبّابة، يَرفعها إلى السّماء ويَنكُتُها إلى النّاس ((اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ)) ثلاث مرّات[1].

إن تكرار النبي ﷺ الخطب في حجة الوداع كان أمرا لابد منه، فهي الحجة الوحيدة التي حجّها، كما كانت الوداع الأخير، فما أشدّ حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم الفذ إلى التذكير والنصح والتوصية، وإلى تكرار القول والتأكيد عليه حتى يعوه ويحفظوه ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، وإشهاد الله عليهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وتنقطع المعذرة[2].

وبعد أن أدّى الرسول ﷺ مناسك الحج، وأقام بمكة عشرة أيام قفل راجعًا إلى المدينة[3].

لقد كان **هدف** النبي ﷺ من **حجة الوداع**: تعظيم شعائر الله، وإحياء سنن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتلقين الناس مناسك الحجّ قولا وفعلا، وإبطال عادات الشرك التي كان عليها الكفار، وإعلان التوحيد الخالص، ونشر تعاليم الإسلام بصورة عامة، والتذكير بالمهم من شرائع الإسلام وأحكامه[4].

ولَما كان النبي ﷺ قد بلّغ الأمة في هذه الحَجّة بآخر بلاغ، فقد سُميت "حجة الإبلاغ"، ولَما كانت كلماته للأمة كلمات توديع لذا سميت أيضا "حجة الوداع"[5]، قال ابن كثير: «يُقال لَها **حجّةُ الوداع**؛ لأنه ﷺ ودع الناس فيها، و لم يحج بعدها... وسُمِّيتْ **حجّةَ البلاغِ**؛ لأنّه ﷺ بَلّغ النّاسَ شرعَ الله في الْحجّ قولاً وفعلاً»[6].

وفي حجّة الوداع نزلت الآية الثالثة [3] من سورة المائدة التي ذكرها المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ"، حيث جاء في الصحيحين عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت معشر اليهود لاتَّخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأيُّ آية؟ قال: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة: 3]، قال عمر رضي الله عنه: «إنِّي لأعلمُ اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم جمعة»[7].

---

[1]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الحج، باب حَجّة النبي ﷺ، 8/250-254. من حديث جابر رضي الله عنه.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/579.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/606. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 2/349. والقول المبين، النجار، 390.

[4]- ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 224. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/567.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/606. ورحمة للعالمين، 224.

[6]- البداية والنهاية، ابن كثير، 7/404.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، 8/136. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب التفسير، 18/202-203. واللفظ لِمسلم.

لكن هذه الآية لا تعبِّر عن مشاعر النبي ﷺ كما قال "بول- Buhl"، وإنّما تعبِّر عن إعلام الناس بكمال أداءِ الرّسالة التي أمَر اللهُ تعالى نبيّه ﷺ بإبلاغها، وتَمام نعمة الله عليهم بذلك.

قال ابن كثير: «لَم يكن بَقِي مِن دعائم الإسلام وقواعده شيءٌ إلاّ وقد بيَّنه عليه الصّلاة والسّلام، فلمّا بيّن لَهم شريعة الْحجّ ووضّحه وشرحه؛ أنزل اللهُ عزّ وجلّ عليه وهو واقفٌ بِعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]»[1].

أكمل اللهُ تعالى للناس دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيّهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولِهذا جعله اللهُ خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والْجنّ، فلا حلال إلاّ ما أحلّه، ولا حرام إلاّ ما حرّمه، ولا دين إلاّ ما شَرَعه، فلمّا أكمَل الدّين لَهم تَمّت النعمة عليهم؛ فمحمد ﷺ هو الرسول الخاتم فلا نبي بعده، والإسلام هو الدين الخاتم الذي لا دين بعده، وهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء حتى قيام الساعة[2].

[1]- البداية والنهاية، 404/7.

[2]- ينظر: تفسير ابن كثير، 26/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 591/2.

المبحث الخامس : مـرض النبي ﷺ ووفـاته ودفـنه

المطلب الأول : مرضه ووفاته ﷺ

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**الصلاة**": «وقد جرت الحال في المدينة على حياة محمد أنّه كان يؤم الناس في الصلاة، ولم يشذ الأمر عن ذلك إلا في حالات استثنائية، ويقال إنّه في مرضه الأخير وفي مناسبات أخرى أثناء غيابه، كان أبو بكر ينوب عنه في ذلك عادة»[1]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** – Wensinck[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 66]: «وهنا مرض محمد ﷺ فجأة، ربّما بحمّى المدينة المألوفة، ولكن الحمى كانت خطرا على رجل مرهق جسمانيا وذهنيا، وقد تَحسّنت صحته قليلا بعد ذلك»[3]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وجاء في مادة "**عائشة**"[فقرة: 2]: «ولَمّا أحس النبي بدنوّ أجله سأل زوجاته أن يتفقن على أن يأوي إلى حجرة عائشة ويخلد إليها، وراحت عائشة ترعاه في أيام مرضه القليلة، ثم دفن في أرض حجرتها، وكذلك دفن أبو بكر وعمر»[5]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** –M.Watt[6].

– وفي مادة "**فاطمة**"[فقرة: 4]: «فاطمة أثناء مرض النبي ﷺ: «حزنت فاطمة لِمرض والدها حزنا شديدا فقد كانت تحبه حبا جَمّا، وأراد محمد ﷺ أن يخـفّف من حزنها فأسر إليها بكلمات فتبسمت، فيما تروي السيدة عائشة، وبعد وفاة النبي ﷺ سألت السيدة عائشة فاطمة عما كان يقوله الرسول ﷺ لَها، وما الذي جعلها تبتسم فقالت فاطمة: إن الرسول ﷺ قد أخبرها أن جبريل (عليه السلام) كان يأتيه في كل عام مرة لكنه في هذا العام قد أتاه مرتين، واستنتج الرسول ﷺ أن أجله قد قرب، وأخبَرها الرسول ﷺ أنّها ستكون أول من يلحق به من أهل بيته، فبكت فاطمة لكن محمداً ﷺ أخبرها أنّها ستكون سيدة نساء أهل الجنة، فتبسمت...»[7]. محررة المادة هي: **ف.فاجليري**-V.Vaglieri[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 292/14.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9156/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 433/15.

[6]– سبقت ترجمته في: ص59.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7717/25.

[8]– سبقت ترجمتها في: ص336.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- نزول المرض به واشتداده: عاد رسول الله ﷺ من حجة الوداع في أواخر ذي الحجة سنة عشر للهجرة، وأقام بالمدينة بقية ذي الحجة، والمحرم كله، واعتراه بعد ذلك وجع مرض الموت في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة[1].

وقد ذكر المستشرق "وات-Watt" في مادة "عائشة" نزول المرض بالنبي ﷺ واستئذانه لزوجاته بأن يُمرّض في بيت عائشة رضي الله عنها، وأشار إلى تمريض عائشة له ﷺ إلى أن توفي.

ذلك أنّ المرض اشتد بالرسول ﷺ وهو في بيت ميمونة رضي الله عنها، فاستأذن نساءه في أن يُمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذنَّ له، فخرج بين عمه العباس وابن عمه عليّ تخط رجلاه الأرض، حتى أتى بيتها[2].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمّا ثقُل رسول الله ﷺ واشتدّ به وجعه، استأذن أزواجه أن يُمرَّض في بيتي، فأَذنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تَخُطّ رجلاه في الأرض»[3].

وكان من شدّة وجعه ﷺ ما حكاه ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك، فمَسَسْتُه بيدي، فقلت: يا رسول الله إنّك لتوعك وعكًا شديدًا؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ))، قال: فقلت: ذلك، أنّ لك أجرين، فقال رسول الله ﷺ: ((أَجَلْ))»[4].

وقد كان رسول الله ﷺ يستشفي من ألم الحمى بالماء البارد، كما كانت السيدة عائشة تقرأ عليه المعوِّذات[5]، وتمسح عليه بيده لبركتها[6]، فعن عائشة رضي الله عنها: «أنّ النّبيَّ ﷺ كان إذا اِشْتَكى يَقْرأُ على نفسه بِالْمُعوّذات، ويَنْفُث، فلمّا اشتَدّ وَجعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأَمسحُ عنه بِيَده، رجاءَ برَكَتِها»[7].

ولقد مات أبناء النبي ﷺ في حياته، ولم يبق له من أولاده إلا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فلما أحسّ بدنوّ أجله خصّها رسول الله ﷺ بوداع أخير رفقا بِها، ومواساة لَها[8]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «اجتمع

---

[1]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 25/8-26. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1481/2.

[2]- ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 182/4. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 643/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 588/2.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، 176/8-177. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما، 183/4. واللفظ للبخاري.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المرضى، باب شدة المرض، 137/10-138. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، 192/16. واللفظ لِمسلم.

[5]- **المعوذات**: هي: ثلاثة سور: الفلق، والناس، والإخلاص. كما أفاد ابن حجر في: فتح الباري، 165/8.

[6]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 177/8. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 589/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 553/2.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، 165/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، 262/14. واللفظ لمسلم.

[8]- ينظر: خاتم النبيين، 1484/2.

نساء النبي ﷺ، فلم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي كأن مِشيتَها مشيةُ رسول الله ﷺ، فقال: ((مَرْحَبًا بِابْنَتِي))، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسر إليها حديثًا فبكت فاطمة، ثم إنه سارّها فضحكت أيضًا، فقلت لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله ﷺ، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن.... حتى إذا قُبِض سألتها، فقالت: إنه كان حدثني: أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وإنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أوّلُ أهلي لُحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك؛ فبكيتُ لذلك، ثم إنه سارني فقال: ((أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ))؛ فضحكتُ لذلك»[1].

وفي لفظ "للبخاري" أنّها قالت: «سارَّني النّبيُّ ﷺ أنّه يُقبض في وَجَعه الّذي تُوفي فيه؛ فبَكيتُ، ثُمّ سارّني فأخبَرني أنّي أوّلُ أهلِه يَتْبعه؛ فضحكتُ»[2].

وهي الحادثة التي ذكرها المستشرقة "فاجليري-Vaglieri" في مادة "فاطمة".

ثانيا- صلاة أبي بكر بالناس: تَحدّث المستشرق "فنسنك- Wensinck" في مادة "الصلاة" عن صلاة أبي بكر بالناس في مرض وفاته ﷺ.

كان ذلك بعد أن اشتد المرض على رسول الله ﷺ وأثقله، حتّى شقّ عليه أن يؤمّ الناس في الصلاة، فأمر أن يصلِّيَ أبو بكر بالناس، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ثقل النبي ﷺ فقال: ((أَصَلَّى النَّاسُ؟))، قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: ((ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ[3]))، قالت: ففعلنا، فاغتسل فذهب لِيَنُوء[4] فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ: ((أَصَلَّى النَّاسُ؟))، قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: ((ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ))، فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: ((أَصَلَّى النَّاسُ؟))، فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلِّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقًا - يا عمر صلِّ بالناس، فقال عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام»[5].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، 95/11. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، 16/8-9. واللفظ لمسلم.

[2]- صحيح البخاري (الفتح)، 170/8.

[3]- **المخضب**: هو إناء يغسل فيه. ينظر: شرح النووي على مسلم، 179/4.

[4]- **لِينوء**: أي: لينهض بقوة. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 226/2.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الآذان، باب إنّما جُعل الإمام ليُؤتَمّ به، 224/2. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما، 179/4. واللفظ للبخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها أيضا قالت: «لَمّا ثقُل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: ((مُـــرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ))، قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسِيفٌ[1]، وإنه متى يقم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرت عمرًا، فقال: ((مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ))... قالت: فأمروا أبا بكر يصلّي بالناس»[2].

استمر أبو بكر رضي الله عنه طول مدة مرضه ﷺ يصلّي بالناس حتى توفي النبي ﷺ[3]؛ كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «أنّ أبا بكر كان يصلّي لهم في وجع النبي ﷺ الّذي توفّي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين - وهم صفوف في الصلاة[4] - فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفّ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى السّتر، فتوفّي ﷺ من يومه»[5].

وقد استغرق مرض الرسول ﷺ عشرة أيام أو ثلاثة عشر يوما[6]، وأرجع الزرقاني هذا الخلاف إلى: «اختلاف أحواله في ابتداء مرضه، فذكر كلّ منهم اليوم الذي علم بحصول ما رآه من حاله وشدة مرضه... قبل اشتداده الذي انقطع به ﷺ»[7].

ثالثا- من أسباب مرض وفاته: كان من أسباب المرضِ الذي توفي فيه ﷺ أثرُ سُّم الشاة التي قَدّمتها له امرأة من يهود خيبر، وقد اعترفت بذلك هي وقومها، وقالوا: «أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرّك»[8]؛ فلم يقتله السمّ في وقت تناوله كما قتل بشر بن البراء الأنصاري، ليكون دليلاً من دلائل نبوته، غير أن أثر السمّ بقي معه[9]، فقال لعائشة رضي الله عنها في مرضه الذي مات فيه: ((يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ

---

[1]- **أسِيف**: أي: سريع الحزن والبكاء. ينظر: شرح النووي على مسلم، 185/4.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الآذان، باب حدّ المريض أن يشهد الجماعة، 197/2. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما، 185/4. واللفظ لمسلم.

[3]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 214/2. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1487/2.

[4]- وهي: صلاة الفجر. كما في جاء مصرّحا به في لفظ البخاري من طريق عقيل. ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 180/8.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الآذان، باب فضل أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة، 213/2. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما، 187/4. واللفظ للبخاري.

[6]- **القول بعشرة أيام**: جزم بهذا سليمان التيمي، وأخرجه البيهقي "دلائل النبوة، 234/7" بإسناد صحيح. **والقول بثلاثة عشر يوما**: هو قول الأكثر. كما أفاد ابن حجر في "فتح الباري، 162/8" والقسطلاني في "المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 83/12".

[7]- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 83/12.

[8]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الطب، باب ما يُذكر في سمّ النبي ﷺ، 301/10، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[9]- ينظر: فتح الباري، 303/10-304. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 94/12.

انْقِطَاعَ أَبْهَرِي[1] مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ))[2]؛ وكأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يجمع له بين النبوة والشهادة مبالغة في التّرفيع والكرامة.

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «فتُوفِّي رسولُ الله ﷺ شهيدا»[3]، وقال ابن إسحاق: «فكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدًا، مع ما أكرمه الله به من النبوة»[4].

وذكر القسطلاني والزرقاني: أنّ عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره كانوا يرون أنه ﷺ مات شهيدًا من السمّ الذي تناوله بخيبر[5]؛ حيث قال ابن مسعود: «لأَن أحلِف تسعا: أنّ رسول اللّه ﷺ قُتِل قتلا، أحبّ إلَيّ من أن أحلف واحدة أنه لم يقتل؛ وذلك **أن الله تعالى اتخذه نبيًّا، واتخذه شهيداً**»[6].

أما الاحتمال الذي قدّمه "بول- Buhl" فهو احتمال بعيد؛ لا يوجد ما يشهد له من روايات السيرة الصحيحة، وحتّى الضعيفة، حيث لم تذكر الروايات أنّ النبي ﷺ أصيب بِحمّى المدينة في مرض موته ولا قبله، و لم يقل أئمة السيرة والمغازي أنّ الحمّى الذي أصابته جراء مرض وفاته كانت حمّى المدينة.

المطلب الثاني : وفاته ودفنه ﷺ

الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف"

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 67]: «**وقد تَحسّنت صحته قليلا بعد ذلك، غير أنه توفي على صدر زوجته الأثيرة عائشة يوم 13 من ربيع الأول عام 11 هجرية (8 يونيو عام 632م)، وهذا هو التاريخ الوحيد لوفاته الذي يتفق مع ما ذكره حسان بن ثابت في قصيدة له، وما ذكرته كافة الروايات من أنه توفي يوم الإثنين... ويقال إن النبي ﷺ دفن في مسكن عائشة**»[7].

المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[8].

---

[1]– **الأبْهر**: عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 165/8.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، 164/8. من حديث عائشة رضي الله عنها معلّقا ووصله **الحاكم** في: المستدرك، كتاب المغازي، 60/3. وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي. وينظر: فتح الباري، 164/8.

[3]– البداية والنهاية، 330/6.

[4]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 338/2.

[5]– ينظر: المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني)، 94/12.

[6]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 115/6. **والحاكم**، المستدرك، كتاب المغازي، 60/3. وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9156/30-9157.

[8]– سبقت ترجمته في: ص150.

– وجاء في مادة "**إبليس**": «**وما الهاتف الذي يتردّد في الأدب العربي إلاّ صوت إبليس في كثير من الأحوال؛ مثال ذلك: ما قيل من أنه هتف بعليّ يُحذّره من تغسيل النّبِيّ، ثم هتف به هاتف آخر ردّه إلى الصواب** (الثعلبي: **قصص الأنبياء ص44**)»[1]. المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck[2].

– وفي مادة "**حجرة**": «**والحجرة معرفة هي بصفة خاصة حجرة عائشة التي دفن فيها النبي وخليفتاه أبو بكر وعمر**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Scheifer[4].

– وفي مادة "**صُحار**": «**وقد ورد ذكر البلدة في أخبار جهاز النبي، فقيل: إن جثمان النبي لفّ في ثوبين من صنع صُحار**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** - A.Grohmann[6].

– وفي مادة "**تسنيم**": «**وقد حُكي أنّ قبر النّبِيّ كان مسنّما** (**البخاري: كتاب الجنائز، 96**)، **ويقال من وجهة أخرى إنّ النبي أمر بتسوية القبور** (**مسلم: كتاب الجنائز، 92–96**)»[7].

المحرر هو المستشرق: **فنسنك** -Wensinck.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا- وفاة النبي ﷺ في بيت عائشة: في صبيحة يوم الإثنين الذي توفي فيه المصطفى ﷺ نظر إلى المسلمين وهم يصلون الفجر وراء الصديق أبي بكر رضي الله عنه، كما تقدّم في حديث أنس رضي الله عنه[8]، حتى إذا اطمأنّ عليه الصلاة والسلام تبسَّم ضاحكا وكأنّه يودّعهم، فكان هذا آخر عهده بالمسلمين[9].

استبشر المسلمون عندما أزاح الرسول ﷺ الستر لينظر إليهم وهم يصلون وتبسم ضاحكا، ففرحوا وظنوا البرء والسلامة، و لم يظنّوا أنها نظرة الوداع الأخير، ورؤية الاطمئنان على تبليغ الرسالة للناس[10].

وتقصّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها اللحظات الأخيرة من حياة سيد المرسلين ﷺ فتقول: «إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحري ونَحري[11]، وأن الله جمع

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 54/14.

[2]– سبقت ترجمته في: ص49.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 323/7.

[4]– سبق في: ص723.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 146/14.

[6]– سبقت ترجمته في: ص678.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 245/5.

[8]– عند: **البخاري ومسلم**، سبق في: ص747.

[9]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 188/4–189. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 593/2.

[10]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1488/2.

[11]– **سَحري ونحري**: السَّحر: هو الصدر، والنحر: هو موضع النحر في أعلى الصدر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 174/8.

بين ريقي وريقه عند موته؛ دخل عليّ عبد الرحمن[1] وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم... فليَّنتُه فأمَرَّه... وجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: ((لاَ إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ))، ثم نصب يده فجعل يقول: ((فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى))، حتى قُبِض ومالت يده»[2].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: ((إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ))؛ فلما نزل به ﷺ ورأسه على فخذي، غُشِي عليه ساعة، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السّقف، ثم قال: ((اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى))، قلت: إذًا لا يختارنا؛ وعرفت أنّه الحديث الذي يُحدِّثنا به، قالت: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله: ((اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى))»[3].

فانتهى إمام النبيين وسيد المرسلين ﷺ إلى الرفيق الأعلى، تاركا وراءه ذلك الميراث النبوي الخالد، وهو شريعة الله تعالى التي بلّغها، وعلم الناس بها ما بين مشرق ومغرب في الجزيرة العربية، ثم ترامى أمرها إلى ما وراءها[4].

– **هول نبأ الفاجعة في المدينة:** تسرب النبأ الفادح، وشاع خبر وفاة المصطفى ﷺ في المدينة، فأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها، ووقع هذا النبأ الأليم في نفوس المسلمين موقع الصاعقة، واصطدمت به قلوبهم صدمة عنيفة، بلغ من عنفها أن ابتلي بها بعض المؤمنين وزلزلوا زلزالاً شديدًا، حتى كذّب بعضهم هذا النبأ[5]، وصار عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتوعد وينذر من يزعم أن النبي ﷺ مات، ويقول: ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم، والله ليرجعنّ رسول الله كما رجع موسى، وأقبل أبو بكر فوجد عمر يكلم الناس، وينذر ويتوعد، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجّى في البيت، فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه يقبله، وهو يقول: «بِأبِي أنت وأُمِّي، ما أطيبك حيا وميِّـــتا»[6].

---

[1]– هو "عبد الرحمن بن أبي بكر" أخو عائشة، كما جاء مبيّنا في لفظ آخر من: صحيح البخاري (الفتح)، 173/8.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، 180/8.

[3]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، 434/11. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها، 15/299-300. واللفظ للبخاري.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1487/2.

[5]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 594/2. والقول المبين، النجار، 396.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 25/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/655-656. ودلائل النبوة، البيهقي، 7/217-218. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 594/2.

وعن ابن عباس ﷺ: «أنّ أبا بكر خرج وعمر يكلّم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: «أما بعد، **من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت**، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144]؛ قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلّهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات»[1].

وبيّن أنس ﷺ أثر وفاة الرسول ﷺ على المدينة وعلى الناس فقال: «لَمّا كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ أظلم منها كل شيء»[2].

ثانيا- تاريخ وفاته ﷺ:

أ)- الْمُتّفق عليه: أنّه توفي النبي ﷺ يوم **الإثنين** في شهر **ربيع الأول** سنة **إحدى عشرة** من الهجرة[3]، قال ابن حجر: «وكانت وفاته يوم **الإثنين** بلا خلاف من **ربيع الأول** وكاد يكون إجماعا»[4].

وفي "البخاري": أنّ عائشة ﷺ سُئلت: في أي يوم توفي رسول الله ﷺ؟ فقالت: «يوم **الإثنين**»[5]، وفي الصحيحين أنّ أنس بن مالك ﷺ ذَكَر - في حديثه السابق-: وفاةَ النبي ﷺ يوم الإثنين[6].

فكان الأولى بالمستشرق "بول- Buhl" أن يُقدِّم هذه الروايات في الصحيحين لأنّها الأصحّ والأوثق، على شعر "حسان بن ثابت" في إثبات أنّه توفي يوم الإثنين، وذلك في قول "حسان":

بِأبي وأمّي مَنْ شهدتُ وفاتَهُ ** في يوم الاِثنين النّبِيُّ الْمُهتَدِي[7]

ب)- ما اختلفوا فيه: وقع الخلاف في تحديد اليوم الذي توفي فيه من شهر ربيع الأوّل، على أقوال:

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، 182/8.

[2]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ، 62/10. **والحاكم**، المستدرك، كتاب المغازي والسرايا، 59/3. واللفظ للترمذي. والحديث صحّحه الترمذي، وكذا الحاكم ووافقه الذهبي.

[3]- ينظر: تاريخ الطبري، 199/3. ودلائل النبوة، البيهقي، 233/7-235. والروض الأنف، السهيلي، 577/7. والبداية والنهاية، ابن كثير، 104/8. وفتح الباري، ابن حجر، 162/8.

[4]- فتح الباري، 162/8.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب موت يوم الإثنين، 320/3.

[6]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 213/2-214. وصحيح مسلم (النووي)، 187/4-188.

[7]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 669/2. من حديث **ابن عباس** ﷺ، وهو حديث حسن لغيره كما ذكر الأرنؤوط في تحقيق "المسند".

– **فالأشهر**: أنّ وفاته كانت في **الثاني عشر** (12) من ربيع الأول[1]، وهو قول ابن إسحاق[2]؛ ورجّحه الواقدي وابن سعد وابن حبان وابن الجوزي وغيرهم[3]، وهو قول الجمهور كما أفاد ابن حجر[4].

– وقال سليمان التيمي وأبو مخنف: توفي في اليوم **الثاني** (2) من ربيع الأول، ورجّحه السهيلي وابن حجر[5].

– وقيل: في اليوم **الأول** (1) من ربيع الأول، وقيل: في **العاشر** (10)، وقيل: في **الثالث عشر** (13) منه[6].

أما ترجيح المستشرق "بول- Buhl" لليوم الثالث عشر باعتبار أنّه يوافق يوم الإثنين من ربيع الأول، فهو قول ذهب إليه ابن جماعة، واستبعده ابن حجر[7]، ويُعترض عليه بأنّ: اليوم الثاني من ربيع الأول أيضا يوافق يوم الإثنين، وهو قول أقوى من هذا الترجيح.

ويبدو أنّ "بول- Buhl" اعتمد على الاعتراض الذي أورده السهيلي وغيره في: عدم إمكانية وقوع يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ذاك العام؛ لأنّ أهل السيرة والتاريخ اتفقوا على أنّ ذا الحجة كان أوّلُه يوم الخميس؛ فمهما فُرضت الشهور الثلاثة بعده توامَّ أو نواقص لا يُتصوّر أن يصادف يومُ الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول[8]، لكن هذا الاعتراض أجاب عليه ابن كثير وغيره: بأنّ ذلك وقع بحسب اختلاف رؤية هلال ذي الحجة في مكة والمدينة؛ فرآه أهل مكة ليلة الخميس، و لم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها، وكان أول ذي الحجة الجمعة وآخره السبت، وأول المحرم الأحد وآخره الاثنين، وأول صفر الثلاثاء وآخره الأربعاء، وأول ربيع الأول الخميس؛ فيكون الثاني عشر منه يوم الاثنين[9].

والحاصل: أنّ أقوى الأقوال في يوم وفاته هي: الثاني، أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

---

[1]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 108/8.

[2]– ينظر: تاريخ الطبري، 217/3. ودلائل النبوة، البيهقي، 235/7. والبداية والنهاية، 107/8. وفتح الباري، 162/8.

[3]– ينظر: سيرة ابن حبان، 400/1. وتلقيح فهوم الأثر، 59. والبداية والنهاية، 107/8-108.

[4]– ينظر: فتح الباري، 162/8.

[5]– ينظر: الروض الأنف، 578/7. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 823/1. وفتح الباري، 162/8-163.

ويرى ابن حجر: أنّ من قال "ثاني عشر" وقع في غلط؛ سببه أنهم قالوا: "مات في **ثاني شهر** ربيع الأول"، فغُيّرت العبارة، فصارت: **ثاني عشر**، واستمر الوهم بذلك يتبع بعضهم بعضا من غير تأمل. ينظر: فتح الباري، 163/8.

[6]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 234/7-235. والبداية والنهاية، 107/8-108. وفتح الباري، 162/8-163.

[7]– ينظر: فتح الباري، 163/8.

[8]– ينظر: الروض الأنف، 577/7-578. والبداية والنهاية، 109/8. وفتح الباري، 162/8-163.

[9]– ينظر: البداية والنهاية، 109/8-110. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 544/14. وفتح الباري، 163/8.

ثالثا- غسله وكفنه والصلاة عليه ﷺ:

[1]- تغسيله: حضر تغسيل النبي ﷺ: العباس، وعليّ، والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد، وصالح مولى الرسول، ودخل معهم بعد الاستئذان أوس بن خولي الأنصاري ﷺ، وقد تولّى غسله عليٌّ ﷺ وعليه ﷺ قميصه، يعاونه العباس وابناه، وكان أسامة بن زيد وصالح يصبان الماء، و لم ير عليّ من النبي ﷺ ما يرى من الميت، فصار يقول: «بأبي وأمي ما أطيبك حيًّا وميِّتاً»، وكان يُغَسَّل بالماء والسّدر[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: «لَما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنُجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه، كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا، ألقى الله عزّ وجلّ النومَ حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كَلَّمهم مكلِّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أَنِ اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه؛ فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسّلوه وعليه قميصه، يصبُّون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم»[2].

أمّا ما ذكره المستشرق "فنسنك -Wensinck" في نصّه المذكور من مادة "إبليس": أنّ العباس وعليّا رضي الله عنهما وغيرهما لَما اجتمعوا لتغسيل الرسول ﷺ وتكفينه، ناداهم مناد: «ألا لا تغسلوا النبي فإنه كان طاهرا، فقال العباس: ألا بلى... ثم فناداهم مناد فانتبهوا وهو يقول: اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه»[3]، وفي اللفظ الذي أورده الثعلبي: «... إذا بهاتف يهتف يا عليّ لا تغسلوا محمداً فإنّه طاهر مُطهَّر... وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته، يا عليّ إن الهاتف الأول كان الشيطان»، وفي الرواية: أنّ الهاتف الأول كان إبليس، والهاتف الثاني كان الخضر[4].

فهي **رواية ضعيفة جداً**؛ أوردها الثعلبي في "قصص الأنبياء" -كما ذكر "فنسنك -Wensinck"- بصيغة التمريض دون عزوها لأيّ راوٍ أو مصنَّف، وأوردها ابن كثير من طريق "سيف بن عمر" عن ابن عباس، و"سيف بن عمر" ضعيف جداً ومتّهم بالوضع[5]، وقال ابن كثير بعد إيراده للرواية: «وهذا السِّياق فيه غرابة جدا»[6]؛ وسياق الثعلبي أشد غرابة من السياق الذي أورده ابن كثير والمقريزي.

---

[1]- ينظر: مسند أحمد، 4/186-187. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/662. وتاريخ الطبري، 3/211-212.
من حديث **ابن عباس** ﷺ، وهو حديث حسن لغيره كما ذكر الأرنؤوط في تحقيق "المسند".

[2]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجنائز، باب في ستر الميت عند غسله، 8/288. و**الحاكم**، المستدرك، كتاب المغازي والسرايا، 3/61. واللفظ لأبي داود. والحديث صحّحه الحاكم وابن حبّان وغيرهما، وينظر: صحيح السيرة، العلي، 579.

[3]- البداية والنهاية، ابن كثير، 8/124. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 14/568.

[4]- ينظر: قصص الأنبياء، الثعلبي، 43.

[5]- سبق الكلام عليه في: ص163. وينظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر، 4/295-296.

[6]- البداية والنهاية، 8/124.

وإنّما صحّ من ذلك ما تقدّم في حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي داود والحاكم أنّه ناداهم مناد: "أَنِ اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه".

[2]- تكفينه والصلاة عليه: فلما فرغوا من تغسيله كفّنوه في ثلاثة أثواب بيض يمانية من قطن[1]، كما في الصحيحين من حديث عائشة ﵂ قالت: «كُفِّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سُحُولِية من كُرْسُف[2]، ليس فيها قميص، ولا عمامة»[3].

أمّا ما ذكره المستشرق "كرومان-Grohmann" في مادة "صُحار" من تكفين النبي ﷺ في ثوبين من صنع "صحار" اليمنية، فجاء في رواية ابن إسحاق في "سيرته"[4].

بعد أن كفّنوه وضعوه على سريره في الحجرة، ودخل الناس عليه أرسالا يصلون فرادى، لا يجتمعون على إمام، فلما فرغ الرجال، صلّى النساء، ثم الصبيان، ثم العبيد[5].

قال ابن كثير: «وهذا الصنيع؛ وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤُمَّهم أحد، أمر **مجمع عليه** لا خلاف فيه»[6].

رابعا- دَفْنه في حجرة عائشة ﵂: ثُمّ إنّهم اختلفوا في أي مكان يدفن، أيدفن في مسجده، أم يدفن بالبقيع مع أصحابه، أم يدفن في بيته؟ وحسم أبو بكر الصدّيق الخلاف بِما أخبر به عن النبي ﷺ بأنّ الأنبياءَ يُدفَنون حيث يَموتون، فقرّ رأيهم على أن يدفن في حجرة السيدة عائشة حيث مات[7]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمّا قُبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه؛ فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته، قال: ((مَا قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ))؛ ادفنوه في موضع فراشه»[8].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 663/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 125/8-128.

[2]- **سُحُولية:** هي ثياب بيض نقية لا تكون إلا من القطن، وهي منسوبة إلى سحول مدينة باليمن تحمل منها هذه الثياب.

- **كُرْسف:** هو القطن. ينظر: شرح النووي على مسلم، 11/7. وفتح الباري، ابن حجر، 179/2.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن، 173/3. و**مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجنائز، باب في كفن الميت، 9/7. واللفظ لمسلم.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 663/2. وتاريخ الطبري، 212/3. من مرسل عليّ بن الحسين.

[5]- ينظر: مسند أحمد، 365/34. من حديث أبي عسيب ﵁، وصححه الأرنؤوط في تحقيق "المسند". ودلائل النبوة، البيهقي، 259/7. والبداية والنهاية، 132/8-133. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 598/2.

[6]- البداية والنهاية، 134/8.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 663/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 259/7-260. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 598/2.

[8]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في ذلك، 84/4. و**أحمد**، المسند، 206/1-207. واللفظ للترمذي. وصحّحه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند، والعلي في "صحيح السيرة، 582" لشواهده.

وقد ذكر "شليفر-Scheifer" في مادة "حجرة"، وكذا "بول- Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ" وفاةَ النبي ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها ودفنه صلوات الله وسلامه عليه فيها.

حُفِر للرسول ﷺ لَحدٌ في حجرة عائشة حيث كانت وفاته، وأنزله في القبر: عليّ، والعباس وولداه الفضل وقثم ﷺ، ورفع القبر عن الأرض بمقدار شبر[1]؛ قال علي بن أبي طالب ﷺ في ذلك: «غسَّلت رسول الله ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئًا، وكان طيِّبًا ﷺ حيًّا وميتًا، وليَ دفنه وإجنانه[2] دون الناس أربعة: عليّ والعباس والفضل وصالح مولى رسول الله ﷺ، ولُحِد رسول الله ﷺ لَحدًا، ونُصب عليه اللّبن نصبًا»[3].

قال ابن كثير: «عُلم بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام دُفن في حجرة عائشة التي كانت تختصّ بها، شرقيّ مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دُفن فيها أبو بكر، ثم عمر رضي الله عنهما»[4].

خامسا- في صفة قبره ﷺ: ذكر المستشرق "فنسنك- Wensinck" التعارض الظاهر بين حديث سفيان التمّار[5] في "صحيح البخاري": «أنه رأى قبر النبيّ ﷺ مسنَّما»[6]، وبين ما جاء في "صحيح مسلم" من حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالا إلا طَمَسْتَه، ولا قبرا مشرفا إلا سوَّيتَه»[7].

والتسنيم: الرفع، بحيث يكون محدّبا، على هيئة سنام الجمل، وهو ضدّ **التسطيح**[8].

لكن ليس هناك كبير تعارض بين هذه الروايات من أوجه، وهي:

الوجه الأول: أنّ التسنيم الوارد في حديث "سفيان التمار" لا ينافي تسوية القبور المشرفة في حديث عليّ ﷺ؛ لأنّ القبور المشرفة المذكورة فيه هي المرتفعة كثيرا، أو المبنية التي يطلب بها المباهاة كما أفاد ابن القيم والعيني[9].

---

[1]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 254/7. وعون المعبود، العظيم آبادي، 29/9. والمواهب الدنية (مع الزرقاني)، 169/12.

[2]- **إجنانه**: أي: دَفْنَه وسترْه. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 307/1.

[3]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب الجنائز، 515/1. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 243/7. والحديث صحّحه الحاكم، والعلي في "صحيح السيرة، 579".

[4]- البداية والنهاية، 153/8.

[5]- هو **سفيان بن دينار**: من كبار أتباع التابعين. ينظر: تهذيب الكمال، المزي، 143/11-145. وفتح الباري، ابن حجر، 325/3.

[6]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، 323/3.

[7]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، 51/7-52.

[8]- ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري، 1216/3. وعون المعبود، العظيم آبادي، 29/9.

[9]- ينظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 26/9. وعمدة القاري، 224/8-225. ومرقاة المفاتيح، 1216/3.

فقبر النبي ﷺ كان مرفوعا مقدار شبر كما ثبت في حديث جابر رضي الله عنه[1]، والمسنّم في حدود شبر، لا لا يكون مشرفا ولا مرتفعاً كثيرا؛ فخرج بذلك عن القبور المشرفة المذكورة في حديث عليّ رضي الله عنه[2].

الوجه الثاني: كما يُحتمل أنّ قبر النبي ﷺ لم يكن في أول الأمر مسنَّمًا، ثم لَمّا سقط جدار القبر وأعادوا بناءه في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك، صَيّروه مسنّماً، فنقل "سفيان التمار" رأيته للقبر في هذه الصورة بعد إعادة إصلاحه، وهو الاحتمال الذي أورده البيهقي وابن حجر وغيرهما[3].

الوجه الثالث: إنّما وقع الخلاف بين العلماء بالنظر إلى هذه الروايات في أيّهما أفضل؛ التسنيم أم التسطيح؟ بعد الاتّفاق على جواز الكلّ[4]، لأنّ التسنيم والتسطيح جائزان بشرط ألاّ تكون القبور مشرفة ومرتفعة كثيراً أو مبنيّة بقصد المباهاة.

---

[1]- ينظر: صحيح ابن حبان، 515/1. والحديث صحّحه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه "لصحيح ابن حبان".

[2]- ينظر: عمدة القاري، بدر الدين العيني، 224/8. ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري، 1216/3 و1225.

[3]- ينظر: السنن الكبرى، 5/4. وفتح الباري، ابن حجر، 3 /325-326. وعون المعبود، العظيم آبادي، 29/9.

[4]- ينظر: فتح الباري، 326/3. وعون المعبود، 29/9.

الباب الرابع:
الغـــزوات والســـرايا

يتضمن فصلين:

الفصـل الأول: الغزوات والسرايا حتى الخندق

الفصـل الثاني: الغزوات والسرايا بعد الخندق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:
الغزوات والسرايا
حتى الخندق

فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: غزوة بدر والنشاط العسكري قبلها

المبحث الثاني: النشاط العسكري بين "بدر" و"أحد"

المبحث الثالث: غزوة أحد وقائعها ونتيجتها

المبحث الرابع: النشاط العسكري بعد "أُحُد" حتى غزوة "الخندق"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : غزوة بدر والنشاط العسكري قبلها

بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة تهيّأ الأمر لتشريع الجهاد من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله، وتيسير سبل نشره والدعوة إليه، فوقعت طلائع النشاط العسكري الأولى قبل بدر، ثم كانت غزوة بدر الكبرى التي أسهمت في تعزيز جانب المسلمين داخل المدينة وخارجها.

المطلب الأول : الغزوات والسرايا قبل بدر

الفرع الأول : الإذن بالقتال وتشريع الجهاد

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 68]: «**وقد فرض اعتبار مكة مركز الدين على محمد ﷺ مهمة جديدة لاشك أنه توقعها، فمادامت زيارة الأماكن المقدسة في مكة وما حولها واجبا على المسلمين الذين رفض أهل مكة السماح لهم بدخولها، فقد أضحى محتما البحث عن وسيلة تُجبر المكيّين على الإذن لهم بالدخول،** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ **سورة الحج آية (25)، وقد جاء الدخول إثر صدور أمر إلهي جديد تُسمّيه كتب السيرة "الإذن بقتال المشركين"... ولم يكن كفار مكة على استعداد لإرضائه بالبدء بالهجوم عليه، صحيح أن المهاجرين لم يكونوا مقيّدين بهذا الشرط، غير أن مشاعرهم العربية كانت تأبى عليهم أن يحاربوا أبناء قبيلتهم وأقربائهم. وقد ضايقته اعتراضاتهم إلى حدّ جعله يعاتب أتباعه عتابا قويا، وهنا جاء قول الله تعالى:** ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ **سورة البقرة آية (216)،** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ **سورة الحج الآيات (38–40)**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

ثانيا- التحليل والمناقشة: أرجع المستشرق "بول-Buhl" سبب تشريع الجهاد، إلى عدم سماح كفار قريش للمسلمين بزيارة مكة المكرمة، فكان الجهاد الوسيلة التي تتيح للمسلمين دخول مكة بعد

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9136/30-9137.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

أن منعهم منها كفار قريش، لكن هذا الطرح الذي قدّمه "بول -Buhl" عليه اعتراضات عديدة، إضافة إلى عدم موافقته لسياق أحداث السيرة في العهد المدني، وبيان ذلك فيما يلي:

[1]- تاريخ تشريع الجهاد: كان تشريعه في صفر من السنة الثانية للهجرة[1].

[2]- أسباب تشريع الجهاد: بالرجوع إلى سياق الأحداث من العهد المكي إلى أوائل العهد المدني يمكن استخلاص جملة من العوامل التي جعلت تشريع الجهاد يكون في أوائل العهد المدني والتي منها:

- **السبب الأول: الدفاع عن النفس ودفع الظلم ومنع استمراره والانتصار للنفس:** فقد آذى كفار قريش المسلمين في مكة، وحاولوا ما في وسعهم أن يفتنوهم عن دينهم، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191] كما قال الله تعالى، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، وحاولوا قتل النبي ﷺ؛ والانتصارُ للنفس أمر فطري، وحق من حقوق الإنسان، قرّرته الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، وهي الحقيقة التي قرّرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: 41-42].

وقد أمر الله المسلمين بالصبر على أذى المشركين والتسامح معهم طوال العهد المكي وأوائل العهد المدني؛ عسى أن يرعووا، ولكنهم لم يزدادوا إلا بطرا وظلما واستعلاء في الأرض[2].

بيّن ابن إسحاق هذا السبب بالتفصيل فقال: «وكانت قريش قد اضطهدت من اتّبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم مِن بين مفتون في دينه، ومِن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارا منهم... فلما عتت قريش على الله ﷻ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نبيّه ﷺ، وعذّبوا ونفوا مَن عبده ووحّده وصدق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله ﷻ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له بالحرب، وإحلاله له الدماء والقتال، لِمن بغى عليهم، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]»[3].

والنبي ﷺ ليس في ذلك بدعا من الرسل "فالمسيح عيسى" عليه السلام ظل يعظ الناس لثلاث سنوات إلا ثلاثة أشهر، ثم أجبرته الضرورة على أن يأمر حواريّيه بأن يشتروا السلاح عوضا عن الثياب والمال[4]،

---

[1]- ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 218/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 75/2.

[2]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 681/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 77/2.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 467/1.

[4]- ينظر: الكتاب المقدس "العهد الجديد"، إنجيل لوقا [22/36-38]، 133. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 97.

ولهذه الضرورة نفسها رحم الله المسلمين فأمرهم بالدفاع عن أنفسهم ضد أعدائهم ممن يهجمون عليهم، وذلك بعد أن صبروا وتحملوا الظلم لأربع عشرة سنة[1].

– **السبب الثاني**: إخراجهم من الوطن وتجريدهم من أملاكهم وذلك لِمجرد الاختلاف في العقيدة[2].

– **السبب الثالث**: كما كان تشريع الجهاد بعد الهجرة خاصةً؛ لَمّا استقر النبي ﷺ والمسلمون في المدينة، وآزر الأنصار دعوة الإسلام وصارت للمسلمين أرض يمتلكون السيادة عليها، قال ابن كثير: «فلمّا اسْتَقرُّوا بالمدينة، ووَافاهُم رسولُ اللهِ ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بِنصْرِه وصارت لَهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه؛ شرع اللهُ جهادَ الأعداء»[3].

هذه هي أهمّ الأسباب والبواعث الكبرى لتشريع الجهاد خاصة في مراحله الأولى[4]، ولِهذا كان أوّل ما نزل من القرآن في تشريع القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: 39-40]؛ فجاءت هذه الآية مُبيّنة لبواعث تشريع الجهاد، وأنّه جاء لرفع الظلم عن المستضعفين المضطهدين.

[3]– الاستدراك الأول على "بول Buhl–": صحيح أنّ من غايات تشريع الجهاد ومقاصده «استنقاذ البيت الحرام من عبدة الأوثان، وأن تُحطّم الأوثان التي تحيط به»[5]، ولكنّ هذا الأمر لَم يتوجّه الرسول ﷺ للعمل عليه حين شرّع الجهاد أوّل مرّة في السنة الثانية من الهجرة، بل كان جهاده قائما على تأمين المسلمين وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون، لذا توجّهت السرايا والغزوات الأولى إلى اعتراض قوافل مشركي مكة كردّ على استحلالهم لأموال المسلمين في مكة.

---

[1]– ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 97.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، 98.

[3]– تفسير ابن كثير، 434/5.

[4]– **مراحل تشريع الجهاد**: جعلها علماء السيرة أربع مراحل، وهي:

– **المرحلة (1)**: اقتصرت على الدعوة السلمية مع الصمود في سبيلها للمحن والشدائد.

– **المرحلة (2)**: **الإذن به من غير إيجاب**: أذِن لهم في القتال و لم يفرضه عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

– **المرحلة (3)**: ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لِمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

– **المرحلة (4)**: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: 36]. ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 580/2-581. وزاد المعاد، ابن القيم، 62/3-64. وسبل الهدى، الشامي، 4/4-5.

[5]– خاتم النبيين، أبو زهرة، 680/2.

والملاحظ أنّ المستشرق "بول-Buhl" خلط بين الباعث على تشريع القتال، وبين النتيجة التي ينتهي إليها، وفي آية الإذن بالقتال التي ذكرها بيان لذلك، وهو ما يتّضح من خلال النقاط الآتية:

أ)- جاء الإذن بالجهاد بعد أن مُنع المسلمون من قتال المشركين الذين آذوهم وأخرجوهم من أرضهم وديارهم، فهم في ذلك الوقت أحوج ما يكونون إلى الجهاد من أجل الدفاع عن أنفسهم أولا، بعدما مُنعوا من الدخول في نزاع مسلّح مع المشركين قبل ذلك.

ب)- هناك استباق للأحداث في تحليل المستشرق فإنّ المسلمين لم يتهيأوا لدخول مكة المكرمة وانتزاعها من أيدي المشركين إلاّ بعد سنوات عديدة من تشريع الجهاد، من هنا كان الخلل كبيرا في قوله "**وقد جاء الدخول** [أي: دخول مكة] **إثر صدور أمر إلهي جديد تُسمّيه كتب السيرة -الإذن بقتال المشركين-**"، فهذه العبارة توهم بأنّ دخول مكة جاء بعد "الإذن بالقتال" مباشرة، وهو ما يُعدّ خلطا ظاهرا لسياق أحداث السيرة النبوية ووضع للوقائع في غير مواضعها.

ج)- أمّا الصدّ عن المسجد الحرام الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** ﴾ [الحج: 25]، فكان حين صَدّ مشركو مكة النبيَّ ﷺ وأصحابَه عن أنْ يعتمروا ويَحُجّوا إلى المسجد الحرام عام الحديبية (6 هـ) ثم صالحوه[1]، وتشريع الجهاد كان قبل ذلك بأربع سنوات، لذا يستبعد أن يكون هذا الصدّ سببا مباشرا للإذن في القتال كما توهّم "بول-Buhl".

[4]- الاستدراك الثاني على "بول -Buhl" في توجيه الكره للقتال في الآية: لم يكن هناك كره للقتال أو اعتراض على تشريعه بالصورة التي عرضها المستشرق "بول" وذلك من وجهين:

- **الوجه الأول:** أنّ المهاجرين كانوا منذ العهد المكي يتطلّعون إلى الإذن في القتال، بعد ما وقع عليهم من الظلم والاضطهاد، وكانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويطالبون النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال، فيقول ﷺ: ((إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ))[2]، ويَحثهم على الصبر[3].

---

[1]- ينظر: تفسير الرازي، 216/3. وفتح القدير، الشوكاني، 528/3. والتفسير المنير، الزحيلي، 188/17.

ملاحظة: كما وقع الصدّ عن المسجد الحرام قبل ذلك حين منع "أبو جهل" "سعدَ بن معاذ" ﷺ من الطواف بالبيت بعد الهجرة بحجّة إيواء أهل المدينة للمسلمين المهاجرين، لكنّ الصدّ عام الحديبية كان أعظم لأنّه كان لِجموع من المسلمين - لا لواحد فقط- ومعهم رسول الله ﷺ، لذا كان الأقرب إلى أنّه المراد به في الآية، زيادة على بيان جملة من المفسّرين لكونه هو المراد. ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 236/17. وقصّة "سعد" ﷺ عند "البخاري" كما سبق تخريجها في: ص546.

[2]- مستدرك الحاكم، 76/2. وتفسير الطبري، 231/7؛ من حديث ابن عباس ﷺ، وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

[3]- ينظر: تفسير البغوي، 343/3. وفتح القدير، 540/3.

– **الوجه الثاني**: أنّ "**الكـــره**" المذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]؛ هو محمول عند المفسرين: على الكره الطّبيعيّ والْمشَقّة، وهذا لا يُنافِي الرِّضى به والرّغبة في القيام بِأعبائه من حيث إنّه مِمّا أمَر اللهُ تعالى به[1].

فيكون معنى الآية: **كتَبْناهُ عليكم ونحن عالِمون أنّه شاقٌّ عليكم؛ فالقتال كريهٌ للنّفوس**، لأنّه يَحول بين الْمُقاتل وبين طُمأنينَتِه ولذّاته ونومه وطعامه وأهله وبيته، ويُلجِئ الإنسانَ إلى عداوة من كان صاحِبه ويُعرِّضه لِخطر الهلاك أو أَلَم الْجِراح، ولكنّ فيه دفعَ الْمَذلّة الْحاصلة من غلَبَة الرّجال واسْتِضعافِهم، **ومعلومٌ أنّ كراهية الطَّبْع للفِعل لا تُنافي تَلقِّي التّكليف به بِرضًا**، لأنّ أكْثَر التّكليف لا يَخْل من كلفة ومشقّة[2].

فيكون المستشرق "بول-Buhl" أساء فهم **الكره** المذكور في الآية كما هو ديدن كثير من المستشرقين في التعامل مع تراكيب العربية وسياقاتها الدلالية، التي تقتضي الرجوع لأهل الاختصاص من علماء اللغة والتفسير، من أجل فكّ معاني الألفاظ ودلالاتِها التي تختلف بحسب السياق.

أمّا عن محاربة المسلمين لبعض أقاربِهم وأفراد قبيلتهم فإنّ الكفّار هم من بدأ قطيعة رحمهم عندما عذّبوا واضطهدوا وهجّروا المسلمين من أقاربهم، وعلى كلّ فقد حارب المهاجرون أقاربهم الكفار وأبناء قبائلهم بعد أن علّمهم الإسلام أنّ الولاء للعقيدة والدين الحقّ، لا للقبائل والعشائر ونحوها من الانتماءات الضيقة والعصبيات الجاهلية العقيمة.

الفرع الثاني : طلائع الغزوات والسرايا

ابتدأت حركة الجهاد بِحملات من السرايا والغزوات الصغيرة، شارك فيها عدد ليس بكثيف من المجاهدين يعترضون قوافل قريش المتجهة إلى الشام بأموال لهم، ليمنعوهم من الذهاب إلى هناك، ويستولوا على ما معهم من المال أو يقاتلوهم[3]، ومِمّا ورد ذكره في "دائرة المعارف" من ذلك:

أولا– سرية حمزة ﷺ إلى سيف البحر:

– جاء في مادة "**حمزة**"[فقرة: 3]: «**واستعان محمد بعمه حمزة فأنفذه على رأس سرية ليقف في سبيل قافلة قرشية**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[5].

---

[1]– ينظر: تفسير البغوي، 274/1. وزاد المسير، ابن الجوزي، 180/1. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 249/2.

[2]– ينظر: تفسير الرازي، 384/6. والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 320/2-321.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 685/2.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/8.

[5]– سبقت ترجمته في: ص211.

سرية حمزة بن عبد المطلب ﷺ - عم النبي ﷺ- التي تكلّم عنها المستشرق "لَمنس" كانت في السنة الأولى من الهجرة، وتوجّهت إلى "سيف البحر" ناحيةَ العيص من أرض جهينة، في ثلاثين رجلا من المهاجرين يعترضون عيرا لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب، فحَجَز بينهم "مجدي بن عمر الجهنِيّ" وكان حليفاً للفريقين، فانصرف الفريقان بغير قتال[1].

ثانيا- غزوة الأبواء:

- جاء في مادة "**أبواء**"[فقرة: 2]: «**وتسمى سرية محمد الأولى بعد الهجرة باسم هذا المكان**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** - Reckendorf[3].

تسمى "غزوة الأبواء" أيضًا بغزوة "ودّان"[4]، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال أو ثمانية، وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وسبب خروجه أنه علم أن عيرا لقريش قد خرجت، فترصد لها النبي ﷺ لكن وصل بعد أن فاتتهم العير، فلم يقع قتال في هذه الغزوة، بل تَمت موادعة بني ضمرة (من كنانة)، ثُمّ رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت هذه الغزوة في (12) صفر سنة اثنتين للهجرة[5].

والأبواء هي **غزوة** في اصطلاح علماء السيرة، لأنّ النبي ﷺ خرج فيها بنفسه كما بيّنت الروايات، وليست **سرية** كما عبّر عنها المستشرق "ركندورف - Reckendorf"؛ فإنّ:

- **الغزوة:** في اصطلاح علماء السيرة والحديث هي: التي حضرها النبي ﷺ وقادها بنفسه.
- أما **السرية** في اصطلاحهم فهي: التي لم يحضرها النبي ﷺ، بل أرسل فيها أصحابه بقيادة أحدهم[6].

وقد فرّق الزرقاني بين الغزوة والسريّة اصطلاحا بعبارة دقيقة وموجزة فقال: «جرت عادة المحدثين وأهل السير واصطلاحاتهم غالبا أن: يسموا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة **غزوةً**، وما لم يحضره بل أرسل بعضا من أصحابه إلى العدو **سريةً وبعثاً**»[7].

لكن قد يطلق أئمة هذا الشأن أحيانا على بعض السرايا التي لم يحضرها النبي ﷺ تسمية "الغزوة".

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 595/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 260/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 71/1.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 307/1.

[3]- سبقت ترجمته في: ص249.

[4]- **الأبواء:** قرية بينها وبين المدينة حوالي أربعة وعشرين ميلا [أي: 38 كلم]. و"**ودان**": موضع بين المدينة ومكة. ينظر: سبل الهدى، الشامي، 14/4. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 17 و296.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 591/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 345/2-346.

[6]- ينظر: عيون الأثر، 258/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 213/3. وشرح الزرقاني على المواهب اللدينة، 220/2.

[7]- شرح الزرقاني على المواهب اللدينة، 220/2.

قال الحلبي: «وربما سَمّوا بعض السرايا غزوة كما في مؤتة، حيث قالوا **غزوة مؤتة**[1]»[2].

ثالثا- غزوة بواط:

- مادة "**سعد بن معاذ**"[فقرة: 2]: «**وأنابه النبي في حكم المدينة (وفي رواية أخرى أنه أناب السائب بن عثمان بن مظعون) حين خرج في سرية بواط**»[3]. المحرِّر هو: **نسترشتين** Zetterstéen–[4].

أمّا غزوة "بواط" التي أشار إليها المستشرق "تسترشتين": فكانت في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، حيث خرج الرسول ﷺ يعترض عيرا لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، وخرج مع رسول الله ﷺ مائتان من أصحابه، واستخلف على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون، وقيل: سعد بن معاذ[5]، ورجع و لم يلق قتالا، ذلك أنّ "أمية" كان قد سمع بخبر خروج المسلمين للقائهم، فأسرع بالقافلة ونجا بِها[6].

الفرع الثالث : سرية نخلة وتفسير ما وقع فيها

- جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 69]: «**وبعد إرساله لأشخاص مختلفين بِجماعات صغيرة مسلحة لم تفلح في لقاء العدو، أرسل بعض أتباعه إلى نخلة حيث نجحوا في الاستيلاء على غنائم قافلة، وقتلوا أحد المكيين، ربّما عن غير قصد، رغم أنّهم كانوا في شهر رجب أحد الشهور المقدسة التي حُرِّم فيها القتال، وقد أرسلت الغنيمة الوفيرة إلى المدينة حيث هبّت عاصفة من الغضب تركها محمد ﷺ حتى هدأت، ثم طمأنهم بالآية (217) من سورة البقرة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾**»[7]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[8].

---

[1]- ولعلّ ذلك راجع إلى كثرة عدد المسلمين الذين بعثهم النبي ﷺ في جيش مؤتة، وذلك بالنظر إلى التقييد الذي ذكره بعض أئمة السيرة "للسرية" بأربعمائة رجل على الأكثر؛ كما في: "النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 363/2" و"شرح الزرقاني على المواهب اللدينة، 222/2"؛ فأطلقوا عليها "غزوة" باعتبار العدد، لكن باعتبار الاصطلاح العام الذي هو عدم حضور النبي ﷺ في العسكر فإنّها "سريّة"، ولا مشاحّة في تسميتها "بالغزوة".

[2]- السيرة الحلبية، 213/3.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 410/11.

[4]- سبقت ترجمته في: ص112.

[5]- قال **ابن هشام**: استخلف عليها "السائب بن عثمان بن مظعون" وفي روايةٍ "السائب بن مظعون". وقال **الواقدي**: استخلف "سعد معاذ"، وقدّم ابن كثير "البداية والنهاية، 29/5" وابن حجر "فتح الباري، 349/7" قول ابن هشام على قول الواقدي.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، 29/5. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 73/1-74. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 117/2.

[7]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9137/30.

[8]- سبقت ترجمته في: ص150.

– وفي مادة "**عبد الله بن جحش**": «**وقد أمّره الرسول ﷺ على سريّة نخلة التي أثارت كلاما كثيراً إذ أهرق دما في شهر من أشهر الله الحرم (كما قيل يومذاك)**»[1]. المحرّر هو المستشرق: **وات** –Watt[2].

– وجاء في مادة "**الجاهلية**": «... **وأحرز النبي أول انتصار له في غزواته بخروجه على "عهد الله"**[3]»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **فاير** – T.H.Weir[5].

[1]– **هدف السرايا الأولى:** أشار المستشرق "بول-Buhl" إلى الغـــزوات والسرايا الأولى التي بعثها النبي ﷺ قبل غزوة بدر الكبرى، وقال بأنّها "**لم تفلح في لقاء العدو**" حتى سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه؛ وكأنّه يوعز بذلك إلى أنّ هذه السرايا والغزوات لم تحقّق أهدافها، وبالتالي التقليل من شأنها وأهمّيّتها، لكن هل كان الهدف من هذه الغزوات والسرايا الأولى هو القتال فحسب، أم كان لَها أهداف أخرى هامة موازية للقتال ولقاء العدو؟

الملاحظ أنّ طلائع حركة الجهاد في الغزوات والسرايا الأولى وإن كانت صغيرة، و لم يحدث فيها قتال مباشر مع العدو، فقد حقّقت أهدافا أخرى هامة لَها شأن كبير في تلك المرحلة، ذلك أنّها استهدفت ثلاثة أمور:

الهدف الأول: تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام، وهي ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجاري.

الهدف الثاني: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل في الصراع بين المسلمين وقريش، وهي خطوة هامة يعتبر تحقيقها نجاحًا للمسلمين، لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها، فلا شك إذًا في أنّ تَمكُّن المسلمين من موادعة هذه القبائل وتحييدها خلال الصراع يعتبر نجاحًا كبيرًا لهم في تلك المرحلة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7162/23.

[2]– سبقت ترجمته في: ص59.

[3]– **تعقيب الشيخ أحمد شاكر على هذه العبارة من مادة "الجاهلية"** [في هامش الموضع نفسه]: «**هذه كلمة لم يكن كاتب المادة ليقولها إذا سلك سبيل البحث العلمي، فإنّه يرمي إلى غزوة بدر، وهي النصر الأول لرسول الله ﷺ على المشركين، فـــظن كاتب المقال أنّها كانت خروجا على الأشهر الحرم، إذ فهم أنّ رمضان، وهو شهر الصيام عند المسلمين، وهو الشهر الذي نعظمه أكبر تعظيم، وهو الشهر الذي كانت فيه غزوة بدر، ظن أنّ هذا الصيام وهذا التعظيم لأنّه من الأشهر الحرم!! ولم يرجع إلى أقرب المراجع بين يديه من كتب اللغة أو التفسير أو الحديث أو التاريخ، ليعـــلم أن الأشهر الحرم هي: "ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب"، وأن رمضان ليس منها، ولو فعل لذهب كل قوله**».

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 267/6.

[5]– سبقت ترجمته في: ص241.

الهدف الثالث: إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين، فالمسلمون صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة بل يتحركون لفرض سيطرتهم على أطرافها وما حولها من القبائل، ويؤثّرون في مصالحها وعلاقتها[1].

فمثلا "غزوة الأبواء": لم يقع فيها قتال، بل تَمّت موادعة "بني ضمرة" من كنانة[2]، فحقّقت الهدف الثاني، ولا شكّ أنّ هذه المحالفات لَها أهمّية بالغة في تقوية الجانب السياسي والعسكري للدولة الإسلامية الناشئة في المدينة.

كما أنّ سريّة "حمزة" ﷺ وغزوة "بواط" اللتين سبق ذكرهما قريبا تخدمان الهدف الأول، بينما تخدم كلّ هذه الغزوات والسرايا الهدف الثالث.

هذه الأهداف المرحلية مع أهميتها الكبرى غابت عن ذهن "بول - Buhl"، فظنّ بأنّها لم تكن وقائع ذات بال، وذهل عمّا أحرزته من فوائد اقتصادية وسياسية وعسكرية وإن لم يكن فيها قتل ولا قتال.

[2]– قصّة سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى "نخلة"[3]: في رجب من السنة الثانية بعث رسول الله ﷺ "عبد الله بن جحش" ﷺ في رهط من المهاجرين، وكتب له كتابا، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فإذا نظر فيه، ووعى ما كلّفه الرسول ﷺ به مضى في تنفيذه غير مستكره أحدا من أصحابه، فلما سار بهم يومين فتحه فإذا فيه: ((إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ)).

فمضى عبد الله بن جحش برفاقه حتى نزل أرض "نخلة"[4] جنوب مكة، فمرّت عير قريش فيها "عمرو بن الحضرمي" ومعه ثلاثة آخرون، فهاجَمها عبد الله بن جحش ومن معه، فقُتل "عمرو بن الحضرمي"، وأُسر اثنان من المشركين، وعاد عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى المدينة.

فلمّا قدمت السرية على رسول الله ﷺ قال: ((مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ))[5]، ووقف التصرف في العير والأسيرين.

ونظرًا لأن هذه الحادثة وقعت في الشهر الحرام فقد أثار المشركون ضجة كبيرة بدعوى أن المسلمين ينتهكون حرمة الأشهر الحرم، وانتشرت داعية قريش أنْ قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام؛ ثُم نزلت آيات من كتاب الله توضح سلامة موقف المسلمين، وهي قوله تعالى:

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 347/2.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 591/1. والسيرة النبوية الصحيحة، 345/2.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 601/1-604. والسيرة النبوية الصحيحة، 347/2.

[4]– موضع جنوب مكة، سبق التعريف به في: ص710.

[5]– تخريجه في الصفحة الموالية.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ الآية [البقرة: 217]؛ فأخذ الرسول ﷺ الغنائم وفادى الأسيرين مع قريش[1].

[3]- استغلال المشركين الحادثةَ للطعن في النبي ﷺ وأصحابه: أشار المستشرقان "بول-Buhl" و"وات-Wat" إلى الضجّة الكبيرة التي أحدثَها كفّار قريش بدعوى أن المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام، حيث وجد المشركون فيما حدث فرصة للطعن في المسلمين، وكثر في ذلك القيل والقال، وأرجف اليهود والمنافقون في المدينة، قصد إشعال الفتنة، حتّى نزل الوحي حاسما لِهذه الأقاويل[2]، ورادًّا على إرجاف المشركين الظالمين؛ إذ لا مسوّغ للتهويل الذي أثاره المشركون لعدّة اعتبارات منها:

أ)- ينبغي ملاحظة أنّ **الهدف** من هذه **السريّة:** كان استطلاع أخبار قريش والحصول على المعلومات عنهم، كما نصّ على ذلك كتاب الرسول ﷺ، و لم يكن الهدف قتال قريش[3].

ب)- أنّ رسول الله ﷺ أنْكَر عليهم مَا فعلوه؛ وبيّن بأنّه لم يأمرهم بالقتال، فقال ﷺ: ((مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ))[4].

ج)- إنّما أثار المشركون ما أثاروه من الدعاية والضجّة حول الحادثة **تعنّتاً**[5]؛ ذلك أنّهم وجدوا فيما حدث فرصة للطعن في رسول الله ﷺ والمسلمين، يقول الغزالي: «إنّ الضّجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإنّ الحرمات المقدسة قد انتهكت كلّها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرّة وشناعة؟

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرّر قتل نبيّهم، وسلب أموالهم؟

لكنّ بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته، فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضها هدم القوانين والدساتير جميعا»[6].

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، أكرم العمري، 347/2.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 120/2. وفقه السيرة، الغزالي، 215.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 602/1. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 92. والسيرة النبوية الصحيحة، 347/2.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 603/1. وتفسير الطبري، 650/3. ودلائل النبوة، للبيهقي، 3/17-18؛ بسند صحيح إلى **عروة**، وله شواهد مسندة، فيرقي الحديث بمجموع طرقه إلى الصحيح لغيره، كما ذكر العمري في "السيرة الصحيحة، 347/2"، وأورد ابن كثير في "البداية والنهاية، 5/37-42" جملة من هذه الشواهد فتراجع هناك.

[5]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 151/3.

[6]- فقه السيرة، الغزالي، 216.

د)– لقد نزل الوحي من السماء مبينا وجه الحقّ في هذه الحادثة، بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: 217]؛ فبيّن الله عزّ وجلّ: أنّ ما ارتكبته قريش مِن الكفر بِالله والصّدِّ عن سبيله، وفتنة المسلمين في دينهم، وإخراجهم من بلدهم وأهليهم وأموالهم، أكبر من قتال المسلمين في الشهر الحرام - مع إقرار مطلع الآية لحرمة "الأشهر الحرم"-، فهلا التزمت قريش بالقيم والأعراف فيما فعلته مع المسلمين حتى يحق لها أن تعلن عن نفسها وكأنها القيّم على الأعراف والمقدسات!![1]

[4]– الوهم الذي وقع فيه المستشرق "فـــاير": نبّه الشيخ "أحمد شاكر" في تعقيبه على مادة "الجاهلية" إلى الوهم الذي وقع فيه المستشرق "فير-Weir" عندما خلط بين "سرية نخلة" و"غزوة بدر"، حيث جعل انتصار "غزوة بدر" وقع بعد "**الخروج على عهد الله**" - وفق تعبيره-، في إشارة منه إلى القتال في الأشهر الحرم، بيد أنّ "غزوة بدر" لم يكن فيها قتال في الأشهر الحرم، لأنّها وقعت في شهر رمضان وهو ليس من الأشهر الحرم، هكذا فسّر الشيخ أحمد شاكر كلام المستشرق "فاير-Weir".

غير أنّ كلام المستشرق يحتمل أيضا أن يكون المراد منه "سريّة نخلة" لا "غزوة بدر" فإنّه لم يصرّح باسمها، وعلى هذا الاحتمال سبق الجواب على توجيه ما وقع في هذه السريّة من قتال لم يأذن فيه الرسول ﷺ وعاتب عليه، وبيّن القرآن الكريم عظم ما ارتكبته قريش مقارنة بهذا الفعل.

– **تنبيه:** لا يستبعد أن يكون المستشرق "فاير - Weir" وقع في هذا الغلط عن عمد من أجل إظهار انتصار غزوة بدر بِمظهر مشين ومستهجن لنقض العهد الذي ذكره، وستأتي محاولة أخرى من المستشرق "بول-Buhl" للتقليل من شأن الغزوة بأسلوب آخر، وكأنّ المستشرقين حاولوا أن يقلّلوا من شأن "غزوة بدر" ولو بخلط الأحداث بعضها ببعض، والوقوع في أغلاط فادحة وظاهرة البطلان، كلّ ذلك من أجل التعمية على ما كان لهذه الغزوة من أثر عظيم في تعزيز جانب الإسلام وتقوية شوكته، ثم ما توحيه من قوة إيمان المسلمين، ومن تأييد الله تعالى لنبيّه ﷺ بحيث نصره على المشركين مع ما كانوا عليه من كثرة عدد ووفرة عدّة، في مقابل قلّة عدد المسلمين وضعف عدّتهم.

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 604/1. وزاد المعاد، ابن القيم، 151/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 347/2.

المطلب الثاني : مقدمات غزوة بدر الكبرى

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "[أبو] **سفيان**"[فقرة: 5]: «... **وقد أثار الحرب في وقعة بدر على غير رغبة منه، تلك الوقعة التي كانت وخيمة العاقبة، فقد لبّى الجيش نداءه اليائس، ولم يشأ أن يعود أدراجه دون أن ينال من العدو، مع أنه أُمر بذلك بعد أن أمن أبو سفيان على قوافله التي كان يقودها**»[1].

المحرِّر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– وجاء في مادة "**البراء بن عازب**": «... **استبعده النبي محمد هو ومعاصره عبد الله بن عمر وكثير غيرهما إبان غزوة بدر لحداثة سنّهما**»[3]. محرِّر المادة هو المستشرق: **نسترشنين** –Zetterstéen[4].

– وفي مادة "**جذام**": «**وكانت صلاتهم الأولى بالإسلام أبعد ما تكون عن الود والمحبة، فقد تكفّل واحد منهم بإنباء أبي سفيان قبيل غزوة بدر بأنّ النبي يكمن في انتظار قافلته**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[6].

– وجاء في مادة "**سعيد بن زيد**": «**وعندما بلغ المدينة عودة قافلة قريش من الشـــام أنفذ سعيد هو وطلحة بن عبيد الله لِيتنسّما الأخبار، فقابلا القافلة عند الحوراء وأسرعا بالعودة إلى المدينة ليقصا الخبر، غير أن النبي كان في ذلك الوقت في طريقه إلى بدر، وحدثت وقعة بدر دون أن يشهداها، غير أنهما حصلا مع ذلك على نصيبهما من الغنائم**»[7]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** – Wensinck[8].

– وفي مادة "**طلحة**": «**وكان النبي قد أنفذه قبيل وقعة بدر ليرصد حركات القافلة المكية، ولكنه عجز عن العودة عندما نشبت المعركة فلم يسهم فيها بشأن ذي بال، ولكنه اشترك في الغنيمة مع سائر المهاجرين على قدم المساواة**»[9]. المحرِّر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** – Levi della vida[10].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 480/3.

[4]– سبقت ترجمته في: ص112.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 314/6.

[6]– سبقت ترجمته في: ص2111.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 435/11.

[8]– سبقت ترجمته في: ص49.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 254/15.

[10]– سبقت ترجمته في: ص95.

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 70]: «**ذلك أنه علم أن قافلة مكية وافرة السلع كانت في طريقها عائدة من الشام فقرر رصد كمين لها عند بدر، غير أن أبا سفيان الحذر الذي كان يقود القافلة علم بخطة محمد ﷺ، وبعث برسله مسرعين إلى مكة يطلب النجدة، وقبل أن يصل جيش مكة ويعسكر عند بدر، كانت القافلة قد وصلت مكة آمنة بعد اتخاذها طريقا جانبيا محاذيا للساحل، وقد أغضب ذلك أهل مكة وعلى رأسهم أبو جهل أحد السادة المكيين البارزين... وبعد نزول المكيين بمعسكرهم قرب بدر بقليل، وصل محمد ﷺ وأصحابه متوقعين أن يجدوا قافلة أبي سفيان العزلاء، وحين تبين لهم أن القافلة قد هربت وأنهم بصدد مواجهة حربية وشيكة مع أهل مكة وحلفائهم، انتابهم الفزع،** ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ **[إلى قوله تعالى]**: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ **سورة الأنفال الآيات (5–10)؛ وقد رأى محمد ﷺ في هذا اللقاء إرادة الله الذي شاء أن يفرض على المشركين حربا**»[1]. المحرِّر هو المستشرق: **بول** – Buhl.

الفرع الأول : التحليل والمناقشة

أولا- ترقب قافلة أبي سفيان: سبب خروج النبي ﷺ إلى هذه الغزوة أنه سَمع أن "أبا سفيان" مقبلٌ من الشام يقود قافلة تجارية كبيرة في ألف بعيرٍ لقريش **فيها أموال عظام**، يقال: إن فيها حوالي خمسين ألف دينار، وفيها سبعون رجلا راكبا كما ذكر ابن عقبة، وقال ابن إسحاق: ثلاثون أو أربعون، وهي القافلة التي خرج لاعتراضها في غزوة "العشيرة"[2] عند ذهابها إلى الشام فوجدها قد مضت، فلم يزل يترقّب رجوعها من الشام، فلما سمع بقفولها من الشام ندب المسلمين إلى الخروج لِملاقاتها[3].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «لَما سمع رَسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام، ندب إليهم المسلمين، وقال: ((هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللهُ يُنفلكُمُوها[4]))؛ فانتدب الناس، فخفّ بعضهم وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا»[5].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9138/30.

[2]– **غزوة العشيرة**: عَلِم النبي ﷺ أن عيرا لقريش ذاهبة إلى الشام، فخرج بنفسه عليه الصلاة والسلام لملاقاتها في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة حتى بلغ **العشيرة** ببطن ينبع، فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهي العير التي خرج إليها حين رجعت من الشام، وكانت سببَ وقعة بدر الكبرى، ثم رجع المصطفى ﷺ من العشيرة ولم يلق حربا، وفي أثناء عودته حالف بني مدلج وحلفاءهم. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 598/1-599. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 17/4.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 606/1-607. وسبل الهدى، 18/4-19. والسيرة الحلبية، الحلبي، 197/2.

[4]– أي: يغنمكموها؛ من **النّفل**: والجمع "أنفال" وهي الغنائم. ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 455/5.

[5]– أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 606/1-607. **والطبري**، في تفسيره، 36/11. والحديث صحيح فقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث، كما في: صحيح السيرة، إبراهيم العلي، 160. والسيرة الصحيحة، العمري، 356/2.

• **إرسال النبي ﷺ "طلحة" و"سعيداً" لتحسّس أخبار القافلة:** بعث الرسول ﷺ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام، يتحسّسان خبر العير، فبلغا أرض الحوراء على البحر الأحمر[1]، فنزلا على كثير بن مالك الجهني رضي الله عنه فأجارهما، وأنزلهما وكتم عليهما حتى مرت العير، ثم عادا ليخبرا رسول الله ﷺ فوجداه قد خرج، وذلك أن الرسول لم ينتظر قدوم الرسولَيْن من مهمتهما وقرر الخروج إلى طريق الشام، خشية أن تفوته العير في إيابها كما فاتته في ذهابها[2].

وضرَب لَهما رسولُ الله ﷺ بسهامِهما وأُجورهما في بدرٍ فكانا كمَن شهدها؛ لأنّهما تَخلَّفا لِعذر[3] حبسهما عن حضور المعركة، كما أنّ المهمّة التي بعثهما النبي ﷺ إليها في تحسّس أخبار العدو، كانت في خدمة الغزوة.

ثانيا- استنفار "أبي سفيان" لقريش: لَمّا أدرك أبو سفيان "الزّرقاء" من ناحية "معان"[4]، أخبره رجل من "جذام"[5] أن رسول الله ﷺ قد كان عرض لعيره في ذهابه، وأنه تركه مقيما ينتظر رجوع العير، وقد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم، فخرج أبو سفيان ومن معه خائفين[6].

وهو ما أشار إليه المستشرق "لَمنس – Lammens" في مادة "جذام".

لَمّا سمع "أبو سفيان" أنّ النبي ﷺ يترصّد قدوم قافلته، خاف أن تقع العير في قبضة المسلمين، فأخذ يتحسّس الأخبار، ويسأل من لقي من الرُّكبان، حتى أصاب خبرا من بعضهم: أن النبي ﷺ استنفر أصحابه للقاء أبي سفيان وعيره.

فاستأجر أبو سفيان "ضمضم بن عمرو الغفاري"، وبعثه مسرعا إلى مكة ليستنفر قريشا إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا ﷺ قد عرض لها في أصحابه، فوصل ضمضم إلى مكة، وقد جدع أذني

---

[1]– **الحوراء:** هي محطة من محطات القوافل التي تسير بين الحجاز والشام ولابدّ للعير أن تمر بها، تقع على ساحل البحر الأحمر قِبَل ينبع. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 316/2. وسيرة أبي شهبة، 123/2.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 28/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 8/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 123/2.

[3]– ينظر: الطبقات الكبرى، 162/3. وأسد الغابة، ابن الأثير، 84/3. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 286/1.

[4]– **معان:** مدينة في شرقي الأردن على الطريق بين المدينة وعمّان، تقع جنوب عمّان على مسافة (212 كلم). ينظر: معجم البلدان، الحموي، 153/5. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 300.

– **والزرقاء:** مدينة أردنية تقع على بعد (24 كلم) إلى الشمال الشرقي من عمّان، وتقع في الطريق الرئيسية بين الشام والحجاز، هي ومدينة معان. ينظر: معجم البلدان، 137/3. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة من الباحثين، 575/11.

[5]– **جذام:** قبيلة كبيرة من كهلان، من القحطانية، وهم: بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرّة ابن أدد، كانت مساكنهم في بلاد الشام بين مدين وتبوك. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 93/8. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 174/1.

[6]– ينظر: مغازي الواقدي، 28/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 85/1. وسبل الهدى، الشامي، 19/4.

بعيره وأنفه، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وقال: «يا معشر قريش، اللّطيمة، اللّطيمة[1]؛ أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث»[2].

فتجهز الناس سراعا، معتزمين الدفاع عن أموالهم وإنقاذها، فكانت قريش بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلا، ذلك أنّه كان لكل منهم في هذه العير نصيب[3].

ثالثا- خروج جيش المشركين وتعداده: كانت قريش في أشد الغضب وكانت ترى فيما حدث امتهاناً لكرامتها وحطاً لمكانتها بين العرب، فضلاً عن ضرب مصالحها الاقتصادية الكبيرة، لذلك كان مَن يظهر التردد في الخروج مع جيش قريش يتجه إليه زعماء قريش بالعتاب واللوم حتى يقنعوه بالخروج[4].

وقد أشار المستشرق "بول-Buhl" إلى تلبية جيش المشركين لنداء أبي سفيان في مادة "[أبو] سفيان".

وكان تعداد جيش المشركين **ألف** رجل، أو **تسعمائة وخمسين رجلا**، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير، وساروا يحدوهم البطر، ويملؤهم الزهو والغرور حتى كانت عاقبة أمرهم هلاكا وخسرانا[5].

كما وصفهم الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47].

رابعا- نجاة القافلة وإصرار أبي جهل على القتال: أقبل أبو سفيان بالعير وقد خاف خوفا شديدا حين دنا من المدينة، واشتَدّ حذَره، فبادر إلى تحويل مسار القافلة إلى طريق الساحل، خارجا عن الطريق المعتاد، وأسرع في مسيره حتى بعدت المسافة بين القافلة وبين قوات المسلمين، ونَجا بالعير.

فلمّا أمِن أبو سفيان على سلامة القافلة، أرسل إلى قريش يبشرهم بنجاة العير، ويشير عليهم بالرجوع قائلا: «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم، ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا»؛ وبذلك ذهب السبب الذي كان من أجله الخروج، فتضاربت آراء قريش، منهم من يريد الرجوع ومن هؤلاء "بنو زهرة" الذين رجعوا فعلا، ولكن أغلبهم أصرّ على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وعلى رأسهم أبو جهل الذي أبَى إلا المضي إلى بدر، فقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدرا،

---

[1]- أي: أدركوا اللطيمة، **واللّطيمة:** هي العير التي تحمل العطر والبزّ ونحوها. ينظر: السيرة الحلبية، الحلبي، 199/2.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 607/1-609. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 125/2.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 609/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 126/2.

[4]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 357/2.

[5]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 32/3. والبداية والنهاية، ابن كثير، 253/5. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 127/2.

فنقيم عليها ثلاثا، ننحر الْجُزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها، فامضوا»[1].

أشار إلى هذه الحوادث المستشرق "بول-Buhl" في مادتي "[أبو] سفيان" و"محمد ﷺ".

خامسا- جيش المسلمين وتعداده: خرج الرسول ﷺ يوم الاثنين لِثمانٍ ليالٍ خلون من شهر رمضان، في **ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً**، ولَم يكن معهم مِن الْخيل إلاّ فرسان: فرسٌ للزبير بن العوّام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون من الإبل، يتعاقب الرّجلان والثّلاثة على البعير الواحد، فكان الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد، يتعاقبون بعيرا واحدا[2].

ولَمْ يكن عزمُهم على اللّقاء، ولا أعدّوا له عُدّتَه، وَلا تَأهَّبوا له أهبَتَه؛ لذلك فإن جيش المسلمين ببدر لا يمثل كل طاقتهم العسكرية فإنهم خرجوا لأخذ القافلة و لم يعلموا أنهم سيواجهون جيش قريش، ولكنْ جَمَع اللهُ بَيْنهم وبين عدُوِّهِم على غير ميعاد[3].

- **مَن ردَّهم النبي ﷺ لصغر سنّهم:** ومنهم: عبد الله بن عمر، والبراء بن عازب رضي الله عنهما[4]، الّذَيْن ذكرهما "تسترشتين-Zetterstéen" في مادة "البراء"، ومنهم أيضا: رافع بن خديج، وزيد بن ثابت، وغيرهم[5].

انطلق المسلمون مسرعين خوفا من إفلات قافلة أبي سفيان بن حرب منهم، وبثوا عيونهم يتعرفون الأخبار، فلما وصلوا قريبا من "الصفراء"[6] بعث الرسول ﷺ دورية استطلاعية مكوّنة من رجلين هما: "بسبس بن عمرو الجهنيّ، وعديّ بن أبي الزغباء الجهني" إلى "بدر" للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها، فلما وصل المسلمون "وادي ذَفِران"[7] جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم[8].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 618/1-619. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 128/2. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 109. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 357/2.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 612/1-613. وزاد المعاد، ابن القيم، 153/3. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 83/1.

[3]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 169/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 354/2.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 362/7.

[5]- ينظر: تاريخ الطبري، 477/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 81/1-82.

[6]- **الصفراء:** اسم وادٍ بين المدينة وبدر، من أودية الحجاز الفحول، يقع على مسافة (51 كلم) بين المدينة وبدر، وبه اليوم قرية تسمى "الواسطة". ينظر: معجم البلدان، الحموي، 412/3. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شراب، 159.

[7]- **ذفران:** هو واد قرب وادي الصفراء السابق تحديده. ينظر: معجم البلدان، 6/3.

[8]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 614/1. والرسول القائد، 103-104.

فقد سار النبي ﷺ وأصحابه في الطريق إلى بدر، وكان لا يزال شائعا بين صفوف المسلمين أن عير أبي سفيان ستمر بها في طريقها إلى مكة، و لم يكن ﷺ عارفا بما فعله أبو سفيان من إفلاته بالعير، ولا بما قامت به قريش من جمع جموعها والتوجه إلى بدر حتى بلغ واديا يقال له "ذفران"، وهناك أتاه الخبر عن قريش ومسيرهم في جيش كبير لِمنع العير وحمايتها؛ وحينئذ تغيّر وجه الأمر، و لم يصبح الأمر مقصورا على اللحاق بالعير والاستيلاء عليها، فها هي قريش خرجت بجموعها الكثيرة، وبذلك ترجحت كفة القتال والمناجزة، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه واسْتَشارهم في الأمر، وأخْبَرهم عنْ قريش[1].

سادسا- استشارة النبي أصحابَه في القتال: أخبر الرسول ﷺ أصحابه بِما بلغه من أمر قريش طالبا مشورتهم، كما يبـــيّن حديث ابن عباس ﷺ، وفيه: «... فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، **فـــقام أبو بكر الصديق** فقال **وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب** فقال **وأحسن،** ثم قـــام **المقداد بن عمرو** فقال: يا رسول الله **اِمض لما أراك الله فنحن معك** والله **لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل** لِموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، **ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون،** فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه...

ثم قال رسول الله ﷺ: ((أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ))؛ -وإنما يريد الأنصار[2]-... فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له **سعد بن معاذ:** والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: ((أَجَل))، قال **سعد:** «فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، **فامض يا رسول الله لِما أردت فنحن معك،** فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، **وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء،** لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر على بركة الله»؛ قال: فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، ثم قال: ((سِيرُوا وَأَبْشِرُوا))»[3].

وفي حديث ابن مسعود ﷺ في "البخاري"[4]، وحديث أنس ﷺ في "مسلم"[5] نحو هذه القصة.

- **الردّ على تضخيم "بول-Buhl" للكراهية المذكورة في الآية**: هذه الروايات التي تقصّ مشاورة المصطفى ﷺ لأصحابه في قتال المشركين يوم "بدر" ترّد بوضوح قولَ المستشرق "بول-Buhl": «**وحين**

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/614-615. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/128-129.

[2]- تقدّم الكلام على قصد النبي ﷺ من مشاورة الأنصار في هذا الموضع: ص546-547.

[3]- عند: **ابن إسحاق والبيهقي**، سبق تخريجه في: ص546.

[4]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9]، 7/358.

[5]- ينظر: صحيح مسلم (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، 12/174-175.

تبين لهم أن القافلة قد هربت وأنهم بصدد مواجهة حربية وشيكة مع أهل مكة وحلفائهم، انتابهم الفزع»؛ فهذه الروايات تشهد على إبداء أصحاب النبي ﷺ للعزم القويّ على لقاء العدو، عندما قالوا: "يا رسول الله اِمض لِما أراك الله فنحن معك... **ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون**"، وقالوا: "**فامض يا رسول الله لِما أردت فنحن معك... وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء**"؛ فهذه العبارات لا تترك مجالا للفزع الذي يتحدّث عنه "بول-Buhl".

لقد كانت «هذه الاستشارة بمثابة اختبار لإيمان المسلمين، وصلابة عقيدتهم، ومقدار استعدادهم للقتال والتضحية في سبيل الإسلام، وقد أسفر الامتحان عن نجاح باهر، ودلّلوا بحق على أنهم أهل لحمل الرسالة المحمدية والجهاد في سبيل تبليغها للناس كافة»[1].

أمّا قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ [الأنفال: 5]، فما جاء في الآية لا يوافق تَحليلَ "بول-Buhl" للحادثة، وذلك لِلاعتبارات الآتية:

أ)- أنّ كراهيّة القتال هذه إنّما حصلت لبعضهم لا لكلّهم كما هو ظاهر في الآية[2]؛ لكنّ المستشرق عمّم الأمر، لذا كان من الدقّة والإنصاف - على الأقل - أن يقيّد "الفزع" المذكور بالبعض.

ب)- ليس من الأمانة العلمية أن يتحدّث "بول-Buhl" عن "الفزع" ولا يشير أدنى إشارة إلى الفرق الشاسع بين عدد الجيشين وعدّتهما، فقد كان المسلمون يزيدون على الثلاثمائة بقليل، في مقابل ألف من المشركين المدّججين بالأسلحة والخيل، فوقوع الفزع والتردّد في هذه الحالة أمر طبيعيّ.

فالمسلمون لم يأخذوا عدّتَهم الكافية من السلاح والفرسان، لأنّ النبي ﷺ والمؤمنين معه إنّما خرجوا للعير و لم يتوقعوا المواجهة و لم يستعدوا لها، فلمّا جاء أمر القتال كره بعضهم ذلك لقلّة عددهم وضعف عُدّتِهم مقارنة بالمشركين، ولعدم استعدادهم التام للقتال[3].

ج)- حاول "بول-Buhl" أن يضخّم الكراهية المذكورة في الآية، من وجهين:

الوجه الأول: عبّر عنها "بالفزع"، وهي عبارة فيها تهويل مبالغ فيه مقارنة بحيثيات الحادثة.

والوجه الثاني: عمّم هذا "الفزع" على سائر جيش المسلمين و لم يقصره على البعض كما سبق في بيان الآية الكريمة.

فانحرَف بهذين الوجهين عن مدلول الآية، وهذه هي **النقطة الأولى** التي حاول من خلالِها التقليل من شأن "غزوة بدر" العظيمة في وقائعها وآثارها، وسيأتي إيراد **النقطة الثانية** في المطلب الموالي.

---

[1]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 129/2.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 457/15.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، والجزء والصفحة نفسيهما. وفتح القدير، الشوكاني، 328/2. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 499/9.

د)– كما أنّ التحليل الذي قدّمه يدفعُ للتساؤل الآتي: هل كان لِهذا "الفزع" أثر سلبِي على نفسية المسلمين في المعركة؟

الجواب: لم يكن لهذا "الفزع" المذكور أيّ أثر على نتيجة المعركة، بل كان الأمر على العكس من ذلك تماما، بحيث زَالَ سريعا من نفوس الْمؤمنين ما كان في قلوبِهم منَ الكراهية لِلقتال، واختفت على عجل مشاعر التردّد، وانطلق الجميع خفافا إلى غايتهم[1] بعد مشورة النبي ﷺ لأصحابه في المسير للقتال، وما أبداه كبراء المهاجرين والأنصار من العزم على التفاني في نصرة الإسلام كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه السابق.

وضرب المسلمون أروع الأمثال في "البطولة" و"الشجاعة" و"التضحية" **بِمواجهتهم** ذلك الجيش الكثير العدد الكامل العتاد، بجيش قليل العدد ناقص العتاد، **ثُم بانتصارهم** الكبير عليه.

فالكراهة المذكورة ليست أمراً شائعاً ولا مستمراً، بل هي حالة تردّد طارئة في لحظة ضعف بشري، تجاوزها المسلمون بعد أنْ رفع النبي ﷺ معنوياتهم، وأنزل الله عليهم السكينة، وثبّتهم في ساحة المعركة، فانتصرت الفئة القليلة من المؤمنين، على الفئة الكثيرة من المشركين، ورفع هذا النصرُ راية الإسلام وأعزّ المسلمين، وقطع دابر الكافرين وأذلّهم.

المطلب الثالث : بعض أحداث الغزوة وتداعياتها

الفرع الأول : بداية المعركة وانتصار المسلمين فيها

أولا– عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**بدر**"[فقرة: 1]: «**ولهذه القرية أهمية تاريخية بفضل الموقعة التي نشبت فيها بين المسلمين وأهل مكة في السابع عشر أو التاسع عشر من رمضان للعام الثاني من الهجرة...**

ويذكر ابن إسحاق أنّ النبي وقف هو والمسلمون عند البئر الذي على أقرب منحدر للمدينة بينما وقف المكيّون على منحدر مقابل له (انظر سورة الأنفال، الآية 42): ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ (**أي: على ساحل البحر**)، **والركب في الآية العير الناجية وليس فرسان قريش، ولا الفريق الذي كان يقوده عليّ كما زعم "بركهارت". وقد حجب كثيب العقنقل المكيّين عن أعين المسلمين، ويفصل هذا الكثيب عن بدر وادي يليل، ويروي الواقدي أنّ المسلمين كان وجههم شطر الغرب بينما كان أهل مكة يواجهون الشرق والشمس في أعينهم.**

وبدأ المكيّون الموقعة في الصباح فتسلّقوا العقنقل منحدرين إلى الوادي في حين أمر النبي أصحابه ألا يهاجِموا عدوّهم إلا إذا أذن لهم، وعلى هذا فينبغي أن نبحث عن ساحة القتال عند سفوح الجبال عند

[1]– ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، 266/9. وفقه السيرة، الغزالي، 219.

الشرقية المجاورة، ولابد أنّ الآبار كانت في هذا الموضع، وهي الآبار التي هدمها المسلمون إلا أقربها إلى العدوّ، بنوا عليه حوضا وأقاموا عريشا للنبي، وألقوا بقتلى عدوّهم في واحد من الآبار التي خربوها»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

ثانيا– التحليل والمناقشة:

[1]– موقع معركة بدر: "**بدر**" اسم قرية مشهورة بِها بئر، تبعد عن المدينة بحوالي (150 كيلو متر)، وعن مكة (310 كلم)، وهي بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، وهي إلى المدينة أقرب، وكانت موسمًا من مواسم العرب، تجتمع لهم بِها سوق كلّ عام، يجتمعون فيه للتجارة وللتنـــزه[3].

[2]– تأريخ غزوة بدر الكبرى: وقعت معركة بدر في رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية باتفاق، أمّا اليـــوم الذي وقعت فيه المعركة، فـــتردّد المستشرق "بول -Buhl" بين اليوم: السابع عشر (17) أو التاسع عشر (19) من رمضان، لكن الصحيح والمشهور عند أهل الحديث والسيرة أنّها كانت: يوم **الجمعة السابع عشر** (17) من رمضان؛ كما بيّن البيهقي وابن كثير والعمري وغيرهم[4].

[3]– موقع الجيشين: جاء في الآية (42) من سورة الأنفال المذكورة في مادة "بدر" بيان الموقعين اللذين نزل بِهما الجيشان قبل بداية المعركة، قال ابن إسحاق: «ومضَت قريش حتى نزلوا **بالعُدْوة الْقُصْوى** من الوادي، خلف العَقَنْقل وبطن الوادي –وهو يَلْيل–، بَيْن بدر وبَيْن العَقَنْقل –الكثيب الذي خلفه قريش–، والقُلُب ببدر في **العدوة الدنيا** من بطن يَلْيل[5] إلى المدينة»[6].

– فنزل **جيش المسلمين: بالعدوة الدنيا:** وهو الجانب الأقرب إلى جهة المدينة من وادي يَلْيل.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/444-445.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: معجم البلدان، الحموي، 84. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 7/376. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي، 41. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 44.

[4]– ينظر: دلائل النبوة، 3/128. والبداية والنهاية، 5/174-175. وتفسير ابن كثير، 4/66. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 1/259. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/361.

[5]– **العُدْوة:** الجانب المرتفع من الوادي. – **القصوى:** البعيدة، أي: بعيدة بالنّسبة لِموقع بلد الْمسلمين.

– **والعقنقل:** الكثيب المتداخل الرّمل، وهو ليس مكانا ثابتا، حيث تسفوه الرياح ثم تصنع غيره، كان مكانه جانب الوادي الأيسر.

– **وادي يليل:** اسم يطلق على أسفل وادي الصفراء الذي يَمرّ ببدر، ويُسمّيه اليوم بعضهم وادي بدر، ولم يعد يعرف باسم يليل.

– **الكثيب:** التّلّ من الرمل. – **والقُلُب:** جمع قليب: وهي بئر جافة قبل أن تبنى بالحجارة ونحوها.

ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 4/138-139. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 2/271. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، 201 و339. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 194.

[6]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/619-620.

– أما **جيش المشركين:** فنزل **بالعدوة القصوى:** وهي كثيب مرتفع من الرمل وهو "الْعَقَنْقَل"، في الجانب الأيسر للوادي مِمّا يلي مكّة؛ **فالْعُدْوة الدّنيا:** كانت في جهة الْمدينة، **والْقُصْوى:** كانت في جهة مكّة[1].

أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: 42]: فالمقصود به العير الذي فيه أبو سفيان، ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: مِمّا يلي سيف البحر، وهو قول متفق عليه بين أئمة التفسير والسيرة[2].

أمّا القول الذي ذكره "بول-Buhl" عن المستشرق "بركهارت" فهو قول بعيد لا يدلّ عليه سياق الآية ولا سياق الأحداث، فهو ضعيف كما بيّن "بول-Buhl" نفسه.

– **اختيار الموقع المناسب:** كما أخذ النبي ﷺ برأي الحباب بن المنذر في تبديل معسكره في "بدر" – حين نزل بأدنى ماء منها–، فأشار على النبي ﷺ: بأن يجعل القُلُب كلها من وراء ظهره، ثم يغور كل قليب بها إلا قليبا واحدا، ثم يحفر عليه حوضا، فيقاتل المسلمون القوم، حتى يشرب المسلمون ولا يشرب المشركون، فانتقل الرسول ﷺ بالمسلمين إلى حيث أشار الحباب، وسبق إلى ماء بدر، وأمر أصحابه فبنوا حوضا على القليب الذي أتوه، وملأُوه ماء، ثم غوّروا المياه الأخرى، فامتلكوا بذلك مواقع الماء[3].

[4]– تنظيم النبي ﷺ لِجيش المسلمين: نظّم الرسول ﷺ جيشه في صفوف كصفوف الصلاة، وهو أسلوب جديد في القتال يخالف ما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكر والفر، ونظام الصفوف يقلل من خسائر المسلمين ويعوض عن قلة عددهم أمام المشركين، وفيه مزية السيطرة على القوة بكاملها وتأمين العمق للجيش حيث تبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية في الخلف يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان، أما المشركون فقد مارسوا أسلوب قتال "الكر والفر" دون قيادة منظمة ولا سيطرة، بحيث جرى قتالهم كأفراد لا كمجموعة موحّدة[4].

---

[1]– ينظر: فتح القدير، الشوكاني، 355/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، البلادي، 201.

[2]– ينظر: تفسير الطبري، 203/11–204. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 672/1. وزاد المسير، ابن الجوزي، 213/2. وتفسير ابن كثير، 66/4. وفتح القدير، الشوكاني، 355/2.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 620/1. وأسد الغابة، ابن الأثير، 665/1. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 107. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 360/2.

[4]– ينظر: الرسول القائد، 111 و117. والسيرة النبوية الصحيحة، 361/2.

وذكر المستشرق "بول -Buhl" في مادة "بدر" رواية الواقدي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم التي يبيّن فيها: أنّ النبي ﷺ استقبل بصفوف المسلمين جهة المغرب وجعل الشمس خلفه، في حين كان جيش المشركين مستقبلا الشمس[1].

وفي ذلك دلالة على استفادة النبي ﷺ من الظروف الطبيعية في ميدان المعركة لِصالح جيشه[2].

بعد نزول النبي ﷺ والمسلمين معه على ماء بدر، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بنَى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ على تلّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ[3].

وهذه الفكرة التي أشار بها سعد هي من أدق فنون الحرب؛ إذ لا بدّ للقائد من مقرّ يسيطر منه على المعركة، كما ينبغي للقائد أن يكون بِمنأى عن ميدان القتال، حتى يكون قادرا على التوجيه والإشارة بما يراه من أساليب القتال، وحتى لا يصاب فينفرط بإصابته عقد الجيش، فيكون مآله الفشل والهزيمة[4].

[5]– تواجُه الجيشين وبداية المعركة وانتصار المسلمين: أشار المستشرق "بول-Buhl" في مادة "بدر" إلى نزول الجيشين إلى ساحة المعركة صباح يوم الجمعة إلى التفصيل الذي ذكره ابن إسحاق عن كلامه على بداية القتال صبيحة معركة بدر، حيث يقول ابن إسحاق: «وقد ارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوّب من العقنقل –وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي قال: اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذّب رسولك، اللهمّ فنَصرك الذي وعدتَّني اللهمّ أَحْنِهم[5] الغداة»[6].

أمّا قول "بول-Buhl": «**في حين أمر النبي أصحابه ألا يهاجِموا عدوّهم إلا إذا أذن لهم**»، ففيه إشارة إلى قول ابن إسحاق: « ثم تَزاحَف الناس ودَنَا بعضهم من بعض، وأمر رسولُ الله ﷺ أصحابه أن لا يَحمِلوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكْتَنَفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل»[7]؛ هذا التوجيه النبوي ذكره ابن إسحاق بعد المبارزة التي أشار إليها محرر مادة "حمزة" في النص الآتي ذكره.

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 56/1.

[2]– ينظر: إمتاع الأسماع، المقريزي، 98/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 407.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 620/1-621. وإمتاع الأسماع، 98/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 134/2-135.

[4]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 135/2. والرسول القائد، 115.

[5]– **أحِنْهم**: أي: أهلكهم، من الحين والهلاك. ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 141/4.

[6]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 621/1.

[7]– المصدر نفسه، 625/1-626.

[6]– شجاعة حمزة وعليّ رضي الله عنهما في ساحة المعركة:

– جاء في مادة "**حمزة**" [فقرة: 4]: «... **وقد لازمته صفة الشجاعة في غزوة بدر بصفة خاصة، فكان هو وعليّ أصحاب القدح المعلّى[1] فيها**»[2]. المحرر هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[3].

تكلّم المستشرق "لَمنس" عما أبداه عمّ النبي ﷺ "حمزة بن عبد المطلب" ﷺ من شجاعة وإقدام كبيرين في المعركة، قال ابن الأثير عن حمزة ﷺ: «شهد بدرًا، وأبلى فيها بلاء عظيمًا مشهورًا»[4].

وهو ما أقرّ به أحد زعماء المشركين يوم "بدر"، حين وقع حوار بين عبد الرحمن بن عوف ﷺ وأمية بن خلف حين أسره [وقبل أن يقتله بلال ﷺ]: قال عبد الرحمن: قال لي أميّة بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه، آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، مَن الرّجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد الْمطّلب، قال أميّة: «ذاك الّذي فَعَل بِنا الأفاعيل»[5]؛ يدلّ هذا الحوار على مبلغ نكاية حمزة ﷺ بالكفار يوم بدر، وأنه أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريدًا.

كما أظهر ابن عمّ النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ –وكان شابا يومئذ– شجاعة كبيرة في المعركة وأبلى بلاء حسناً فيها، وكان أوّل بروز حمزة وعليّ رضي الله عنهما يوم "بدر" فوزهما في المبارزة التي كانت في بداية معركة بدر، ولعلّ في ذكر المستشرق "لَمنس" لشجاعة حمزة وعليّ رضي الله عنهما في سياق واحد إشارة منه إلى هذه المبارزة التي بدأ بِها القتال يوم بدر، حيث: تقدم **عتبة بن ربيعة** وتبعه ابنه **الوليد** وأخوه **شيبة** طالبين المبارزة، فانتدب لهم شباب من الأنصار فرفضوا مبارزتهم طالبين مبارزة بني قومهم، فأمر الرسول ﷺ **حمزة وعليًّا وعبيدة** بن الحارث بِمبارزتهم؛ وقد تمكن: حمزة من قتل عتبة، ثم قتل عليّ شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد وجرح كل منهما صاحبه فعاونه عليّ وحمزة فقتلا الوليد واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين[6].

وقد أثّرت نتيجة المبارزة في معسكر قريش، كما ساهمت في رفع معنويات جيش المسلمين، ثم التقى الجيشان في ملحمة قتل فيها عدد من زعماء المشركين، وانتهت معركة بدر بانتصار المسلمين

---

[1]– أي: النصيب الأوفر. ينظر: معجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار مع فريق عمل، 1779/3.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/8.

[3]– سبقت ترجمته في: ص211.

[4]– أسد الغابة، 67/2.

[5]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب الجهاد، 128/2. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 632/1. وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وينظر: الصحيح من أحاديث السيرة، الصوياني، 220.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 370/7–371. في حديث أبي ذر ﷺ دون تفصيل للقصة، وتفصيلها في: سنن أبي داود (عون المعبود)، 234/7؛ بسند صحيح عن عليّ ﷺ. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 625/1. بسند صحيح من مرسل عاصم بن عمر؛ كما في: صحيح السيرة، العلي، 174. والسيرة الصحيحة، العمري، 363/2.

على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلا، كما أسر منهم سبعون، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار[1].

ثالثا- وصول نبأ النصر إلى المدينة:

- جاء في مادة "**عبد الله بن رواحة**"[فقرة: 3]: «**ولَما انتصر المسلمون في بدر سنة (2هـ/623م) بادر عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة ليحملا إليها نبأ النصر**»[2].

المحرِّر هو المستشرق: **شاده** - A.Shaade[3].

لَمّا تَمّ النصر أرسل رسول الله ﷺ قبل مقدمه المدينة: عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة مبشّرين لأهل المدينة بالنصر الكبير على كفار قريش، فدخلا وهما يرفعان صوتيهما إعلاما بالنصر للمسلمين، والقتل والهزيمة للمشركين، وجَعَل عبد الله يُنادي على راحلته: يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقَتْل الْمشركين وأسرهم[4].

رابعا- من مشاهير قتلى المشركين يوم "بدر":

[1]- أبو جهل: جاء في مادة "[**أبو] جهل**" [فقرة: 3]: «... **فقد قتله في هذه الوقعة معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاوية بن عفراء، ولَما رأى النبي جثته قال إنه كان ((فرعون قومه))، صفة لأبي جهل - التي شوهتها الروايات الإسلامية لأغراض مفهومة القصد-**»[5]. المحرِّر هو المستشرق: **بول** - Buhl[6].

من مشاهير قتلى المشركين وزعمائهم يوم بدر: **أبو جهل** (عمرو بن هشام)؛ الذي قتله شابّان من الأنصار هما: "معاذ بن عمرو بن الجموح" و"معاذ بن عفراء"[7]، وهو ما ذكره "بول-Buhl" في مادة "[أبو] جهل"، ثم ذكر قول النبي ﷺ في أبي جهل: الذي يرويه ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه: «... فلما وقف عليه رسول الله ﷺ قال: ((هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ))»[8].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 642/1-643. ودلائل النبوة، البيهقي، 130/3-132. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 150/2.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7167/23.

[3]- سبقت ترجمته في: ص234.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 714/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 331/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 119/1.

[5]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 323/1.

[6]- سبقت ترجمته في: ص150.

[7]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 296/6؛ من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. والبداية والنهاية، ابن كثير، 135/5-141. صحيح السيرة، العلي، 174. والسيرة الصحيحة، العمري، 363/2.

[8]- أخرجه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 83/9-84. وقال الهيمثي في "مجمع الزوائد، 79/6": «ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب وهو ثقة»، وحسنه العلي في "صحيح السيرة، 177". ونحوه من طريق آخر عن ابن مسعود في: **مسند أحمد**، 278/7-280.

ويظهر من كلام "بول-Buhl" أنّه يتعاطف مع "أبي جهل" رأس الكفر وعدو الله ورسوله ﷺ، وهنا تظهر النزعات العدائية للإسلام ورسوله ﷺ من طرف المستشرقين الذين يدّعون الموضوعية والتجرد من الخلفيات العقدية، ويتجاهل "بول-Buhl" ما فعله "أبو جهل" في مكة من اضطهاد المسلمين وقتل بعضهم، ومسارعته في أذية الرسول ﷺ والتحريض على قتله، بل ذكر هو نفسه قبل ذلك في هذه المادة: أنّ أبا جهل هو الذي اقترح على قريش في دار الندوة قبيل الهجرة خطّة قتل النبي ﷺ.

كلّ هذه الحقائق تجاهلها "بول-Buhl" ليتضامن مع أخ له في الكفر ويزعم أنّ الروايات الإسلامية هي التي شوّهت صورة أبي جهل، وإنّما تَحدّثت هذه الروايات عن عداوته للإسلام وإذايته للرسول ﷺ والمسلمين، ولم تقل أنّه كان بخيلا أو جبانا أو نحو ذلك، لأنّ هذه السيئات كلّها تهون أمام ما فعله "أبو جهل" من حرب ضد الإسلام والمسلمين ورسول الله في مكة.

[2]- أميّة بن خلف: جاء في مادة "**بلال بن رباح**" [**فقرة**: 4]: «**ويقال إنّه قتل أمّية بن خلف في غزوة بدر انتقاما لنفسه مِمّا لقيه على يديه من أذى فيما سبق**»[1]. المحرِّر هو: **بول** – Buhl[2].

ومن مشاهير قتلى المشركين يوم بدر: **أمية بن خلف**؛ فقد أسره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بعد المعركة وأسر معه عليًّا ابنه، فرآه بلالُ بن رباح رضي الله عنه، وكان هو الذي يعذب "بلالا" على ترك الإسلام بِمكة، فقال بلال: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا»، واستصرخ عليه الأنصار فأعانوه على قتله هو وابنه عليّ[3].

[3]- حنظلة بن أبي سفيان: جاء في مادة "**[أبو] سفيان**" [**فقرة**: 6]: «**وقد لقي حنظلة -ابن أبي سفيان البكر - حتفه في هذه الوقعة، كما أُسر عمرو وهو ابن آخر له، ولكنه افتدي فيما بعد بأسير من أنصار النبي خرج حاجاً فاعتقله أبو سفيان**»[4]. المحرِّر هو المستشرق: **بول** – Buhl.

من مشاهير قتلى المشركين يوم بدر: **حنظلة بن أبي سفيان**، قتله زيد بن حارثة[5].

أمّا أخوه **عمرو بن أبي سفيان**: فوقع أسيرا بِيد المسلمين يوم بدر، قال ابن هشام: أسره علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأبى أبو سفيان أن يفتديه، حتّى خرج سعد بن النعمان الأنصاري - وكان شيخا

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 73/4.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 604/4. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 632/1؛ من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 708/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 331/1.

مسلما- إلى مكة معتمرا، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بِمكة، فحبسه بابنه عمرو، فمشى قوم "سعد" بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأعطاهم عمرو بن أبي سفيان، فافتدوا به سعدا[1].

الفرع الثاني : معاملة أسرى بدر

- جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 71]: «**وقد قتل في الموقعة عدد من أهل مكة، من بينهم أبو جهل، بينما أسر عدد آخر منهم العباس عم النبي ﷺ وسيقوا أسرى إلى المدينة، حيث أمر محمد ﷺ بقتل اثنين منهم هما: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، وعرض إطلاق سراح الآخرين مقابل الفدية**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

تكلم "بول -Buhl" في هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ" عن بعض أسرى بدر، وذلك أنّه أُسر يوم "بدر" سبعون من معسكر قريش، فكان الرسول ﷺ رفيقا بالأسرى، يحسن معاملتهم، ولا يهدر آدميتهم، بحيث كان ﷺ يوصى بالأسرى خيراً، ولَما أُسر مَن أسر في غزوة بدر، نزلوا في بيوت الأنصار، وكأنهم في ضيافة لا في أسر، مما لا نجد له مثيلا في تاريخ الإنسانية[3]، كما جاء في قصّة "أبي عزيز بن عمير" أخي "مصعب بن عمير" وذلك لقول النبي ﷺ: ((اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا))[4].

كانت معاملة النبي ﷺ للأسرى تَحفّها: الرحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدعوية؛ ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله عليه الصلاة والسلام؛ فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منَّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل الْمنّ عليهم[5].

[1]- الفداء والْمَنّ: أخذ رسول الله ﷺ الفداء من الأسرى أصحاب المال والثراء، وكان النبي ﷺ يسير في الفداء على حسب الحالة المالية للأسير، وفي العفو بالْمنّ على من يرى فيه كسبا للمسلمين[6].

وذكر "بول -Buhl" من بين الأسرى الذي افتدوا أنفسهم من الأسر يوم "بدر": العباس بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ: الذي دفع مائة أوقية[7] من الذهب فديةً[8] مقابل إطلاق سراحه.

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 650/1-651. والإصابة، ابن حجر، 73/3.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9138/30-9139.

[3]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 709/2 و770. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 371/2.

[4]- أخرجه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 393/22. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 645/1. وقال الهيمثي في "مجمع الزوائد، 86/6": «إسناده حسن». من حديث أبي عزيز بن عمير الذي كان من الأسرى يوم بدر.

[5]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 101/3. وفتح الباري، ابن حجر، 184/6. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 430.

[6]- ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 69/4. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 770/2.

[7]- **الأوقية**: وحدة وزن قديمة، تساوي أربعين درهما. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 324/2. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وآخرون، 742/1.

[8]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 141/3. وفتح الباري، 402/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 369/2.

تعامَل النبي ﷺ بالفداء مع أكثر أسرى بدر على حسب وضعهم المالي، ومنّ على بعضهم ممن لا مال له لِمصالح دعوية، فقد كانت سياسة النبي ﷺ تتجه إلى الاستبقاء بدل القتل؛ عسى أن يسلموا، ويكونوا قوة للإسلام، ولأن يكونوا مؤمنين –ولو مآلا– خير من أن يُقتلوا كفارا في عجلة الحرب[1].

وهو ما وقع بالفعل حيث أسلم بعد ذلك كثير من أسرى بدر، منهم على سبـــيل المثال: العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وسهيل بن عمرو ﷺ وغيرهم[2].

[2]– التعليم: وكان في الأسرى من يعرف القراءة والكتابة، ولم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، فكان من لا مال له منهم يُقبل منه أن يعلِّم عشرة من الغلمان الكتابة ويُخلي سبيله؛ وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلّم عشرة من الغلمان يفدي نفسه[3].

وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدَل الفداء في هذا الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال، يرينا سموّ الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1][4].

[3]– القتل: أما من قُتل من الأسرى فهم الاثنين فقط الّذَين ذكرهما "بول Buhl-" في مادة "محمد"، حيث أمر النبي ﷺ في طريق عودة الجيش إلى المدينة بقتل "عقبة بن أبي معيط"، و"النضر بن الحارث"؛ وكانا يؤذيان المسلمين بِمكة ويشتدّان في عداوتهما لله ولرسوله ﷺ؛ فهما من أئمة الكفر ومجرمي الحرب[5].

فكان لابد من الحزم مع مجرمي الحرب ورؤوس الفتنة من أمثال "عقبة بن أبي معيط" و"النضر بن الحارث"، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولا سيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورعا على سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتْلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام[6].

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 769/2.

[2]– ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 217/5–218. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 333/1.

[3]– ينظر: مسند أحمد، 92/4. والروض الأنف، 167/5. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 119/1.

[4]– السيرة النبوية، أبو شهبة، 165/2.

[5]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 102/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 370/2.

[6]– السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 370/2. وينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 138. وخاتم النبيين، 771/2.

الفرع الثالث : تداعيات الغزوة وآثارها

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

- جاء في مادة "**بدر**"[فقرة: 2]: «**وقد أدّى إلى قيام هذه الموقعة عدة حوادث متعاقبة، وهي في ذاتها ليست كبيرة الشأن، وإنّما تنحصر أهميّتها في أنّها وطّدت سلطان النبي وكانت سببا في انتشار الإسلام بعد ذلك.**

والحقّ أنّ مقدرة النبي تَجلّت في هذه الموقعة، فقد نفخ في روح أتباعه الذين هالهم التفاؤهم الفجائي بأهل مكة، فاكتسحوا أعداءهم الذين يفوقونهم في العدد، وجاء في قصيدة حمزة أنّ المكّيّين كان عددهم ألف مقاتل في حين لَم يزد عدد المسلمين على ثلثمائة رجل»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نبيّ الإسلام**" [فقرة: 72]: «**وقد أضحى لِموقعة بدر هذه التي قد تبدو لأعيننا صغيرة غير ذات شأن، أهمية كبرى في تاريخ الإسلام، وقد رأى محمد ﷺ في هذا النصر تأكيدا قويا لإيمانه بوحدانية الله وبرسالته،** ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ **سورة الأنفال آية (17)**، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ **سورة آل عمران آية (123)، وحيث إن مدينة مكة التجارية كانت تتمتع بسمعة عظيمة في شبه الجزيرة العربية، كان لابد للمنتصر على قواتِها في معركة أن يجذب اهتمام الكافة إليه. ولذا فقد رأى محمد ﷺ نشاطا أكبر من ذي قبل واستطاع أن يستغل المزايا التي أحرزها**»[3].

المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- آثار المعركة وأهميّتها السياسية والعسكرية والدعوية: حاول "بول-Buhl" في النصين المذكورين من مادتي "بدر" و"محمد ﷺ" التقليل من أهميّة انتصار جيش المسلمين في "غزوة بدر"، واعتبرها موقعة صغيرة الشأن في رأيه، لكنّه ذكر أنّ التاريخ الإسلامي يعتبرها موقعة عظيمة الشأن، لذا سأتطرّق إلى الردّ على رأي المستشرق "بول"، من خلال بيان بعض النقاط التي تبيّن أهمية الغزوة على الصعيد الداخلي والخارجي سياسيا وعسكريا ودعويا - وبعضها أشار إليه في المادتين-، وهي كالآتي:

أ)- من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأصبح على من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فعلته،

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/444-445.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9138-9139.

وتعززت مكانة الرسول ﷺ في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، و لم يعد المتشككون بالدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهرًا أمام النبي ﷺ وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطنًا، فظلوا في عداد الكفار[1].

نجد "بول-Buhl" نفسه يقرّر هذه التداعيات الداخلية للغزوة في نصه المذكور من مادة "بدر" حين يقول: «**وإنّما تنحصر أهميّتها في أنّها وطّدت سلطان النبي وكانت سببا في انتشار الإسلام بعد ذلك**».

إن توطيد المعركة لسلطان النبي ﷺ في المدينة، والتأثير في انتشار الإسلام داخل المدينة وخارجها ليس بالأمر الهيّن الضئيل الشأن، بل هو تقدّم مهمّ أحرزته "غزوة بدر"، فالعجب من المستشرق كيف يتجاهل هذه النتيجة المهمة التي قرّرها هو نفسه، ويرى بأنّ الغزوة لم تكن ذات شأن.

ب)- كانت أصداء "غزوة بدر" عميقة في المدينة ومكة وأرجاء الجزيرة العربية، فقد هددت المعركة طرق تجارة المكيين وهي عصب حياتِهم، وأضعفت هيبةَ مكة ونفوذها على العرب، ونَمّت قوة الإسلام وعززت دولته الجديدة في المدينة، وانفسح المجال لنشر دعوته[2].

وهي النقطة التي يشير إليها قول "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ": «**وحيث إن مكة التجارية كانت تتمتع بسمعة عظيمة في الجزيرة العربية، كان لابد للمنتصر على قواتِها أن يجذب اهتمام الكافة إليه**»؛ فقرّر في هذا النصّ التداعيات الخارجية لغزوة بدر.

لكن ما أقرّه هنا في مادة "**محمد** ﷺ/فقرة:72"، يناقض كلامه السابق في مادة "**بدر**/ فقرة:2" عندما قال: «**وإنّما تنحصر أهميّتها في أنّها وطّدت سلطان النبي وكانت سببا في انتشار الإسلام بعد ذلك**»؛ فالملاحظ أنّ "بول-Buhl" لم يلتزم بحصر أهمية المعركة في الجوانب التي ذكرها في مادة "بدر" فحسب، وإنّما تعدّاها إلى الكلام عن بعض التداعيات الأخرى للغزوة في موضع آخر من "دائرة المعارف" كما في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ" الذي يشير فيه إلى الأهمية الاقتصادية والسياسية للمعركة في شبه الجزيرة العربية، وفي مقابل ذلك تأثيرها السلبي على السمعة التجارية والقيادية لِمعسكر قريش.

ومن هنا **وقــع** المستشرق في **تناقض من وجهين:**

الوجه الأول: عندما حصر أهمية معركة "بدر" في بعض الجوانب في مادة "بدر"، ثم تجاوزها إلى جوانب أخرى أوسع وأعمق منها في مادة "محمد ﷺ".

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 170/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 438. وعن إظهار جماعة من المشركين في المدينة الإسلامَ نفاقا ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 291/8. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 780/2.

[2]- ينظر: سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 329/2-330. والسيرة الصحيحة، العمري، 372/2.

والوجه الثاني: أنّه تناقض عندما قلّل في استنتاجه من شأن انتصار غزوة بدر، ثُمّ بيّن في تحليله للمعركة في مادتي "بدر" و"محمد ﷺ": جوانب الأهمية البالغة للغزوة بالنسبة لِمعسكر المسلمين على الصعيد الداخلي في المدينة والخارجي في جزيرة العرب؛ سياسيا وعسكريا ودعويا، وكفا بهذه الجوانب دلالة على الأهمية الكبرى للانتصار في المعركة.

لذا يمكن القول أنّ تحليل "بول-Buhl" المبيِّن لجوانب الأهمية الكبرى للمعركة، يناقض النتيجة التي طرحها في مطلع نصّيه المذكورين من مادة "بدر" و"محمد ﷺ": وقلّل فيها من شأن "غزوة بدر"، وبذلك يُعلم أنّ طرح المستشرق "بول" للقضية بعيد عن المنهج العلمي الموضوعي، بل هو استنتاج ذاتِيّ يعبّر عن نزعاتٍ عدائية وخلفيات عقدية منعته من التعبير عن أهمية غزوة بدر فيما يديه من آراء واستنتاجات، بينما عبّر عنه في تحليله للموضوع، والمفروض أن تكون نتيجته موافقة لتحليله، لأنّ المنهجية العلمية الموضوعية تفرض أن تكون النتائج موافقة للمقدمات وتحليل الوقائع الذي يبيّن أهمية الغزوة سياسيا وعسكريا ودعويا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ج)– لقد كان الرهان في هذه المعركة على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أيّ الفريقين، حيث كانت مطامح أبي جهل أن يكون مقود العرب بيده بعد بدر، ولا تزال العرب تهابه أبدا، وإذا بنصر الله يتنزل فتنقلب الموازين، ويتأرجح التاريخ، ويصبح مقوده بيد المسلمين، ومنذ ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث، بل صاروا صناع أحداثه في بدر وبعدها، وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره، فقد سقط قادة الكفر صرعى في هذه المعركة، مثل: أبي جهل بن هشام المخزومي، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، وغيرهم[1].

هُزمت قريش وأسر زعماؤها وتحطمت كبرياؤها، وظهرت حقيقة آلهتها الزائفة وعقائدها الباطلة، فكانت نتائج المعركة بعيدة الأثر في حياة المسلمين، ذلك أنّه قد قُتل جلّ زعماء الشرك الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ والمؤمنين، وفي مقابل ذلك: كان مقتل زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين قوة وبأسًا، خسارة حربية فادحة لقريش، وتهديدا لسيادتها ونفوذها في الحجاز كله[2].

د)– لقد كانت موقعة بدر فاصلة في تاريخ الإسلام لذلك سماها الله تعالى في كتابه بـــ"**يوم الفرقان**" لأنها فرقت بها بين الحق والباطل، وفيها حققت العقيدة الإسلامية انتصارات كبيرة، فقد ظهر استعلاؤها على سائر المصالح والمطامح والعلائق الدنيوية، فهاهم الأنصار يعلنون قبل بدئها أن التزاماتهم تجاه العقيدة لا تحدها اللوائح والعهود التي قطعوها في بيعة العقبة الثانية، بل هم جند مطيعون

[1]– ينظر: فقه السيرة، منير الغضبان، 441.

[2]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 764/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 370/2.

ومضحون من أجل عقيدتهم دون شرط ولا قيد، وها هم المهاجرون يواجهون أقاربهم في المعركة، فلا تمنعهم أواصر القربى من قتلهم لأن مصلحة العقيدة فوق كل آصرة وارتباط[1].

كما كشفت المعركة عن معدن المسلمين الأصيل، حيث علم المسلمون بأن قريشا تفوقهم في العدد والعدة، وأن عدد قوات قريش ثلاثة أمثال المسلمين، ومع أنّها أول تجربة قتال في سبيل الله، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم في العدة والعدد عزموا على الصمود إلى النهاية، كما علموا أن قافلة قريش فاتتهم، فلم يبق هناك كسب مادي يرجونه، ومع ذلك صمّموا على القتال؛ فقد كانت للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها، هي أن تترك الحرية الكاملة لهم لنشر دعوتهم وحمايتها، حتى تكون كلمة الله هي العليا[2].

شجّع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه، وقوّى عزائمهم ومعنوياتهم، فأقبل المسلمون على القتال في "بدر" بمعنويات عالية وعقيدة راسخة، فكان ذلك من أهم أسباب نصرهم في تلك المعركة الحاسمة، لأنّ معركة بدر كانت صراعا حاسما بين عقيدتين؛ فانتصرت العقيدة التي تستحق البقاء[3].

هذا الصمود القوي والعقيدة الراسخة للمسلمين يوم بدر بعد تحفيز النبي ﷺ لهم عبّر عنه "بول-Buhl" بقوله في مادة "بدر/ فقرة:2": «**فقد نفخ في روح أتباعه الذين هالهم التفاؤهم الفجائي بأهل مكة، فاكتسحوا أعداءهم الذين يفوقونهم في العدد**».

هـ)- بعد انتصار "بدر" ازدادت ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله الكريم ﷺ، واشتدّ ساعدهم وقوتهم، وازداد التضامن بين المهاجرين والأنصار قوة وتماسكا، كما دخل بعض مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب فازدادوا إيمانًا على إيمانهم وثباتًا على عقيدتهم[4].

إنّ "بول-Buhl" يصادم المعايير المنطقية لأهميّة الانتصار في أيّ معركة من المعارك، وتأثيره الكبير على معنويات الجند، ودفعهم قدما إلى التقدّم أكثر فأكثر، وإحراز النصر بعد النصر، ولو لم يكن لنصرهم أثر سياسي أو عسكري كبير، فكيف وقد كان لنصر "بدر" آثار داخلية وخارجية كبرى قرّر المستشرق نفسه بعضها.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 370/2.

[2]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 118. وفقه السيرة، البوطي، 164.

[3]- ينظر: الرسول القائد، 119-121.

[4]- ينظر: فقه السيرة، الغضبان، 434. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 438.

و)- كما تركت غزوة "بدر" إيمانا عميقا بنصر الله تعالى في قلوب المؤمنين، فشهدوا بأعينهم وأيقنوا في نفوسهم أن النصر من عند الله، وأن لله جنودا كثيرة، والله سبحانه وتعالى مع ذلك أمر في صريح الكتاب الكريم بإعداد العدة، وأخذ الأهبة للأعداء، وقد بلغ النبي ﷺ والصحابة المدى في هذا، فلم يدعوا وسيلة من وسائل القوة والنصر مما يقع تحت أيديهم وفي استطاعتهم إلا اتبعوها، وأحكموا وضع الخطط الحربية، ومع هذا كانوا على صلة وثيقة بالله، وتوكل علـــيه، ولذلك كان النبي ﷺ كثيرا ما يلجأ إلى الدعاء عند حضور المواطن، بل ويبالغ فيه كما حدث في "بدر" ليثبّت في نفوسهم هذا المعنى الكريم[1].

أشار المستشرق "بول" إلى هذه النقطة في مطلع نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ".

كَان المسلمون يوم "بدر" فِي غاية الضّعف بسبب قلّة العدد وعدم الأهبة، وأمّا الكفار فكانوا في غاية القوّة بسبب الكثرة في العدد، وَتحصيل عدّة القتال وعتاد الحرب ووسائله، لكنّ الله نصر المسلمين وهم قلة، وخذل المشركين وهم كثرة[2]؛ يقول الإمام الرازي: «ثُمّ إنّه تعالى قلب القصّة وعَكَس القضيّة، وجعل الله الغلبة للمسلمين، والدّمار على الكافرين؛ فصار **ذلك مِن أعظم الْمعجزات وأقوى البيّنات على صدق مُحمّد** ﷺ، فيما أَخبَر عن ربّه من وعد النّصر والفتح والظّفر»[3].

[1]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 173/2.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 487/15. والقول المبين، النجار، 173/2.

[3]- تفسير الرازي، 487/15.

المبحث الثاني : النشاط العسكري بين "بدر" و"أحـد"

يعرض هذا المبحث جملة من الغزوات والسرايا التي وقعت بعد غزوة بدر سنة (2 هـ)، وقبل غزوة أحد سنة (3 هـ) مما ورد ذكره في "دائرة المعارف".

المطلب الأول : غـزوة بنـي قينـقاع

الفـرع الأول : حـصـار بنـي قينـقاع وإجـلاؤهـم

أولا- عـرض نـصـوص المسـتـشـرقين:

- جاء في مادة "**عبد الله بن أبَي**" بن سلول [فقرة: 2]: «**وحدث في السنة الثانية للهجرة (624م) حين هاجم النبي ﷺ بني قينقاع أن تشـفّع لهم عبد الله بن أبَي عند النبي ﷺ لأنهم كانوا حلفاً للخـزرج قبل ظهور الإسلام.**

وقد ألح على الرسول ﷺ وقال له عنهم: هم أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود... تحصدهم في غداة واحدة، إنّي والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال له النبي ﷺ: هم لك، وأطلقهم، وربّما كان هذا الموقف من عبد الله بن أبَي لأنه أدرك أهميتهم كقوة مقاتلة في حرب قد يشنّها المكيون»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **مونتجمري وات**-M. Watt[2].

- وفي مادة "[**بنو**] **قينقاع**"[فقرة: 4]: «**ولَمّا أخرجوا من المدينة تركوا وراءهم السلاح وأدوات الزراعة فقسمها النبي ﷺ بين المسلمين بعد أن استبقى الخمس، ويختلف الناس في تقدير محاربيهم فمنهم من يجعلونهم أربعمائة رجل، ومنهم من يغالي فيقول بل كانوا سبعمائة وخمسين...**

ذلك الهجوم على بني قينقاع وقع على الأرجح في مستهل شوال من السنة الثانية للهجرة (624م)...

أقام المسلمون على حصار بني قينقاع أربعة عشر يوما استسلم بعدها بنو قينقاع دون أن يضربوا ضربة واحدة، وقيد الرجال إذ خافوا أن يقع بهم ما أشد وأنكى من ذلك، ولقد كان للتدخل الكبير من جانب عبد الله بن أبي (كبير الخزرج وقائد المنافقين) من أجل بني قينقاع أثر في تحسين مصيرهم، واكتفى في هذا الموقف بخروجهم أولا إلى الأماكن اليهودية في وادي القرى بشمالي المدينة ثم مضوا منها شطر "أذرعات" ببلاد الشام، إلا أنه لم يكن معنى هجرة بني قينقاع عن آخرهم، فقد اعتنق رهط قليل منهم الإسلام، وربّما كان ذلك بدافع من انتهاز الفرصة أكثر من أن يكون إسلاما عن نية صادقة، ومن ثم

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7157/23.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

بقي هذا الرهط يعيش في المدينة، ويشير ابن إسحاق في سيرة ابن هشام إلى ثلاثين قينقاعيا من خصوم النبي ﷺ، وربما كان هذا قبل إخراجهم»[1]. حرّر المادة: **فنسنك**-Wensinck/ و**بارت**- R.Paret[2].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 73]: «**بدأ [أي: النبي ﷺ] في محاصرة قبيلة بني قينقاع اليهودية في حصونها، ولم يَجرؤ المنافقون أن يعارضوه معارضة جادة بإبداء تأييدهم لبني قينقاع صراحة، في حين تخلت الجماعات اليهودية الأخرى عن إخوتهم في الدين، فاضطرت هذه القبيلة اليهودية الأولى إلى ترك المدينة، وهاجروا إلى مستوطنات يهودية أخرى في الشمال، ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ سورة الأنفال آية (14)**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- بداية حصارهم ثُمّ الأمر بجلائهم: كان بنو قينقاع حلفاء "عبد الله بن أَبَي بن سلول" والخزرج، وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغةً، يعملون في صناعة الحلي، فلما أظهروا صريح العداء والبغضاء وخاف النبي ﷺ خيانتَهم، استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وحاصرهم خمس عشرة (15) ليلة إلى هلال ذي القعدة، فاشتد عليهم الحصار ونزلوا على حكم الرسول ﷺ، على أن له أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بِهم فرُبطوا.

وهنا جاء تدخّل "عبد الله بن أبي بن سلول" زعيم المنافقين الذي ذكره "وات -Watt" في مادة "عبد الله بن أبي" و"فنسنك وبارت" في مادة "[بنو] قينقاع"؛ فكـــلّم النبِيَّ ﷺ فيهم حليفُهم عبد الله بن أبي بن سلول وألَحّ في ذلك قائلا: "أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة"، فقال رسول الله ﷺ: ((هُمْ لَكَ))[5]، أي: أنّه يجليهم ولا يقتلهم؛ وأمر بِهم أن يُجلوا عن المدينة، وتولّى أمر جلائهم عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري حيث تم تقسيمها بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ[6].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 27/8483-8486.

[2]- ترجمة "فنسنك" في: ص49. وترجمة "بارت" في: ص137.

[3]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9139.

[4]- سبقت ترجمته في: ص150.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/48. ودلائل النبوة، البيهقي، 3/174. من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة، وصحح إسناده إبراهيم العلي في "صحيح السيرة، 198" فقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث.

[6]- ينظر تفاصيل حصارهم وإجلائهم في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/48-49. مغازي الواقدي، 1/177-180. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 2/351-352. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/301-302.

[2]– تاريخ الغزوة: ذكر المستشرق "وات" في مادة "عبد الله بن أبيّ" سنةَ وقوع الغزوة، بينما حدّد المستشرقان "فنسنك" و"بارت" في مادة "بنو قينقاع" تأريخ الغزوة باليوم والشهر كما بيّنه الواقدي وغيره.

فقد اتفق المؤرخون على أن غزوة بني قينقاع وقعت بعد غزوة بدر الكبرى، وحدد الزهري تاريخها بأنها كانت في: شوال من السنة الثانية للهجرة[1]، ويضيف الواقدي وابن سعد أنها كانت يوم السبت للنصف من شوال، أي: بعد "غزوة بدر" بشهر[2].

وعليه ينبغي أن يحمل قول "فنسنك وبارت" في "**مستهل شوال**" على "النصف منه" كما ذكر الواقدي وابن سعد.

[3]– الأوهام التي وقع فيها المستشرقَيْن "فنسنك-Wensinck" و"بارت-Paret":

أ)– جاء في مادة "[بنو] قينقاع": أنّهم «**تركوا وراءهم السلاح وأدوات الزراعة**»، وهذا غلط ظاهر لأنّ ما ذكره المؤرخون هو أنّ "بني قينقاع" كانوا صاغة وإنّما تركوا وراءهم آلات الصياغة لا الزراعة، قال عروة: «ووجدوا في حصونهم سلاحا كثيرا **وآلةً للصّياغة**، وكانوا صاغةً»[3]، بل أورد الطبري ما يدلّ على أنه لم تكن لهم اشتغال بالزراعة، فذكر أنّه: «**لَم تكن لَهم أرَضُون**، إنّما كانوا صاغة؛ فأخَذ رسول الله ﷺ لهم سلاحا كثيرا **وآلة صياغتهم**»[4]، وهو ما ذكره غيرهما من علماء السيرة والتاريخ[5].

لكن لم يرد هذا الخطأ في النسخة الإنجليزية من "دائرة المعارف الإسلامية/طبعة 1997"[6]؛ فيُحتمل أن يكون الخطأ وقع في الطبعة القديمة (1987) التي اعتمدت عليها الترجمة العربية، ثم صُحّح في طبعة (1997) وهو الاحتمال الأقوى، ويحتمل أن يكون الخطأ وقع من المترجمين في النسخة العربية.

ب)– عدد مقاتلي بني قينقاع: جاء عند ابن إسحاق والطبري في حادثة حصار "بني قينقاع": أنّ عبد الله بن أبيّ بن سلول قال: «أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع[7] منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إنّي والله امرؤ أخشى الدوائر»[8]، وهذه الرواية صريحة في تعداد المقاتلين منهم، لذا

---

[1]– ينظر: تاريخ الطبري، 480/2.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 176/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 21/2. وفتح الباري، ابن حجر، 415/7.

[3]– مغازي الواقدي، 179/1.

[4]– تاريخ الطبري، 481/2.

[5]– ينظر: الطبقات الكبرى، 21/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 344/1.

[6]– ينظر الطبعة الأجنبية "للدائرة": "The Encyclopidia of Islam, 4/824".

[7]– **الحاسر:** الذي لا درع عليه، **والدارع:** الذي يلبس الدرع. ينظر: سبل الهدى، الصالحي الشامي، 25/5.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 48/2. وتاريخ الطبري، 480/2.

نجد ابن القيم والمقريزي يصرّحان: أنّ بني قينقاع حينئذ «**كانوا سبعمائة مقاتل**»[1]، و لم أقف على من ذكر أنّهم كانوا أربعمائة، ولعلّه وقع اللبس عليهما بعدد بني قريظة فهم من كان مقاتلوهم أربعمائة رجل[2].

ج)- أما عن **مدّة الحصار**: فذكر المستشرقان "فنسنك/ وبارت" أنّ حصار "بني قينقاع" كان أربعة عشر (14) يوما[3]، لكن ما ذكرته كتب التاريخ والسيرة أنّ الحصار دام خمسة عشر (15) يوما[4].

وهذا الخطأ ما زال مُثبَتا في النسخة الإنجليزية "للدائرة" (طبعة:1997)[5].

الفرع الثاني: أسباب إجلاء بنـي قينقاع

أولا- عرض ما جاء في "دائرة المعارف":

- جاء في مادة "[**بنو**] **قينقاع**"[فقرة: 5]: «**ولقد اضطربت العلاقات بين النبي ﷺ واليهود بعد وقعة بدر التي جرت في رمضان من السنة الثانية للهجرة (مارس 624م)، إذ اتخذ اليهود كجماعة اتجاها لا ينطوي على الود نحو الرسول ﷺ ذلك أنهم أصبحوا من وجهة النظر الدينية مصدر إزعاج للمسلمين، كما أنهم من الناحية السياسية صاروا خطرا شديدا باعتبارهم حينذاك طائفة أجنبية قوية داخل المدينة التي اهتدت منذ قريب، ولابد أن النبي محمد ﷺ قد أجمع العزم على إخراج أعدائه بعد أن أدرك ما بلغه موقفه من القوة والثبات بعد وقعة بدر، وإذ كان بنو قينقاع يعيشون في المدينة ذاتها، فقد كانوا أول طائفة يتطلع للتخلص منها، وعلى ضوء هذا الرأي يمكن تفسير هجومه ﷺ على بني قينقاع...**

---

[1]- زاد المعاد، 170/3. وإمتاع الأسماع، 123/1.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 59/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 28/4.

[3]- وهذا ما ورد أيضا في الطبعة الأجنبية ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 4/824".

[4]- كذا في كتب السيرة والتاريخ من المصادر التي اعتمد عليها المستشرقان في مادتِهما وهي: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 49/2. وتاريخ الخميس، الدياربكري، 409/1. والسيرة الحلبية، الحلبي، 285/2. وأيضا في المصادر التي لم يذكرها المستشرقان كما في: مغازي الواقدي، 177/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 22/2. وتاريخ الطبري، 480/2. وغيرها.

ملاحظة: إن كان مقصدهما أنّ ليلة الخامسة عشر لا تدخل في الحساب، لأنّ الظاهر أن الحصار انتهى في تلك الليلة كما ذكر المؤرخون، فهذا غير دقيق لأنّ الظاهر أنّ الحصار بدأ في نهار اليوم الأول، فإذا جمعنا هذا النهار إلى الليلة الأخيرة يتحصّل لدينا (15) يوما، لذا نجد المصادر المعاصرة ذكرت أنّ مدّة الحصار كانت خمسة عشر يوما، كما في: القول المبين، النجار، 293. والرسول القائد، محمود شيت، 154. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 388؛ وغيرها.

وهناك **احتمال آخر**: قد يكون وراء التقدير الذي ذكره المستشرقان، هو أنّ عبارة المؤرخين المتقدمين -الذين قالوا: "خمسة عشر ليلة"- لا تعني أنّ الحصار بلغ "15 يوما" كاملة، فيكون معنى قولهم على الأقلّ: 14 يوما وليلة واحدة، وفي كلا الاحتمالين [أي: 15 يوما/ أو 14 يوما وليلة] فإنّ التقدير الذي ذكره المستشرقان ليس دقيقا، فكان عليهما على الأقل التقيّد بعبارة المؤرخين في ذلك.

[5]- ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 4/824".

وإن ما يسوقه الكتاب المسلمون من أسباب معينة للهجوم إنما هي تدخل في باب الأخبار، وضمن ما قيل إن بني قينقاع سلكوا سلوكا مستهجنا»[1]. حرّرها: **فنسنك** -A.J.Wensinck/**بارت**-R.Paret.

ثانيا- التحليل والمناقشة: عَرْض المستشرقَيْن "فنسنك –Wensinck" و"بارت -Paret" للحادثة وتحليلهما لَها جاء غير متكامل؛ بحيث لم يعرضا الأسباب الأساسية للحادثة، كما كان ذكرهما لبعض الأسباب ناقصا ومضطربا، وفق **منهجية "الانتقاء الكيفي"** فلا يذكران من الحادثة إلاّ ما يساعدهما على ما يطرحانه من فرضيات، وإذا بَـنَيا استنتاجاتهما على معطيات ناقصة وغير متكاملة؛ فإنّ تلك الاستنتاجات ستكون غير دقيقة، ولن تقدّم العرض والتفسير الصحيح للحادثة.

واعتذرا لِهذا العرض الناقص بالقول "**أن ما يسوقه الكتاب المسلمون من أسباب معينة للهجوم إنما هي تدخل في باب الأخبار**"، لكن هل غفلا عن كون الأخبار والروايات التاريخية هي المادة التي يبني عليها الباحث في التاريخ ما يطرحه من تحليلات وتفسيرات للأحداث؟ وهل يعتمد المستشرقان فيما يقدّمانه من تفاصيل الحادثة إلاّ على الأخبار والروايات التاريخية في الموضوع؟

إنّ هذا الكلام إنّما يعبّر عن المعايير المزدوجة في تقدير الأمور، وأنّهما ينفيان ما يثبتانه في الوقت نفسه.

إنّما العتب عليهما في الاعتماد على بعض الروايات التي تقدّم جزء من وقائع الحادثة، وإغفالهما للبعض الآخر منها لا عن جهل وعدم إحاطة بِها، أضف إلى ذلك أنّ هذا الانتقاء ليس نابعا عن خلفية علمية موضوعية، وإنّما هو انتقاء كيفي تحكمه النزعات والخلفيات الفكرية للمدرسة الاستشراقية.

[1]– أمّا **الأسباب الحقيقة لغزوة بني قينقاع**، فيمكن إيجازها فيما يلي:

– **السبب (1)**: تعبّر عنه **الحادثة الأولى** وما توحيه من دلالات كانت من الأسباب المباشرة للغزوة؛ حيث جاء عن ابن عباس ﷺ أنّه قال: «كان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال: ((يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اِحْذَرُوا مِنْ اللهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِنْ النِّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا[2]؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ))، قالوا: «يا محمد إنك ترى أنّا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[3]، ثُمّ قال ابن عباس: «ما نزل هؤلاء الآيات إلاّ فيهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 27/8483-8484.

[2]– خطاب النبي ﷺ هذا لا يعني أن سبب جلاء بني قينقاع يعود إلى رفضهم قبول الإسلام، ففي هذه المرحلة كان الإسلام يقبل التعايش السلمي معهم، ولم يكن النبي ﷺ يشترط على أحد من اليهود أن يدخل في الإسلام مقابل بقائه في المدينة المنورة، وإنما يعود سبب الجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية؛ انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة المنورة. كما أفاد العمري في "السيرة الصحيحة، 300/1".

[3]– وفي لفظ أبي داود ولفظ آخر ابن إسحاق [سيرة ابن هشام، 552/1] أنّهم قالوا: «يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا».

سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: 12-13]»[1].

هذه الرواية فيها كثير من الإيحاءات والدلالات التي تبيّن بعض أسباب الغزوة، وأذكر منها:

– **الدلالة الأولى: إظهار الغيظ من نصر المسلمين بَدَل العكس:** لَمّا انتصر المسلمون في غزوة بدر انتصارًا كبيرًا على قريش، ساء اليهود هذا النصر، فهو أمر لم يكونوا يتوقعونه بحال، لقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدر، وأن تقوى شوكتهم، وأن يعز الإسلام ويظهر على دينهم ويكون لرسوله دونهم الحظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي ﷺ؛ وصاروا يرجفون بالمدينة ويغمزون المسلمين، ويَبدو أنّ الرسول ﷺ استشعر من بني قينقاع الغيظ من نصر المسلمين في بدر؛ فرأى الرسول ﷺ أن يعظهم بالحسنى ويدعوهم إلى ترك المعاندة والدخول في الإسلام، وذهب رسول الله ﷺ إلى يهود بني قينقاع واجتمع بهم في سوقهم ووعظهم وذكّرهم، فكشف جوابهم بوضوح مدى الحسد والغيظ الذي في نفوسهم[2] كما تفصّله رواية ابن عباس ﷺ المذكورة.

قال ابن سعد: «فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد»[3].

– **مفارقة هامة:** هنا يبيّن الشيخ الغزالي مفارقة ينبغي التنبّه لها في هذا المقام فيذكر: أنّ المسلمين في مكة كانوا يتحمسون للنصرانية في صراعها مع المجوسية، ويحزنون لانكسار الروم أمام الفرس، لأن المسلمين أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد، والنصارى –وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحقّ بالخرافة– فهم أهل كتاب، ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار؛ فالرغبة في انتصار النصرانية على الوثنية الصريحةِ الشركِ ضرب من الوفاء للإسلام، بينما كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار الفرس، وعدّوه رمزا لغلبة الوثنية في كلّ صورها على أديان السماء جملة.

فما معنى أن يغضب اليهود الموحدون– كما يزعمون– من انتصار الإسلام على الشرك؟ وبِم يُفسّر حنوهم على القتلى من عبدة الأصنام، وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد؟!

---

[1]– أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الخراج والغيء والإمارة، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، 161/8. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 47/2. وحسنه ابن حجر في "فتح الباري، 415/7".

[2]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 812/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 394/2. وسيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 189/2. وفقه السيرة، البوطي، 170. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 387.

[3]– الطبقات الكبرى، 22/2.

إنّ التفسير الوحيد لهذا الموقف أنّ اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأنّ سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، وأنّهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة[1].

– **الدلالة الثانية: إظهار الروح العدائية:** كما يشير جواب بني قينقاع للنبي ﷺ إلى مجاهرتهم بعداوة المسلمين وإظهارهم روحا عدائية وتحديا واستعلاء واستعداداً للقتال[2]، يقول أكرم العمري: «السبب الحقيقي في ذلك [أي: غزوة بني قينقاع] هو إخلالهم بالأمن ومجاهرتهم بالعدوان، مما جعل الرسول ﷺ يقتنع بعدم إمكان العيش معهم بسلام»[3].

ذلك أنّ هذا التحدي السافر وإظهار الروح العدائية[4] لم يقف عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك؛ بعد وقوع الحادثة الثانية، وما كان فيها من استهتارٍ بعرض المرأة المسلمة وقتل أحد المسلمين؛ وبالتالي انتهى هذا التحدي اللفظي إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة.

فانتقلوا من الإساءة بالقول إلى الإساءة بالفعل، وهم على كثب من المسلمين، وكانوا يجاهرون بنقض العهد وأنهم لا يحترمونه، ويتناولون النبي ﷺ والمؤمنين بالذم والأذى، فاندفعوا نحو العدوان، و لم يعودوا يسيطرون على أفعالهم وأقوالهم التي تنمّ عن الغضب والحقد المتأجّجَيْن[5].

– **السبب (2): تعبّر عنه الحادثة الثانية:** التي أوردها ابن هشام عن أبي عون قال: «كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديًا، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع»[6]؛ «وهكذا طارت الشرارة، ووقعت الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع»[7].

---

[1]– فقه السيرة، الغزالي، 242-243.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 301/1.

[3]– المصدر نفسه، في الموضع نفسه.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، 300/1.

[5]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 813/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 372/2.

[6]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 48/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 319/5. قال العمري "السيرة الصحيحة، 300/1": «هذه الرواية ضعيفة؛ في إسنادها انقطاع بين ابن هشام وعبد الله بن جعفر المخرمي، ثُم إنها موقوفة على تابعي صغير مَجهول الحال هو أبو عون، ولكن **يستأنس بها من الناحية التاريخية**، فقد أوردها معظم مصادر السيرة».

كما أورد القصّةَ: الواقدي في "المغازي، 176/1" من مرسل محمد بن كعب القرظي.

[7]– فقه السيرة، الغزالي، 241.

– **دلالة الحادثة: الإخلال بالأمن الداخلي:** لقد كان اليهود قبل ذلك يتطاولون على المسلمين بالسب والأذى، والتحامل، وعدم صون لسانهم عن المسلمين والإسلام، والنبي ﷺ يصابرهم ويوفي بعهدهم، حتى وقع منهم "القتل، وهتك العرض"، فنقضوا العهد بأقبح طريقة؛ عندئذ كان لا بد من الحرب دفاعا عن الفضيلة وعفة النفس، وإلا تعرض المسلمون وسلطانهم للخطر[1].

– **السبب (3): نقضهم للعهد:** كانت نتيجة الحادثتين السابقتين أن انخلع يهود بني قينقاع من العهد وأعلنوا العداء والتحدي، حيث روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة: «أنّ بني قينقاع كانوا أوّلَ يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ»[2]، وقال الطبري: «فلما قتل رسول الله ﷺ مَن قتل ببدر مِنْ مشركي قريش، أظهروا له الحسد والبغي... **وأظهروا نقض العهد**»[3].

– **السبب (4): الخوف من خيانتهم:** قال الزّهري عن عروة: «نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: 58]، فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال الرسول ﷺ: إنّي أخاف مِن بني قينقاع، قال عروة: فسار إليهم رسول الله ﷺ»[4].

لقد كان لِخوف النبي ﷺ من خيانتهم أمارات وعلامات، منها:

أ)– نقمتهم الشديدة على الإسلام ونبيّه ﷺ وتحيزهم المعيب إلى الوثنية في نضال الإسلام معها[5].

ب)– كما كان اليهود في المدينة يثيرون الأحقاد القديمة بين المسلمين من الأوس والخزرج ويسعون للوقيعة بينهم، وأورد ابن إسحاق عدة روايات في هذا الشأن[6] تراجع هناك.

ج)– أضف إلى ذلك أنّ بني قينقاع يسكنون داخل المدينة في حي باسمهم، فهم أكثر قبائل اليهود احتكاكًا بالمسلمين، وكان وجودهم هذا مما يثير حفائظهم، كما كان يشكل في الوقت نفسه خطرًا على كيان المدينة اليثربية لو فوجئت بهجوم خارجي وحدّثتهم أنفسهم بالخيانة[7].

فكان الهدف من إجلائهم أن يستقرّ الأمر فيها للمسلمين، وتكون المدينة قاعدة أمينة للمسلمين يرتكزون عليها في العمليات العسكرية المقبلة[8].

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 2/813-814. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 388.

[2]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/47. وتاريخ الطبري، 2/479.

[3]– تاريخ الطبري، 2/479.

[4]– المصدر نفسه، 2/480.

[5]– فقه السيرة، الغزالي، 242.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 1/550-557.

[7]– ينظر: المنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 2/283. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 387. وتاريخ اليهود في بلاد العرب، المستشرق ولفنسون، 128.

[8]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 154.

لقد اتّسع صدر النبي ﷺ في البداية لِمثل هذه المضايقات وكان يصابرهم ويوفي بعهدهم، رغم كلّ ما أبدوه من أذىً ومكائد ودسائس، حتى طفح الكيل عندما انتقل هذا الفريق إلى النكث بالعهد والغدر والمجاهرة بالعداء الذي تبدّى في الحادثتين السابقتين اللتين كانتا السببين المباشرين للغزوة بعد مقدمات وتراكمات سابقة[1]، فكانتا بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، لأنّ الغزوة وقعت بعد تتابع عدّة أحداث استدعت تنظيف المدينة من هذه الفرقة المرجفة ليستتبّ الأمن الديني والسياسي فيها.

[2]– استدراكات على ما جاء في مادة "[بنو] قينقاع": بعد بيان الأسباب التفصيلية للحادثة يمكن الاستدراك على بعض التفسيرات التي قدمها "فنسنك –Wensinck و"بارت-Paret" في الفقرة المذكورة من مادة "[بنو] قينقاع" على النحو الآتي:

أ)– قولهما: «**لقد اضطربت العلاقات بين النبي ﷺ واليهود بعد وقعة بدر**»، هذا الكلام صحيح من حيث العموم، لكنّهما بعد ذلك لم يحسنا تفسير وبيان كيفية هذا الاضطراب الذي حصل بينهما.

– حيث ذكرا بعد ذلك أنّ "**اليهود كجماعة اتّخذوا اتجاها لا ينطوي على الودّ نحو الرسول ﷺ ذلك**"، وهذا الكلام أيضا يحتاج إلى توضيح، وبيانه فيما سبق إيراده من أحداث وتداعياتها، وملخّصها كالآتي:

– أظهر بنو قينقاع الغضب والغيض من انتصار التوحيد على الشرك في "بدر"، عوض أن يبدوا الفرح بهذا النصر لكونهم أهلَ كتاب.

– أظهروا روحا عدائية فيها نبرة تحدٍّ واستعلاء في مخاطبة النبيِّ ﷺ في سوقهم بعد "بدر".

– و لم يكتفوا بذلك فنقضوا العهد حين آذوا المرأة المسلمة في عرضها وقتلوا الرجل المسلم في سوقهم.

– كما وقعت صنوف من الأذية والمكر بالمسلمين من يهود المدينة قبل "بدر" وبعدها لكن النبي ﷺ كان يصبر عليهم، إلى أن وقعت تلكم الأحداث التي استدعت تأديبهم وإيقافهم عند حدّهم حتى يستتبّ الأمن والاستقرار داخل المدينة.

بعد بيان هذه الوقائع التي تدلّ على "**اتّجاه لا ينطوي على الودّ**" يُستساغ للمستشرقَيْن القول بأنّ "**اليهود أصبحوا من وجهة النظر الدينية مصدر إزعاج للمسلمين**"، لكنّ اكتفاء المستشرقَيْن بالعبارة السابقة دون بيان، يوقع القارئ في اللّبس حول خلفيات هذه النظرة الانزعاجية من المسلمين لهم.

[1]– ينظر: سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 189/2. وفقه السيرة، البوطي، 168. وتاريخ اليهود في بلاد العرب، ولفنسون، 123-124.

ب)– قولهما: «**أنهم من الناحية السياسية صاروا خطرا شديدا باعتبارهم حينذاك طائفة أجنبية قوية داخل المدينة**»؛ صحيح أنّ "بني قينقاع" كانوا أقوى اليهود وأشجعهم كما بيّنت الروايات[1]، لكن ليس لذلك علاقة بالحرب عليهم لولا ما أبدوه من غدر ونقض للعهد، بحيث صار لا يؤمن جانبهم من خيانة داخلية أو مؤامرة مع عدوّ خارجي ضدّ المسلمين.

ج)– أمّا قولهما: «**وإذ كان بنو قينقاع يعيشون في المدينة ذاتها فقد كانوا أول طائفة يتطلع للتخلص منها**»، فهذا الكلام لا يمكن أن يستقيم لو بيّن المستشرقان الحوادث التي تقدّمها الروايات حول أسباب الغزوة، والتي توضّح كيف أنّ بني قينقاع هم من كانوا يضمرون نقض العهد والغدر بالنبي ﷺ والمسلمين على ما سبق تفصيله، حتى انتهى إلى إظهاره علانية، ولو التزموا بالعهد وحقوق الجوار، ما كان النبي ﷺ ليجليهم ولبقوا في المدينة آمنين موفورين[2].

لكن "فنسنك -Wensinck/ وبارت -Paret" أغفلا إيراد الوقائع التاريخية للحادثة التي سبق بيانها، لِما فيها من مبرّرات موضوعية وعملية للغزوة، اعتمادا على **منهجيّة الانتقاء الكيفي**، واكتفيا بالتعبير عنها بأنّها "أخبارٌ عن سلوك مستهجن سلكه يهود بني قينقاع"، وحاولا التقليل من أهمية تلكم الروايات في تفسير الحادثة، مع أنّها تتضمّن إيحاءات ودلالات لا يُستغنى عنها في الموضوع.

ثم إنّنا نلمح من النصوص السابقة للمستشرقين في مادة "عبد الله بن أُبَيّ" ومادة "[بنو] قينقاع" نبرةَ تعاطف من المستشرقين مع "يهود بني قينقاع"، الأمر الذي جعلهم يقعون في مثل تلك التفسيرات المجانبة للصواب، والأخطاء العلمية المخالفة للوقائع التاريخية للسيرة النبوية.

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 21/2. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 123/1.

[2]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 242.

المطلب الثاني : بقية الغزوات والسرايا قبل "أحد"

الفرع الأول : غزوة السويق

– جاء في مادة "**سويق**": «**وقد ركب أبو سفيان على رأس شرذمة من الفرسان قاصداً المدينة سنة (2هـ) للانتقام من غزوة "بدر"، ووقعت قرب المدينة بعض المناوشات القليلة الشأن، وما إن ظهر النبي ﷺ وصحبه حتى لاذ أبو سفيان بأذيال الفرار، وألقى أهل مكة أثناء هربهم بِمؤونتهم وخاصة السويق فجمعها المسلمون، وقد خلدت السيرة هذا الحادث فأطلقت عليه اسم "غزوة السويق"**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **روسكا** - J.Ruska[2].

تكلم المستشرق "روسكا -Ruska" في هذا النص بدقّة عن "غزوة السويق" التي وقعت بعد "بدر" و"غزوة بني قينقاع": في ذي الحجة من السنة الثانية (2 هـ) للهجرة[3].

[1]– **سببها**[4]: بعد هزيمة جيش قريش في "بدر"، أورث ذلك حقداً كبيرا عند كبراء قريش الذين بقوا من معاندي النبوة ومحاربي الدعوة المحمدية، وأخص من تألّم منهم "أبو سفيان" الذي آلت إليه زعامة قريش بعد "أبي جهل" و"عقبة بن أبي معيط"، وقد نذر أبو سفيان ألا يَمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمدا ﷺ، مع هذه الحال أراد أن يبرّ يَمينه، فخرج في مائتي راكب من قريش تدفعه رغبة إنتقامية عاتية، وحين وصل أبو سفيان بقوته إلى مساكن بني النضير بأطراف المدينة المنورة في جنح الليل، نزل على "سلام بن مشكم" من سادة يهود بني النضير، فاستقبله وعرف منه أخبار المسلمين، ويظهر أنهم كانوا معهم على مودة كوّنتها عداوة النبي ﷺ والمسلمين.

ثُمّ خرج أبو سفيان فجراً من المدينة بعد أن عرف من أسرار المسلمين ما كان يعلمه بنو النضير، وأرسل رجاله حتى أتوا ناحية من المدينة المنورة يقال لها "العريض"، فحرقوا النخيل وخرّبوا، ووجدوا بها رجلا من الأنصار، وحليفا في حرث يزرعونه فقتلوهما، ثُمّ فرّوا عائدين إلى مكة.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 400/12.

[2]– سبقت ترجمته في: ص500.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 44/2. ومغازي الواقدي، 181/1. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 435.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 44/2-45. ومغازي الواقدي، 181/1. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 808/2. والرسول القائد، محمود شيت، 157-158.

[2]- **خروج النبي ﷺ في طلبهم:** بعد انتشار الخبر خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه في طلبهم، وطاردهم حتى بلغ "قرقرة الكُدر"[1]، ولكن أبا سفيان ومن معه تمكّنوا من الفرار، وألقوا ما معهم من الأمتعة، حتى يسهل عليهم الهرب، ويتخففوا من أثقالهم، فتركوا أزوادا كثيرة مِن متاعهم، وكان أكثرها من "السويق"[2]، فأخذها المسلمون، ولذلك سميت غزوة السويق، ولما رأى النبي ﷺ أن القوم أمعنوا في الفرار، عاد وأصحابه إلى المدينة المنورة.

كان في هذه الغزوة إرهابٌ شديد للمشركين، وإشعار لأولئك الأعداء باليقظة والحذر من جانب المسلمين، كما انقلب فرار أبي سفيان عليه، بعد أن كان يحسب أن تَحرّكه هذا سيرفع من شأن قريش بعد مصاب بدر[3].

الفرع الثاني : غزوة "قرقرة الكدر"

- جاء في مادة "**غطفان**"[فقرة: 3]: «**وقد كانت غطفان مثل كل البدو تقريبا تعادي محمدا ﷺ والإسلام... على حين كان محمد ﷺ حريصا على أن يحيط كل التحركات المعادية (مثلما حدث في "حملة الكدر") ضد سليم وغطفان**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **يي. فوك** -Fuck-[5].

يشير المستشرق في هذا النص إلى غزوة " قرقرة الكدر"، التي وقعت بعد "بدر" وقبل "أحد"، وذلك أنّ المسلمين لَمّا وجّهوا جهودهم للمحافظة على الحصار الاقتصادي الذي فرضوه على قريش، قامت بعض القبائل المستفيدة من تجارة قريش ومرورها بديارها بتجمعات للتحرك ضد المسلمين، حيث تجمعت جموع من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر عند ماء لبني سليم في جهة نجد، يريدون مهاجمة المدينة، فلما علم النبي ﷺ بعزمهم بادر بالخروج إليهم على رأس مائتين من أصحابه قبل أن يستفحل أمرهم، وداهمهم على الماء، فلم يجد سوى الإبل، فقد فر المقاتلون لما سمعوا بقدومه، فأقام ثلاثة أيام بالمكان ثم عاد إلى المدينة[6].

---

[1]- **القرقرة:** الأرض الملساء، و"**الكُدر**": طير في لونه كدرة عرف بها ذلك الموضع، يقع على بعد حوالي (160 كلم) من المدينة، بحيث إذا سرت من المدينة في اتجاه القصيم فهو على يمينك في ذلك الفضاء الواسع، غير أن الاسم للموضع غير معروف اليوم. ينظر: الروض الأنف، السهيلي، 270/5. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 262.

[2]- **السويق:** هو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن فيتزود به، ويخلط بماء أو سمن أو عسل، سمي بذلك لانسياقه فِي الْحلق. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 353/2. والمعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، 465/1.

[3]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 809/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 352.

[4]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7627/24.

[5]- سبقت ترجمته في: ص266.

[6]- ينظر: مغازي الواقدي، 182/1-183. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 23/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 374/2.

الفرع الثالث : قتل "كعب بن الأشرف" اليهودي

– جاء في مادة "**كعب بن الأشرف**" : «**أحد خصوم النبي محمد ﷺ بالمدينة، وهو ينسب من ناحية أمه إلى بني النضير... وقد تهود كعب تبعا لعادة يهودية ورثها من أمه من اعتناق الابن ملة والدته، وتنعته بعض القصائد بسيد الأحبار، وقد غضب أشد الغضب حين علم بهلاك الكثيرين من أشراف مكة وكبار شيوخها وأولي الأمر فيها في وقعة بدر فنـــزح إلى مكة واستغل مواهبه الشعرية (وكان ينعت بالفحل الفصيح) في تحريض قريش على قتال المسلمين، ولما عاد إلى المدينة نظم أبياتا فاضحة تغزل فيها ببعض النساء المسلمات، فلما سأل النبي ﷺ من يخلصه من هذا الرجل كعب بن الأشرف تقدم محمد بن مسلمة فجمع أربعة آخرين معه كان منهم أبو نائلة (سلكان) بن مسلمة – أخو كعب في الرضاعة، وجاءوا إلى كعب وادعوا عنده أنهم قدموا مخاصمين محمدا ﷺ واستدرجوا ابن الأشرف خارج أُطُمه[1] في ليلة مقمرة وفتكوا به رغم مقاومته الشديدة لهم، ويؤرخ الواقدي مصرعه بالرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ثلاث للهجرة (4 سبتمبر 624م)...**»[2]. المحرّر هو المستشرق: **وات** –Watt[3].

تكلّم "وات –Watt" في هذا النص من مادة "كعب بن الأشرف" عن قتل "كعب بن الأشرف اليهودي" وذكر سبب قتله وتاريخه وكيفيّته.

فـــ"كعب بن الأشرف": أبوه عربي من طيء وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق من بني النضير الذين حالفهم أبو "كعب" وتزوج منهم[4].

[1]– تأريخ الحادثة: كان مقتل "ابن الأشرف" بعد بدر وجلاء بني قينقاع، وقبل موقعة أحد؛ وحدّد تاريخها الواقدي وابن سعد والبلاذري: في الرابع عشر **ربيع الأول** من **السنة الثالثة** للهجرة (3 هـــ)[5].

لكنّ ورد في نصّ المادة أنّ تاريخ الحادثة كان في الرابع والعشرين (24)، والصواب أنّه في: الرابع عشر (14)، لذا راجعت الطبعة الأجنبية [باللغة الإنجليزية]، فوجدت التاريخ الوارد فيها صحيحا، وهو الرابع عشر (14) من ربيع الأول[6]؛ فتبيّن بذلك أنّ الخطأ ليس من المستشرق محرّر المادة، بل هو خطأ مطبعي وقع في الطبعة العربية فحسب لا في أصل المادة.

---

[1]– **الأُطُم**: وهو الحصن الذي يبنى بالحجارة، وأيضا: كل بيت مرتفع مربع مسطّح. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 122/4.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8612/27.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 51/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 303/1.

[5]– ينظر: مغازي الواقدي، 184/1. والطبقات الكبرى، 24/2. وأنساب الأشراف، 374/1. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 348/1.

[6]– ينظر الطبعة الأجنبية "للدائرة": "The Encyclopidia of Islam, 4/315".

[2]– أسباب قتل "ابن الأشرف"[1]: كان كعب بن الأشرف شديد العداوة للإسلام، مؤيّداً لِمعسكر قريش، مجاهراً بحرب الله ورسوله؛ والنبي ﷺ لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها، وكان "ابن الأشرف" يقوم في ذلك بأعمال خطيرة، تؤذي المسلمين وتؤجج النيران ضدهم، ومن ذلك:

أ)– أنه لَمّا علم بمقتل المشركين يوم بدر، غاظه انتصار المسلمين ببدر وساءه الأمر وجاهر بالعداوة للإسلام، فقال: «إنهم أشراف العرب وملوك الناس، لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها».

ب)– وأنه كان شاعرا يهجو النبي ﷺ وأصحابه ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، من غير مراعاة لكرامة، ولا لحرمة، بل كان منخلعا من كل عهد، ومن كل فضيلة.

ج)– و لم يقف عمله عند هذا الحدّ، بل إنه تجاوز ذلك حين ذهب إلى مكة المكرمة، وأخذ يحرضهم على قتال النبي ﷺ ومحاربة المسلمين، ويرثي القتلى بعبارات تؤجج نيران الحقد ليدفعهم إلى الثأر.

د)– وجعل يعلن عداوته للنبي ﷺ في المدينة المنورة ويجاهر بها، ويحرض اليهود على المؤمنين، ويلقي بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير خلق أو دين أو عهد، وكان يحرض اليهود على أن تنقض عهدها مع النبي ﷺ، و لم يترك بابا من أبواب الكيد إلا دخل إليه.

هـ)– كما أنّه بعد رجوعه من مكة جعل يشبب بنساء المؤمنين، ويشيع قالة السوء عن فضلياتهم؛ حتى أوذي المسلمون وضجروا –وليس بعد ذلك صبر– فأُهدر دمه.

[3]– أمْرُ النبي ﷺ بقتله وتنفيذه: بعد هذه الأوجه المتعدّدة من أذية "ابن الأشرف" لرسول الله ﷺ وللمسلمين؛ أمر النبي ﷺ بقتله، فقال: ((مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ))، وخلاصة قصة مقتله كما في "صحيح البخاري" وغيره: أنّه بعد أنْ انتدب الرسول ﷺ المسلمين لقتله أبدى **محمد بن مسلمة الأنصاري** ﷺ استعداده لتنفيذ أمر النبي ﷺ بقتله، واستأذنه في أن يستخدم الخديعة، فأذن له لأن "**كعباً**" صار محاربا مهدور الدم، فمضى **محمد بن مسلمة** إلى **كعب**، وطلب منه أن يقرضه تَمراً ليدفعه للرسول ﷺ مظهراً تذمّره منه لِما يكلّفهم به، فأراد "كعب" رهينة من النساء أو الأبناء فاعتذر "محمد بن مسلمة" لما يلحقهم من عار ذلك، وعرض عليه أن يرهن عنده السلاح فوافق كعب، فجاءه محمد بن مسلمة ليلاً ومعه صحابي آخر وهو أبو نائلة وهو أخو كعب

1– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/51–54. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 2/24. والبداية والنهاية، ابن كثير، 5/328–329. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/818–819.

من الرضاعة ومعهما ثلاثة آخرون من الصحابة، فنادوه فنزل إليهم من حصنه ومشى معهم فاحتالوا لقتله متظاهرين بشمّ عطر شعره، فأجهزوا عليه بسيوفهم فقتلوه، ثُمّ أتَوا النّبِيّ ﷺ فأخبروه[1].

لقد قام اليهودي "ابن الأشرف" بجرائم كثيرة، وإساءات متعددة لرسول الله ﷺ وللمسلمين والمسلمات، وكل جريمة من هذه الجرائم تستوجب عقوبة القتل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلها، كما أنّ مقتل كعب بن الأشرف بهذه الطريقة يتناسب مع مستوى العداء الذي كان يخطط له والجرائم التي ارتكبها[2]؛ قال البيهقي: «إنّ كعب بن الأشرف كان مستحقّا لقتله لِما ظهر من غدره ونقضه العهد مع كفره»[3].

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، 7/420-421. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، 12/223-226. من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/54-56. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 1/303.

[2]- ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 463. وفقه السيرة، الغضبان، 634.

[3]- دلائل النبوة، 3/193.

المبحث الثالث : غـــزوة أحـد؛ وقائعها ونتـيجـتها

يقدّم هذا المبحث نظرة "دائرة المعارف" لغزوة "أُحُد" من حيث أسبابها ومقدّماتِها ووقائعها، وكذا نتيجتها، وما حدث في أعقابِها.

المطلب الأول : أسباب غزوة أحد ومقدماتها

الفرع الأول : أسباب الغزوة

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أحد**"[فقرة: 1]: «**والمكيون الذين أخذوا يعدّون للثأر من هزيمة "بدر" عسكروا في حقول القمح...**»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 74]: «**وفي العام الثالث الهجري (624–625م) واصل محمد ﷺ هجومه على قوافل مكة، مما رأت قريش معه في النهاية ضرورة اتخاذ إجراءات أقوى والثأر لأنفسهم من هزيمة بدر، لذلك أعدّت جيشا... خرج في مظاهرة كبيرة قاصدا المدينة**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

ثانيا- التحليل والمناقشة: ذَكر المستشرق "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" أنّ أسباب غزوة "أحد" ترجع إلى سببين هامين، **الأول**: الثأر من هزيمة بدر، **والثاني**: محاولة إنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين، في حين اقتصر في مادة "أحد" على السبب الأول فحسب.

– **فالسبب (1)**: هو **الثأر من هزيمة "بدر"** (سبب اجتماعيّ وسياسي): أهَمّت قريشا الهزيمةُ الكبيرة في "بدر"، إذ كانت أوّل هزيمة تنالهم من جيش النبي محمد ﷺ، فكانت مرارة الهزيمة شديدة عليهم، لأنها نالت أشياخهم والزعماء فيهم، ولذلك حرصت قريش منذ نكبتها الكبرى في "بدر" على الأخذ بثأرها من المسلمين، وصمّمت على الاستعداد عسكريا لاستعادة كرامتها وشرفها[4].

فذكر ابن إسحاق عن الزهري وعاصم بن عمر وغيرهما من شيوخه أنّه: «لَمّا أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع فَلُّهم[5] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره، مشى عبد الله

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 452/2.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9140/30.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 824/2. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 171.

[5]– **الْفَلُّ**: القوم الْمنهزمون، وفَلَّ القومَ يفلُّهم فلاًّ: هَزَمهم، والجمع فُلُول. ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 434/4. ولسان العرب، ابن منظور، 530/11.

بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتِرَكم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلّنا **ندرك منه ثأرنا** بمن أصاب منا؛ ففَعلوا»[1].

هكذا قرّر كبراء قريش تخصيص أرباح تجارة قافلة أبي سفيان بن حرب التي جرت من أجلها معركة "بدر"، لإنجاز استعدادات معركة الثأر القادمة وإمدادها بالمواد والسلاح والرجال[2].

فيظهر الشقّ السياسي لهذا السبب من حيث: أنّ كفار قريش أدركوا أنّ مكانتهم تزعزعت بين العرب، وشرفهم أخذ ينهار بعد وقعة بدر، وعلموا أنه سيلحقهم الخزي والعار والذلة، إن لم يستردوا مكانتهم الأدبية التي سلبتها إياهم هزيمة بدر[3].

ومن حيث الشقّ الاجتماعي لهذا السبب: فإنّهم لن يسكتوا عن شرفهم الذي ثُلم، ولن يسكتوا عن الثارات التي ولّدتها المقتلة في أشياخهم، ومن كانوا في موطن الزعامة فيهم، فقد تركت "بدر" في نفوس أهل مكة المشركين كمدا وأحزانا وآلاما بسبب هزيمتهم ومن قُتلوا فيها، فكانوا يتوجّعون على قتلاهم، ويهيئون أنفسهم ليوم آخر يستردون فيه كرامتهم، ويأخذون بثأر قتلاهم في بدر[4]، يشير إلى مدى هذا الكمد والحرص على الانتقام ما رواه ابن إسحاق وغيره: أنّ "جبير بن مطعم" كان له غلام حبشيّ يقال له: "وحشيّ"، يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلّما يُخطئ بِها، فقال له: «اُخرج مع النّاس، فإن أنت **قتلت حمزة عمّ محمد بعمّي** طعيمة بن عديّ، فأنت حـــرّ»، وكان ذلك فعلا[5].

– **والسبب (2):** هو **محاولة إنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين** (سبب اقتصادي): سَيطرَ المسلمون على الطرق التجارية المؤدية من مكة المكرمة إلى الشام وإلى العراق سيطرة تامة، ومنعوا قوافل قريش من سلوك هاتين الطريقين، ففرضوا بذلك حصارا اقتصاديا قويّا على تجارة قريش، التي هي قوام الاقتصاد المكي، و لم يبق أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة، وهي تجارة غير رابحة مقارنة بالتجارة مع الشام ومع العراق، وبذلك حلّت بتجارة قريش –التي تعتمد عليها في حياتها كل الاعتماد– نكبة قاصمة قاضية[6].

---

[1]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 60/2.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 200/1. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 131/1. والرسول القائد، محمود شيت، 172.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 824/2.

[4]– ينظر: المصدر نفسه، في الموضع نفسه. والقول المبين، النجار، 240.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 458/7-459. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 61/2.

[6]– ينظر: خاتم النبيين، 824/2. والرسول القائد، 171. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 472.

فهذان السببان هامان وأساسيّان في أسباب "غزوة أحد" ذكرهما جلّ علماء السيرة والتاريخ، لكن هناك سبب هام آخر -لم يذكره "بول-Buhl"- أشار إليه ابن إسحاق، ونبه عليه بعض المفسرين[1].

– **السبب (3)**: هو **الصد عن سبيل الله** (وهو سبب ديني): فبعد أن ذكر ابن إسحاق اتفاق قريش على توظيف أموال القافلة التجارية الناجية في إعداد جيش يقاتل النبي ﷺ؛ قال ابن إسحاق: «ففيهم كما ذكر لِي بعض أهل العلم، أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: 36]»[2]؛ قال الشوكاني: «والمعنى: أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق، بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك... كما وقع من كفّار قريش يوم بدر، ويوم أحد»[3].

أحسّ كفار قريش بأن دولة الشرك التي كانوا يستمسكون بها، قد أخذت تنهار، فكان من أهم دوافع "غزوة أحد" هو الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة النبي ﷺ، ومحاولة القضاء على الدعوة الإسلامية، قبل أن يصبح المسلمون قوّة تهدّد وجودهم[4].

الفرع الثاني: خروج الجيشين للمعركة ونزولهما بساحة القتال

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أحد**"[**فقرة**: 2]: «**جبل على نحو ثلاثة أميال من شمالي المدينة، اشتهر للمعركة التي دارت هناك في السنة الثالثة للهجرة... والمكيون عسكروا في حقول القمح عند العِرض أو الْجُرف، وكانت هذه الحقول عندها مليئة بالقمح الناضج، فأمدت حيواناتهم بالعلف، وقد استكره محمد ﷺ على ترك المدينة ليلقى عدوّه في الحقل المكشوف، وكان هذا على غير إرادته وعلى غير ما نصح به الشيوخُ، فمضى بلا عائق إلى ما وراء معسكر العدو، وصفّ عسكره على سفح التل جاعلا ظهورهم إليه، وكان تخطيط العدو لا يقلّ عن ذلك غرابة**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [**فقرة**: 75]: «**أعدَّت** [أي: قريش] **جيشا قيل إنه من ثلاثة آلاف رجل خرج في مظاهرة كبيرة قاصدا المدينة بقيادة أبي سفيان الذي كان واضحا أنه بات أبرز زعماء مكة بعد وفاة أبي جهل، ورغم أن عدداً من أصحاب محمد ﷺ نصحوه بأن يقيم دفاعه داخل حدود المدينة،**

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 170/11-171. وتفسير الرازي، 481/15. وتفسير ابن كثير، 53/4. وفتح القدير، الشوكاني، 350/2.

[2]– السير والمغازي، ابن إسحاق، 322. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 60/2.

[3]– فتح القدير، 350/2.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 824/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 471.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 452/2.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

فقد قرر الخروج بقواته التي نقص عدد أفرادها بدرجة كبيرة، وفي اللحظة الأخيرة حين انسلخ عنها المنافقون، والتي استقرت عند سفح تل أحد»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

– وفي مادة "**الأوس**": «**وظل أتباعه [أي: أبو عامر] المخلصون في المدينة على اتصال به سرا... ولكنهم لم يجرءوا على اللحاق به، كما كان يرجو ذلك بعد هزيمة المسلمين في أحد، وكان "أبو عامر" عند ذاك يحارب في صفوف أهل مكة الظافرين**»[2]. المحرر هو: **ركندورف** – Reckendorf[3].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– إعداد قريش للقتال: أرادت قريش أن تكون العير الناجية فداءً لثأرهم؛ فنَزلوا عن المال، ليكون مادة القتال، وأخذوا الأهبة من الرجال، وأدوات الحرب، وصاروا يجمعون الجموع لقتال النبي ﷺ، واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش، والقبائل المنتشرة حول مكة من كنانة وأهل تهامة، وعبّأوا القوى لهذا الاستنفار، وما زالت قريش تجمع الجموع حتى تكوّن جيش تعداده ثلاثة آلاف مقاتل؛ منها ومن حلفائها، وأعراب كنانة، وتهامة، ومعهم ما يلزمهم من العدة والسلاح، وحرّض الشعراء الناس بشعرهم، وأثاروا فيهم الحنق والحميّة الجاهلية، وأخرجوا معهم نساءهم بحيث يستحون أن يفروا أمامهنّ، ولِيُحاموا عنهنَّ من أن يُؤخذن سبايا[4].

وبما أنّ أبا سفيان هو الذي نَجا بعيرهم، وهو بقية رجالهم، وفي مكان الزعامة منهم بعد هلاك أبي جهل وعقبة بن أبي معيط، وستكون العير الناجية فداء لثأرهم، فقد نصّبوا "أبا سفيان" قائدهم في المعركة الجديدة، ورأس فيهم أبو سفيان بن حرب لذهاب أكابرهم[5].

و لم يكتفوا بمن استعانوا بهم من قبائل حول مكة المكرمة وأحباش، بل استعانوا ببعض المشركين من الأوس في يثرب لأن لهم أحقادا كأحقادهم، حيث أوهم قريشاً "أبو عامر بن صيفي" رأس المنافقين من الأوس أنه إن لقي قومه لم يَتخلّف عليه أحد منهم، فصدّقوه بِما قال وطمعوا بِنصره[6]؛ فقد روى ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة: «أن "أبا عامر عبد عمرو بن صيفي"، وقد كان خرج حين خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله ﷺ معه خمسون غلامًا من الأوس، وبعض الناس كان يقول: كانوا خمسة عشر رجلاً، وكان يَعد قريشًا أن لو لقي قومه لم يتخلّف عليه منهم رجلان، فلما التقى

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9140/30.

[2]– المصدر نفسه، إص1، 151/3.

[3]– سبقت ترجمته في: ص249.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 60/2–62 و66. وزاد المعاد، ابن القيم، 172/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 186/2.

[5]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 825/2. وزاد المعاد، 172/3. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 182/4.

[6]– ينظر: مغازي الواقدي، 205/1–206. وخاتم النبيين، 825/2.

الناس كان أول من لقيهم "أبو عامر" في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى: يا "معشـــر الأوس أنا أبو عامر"، قالوا: "فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق"، وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية "الراهب"، فسماه رسول الله ﷺ "الفاسق"، فلما سمع ردهم عليه، قال: "لقد أصاب قومي بعدي شر"، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا»[1].

وسبق الكلام عن "أبي عامر بن صيفي" الفاسق[2]، وعن فئة قليلة من الأوس في المدينة تسمى "أوس الله" كان منهم منافقون من أتباع "أبي عامر"، بعضهم تبعه إلى مكة، وبعضهم بقي في المدينة، ومنهم من أسلم بعد غزوة الخندق[3]، لكن الأوس المسلمين ردّوا عليه رداً شديداً، وبيّنوا خروجهم عن طاعته -وكان من ساداتِهم- وتَمسّكهم بنصرة الإسلام.

[2]- موقع الغزوة: عرفت هذه الغزوة باسم الجبل الذي وقعت عنده، ويقع في شمال المدينة وكان يرتفع (128) مترا، أما الآن فيرتفع (121) مترا فقط بسبب عوامل التعرية، ويبعد عن المسجد النبوي خمسة أكيال ونصف، ويتكون "أحد" من صخور حمراء وله رؤوس متعددة، ويقابله من جهة الجنوب جبل صغير يسمى "عينين" وهو الذي عرف بعد المعركة بجبل الرماة، وبين الجبلين واد عرف بوادي قناة[4].

[3]- تأريخها: اتفق علماء السيرة والتاريخ على أن غزوة أحد كانت في **شوال** من السنة **الثالثة للهجرة** (3 هـــ) ، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه ، بين يوم السبت: السابع، أو الحادي عشـــر، أو النصف من شوال[5]؛ فكانت بعد بدر بسنة واحدة وشهر[6].

[4]- مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في الخروج لِملاقاة جيش قريش: لَمّا وصل جيش قريش إلى أحد وسمع بذلك المسلمون، شاور رسول الله ﷺ أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها "وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن"[7]، أو الخروج لِملاقاة جيش قريش، وقال: ((إِنَّا فِي جُنَّةٍ حَصِينَةٍ))، فقال ناس من أصحابه من الأنصار: "يا نبي الله إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نَمتنع من

---

[1]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 67/2. وتاريخ الطبري، 165/2-166.

[2]- بعد فتح مكة خرج إلى الطائف، وبعد فتحها لَحِق بالشَّام؛ فمات بِها طَرِيدًا غريبًا وحيدًا. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/1-438 و585-586. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 255/1.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 438/1 و584. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 258.

[4]- ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، 109/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 378/2.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 60/2 و100. والبداية والنهاية، ابن كثير، 338/5. والسيرة الصحيحة، 378/2.

[6]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 432/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 378/2.

[7]- ينظر: مصنّف عبد الرزاق، 363/5. والسيرة النبوية الصحيحة، 379/2.

الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه[1]، فابرُز إلى القوم"، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لَأْمته؛ فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: "أمرنا لأمرك تبع"، فأتى حمزة فقال له: "يا نبي الله، إن القوم **قد تلاوموا**؛ فقالوا: **أمرنا لأمرك تبع**"، فقال رسول الله ﷺ: ((إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ[2] أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُنَاجِزَ))[3].

وفي حديث ابن عبّاس ﷺ قال: «أنّ رسول الله ﷺ لَما جاءه المشركون يوم "أُحُد" كان رأي رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها، فقال له ناسٌ لم يكونوا شهدوا "بدراً": أتَخرج بنا يا رسول الله ﷺ إليهم نقاتلهم بأُحُد؟ ورَجَوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتّى لَبِس أداتَه، **فندموا** وقالوا: يا رسول الله **أَقِمْ فالرأي رأيك**؛ فقال رسول الله ﷺ: ((مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَضَعَ أَدَاتَهُ بَعْدَ أَنْ لَبِسَهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ))»[4].

[5]– تفسير "بول-Buhl" لهذه المشاورة والجواب عليه: يبدو أنّ المستشرق "بول-Buhl" أساء تفسير هذه المشاورة، أو فهمها على غير وجهها الصحيح فقال في مادة "أحد": «**وقد استُكره محمد ﷺ على ترك المدينة ليلقى عدوّه في الحقل المكشوف، وكان هذا على غير إرادته**»؛ وكلامه هذا لا يعبّر عن القصّة بتمامها، بل على شطر منها فحسب، فدعوى الاستكراه وإقدامه ﷺ على الخروج فوق إرادته لا يدلّ عليها الشطر الأخير من الحادثة في الروايتين السابقتين وغيرهما كما سيأتي بيانه.

ولعلّ ما حمله على هذا الزعم هو ما جاء في رواية ابن إسحاق: «... فصلّى رسولُ الله ﷺ، ثُمّ خرج عليهم **وقد ندم الناس**، وقالوا: **استَكرهْنا رسولَ الله ﷺ ولَم يكن لنا ذلك**، فلمّا خرج عليهم رسولُ الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، استكرهناك **ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقْعُد** صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ((مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ))، فخرج رسول الله ﷺ»[5]،

---

[1]– وفي حديث جابر ﷺ في "مسند أحمد، 99/23": «فقالوا: يا رسول الله، والله مَا دُخِل علينا فيها في الْجاهِلية، فكيف يُدخل علينا فيها في الإسلام؟».

[2]– **اللَّأْمة:** بفتح الهمزة والجمع "اللَّأْم" مثل: "تمرة وتمر"، وهي: الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 417/13. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 379/2.

[3]– تفسير الطبري، 215/6–216. بإسناد حسن إلى قتادة مرسلا. كما في: "السيرة النبوية الصحيحة، 380/2".

ووردت القصّة موصولة من **حديث جابر** ﷺ في "مسند أحمد، 99/23–100" وصحّحه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند، ومن **حديث ابن عباس** ﷺ المذكور في الرواية التالية.

[4]– أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب قسم الفيء، 141/2. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 204/3–205. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصحّحه ابن حجر لشواهده في "تغليق التعليق، 332/5".

[5]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 63/2.

وجاء في السياق الذي ذكره ابن كثير: «**لعلّنا** استكرهنا ...»[1]؛ فهل تدلّ هذه الرواية على أنّ خروج النبي ﷺ لأُحد كان فوق إرداته - كما عبّر المستشرق "بول- Buhl"-؟

أ)- الرواية لا تدلّ على ذلك أصلا؛ بل معناها: أنّ النبي ﷺ اختار الرأي المخالف لِرأيه الأوّل، لَمّا رأى أنّه قول الأكثرية، ورأى من إلحاحهم عليه[2]، ثُمّ لَمّا عزم النبي ﷺ على الخروج وتهيّأ له، تراجع أصحاب هذا الرأي عنه خوفا من أن يكونوا خالفوا رأي النبي ﷺ وهو الأعلم، لكن النبي ﷺ أكّد هذا الاختيار ثانية، وأمر الناس بالخروج والتوكّل على الله، وأنّه ما كان ليعود عن رأيه الذي اختاره بإرادته -وإن خالف رأيه الأول-، فأكّد هذا الاختيار بعد اعتذارهم عن إلْحاحهم في رأي مُخالف لرأيه ﷺ، فعلى هذا المعنى لا يستقيم القولُ بأنّه خرج فوق إرادته، لأنّه هو الذي حثّ الناس على الخروج وعزم عليه وأكّده.

فلو قال "بول-Buhl": "وكان هذا على غير **رأيه**" بدلَ قوله: "**وكان هذا على غير إرادته**"؛ لكان كلامه أدقّ وأقرب إلى الواقع الصحيح للروايات وسياقاتها.

ب)- أنّهم اعتذروا عن هذا الاستكراه - لو سلّمنا جدلا بحصوله[3]-، فقالوا: في حديث جابر: «ردَدْنا على رسولِ الله ﷺ رأيَهُ؛ فجاءوا، فقالوا: يا نبيّ اللهِ، شأنك إذًا»[4]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه المذكور آنفا: «**فندموا**؛ وقالوا: يا رسول الله **أَقِمْ فالرأي رأيك**»، وفي حديث قتادة المذكور أيضا: «فتَلاوَم القوم... وقالوا: **أمرُنا لأمْرِك تبَعٌ**»، والعجب من المستشرق "بول-Buhl" كيف يقول مثل هذا القول وقد جاء عند ابن إسحاق -وهو من مصادره-: «... ثُمّ خرج عليهم **وقد ندم الناس**... وقالوا: يا رسول الله، استكرهناك **ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقْعُد**»[5]، وعند الواقدي -وهو من مصادره أيضا-: «**ونَدَّمهم** أهلُ الرّأي الّذين كانوا يشيرون بالْمُقام، فقالوا: يا رسول الله، **ما كان لنا أن نُخالفك فاصْنَع ما بدَا لك، وما كان لنا أن نسْتَكرهك والأمر إلى الله ثُمّ إليك**»[6]، وقال ابن سعد:

---

[1]- تفسير ابن كثير، 109/2.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 188/2. والرسول القائد، محمود شيت، 175. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 158.

[3]- الصواب أن يقال: إن هؤلاء الصحابة خافوا حصول الاستكراه، لا أنّه وقع فعلا، وهو ما يدلّ عليه السياق الذي ذكره ابن كثير في "تفسيره، 109/2"؛ من قولهم: "**لعلنا** استكرهنا رسول الله ﷺ"، ولأنّ «الصحابة رضي الله عنهم وإن كان لهم إبداء الرأي في المشورة، إلا أنه ليس لهم فرضه على النبي ﷺ» كما أفاد العمري في "السيرة النبوية الصحيحة، 380/2".

[4]- مسند أحمد، 99/23-100.

[5]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 63/2.

[6]- مغازي الواقدي، 214/1.

«**فندموا جميعا** عَلَى ما صنعوا، وقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك»[1]؛ **فهل هناك استكراه بعد ذلك؟**

فكيف أغفل المستشرق هذا الاعتذار مع أنّه ورد في المصادر التي اعتمد عليها؟ لا جواب لهذا الإشكال سوى أنّه التعسّف في إبداء بعضِ الجوانب من الروايات دون الأخرى، اعتمادا على "**منهجيّة الانتقاء الكيفي**"، للوصول إلى افتراضات عرجاء، قد تَخدم الفكر الاستشراقي وأهدافه المغرضة.

ج)– كما أنّه كان من الممكن أن يكون قول "بول-Buhl" صحيحا في حالات:

– لو ابتـــدروه بهذا الرأي دون أن يطرح الأمر للمشورة، فيكون من التقدّم بين يدي الله ورســـوله ﷺ المنهي عنه[2].

– لو لَم يعتذروا عن الإلحاح في هذا الرأي.

– لو لم يكن للنبي ﷺ حريّة الاختيار، أما وأنّه ﷺ هو الذي اختار هذا الرأي ولو كان مخالفا لِرأيه الأول، ثُمّ أكّده بعد أن اعتذروا وطلبوا منه الرجوع إلى رأيه الأول، وأثبت هذا الاختيار؛ فلا يمكن والحالة هذه القول باستكراهه، أو عمله شيئا فوق إرادته.

د)– كما لا يستقيم قول "بول-Buhl" لأمور واضحة دلّت عليها الروايات، وهي:

– أنّ هذا الرأي الذي أبدوه إنّما أذن لهم به النبي ﷺ حين طرح الأمر للمشورة، فأبدى كلٌّ رأيه؛ «**ومن الواضح أن الرسول ﷺ عوّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى لو خالفت رأيه**، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، **فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي**... فلا بد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]؛ ليعتادوا على ممارسة الشورى»[3].

– أنّ من قال بهذا الرأي رأى مصلحة وقوّة فيه عندما طرحه[4]، ثم رجعوا إلى أنفسهم وخافوا أن يكونوا ألَحّوا على رسول الله ﷺ في أمر يكرهه، فاعتذروا وأرجعوا الأمر إليه، كما سبقت الروايات في ذلك، وفي هذا الاعتذار وإرجاع الأمر إليه ﷺ، ردّ كاف على كلام "بول-Buhl" الخاطئ.

---

[1]– الطبقات الكبرى، 29/2.

[2]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 417/13.

[3]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 380/2.

[4]– تتلخص **دوافع** الراغبين في **الخروج**: بإظهار الشجاعة أمام الأعداء، وحتّى لا يظنّ الأعداء أنهم كَرِهوا الخروج إليهم جبنًا عَنْ لقائِهِمْ، وبرغبة الذين فاتتهم المشاركة في غزوة بدر أن يشاركوا في موقعة مماثلة، كما رأوا أنّ في محاصرة قريش للمدينة ظفرا ينبغي ألاّ تحلم به. ينظر: مغازي الواقدي، 210/1-213. والسيرة النبوية الصحيحة، 380/2.

فالروايات نبّهت إلى «الوعي السياسي عند الصحابة ﷺ؛ **فرغم أن لَهم إبداء الرأي، إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد**، فحسبهم أن يبيّنوا رأيهم **ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء**، فلما رأوا أنهم ألَحّوا في الخروج، وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علّمهم درسا آخر هو من صفات القيادة الناجحة، وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع»[1].

– أنّ النبي ﷺ لَمّا اعتذروا له وأرجعوا الأمر إليه أقرّ هذا الرأي عن رضاً، وكان عزم عليه، فلا ينبغي له التراجع عنه.

ملاحظة: إنّ الخلفيات الفكرية والعقدية للمدرسة الاستشراقية التي يتستّر عليها المستشرقون بستار الموضوعية والبحث العلمي المتجرّد، لَتظهر من حين إلى حين في لَحن قولهم وفلتات استنتاجاتهم بكلّ وضوح وجلاء، وبتجرّد تام عن ذلك الستار المتصنّع، فإنّ "بول-Buhl" يحاول أنّ يغمز النبي ﷺ وأصحابه بكلّ سبيل وبأي طريقة ولو كانت مصطنعة، وتردّ بعضها بعضاً، لقد ادّعى المستشرق "بول" في غزوة "بدر" أنّ المسلمين انتابهم الفزع عند لقاء العدو في محاولة لغمز المسلمين من حيثيّة وردت في روايات السيرة الصحيحة أساء عرضها وتفسيرها كما تقدّم بيانه، لكن في "غزوة أحد" لَمّا رأى أنّ الروايات كلّها تدلّ على تَحمّس المسلمين للقاء العدو والخروج إليه وطلب الشهادة في سبيل الله[2]؛ اخترع سببا آخر حاول به غمز المسلمين من أصحاب النبي ﷺ، وزعم بأنّهم استكرَهوا النبي ﷺ ودفعوه للخروج لأُحُد من غير إرادته، لكن ليس في الروايات ما يدلّ على إكراه للنبي ﷺ أو فعله لهذا الأمر فوق إرادته كما عبّر المستشرق "بول" في مادة "أحد/فقرة: 2"، بل هو كلام غير دقيق معتمد على **منهجيّة الانتقاء الكيفي** في تفسير الأحداث، لأنّه قدّم للرواية تفسيراً مبتورا عن سياقها التام، من باب التعسّف في التأويل والتحليل، المبنيّ على التمويه المنافي للأمانة العلمية.

[6]– خروج جيش المسلمين إلى أحد وانخذال المنافقين: خرج رسول الله ﷺ إلى أُحُد في **ألفٍ** مِن أصحابه، حتّى إذا كانوا بالشَّوط[3] بين المدينة وأُحُد، انسحب المنافق "عبد الله بن أبي بن سلول" **بثلثمائة** من المنافقين، مدّعيا أنه لن يقع قتال مع المشركين! معترضا على قرار الرسول ﷺ بالخروج

---

[1]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 380/2.

[2]– ينظر بعض الروايات التي تدلّ على ذلك في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 63/2. ومغازي الواقدي، 210/1-213.

[3]– **الشوط**: اسم لِموضع بين المدينة وأحد، به بستان، كان يَجري به سباق الخيل، ولعلّ لِهذا الاسْمِ علاقة به [لأنّ الشوط: هو العَدْو]، ولَم يَعُد الاسم مَعْروفًا اليوم. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 372/3. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 170.

بقوله: «أطاعهم وعصاني[1]، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس!» فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب[2].

والحقيقة أنّ "عبد الله بن أَبيّ بن سلول" «إِنَّمَا ارتأى عدم الخروج لِيكتفي أمر القتال أو خطره؛ حرصًا على الحياة وإيثارًا لَها على إعلاء كلمة الله»[3].

«وقد بيّن القرآن الكريم أن انسحاب "عبد الله بن أَبيّ" بالمنافقين إنّما هو تنقية لصف المؤمنين وتَمييز لهم، فلا يبقى فيهم من يرجف ويخذّل، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 166-167]»[4].

[7]- تعبئة الجيشين: لَمّا وصل جيش مشركي قريش إلى مشارف المدينة، نزلوا بجوار جبل أحد، وأطلقت قريش إبلها وخيلها ترعى زرع المسلمين من الأنصار في أرض زراعية تسمى "العرض"[5]، كما ذكر "بول-Buhl" في مادة "أحد"، وفي يوم المعركة نظّم المشركون قوّتهم للقتال بأسلوب "الصف"، بحيث كان جيش قريش يقابل جبل أحد وظهره إلى المدينة[6].

عسكر الرسول ﷺ بأصحابه السبعمائة قريبا من أحد، واتخذ مواقعه بموجب خطة محكمة تتلخّص فيما يلي[7]:

أ)- نظم الرسول ﷺ أصحابه صفوفاً للقتال بهم وفق أسلوب الصّفّ، واختار الموقع المناسب لجيشه فجعل ظهورهم إلى جبل أحد، ووجوههم تستقبل المدينة.

---

[1]- يقصِد بذلك: أنّه لم يأخذ النبي ﷺ بمشورته بالتحصّن داخل المدينة، لَما شاور النبي ﷺ أصحابه في الخروج لأُحُد أو التحصّن داخل المدينة، حيث كان رأي "ابن أبيّ بن سلول" التحصّن داخل المدينة كما ذكر ابن إسحاق. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 63/2.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 64/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 381/2.

[3]- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 80/4.

[4]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 381/2-382. وينظر في هذا المعنى: تفسير المنار، 80/4.

[5]- **العِرض:** هي أراض زراعية حول المدينة، قريبة من جبل أحد. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 102/4. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شراب، 188.

[6]- ينظر: مغازي الواقدي، 207/1 و220. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 28/2-30. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 173-174. والسيرة النبوية الصحيحة، 383/2.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 65/2. والرسول القائد، 176-177. والسيرة النبوية الصحيحة، 383/2.

ب)– جعل خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير الأنصاري فوق جبل "عينين" المقابل لأُحُد، لِحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم من الخلف، ولتكون هذه القوة قاعدة أمينة لقواته، وشدد الوصية عليهم بلزوم أماكنهم، وأصدر أمره الجازم إليهم قائلا: ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخطفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ))[1]؛ وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش قريش الذي تقدم وهو يواجه "أُحُد" وظهره إلى المدينة.

ج)– أخذ يشجّع أصحابه ويحثّهم على الصبر في القتال، لكي تتقوّى روحهم المعنوية، وأصدر أوامره بألاّ يقاتل أحد إلاّ بأمر منه.

المطلب الثاني : وقائع المعركة ونهايتها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**أحد**"[فقرة: 3]: «... والتي انتهت بِما **لا يحبّ محمد ﷺ... وقد رأى محمد ﷺ أولا أنّ حمية أتباعه سوف تحقّق له نصراً أشبه بذلك يوم بدر، غير أنّ الرماة الذين أقامهم النبي فوق التلّ آمرا إياهم في جلاء بأن يحولوا دون مهاجمة العدو لجناح الجيش وبألاّ يتركوا مراكزهم، كانوا غير قادرين على أن يضبطوا أنفسهم حين رأوا المعسكر المكي يُغنم فخفّوا ليَروا ما يمكنهم أخذه، وبنظرة خاطفة رأى خالد بن الوليد في الحال مكان الضعف، وحين هاجمه سرعان ما انقلبت الكفة، وحين انتشرت الشائعة بأنّ محمداً ﷺ سقط قتيلا أخذ المسلمون في التخاذل، ثم عمّ الهرب أخيرا، والحقّ إنّ محمداً ﷺ لم تنله غير جراحات وأنّ نفراً من أتباعه أفلحوا في إخفائه في المهواة، ومن حسن الحظ أنّ المكيّين الذين كانوا أقلّ تجربة بالشؤون العسكرية لم يعرفوا كيف يصلون نصرهم، وأخذوا في الرجوع إلى ديارهم، وبهذا نَجا النبي ﷺ من أسوأ العواقب، وقدر له أن يحزن لفقد كثيرين من أتباعه من بينهم عمه حمزة الذي أحسّ حسرة خاصة لفقده»**[2]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 76]: «**وقد كان النصر في البداية حليف المسلمين رغم التفوق العددي لِجيش مكة، بيد أنه ما إن ترك عدد من الرماة المسلمين الذين كانوا يحمون جناح جيشهم مكانهم على التل –مُخالفين بذلك أمرا مشدّدا من محمد ﷺ– لِمطاردة بعض مقاتلي مكـــة،**

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، 6/195-196؛ من حديث البراء بن عازب ﷺ.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 2/452-453.

[3]– سبقت ترجمته في: ص150.

بدوا وكأنّهم يتقهقرون، حتى تَمكن خالد بن الوليد، ذلك الاستراتيجي العسكري الحاذق، من أن يَحتلّ موقعا ممتازاً عند سفح أحد، عندئذ انقلبت الأوضاع، وشروع الكثير من المسلمين في الهرب خاصة حين انتشرت إشاعة مقتل النبي ﷺ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ سورة آل عمران آية (**144**)، **والحقيقة أنه جرح فحسب، واستطاع النجاة مع عدد من أتباعه المخلصين عن طريق واد عند السفح الجنوبي للتل، وكان من حسن حظّه أن المكيين لم يصلوا نصرهم بمطاردة المنهزمين، إذ اعتقدوا أنهم عاقبوا محمداً ﷺ بما فيه الكفاية وأنقذوا سمعتهم، فانصرفوا عائدين سريعا إلى مكة.**

وهكذا نجا النبي ﷺ من مصير رهيب، وإن كان قد فجع في كثير من أصحابه الذين قتلوا في المعركة، ومن بينهم عمّه حَمزة، وقد حاول بكلّ ما أوتي من فصاحة أن يرفع معنويات أتباعه سواء بالنّصح أو بالتقريع، وقد نزلت في هذه المناسبة: الآيات (118 و120–122) من سورة آل عمران وكذلك الآيات (139–154) من السورة ذاتها»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

– وجاء في مادة "**طلحة**": «وأبلى طلحة بلاء حسنا في وقعة أحد المشؤومة وامتاز بشجاعته، فقد حَمى بجسمه النبي عند تراجع المسلمين فأصيب بعدة جروح، وأدركته ضربة قطعت أوتار إصبعين من أصابعه فبقيتا مشلولتين، وأكسبه حسن بلائه هيبة في أيام النبي وبعد وفاته، وجعل له مكانة واحتراما في قلوب المسلمين»[2]. المحرِّر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[3].

– وفي مادة "[**أبو**] **سفيان**"[فقرة: 7]: «وبعثت غزوة أحد شيئاً من الرضا في نفسه ونفوس أهل مكة، ولكنه لم يعرف كيف يستغل هذا النصر، وأضاع فرصة القضاء على خصمه الخطير»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

[1]– الجولة الأولى من المعركة[5]: اِلْتَحم الجيشان واشتدّ القتال، واستبسل المسلمون حتى تَمكّنوا من دحر المشركين إلى معسكرهم، وأبلى كثير من المسلمين في هذا اليوم بلاء حسنا، وأظهروا من البطولات ما أعجز المشركين؛ فقَاتَلَ "**أبو دجانة**" رضي الله عنه حتّى أمْعَن في الناس، واندفع وفي يده سيف النبي ﷺ، وعلى رأسه عصابة الموت، فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، حتى شقّ صفوف المشركين.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9140-9141.

[2]– المصدر نفسه، إص1، 15/254.

[3]– سبقت ترجمته في: ص95.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 1/355.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/66-77. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/193. وفقه السيرة، الغزالي، 252-253. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 178-181.

– وقاتل أسد الله ورسوله "**حمزة بن عبد المطلب**" ﷺ قتال الأبطال، لا يَمرّ به أحد من المشركين إلا قتله؛ فقد تصدّى في المبارزة لسباع بن عبد العزى فقتله، ولغيره من عتاة المشركين أمثال عثمان بن أبي طلحة أحد حملة لواء المشركين يومئذ، كما قتل نفرا من حملة اللواء من بني عبد الدار؛ وبينما هو على هذه الحال؛ كَمَنَ له وحشيّ حتى تمكن منه، ثم رماه بحربته فأصابت منه مقتلا، فاستشهد، ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة، بقيت قواتهم مسيطرة على الموقف تماما.

– وسَرَت قوّة الإيمان في نفوس المسلمين، وضاعفت من قواهم المعنوية، فإذا السبعمائة يهزمون الثلاثة آلاف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات! وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين، حتى لقد قتل من حملة لواء المشركين من بنِي عبد الدار سبعة أو أكثر، وتركه المشركون فما يدنو منه أحد، وحمل لواء المسلمين في هذا القتال "**مصعب بن عمير**" ﷺ الداعية العظيم، وقاتل حتّى استشهد، فأخذ اللواء بعده **عليّ بن أبي طالب** ﷺ، وصدق المسلمون في اللقاء وأنزل الله نصره عليهم، وصدقهم وعده، فأوقعوا في المشركين القتل، وزحفت صفوف المسلمين على صفوف المشركين بعد تصدّعها، فانهزم المشركون، وانتصر المسلمون في هذه الجولة الأولى من القتال، وأخذوا يطاردون المشركين حتى أبعدوهم عن معسكرهم، ثم عادوا يجمعون الغنائم.

قال ابن إسحاق: «ثُمّ أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحَسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك»[1].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «مَا نُصِرَ النَّبِيُّ ﷺ في موطن كما نُصر يوم أحد»، قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: «بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ﷻ، إن الله ﷻ يقول في يوم أحد: ﴿ **وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ** ﴾ [آل عمران: 152]؛ يقول ابن عباس: والْحَسّ: القتل»[2].

– **الاستدراك على "بول–Buhl"**: نجد المستشرق "بول" في مادة "أحد/ فقرة:3" يركّز على إبراز نصر المشركين دون التنبيه إلى انتصار المسلمين في بداية المعركة، بل تجاهل ذلك تماما، مع أنّ المادة مخصّصة لهذه الغزوة، حتّى أنّ القارىء الذي لا تكون له معرفة بأحداث الغزوة لَيَضطرب فهمه عندما يتحدّث عن جمع الغنائم؛ دون أدنى إشارة إلى أنّ جمع الغنائم هذا كان بعد دَحْر جيش المشركين.

[1]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 77/2.

[2]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 368/4. **والحاكم**، المستدرك، كتاب التفسير، 324/2. والحديث صحّحه الحاكم واللفظ له.

في حين نجده يذكر هذا الانتصار في الجولة الأولى من المعركة في مادة أخرى حرّرها في "الدائرة"؛ هي مادة "محمد ﷺ/ فقرة:76"، لكن كان الأولى أن يذكره أيضا في مادة "أحد" لكونها المادة المخصّصة لهذه الغزوة بتفاصيلها.

[2]– الجولة الثانية من المعركة[1]: لَمّا رأى الرماة هزيمة المشركين قالوا لعبد الله بن جبير: «الغنيمة الغنمية؛ ظهر أصحابكم فما تنتظرون»؟ فقال عبد الله بن جبير: «أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ»؟ قالوا: «والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»[2]، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم وتركوا مواقفهم؛ ظنًّا منهم أن الهزيمة قد تَمّت على العدو.

– وعند ذلك اغتنم الفرصةَ خالدٌ بن الوليد قائد خيل قريش، فنفذ من الثغرة التي كان يسدّها الرماة، ودار خلف جيش المسلمين، فجرح وقتل الرماة الذين ثبتوا في أماكنهم، وراح عبد الله بن جبير يقاتلهم حتى قُتل، ثم هجم خالد بخيالته على ظهور المسلمين، وأوقع الخلل في صفوفهم، وعاد المنهزمون من قريش إلى ساحة القتال حين رأوا خيلهم تقاتل المسلمين.

– فأوقعوا المسلمين في شقي الرحى، وأحاطوا بهم من جهتين، فتشتّت المسلمون تحت وقع المباغتة الْمُميتة، وصرخ صارخ أن محمدا قد قُتل، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون دون تخطيط، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فألحق المشركون بهم الهزيمة، حتى قتلوا منهم سبعين رجلاً يومئذ.

– ووصل العدو إلى النبي ﷺ نفسه وأصابه بجراحات شديدة، وحاول المشركون قتله لولا أنْ دافع عنه رجال من المهاجرين والأنصار فدوه بحياتهم.

[3]– استدراكات وملاحظات على تحليل المستشرق "بول-Buhl" للمعركة بِجولتيها:

أ)– الاستدراك الأول: قول "بول-Buhl": «**رأى محمد ﷺ أولا أنّ حَميّة أتباعه سوف تحقّق له نصراً**[3] **أشبه بذلك يوم بدر، غير أنّ الرماة... كانوا غير قادرين على أن يضبطوا أنفسهم حين رأوا المعسكر المكي يُغنم فخفوا ليروا ما يمكنهم أخذه**»، فهذا كلام يحتاج إلى توجيه وتقييد من عدّة أوجه:

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/78-82. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 2/19-21. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 358. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 160. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/385.

[2]– صحيح **البخاري** (الفتح)، 6/196؛ وسبق تخريجه قريبا في: ص816.

[3]– يبدو أن في هذه العبارة شيئا من الاستهزاء والتهكّم بالنبي ﷺ، وإن كان هذا المعنى غير جليّ، ففي العبارة إشارة خفيّة إليه، يفهمها من يدرك أهداف المستشرقين للنيل من النبي ﷺ والطعن فيه بأساليب مباشرة وغير مباشرة.

– الوجه الأول: فقوله "**حميّة أتباعه**" كلام مبهم[1]؛ ينبغي بيانه بأنّ "الحميّة" هنا ليست العصبيّة الجاهلية للأشخاص وللقوميّات، وإنّما هي حميّةٌ للدين وللعقيدة، وإيمانٌ راسخ بالله ورسوله ﷺ.

– الوجه الثاني: أمّا ما ذكره مِن اعتماد النبي ﷺ على حميّة أصحابه في تحقيق النصر، فهو كلام ليس على إطلاقه؛ فإنّ النبي ﷺ وإن كان يهتمّ برفع معنويات جيشه، لأنّ إيمانهم القوي عامل هام في المعركة، فإنّه ﷺ لم يقتصر على هذا العامل في معركة أحد ولا في غيرها من المعارك، بل كان:

– يعتمد أوّلا على نصر الله عز وجلّ ويتوكّل عليه، قال تعالى: ﴿**وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 126]، وقال سبحانه: ﴿**إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ**﴾ [آل عمران: 160].

– وكان يُحسن تَموقعه في ساحة القتال، ويضع خطّته الحربيّة بإحكام، كما سبق تفصيلها.

– كما اعتمد النبي ﷺ على رفع معنويات جنده وتقوية نفوسهم إيمانيّا في غزوة أحد وغيرها من الغزوات، فأعطت هذه المعنويات العالية ثمارها في **الجولة الأولى** من معركة أحد بجلاء كما سبق تفصيله، يقول محمد أبو شهبة في ذلك: «وسَرَت قوّة الإيمان في نفوس المسلمين، وضاعفت من قواهم المعنوية، فإذا السبعمائة يهزمون الثلاثة آلاف»[2]؛ ذلك أنّ المشركين كان يدفعهم الحقد والضغينة والانتقام، بينما جيش المسلمين يدفعه إيمان قوي راسخ كالرواسي، وحبّ في تحصيل إحدى الحسنين؛ النصر أو الشهادة، وعليه فلا يستقيم أن يتجاهلَ المستشرق "بول-Buhl" أثر المعنويات والحمية الإيمانية في هذه المرحلة من المعركة، ثم يطلقَ القولَ بأنّها ما أغنت شيئا.

يقول "محمود شيت خطاب" -وهو باحث في التاريخ والشؤون العسكرية-: «لقد توخّى الإسلام تقوية الروح المعنوية، وقد كانت المعنويات العالية ولا تزال من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية الرفيعة، كما أنها **من أهم مبادىء الحرب**»، ويقول: «لقد أثبتت كل الحروب في كل أدوار التاريخ، أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلّ المقاتلون بالمعنويات العالية»[3].

– لكن لماذا لم تنفع المعنويات العالية والإيمان القويّ في **الجولة الثانية** من المعركة بينما نفعتهم في **الجولة الأولى** منها؟ هذا الإشكال يعيدنا إلى النقطة الأولى وهي أنّ المعنويات وحدها لا تكفي

---

[1]– نبّهت إلى هذا الأمر لكون بعض المستشرقين -كما سيأتي في: ص966- يقول بأنّ: المسلمين كانوا ينظرون إلى النبي محمد ﷺ نَظرَتَهم لقائد من قادة العرب في الجاهلية، فأرادوا خلط الحمية الجاهلية بالعقيدة الإيمانية، وخلط الزعامة الجاهلية مع النبوة الربانية.
لذا ربّما يكون كلام المستشرق "بول" هنا على هذا المعنى؛ فنبّهت أنّ هذا الكلام ينبغي أن يُحمل على الحمية العقدية الإيمانية.

[2]– السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 194/2.

[3]– الرسول القائد، 48 و120.

للنصّر، فلم يكن النبي ﷺ يعتمد عليها وحدها، وجواب هذا السؤال: أنّ الخلل الذي أوقعه بعضهم -خطأً- في الخطة، هو الذي أدى إلى إضعاف معنوياتهم وتوهين عزائمهم، وذلك أنّهم:

في **الجولة الأولى**: كانوا يقاتلون دفاعا عن عقيدتهم، وكانوا يقاتلون متراصين متضامنين، تحت قيادة حكيمة حازمة، فأثّرت المعنويات والحمية الإيمانية وانتصروا مع قلّة عددهم، أمّا في **الجولة الثانية**: فصاروا يقاتلون لينجوا من براثن الموت، وصاروا يقاتلون مبعثرين مفرقين، دون نظام يجمعهم، فلا عَجب إذا لم تنفعهم الحمية الإيمانية، ولم ينفعهم بأسُهم في القتال ما دام لا تحكمه خطّة منظمة[1].

– ثُمّ إنّ المستشرق عندما يقول مثل هذا الكلام يتناسى الفارق الكبير بين الجيشين في العدد والعدّة.

– أضف إلى ذلك أنّ حميّة الصحابة ﷺ الإيمانية جعلتهم يضحّون بأنفسهم دفاعا عن النبي ﷺ لَمّا أحاط به المشركون من كلّ جانب يريدون قتله في آخر المعركة، حتّى سقط منهم سبعة وجُرح الكثير منهم جراحا بالغة كما سيأتي بيانه قريبا، مِمّا يدلّ على أنّ اعتماد النبي ﷺ على إيمان أتباعه وحمّيتهم للإسلام -بعد التوكّل على الله تعالى- كان في محلّه **أولا**، وأنّ هذا العامل وإنْ لم يكن العامل الوحيد في النصّر فإنّه عامل هام لا يُمكن إغفاله بحال **ثانيا**.

ب)– الاستدراك الثاني: يظهر من كلام "بول-Buhl" نبرة التحسّر على عدم تمكّن المشركين من قتل النبي ﷺ، وكأنّه أحرص منهم على قتله، ولم يدرك أنّ سبب عدم قتلِ المشركين للنبي ﷺ ليس عدم حرصهم على ذلك، وإنّما سببه أنّهم لم يستطيعوا قتله مع حرصهم الشديد عليه، هذا ما تبيّنه أحداث المعركة التي تجاهلها، والتي منها الشواهد الآتية:

– **الشاهد (1)**: ما إن سمع المشركون صوتَ النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى العودة للقتال وتوحيد صفوفهم من جديد، حتّى اجتمع عليه المشركون من كلّ جانب لقتله؛ وأصابوه بجروح بليغة "فدُثَّ بالحجارة، وأُصيبت رَبَاعيته، وشُجّ في وجهه، وكُلِمت شفته ﷺ، وجُرح في ركبته"[2] في سبيل الله[3].

– **الشاهد (2)**: كما تَعاهد أربعة من المشركين يوم "أُحُد" على قتل النبي ﷺ وهم: عمرو بن قميئة، وعتبة بن أبي وقاص، وعبد الله بن شهاب، وأُبَيّ بن خلف، وبعد أن حاصر المشركون الرسول ﷺ حاول كلٌّ منهم قتله، ولم يفلح في ذلك أحد، بل قَتل النبي ﷺ بيده أحدهم وهو "أُبَيّ بن خلف"، وأمّا الآخرون: فمنهم من أصاب النبيَّ ﷺ بجراح، لكنّ أصحابه ﷺ دفعوهم عنه، وعصمه

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 195/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 385/2.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (مع الفتح)، 465/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 79/2-80. ودراسة في السيرة، خليل، 160.

[3]– قال ابن حجر في "فتح الباري، 466/7": «وفي الحديث: أنّ **الأنبياء قد يصابون** ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام؛ **ليعظم** لهم بذلك **الأجر** وتزداد درجاتهم رفعة، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين».

تعالى من كيدهم، حتّى أنّ أحد الأربعة وهو "عبد الله بن شهاب" قال يومئذ: "دُلّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نَجا"، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتَبَه في ذلك صفوان؛ فقال: «والله ما رأيتُه، أحلف بالله **إنه منّا ممنوعٌ**، خرجنا أربعةً **فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك**»[1].

– **الشاهد (3)**: دافَع النبي ﷺ عن نفسه و لم يفقد رباطة جأشه وراح يقاتل؛ فرمى بالنّبل وبالقوس حتى صارت قوسه شظايا، وكان النبل يأتيه ﷺ من كل ناحية، وهو في وسطها والله يصرفها عنه[2].

– **الشاهد (4)**: اِستماتَ أصحاب الرسول ﷺ في الدفاع عنه، وقاتل معه أصحابه المحيطون به قتالا بطوليا، حتّى قتل منهم سبعة، وجرح منهم الكثير وهم ينافحون عن نبيهم ودعوتهم[3].

ومن الصحابة الذين سجّل التاريخ قتالهم العظيم دفاعا عن النبي ﷺ يومئذ:

– **طلحة بن عبيد الله** رضي الله عنه: قاتل قتالا شديدا؛ ووقَى رسول اللهِ ﷺ بنفسه، حتى أثخن بالجراح، وشُلت يده بسهم أصابَها[4].

وقد بيّن المستشرق "دلافيدا -della vida" في نصّة المذكور من مادة "طلحة" شدّة دفاع الصحابي الجليل "طلحة" رضي الله عنه عن النبي ﷺ يومئذ.

– **وسعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه: قاتل بين يدي الرسول ﷺ وهو يناوله السهام ويقول: ((ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي))[5]؛ وكان سعد من مشاهير الرماة.

– **وأبو طلحة الأنصاري** رضي الله عنه: دافع عن الرسول الله ﷺ وكان راميا، فكان إذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول الرسول ﷺ: ((انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ))[6].

– **وأبو دجانة** رضي الله عنه: كان يحمي الرسول رضي الله عنه بظهره حتى كثر النبل فيه، وغيرهم[7].

بعد هذا القتال الكبير من النبي ﷺ وبعض أصحابه معه، تَجمّع كثير من الصحابة حول الرسول ﷺ بعد أن كان معه نفر قليل، وبدؤوا في الانسحاب المنظم إلى شِعب الجبل وهم يشقّون

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 238/1 و243-244. ودلائل النبوة، البيهقي، 264/3.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 242/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 32/2.

[3]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 204/12-205. وفتح الباري، ابن حجر، 450/7. والسيرة الصحيحة، العمري، 387/2.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 105/7. وأسد الغابة، ابن الأثير، 84/3. وفتح الباري، ابن حجر، 450/7.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: 122]، 447/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، 263/15.

[6]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي طلحة، 162/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال، 259/12-260.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 80/2-82. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 20/2-22.

الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون في هجومهم، لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة أبطال الإسلام الذين قاتلوهم وصدّوهم بقوة[1].

– **تصويب عبارة "بول-Buhl"**: قال في مادة "محمد ﷺ/ فقرة:76": «**واستطاع** [أي: النبي ﷺ] **النجاة مع عدد من أتباعه المخلصين عن طريق واد عند السفح الجنوبي للتل**»؛ هذا الكلام يوهم بأنّ: النبي ﷺ وأصحابه فرّوا إلى شعاب جبل أحد بعد أن حوصروا مباشرة دون أن يقاتلوا، وهذا غير صحيح، لأنّ النبي ﷺ قاتل بثبات، بل وقَتل حينئذ بيده "أبَيّ بن خلف"، وقاتل أصحابه ﷺ عنه قتالا شديداً سقط فيه قتلى وجرحى منهم، وإنّما كان هذا الاحتماء ببعض شعاب جبل أحد بعد قتال ضارٍ؛ أدركت قريش بعده فشلَ محاولاتها الهجومية المتكررة للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين نهائيا.

– **الشاهد (5)**: عصم الله تعالى نبيّه ﷺ من المشركين لَمّا رَموا بثقلهم يبتغون قتله، حيث ثبت أن الله تعالى أرسل جبريل وميكائيل من الملائكة ليقاتلا دفاعا عنه ﷺ، لأن الله تعالى تكفّل بعصمته من الناس؛ فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشدِّ القتال، **ما رأيتهما قبل ولا بعد**»[2]، وفي رواية مسلم: «يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام».

وعن الزّهريّ قال: «ضُرب وجه النّبِيّ ﷺ يومئذٍ بالسّيف سبعين ضربة وَقاهُ اللهُ شرّها كلّها»[3]؛ قال ابن حجر: «وهذا مرسل قويّ، وَيُحْتمل أن يكون أراد بالسّبعين حقيقتها، أو الْمبالغة في الكثرة»[4].

بل إنّ بعض من أراد قتله مرّ بِجانبه فما رآه؛ حتّى قال: «أحلف بالله **إنه منّا ممنوعٌ**»[5].

والحاصل: أنّ نجاة النبي ﷺ من محاولة القتل لم تكن ضربا من ضروب الحظّ، كما عبّر المستشرق "بول-Buhl" في مادة "أحد/ فقرة:3" في قوله: «**ومن حسن الحظ أنّ المكيّين لم يعرفوا كيف يصلون نصرهم، وبهذا نجا النبي ﷺ من أسوأ العواقب**»؛ وإنّما كانت لأسبابٍ ظاهرة وعوامل حاسمة بيّنتها الروايات، وهي: – أنّ النبي ﷺ دافع عن نفسه وقاتل بشجاعة كبيرة.

– وأنّه اجتمع حوله جمع من صحابته الأوفياء استماتوا في الدفاع عنه، وفدوه بحياتهم.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 80/2-83. ومغازي الواقدي، 293/1-294. والرسول القائد، محمود شيت، 183. والمنهج الحركي للسيرة، الغضبان، 410/2.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ [آل عمران: 122]، 449/7. و**مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ يوم أحد، 96/15. واللفظ للبخاري.

[3]– مصنّف عبد الرزاق، 366/5.

[4]– ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 204/12-205. وفتح الباري، ابن حجر، 450/7. والسيرة الصحيحة، العمري، 387/2.

[5]– ينظر: مغازي الواقدي، 238/1 و243-244. ودلائل النبوة، البيهقي، 264/3.

– أنّ الله تعالى عصمه منهم، وأنزل ملائكة قاتلوا عنه، بعد أن جهد المشركون في محاولة قتله، فما استطاعوا؛ حتّى أقرّ بعضهم أنّه ممنوع منهم، وأنْ لا طاقة لهم بقتله.

ج)– الاستدراك الثالث: تشوُّف "بول-Buhl" إلى القضاء على المسلمين في هذه الغزوة: يبدو أنّ نشوة المستشرق "بول" بالانتصار الجزئي الذي حقّقه المشركون "يوم أحد" أنساه أنّ جيش المسلمين بعد أن استعادوا أنفاسهم قاموا في اليوم التالي بمطاردة جيش قريش، وأنّ المشركين أسرعوا عائدين إلى مكة خوفا من أن يُفسدوا عليهم نصرهم.

لقد أدركت قريش أنّ هزيمتها لجيش المسلمين كان فلتة استغلّوها، وعلموا أنّ جيشهم لم يكن كفءً لجيش المسلمين رغم كثرة العدد وقوّة العتاد، فقد ألحق المسلمون بهم أوّل الأمر هزيمة منكرة لولا ذلك الخطأ الفادح الذي لم يتقيّد فيه الرماة بتعليمات الرسول ﷺ.

«فمشركوا مكة رأوا فيما حدث في "أحد" فرصة يصعب تكرارها، وقد أفلتت منهم، لعلمهم أن انكسار المسلمين جاء بسبب خطأ مجموعة الرماة، وجرأة خالد وبراعته في الاستفادة من انسحاب الرماة من موقعهم، ولذلك انسحبوا سريعًا إلى بلدهم، ومكنوا فيها، و لم يخرجوا لملاقاة المسلمين بعد ذلك وحدهم، واكتفوا بالفخر الكاذب وادعاء النصر، ونشر الأكاذيب»[1].

لقد عبّر المستشرق "بول-Buhl" عن عدم رضاه - أو أسفه أحيانا- عن رجوع جيش قريش دون قضاء تام على المسلمين، ففي النصوص المذكورة آنفا يقول في مادة "أحد": «**ومن حسن الحظ أنّ المكيّين الذين كانوا أقلّ تجربة بالشؤون العسكرية لم يعرفوا كيف يصلون نصرهم، وأخذوا في الرجوع إلى ديارهم**»، وقال في مادة" محمد ﷺ": «**وكان من حسن حظه أن المكيين لم يصلوا نصرهم بمطاردة المنهزمين**»، وقال في مادة "[أبو] سفيان": «**ولكنه لم يعرف كيف يستغل هذا النصر، وأضاع فرصة القضاء على خصمه الخطير**»؛ فيُستشفّ من هذه العبارات، أنّه يتحسّر على عدم قضاء جيش قريش على المسلمين قضاء مبرما، وقد **كرّر ذلك في أربع مواضع**؛ والموضع الرابع في مادة "محمد ﷺ" أيضا حيث يقول في سياق كلامه عن غزوة الخندق: «**أدركت** [أي: قريش] **ضرورة احتلالها للمدينة، وهو ما كان ينبغي عليها القيام به فور انتصارهم في أحد**»[2]، لكنّ عدم إحاطة "بول-Buhl" بمجريات الأحداث إحاطة تامة، أو ربما تَحمّسه الزائد لِحلم القضاء على الإسلام في بداياته، هو ما جعله يغفل عن أنّ **المشركين لم يكونوا قادرين أصلا على القضاء المبرم على جيش المسلمين، أو غزو المدينة**، وإلاّ لَما تردّدوا لحظةً في ذلك، وهو ما تشير إليه بعض الروايات عند ابن إسحاق والواقدي.

[1]– السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 390.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9142/30.

• **ومن الشواهد** التي تدلّ على أنّ **جيش قريش لم يستطع القضاء المسلمين** أو غزو المدينة في "أُحُد":

– **الشاهد (1)**: أنّهم بلغوا حدّا كبيرا من التّعب؛ لأن كرّهم كان بعدما فرّوا، وفشلوا في محاولات الاختراق، فأنْهَكَهم طول المعركة وصلابة المسلمين في المقاومة، يقول اللواء "محمود شيت خطاب": «وبلغ الإعياء برجال قريش حداً بالغا، وفشلت محاولاتهم الهجومية المتكررة للقضاء على المسلمين نهائيا؛ فقررت قريش إنهاء القتال»[1].

– **الشاهد (2)**: إدراكهم أنّهم لو انطلقوا إلى المدينة؛ فإنّ جيش المسلمين يستطيع إعادة لَمِّ شمله، والغارة عليهم من خلفهم، فيقعون في خطأ فادح.

من أجل ذلك خافوا الإخفاق؛ خاصّة وأنّ المدينة محصّنة، مع إمكان اجتماع جيش المسلمين من جديد على خطّة محكمة، فينقلب نصرهم لِهزيمة[2].

لذا رجعوا سِراعاً كما في قول "بول-Buhl" نفسه "**فانصرفوا عائدين سريعا إلى مكة**"؛ وفي عبارته إشارة إلى أنّهم حاولوا المحافظة على هذه النتيجة التي حقّقوها، لأنّهم لا يعلمون كيف ستكون نتيجة تصرّف آخر قد يفسد عليهم نصرهم، في حين يتكلّم "بول-Buhl" وكأنّه موقنٌ بنتيجته.

– **الشاهد (3)**: كما أنّ هناك رواية غفل عنها المستشرق- فيما يبدو- تشير إلى أنّ هذه الفكرة راودت بعض كفار قريش، لكن اختلفوا ولم يتّفقوا عليها لأنّها غير مضمونة العواقب، وقد تقلب نتيجة المعركة، حيث جاء في رواية الواقدي: «...ثُمّ رجع الْمشركون نحو عسكرهم وتآمروا في المدينة وفي طلبِنا، فالقوم على ما هم عليه من الاختلاف»[3].

– **الشاهد (4)**: أنّهم رأوا أنّ هذا النصر كاف للثأر لمعركة بدر الذي خرجوا من أجله؛ وإن كان لا يكفي لتوهين عزائم المسلمين، لأنّ النبي ﷺ صبّحهم من غده يطاردهم، ولم يرجعوا لِلقائه.

– **الشاهد (5)**: لقد أدركت قريش أنّ ما أحرزته في "أُحُد" فلتة يُستبعد أن تتكرّر، لذا جبنوا عن اللقاء بعد أحد مرتين، الأولى في "حمراء الأسد" بعد يوم من أُحُد، والثانية في "بدر الموعد"، كما أنّهم لم يتجرّأوا بعد أُحُد على قتال المسلمين إلاّ وقد حزبوا الأحزاب من كل حدب وصوب، كلّ تلك الشواهد تدلّ على معرفهم بأنّهم ليسوا أكفاء لِمناجزة جيش المسلمين وحدهم.

---

[1]– الرسول القائد، 183. وينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 392/2.

[2]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 185. وفقه السيرة، الغزالي، 272.

[3]– مغازي الواقدي، 238/1. وهو ما ذكره المقريزي أيضا في: إمتاع الأسماع، 147/1.

– **الشاهد (6)**: كما أنّ الرسول ﷺ لم يغفل عن إمكانية مهاجمة "جيش قريش" للمدينة؛ فقد ذكر ابن إسحاق: أن الرسول ﷺ أرسل علياً ليعرف وجهة قريش، وهل تنوي غزو المدينة أم العودة إلى مكة، فجاء بخبر مسيرهم إلى مكة[1]؛ وفي ذلك دلالة: على استعداد النبي ﷺ لمقاتلتهم لو قصدوا المدينة.

وعليه يمكن القول إنّ "بول-Buhl" لم يتمعّن جيدا في أحداث نهاية المعركة، ولو تأملّ جيدا في وقائع آخر المعركة كما أوردها ابن إسحاق والواقدي -وهما من مصادره- لأدرك هذه الحقائق، ولَما أطلق تلك العبارات، التي تنضح بالتأثّر البالغ بالخلفيّات العقدية والفكرية، والتعاطف مع مشركي قريش.

المطلب الثالث : في أعقاب المعركة

الفرع الأول : تضميد جراح النبي ﷺ

– جاء في مادة "**سعد بن عبادة**"[فقرة: 4]: «**شهد غزوة أحد، حيث عنِي هو وسعد بن معاذ بالنبي ﷺ الذي كان قد أصابه جرح**»[2]. المحرر هو المستشرق: **تسترشتين** –Zetterstéen[3].

– وجاء في مادة "**فاطمة**"[فقرة: 5]: «**بعد معركة أحد اهتمت فاطمة بجروح النبي فطببتها، كما كلفها النبي ﷺ وكذلك زوجها بتنظيف سيفيهما مما علق بهما من دماء**»[4].

المحررة هي المستشرق: **ف. فاجليري** – V. Vaglieri[5].

أُصيب النبي ﷺ يوم أحد في ركبتيه، فكان يَتّكئُ على "سعد بن عبادة" و"سعد بن معاذ" رضي الله عنهما حتّى دخل بيته[6]، كما ذكر "تسترشتين" في مادة "سعد".

كما اعتنت بنت الرسول ﷺ فاطمة رضي الله عنها بجراحه، وتنظيف سيفه وسيف زوجها عليّ رضي الله عنه من الدّم، قال ابن إسحاق: «فلمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «اغسِلي عن هذا دمه يا بنيّة، فو الله لقد صدقني اليوم، وناولَها عليّ بن أبي طالب سيفه، فقال: وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه، فو الله لقد صدقني اليوم»[7].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 94/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 393/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 407/4.

[3]– سبقت ترجمته في: ص112.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7715/25.

[5]– سبقت ترجمتها في: ص336.

[6]– ينظر: مغازي الواقدي، 248/1 و294.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 100/2.

وجاء في "الصحيحين" عن سهل بن سعد ﷺ قال: «كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدمّ [أي: عن وجهه ﷺ]، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن[1]، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقته حتى صار رمادا، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدّم»[2].

الفرع الثاني: تشييع قتلى أحد ومواساة المسلمين

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**أحد**"[فقرة: 4]: «**وليس من السهل أن نحصل على فكرة واضحة عن معاملة القتلى، إذ إنّ النقول تختلف أشدّ اختلاف، فيقال إنّ المدينيين أحضروا موتاهم أول الأمر إلى المدينة، غير أنّ النبي ﷺ سرعان ما منع هذا؛ وبعض هذه النقول يسمي قبراً عاما وضع فيه حفظة القرآن في الصف الأول، وأما عن الآخرين فقد دفن الشهداء فرادى أو اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة...**

ويقال إنّ النبي ﷺ كبّر عليه [أي: حمزة ﷺ] أوّلاً، وإنّ جثث الموتى الآخرين وضعت إلى جانبه واحدا إلى جانب الآخر، وصلّى عليهم محمد ﷺ سبعين مرّة، وكان يضمّن اسم حمزة الصلاة على كلّ جثّة جديدة، وكان النبي ﷺ يذهب بعد ذلك إلى أحد كلّ سنة ليزور قبر حمزة والقبور الأخرى»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 77]: «**وقد نجح محمد ﷺ في أن يَحول دون وقوع عواقب سلبية في المدينة لهزيمة أحد**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl.

ثانيا- التحليل والمناقشة: تكلّم المستشرق "بول -Buhl" عن شهداء أحد، وذكر بأنّ الروايات في ذلك مختلفة أشدّ الاختلاف، بحيث يصعد تحصيل فكرة واضحة عن كيفيّة معاملة النبي ﷺ لقتلى أحد، يقصد بذلك الصلاة عليهم ودفنهم، لكن فاته أنّ هذا التعارض الوارد بين الروايات يمكن فكّه بالاعتماد على قواعد علمية موضوعيّة قرّرها علماء الإسلام في هذا الشأن، بحيث يُتوصّل من خلالها إلى الترجيح أو الجمع بين تلك الروايات، ولَمّا كان منهج المستشرقين في الغالب يقوم على عدم التقيّد بتلك القواعد، والاعتماد على عوامل ذاتية اصطنعوها، فكثيرا ما يقصر بهم التحليل عن الوصول إلى نتيجة علمية دقيقة

---

[1]– **الْمِجَنّ**: هو التّرس الواقي من ضربة السيف. ينظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 308/1. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار مع فريق عمل، 408/1.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد، 465/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، 205/12. وهذا اللفظ لِمسلم.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 453/2.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9141/30.

في هذا الشأن؛ وسأحاول إعطاء فكرة واضحة بإيجاز عن مسألة دفن قتلى أحد والصلاة عليهم، اعتماداً على المرجّحات العلمية التي قرّرها علماء الحديث والسيرة، وذلك في النقاط الآتية:

[1]– الصلاة على شهداء أحد: اختلفت الروايات في إثبات الصلاة على شهداء أحد ونفي ذلك:

أ)– فثبت عن بعض الصحابة الذين واكبوا الموقعة أنّ النبي ﷺ لم يصلّ عليهم: ففي "صحيح البخاري" **عن جابر** رضي الله عنه – وهو شاهد عيان–: أنّ النبي ﷺ: «أمَرَ بدَفْنهم بِدمائِهم، **ولَمْ يُصلِّ** عليهم، ولَمْ يُغَسّلوا»[1].

وصحّ ذلك أيضا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه[2].

ب)– ووردت روايات في إثبات الصلاة عليهم قبل دفنهم؛ بعضها تفيد أنّ النبي ﷺ صلّى على حمزة فحسب[3]، وبعضها تفيد بأنّه صلّى عليهم عشرةً عشرةً[4]، وبعضها تفيد أنّه صلّى عليهم سبعين صلاة، يصلّي على حمزة رضي الله عنه مع كلّ واحد منهم[5]؛ ومعنى هذه الرواية الأخيرة: أنّه "كان يُأتى بالرجل فيوضع إلى جانب "حمزة" فيصلّى عليهما معا، ثم يُرفع الرجل ويُترك حمزة في مكانه، ويُأتى برجل آخر فيوضع إلى جانب حمزة، وهكذا في كلّ مرّة يُوضَعون إلى جنب حمزة، فيُصلّى عليهم وعليه معهم"[6]، وليس المقصود ما ذكره "بول-Buhl": من أنّه "**كان يضمّن اسم حمزة في الصلاة على كلّ جثّة جديدة**"؛ فإنّ الصلاة على الجنازة لا تقتضي ذكر اسم من يُصلَّى عليه، فلم يفهم المستشرق الرواية جيّدا.

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، 267/3، وكتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد، 468/7.

[2]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب الجنائز، باب ما جاء في الرخصة في ذلك، 82/4. **وأحمد**، المسند، 312/19. **والحاكم**، المستدرك، كتاب الجنائز، 520/1. والحديث صحّحه الحاكم وحسّنه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

[3]– ينظر: **سنن أبي داود**، (عون المعبود)، كتاب الجنائز، باب في الشهيد يغسل، 286/8. **ومستدرك الحاكم**، كتاب الجنائز، 519/1. من **حديث أنس** رضي الله عنه؛ لكنّ لفظ "لم يصلّ على أحد غيره" فيه: غير محفوظ لِمخالفته روايةَ الأوثق؛ بِهذا أعلّه البخاري والترمذي والدارقطني، والغلط فيه من "أسامة بن زيد الليثي" يروي عن الزهري وغيره: كان **يخطئ**. كما بيّن ابن حجر في: "التلخيص الحبير، 272/2" و"تهذيب التهذيب، 209/1" و"فتح الباري، 268/3"، والمباركفوري في "تحفة الأحوذي، 110/4".

[4]– ينظر: السنن الكبرى، البيهقي، 18/4. وهو مرسل كما ذكر البيهقي، وانتقد الشافعي متنه من حيث أنّ الصلاة على سبعين شهيدا عشرة عشرة لا تكون سبعين صلاة. ينظر: نصب الراية، الزيلعي، 312/2. والتلخيص الحبير، 275/2.

[5]– ينظر: مسند أحمد، 419/7. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 11/3. من حديث **ابن مسعود** رضي الله عنه؛ وضعّف إسناده ابن كثير في "البداية والنهاية، 429/5"، لضعف ابن السائب.

ولم يثبت ذلك أيضا: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما؛ من طريق: **ابن إسحاق** في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 97/2": وهو ضعيف، ففي إسناده مجهول حيث قال ابن إسحاق "حدّثني من لا أتّهم"، وضعّفه البيهقي "السنن الكبرى، 19/4–20" وابن كثير "البداية والنهاية، 428/5"، ومن طريق "**يزيد بن أبي يزيد**" عند البيهقي "السنن الكبرى، 19/4"، وضعفه البيهقي لضعف "ابن أبي يزيد".

[6]– ينظر: مسند أحمد، 419/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 97/2.

لكنّ هذه الروايات في إثبات الصلاة عليهم قبل دفنهم أضعف من أن تعارِض الروايات الصحيحة في نفيها، وهناك روايات أخرى في ذلك لا تخل من مقال، وقد تعرّض ابن القيم وابن كثير وابن حجر لذكر جملة من هذه الأحاديث وبيان درجتها من القوّة فتراجع هناك[1].

قال الشافعي: جاءت الأخبار كأنّها عيان من وجوه متواترة أنّ النبي ﷺ لم يصلّ على قتلى أحد، وما روي أنّه صلّى عليهم سبعين تكبيرة لا يصحّ[2].

وقال ابن القيم: «والذي يظهر مِن أمر شهداء أُحُد أنّه لم يصلِّ عليهم عند الدّفن، وقد قُتل معه بأُحُد سبعون نفسًا فلا يجوز أن تَخفى الصّلاة عليهم»[3].

ويقول أكرم ضياء العمري: «وردت روايات تفيد الصلاة على شهداء أحد لكنها لا تقوى على معارضة أحاديث نفي الصلاة عليهم، فكلّها متكلم فيها»[4].

ج)– بينما ثبت في الصحيحين أنّ النبي ﷺ صلّى عليهم بعد ذلك بعدّة سنوات كالمودّع؛ فعن عقبة بن عامر ﷺ أنّه قال: «صلّى رسولُ الله ﷺ على قتلى أُحُد بعد ثماني سنين؛ كالْمُودِّع للأحياء والأموات»[5]، والصلاة هنا يُحتمل أن تكون صلاة الجنازة المعهودة، أو الدعاء والاستغفار لهم[6].

وفق هذه المعطيات التي تقدّمها الروايات السابقة، ونظرة علماء الحديث والسيرة إليها سندا ومتنا يمكن الخروج بفكرة واضحة حول صلاة النبي ﷺ على قتلى أُحد كالتالي:

– لم تثبت الصلاة على قتلى أحد قبل دفنهم: والروايات في ذلك ضعيفة من جهة: ضعف رواتِها، أو انقطاعها، زيادة على مخالفتها للروايات الصحيحة التي تنفي الصلاة عليهم، كحديث جابر ﷺ وهو شاهد عيان، وأبوه من شهداء أحد فكان متابعا للحادثة كما نبّه البيهقي.

– بينما ثبتت صلاة النبي ﷺ عليهم بعد ذلك بثمان سنين وهم في قبورهم، مع احتمال أن يكون المقصود بِها الدعاء لهم كما قرّر الشافعي وغيره.

[2]– دَفْن شهداء أحد: أمر رسول الله ﷺ أن يدفن شهداء أحد حيث ماتوا، وقد كان بعض أهالي الشهداء نقلوهم إلى المدينة المنورة ليدفنوا فيها، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «كنّا حَمَلنا القتلى يوم

---

[1]– ينظر على الترتيب: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 283/8-284. والبداية والنهاية، 428/5-430. والتلخيص الحبير، 272/2-275. وتحفة الأحوذي، المباركفوري، 110/4.

[2]– فتح الباري، ابن حجر، 267/3.

[3]– حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (مع عون المعبود)، 284/8.

[4]– السيرة النبوية الصحيحة، 394/2.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، 267/3، وكتاب المغازي، باب غزوة أحد، 435/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، 84/15. واللفظ للبخاري.

[6]– ينظر: شرح النووي على مسلم، 84/15. وفتح الباري، ابن حجر، 269/3. وعون المعبود، العظيم آبادي، 32/9.

أحُد لندفنَهُم، فجاء منادي رسولِ اللهِ ﷺ فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ يأمرُكُم أن تَدفنوا القتلى في مضاجعِهم[1]، **فرَددناهم**»[2]، وفي لفظ آخر عند أحمد أنّ جابراً ﷺ قال: «... جاءت عمّتي بأبِي وخالي عَادِلتَهما على ناضحٍ، فدَخلَت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لَحق رجل ينادي: "ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت"؛ **فرجَعْنا بِهما فدَفنَّاهما حيث قُتلا**»[3].

أمّا ما ذكره الواقدي: أنّ كثيرا من الناس حملوا قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم هناك، ثم نادى منادي رسول الله ﷺ: "ردّوا القتلى إلى مضاجعهم"، وكان الناس قد دفنوا قتلاهم، فلم يُردّ أحد إلا رجلاً واحداً أدركه المنادي و لم يُدفن، وهو شماس بن عثمان المخزوميّ[4].

ذكر الواقدي هذا الخبر دون سند، ونقل ذلك عنه ابن سعد والمقريزي[5]؛ لكن رواية الواقدي غير مقبولة ولا موثّقة تاريخيا لثلاثة أسباب:

- **الأول:** أنّه ذكر ذلك من غير سند. - **والثاني:** ضعف الواقدي.
- **الثالث:** وهو الأهم، مخالفتها للرواية السابقة الصحيحة الموثقة عند الترمذي وأبي داود وأحمد.

فالرواية ضعيفة لضعف الواقدي، وزادها ضعفا ونكارة سياقه لها دون سند، ومخالفتها للصحيح الموثّق بالإسناد المتّصل عن جابر ﷺ.

[3]- كيفية دفنهم: إذا كان الخلاف في الأمرين السابقين موجود حقيقة بين الروايات فلم يهتد المستشرق "بول-Buhl" إلى الترجيح بينها، لافتقاده قواعدَ الترجيح أو الجمع بين الروايات، فإنّ الموضوع التالي لم يقع فيه خلاف بين الروايات أصلا، بل هو وهمٌ قد يكون نابعا من سوء فهم الروايات، وعدم إحاطته بأجواء الحادثة وكيفية دفن الموتى في الإسلام، حيث ذكر المستشرق "بول" أنّ هناك روايات تخبر أنّ بعض "القتلى دفنوا في قبر واحد، وجُعل حفظة القرآن منهم في الصفّ الأول" وهذا أمر لم تذكره الروايات أصلا، وإنّما هو استنتاج خاطئ نتيجة عدم فهمه للروايات الواردة في ذلك، وهي:

- حديث جابر ﷺ: «أنّ رسول الله ﷺ كان يَجمع بين الرّجلين من قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثُمّ يقول: ((أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟))، فإذا أشير له إلى أحدهما قَدَّمه في اللّحد»[6].

---

[1]- أي: ادفنُوهم في الأماكن التي قُتلوا فيها. ينظر: عون المعبود، العظيم آبادي، 310/8.

[2]- أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، كتاب الجهاد، باب ما جاء في دفن القتيل في مقتله، 309/5. **وأبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجنائز، باب في الميت يحمل من أرض إلى أرض، 310/8. وصّححه الترمذي.

[3]- أخرجه: **أحـــمد**، المسند، 419/23. وصححه الأرنؤوط.

[4]- ينظر: مغازي الواقدي، 312/1.

[5]- ينظر: الطبقات الكبرى، 34/2. وإمتاع الأسماع، 174/1.

[6]- هذا اللفظ في: صحيح البخاري (الفتح)، 270/3-271، وسبق تخريج حديث جابر ﷺ في: ص828.

– وحديث هشام بن عامر الأنصاري ﷺ قال: «شُكي إلى رسول الله ﷺ الجراحات يوم أحد، فقال: ((احْفِرُوا، وَأَوْسِعُوا، وَأَحْسِنُوا، وَادْفِنُوا الاثْنَيْنِ وَالثَّلاثَةَ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، وَقَدِّمُوا أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا))»[1]، وفي رواية أبي داود: أنّ الأنصار قالوا للنبي ﷺ: «أصابَنا قَرْحٌ وجَهْدٌ، فكيف تَأمُرنا؟».

– وحديث أنس ﷺ قال: «... فكثُر القتلى وقلّت الثياب، فكُفِّن الرّجل والرّجلان وَالثّلاثة في الثّوب الواحد، ثُمّ يُدفنون في قبر واحد، فجَعَل رسول الله ﷺ يَسأل عنهم: ((أَيُّهُمْ أَكْثَرُ قُرْآنًا؟))، فيُقَدِّمُه إلى القبلة»[2].

وهذه الأحاديث تفيد أنّ النبي ﷺ أرخص للصحابة ﷺ أن يجعلوا الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وفي كفن واحد للضرورة، بسبب ما كان بِهم من الجراح والجهد الذي يشق عليهم معه أن يحفروا لكل واحد قبرا خاصّا به[3]، كما يبيّنه حديث هشام بن عامر ﷺ، وفي الكفن الواحد بسبب قلّة الثياب وكثرة القتلى كما يوضّحه حديث أنس ﷺ.

وليس في هذه الروايات ولا في غيرها ما يدلّ على أنّ جميع قتلى أُحُد دفنوا في قبر واحد، وجُعل حفظة القرآن منهم في الصفّ الأول منه، ودفن البقية اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة كما فهم "بول Buhl-" خطأً، وإنّما معنى هذه الأحاديث أنّهم كانوا يقدّمون في كلّ قبر يدفنون فيه الاثنين أو الثلاثة مَن هو أكثر حفظا للقرآن، لا أنّهم جُعِلوا في صفّ واحد.

وهو ما توضّحه أيضا روايات بقيّة أئمة السيرة والتاريخ مِمن يُعنون بتفاصيل وقائع السيرة كابن إسحاق والواقدي وابن سعد والبلاذري والبيهقي وغيرهم[4].

[4]– أمّا زيارة النبي ﷺ لقبور شهداء "أحد" كل عام؛ فجاءت عند الطبري من مرسل مُحمد بن إبراهيم التيمي قال: «كان النبي ﷺ يَأتي قبور الشّهداء على رأس كلِّ حولٍ، فيقول: "السّلام عليكم بِما صبرتُم، فنعم عقبى الدّار"»[5]، وسنده ضعيف[6].

---

[1]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، كتاب الجهاد، باب ما جاء في دفن الشهداء، 303/5. **وأبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجنائز، باب في تعميق القبر، 25/9. وصحّحه الترمذي، واللفظ له.

[2]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة)، أبواب الجنائز، باب ما جاء في قتلى أحد، 82/4. **وأبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجنائز، باب في الشهيد يغسل، 285/8. **وأحمد**، المسند، 311/19. وحسّنه الأرنؤوط في تحقيق المسند، واللفظ للترمذي.

[3]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 433/5. وتحفة الأحوذي، المباركفوري، 108/4. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 215/2.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 98/2. ومغازي الواقدي، 310/1. والطبقات الكبرى، 33/2–34. وأنساب الأشراف، 336/1. ودلائل النبوة، 295/3–297. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 174/1.

[5]– تفسير الطبري، 513/13.

[6]– قال الزيلعي في "تخريج أحاديث الكشاف، 190/2": «معضل». وبيّن الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة، 306/14": أنّ إسناده ضعيف من جهة الإرسال، ومن جهة الانقطاع بين سهيل بن أبي صالح ومحمد بن إبراهيم إذ لم يُذكر في شيوخه.

وذكر الواقدي ذلك من غير سند، ونقله عنه البيهقي وابن كثير[1].

[5]- طرق معالجة الموقف وتخفيف مصيبة "أُحُد": قال المستشرق "بول -Buhl" في مادة "محمد/ فقرة:77": "**نجح محمد ﷺ في أن يَحول دون وقوع عواقب سلبية في المدينة لهزيمة أحد**"، لكنّ تحليله لِهذا النجاح كان قاصراً عندما قال في مادة "أحد/ فقرة:4": "**حاول بكلّ ما أوتي من فصاحة أن يرفع معنويات أتباعه سواء بالنصح أو بالتقريع**"، فقصر علاج النبي ﷺ للموقف على استعمال فصاحته فقط لرفع معنويات المسلمين بعد أحد، وتجاهل بذلك معطيات هامة تقدّمها وقائع السيرة وتعطي صورة متكاملة عن عدة وسائل استعملها النبي ﷺ لتخفيف وطأة المصاب الجلل، ولرفع معنويات جنده المنكسرة، ومن أهم تلك العوامل:

أ)- مواساة النبي ﷺ للمسلمين: كان على النبي ﷺ أن يعالج الموقف بعد أُحُد من الناحية النفسية عند المسلمين، لذا فإنه عفا عن كلّ مسيء في المعركة، و لم يُحمّل أحدًا بعينه ممن حضرها نتائجها، بل جعل المسؤولية عامة[2].

وامتلأت بيوت الأنصار والمهاجرين بالحزن على قتلاهم، فلما رجع الرسول ﷺ إلى المدينة سالِما وجد الجميع العزاء في سلامته ﷺ، فواساهم رسول الله ﷺ، وبشّر المسلمين بالأجر العظيم الذي ناله الشهداءُ من ذويهم، فرضوا بما قُدّر لهم، وصبروا على ما أصابهم[3]، ومن ذلك ما قاله الرسول ﷺ لابنة عبد الله بن عمرو "والد جابر بن عبد الله": ((فَلِمَ تَبْكِي؟ -أَوْ لاَ تَبْكِي- فَمَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ))[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: «قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ))، قال: فأَنزَل اللهُ: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا** ﴾ [آل عمران: 169] إلى آخر الآية»[5].

---

[1]- ينظر: مغازي الواقدي، 313/1. ودلائل النبوة، 308/3. والبداية والنهاية، 442/5.

[2]- ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 360.

[3]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 395/2. والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، أحمد غلوش، 364.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، 208/3. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام، 37/16. من حديث جابر رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

[5]- أخرجه: **أبو داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهداء، 140/7. **والحاكم**، المستدرك، كتاب الجهاد، 97/2. وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسّنه الأرنؤوط في تحقيق المسند، واللفظ لأبي داود.

ب)- مواساة القرآن: ثم إن القرآن الكريم نزل مواسيًا للمسلمين معالجًا لجرح نفوسهم، مذكيًا الروح المعنوية فيهم، مذكّرًا إياهم بأن الحرب سجال والأيام دول، وأنهم لكي ينتصروا لا بد أن تكون لديهم القدرة على مواجهة النّكبات، فإن القدرة على تقبل هذا المصاب أقوى أنواع الانتصار، ثم يثير فيهم العظة المستفادة من هذه المعركة حتى يستعدوا لِما بعدها من أيام[1]، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: 139-140]؛ فبيَّن الله - سبحانه وتعالى- أن ما أصابهم يجب ألا يؤثّر في جدّهم واجتهادهم في جهاد العدو؛ وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوَّهم مثله من قبل في "بدر"، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فالمسلمين أولى بأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق[2].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165]؛ وذلك أنّه قُتل من المسلمين يوم أُحُد سبعون (70)، بينما قَتَل المسلمون مِن المشركين يوْم بدرٍ سبعين (70) وأَسروا سبعين (70)، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدرٍ مِثلَي الْقتلى من المسلمين يوم أحد[3]، وكانت خسائر المسلين يوم أحد نصف خسائر المشركين يوم "بدر".

كما بشرهم الله ﷻ بالفضل العظيم للشهداء، وما أعدّه سبحانه لهم من النعيم المقيم.

لقد جاءت معركة "أُحُد" تعليما قيّما للمسلمين، عَبْر دروب صراعهم المرير ضد الأعداء، وكأن إرادة الله شاءت أن يَكبُوَ المسلمون هذه الكبوة، بعد سلسلة الانتصارات التي حقّقوها قبل بدر وبعدها، لأن الانتصار الدائم يعرّض الجماعة لنوع من اليقين الأعمى والاتّكالية السالبة، ويحشر في صفوفهم الكثير من ضعاف الإيمان وطالبي المغانم، فلابد من هزّة عنيفة تنخل المنتمين إلى الدعوة، وتطهّر الصف الداخلي، ليتميّز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران: 166-167][4].

وقد أشار المستشرق "بول -Buhl" إلى الآيات الكثيرة التي نزلت في شأن غزوة أحد من سورة "آل عمران"، وهي الآيات من (121) إلى (179) كما ذكر ابن إسحاق وابن كثير[5].

---

[1]- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 360.

[2]- ينظر: تفسير الرازي، 371/9.

[3]- ينظر: تفسير ابن كثير، 158/2. وفتح القدير، الشوكاني، 454/1.

[4]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 213/3-215. وفتح الباري، ابن حجر، 433/7. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 167.

[5]- ينظر: البداية والنهاية، 463/5-464. وفتح الباري، 434/7.

لقد ظل القرآن الكريم طيلة العهد المدني -وقبله في العهد المكي- يعلّم المسلمين بالتجارب والأحداث، ويبصّرهم بمواطن الموعظة والعبرة فيها، وهكذا عاون القرآن في شفاء نفوس المسلمين حتى عادت إليها سلامتها بسرعة[1].

ج)- مطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد: بادر الرسول ﷺ في اليوم التالي لِمعركة أحد بالتحرك السريع، وقام بمناورة عسكرية استهدفت تحقيق أهداف عدة منها: استعادة موقع المسلمين والاحتفاظ بمكانتهم، وإرهاب الأعداء، وإشعارهم بأن المسلمين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية، وأن هزيمة أحد لم توهنهم عن أهدافهم، ومنها رفع معنويات المسلمين وإزالة الآثار النفسية المؤلِمة، التي خلفتها معركة أحد، والتي كان بإمكانها أن تحفر في نفوسهم خنادق وحفرا لا تمحوها الأيام[2].

فأمر الرسول ﷺ الجيش الذي شهد "أحدا" أن يخرج لِمطاردة جيش قريش رغم إصابة الكثيرين منهم بالجراح، ولم يأذن لسواهم بالاشتراك في حملة المطاردة هذه، وتحامل المسلمون على جراحاتهم، وقد استردوا روحهم المعنوية، فلم يتخلف منهم أحد، وحتى من أثقلته جراحه لم يرد أن يفوته من أمر القتال شيء، لأن روح الإيمان في قلوب المسلمين لم تهن ولم تضعف؛ فأظهروا من الصبر والجلد وشجاعة النفس ما يعتبر مثلاً فذًّا في تاريخ الحروب[3].

وعسكر المسلمون بـــ"حمراء الأسد"، فلمّا بلغ ذلك أبا سفيان خشي أن أن تكون الكرّة عليهم، فلجأ إلى حيلة وحاول أن يغري المسلمين بالعودة إلى المدينة، حيث أوصى الركب الذي مرّ عليه قاصداً المدينة، أن يبلغوا المسلمين بأنّ قريشا قد أجمعت السير إليهم، فمرّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بما قال أبو سفيان! بيد أنّ المسلمين قبلوا التحدّي، وظلوا في معسكرهم ثلاثة أيام، في انتظار قريش التي ترجّح لديها أنّ النجاة بنفسها أولى، فعادت إلى مكة، فلما علم المسلمون بانسحاب قريش عادوا إلى المدينة، ليدخلوها مرة أخرى أرفع رؤوسا، وأعزّ جانبا[4].

لقد كان لهذا التحرك الأثر البالغ في إحياء الروح القتالية للمسلمين من جديد، ورفع معنوياتهم سريعا، واسترجاع شجاعتهم وثقتهم بأنفسهم، كما برهن هذا التحرك على إدراك المشركين بأنهم ليسوا ندا للمسلمين، وإنْ هزموهم في جولة قتالية نتيجة خطأ غير مقصود، ولو كانوا يجزمون

---

[1]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 267. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 361. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 167.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 397/2. ودراسة في السيرة، 166.

[3]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 454/5-455. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 361. والسيرة النبوية الصحيحة، 397/2. والسيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 367.

[4]- ينظر: البداية والنهاية، 454/5-459. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 228/2-229. وفقه السيرة، الغزالي، 273.

بقدرهم على مناجزة المسلمين لما تردّدوا في الرجوع إلى "حمراء الأسد"[1] من أجل القضاء تماما على المسلمين، واستئصال شأفتهم وغزو المدينة، وهم الأكثر عددا وعدّة، لكنّهم يعرفون جيداً قوّة المسلمين النابعة من إيمانهم الراسخ بالله ورسوله ﷺ، ويدركون أنّهم عاجزون عن ذلك.

كما كان لهذا التحرك الجريء أثر هام في استرجاع هيبة المسلمين، بحيث أظهرت حملة "حمراء الأسد" قدرة المسلمين على التحرك العسكري خارج المدينة، وأنّهم لا يزالون أقوياء وقادرين على منازلة الأعداء رغم ما أصابهم في أحد[2].

لا يبدو أنّ مثل هذه الوقائع غابت عن المستشرق "بول -Buhl"، أو لم يطّلع عليها، ولكنّه **منهج الانتقاء الكيفي**، جعله يخفي مثل هذه المعطيات التي تدلّ على إيمان المسلمين العميق بجزاء تضحياتهم الكبيرة في سبيل الله ودينه من جهة، ومن جهة أخرى على عظمة النبي ﷺ في سياسة الأمور وقدرته على مواجهة التحديات وتجاوز المصاعب والنكبات الكبرى.

إنّ "بول -Buhl" عندما يتكلّم عن أثر فصاحة النبي ﷺ في علاج هذا المصاب، يحاول أن يخلع في تحليله هذا صفة النبوة عن محمد ﷺ، ويحلّل الحادثة بعيدا عن هذا السياق، لكنّ هذا غير ممكن، لأنّ المستشرق "بول" وإن كان لا يؤمن بنوة محمد ﷺ ويحاول جهده نفيها، كما هو ديدن المدرسة الاستشراقية، فإنّه في الوقت نفسه يغفل عن أمر هام لا يمكن تجاوزه في قراءة تلك الأحداث، وهو أنّ هؤلاء المسلمين الذين صحبوا النبي ﷺ كانوا يؤمنون بنبوته ويجزمون بأنّه يوحى إليه، وأنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى؛ لذا أثّر فيهم كلام النبي ﷺ وما نزل من القرآن في الحادثة أيّما تأثير، ورفع عزائمهم وقوى نفوسهم، وصانها من الوهن والفشل، لأنّهم يعتقدون جازمين أنّ هؤلاء الذين سقطوا في المعركة شهداء لهم أجر جزيل وثواب عظيم عند ربهم ﷻ، وماذا تغني الفصاحة عنهم بعد كلّ ما أصابهم من القتل والجراحات؛ إن لم يكونوا يعتقدون بأنّ ذلك تضحية في سبيل الله ونصرة لدينه؟!

[6]– تنبيه حول نتيجة معركة أُحُد: جَزَم المستشرق "بول-Buhl" بأنّ معركة "أُحُد" كانت هزيمة للمسلمين؛ بيد أنّه ينبغي التنبّه إلى أنّ كثيراً من العلماء والباحثين المسلمين المعاصرين لا يوافقون على اعتبار "غزوة أُحُد" هزيمة للمسلمين[3]، وذلك من وجهين:

---

[1]– **حمراء الأسد:** جبل أحمر جنوب المدينة على مسافة عشرين كيلا (20كلم)، بين المدينة ومكة عن طريق بدر. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 468/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شرّاب، 103.

[2]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 227/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 397/2.

[3]– منهم على سبيل المثال - لا الحصر-: اللواء والباحث محمود شيت خطاب في "الرسول القائد، 186-187". وأبو زهرة في "خاتم النبيين، 863/2 و866". ومحمد النجار في "القول المبين، 253". وعماد الدين خليل في "دراسة في السيرة، 164"، وغيرهم.

– **الوجه الأول: التحليل العسكري للمعركة:** يذكر اللواء "محمود شيت خطاب" أنّ معركة أحد لا تُعتبر هزيمة للمسلمين من وجهة النظر العسكرية المعاصرة، ويبيّن ذلك قائلا: «لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة "أحد" نصرا للمشركين واندحارا للمسلمين؛ لأن مناقشة المعركة عسكريا، تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة في هذه المعركة.

ونبدأ المناقشة من **الوجهة العسكرية البحتة**، لإظهار حقيقة نتائج غزوة "أحد": [أ]– لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم وتعفير لوائهم بالتراب، ولكن التفات "خالد" وراء المسلمين وهجوم المشركين من الأمام، جعل قوات المشركين تطبق من على قوات المسلمين، هذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر، ولكن بقي النصر بجانبهم إلى الأخير.

ذلك لأن **نتيجة كل معركة لا تقاس من الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط**، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوي وهو القضاء المبرم على العدو ماديا ومعنويا؛ فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين ماديا ومعنويا؟

إن قيام المشركين بالهجوم المضاد وإطباقهم على قوات المسلمين وهم متفوقون بالعدد بنسبة خمسة أمثال المسلمين، **كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كل قوات المسلمين**، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة فواقا ساحقا على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء **خسائر عشرة بالمائة فقط** من موجودها، إلا انتصارا لتلك القوة الصغيرة.

ولا يمكن اعتبار إخفاق القوة الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة ماديا ومعنويا في مثل ذلك الموقف الحرج للغاية، نصرا لتلك القوة الكبيرة على القوة الصغيرة.

[ب]– لم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضا، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج من المدينة لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم "أحد"، دون أن تجرأ قريش على لقاء المسلمين بعيدا عن المدينة، خاصة وأن الرسول ﷺ خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت بمعركة "أحد".

[ج]– كما أن معركة "أحد" أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين صفوفهم بصورة ظاهرة، وهذا مكسب عظيم لا يقدّر بثمن ولا تعدّ خسائرهم بالأرواح إلى جانبه شيئا مذكورا»[1]؛ ويقول: «فقد نجحوا في معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام في صفوفهم بعد "أحد" على هدى وبصيرة.

[1]– الرسول القائد، 186-187 (بتصرف).

إنّ نتيجة معركة أحد "**نصر تعبوي**"[1] للمشركين على المسلمين، ولكنها "**فشل سوقي**" للمشركين، ولا يعدّ "النصر التعبوي" شيئا يذكر إلى جانب "الفشل السوقي"»[2].

– **الوجه الثاني: قياس المعركة بآثارها وما قدّمته من دروس للجند:** كانت معركة بما احتوته من دروس وعبر صقلا للمسلمين، ودرسا تعليما قيّما لهم –كما سبق بيانه–، وتقوية لإيمانهم، وتجلية لِما يجب أن يلتزموا به وهم يعملون للإسلام، وحتّى لو سلّمنا بانتصار القرشيين ظاهرًا، فإنّه انتصار مؤقت لا يلبث أن يزول، ويمكن اعتبار خسائر المسلمين في "أحد" جزء من الإعداد والتدريب، كما أنّ انكسار المسلمين يوم "أحد" كان عامل قوة لهم أدت بهم إلى انتصارات لاحقة، بعدما استفادوا من دروس "أحد"، وتمكنوا بالانتصارات اللاحقة من نشر الإسلام[3].

والملاحظ أنّ المستشرق "بول-Buhl" تَحتّل عنده موازين تقدير النصر والهزيمة؛ فهو من جهة يحاول التهوين من نصر "بدر" مع آثاره الدينية والعسكرية والسياسية الهامة، بينما لا ينظر من تلك الزاوية إلى ما يعتبره نصراً للمشركين في أحد، ولا يتكلّم عن تقدير شأن هذا النصر كما تكلّم في "بدر"، مع أنّنا لو أجرينا: مقارنة بسيطة بين المعركتين، لظهر تفوّق نصر بدر على نصر أحد جليّا، ففي بدر أصاب المسلمون (70) قتيلا و(70) أسيرا، وفي أحد أصاب المشركون (70) قتيلا، ولم يأسروا أحدا؛ وبالتالي كان ما أحرزه المسلمون في بدر –من هذه الناحية– ضِعْفَ ما أحرزه المشركون في أحد، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا**﴾ [آل عمران: 165]، ولو أضفنا إلى ذلك: قلّة عدد المسلمين وعدّتهم في المعركتين مقارنة بالمشركين، لرجّح هذا أيضا شأن نصر المسلمين في بدر.

---

[1]– "**النصر التعبوي**" و"**الفشل السوقي**" مصطلحات عسكرية، يشرحهما اللواء "شيت خطاب" فيذكر: أنّ "**التعبية**": الأعمال العسكرية في المعركة، أو هي الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير معركة واحدة فحسب.

و"**السوق**": هو الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب، أو هو الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير الحرب كلها، ذلك هو تعريف السوق والتعبية بصورة موجزة للغاية من كتب فن الحرب؛ ومن ذلك يتضح أن **السوق** يعني نتائج الحرب كلها، بينما **التعبية** تعني نتائج معركة واحدة محلية. ينظر: المصدر السابق، 193 (الهامش).

[2]– المصدر نفسه، 193 (بتصرف).

[3]– ينظر: السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 380. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 167.

المبحث الرابع : النشاط العسكري بعد "أُحُد" حتى غزوة "الخندق"

يتناول هذا المبحث ما ورد ذكره في "دائرة المعارف" من الغزوات والسرايا ابتداء من السنة الرابعة للهجرة (4 هـ)، إلى غاية غزوة الخندق في أواخر السنة الخامسة من الهجرة (5 هـ).

المطلب الأول : جملة من البعوث والسرايا في السنة الرابعة للهجرة

الفرع الأول : سريّـة أبي سلمة وبعثُ عبد الله بن أنيس

– جاء في مادة "**أسد**"[فقرة: 2]: «**ونجد ذكرا لبني أسد في عهد النبي عام (624م) فقد رأى رجلان من وجوههم أنهما يستطيعان الإفادة مما ظنوه ضعفا في مركز النبي بعد وقعة أحد عام (624م)، فزيّنا لقبيلتهما غزو المدينة، إلا أن جماعة من ذوي البصر بالأمور حذروا قومهم من القيام بهذه الغزوة، ولكن بلا جدوى، وبينما كان بنو أسد يتهيّأون لها علم النبي بأمرهم، ولما كانت سياسته القضاء على كل حركة في مهدها فقد أرسل إليهم مائة وخمسين مقاتلا بقيادة رجل محنّك وهاجموهم وأرغموهم على الفرار فخلّفوا للمسلمين غنيمة كبيرة من الإبل والأغنام، وكان الرجل الذي أخبر النبي بعزم بني أسد على غزو المدينة من بني طيء**»[1]. المحرر هو المستشرق: **ركندورف** – H.Reckondorf[2].

– وفي مادة "**طليحة**" **الأسدي** [فقرة: 2]: «**كان طليحة وأخوه سلمة على رأس بني أسد في السنة الرابعة للهجرة، وقد نزلت به الهزيمة على المسلمين في حملة قَـطَن**»[3].

محررة المادة هي المستشرقة: **فكـا** – v.vacca[4].

عندما سمع الأعراب القاطنون حول المدينة ما أصاب المسلمين في أُحُد، تَجرأ بعضهم على المسلمين، واتّضح ذلك من خلال المحاولات التي قام بها "بنو أسد" في نجد، و"بنو هذيل" في عرفات وغيرهم لغزو المدينة[5].

ولَمّا كان النبي ﷺ يعمل على حسم الشر قبل وقوعه واستفحاله[6] كما ذكر "ركندورف-Reckondorf"؛ بَعَث سريّتين للقضاء على تلك التحركات، وهما:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/2.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 257/15.

[4]– سبقت ترجمتها في: ص299.

[5]– ينظر: مغازي الواقدي، 342/1. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 878/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 398/2.

[6]– مثل: غزوة "قرقرة الكدر" ، سبقت: ص802. وينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 956/2.

أولا- سرية أبي سلمة: وصلت الأخبار إلى الرسول ﷺ بأنّ "بني أسد" بقيادة طليحة الأسدي وأخيه سَلَمة يعدّون لغزو المدينة طمعا في خيراتها، ومظاهرةً لقريش في عداوتها للمسلمين، فسارع الرسول ﷺ إلى بعث مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه، فباغتهم على ماء لهم يسمّى "قَطَن"[1]، ففروا تاركين إبلهم وماشيتهم بيد المسلمين من هول المفاجأة، فغنم ذلك كله أبو سلمة، وعاد بقوته إلى المدينة المنورة بعد أن أنجز مهمته[2].

كان ذلك في مستهل **محرم** من **السنة الرابعة** للهجرة[3].

وذكر الواقدي: أنّ الذي أخبر النبي ﷺ بأمر "طليحة" وأخيه رجلٌ من طيء قدم المدينة، وأنّ: بعض عقلاء بني أسد عارضوا هذا الرأي، وبيّنوا أنّه لا قبل لهم بمناجزة المسلمين، وأنّهم لن يستطيعوا أن يجمعوا جيشا كجيش قريش يغزون به المدينة[4]، وهي التفاصيل التي نقلها "ركندورف- Reckondorf" في مادة "أسد" عن الواقدي.

ثانيا- بَعْث عبد الله بن أنيس:

– جاء في مادة "**لحيان**": «**كما نجد اللحيانيين وقت ظهور الدعوة الإسلامية يكون شأنهم في المصادر العربية شأن بقية الهذلّيين يقفون إلى جانب قريش من الناحية السياسية، وهذا يبيّن موقعهم العدائي من محمد ﷺ ممّا أدى إلى مصرع كبيرهم سفيان بن خالد، فذبح على يد عبد الله بن [أنيس][5] في السرية التي بعث بها الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الرد على ذلك اغتيال الكثيرين من المسلمين في اليوم الذي عرف بيوم الرجيع**»[6]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[7].

في الخامس من شهر **المحرم** سنة **أربع** للهجرة جاءت الأخبار إلى رسول الله ﷺ أن خالد بن سفيان اللحياني الهذلي نزل "عُرَنة"[8] وما حولها يحشد الجموع لِحرب المسلمين.

أرسل الرسولُ ﷺ عبدَ الله بن أنيس لقتله، فخرج فلمّا وصل إلى ديار القوم وجد خالدا بعيدا عن قومه ومعه بعض النساء، فقال له خالد: من الرجل؟ قال: "رجل من العرب سمع بك، وبجمعك لهذا

---

[1]– **قطن**: موضع به ماء من مياه بني أسد بنجد، وهو جبل معروف اليوم يمرّ به الطريق من المدينة إلى القصيم، على بعد (330 كلم) من المدينة. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 473/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 227.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 342/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 495/5-460. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 398/2.

[3]– ينظر: البداية والنهاية، 495/5. والسيرة النبوية الصحيحة، 398/2.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 341/1-342.

[5]– في المطبوع "عبد الله بن عميس" وهو خطأ، والصواب "بن أنيس" كما هو مثبت في كتب السنة والسيرة.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8802/28.

[7]– سبقت ترجمته في: ص95.

[8]– **عُرَنة**: موضع عند موقف الحجيج بعرفات. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 473/2.

الرجل فجاءك لهذا"، قال: "أجل أنا في ذلك"، فمشى عبد الله معه حتى إذا أمكنته الفرصة منه قتله، ثم عاد إلى المدينة وقد كفى الله المؤمنين القتال، بعد أن تفرّقت جموع الأعراب التي حشدها خالد في "عرنة" لغزو المسلمين، لأنها فقدت قائدها، فماتت نياته العدوانية معه، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمهم لتجد فرصة تثأر فيها من المسلمين[1].

أما اسم "ابن نبيح الهذلي" فورد باسم "خالد بن سفيان" في روايات ابن إسحاق وأحمد وأبي داود والطبري وغيرهم[2]، كما ورد اسمه مقلوبا [أي: سفيان بن خالد] في بعض الراويات الأخرى عند الواقدي وابن سعد والبيهقي[3]، وهكذا ذكره "دلافيدا-della vida"، لكنّ الروايات التي تذكره باسم "خالد بن سفيان" أوثق لقوّة أسانيدها مقارنة بالروايات الأخرى.

الفرع الثاني : سريّة الرجيع

– جاء في مادة "**خُبَيب**" بن عدي الأنصاري [فقرة: 1]: «... **تتفق كافة الروايات في ذكر أهم ما تميزت به قصته على الوجه الآتي: كشف المشركون أمر سرية بعث بها النبي بعد وقعة أحد... تتألف من عشرة رهط من صحابته، فأحاط بها مائة أو (مائتا) لحياني من قبيلة هذيل فيما بين مكة وعُسفان، وكان على رأس هذه السرية التي ضيق عليها الخناق عاصم بن ثابت الأنصاري (ويقول البعض بل كان على رأسها المرثد) فرفض التسليم بشمم وإباء، وقتل هو وستة من جماعته، فاستسلم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل ثالث، وقد لقي هذا الرجل حتفه من جراء عناده، أما خبيب وزيد فاقتيدا إلى مكة وبيعا فيها، ووقع خبيب في أيدي بني الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وما إن انقضت الأشهر الحرم حتى خرجوا بخبيب من الحرم إلى التنعيم فرفعوه على خشبة و قتلوه (صبرا) بالحراب ليثأروا للحارث الذي قتله خبيب في وقعة بدر...**

ويذهب الزهري وعروة (انظر رواية عروة المقتضبة في الواقدي، ص156) إلى أن الرجال العشرة إنما خرجوا في سرية عيناً على أهل مكة، ويذهب ابن هشام (ص638) والواقدي (ص157) وابن سعد (ج2 ص39 وما بعدها، ج3 ص33 وما بعدها)، إلى أنهم عشرة فقهاء كانوا متوجهين إلى إحدى القبائل يبصرون أفرادها بأمور الدين فغدر بهم أدلاؤهم وتركوهم لعدوهم...

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 531/2–532. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 56/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 234/2.
وردت قصة "سرية ابن أنيس" من طريق ابن إسحاق عن "**عبد الله بن أنيس**" ﷺ عند: **أبي داود**، السنن (عون المعبود)، كتاب أبواب صلاة السفر، باب صلاة الطلب، 91/4. و**أحمد**، المسند، 440/25. وابن إسحاق، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 619/2. قال ابن كثير في "تفسيره، 656/1": إسناده جيد، وحسّن إسناده ابن حجر في "فتح الباري، 564/2".

[2]– ينظر: سنن أبي داود (عون)، 91/4. ومسند أحمد، 440/25. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 619/2. وتاريخ الطبري،156/3.

[3]– ينظر: مغازي الواقدي، 531/2. والطبقات الكبرى، 39/2. ودلائل النبوة، 40/4.

ويذكر الواقدي في أخبار العام السادس الهجري أن خبيبا لم يكن وقتذاك أسيرا في يد أهل مكة (ص227)، والرواية التاريخية الوحيدة المعول عليها هي التي تذهب إلى أن الحادث وقع بعد غزوة أحد، ذلك لأن عاصما كان ممن شهدوها. وقد ذكر هذا الحادث في سيرة ابن هشام تحت عنوان قصة يوم الرجيع في سنة ثلاث للهجرة، أما الواقدي فقد أورده في حوادث السنة الرابعة»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck[2].

قصّة سرية "الرجـــيع"[3] و"خبيب بن عديّ"[4] ﷺ: وردت عند البخاري وأحـــمد من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند ابن إسحاق من مرسل عاصر بن عمر[5].

وملخّص "فنسنك-Wensinck" للقصّة ترِد عليه بعض الاستدراكات، أوجزها في النقاط الآتية:

[1]- تاريخها: كانت هذه السّريّة في **صفر** من **السنة الرابعة** للهجرة (4 هـــ)، وسميت "بحادثة الرجيع": نسبة إلى الماء الذي جرت عنده[6].

[2]- سبب بعثهم: ذكر المستشرق "فنسنك" الاختلاف بين الروايات حول سبب بعث الرسول ﷺ أصحابه في هذه السرية، وذلك أنّه: جاء في رواية **البخاري وأحمد:** من حديث أبي هريرة ﷺ: «بَعَث رسولُ الله ﷺ عشرة رهطٍ سريّةً عينًا»[7]؛ وهو عندهما من طريق الزهري، لذا نسب المستشرق "فنسنك" هذا السبب للزهري، أمّا رواية عروة فجاءت عند الواقدي[8] كما ذكر المستشرق "فنسنك".

بينما جاء في رواية ابن هشام عن ابن إسحاق وكذا الواقدي وابن سعد: أنّه قَدِم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهطٌ من عضل والقارة، فقالوا: يا رسول الله إنّ فينا إسلاماً؛ فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقّهوننا في الدين؛ ويقرئوننا القرآن، ويعلّمونا شرائع الإسلام، فبعث رسولُ الله ﷺ نفرًا من أصحابه[9].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 212/8-214.

[2]- سبقت ترجمته في: ص49.

[3]- **الرجيع:** هو ماء كان لبني هذيل بين مكة وعسفان، وهو يقع اليوم شمال مكة على مسافة سبعين (70) كلم، ويقع في شرق عسفان، يسار الخارج من عسفان إلى مكة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 29/3. والمعالم الأثيرة، شراب، 125.

[4]- ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبد البر، 40/2. أسد الغابة، ابن الأثير، 154/2. الإصابة، ابن حجر، 225/2.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 199/6 و473/7. ومسند أحمد، 308/13. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 169/2.

[6]- ينظر: مغازي الواقدي، 354/1. والبداية والنهاية، ابن كثير، 498/5. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 400/2.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل؟ ومن لم يستأسر، 199/6، وكتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، 473/7. و**أحـــمد**، المسند، 308/13.

[8]- ينظر: مغازي الواقدي، 351/1.

[9]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 169/2. ومغازي الواقدي، 355/1. وطبقات ابن سعد، 42/2. وهذا السياق لابن إسحاق.

لكن لا يعني هذا الاختلافُ تعارضَ الروايتين بالضرورة؛ حيث يمكن الجمع بينهما «بأنه ﷺ لَما أراد بعثهم عيونًا، وافق مجيء النفر في طلب مَنْ يفقّههم، فبعثهم في الأمرين» كما أفاد الزرقاني[1].

وبالتالي كانت مهمة المجموعة مزدوجة؛ دعوية من جانب، وعسكرية من جانب آخر.

[3]– أمير السرية: جاء في البخاري: أنّ النبي ﷺ أمّر عليهم عاصم بن ثابت[2]، وعند ابن إسحاق: أنّه أمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد[3]، قال ابن حجر: «وما في الصحيح أصحّ»[4].

[4]– عدد المسلمين: في الصحيح: أنّهم كانوا عشرة[5]، وعند ابن إسحاق وابن سعد: أنّهم ستة[6]، وما في الصحيح أصح كما رجّح السهيلي وابن حجر والمقريزي[7].

[5]– عدد اللحيانيين: ورد في رواية البخاري مرة أنّهم مائتين، ومرة أنّهم مائة[8]، لكن المائة جاءت مقيّدة بكونهم رماةً، والجمع بين الروايتين واضح كما أفاد ابن حجر والقسطلاني؛ فالمقصود أنّ المائة كانوا من الرماة وبقيتهم ليسوا من الرماة[9].

[6]– أمّا سبب إغارة "بني لحيان" على أصحاب النبي ﷺ: فذكره محرر مادة "لحيان"، حيث أن "بني لحيان" من هذيل سعوا للثأر من قتل "خالد بن سفيان" اللحياني في "سرية عبد الله بن أنيس"[10]؛ فلجؤوا إلى الخديعة والغدر انتقاما لقتله، كذا أفاد الواقدي وابن حجر[11].

ويضيف الواقدي أن هذيلاً كانوا على اتفاق مع عضل والقارة في الترتيب لهذا الحادث[12].

[7]– الرجل الثالث الذي أُسر مع "خبيب" و"زيد" ثم قُتل هو: "عبد الله بن طارق" كما جاء مصرحا به في رواية ابن إسحاق والواقدي[13].

---

[1]– شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 477/2.

[2]– صحيح البخاري (الفتح)، 473/7.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 169/2.

[4]– فتح الباري، 476/7.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 199/6 و473/7.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 169/2. والطبقات الكبرى، 42/2.

[7]– ينظر: الروض الأنف، 123/6. وفتح الباري، 475/7. وإمتاع الأسماع، 185/1.

[8]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 199/6 و473/7.

[9]– ينظر: فتح الباري، 476/7. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 479/2.

[10]– سبق بيانها قريبا في: ص839.

[11]– ينظر: مغازي الواقدي، 354/1. وفتح الباري، 475/7.

[12]– ينظر: مغازي الواقدي، 354/1. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 400/2.

[13]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 171/2. ومغازي الواقدي، 357/1.

الفرع الثالث : سريّـة بئر معونة

أولا- عرض ما جاء في "الدائرة":

- جاء في مادة "**بئر معونة**": «بئر في الجبال على الطريق من المدينة إلى مكة... وكانت هذه الناحية مسرحا لِهزيمة "بئر معونة".

طلب عامر بن مالك أبو البراء الملقّب بِملاعب الأسنّة - وكان سيد بني عامر- من النبي أن يرسل إليه رجالا من أصحابه ليدعوا قومه إلى الإسلام، وتعهد بسلامتهم من الأذى، فأرسل إليه النبي سبعين قارئا من الأنصار غدر بِهم بنو عامر وقتلوهم ما عدا واحداً، ويقال إنّ الآية 163 من سورة آل عمران تشير إلى ذلك، هذه هي الرواية، وتؤيدها السيرة.

والحـــقّ أنّ أمامنا سرية حدثت بالفعل كما يُستدل من كتاب المغازي وكما هو مؤكّد من دراسة المصادر دراسة مقارنة، ولم تكن هناك حاجة تتطلب (70) قارئا لتحفيظ القرآن، بل لا شك في أنه لَم يكن في المدينة حينـــئذ مثل هذا العدد[1]، وكان النبي في مثل هذه الأحوال لا يرسل سوى قارئ أو اثنين فقط (الأغانـــي، ج6 ص19، 9 إلخ)[2].

وقد اخترع المحدثون هذه القصّة لتغطية حملة خائَها التوفيق[3]، ولإثبات كثرة عدد القراء، وشدّة قدمهم، وإسباغ القداسة عليهم.

---

[1]- **تعقيب أحمد شاكر (1) على المادة** [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 388/4]: «وأمّا ما ورد في القصة من أن السبعين كانوا من القراء وزعمه أن ((لا شك في أنّه لم يكن في المدينة حينئذ مثل هذا العدد)) فإنّه جرى فيه على طريقته وطريقة إخوانه في رد الأحاديث الصحيحة والأخبار المتواترة المتعلقة بالإسلام، وليس قوله إلا تعرضاً لِما لا يعلم، أو جحدا لما يعلم ويوقن صحته».

[2]- **تعقيب أحمد شاكر (2) على المادة** [في الموضع السابق]: «ومن إبداع الأب لَمنس في الإيهام أن يقول: ((وكان النبي في مثل هذه الأحوال لا يرسل إلاّ قارئاً أو اثنين فقط...)) كأنّه وضع يده على نص في "الأغاني" بما يزعم!! وليس في الأمر شيء من هذا، إنّما يريد أن يضع في ذهن قارىء مقاله صحة ما يرمي إليه، بأنّه أشار إلى مستند عظيم من كتب المسلمين! وهو يعلم أنّ أكثر قارئيه من الإفرنج ليس بيدهم كتاب الأغاني، وقد رجعنا إلى الموضع الذي أشار إليه في الأغاني فلم نجد شيئا، بل وجدنا في (ج6 ص89 وما بعدها من طبعة الساسي) وهي توافق (ص92 وما بعدها من طبعة بولاق) أخبار أبي سفيان بن حرب... فظننت أنّ في هذا الموضع خطأ مطبعيا في "دائرة المعارف" في الطبعة الإنجليزية فطلبت إلى إخواني مترجميها أن يرجعوا إلى الطبعة الفرنسية منها، فوجدوه فيها (الأغاني، ج4 ص19، 9 إلخ) فرجعت إلى الجزء الرابع فوجدت فيه (ص17-33) قصة غزوة بدر! ولا أزال أعجب من أمر الأب لَمنس في الإشارة إلى هذه المواضع، ولا أدري ماذا يريد أن يستدل به منها؟ ».

[3]- **تعقيب أحمد شاكر (3)** [في الموضع السابق]: «... ومن العجب أن يُصوّر "الأب لَمنس" كاتب المقال خيالا يزعمه ((أنّ المحدثين اخترعوا قصّة القراء...))، وأنّ الآية التي نزلت ثم نسخت، نزلت ((لتهدئة الخواطر الثائرة في المدينة))...

وليس بالمحدثين من حاجة إلى اختراع الأكاذيب - في زعمه - لتغطية حملة خائها التوفيق، فإنّ المسلمين كانوا يحاربون المشركين في عهد النبي ﷺ وبعده وكانوا ينتصرون، كما كان ينتصر عليهم عدوهم في بعض المواقع، فلم يخونوا التاريخ، ولَم يخترعوا نصرا موهوما، كما ترى في غيرهم من الأمم، بل كانوا صادقي الرواية، مؤدّي الأمانة على وجهها، وقد هزموا أو هزم بعضهم في غزوة أحد، وفي غزوة حنين، ولَم يُخفوا ذلك، بل أنزل الله في ذلك قرآنا يُتلى إلى اليوم، فَما الحاجة بعد هذا إلى اختراع قصّة لستر حملة خائَها التوفيق؟!».

وقد سأل بنو لحيان ورعل وذكوان وغيرهم من عشائر سليم النبيَّ أن يعينهم على ذوي قرباهم، ومن المحتمل أيضا أن يكون أبو براء قد سأل النبي أن ينصره على منافسه عامر بن الطفيل، وكانت خطة النبي تقتضيه التدخل في مثل هذه الأمور الدنيوية[1]. ولذلك فقد أنفذ سبعين فارساً من الأنصار باغتهم بنو سليم قرب بئر معونة وأفنوهم، وكان يقود العدو عامر بن الطفيل الذي أصبح محل لعنة الروايات منذ ذلك الوقت. وحدثت هذه الوقعة في صفر من العام الرابع للهجرة أو في الشهر الثالث والستين للهجرة، بعد وقعة أحد بأربعة عشر شهراً. ويُقال إنّه نزلت آية أخرى علاوة على الآية 163 من سورة آل عمران لتهدئة الخواطر الثائرة في المدينة، ثُمّ نسيت أو نسخت من القرآن، وهذه الآية نصها: ((بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربّنا فرضي عنا ورضينا عنه))... وكان النبي يصبّ اللعنات دائِما على من دبّروا هذه المصيبة التي كانت أشدّ ما ابتلي به بعد أحد»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[3].

– وفي مادة "**خُبَيب**"[فقرة: 2]: «**وهذه القصة عظيمة الشبه بالقصة التي حيكت حول مأساة بئر معونة التي وقعت في هذا الوقت نفسه**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** – Wensinck[5].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– مكان السريّة وتاريخها: "**بئر معونة**": مكان فيه بئر ماء يقع بين جبال يقال لها "أبلى" في الطريق من المدينة إلى مكة على بُعد (160 كلم) عن المدينة[6].

– **تاريخها:** وقعت هذه السريّة في **صفر** من **السنة الرابعة** للهجرة، وحدّدها الواقدي وابن سعد بعد "ستة وثلاثين" (36) شهرا من الهجرة[7]، وبيّن ابن إسحاق والطبري أنّها بعد أربعة (4) أشهر من أحد[8]، وليس "ثلاثة وستين" (63) شهرا بعد الهجرة، ولا أربعة عشر (14) شهرا بعد أحد كما جاء في مادة "بئر معونة"، وهذا الخطأ قد يكون من النصّ الأصلي في "دائرة المعارف" و لم يتسنّ لي التأكّد

---

[1]– **تعقيب أحمد شاكر** (4) [في الموضع السابق]: «وأمّا ما رضيه قلمه لنفسه مِمّا يقول ففيه ((وكانت خطة النبي تقتضيه التدخل في مثل هذه الأمور الدنيوية)) وما يريد أن يشير إليه في ذلك، مما يفهمه القارىء النبيه، فليس لَنا إلاّ أن نقول: إنّ النبي ﷺ لم يأت بدين رهبانية، بل جاء بدين لِمعاملة الإنسان مع نفسه ومع ربه ومع الخلق، وجاء بدين يحض أتباعه على الجهاد وعلى العزة، وعلى العمل للدنيا والآخرة، فإن كان هذا لا يرضي الأب لَمنس فلسنا نستطيع أن نرضيه».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 4/386-387.

[3]– سبقت ترجمته في: ص211.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 8/213.

[5]– سبقت ترجمته في: ص49.

[6]– ينظر: معجم البلدان، الحموي، 1/302. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/400.

[7]– ينظر: مغازي الواقدي، 1/346. والطبقات الكبرى، 2/42.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/183. وتاريخ الطبري، 2/545.

من ذلك لكون النسخة الأجنبية التي بين يدي استبدُل فيها نص "لمنس-Lammens" بنصٍّ جديد من تحرير مستشرق آخر، وقد يكون الخطأ وقع من المترجمين، كما يحتمل أن يكون خطأً مطبعيا في النسخة الأجنبية أو العربية.

[2]- ملخّص حادثة "بئر معونة": لَمّا قدم أبو براء عامر بن مالك المعروف "بملاعب الأسنَّة" على المدينة دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم و لم يبعد، وقال: يا محمّد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجَوتُ أن يستجيبوا لك، فقال الرسول ﷺ: إنِّي أخْشى عَلَيْهِمْ أهل نَجد، فقال أبو براء: أنا لهم جارٌ؛ فأرسل الرسول ﷺ وفدا برئاسة المنذر بن عمرو الخزرجي ومعه سبعون من القراء -وكانوا من خيار المسلمين يحتطبون بالنهار ويتصدقون به على أهل الصفة، ويصلون بالليل ويتدارسون القرآن- لدعوة الأعراب في نجد إلى الإسلام، فلما وصلوا بئر معونة من نجد غدر بهم عامر بن الطفيل، فاستصرخ الأعرابَ من بني سليم: **عصية ورعلاً وذكوان**[1]، فأجابوه وخرجوا حتى أحاطوا بالمسلمين، ودافع القراء عن أنفسهم فاستشهدوا جميعا سوى عمرو بن أمية الضمري كان قد تأخر عنهم، فعاد وأخبر الرسول ﷺ الخبر، فمكث رسول الله ﷺ شهراً يدعو على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، وذلك بدء تشريع القنوت[2].

وأنزل الله فيهم قرآنا ثم نسخت تلاوته، قال أنس رضي الله عنه: «أَنزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الذين قتلوا بِبئر معونة قرآنًا قرأناه حتّى نُسِخ بعد: أَنْ "بلّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ"»[3].

[3]- زَعَم "لمنس-Lammens" أنّ "**المحدثين اخترعوا هذه القصّة لتغطية حملة خانَها التوفيق**"، وهو لا يقصد بذلك نفي أصل الحادثة، لأنّه أثبتها قبل تلك العبارة مباشرة، وإنّما يقصد نفي أن يكون كلُّ مَن بعثهم النبي ﷺ من القراء، ونفي أن تكون مهمتهم الدعوة إلى الإسلام في الأساس، ليُقـــرّر أنّ النبي ﷺ أرسل حملة عسكرية أخفقت في مهمّتها، وعلى هذا أيضا يُحمل تشكيك "فنسنك-Wensinck" في القصّة، الذي يبدو أنّه جارى فيه زميله "لمنس"، بيد أنّ هذا التشكيك لا يستقيم لأمور:

أ)- ذكر "لمنس -Lammens" أنّ القصّة حيكت "لإثبات كثرة القراء"، وهذا كلام لا يقوله إلاّ جاهل بالسيرة أو معاند لِحقائقها، ذلك أنّ السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي يشهدان على أنّه لا يزال

---

[1]- "**رِعل**": بطن من بني سليم، ينسبون إلى رعل بن عوف بن مالك بن امرئ القيس بن لهيعة بن سليم. و"**ذكوان**": أيضا بطن من سليم، ينسبون إلى ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 474/7. و"**عُصيّة**": بطن من سليم أيضا، ينسبون إلى عصيّة بن خفاف بن امرئ القيس. كما في: فتح الباري، 665/6.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 481/7-482. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 184/2-186. والسيرة النبوية، ابن حبان، 232/1-233. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 400/2-401.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، 481/7-482. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساجد، باب اسحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، 250/5. وهذا اللفظ لمسلم.

في المسلمين من يعتنون بحفظ القرآن الكريم ومدارسته وتعليمه منذ بداية الإسلام في مكة ثم المدينة، في حياة النبي ﷺ، وبعد وفاته، وأنّ حفّاظ القرآن كانوا متكاثرين في عهد النبي ﷺ وبعده إلى يومنا هذا، ولا يحتاج إثبات ذلك إلى اختلاق قصص أو روايات، بل إنّ إنكار المستشرق هو الذي كان بقصد نفي كثرة المشتغلين بحفظ القرآن ومدارسته في عهد المصطفى ﷺ، أمّا نعت الروايات لشهداء "بئر معونة" بالقراء، فهو من باب وصفهم بما اشتهروا به من الفضيلة كمجموعة متآلفة من المسلمين، مع ملاحظة مشاركة كثير من الصحابة لهم في ذلك الفضل في المدينة.

ب)– لما كان المسلمون أو المحدّثون ليخفوا هزيمة أصابتهم في التاريخ الإسلامي –كما يقول المستشرق "لَمنس"–، وهذه غزوات أحد وبداية حنين وغيرهما، لم تُخفِ روايات المحدّثين والمؤرخين ما كان فيها من انكسار للمسلمين، وفي قصة محاورة أبي سفيان لهرقل: أنّ الحرب سجال بين مشركي قريش والمسلمين[1]، ومع ذلك فأخبار هذه الحوادث مشهورة معروفة في أشهر الكتب وأصحّها، كما أنّ حادثة "بئر معونة" حتى لو اعتبرناها "حملة عسكرية" – على حدّ تعبير "لمنس Lammens-"– فلن يكون فيها ما يحتاج إلى تغطية أو تزييف لسببين: **الأول:** أنهم أُخذوا غدراً.

والثاني: أنّ المسلمين كانوا فيها قلّة؛ وإنّما الأمر الذي من المفروض أن يُطوى – على حسب منطق المستشرق– هو أن تُهزم الكثرة على يد القلّة.

ج)– أضف إلى ذلك أنّ النبي ﷺ لو أراد أن يسيّر حملة عسكرية لكان بإمكانه أن يبعث عددا أكبر من ذلك العدد، ولاختار للمهمَّة من صحابته أكثرهم تَمرّسا وخبرة في القتال.

د)– جاء في لفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه: أنّ القراء المسلمين قالوا للمشركين من بني سليم الذين جمعهم "عامر بن الطفيل": «والله **ما إيّاكم أردنا**، وإنّما نحن مُجتازون في حاجة للنبي ﷺ»[2]؛ ففي هذا الحديث دلالة على أنّ القرّاء الذين بعثهم النبي ﷺ لم يكن قصدهم أصلا الدخول في مواجهة مع عامر بن الطفيل وأتباعه، وهذا يردّ احتمال "لمنس" بأنّهم جاؤوا لنصرة منافس "عامر بن الطفيل".

هـ)– **تنبـــيه:** تَمّ تغيير نصّ مادة "بئر معونة" في الطبعات الجديدة من "الدائرة" (كطبعة: 1986 و1997/ باللغة الإنجليزية)[3]، ويبدو أنّ سبب هذا التغيير هو ما احتواه نصّ "لمنس Lammens-" من مطاعن صريحة ومبالغ فيها، وأخطاء علمية فادحة، ويبدو أنّ نصّ المادة الجديد أكثر إنصافا من نصّ المستشرق "لمنس" الذي لم يرض عنه حتى المستشرقون المشرفون على الطبعات الأخيرة "للدائرة"، لكون

---

[1]– عند **البخاري ومسلم**، سبق تخريجه: ص234.

[2]– صحيح البخاري (الفتح)، 481/7. وتقدم تخريج حديث أنس رضي الله عنه في الصفحة السابقة.

[3]– ينظر الطبعة الأجنبية "للدائرة": "The Encyclopidia of Islam, 1/1232".

طريقة "لمنس" في الطعن المباشر قديمة لا تتناسب مع العصر الحديث الذي يتميّز بالانفتاح على الثقافات الخارجية، أكثر من ذي قبل، لذا سيكون كلامه مكشوفا حتى للقراء الغربيين.

وقد سبق **التنبيه إلى تهافت كتابات المستشرق "لَمنس"** عند المستشرقين أنفسهم، فضلا عن علماء المسلمين الذين يعتبرونه من أكثر المستشرقين المعاصرين تعصّبا، خاصة في كتاباته عن النبي ﷺ.

[4]– أثر القراءة المادية في تفسير "لَمنس" لحادثة "بئر معونة": طرح المستشرق "لمنس" سبب إرسال النبي ﷺ القراء في حادثة "بئر معونة" بأسلوب يغلِّب القراءة المادية في تفسير الوقائع، فقال بأنّه «**من المحتمل أن يكون أبو براء قد سأل النبي أن ينصره على منافسه عامر بن الطفيل، وكانت خطة النبي تقتضيه التدخل في مثل هذه الأمور الدنيوية**»، وقد أجاب الشيخ أحمد شاكر على عبارة "**التدخل في مثل هذه الأمور الدنيوية**"؛ وبين ما فيها من التهافت، ولَمّا كان المستشرق يزعم أنّ طرحه مبني على "دراسة المصادر دراسة مقارنة"، فسأبيّن ما قرّرته المصادر الأصيلة للسيرة في هذا الشأن، مما يردّ افتراضه الخاطيء، ويبيّن أنّ سبب السرية كان مزدوجا يجمع بين الجانب الدعوي الدال على النبوة – وهو ما حاول "لمنس" التعمية عليه–، والجانب العسكري النافي للرهبانية كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه، وفيما يلي بيان ذلك:

أ)– لا يوجد تاريخيا ما يدلّ على صراع سياسي بين أبي البراء "ملاعب الأسنة"، وابن أخيه عامر بن الطفيل، بل ذكرت المصادر أنّ أبا البراء اغتمّ من غدر ابن أخيه بالمسلمين[1]، ولو كان بينهما صراع سياسي لَما اغتمّ لذلك، ولتوقّعه وأعد له عدّته.

ب)– سبب إرسال "القراء": جاء في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أنّ سبب بعثهم هو: «أنّ رعلاً، وذكوان، وعصيّة... اِستمدّوا رسول الله ﷺ على عدوٍّ، فأمدّهم بسبعين مِن الأنصار، كنّا نسمّيهم القرّاء في زمانِهم»[2]، وفي لفظ آخر للبخاري: «فزعموا أنّهم أسلموا ...»[3]، بينما جاء عند ابن إسحاق والطبري وغيرهما: أنّه «قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفرٍ "ملاعب الأسنّة" على رسول الله ﷺ الْمدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسلم و لم يَبْعُد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 186/2. ومغازي الواقدي، 351/1.

[2]– عند **البخاري ومسلم**، سبق تخريجه قريبا في: ص845، وهذا اللفظ للبخاري.

[3]– صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب العون بالمدد، 217/6.

يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إنّي أخشى عليهم أهل نَجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا النّاس إلى أمرك؛ فبَعَث رسول الله ﷺ الْمنذر بن عمرو»[1] في نفر من المسلمين.

ويشهد لهذا السبب لفظ عند مسلم في حديث أنس ﷺ قال: «جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرْآن والسنة، فبَعَث إليهم سبعين رجلا من الأنصار»[2].

هذه الروايات توضّح أنّ المقصد الأكبر للنبي ﷺ في بعث القرّاء كان الدعوة إلى الإسلام، وحتّى لفظ الاستمداد المذكور عند البخاري، فقد بيّن ابن حجر: أنّ استمدادهم يحتمل أنّه لم يكن لهم لقتال عدوّ، وإنّما هو للدعاء إلى الإسلام، كما هو مفسّر في رواية ابن إسحاق ومسلم[3]، كما يحتمل أيضا أنّ استمدادهم كان لقتال عدوّ، وللدعوة إلى الإسلام في آن واحد، وهو ما يفسّر جوار "أبي عامر" لهم، إذ لو كانوا مدَدًا لقتال لَما احتاجوا إلى جوار، إذ سيكونون في جوار من جاءوا لنصرتهم أصلا.

فقد أراد النبي ﷺ تبليغ رسالة ربّه وهداية العرب إلى الإسلام، وذلك عمله الذي بعثه الله تعالى له؛ فإذا جاء من سهّل له الدعوة استجاب، لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه، وهذا الأمر يجيب على تعجّب "لمنس -Lammens" من إرسال النبي ﷺ مثل هذا العدد من القراء، ويبيّن أنّه رسل القراء السبعين من خيرة أصحابه، حرصا منه على نشر الإسلام في تلك النواحي بين أولئك الأعراب الأجلاف.

لذا نجد جلّ **مصادر السيرة** تقرّر أنّ مهمّة القراء السبعين كانت للدعوة إلى الإسلام[4]، وهو ما توضّحه الروايات المذكورة عن أنس ﷺ عند مسلم، وكعب ﷺ عند الطبراني، ومراسيل ابن إسحاق.

بِهذا يُعلم أنّ تركيز "لمنس -Lammens" على السبب العسكري، وإقصائه السبب الدعوي الرئيسي لبعث القراء، ليس نابعا من "**دراسة المصادر**" الأصيلة للسيرة -كما زعم-، وإنّما هو إمعان في سلوك "**منهجية التفسير المادي**" لوقائع السيرة النبوية الهادف إلى طمس معالم النبوة المحمدية في السيرة.

[5]- أمّا ما ذكره المستشرق "لَمنس" من أنّ النبي ﷺ كان يرسل في مثل هذا الشأن رجلا أو رجلين، وعزا ذلك إلى كتاب "الأغاني"، فهو استدلال غير وجيه:

- لأنّ ما ورد في كتاب الأغاني - مع ضعفه- لا يُعارِض ما جاء في الروايات الصحيحة الموثقة.

---

[1]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 184/2. وتاريخ الطبري، 545/2-546. من مرسل المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبي بكر، بينما أورد الطبراني في "المعجم الكبير، 71/19" القصة بنحو هذا السياق موصولة من حديث كعب بن مالك ﷺ، بسند رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في "مجمع الزوائد، 127/6".

[2]- صحيح مسلم (النووي)، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، 70/13.

[3]- ينظر: فتح الباري، 483/7.

[4]- ينظر: مغازي الواقدي، 346/1. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 40/2. وسيرة ابن حبان، 232/1. ودلائل النبوة، البيهقي، 339/3. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 64/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 528/5.

– حقّق الشيخ أحمد شاكر في تعقيبه أنّ هذا الموضع من "الأغاني" جاء فيه ذكر إرسال النبي ﷺ "دحية" ﷺ إلى ملك الروم بكتاب النبي ﷺ، فهذا الخبر إنّما يتعلّق بإرسال النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وهو أمر يختلف تماما عن أجواء وملابسات حادثة "بئر معونة".

[6]– أوجه التشابه والاختلاف بين "الرجيع" و"بئر معونة": أشار المستشرق "فنسنك-Wensinck" إلى وجود شيء من التشابه بين "سرية الرجيع" و"بئر معونة"، وهو كما قال، فإنّ بينهما أوجه تشابه واختلاف، ذكرها ابن حجر والقسطلاني، وهي كالآتي:

أ)– تختلفان في أمور: أهمها: – أنّ بعث الرجيع كان سرية عاصم وخبيب وأصحابهما ﷺ، وهي مع عضل والقارة، أمّا بئر معونة فكانت سرية القراء، وهي مع رعل وذكوان. – وكان عدد رجال المسلمين في سرية الرجيع عشرة (10)، بينما كان عددهم في "بئر عونة" سبعون (70)[1].

ب)– وتتشابهان في أمور: أهمها: – تقاربهما في الزمان، بحيث أن خبر كل من أصحاب الرجيع وبئر معونة وصلا إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة كما ذكر الواقدي[2].

ويشهد لِهذا التقارب ما جاء في الصحيحين عن أنس ﷺ[3]: من تشريك بني لحيان [وهم أصحاب الرجيع] مع رعل وذكوان وغيرهم [وهم أصحاب بئر معونة] في الدعاء عليهم[4].

– كما أنّ كلاّ منهما كانتا من أجل مهمة مزدوجة؛ دعوية وعسكرية.

– أنّ كلاّ منهما تعرّض فيهما المسلمون للغدر والخيانة من أعراب نجد.

– **ملاحظة:** من خلال كلام "لمنس -Lammens" في هذه الحيثية وكلام "بول–Buhl" من قبل في غزوة "بدر" و"أحد" نلمح مفارقة هامّة؛ حيث نجد أنّ المستشرقين إذا كان الأمر يتعلّق بِمنقبة للمسلمين فإنّهم يحاولون طمسها والتقليل من شأنها كما فعل "بول–Buhl" في "غزوة بدر"، أمّا إذا أصاب المشركون المسلمين فنجدهم يحاولون بكلّ سبيل أنّ يرفعوا من شأن أمرهم ليجعلوه نصرا مظفّرا، ولو بتحريف الحقائق التاريخية، كما فعل "لمنس -Lammens" هنا حيث حرّف أسباب الغزوة وتجاهل أهمّها، مصادما بذلك ما بيّنته المصادر الأصيلة للسيرة والتاريخ –التي زعم أنّه اعتمد في تحليله عليها–، كلّ ذلك حتى يوهم القارئ أنّ حادثة "بئر معونة" لم تكن خديعة وغدرا، بل كانت حملة عسكرية خانها التوفيق على حدّ تعبيره.

---

[1]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 475/7. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 476/2.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 349/1. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 476/2.

[3]– عند **البخاري ومسلم**، تخريجه في: ص845.

[4]– ينظر: فتح الباري، 475/7. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، 476/2.

المطلب الثاني : غزوة بني النضير وأسبابها

الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة"[1] عن الغزوة

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 78]: «**غير أن بعض يهود المدينة الذين لم يشتركوا في القتال لم يخفوا فرحهم بما أصاب محمداً، لذلك كان من الضروري أن يجعل منهم عبرة للآخرين، ووجد قبيلة يهودية ثانية بالمدينة، هي بنو النضير، هدفا مناسبا، إذ أقدموا على تصرف برّر ما صنعه بهم.**

ورغم أن الروايات تنسب إليهم ارتكاب جرائم مختلفة، فإنه من الصعب أن نحدد بالضبط ما اقترفوه؛ فالآية (4) من سورة الحشر تكتفي باتهامهم بأنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ **وقد اضطروا بعد حصار عدّة أسابيع إلى الهجرة من المدينة إلى خيبر، وغيرها من المستوطنات اليهودية في الشمال، مخلفين وراءهم أسلحتهم وذهبهم وفضتهم غنيمة وفيرة، احتفظ بها النبي ﷺ في هذه المناسبة لنفسه[2] ولم يوزعها،** ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ **سورة الحشر (6–7)**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا– تاريخ الغزوة: كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، بعد بئر معونة وأحد[5].

ثانيا– أسبابها: لَمّا توالى الغدر بالمؤمنين لم يكن ليكفّ اليهود والمنافقون عن القيام بدورهم في الغدر، وهم على مقربة من المؤمنين، لذا أخذ النبي ﷺ حذره منهم، ذلك أنّ غدر غيرهم كان إرهاصا بغدرهم، وإظهار ما تنطوي عليه نفوسهم، وبدا غيظهم في أفواههم، وغدرهم ظهر في بعض أعمالهم[6]؛ ومنها:

---

[1]– لا توجد مادة خاصة "ببني النضير" في الطبعة العربية (بالشارقة) "للدائرة" (إص3)، ولعلّ ذلك يرجع إلى ما التزموه من الاختصار في هذا الإصدار، وإن كان ورد فيها مواد خاصة "ببني قينقاع" كما سبق، و"ببني قريظة" كما سيأتي.

[2]– **تعقيب هيئة التحرير على ما جاء في المادة** [في الموضع نفسه]: «**حسبما يتضح من سياق الآيات الكريمة (6–8) من سورة الحشر والتي أوردها المستشرق ذاته فإن النبي ﷺ لم يحتفظ بتلك الغنائم لنفسه، وإنما وزعت حسب الأمر الإلهي الوارد في الآيات**».

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9141/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 191/2. ومغازي الواقدي، 363/1. وتاريخ الطبري، 550/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 305/1.

[6]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 890/2.

أ)- نَقْض بني النضير عهودهم وتآمرهم مع كفار قريش: نَقَض بنو النضير عهودهم التي تُحتّم عليهم ألا يُؤووا عدوًّا للمسلمين، و لم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة؛ حيث حصل ذلك في غزوة السويق؛ حين خرج أبو سفيان بن حرب في مائتي راكب قاصدًا المدينة، واستضافه سيد بني النضير سلام بن مشكم وأبطن له خبر المسلمين، و لم يكن المسلمون في المدينة غافلين عن ذلك[1].

قال موسى بن عقبة -في سياق حديثه عن سبب الغزوة-: «كانت بنو النضير قد دسّوا إلى قريش وحضّوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلّوهم على العورة»[2].

ب)- محاولة قتل النبي ﷺ: لَمّا قتل عمرو بن أمية الضميري الرجلين من بني عامر في أعقاب حادثة بئر معونة[3]، خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعين في ديتهما، وكان الاتفاق الذي تَم العهد عليه مع اليهود عندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة أن يتعاونا في أداء الديات، كما كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما جاءهم أظهروا له حسن الاستعداد لإجابته، فجلس النبي ﷺ إلى جدار لبني النضير فهموا بإلقاء حجر عليه وقتله، فأخبره الوحي بذلك، فانصرف عنهم مسرعاً إلى المدينة، وأخبر المسلمين بِما كانت اليهود أرادت مِن الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتّهيُّؤِ لِحربِهم، والسّير إليهم؛ ثم أمر بحصارهم فنزلوا على الصلح بعد حصار ستّ ليال، على أن لهم ما حملت الإبل[4].

وافق جلُّ أئمة المغازي والسيرة[5] ابنَ إسحاق على اعتبار هذه الحادثة سببا أساسيا لغزوة بني النضير.

تُبيّن هذه الحادثة أنّ بني النضير نقضوا العهد من جانبين؛ الأول: أنّهم لم يجيبوا إلى المعاونة في دية الرجلين التي يفرضها عليهم العهد بينهما، والثاني: أنّهم دبّروا مؤامرة القتل.

كان ذلك غدرا في العهد ابتداء، وما كان النبي ﷺ ليرضى أن يعيشوا معه، وهم ينقضون الميثاق الذي وثقه عليهم، ووفى به من جانبه ﷺ، والمواثيق عهود فيها واجبات وحقوق متبادلة تلزم كل فريق، ولا يمكن أن يكون جوار حسن من غير عهود توفى، فكان الجلاء أمرا لابد منه، لنقضهم العهد

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 308/1. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 549. وسبق ذكرها في: ص802.

[2]- دلائل النبوة، البيهقي، 180/3. وفتح الباري، ابن حجر، 415/7.

[3]- ذلك أن: عمرو بن أمية الضمري لَمّا نجا من سرية "بئر معونة"، لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، فقتلهما؛ وهو يظن أنه أصاب بذلك بعض الثأر من بني عامر الذين غدروا بهم، و لم يكن يعلم بعهدهما الذي لهما من رسول الله ﷺ، فشرع ﷺ في جمع ديّتهما من المسلمين وحلفائهم اليهود. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 186/2. ومغازي الواقدي، 351/1-352.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 190/2. وتاريخ الطبري، 552/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 307/1.

[5]- ينظر: مغازي الواقدي، 364/1-365. وطبقات ابن سعد، 44/2. وتاريخ الطبري، 550/2-551. ودلائل النبوة، البيهقي، 180/3. وفتح الباري، ابن حجر، 414/7. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 188/1.

أولا، إذ لم يعينوا في دية الرجلين، ولأنهم هموا بالغدر ثانيا؛ وما كان النبي ﷺ ليتركهم ينقضون العهد، ويهمون بالغدر في غير اكتراث بعهد ولا حسن جوار، ويهمون بالقتال ولا يقاتلهم[1].

غير أنّ المستشرق "بول-Buhl" يصادم الروايات الواضحة في تحديد سبب إجلاء بني النضير من جهة، ويتناقض من جهة أخرى عندما يقول بأنّ «**الروايات تنسب إليهم ارتكاب جرائم مختلفة، فإنه من الصعب أن نحدد بالضبط ما اقترفوه**»؛ فعبارته الثانية تناقض عبارته الأولى، نعم لو كانت تلك الروايات متعارضة لكان لكلامه محل، وحتّى هو لم يجد تعارضا بينها وإلا لذكره، بل هذه الروايات تعضّد بعضها بعضاً، وتشير إلى تتابع عدّة أحداث عدائية ضد المسلمين كانت إيذانا بنقض العهد والهمّ بالغدر.

فخيانة يهود بني النضير لم تكن عملا واحداً، وحادثة منعزلة لا نظير لها، بل كانت «سلسلة من الأعمال العدائية؛ أدّت إلى سوء العلاقة بين المسلمين وبني النضير، وأنها ختمت بمحاولة الغدر التي كانت سبباً مباشراً في حصار بني النضير»[2].

أمّا ما ذكره "بول –Buhl" من إظهار اليهود لفرحهم بنصر المشركين، فإنّ علماء السيرة والمغازي والتاريخ لم يوردوه على أنّه سبب مباشر للغزوة، وإن كان قد يُعدّ من سلسلة الأحداث التي تسبّبت في تأزم العلاقة بين النبي ﷺ ويهود بني النضير[3]، لكن يبقى ما سبق بيانه من الغدر ونقض العهد هما السببين المباشرين للغزوة.

ثالثا- ملاحظات على تحليل المستشرق "بول" لأسباب الغزوة: نلمح من تجاهل "بول-Buhl" للأسباب الحقيقية لغزوة بني النضير عدة ملاحظات، أهمها:

– **الملحظ (1)**: أنكر "بول –Buhl" من قبل محاولة قتل قريش للنبي ﷺ قبيل الهجرة، والآن يقف الموقف نفسه لكن بأسلوب غير مباشر، ذلك أنّ محاولة قتل النبي ﷺ تدلّ في الحالتين: على عجز الفريقين عن مقاومة دعوة النبي ﷺ بالحجة والبرهان، فقتل النبي ﷺ في تصوّر قريش واليهود سيقضي على الإسلام من الأساس؛ ولكن أنّى لهم ذلك فإنّ الله تعالى هو المدبّر لهذا الأمر والمسيّر له بقدرته وتوفيقه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 32-33]، لكن المستشرق "بول-Buhl" حاول التمويه على هذه الحقيقة؛ لأنّه لو أقرّ بمحاولة قتل قريش للنبي ﷺ في حادثة الهجرة، ثم محاولة بني النضير في المدينة، وغيرها من المحاولات فإنّه سيقّرر بذلك هذه

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 891/2.

[2]– السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 308/1.

[3]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 433/7. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 177/1. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 230/4.

الحقيقة الهامة التي هي من دلائل نبوة محمد ﷺ، وأنّ دعوته كانت محتفّة دائما برعاية الله وتوفيقه، وبالتالي الإقرار بالمصدر الرباني لرسالة النبي ﷺ، وهو ما دأب المستشرق "بول" في هذه المادة –وغيرها من المواد التي حرّرها "الدائرة"– على نفيه والتعمية عليه بأساليب ومناهج متنوعة، وهو أيضا من أهداف المدرسة الاستشراقية التي لا يمكن أن يحيف عنها.

– **الملحظ (2)**: إنّ تحليل "بول –Buhl" يقصي مصادر السيرة والمغازي، ويحاول أنّ يبدي للقارئ أنّه لا يوجد سبب واضح في القرآن لهذه الغزوة، وكان المستشرق "بول" يتذرّع أحيانا بالتشكيك في حادثة ما بعدم ذكرها في القرآن الكريم، ولكن غاب عنه أنّ هذه الحادثة بالذات أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: 11]، حيث قال مجاهد وعكرمة وابن إسحاق والطبري وغيرهم بأنّها في محاولة قتل بني النضير للنبي ﷺ [1]، وكذا ورد ذكر نقض اليهود لعهودهم مع النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ [الأنفال: 56][2]؛ فلو كان "بول –Buhl" يلتزم حقيقة بالمنهج الذي سطّره بنفسه؛ ما حاف عنه هنا، ومن قبل في عدة مواضع، مما يدلّ على أنّه اعتمد هذا المنهج أحيانا فقط للتشكيك في بعض الحوادث، التي لا تتفق مع مقاصد المدرسة الاستشراقية وأهدافها، وأنّه ليس له منهج منضبط في هذا الشأن، فهو يكيل بمكاييل مختلفة، وفق خلفيات فكرية وعقدية، لتحقيق أهداف مرسومة ابتداءً، بعيدا عن منهج البحث العملي الموضوعي النزيه.

ويمكن القول: أنّ أسباب الغزوة جاءت واضحة ومحدّدة في مصادر السيرة والمغازي والتاريخ، بل بيّنت مصادر التفسير أيضا إشارة القرآن الكريم لَها، بينما أغفل "بول–Buhl" –أو غفل عن– الآية التي تشير إلى غدر اليهود ومحاولة قتلهم للنبي ﷺ ونقض العهد.

– **الملحظ (3)**: تجاهل "بول –Buhl" الحادثةَ لِما فيها من إخبار الوحي للنبي ﷺ بمحاولة قتل اليهود له، وهو يغلّب جانب التفسير المادي المنكر للوحي والرعاية الربانية للرسول والرسالة، لذا عندما عجز عن إيجاد تفسير مادي للحادثة قال[3] بأنّه يصعب تحديد جريمة اليهود من خلال ما جاء في الروايات، مع أنّها بيّنت بالتفصيل ما اقترفوه من عدم الوفاء بالعهد ونقضه، والعزم على الغدر برسول الله ﷺ.

– **الملحظ (4)**: كما تجاهل الحادثةَ لِما تكشفه من صفات اليهود التي فضحهم بها القرآن في غير ما موضع، من أنّ دأبهم في تاريخهم قتل الأنبياء، ونقض العهود والمواثيق.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 563/1. وتفسير الطبري، 228/8 و233. وتفسير ابن كثير، 63/3.

[2]– ينظر: تفسير البغوي، 146/1. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 43/10.

[3]– كما قال من قبلُ بأنّ اضطهاد المسلمين في مكة غامض ويصعب تفسيره. ينظر: ص389 و391.

رابعا- الحصار والجلاء: حاصر النبي ﷺ بني النضير ستّ ليال، أو خمسة عشر يوما، أو خمسة وعشرين يوما[1]، والجمع بين هذه الروايات: أنّ الحصار كان ستّ ليالٍ، وما بقي من الأيام كان فيه الاتفاق على الجلاء والتحضير له، وإكمال الترتيبات اللازمة للخروج كما أفاد الزرقاني[2].

فبعد أن حاصر النبي ﷺ بني النضير قذف الله في قلوبِهم الرّعب، فاضطروا إلى قبول الجلاء، مقابل حقن دمائهم، والسماح لهم بأخذ ما تحمله إبلهم من المتاع والأموال سوى السلاح فيتركونه للمسلمين، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان من أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر: حيي بن أخطب، وسلّام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، فلما نزلوها دان لهم أهلها[3].

خامسا- قسمة الفيء: الآية التي ذكرها المستشرق "بول–Buhl" تردّ على ما زعمه من استئثار النبي ﷺ بالغنائم كما ذكر المترجمون في تعقيبهم السابق، قال ابن كثير في معنى الآية: «فأفاءه الله على رسوله؛ ولِهذا **تصرّف فيه كما شاء، فرَدَّه على الْمسلمين في وجوه البِرّ والْمصالِح** الّتي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات... ولهذا قال: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [الحشر: 7]؛ فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهُه»[4].

وكذا مصادر السيرة والتاريخ تردّ أيضا قوله وتدحضه، وتبيّن أنّ ما ورد في بعض الروايات من أنّ غنائم بني النضير كانت للنبي ﷺ خالصة[5]، فمعنى ذلك: أنّ النبي ﷺ كان له حقّ التصرف في هذه الأموال، وقسمتها على حسب المصلحة العامة للمسلمين، بأن ينفق منها على أهله، ويعطي منها ما يشاء لأصحابه، لأنّها حصلت للمسلمين من غير قتال، أمّا الغنيمة فهي التي حصلت لهم بجهد وقتال كما بيّن المفسرون، ولكن النبي ﷺ كان ينفق منها على أهله، وأعطى جزء منها للمهاجرين، وأعطى منها لثلاثة من الأنصار كانوا في حاجة وضيق[6]، كما استشار النبي ﷺ في ذلك أصحابه من الأنصار خاصة، بأنّه سيخصّ بذلك المهاجرين لحاجتهم وحتى لا يبقوا عالة على إخوانهم من الأنصار، لأنّهم

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 191/2. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 44/2. وتاريخ الطبري، 554/2. وشرح الزرقاني على المواهب، 511/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 307/1.

[2]- ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 511/2.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 191/2. وتاريخ الطبري، 554/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 310/1.

[4]- تفسير ابن كثير، 65/8.

[5]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 418/7. وتفسير ابن كثير، 65/8.

[6]- ينظر: تفسير البغوي، 56/5. وتفسير الرازي، 506/29. وتفسير ابن كثير، 65/8. والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 78/28–80.

كانوا على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، فطابت نفوس الأنصار بذلك، ورضوا بقسمة الرسول ﷺ[1].

وفي حديث عمر عند "البخاري" ما يردّ قول "بول–Buhl" ويبيّن أنّ الله تعالى وإن خصّ النبي ﷺ بهذا الفيء فإنّه وزّع منه على أصحابه، فيقول عمر : «فكانت هذه **خالصةً لرسول** الله ﷺ، ثم والله ما احْتازَها دونكم، **ولا استأثرها عليكم**، لقد أعطاكُمُوها وقَسَمها **فيكم**، حتى بقي هذا المال منها»[2].

المطلب الثالث : غزوتي بدر الموعد و بني المصطلق

الفرع الأول : غزوة بدر الموعد

– جاء في مادة "[**أبو**] **سفيان**"[فقرة: 8]: «**ويحيط الغموض بالرواية التي تذهب إلى أن أبا سفيان لم يحضر الاجتماع الذي اتفق المشركون بعد غزوة أحد على عقده في العام التالي قرب بدر**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

خرج رسول الله ﷺ في شعبان من سنة أربع (4 هـ) من المدينة إلى بدر على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل، وذلك في انتظار قدوم قريش حسب الموعد المحدد منذ وقعة أحد مع أبي سفيان زعيم قريش[5]، وانتظر المسلمون ثمانية أيام[6] دون أن تقدم قريش، وكان أبو سفيان قد خرج بألفين ومعهم خمسون فرساً فلما وصلوا "مر الظهران"[7] على مسافة اثنين وعشرين كيلا (22 كلم) من مكة عادوا بحجة أن العام عام جدب[8].

---

[1]– ينظر: مصنف عبد الرزاق، 358/5. ومغازي الواقدي، 379/1. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 192/2. وفتح الباري، ابن حجر، 416/7. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 191/1–192.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، 418/7.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 355/1.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– وذلك: أن أبا سفيان لَما أراد أن ينصرف في نهاية غزوة أحد نادى: إنّ موعدكم بدر للعام القادم، فوافق رسول الله ﷺ على هذا الموعد. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 94/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 215/3.

[6]– كانت بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة، يقيم فيها التجار ثمانية أيام يتبادلون فيها التجارة، وفي أثناء مقام المسلمين ببدر اشتغلوا بالتجارة فعادت عليهم بربح وفير، وقد ذكر الله هذا في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: 172–174]. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 578/5. وسيرة أبي شهبة، 243/2.

[7]– "**مر الظهران**": واد من أودية الحجاز، يَمر شمال مكة على مسافة أكثر من اثنين وعشرين كيلا (22 كلم)، ويصب في البحر جنوب جدّة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 63/4. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 184.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 209/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 385/3–386. والسيرة النبوية الصحيحة، 401/2–402.

لا يوجد في هذه الغزوة شيء من الغموض أو اللبس، بيد أنّ "بول–Buhl" أراد أن يشوّش على ما في هذه الغزوة من إيحاءات ترفع من شأن المسلمين وتحطّ من شأن المشركين، والتي منها:

أ)– المتتبع لِمجريات الحوادث في هذه الغزوة يرى أن المشركين باتوا يخشون المسلمين، ولا يجرؤون على لُقياهم، وكأنّما كان نصرهم في أحد فلتة لا يطمعون في مثلها، فمن ثمّ لجأوا إلى الحيلة؛ حتّى يدرأوا عن أنفسهم عار خلف الوعد باللقاء، ولكنهم لم يفلحوا، وندموا على الوعد الذي قطعوه[1].

ب)– موقف جيش قريش يدلّ على تخاذل المشركين بقيادة أبي سفيان عن اللقاء، فأبو سفيان لم ينشط للوفاء بالميعاد الذي ضربه عند منصرفه من "أحد"، بل خرج من مكة متثاقلا، يفكّر في عقبَى القتال مع المسلمين، إن قومه هُزموا في "بدر" على كثرة عددهم ووفرة عدتهم، فتعذّر أبو سفيان للعودة بسبب واهٍ "وهو الجدب"، مع أنّه سبب كان قائما وقت خروجهم، فكان الأولى أن يمنعهم حينئذ؛ ولكنه فكّر وقدّر الهزيمة، وقد ذاق مرارتها في بدر، فآثر العافية[2].

ج)– في مقابل ذلك فإن المسلمين نفروا لملاقاة المشركين على استعداد وحماسة، حتى وصلوا إلى "بدر" فعسكروا حوله، يعلنون وفاءهم بكلمتهم، وتأهبهم للحرب الموعودة، وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما تركت وقعة "أحد" من غبار[3].

لذا كان لإخلاف جيش قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم، في مقابل انتكاس مكانة معسكر قريش، الذين أصبحوا مثار السخرية عند العرب، وكسب معسكر المسلمين بذلك انتصارا معنويا كبيرا دون قتال[4].

الفرع الثاني : غزوة بني المصطلق (المريسيع)

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 79]: «**وقد قاد النبي ﷺ غزوتين من تلك الغزوات في الشمال، إحداهما ضد بني لحيان في بداية العام السادس الهجري (منتصف 627م) وانتهت دون أيّ قتال، والأخرى – وهي الأشهر– ضد بَنِي المصطلق... هذه الغزوة المهمة التي قادها محمد ﷺ تختلف المصادر فيما بينها اختلافا كبيرا حول تاريخها؛ فابن هشام يؤكد أن هذه الغزوة حدثت في الشهر الثامن (شعبان) من العام السادس الهجري بعد غزوة ذي قرد (المسماة أيضا بغزوة الغابة)، التي يذكر عادة أنها الغزوة التاسعة عشرة التي يقودها النبي ﷺ بنفسه، في حين ينقل ابن سعد عن الواقدي أن غزوة بني المصطلق حدثت في شعبان من العام الخامس الهجري، بعد غزوة دومة الجندل التي يذكر عادة أنّـــها**

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 244/2. وكذا: مغازي الواقدي، 389/1.

[2]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 914/2. وفقه السيرة، الغزالي، 283.

[3]– ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 283.

[4]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 402/2. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 567-568.

غزوة محمد ﷺ الخامسة عشرة. وهذا الاختلاف يثبت صعوبة أو استحالة الوصول إلى ترتيب زمني دقيق للأحداث في حياة محمد ﷺ وحتى فيما يتعلق بالفترة المدنية التي يتوفر لدينا كثير من الأخبار عنها»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

ذكر "بول–Buhl" في هذا النصّ "غزوة بني المصطلق" دون الإشارة إلى أحداثها، واكتفَى بذكر الخلاف في تاريخها، وقبل مناقشة تحديد تاريخها أذكر سياق أحداثها باختصار:

أولا- سبب هذه الغزوة: أن قبيلة "بني المصطلق"[3] بقيادة الحارث بن ضرار ومعهم بعض قبائل العرب، أخذوا يحشدون الجموع لغزو المدينة المنورة، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك أعد عدّته، واتخذ التدابير المناسبة - وعلى منهاج النبي ﷺ أنه إذا تأكد أن قوما يريدون الإغارة عليه بادرهم قبل أن يبادروه - فباغتهم النبي ﷺ في مكانهم، وهزمهم شر هزيمة[4].

ثانيا- أهمّ وقائع الغزوة: لَمّا سَمِع رسول الله ﷺ أنّ بني الْمصطلق يَجمعون له خَرج إليهم، وسار بالمسلمين حتى وصلوا إلى بني المصطلق وهم عند ماء لهم يسمى "الْمُرَيْسِيع"[5]، ثم أحاطوا بهم، ففرّ من جاء لنصرتهم من القبائل الموالية لهم، وعرض الرسول ﷺ عليهم الإسلام، فلم يقبلوا، فتَزاحف النّاس واقْتتلوا، وتراموا بالنبل، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فقتلوا منهم عشرة، وأسروا سائرهم مع النساء والذرية واستاقوا الإبل والشياه، ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قُتل خطأ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وسقطت القبيلة بما تملك في أيدي المسلمين[6].

ثالثا- تاريخ الغزوة: حصر المستشرق "بول–Buhl" الخلاف في تحديد تاريخ "غزوة بني المصطلق" في قولين، لكنّ الصواب أنّ هناك ثلاثة أقوال في المسألة كما ذكر ابن سيد الناس وابن كثير وابن حجر وغيرهم[7]، وهي كالآتي:

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9144-9145.

[2]- سبقت ترجمته في: ص150.

[3]- **بنو المصطلق**: بطن من قبيلة خزاعة الأزدية اليمانية، كانوا يسكنون قُديداً وعسفان على الطريق من المدينة إلى مكة، فقديد تبعد عن مكة (120) كيلاً، وعسفان تبعد (80) كيلاً، وأول موقف عدائي لبني المصطلق من الإسلام كان في إسهامهم مع الأحابيش ضمن جيش قريش في غزوة أحد. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 7/536. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/404.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/290. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/969. وصحيح السيرة، العلي، 248.

[5]- **الْمُرَيْسِيع**: [بضمّ الميم وفتح الراء]، ماء في ديار بني المصطلق بقُديد، التي تبعد عن مكة بحوالي (120 كلم)، وتسمى غزوة بني المصطلق "**بغزوة المريسيع**" أيضا نسبة إليه. ينظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 290. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/406.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/290. من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة وغيره من شيوخ ابن إسحاق بإسناد صحيح كما في "صحيح السيرة، العلي، 248". ومغازي الواقدي، 1/407. والبداية والنهاية، 6/182-183.

[7]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 7/536-537. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 4/355.

– **القول الأول:** أنّها كانت **سنة أربـــع** للهجرة، جاء هذا القول عن موسى بن عقبة، وقال به: ابن قتيبة وابن حزم وغيرهما[1].

لكنّ هذا القول هو أضعف الأقوال في المسألة لما يلي:

أ)– لا يثبت القول به عن موسى بن عقبة، لأنّ الصحيح الذي في مغازيه والمرويّ عنه من عدّة أوجه أنّه قال: "سنة **خمس**" كما بيّن ابن كثير وابن حجر[2]، أمّا نسبة البخاري هذا القول لِموســـى بن عقبة فالظاهر أنّه غلط كما أفاد ابن حجر، حيث قال: «كذا ذكره البخاري، **وكأنه سبق قلم**، أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع؛ والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم: سنة خمس»[3].

ب)– يردّ هذا القول: أن حديث الإفك كان سنة خمس، إذ الحديث فيه التصريح بأن القصّة وقعت بعد نزول الحجاب، والحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع، فتكون غزوة المريسيع بعد ذلك، فيترجّح أنه سنة خمس[4].

ج)– كما يعارض هذا القولَ: ما في "صحيح البخاري" عن ابن عمر ﷺ: أنه "غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق"[5] في شعبان، وابن عمر سنة أربع لم يؤذن له في القتال؛ لأنه إنما أذن له فيه في الخندق، وهي بعد شعبان، سواء قلنا إنها كانت سنة خمس، أو سنة أربع[6].

– **القول الثاني:** أنّها كانت **سنة خمس** للهجرة، هو قول: الزهري وعروة بن الزبير وقتادة[7]، وموسى بن عقبة الصحيح عنه[8]، والواقدي وابن سعد والبلاذري[9]، وهو ما رجّحه: الحاكم والذهبي وابن القيم وابن حجر وغيرهم[10]، ورجّحه من المعاصرين: أبو شهبة ومحمد الغزالي والبوطي والعمري وغيرهم[11].

وهو القول الذي نسبه "بول–Buhl" إلى الواقدي وابن سعد.

---

[1]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 536/7. وصحيح السيرة، العلي، 245.

[2]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 181/6. وفتح الباري، 536/7-537. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 406/2.

[3]– فتح الباري، 536/7-537.

[4]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 237/3. وفتح الباري، 537/7.

[5]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 210/5.

[6]– ينظر: فتح الباري، 537/7. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 4/3.

[7]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 44/4-45. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 233/1.

[8]– ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 128/2. والبداية والنهاية، 181/6. وفتح الباري، 537/7.

[9]– ينظر على التوالي: مغازي الواقدي، 404/1. والطبقات الكبرى، 48/2. وأنساب الأشراف، 342/1.

[10]– ينظر: تاريخ الإسلام، 170/1 و481/2. وزاد المعاد، 238/3. وفتح الباري، 537/7. وسبل الهدى، 355/4.

[11]– ينظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 252/2. وفقه السيرة للغزالي، 293. وفقه السيرة للبوطي، 202. والسيرة النبوية الصحيحة، 406/2. وصحيح السيرة، العلي، 246.

– **القول الثالث:** أنّها كانت **سنة ستّ** للهجرة، قاله: ابن إسحاق والطبري وابن الأثير وغيرهم[1].

نسب "بول–Buhl" هذا القول إلى ابن هشام، لكنّه أورده في "سيـــرته" عن ابن إسحاق[2]؛ لأنّ ابن هشام وإن كان هذّب سيرة ابن إسحاق فهو يفرّق بين أقواله ورواياته هو، وأقوال وروايات صاحب الكتاب الأصلي الذي هو ابن إسحاق، فكان الأدق أن ينسب المستشرق "بول" هذا القول لابن إسحاق كما فعل ابن هشام وأئمة السيرة والمغازي الذين ذكروا الخلاف في المسألة.

– **الترجيح:** لا خلاف بينهم أنّها كانت في **شهر شعبان**[3]، وإنّما اختلفوا في تحديد السنة، وتقدّم الاستدلال على ضعف القول بأنّها كانت سنة أربع، **والمرجح** أنّها كانت في **سنة خمس** للهجرة لِما يلي: **(أ)**– أنّه قول أئمة المغازي والسيرة كعروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة، وهم أقدم وأوثق من ابن إسحاق الذي قال بأنّها سنة ستّ.

(ب)– قول ابن إسحاق مُعارَض بما في صحيحي البخاري ومسلم في "حديث الإفك" من اشتراك سعد بن معاذ ﷺ في غزوة بني المصطلق[4]، مع أنّه استشهد في غزوة بني قريظة عقب الخندق مباشرة سنة خمس، وبالتالي فلا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق إلا قبل الخندق[5].

(ج)– يؤيّد هذا القول: أنّ حديث الإفك كان سنة خمس، ولا خلاف أنّ حديث الإفك كان في غزوة المصطلق هذه، وحديث الإفك جاء فيه التصريح بأن القصة "وَقَعت بعد نزول الحجاب"[6]، والحجاب كان في ذي القعدة سنة أربع، فتكون غزوة المصطلق بعد ذلك؛ فيترجّح أنها سنة خمس[7].

- **الاستدراك على المستشرق "بول":** عَرْض "بول–Buhl" للخلاف في تاريخ الغزوة جاء سطحيّا وغير متكامل؛ فذكر قولين في المسألة مع أنّ فيها ثلاثة أقوال، كما لم يكن دقيقا في عزو تلك الأقوال، والأهم من ذلك محاولته تضخيم هذا الخلاف، واستنتاجه منه ما لا يدلّ عليه.

لكن الإشكال ليس في وقوع الاختلاف بين الروايات وأقوال المؤرخين، وإنّما هو في كيفية فكّ التعارض بينها بالمرجحات العلمية والقرائن التي تدّل على ترجيح قول على آخر أحيانا، أو الجمع بين هذه الأقوال عند إمكانية الجمع أحيانا أخرى، والملاحظ أنّ المستشرق "بول" طرح الخلاف، لكـــنّه

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 289/2. وتاريخ الطبري، 969/2. وفتح الباري، ابن حجر، 536/7.

[2]– حيث جاء في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 289/2": «**قال ابن إسحاق:** فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجبًا، ثُمّ **غَزا بني الْمصطلق** من خزاعة، **في شعبان سنة ستٍّ**».

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 289/2. ومغازي الواقدي، 404/1. وفتح الباري، 536/7.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 540/7. وصحيح مسلم (النووي)، 163/17–164.

[5]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 237/3. وفتح الباري، 537/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 406/2.

[6]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 538/7. وصحيح مسلم (النووي)، 156/17–157.

[7]– ينظر: زاد المعاد، 237/3. وفتح الباري، 537/7.

لم يتكلّم عن الترجيح بين هذه الأقوال، ذلك أنّه ليس له قواعد علمية منضبطة يعتمد عليها في ذلك شأنه شأن كثير من المستشرقين، وفاقد الشيء لا يعطيه، وإنّما اعتماد المستشرقين غالبا في الترجيح بين الروايات هو انتقاء الرواية التي تخدم أهداف المدرسة الاستشراقية، ولو كانت أضعف الروايات وأوهاها من حيث التوثيق التاريخي كما مرّ معنا في عدة مواضع.

ويبدو أنّ ترجيح قول على آخر هنا لا يخدم الأغراض التي يهدف إليها، لذا لجأ إلى منهج آخر يخدم أهداف المدرسة الاستشراقية، ألا وهو استغلال الخلاف نفسه لِخدمة تلك الأغراض الاستشراقية التي تَهدف إلى الطعن في النبي ﷺ وسيرته، لكنّ ما اتّكأ عليه هنا أوهنُ من أن يَخـــدم تلك الأغراض أو يدعمها، لعدّة اعتبارات منها:

أ)– أنّ هذا الخلاف ليس خلافا كبيرا وإن حاول "بول–Buhl" تضخيمه أكثر من حقيقته؛ فلو كان الفارق بين هذه الأقوال عشر سنوات أو حتّى خمسا لساغ عندئذ –ربّما– تضخيمه للخلاف، أما والخلاف لا يتجاوز سنة أو سنتين [وإن كان هذا القول أضعفها]، فلا يسوغ ذلك أصلا.

ب)– غزوات النبي ﷺ تزيد على أربع وعشرين (24) غزوة، وسراياه تزيد على سبع وأربعين (47) سرية[1]، وكلّها موثّقة بالشهر والسنة وأحيانا باليوم، فإذا وقع الخلاف في بعض تواريخ هذه المغازي، وفي نسبة قليلة منها؛ فلا يمكن عندئذ الاستدلال بهذا الخلاف على عدم وجود ترتيب دقيق لحوادث السيرة، ومن باب أولى لا يمكن الاستدلال بالخلاف في تاريخ غزوة واحدة فحسب على ذلك، خاصة عند وجود الشواهد التاريخية التي يستدل بها في الترجيح بين تلك الأقوال المختلفة.

ج)– أنّ كتب السيرة والتاريخ والمغازي تذكر حياة النبي ﷺ من المولد إلى الوفاة بسياق مرتّب لا إشكال فيه، وإن اختلفت في ترتيب بعض الجزئيات وهي قليلة جدا، فذلك غير مأثر مطلقا على سياق السيرة وترتيبها، وأكبر من ذلك ما: يستفاد منها من دروس وعبر وأسوة حسنة، وهو المقصد الأكبر وراء دراسة المسلمين لسيرة نبيهم ﷺ .

د)– لا يمكن أن تؤثّر بعض الجزئيات في مئات الحيثيات من السيرة النبوية التي وردت مرتبة في سياق منتظم، بحيث لم تتوصّل أمّة من الأمم إلى حفظ سيرة نبيّها بهذه الدقة المتناهية، وبتلك التفاصيل الجزئية، وهذا ما جعل المستشرق "بول" يقتنص هذا العذر الواهي ليتوكّأ عليه في إثبات شيء يعلم كلّ من له أدنى اطّلاع على السيرة النبوية أنّه محض دعوى بتعسّف لا يمتّ إلى الإنصاف بصلة.

[1]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 5/17–19. وفتح الباري، ابن حجر، 7/350–351. وشرح الزرقاني على المواهب، 2/221.

المطلب الرابع : مقدمات غزوة الخندق

الفرع الأول : أسباب الغزوة وتعبئة الجيشين

أولا- عرض نصوص المستشرقين :

– جاء في مادة "**أسد**"[فقرة: 3]: «**وفي عام (627م) قدّم بنو أسد جيشا للحلف الكبير الذي عقده أهل مكة لمناهضة النبي (وقعة الخندق)، والذي انقصمت عروته بعد ذلك دون أن يحقق غرضه**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **ركندورف** - H.Reckondorf[2].

– وفي مادة "**غطفان**"[فقرة: 4]: «**وقد اشتركت فرقة من بني فزارة وربّما بني مرة أيضا بقيادة "عيينة" في عام (5هـ/627م) في حصار المدينة (فيما عرف باسم غزوة الخندق)**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **ي. فوك** -Fuck[4].

– وفي مادة "**فزارة**"[فقرة: 1]: «**... عيينة بن حصن بن حذيفة الذي شارك في حصار المدينة (في غزوة الخندق) عام 5هـ/(627م)[5] في ألف رجل**»[6]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** - Watt[7].

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 80]: «**وبينما كان محمد ﷺ يحاول استعادة سلطته التي أضعفتها هزيمة أحد، دهمه ودهم المدينة خطر جديد مصدره مكة، فقد أدركت قريش التي كان لا يزال يهاجم قوافلها والتي كان يهود خيبر يستحثونها أن نصر أحد لم يضعف مركز محمد ﷺ بالقدر الكافي، وأدركت ضرورة احتلالها للمدينة، وهو ما كان ينبغي عليها القيام به فور انتصارهم في أحد، وقد أدى شعورهم بضعف كفاءتهم الحربية وهم التجار قليلو الخبرة بالقتال، إلى الجدّ في التفاوض مع قبائل شتى من البدو، مِمّا مكنهم من حشد جيش كبير قيل إنه كان مؤلّفا من عشرة آلاف مقاتل، وساروا عام (5 هـ/626–627م) إلى المدينة**»[8]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[9].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 102/2.

[2]– سبقت ترجمته في: ص249.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7627/24.

[4]– سبقت ترجمته في: ص266.

[5]– جاء في المطبوع (657م)، ولعله خطأ مطبعي، والصواب ما أثبتُه كما سيأتي بعد ثلاث صفحات.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7852/25.

[7]– سبقت ترجمته في: ص59.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9141/30–9142.

[9]– سبقت ترجمته في: ص150.

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]- أسباب الغزوة: أشار "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" إلى بعض الأسباب التي أدّت إلى وقوع غزوة الأحزاب، وفيما يلي بيانها -مع الاستدراك عليه في بعض النقاط-:

أ)- جاءت غزوة الأحزاب على أثر إخفاق قريش في تحرير طرق تجارتها إلى الشام في غزوة أُحُد، فقد أوقع المشركون خسائر بالمسلمين في أحد، **لكنهم عجزوا** عن القضاء عليهم أو دخول بلدتهم، وظلت طرق التجارة القرشية مهددة، ونشطت سرايا المسلمين وغزواتهم بعد "أُحُد" حتى مَحت آثار "أُحُد" في المدينة والبوادي معاً، فكانت قريش تفكر بالقيام بعمل عسكري يَحسم الموقف لصالحها بالقضاء على المسلمين في المدينة قضاء مبرماً[1].

ذكر "بول-Buhl" هذه الدواعي المباشرة لغزوة الأحزاب، وكرّر تحسّره السابق حول عدم قضاء جيش قريش على المسلمين تماما واحتلال المدينة في غزوة أُحُد، فيقول: «**وهو** [أي: احتلال للمدينة] **ما كان ينبغي عليها القيام به فور انتصارهم في أُحُد**»، وقد سبق بيان أنّهم لم يستطيعوا ذلك - لا أنّهم تركوا القضاء على المسلمين اختياراً؛ مع قدرتهم عليه-، لكن المستشرق "بول" يضيف هنا ما يؤكّد إدراكهم لعجزهم، وأنّ نصر أُحُد كان فلتة، إذ لم يكونوا قادرين على تحقيق نصر آخر على المسلمين، عندما يقول بأنّ: «**شعورهم بضعف كفاءتهم الحربية وهم التجار قليلو الخبرة بالقتال...**»، ولكنه غفل عن أنّ هذا الشعور انتابهم بعد أُحُد عندما تشاوروا في غزو المدينة فتردّدوا في ذلك كما ذكر الواقدي، ولو كانوا يجزمون بإمكانية نجاحهم ما تترّددوا، ثُمّ أدركوا ذلك أيضا عندما جبنوا عن ملاقاة جيش المسلمين في "حمراء الأسد" ثم في "بدر الموعد"، لكنّه أدرك شعورهم هذا متأخّراً، عندما لاحظ أنّ قريشاً لم تجرؤ على قتال المسلمين بعد أُحُد إلاّ بعد أن جمعت إليها أحزابا من قبائل العرب.

أمّا قول "بول -Buhl" أنّه «**بينما كان محمد ﷺ يحاول استعادة سلطته التي أضعفتها هزيمة أحد، دهمه ودهم المدينة خطر جديد**»؛ فهو كلام تردّه التطوّرات العسكرية الواقعة بعد "أُحُد" إلى "الخندق" مرورا بغزوة "حمراء الأسد" و"بني النضير"، وانتهاء إلى "بدر الموعد" التي حقّقت انتصاراً معنويا ظاهراً على قريش، حيث أدركت بعدها قبائل العرب -زيادة على قريش- أنّ جيش قريش بات يهاب لقاء جيش المسلمين منفرداً، كما أنّ الحملات العسكرية الناجحة التي قادها المسلمون بعد أُحُد أعادت لهم الاعتبار في المنطقة، وقيّدت تحركات اليهود في المدينة، وقبائل العرب في نواحي مكة والمدينة.

لذا أعادت قريش واليهود والقبائل العربية المعادية النظر في مواجهة المسلمين كلّ على انفراد، كما سيتضح في السبب الموالي.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/418-419.

ب)- بعد غزوة "أُحُد" وما تلاها من غزوتي "حمراء الأسد" و"بدر الموعد" أصبحت قريش تدرك جيداً أنّها غير قادرة وحدها لإنجاز مهمة القضاء على المسلمين، لذا سعت قريش إلى التحالف مع الآخرين لحرب المسلمين، كما أيقنت طوائف الكفّار الأخرى أيضا أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كلّ طائفة منفردة، وأنّها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة[1].

ج)- كان زعماء اليهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، أي: ضرورة تحالف مشركي العرب واليهود للقضاء على المسلمين، لذا **تولّى اليهود مهمّة جمع تحالف كبير** ضد النبي ﷺ، فأجمعوا أمرهم على تأليب قبائل العرب بقيادة قريش ضدّ الإسلام، وسعوا لحشدهم في جيش كثيف ينازل محمداً ﷺ وصحبه في معركة حاسمة[2]، فكان جمع الأحزاب كما سيأتي بيانه.

[2]- تعبئة الجيشين:

أ)- جيش الأحزاب المشركين: بعد أن أجلى الرسول ﷺ يهود بني النضير من المدينة، ذهب عدد من كبار زعمائهم إلى خيبر، ومن هناك بدأوا اتصالاتهم بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والعودة إلى أرضهم وأموالهم في المدينة، وهكذا خرج وفد منهم إلى مكة فيهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري، فدعوا قريشاً إلى حرب المسلمين ووعدوهم أن يقاتلوا معهم، وشهدوا بأن الشرك خير من الإسلام، ثم خرجوا من مكة إلى نجد حيث حالفوا قبيلة غطفان الكبيرة على حرب المسلمين، وهكذا تحالف الأحزاب بجهود من يهود بني النضير، ويذكر موسى بن عقبة: أن وفد اليهود وعد غطفان بنصف ثمر خيبر لإغرائها بالمشاركة في التحالف[3].

هكذا اتفق الأحزاب على إنشاء تحالف كبير ضد المسلمين، وقد جاء في نصوص مادة "أسد" و"غطفان" و"فزارة" ذكر بعض القبائل التي كوّنت هذا التحالف، وهي كالآتي:

- **قريش** والأحابيش[4]: خرجوا في أربعة آلاف بقيادة "أبي سفيان".
- **وسليم:** في سبعمائة بقيادة "سفيان بن عبد شمس"، وهم من **حلفاء قريش.**
- **وغطفان:** خرج من فروعها: - **فزارة** : بقيادة "عيينة بن حصن بن حذيفة" في ألف مقاتل.
  - **أشجع:** في أربعمائة، يقودهم مسعود بن رخيلة بن عائذ.

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 419/2. وفقه السيرة، الغزالي، 293.

[2]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 293.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 214/2-215. وفتح الباري، ابن حجر، 491/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 419/2.

[4]- "**الأحابيش**": هم بنو الحارث بن كنانة، والهون بن خزيمة، وبنو المصطلق من خزاعة، وسمو بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال له حبشي فنسبوا إليه، وقيل سموا بذلك: لتجمعهم، والتحبّش التجمع. ينظر: عيون الأثر، ابن سيد الناس، 36/2. ولسان العرب، ابن منظور، 278/6.

– **بنو مرّة:** في أربعمائة، يقودهم الحارث بن عوف.

– **وأسد:** قائدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وهم **حلفاء غطفان.**

ومعهم جماعة من **اليهود:** بقيادة "حيي بن أخطب"، وهو الذي حرّض بني قريظة على نقض العهد، فكان تعداد المشركين من: **قريش وسليم وأسد وغطفان** وغيرهم **عشرة آلاف**[1].

ظن الأحزاب بهذا التجمع أن الأمور دالت لهم، وأن انتصارهم بكثرتهم حق ثابت ولذلك تحركوا جماعات نحو المدينة، وتواعدوا على اللقاء حولها، وقدموا من كل صوب بعددهم وعدتهم وعداوتهم، لينالوا من دين الله تعالى، ومن رسوله ﷺ، ويستأصلوا المسلمين من المدينة[2].

لَمّا وصل الأحزاب إلى المدينة؛ نزلت **قريش** والأحابيش وسليم ومن تبعهم بِمجتمع الأسيال من رومة بين الْجُرف وزغابة[3]، أما **غطفان** وبنو أسد ومن تبعهم من أهل نجد فنزلوا بذنب نَقْمى[4] إلى جانب أُحُد[5].

ب)– جيش المسلمين: لَمّا وصل نبأ هذا الجمع الحاشد إلى الرسول ﷺ، استشار أصحابه في الأمر، فاستقرّ رأي المسلمين على أن يتحصنوا بالمدينة، وأن يحفروا خندقا في الجهة الشمالية للمدينة، وهي المنطقة المكشوفة أمام العدوّ، وبعد أن أتمّ المسلمون الحفر؛ خرج الرسول ﷺ والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى جبل "سَلْع"[6] في **ثلاثة آلاف** مقاتل، والخندق بينهم وبين القوم، وجعل النساء والذراري في الآطام[7].

[3]– تسمية الغزوة: سُمّيت "بغزوة الخندق" لأجل الخندق الذي حُفر حول المدينة، وسُمّيت "بغزوة الأحزاب" لِاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم: قريش، وغطفان، واليهود ومن تبعهم[8].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 215/2. ومغازي الواقدي، 443/2-444. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 223/1-224. وشرح الزرقاني على المواهب، 18/3. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 467.

[2]– ينظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، أحمد غلوش، 423.

[3]– **مجمع الأسيال** من رومة: هو المكان الذي يجتمع به سيل وادي بطحان، وسيل العقيق ، قرب مسجد القبلتين اليوم في أحياء المدينة الغربية. و"**الجُرف**": مكان في الشمال الغربي للمدينة. و"**زغابة**": موضع إذا خرجت من "سَلْع" تريد بئر رومة مررت في زغابة آخر سيل العقيق، ويسمّى مجتمع السيول. ينظر: وفاء الوفا، السمهودي، 48/4 و87. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 281.

[4]– **نقمى:** من النّقمة، وادٍ يَمرّ شمال جبل أحد، ويسمونه اليوم "وادي النّقمي" بالياء.

ينظر: وفاء الوفا، 158/4. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، 281.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 219/2-220. ومغازي الواقدي، 444/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 87/2.

[6]– **سلع:** جبل صغير معروف في المدينة، وهو اليوم في وسط عمران المدينة. ينظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، 160.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 220/2. وعيون الأثر، 86/2.

[8]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 490/7-491.

[4]– تاريخها: وقعت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس للهجرة (5 هـ)[1]، وهو ما يوافق سنة (627م) للميلاد تقريبا، كما ذكر "بول–Buhl" و"فوك–Fuck" و"وات–Watt" في نصوصهم السابقة.

الفرع الثاني: حفر الخندق ومشاركة النبي ﷺ فيه

أولا– عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**الخندق**": «**على أن الروايات تذكر أن أول من استعملها في العربية هو سلمان الفارسي الذي أشار على النبي ﷺ فيما يقال بأن يحفر حول المدينة خندقا يحميها من شر محاصريها سنة ست للهجرة، وهي وسيلة من وسائل الدفاع لم يكن العرب قد عرفوها بعد، وكانت شائعة بين الفرس.**

أما حادثة حصار المدينة في هذه السنة فقد ارتبطت منذ ذلك بكلمة خندق أو بكلمة الأحزاب، وتمدنا السيرة وغيرها من كتب التاريخ بروايات شتى عن مقدار امتداد الخندق، وعن ذلك الجزء من المدينة الذي حفر الخندق لحمايته، ويجوز لنا أن نرجّح أنّ الخندق كان يبدأ من السوق ومن التل المعروف بـــ"سلع" ويمتد إلى الشمال والشمال الشرقي خاصة، كما يتجه جزء منه إلى الجنوب.

ويتردّد ذكر حفر الخندق في الحديث، ذلك أنّ النبي ﷺ نفسه قد اشترك فيه (البخاري: الجهاد، الأبواب 33، 34، 161. مسلم، الجهاد)، ويقال إنّه ضرب صخرة كبيرة فصدعها وبرق منها برقة أضاءت شتى أجزاء العالم (ابن سعد، ج1/4 ص59 وما بعدها)، ووردت أبيات من الرجز قالها النّبـــي أو بعض صحابته أثناء العمل في الخندق»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **فنسنك** - Wensinck [3].

– وفي مادة "**سلمان الفارسي**": «**ويقترن اسم سلمان بحصار أهل مكة للمدينة، ذلك أنّه هو الذي أشار بحفر الخندق الذي استطاع به المسلمون أن يحموا أنفسهم من عدوهم، غير أننا نلاحظ كما بيّن "هورفتز" أنّ أقدم الروايات التي تَحدّثت عن يوم الخندق لم تذكر شيئا عن تدخل سلمان في الأمر، ومن المرجح أن تكون تلك القصة قد اخترعت لكي تنسب إلى أحد الفرس هذه الوسيلة من وسائل الدفاع**»[4]. المحرِّر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida [5].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 214/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 9/6–10. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 418/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 463/8–464.

[3]– سبقت ترجمته في: ص49.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 109/12.

[5]– سبقت ترجمته في: ص95.

– وجاء في مادة "**غناء**": «**وفي بداية الإسلام، لم يكن هناك أي معارضة للغناء، حتى أن رسول الله ﷺ كان يشارك بنفسه في الغناء أثناء حفر الخندق في مكة**[1]»[2]. المحرِّر هو: **هـ. فارمر** – H. Farmer[3].

– وفي مادة "**العمارة**"[فقرة: 3]: «**وعندما هوجِمت المدينة في سنة (5 هـ/627م) ولم تكن مسوّرة لِذا أمر محمد ﷺ في إشارة من سلمان الفارسي بحفر خندق لِحمايتها، وقد أثار هذا دهشة كبيرة لأنه لم يسمع أحد بِمثل ذلك من قبل**»[4]. المحرِّر هو المستشرق: **كرسويل** – K. Creswel[5].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 81]: «**ولكي يقوّي محمد ﷺ من دفاعه أمر بحفر خندق – وخندق كلمة فارسية – حيال المناطق العارية من الدفاع في المدينة، ولا تذكر سيرة ابن هشام أن فكرة الخندق كانت فكرة سلمان الفارسي، غيـــر أن ثَمّة روايات أخرى تقول إن سلمان اقترح على محمد ﷺ حفر الخندق الذي يقال إنّه من الاستراتيجيات العسكرية الفارسية**»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[7].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– اقتراح خطة حفر الخندق: ما إن علم المسلمون بخبر تجمع الأحزاب لغزوهم حتى بدأ الرسول ﷺ باستشارتهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف، وكان هذا دأبه في المواقف كلها تأليفاً لقلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم يترل فيه وحي من أمر الحرب والأمور الجزئية الأخرى، وتدريباً لهم على التفكير بالمشاكل التي تواجه المجتمع والدولة، وليشعروا بمسئوليتهم تجاه القضايا العامة ومشاركتهم فيها[8].

وقد أشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق في المنطقة الشمالية من المدينة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحرات التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها[9].

---

[1]– **تعليق المترجم**: «**الصواب أن الحفر كان بالمدينة لصد هجمات المشركين فيما عرف بغزوة الخندق أو الأحزاب**».

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7639/24.

[3]– **فارمر هنري** "Henery Farmer" (1882–1965م): مستشرق بريطاني، تخصّص في دراسة تاريخ الموسيقى عند العرب، وله مؤلفات في هذا المجال. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 539/2–540.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7449/24.

[5]– سبقت ترجمته في: ص271.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9142/30–9143.

[7]– سبقت ترجمته في: ص150.

[8]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 420/2. وكذا: مغازي الواقدي، 444/2–445.

[9]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 224/2. وفتح الباري، ابن حجر، 491/7. السيرة النبوية الصحيحة، 420/2.

شكّك المستشرق "دلافيدا - della vida" في كون سلمان الفارسي ﷺ هو مَن أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق، واستند في ذلك إلى استدلال مستشرق آخر هو "هورفتز" الذي ذكر: أنّ أقدم الروايات لا تذكر هذه الجزئية؛ غير أنّه يستدرك على هذا الاستدلال بأمور:

أ)– لم يبيّن مقصوده بأقدم الروايات؛ فإن قصد بذلك روايات الصحابة، فلم ترد رواية عن صحابي في هذه الجزئية، وإن كان في بعضِ ما روي عنهم في الحادثة عموما إشاراتٌ قد تشهد لهذه الجزئية، كما في التفصيل الموالي.

وأقدم من ذكر جزئية "إشارة سلمان بحفر الخندق" هو: أبو معشر السندي[1].

أمّا إن كان مقصوده: روايات أقـــدم المصادر في السيرة فهذا غير صحيح، لورودها في كـــتب "ابن هشام" و"الواقدي" و"ابن سعد" و"البلاذري" و"الطبري" وغيرهم[2].

لكن متى كان المستشرقون يعتبرون بقدم الروايات في توثيقها وقبولها؟! فإنّنا نجدهم كثيرا ما يردّون الروايات الصحيحة للسيرة الموثقة عمن شهد الحادثة من الصحابة ﷺ، أو من روى عنهم من التابعين، مع أنّها أقدم الروايات في الواقعة؛ فالمستشرقون ليس لهم منهج منضبط في هذا الشأن، ويواليتهم كانوا يقدّمون أقدم الروايات على غيرها في الاحتجاج، لكان طرحهم حينها أقرب إلى المنهج العلمي في نقد أخبار السيرة، ولكنّهم يوثّقون أو يردّون الروايات بمناهج مختلفة ذاتية أحيانا، وأحيانا أخرى موضوعية (مختلقة)، وتلك الأعذار الموضوعية نادراً ما تكون في محلّها.

تنبيه: في هذا السياق وقع المستشرق "بول" في غلط ظاهر عندما قال: «**ولا تذكر سيرة ابن هشام أن فكرة الخندق كانت فكرة سلمان الفارسي**»؛ بينما نجد ابن هشام ذكر أنّها فكرة "سلمان" في "سيرته"؛ حيث جاء فيها: «قال ابن هشام: يُقال: إنّ **سلمان الفارسي أشار به** على رسول الله ﷺ»[3].

ب)– يمكن القول بأنّ رواية "إشارة سلمان ﷺ على النبي ﷺ بحفر الخندق" وإن كانت غير موثقة على منهج المحدّثين، فلا مانع من قبولها تاريخيا لأمور:

– أنّ هذه الرواية قديمة نسبيّا، فقد ذكرها جمع من علماء المغازي الأوائل المتقدّم ذكرهم.

– هذه الجزئية مما يُتساهل فيه من الأخبار، ولا يشترط لقبولها بلوغ درجة الصحة الحديثية[4]، إذ لا يتعلّق بها حكم شرعي، وقد أوردها معظم مصادر السيرة والتاريخ وغيرها.

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 444/2-445. وفتح الباري، ابن حجر، 491/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 420/2.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 224/2. ومغازي الواقدي، 444/2-445. والطبقات الكبرى، 51/2. وأنساب الأشراف، 343/1. وتاريخ الطبري، 566/2. وفتح الباري، 491/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 420/2.

[3]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 224/2.

[4]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 319/1.

– وهذه الرواية وإن كانت غير مسندة، فلا يوجد ما يعارضها من الصحيح المسند.

– أنّ هناك قرائن من السيرة الصحيحة تشهد لصّحتها منها:

– صحّ أنّ سلمان ﷺ اشترك في غزوة الخندق، وكانت أول مشاهده[1].

– دأَبَ النبي ﷺ على مشاورة أصحابه في مثل هذه الشؤون التي لم يرد فيها وحي[2].

ج)– أمّا قوله بأنّ «**القصة اختُرعت لكي تنسب إلى أحد الفرس هذه الوسيلة من وسائل الدفاع**»، فليس هناك حاجة تدعو الرواة أو المؤرخين إلى اختراع قصّة تنسب إلى الفرس هذه الوسيلة الدفاعية، وليس المقصد من الرواية أصلا نسبة هذه الوسيلة للفرس دون غيرهم، فهو أمر يشاركهم فيه الروم وغيرهم، وإن كان –ربّما– شائعا كثيراً عند الفرس، بل ذكر المؤرخ "جواد علي": أنّ عرب اليمن كانوا يستعملون هذا النوع من الدفاعات، وكذا غيرهم من بعض الشعوب آنذاك[3].

وإنّما المقصود من الرواية: أنّ النبي ﷺ شاور أصحابه في طريقة مواجهة الموقف الصعب، فأشار "سلمان الفارسي" ﷺ بهذه الفكرة التي فتح الله بها عليه – وكانت المدينة مهيئة لها–، ولعلّ السبب الذي جعل "سلمان" ﷺ يهتدي لهذه الوسيلة هو انتشارها عندهم في الفرس، وهذا لا يمنع أن يكون استعمال الخندق عند غيرهم من الأمم والشعوب، وعليه فالرواية ليست لتخصيص الفرس بهذه الوسيلة دون غيرهم كما توهّم "دلافيدا-della vida"، فلا يمكن ردّ الرواية بمثل هذا التوهّم.

[2]– الشروع في حفر الخندق ومشاركته ﷺ فيه:

أ)– بعد أن تَمت المشاورة أمَرَ النبي ﷺ بحفر الخندق في السهول الواقعة شمال المدينة، ليربط بين طرفي الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء، بينما كانت الجهات الثلاث الباقية محاطة بالحرار والبساتين[4].

شرع المسلمون في حفر الخندق، وكان طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة[5]، وقد تَم الحفر بسرعة رغم الجو البارد وقلة الطعام بالمدينة في ذلك الوقت، ولكن حرارة الإيمان طغت على آثار البرد والجوع القارصين[6].

---

[1]– ينظر: مسند أحمد، 147/39. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 221/1.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 360/2.

[3]– ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 453/5.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 450/2. وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 17/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 420/2.

[5]– تقديره بوحدة القياس [المتر] المتداولة الآن بالتقريب [وفق تقدير بـــ: 1 ذراع = 0.55 متر/ وسبق في: ص507. الكلام على تقدير الذراع] يكون كالآتي: **طوله**: 2750 متر، **وعرضه**: 5 متر، **وعمقه**: بين 4 و5 متر.

[6]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 495/7–496. والسيرة النبوية الصحيحة، 421/2.

ب)- قسَّم النبي ﷺ أعمال حفر الخندق بين الصحابة، فكان على كلّ عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، ووكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه[1].

ج)- وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم بيديه الشريفتين في حفر الخندق، تشجيعا للمسلمين ورفعا لمعنوياتهم، فعن البراء بن عازب ﷺ قال: «لَمّا كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتَّى وارى عنّي الغبارُ جلدةَ بطنه»[2].

قال ابن إسحاق: «ضُرب الْخندق على الْمدينة، فعمل فيه رسول الله ﷺ **ترغيبًا للمسلمين في الأجر**، وعمل معه الْمسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا»[3].

كما كان الرسول ﷺ يردّد مع أصحابه الأهازيج لتنشيطهم في العمل، فكان يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة ﷺ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقــنا ولا صلينا

فأنزلن سكيــنة عليــنا وثبّت الأقدام إن لاقيــنا

إن الألَى قد بغوا عليــنا وإن أرادوا فتــنة أبيــنا

وكان يمد صوته بآخرها[4].

لكنّ هذا الحديث في إنشاد النبي ﷺ وأصحابه هذا الشعر لا يستفاد منه جواز الغناء مطلقا كما ذكر المستشرق "فارمر-Farme" في مادة "غناء"، قال ابن حجر: «وأفرط قوم فاستدلوا به على جواز الغناء مطلقا»[5]؛ وإنّما يستفاد من الحديث جواز التغني بالشعر الذي تكون كلماته حسنة للترويح عن النفس ورفع الهمم والعزائم أحيانا، ولا يمكن أن يُستند إليه في إباحة التغني بالشعر الماجن، وما قد يصحبه من منكرات أو معازف محرمة ونحوها، على ما حرّره الإمام ابن حجر وغيره[6].

د)- حدثت عدّة معجزات للنبي ﷺ أثناء حفر الخندق، منها ما ذكره "فنسنك -Wensinck " في مادة "الخندق": من قصة الصخرة التي عرضت للصحابة ثم كسرها النبيُّ ﷺ وبشّر أصحابه بفتح بعض الأمصار، قال البراء بن عازب ﷺ - وهو شاهد عيان-: «عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فشكونا إلى رسول الله ﷺ، فجاء ﷺ فأخذ المعول، فقال: "بسم الله"، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: ((اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ

---

[1]- ينظر: المعجم الكبير، الطبراني، 212/6. وتفسير الطبري، 39/19. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 365/4.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 499/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، 237/12. واللفظ للبخاري.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 216/2.

[4]- من حديث البراء بن عازب ﷺ عند: **البخاري ومسلم**، تخريجه: في الهامش السابق رقم (2).

[5]- فتح الباري، 666/10.

[6]- ينظر: فتح الباري، 666/10-667. وعون المعبود، العظيم آبادي، 187/13.

مَكَانِي هَذَا))، ثُمّ قال: "بسم الله" وضَرب أخرى فكَسر ثلث الْحجر، فقال: ((اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا))، ثُمّ قال: "بسم الله" وضربَ ضربةً أخرى فقلع بَقيّة الْحجر، فقال: ((اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا))»[1].

وأصل القصّة في "البخاري" من حديث جابر ﷺ[2] بسياق مختصر، أمّا السياق الذي أورده المستشرق "فنسنك" فجاء عند ابن سعد وغيره من حديث عمرو من عوف ﷺ، وفيه: «... فقال ﷺ: ضَرَبْتُ ضَرْبَتِي الأُولَى، فَبَرَقَ الَّذِي رَأَيْتُمْ أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قصور الحيرة، ومدائن كِسْرَى... فَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، ثُمَّ ضَرَبْتُ ضَرْبَتِي الثَّانِيَةَ، فَبَرَقَ الَّذِي رَأَيْتُمْ أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ الْحُمْرِ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ... ثُمَّ ضَرَبْتُ ضَرْبَتِيَ الثَّالِثَةَ فَبَرَقَ مِنْهَا الَّذِي رَأَيْتُمْ، أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ صَنْعَاءَ... فَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا، فَأَبْشِرُوا ...»[3]، لكن قول المستشرق "فنسنك": "**برقةٌ أضاءت شتى أجزاء العالم**" يحتاج إلى تدقيق؛ فالصواب أن يقول: " **أضاءت بعض أجزاء العالم**"، وهي الأمصار المذكورة في الروايات التي بشّر النبي ﷺ بأن الله تعالى سيفتحها على المسلمين.

المطلب الخامس : بعض وقائع معركة الخندق ونهايتها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**سعد بن عبادة**"[فقرة: 5]: «**وفي غزوة الخندق بدأ النبي ﷺ يدخل في مفاوضات سرية مع أميري غطفان، عيينة بن الحصن والحارث بن عوف، ووعدهم بنصف المحصول التالي من تَمر المدينة إذا هما كفا عن القتال، وأبدت غطفان استعدادها لتنفيذ ما أشار به النبي، إلا أن خطته لقيت معارضة من أولئك المسلمين الذين كانوا ميالين إلى مواصلة القتال، ويقال إنّ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير كانوا من أشد المعارضين لمحاولة النبي هذه**»[4].

المحرر هو المستشرق: **نسترشتين** –Zetterstéen[5].

---

[1]– أخرجه: **أحمد**، المسند، 30/625-626. وحسنه ابن حجر "فتح الباري، 7/496"، والعلي "صحيح السيرة، 267" لشواهده.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 7/494.

[3]– أخرجه: **ابن سعد**، الطبقات الكبرى، 4/62. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 3/418-419. وإسناده ضعيف من أجل "كثير بن عبد الله المزني" ضعيف جدا؛ ينظر في ذلك: "مجمع الزوائد، 6/130". وفقه السيرة، الغزالي، 297 (الهامش).

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 11/407.

[5]– سبقت ترجمته في: ص112.

– وفي مادة "**عبد الله بن رواحة**"[فقرة: 4]: «... **كما أرسله** [أي: النبيُّ ﷺ] **إلى بني قريظة –وكان حليفاً لهم– عند بدء معركة الأحزاب ليعرف ماذا يكون موقفهم**»[1].

المحرِّر هو المستشرق: **شاده** - A.Shaade[2].

– وفي مادة"[**بنو**] **قريظة**"[فقرة: 2]: «**ويبدوا أن المسلمين [عندما أحسوا الخيانة] لَجأوا إلى الحيلة لِمنع قيام تحالف بين اليهود والمشركين، فأوعزوا لليهود أن يطلبوا من المشركين أن يرسلوا لهم بعض رجالهم ليضمنوا ألا يتخلوا عنهم إذا أبطأ النصر، وفي نفس الوقت أشاعوا بين المشركين أن قريظة تعتزم الغدر بهم، وأنها سوف تسلم الرجال المطلوبين إلى المسلمين لكي يقتلوهم [انظر سيرة ابن هشام]**»[3].

المحرر هو المستشرق: **مونتجمري واث** - Watt[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**" [فقرة: 82]: «**وقد تعددت الروايات عن الفصل الذي حدثت خلاله الغزوة، إذ يقول بعضها إنها كانت بعد شهر من جمع محصول الشعير، بينما يتحدث البعض عن أنّ الجو وقتها كان شتويا باردا عاصفا، والقول الثاني تؤيده قصيدة لحسان بن ثابت، والآية التاسعة (9) من سورة الأحزاب:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾، **ويُمكن التوفيق بين هاتين الروايتين بالقول باحتمال أن يكون الحصار قد استمر زمنا طويلا.**

وقد أثار زحف هذا الجيش الهائل وَجَلا عظيما في المدينة، زاد منه موقف المنافقين المتذبذب، واكتشاف تآمر بين اليهود والعدو، أو ربّما كان مجرد شكّ ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾ **الأحزاب (10–13)** ...

ورغم بساطة الخندق تبين أنه كان حائلا كافيا دون عبور العدو قليل الخبرة بمثل هذه الفنون الحربية، مِمّا أطال تدريجيا من أمر الحصار. وقد استغل محمد ﷺ الوقت في إجراء مفاوضات سرية مع قبيلة غطفان، وبذر بذكائه بذور الشقاق والشك بين صفوف أعدائه. وعندما ساءت الأحوال الجوية ألقى في أيدي العدو المحاصر فشرع تدريجـــيا في الانسحاب، وهكذا فشلت آخر محاولة لقريش لِهزيمة محمد عن طريق استخدام القوة»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7167/23.

[2]– سبقت ترجمته في: ص234.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8293/26.

[4]– سبقت ترجمته في: ص59.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9142/30-9143.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- المناوشات حول الخندق: بعد إتمام حفر الخندق رتّب النبي ﷺ جيشه؛ فأسند ظهرهم إلى "جبل سلع" داخل المدينة، ووجوههم إلى الخندق الذي يفصل بينهم وبين المشركين.

وقد فوجئت قريش برؤية الخندق، واحتاروا في كيفية اقتحامه، إذ كلما هموا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام، بحيث كان بعُمق يصعب على العدوّ أن يَخرج منه لو هبطه، واتّساع يصعب على خيل المشركين قَفْزُه، لذلك فإنّ الخندق كان يشكّل حاجزاً يمنع الالتحام المباشر بين الغزاة والمسلمين، ويمنع اقتحام المدينة، ويوفر للمسلمين موقعاً دفاعياً جيداً، فيكبّدون الغزاة الخسائر برشقهم بالسهام من وراء الخندق، الأمر الذي أطال أمَدَ الحصار، فاستمرّ بِضعا وعشرين ليلةً، قريبًا من شهر[1].

هذا ما أشار إليه "بول –Buhl" بقوله "**ورغم بساطة الخندق تبين أنه كان حائلا كافيا دون عبور العدو، مِمّا أطال تدريجيا من أمر الحصار**".

فقد كان الخندق حائلا بين الجيشين، فلم يحدث اشتباك حاسم بين المعسكرين، وأخذ المشركون يدورون حول الخندق يتحسسون نقطة ضعيفة، لينحدروا منها، بينما ظل المسلمون مفتحي الأعين حذرين إزاء أية محاولة يمكن أن تمنح المشركين جسرا يعبرون عليه إليهم، غير أنّ بعض المشركين اقتحموا الخندق من ناحية ضيقة فيه؛ فتقدم عمرو بن عبد ود العامري ونفر معه بخيولهم وحاولوا القيام بهجوم سريع ينفذون من خلاله إلى الداخل، وسرعان ما تصدى لهم الزبير وعلي وعمر ﷺ في نفر من المسلمين، تمكنوا من إجلاء الخيول المغيرة بعد أن قتل علي ﷺ قائدها عمرو بن عبد ود، كما جرت محاولات عديدة للتسلل إلى داخل المدينة من أماكن أخرى، إلا أن المسلمين كانوا يردونها بالحجارة والنبال على أعقابها، حتى فشل المشركون في محاولاتهم[2].

ثانيا- زعزعة المنافقين واليهود للصف الداخلي: لم يكن حصار المشركين وحده هو الذي يضيق الخناق على المسلمين بل كانت هنالك عوامل أخرى من الداخل تزيدهم إرهاقا وخوفا، أشار إليها المستشرق "بول–Buhl" في نصّه المذكور من مادة "محمد ﷺ"، وهي:

أ)– قلة الأقوات، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة، حيث وقعت الغزوة في فصل الشتاء، في أيام شديدة البرد[3].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 223/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 114. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 420/2 و428.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 224/2-225. ومغازي الواقدي، 465/2-467. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 52/2. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 178.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 490/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 231/2-232. وفقه السيرة، الغزالي، 296. والسيرة النبوية الصحيحة، 421/2.

ب)- الحرب النفسية التي شنتها جيوب المنافقين في صفوف المسلمين، بحيث عمل المنافقون على الإرجاف وتوهين العزائم، وعلى بثّ روح التردد والهزيمة، وتخذيل المؤمنين، وقد صوّر القرآن هذه الحالة أدقّ تصوير فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: 12-13][1].

ج)- ثم عظم البلاء واشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة نكثوا العهد وغدروا بهم، وهي علامة خطر أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد، إذ كانت ديار بني قريظة في الجنوب الشرقي للمدينة، فكان موقعهم يمكنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف؛ لذا أرسل الرسول ﷺ إلى بني قريظة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة [الذي ذكره "شاده- Shaade" في مادة "عبد الله بن رواحة"] لاستطلاع خبرهم؛ فمضوا إلى بني قريظة فوجدوها قد نقضت العهد، ومزقت الصحيفة إلا بني سعنة فإنهم خرجوا من الحصون إلى المسلمين وفاء بالعهد، وكان ذلك على أثر سفارة حيي بن أخطب النضري الذي أقنع بني قريظة بنقض العهد مع المسلمين، مبيناً لهم قوة الأحزاب وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين، مواعداً لهم إن رجع الأحزاب عن المدينة أن يدخل معهم في حصنهم، فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة[2].

وقد وصف القرآن الكريم البلاء الذي أصاب المسلمين في الآية: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: 10-11]؛ فالأحزاب جاءوا فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم، والمنافقون ظنوا بالله الظنونا، فأصاب المسلمين زلزال شديد وبلاء عظيم، ولكن الإيمان العميق والتربية الدقيقة جعلت المسلمين يصمدون أمام سائر هذه الأخطار[3].

ثالثا- خطة النبي ﷺ في تخذيل غطفان وبقية الأحزاب: قام النبي ﷺ بعدّة تحركات هامة -إضافة إلى القتال- عملت على تفكيك جبهة العدوّ وتوهين عزائمهم، وتفريق جمعهم، وهي:

أ)- تخذيل غطفان: تحدّث "تسترشتين -Zetterstéen" في مادة "سعد بن عبادة" عن خطّة النبي ﷺ في معاهدة "غطفان" للكفّ عن القتال التي لم تَتمّ؛ وذلك أنّ الرسول ﷺ لَمّا رأى كثرة الأحزاب،

---

[1]- ينظر : تهذيب السيرة (لابن هشام)، 222/2. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 179.

[2]- ينظر: مغازي الواقدي، 459/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 403/3. والبداية والنهاية، ابن كثير، 35/6-38.

[3]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 500/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 428/2.

عمل على أن يخفّف الضغط على المدينة، وأن يصالح غطفان بأن يعطيهم ثلث[1] ثمار المدينة لعام، لكن الرسول ﷺ لم يبرم هذا الأمر حتى يستشير أصحابه، فلما شاور سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج قالا: يا رسول الله أمرا نحبه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به لابدّ لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ فقال: ((والله مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا))، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب[2].

هذا الاتفاق وإن كان لم يتم فإنه أفاد أمرين عظيمين؛ **الأول:** أنّه ألهب حماس الأنصار، وقوّى عزمهم على لقاء العدو. **والثاني:** أنّه ثبط همم الغطفانيين، وترتب عليه أنهم تململوا بطول الحصار وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف، وهموا أن يعودوا من حيث جاءوا من غير أن ينالوا شيئا، فخذّل النبي ﷺ بهذا العرض بين قريش ومن جاء معها من الأعراب[3].

ولا يستقيم قول المستشرق "تسترشتين -Zetterstéen" بأنّ النبي ﷺ "**وعدهم بنصف المحصول**"؛ لأنّه قطع المفاوضات معهم قبل أن يُبرم هذا العهد أصلا.

ب)– التفريق بين الأحزاب: بعد أن تأكد نقض يهود بني قريظة عهدها مع الرسول ﷺ، ما لبثت العناية الإلهية أن ساقت إلى المسلمين رجلا قد أسلم حديثا يدعى "**نعيم بن مسعود**" الغطفاني، ولم تعرف قريش ويهود وأعراب غطفان بإسلامه، فعرض على الرسول ﷺ خدماته، وكان صديقا لقريش واليهود؛ فنفّذ خدعة محكمة ذكرها المستشرق "وات-Watt" بشيء من التفصيل في مادة "بني قريظة"، وأشار إليها "بول–Buhl" إجمالا في أواخر الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ".

قام "نعيم بن مسعود" بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ، حيث أغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لكي لا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمهم للمسلمين ثمنا لعودتها إلى صلحهم، وقد نجحت خطة نعيم بن مسعود أيما

---

[1]– ذكر المستشرق "تسترشتين" أنّه "وعدهم بنصف المحصول": ورد ذلك في رواية الطبراني "المعجم الكبير، 28/6" لكن ليس بالسياق الذي ذكره المستشرق "تسترشتين" حيث جاء فيها أنّ غطفان هم من طلبوا نصف المحصول، ثم شاور النبي ﷺ أصحابه فلم يتمّ الاتفاق، بينما جاء في رواية ابن إسحاق "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 223/2": أنّ النبي ﷺ كان سيعاهدهم على ثلث المحصول، ولعل هذا الاختلاف في الروايات راجع إلى مرحلة بداية المفاوضات وما يقترحه كلّ طرفٍ، كما تشير إلى ذلك رواية سعيد بن المسيب عند عبد الرزاق في "المصنف، 367/5-368".

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 223/2. والمعجم الكبير، الطبراني، 28/6. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 427/2.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 933/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 366.

نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ فحين أرسل أبو سفيان وسادة غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت، اعتذر يهود بني قريظة وقالوا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأي هجوم؛ قالت قريش وغطفان: "لقد صدق نعيم"، ولما رُفض طلبُ قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت قريظةُ: "لقد صدق نعيم"؛ فوقعت قريظة في الحيرة والتردّد، بحيث لم تدخل في القتال رغم نقضها للعهد، خوفاً من ترك الأحزاب للحصار وجعلها تقف وحدها وجهاً لوجه أمام المسلمين، فهي تريد رهائن قبل اشتراكها في القتال؛ وهكذا تفرّقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم، وخارت عزائمهم، وأفلح المسلمون في فكّ التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم[1]؛ وهو ما عبّر عنه المستشرق "بول" بقوله "**وبذر بذكائه بذور الشقاق والشك بين صفوف أعدائه**".

كما كانت جبهة الأحزاب المشركين تحمل في ثناياها عوامل التفكك، ذلك أنّ أهداف الحلفاء لم تكن واحدة؛ **فقريش** تريد أن تقضي على النبي ﷺ والمسلمين، و**أعراب غطفان** إنما يريدون نصراً سريعاً لنهب خيرات المدينة، و**القبائل الأخرى** جاءت مشايعة وليس لها غرض واضح، **ويهود بني النضير** كانوا يبغون استعادة سلطانهم بالمدينة وليس من غرضهم أن تقع يثرب في يد قريش أو إحدى القبائل الكبيرة، وكان رسول الله ﷺ يدرك هذا التصدّع الخفي في صفوف الأحزاب؛ **فاجتهد أن يبرزه، ويوسّع شقته**، ويستغله لجانبه، وبذلك تفككت جبهة العدو تماما[2].

رابعا- نهاية المعركة: ثم أرسل الله عليهم ريحا عاصفة شديدة باردة، فاقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم، كما أرسل الله سبحانه وتعالى جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، فلم يقرّ لهم قرار، وشعروا بالهزيمة، وبدأوا في الرحيل، وما نالهم من الغزوة سوى التعب وخسارة النفقات، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: 9]، وقال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب: 25][3].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/229-231. ومصنف عبد الرزاق، 5/367-369. وصحيح السيرة، العلي، 282. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/430.

[2]- ينظر: فقه السيرة، الغزالي، 305. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 366-367.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/231. ودلائل النبوة، البيهقي، 3/406. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/430.

خامسا- أسباب فشل الأحزاب وآثاره: اجتمعت عدّة عوامل مكّنت المسلمين من الصمود في وجه هذا الجيش العرمرم من المشركين، وأفشلت محاولة هذا التحالف الكبير في القضاء على المسلمين، أهمها:

- **المباغتة بالخندق**، و**سد الثغرات** حوله **بالقتال**، مما أطال أمد الحصار، وأضعف معنويات الأحزاب.
- **تخذيل غطفان**، على ما سبق بيانه.
- زرع **الشكّ** بين قريظة والأحزاب، مما أدّى إلى **تصدّع التحالف** وتفكّكه.
- **إرسال الريح** عليهم: وهو ما عبّر عنه المستشرق "بول" "بسوء الأحوال الجوية"؛ إمعانا في التفسير المادي لوقائع السيرة، لكنّ القرآن الكريم بيّن أنّ هذه الريحَ كانت نصرا من الله تعالى على الأحزاب المتحالفين من كلّ جانب على المسلمين، فقال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [الأحزاب: 9]؛ كما بيّن النبي ﷺ ذلك بقوله: ((نُصِرْتُ بِالصَّبَا))[1]؛ و"الصّبا": هي الريح الشرقية[2].

لكنّ المستشرق "بول –Buhl" أحسن التعبير عن تداعيات الغزوة عندما قال "**وهكذا فشلت آخر محاولة لقريش لِهزيمة محمد عن طريق استخدام القوة**"، وعلى كلّ فالأحداث التالية لغزوة الأحزاب في السيرة أثبتت صدق هذا التحليل.

ذلك أنّ المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة التي لن تتوفّر لهم مرة أخرى؛ فإذا لم يستطع المشركون بعد تجمّعهم الضخم هذا أن يقضوا على المسلمين، فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرّقهم؟[3]

لذا عبر الرسول ﷺ عن الآثار الحاسمة التي ترتبت على فشل الأحزاب في غزو المدينة رغم ما حشدوه من طاقاتهم - وهو أقصى ما يستطيعون- بقوله ﷺ: ((**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا**؛ نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ))[4]؛ مما يدل على تغير الاستراتيجية الإسلامية من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى مرحلة الهجوم[5].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 499/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، 280/6. من حديث ابن عباس ﷺ.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 502/7.

[3]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 234.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، 504/7. من حديث سليمان بن صرد ﷺ.

[5]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 432/2.

الفصل الثاني:
الغزوات والسرايا
بعد الخندق

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: النشاط العسكري بعد "الخندق" حتى "خيبر"

المبحث الثاني: النشاط العسكري بعد "خيبر" وقبل الفتح

المبحث الثالث: الغزوات والسرايا بعد الفتح وقبل تبوك

المبحث الرابع: غزوة تبوك وبعض السرايا بعدها

المبحث الخامس: نظرة "دائرة المعارف" إلى مقاصد جهاد النبي ﷺ وشخصيّته القيادية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : النشاط العسكري بعد "الخندق" حتى "خيبر"

يقدّم هذا المبحث ما ورد في "دائرة المعارف الإسلامية" من الغزوات والسرايا ابتداء من غـــزوة بني قريظة سنة خمس للهجرة (5 هـــ)، إلى غاية غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة (7 هـــ).

المطلب الأول : غزوة بني قريظة وأسبابها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**سعد بن معاذ**" [فقرة: 3]: «... **فلما تراجع أولئك الذين سبق أن عاهدوا المسلمين قرر النبي أن يتخلص من بني قريظة المشاغبين؛ وبدأ يحاصرهم في المدينة، وإن كان المأخذ الوحيد الذي حاسبهم عليه هو أنهم وقفوا على الحياد في وقعة الخندق، وانتهت المفاوضات التي أجبروا على الدخول فيها سريعا مع النبي بتسليمهم من غير قيد ولا شرط، ولعلهم كانوا يأملون من وراء ذلك إلى الإبقاء على حياتهم بفضل شفاعة الأوس حلفائهم السابقين، ولما سألهم النبي عما إذا كانوا يقبلون أن يتركوا الحكم في أمرهم لرجل من قبيلة الأوس أعلنوا استعدادهم لذلك.**

وطُلب من "سعد" الذي كان طريحا في المسجد تعنى به امرأة من جراء ما أصابه من جرح مميت، أن يدلي برأيه، فأخذ من النبي ومن جميع الحاضرين العهد بأن يطيعوا حكمه بلا تردد، ثم حكم بأن يقتل رجال بني قريظة وتباع نساؤهم وأطفالهم في سوق العبيد وتقسم أملاكهم، ونُفّذ الحكم في اليوم التالي، ويُقال إن نيفا وستمائة يهودي ضحوا بحياتهم في سبيل عقيدتهم»[1].

المحرر هو المستشرق: **نسنرشنين** –Zetterstéen[2].

– وفي مادة "**عليّ بن أبي طالب**"[فقرة: 3]: «... **كما أشرف مع الزبير على الانتـــقام من يهـــود بني قريظة (5 هـــ/627م)**»[3]. المحرر هو المستشرق: **فاجليري** – V. Vaglieri[4].

– وفي مادة"[**بنو**] **قريظة**"[فقرة: 3]: «**وقد تواتر أن كعب بن أسد قد عقد عهدا مع محمد ﷺ نيابة عن بني قريظة بعد الهجرة، ولكنه نقض هذا العهد تحت تأثير حُيي بن أخطب من بني النضير أثناء حصار المشركين للمدينة (إبان غزوة الخندق)، وأنّ حُيـــيا مزق الوثيقة التي سجل عليها العهد، غير أن هذا القول الذي ساقه الواقدي موضع جدل، إذ لم يسمّ ابن إسحاق مصدره الذي أخذ عنه هذا القول...**

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 410/11.

[2]– سبقت ترجمته في: ص112.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7416/24.

[4]– سبقت ترجمتها في: ص336.

ورغم أن قريظة لم تقم بعمل حربي صريح ضد المسلمين فيما يبدو، لكنها ربما دخلت في مفاوضات مع المشركين أثناء الحصار، وبناء على ذلك هاجم المسلمون بني قريظة فور رفع الحصار عن المدينة، وحاصروهم في آطامهم خمسا وعشرين ليلة، وبعد مفاوضات وافقوا على الاستسلام دون قيد أو شرط، وحكّموا فيهم سعد بن معاذ، شيخ بني عبد الأشهل، التي كان بينهم وبينها حلفا، فحكم سعد بن معاذ بأن يقتل جميع الرجال (وكان عددهم يتراوح بين **600** و**900**) وأن تسبَى النساء وكذلك الأطفال، ونفذ حكمه فيهم. ولكن بعض الباحثين المحدثين يشكّكون في صحة واقعة قتل الرجال جميعهم (انظر: W. N. Arafat in JRAS(1976)100-7)، وقد تسلل قبل الاستسلام ثلاثة من شباب هدل التي كانت مع بني قريظة في آطامهم، واعتنقوا الإسلام، كما نجح رجل آخر أو رجلان في الفرار (الإشارة هنا إلى [عمرو بن سعدى][1] القرظي، وكان قد رفض أن ينقض العهد مع المسلمين)»[2].

المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** - Watt[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 83]: «غير أن غزوة الخندق هذه التي تكاد تكون خالية من الأحداث المثيرة، كانت مأساة دموية بالنسبة لِجماعة من سكان المدينة، ذلك أنه ما انسحب المكيون وحلفاؤهم حتّى أعلن النبي ﷺ الحرب على آخر قبيلة يهودية كبيرة في المدينة، وهي قبيلة بني قريظة، وبدأ في حصار قلاعهم. و إذ أدرك اليهود حرج موقفهم، طمعوا في النجاة على نحو نجاة بنِي النضير وبنِي قينقاع، خاصة أن حلفاءهم من قبيلة الأوس القوية كانوا يحاولون جاهدين إقناع محمد ﷺ بانتهاج سبيل الرحمة معهم. غير أنه في هذه المرة لم يقبل التساهل معهم على نحو ما فعل مع القبيلتين الأخريين.

ويقول ابن هشام أن كافة الرجال –وعددهم ما بين ستمائة وتسعمائة– ضربت أعناقهم بناء على مشورة سعد بن معاذ، وهو من الأوس، وأن أموالهم قسمت بين المسلمين، وأسر نساؤهم وأطفالهم. اقترب النبي ﷺ من إرساء دعائم أمة على أساس ديني محض، ومع ذلك فقد أذن لبعض اليهود من عشائر أخرى بالبقاء في المدينة.

وقد كان فشل حصار أهل مكة للمدينة، واستئصال تلك القبيلة من اليهود التي كانت آخر قبائلهم الكبيرة فيها إحدى نقاط التحول الرئيسية في حياة محمد ﷺ في نشأة الأمة الإسلامية، فنحن نعلم أنه بعد نحو ستة أشهر من وصوله إلى المدينة أرسل أول جماعة مغيرة مسلمة بقيادة عمّه حمزة لمهاجمة قافلة مكية،

---

[1]– في المطبوع: "عمر بن سعد"، فلعلّه خطأ مطبعيّ، أو أنّ المترجمين لم يراجعوا اسمه في كتب السيرة فنقلوه عن الأصل الأجنبي المترجَم، فوقعوا في هذا الخطأ بسبب ما يكون من اختلاف بين اللغة الأجنبية واللغة العربية من ضبط في أسماء الأعلام.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 26/8293-8294.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

وقد واصل منذ ذلك الحين مهاجمة القوافل المكية حتى حدثت غزوة الخندق وحتى استأصل بني قريظة فتوقفت هذه الهجمات ووجه النبي ﷺ اهتمامه إلى الشمال»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[2].

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

قبل الشروع في الكلام على غزوة بني قريظة أنبّه إلى قول المستشرق "بول –Buhl" «**بأنّ غزوة الخندق تكاد تكون خالية من الأحداث المثيرة**»؛ كلام ينمّ عن عدم تعمّقه في دراسة غزوة الخندق، ذلك أنّ الغزوة احتوت على أحداث عظيمة ووقائع جليلة على ما سبق تفصيله، أهمّها:

– **حفر الخندق** واعتماده **كخطة دفاعية** أربكت العدو، وحصّنت المدينة.

– **سد الثغرات** حول الخندق **بالقتال**، مما أطال أمد الحصار، وأضعف معنويات الأحزاب.

– مفاوضة النبي ﷺ لغطفان وما كان فيها من تخذيل لهذا الشطر من الأحزاب.

– النجاح في إيقاع الفرقة بين الأحزاب من خلال خدعة "نعيم الغطفاني" ﷺ؛ **مما أدّى إلى تصدّع تحالف** الأحزاب وتفكّكه.

– غدر بني قريظة ونقضهم لعهد النبي ﷺ، وبذلك حوصر المسلمون من جانبين، فزلزلوا زلزالا شديدا، لكن نجح المسلمون في تجاوز ذلك كما سبق تفصيله.

– نصر الله عز وجل لنبيّه ﷺ والمسلمين بالريح.

– فشل عشرة آلاف مقاتل من مختلف القبائل العربية بقيادة قريش من اقتحام المدينة.

ومع ذلك كانت خسائر الجانبين قليلة؛ فقد استشهد من المسلمين ثمانية رجال، بينما قتل من المشركين أربعة رجال فقط[3]، ولعلّ كلامه يشير هذا الأمر، بدليل حديثه بعد ذلك عن ضحايا بني قريظة، لكنّه أغفل في هذه المقارنة تقدير احتمال: ما إذا نَجح الأحزاب وقريظة في القضاء على المسلمين؛ كيف كانت ستكون المأساة أعظم وأفدح؟ فقريظة عوقبوا بما عرّضوا المسلمين له كما سيأتي بيانه.

هنا نلمح ملاحظة هامّة؛ تتمثّل في: كون المستشرق "بول –Buhl" لا يهمّه مصير المسلمين؛ فهو نفسه من قبل يتأسّف على عدم قضاء المشركين على المسلمين في غزوة "أُحُد"، لكنّه في الوقت نفسه يهتمّ لشأن اليهود ومصيرهم، وهنا يظهر التحيّز، وتنجلي الخلفيات العقدية، وينكشف التعصّب، وعدم الالتزام بالموضوعية والتجرد الذي يزعمونه.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9143-9144.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 65/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 429/2.

أولا- بداية حصار بني قريظة: لَمّا عاد النبي ﷺ من غزوة الخندق ووضع سلاحه، جاءه أمر الله تعالى بقتال بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين، وظاهروا المشركين في غزوة الخندق؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمّا رجع النبي ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضَعتَ السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى قريظة؛ فخرج النبي ﷺ إليهم»[1].

وقعت غزوة بني قريظة في **آخر ذي القعدة** وأول ذي الحجة من **السنة الخامسة**، عقب غزوة الخندق التي كانت في شوال سنة خمس للهجرة[2].

ثانيا- تجاهُل المستشرقين للأسباب الحقيقية للغزوة: تجاهل "تسترشتين -Zetterstéen" في مادة "سعد بن معاذ" الأسباب الحقيقية لغزوة بني قريظة في قوله: «**وإن كان المأخذ الوحيد الذي حاسبهم عليه هو أنهم وقفوا على الحياد في وقعة الخندق**»، وهو ما فعله أيضا "مونتجمري وات-Watt" في مادة "[بنو] قريظة" عندما قال بأن: «**قريظة لم تقم بعمل حربي صريح ضد المسلمين، لكنها ربما دخلت في مفاوضات مع المشركين أثناء الحصار، وبناء على ذلك هاجم المسلمون بني قريظة**»، وإن كان ذكر قبل هذا الكلام نقض قريظة لعهدها مع المسلمين، وحاول تضعيفه، وسيأتي مناقشته في ذلك.

لكن **الأسباب الحقيقية** التي تقدّمها **المصادر الأصيلة للسيرة** النبوية تتمثل فيما يلي:

[1]- نقضُ بني قريظة للعهد: الذي بينهم وبين النبي ﷺ، وكان نقضهم للعهد بتحريض من حيي بن أخطب -زعيم بني النضير- الذي نجح في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين، وفي وقت حرج وخطير بالنسبة للمسلمين الذين كان يحاصرهم عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب، وقد ثبت أن النبي ﷺ أرسل الزبير بن العوام لاستطلاع خبرهم، ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، لِمعرفة صحة ما يشاع من غدر بني قريظة، فأكّد له هؤلاء صحة الخبر فاشتد الأمر على المسلمين[3].

ذلك أنّ المسلمين كانوا يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة؛ فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود من خلفهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ولَما نقـــض

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، 509/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، 134/12-135. واللفظ للبخاري.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 279/2. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 57/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 311/1.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 221/2. ومصنّف عبد الرزاق، 368/5 و371. والسيرة النبوية الصحيحة، 313/1.

بنو قريظة العهد وانضموا إلى الأحزاب لمحاربة المسلمين، حوصر المسلمون من الجانبين؛ **مما جعل المسلمين مهددين بالإبادة والفناء**[1].

ولا يعتبر ما ذكره "وات -Watt" من "أنّ ابن إسحاق لم يذكر مصدره الذي أخذ عنه الخبر"[2] دليلا لإنكار الحادثة من وجهين:

الوجه الأول: أنّ هذا الخبر ورد من طرق أخرى صحيحة غير رواية ابن إسحاق، حيث جاء من مرسل سعيد بن المسيب عند عبد الرزاق[3]، و"مراسيله أصح المراسيل"[4].

والرواية صالحة للاحتجاج بها مع المتابعة، فثبت الخبر بطرق قابلة بمجموعها للاحتجاج[5]، كما ثبت في "صحيح البخاري": أن الرسول ﷺ أرسل الزبير بن العوام ﷺ لاستطلاع خبر بني قريظة[6]، أي: ما يُشاع من نقضهم للعهد[7].

الوجه الثاني: أنّ الخبر ثبت بنص القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ** ﴾ [الأحزاب: 26]؛ حيث اتفق المفسرون على أنّ بني قريظة هم المقصودون بها، زيادة على أنّ الآية صريحة الدلالة بأنّ اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين، ولم يكن بالمدينة من أهل الكتاب يومئذ غير "بني قريظة"[8].

[2]- عملهم على ضرب المسلمين في ظهورهم وفشلهم في ذلك: كان بنو قريظة يسكنون في ضواحي المدينة من الناحية الجنوبية، وبإمكانهم التسلل إلى داخل المدينة، لمعرفتهم السابقة بمسالكها وأهلها، وكان النبي ﷺ وضع النساء والأطفال في الآطام حماية لهم؛ لأن المسلمين في شغل عن حمايتهم لِمواجهتهم جيوش الأحزاب، ولو قدر لليهود أن ينجحوا في مهاجمة المدينة وإتيان المسلمين من

---

[1]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 945/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 406/2. والرسول القائد، محمود شيت، 245.

[2]- **ملحظ هام:** نجد المستشرق "وات" هنا يستدل بالإسناد على ضعف هذا الخبر عندما يقول بأنّ "ابن إسحاق لم يذكر مصدره"، مع أن المدرسة الاستشراقية كثيرا ما تبجحت بالتهوين من أهمية الإسناد في توثيق الروايات وتضعيفها، لكن "وات" هنا يتكئ على ما كان ينكره من قبل، وإن كان اتكاؤه هذا غير مستقيم، لكون الخبر ورد من أسانيد أخرى موثقة، زيادة على إثبات القرآن الكريم للخبر.
ويراجع كلام المستشرق "وات" عن الإسناد في كتابه: محمد ﷺ في مكة، 48.

[3]- ينظر: مصنّف عبد الرزاق، 368/5-371.

[4]- معرفة علوم الحديث، الحاكم، 26. وينظر: صحيح السيرة، العلي، 282.

[5]- ينظر: صحيح السيرة، العلي، 282-283. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 313/1.

[6]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 102/7 و507/7.

[7]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 65/6 و508/7.

[8]- ينظر: تفسير الطبري، 71/19-72. وتفسير البغوي، 627/3. وزاد المسير، ابن الجوزي، 457/3. وسيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 198/2-199.

ظهورهم لكانت ضربة مؤثرة جدا لجيش المسلمين، وقد عمل اليهود على مهاجمة تجمع نساء المسلمين وأطفالهم في الحصون، تدلّ على ذلك حادثتين:

– **الحادثة الأولى**: عندما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع المسلمين أرسلوا رجلا منهم يستطلع وضع الحصن الذي يوجد فيه النساء والأطفال، ويحدد مكانهم ويكتشف الطريق إليهم، لكن هذا اليهودي لم يتمكن من القيام بمهمته، لأن صفية بنت عبد المطلب –عمة الرسول ﷺ– رأته يطوف بالحصن؛ فأخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود فقتلته، فكان هذا الفعل من صفية رادعًا لليهود من التحرش بهذا الحصن الذي ليس فيه إلا النساء والأطفال، حيث ظنّ يهود بني قريظة أنه محمي من قبل جنود من الجيش المسلمين[1].

وفي رواية الواقدي أنّه تقدّم إلى الحصن عشرة من اليهود، وأنّ أحدهم أراد أن يدخله فقتلته صفية[2].

– **والحادثة الثانية**: أنّ النبي ﷺ جعل في النساء والذراري في حصن بني حارثة، وقال: ((إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ أَحَدٌ فَأَلْمِعْنَ بِالسَّيْفِ))، فجاءهن رجل يقال له "نجدان" على فرس، حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء: انزلن إلَيّ خير لكن، فحرّكْن السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ، فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني الحارثة يقال له: ظهير بن رافع، فبرز إليه فقتله[3].

بعد هاتين الحادثتين ظنّ يهود "بني قريظة" أنّه يوجد حراس مع النساء والأطفال فقبعوا في بيوتهم، وانصرفوا عن مهاجمة المدينة، واكتفوا بإمداد الأحزاب المشركين بالمؤن والطعام وعلف الدواب[4].

والحادثتان تبيّنان أنّ قريظة لم تكتف بنقض العهد، بل دخلت في القتال بهذه المحاولات وإن كانت غير موفقة، واضطرّ النبي ﷺ إلى تنظيم دوريات لحراسة المسلمين– لا سيما النساء والأطفال– داخل المدينة، وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير لإشعار بني قريظة بيقظتهم ووجودهم، احترازا من أيّ هجوم لبني قريظة بعد أن نقضوا العهد[5].

[3]– أنّ الذي منع "بني قريظة" من الاشتراك في القتال ليس حيادهم –كما زعم "تسترشتين-Zetterstéen"– لأنّهم كانوا مع الأحزاب أصلا بعد نقضهم العهد، وإنّما منعتهم أمور، أهمّها:

– الدوريات التي كان يقوم بها المسلمون داخل المدينة.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 228/2، من حديث عباد بن عبد الله بن الزبير. ومسند البزار، 191/3، من حديث الزبير. ومعجم الطبراني الكبير، 319/24، من مرسل عروة. وقوّى ابن حجر "فتح الباري، 297/6" قصة صفية ﵂ من حديث ابن الزبير.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 462/2.

[3]– معجم الطبراني الكبير، 268/4. من حديث رافع بن خديج ﵁، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد، 133/6": «رجاله ثقات». وينظر: صحيح السيرة، العلي، 275.

[4]– ينظر: السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 433 و456.

[5]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 51/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 406/2.

– إضافة إلى الحادثتين السابقتين اللتين جعَلتاهم يظنون وجود حراسة مشدّدة على أماكن تواجد النساء والذراري في الحصون، وإلاّ لكانوا وجّهوا ضربة قاصمة للمسلمين في ظهورهم.

– كما منعتهم خطة "نعيم بن مسعود" ﷺ السابقة التي أوقعت الشك بينهم وبين الأحزاب، كما أنّ قصة "نعيم" ﷺ مع بني قريظة تدلّ على أنهم لم يكونوا محايدين، لذا لَما طلب منهم مشركو الأحزاب المشاركة في القيام بهجوم من الجانبين على المسلمين لم يقولوا إنّهم محايدين في هذه المعركة، بل اشترطوا رهائن من زعماء المشركين للاشتراك معهم في القتال، فدلّ ذلك على عزمهم في الاشتراك بالقتال لولا تلك الموانع.

- **الاستدراك على "تسترشتين –Zetterstéen" و"وات –Watt"**: هذه المعطيات التي تقدّمها وقائع السيرة في غزوة الخندق تردّ قول المستشرق "تسترشتين" في مادة "سعد" بأنّ "**المأخذ الوحيد الذي حاسبهم عليه هو أنهم وقفوا على الحياد في وقعة الخندق**"، وتبيّن مدى التمويه الذي في هذا الكلام، لأنّ النبي ﷺ لم يكن مأخذه على يهود بني قريظة وقوفهم بالحياد في "غزوة الخندق" بل آخذهم:

أ)– على نقضهم العهد مع المسلمين.

ب)– وعلى وقوفهم في صفّ الأحزاب المشركين ضد المسلمين، والآية صريحة في ذلك؛ يقول "دروزة": «وننبّه إلى أنّ عبارة "**ظاهروهم**": تلهم أنّه بدا من اليهود في أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين، أو بالأحرى أعمال تمتّ إلى الحرب؛ تضرّر المسلمون منها»[1].

ج)– وبمحاربتهم المسلمين صراحة ومحاولة إتيانهم من ظهورهم كما سبق بيانه في الحادثتين.

كما تردّ هذه المعطيات السابقة قول "وات-Watt" أنّ "**قريظة لم تقم بعمل حربي ضد المسلمين**، و لم تقم سوى بمفاوضات مع المشركين"، لكن وقائع السيرة تبيّن أنهم قاموا بأعمال حربيّة؛ **أولها**: في حادثتي محاولة اقتحام حصون المسلمين التي كانت تأوي النساء والذراري، و**ثانيها**: عزمهم على المشاركة مع الأحزاب في القيام بهجوم شامل على المسلمين لولا نجاح خطّة "نعيم" ﷺ في التفريق بين "قريظة" والأحزاب على ما سبق بيانه، هذا من جهة قيامهم بأعمال حربية.

ومن جهة أخرى فإنّ "قريظة" جاهرت في نقض العهد مع الرسول ﷺ، وعزمت على معاونة المشركين في القتال، لولا تخذيل "نعيم" ﷺ بين الطرفين.

وعليه يمكن القول أنّ المستشرقَيْن حاولا التعمية على هذه الأسباب الحقيقية لغزوة بني قريظة، من خلال تحريف الوقائع والحيف بها عن سياقها الصحيح كما فعل المستشرق "تسترشتين-Zetterstéen"، أو التشكيك في الأسباب الحقيقية لغزوة "قريظة"، وتقديم مبرّرات أخرى مخالفة الوقائع التاريخية الثابتة

[1]– سيرة الرسول ﷺ –صور مقتبسة من القرآن، دروزة، 201/2.

للسيرة كما فعل المستشرق "وات-Watt"؛ مظاهرة منهما لإخوانهم في الدين من يهود قريظة، فأظهرا بذلك النزعات العقدية والخلفيات الفكرية التي كانوا كثيرا ما يتبجّحون بتجردهم منها.

ثالثا- محاصرتهم والحكم فيهم: خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة في ثلاثة آلاف رجل، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، حتّى جَهَدهم الْحصارُ، وقذف الله في قلوبهم الرّعب.

ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ فيهم، وكانت بنو قريظة حلفاء الأوس، فأحب رسول الله ﷺ أن يَكِل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوسيين، فجعل الحكم فيهم إلى **سعد بن معاذ** ﷺ، فقبلت بنو قريظة النزول على حكم سعد بن معاذ، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس.

فجيء "بِسعد" محمولا لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق فقضى فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ وقال: ((قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ))[1]، وبذلك تبرأ سعد بن معاذ من حلف بني قريظة، و لم يقع في نفوس الأوس شيء رغـــم تحالفهم مع بنِي قريظة وقرب عهدهم بالإسلام، فسيدهم "**سعد**" هو الذي حكم فيهم، ثم استنزل اليهود من حصونهم وسيقوا إلى خنادق في المدينة، فقتل مقاتلتهم (أي رجالهم) وسبي ذراريهم، وكان في جملة من قُتل "حيي بن أخطب النضري" الذي أقنع بني قريظة بالغدر ونقض العهد[2].

واختلفت الروايات في عدد مقاتلتهم الذين نفذ فيهم الحكم، ما بين الأربعمائة إلى التسعمائة (400-900)، لكن أصح الروايات وأوثقها ذكرت أنّهم كانوا "أربعمائة"[3] كما جاء مصرّحا به في حديث جابر بن عبد الله ﷺ – وهو شاهد عيان– حيث قال: «وكانوا أربعمائة»[4].

وقد جعل المستشرقان "وات-Watt" و"بول-Buhl" في نصّيْهما عددهم يتراوح بين الستمائة والتسعمائة (600-900)، وغفلا عن أنّ أوثق الروايات تحدّد عددهم بأربعمائة رجل.

ونجا ثلاثة من بني قريظة بدخولهم في الإسلام كما ذكر "وات -Watt"، وهم: "ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد"؛ أحرزوا بإسلامهم أنفسهم وأموالهم[5].

---

[1]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، 7/513-514. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، 12/132-133. من حديث أبي سعيد ﷺ.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/235-241. ودلائل النبوة، البيهقي، 4/15-20. والسيرة الصحيحة، العمري، 1/315.

[3]– ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 7/517. والسيرة النبوية الصحيحة، 1/316.

[4]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، 5/171. **وأحمد**، المسند، 23/90. وصحّحه الترمذي، وابن حجر في "فتح الباري، 7/517".

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/238-239.

أمّا الناجي الرابع فهو "عمرو بن سعدى القرظي" الذي رفض نقض العهد مع المسلمين فنجا بنفسه[1].

رابعا- حكم "سعد" ﷺ فيهم كان جزاء وفاقا: ينبغي أن لا يُنظر إلى حكم "سعد بن معاذ" في "بني قريظة" -وهو حكم أقرّه النبي ﷺ وبيّن أنّه موافق لحكم الله تعالى- على أنّه **انتقام** كما قالت "فاجليري-Vaglieri" في مادة "عليّ"؛ «لأن **سعدا** ذكر أن الأحزاب لو انتصروا بخيانة بني قريظة على المسلمين، لكان مصير المسلمين الإبادة، فجزاهم **سعد** بمثل ما عرّضوا المسلمين له»[2]؛ فلم تكن تلك «العقوبة الشديدة إلا **جزاء للخيانة العظمى** التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل من أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين، وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر؛ و**كان جزاء بني قريظة من جنس عملهم** حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن **عوقبوا** بذلك **جزاءً وفاقًا**»[3].

وقبل أن يستعظم أحد حكم "**سعد**" عليهم ويعتبره قسوة أو "**مأساة دموية**" كما عبّر "بول -Buhl" في مادة "محمد ﷺ"؛ «فعليه أن يتدبر فيما لو نجح المشركون في عبور الخندق والتقوا بالمسلمين وجها لوجه، ونفّذ بنو قريظة خطتهم التي همّوا بها بمهاجمة المسلمين من ظهورهم، والتعدّي على نسائهم وذراريهم، ماذا يكون الحال؟ وإلى أي مدى ستكون الكارثة؟ لا شك أن الكارثة ستكون بالنسبة إلى من اقتصّ منهم من بني قريظة أضعافا مضاعفة من رجال المسلمين ونسائهم وأولادهم»[4].

كما ينبغي ملاحظة أن الحكم الذي قضى به على يهود بني قريظة؛ هو نفسه الحكم الذي كان يعاقب به اليهود أعداءهم تقريبا، وهو موجود في شريعتهم[5]؛ من ذلك ما ورد في "العهد القديم" من "الكتاب المقدس": «فقاتلوا مديان كما أمر الرب موسى **وقتلوا كلّ ذكر**... و**سبى بنو إسرائيل** نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وغنموا ممتلكاتهم، وأحرقوا بالنار جميع مدنهم بمساكنها وقصورها، وأخذوا جميع الأسلاب والغنائم من الناس والبهائم»[6].

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 411/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 238/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 316/1.

[2]- الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 246.

[3]- السيرة النبوية الصحيحة، 317/1.

[4]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 410/2.

[5]- ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 126.

[6]- الكتاب المقدس "العهد القديم"، سفر العدد [31/6-12]، 204.

وذكر "وات-Watt" و"بول –Buhl" أنّ قريظة كانوا يطمعون في أنّ النبي ﷺ سيجليهم عن المدينة، كما فعل مع بني قينقاع، وبني النضير، لكن الواقع أنّ هناك تفاوتاً في الجرائم التي وقعت من كلّ فريق؛ ذلك أنّ الأولين لم يمالئوا على من جاءوا لاقتلاع الإسلام من المدينة كما فعل هؤلاء، والأولون لم يكونوا مقاتلين، بل كانوا غادرين ناقضين للميثاق فقط، فكان المنطق الاكتفاء بجلائهم، إذ لا يبقون من غير ميثاق محترم، أما بنو قريظة فقد نقضوا وقاتلوا، فوجب أن يعاملوا معاملة مقاتلين، وبمثل ما عاملوا به المؤمنين، وبمثل ما كان ينتظر أن يعاملوا به المؤمنين، لو كان الأمر قد تَمّ للأحزاب كما يريدون[1].

المطلب الثاني : بعض السرايا بين غزوتي "بني قريظة" و"خيبر"

الفرع الأول : سرية القرطاء

– جاء في مادة "**حنيفة بن لُجَيم**"[فقرة: 3]: «**وفي المحرم من العام السادس للهجرة (628م) كان زعيم حنيفة "ثمامة بن أثال" في طريقه إلى العمرة فباغته ثلاثون رجلا من المسلمين وأسروه، فدخل في الإسلام، فأخلوا سبيله...**»[2]. محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Schleifer[3].

ملخّص قصّة هذه السريّة: أنّ النبي ﷺ بعَث ثلاثين رجلا من أصحابه بقيادة محمد بن مسلمة رضي الله عنه، ووجههم إلى "القُرْطاء"[4] في أرض نجد، وذلك في العاشر من **محرم سنة ستّ** من الهجرة (6هـ) لتأديب بني بكر أحد بطون بني كلاب بعدما تآمروا على قتل رسول الله ﷺ وأعدوا لذلك رجالا منهم، فلما وصلت السرية إلى ديار بني بكر، وشعر القوم بها هربوا، وتركوا أنعامهم وأموالهم فغنم المسلمون منها ما استطاعوا، وعادوا إلى المدينة في آخر المحرم، وتمكنوا عند رجوعهم من أسر رجل من بني حنيفة يقال له "ثمامة بن أثال" وأحضروه معهم إلى المدينة وهم لا يعرفونه، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فعرفه وأحسن معاملته، وأطلق سراحه بعد ثلاثة أيام، بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، فما كان من "ثمامة" إلا أن عاد وأسلم، وصار من خيار المسلمين بعد أن تأثر بخلق النبي ﷺ وحسن معاملته له[5].

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 948/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 131/8.

[3]– سبق في: ص723.

[4]– **القُرْطاء:** بضم القاف وسكون الراء، هي بطن من بني بكر، نسبة إلى قرط وقريط ابني عبيد بن كلاب من قيس عيلان.
ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 101/3. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 945/3.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 638/2-639. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 112/2. والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، أحمد غلوش، 467.

لكنّ المستشرق "شليفر -Schleifer" لم يذكر أخذ "ثمامة" إلى المدينة وأنّ النبي ﷺ هو الذي دعاه إلى الإسلام، وأنّه أسلم بعد أن أطلق النبي ﷺ سراحه، فأسلم متأثّرا بخلق النبي ﷺ، وكأنّ السياق الذي أورده المستشرق يشعر بأنّه أسلم في الأسر طمعا في العفو عنه، والأمر خلاف ذلك.

و قصّة إسلام ثمامة جاءت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ((مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟))[1]، فقال: عندي خير يا محمَّد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم؛ تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فتُرك حتى كان الغد، فقال: ((مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟))، قال: ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ((مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟))، فقال: عندي ما قلت لك، فقال ﷺ: ((أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ))، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، "يا محمَّد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ"، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[2].

الفرع الثاني: سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دومة الجندل

– جاء في مادة "**كلب بن وبرة**": «**وكان أول صدام بين الكلبيين والمسلمين حين أرسل النبي ﷺ حملة إلى دومة الجندل انتهت بإسلام الأصبغ بن عمرو مع عقد معاهدة بين الجانبين (راجع ابن سعد، 36/2/1)**»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **ي. فوك** -Fuck[4].

بعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف في **شعبان سنة ست** من الهجرة (6 هـ) إلى "بني كلب" النصرانية في "دومة الجندل"[5]؛ وسار عبد الرحمن حتى قدم "دومة الجندل" فمكث فيها ثلاثة أيام

---

[1]– وفي رواية ابن إسحاق "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 638/2" أنّ النبي ﷺ قال له: ((أَسْلِمْ يَا ثُمَامَةُ)).

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب وفد حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، 108/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، 125/12. واللفظ للبخاري.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8616/27.

[4]– سبقت ترجمته في: ص266.

[5]– قبيلة **كلب**: هم: بنو كلب ابن وبرة، بطن من قضاعة، كانوا يترلون دومة الجندل، وأطراف الشام. ينظر: معجم قبائل العرب، عمر كحالة، 991/3. – **ودومة الجندل**: بضمّ الدال أو فتحها، هي بلدة تقع اليوم في الجوف شمال السعودية، تبعد عن تيماء حوالي (450) كلم شمالا. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 487/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 127–128.

يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي أميرهم النصراني، وأسلم معه ناس كثير من قومه[1].

ويبدو أنّه لم يقع قتال في هذه السريّة، إذ غلب عليها الجانب الدعوي أكثر من الجانب الحربي.

الفرع الثالث: سرية "أمّ قرفة"

– جاء في مادة "**فزارة**" [فقرة: 2]: «**وبعد عدة شهور** [أي: من غزوة الخندق] **نصبت جماعة من فزارة كمينا لقافلة إسلامية كانت بقيادة زيد بن حارثة، فكان انتقام زيد في عام (6 هـ/628م) من فزارة شديدا**»[2]. المحرر هو المستشرق: **مونتجمري وات** - Watt[3].

سبب هذه السريّة كما ذكر "وات -Watt" هو الكمين الذي نصبه "بنو فزارة"[4] لزيد بن حارثة وأصحابه، ذلك أنّ زيد بن حارثة ﷺ خرج في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم.

وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه ﷺ إليهم في شهر **رمضان سنة ستّ**، فكمن هو وأصحابه بالنهار وساروا بالليل، ثم صبّحهم زيد وأصحابه، فكبّروا وأحاطوا بهم، وأخذوا منهم أسرى[5].

---

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 68/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 149/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7852/25.

[3]– سبقت ترجمته في: ص59.

[4]– **بنو فزارة**: هم بطن كبير من غطفان، سبق التعريف بهذه القبيلة في: ص726.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 617/2. والطبقات الكبرى، 69/2. والمواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 138/3.

المطلب الثالث : مقدمات غزوة خيبر وأسبابها

الفرع الأول : تاريخ الغزوة وأسبابها

أولا- عرض نصوص المستشرقين :

– جاء في مادة "**خيبر**"[فقرة: 1]: «**فقد خرج النّبِي لغزوها في مستهل العام السابع من الهجرة (628م)**»[1].

– وجاء أيضا في مادة "**خيبر**"[فقرة: 2]: «**ولعله كان يرمي من ورائها إلى محو الأثر السيّء الذي تركه صلح الحديبية في نفوس أتباعه، وتعويضهم تعويضا سخيّا عن الأسلاب التي فقدوها**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** - A.Grohmann[3].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 84]: «**وفي مستهل العام السابع الهجري (628–629م) فتح الرسول ﷺ خيبر التي يسكنها اليهود**»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[5].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– تاريخ الغزوة: كانت غزوة "**خيبر**"[6] في: آخر **محرم** من السنة **السابعة** للهجرة في قول ابن إسحاق وغيره[7]، بينما ذكر الواقدي أنّها في صفر[8]، وقول ابن إسحاق هو الراجح كما بيّن ابن حجر[9]، وعلى القولين: فالغزوة كانت في: **أوّل** سنة سبع كما عبّر البيهقي وابن كثير[10]، وهو المقصود من قول "كرومان -Grohmann" و"بول-Buhl": "**في مستهل العام** السابع الهجري".

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 55/9–56.

[2]– المصدر نفسه، إص1، 55/9.

[3]– سبقت ترجمته في: ص678.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9146/30.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

[6]– **خيبر**: بلدة زراعية تقع شمال المدينة المنورة، وتبعد عنها بحوالي (165كلم) شمالا على طريق الشام، كانت تشتمل خيبر على سبعة حصون، وامتازت بخصوبة أرضها ووفرة مياهها، واشتهرت بكثرة نخيلها، هذا سوى ما تنتجه من الحبوب والفواكه، لذلك كانت توصف بأنها ريف الحجاز. وكان يسكنها قبل فتحها أخلاط من العرب واليهود، وزاد عدد اليهود فيها بعد إجلاء يهود بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة. ينظر: تاريخ الطبري، 554/2. معجم البلدان، الحموي، 409/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 118. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 318/1.

[7]– كموسى بن عقبة وعبد الله بن أبي بكر وغيرهما؛ ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 328/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 249/6.

[8]– ينظر: مغازي الواقدي، 634/2.

[9]– ينظر: فتح الباري، 580/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 321/1.

[10]– ينظر: دلائل النبوة، 197/4. والبداية والنهاية، 249/6.

[2]– أسبابها: يبدو أنّ "كرومان-Grohmann" أساء تقدير الأسباب الرئيسية لغزوة خيبر، فاكتفى بذكر سبب ثانوي، وأعرض عن الأسباب الهامة والرئيسية التي دفعت النبي ﷺ للإقدام على هذه الغزوة مع خطورتها، وما كانت تهدف إليه من غايات سياسية وعسكرية ودينية هامة، إضافة إلى ما كان فيما ذكره من وهم سيأتي بيانه، ويمكن إيجاز **أهم أسباب الغزوة** كما تقدّمها الروايات فيما يلي:

– **السبب (1): عزم اليهود على الانتقام من المسلمين:** لم يظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير؛ كسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها، وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافيا في جرها إلى الصراع والتصدي للانتقام من المسلمين، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة.

وكان أول تَحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لِخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب وتحزيب الأحزاب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم الناجح في إقناع بني قريظة بالغدر ونقض عهدهم مع النبي ﷺ، والتعاون مع الأحزاب[1].

– **السبب (2): حَشْد يهود خيبر لحرب المسلمين:** عندما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب، وجنت قريظة عقبى غدرها، لم يهدأ يهود خيبر، أو يحاولوا إصلاح شؤونهم مع المسلمين، و لم يعتذروا عما فعلوه في تأليب الأحزاب، كلا إنّهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضاربين حولهم، ليؤلفوا ضدّ الإسلام تحالفا آخر يكيدون به من جديد لِلنبي ﷺ وصحبه، لكنّ المسلمين كانوا أيقاظا لهذه المؤامرات، حيث وصلت الأخبار إلى النبي ﷺ أن يهود خيبر يعدون العدة لِمهاجمة المدينة، وأنّهم بدأوا يحشدون التحالفات مع القبائل العربية المجاورة ضد النبي ﷺ على أن يجعلوا لهم من ثمار خيبر، وقد أعدوا لحرب ضارية تعيد إليهم مجدهم العسكري الضائع وقوتهم في المنطقة كلها[2].

و لم يكن المسلمون قد نسوا شدة الحصار الذي واجهوه في غزوة الأحزاب، ولهذا اتفق المسلمون جميعا على أن يتقدموا خارج المدينة لمواجهة المتربّصين بِهم، **وإفساد نواياهم العدوانية**[3].

– **السبب (3): الخطر الكبير الذي يشكّله يهود خيبر على دولة المسلمين في المدينة:** لَما اطمأنّ رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة (وهم كفار مكة) وأمن منه أمنا باتّا بعد هدنة الحديبية؛ أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين -اليهود وقبائل نجد- حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليها.

---

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 414/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 318/1-319.

[2]– ينظر: مغازي الواقدي، 530/2 و562. ورحمة للعالمين، المنصورفوري، 203. وفقه السيرة، الغزالي، 340.

[3]– ينظر: رحمة للعالمين، 203-204 و447.

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولا، لذا اهتم النبي ﷺ بمعالجة الموقف في خيبر التي صارت مصدر خطر كبير على المسلمين[1].

ويمكن القول أنّ "الحديبية" كانت من العوامل المساعدة على فتح النبي ﷺ لخيبر، بحيث كان السلام المبرم يتيح الفرصة للمسلمين للتفرغ ليهود خيبر الذين أصبحوا يشكّلون خطرا على المسلمين.

– **السبب (4): تأمين جبهة الشمال:** لئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمِنوا قريشا والجنوب، لكنهم لم يؤمنوا ناحية الشمال، ولا سيما فلول اليهود في خيبر، التي أخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم، ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو المدينة، وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق؛ فليس ببعيد عليهم أن يستعينوا بقبائل الشمال، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية، فما أحرصهم على الثأر من المسلمين إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية[2].

كما ينبغي ملاحظة أنّ خيبر كانت تمثّل حاجزا يقف أمام توجّه المسلمين شمالا إلى أطراف الشام وتخومها للدعوة إلى الله ونشر الإسلام، ومواجهة القوى المعادية هناك، لذا كان ينبغي تأمين هذه الجبهة سريعا خاصّة بعد تأكّد الأخبار بجمعهم لحرب المسلمين، فلا مناص من المواجهة.

تلكم الأخطار المحدقة كانت تستوجب من النبي ﷺ والمسلمين تحرّكا سريعا يعالج الموقف، ويأمّن تلك الجبهة قبل تفاقم خطرها، بذلك ندرك أنّ الأسباب الهامة للغزوة لا تقتصر على ما ذكره المستشرق "كرومان-Grohmann" من "**محو الأثر السيّء لصلح الحديبية في نفوس المسلمين**" فحسب، وإن كان هذا الأمر قد يُعتبر سببا عارضا، وثمرة من ثمرات الغزوة وآثارها فيما بعد.

ذلك أنّ المسلمين لَما خرجوا إلى مكّة عام الحديبية معتمرين ثم صدّهم أهل مكة عن دخولها، حزّ في نفوسهم ذلك، وأصيبوا بخيبة أمل جرّاء صدّهم عن العمرة ذاك العام إلى العام القادم، لكنّ المسلمين بعدما أدركوا ما في "صلح الحديبية" من فوائد عظيمة ومصالح جليلة للإسلام والمسلمين سلّموا لأمر الله ورسوله، وانقلبت كآبتهم إلى فرح غامر بعد نزول سورة الفتح بعد الحديبية مباشرة[3]، وإدراكهم أنّ ما وقع في "الحديبية" وإن كان في ظاهره صلحا فهو في حقيقته فتح مبين.

---

[1]– ينظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، 430. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 319/1.

[2]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 414/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، 366.

[3]– سبق الكلام على ذلك في ثمرات "صلح الحديبية" من الباب السابق: ص661.

ويمكن القول أنّ فتح خيبر كان فيه مواساة من الله ورسوله للمسلمين الذين صُدّوا عن المسجد الحرام وقد أتوه معتمرين، حيث وردت روايات في هذا السياق تبيّن أن الله ﷻ بشر نبيه ﷺ والمسلمين بفتح خيبر ومغانم كثيرة منها، بعد رجوعهم من الحديبية؛ فعن مروان والمسور بن مخرمة أنهما قالا: «انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر؛ بقوله: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: 20]؛ يعني: خيبر؛ فقدم المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم»[1].

[3]– وهْمُ "كرومان-Grohmann" حول أسلاب الحديبية: ذكر المستشرق أنّ من أسباب "غزوة خيبر" سعي المسلمين للتعويض عن الأسلاب التي فقدوها في "الحديبية"، وغفل عن أنّ "حادثة الحديبية" ليست معركة، و لم يكن فيها سلب للمسلمين حتى يحتاج إلى التعويض؛ لكن يبدو أنّ معرفة "كرومان-Grohmann" بالسيرة النبوية ضعيفة، وأنّ تخصّصه يميل إلى الجغرافيا أكثر من التاريخ عامة والسيرة خاصة؛ بدليل أنّ جلّ مصادره التي اعتمادها في تحرير مادة "خيبر" هي كتب في التعريف بالأماكن والبلدان، وكذلك المواد التي حرّرها في "دائرة المعارف" جلّها في الموضوع نفسه[2]، لذا وقع المستشرق في مثل هذا الغلط الفاضح، ثم في أغلاط أخرى في مجريات المعركة سيأتي بيانها.

الفرع الثاني : مسير جيش المسلمين إلى خيبر

– جاء في مادة "**خيبر**"[فقرة: 3]: «**وكان لغزوة النّبي محمد أثر بالغ في تاريخ خيبر وسكانها من اليهود، فقد خرج النّبي لغزوها... على رأس جيش عدته (1600) مقاتل...**

وزاد مركز أهل خيبر حرجا عندما تخلى عنهم أحلافهم من غطفان وغادر جندهم وعددهم أربعة آلاف مقاتل خيبر عائدين إلى منازلهم، ومن ثَمّ خلا الميدان أمام النّبي فتقدم نحوهم ليلا، وما إن أصبح الصباح حتى رأى أهل خيبر جند المسلمين أمامهم وكانوا قد عسكروا خلف الحرة على حافة الصحراء»[3]. المحرر المادة هو المستشرق: **كرومان** - A.Grohmann[4].

خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر في **ألف وستمائة** مقاتل كما ذكر "كرومان- Grohmann"؛ فيهم: ألف وأربعمائة راجل، ومائتا فارس[5].

---

[1]– أخرجه: **البيهقي**، دلائل النبوة، 197/4. وعزاه ابن حجر في "فتح الباري، 579/7" إلى "سيرة ابن إسحاق" برواية يونس بن بكير [وهي مفقودة]، والحديث حسن كما في "صحيح السيرة، العلي، 338".

[2]– ينظر: فمثلا من المواد التي حرّرها: مادة "خولان: 46/9"، ومادة "صحار: 146/14". وهي مواد تختصّ بالتعريف بأماكن.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 55/9-56.

[4]– سبقت ترجمته في: ص678.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 307/6. والمواهب اللدنية (الزرقاني)، القسطلاني، 245/3.

فَلمّا سمعت "غطفان" بمسير رسول الله ﷺ إلى خيبر، تَهيّأوا وجَمَعوا له، وتوجهوا إلى خيبر لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطًا[1]، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا إلى ديارهم لحراسة الديار وحماية الذراري والنساء، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[2].

تلك هي ملابسات ما ذكره "كرومان- Grohmann" في هذه الفقرة عن تراجع "غطفان" الذي زاد من حرج موقف يهود خيبر.

وتشير الأجواء السائدة آنذاك إلى أنّ «غطفان كانت قد بدأت تعيد النظر في موقفها من عداء محمد ﷺ بعد الأحزاب، وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش، **فلم يكن زعماء غطفان جادين في معاونة خيبر**، و لم يعودوا حريصين على الارتباط بها، كذلك كانت القبائل العربية كلها في منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة»[3].

واحتاط النبي ﷺ في معسكره فنزل في موقع يفصل بين غطفان وخيبر، ثم دخل رسول الله ﷺ خيبر من جهة الشمال أي جهة الشام؛ من أجل أن يحول بين اليهود وبين حلفائهم من غطفان[4].

«ويظهر أنّ اليهود ظنّوا - أول وهلة- أنّ زَحْف المسلمين صوب "غطفان"، فلم يعيروا الأمر التفاتا، بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيهم ومكاتلهم، حتى فوجئوا بالمسلمين يسيرون نحوهم، فارتدوا إلى حصونهم فزعين، وهم يقولون: محمد والخميس!»[5].

فعن أنس بن مالك ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً -وكان إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح- فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: "محمَّد والله، **محمَّد والخميس**[6]!"؛ فقال النبي ﷺ: ((خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ))[7].

---

[1]- ولعلّ مجموعة من المسلمين توجهت إلى ديار غطفان لإرباك القوة التي خرجت لمساعدة يهود خيبر، مما أفزعهم واضطرهم إلى الإسراع بالعودة إلى ديارها لحمايتها من تهديد المسلمين، وتركوا اليهود وحدهم أمام المسلمين؛ كما ذكر: أبو زهرة في "خاتم النبيين، 1042-1043". واللواء محمود خطاب في "الرسول القائد، 203".

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 330/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 174/2.

[3]- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 395.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 330/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 321/1.

[5]- فقه السيرة، الغزالي، 341.

[6]- **الخميس**: الجيش. **والمساحي**: جمع مسحاة، وهي آلة زراعية للحفر. **والمكاتل**: جمع مِكتل، وهي القفة الكبيرة، لنقل التراب أو الثمار أو نحوها. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 584/7. ومعجم اللغة المعاصرة، أحمد مختار وغيره، 522/1.

[7]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 583/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر، 227/12-228. واللفظ للبخاري.

المطلب الرابع : فتح حصون خيبر ومصالحة أهلها

الفرع الأول : عرض ما جاء في مادة "خيبر" عن فتح الحصون

– جاء في مادة "**خيبر**"[فقرة: 4]: «... **أما معقل خيبر الأعظم المسمى حصن [القموص][1] فهو الحصن الذي فتحه عليّ بن أبي طالب...**

ومن الجليّ أن يهود خيبر تأهبوا لِملاقاة النّبي، ولكنهم كانوا متنابذين، ذلك أنهم لم يكونوا هيئة متماسكة يعيشون مجتمعين في بقعة واحدة بل كانوا متفرقين في الأودية المجاورة...

وصرف النّبي ستة أسابيع في فتح إقليم خيبر بأجْمَعه، فقد اضطر أن يحاصر كل منـــزل ومعقل حتى يفتحه عنوة بعد قتال عنيف في كثير من الأحيان، وانصب الهجوم أولا على حصن النطاة الذي صمد للقتال أسبوعا واحدا.

وقد ثأر النّبي من هذا البلاء الشديد الذي أبلاه هذا الحصن باجتثاث أشجار النخيل الطيبة المحيطة به، واجتثت منها أربعمائة نخلة قبل أن يأمر أبو بكر الأريب بالكف عن ذلك.

ثم اقتحم حصن الشق، وأضعفت انتصارات المسلمين من عزيمة المدافعين وسقط حصن النطاة في يد النّبي لخيانة بعض اليهود، كما سقطت آلات القتال في أيدي المسلمين، وانبرى يهودي من الخونة يعلم المسلمين طريقة استخدام هذه الآلات، وفترت مقاومة اليهود كثيرا فأدى ذلك إلى سرعة سقوط معاقلهم الأخرى في يد المسلمين، وسقط حصن الكتيبة آخر معاقلهم من غير قتال تقريبا»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** - A.Grohmann[3].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- فتح الحصون تدريجيًّا: كانت حصون "خيبر" موزّعة ضمن ثلاث مناطق رئيسية، هي: النطاة، الشقّ، والكتيبة، وتَمّ فتح حصون هذه المناطق تدريجيًا حسب السياق التالي:

[1]– حصن النطاة: يقع هذا الحصن في الشمال الشرقي من خيبر، وهو أوّل حصن حاصره جيش المسلمين[4]، كما ذكر "كرومان-Grohmann"، ويتكوّن حصن منطقة النطاة من عدّة حصون فتحها المسلمون بعد مقاومة شديدة، وهي:

---

[1]– في المطبوع: "القميص"، والتصحيح من: "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 331/2" و"مغازي الواقدي، 670/2"، ويبدو أنّ الخطأ وقع من المترجمين؛ وعذرهم في ذلك صعوبة تحرير جميع الأسماء التي وردت في "الدائرة" للأماكن والحصون ونحوها في علوم مختلفة.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 55/9-56.

[3]– سبقت ترجمته في: ص678.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 645/2.

أ)- حصن ناعم: وهو أوّل حصن فُتح من حصون منطقة النطاة، وكان أكثر الحصون بأساً، وأشدّها صمودا في وجه المسلمين، فقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة في فتح هذا الحصن، حيث جرح في اليوم الأول من القتال فيه خمسين من المسلمين حسب رواية الواقدي، واستشهد في هذا الحصن محمود بن مسلمة ﷺ، واستغرق فتحه عشرة أيام[1].

ولَمّا اشتد الحصار على الحصن أيّاما و لم يُفتح عليه، وجهد الناس قال رسول الله ﷺ: ((**لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ))... فلمّا أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلّهم يرجو أن يعطاها، فقال: ((أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ؟))، فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرْسَلوا إليه، فأُتِي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[2]؛ وفي راوية: «فأعْطاهُ الراية، **ففُتِح عليه**»[3].

وفي معركة هذا الحصن قَتَل عليّ بن أبي طالب "مرحب اليهودي"[4]، وكان من أقوى قادة خيبر، كما قُتل معه عدد من قادة يهود خيبر الأشداء، فأثّر مقتل "مرحب" ومقتلهم في معنويات اليهود[5]، وبعد فتح هذا الحصن توجه المسلمون بعده إلى حصن "الصعب".

ب)- ثم حصن الصعب: وهو في منطقة النطاة، وكان فيه الطعام والمتاع، وكان المسلمون في ضائقة من قلة الطعام، وقد قاوم اليهود مقاومة عنيفة فيه، واستغرق فتحه ثلاثة أيام[6].

ج)- ثم حصن الزبير: وهو آخر حصون منطقة النطاة، وكان حصن قلعة الزبير منيعا مرتفعا، فقطع المسلمون مجرى الماء عنهم، واضطروهم إلى النزول للقتال، وفتح الحصن بعد حصار ثلاثة أيام[7].

ثُمّ إن «موقف المسلمين قوي كثيراً بعد هزيمة أهل النطاة وحيازتهم أطعمتهم ومتاعهم، بالإضافة إلى ما أصاب بقية يهود خيبر من رعب لسقوط منطقة النطاة»[8]، خاصّة وأنّ أهلها هم أشد اليهود.

وفيما يلي بيان بعض الاستدراكات والملاحظات على ما ورد في مادة "خيبر" عن فتح هذه الحصون:

---

[1]- ينظر: المصدر السابق، 646/2 و652-659. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 330/2.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 594/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عليّ ﷺ، 255/15؛ من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 594/7. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عليّ ﷺ، 253/15-254؛ من حديث سهل بن سعد ﷺ. واللفظ للبخاري.

وفي قصّة عليّ ﷺ هذه يوم خيبر روايات عن أكثر من عشرة من الصحابة كما ذكر ابن حجر "فتح الباري، 595/7".

[4]- ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 254/12-255.

[5]- ينظر: مغازي الواقدي، 655/2-658. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 324/1.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 332/2. ومغازي الواقدي، 659/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 324/1.

[7]- ينظر: مغازي الواقدي، 666/2-667. والسيرة النبوية الصحيحة، 324/1.

[8]- السيرة النبوية الصحيحة، 324/1.

- **الاستدراك (1)**: ذكر "كرومان-Grohmann" أنّ حصار حصن النطاة دام ستة أيام، لكن رواية الواقدي تُقرّر أنّه استمرّ ستة عشر (16) يوما، و لم يذكر مصدره في هذه الحيثية، و لم أقف على ذلك فيما أورده من مصادر عربية، فلعلّه نقل ذلك من مصدر أجنبي لأحد المستشرقين.
- **الاستدراك (2)**: في فتح الحصنين الأوّليْن "ناعم" و"الصعب" لم يقع ما ذكره المستشرق "كرومان" من خيانة الرجل اليهودي[1]، وإنّما وقع ذلك في محاصرة الحصن الأخير من "النطاة" وهو "حصن الزبير" حسب رواية الواقدي[2]، لذا فإنّ قوله: بأنّ "**حصن النطاة سقط في يد النّبي لخيانة بعض اليهود**" تعميم غير دقيق، لأنّ مساعدة الرجل اليهودي للمسلمين إنّما وقعت في آخر حصن من حصون منطقة النطاة الثلاث، والحصنين الأولين فتحهما المسلمون بعد قتال شديد ومستميت من الطرفين، و لم تقع فيهما تلك المساعدة من الرجل اليهودي، حتّى آخر حصن فيها، لذا فإنّ الأدق تقييد ذلك بالحصن الأخير من النطاة، كما ينبغي التنبّه إلى أنّ هذه المساعدة من الرجل اليهودي إنّما جاءت في رواية الواقدي، وليست عند ابن إسحاق.
- **الاستدراك (3)**: أساء "كرومان- Grohmann" تفسير ما جاء في رواية الواقدي من أمر النبي ﷺ بتقطيع بعض نخيل خيبر[3]، وجعل مقصد النبي ﷺ من ذلك هو "**الثأر من البلاء الشديد الذي أبلاه هذا الحصن** [أي: النطاة]"، والجواب على هذا الكلام من أوجه:

الوجه الأول: هذه الرواية للواقدي، وهو ضعيف، خاصّة إذا كان ما رواه مخالفا للصحيح، أو له علاقة بالحلال والحرام، كما هو شأن هذا الخبر، فهذه الرواية ليست حجة في إثبات القصّة أصلا.

الوجه الثاني: ليس من المنطق القول بأنّ النبي ﷺ ثأر من الأشجار؛ إذ لا يُثأر من الجماد.

الوجه الثالث: وعلى فرض قبول الرواية، فينبغي تفسير الحادثة في ضوء المعطيات التالية:

– الأمر بالقطع كان لمصلحة حربية؛ لأنّ كثرة هذا النخيل وتشابكها كان يحول دون تحركات القوات العسكرية للمسلمين، ومهاجمة حصون العدو[4].

---

[1]– **ملاحظة**: هناك مفارقة هامة ينبغي التنبّه لها تكشف مدى تحيّز المستشرقين إلى جهة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، على حساب المسلمين؛ إذ لا نجد أحدا من المستشرقين: يسمّي نقض "بني النضير" ولا "بني قريظة" لعهد النبي ﷺ غدرا أو خيانة [يراجع ما سبق: ص851، و881]، بينما يسارعون في تسمية من يتعاون مع المسلمين ضد الكافرين من اليهود أو غيرهم بالخائن، مما يؤكّد أنّ تعاطفهم الشديد مع إخوانهم في الدين هو الذي يجعلهم يطلقون تلك التحليلات المتناقضة، والألفاظ المغرضة، وليس في ذلك شيء مِمّا يدّعونه من البحث العلمي المتجرد عن الخفيات الفكرية والعقدية.

[2]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 224/4. والبداية والنهاية، ابن كثير، 296/6.

[3]– ينظر: مغازي الواقدي، 644/2-645.

[4]– ينظر: القول المبين، النجار، 327. والسيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 534.

– أنّ النبي ﷺ إنّما أمر بقطع بعض النخيل لا كلّه؛ وكان قصده ﷺ من ذلك تحقيق المصلحة العامة للمسلمين ودعوة الإسلام. أمّا ما ورد في الرواية من إشارة أبي بكر على النبي ﷺ بعدم قطعها، فكان من باب إبداء الرأي والمشورة، فإنّ أبا بكر ﷺ نفسه أمر بالإحراق والقطع، حينما أرسل خالدا إلى طليحة وبني تميم، مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام، وذلك بحسب تقدير المصلحة[1].

– الأصل هو عدم قطع الشّجر، لكن إذا تبين أن قطع الشجر توجبه ضرورة حربية لا مناص منها؛ كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المسلمين ونحو ذلك، فإنه لا مناص من قطع الأشجار، على أنه ضرورة من ضرورات القتال[2].

[2]– **حصن الشق**: منطقة الشقّ تحتوي على عدّة حصون أهمها:

أ)– حصن أُبَيّ: بدأ المسلمون بفتح حصن أُبَيّ وجرت فيه مبارزات فردية ثم اقتحم المسلمون الحصن، وحازوا ما فيه من طعام ومتاع[3].

ب)– حصن النّزار: تمكن مقاتلة اليهود من التحول إليه، فتحصنوا فيه، وقاتلوا المسلمين بالنبل والحجارة، فكانوا أشدّ أهل الشقّ قتالاً، ثم تهاوت مقاومتهم أمام حصار المسلمين، وفُتح الحصن[4].

[3]– **حصن الكتيبة**: بعد فتح حصن الشقّ انتقل المقاتلة الفارّون من الحصنين السابقين "النطاة، والشق" إلى منطقة الكتيبة في الجنوب الغربي من خيبر، وفيها آخر حصونهم:

– فتحصّنوا في "**حصن القموص**": وهو حصن منيع، يعتبر من أكبر حصون خيبر وأعظمها، كما ذكر "كرومان"، حاصره المسلمون أياما ثم فتحه الله على يد عليّ ﷺ؛ ثُمّ انهارت بعد ذلك مقاومة اليهود فاقتصروا على التحصن في حصونهم، وانتهى بطلب الصلح[5].

– وتحصنوا في **حصني** "**الوطيح**" و"**السلالم**" فحاصرهم المسلمون، حتى طلبوا الصلح[6].

ويمكن القول أنّ جلّ حصون منطقة الكتيبة استسلمت دون قتال، إلاّ **حصن القموص**: وقعت فيه مناوشات طفيفة، ثم انتهت باستسلام اليهود وعقد الصلح بين الطرفين[7]؛ ولعل هذه **المناوشات** التي وقعت بين الطرفين في حصن **القموص من منطقة الكتيبة** هي ما يشير إليها احترازُ "كرومان-Grohmann" في قوله: "**وسقط حصن الكتيبة من غير قتال تقريبا**".

---

[1]– ينظر: فقه السيرة، البوطي، 192.

[2]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 897/2.

[3]– ينظر: مغازي الواقدي، 666/2-667. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 325/1.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 668/2.

[5]– ينظر: الصدر نفسه، 670/2. وفتح الباري، ابن حجر، 597/7. والسيرة الحلبية، الحلبي، 60/3.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 332/2 و337. ومغازي الواقدي، 670/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 325/1.

[7]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 330/2-331. ومغازي الواقدي، 670/2.

ثانيا- ملاحظات على وصف "كرومان-Grohmann" للمعركة:

أ)- الملاحظ أنّ وصفه لفتح حصون خيبر كان مقتضبا، وتنقصه الدقّة والتسلسل، إذ تكلّم على حصن النطاة و لم يذكر حصونه بالتفصيل، ثم تكلّم مباشرة عن حصن الكتيبة، وأغفل حصن الشق الذي كان قبله، ولعلّ ذلك من جرّاء اعتماده على الوسائط من كتب المستشرقين، واكتفائه بالمصادر الجغرافية، إضافة إلى عدم تخصّصه في المجال، ولو **اعتمد** على **سياق الواقدي** واختصره لكان عرضه لفتح حصون خيبر أكثر دقّة وتسلسلا.

ب)- مِمّا يُعاب على المستشرق "كرومان" أنّه لم يعتمد على المصادر الأصيلة في الموضوع، من كتب المغازي والسير: لابن إسحاق، والواقدي والطبري وابن سعد وغيرهم، فجلّ مصادره كتب في التعريف "بالأماكن والبلدان"، وهذه المصادر لم تركز على وصف معركة خيبر بقدر تركيزها على وصف المنطقة وموقعها الجغرافي، فكان جلّ اعتماده في وصف المعركة على وسائط من كتب المستشرقين، لذا وقع في عدّة أخطاء، هذا إضافة إلى عدم تخصّصه في مجال السيرة والتاريخ الإسلامي، وتخصّصه في الجانب الجغرافي.

ثالثا- بعض أسباب هزيمة يهود خيبر: من خلال ما سبق إيراده من وقائع حصار خيبر يمكن إيجاز أهم الأسباب في هزيمة يهود خيبر -التي ذكر "كرومان-Grohmann" بعضها- فيما يلي:

أ)- تفرقهم بين حصونهم، وعدم التنسيق الحربي القويّ بينهم، كما ذكر المستشرق.

ب)- سقوط عدد كبير من قادتهم الأشداء في قتال الحصون الأولى.

ج)- تهاوي الحصون الكبرى، وحيازة المسلمين ما فيها من مؤن ومعدّات حربية، مما أضعف موقف اليهود، وعزّز موقف المسلمين[1].

د)- تخاذل حلفائهم من غطفان عن نجدتهم، الأمر الذي جعلهم في موقف حرج كما ذكر "كرومان-Grohmann"، ولتفرّغ النّبي ﷺ لهم بعد مصالحته لقريش في الحديبية[2].

الفرع الثالث : مصالحة النبي ﷺ لأهل خيبر ومن حولهم

أولا- عرض نصوص المستشرقين :

- جاء في مادة "**خيبر**"[**فقرة**: 5]: «**وحكم على اليهود بالتخلّي عن جميع أملاكهم، وسمح لهم هم وزوجاتهم وأولادهم بحرث الأرض التي كانوا يملكونها من قبل، وفرض عليهم أن يقدموا نصف غلتها**

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 324/1.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 327/1.

للنّبي، وظلّت هذه الإتاوة مفروضة عليهم إلى أن أخرج الخليفة عمر بن الخطاب اليهود من بلاد العرب»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **كرومان** - A.Grohmann[2].

- وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 85]: «**فتح الرسول ﷺ خيبر التي يسكنها اليهود، وكان هذا هو أول فتح حقيقي للمسلمين، وقد استنّ في هذه المناسبة سنّة صارت تطبق بعد ذلك على اليهود والنصارى القابلين للعيش تحت حكم المسلمين، فهو لم يقتل المهزومين ولم ينفهم وإنّما فرض عليهم الجزية كل عام، وقد كانت هذه الغزوة التي تلاها ضمّ محمد ﷺ المستعمرات اليهودية في وادي القرى سببا في إثراء أمة المسلمين لأول مرة ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ سورة الفتح الآية (20)**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[4].

ثانيا- التحليل والمناقشة:

[1]– مصالحة يهود خيبر: بعد أن فتح المسلمون حصون خيبر وأيقن اليهود بالهلكة، ولم يروا محيصا من الاستسلام، صالح النبي ﷺ أهل خيبر على أن يحقن دماءهم ويجليهم عن المنطقة، وأن يَخرجوا جميعًا منها، ويخلوها للمسلمين بكل ما فيها من مال، وأرض، وذهب، وفضة، وماشية، وعقار، وأنّ لهم ما حملت ركابهم، وتّم الصلح على ذلك، وتسلم المسلمون الحصون، وفتحت خيبر.

ولما تم الصلح طلب يهود خيبر من الرسول ﷺ إبقاءهم فيها لزراعة الأرض وفلاحة البساتين ولهم نصف نتاجها، فقبل رسول الله ﷺ، وأبقاهم في خدمة أرضهم على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم فيها، على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا[5].

بعدما سقطت "خيبر" وصالح النبي ﷺ أهلها، توجّه نحو بقية المعاقل اليهودية في المنطقة، وهي:

[2]– مصالحة أهل "فدك"[6]: سارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح، وأن يحقن النبي ﷺ دماءهم، فوافق على طلبهم، وصالحهم بنفس شروط "خيبر" دون قتال.

[3]– كما استسلم يهود "**تيماء**"[7] للمسلمين دون قتال، وصالحوا على مثل صلح خيبر وفدك.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 56/9.

[2]– سبقت ترجمته في: ص678.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9146/30.

[4]– سبقت ترجمته في: ص150.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 337/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 181/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 325/1 و328.

[6]– **فدك**: بلدة تقع شرق خيبر، بينها وبين خيبر ستّةُ أميال. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 238/4. وسبل الهدى، الشامي، 411/5.

[7]– **تيماء**: هي مدينة حجازية معروفة اليوم، تقع شمال المدينة على (420 كلم). ينظر: معجم البلدان، 67/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 74.

[4]– أما **وادي القرى**[1]: فحاصرها المسلمون، فاستعدّ اليهود هناك للقتال، ونشبت معركة محدودة استمرت بضع ساعات انتهت باستسلام اليهود للمسلمين، فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود، وعاملهم عليها مثل خيبر[2].

وبذلك انهارت سائر المعاقل اليهودية في المنطقة أمام المسلمين، و لم يُجْلِ النبي ﷺ اليهود عن خيبر ونواحيها بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة؛ تقديرا منه لإمكاناتهم الزراعية، وخبرتهم في هذا المجال، ولأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصيبة، ولا شك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها، ثم إن النبي ﷺ كان في حاجة إلى رجاله؛ فموقف المسلمين لم يكن يساعد على الاستغناء عن قسم من قواتهم لزراعة الأرض، لأن الدولة مازالت تحوطها المخاطر، وهي في أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح، كما أنه لا يصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال، بينما الدولة في حاجة إلى المؤونة والمال[3].

فلمّا كانت خلافة عمر بن الخطاب بدت منهم العداوة والبغضاء وغدروا بالمسلمين، فأجلاهم عمر رضي الله عنه من خيبر[4]، كما ذكر "كرومان-Grohmann"، وعوَّضهم عمر رضي الله عنه قيمة ما كان لهم من التمر مالاً وإبلاً وعروضاً، وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر فتصرفوا فيها[5].

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه – وهو مواكب للحادثة–: «أنّ عمرَ بن الْخطّاب، أَجْلى اليهود والنّصارى مِن أرض الْحجاز، وأنّ رسول الله ﷺ لَمّا ظَهَر على خيبر أراد إِخْراج اليهود مِنها... فسَألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ أن يُقِرّهُم بِها، على أن يَكْفوا عَمَلها، ولَهم نصفُ الثّمر، فقال لَهم رسولُ الله ﷺ: ((نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا))، فقرّوا بِها حتّى أجلاهُم عمر»[6].

[5]– أثر فتح خيبر: أشار المستشرق "بول" إلى بعض الآثار الاقتصادية الهامة التي جناها المسلمون من فتح خيبر، وهو كما قال؛ فقد عاد هذا الفتح بالخير الكثير على المسلمين، وتحسّن وضعهم الاقتصادي بالمغانم الكثيرة التي أحرزوها، حتى قال ابن عمر رضي الله عنه: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[7].

---

[1]– **وادي القرى:** وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء، على بعد حوالي (350 كلم) شمال المدينة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 345/5. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 250. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 326/1.

[2]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 353/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 351/6-353. والسيرة النبوية الصحيحة، 326/1.

[3]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت، 298. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 396.

[4]– أخرج يهود خيبر وفدك، و لم يُخرج أهل تيماء ووادي القرى، لأنّهما داخلتان في أرض الشّام. كذا في: البداية والنهاية، 353/6.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 356/2-357. والسيرة النبوية الصحيحة، 332/1.

[6]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال ربّ الأرض: أقرّك ما أقرّك الله، 27/5. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب المساقاة، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع، 304/10. واللفظ لمسلم.

[7]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، 620/7.

كما كان قبول النبي ﷺ إبقاء اليهود في أراضيهم بخيبر بناء على طلبهم - وعدم إجلائهم منها- غاية في الدلالة على الروح السمحة والعدالة السامية من جهة، ومن جهة أخرى حقّق هذا الصلح للدولة الإسلامية مصالح عليا اقتصادية وعسكرية؛ حيث تمت المحافظة على طاقات المسلمين العسكرية، وتمت الإفادة من خبرة وطاقة الفلاحين اليهود، للحفاظ على مستوى الإنتاج الزراعي في خيبر لأنهم يمتلكون خبرة الأرض وزراعتها، مما يوفر للمسلمين حصة كبيرة يمكن الإفادة منها في تجهيز الجيوش والقيام بالنفقات الأخرى التي تحتاجها الدولة[1].

الفرع الرابع: محاولة قتل النبي ﷺ بالشاة المسمومة بعد خيبر

- جاء في مادة "**بشر بن البراء**": «**ولَمّا تَمّت غزوة خيبر عام (7هـ- 628م) دسّت امرأة يهودية السّمّ لبشر لأنّها فقدت في الحرب جميع أقاربها من الرجال فأرادت أن تنتقم لهم، فذبحت شاة وقدّمتها للنبي بعد أن دسّت السّمّ فيها، وقبل النبي هديّتها وأشرك معه في الطّعام جماعة من أصحابه بينهم بشر بن البراء، وأدرك النبي في التّوّ ماذا أريد بهذه الشاة فلفظ السّمّ**»[2]. المحرر هو: **نسترشنين**–Zetterstéen[3].

مع كلّ تلك المواقف السمحة والعادلة التي أبداها النبي ﷺ تجاه يهود خيبر، ومع إحسانه إليهم بالكف عن قتلهم وإجابة مطلبهم، ما زالت نفوسهم مملوءة بالحقد والبغضاء وانتهاز الفرص للنيل من النبي ﷺ والمسلمين، وليس أدل على هذا من: أنّ النبي ﷺ بعد أن صالحهم واطمأنّ، أهدت امرأة يهوديّة [وهي "زينب بنت الحارث" امرأة سلام بن مشكم، وهو ممن قتل في الحرب] إليه شاة مشوية قد سَمّتها [وذلك بتواطؤ جماعة من اليهود معها[4]]، وأكثرت السّمّ في الذراع عندما عرفت أنه يحبها، فلاك النبي ﷺ قطعة منها فلم يسغها ولفظها، وعرف أنّها مسمومة، واعترفت المرأة، فلم يعاقبها[5]، ثُمّ قتلها بعد ذلك قصاصاً عندما مات بشر بن معرور ﷺ من أثر السّمّ الذي ازدرده مع الطعام[6].

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 329/1-330.

[2]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 656/3.

[3]- سبقت ترجمته في: ص112.

[4]- كما يدلّ على ذلك ما في حديث أبي هريرة ﷺ [سيأتي تخريجه في الهامش الموالي]: أنّ النبي ﷺ بعدما أكل من الشاة، جمع نفرا من اليهود فسألهم عن وضع السمّ في الشاة، فأقرّوا بذلك.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 337/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 351/6-353. والسيرة النبوية الصحيحة، 326/1.
وأصل القصة في الصحيحين: من **حديث أنس** ﷺ: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الهبة، 283/5. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب السلام، 256/14. **ومن حديث أبي هريرة** ﷺ في: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب الطب، 301/10.

[6]- ينظر: البداية والنهاية، 328/6. وفتح الباري، ابن حجر، 623/7. والسيرة النبوية الصحيحة، 327/1.

المبحث الثاني : النشاط العسكري بعد "خيبر" وقبل الفتح

يتطرّق هذا المبحث إلى بعض الغزوات والسرايا التي وقعت في الفترة الممتدة بعد غزوة خيبر سنة ستّ (6 هـ) وقبل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة (8 هـ)، مِمّا ورد ذكره في "دائرة المعارف".

المطلب الأول : بعض السرايا بعد خيبر

الفرع الأول : سريتي بشير بن سعد ﷺ إلى بني مرة وإلى الجناب

– جاء في مادة "**بشير بن سعد**": «**وفي السابع من شعبان بعثه النبي في ثلاثين رجلا في سريّة إلى "فدك" لِمقاتلة بني مرّة، وما إن التقى الجمعان حتّى فرت رجاله، ولكنّ بشيرا دافع عن نفسه دفاع الأبطال إلى أن جُرح في قدمه جرحا بليغا، وظنّوا أوّل الأمر أنّه مات، غير أنّه حمل في الليل إلى "فدك" حيث اعتنى به أحد اليهود أيّاما استطاع بعدها أن يعود إلى المدينة. وفي شهر شوال من العام نفسه بلغ النبي أن غطفان نزلت بالقرب من جناب (جبار، ويُمن) بين فدك ووادي القرى بزعامة عيينة بن حصن يبتغي المدينة، فأقام بشيرا على رأس ثلاثمائة رجل فتقدّم نحو بني غطفان ففرّوا، وأصاب كثيراً من الغنم والإبل**»[1]. المحرر هو المستشرق: **نسترشتين** –Zetterstéen[2].

تكلم "تسترشتين –Zetterstéen" في هذا النص عن سريّتين لبشير بن سعد ﷺ، هما:

أولا– سرية "بشير" إلى "بني مرة": بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري ﷺ في ثلاثين رجلا إلى بني مرة بناحية "فدك"[3]، فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحدا، فاستاق نعمهم، وكان القوم بالوادي فجاءهم الصريخ، فأدركوه ليلا وهو راجع، فترامو بالنبل، واقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى قتل عامة من كان مع بشير، وفرّ بعضهم، واستمر هو على القتال وحده، وصمد يومئذ صمود الأبطال، وما زال يقاتل حتى أثخنته الجراح، وظنوا أنه مات، وانصرف عنه العدو، ثم أوى إلى "فدك"، ونزل عند رجل يهودي[4]، حتى برأت جراحه، ثم رجع إلى المدينة المنورة[5].

لكنّ قول "تسترشتين –Zetterstéen" «**وما إن التقى الجمعان حتّى فرت رجاله**»؛ كلام غير صحيح، فقد ذكر بعض أهل المغازي أنّهم قُتِلوا كلّهم و لم يذكروا أنّهم فرّوا[6]، أمّا رواية الواقدي – وهي التي

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 3/664-665.

[2]– سبقت ترجمته في: ص112.

[3]– سبق تعريفها: ص900. وهذا الموضع بقرب فدك وليس فيها، كما في: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 3/304. و"بنو مرة" سبق تعريفهم في: ص726.

[4]– يبدو أنّ هذا الرجل كان من اليهود الذين صالحهم النبي ﷺ بعد غزوة خيبر، كما مرّ قريبا في: 900.

[5]– ينظر: مغازي الواقدي، 2/723. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/373.

[6]– ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، 2/91. والبداية والنهاية، ابن كثير، 6/360. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 2/1115.

ورد فيها الفرار- فجاءت بلفظ: «... وحَمَل الْمُرّيُون عليهم **فأصابوا أصحاب** بشير، **وولّى منهم** مَن وَلّى»[1]؛ بمعنى أنّ: بعضهم فرّ وبعضهم قُتل.

فكان الأولى بالمستشرق "تسترشتين" ألاّ يحرّف رواية الواقدي وأن يذكرها كاملة.

بعد ذلك بأشهر بعث الرسول ﷺ غالب بن عبد الله ﷺ في مائتي رجل إلى بني مرة، لتأديبهم على ما فعلوه مع بشير بن سعد ﷺ وصحبه؛ فخرج غالب وأغار بجنده على "بني مرّة" فقتلوا منهم قتلى، وأصابوا منهم نعما، ثم عادوا إلى المدينة، وقد أعطوا بني مرة درسا قاسيا، واقتصّوا لِمن قُـتل من المسلمين[2].

ثانيا- سرية "بشير" إلى الجناب: سمع النبي ﷺ أن جمعًا من غطفان "بالجِناب"[3]، قد واعدوا "عيينة بن حصن" أن يزحفوا إلى أطراف المدينة؛ فبعث النبي ﷺ إليهم بشير بن سعد ﷺ على رأس ثلاثمائة رجل، في **شوال سنة سبع** من الهجرة، فسار حتى أتى إلى "يُمن وجبار"[4] في نواحي الجِناب، فلما بلغهم مسير "بشير" هربوا، وأصاب "بشير" نعما كثيرة، ثم لقي جمع "عيينة" فناوشهم "بشير" حتى انهزموا، وأسر منهم رجلين، فقدم بهما إلى المدينة فأسلما[5].

الفرع الثاني: سرية أبي بكر ﷺ إلى بني كلاب

- جاء في مادة "**ضَرية**": «**وكان يقطن هذه الناحية بخاصة بنو كلاب، وهم الذين أنفذ النبي محمد ﷺ جيشا لقتالهم بقيادة أبي بكر في سنتي ستّ وسبع للهجرة**»[6]. المحرر هو المستشرق: **بول** – Buhl[7].

بعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة أبي بكر الصديق ﷺ إلى بني كلاب بنجد ناحية ضَرِيَّة[8]، في شعبان سنة سبع للهجرة، فشنّ الغارة عَلَى العدو، فسبى منهم جماعة وقتل آخرين، ثم عاد إلى المدينة[9].

---

[1]- مغازي الواقدي، 723/2.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 723/2-724. وطبقات ابن سعد، 96/2. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1115/2.

[3]- **الجِناب:** أرض واسعة لغطفان، تقع شمال خيبر وتَمتدّ إلى تيماء. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 395/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 86.

[4]- **يمن وجبار:** اسم ماء لغطفان في الحجاز، بناحية الجناب. ينظر: معجم ما استعجم، 1400/4. ومعجم البلدان، الحموي، 449/5.

[5]- ينظر: طبقات ابن سعد، 91/2-92. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 330/1.

[6]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 30/15.

[7]- سبقت ترجمته في: ص150.

[8]- **بنو كلاب:** بطن كبير، من عامر بن صعصعة، من العدنانية، وهم: بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، كانت مساكنهم بنجد في "ضرية" الآتي ذكرها. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 305/3. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 989/3.

- **ضَرِيّة:** بفتح الضاد وكسر الراء وفتح الياء المشددة، قرية كانت لبني كلاب، تقع في نجد على طريق حاجِّ البصرة؛ وهي إلى مكة أقرب، وتقع اليوم في منطقة القصيم. ينظر: معجم البلدان، 457/3. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 166.

[9]- ينظر: طبقات ابن سعد، 90/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 188/2.

ويبدو أنّ "بول-Buhl" تردّد في تاريخها بين سنة ستّ أو سبع، لكن الذي جزم به ابن سعد والبلاذري وابن سيد الناس وغيرهم من أئمة المغازي أنها كانت **سنة سبع للهجرة**[1].

المطلب الثاني : غزوة مؤتة: وقائعها ونتيجتها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**بلي**"[فقرة: 2]: «**وفي العام نفسه** [أي: الثامن] **تحالفت قبيلة "بلِيّ" مع قبائل لَخم وجذام وبَلْقَين القضاعية، وأعدّت مجتمعة جيشا عدّته 100000 مقاتل، يقوده رجل من "بلِيّ"، وانحاز هذا الجيش إلى جيش هرقل في الشام عند مآب وحارب محمداً في وقعة مؤتة**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** – J.Schleifer[3].

– وفي مادة "**زيد بن حارثة**"[فقرة: 3]: «**وتوفي زيد في العام الثامن للهجرة... وهو على رأس غزوة مؤتة غير الموفقة وكان حامل لوائها؛ وقد حزن عليه محمد**»[4].

محررة المادة هي المستشرقة: **فكا** – v.vacca[5].

– وفي مادة "**عبد الله بن رواحة**"[فقرة: 5]: «**... وكان أحد أمراء العسكر الإسلامي في غزوة مؤتة وأوصى رسول الله ﷺ إن أصيب أمير الجيش زيد بن حارثة فالراية لِجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فلعبد الله بن رواحة، فنزل للقتال فطعن فاستقبل الدم بيده، ثم صرع بين الصفين فاستشهد**»[6].

المحرِّر هو المستشرق: **شاده** – A.Shaade[7].

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 86]: «**وواصل محمد ﷺ في هذه الأثناء غزواته، فقد صادفت قواته هزيمة خطيرة في أول محاولة كبيرة له لبسط نفوذه على العرب في الأراضي البيزنطية بالأردن، وذلك في موقعة مؤتة التي فقد فيها محمد ﷺ ابنه بالتّبَنّي زيد بن حارثة الذي كان فيها قائد فرقة يقال إنها كانت من ثلاثة آلاف رجل، كذلك قُتل في تلك المعركة ضد البيزنطيين جعفر بن أبي طالب**»[8].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** – Buhl[9].

---

[1]– ينظر: الطبقات الكبرى، 90/2. وأنساب الأشراف، 379/1. وعيون الأثر، 188/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 169/4.

[3]– سبق في: ص723.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 10/11.

[5]– سبقت ترجمتها في: ص299.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7167/23.

[7]– سبقت ترجمته في: ص234.

[8]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9149/30.

[9]– سبقت ترجمته في: ص150.

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- وقائع المعركة: بعث النبي ﷺ جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى الشام في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال لهم: ((إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ))[1]، فتجهز الناس وتهيأوا للخروج، ثم مضوا حتى نزلوا معان[2] من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل في مآب من أرض البلقاء[3] في مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليه مائة ألف من نصارى العرب، من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبَلِيّ في مائة ألف عليهم رجل من بَلِيّ يقال له "مالك بن رافلة"، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشجع عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الناس، وقال: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون؛ "الشهادة"، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة».

وأحدثت كلماته أثرها فدبّ الحماس في الجيش، وفقدت آراء المتريثين قوتها، فاندفع زيد بن حارثة بالناس إلى منطقة مؤتة[4] حيث آثر الاصطدام بالروم هناك، فكانت ملحمة سجل فيها القادة الثلاثة بطولات عظيمة انتهت باستشهادهم، فشاط زيد بن حارثة رضي الله عنه في رماح الروم فاستشهد، وأخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فعقر فرسه الشقراء وقاتل بالراية فقطعت يمينه فأمسكها بشمال فقطعت فاحتضن الراية حتى استشهد، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فقاتل حتى استشهد، فأخذ الراية ثابت بن أرقم رضي الله عنه ونادى في المسلمين أن يختاروا لهم قائدا فاختاروا خالد بن الوليد، وأدرك خالد رضي الله عنه خطورة الموقف، فأعاد تنظيم الجيش، وبدل المسيرة بالميمنة وجعل قسما من الجيش يتقدمون من

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، 639/7. من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

[2]- مدينة في الأردن تقدّم التعريف بها في: ص772.

[3]- **البلقاء:** إقليم من أرض الشام في الأردن، تتوسطه مدينة عمّان العاصمة، ومن أشهر مدنه: عمّان والسَّلْط والزرقاء. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 339/3. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 49.

- **ومآب:** هي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، تقع في شرقيّ الأردن، وتقوم على بقعتها مدينة الكرك اليوم. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 31/5. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 237.

[4]- **مؤتة:** بلدة أردنيّة، تقع على مسيرة أحد عشر كيلا جنوب الكرك، إذا سِرت من مَعان إلى عمّان، كانت مؤتة على يسارِك إذا كنت في منتصف المسافة. ينظر: معجم البلدان، 220/5. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 237.

الخلف وكأنهم إمدادات جديدة لإيهام الروم، وقاتل قتالا شديدا، وتمكن خلال ذلك من القيام بانسحاب منظم لم يفقده إلا اليسير من جنده حيث ذكرت المصادر ثلاثة عشر شهيدا فقط[1].

ثانيا- سبب الغزوة وأهدافها: السبب المباشر لَها: هو أن شرحبيل بن عمرو الغساني -وهو من أمراء قيصر على الشام-، قتل صبرا الحارث بن عمير الأزدي الذي أرسله الرسول ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، والرسل لا تقتل، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ لما بلغه الخبر، وكان لا بد أن يقف أمام هذا الغدر بقوة، فنَدَب الناسَ وجهّز الجيش وأرسله إلى مؤتة[2].

فكان **الهدف من هذه السريّة** هو: تأديب شرحبيل بن عمرو الغساني -عامل هرقل على بصرى- ومن ينصره من القبائل العربية الموالية سياسيا للإمبراطورية البيزنطية، بسبب اغتيال حامل رسالة الرسول ﷺ، وكذا إظهار قوة المسلمين للروم والقبائل المتاخمة للشام، وإشعارهم بوجود المسلمين كقوّة عسكرية يحسب لها حسابها[3].

وهناك أهداف عسكرية أخرى للغزوة ليست أساسية لكنّها هامة؛ وهي: استطلاع قوة وكفاية القبائل العربية المتاخمة لأرض الشام، وقوة وكفاية الروم أيضا، وطبيعة الأرض هناك[4].

وبالتالي فقد أساء المستشرق "بول-Buhl" تحديد سبب غزوة مؤتة وهدفها عندما قال بأنّها كانت «**أول محاولة كبيرة للنبي ﷺ لبسط نفوذه على العرب في الأراضي البيزنطية**»؛ إذ لم يكن الهدف من غزوة مؤتة بسط النفوذ في تلك المنطقة -وإن اعتُبرت مقدمة لذلك-، وإنّما وُجِّهت أساسا: **للردع والاستطلاع**؛ وبذلك كانت إرهاصا ومقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان، وهو ما عبّر عنه الإمام ابن كثير بقوله: «هذه **الغزوة كانت إرهاصا لِما بعدها من غزو الروم**، وإرهابا لأعداء الله ورسوله»[5]؛ لا أنّها محاولة لفتح المنطقة كما توهّم المستشرق "بول".

ثالثا- نظرة في نتيجة المعركة: إنّ **جزم** المستشرقيْن "بول-Buhl" و"فكا-vacca" بهزيمة المسلمين في "مؤتة" لا يتوافق مع الأمانة العلمية من وجهين؛ **الأول**: أنّهما أخفيا عن القارئ أنّ بعض الروايات تذكر أنّ المسلمين هم الذين انتصروا، فكان الأولى بهما الإشارة -على الأقل- إلى الخلاف

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 373/2-380؛ من مرسل عروة، وحسن إسناده ابن حجر في "فتح الباري، 640/7". ودلائل النبوة، البيهقي، 369/4-370. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 467/2-468.

[2]- ينظر: مغازي الواقدي، 755/2-756. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 97/2. وفتح الباري، 639/7.

[3]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 304-305.

[4]- المصدر نفسه، 305.

[5]- الفصول في سيرة الرسول ﷺ، 80.

بين المؤرخين في تحديد نتيجة المعركة. **والثاني:** أنّ القول بالهزيمة الذي اختاره مخالف للروايات التاريخية الموثقة في الموضوع من جانب، ومخالف لقول جماهير علماء المغازي والسير من جانب آخر.

فقد أورد البيهقي وابن كثير وابن حجر وغيرهم[1] الخلاف في تحديد نتيجة معركة مؤتة؛ لأنّ سياق أصحاب المغازي والسير لروايات المعركة، ونظرهم لِنتيجتها بين النصر أو الهزيمة، تشير إلى أنّهم مختلفون في ذلك إلى عدّة أقوال:

– **القول الأول:** أن المسلمين انتصروا فيها، قال بذلك الزهري وموسى بن عقبة، والواقدي، ورجحه البيهقي، وابن كثير[2]، ومن المعاصرين: المنصورفوري وأبو زهرة [3].

– **القول الثاني:** أن المسلمين هُزموا عقب استشهاد القادة الثلاثة، قاله ابن سعد[4].

– **القول الثالث:** قال بأن كل فئة انحازت عن الأخرى، قاله ابن إسحاق وأيّده ابن القيم[5]، وهو ما عبّر عنه الأستاذ أكرم العمري واللواء محمود خطاب: **بالانسحاب المنظم الناجح**[6].

وهناك **قول رابع:** يَجمع بين القول الأول والثالث، اختاره ابن حجر، حيث يقول: «يمكن الجمع بأن يكون المسلمون **هَزَموا جانبا من المشركين**، وخشي خالد أن يتكاثر الكفّار عليهم، فقد قيل أنهم كانوا أكثر من مائة ألف، **فانْحاز بهم** حتى رجع بالمسلمين إلى المدينة»[7]؛ ومقصوده بالانحياز هو الانسحاب المنظم الناجح الذي وقع بأقلّ خسائر ممكنة.

– **تنبيه:** يُحتمل أن يكون المستشرقان لم يطّلعا على الروايات والأقوال التي تشير إلى انتصار المسلمين كما أوردها البيهقي وابن كثير وغيرهما، وأنّ الذي حملهما على القول بهزيمة المسلمين هو ما جاء في "تهذيب سيرة ابن إسحاق (لابن هشام)" –وهو من مصادرهما–: من أنّ خالدا ﷺ لما تسلّم الراية انحاز بجيشه حتى انصرف الناس؛ فلم يفهما مراد راوية ابن إسحاق؛ لأنّ المقصود بالانحياز في روايته: هو انحياز الفريقين من غير هزيمة[8]، فلا تعني رواية ابن إسحاق: هزيمة المسلمين أصلا.

---

[1]– ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 375/4. والبداية والنهاية، ابن كثير، 430/6 و436. وفتح الباري، ابن حجر، 642/7-643. وصحيح السيرة، العلي، 392.

[2]– ينظر: البداية والنهاية، 430/6 و436. وصحيح السيرة، العلي، 392.

[3]– ينظر: رحمة للعالمين، 451. وخاتم النبيين، 1144/1.

[4]– ينظر: الطبقات الكبرى، 2/ 98-99. وصحيح السيرة، العلي، 392.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 380/2. وزاد المعاد، 338/3.

[6]– ينظر: الرسول القائد، 308. والسيرة النبوية الصحيحة، 469/2؛ يقول اللواء محمود شيت خطاب "الرسول القائد، 308": «حركة الانسحاب من أصعب الحركات العسكرية، لاحتمال انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين»؛ فانسحاب خالد لم يكن هزيمة، بل كان انسحابا ناجحا بخسائر طفيفة.

[7]– ينظر: فتح الباري، 643/7.

[8]– ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 349/3-350.

وبالتالي يُستفاد من القول الأول والقول الثالث والرابع أنّه لم تقع هزيمة للمسلمين في غزوة مؤتة، وهو قول جماهير علماء السيرة والمغازي، يقول الصالحي الشامي: «أكثر الآثار تدل على أن المسلمين هزموا المشركين، وفي بعضها أن خالدا انحاز بالمسلمين»[1]؛ وفيما يلي بعض الروايات والشواهد التي تبرهن على عدم هزيمة المسلمين في المعركة -على الأقل-:

[1]- حديث أنس ﷺ: أن النبي ﷺ قال: ((أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ، -وعيناه تذرفان-: حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ؛ **حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**))[2].

الشاهد قوله ﷺ: ((**حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**))؛ ففيه دلالة على أن النصر والفتح كان بجانب المسلمين حين تولى خالد بن الوليد القيادة وتسلم الراية، ويُحتمل أن يكون المقصود بالفتح في الحديث: الانحياز بالمسلمين حتى رجعوا سالمين، بحيث تمكن خالد من الانسحاب المنظم الناجح الذي أنقذ به جيشه بخسائر طفيفة مع الإثخان في الروم وإصابتهم بقتلى وجرحى[3].

[2]- حديث عوف بن مالك ﷺ: أن رجلا من أهل اليمن رافقه في غزوة مؤتة، فقتل روميا وأخذ سلبه، فاستكثره خالد بن الوليد وأخذ منه بعض السلب، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، الحديث[4].

فدل الحديث على أن خالد بن الوليد لم يقتصر على الانسحاب بالمسلمين والنجاة بهم بل باشر القتال، وأن جيش المسلمين غنم عدّة غنائم من الروم، كان هذا السلب من بينها، ولا يمكن لِجيش مهزوم أن يعود بغنائم إن لم يحقّق تقدّما في المعركة ولو بشكر جزئي على بعض فِرَق العدوّ[5].

[3]- وجاء في مغازي موسى بن عقبة - وهي أصحّ المغازي-: « ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد **فهزم الله العدو وأظهر المسلمين**»[6].

[4]- روى ابن إسحاق: مقتل أحد قادة جيش العدو الكبار وهو "مالك بن زافلة"، وأَخْذ بعض نساء معسكره سبايا بعد مقتله[7]، مما يدلّ على أنّ المسلمين حقّقوا انتصارا وتقدّما في بعض جوانب جيش الروم كما ذكر ابن حجر ومحمد الغزالي قبل الانسحاب المنظم[8].

---

[1]- سبل الهدى، 158/6.

[2]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، 641/7.

[3]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 642/7. وصحيح السيرة، العلي، 393. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 469/2.

[4]- ينظر: **صحيح مسلم** (النووي)، كتاب صلاة الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، 95/12. **وسنن أبي داود** (عون المعبود)، كتاب الجهاد، باب في الإمام يمنع القاتل السلب، 277/7.

[5]- ينظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، 349/3. وفقه السيرة، الغزالي، 368. وصحيح السيرة، العلي، 394.

[6]- دلائل النبوة، البيهقي، 365/4. وفتح الباري، 643/7.

[7]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 381/2.

[8]- ينظر: فتح الباري، 643/7. وفقه السيرة، الغزالي، 368.

[5]– كما يشهد على عدم هزيمة المسلمين؛ أنّهم مع قلّتهم مقارنة بجيش الروم لم يستشهد منهم سوى إثنا عشر رجلا، بينما حصلت مقتلة عظيمة في جيش الروم، ولو هَزَم الرومُ المسلمين مع ذلك الفرق الشاسع جداً بين الجيشين؛ لوقعت مقتلة عظيمة في المسلمين قد تصل إلى المئات، إنّ لم يصل الأمر إلى إبادة جيشهم وأسرهم بالكامل، وكلّ ذلك لم يقع.

لذا كان الأولى بالمستشرقَيْن "بول–Buhl" و"فكا-vacca" التأمّل في روايات السيرة الخاصة بالموضوع، وأقوال أئمة هذا الشأن قبل اختيار مثل هذا القول الضعيف، وتجاهل الخلاف في القضية أصلا، إمعانا في "**منهجية الانتقاء الكيفي**"، وتحيّزا للكفار ضد المسلمين.

الحاصل: أنّه لا يمكن الجزم بهزيمة المسلمين من خلال الروايات التاريخية في هذه الحيثية، وهو ما عليه جماهير أئمة الحديث والسيرة والتاريخ، سواء كان معنى ذلك:

– أنّهم ألحقوا هزيمة بجيش الروم ولو كانت جزئية كما اختار ابن حجر.

– أو أنّهم قاموا بانسحاب ناجح بأقل خسائر، مع إلحاق خسائر فادحة بالعدو، مع ملاحظة الفرق الشاسع بين الجيشين في العدد والعدة.

لكنّ القول بأنّهم انهزموا قول ضعيف، تردّه الروايات والشواهد المذكورة، وأقوال المؤرخين وأئمة السيرة والمغازي، غير أنّ ديدن المستشرقين هو التمسك بالأقوال الضعيفة والواهية ما دامت تخدم أهدافهم، كما يعبّر اختيار هذا القول عن سوء تقدير الأمور وعدم التحليل المتكامل لمعطيات المعركة وإمكانات كلّ طرف، وما قدّمه من إنجازات، فحتى لو قلنا بأنّ جيش الروم هزم جيش المسلمين بمثل تلك المعطيات و لم يُبِدهم، فلا يُعدّ ذلك إنجازا ولا نصرا معتبرا.

رابعا- أهميّة الغزوة والردّ على عبارة "فكا-vacca": زيادة على سوء تصوّر المستشرقَيْن لنتيجة المعركة، فإنّ المستشرقة "فكا-vacca" اعتبرت "غزوة مؤتة **غير موفقة**"، وهذه العبارة تجرّ إلى الحديث عن آثار الغزوة وأبعادها زيادة على الكلام عن نتيجتها في ساحة المعركة، ويمكن القول في هذا الشأن بأنّ سريّة مؤتة –حتى مع القول بالانسحاب المنظم من غير هزيمة– **كانت حملة موفقة**؛ حقّقت جملة من الأهداف والإنجازات السياسية والعسكرية الهامة للمسلمين آنذاك، والتي منها:

أ)– عدد جيش المسلمين فيها لا يكاد يذكر أمام الجيش العدوّ الذي واجهه؛ حيث كان عدده في أقل الروايات أكثر من مائة ألف مقاتل، أي أنه يزيد على جيش المسلمين بأكثر من ثلاثين ضعفا؛ ومع ذلك كان قتلى المسلمين أقل عددا، حيث ذكرت الروايات إثني عشر أو ثلاثة عشر شهيدا فحسب،

بينما كانت خسائر جيش الروم أضعاف خسائر المسلمين مما أثّر في معنوياتهم، ولذلك لم يقوموا بمطاردة المسلمين مطاردة حاسمة تقضي على قواتهم كلّها[1].

إنّ جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل يتمكن من مواجهة جيش عرمرم قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل –في أقل تقدير– ثم يخرج من المعركة بخسائر طفيفة، ويلحق بالعدوّ خسائر فادحة، بل ويغنم منه غنائم؛ لأمرٌ يدعو الروم إلى أن يحسب له ألف حساب.

ويمكن القول إنّ إقدام جيش المسلمين بتلك الإمكانات المحدودة على مواجهة جيش الروم بإمكاناته الضخمة **أولا**، ثم صموده أم العدوّ وخروجه من المعركة دون فناءٍ **ثانيا**؛ لهو أكبر نصر وأعظم عمل يمكن أن يقوم به أي جيش في مثل هذه الحالة.

يعلّق ابن كثير على هذا الإقدام والصمود قائلا: «هذا **عظيم جدا**؛ أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة عدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن النصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلا، وقد قتل من المشركين خلق كثير»[2].

ب)– هزّت هذه الغزوة **هيـــبة دولة الروم** المتجبرة في بلاد الشام من قلوب العرب، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين[3].

ج)– كما كانت هذه الغزوة إعلاما للروم بالوجود العسكري الإسلامي[4].

د)– كانت "سرية مؤتة" معركة استطلاعية أفادت المسلمين كثيرا في معرفة خواص قوات الروم وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من قبائل العرب ومدى قوتهم، وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها، فأفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضد الروم؛ ولا تُعدّ خسائر المسلمين الطفيفة شيئا يذكر بجانب هذه الخبرات العسكرية التي أفادوها من هذا اللقاء الأول مع الروم، والتي ستنفعهم كثيرا في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم[5].

لذا فإنّ **غزوة مؤتة كانت موفقة** على مستوى الآثار العملية وتحقيق الأهداف، وإن كانت هذه الإنجازات غابت عن "فكا-vacca" فهو أمر نابع عن عدم إحاطتها المتكاملة بتداعيات الغزوة وأبعادها.

---

[1]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1144/2. الرسول القائد، محمود شيت، 309. وفقه السيرة، الغضبان، 545.

[2]– البداية والنهاية، 460/6-461.

[3]– ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 740.

[4]– ينظر: فقه السيرة، الغضبان، 545.

[5]– ينظر: الرسول القائد، 309. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 470/2.

المطلب الثالث : سرية ذات السلاسل

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**بَلِيّ**" [فقرة: 3]: «**قبيلة عربية من قبائل اليمن... في العام الثامن للهجرة أوفد النبي عمرو بن العاص، وكانت أمّه من "بلِيّ" في ثلاثمائة رجل إلى قبيلة "بليّ" وقبيلة "قضاعة"، وبينهما صلة قرابة، ولَمّا وصل عمرو إلى ذات السلاسل، وهي البئر المشتركة بين بلي وجذام والتي نسبت إليها هذه الوقعة، وجد أنّ رجاله أضعف من أن يصمدوا أمام هاتين القبيلتين، فأرسل في طلب النجدة من النبي، وأوفد النبي له فرقة جديدة يقودها أبو عبيدة ومن بين أفرادها أبو بكر وعمر**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Schleifer[2].

– وفي مادة "**قضاعة**" [فقرة: 2]: «**كان هدف الحملة التي أرسلت إلى بَلِيّ[3] في العام الثامن الهجري اكتساب ولاء هذه القبيلة وعونها للمجتمع الإسلامي، وكان من الضروري لِهذا المجتمع تأمين تعاون بَلِيّ الذين يسكنون المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية ويسيطرون على الطريق إلى المدينة ومكة، والذين كان بعضهم في خدمة الجيش البيزنطي... وكان قرارا حصيفا من النبي ﷺ أن يَجعل قائد المسلمين في هذه المعركة هو عمرو بن العاص الذي كانت أمُّه بلوية (نفس المرجع، 770) وكانت الحملة موجهة أيضا إلى مهرة وبلقين وهما أيضا قبيلتان من قضاعة كانتا تنزلان في منطقة بَلِيّ**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **م. كيستر** - M. Kister[5].

– وفي مادة "**القين** (قبيلة)": «**وأراضي بني القين كثيرة... ولعل من أدنى القبائل إليهم في الجوار قبائل كلب وبَلِيّ وعذرة، وقد كان فريق من بني القين حلفاء للنبي ﷺ حيث التمس المسلمون منهم العون في غزوة ذات السلاسل التي كانت في السنة الثامنة للهجرة**»[6]. المحرر هو: **مونتجمري وات**-Watt[7].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

تكلّم المستشرق "شليفر-Schleifer" عن بداية سرية "ذات السَّلاسِل"[8] ولم يذكر نهايتها، بينما أشار "كيستر-Kister" في مادة "قضاعة" إلى بعض أهداف السريّة، وبعض أحداثها، ولم يشر أيضا

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 169/4.

[2]– سبق في: ص723.

[3]– في المطبوع "**بِلَى**" وهو غلط، والصواب: **بَلِيّ**: على وزن "عليّ"؛ كما سبق التنبيه عليه في: ص724.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8343/27-8344.

[5]– سبقت ترجمته في: ص725.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8482/27.

[7]– سبقت ترجمته في: ص59.

[8]– **ذات السلاسل**: ماء بأرض عُذرة وراء وادي القرى، قال ابن إسحاق: أنّ اسم الماء السّلْسل، وبه سُمّيت الغزوة، وهي تقع اليوم شمال السعودية في منطقة تبوك. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 233/3. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 159.

إلى نهايتها، في حين أشار "وات-Watt" في مادة "القين" إلى التماس المسلمين للعون من هذه القبيلة في سرية ذات السلاسل، ولعلّ سبب عدم إعطاء النصوص المذكورة صورة متكاملة عن السريّة، هو أنّ الكلام عليها جاء عرضا؛ لأنّها لا تدخل في صلب موضوع المواد المحرّرة، وفيما يلي سياق **حوادث السريّة** باختصار:

في **جمادى الثانية سنة ثمان** للهجرة -بعد غزوة مؤتة- بلغ رسول الله ﷺ أن جمعا من "بليّ" و"قضاعة" -وهم من الذين كانوا مع الرومان في مؤتة- يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة، فأرسل لهم عمرو بن العاص ﷺ في ثلاثمائة من خيار المسلمين، ولما وصل إلى مكان قريب من تجمع الأعداء بلغه أن لهم جموعًا كثيرة، فبعث إلى النبيَّ ﷺ يستمده فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وأخذ عمرو يطارد القبائل الموالية للروم، حتى وصل إلى بلاد "قضاعة"[1]، وتوغّل في بلاد بَلِيّ وعُذْرة وبلقين[2]، فكان كلما انتهى إلى موضع به جمع تفرّقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَلِيّ وعُذْرة وبلقين، فلقي جمعا ليس بالكثير، فاقتتلوا ساعة وترامو بالنبل، وحمل عليهم المسلمون فهُزموا وتفرقوا، ثم عاد المسلمون منتصرين بعد أن أروهم سلطان الإسلام وسطوته[3].

وبذلك نجح عمرو ﷺ في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشام، وإرجاع أحلاف المسلمين لعهدها الأول، ودخول قبائل أخرى في حلف مع المسلمين، إضافة إلى إسلام الكثيرين منهم، فأصبح المسلمون بذلك من أقوى العناصر السياسية والعسكرية في شمال بلاد العرب[4].

وفيما يلي بعض الملاحظات على ما ورد في النصوص المذكورة عن السريّة:

---

[1]- **قُضاعة**: قبيلة كبيرة، اختلف النسابون فيهم، فقال بعضهم: هم من "حمير" القحطانية، وهم بنو: قضاعة بن مالك بن حمير، وقال بعضهم: هم من العدنانية، وهم بنو: قضاعة بن معد بن عدنان، كان لهم ملك ما بين الشام والحجاز، إلى العراق، واستعملهم الروم على بادية العرب هناك. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 3/102-103. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 3/957.

[2]- **بَلِيّ**: قبيلة من قضاعة، سبق تعرفها في: ص724.

- **وبلقَيْن**: هم بنو **القَيْن** بفتح القاف وسكون الياء، قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى القين واسمه النعمان بن جسر ابن قضاعة، مساكنهم من واد القرى إلى أطراف الشام. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 3/359. ومعجم قبائل العرب، 3/974.

- **وعُذْرة**: [بضم العين وسكون الذال]: قبيلة كبيرة من قضاعة، ينسبون إلى: عذرة بن سعد ابن قضاعة، كانت ديارهم من وَادِي القرى إلى تبوك إلى تيماء، وتقرب مِن خيبر شمالاً. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 3/359. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 159. وهذه القبائل الثلاثة "**بَلِيّ وعُذْرة وبلقين**": كلّها بطون من قضاعة.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/623. ومغازي الواقدي، 2/769-771. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/432-433.

[4]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 2/433. والرسول القائد، محمود شيت، 310.

أ)– الهدف من السريّة: كان الهدف من السريّة في الأساس كما ورد عند والواقدي وابن سعد هو: ضرب حشود قضاعة الذين اعتزموا مهاجمة المسلمين في المدينة، وكذا تأديب القبائل العربية التي اشتركت مع جيش الروم في قتال المسلمين في مؤتة[1].

و لم يكن الهدف استمالتهم فحسب كما ذكر "كيستر- Kister"، وإن كان المسلمون نجحوا من خلال هذه السرية في محالفة بعض القبائل العربية هناك، وإرجاع هيبة المسلمين في المنطقة.

ب)– ذكر المستشرق "وات -Watt" أنّ المسلمين طلبوا العون من أنّ قبيلة "القين" القضاعية في سرية "ذات السلاسل"، لكن الذي وقفت عليه في رواية الواقدي أنّ النبي ﷺ أوصى عمراً بالاستعانة بهم وبغيرهم من بعض قبائل المنطقة؛ حيث جاء في رواية الواقدي: أنّ النبي ﷺ عندما بعث عمرو بن العاص رضي الله عنه «أمَرَهُ أن يستعين بمن مَرّ به من العرب، من بلاد "بليّ، وعُذرة، وبلقين"»[2]، لكن ليس في رواية الواقدي ما يشير إلى استعانة عمرو بهم، وربّما أخذ ذلك من مصدر آخر لم أطلع عليه[3].

ج)– من أسباب اختيار النبي ﷺ لعمرو خاصة لقيادة هذه السريّة حسب رواية ابن إسحاق والواقدي: أنّ عمرو بن العاص كان ذا رحم فيهم، فقد كانت أم العاص بن وائل بَلَوِيَّة، فـــأراد رسول الله ﷺ أن يتألّفهم بعمرو[4]، وهو ما ذكره المستشرق "كيستر-Kister" في مادة "قضاعة".

وبحكم أنّ لعمرو خؤولة في تلك القبائل؛ فقد كان عمرو خبيرا بهذه المنطقة[5]، وهذا سبب آخر لاختيار عمرو بن العاص قائدا لهذه السرية.

---

[1]– ينظر: مغازي الواقدي، 770/2. وطبقات ابن سعد، 99/2-100. والرسول القائد، محمود شيت، 309-310.

[2]– مغازي الواقدي، 770/2.

[3]– خاصة وأنّ النسخة العربية "لدائرة المعارف" لم يرد فيها مصادر "وات" لِما حرّره في مادة "القين".

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 623/2. ومغازي الواقدي، 770/2.

[5]– ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 452.

المبحث الثالث : الغزوات والسرايا بعد الفتح وقبل تبوك

يتناول هذا المبحث ما ورد في "دائرة المعارف" من الغزوات والسرايا بعد فتح مكة؛ ابتداء من سريّة خالد ﷺ إلى "جذيمة" وغزوة حنين، إلى غاية غزوة الطائف، وكلّها في السنة الثامنة للهجرة (8 هـ).

المطلب الأول : سرية خالد ﷺ إلى جذيمة بعد الفتح

الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة"

– جاء في مادة"**جذيمة بن عدي**": «**وكانت القبيلة المنسوبة إليه تنـــزل الغميصاء غير بعيد من مكة، وقد اشتهر أمرها خاصة بالغزوة الغادرة التي شنّها عليها خالد بن الوليد في السنة الثامنة للهجرة، وكان عمّه الفاكه بن المغيرة قد سلبته ماله جماعة من كنانة وقتلته قبل ذلك بعشرين سنة، وسوي الأمر وأسلمت جذيمة في هذه الأثناء، غير أنّ خالداً وقد بُعث إلى جذيمة داعيا لا مقاتلا، أغراهم أولا بوضع السلاح ثم شرع في ذبحهم أخذا بثأر عمّه، فلمّا سمع النبي بالخبر أبدى غضبه الشديد، وودى لهم الدماء وما أصيب لهم من أموال**»[1]. المحرِّر هو المستشرق: **شاده** - A.Shaade[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- وقائع السرية: أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد ﷺ في شهر شوال من سنة ثمان للهجرة، بعد فتح مكة وقبل حنين، تضم ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة في يلملم[3] جنوب مكة، داعيا لَهم إلى الإسلام، فلما وصل إليهم دعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون "صبأنا صبأنا"، فقتل منهم وأسر، ثم أمر بعد حين بقتل الأسرى، وقد توقف عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف وبعض الصحابة عن قتل الأسرى، حتى قدموا على النبي ﷺ الذي تبرّأ مِما صنع خالد[4].

وفي الصحيح من حديث ابن عمر ﷺ –وهو شاهد عيان– قال: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإِسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا،

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 316/6.

[2]– سبقت ترجمته في: ص234.

[3]– **يلملم:** موضع يقع جنوب مكة بأكثر من ثلاثين كيلا (30 كلم)، كان فيه ميقات أهل اليمن ممن يأتي على الطريق التهامي. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 1398/4. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 493/2.

– **والغُمَيصاء:** موضع في البادية قرب مكة، كان يسكنه بنو جذيمة. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 214/4.

[4]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 71/8. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 87/1. ومغازي الواقدي، 875/3-876. والسيرة النبوية الصحيحة، 492/2-493.

فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ))، مرّتين»[1].

ثانيا- تفسير المستشرق لصنيع خالد ﷺ والجواب عليه: اعتبر "شاده-Shaade" فعلَ خالد ﷺ غدراً، وأطلق على هذه السيرة وصف "**الغزوة الغادرة**"، لكن النظر في سياق الروايات بإنصاف يدلّ على أنّ فعل خالد نشأ عن سوء تفاهم، وأنّ خالدا اجتهد وأخطأ، ثم إنّ النبي ﷺ عاتبه على خطأه، وأصلحه بما أمكن، لذا لا يمكن اعتبار هذه السريّة "غزوة غادرة"، ولا عمل خالد ﷺ غدْراً؛ أخذاً بالاعتبارات التالية في تفسير الحادثة:

- **الاعتبار الأول: أنّه اجتهاد خاطئ نشأ عن سوء تفاهم:** دلّ حديث ابن عمر ﷺ في البخاري: أنّ خالد بن الوليد تأوّل قولهم "صبأنا": بأنهم لا يريدون إعلان إسلامهم أو أنهم ينتقصون الإسلام بذلك فلم يحقن دماءهم، ورأى عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر أنهم عبّروا عن إسلامهم بما يعرفون، و لم تكن المصطلحات الشرعية قد اتضحت لسائر العرب آنذاك، لذلك فإن الرسول ﷺ وإن تبرأ من فعل خالد لعجلته وعدم تثبّته، فإنه لم يعاقبه و لم يعزله عن إمارة جنده، إذ أنه اجتهد فأخطأ[2].

قال الخطابي: «يُحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام؛ لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة و لم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولا، وأنكر ﷺ العجلة وتَرْك التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم: "صبأنا"»[3].

فقد وقع سوء تفاهم بين الطرفين؛ فهم لم يحسنوا التعبير عن إسلامهم كما قال ابن عمر ﷺ، وخالد ﷺ أساء فهم كلامهم، لأنّ المشركين في أول الأمر كانوا يقولون للمسلم: الصابئ، فيستعملون هذا اللفظ في مقام الذم والتعيير للمسلمين، ونظر خالد إلى أن هذه الكلمة لم تعرف للدخول في دين الإسلام، بل هي كلمةَ ذم، فأخذ يقتلهم ولا يقبل منهم تلك الكلمة[4].

قال ابن حجر: «وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها... و لم يكتف خالد بذلك حتّى يصرّحوا بالإسلام»[5].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى جذيمة، 71/8. **والنسائي**، السنن (السندي)، كتاب آداب القضاة، باب الرد على الحاكم إذا قضى بغير الحق، 628/7. **وأحمد**، المسند، 444/10. واللفظ للبخاري.

[2]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 493/2. وأيضا: فتح الباري، ابن حجر، 71/8-72.

[3]- المواهب اللدنية (مع الزرقاني)، القسطلاني، 494/3.

[4]- ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 603/6. وفتح الباري، 71/8-72. وحاشية السندي على النسائي، 628/7.

[5]- فتح الباري، 71/8.

لكن قول "شاده-Shaade": «**وسُوي الأمر وأسلمت جذيمة في هذه الأثناء**»؛ كلام يوهم أنّ إسلامهم كان معروفا قبل أن يأتيهم خالد ﷺ، وهذا أمر خاطئ مخالف لما جاء في الروايات؛ لأنّ خالدا خرج يدعوهم إلى الإسلام -كما ذكر المستشرق "شاده" نفسه- فلا معنى لدعوتهم لو أسلموا من قبل.

فخالد لم يعرف إسلامهم بتلك العبارة، ولو أيقن إسلامهم ما اجترأ على قتلهم، بل كان متأولا، ولو علم النبي ﷺ أنّه متعمد غير متأول لعاقبه[1]، يقول ابن تيمية: «فإنّ خالدًا ﷺ **لم يتعمّد** مُخالفةَ أمرِ النبي ﷺ، **ولا قَتْل مَن هو مسلم** معصوم عنده، ولكنّه أخطأ»[2].

ويشير إلى أنّه لم يعرف إسلامهم قول ابن عمر في رواية البخاري "فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا"؛ وكأنّ ابن عمر ﷺ -وهو شاهد عيان- يبيّن كيف وقع سوء التفاهم بين الطرفين، بحيث أنّهم أخطأوا في اختيار اللفظ الذي يدلّ على إسلامهم، وأخطأ "خالد" في فهم مقصودهم، وكان يجب عليه التثبّت لذا عاتبه النبي ﷺ.

هذا ما دلّت عليه رواية الصحيح، أما رواية ابن إسحاق التي اكتفى بِها المستشرق "شاده" فتفيد بأنّ: خالد بن الوليد لما وصل بني جذيمة حملوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فوضعوا السلاح فكتّفهم وقتل العديد منهم[3].

لكنّ اكتفاء "شاده -Shaade" برواية ابن إسحاق تَرِد عليه اعتراضات، وهي كالآتي:

[1]- اعتمد المستشرق "شاده" على رواية ابن إسحاق فحسب، وهي روايات مرسلة ومنقطعة، لذا عقّب ابن كثير على روايات ابن إسحاق في الحادثة بقوله: «وهذه مرسلات ومنقطعات»[4]؛ أي: لا تقوم بِها حجة[5]، بينما رواية البخاري والنسائي وأحمد مسندة عن صحابة معاصرين للحادثة، وهي الأولى والأرجح، وليس فيها ما في رواية ابن إسحاق من أنّهم لَمّا استسلموا ووضعوا السلاح قتلهم، بل تبيّن وقوع سوء فهم بين الطرفين وقع من أجله ما وقع؛ وهذا من العيوب المنهجية للمستشرقين، حيث أنّهم يعتمدون على روايات أهل المغازي خاصة ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، ويغفلون روايات كتب الحديث الصحاح والسنن والمسانيد[6]، وهي روايات مهمّة لا يمكن إعطاء صورة

---

[1]- ينظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، 518/5.

[2]- المصدر نفسه، 488/5.

[3]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 429/2.

[4]- البداية والنهاية، 601/6.

[5]- السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 494/2.

[6]- كما فعل المستشرق "بول" مثلا في مناقشة روايات دفن شهداء أحد [ص:827]، وفي روايات تاريخ غزوة المصطلق [ص:856]. [ص:856].

متكاملة عن بعض الوقائع دون الرجوع إليها، من أجل تصويب روايات أهل المغازي والسير، أو الترجيح بينها أحيانا، أو الجمع بينها أحيانا أخرى.

[2]– رواية الصحيح في الحادثة هي المقدّمة، لكونها مروية بأسانيد موصولة إلى شاهدِ عيانٍ واكب الحادثة وهو ابن عمر ﷺ، بينما روايات ابن إسحاق كلّها مرسلات ومنقطعات كما بيّن ابن كثير، والصحيح أولى من الضعيف.

يقول محمود شيت خطاب: «ومن الواضح أن الرواية الأولى، وهي الرواية التي رواها الإمام البخاري في صحيحه هي الصحيحة، لأن صحيح البخاري هو أوثق المصادر في روايته، ولأنها أقرب للعقل والمنطقق، ولأن خالدا لو اقتنع بإسلامهم لما تجرأ مطلقا على قتلهم»[1].

[3]– حتّى مع التسليم برواية ابن إسحاق فينبغي أن تفهم في سياقها الذي دلّت عليه رواية الصحيح، وهو: أنّ قَتْل خالد ﷺ لهم كان تأولا منه واجتهادًا خاطئًا، لذا تبرّأ النبي ﷺ من فعله الخاطئ، ولامه على الاستعجال وعدم التثبّت.

[4]– ثُمّ إنّ ابن إسحاق بعدما أورد الرواية السابقة، ذكر رواية أخرى تعتذر لخالد فقال: «وقد قال بعض من يعذر خالدا، إنّه قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السّهمي، وقال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام»[2].

بيد أنّ المستشرق "شاده -Shaade" لم يذكر هذه الرواية سعيا منه لإظهار عمل خالد ﷺ على أنّه غدر كما قال، وهذا مناف للإنصاف والموضوعية في عرض الروايات وتحليلها، لأنّ عرضه لبعض روايات الحادثة وإغفاله للبعض الآخر، يشير إلى تأثير الخلفيات الفكرية في طرحه، وعدم توازنه.

- **الاعتبار الثاني: أنّه تصرّف شخصيّ لا ينسب إلى الإسلام:** ينبغي أن ينظر إلى عمل خالد ﷺ على أنّه تصرف شخصيّ لا يُنسب إلى الإسلام[3]، بدليل أنّ بعض الصحابة الذين كانوا معه اعترضوا على فعله كابن عمر وعبد الرحمن بن عوف، كما أنّ النبي ﷺ أنكره أيضا.
- **الاعتبار الثالث: حسن الظنّ بخالد:** يقول أبو شهبة في ذلك: «والظن بمثل خالد أنه إنما أراد نصرة الإسلام، وأنه اجتهد في أمر وتأوّل فأخطأ، ففهم من كلامهم صبأنا أنهم يتبرأون من الإسلام، لا أنهم يريدون الإسلام، ولعل هذا هو السبب في أن النبي ﷺ عذره و لم يعزله، وإن كان تبرأ من فعله إلى الله، وما كان رسول الله يداهن، أو يخاف في الحق لومة لائم»[4].

---

[1]– الرسول القائد، 346.

[2]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 430/2.

[3]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1219/2.

[4]– السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، 465/2.

ويقول ابن كثير في هذا المعنى: «فإنّما **أرادَ خالد** بن الوليد **نُصرة الإسلام وأهله**، وإن كان أخطأ في أمرٍ، واعتقد أنّهم ينتقصون الإسلام بقولهم "صبأنا صبأنا"، و لم يفهم عنهم أنّهم أسلموا، فقَتَل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيّتهم... ومع هذا لم يعْزِله رسول الله ﷺ، بل استمر به أميرا، وإن كان قد تبَرّأ منه في صنيعه ذلك، ووَدَى ما كان جَناه خطأً في دم أو مال»[1].

- **الاعتبار الرابع: تبَرُّأ النبي ﷺ من فعله:** يكفي في عدم تضخيم الحادثة واعتبارها غـــدراً أنّ النبيّ ﷺ تبرأ من صنيع خالد، حين قال: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ)) مرتين أو ثلاثة[2].
- **الاعتبار الخامس: دفع ديات القتلى:** كما عمل النبي ﷺ أن يرأب الصدع، ويصلح خطأ خالد، فدعا عليّ بن أبي طالب، وأمره بدفع ديات القتلى جميعا، ففعل ذلك وزادهم فيها تطييبا لنفوسهم وبراءة من دمائهم، وهذا يتفق مع أحكام الإسلام في قتل الخطأ[3].

وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبيّ ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن[4].

المطلب الثاني : مقدمات غزوة حنين

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**" [فقرة: 87]: «**وبعد استسلام مكة بزمن قصير بدأت قبائل هوزان في وسط شبه الجزيرة في الاستعداد لِمعركة حاسمة، وكانت لا تزال هناك مدينة الطائف وثيقة الصلة بِمكة لا سلطان له عليها**»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[6].

– وفي مادة "**مالك بن عوف**"[فقرة: 1]: «**وفي العام الثامن للهجرة (629 هـــ) كان محمد ﷺ يستعدّ على رأس قوّة كبيرة لِمهاجمة مكة، وقد أقلعت**[7] **هذه الأنباء هؤلاء الذين يعيشون في جبال السروات (السراة)، وتساءلوا فيما بينهم ألن يحاول الرسول ﷺ عندما يصبح سيد مكة أن يغزو بلادهم، وفي هذه الأثناء نجح مالك بن عوف في أن يضم –من أجل الدفاع المشترك– أغلبية قبائل "قيس" الذين يستقرون على حدود**

---

[1]– البداية والنهاية، 603/6.

[2]– عند: **البخاري**، سبق تخريجه قريبا في: ص916.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 430/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 493/2.

[4]– السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، 465/2.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9150/30.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

[7]– هكذا في المطبوع، ولعلّ الصواب: "أقلقت"، والله أعلم.

نجد والحجاز، وانضمت ثقيف بقواتها إلى حلفائها من هوزان»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس**-Lammens[2].

– وفي مادة "**حنين**"[**فقرة**: 1]: «**... وقد شهد هذا الوادي الوقعة الشهيرة التي حدثت بعيد فتح مكة، وهي ثاني وقعة تذكر بالاسم في القرآن (سورة التوبة الآيات 25–26)، ذلك أن قبائل هوازن المتحالفة لم تشأ التمهل انتظاراً لِما يُسفر عنه هذا النضال الأخير، فحشدت جميع ما لديها من الجند، وعسكرت في حنين**». المحرر هو: **لمنس** - Lammens.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا- أسباب الغزوة: تشابكت مصالح "ثقيف" و"هوازن"[3] مع مصالح قريش تشابكاً وثيقاً بحكم بحكم الجوار، فمكة والطائف قريتان من بعضهما بينهما تسعون كيلا فقط، كما كان القرشيون يمتلكون بالطائف البساتين والدور حتى سميت الطائف "بستان قريش"؛ فلا غرابة وقد تشابكت علاقة قريش وهوازن بهذا الوثوق أن **يؤول إليها حمل راية الشرك ضد الإسلام بعد فتح مكة**، لتملأ الفراغ إثر سقوط زعامة قريش لِمعسكر الشرك في الجزيرة العربية[4].

– **ويتلخص السبب المباشر لهذه الغزوة**: في أنّه لَمّا فتح الله مكة على رسوله ﷺ والمؤمنين، ودانت له قريش؛ **فزعت هوازن وثقيف** –وكانت حدودهما متصلة بمكة– وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، فقرّروا القيام بِمهاجمة المسلمين قبل أن يهاجموهم، وأخذت "هوازن" تحشد قواتها في منطقة وادي "أَوْطاس"[5]، وكان يقودهم مالك بن عوف النصري، وقد انضمت إلى هوازن قبائل أخرى من "قيس عيلان" وغيرها، وتخلف عنه من هوازن كعب وكلاب[6].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8976/29–8977.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– "**هوازن**" و"**ثقيف**": **هوازن** قبيلة عربية مشهورة من عرب الشمال، تُنسب إلى: هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، تفرعت منها فروع كثيرة منها ثقيف.

واستقرت **ثقيف** في مدينة الطائف الحصينة وما حولها، في حين انتشرت بطون هوازن الأخرى في تهامة على ساحل البحر الأحمر من حدود بلاد الشام الجنوبية إلى حدود اليمن الشمالية. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 87/1. ومعجم قبائل العرب، عمر كحالة، 1231/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 489/2.

[4]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 489/2–490.

[5]– **أوطاس**: وادٍ في ديار هوازن، يقع شمال شرقي مكّة، ويبعد عنها قرابة (190 كلم). ينظر: معجم ما استعجم، 212/1. ومعجم ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 34.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/2–438. ومغازي الواقدي، 885/3–886. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 467/2.

ومما يدل على أنهم أرادوها موقعة فاصلة حشدُهُم للأموال والنساء والأبناء، حتى لا يفرّ أحد دون ماله وأهله[1].

سمع الرسول ﷺ بأخبار تجمع "هوازن وثقيف" لمهاجمة المسلمين، فأرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه إلى منطقة تجمّع المشركين للتأكد من صحة تلك الأخبار؛ وعاد عبد الله الأسلمي من واجبه ليخبر المسلمين بأن قبائل هوازن وثقيف قد أنجزت حشدها في منطقة وادي أوطاس، وأنّها تنوي مهاجمة المسلمين، فقرر الرسول ﷺ مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين، وبدأ بإنجاز الاستعدادات الضرورية للتحرك[2].

ويبدو أنّ استعداد "هوازن وثقيف" لِمواجهة النبي ﷺ بدأ عند سماعهم بخروجه لفتح مكّة، بحيث سبّب هذا التحرك "لِهوازن" الخوف على ديارها من غزو المسلمين، خاصّة أنّه لم يتبيّن لهم على وجه التحديد وجهة جيش المسلمين الذي خرج من المدينة، بسبب الكتمان الذي أحاطه المسلمون بخصوص هدف تحرّكهم هذا[3]، ولعلّ هذا التهيؤ هو ما أشار إليه المستشرق "لَمنس- Lammens" في مادة "مالك بن عوف" بقوله: «**كان محمد ﷺ يستعدّ على رأس قوّة كبيرة لِمهاجمة مكة، وقد أقلقت هذه الأنباء هؤلاء الذين يعيشون في جبال السروات**»؛ أي: أنّهم استعدّوا للمواجهة قبل الفتح.

يشهد لذلك رواية الواقدي التي تذكر: أنّ "هوازن" و"ثقيف" أرسلوا عينا لهم لمعرفة إن كان المسلمون سيتوجهون إلى قريش أم هوازن، وأنّ "هوازن" اتخذت موقف الاستعداد للمواجهة بحشد جموعها منذ أن تحرك المسلمون من المدينة، وقد تصورت أنها المقصودة[4].

ثانيا- تاريخها: تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم **الخامس من شوال سنة ثمان** للهجرة، بعد فتح مكة بحوالي خمس عشرة ليلة [وكان فتحها في: 15 رمضان]، ووصلوا إلى حنين في العاشر من شوال[5].

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 494/2.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 439/2-440. ومغازي الواقدي، 893/3. والرسول القائد، محمود شيت، 363-364.

[3]- يدلّ على هذا التكتّم ما جاء في: مغازي الواقدي، 802/2-803.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، 802/2. وتاريخ الطبري، 70/3. والسيرة النبوية الصحيحة، 491/2-492.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 5/7. وفتح الباري، ابن حجر، 35/8.

المطلب الثالث : وقائع الغزوة ونهايتها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 88]: «وقد قاتل النبي ﷺ هوازن وحلفاءها عند حنين على الطريق إلى الطائف، وبدا في مستهل المعركة أن قوات النبي كادت تواجه كارثة قاضية، وكان السبب الرئيسي في ذلك تصرفات مريبة من عدد من المسلمين الجدد، غير أن بعض أتباعه نَجحوا بعد ذلك في إرجاع الفارين وإلحاق الهزيمة بالعدو ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة (25 و26)»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[2].

– وفي مادة "**[أبو] سفيان**"[فقرة: 9]: «ويحتمل أنه لَما ساءت الأمور لَحظة في وقعة حنين أمل أبو سفيان أن يتخلص من النبي، ولكنه لم يتعلق البتة بأهداب هذا الأمل»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl.

– وفي مادة "**مالك بن عوف**"[فقرة: 2]: «... وكانت النتيجة هزيمتهم في حنين، وكان قائدهم مالك قد خرج بفكرة مشئومة وهي الإتيان بالنساء والأطفال والقطعان مع المحاربين والمقاتلين، وقد وقعت هذه الغنائم الهائلة كلها في أيدي المسلمين»[4]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens[5].

– وفي مادة "**حنين**"[فقرة: 2]: «... فحشدت [أي: هوازن] جميع ما لديها من الجند، وعسكرت في الدروب المشرفة على سهل حنين، وعمد مالك بن عوف قائدهم إلى جلب أسر المحاربين وقطعانهم إلى هنالك اعتقادا منه بأن ذلك يثبت من أقدام جنده فلا يمكن قهرهم.

ويوحي لنا القرآن بجملة ملاحظات عن سير هذه الوقعة، فهو ينبئنا بأن المسلمين هُزموا في أول المعركة هزيمة تامة على الرغم من كثرة عددهم، ولم يسلم جيش النبي إلا بعد أن أنزل الله جنودا من عنده لم ترها العين... ويدخل الطريق بعد أن يغادر واحة حنين الضيقة في ثنيّات متعرجة صالحة لأن تكون مكامن ومخابئ، ومن ثم كمن مالك بن عوف في هذه الدروب انتظارا لِمقدم المسلمين، وأقبل هؤلاء في غير نظام دون أن يتوقعوا مباغتة العدو لهم، فدهمتهم خيالة البدو بهجوم مفاجئ وانهالت عليهم

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9150/30-9151.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 356/1.

[4]– المصدر نفسه، إص3، 8976/29-8977.

[5]– سبقت ترجمته في: ص211.

السهام من كل ناحية فولى جنود النبي مدبرين ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (سورة التوبة، الآية **25**) **وتركوا النبي وحده فترة من الزمن فأحاط به خطر داهم، وتجد الأحاديث غضاضة كبيرة في التعليق على هذا التخلي عن النبي الذي ينطوي على الجبن، وهي تلقي تبعة ذلك على البدو المتحالفين من قبيلة سُليم وعلى الطلقاء من أهل مكة الذين كان الإسلام لم يتغلغل في قلوبهم، وتختلف الروايات في وصف المعركة باختلاف أسانيدها.**

وقد كان النصر حليف المسلمين آخر الأمر، وشاهد ذلك ما جاء في القرآن... ولكن كيف تم لجند المسلمين الغلبة والنصر؟ ذلك ما يحدثنا عنه القرآن: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ **[التوبة: 26]، وقد كان خالد بن الوليد قائد الفرسان من المسلمين القلائل الذين جرحوا في ذلك اليوم، ولا شك أنه كان يخاطر بحياته، ومن ثم يدعونا واجب الإنصاف إلى أن ننسب إليه الفضل في انتصار المسلمين، وكذلك ينسب الرواة من أهل المدينة هذا الفضل إلى الأنصار»**[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens.

الفرع الأول : التحليل والمناقشة

أولا- الخروج إلى حنين وتعبئة الجيشين: خرج النبي ﷺ إلى "حنين"[2] في **اثني عشر ألف** مقاتل؛ منهم العشرة الآلاف الذين كانوا في فتح مكة، وألفان من مسلمة الفتح الذين سمّوا بالطلقاء، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام[3].

أما جيش المشركين: فكان تعداده أزيد من عشرين ألف مقاتل، أي: حوالي ضعف عدد المسلمين وأكثر[4].

سار جيش المسلمين حتى وصل ليلا إلى وادي حنين، وكان مالك بن عوف قد سبقهم فأدخل جيشه في وادي حنين، وكانوا قد أتوا بنسائهم وأموالهم وإبلهم معهم بناء على أمر رئيسهم مالك بن عوف، وذلك حتى لا يفر أحد منهم عن ميدان المعركة[5].

---

[1]- دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 132/8-134.

[2]- **حنين:** هو وادٍ يقع بين مكّة والطائف، ويبعد عن مكة حوالي (30 كلم) شرقا. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 471/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 107.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 440/2. وتاريخ الطبري، 73/3. وإمتاع الأسماع، المقريزي، 388/8.

[4]- ينظر: مغازي الواقدي، 893/3. وفتح الباري، ابن حجر، 37/8. وشرح الزرقاني على المواهب، 505/3.

[5]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 438/2 و442. ومغازي الواقدي، 895/3.

لكنّ ذلك كان خطأً فادحا من "مالك بن عوف" -كما ذكر "لمنس-Lammens" في مادة "مالك بن عوف"- مع أنّ "دريد بن الصمّة" الذي كان من أهل الرأي والحرب في هوازن: أنكر عليه ذلك، فلم يأخذ "مالك" بمشورته، فوقع ما جاء به غنيمة وافرة للمسلمين بعد هزيمة "هوازن"[1].

لقد كانت خطّة مالك بن عوف تقوم على احتلال هضاب وادي "حنين" ومضايقه، والجبال المشرفة على الوادي قبل دخول المسلمين إليه، من أجل مباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم أثناء تقدّمهم في الوادي[2]، وهو ما ذكره المستشرق "لَمنس" في مادة "حنين/ فقرة: 2".

ثانيا- وقائع المعركة: يمكن تقسيم المعركة إلى جولتين، تراجع المسلمون في الأولى، وانتصروا في الثانية.

[1]- الجولة الأولى: سبقت هوازن المسلمين إلى وادي "حنين"، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في جنباته، ثُمّ دخلت قوات المسلمين وادي "حنين" قبل انبلاج الفجر، وكان واديا أجوف منحدرا ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا، كأنهم يسيرون إلى هاوية؛ فلما استقرت أكثر قوات المسلمين في الوادي، رماهم المشركون بوابل من السهام، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمي ولا اتجاهه، لأن الظلام كان مخيّما وقتذاك، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية في شِعاب الوادي ومضايقه؛ فاضطربت صفوفهم[3]، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى، وانكشفت خيالة المسلمين ثم المشاة، وفرّ الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى لم يصمد مع الرسول ﷺ سوى فئة قليلة صمدت بصموده، فقد بقي الرسول ﷺ ثابتاً في مكانه، ومعه نفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، وحين رأى النبي ﷺ المهاجمين يتقدمون وجيشه يتقهقر، ظهرت شجاعته التي لا نظير لها، فقد طفق يدفع بَغْلته قِبَل الكفار وهو يقول: "**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**"[4]، وضرب رسول الله ﷺ للجيش مثلا أعلا في الشجاعة والإقدام.

ففي الصحيحين: أنّ رجلا سأل **البراءَ بن عازب** رضي الله عنه: "أَكُنتم فرَرتُم يا أبا عمارة يوم حنين؟" فقال البراء رضي الله عنه - وهو أحد شهود المعركة- متحدّثاً عن هذه المرحلة من القتال: «لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ ولكنّه خرج شبّانُ أصحابِه، وأخِفّاؤهم حسَّراً ليس بسلاح، فأتَوا قوما رماة جَمْع هوازن وبني نصر، **ما يكاد يسقط لَهم سهم، فرشقوهم رشقا ما يكادون يُخطئون**، فأقــبلوا هنالك

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/2-438. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1254/2-1255.

[2]- ينظر: مغازي الواقدي، 895/3. والبداية والنهاية، ابن كثير، 15/7. والرسول القائد، محمود شيت، 365.

[3]- فقوّات المسلمين إنّما اضطربت بعد أن فوجئت بالسهام من كلّ جانب داخل الوادي [كما ذكر ابن إسحاق في "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 443/2"]؛ لا أنّها كانت "**في غير نظام**" منذ البداية كما توهّم المستشرق "لَمنس".

[4]- ينظر: السيرة (لابن هشام)، 442/2-443. ومسند أحمد، 274/23. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 501/2.

إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقودُ به، فنَزل واستنصر، ثم قال: ((**أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**))، ثُمّ صَفَّ أصحابَه»[1]؛ كما يصّور البراء شجاعة الرسول ﷺ وبأسه فيقول: «فما رُئِيَ مِنَ النّاس يومئذ أشدُّ منه»[2]، ويقول: «كنّا والله إذا احْمَرّ البأسُ نتّقي به، وإنّ الشّجاع مِنّا لَلّذي يُحاذي به»؛ يعني النّبيَّ ﷺ[3].

[2]- الهزيمة في الجولة الأولى وحكمتها وأثر الطلقاء فيها:

أ)- ما حصل للمسلمين في بداية غزوة حنين من انكسار أمام الأعداء، كان مصدره أمر الله وقدَره؛ فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يذيق المسلمين مرارة الهزيمة أولا مع كثرة عددهم وعدّتِهم، وذلك ليطأطئ رؤوس أقوام رفعها الإعجاب بكثرتهم وقدرتهم القتالية، فأدّبهم الرب عز وجل ليعلّمهم أن النصر الحقّ إنّما هو من عند الله سبحانه وتعالى، لا بقوّتهم أو كثرتهم[4].

ب)- السبب الرئيسي الملموس لهزيمة الجولة الأولى أشار إليه المستشرق "بول" في قوله "**وكان السبب الرئيسي في ذلك تصرفات مريبة من عدد من المسلمين الجدد**"، وهؤلاء المسلمون الجدد هم "الطلقاء"[5] الذين خرجوا مع النبي ﷺ، وكان لوجود الطلقاء في جيش المسلمين آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام و لم يتخلصوا من كل الرواسب الجاهلية المستقرة في أعماقهم، فصدرت عنهم تصرّفات كان لَها آثار سلبية، منها:

- ما أصاب المسلمين من إعجاب بكثرتهم كما بيّنت الآية الكريمة؛ فكان ذلك الشعور بالزهو لكثرتهم سبباً لإدبارهم في أول المواجهة[6].

قال ابن القيّم: «ولِيُبيِّن سبحانه لِمن قال: "لن نُغلبَ اليوم عن قلّة"؛ أنّ النّصرَ إنّما هو من عنده، وأنّه مَن ينصُرُه فلا غالب له، ومن يَخذُله فلا ناصر له غيره، وأنّه سبحانه هو الّذي تولّى نصر رسوله ودينه، لا كثرتُكم التي أعجَبَتْكم، فإنّها لم تغنِ عنكم شيئا»[7].

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب من صفّ أصحابه عند الهزيمة، 128/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، 165/12-166. واللفظ للبخاري.

[2]- زيادة في لفظ: **البخاري** "الصحيح (الفتح)، 198/6".

[3]- زيادة في لفظ: **مسلم** "الصحيح (النووي)، 169/12-170".

[4]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 418/3. وفتح الباري، ابن حجر، 61/8.

[5]- **الطلقاء**: هم الذين أسلموا يوم فتح مكة سمو بذلك لأن النبي ﷺ مَنَّ عليهم وأطلقهم وكان في إسلامهم كثير منهم ضعف. ينظر: فتح الباري، 60/8. وشرح الزرقاني على المواهب، 498/3.

[6]- ينظر: تفسير الرازي، 19/16. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 497/2-498.

[7]- زاد المعاد، 419/3.

– كان خروج الأغلبية من الطلقاء وبعض الأعراب للحصول على الغنائم، والنظر لمن تكون الغلبة، فلم يشعروا أنهم يدافعون عن قضية ومبدأ، إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام، و لم يتذوقوا طعم الإيمان ولا حب الجهاد في سبيل الله، وكان منهم المقيم على الكفر كصفوان بن أميّة وغيره، وكان لذلك الأثر الكبير في هزيمتهم أوّل المعركة[1]، وتراجعهم الذي جرف معه جلّ قوات المسلمين، لكن النبي ﷺ تدارك الموقف بعد ذلك واستطاع مع المخلصين من المسلمين وأصحاب الإيمان الراسخ أن يثبتوا ويغيّروا الهزيمة إلى نصر مبين.

– أنّ بعض الشبان والطلقاء تعجّلوا بالخروج دون استكمال عدّة القتال، فكان بعضهم حاسري الرءوس، و لم يحملوا معهم السلاح الكافي، و لم يحسبوا للأمر حسابه كما ينبغي، ومنهم من لم يكن على قدر كافٍ من التدريب الحربي؛ فانكشفوا أمام هول المفاجأة، ودقة الرُّماة من هوازن، وأخذوا بالفرار[2]، كما جاء مصرّحا به في حديث البراء بن عازب ﷺ السابق حين قال: «ولكنّه خَرج شُبّان أصحابِه، وأَخِفَّاؤُهم حُسَّرًا ليس بِسلاحٍ ...».

وبِهذا يَتوجّه «**إلقاء تبعة الفرار على البدو والطلقاء الذين كان الإسلام لم يتغلغل في قلوبهم**» الذي ذكره "لَمنس -Lammens" في مادة "حنين"، أمّا قوله «**وتركوا النبي وحده فترة من الزمن فأحاط به خطر داهم، وتجد الأحاديث غضاضة كبيرة في التعليق على هذا التخلي عن النبي الذي ينطوي على الجبن**»، فهو كلام غير دقيق في وصف الأحداث، فتَراجُع المسلمين لا يستلزم الجبْنَ من جميعهم بالضرورة كما زعم "لمنس -Lammens"، لأنّ المنسحبين في مقدمة الجيش كانوا من الأعراب والطلقاء وغيرهم، لَمّا تراجعوا جرفوا أمامهم قوات المسلمين الأخرى، فانكشف بقية الجيش، ومع ذلك صَمَد الرسول ﷺ وصمدت بصموده فئة قليلة[3]، لكن المستشرق "لَمنس" حاول التمويه على هذا الصمود و لم يذكره، وجاء بسياق مضطرب للأحداث، ويُلاحظ أنّه عمل على إبراز مظاهر ضعف المسلمين في المعركة، واستعمل لذلك عبارات مغرضة كقوله "**وأقبل هؤلاء في غير نظام**"، وقوله "**فولى جنود النبي مدبرين**"، وفي مقابل ذلك عمل على إخفاء وإهمال ما فيه إظهار لقوّتهم وقوّة النبي ﷺ وإقدامه، اعتمادا على **منهجيّة الانتقاء الكيفي**.

أمّا ما ذكره "بول -Buhl" عن أبي سفيان بن حرب ﷺ في قوله «**ويحتمل أنه لَما ساءت الأمور لحظة في وقعة حنين أمل أبو سفيان أن يتخلص من النبي**»؛ يشير بذلك إلى ما روي من قول أبي سفيان

[1]– ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 25/7. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 498/2.

[2]– ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 118. والسيرة النبوية الصحيحة، 500/2.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 443/2. والرسول القائد، محمود شيت، 365. والسيرة النبوية الصحيحة، 500/2.

لَمّا رأى إدبار المسلمين في الجولة الأولى: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر»[1]، بمعنى: أن المسلمين هُزموا هزيمة لا قائمة لهم بعدها؛ فإنّ ذلك وقع منه وهو حديث عهد بالإسلام، حيث كان من المؤلّفة قلوبهم والطلقاء الذي أسلموا في الفتح، و لم يكن إيمانه آنذاك قويًّا، لأنّ إزالة رواسب الجاهلية وتربية الجموع لا تتمّ بين عشية وضحاها[2]، فكانت لحظة ضعف إيمان عابرة، لم تلبث أن تبدّدت بعد نصر الله تعالى لنبيّه ﷺ، ثم إنّ أبا سفيان حَسُن إسلامه بعد ذلك.

[3]- الجولة الثانية: ثَبَت الرسول ﷺ في مكانه، وثَبَت معه مجموعة من أصحابه كانوا يحيطون به، من بينهم: عمه العباس، وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر وعمر وعلي ﷺ، وكان الرسول ﷺ ينظر إلى إدبار المسلمين، فأخذ ينادي الناس ويدعوهم للثبات وهو يدفع بغلته لِلأمام، ويقول: ((أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟! هَلُمُّوا إِلَيَّ؛ أَنَا رَسُولُ اللهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ)) كما في **حديث جابر** ﷺ[3]، فلا يرد عليه أحد بجواب، لأن الارتباك كان سائدا في صفوف المسلمين إلى أقصى الحدود.

ثُمّ أمر النبيُّ ﷺ عمه العباس -وكان جهوري الصوت- بالنداء؛ فنادى الناسَ للعودة، ثم خص الأنصار وأصحاب الشجرة بالنداء، وكرر العباس النداء؛ حتى تجاوبت أصداؤه في جنبات الوادي، وسمع النداءَ المهاجرون والأنصارُ، فتلاحقوا نحوه حتى صاروا ثمانين أو مائة رجل، واجتمعوا حول الرسول ﷺ وهم يهتفون: "يا لبيك، يا لبيك"، فصفّهم رسول الله ﷺ واستقبل بهم المشركين، فقاتلوهم قتالا شديدا، وبدأوا جولة جديدة مليئة بالشجاعة والصدق والعزيمة والإيمان وحسن التوكل، وكان النبي ﷺ يدعو الله تعالى ويسأله النصر، وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد، وهناك بدأوا بالهجوم المضاد على المشركين؛ فنظر الرسول ﷺ إلى ساحة المعركة، وقد احتدم القتال، فقال: ((الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ))[4]، ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: ((شَاهَتِ الْوُجُوهُ))[5]؛ فما خلق الله إنسانا منهم إلا ملأ عينيه ترابا من تلك القبضة، فلم يزل حدهم كليلا وأمرهم مدبرا؛ و لم تصمد هوازن وثقيف طويلاً في هذه الجولة الثانية من القتال، وانهارت

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 444/2. وتاريخ الطبري، 74/3. ودلائل النبوة، البيهقي، 128/5.

[2]- ينظر: شرح النووي على مسلم، 163/12. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 498/2.

[3]- أخرجه: **ابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 442/2-443. و**أحمد**، المسند، 274/23. والحديث حسن كما ذكر الأرنؤوط في تحقيق المسند، وإبراهيم العلي في "صحيح السيرة، 433".

[4]- من حديث العباس ﷺ عند "**مسلم**" و"**ابن إسحاق**" الآتي ذكره في الصفحة الموالية، وتخرجه هناك.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، 171/12. من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

معنوياتهم وتراجعوا بعدما أوقع المسلمون بهم خسائر في الأرواح، وعندما رأوا أنهم لا يستطيعون صدّ هجوم المسلمين، فرّوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم أموالاً كثيرة غنيمة للمسلمين[1].

وهذا **العباس** عمّ الرسول ﷺ - وهو شاهد عيان- يصف أجواء المعركة بجولتيها فيقول: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء... فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: ((أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ[2]))، فقال العباس -وكان رجلا صَيِّتاً -: فقلت بأعلى صوتي: "أين أصحاب السّمُرة؟" قال: فوالله لَكأنّ عَطْفَتهم حين سمعوا صوتي عَطْفة[3] البقر على أولادها، فقالوا: "يا لبيك، يا لبيك"، قال: فاقتتلوا والكفّارَ، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: ((هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ[4]))[5]، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرَمَى بِهنّ وجوه الكفار، ثم قال: ((انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ))، قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته؛ فما زلت أرى حدّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً»[6].

[4]- تشويش المستشرقَيْن "لَمنس" و"بول" على ما قام به النبي ﷺ في المعركة: حاول كلّ من المستشرقَيْن "لَمنس -Lammens" و"بول-Buhl" التشويشَ على العمل العظيم الذي قام به النبي ﷺ في جمع جيش المسلمين بعد فرار جملة منه، وفي تحويل الهزيمة إلى نصر مبين، فنسب "لَمنس -Lammens" فضل قلب نتيجة المعركة إلى خالد بن الوليد ﷺ، حيث قال في مادة "حنين": «**ومن ثَمّ يدعونا واجب الإنصاف إلى أن ننسب إليه** [أي: خالد بن الوليد] **الفضل في انتصار المسلمين**»، بينما نسبه "بول -Buhl" إلى بعض أصحابه دون تحديد، فقال في "محمد ﷺ": «**أن بعض أتباعه نَجحوا في إرجاع الفارين وإلحاق**

---

[1]- تنظر هذه التفاصيل في: صحيح مسلم (النووي)، 160/12-172. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 443/2-445. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 366-367. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 501/2-502.

[2]- **السمرة:** هي شجرة بيعة الرضوان، ومعناه: ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية. ينظر: شرح النووي على مسلم، 162/12.

[3]- أي: حنوّ؛ بمعنى: أنّ إقبالهم على الرسول ﷺ، كان كحنوّ الأمهات على الأولاد. ينظر: شرح الزرقاني على المواهب، 509/3.

[4]- **الوطيس:** وهو: التنور، أو حجارة مدوّرة يُوقد تحتها النار، ويُشوى فيها اللحم، إذا حميت لم يقدر أن يلمسها، فضرب مثلا لاشتداد الحرب. ينظر: شرح النووي على مسلم، 164/12.

[5]- وفي لفظ ابن إسحاق "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 445/2": ((الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ)).

[6]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، 160/12-164. **وأحمد**، المسند، 274/23. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 444/2-445. واللفظ لِمسلم.

الهزيمة بالعدو»، لكنّ **الآية الكريمة التي ذكرها كلا المستشرقان**، أرجعت الفضل - بتوفيق الله- في ذلك إلى الرسول ﷺ أولا، ثُمّ إلى أتباعه من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 25-26]، كما بيّنت الروايات الموثّقة من شهود العيان -التي سبق ذكرها- بالتفصيل من حديث "البراءَ بن عازب" و"العباس" و"جابر" ﷺ، أنّ النبي ﷺ هو من ثبت في المعركة؛ وكان ثباته ﷺ حافزا لأصحابه، حتّى قال البراء بن عازب ﷺ: «فما رُئي من النّاس يومئذ أشدُّ منه [أي: من الرسول ﷺ]»؛ «وبفضل ثبات النبي ﷺ كان النصر بعد الهزيمة، ولولا ثبات الرسول لما تَجمّع الأبطال حول سيدهم، ولما ثاب المسلمون إلى نبيّهم»[1]، فهو الذي عمل على إعادة جمع صفوف المسلمين وترتيبها، ووقف ثابتا في ساح الوغى ينادي الناس ويحثّهم على الرجوع كما في **حديث البراء وحديث جابر** السابقَيْن، وهو مَنْ أمر العباس بالنداء في الناس من أهل الشجرة، ثم الأنصار، كما سبق في **حديث العباس** ﷺ؛ وبالتالي فإنّ الفضل الأكبر في النصر لا يرجع لِخالد، ولا للأنصار كما ذكر "لَمنس-Lammens"، ولا لبعض أصحابه كما ذكر "بول-Buhl"؛ وإنّما للنبي ﷺ نفسه، ثُمّ لتلك الزمرة القليلة التي ثبتت معه، لأنّهم إنّما ثبتوا بثباته ﷺ.

قال ابن حجر: «وإذا كان رأس الجيش قد وطّن نفسه على عدم الفرار، وأَخَذ بأسباب ذلك؛ كان **ذلك أدعى لأتباعه** على الثبات»[2].

لكنّ المستشرقَيْن "لَمنس" و"بول" لم يذكرا الواقعة بالتفصيل الذي جاء في "الصحيحين" و"سيرة ابن هشام" وغيرها؛ فهما يجتهدان في سلب كلّ فضيلة للنبي ﷺ، ولو كان ذلك بتعسّف وتدليس ظاهر؛ إمعانا منهما في التعمية على كلّ ما فيه تعظيم للنبي ﷺ وبيان لشجاعته العظمى، وقوة إيمانه بنصر الله عزّ وجلّ، وعدم فراره من الزّحف، كلّ تلك المعاني وغيرها حاولا كعادتهما عدم إظهارها، وفق "**منهجية الانتقاء الكيفي**".

---

[1]- السيرة النبوية، أبو شهبة، 471/2.

[2]- فتح الباري، 41/8.

المطلب الرابع : غزوة الطائف وغنائم حنين

الفرع الأول : مطاردة المنهزمين وحصار الطائف

أولا- عرض نصوص المستشرقين :

– جاء في مادة "**الطائف**": «**بعيد هزيمة هوازن في حنين، حاصر النبي الطائف ولم يفز منها بطائل**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[2].

– وفي مادة "**[أبو] بكرة**": «**وكان أول حياته عبداً بالطائف، وعندما حاصر النبي هذه المدينة عام (8 هـ/631م) ودعا عبيد ثقيف إلى نصرته، لبّى أبو بكرة النداء و بذلك أعتق**»[3].

محرر المادة هو المستشرق: **هونسما** – M. Houtsma[4].

– وجاء في مادة "**مالك بن عوف**"[فقرة: 3]: «**وقد حاول مالك أن يتحصّن في [لِـيّة][5]، على بعد ساعات قليلة جنوبي الطائف، حيث كان له حصن هناك... واستطاع الرسول ﷺ أن يدمر قلعة مالك بسهولة ويسر، وعندما علم مالك باقتراب المسلمين، وجد من الحكمة أن يحتمي وراء تحصينات الطائف**»[6].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens.

– في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 89]: «... **غير أن جنده غير المدربين عجزوا عن الاستيلاء على الطائف بسبب دفاعاتها القوية**»[7].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[8].

ثانيا- التحليل والمناقشة: تحدث المستشرقون في هذه النصوص عن "**غزوة الطائف**" التي كانت بعد حنين مباشرة، وفق سياق ما يتكلّمون عنه في المادّة المحرّرة، ومن باب ربط الوقائع ببعضها أذكر هنا ما وقع من قتال بعد حنين وقبل الطائف حتّى يكون تسلسل الأحداث واضحا وبيّنا.

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 56/15.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 315/1.

[4]– سبقت ترجمته في: ص49.

[5]– في المطبوع: "ليا"، والتصحيح من: "تهذيب السيرة (لابن هشام)، 482/2" و"معجم البلدان، الحموي، 30/5"، ولعلّ المترجمين وقعوا في هذه الخطأ في ترجمة هذه الكلمة من اللغة الأجنبية إلى العربية، والكلمة باللغة الأجنبية لا يمكن تمييز إن كان في آخرها ألفا أو تاء، وعذر المترجمين في ذلك –كما سبق مراراً– صعوبة تحقيق جميع المصطلحات التي وردت في "الدائرة" من علوم كثيرة ومختلفة، زيادة على مشقّة الترجمة نفسها، لكن لَمّا كان بحثي متخصّصا في مجال معيّن، قدّمت هذه التصحيحات للفائدة.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8977/29.

[7]– المصدر نفسه، إص3، 9151/30.

[8]– سبقت ترجمته في: ص150.

[1]– مطاردة الفارّين إلى أوطاس ونخلة والطائف: لَمّا انهزم المشركون في "حنين" وفَرُّوا، توجّهت طائفة منهم بقيادة مالك بن عوف إلى الطائف وتحصنوا في قلعتها، وعسكر بعضهم في "أوطاس"، وتوجهت فئة ثالثة نحو "نخلة"، فسيَّر الرسول ﷺ أصحابه لتعقب الفارّين في هذه الأماكن وقتالهم[1]:

– أمّا **أوطاس**[2]: فأرسل النبي ﷺ إليها فرقة من المسلمين يقودهم أبو عامر الأشعري رضي الله عنه لِمطاردة الفارّين هناك، فقاتلهم أبو عامر حتى استشهد، ثم حمل الراية بعده ابن عمه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقاتلهم حتّى فتح الله تعالى عليه وهزمهم[3].

– وأمّا **نخلة**: طاردت فرقة أخرى من المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، وهزموهم[4].

– أمّا **الطائف**: فتوجه إليهم الرسول ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم، وقام بمحاصرتهم، فكانت غزوة الطائف الآتي ذكرها.

[2]– غزوة الطائف: بعد أن تعقّب المسلمون فلول الهاربين من هوزان وثقيف في أوطاس ونخلة، توجّهوا إلى مدينة "الطائف"[5] التي تحصن فيها مالك بن عوف رئيس المشركين مع فلول من الجيش المنهزم، من ثقيف وغيرهم، وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها وحصونها الدفاعية القوية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود لمدّة عام، وهيأت من وسائل الحرب ما يكفل لها الصمود طويلاً[6].

أ)– الحصار والقتال: سار النبي ﷺ بجيشه إلى الطائف، وفي مسيره إليها مرّ على "لِـيَّة"[7]، وكان هناك حصنٌ "لِمالك بن عوف" وكان فارغا فأمر بِهدمه[8]، وهو الحصن الذي ذكره "لَمنس-Lammens" في مادة "مالك بن عوف".

ثم واصل ﷺ سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبا من حصنها، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن، وكانوا ذوي دراية بحرب الحصار، وذوي ثروة طائلة، حصونهم من أمنع الحصون.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 453/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 473/2.

[2]– سبق التعريف بها قريبا في: ص920.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 52/8. وصحيح مسلم (النووي)، 86/16. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 454/2.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 453/2. وشرح الزرقاني على المواهب، 530/3. والرسول القائد، محمود شيت، 367.

[5]– **الطائف:** مدينة مشهورة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، تقع شرق مكة على بعد أكثر من (85 كلم). ينظر: معجم البلدان، الحموي، 8/4-9. والموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 473/15. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 236.

[6]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 478/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 507/2.

[7]– **لِيَّـــة:** بكسر اللام، وفتح الياء المشدّدة، موضع بالطائف، كان فيه حصن مالك بن عوف. ينظر: معجم البلدان، 30/5. والمعالم والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 236.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 482/2. ومغازي الواقدي، 917/3 و924-925.

ووقعت في هذه المدة عدة مناوشات وتراشق بالسهام عن بعد، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار نزلوا موضعا كان في متناول سهام ثقيف، فرماهم أهل الحصن بالنبل رميًا شديدًا، فأصابوا عددا من المسلمين، فتحولوا إلى الموضع الذي يوجد فيه مسجد الطائف الذي بنته ثقيف لما أسلمت بعد ذلك، ومكث المسلمون حول الحصون بضعا وعشرين ليلة، يترامون هم وأهل الطائف بالنبال والسهام[1].

ب)- الرمي بالمنجنيق واستعمال الدبابات: ثم أمر رسول الله ﷺ برميهم بالمنجنيق، واستعمل المسلمون الدبابات ليتوصلوا بها إلى نقب الحصن وتقويض أساسه، فيسهل عليهم الدخول والتلاقي مع الأعداء وجها لوجه، فدخل نفر من الصحابة تحت دبابة وزحفوا إلى جدار الحصن لينقبوه، ولكن أهل الطائف كانوا من المهارة والدربة في الحرب ما جعلهم يلقون على الدبابات سكك الحديد محماة بالنار فأحرقتها، فخرج الجنود المسلمون من تحتها خيفة أن يحترقوا، فرمتهم ثقيف بالنبال فقتلت بعضهم، وهذه هي أول غزوة يستخدم فيها المسلمون هذه الآلات لضرب الحصون[2].

ج)- إسلام بعض العبيد: أَمَر رسول الله ﷺ منادياً ينادي في ثقيف: أن من خرج إلينا من العبيد فهو حرّ، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون عبداً بعد أن تسوّروا الحصن، فأسلموا فأعتقهم الرسول ﷺ، و لم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامها، وكان من بينهم "أبو بكرة"، الذي تسوّر حصن الطائف وتدلى منه ببكرة يستقي عليها، فسُمّي "أبا بكرة"[3].

وهي الحادثة التي أشار إليها المستشرق "هوتسما-Houtsma" في مادة "[أبو] بكرة"، في سياق كلامه عن تلبية أبي بكرة لهذا النداء وحصوله على حرّيّته.

ثُمّ إنّه طال الحصار، واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة، فوقع منهم قتلى وجرحى، وكان أهل الحصن قد أعدّوا فيه ما يكفيهم لِحصار سنة[4]، فعزم النبي ﷺ على رفع الحصار والرحيل[5]، قال ابن عمر رضي الله عنه: «لَمّا حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئًا، شيئًا، قال: ((إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ))، فثَقلَ عليهم، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال ﷺ: ((اغْدُوا عَلَى القِتَالِ))، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: ((إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ))؛ فأعجبهم؛ فضحك النبي ﷺ»[6].

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 482/2-483. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 475/2.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 483/2. ومغازي الواقدي، 927/3. وسيرة أبي شهبة، 476/2.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 57/8. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 485/2. ومغازي الواقدي، 931/3-932.

[4]- وروى الواقدي: أنّ رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الدئلي فقال: ما رأيك في المقام عليهم؟ فقال: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. لكن هذه الرواية ضعيفة لضعف الواقدي. ينظر: مغازي الواقدي، 936/3-937.

[5]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 56/8. والرحيق المختوم، المباركفوري، 497.

[6]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، 55/8-56. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الطائف، 172/12-173. واللفظ للبخاري.

د)– عدم إصرار النبي ﷺ على فتح الطائف: لا يرجع سبب عودة النبي ﷺ من حصار الطائف دون فتحها إلى كون «**جنده غير مدربين؛ فعجزوا عن الاستيلاء على الطائف**» كما قال "بول-Buhl"، صحيح أنّ دفاعات حصون الطائف كانت قويّة، لكن هناك أسباب أخرى، منها أمور روحيّة ليس من شأن المستشرق "بول" -كغيره من المستشرقين- الخوض فيها، كما أنّ هنا عوامل مادية أخرى عسكرية وسياسية هامة -فاتت "بول-Buhl"- كان لها أثر في عدم الإصرار على مواصلة الحصار، منها: – لم ير الرسول ﷺ ضرورة للاستمرار في الحصار، وأدرك أن الطائف ستجد نفسها في يوم قريب أشبه بجزيرة منقطعة يحيط بها الإسلام من كل مكان، وستسعى إليه حينذاك طالبة الانتماء إلى الدين الجديد، رغبة وإيمانا لا حقدا وخوفا[1].

– لو أنّ الرسول ﷺ أقام على حصارهم لاشتدّ بهم الجهد، ولاضطروا بعد القتال إلى الاستسلام، فقد استطاع المسلمون -من قبلُ- فتح حصون خيبر بإمكانيّات عسكريّة أقلّ من التي حاصروا بِها الطائف، وكانت حصون خيبر أيضا على قدر كبير من المناعة والقوّة، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يُؤخَّر الفتح عامئذ، لئلا يُستأصلوا قتلا وأسرا، وقد كان رسول الله -كما هو دأبه- حريصا على عدم الإسراف في القـــتل وإراقة الدماء[2]، وأن تُدّخر سواعدهم لنصرة الإسلام، قـــال ابن كثير: «وكانت الحكمة الإلهية تقتضي ... أن لا يفتح حصنهم؛ لئلا يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخّر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل»[3].

– كما أنّ النبي ﷺ لم ير خطرا من ترك الطائف إلى فرصة أخرى، لذلك لم يشأ أن يفتتحها عنوة، و لم يأمر بهجوم حاسم عليها، كما حدث قبل عام مع حصون خيبر على سبيل المثال[4].

لقد كان أكثر حرص النبي ﷺ على هدايتهم، لذا لَمّا قال له بعض المسلمين وهم قافلون من الطائف: يا رسول الله أحرقَتْنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم؛ قال ﷺ: ((اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا))[5]؛ وهذا الحديث يدل على رحمة الرسول ﷺ وشفقته، حتى مع أعدائه حيث طلب منه الصحابة أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد استجاب الله دعاءه؛ فجاءوا مسلمين بعد ذلك دون عناء أو مشقة.

---

[1]– ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 211. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 510/2.

[2]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 477/2.

[3]– البداية والنهاية، 81/7-82.

[4]– ينظر: دراسة في السيرة، 211-212. والسيرة النبوية الصحيحة، 510/2.

[5]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (الأحوذي)، أبواب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة، 306/10-307. **وأحـــمد**، المسند، 50/23. من حديث جابر ﷺ، وقال الترمذي: حسن غريب. وصحّحه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

الفرع الثاني : تقسيم غنائم حنين

أولا- عرض نصوص المستشرقين:

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 90]: «وبعد رفع الحصار عن مدينة الطائف الحصينة عاد محمد ﷺ إلى الجعرانة للإشراف على توزيع غنائم حنين، وقد غضب الأنصار غضبا شديدا –وهم الذين كانوا قد عبّروا بعد فتح مكة مباشرة عن خوفهم من أن يختار محمد ﷺ الإقامة فيها– إذ رأوه يعطي العطايا السخية لأعدائه القدامى حتى يألف قلوبهم، ولم يعطهم شيئا، غير أنه خاطبهم في رقة متناهية أدت إلى انخراطهم في البكاء وإعلانهم رضاءهم»[1]. المحرر هو المستشرق: **بول** - Buhl[2].

– وفي مادة "**[أبو] سفيان**"[فقرة: 10]: «وأعطي أبو سفيان عقب النصر – إرضاء له – نصيبا وافرا من الغنائم، فرضي بهذا كل الرضا ...»[3]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl.

– وفي مادة "**غطفان**"[فقرة: 5]: «وقد كان "عيينة" في معسكر محمد ﷺ... وصحبه في غزوة حنين... وكافأه النبي ﷺ بشكل خاص في الجعرانة فاختصّه بمائة من الإبل عند توزيع الغنائم على حين أعطى عباس بن [مرداس][4] السلمي أربعة رؤوس فقط، فأحسّ عباس بالمرارة رغم استبسال بني سليم في القتال يومذاك»[5]. محرر المادة هو المستشرق: **يي. فوك** -Fuck[6].

– وفي مادة "**فزارة**"[فقرة: 3]: «إلا أن الصلح تم بين محمد ﷺ وبين عيينة الذي شارك في فتح مكة وغزوة حنين، ونفله الرسول ﷺ مع المؤلفة قلوبهم مائة من الإبل في الجعرانة وكان هذا نصيب الرؤساء من غير المسلمين، بالرغم من أنه لم يذكر أنه كان معه أتباع»[7]. المحرر هو: **مونتجمري وات**-Watt[8].

– وجاء في مادة "**مالك بن عوف**"[فقرة: 3]: «وفي هذه الأثناء تجمعت كل الغنائم التي حصل عليها المسلمون في حنين في معسكر في "جعرانة"... وإلى هوازن ذهب مندوبون للتفاوض حول فدية الأسرى»[9]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens[10].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9151/30.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 356/1.

[4]– في المطبوع: "بن مروان"، وهو خطأ ظاهر، إذ لا يوجد في هذه الوقائع من هو بهذا الاسم، إنّما المذكور هو: "عباس بن مرداس" كما في: صحيح مسلم (النووي)، 219/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 493/2. ولعلّه خطأ مطبعي وقع فيه المترجمون؛ لأنّ الخطأ غير موجود في النسخة الأجنبية الأصلية؛ ينظر: "The Encyclopidia of Islam, 2/1023".

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7627/24-7628.

[6]– سبقت ترجمته في: ص266.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 7852/25.

[8]– سبقت ترجمته في: ص59.

[9]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 8977/29.

[10]– سبقت ترجمته في: ص211.

ثانيا- التحليل والمناقشة: قبل مسير النبي ﷺ إلى حصار الطائف جَمع غنائم حنين الجليلة في "الجِعْرانة"[1]، وبعد رجوعه من حصار الطائف توجّه إلى "الجعرانة" لقسمة غنائم حنين، و لم يوزع هذه هذه الغنائم بين الفاتحين بمجرد رجوعه من الطائف، وإنّما انتظر هوازن بضع عشرة ليلة رجاء أن يقدموا عليه مسلمين تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، لكنّهم أبطؤوا فبدأ بقسمة الغنائم[2].

[1]- الأعطيات الجزيلة للمؤلفة قلوبهم: كان المؤلفة قلوبهم أول من أُعطي وحظي بالأنصبة الجزلة من غنائم حنين؛ فأعطى:

- **أبا سفيان بن حرب: مائة من الإبل**، وهو ما عبّر عنه "بول -Buhl" "**بالنصيب الوافر من الغنائم**".

- وكذا أعطى: **حكيم بن حزام والنّضر بن الحارث: مائة من الإبل**، وغيرهم من زعماء قريش الذين أسلموا حديثا؛ فأكثر وأجزل لهم العطاء تأليفا لهم.

- كما أعطى أناسا لم يسلموا ليحببهم في الإسلام، مثل **صفوان بن أمية** -وكان لا يزال مشركا- الذي خصّه بعطاء كثير، فكان ذلك من البواعث على إسلامه.

- وكذلك أعطى: **مائة من الإبل** لكل من: **عيينة بن حصن** -من زعماء غطفان-، وهو ما ذكره "فوك -Fuck" في مادة "غطفان" و"وات -Watt" في مادة "فزارة"، وكذا **الأقرع بن حابس** (من زعماء تميم)، وأعطى **العباس بن مرداس** (من زعماء سليم): دون المائة فعاتب النبي ﷺ في شعر قاله، فأتَمّ له رسول الله ﷺ مائة؛ حتّى يكفّ لسانه، وهو ما أشار إليه "فوك-Fuck" في مادة "غطفان" لكنّه لم يذكر أنّ النبي ﷺ أتَمّ له مائة من الإبل، وأعطى غيرهم من المؤلفة قلوبهم الذين كانوا من الزعماء في قبائلهم، خصّهم بذلك تأليفا لهم ولقومهم[3].

ثم قسم رسول الله ﷺ بقية الغنائم على الناس، فكانت سهامهم: لكل رجل أربعا من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارسا أخذ اثني عشر بعيرا ومائة شاة[4].

[2]- موقف الأنصار من تقسيم الغنائم: تكلّم المستشرق "بول-Buhl" عن تأثّر بعض الأنصار بحكم طبيعتهم البشرية لعدم شمولهم بالأعطيات، وتخصيص المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرهم بِها، وكيف أنّ النبي ﷺ أرضاهم وعالج الموقف قبل استفحاله بخطابه الذي كان غاية في البيان والتأثير.

---

[1]- **الجِعْرانة:** مكان بين مكة والطائف، يقع شمال شرقي مكة في صدر وادي سرف، ولا زال المكان معروفا بهذا الاسم اليوم. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 142/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 90.

[2]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 41/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 459/2.

- كانت **غنائم حنين** كثيرة جداً، فبلغ عدد السبي: ستة آلاف رأس من نساء وذرية، وعدد الإبل: أربعة وعشرون ألفا، وعدد الغنم: أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. ينظر: طبقات ابن سعد، 116/2. وتاريخ الطبري، 82/3.

[3]- ينظر: صحيح مسلم (النووي)، 218/7-219. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 493/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 481/2.

[4]- ينظر: طبقات ابن سعد، 116/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 243/2. وسيرة أبي شهبة، 482/2.

وذلك أنّ النبي ﷺ لما بلغته مقالة بعض الأنصار، وأنّهم وجدوا في أنفسهم لَمّا أعطى قريشا و لم يعطهم شيئا من الغنائم؛ جَمع الأنصار في قبة وحدهم، وقام خطيبا فيهم - ليبين لهم الحكمة في هذا التقسيم؛ تطييبا لقلوبهم - فقال ﷺ: ((مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟))، فقال له فقهاء الأنصار: «أما ذوو رأينا، يا رسول الله، فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منّا حديثةٌ أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!»، فقال رسول الله ﷺ: ((فَإِنِّي **أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ**؛ أَفَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ))، فقالوا: «بلى يا رسول الله، قد رضينا»[1].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند ابن إسحاق: أنّ النبي ﷺ قال: ((**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ**... أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ... أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ **فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا**، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ...

فو الّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الْهِجْرَةُ **لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الأَنْصَارِ**، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الأَنْصَارُ شِعْبًا، **لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ**، اللَّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ))؛ قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا برسول الله قسما وحظّا»[2].

وينبغي التنبّه إلى أنّ هذه المقالة إنّما صدرت من بعض حدثاء الأنصار لا من كلّهم، ولا من كبرائهم، كما جاء مصرّحا به في "الصحيحين" من حديث أنس رضي الله عنه السابق.

لقد خاطب النبي ﷺ الأنصار في "رقّة متناهية" كما عبّر "بول-Buhl"؛ بحيث كان خطابه «يفيض بمعاني الرقة والذوق الرفيع، ومشاعر المحبة الشديدة للأنصار، ولقد لامست هذه الرقة مشاعر الأنصار فهزتها هزا؛ ونفضت منها ما كان قد علق بها من الوساوس والهواجس، فطابت نفوسهم، وارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحا بنبيّهم وابتهاجا بقسمتهم ونصيبهم»[3].

لكنّ هذا الخطاب مهما بلغ من الرقة والفصاحة لم يكن ليؤثر ذلك التأثير، ويعرف تلك الاستجابة، لولا ما احتواه من دلائل الإقناع من جانب، ولولا إيمان الأنصار وإيثارهم رضوان الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ على حطام الدنيا ومتاعها الزائل من جانب آخر.

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، 66/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، 212/7. واللفظ لمسلم.

[2]- أخرجه: **أحمد**، المسند، 254/18. **وابن إسحاق**، تهذيب السيرة (لابن هشام)، 498/2. والحديث حسنه الأرنؤوط في تحقيق "المسند"، وصحّحه ابن كثير في "البداية والنهاية، 98/7" والعلي في "صحيح السيرة، 456".

[3]- فقه السيرة، البوطي، 294. وينظر في هذا المعنى: السيرة النبوية، أبو شهبة، 484/2.

ذلك أنّه لَمّا وضحت لهم الحكمة من التوزيع، وأن الرسول ﷺ وكلهم إلى إيمانهم، فهم مثال للتضحية والتجرد في سبيل العقيدة؛ يقلّون عند الطمع ويكثرون عند الفزع، و لم تكن الدنيا همهم ولا المال مقصدهم، فلما عرفوا سبب منع الأعطيات عنهم أعلنوا رضاهم بذلك، وكيف لا يرضون وقد أدركوا أن الرسول ﷺ قدّمهم على سواهم، واعتمد على إخلاصهم، فكانوا عند حسن ظنّه بهم[1].

[3]- **الحكمة من تخصيص المؤلفة قلوبهم بالأعطيات الجزيلة:** اختص النبي ﷺ رؤساء القبائل وأشرافها -كما ذكر "وات-Watt"- الذين أسلموا عام الفتح من أهل مكة وبعض القبائل **بمزيد من** الغنائم عن غيرهم؛ يتألف بِذلك قلوبهم، لقرب عهدهم بالإسلام، وعدم تمكّن معاني الإيمان من قلوبهم[2].

كما كانت تلك الأعطيات جبراً لِمصاب أولئك الزعماء والأشراف، الذين أخذت منهم رياسة، وانتـــزع منهم سلطان؛ يشير إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: ((إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي **أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُم**))[3].

قال ابن إسحاق: «أعطى رسولُ الله ﷺ المؤلَّفة قلوبهم، **وكانوا أشرافاً** من أشراف النّاس، **يَتألّفهم ويَتألّف بهم قومَهم**»[4]؛ لأنّ في استِجلاب قلوب رؤوس القبائل والعشائر، الذين إذا غضبوا؛ غَضِب لِغضبهم أتباعُهم، وإذا رَضُوا؛ رَضُوا لِرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء، لم يَتَخلَّفْ عنهم أحد من قومهم، فكان في ذلك عظيم المصلحة للإسلام وأهله[5].

ثُمّ إنّ فعل النبي ﷺ نابغ من حرصه على هداية الناس للإسلام، وتثبيت قلوبهم على الإيمان؛ لأن بعض النفوس عبيد الإحسان فتألّفهم بذلك، وهو ضرب من ضروب السياسة الشرعية الحكيمة، التي آتت أكلها وأعطت ثمارها سريعا؛ فقد استمالت هذه الأعطيات قلوب هؤلاء الزعماء وأتباعهم، فأسلم كثير مِمّن لم يسلموا، وحسن إسلام كثير مِمّن أسلموا و لم تشرب قلوبهم حب الإيمان؛ فأبلوا في الإسلام بلاء حسناً، وخدموه بأنفسهم وأموالهم[6].

لكن يبدو أنّ المعاني السامية والحكم الجليلة في تأليف زعماء القبائل الحديثي الإسلام غابت عن تحليل المستشرق "بول-Buhl" عندما قال بأنّ "**أبا سفيان أعطي عقب النصر نصيبا وافرا من الغنائم؛**

---

[1]- ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 514/2.

[2]- ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 61/8. والسيرة النبوية الصحيحة، 514/2.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، 67/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، 214/7. من حديث قتادة عن أنس ﷺ.

[4]- تهذيب السيرة (لابن هشام)، 492/2.

[5]- ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 424/3-425. وفتح الباري، 61/8.

[6]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 482/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 512/2.

إرضاء له"؛ لأنّ المقصود من هذا العطاء ليس مجرّد الإرضاء فحسب، بل المقصود ما يكون وراء هذا الرضا، من تحبيب قلوبهم في الإسلام، وتمكين الإيمان من قلوبهم، وقلوب أتباعهم، فيحسن إسلامهم، وفي ذلك مصلحة عظيمة للإسلام والمسلمين.

ويبيّن أنس بن مالك ﷺ أثر هذه السياسة في ترسيخ الإيمان، فيقول: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها»[1].

ومن الأمثلة على أثر هذه السياسية في إسلام الناس، ما عبّر عنه صفوان بن أمية –وكان من المؤلفة قلوبهم– فقال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلَيّ [أي: قبل إسلامه]، فما برِح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلَيّ»[2].

[4]– وفد هوازن وردّ السبايا إليهم: لم يتسرّع النبي ﷺ في توزيع غنائم حنين –كما سبق– رجاء أن يعود قادة هوازن مسلمين فيردّ عليهم أموالهم وسبيهم (من نسائهم وذراريهم)، ولكنهم أبطأوا و لم يأتوا إلا بعد أن قسمت الغنائم، حيث قدم وفد من هوازن على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلا، وأعلنوا إسلامهم، وسألوه أن يردّ عليهم الأموال والسبي، فخيَّرهم بين السبي والمال، فاختاروا السّبي، فخطب الرسول ﷺ في المسلمين فقال: ((إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ))، فقال الناس: «قد طيّبنا ذلك يا رسول الله لهم»، فردّهم إليهم عن طيب خاطر من المسلمين[3].

ويلاحظ أن الرسول ﷺ أراد أن يعود السّبْيُ إلى هوازن عن طيب نفس من المقاتلين، لأن الغنيمة من حقهم، فلا بدّ أن يتنازلوا عنها برضاهم، ووعد من لا يرضى بتعويضه عن السبّي[4].

لكنّ الذي دلّت عليه الروايات أنّ وفد "هوازن" ما جاء ليفاوض النبي ﷺ في "فدية الأسرى" كما ذكر "لَمنس-Lammens" في مادة "مالك بن عوف"، وإنّما أتوه مسلمين وطلبوا منه أنّ يمنّ عليهم ويردّ إليهم أموالهم وسبيهم، فأرجع النبي ﷺ إليهم السّبي عن طيب خاطر من المسلمين.

لقد سُرّ الرسول ﷺ بإسلام هوازن، واستطاع ﷺ بسياسته الحكيمة أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام.

---

[1]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قطّ قال لا، وكثرة عطائه، 105/15.

[2]– أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، الكتاب والباب السابقين، وفي الجزء والصفحة السابقين.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 209/5 و41/8-42. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 488/2-490.

[4]– السيرة النبوية الصحيحة، 516/2.

الفرع الثالث : إسلام مالك بن عوف ومساعدَته في إخضاع الطائف

– جاء في مادة "**مالك بن عوف**"[فقرة: 4]: «... **وقال محمد ﷺ إنّه إذا جاء مالك ليعتنق الإسلام، فإنّه سوف يعيد إليه عائلته وممتلكاته بالإضافة إلى مائة من الإبل، ومهما يكن القرار الذي اتّخذه مالك، فإنّ هذا البيان من جانب الرسول ﷺ لم يجعل من المتعذر أن يتفاهم مع ثقيف، واعترف بحق أن موقفه في الطائف ضعيف ولا يمكن الدفاع عنه ونجح في أن يفر من المدينة ويستسلم للرسول ﷺ الذي وفّى بوعده حرفيا ونطق مالك بشهادة المسلمين، وحسن إسلامه.**

وقد كان لهذا الرجل الذي اهتدى أخيرا للإسلام والإيمان صلات واسعة، وكان يعرف تماما منطقة إقليم ثقيف... وقد سعد الرسول ﷺ إذ استخدمه ضد الطائف التي لم يستطع أن يأخذها بالقوة... ووضع مالك على رأس قبائل "قيس" الذين اعتنقوا الإسلام، لذلك نظم مالك حرب عصابات ضد الحلفاء القدامى في ثقيف، فلم تستطع أية قافلة أن تترك الطائف دون أن يعترضها رجال مالك، وبعد أن أرهق هذا النضال المتواصل أهل ثقيف، قرّروا أن يتواصلوا إلى تفاهم، وأصبح مالك عندئذ مندوب الرسول بين بني هوازن»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens[2].

سُرّ الرسول ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فطلب منهم أنْ يخبروه أنّه إذا قدم عليه مسلما ردَّ عليه أهله وأمواله، فلما بلغ ذلك مالكا انسلّ من قومه ثقيف خفية، خشية أن يقتلوه، وأتى رسول الله ﷺ فأسلم، فأكرمه النبيُّ ﷺ وردّ عليه أهله وماله، وأعطاه المائة من الإبل، وأمّـــره على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بِهم ثقيـــفا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيّق عليهم[3].

بهذه السياسة المرنة والحكيمة استطاع النبي ﷺ أن يكسب هوازن وزعيمهم مالك بن عوف، وأن يتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة حتى ضيّق عليهم، لذا فكّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان، فلا تستطيع تحركًا ولا تجارة، ليأتِيَ وفد من ثقيف بعد قرابة عام من حصار الطائف معلنين إسلامهم[4].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 29/8977-8978.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/490-491. ودلائل النبوة، البيهقي، 5/198. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 2/480.

[4]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/517. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 796.
وسبق ذكر وفدهم الذين جاءوا إلى المدينة مسلمين في الباب السابق: ص730.

المبحث الرابع : غـزوة تبوك وبعض السرايا بعدها

يختصّ هذا المبحث بدراسة آخر غزوة شارك فيها النبي ﷺ؛ وهي "غزوة تبوك" سنة تسع للهجرة (9هـ)، إضافة بعض السرايا التي كانت قُبيل "تبوك" أو بعدها، مِمّا ورد ذكره في "دائرة المعارف".

المطلب الأول : أسباب غزوة تبوك وتاريخها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**جذام**": «وقد ظهر **أن نفراً من وجوه جذام تفاوضوا بوحي رأيهم مع المدينة، وقد عادوا في مؤتة إلى سابق عهدهم فسدّوا طريق المسلمين إلى الشمال، فقررت غزوة تبوك لتأديبهم**»[1].

محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** - Lammens[2].

– وفي مادة "**تميم الداري**": «... **غزوة تبوك عام (9 هـ)، وهي الواقعة التي أبلغت الجيش الإسلامي إلى تخوم الشام (ابن سعد، ج1 القسم الثاني، 75، نقلا عن الواقدي)**»[3].

المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** - Levi della vida[4].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 91]: «**وفي خريف ذلك العام** [أي: التاسع]، **قرّر محمد ﷺ القيام بغزوة واسعة النطاق ضد شمالي شبه الجزيرة، ربّما انتقاما لهزيمة مؤتة، وذلك حتى يبقى على ما بات يتمتع به من احترام، ولأن ملك الغساسنة كان يتخذ موقفا عدائيا من محمد ﷺ وأتباعه**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[6].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- تاريخ الغزوة: وقعت "غزوة تبوك"[7] في **السنة التاسعة** للهجرة كما ذكر "بول-Buhl" و"دلافيدا -DellaVida"، وبالتحديد في **شهر رجب**، بعد حصار الطائف بستة أشهر تقريباً[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 314/6.

[2]– سبقت ترجمته في: ص211.

[3]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 329/6.

[4]– سبقت ترجمته في: ص95.

[5]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9151/30.

[6]– سبقت ترجمته في: ص150.

[7]– **تبوك:** موضع بين وادي القرى والشام، وكانت من ديار قضاعة تَحت سلطة الرّوم، وهي اليوم مدينة تبعد عن المدينة بحوالي (778 كلم) شمالا. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 14/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 59.

[8]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 516/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 144/7 و158. وفتح الباري، ابن حجر، 138/8.

ثانيا- أسبابها: ذكر المستشرق "بول" سببين لغزوة تبوك، وإن كان السبب الأول الذي أورده منتقداً، لكن هناك أسباب أخرى هامة -إضافة إلى ما ذكره- أوردها علماء السيرة، أهمّها:

- **السبب (1)**: ذكر الواقدي وابن سعد وغيرهما: أن هرقل جمع جموعاً من الروم وقبائل العرب النصرانية الموالية لهم من لخم وجذام وغسان وغيرها؛ للهجوم على المدينة، وقد بلغت النبي ﷺ هذه الأنباء عن تحركات الروم وحلفائهم العرب، وكان من سياسة رسول الله الحكيمة أنه إذا علم أنّ قوما همّوا بغزوه أنْ يبادئهم قبل أن يغزوه، لذلك عزم ﷺ على أن يلقى الجيش المهاجم قبل أن يدخل أرض العرب، على الرغم من أن الوقت كان شديد الحرارة، والمسافة طويلة تحتاج إلى الصبر، وكثرة الزاد[1].

ويبدو أنّ الروم بعد غزوة مؤتة -وما حدث عقبها من تغيّرات في جزيرة العرب- أدركوا أن الدين الجديد أصبح يغزو النفوس بأحكامه، ويغزو البلاد برجاله، فقد تغلغل نفوذ المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية، و لم تبق فيها ناحية من النواحي إلا أحسّت بسلطان المسلمين، لذا رأى الروم ضرورة إعداد العدة، وتجهيز جيش من الرومان والعرب الموالين لهم، للقيام بحملة ضد الدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها، وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية، وتشكل خطرا حاسما على الوجود البيزنطي في بلاد الشام، وما كان للنبي ﷺ أن يتركهم حتى يغزوه في داره، فما غزى قوما في عقر دارهم إلا ذلوا[2].

- **الاستدراك على السبب الأول الذي ذكره المستشرق "بول"**: ذكر "بول -Buhl" أنّ غزوة تبوك "**ربّما جاءت انتقاما لهزيمة مؤتة**"، لكن يُعترض على هذا الاحتمال أنّ "غزوة مؤتة" لم يقع فيها هزيمة للمسلمين، كما لم يحقّقوا فيها نصراً حاسماً؛ فإن جيش المسلمين لم يرجع مهزوما، وإنما قام بانسحاب منظّم بِفضل المهارة العسكرية لِخالد بن الوليد رضي الله عنه -على ما سبق تفصيله[3]-.

بيد أنّ أجواء المعركة والفارق العسكري الكبير بين إمكانيات الجيشين، جعل معركة "مؤتة" «تترك أروع الأثر في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم؛ و لم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لِمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين»[4]؛ لذا فإنّه على العكس مِمّا قاله المستشرق لا يستبعد أنّ الروم وحلفاءهم من العرب هم من كانوا «يريدون الانتقام من الهزيمة التي لحقتهم في مؤتة» على رأي المنصورفوري[5].

---

[1]- ينظر: مغازي الواقدي، 990/3. وطبقات ابن سعد، 125/2. وفتح الباري، ابن حجر، 139/8. وسيرة أبي شهبة، 495/2.

[2]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1291/2. والقول المبين، النجار، 362. ودراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 251.

[3]- سبق بيان ذلك في: ص908.

[4]- الرحيق المختوم، المباركفوري، 508.

[5]- رحمة للعالمين، 128.

أو على الأقل يمكن تصحيح عبارة "بول -Buhl" بالقول أنّ «غزوة تبوك كانت امتداداً لغزوة مؤتة»[1] وفق عبارة أبي زهرة؛ لأنّ كلا الطرفين لم يحقّق نصرا حاسما على الطرف الآخر.

يشهد لذلك أنّ الروم وحلفاءهم مَن بادر لحشد الجموع لغزو المسلمين، ولو كانوا ألحقوا هزيمة بالمسلمين في "مؤتة" كما قال "بول-Buhl" لَما احتاجوا إلى هذه الحملة، بل لكانوا طاردوا المسلمين إلى المدينة بعد مؤتة مباشرة؛ وهم الذين كان عددهم يزيد على المائة ألف، لذا فإنّ في غزوة تبوك نفسها وما سبقها من حشد الروم لغزو المسلمين دليل آخر على أنّه لم يُهزم المسلمون في "مؤتة".

– **السبب (2)**: كما كانت **غزوة تبوك استجابة** طبيعية **لفريضة الجهاد**، فقد أمر الله تعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين، ولكنه وافق على احتفاظ الكتابيين بدينهم إذا خضعوا سياسياً للمسلمين وأدوا إليهم الجزية، خلافاً لعبدة الأوثان فإنه لم يقبل منهم الجزية بل لا بد لهم من الدخول في الإسلام إذا أرادوا الأمن من القتال[2]، وقد نبه ابن كثير إلى هذا السبب فقال: «فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123]»[3].

فقد استوعبت الدعوة الإسلامية شبه الجزيرة العربية، وليس من العرب من لم يعلم بالإسلام، والنبي ﷺ، والحق الذي يدعو إليه، ولا بد أن يتجاوز بعد ذلك دائرة الجزيرة العربية إلى ما يليها من البلاد المجاورة، خصوصا البلاد التي فيها العنصر العربي، فإنها بتكوينها أقرب إلى الاستجابة للإسلام، لأنه الدين الجديد في قومهم، وقد صار رمز القوة عندهم، وخير لهم أن يعتزوا بأنفسهم عن أن يعتزوا بالرومان، ففرق بين من يقول أنت أخي، ومن يقول أنت عبدي أو تابعي[4].

وإذا كان الإسلام قد انتشر في الجزيرة العربية، فقد آن الأوان لنشره خارجها، لأنّ الإسلام ليس دين العرب وحدهم، بل هو للناس كافة، فلابد من تأمين حرية نشر تعاليمه بين العرب وغيرهم، خاصة بعد أن أصبح المسلمون بدرجة من القوة والتنظيم تساعدهم على حماية حرية انتشاره بين الناس كافة[5].

---

[1]– خاتم النبيين، 1289.

[2]– ينظر: تفسير الطبري، 12/87-88. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/522-523.

[3]– البداية والنهاية، 7/144.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 2/1289.

[5]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 395.

وبذلك دخل المسلمون مرحلة جديدة بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم أهل الكتاب من اليهود؛ إلى قتال أهل الكتاب من النصارى[1].

وهو المعنى الذي عبّر عنه ابن كثير في قوله: «أمَر الله تعالى المؤمنين أن يُقاتِلوا الكفّار أوّلا فأوّلاً، الأقربُ فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولِهذا بَدأ رسول الله ﷺ بالمشركين في جزيرة العرب، فلمّا فَرغ منهم وفَتَح اللهُ عليه مكّة والمدينة، والطّائف، وخيبر... وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودَخل الناس مِن سائر أحياء العرب في دين اللهِ أفواجًا، شَرع في قتال أهل الكتاب، فتَجهّز لِغزو الرّوم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدّعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب»[2].

وهذا السبب لا يناقض ما أورده المؤرخون من أنّ الخروج جاء بعد عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم؛ فيكون ذلك حافزًا للخروج إليهم، بعد أن كان أصل الخروج واردًا وفق هذا السبب.

– **السبب (3)**: هناك سبب آخر مهم أشار إليه المستشرق "بول-Buhl" في قوله: «**ولأن ملك الغساسنة كان يتخذ موقفا عدائيا من محمد ﷺ وأتباعه**»؛ فقد أبدى ملك الغساسنة موقفا عدائيّا ضدّ النبي ﷺ والمسلمين منذ أن قتل رسول النبي ﷺ إلى بصرى[3]، كما وقع الاعتداء على من أسلم من عرب تلك النواحي التي كان يسيطر عليها الغساسنة من العرب وغيرها من القبائل الموالية للدولة الرومية، الأمر الذي استدعى من النبي ﷺ التحرك لتوطيد سلطان دولته وتأديب القبائل التي تهدد حدودها الشمالية[4].

و لم يقتصر الاعتداء على الغساسنة فحسب بل وقع الاعتداء أيضا من الرومان على من أسلم من عرب الشام؛ فقد أسلم فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عاملا للروم على معان وما حولها من أرض الشام، فضاق الرومان ذرعا بإسلامه، واتّهموه بالخيانة وقتلوه، وما كان للنبي ﷺ أن يترك دم هذا الرجل المسلم هدرا، بل لا بد من القصاص، كما أنّ قتله فتنة تمنع غيره من أن يدخل في الإسلام[5].

إنّ انتشار الإسلام بين نصارى العرب أقضّ مضاجع الروم، وجعلهم يفكرون في القضاء على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره، فقاموا بحشد قواتهم على حدود الشام الجنوبية استعدادا لِمهاجمة

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 12/87-88. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 523/2.

[2]– تفسير ابن كثير، 4/237-238.

[3]– حيث قتل شرحبيلُ بن عمرو الغساني –وهو من أمراء قيصر على الشام– الحارثَ بن عمير الأزدي الذي أرسله الرسول ﷺ بكتابه إلى ملك بصرى. ينظر: طبقات ابن سعد، 97/2. وفتح الباري، ابن حجر، 639/7.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1289/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 423.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/591-592. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 305/2. وخاتم النبيين، 1290/2.

المسلمين؛ لذا دعت الحاجة إلى **الدفاع عن الإسلام داخل شبه الجزيرة** العربية أولا، **وتأمين حرية نشر الإسلام خارج الجزيرة** العربية ثانيا[1].

بهذا يتّضح أنّ هناك ترابطا بين هذا السبب الأول والسبب الثاني للغزوة، ذلك أنّ عرب الغساسنة والروم أدركوا مدى قوّة الإسلام وسرعة انتشاره، فحاولوا قمعه أوّلا في ديارهم، باضطهاد وقتل من أسلم في أراضيهم، وفي نفس الوقت كانوا يحضّرون لحملة عسكرية كبيرة ضدّ الإسلام في دياره، فكان لابدّ من مواجهة هذا التّحدّي الذي يعيق نشر الإسلام ويسعى للقضاء عليه.

والملاحظ: أنّ هذه الغزوة تَميّزت بأنها نقلت وجهة الغزوات الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية، وبالضبط المناطق الجنوبية للشام التي تسيطر عليها الروم ونصارى العرب التابعين لهم، في حين كانت الغزوات والسرايا الأخرى وجهتها إلى القبائل العربية المشركة واليهود في الجزيرة العربية، وهو ما أشار إليه محرر مادة "تميم الداري".

كما أنّ المواجهة في هذه الغزوة كانت مع إمبراطورية الرومان التي كانت تعتبر أكبر قوة عسكرية في ذلك الزمان[2].

المطلب الثاني : وقائع غزوة تبوك وإنجازاتها

الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**تبوك**": «**وأصبحت تبوك من الأمكنة المشهورة في التاريخ لحدوث الغزوة العظيمة التي قام بها النّبيّ لإخضاع عرب الشمال في السنة التاسعة الهجرية، وقد هرب سكان المدينة من الروم وجذام عند وصوله إليها، وانصرف النّبيّ عن عزمه في الوصول إلى الأراضي التي يسكنها العرب شمالها لأنّ شدة الحر أضعفت من عزيمة جنده، ولم يمكث بها سوى عشرة أيام قبل أن يعود أدراجه، ولكنّه استثمر هذا الوقت في مفاوضة أهل أيلة وأذرح و[مقنّا][3] مما أدّى إلى إخضاعهم**»[4].

محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[5].

– وفي مادة "**الحجر**": «**وللحجر أيضا ذكر في سيرة النبي، ذلك أن محمداً أقبل بجيشه إلى ما جاور الحجر عندما كان يقصد دمشق مارا بتبوك في سنة تسع للهجرة، ورغب جنده في أن يرتاحوا هناك**

---

[1]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 396-397.

[2]– ينظر: رحمة للعالمين، المنصورفوري، 128. والرحيق المختوم، المباركفوري، 508.

[3]– في المطبوع "ماكنه"؛ والصواب ما أثبتّه كما في "معجم البلدان، للحموي، 178/5" وغيره، وهو اسم موضع سيأتي تعريفه قريبا في: ص950.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 575/4.

[5]– سبقت ترجمته في: ص150.

ويروحوا عن أنفسهم عند الآبار، ولكنّ النبي أبى عليهم أن يدخلوا هذا المكان الذي سبق أن حلّ به غضب الله»[1]. المحرر هو المستشرق: **شليفر** - J.Scheifer[2].

– وفي مادة "**محمد ﷺ نَبِيّ الإسلام**"[فقرة: 92]: «**بعد نَجاح غزوة تبوك التي اشترك فيها حوالي ثلاثين ألفا من أتباع النبي ﷺ، قبل أهل تبوك مصيرهم وأوفدوا الرسل إلى محمد ﷺ يعلنون استسلامهم للنبي واعتناقهم الإسلام...**

لكنه ما إن وصل إلى تبوك هو وثلاثون ألفا من المسلمين وحلفائهم بعد مصاعب طائلة، والْتقى بالعدو عند الحدود مع الأراضي البيزنطية، حتى اشتبك معه في معركة غير حاسمة، بيد أن سمعته كانت قد بلغت من القوة بحيث خضعت له المستعمرات المسيحية واليهودية الصغيرة في شمال شبه الجزيرة خلال إقامته بتبوك، مثال ذلك: الملك المسيحي يوحنا في أيلة، وأهل أذرح ويهود ميناء [مقنا][3]**، وقد قيل إن النبي مكث في تبوك عشر ليالٍ، كذلك فتح خالد بن الوليد مركزا هامّا هو دومة الجندل خلال غزوة تبوك»**[4]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl.

– وفي مادة "**أيلة**": «**وفي العام التاسع الهجري (630م) صالح يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة – ويقول المسعودي إنه كان أسقفها – النبي على جزية قدرها (300) دينار، وكان ذلك في غزوة تبوك، ولقاء هذا لم يصب المدينة أي ضرر على يد جيوش المسلمين، بل انتشر فيها الرخاء**»[5].

محرر المادة هو المستشرق: **موسيل** - A. Musil[6].

– وجاء في مادة "**جربى**": «**أو جرباء... وقد كتب النبي في مسيره إلى تبوك كتابا لوفد "جربى" أمّنهم فيه على تجارتهم على أن يؤدّوا الجزية، وكان أهل "جربى" نصارى لا يهوداً كما روى ياقوت**»[7]. محرر المادة هو المستشرق: **لمنس** – Lammens[8].

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 320/7.

[2]– سبق في: ص723.

[3]– في المطبوع "مَكْنة"؛ وتقدّم في الصفحة السابقة التنبيه على الخطأ نفسه في مادة "تبوك"، ولعلّ المترجمين ترجموا اسم الموضع من الأجنبية مباشرة، وعذرهم في ذلك صعوبة تحقيق جميع أسماء الأماكن وغيرها من مصطلحات "الدائرة" في تخصّصات مختلفة.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9151/30 و9153.

[5]– المصدر نفسه، إص1، 207/3.

[6]– **موسيل ألويس** "Alois Musil" (1868–1944م): مستشرق تشيكي الأصل نمساوي الجنسية، رحل إلى الجزيرة العربية والشام، درّس في عدّة جامعات ومدارس دينيّة، وله دراسات حول بعض البوادي في سوريا، من كتاباته: "العراق وسوريا" و"بادية العرب" وغيرها. ينظر: المستشرقون، العقيقي، 1036/3.

[7]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 481/5.

[8]– سبقت ترجمته في: ص211.

– وفي مادة "**جوف السرحان**[1]": «**وقد أنفذ النبي قائده خالد بن الوليد إلى دومة الجندل عندما كان في طريقه إلى غزوة تبوك عام تسعة للهجرة (630م)، وكانت دومة الجندل وقتئذ في يد الأمير النصراني أكيدر الكندي، وخضع الأكيدر ودخل الإسلام، على أنه ارتد عقب وفاة النبي**»[2].

محرر المادة هو المستشرق: **شليفر** - J.Scheifer.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

أولا- المسير إلى تبوك: أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وأعلن النبي ﷺ في هذه الغزوة للناس وجهته التي يريد؛ لأن المسافة بعيدة، والعدو كثير، والحر شديد، من أجل أن يأخذ الناس لذلك أهبته، ويستعدوا ويتزوّدوا جيّداً[3].

ثم إن رسول الله ﷺ حض على الجهاد ورغّب فيه، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم، وحثّ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ولأنّ السير إلى العدوّ يتطلّب جهدا مضنيا ونفقة كبيرة، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته، وكان عثمان ﷺ صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق، فقد أنفق في هذه الغزوة نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها[4]، حتّى قال عنه النبي ﷺ: ((مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليَوْمِ)) مرَّتيْن[5].

وأنفق أبو بكر ﷺ كلّ ما كان عنده آنذاك من مال، كما كانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة؛ كالعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وعاصم بن عدي وغيرهم ﷺ[6].

ثانيا- مشقّة الطريق وما كان فيها من العسرة: ثم ما لبث أن انطلق الرسول ﷺ نحو الشمال بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل، بينهم عشرة آلاف فارس[7]، وبدأ المسلمون مسيرهم التي قطعوا فيها مئات الأميال، وعانوا فيها آلام العطش والجوع والحرّ وقلة وسائل الركوب وبُعْد الطريق؛

---

[1]– سيأتي التعريف بهذا الموضع بعد أربع صفحات.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/168-169.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 8/141. وصحيح مسلم (النووي)، 17/136-137. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/516. 516/2.

[4]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/517-518. ومغازي الواقدي، 3/990-991.

[5]– أخرجه: **الترمذي**، الجامع (الأحوذي)، أبواب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ، 10/132. **والحاكم**، المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، 3/110؛ من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ، وقال الترمذي: حسن غريب، واللفظ له. وصحّحه الحاكم والذهبي.

[6]– ينظر: مغازي الواقدي، 3/991. وشرح الزرقاني على المواهب، 4/69.

[7]– ينظر: طبقات ابن سعد، 2/125. والبداية والنهاية، ابن كثير، 7/154-155. وفتح الباري، ابن حجر، 8/147.

ذلك أنّ الجيش كان كبيرا، إذ لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير من قبل، فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزا كاملا، بل كانت في الجيش قلّة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان يتناوب على البعير الواحد عدة رجال، و لم يجدوا ماء في بعض الأماكن التي نزلوا فيها فاضطروا إلى ذبح الإبل الخاصة بالركوب - مع قلّتها - ليشربوا ما في كروشها من الماء، ولذلك سمي هذا الجيش "**جيش العسرة**" لِقلّة الماء والزاد والمركوب، زيادة على طول المسافة والحرّ الشديد[1].

وقد أشار "بول-Buhl" في مادة "محمد ﷺ" إلى هذه الصعوبات التي واجهها جيش المسلمين في طريقه إلى "تبوك" بقوله: «**وصل إلى تبوك هو وثلاثون ألفا من المسلمين وحلفائهم بعد مصاعب طائلة**».

ويحدّث ابن عباس ﷺ أنه قيل لعمر بن الخطاب ﷺ: حدِّثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى أنّ الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده»[2].

كما بيّن قتادة صورة عن قلّة الزاد في الغزوة فقال: «أنّ الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم؛ يَمصّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها»[3].

لكنّ جيش المسلمين تحمل جميع المتاعب بصبر وثبات، واستمرّوا في المسير؛ حتى وصلوا إلى تبوك، فلم يجدوا قوات الروم هناك، فقرّر النبي ﷺ البقاء في تبوك بقواته الرئيسة بعد أن علم بانسحاب الروم إلى الشمال[4].

ثالثا- المرور بالحِجْر[5]: ذكر "شليفر-Scheifer" في مادة "الحجر" مرور النبي ﷺ مع أصحابه بهذا المكان في غزوة تبوك، وهي ديار ثمود الذي أهلكهم الله بالصيحة لعتوّهم وعصيانهم، فعن ابن عمر ﷺ قال: لَمَّا مر النبي ﷺ بالحجر قال: ((لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ))، ثُمّ قَنَّع رأسه، وأسرع السير حتى أجاز الوادي[6].

---

[1]- ينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 227/5-231. والبداية والنهاية، ابن كثير، 160/7. والرحيق المختوم، المباركفوري، 513.

[2]- أخرجه: **الحاكم**، المستدرك، كتاب الطهارة، 263/1. **والبيهقي**، دلائل النبوة، 231/5؛ وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي. وجوّد إسناده ابن كثير "البداية والنهاية، 160/7"، وحسّنه العلي "صحيح السيرة، 470".

[3]- ينظر: تفسير الطبري، 51/12.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 525/2-527. وطبقات ابن سعد، 125/2. والرسول القائد، محمود شيت، 401.

[5]- **الحِجْر**: موضع بين المدينة والشام، وكانت به منازل ثمود قوم صالح عليه السلام، سبق تعريفه في: ص211.

[6]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، 157/8. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، 147/18. واللفظ للبخاري.

وعنه رضي الله عنه أيضا: أن رسول الله ﷺ «لَمّا نزل الحجر في غزوة تبوك؛ أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها»، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا؟ فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء»[1].

يتجلّى في هذه الحادثة منهج نبوي كريم في توجيه النبي ﷺ أصحابه إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله ﷻ على الذين كذّبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة؛ ذلك أنّ الله ﷻ ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى ﷻ وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى سبحانه وتعالى أبلغ؛ لذا كان النبي ﷺ لا يجد فرصة للاعتبار إلا حذّر أصحابه وذكّرهم[2]، لأنّ الذكرى تنفع المؤمنين.

رابعا- الإنجازات المحقّقة في الغزوة: حقّقت الغزوة نجاحا سياسيا وعسكريّا كبيرا، أشار إليه "بول-Buhl" في الفقرة المذكورة من مادة "محمد ﷺ"، ويتجلّى هذا النجاح على عدّة مستويات أهمّها:

- **الإنجاز الأول: انسحاب الروم**: لَما وصل جيش المسلمين إلى تبوك لم يجد أحدا هنالك، لأن الروم لَما بلغهم مسير هذا الجيش الذي يؤثر الموت على الحياة، وسمعوا عن مدى قدرته على اجتياز المصاعب، وإصراره على لقاء الأعداء، ووصلتهم المعلومات التي تتحدّث عن ضخامة جيش المسلمين وارتفاع معنوياتهم، أفزعهم دنوّ جيش رسول الله ﷺ فلم يَجترِئوا على التقدم واللقاء، وآثروا الانسحاب إلى بلاد الشام ليتحصنوا بحصونها، فلم ير النبي ﷺ داعيا لتتبعهم داخل بلادهم[3].

عَسْكَر الرسول ﷺ في تبوك، وهو مستعد للقاء العدو، وراح يراقب الروم ويتحداهم أن يبرزوا له ويقاتلوه، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة[4].

وبالرغم من أن جيش المسلمين مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقا في الدخول مع المسلمين في قتال، وحتى القبائل العربية المتنصّرة آثرت السكون، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية[5]، كأهل "أيلة" و"جرباء" وغيرهما على ما سيأتي بيانه.

---

[1]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 73]، 457/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، 148/18. واللفظ للبخاري.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 502/2. وفقه السيرة، الغزالي، 408. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 827.

[3]- ينظر: مغازي الواقدي، 1019/3. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 502/2. والرسول القائد، محمود شيت، 401.

[4]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 253. والرحيق المختوم، المباركفوري، 513.

[5]- ينظر: السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، 624.

كما وجّه النبي من عسكره في تبوك سرايا إلى بعض المناطق التي فتحها المسلمون، وقبل أهلها الصلح مع رسول الله ﷺ وموادعته لَمّا رأوا قوة المسلمين، وهو ما عبّر عنه "بول-Buhl" "**بالسمعة العسكرية القوية**"؛ التي مكّنت من إخضاع المستعمرات المسيحية واليهودية الصغيرة في شمال شبه الجزيرة.

لقد خَلَت غزوة "تبوك" من القتال، ولكنها حقّقت مكاسب دعوية وعسكريّة وسياسية هامة.

- **بعض الاستدراكات على ما ذكره المستشرق "بول-Buhl":**

– **الاستدراك الأول:** قول "بول-Buhl" بأنّ النبي ﷺ: «**ما إن وصل إلى تبوك وإلْتقى بالعدو عند الحدود مع الأراضي البيزنطية، حتى اشتبك معه في معركة غير حاسمة**»؛ هذه العبارة توهم أنّه وقع قتال بين المسلمين والروم في "تبوك"، لكنّ الروايات التي أوردها ابن إسحاق والواقدي وغيرهما تبيّن أنّه لم يقع قتال مع الروم في تبوك مطلقا[1]، كما صرّح ابن سعد والبلاذري بأنّ جيش الروم هاب محاربة المسلمين وانسحب؛ فلم يلق المسلمون كيداً[2].

وربّما قصد "بول-Buhl" بذلك السرية التي بعثها النبي ﷺ من معسكره في تبوك إلى "دومة الجندل" بقيادة خالد ﷺ، والتي وقعت فيها مناوشات خفيفة كما سيأتي قريبا، لكنّ عبارته غير واضحة.

– **الاستدراك الثاني:** أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يوما في أوثق الروايات، كما ما جاء مصرّحا به في حديث جابر بن عبد الله ﷺ عند أبي داود وأحمد[3]، وهو قول الواقدي وابن سعد وغيرهما[4]، بينما ذكر الزهري وابن إسحاق: أنّه مكث "بضع عشرة ليلة"[5].

ويمكن الجمع بين القولين كما أفاد الزرقاني: بأنّ من قال "عشرين يوما" حَسَب يوم القدوم ويوم الارتحال، فيصدق البضع بما عداهما[6]؛ إذ قد يختلف الناس في التقدير بحسب ذلك، وقرينة هذا الجمع التقارب بين القولين، إذ الخلاف لا يتجاوز اليومين أو نحوهما.

لكن لم أقف على مَن قال إنّه مكث عشرة أيّام كما ذكر "بول-Buhl" في مادة "تبوك" وفي مادة "محمد ﷺ"، ويُحتمل أنّ عبارة ابن إسحاق السابقة أوقعته في هذا الوهم، إذ لم يحسن ترجمتها.

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 525/2-527. ومغازي الواقدي، 1019/3. وتاريخ الإسلام، الذهبي، 432/1.

[2]– ينظر: الطبقات الكبرى، 126/2. وأنساب الأشراف، 525/2-527. وأيضا: السيرة النبوية، أبو شهبة، 502/2. والرسول القائد، محمود شيت خطاب، 401. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 535/2.

[3]– ينظر: **سنن أبي داود** (عون المعبود)، كتاب أبواب صلاة السفر، باب إذا أقام بأرض العدو يقصر، 73/4. **ومسند أحمد**، 44/22. وصحّحه الذهبي في "تاريخ الإسلام، 432/1" والأرنؤوط في تحقيق المسند.

[4]– ينظر: مغازي الواقدي، 1015/3. والطبقات الكبرى، 127/2.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 527/2. وتاريخ الإسلام، 432/1.

[6]– شرح الزرقاني على المواهب، 96/4.

• **الإنجاز الثاني: معاهدة قبائل المنطقة:** لَمّا انتهى النبي ﷺ إلى تبوك أخذ يتصل بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة ويتلقى سفاراتهم، فيعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، ليقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية ويحولهم إلى مواطنين أو حلفاء للدولة الإسلامية، وهو الهدف الذي كان يطمح إلى تحقيقه منذ بدء صراعه مع الروم[1].

وذلك أنّه بعد تراجع قوات الروم والموالين لهم من قبائل العرب، لم يكن أمام القبائل المقيمة في منطقة تبوك وما حولها إلاّ التسليم للأمر الواقع وموادعة النبي ﷺ، كما ذكر "بول-Buhl"، وبيان ذلك في العنصر الموالي.

خامسا- مصالحة أهل "أيلة" و"أذرح" و"جرباء" و"مقنا"[2]:

أ)- قدم على النبيّ ﷺ يوحنّا بن رؤبة "ملك أيلة"، وكان واليًا على القبائل المسيحية واليهودية في هذه المنطقة، وصالحه على الجزية، وكتب له بذلك، وعقد الرسول ﷺ معه معاهدة على أن يدفع جزية قدرها ثلاثمائة دينار كل عام[3].

وفي الصحيحين عن أبي حميد الساعدي ﷺ قال: «غزونا مع النبي ﷺ تبوك، وأهدى ملكُ "أيلة" للنبيِّ ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بردا، وكتب له ببحرهم[4]»[5].

ذكر هذا الصلح "بول-Buhl" في مادتي "تبوك" و"محمد ﷺ"، و"موسيل-Musil" في مادة "أيلة".

ب)- وأتاه أهل "جرباء" و"أذرح" و"مقنّا": وهي مناطق متقاربة، فتمّ الصلح بينهم وبين المسلمين على الجزية أيضا، وكتب رسول الله ﷺ لِكلّ منهم كتابا بذلك[6].

جاء ذكر هذه المعاهدات في مادتي "تبوك" و"محمد ﷺ"، وفي مادة "جربَى".

---

[1]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 253.

[2]- **أيلة:** مدينة على ساحل البحر الأحمر، ما بين مصر ومكّة، وهي آخر الحجاز وأول الشام، وتُعرف اليوم باسم "العقبة" ميناء بالأردن. ينظر: معجم البلدان، الحموي، 292/1. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، البلادي، 35.

- **أذرح:** مدينة في أطراف الشام، تقع في شرق الأردن، وتبعد عن مدينة "معان" حوالي (25 كلم) شمالا. ينظر: معجم البلدان، 129/1. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 24.

- **جرباء:** مدينة بالشام، في الأردن اليوم، قريبة من "أذرح" المذكورة سابقا. ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 374/2. ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة، 81.

- **مقنا:** مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة. ينظر: معجم البلدان، 178/5. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، 277.

[3]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 525/2-526. ومغازي الواقدي، 1031/3. والقول المبين، النجار، 364.

[4]- "ببحرهم": أي: بِمنطقتهم. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، 639/7.

[5]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجزية والموادعة، باب أذا وادع الإمام ملك القرية، 320/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الفضائل، باب في معجزاته ﷺ، 60/15-61. واللفظ للبخاري.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 525/2. ومغازي الواقدي، 1032/3. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 461/5.

هكذا **عقد النبي ﷺ** العهود الخاصة **بالسّلم بين المسلمين والنصارى**، ومهد السبل للمسلمين يسيرون في تلك الديار دعاة للإسلام، وهي نتيجة من أعظم النتائج التي تتفق مع الدعوة الإسلامية، فما جاء محمد ﷺ محاربا، ولكن جاء هاديا مبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا[1].

وبهذه المعاهدات كسبَ النبي ﷺ عددا من القبائل العربية القاطنة في جنوب الشام إلى جانب الدولة الإسلامية، وقطع علاقاتها بالروم، وأمن الحدود الشمالية لدولة الإسلام[2].

ج)- سرية خالد إلى دومة الجندل ومصالحة أهلها: ذكر المستشرق "شليفر-Scheifer" في مادة "جوف السرحان[3]" السريّة التي أرسلها النبي ﷺ عندما كان في "تبوك" إلى "دومة الجندل"؛ حيث بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في أربعمائة وعشرين فارسا من الصحابة إلى "دومة الجندل"، إلى أكيدر بن عبد الملك (ملك دومة الجندل) وكان نصرانيا؛ فقتل خالدٌ "حسّانَ" أخا "أكيدر"، وأَسَر "أكيدر" وقدم به على الرسول ﷺ، فحقن دمه، **وصالحه النبي ﷺ على الجزية**، وخلّى سبيله، فرجع إلى مدينته[4].

- إسلام "أكيدر": ذكر المستشرق "شليفر" في نصّه المتقدّم من مادة "جوف السرحان" أنّ "أكيدر" أسلم ثُمّ ارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ، وهذا قول البلاذري[5]، في حين نفى بعض أئمة السيرة إسلامه، لكونه لكونه صالَح النبي ﷺ على الجزية؛ بمعنى أنّه كان من أهل الذمة وبقي على نصرانيته، كما هو ظاهر من رواية ابن إسحاق[6]، قال ابن الأثير: «وَإِنّما أهدَى لِرسول الله ﷺ وصالحه و لم يسلِم، **وهذا لا اختلاف بين أهل السير فيه**، ومن قال: إنه أسلم، فقد أخطأَ خطأً ظاهرًا، وكان أكيدر نصرانيًا»[7].

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون أسلم بعد ذلك كما قال الواقدي، ثم ارتد بعد النبيّ ﷺ مع من ارتدّ كما قال البلاذريّ، ومات على ذلك»[8]؛ وعلى كلا القولين يكون مات كافراً.

---

[1]- ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 1307/2.

[2]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 254. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 826.

[3]- هي منطقة "**الجوف**" في شمال السعودية اليوم على حدود الأردن، كانت تُسمّى قديما "جوف السرحان" نسبة إلى "وادي السرحان"، وبهذه المنطقة تقع "دومة الجندل". ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، 607/8-608.

[4]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 526/2. وطبقات ابن سعد، 126/2. والبداية والنهاية، ابن كثير، 179/7-180.

[5]- ينظر: أسد الغابة، ابن الأثير، 273/1. والإصابة، ابن حجر، 379/1 و381.

[6]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 526/2. والإصابة، 381/1. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 504/2.

[7]- أسد الغابة، 273/1.

[8]- الإصابة، 381/1.

المطلب الثالث : المتخلّفون عن الغزوة والتفريق بينهم

الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة"

– جاء في مادة "**محمد ﷺ نَبيّ الإسلام**"[فقرة: 93]: «**وقد دهش النبي ﷺ أن يرى أتباعه بعد انتصارهم في حنين، عازفين عن الاستجابة لِمناشدته الخروج في الغزوة الجديدة، ربّما خشية تكرار هزيمة مؤتة، فقد تراضى المهاجرون وبعض البدو، بل وكان هناك من بين أتباعه المخلصين من أبدى اعتراضات شتّى مبعثها خوفهم إزاء حملة تذهب بهم بعيدا في قيظ شديد** ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ التوبة الآية 42. **[إلى قوله تعالى]**: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ **[التوبة: 45]**، ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ **[التوبة: 81-84]**، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **[التوبة: 97]**.

والظاهر أن محمداً ﷺ لقي في ذلك الوقت معارضة قوية في المدينة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ **[التوبة: 58]**، ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[التوبة: 61]**، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ **[التوبة: 64-65]** ...

غير أن محمداً ﷺ رغم كل هذه المعارضة مضى قدما في سبيل نشر الدعوة... ولا نعلم للأسف كيف تطورت الأمور في المدينة، وهي التي تأزّمت بسرعة، ولكن بوسعنا أن نفترض أن وفاة عبد الله بن أبَيّ بعيْد غزوة تبوك ساهمت في تخفيف التوتر»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **بول** - Buhl[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- جملة اعتراضات على "بول-Buhl" في موضوع المتخلّفين عن الغزوة: ما ذكره المستشرق "بول" في هذه الفقرة من مادة "محمد ﷺ" تَرِد عليه جملة من الاعتراضات، وهي كالآتي:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 30/9151-9153.

[2]– سبقت ترجمته في: ص150.

• **الاعتراض (1)**: لم تكن هناك خشية من "تكرّر هزيمة مؤتة" كما زعم "بول-Buhl"، لأنّه لم تقع في مؤتة هزيمة أصلا على ما سبق تفصيله[1]، بل على العكس من ذلك ستكون معركة مؤتة دافعا قويّا لِمواجهة الروم وعدم الخشية من قوّتهم، لسبب ظاهر؛ وهو أنّ المسلمين في مؤتة كان عددهم ضئيلا جدّا في مقابل جيش الروم (ثلاثة آلاف، مقابل أكثر من مائة ألف على الأقل) ومع ذلك استطاعوا الرجوع بخسائر طفيفة جداً، والتالي فلن يعجزوا عن تحقيق إنجاز هام في "تبوك" وهم كثرة، وعددهم أقلّ بقليل من الروم، ويشهد لِهذه المقارنة أنّ جيش الروم أدرك ذلك؛ الأمر الذي جعله يتراجع داخل أراضيه، ويعزف عن مهاجمة الجيش الذي صمد أمامه بقلّة قليلة، وقد جاءه اليوم بجيش كبير؛ فقَمِينٌ به أن يحقّق نصرا كبيرا.

• **الاعتراض (2)**: **لا يستقيم تعميم "العزوف عن الاستجابة"**: إنّ تَحليل المستشرق "بول-Buhl" لا يعكس حقيقة موقف المسلمين وغيرهم من النفير لغزوة تبوك؛ إذ أنّ نداء النبي ﷺ للنفير إلى الغزوة عرف استجابة واسعة في أوساط المسلمين من أهل المدينة وغيرهم، إنّما وقع التثاقل أو "العزوف" كما سمّاه "بول-Buhl" من البعض فقط، لا من جميعهم كما تُوهِم عبارته.

كان بعض هؤلاء المتثاقلين من المؤمنين وهم قليل جداً، في حين كان جلّ العازفين عن الاستجابة لأمر الرسول ﷺ من المنافقين، والجميع نسبة قليلة جداً مقارنة بالمستجيبين.

وعليه لا يستقيم تعميمه للتخلّف عن الغزوة أو ما عبّر عنه "بالعزوف عن نداء الخروج للغزوة"؛ لذا كان الأولى أن يقيّد ذلك بالبعض **أولا**، وأن يقيّده بالمنافقين وقلّة قليلة من المؤمنين **ثانيا**، ولا يجعله أمرا شائعا بين جميع المسلمين وحتّى المخلصين منهم كما قال، والشواهد على ذلك من القرآن الكريم وروايات السيرة النبوية الصحيحة كثيرةٌ، منها:

[1]- الشواهد على مسارعة المؤمنين للخروج إلى الغزوة: على عكس ما ذكره المستشرق "بول-Buhl" في قوله بأنّ «**أتباع النبي ﷺ كانوا عازفين عن الاستجابة لِمناشدته الخروج في الغزوة الجديدة**».

فإنّ المؤمنين الصادقين لَمّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى قتال الروم لم يكن منهم إلاّ أن تسابقوا إلى امتثال أمره والاستجابة لندائه، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلّف عن هذه الغزوة إلا المنافقون، وثلاثة نفر من المسلمين الصادقين أخطأوا ثم تابوا؛ بل كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يطلبون من رسول الله ﷺ أن يجد لهم ما يحملهم عليه؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال ﷺ لَهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92]، كما تسابق

[1]- ينظر ما سبق عن نتيجة غزوة "مؤتة": ص908.

المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، على ما سبق بيانه آنفا، وسارعوا إلى الخروج في هذه الغزوة، و لم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقّة، و لم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا عن ابتغاء ما عند الله تعالى من الثواب الجزيل[1].

ولو لم تكن هناك استجابة واسعة وسريعة لنداء النبي ﷺ -كما زعم "بول-Buhl"- لَمَا تجمّع له كلّ ذلك العدد الكبير من المقاتلين (الثلاثون ألفا) الذين وفدوا من المدينة ومختلف القبائل والبلدات المسلمة في الجزيرة العربية آنذاك، في زمن وجيز؛ وفيما يلي بعض النماذج التي تشهد على استجابة المسلمين للنفير ومسارعتهم للخروج مع رسول الله ﷺ:

– **الشاهد (1)**: لَمّا خرج الرسول ﷺ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخلَف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في أهله، قال عليّ: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له الرسول ﷺ: ((أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي))[2]؛ وفي الحادثة دلالة على حرص عليّ رضي الله عنه الشديد على الخروج مع رسول الله ﷺ.

– **الشاهد (2)**: حَزن الفقراء المؤمنون حزنا شديدا، لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقا للجهاد وتَحرّجا من القعود، وهم من سُمّوا "بالبكّائين"، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 91][3]، وقد بيّن النبي ﷺ مبلغ حرص هؤلاء المتخلفين المعذورين -ممن حسنت نياتهم- على الجهاد مع رسول الله ﷺ والمسلمين، بقوله: ((إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَانُوا مَعَكُمْ))، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟! قال: ((وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ))[4].

– **الشاهد (3)**: وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ﷺ ما يحملهم عليه، فعاد إليهم أبو موسى حزينا، وبعد مضيّ بعض الوقت أرسل الرسول ﷺ "بلالا" إل "أبي موسى"، فجاءه، فأعطاه ستّة أبعرة ليركبها مع أصحابه الأشعريين[5].

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 2/517-518 و532. والرحيق المختوم، المباركفوري، 512. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 2/529.

[2]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، 8/140. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عليّ رضي الله عنه، 15/250. من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

[3]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 2/288. والسيرة النبوية الصحيحة، 2/529-530.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب المغازي، باب [دون ترجمة]، 8/158. من حديث أنس رضي الله عنه.

[5]– ينظر: صحيح **البخاري** (الفتح)، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، 8/138. من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

هذا شأن أصحاب الإيمان القوي والعقيدة الراسخة، من أتباع النبيّ ﷺ المخلصين كعليّ بن أبي طالب والبكائين والأشعريين ﷺ، لا يفرحون بالثمار والظلال، ولا يمنعهم الخوف من الحملة التي تذهب بهم في حرّ شديد، ومسافة بعيدة، بل يؤثرون الحر والظمأ والجوع والمشقّة في سبيل الله؛ لذا لا يصحّ إطلاق "بول -Buhl" القول بأنّه «**كان هناك من بين أتباعه المخلصين من أبدى اعتراضات شتّى، مبعثها خوفهم إزاء حملة تذهب بهم بعيدا في قيظ شديد**»، لأنّ كلامه هذا إنّما ينطبق على "الثلاثة المخلّفون من أتباعه المخلصين" فقط[1]، لذا كان ينبغي له أن يكون دقيقا، ويقيّد ذلك بهم.

هذه هي الحالة الشائعة بين المسلمين لَمّا أعلن النبي ﷺ النفير إلى قتال الروم، مع ما كان عليه الحال في هذه الغزوة من الحر الشديد، وطول السّفر، ومشقّة الطريق، وكثرة العدوّ، وإنّما تنطبق الحالة التي ذكرها المستشرق "بول" على فئة قليلة من المنتسبين زورا إلى الإسلام **وهم المنافقون** من أهل المدينة وما حولها من الأعراب، فلا يستقيم تعميم "بول -Buhl" هذا الأمر على المسلمين؛ فإنّما تخلّف من المؤمنين الصادقين نفر قليل جدا بعضهم **من أصحاب الأعذار** السابق ذكرهم وهم معذورون، والبعض الآخر **غير معذورين وهم ثلاثة** فقط.

– **تفسير التثاقل المذكور في الآية**: أمّا قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [التوبة: 38]؛ فهو محمول على المنافقين كما بيّن الإمام الرازي وغيره، وقد يدخل في ذلك قِلّة من المسلمين الذين عاتبهم الله ﷻ، من باب التمحيص وأخذ العبرة[2].

ذلك أنّ بعض المسلمين تثاقلوا عن الغزو في تلك الحال الصعبة، وانتابهم الضعف البشريّ، وشقّ عليهم الخروج وترك الظلال الوارفة والثمار الطيّبة، لكنّهم دافعوا أهواءهم، وآثروا ما عند الله تعالى من الرضوان والثواب العظيم، وهو ما تدلّ عليه رواية ابن إسحاق التي يبدو أنّ المستشرق "بول" أخذ منها استنتاجه هذا، لكنّه لم يأخذه بصورته متكاملة –كعادته هو وبعض المستشرقين–، حيث روى ابن إسحاق عن شيوخه من التابعين كالزهري وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر وغيرهم: «أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه...»؛ وهذا وصف للتثاقل الفطري الذي وقع من بعضهم، ثم جاء

[1]– مع **التنبيه**: إلى أنّهم تخلّفوا دون أن يعترضوا، فالمعترضون هم المنافقون فحسب، كما سيأتي.

[2]– ينظر: تفسير الرازي، 138/10–139. وسبل الهدى، الصالحي الشامي، 434/5. والتفسير المنير، الزحيلي، 229/10.

في الرواية: «**فَتَجَهّز النّاسُ على ما في أنفسهم من الكره** لذلك الوجه لِما فيه»[1]، وفي هذا الشطر من الرواية بيان لِمدافعة المسلمين لذلك التّثاقل وعدم الركون إليه، وعقد العزم على الخروج مع الرسول ﷺ لغزو الروم رغم المشاقّ والمصاعب الجمّة، ولو لم يدافعوا أهواءهم لَما تجمّع كلّ ذلك الجيش الكبير من المقاتلين في هذه الغزوة، وبالتالي فالآية فاضحة للمنافقين، وموجّهة مرشدة للمؤمنين الصادقين، وهم درجات في إيمانهم، منهم من سارع، ومنهم من تثاقل ثم خرج.

ومن أمثلة ذلك: ما فعله "أبو خيثمة الأنصاري" رضي الله عنه حين دافع ما في نفسه من التثاقل والضعف وأسرع للّحاق بالنبي ﷺ رغبة فيما عند الله تعالى، حيث يقول: «تَخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك... فدخلت حائطا، فرأيت عريشا قد رُشّ بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: **ما هذا بالإنصاف، إنّ رسول الله ﷺ في السّموم والحميم، وأنا في الظّل والنعيم**؛ فقمت إلى ناضحٍ فاحتقبتُه، وإلى تميرات فتزودتها... فخرجت أريد رسول الله ﷺ... فلما اطلعت على العسكر، فرأى الناس، فقال ﷺ: ((كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ))؛ فجئت... فقال لي رسول الله ﷺ خيرا ودعا لي»[2].

[2]– المخلّفون أصناف ثلاثة: معظم من تخلف عن الغزوة **من المنافقين**، وتخلّف عدد **يسير من الصحابة** رضي الله عنهم **من أصحاب الأعذار**، سوى **ثلاثة فقط لم يكن لهم عذر** عن شهود هذه الغزوة[3].

إنّ الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الغزوة تردّ تعميم "بول-Buhl"[4]، لأنّها فرّقت بين أصناف ثلاثة من المخلّفين كما نبّه ابن كثير[5]، ولكلّ منهم أسبابه، وحكمه الخاصّ، بيد أنّ الآيات التي ذكرها تشير إلى صنف واحد فحسب من هذه الأصناف، وهم المنافقون، حيث أهمل الآيات التي تشير إلى بقيّة الأصناف جريا على "**منهجية الانتقاء الكيفي**"، وكان الأولى به إيرادها، حتّى يكون سياقه للشواهد، وتحليله للوقائع متكاملا، وأقرب إلى الإنصاف والبحث العلمي النزيه.

وفيما يلي التفريق بين الأصناف الثلاثة للمخلّفين، مع إيراد بعض ما ورد فيهم من الآيات:

- **الصنف الأول: المنافقون:** قام المنافقون في هذه الغزوة بحرب دعائية عند إعلان النفير فمضوا يثبّطون الناس ويقولون: "لا تنفروا في الحر"، فقد كان الحر شديدا، وكان الناس يفيئون إلى ظلال

---

[1]– تاريخ الطبري، 101/3.

[2]– أخرجه: **الطبراني**، المعجم الكبير، 31/6. وفي سنده ضعف لِضعف "يعقوب بن محمَّد الزهري": صدوق كثير الوهم كما في "تقريب التهذيب، ابن حجر، 608". وللحديث شواهد من: مرسل عبد الله بن أبي بكر عند البيهقي "دلائل النبوة، 222/5"، ومرسل عروة بن الزبير في "دلائل النبوة، 224/5 و226" أيضا، و"تاريخ الإسلام، الذهبي، 229/10". وفي: صحيح مسلم (النووي)، 139/17؛ طرف من القصّة. وينظر: الصحيح من أحاديث السيرة، الصويان، 504.

[3]– ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 288/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 527/2–528.

[4]– لأنّ "بول-Buhl" كثيرا ما يتبجح بأنّ حادثة معينة في السيرة لم تذكر في القرآن يريد نفيها، لكن هذا الأمر ورد في القرآن، فأهمله.

[5]– ينظر: البداية والنهاية، 200/7.

الأشجار، فكان المنافقون يستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل، وقد ذهب بعضهم إلى النبي ﷺ يستأذنه بالتخلف مبدياً الأعذار الكاذبة حتى عاتب الله نبيه على إذنه لهم، فقال: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 42-45]؛ ففضح الله تعالى كذب المنافقين في استئذانهم النبيَّ ﷺ[1].

هذا التخذيل الذي قام به المنافقون بذريعة "الحرّ الشديد" و"بعد المسافة"، وغيرها من الأعذار الكاذبة، هو ما عبّر عنه "بول-Buhl" "**بالاعتراضات التي كان مبعثها خوفهم إزاء حملة تذهب بهم بعيدا في قيظ شديد**"، فتلك الاعتراضات إنّما وقعت من المنافقين فحسب لا من المسلمين.

فقد كانت هذه الغزوة -لظروفها الخاصة- اختبارا شديدا من الله تعالى، امتاز به المؤمنون من غيرهم، فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنا صادقا[2]، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، لذا نجد كعب بن مالك ﷺ في حديثه الطويل عن قصّة تخلّفه وتوبته: يذكر أنه **لم يبق بالمدينة إلا المنافقون** وأهل الأعذار من الضعفاء[3].

- **الصنف الثاني: الذين تخلّفوا لعذر من المؤمنين**: وهم الذين حبسهم العذر، قال تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91، 92]؛ وهم الضعفاء والمرضى والعجزة، والفقراء الذين لا يجدون نفقة الغزو من الزاد والراحلة، وقد سبق ذكرهم، وأنّ منهم البكائين الذين كانوا يتحرّقون شوقا للخروج مع الرسول ﷺ غير أنّه حبسهم العذر[4].
- **الصنف الثالث: الذين تخلفوا بغير عذر من المؤمنين وتاب الله عليهم**: لم يتخلف أحد من المؤمنين الصادقين عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك – من غير عذر- سوى ثلاثة نفر، كلهم من الأنصار، لا عن شك وارتياب، وإنما أدركهم الضعف البشري، وهؤلاء هم: **كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع** ﷺ، وهؤلاء الثلاثة من الأنصار معروفون بحسن إيمانهم، فقد شهد كعب بن مالك بيعة

---

[1]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 516/2-517. وتفسير الطبري، 477/11-480. والسيرة الصحيحة، العمري، 526/2.

[2]- ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، 517.

[3]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 142/8. وصحيح مسلم (النووي)، 138/17.

[4]- ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، 288/2. وتفسير الرازي، 121/16. والبداية والنهاية، ابن كثير، 150/7-153. والسيرة النبوية الصحيحة، 530/2.

العقبة الثانية وسائر الغزوات قبلها سوى بدر، و لم يكن يعتزم التخلف عنه، ولكن غلبه التسويف، والميل إلى الظلال والثمار حتى خرج الناس، وأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فكلاهما شهد بدراً[1].

وقد عاتب الله عز وجلّ ونبيُّه ﷺ هؤلاء المتخلفين من المؤمنين أشدّ العتاب، وعاقبهم تمحيصا لهم، فأمر رسول الله ﷺ الصحابةَ ألا يكلّموا هؤلاء الثلاثة، وجرت ضدّهم مقاطعة شديدة استمرّت خمسين ليلة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أُمِروا أن يعتزلوا نساءهم، ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118]؛ ففرح المسلمون وفرح الثلاثة بذلك فرحا عظيما، فأبشروا وتصدّقوا، وقصّتهم مبسوطة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه (وهو أحد الثلاثة) الذي فصّل قصّة تخلّفه، وكيف تاب الله عليه وعلى صاحبيه[2].

- **الاعتراض (3): لا يستقيم تعميم "معارضة النفير"**: كما أنّ كلام "بول-Buhl" كان فيه تعميمٌ للتخلّف عن الغزوة على جميع المسلمين، فلم يفرّق في ذلك بين المستجيبين، وبين الأصناف الثلاثة من المتخلّفين، فإنّه وقع كذلك أيضا في تعميم "الاعتراض" التي أبداه جملة من المنافقين على الغزوة، وسبق بيان أنّ المعارضة تمثّلت في تخذيل الناس عن الخروج للجهاد بذريعة الحرّ الشديد وبعد المسافة، لكنّ هذا التخذيل وتلك الاعتراضات لم تقع من جميع المتخلّفين، فضلا عن أن تقع من المستجيبين.

– **فالمنافقون:** هم فقط من أبدوا معارضة للنفير، وحاولوا تخذيل المسلمين.

– أمّا "**المخلّفون الثلاثة**" من غير عذر الذين تابوا بعد ذلك: فلم يوافقوا المنافقين أبدا في تخذيل الناس عن الجهاد، ولا أبدوا اعتراضات على الغزو، بل إنّهم لم يكونوا عازمين على التخلّف، وإنّما غلبهم التسويف، وركنوا إلى الظلال والراحة، وتكاسلوا عن الخروج، كما يبيّن واحد منهم وهو كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه عن تخلّفه وتوبته[3].

– أمّا **الذين تخلّفوا لعذر:** فعلى العكس من ذلك كانوا متشوّقين للخروج لولا أن حبسهم العذر.

- **الاعتراض (4): لا يستقيم تضخيم "المعارضة"**: قول "بول-Buhl" «**أنّ محمداً ﷺ لقي في ذلك الوقت معارضة قوية في المدينة**»: كلام فيه شيء من التضخيم للمعارضة المذكورة[4]، فمع أنّ المنافقين

---

[1]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 519/2 و531. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 526/2.

[2]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، 141/8-145. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، 136/17-149.

[3]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 142/8. وصحيح مسلم (النووي)، 138/17.

[4]– سبق آنفا التنبيه إلى أنّ ما سمّاه المستشرق "بول" "معارضة": إنّما هو ما وقع من المنافقين مِنْ تخذيل للناس عن الخروج للغزوة.

حاولوا فتنة الناس وتخذيلهم في هذه الغزوة، إلاّ أنّ معارضتهم لم تصل إلى تلك الدرجة من القوة المزعومة لِما يلي:

أ)– أنّها لم تكن معارضة معلنة، والشواهد على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 94]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [التوبة: 45]، وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: 74]؛ ولو كانوا معلنين لِمعارضتهم ما احتاجوا إلى الاستئذان عن التخلّف، ولا إلى الاعتذار، ولا إلى الحلف على أنهم ما قالوا كلمة الكفر، وإنّما كانت "معارضتهم" حملة تخذيل على مستوى أفراد وجماعات محدودة جلّهم من المنافقين.

ب)– **عدم تأثير تلك المعارضة** (وفق تعبيره) **في الغزوة:** ولا وجه لتضخيم المستشرق لِهذا التخلّف؛ لأنّه لم يكن له أثر كبير على هذه **الغزوة الناجحة**، لسببين:

– **الأول:** أنّ المستجيبين من المسلمين للنّفير والخارجين في الغزوة عدد كبير جاوز الثلاثين ألفا -كما ذكر "بول-Buhl"-، بينما كان عدد المخلّفين في حدود المائة أو المائتين على الأكثر[1]؛ وهو عدد ضئيل جدّا، مقارنة بعدد الخارجين؛ وفي ذلك دلالة على عدم نجاح حملة المنافقين في تخذيل الناس عن الخروج.

– **والثاني:** أنّ الحملة كانت في غنى عنهم؛ للعدد الكبير الخارج فيها **أولا**، ولأنّها نجحت -كما ذكر "بول-Buhl" نفسه في مادة "محمد ﷺ"- وحقّقت أهدافها دونهم **ثانيا**.

لكن ينبغي **التنبّه** أنّ الله تعالى **عاتبهم على التخلّف** من وجهين؛ **الأول:** أمّا المؤمنون: فلتمحيص إيمانهم، والاعتراف بذنبهم، وليأخذوا العبرة هم وجميع المؤمنين، فلا يتكرر ذلك منهم أو من غيرهم.

والثاني: وأما المنافقون: فمن أجل فضح دسائسهم، وإفشال خططهم، حتى لا يعودوا لمثلها.

ثانيا- تراجع المنافقين بعد تبوك وأسبابه: حاول المستشرق "بول -Buhl" تضخيم أثر المنافقين في "غزوة تبوك"، في حين نجده يعترف بعد ذلك بتراجع مخّططاتهم بعد هذه الغزوة، لكنّه يعجز عن تفسير هذا التراجع للمنافقين بعد "تبوك"، فيقول: «**ولا نعلم للأسف كيف تطورت الأمور في المدينة... وساهمت في تخفيف التوتر**»، ويكتفي بتقديم افتراض وحيد كمبـــرّر لذلك، وهو أنّ "**وفـــاة عبد الله بن أبَيّ بعيْد غزوة تبوك**" ساهمت في تراجع معسكر المنافقين، لكنّ الاقتصار على هذا الافتراض يشير إلى أنّه لم يستوعب بشكل كافٍ الأحداث والتغيّرات التي واكبت "غزوة تبوك" ووقعت بعدها، وكان لَها الأثر البالغ في إضعاف صوت المنافقين وخفوته، ثم قُطِع دابرهم، و لم يعد لهم أيّ أثر صغير ولا كبير في المجتمع الإسلامي، بينما تاب بعضهم وحسن إسلامه.

[1]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 142/8. ومغازي الواقدي، 995/3. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 532/2.

ومن أهم التغيّرات والوقائع التي تسبّبت في اضمحلال معسكر المنافقين هي كالآتي:

أ)- فضحهم في سورة التوبة: كشفت سورة التوبة عن دسائس المنافقين، وكذبهم وتربّصهم بالمؤمنين، وأصبح التخلّف في غزوة تبوك علامة على النفاق إلاّ المعلوم عذرهم والنفر الثلاثة الذين تاب الله عليهم، وبذلك وُضعت الحواجز بين المؤمنين والمنافقين، و لم يعد التعامل مع المنافقين يقوم على الستر وعدم المجاهرة، بل صارت المفاصلة أساسا للتعامل، فقد فضحهم القرآن الكريم، حتّى سُمّيت سورة التوبة "بالفاضحة" و"المخزية"[1].

لقد كانت آيات سورة "براءة" التي نزلت عن المنافقين، في قرابة مائة آية، أعنف حرب إعلامية عليهم، كشفت جميع مخططاتهم، وعرّتهم تعرية كاملة في المجتمع الإسلامي، واستطاعت هذه الحملة الناجحة أن تهزم معسكر النفاق، وتعيد الكثيرين منه إلى الصف الإسلامي الخالص، فيحسن إسلامهم[2].

ب)- فشل محاولة مسجد الضرار: قام المنافقون ببناء مسجد قبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه ويكيدوا بالمسلمين، ومن أجل ترويج النفاق وإشاعة الفرقة والفتنة بين المسلمين، وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على المسلمين، وطلب المنافقون من الرسول ﷺ أن يصلي فيه تمويهاً على الناس، فنهاه القرآن عن ذلك وسماه "مسجدا ضراراً"؛ وأنبأ الله تعالى نبيّه ﷺ بمخطّطهم، فامتنع عن الصلاة في مسجد الضرار الذي بنوه، وأحرقه ﷺ بعد غزوة تبوك، وقال تعالى فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 107-108][3]؛ بذلك فشلت محاولة أخرى كبرى من المنافقين لزعزعة صفّ المؤمنين، وكُشف مخطّطهم، فأصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئا فشيئا، و لم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[4].

ج)- خيبة أمانيهم، والتشديد عليهم بعد "تبوك": بطلت بقايا أمنيات كانت تتحرك في قلوب بقايا المنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين[5]، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان في "غزوة تبوك"، ثُمّ استكانوا بعد أن خابت أمانيهم عقب هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذي لم يجدوا عنه محيدا

---

[1]- ينظر: تفسير الطبري، 479/11-480 و542. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 527/2 و533.

[2]- ينظر: فقه السيرة، الغضبان، 620.

[3]- ينظر: تفسير البغوي، 387/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 527/2.

[4]- ينظر: السيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 841.

[5]- تَمنّى المنافقون هزيمة المسلمين، وقال بعضهم عن صحابة الرسول ﷺ: «والله لكأنّا بكم غداً مقرنين في الحبال»، وبعضهم استهزأ بمواجهة المسلمين للروم. ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 525/2. وتفسير الطبري، 544/11.

ولا مناصا؛ وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبرهم، وأنزل فيهم آيات فضحتهم[1]، وكان لكلّ ذلك أثر هام في إضعافهم.

د)– موت زعيم المنافقين "عبد الله بن أبي بن سلول": وهو السبب الذي ذكره المستشرق "بول"، وهو حدث كان له أثر كبير في ضعف موقف المنافقين، لكن يبدو أنّ موقفهم شرع في الخفوت قبل ذلك بيسير، خاصة بعد نزول "سورة التوبة" وهدم "مسجد الضرار".

وبِموت رأس المنافقين "عبد بن أبيّ بن سلول" وفشل محاولة "أبي عامر الفاسق" إقامةَ "مسجد الضرار"، انتهت مخطّطات هاذين الزعيمين الكبيرين لِمعسكر المنافقون، فضعف أتباعهما وتفرّقوا، وتشتّت شملهم، فمات من مات منهم على نفاقه، وتاب بعضهم ودخل في الإسلام حقيقة.

المطلب الرابع : بعض السرايا قبيل تبوك وبعدها

الفرع الأول : سرية علقمة المدلجي ﷺ قبيل تبوك

– جاء في مادة "**النجاشي**" [فقرة: 4]: «**ولَمّا كانت السنة التاسعة للهجرة (630م) أرسل النبي ﷺ علقمة بن مُجَزِّز المدلجي لإخراج القراصنة الأحباش من إحدى الجزر، كما ذكر ابن سعد في "الطبقات" لكن هذه الحملة لم تكن موجهة أبدا ضد النجاشي**»[2]. المحرر هو المستشرق: **فان دونزل** –Donzel[3].

سبب هذه السريّة: أن رسول الله ﷺ بلغه أن ناسا من أهل الحبشة رآهم أهل "جدّة"[4] في سواحل جدّة بناحية مكة في مراكب، وبدا أنهم كانوا يريدون الإغارة عليهم، أو أنّهم ربّما قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة[5]، كما أشار إلى ذلك المستشرق "دونزل- Donzel" في نصّه المذكور من مادة "النجاشي".

على إثر ذلك: بعث الرسول ﷺ إليهم علقمة بن محزِّز رضي الله عنه في ثلاثمائة رجل، في **ربيع الآخر** من **السنة التاسعة** للهجرة، فسار إليهم علقمة وطاردهم، وخاض البحر وراءهم، حتى انتهى إلى جزيرة في البحر الأحمر؛ فهربوا، و لم يلق المسلمون كيدا[6].

---

[1]– ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، 518–519.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص3، 9880/31.

[3]– سبقت ترجمته في: ص410.

[4]– **جدّة**: بضم الجيم، مدينة معروفة على ساحل البحر الأحمر، تقع غرب مكة على مسافة (73 كلم). ينظر: معجم ما استعجم، البكري، 371/2. والمعالم الأثيرة في السنة والسيرة، شرّاب، 88.

[5]– ينظر: سبل الهدى، الشامي، 216/6. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 1286/2. والسيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، غلوش، 615.

[6]– ينظر: مغازي الواقدي، 983/3. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 123/2. وعيون الأثر، ابن سيد الناس، 257/2.

ويبدو أنّ هذه الحملة لم تكن موجّة إلى النجاشي ملك الحبشة كما ذكر "دونزل-Donzel"، لأنّ تصرّف هؤلاء الأحباش كان عملا فرديّا، و لم يكن بإيعاز منه كما يظهر من الروايات.

الفرع الثاني : سرية خالد ﷺ إلى بلحارث بعد تبوك

– جاء في مادة "**الحارث بن كعب**": «**في ربيع الأول من سنة عشرة للهجرة (630م) أنفذ محمدٌ خالدَ بن الوليد في 480 رجلا إلى بلحارث يدعوهم إلى الإسلام؛ فأسلم الوثنيون منهم وبعض النصارى، وظل خالد مقيما بينهم يعلمهم القرآن ومعالم الإسلام؛ وعاد خالد إلى النبي بعد فترة من الزمن في وفد من بلحارث (بينهم اثنان من أسرة عبد المدان النصرانية) فوهب محمد كل رجل من رجال الوفد 10 أوقيات (400 درهم)، وأقام أحدهم وهو "قيس بن الحصين"[1] أميرا على بلحارث**»[2].

المحرر هو المستشرق: **كارادە فو** -Carra De Vaux[3].

وقعت هذه السريّة في: **ربيع الأول سنة عشر** للهجرة؛ حيث بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى بني الحارث بن كعب بنجران[4] في أربعمائة من المسلمين، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن استجابوا قبل منهم، وإن لم يستجيبوا قاتلهم؛ وخرج خالد حتى قدم عليهم، وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: "أيها الناس، أسلموا تسلموا"، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم "خالد" يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيّه ومعالم الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه أن يقبل إلى المدينة ومعه وفدهم، فأقبل خالد إلى الرسول ﷺ ومعه وفد من بلحارث فيهم: قيس بن الحصين، ويزيد بن الْمُحجّل، والرجلان بني عبد المدان اللذان أشار إليهما "كارده فو-Carra De Vaux": "يزيد بن عبد المدان" و"عبد الله بن عبد المدان"؛ فأسلموا.

وأمّر رسول الله ﷺ على بني الحارث "قيس بن الحصين"، ثم رجع وفد بني الحارث إلى قومهم[5].

لكن ما جاء في نص المادة من أنّ عدد المسلمين مع خالد ﷺ في هذه السرية كان (480) رجلا، فلم أجده فيما وقفت عليه من المصادر، بل ذكر ابن سعد والطبري أنهم كانوا: أربعمائة (400) رجل[6]، فلعلّه خطأ مطبعي.

---

[1]– في المطبوع "قيس بن الحسين"، والصواب "بن الحصين"، كما في: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 593/2.

[2]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 245/7.

[3]– سبقت ترجمته في: ص253.

[4]– **بنو الحارث**: بطن من مَذْحِج، من القحطانية، كانوا يسكنون في منطقة نجران. ينظر: معجم قبائل العرب، كحالة، 231/1.

[5]– ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 592/2-593. والطبقات الكبرى، ابن سعد، 255/1-256.

[6]– ينظر: الطبقات الكبرى، 255/1-256. وتاريخ الطبري، 126/3.

المبحث الخامس : نظرة "دائرة المعارف" إلى مقاصد جهاد النبي ﷺ وشخصيّته القيادية

المطلب الأول : مقاصد النبي ﷺ من الغزوات والسرايا

الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة"

– جاء في مادة "**الجهاد**": «... **وقد يشك في أن محمداً رأى أن موقفه يقتضي حرب الكفار حربا متصلة من غير أن يثيروها عليه إلى أن يدخلوا في الإسلام، والأحاديث صريحة في هذا الأمر...**

ثم إن قصة كتابة النبي إلى حكام البلاد المحيطة به تبين أن هذا الموقف حيال الناس جميعا كان يخالجه، وأنه تطور على التحقيق عقب وفاته مباشرة عندما زحفت الجيوش الإسلامية إلى خارج جزيرة العرب»[1]. محرر المادة هو المستشرق: **ماكدونالد** – D.B.Madonald[2].

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة

أولا- جهاد النبي ﷺ بين الدفاع والمبادأة: طرَح المستشرق "ماكدونالد- Madonald" في نصّه المذكور من مادة "الجهاد" إشكالا حول مقصد النبي ﷺ من الجهاد، هل كان بقصد الدفاع فحسب، أم كان بقصد نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية أيضا؟

نلاحظ أنّ جوابه عن الإشكال تَميّز بالاضطراب من جهة، وعدم الوضوح من جهة أخرى، فهو يفترض أنّ النبي ﷺ لم يكن يَرَ مقاتلة الكفار [ولعلّه يريد خارج الجزيرة] حتّى يدخلوا في الإسلام، ويبدو أنّ مقصده من ذلك هو التشكيك في عالمية الإسلام، وإن كان ربَط ذلك بمقصد الجهاد وهدفه، لكنّه يعود ويستدلّ على عالمية دعوة النبي ﷺ بكتبه إلى ملوك العالم آنذاك، وإن حاول التقليل من هذا المقصد بقوله أنّ «**هذا الموقف حيال الناس جميعا كان يخالجه**[3]».

وذكر "ماكدونالد- Madonald" أنّ الأحاديث صريحة في بيان أنّ النبي ﷺ لم يكن يرى شنّ الحرب على الكفار إلى أنْ يدخلوا الإسلام، لكنّه لم يبيّن هذه الأحاديث، ولا أعطى حتّى مثالا واحد عنها، ولعلّه يقصد بذلك الأحاديث التي تنهى عن "تَمنّي لقاء العدو"[4]؛ غير أنّ المستشرق غفل عن أمرين يردّان قوله:

---

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 7/188-189.

[2]– سبقت ترجمته في: ص228.

[3]– وهي عبارة المستشرق التي ذكر أنّ الأحاديث جاءت بخلافها، ذكرتُ الحديث الذي يدلّ على تقريرها.

[4]– وهو قوله ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ، **لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ**، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ **الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ**))، من حديث "عبد الله بن أبي أوفى" ﷺ: عند **البخاري ومسلم**، وسيأتي تخريجه في: ص973.

– **الأول**: أنّ هذه الأحاديث لا تعني نفي غزو الكفّار من أجل التمكين لنشر الإسلام، وإنّما تحضّ على تغليب جانب السلم حتّى عند لقاء العدوّ، بحيث لا يتمّ الإقبال على القتال إلا بعد أن تُستنفد الوسائل السلمية[1]، فإن أصرّ العدوّ على القتال، فالحديث أيضا يرغّب في القتال حينها.

– **والثاني**: أنّ الله ﷻ أمر بالقتال من أجل التمكين لنشر الإسلام، في جزيرة العرب وخارجها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: 123]، ومن هنا كانت "غزوة تبوك" كما ذكر الطبري وابن كثير وغيرهما[2] على ما سبق تفصيله، وعليه فلا يستقيم قول "ماكدونالد- Madonald" بأنّ: «**هذا الموقف حيال الناس جميعا كان يخالجه، وأنه تطور على التحقيق عقب وفاته مباشرة عندما زحفت الجيوش الإسلامية إلى خارج جزيرة العرب**»، لأنّ غزوة "تبوك" التي شارك فيها النبي ﷺ كانت موجّهة إلى تخوم الشام خارج جزيرة العرب، وإن لم تستكمل مسيرتها، فإنّها تبيّن أنّ نشر الإسلام خارج جزيرة العرب لم يكن مجرّد رأي كان "**يخالج النبي** ﷺ" -وفق عبارته-، بل كانت حقيقة وواقعا عمل عليه النبي ﷺ بعزم، من خلال إرساله الكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ومن خلال "غزوة تبوك" التي كانت مقدّمة وإرهاصا بفتح الشام، وما يليها من البلاد بعد ذلك كما ذكر ابن كثير[3].

كما يبدو من كلام "ماكدونالد- Madonald" أنّ هدف جهاد النبي ﷺ كان دفاعيّا فحسب، لكنّ الصواب أنّ المقصد الأسمى من حرب النبي ﷺ يتمثّل في أمرين أساسيين هما: دفع الأذى، والتمكين لنشر الدعوة، وبيانهما فيما يلي:

ثانيا- مقاصد جهاد النبي ﷺ: تتلخّص في مقصدين أساسيّين هما:

– **المقصد (1): دفع الظلم ومنع الفتنة:** بِالدفاع عن النفس والعقيدة، وردّ الظلم والعدوان، ومنع استمراره[4]؛ قال الإمام ابن إسحاق: «فلما عتت قريش على الله ﷻ... وكذّبوا نبيه ﷺ، وعذّبوا ونفوا مَن عبده ووحّده وصدّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله ﷻ لرسوله ﷺ في القتال **والانتصار مِمّن ظلمهم وبغى عليهم**، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له بالحرب، وإحلاله له الدماء **والقتال، لِمن بغى عليهم**، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ

[1]– ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 97/2.

[2]– ينظر: تفسير الطبري، 87/12-88. وتفسير ابن كثير، 237/4-238. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 522/2-523.

[3]– ينظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ، 80.

[4]– ينظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 98/1. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 682/2.

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: 39-40]»[1].

وإذا استقصينا جلّ غزوات الرسول ﷺ مع أعدائه نجدها ردًّا للظلم والعدوان، فغزوة بدر وأحد والأحزاب وحنين وغيرها، إنّما كانت لرد الظلم والعدوان السابقين من المشركين[2].

– **المقصد (2): تأمين حريّة نشر دعوة الإسلام والتمكين لَها:** فالإسلام هو الدين العام الخالد، الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء، لكنّ العالم الذي ظهر فيه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً كانت الحكومات المعاصرة آنذاك تمنع أتباعها من اعتناق الإسلام، وتوقع بالمسلمين الفتنة، مثل ما حدث من قِبَل الملأ من قريش بمكة، ومثل موقف الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العرب في الشام ومصر، فلمّا كان المؤمنون لا يملكون **حرية الاعتقاد**؛ فالقتال الذي شرع إنما هو **لتأمين هذه الحرية**، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى، حتى يتمكن النبي ﷺ من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: 67]، وكذلك لتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضا واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين، ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون[3].

وبذلك يتمّ التمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار **دون أيّة عقبات** تضعها قوى الشرك، ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: 39]؛ وليس معنى ذلك حمل الشعوب على الدخول في الإسلام كرها بقوة السيف، بل إن مؤداه أن يعرفوا الإسلام، ويتمكنوا من تلقى الدعوة الإسلامية، فإذا عرفوها فقد تبين الرشد من الغيّ، والحق من الباطل، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر[4].

– **تنبيه حول مفهوم خاطيء**[5]: أساء بعض المستشرقين فهم هذا المقصد الأخير، فقالوا بأنّ الجهاد عمل على نشر الإسلام بالسيف، والأمر ليس كذلك، لأنّ الجهاد شُرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام، ومحاربة الذين يضعون الحواجز والعقبات لصدّ الناس عن هذا الدين، ويحولون دون تبليغه إلى الناس

---

[1]– تهذيب السيرة (لابن هشام)، 467/1.

[2]– ينظر: القول المبين، النجار، 217-218.

[3]– ينظر: السيرة النبوية، السباعي، 115. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 76/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 339/2.

[4]– ينظر: خاتم النبيين، أبو زهرة، 682/2. والسيرة النبوية الصحيحة، 338/2.

[5]– وإن كان المستشرق "ماكدونالد" لم يذكره في نصّه، لكن له علاقة بالمقصد الثاني من مقاصد الجهاد، لذا نبّهت عليه.

كافة، وإلاّ فالقرآن الكريم ومسيرة الجهاد من عهد النبي ﷺ وبعده صريحة في أنّه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256][1].

إنّ هذا القوال نابع من عدم فهم حقيقة الجهاد وأهدافه بحيث يتميز في الأذهان بوضوح أن الجهاد لا يهدف إطلاقًا إلى فرض العقيدة الإسلامية على الناس، بل يهدف إلى إزالة معوقات انتشار الإسلام في الأرض، وإفساح الطريق للدخول في دين الله في سائر المعمورة، سواء بإضعاف القوى المعادية أو القضاء عليها، بحيث يتم تأمين الإعلان عنه والتمكين له وحماية معتنقيه، فتتحقّق بذلك حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء الأرض، دون أن يفتن أحد عن دينه[2].

فليس هدف الحرب في الإسلام "**نشر الدعوة**" بها، بل "**حماية حرية نشرها**" بين الناس، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه، والله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، ولو كان الفضل في انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغُلبوا على أمرهم[3].

المطلب الثاني: التفريق بين غزوات النبي ﷺ وأيام العرب في الجاهلية

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين

– جاء في مادة "**السيرة**"[فقرة: 14]: «**تلك المغازي التي اشترك فيها المسلمون تَحت راية قائدهم الذي كان جلّ أتباعه ينظرون إليه نظرهم إلى أمير، استطاع بفضل حكمته وشجاعته المؤيدتين بروح من الله، أن يُحرز من آيات النصر أروعها وأعظمها أثرا في النفوس...**

فليست هذه المغازي إلا استمرارا أو تطورا لأيام العرب... وهما يشتركان في ذلك الأسلوب العذب المرسل على السجية»[4]. المحرر هو المستشرق: **ليفي دلافيدا** – Levi della vida[5].

– وفي مادة "**شهيد**": «**وبحسب بعض الأحاديث أنّ كلا من النبي عليه السلام وعمر رضي الله عنه تَمنّى الشهادة**»[6].

المحرر هو المستشرق: **بيوركمان** – Byorkman[7].

---

[1]– للتفصيل في ذلك ينظر: خاتم النبيين، 682/2. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 90/2-102.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، 339/2 و341-342.

[3]– ينظر: الرسول القائد، محمود شيت، 40.

[4]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 440/12-445.

[5]– سبقت ترجمته في: ص95.

[6]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 429/13.

[7]– سبقت ترجمته في: ص677.

– وفي مادة "**شرك**": «... **وقبل القتال يُدعى المشركون إلى الدخول في الإسلام، وكذلك يسأل محمد الله مرة أن يهديهم، ومرّة يلعنهم ويدعو عليهم بالحريق في بيوتهم وقبورهم، وبأن يهزمهم الله ويزلزلهم**»[1]. محرر المادة هو: **بيوركمان** – Byorkman.

الفرع الثاني: التحليل والمناقشة

قول المستشرق "دلافيدا -Della vida" بأنّ «**جلّ أتبـــاع النبي ﷺ كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى أمير**»؛ تهافت يصادم الواقع المعلوم بالضرورة من سيرته ﷺ لدى المسلمين وحتّى غير المسلمين؛ منذ بعثة النبي ﷺ، وعلى مدى أكثر من أربعة قرنا إلى يومنا هذا، ولن يستطيع المستشرق أن يأتِيَ بدليل واحد من التاريخ والسيرة يشهد لِمَا يقوله، فإنّ النبي ﷺ لم يدّع يوما أنّه ملك أو أمير، ولم يطلب ذلك مطلقا، وإنّما بيّن منذ اليوم الأول لبعثته أنّه رسول من الله، جاء هاديا للناس إلى الإسلام دين الله تعالى، وكذلك كان ينظر إليه أتباعه في السلم والحرب، فآمنوا به على أنّه رسول الله منذ اليوم الأول، وكانوا يتلقّون عنه الوحي، والتوجيهات الدينية والسياسية والاجتماعية، ومختلف شؤون الحياة، لأنّ الدين الذي جاء به نبِيُّ الله محمد ﷺ منهج متكامل لشتّى نواحي الحياة، وبذلك كانت له السلطة الدينية والسياسية على أتباعه، لأنّ الإسلام أمر بطاعة الله ورسوله ﷺ، وهذا معنى اتّباع النبوة والوحي، ولا يعني ذلك مطلقا أنّه أمير أو ملك من الملوك، وشتّان بين نبِي يسعى لهداية الناس وإرشادهم لما يحقّق سعادتهم في الدنيا والآخرة، ويسوس الناس بشريعة وأحكام ربّانية عادلة، وبين أمير يتّبع عادات اجتماعية متوارثة، ويسوس الناس بأحكام أرضيّة فيها ما فيها من الظلم والجور.

كما أنّ قول "دلافيدا-Della vida" بأنّ غزوات الرسول ﷺ «**ليست إلا استمرارا أو تطورا لأيام العرب**»؛ تهافت آخر يهدف إلى الطعن في نبي الإسلام ﷺ ورسالته، وينمّ عن سوء تصوّر لحقيقة جهاد النبي ﷺ وخصائصه الكبرى، التي ميّزته عن حروب العرب في الجاهلية وحروب غيرهم.

إنّ الحروب والغزوات التي خاضها النبي ﷺ، تَميّزت بخصائص فرّقت بينها وبين أيام العرب، وفرّقت بين القيادة النبوية، وقيادة أمراء الجاهلية.

فهل عرف أمراء الجاهلية الحرب الفاضلة في أهدافها، ومبادئها، والآداب الملتزَمة فيها؟

وهل كانوا يعتمدون على العوامل الروحية والإيمانية لتقوية أتباعهم وتحقيق النصر، كما فعل النبي ﷺ؟

وهل كانوا يسعون لنصرة دين الله، ونشر رسالة ربّانية، حتّى يستحقّوا التأييد من الله؟

وما الفارق بين علاقة النبي ﷺ مع أصحابه، وعلاقة أمراء الجاهلية مع أتباعهم؟

وهل كانت قياداتهم تغلّب جانب السلم، أم كانت تُمعِن في سفك الدماء وقطع الأرحام حميّة وتعصّباً؟

[1]– دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 215/13.

وهل حقّقت أيام العرب في الجاهلية وحروبهم نتائج قيّمة لمجتمعاتهم وأمّتهم، أم على العكس ساهمت في تفرّقهم وتشرذمهم؟ وتسلّط القوى الأجنبية عليهم؟

• **خصائص جهاد النبي ﷺ وغزواته:** إنّ الفوارق كبيرة جداً بين الإمارة والنبوة، وبين الغزوات النبوية وأيام الجاهلية، لكنّ المستشرق "دلافيدا -Della vida" أراد أنْ يجمع بين هذه المفارقات بتعسّف فاضح، مع اختلافها اختلافاً بيّناً في: الحقيقة والأهداف، والكيفية والنتائج، وما إلى ذلك من الحيثيات الكثيرة، التي يصعب حصرها وبسطها في هذه العجالة، لكن أوجز أهمّها في النقاط الآتية:

[1]– التأييد من الله: وهو أمر ذكره المستشرق نفسه في قوله "**بفضل حكمته وشجاعته المؤيدتين بروح من الله**"، وكان تأييد الله تعالى مصاحبا لحياة النبي ﷺ ومسيرته الدعوية والجهادية، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبة: 25][1]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وهذا أمر لَم يكن لأمراء الجاهلية وملوكها، و لم يُؤثَر ذلك عنهم، لأنّهم كانوا يعيشون فراغا روحيّا ودينيّا، وإنّما يؤيّد الله تعالى وينصر من ينصره، ويسعى في سبيل نشر دينه ورسالته.

– ومن ذلك **التأييد بجنود من عند الله:** فقد أيّد الله عز وجلّ نبيّه في بعض غزواته بجنود من الملائكة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة: 26][2]، وهو أمر أقرّ به حتى بعض المستشرقين في "الدائرة"[3].

[2]– من حيث حقيقة الجهاد وهدفه: حدّد رسول الله ﷺ مفهوم الجهاد في سبيل الله وبيّن ميزته، بحيث يقطع أي اجتهاد في هذا المجال؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ وذكر: الرجل يقاتل غضباً، ويقاتل حميّة"، وفي لفظ آخر: أنّه قال: "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل لِيُذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه؛ فمن في سبيل الله"؟ فقال رسول الله ﷺ: ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** عَزَّ وَجَلَّ))[4].

ففي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ الفارق بين حقيقة قتال أمراء الجاهلية الذين ذكرهم المستشرق "دلافيدا-Della vida" وحقيقة قتال النبي ﷺ وأتباعه رضي الله عنهم، فهل كان قتال أمراء الجاهلية وأتباعهم إلاّ حمية وعصبية؟ أو غضبا وانتقاما؟ أو رياء وسمعة وعلواً؟ أو ابتغاء للسيادة والمغنم؟ أمّا قتال النبي ﷺ

---

[1]– ينظر: تفسير الطبري، 386/11–394. وتفسير ابن كثير، 16/6–19.

[2]– ينظر: تفسير الطبري، 390/11 و395. وتفسير البغوي، 333/2.

[3]– مثل ما جاء في مادة "حنين" ينظر ما سبق: ص922–923.

[4]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب العلم، 293/1، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، 35/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، 73/13. واللفظ للبخاري.

بحسب هذا الحديث وبحسب التطبيق العملي لغزواته ﷺ "إنما هو قتال لله وحده، ولِمنهجه وشريعته، إنه لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا عصبيّة لطائفة أو قبيلة، إنما يقاتل في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة، مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يقتنع بها في ظل هذا المنهج الرباني الإنساني الإسلامي العام"[1]؛ فأين أمراء الجاهلية من كلّ هذه المعاني الروحية والمقاصد الإيمانية التي كان المجتمع الجاهليّ أبعد ما يكون عنها؟!

إنّ حروب أيام العرب التي ذكرها "دلافيدا-Della vida" إنّما استهدفت تحقـــيق أهداف شخصية أو قبلية لأفراد أو جماعات يريدون العلو في الأرض، لكنّ الهدف وضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميّزته عن هذه الحروب، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: 76][2].

[3]– النتائج التي تترتب على انتصار النبي ﷺ على أعدائه: هي بناء مجتمع يعمل على سمو الروح، والتكافل بين الناس، ورقي الإنسان عن طريق الخير، ومنع انحداره عن طريق الشر[3]، فأيّة غاية إنسانية أنبل من هذه الغاية التي شرع من أجلها القتال في الإسلام، **وأي قتال عرفته الأمم في الجاهلية يساوي هذه الغاية** في عموم الفائدة للناس جميعا، وبناء المجتمعات على ما يؤدي إلى رقيها وتطورها تطورا إنسانيا بنّاءً، لا رجوع فيه إلى عهد الجاهلية الأولى، من الانحلال، والإلحاد والحروب، وسفك الدماء[4].

– **كانت حروب أمراء العرب في الجاهلية:** قد تقوم لأتْـــفه الأسباب، كنِزاع على ماء أو مرعى، أو سباق فرس، أو نحوها[5]، كحرب البسوس التي قامت بين قبيلتي "بكر" و"تغلب" من أجل ناقة، واستمرّت أربعين عاما قُتل فيها خلق كثير ثأراً لدم رجل واحد هو "كليب بن ربيعة"[6].

وكذلك قامت الحروب بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عمّ، حتّى ألّف الإسلام بينهم[7].

بينهم[7].

أو كانت ربّما تقوم الحروب لِمصالح قوى أخرى خارجية لم يكون العرب فيها سوى تابعين، مقتادين للروم[8]، أمّا غزوات الإسلام فكانت لمصلحة كبرى للناس جميعا، وهي نشر دعوة الإسلام.

---

[1]– ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، 707/2. وفقه السيرة، الغضبان، 392-395.

[2]– ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، 338/2. وفقه السيرة، الغضبان، 392-393.

[3]– مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الحج: 41].

[4]– ينظر: السيرة النبوية، السباعي، 117.

[5]– ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، 343/5. والسيرة النبوية، أبو شهبة، 93/1.

[6]– ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 473/1-484. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 495/4.

[7]– سبق الكلام على ذلك بالتفصيل في الباب السابق، ينظر: 531.

[8]– ينظر: زاد المعاد، ابن القيم، 509/3. والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 410/5. وفقه السيرة، الغضبان، 54-55.

[4]- أثر العقيدة في جهاد النبي ﷺ: كان من فضل الدين الذي جاء به الرسول محمد ﷺ على العرب، أنه جمع كلمتهم، ووحّد صفوفهم، من أجل العمل للمصلحة العامة وحدها، ووجّههم للفتح، فكان الإسلام بحق عقيدة منشئة بناءة[1]، في حين كان أمراء الجاهلية يثون روح التفرّق والتّشرذم وسفك الدماء في المجتمعات العربية آنذاك.

[5]- تغليب إرادة السّلم على الحرب: بدأت دعوة النبي ﷺ سلميّة في مكة، ورغم أنّه أوذي واضطهد مع أصحابه، إلاّ أنّ الله تعالى أمره بالصّبر فاستمرّ على ذلك ثلاثة عشر سنة، إلى أن هاجر إلى المدينة، وشرع الله الجهاد لدفع الظلم عنهم، ومع ذلك أمر الله تعالى بالجنوح إلى السلم إن جنح له الطرف الآخر، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، وكان النبي ﷺ حريصا على السلم والمصالحة وحقن الدماء وهي مُثل إسلامية، تقابل حميّة الجاهلية التي تعبّر عن مُثل العصبيّة الجاهلية[2]؛ فقد قال النبي ﷺ يوم الحديبية: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا))[3]، وفي ذلك دلالة على سعي النبي ﷺ إلى تحقيق السلم إذا استجاب له له الطرف الآخر، كما حرص النبي ﷺ حين فتح مكة على أن يتفادى الاصطدام بالمكيين مع التفوق العددي الكبير للمسلمين، وفعلا كان فتحًا سلميّا خلا من القتال عموما[4].

[6]- علاقة النبي ﷺ مع أصحابه: كانت مبنية على التواضع والمحبة، والطاعة والاتّباع، والرأفة والرحمة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، بينما كانت علاقة أمراء الجاهلية الذين ذكرهم المستشرق "دلافيدا -Della vida" مع أتباعهم مبنية على السيطرة والهيمنة، إن لم تكن علاقة قهر وظلم.

فالقيادة النبوية قيادة تهوي إليها الأفئدة: بما امتاز به النبي ﷺ من جمال الخلق وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة، التي لا يُمارِ فيها أعداؤه فضلا عن محبيه ورفقائه[5].

- كما كانت **علاقة النبي ﷺ مع أصحابه مبنية على مشاورتهم:** في الأمور التي لم يترل فيها وحي، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: 159]، فقد شاور النبي ﷺ أصحابه في عدة مواقف في

---

[1]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 19 و261.

[2]- ينظر: السيرة النبوية، السباعي، 112-114. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 704/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، الشريف، 329.

[3]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، 403/6-404. من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

[4]- ينظر: السيرة النبوية، أبو شهبة، 336/2. ومكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، 329.

[5]- ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، 140-141.

غزوة "بدر" و"أحد" و"الحديبية" وغيرها[1]، في حين نجد أنّ "مالك بن عوف" الذي كان أحد أمراء الجاهلية على هوازن وثقيف في "غزوة حنين" استبدّ برأيه في الإتيان بالمال والنساء والذرية، و لم يأخذ بمشورة بعض أصحابه ممن لهم معرفة وخبرة بالحرب[2]، فوقع ما جاءوا به من ذلك غنيمة للمسلمين.

[7]- **حرب النبي ﷺ الفاضلة:** كانت المثل العليا والرغبة في هداية الناس تمثل الروح المهيمنة على غزوات النبي ﷺ؛ فهي حرب رفيقة مقيدة بالفضيلة، تتسم بالتأليف لا بالتقتيل، وبالمحافظة على النفس البشرية، فقد بيّن النبي ﷺ قواعد شريفة للحروب ألزم أصحابه بالتقيّد بها، و لم يسمح لَهم بالخروج عنها، فكان النبي ﷺ يوصي بألا يقوم الجيش بقتل الضعفاء من الذرية والنساء، أو إتلاف زرع أو قطع شجر أو قتل حيوان لغير مصلحة، إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهّرت الحروب من أدران الجاهلية، لأن القتال إنما كان من المسلمين لدفع الاعتداء[3]، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190].

وعن ابن عمر ﷺ قال: «نَهى رسولُ اللهِ ﷺ عن قَتْل النّساء والصّبيان»[4].

وعن بريدة الأسلمي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ﷻ، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: ((اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...))[5].

فقد كانت الفضيلة مسايرة لقتال النبي ﷺ قبل المعركة وأثناءها وبعدها: **فقبل المعركة:** كان ﷺ يأمر جيشه بالتأنّي قبل أن يتقدم للقتال، وكان يدعو المؤمنين إلى عدم تَمنّي القتال، وأن يخيّروا العدوّ قبل المعركة بين ثلاثة أمور: الإسلام، أو الصلح على الجزية، أو القتال[6]؛ كما في حديث بُريدة ﷺ: أن النبي ﷺ كان إذا أمّر أميرا على جيش أوصاه قائلا: ((... وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ؛ ثُمَّ ادْعُهُمْ **إِلَى الإِسْلامِ**،

---

[1]- ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 565/7. وتهذيب السيرة (لابن هشام)، 615/1 و63/2. ودلائل النبوة، البيهقي، 47/3.

[2]- ينظر: تهذيب السيرة (لابن هشام)، 437/2-438.

[3]- ينظر: تفسير ابن كثير، 524/1. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 700/2-701. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 340/2.

[4]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب، 180/6. و**مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، 73/12.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب الإمام الأمراء على البعوث، 55/12-56. و**الترمذي**، الجامع (تحفة الأحوذي)، أبواب الديات، باب ما جاء في النهي عن المثلة، 552/4. واللفظ لمسلم. من حديث بريدة ﷺ.

[6]- ينظر: خاتم النبيين، 698/2.

فَإِنْ **أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ**... فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ **الْجِزْيَةَ**، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، **وَكُفَّ عَنْهُمْ**، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ **وَقَاتِلْهُمْ**))[1].

وهو أدب دعويّ وحربيّ رفيع أشار إليه المستشرق "بيوركمان- Byorkman" في مادة "شرك"، وإن كانت إشارته ناقصة، مع ما فيها من التشويش وعدم الدقّة.

هذا التّخيير فيه دلالة على: الرغبة في هداية الناس؛ من خلال دعوتهم إلى الإسلام **أولا**، وعلى: نية السلم -حتى بعد تلاقي الجيشين- **ثانيا**؛ من خلال دعوتهم إلى الصلح.

أمّا أثناء المعركة: فسبق بيان الإرشادات النبوية التي تنهى عن قتل النساء والأطفال ونحو ذلك.

و**بعد المعركة**: مَنَع التمثيل بالقتلى، وأمر بحسن معاملة الأسرى ونحو ذلك من التوصيات النبيلة[2].

فقد تَميّزت حرب النبي ﷺ عن "أيام العرب في الجاهلية" وغيرها من حروب البشرية بأنّها "**حرب فاضلة**" على جميع المستويات، من حيث هدفها ونتائجها، ومبادئها، ومسيرتها، وكيفيّتها، وما كانت حروب العرب الجاهلية لتبلغ هذا المستوى من التحضّر والرّقي الإنساني والتنظيمي مطلقا.

[8]- جهاد النبي ﷺ كان بالسيف وبالكلمة: حيث اقتصر الجهاد في العهد المكي على جهاد الدعوة دون قتال، بالكلمة والموعظة الحسنة، والصبر على أذى المشركين القولي والفعلي الذي وصل إلى التعذيب الشديد والقتل، واستمرّ الجهاد بالكلمة حتّى بعد تشريع الجهاد بالسيف[3].

[9]- الإعداد المادي والمعنوي: امتاز تكوين النبي ﷺ للمقاتل المسلم بالاعتماد على الجانبين الماديّ والمعنوي:

- فمن حيث **الجانب المادي**: أرشد النبي ﷺ إلى الاعتماد على الوسائل الحربية المتوفرة، والتمرس على كل مهارة في القتال؛ طعناً بالرمح وضرباً بالسيف، ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، فمثلا: كان يحضّ المسلمين على تعلم الرماية وإتقان فنونها[4]، فقال ﷺ: ((﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: 60]؛ أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ))[5]، كما كان يشرف يشرف أحيانا على مسابقات الرمي، ويقول: ((ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا))[6].

---

[1]- عند **مسلم**، **والترمذي**، سبق تخريجه في: الصفحة السابقة.

[2]- ينظر: تفسير ابن كثير، 524/1. وخاتم النبيين، أبو زهرة، 703/2. والسيرة النبوية الصحيحة، العمري، 371/2.

[3]- ينظر: السيرة النبوية، السباعي، 112. وفقه السيرة، البوطي، 126.

[4]- ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 134. والسيرة النبوية عرض وتحليل، الصلابي، 359.

[5]- أخرجه: **مسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، 95/13. من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

[6]- أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، 111/6.

ومن ذلك أيضا حثّه ﷺ على تربية الخيل[1]، وعلى تعلّم الفروسية، وقد كان سباق الخيل يتم بأمر من النبي ﷺ وإشرافه[2].

لكن لم يُؤثَر استعمال الطبل في حروب النبي ﷺ كما ذكر المستشرق "فارمر- Farmer" في مادة "الطبل"[3]، وهو نفسه استبعد ذلك.

لكنّ ما ميّز القيادة النبوية عن غيرها هو حرصه ﷺ على إعداد أصحابه وتكوينهم معنويا وروحيا كحرصه على التكوين المادّي والقتالي، وهو ما يتّضح في النقطة الموالية.

– فمن حيث **الجانب المعنوي**: كان الرسول ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المقاتلين، وتقوية إيمانهم، فيمنحهم أملا يقينيا بإحدى الحسنيين النصر أو الجنة، هذا "الأمل" الذي يدفع الجندي المسلم إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية في ساحات القتال من أجل كسب المعارك أو الاستشهاد في سبيل الله سبحانه؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: 169-170] [4]، ويقول ﷺ: ((اعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ))[5]، والروايات في ذلك كثيرة.

فعقيدة الإيمان تجعل المسلم يخوض غمار الموت طلباً للشهادة في سبيل الله وابتغاء أجر الآخرة، ولعظم فضل الشهادة تمناها النبي ﷺ كما ذكر "بيوركمان-Byorkman" في مادة "شهيد"، فقال ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ))[6].

---

[1]– ينظر: صحيح البخاري (الفتح)، 67/6-71.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب السبق بين الخيل، 87/6. وصحيح مسلم (النووي)، كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل، 21/13.

[3]– ذكر المستشرق "فارمر-H.Farmer" في مادة "**الطبل**" [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 83/15]: «**وتذكر الروايات أن بابا سونديك الهندي كان يدق الكوس أو النقارة في حروب محمد عليه السلام** (أوليا جلبي: الرحلات، ج**2/1** ص**226**)، **بيد أن الأقرب إلى الاحتمال، كما يقول ابن خلدون: هو أن العرب لم يكونوا يستخدمون الطبل في حروبهم في تلك الأيام**».

وذكر "فارمر-H.Farmer" أيضا في مادة "**طبل خانه**" [دائرة المعارف الإسلامية، إص1، 87/15-88]: «**ويؤكد الكاتب التركي الواسع الخيال أوليا جلبي** (**المتوفى حوالي سنة 1680م**) **أن العرب أيام النبي عليه السلام لم يكونوا يستخدمون في حروبهم الأنفار أو النايات، وإنّما كانوا يستخدمون الكوس فحسب** (**أوليا جلبي: الرحلات، لندن 1846م، ج2/1 ص44**).

على أن ابن خلدون (**المتوفى سنة 1406م**) **يذكر أن المسلمين الأولين لم يكونوا يستخدمون الأبواق ولا الطبول**».

[4]– ينظر: دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، 133.

[5]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب الجنة تحت بارقة السيوف، 41/6-42. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، 69/12. من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

[6]– أخرجه: **البخاري**، الصحيح (الفتح)، كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب، 180/6. **ومسلم**، الصحيح (النووي)، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، 73/12.

كان **لعقيدة الإيمان القوية** التي غرسها النبي ﷺ في نفوس المسلمين أكبر الأثر في النصر؛ فهي توحّد شعورهم، وتجعلهم يقاتلون لهدف معيّن معروف، وقد انتصر المسلمون بعقيدتهم في كل معركة خاضوها، تلك العقيدة التي جعلتهم يبذلون أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله[1].

هذا العامل الروحي نجده منعدما أصلا عند العرب في الجاهلية، لذا كانوا متفرقين، متناحرين، في أسوء ما يكون من الضعف والانحطاط الحضاري، والإسلام هو الذي رفع مستواهم الحضاري اجتماعيا وعسكريا وسياسيا وهيئهم لقيادة حضارة كبرى دانت لها قوى الفرس والروم، الذين كانوا يبسطون نفوذهم على العرب المتشرذمين في الجاهلية.

وكان النبي ﷺ يستعين بالدعاء في المعارك، فمثلا دعا على المشركين في غزوة الأحزاب فقال: ((اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، **اللَّهُمَّ اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**))[2].

أشار إلى هذا الدعاء "بيوركمان-Byorkman" في مادة "شرك"، لكنّه خلطه مع دعوة العدوّ إلى الإسلام أو الصلح -مِمّا سبق ذكره-، وإنّما يدعو النّبي ﷺ على العدوّ بالهزيمة بعد انتهاء المفاوضات حول الصلح، واستنفاد الوسائل السلمية، والشروع في القتال، والمستشرق "بيوركمان" لم يفرقّ بين الأمرين في عبارته فجاء كلامه مضطربا.

والدعاء سلاح روحيّ قويّ تميّز به جهاد النبي ﷺ، و لم يكن في أيام الجاهلية.

[1]- ينظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، 384.

[2]- عند: **البخاري ومسلم**. وهو من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ المذكور في الصفحة السابقة.

خـــاتمـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد الدراسة التفصيلية لِما ورد في "دائرة المعارف الإسلامية" عن السيرة النبوية حول مفهومها، وتدوينها، وأصالتها، ووقائع العهدين المكي والمدني، وكذا الغزوات والسرايا النبوية، يمكن استخلاص نتائج عامّة توضّح المعالم الكبرى لِخصائص مباحث السيرة النبوية في الطبعة العربية من "الدائرة"، أوجز أهمها في النقاط الآتية:

[1]– تضمّنت "دائرة المعارف الإسلامية" مادة علميّة تغطّي أغلب مباحث السيرة النبوية، جاءت مبعثرة ومفرّقة بين كثير من موادّها المرتَّبة على حروف المعجم؛ قمت بِجمعها في محاور محدّدة في السيرة من خمس وعشرين مجلدا حسب الطبعة العربية، وصنّفتُها في سياق موضوعيّ مرتّب؛ يسهّل أمر دراستها، وتناول ما ورد في نصوصها بالتحليل والنقد والمناقشة.

[2]– ما ورد في موادّ "دائرة المعارف" عن السيرة النبوية (في: تدوينها، وأصالتها، ووقائعها في: العهدين المكي والمدني) تضمّن عدّة مطاعن وشبهات استشراقيّة في هذه المحاور؛ حاولت الكشف عنها ومناقشتها، وبيان ما قد يكون فيها من ثغرات علمية، وهَنات منهجية، وتناقضات، وأخطاء وأوهام علمية ومعرفية، ومع ذلك لم تَخلُ بعض موادّها من الآراء المنصفة، والطرح العلمي السليم في بعض الجزئيات، وإن كان جانب الطعن والتشكيك وإثارة الشبهات غلب على القضايا الكبرى والوقائع الهامة في السيرة النبوية كما يتّضح من فصول الدراسة.

[3]– بعض المواد التي جاء في فقراتٍ منها طرح يتّسم بالإنصاف، والبعد عن إثارة الشبهات والمطاعن، لم تَخل من أخطاء علمية تحتاج إلى التنبيه، أو التدقيق.

وهذا الطرح المنصف نجده في بعض الأحيان غالبا على نص المادّة المحرَّرة في "الدائرة"، مثل مادة "وحي" التي حرّرها المستشرق "فنسنك"، وقد يتراوح نصّ المادة بين الإنصاف في بعض فقراتِها، بينما تتضمن فقرات أخرى منها مطاعن وشبهات في سيرة المصطفى ﷺ، مثال ذلك مادة "القرآن" نجد فيها شيئا من الإنصاف والدقّة في طرح بعض القضايا، ومجانبةً للصواب في طرح قضايا أخرى.

[4]– شملت مطاعن المستشرقين وشبهاتهم في "الدائرة" جانبا كبيرا من فصول السيرة النبوية، ابتداء من مولده ﷺ ونسبه وشبابه، ثم مرورا ببعثته ونزول الوحي عليه ومراحل دعوته في مكة، ثم هجرته وبنائه لِمجتمع المدينة، وعلاقته مع اليهود هناك، وكذا جهاده ومغازيه، وانتهاء إلى الوقائع الأخيرة من حياته وعمله على تبليغ الإسلام خارج جزيرة العرب، كما يُلاحظ أنّ محرّري "دائرة المعارف" من المستشرقين ركزّوا مطاعنهم على وجه الخصوص في ثوابت السيرة النبوية، والوقائع والقضايا الكبرى فيها، لزعزعة الثقة بنبوة محمد ﷺ، وربانية الوحي والقرآن، وفق منهج الطعن في أهم شيء في بابه.

من ذلك مثلا: الطعن في ربانية الوحي وفق أساليب مختلفة؛ بالتشكيك في نزول جبريل عليه السلام بالوحي على النبي ﷺ، أو نسبة تأليف القرآن الكريم إليه ﷺ، والزعم بأنه تأثّـــر بأفراد من الحـــنفاء أو النصارى في عصره وما إلى ذلك، وكمحاولة المستشرق "دلافيدا" في مادة "السيرة" الطعن والتشكيك في أصالة السيرة إجمالا وفق أساليب متعددة، ثم حاول كثير من المستشرقين الطعن في حيثيات معينة من السيرة في عهديها المكي والمدني على ما هو مبيَّن في فصول الدراسة، وقد أشرت إلى أبرزها في "الملحق الأول" الذي خصّصته لهذا الغرض؛ والهدف من تلك المطاعن والشبهات غالبا هو التشكيك في نبوته ﷺ، أو التشويش على الصورة المضيئة لسيرة حياته ودعوته ﷺ.

بيد أنّ الطعن والتشكيك لم يقتصر على القضايا الكبرى للسيرة كالوحي والمعجزات ونحوها، بل تعدّاها إلى وقائع ليست من القضايا الكبرى؛ كرعْيِه ﷺ للغنم في صباه، وكفالته ابنَ عمّه "عليًّا" رضي الله عنه مواساة لعمّه "أبي طالب"، حيث أنكر تلك الوقائعَ بعضُ المستشرقين في "الدائرة" مع أنّها ليست بالأمور العظام، وهو ما يشير إلى أنّ المستشرقين ضدّ إظهار الصفحات المشرقة من سيرة النبي ﷺ، سواء تعلّقت بقضايا كبرى أم لا.

[5]– اعتمد المستشرقون على مناهج مختلفة في التعامل مع حقائق وروايات السيرة النبوية؛ فإن كانت لا تخدم مقاصدهم من أيّ وجه بل تدفعها سارعوا إلى إنكارها والتشكيك فيها، أمّا إن كان في الحادثة ما يخدم بعض أغراضهم ومقاصدهم ولو بوجه من الوجوه، أثبتوها وأوّلوها – بتعسف– وفق ما يخدم أهداف المدرسة الاستشراقية المشكّكة في النبوة والوحي والرسالة، وسلكوا لذلك كلّ سبيل؛ لِجعل ما يستندون إليه يبدو دليلا علميا قويا وموضوعيا، لكن سرعان ما يتخلّل ذلك ثغرات علمية ومنهجية تكشف ما وراء تلك الآراء والافتراضات من الخلفيات الفكرية والعقدية ومن أهداف وأغراض غير علمية، بل أحيانا تتناقض أقوالهم وتتضارب آراؤهم في خدمة غرض واحد.

[6]– إنّ مناقشة المستشرقين ونقد أقوالهم ونظرياتهم لا يعتمد على العقل والمنطق فحسب، بل يعتمد أيضا على الروايات؛ من حيث بيان قيمتها وتفسيرها وطريقة عرضها، لأنّهم وإن كانوا لا يسلّمون بصحّة كثير من الروايات التاريخية للسيرة النبوية، ولا يؤمنون بنبوة مُحمّد ﷺ، وربّانيّة القرآن وأصالة الحديث؛ فإنّهم ينطلقون غالبا من الروايات التاريخية للسيرة النبويّة، وأحيانا من أقوال أئمة الحديث والسيرة للوصول إلى نظرياتِهم، وما يطرحونه من مطاعن، وشبهات؛ لكـــنّهم يشوّهونَها أحيانا، أو ينقلون بعضا منها دون بعضٍ أحيانا، أو ينقلون الضعيف منها ويهملون الصحيح، أو يسيئون فهمها وتفسيرها أحيانا أخرى، لذا كانت الروايات ونصوص الأئمة الحكمَ بيننا وبينهم، ومن هنا كانت مناقشتهم حول تلك الثغرات المنهجية من خلال المنطلقات التالية:

أ)- في **القيمة العلمية والتاريخية** للروايات.

ب)- في **عرض الروايات**؛ هل كان في سياقه الصحيح المتكامل، أم كان مشوّها؟

ج)- في **تفسير الروايات وتحليلها**.

وهنا يأتي دور الأدلّة العقلية، والقواعد المنطقيّة، وكذا مناهج البحث العلمي الموضوعي؛ في الكشف عن القيمة العلمية والتاريخية للروايات التي استندوا إليها، ومدى دقّة وتكامل عرضهم لسياقاتِها، ومدى سلامة ما أوردوه من تفسيرات وتحليلات للروايات والوقائع.

[7]- من خلال إعمال المنطلقات السابقة في نقد فرضيّات المستشرقين المعتمدة على الروايات نلمح ما يلي:

- في **عرض الروايات**: بعد مقارنة ما أورده المستشرقون مع السياقات الصحيحة لِلروايات في مصادرها الأصيلة؛ نجد أنّ هناك **تشويهاً** في عرضها من خلال "**الانتقاء الكيفي**" لبعض جزئياتها، على حساب جزئيات أخرى هامة لا يُستغنى عنها في قراءة الحادثة ومعرفة حيثياتها؛ وهو ما ينافي الأمانة العلمية والنزاهة في تقديم السياق الصحيح والمتكامل للروايات.
- كما أنّ **تفسير الروايات وتحليلها** كثيرا ما يكون معتمدا على افتراضات بعيدة عن معانيها ودلالاتها الصحيحة، من خلال:

– **التمويه والتحريف لِمعاني الروايات** عن سوء فهم أحيانا، وعن عمد أحيانا أخرى؛ من أجل توظيفها في مطاعن وشبهات مشككة في نبوة محمد ﷺ وربانية الوحي.

– **التفسيرات الماديّة**: التي لا تحتملها نصوص الروايات أصلا، والأسوء من ذلك نسبة بعض تلك التفسيرات إلى علماء الإسلام من المحدّثين والمؤرخين وأئمة السيرة؛ لإيهام القارئ أنّ لافتراضاتهم الخاطئة مستَنداً من أقوال أئمة هذا الشأن، مع مخالفتها لِما قرّروه تَماماً.

فقد اعتمد جملة من المستشرقين في "دائرة المعارف" على طريقة "**التفسير المادي**" لبعض الوقائع والمعجزات الإلهية في السيرة؛ من أجل إفراغها من محتواها الروحي وخصائصها الربانية، وإظهارها في صورة بشرية محضة، بعيدة كلّ البعد عن طابع النبوة والرسالة والدين السماوي، ومن الأمثلة على ذلك: تفسير الوحي بتفسيرات مادية؛ تَجعله ضربا من الحالات الذهنية، والتأمّلات الفكرية، أو الانفعالات النفسية، أو كتصوير نجاحات النبي ﷺ الدعوية والسياسية على أنّها كانت نتيجة حنكته السياسية، وقدراته الشخصيّة في التخطيط والتسيير، وعزل ذلك عن النبوة والتأييد الرباني.

- ومن حيث **القيمة العلمية** للروايات نجد الاعتماد على الضعيف الواهي وترك الصحيح الموثق، من أجل تقرير فرضيّات سقيمة، ولو بتأويل فاسد لا تحتمله ألفاظ النصوص ودلالاتها، بل نجد

المستشرقين يعتمدون على بعض الروايات الضعيفة والواهية وكأنّها مسلّمات، ويقدّمونَها أحيانا على الصحيح المعروف والثابت المشهور.

إنّ المتمعّن في مناهج المستشرقين واستدلالاتهم، وطريقة عرضهم للروايات وتحليلها، يدرك أنّ المستشرقين ما طعنوا في قواعد نقل ونقد الروايات الإسلامية، وحاولوا التشكيك في أصالتها؛ إلا ليتيسّر لهم إثبات ما شاءوا ونفي ما شاءوا وفق ما يتماشى وأهداف المدرسة الاستشراقية المشكّكة أصلا في نبوة محمد ﷺ وربانية رسالته، كما أنّ إمعانهم في النقد الكيفيّ للمتن أو ما يسمّونه "بالنقد الداخلي" يُمكّنهم من الطعن في الروايات؛ لا لكونها تخالف المنطق أو العقل أو الوقائع المتواترة، بل لأنّها تخالف الخلفيات الفكرية والعقدية التي انطلقوا منها، والأهداف الاستشراقية المسطرة مسبقا؛ والتي يحرصون على الوصول إليها، وليس المقصود هو الوصول إلى الحقيقة العلمية.

- **والحاصل:** أنّ هناك تشويها في **عرض** الروايات، وتمويها في **تفسيرها** وتحليلها، إضافة إلى الخلط وعدم التمييز بينها على أساس **القيمة العلمية**، وكلّ ذلك منافٍ للأمانة العلمية.

[8]– جاء طرح بعض المستشرقين من محرّري "دائرة المعارف" لِجملة من الموضوعات فيه شيء من الاضطراب والتشويش، بسبب عدم اعتمادهم على روايات المصنفات الحديثية وأخبار مصادر السيرة والمغازي والتاريخ، بشكل متكامل يمكّن من فك التعارض الظاهر بين بعض الروايات والوصول إلى نتائج دقيقة وواضحة، كما في مواضيع: دفن شهداء أحد والصلاة عليهم، وتحديد تاريخ غزوة بني المصطلق، وتفسير سريّة خالد ﷺ إلى جذيمة، وتاريخ إسلام عبد الله بن سلام اليهودي، وغيرها.

ذلك أنّهم يعتمدون على بعض مصادر السيرة والمغازي كـــ"سيرة ابن هشام"، أو "مغازي الواقدي"، أو "تاريخ الطبري" وغيرها، في حين يهملون الاعتماد على روايات السيرة في كتب الحديث، مع أنّها أكثر قوّة وتوثيقا، ولا يُستغنى عنها في تشكيل صورة متكاملة عن وقائع السيرة النبوية، ولهذا اعتنى كثير من العلماء المتقدمين بِهذا الجانب من روايات السيرة الأصيلة؛ كما هو صنيع البيهقي في "الدلائل"، وابن كثير في "البداية والنهاية"، وابن حجر في "الفتح" وغيرهم، فإنّهم كثيرا ما يوردون الروايات الحديثية من الصحاح والسنن والمسانيد ونحوها في أبواب السيرة المختلفة إضافة إلى روايات المؤرخين وأصحاب السّيَر؛ فكان ينبغي على المستشرقين عدم إغفال مثل هذه المصادر، لما فيها من إضافات هامة تتعلّق بالإفادة منها في بعض التفصيلات الهامة أحيانا، أو تقوية بعض الروايات الضعيفة عند أصحاب السير، أو في الترجيح بين الروايات المتعارضة أحيانا أخرى.

يضاف إلى ذلك أنّنا لا نجد للمستشرقين قواعد منضبطة للتوفيق بين النصوص المختلفة، بفك التعارض الظاهر بينها، عن طريق الجمع أو الترجيح، أو تضييق دائرة الخلاف بينها على الأقلّ؛ الأمر الذي أوقعهم في كثير من التناقضات والاضطرابات.

[9]– عزوف كثير من المستشرقين عن دراسة قواعد "علوم الحديث" وتبجُّحهم المغلوط حول اكتفاء المسلمين بنقد السند فحسب، جعل بضاعتهم مزجاة في هذا المجال، إذ لا نجدهم يعتمدون على نقد السند في عدم قبولهم لروايةٍ ما إلا نادرا، وقد وقفت على موضعين في "دائرة المعارف" اعتمدوا فيها على تضعيف الرواية استناداً إلى ضعف سندها؛ الموضع الأول: في قصّة الغرانيق؛ قال فيها المستشرق "ولش" بأنّ إسنادها ضعيف، والثاني: في غزوة "قريظة"؛ عندما قال المستشرق "وات" بأنّ ابن إسحاق لم يبيّن مصدره في رواية نقض بني قريظة للعهد، مع العلم أنّ قولهما في كلا الموضعين ليس نابعا من دراسة إسناديّة للروايتين على منهج المحدّثين.

وعليه فإذا كان علماء الحديث القدماء بيّنوا أنّ نقل الروايات بالسند المتصل إلى النبي ﷺ خصيصة لهذه الأمة؛ فإنّه يحقّ القول على المستشرقين أيضا: من خلال ما وقفت عليه من طرائق تعاملهم مع روايات الحديث والسيرة ونظرياتهم في ذلك، وما يستندون إليه في نقدها، أنّ قواعد المحدّثين في نقد سند الروايات خاصة –وكذا نقد المتن– خصّيصة لهذه الأمّة أيضا؛ حيث أنّ الأجيال المتلاحقة للمستشرقين لم تخرّج ولا مستشرقا واحداً قادرا على نقد الروايات سندا ومتنا نقدا علميا على طريقة المحدّثين؛ بل إنّ ما يطرحونه أحيانا يعبّر عن عدم فهمهم لهذه القواعد، وعدم قدرتهم على ممارستها أصلا، كما بينت ذلك في مواضعه من فصول الدراسة.

[10]– اعتمد بعض المستشرقين من محرّري "الدائرة" على منهجية "**المقابلة والمطابقة**" للتشكيك في بعض وقائع السيرة، مثل: ادّعاء المستشرق "فنسنك" بأنّ حادثة بيعة العقبة الثانية مأخوذة عن قصّة مشابهة لَها في الإنجيل، ونحوها من الادّعاءات المشاكلة لها.

[11]– إذا لم يجد المستشرقون تفسيرا يحرّف حقائق السيرة ووقائعها، عمدوا أحيانا إلى منهجية "**النفي الكيفي**"، فأنكروها دون أيّ دليل أو مبرّر علمي أو غير علميّ.

[12]– في مقابل تشكيك المستشرقين وإنكارهم لكثير من الوقائع الهامة للسيرة، نجد اختلاقاً واصطناعاً لوقائع وهْميّة لا أصل لَها في مصادر السيرة النبوية، استنادا إلى قرائن واهيةً؛ أو روايات ثبت عند التأمل فيها بطلان الاعتماد عليها في بناء تلك الفرضيات المصطنعة، وأنّها لا تخدم ما قرّروه إلا بتعسّف في العرض والتأويل، مثال ذلك: اختلاق انشقاق وهميّ بيْن المسلمين في مكة أدّى إلى هجرة فريق منهم إلى الحبشة، أو كالقول بأنّ النبي ﷺ خرج إلى الحديبية من أجل حملة عسكرية ونحو ذلك.

ومن هذا القبيل أيضا اصطناع تواريخ جديدة لبعض حوادث السيرة، وتحريفها عن وقت وقوعها لِمقاصد استشراقية تهدف إلى التشكيك في نبوة محمد ﷺ أو في بعض وقائع السيرة الهامة؛ كتحريف تاريخ: مولده، ووقت نزول آية "المسد" في ذمّ أبي لهب، وتحريف تاريخ معاهدة يهود المدينة، ونحوها؛ لِما في تلك التواريخ المذكورة من دلالة على النبوة، أو صدق ما أخبر به القرآن من الغيب، أو للتعمية على نقض اليهود للعهد، ونحو ذلك مما هو مفصّل في مواضعه من هذا البحث.

[13]– هناك تهويل مبالغ فيه لبعض وقائع السيرة، وتضخيم لَها فوق حجمها الحقيقي؛ كتعميم معارضة الأوس للنبي ﷺ، وتضخيم كراهية القتال في "بدر"، وتضخيم حادثة المتخلفين عن غزوة "تبوك"، وتعميمها على سائر المسلمين، واعتبارها معارضة قوية، وعلى العكس من ذلك نجد تهويناً مبالغا فيه لبعض الأمور التي كانت كبيرة الأهمية، وعظيمة الأثر في دعوته وسيرته ﷺ؛ كالتشكيك في اضطهاد مشركي قريش للمسلمين في مكة، أو التشكيك في محاولة قتل المشركين للنبي ﷺ عند هجرته، بحجّة أنهم لم يكونوا يرونه خطراً عليهم، أو التقليل من شأن نصر "بدر" ونحو ذلك.

[14]– لم يتجرأ أحد من المستشرقين على اعتبار ما فعله يهود "بني قينقاع" و"بني النضير" نقضاً للعهد، أو جعل صنيع "بني قريظة" في غزوة الخندق غدراً وخـيانة عظمى، إلاّ بعـبارة فيها تَحفّظ، أو تعاطف أحيانا، في حين نجدهم يصفون بالخيانة مَن يكشف للمسلمين سرًّا من أسرار اليهود –ولو لم تكن حادثة ذات شأن كبير– كما وقع في قصّة فتح بعض حصون خيبر، وفي مقابل ذلك نجدهم يتهافتون ويتجرّأون على وصف النبي الكريم ﷺ بأوصاف نابية، تنمّ عن عداء متجذّر في نفوسهم، مثل القول بأنّه اتّهم اليهود بتحريف كتبهم لَمّا لَمْ يتّبعوه، أو وصفه "بالخداع" و"التحايل" على نقض العهد في قصّة صلح الحديبية وفتح مكة.

[15]– نلمح من آراء وعبارات بعض المستشرقين من محرّري "الدائرة" تعاطفاً شديداً مع مشركي مكّة من جهة، ومع يهود المدينة من جهة أخرى، مقابل جفاء وعداء للنبي ﷺ والمسلمين من أتباعه، من ذلك مثلا: – إبداء جفاء ظاهر حول اضطهاد مشركي مكّة للنبي ﷺ والمستضعفين من المسلمين في مكة، بل إنكار ذلك أحيانا، والتهوين من شأنه أحيانا أخرى، مقابل التعاطف مع "أبي لهب" ووصف سورة "المسد" بالسورة "العدائية" لما ورد فيها من ذمّ له، والأدهى من ذلك القول بأنّ الروايات الإسلامية شوّهت صورة "أبي جهل"! فرعون هذه الأمة.

– ثم تعاطف المستشرق "بول" مع المشركين في غزوة "أحد"، وإبدائه لنبرة الأسف على إضاعتهم فرصةَ القضاء النهائي على النبي ﷺ والمسلمين عقب هذه الغزوة.

[16]– وقع كثير من المستشرقين في أخطاء وأوهام علمية، قد تكون فادحة في بعض الأحيان، الأمر الذي يؤدي إلى عدم تقديم صورة متكاملة للحدث، أو تحريفه عن سياقه الصحيح، فيقع الخلل وعدم التناسق في مجريات الوقائع وترابط حلقاتها، وهذه الأخطاء قد تكون ناشئة عن سوء فهم الحادثة، أو عدم الإحاطة الدقيقة بوقائعها وملابساتها والروايات الواردة فيها أحيانا، وقد تكون أحيانا أخرى عمدا بقصد تشويه الحقائق لتتوافق مع أهداف المدرسة الاستشراقية.

ومن هذا القبيل أيضا تقرير مفاهيم وافتراضات خاطئة سببها عدم فهم سياقات اللغة العربية وإطلاقات الألفاظ ومدلولاتها، والأسوء من ذلك بناء افتراضات فاسدة على تلك الأوهام والأخطاء؛ كما فعل المستشرق "شريك" في تفسيره لِمفهوم الإسراء في مادة "إسراء".

[17]– في مطلع القرن العشرين –عصر تطّور مناهج البحث والاستدلال– وبعد قرون من البحث والدراسة في علوم الإسلام، وتطوير المنهاج في تناولها؛ ما زال بعض المستشرقين في "دائرة المعارف الإسلامية" يطلقون تلك الحجج الواهية والعبارات الجوفاء نفسها التي أطلقها كفار قريش منذ عصر النبي ﷺ، وأطلقها قبلهم المعاندون للأنبياء والرسل من الأمم السالفة؛ كحجّة: أنّه ﷺ إنّما أخذ وتعلم على يد بشرٍ من الحنفاء أو رهبان النصارى وهكذا، وكذا التفسير المادي للوحي بكونه ضربا من السحر وما إلى ذلك، أو الاعتراض على معجزات الرسل بالعبارات الجوفاء: كأساطير ونحوها.

[18]– الطبعة الأخيرة للنسخة العربية من "دائرة المعارف" (الإصدار الثالث) مع ما احتوته من طعون صريحة وغير صريحة في النبي ﷺ وسيرته العطرة، نجد كثيرا منها لم يُنبَّه إليه، وإن كانت لَجنة النشر حذفت كثيرا من تلكم المطاعن، خاصة الصريحة منها، لكن بقي جزء ليس باليسير يحتاج إلى التعليق والتعقيب عليه.

وأحيانا يقدّم المترجمون أو "لجنة النشر" تعليقات لا تتسم بالتحقيق العلمي، مع ما قد تحتويه من أخطاء وأوهام، زيادة على مطاعن المستشرقين وأخطائِهم، من ذلك مثلا: تعليق المترجم على ما ورد في مادة "حليمة" من إنكار حادثة شقّ الصدر، بقوله أن الحادثة من الإسرائيليات، مع أنها جاءت في روايات إسلامية صحيحة في "صحيح مسلم" و"مسند أحمد" و"مستدرك الحاكم" وغيرها.

ومثل هذه الأخطاء راجعةٌ إلى عدم تقديم نصوص الموادّ إلى متخصّصين للتعقيب عليها، ونقد ما جاء فيها بدقة، كما فعل القائمون على الترجمة القديمة (الإصدار الأول) مع جملة من الموادّ.

[19]– وقفت على عدة أخطاء مطبعية في النسخة العربية "للدائرة"؛ في أسْماء بعض الأعلام، والأماكن وغيرها؛ ولعل جلّها يعود إلى صعوبة مراجعة تلك الجزئيات في كتب السيرة، خاصة وأنّ المترجمين يحملون عبء الترجمة، فلو أضيف إليه عبء مراجعة النصوص الأصلية من مظانّها في علوم

مختلفة، لزاد الأمر صعوبة وتعقيدا؛ لذا نبّهت على تلك الأخطاء في مواضعها، وصحّحتها من باب إتمام الفائدة، والحدّ من تلك الأخطاء في جوانب السيرة على الأقل.

[20]– لم تَخلُ آراء المستشرقين في "دائرة المعارف" وتقريراتهم من تناقضات يردّ بعضها بعضا، بحيث نجد مستشرقاً ينفي أمراً في مادة ما، بينما يثبته مستشرق آخر في مادة أو موادّ أخرى وهكذا؛ وذلك يشير إلى عدم التنسيق العلمي بين المستشرقين فيما يحرّرونه في مواد "الدائرة".

بل نجد أحيانا أنّ المستشرق نفسه يُقرّر أمراً في مادة ما، لينقضه ويأتي بما ينسخه في مادة أخرى.

وقد تأتّى لي الكشف عن كثير من تناقضات المستشرقين في الجزئية الواحدة، خاصّة فيما أثاروه من مطاعن في سيرة النبي ﷺ، بفضل جمع نصوصهم المفرقة في مجلدات"الدائرة" الكثيرة ضمن سياق واحد وفي جزئية بعينها، ذلك أن التباعد بين هذه النصوص في مجلدات مختلفة من "الموسوعة" يجعل أمر التنبه لتلك التناقضات غير متيسر، إلاّ بعد جمعها في سياق واحد والمقارنة بينها.

وقد خصّصت "الملحق الرابع" للإحالة على أبرز هذه التناقضات فتراجع هناك.

[21]– ليس من المفترض أن يقتـــنع المستشرقون بالانتقادات الموجّهة إلى آرائهم ونظرياتهم الواهية، وأن تكون كلّها ردودا منطقية عقلية، وفق ما يؤمن به المستشرقون فحسب، بل ينبغي أن تكون تلك الردود والانتقادات علمية تعتمد على الأثر (القيمة العلمية للروايات) والنظر (في تفسير الروايات)، فهي ليست موجّهة إلى المستشرقين فحسب، بل هي موجّهة أولا إلى القارئ المسلم حتى لا ينخدع بشبهاتهم ومطاعنهم، ثُمّ موجهة ثانيا إلى القارئ الغربي حتى يتبيّن أن ما قاله المستشرقون عن الإسلام فيه تشويه وتدليس وأغلاط كثيرة، وموجّهة أخيرا إلى المستشرقين؛ بل إنّني لاحظت في "دائرة المعارف" جملة من التراجعات عن المواقف الكلاسيكية المشهورة للمستشرقين في السيرة، مثل موقفهم من قصّة "بحيرا الراهب"، و"قصة الغرانيق"، ونشر الإسلام بالسيف ونحوها مِمّا سيأتي الإشارة إليه في النتيجة الموالية، الأمر الذي يشير إلى تأثّر المستشرقين أنفسهم بالانتقادات العلمية التي وجّهها العلماء المسلمون لنظرياتهم في هذا المجال.

[22]– لاحظت في كثير من المواقف والآراء التي طرحها المستشرقون في "الدائرة" حول السيرة النبوية، أنّها تُعبِّر عن **تطوّر في طريقة طرحهم لكثير من القضايا**، وتراجعٍ عن بعض النظريات الاستشراقية القديمة أحيانا، وذلك بعد أن ظهر لهم بِجلاء بُطلانها علميا ومنطقيا، لذا نجدهم يقدّمون آراء جديدة حاولوا صياغتها بأسلوب أكثر جاذبيّة، وأشد تمويها وتأثيراً، من الآراء القديمة المنتَقدة.

فعلى سبيل المثال: لم يَعرضوا قصّة "بحيرا" بتلك الصورة النمطية القديمة؛ فإذا كان المستشرقون القدامى غالبا ما يستندون إلى تلك القصّة لتدعيم القول بأن النبي أخذ دينه عن النصارى، فإنّ

المستشرقين المحدَثين أدركوا سذاجة هذا القول؛ حيث يستحيل عقلا ومنطقا أن يتلقّى صبِيّ لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره تعاليمَ دين عظيم عن راهب في جلسة عابرة، لهذا ذهب بعض المستشرقين في "الدائرة" كـــ"فنسنك" و"بول" إلى إنكار هذه الحادثة أصلاً؛ لِما فيها من إقرار أهل الكتاب بما جاء في كتبهم عن البشارة بمحمد ﷺ، وتطوَّر موقفهم أيضا من قصة "الغرانيق"، إذ لم ينساقوا وراء توظيفها لأغراض تشكيكيّة في نبوّته ﷺ، بل أنكروها، لِعلْمهم باتّفاق علماء الإسلام على تضعيفها.

ولَمّا أدركوا وهن القول بتفسير الوحي النبوي على أنّه ضرب من الصرع مثلا، نجدهم يعتمدون على نظريّات مادية أخرى مقتبسة من مدرسة علم النفس الحديث للتشويش على ربانية الوحي.

الأمر الذي يجعلنا نعتبر ما جاء في "الدائرة" عن السيرة يعبّر –في بعض المواقف– عن نظرة مطوّرة ونسخة معدّلة –نوعا ما– لآراء وشبهات المستشرقين حول سيرة النبي ﷺ، وهو ما يدلّ على تأثّرهم بالانتقادات الضخمة والردود العلمية التي قدّمها جلّة من علماء المسلمين في بداية العصر الحديث؛ من أمثال "محمد رشيد رضا" و"أحمد شاكر" و"السباعي" و"الأعظمي" وغيرهم، مما أدى إلى تراجع كثير من المستشرقين عن بعض الآراء التي بدت ساذجة ومصادمة للحقائق العلمية والمنطقية، بعد أن وُجّهت لها انتقادات موضوعيّة دقيقة فَضَحت عوارها، وكشفت زيفها.

لكن ينبغي معرفة أن هذا التراجع ليس إلا تراجعا طفيفا ونسبيا، من أجل إعادة صياغة نظريات أكثر قوّة وتطوّراً، ومواكبة لروح العصر، مع موافقتها للنظريات القديمة في محاولة الطعن والتشكيك في ثوابت السيرة وأصولها.

[23]– وردت في "دائرة المعارف" مطاعن مباشرة وسافرة في سيرة المصطفى ﷺ؛ على غير طريقة المستشرقين المحدَثين التي تتسم بالأسلوب غير المباشر في الطعن والتشكيك، من ذلك:

– ما ورد في مادة "السيرة" من مطاعن حول أصالة روايات السيرة النبوية.

– ادعاء محرّر مادة "جبرائيل" بأن النبي ﷺ اصطنع قصة نزول جبريل عليه السلام بالوحي عليه.

– اعتبار المستشرق "فنسنك" في مادة "بحيرا": قصةَ "بحيرا" من "الأساطير" التي اختُرعت لتدعيم القول بأن كتب أهل الكتاب تبشر بالنبي محمد ﷺ.

– وصف النبي ﷺ "بالفشل" في مادة "محمد ﷺ"، واتّهامه "بالخداع" و"التحايل على نقض العهد" في مادة "الحديبية"، وما إلى ذلك.

إنّ هذه الأباطيل –المتهافتة في الطعن والسافرة في العداء بأساليب مباشر وغير مباشر– التي سُوّدت بِها صفحات "الدائرة" في القرن العشرين؛ قرن التقدم العلمي في وسائل الاتصال وجمع المعلومات من مصادرها الصحيحة، تعدّ وصمة عار على مراكز البحث الأكاديمي المشرفة على هذا العمل في بلاد الغرب.

[24]– يمكن التمييز بين ثلاث طبقات للمستشرقين حسب موضوعيّة ما كتبوه في "دائرة المعارف" عن السيرة النبوية، أو مدى مجانبته للصواب، وتهافته في إثارة الشبهات والمطاعن، وهي كالآتي:

• **الطبقة الأولى**: مستشرقون غلبت على كتاباتهم إثارة المطاعن والشبهات والشكوك حول سيرة النبي ﷺ، مع ما احتوته من أخطاء وتناقضات علمية، في طليعة هؤلاء:

– **المستشرق "بول"**: وهو أكثر المستشرقين إثارة للشبهات والمطاعن حول سيرة النبي ﷺ في "دائرة المعارف الإسلامية"؛ خاصّة في مادة "محمد نبي الإسلام ﷺ" التي حشرها بالشبهات والطّعن والتشكيك في أحدث السيرة من مولده ﷺ، وعبر مسيرة حياته قبل البعثة وبعدها في العهدين المكي والمدني، ويبدو أنّه تلقّف شبه المستشرقين المبثوثة في دراسات مختلفة عن السيرة وجمع جملة منها في هذه المادة، وكذا بعض المواد الأخرى التي حرّرها، كمواد: "أبرهة" و"أحد" و"التحريف" وغيرها، والملاحظ أنّ هذا المستشرق أُسندت إليه كثير من المواد التي لها علاقة مباشرة بمباحث السيرة النبوية.

– ثم يأتي بعده **المستشرق الأب "لَمنس"**: وهو معروف عند المستشرقين والمسلمين على السواء بتهافته في كتاباته، وعدائه السافر للإسلام ونبيّه ﷺ، وهو الأمر نفسه الذي نلحظه في كتاباته المختلفة في "دائرة المعارف"، كما في مادة "بئر معونة" و"الحديبية" و"دحية" وغيرها.

حتّى أنّ الطبعات الأخيرة حذفت نصوص بعض المواد التي حرّرها؛ كمادتي "الحسن" و"الحسين" وغيرهما، وأَسنَدت تحريرها لِمستشرقين آخرين.

– ثم بعدهما **المستشرق "دلافيدا"** خاصّة في مادة "السيرة" التي ركّز فيها على الطعن في أصالة السيرة.

وبعد هؤلاء الثلاثة الأوائل في هذه الطبقة يأتي: "**ركندورف**" و"**كارادە فو**" و"**ماكدونالد**" وغيرهم.

• **الطبقة الثانية**: مستشرقون تراوحت كتاباتهم عن السيرة في "الدائرة" بين الإنصاف ومجانبة المطاعن في بعض المواد، وبين إثارة الشبهات والمطاعن في مواد أخرى، وأحيانا يكون الأمران في المادة نفسها، من هؤلاء مثلا: – **المستشرق "فنسنك"**: حيث اتّسمت بعض المواد التي حررها بالإنصاف والدقّة كمادتي "وحي" و"ميكائيل"، بينما سلك مسلك عامّة المستشرقين في التعسف وإثارة الشبهات والشكوك في مواد أخرى حرّرها كمواد: "أنس"، و"بحيرا"، و"حواريون" وغيرها.

– ثم بعده **المستشرق "مونتجمري وات"**: كان له شيء من الإنصاف في مادة "مكة المكرمة"، بخلاف ما كتبه في مادة "[بنو] قريظة"، وغيرهما.

• **الطبقة الثالثة**: مستشرقون لهم إنصاف في غالب ما كتبوه عن السيرة في "دائرة المعارف" حسب ما وقفت عليه، مع أنّهم لا يسلمون من بعض الأخطاء والأوهام العلمية.

وهم **قـــلّة قليلة** مقارنة بالطبقتين السابقتين، حيث يُعدّون على الأصابع، ومنهم: المستشرق "فوك"، والمستشرق "كرسويل" وغيرهما.

- **توصيات واقتراحات:** أهم التوصيات التي خرجت بِها بعد هذه الدراسة هي كالآتي:

– أقترح أن تُثبَت ردود وتعليقات متخصّصين على هامش المواد التي تضمنت شبهات ومطاعن في السيرة النبوية خاصة؛ لتعلّقها بنبينا الكريم ﷺ.

– تصحيح الأخطاء المطبعية الكثيرة التي وردت في النسخة العربية "للدائرة".

– كما أقترح إصدار طبعة منقّحة "لدائرة المعارف"، تُصحّح فيها المطاعن والشبهات الاستشراقية في مباحث السيرة والعقيدة وعلوم الحديث وغيرها، وأن يُشار إلى كلام المستشرقين في الهامش، كما فعل المشرفون على "الإصدار الثالث" مع بعض المطاعن الصريحة التي حذفوها، ونبّهوا عليها في الهامش.

– وأن تكون هناك بحوث في نقد ما جاء في "دائرة المعارف" على حسب التخصصات، وردّ على ما ورد فيها من مطاعن وشبهات في مجال: الفقه، واللغة، ومقارنة الأديان؛ إذ لم أقف على بحوث نقدية لَها في هذه المجالات.

– كما أقترح بعض المواضيع المتعلّقة ببحثي يمكن دراستها في بحوث مستقلّة؛ فبما أنّ هذه الدراسة حاولت أن تغطّي الجانب الأكبر من مباحث السيرة النبوية من المولد إلى الوفاة، فإنّ هناك جوانب أخرى تركتها تحتاج إلى جمع ودراسة، وهي:

– شمائل النبي ﷺ في "دائرة المعارف"؛ في مذكرة "ليسانس" أو "ماستير".

– زوجات النبي ﷺ وأبناؤه في "الدائرة"؛ ولو أضيف إليها عامّة الصحابة لكان أفضل؛ ليكون البحث حول: الصحابة في "الدائرة"، وقد يكون موضوع ماستير أو "دكتوراه" نظام (ل.م.د).

والله أعلى وأعلم، وأسأل الله العظيم أن أكون ساهمت ولو بشيء جدّ يسير في الدفاع عن سيرة النبي الكريم ﷺ، وأستغفر الله جل جلاله فيما أخطأت أو قصّرت فيه؛ إنّه غفور رحيم، جواد كريم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين؛ الذي بنعمته تتم الصالحات.

ملاحق

وهي أربعة ملاحق:

الملحق الأول: ملخّص المطاعن والشبهات حول السيرة النبوية في "دائرة المعارف"

الملحق الثاني: بعض المواضع المُنفصِلة عن السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية"

الملحق الثالث: ملخص الأخطاء والأوهام العلمية حول السيرة النبوية في "الدائرة"

الملحق الرابع: ملخص تناقضات المستشرقين في طرح قضايا السيرة النبوية في "الدائرة"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق الأول : ملخّص أبرز المطاعن والشبهات حول السيرة النبوية في "دائرة المعارف"[1]

من خلال عرض الروايات وتحريف سياقاتها					
المنهجية	فحوى المطعن أو الشبهة	اسم المادة (ورقم الفقرة)	اسم المستشرق	ج/ص من "الدائرة"	الصفحة من هذا البحث
الانتقاء الكيفي	-التشكيك في قِدَم فكرة جمع السيرة وروايتها	[السيرة؛ فق: 3]	دلافيدا	[إص1، 440/12]	104 وما بعدها
	-التشكيك في أصالة السيرة من خلال الخلط بين روايات الإخباريين وما فيها من عناصر ضعف، وروايات المحدثين الموثقة، من أجل تعميم حكم الجزء على الكل.	[السيرة؛ فق: 10]	دلافيدا	[إص1، 449/12]	157 وما بعدها
	-التشكيك في أصالة روايات السيرة عامة استنادا إلى نظرية "جولد زيهر" الباطلة في الوضع، وتعميمها على جميع الروايات.	[السيرة؛ فق: 11]	دلافيدا	[إص1، 447/12]	167 وما بعدها
	- الزعم بأن جهد المحدثين يقتصر على نقد على السند دون المتن.	أصول	شاخت	[إص1، 279/2]	187 وما بعدها
	- الاستناد إلى بعضهم الروايات (الضعيفة) لِتقرير أنّ داء الجدري أهلك جيش أبرهة، قصد إنكار معجزة الطير الأبابيل، وإخفاء أن هذه الروايات نفسها تثبت إهلاكهم بالطير الأبابيل.	أبرهة	بــول	[إص1، 62/1]	205 وما بعدها

[1]- **أنبّه:** إلى أنّي اكتفيت بإيراد مغزى المطعن أو الشبهة، دون التعرض لمناقشتها والردّ عليها هنا، حيث كان تفصيل هذه المطاعن ومناقشتها في فصول الدراسة، وأحلت على مواضعها بالصفحات من هذا البحث، وإنّما المقصود إحالة القارئ إلى **نماذج** منها.

الاستشراق الكسيفي	– الادعاء بأن القرآن لم يبيّن مصدر الوحي في الآيات المكية.	[القرآن؛ فق: 4]	ولش	[إص3، 8166/26]	306 وما بعدها
	– عرض بعض روايات السيرة (مع ضعفها) بطريقة تخدم الزعم بأن انقساماً وقع بين المسلمين؛ إلى يقودها جماعة أبو بكر، وأخرى يقودها عثمان بن مظعون، وهذا ما جعل النبي ﷺ يأمر ابن مظعون بالهجرة إلى الحبشة مع جماعته.	[محمد؛ فق: 26]	بـــول	[إص3، 9121/30-9122]	396 و399 وما بعدها
	–وصف النبي ﷺ بالفشل في دعوة أهل الطائف وعدم استجابتهم، ودعوة القبائل في مواسم الحج وعدم استجابتهم، والقول ب أنه هاجر بعد فشله في الإصلاح الديني في بلدته مكة.	[محمد؛ فق: 32]	بـــول	[إص3، 9124/30-9127]	474 و477 وما بعدها
	–الزعم بأن الأنصار لم يشاركوا في نصـــرة النبي ﷺ إلا كارهين، وأنّهم إنّما أخذوا ينصاعون إليه شيئا فشيئا.	[أنصار؛ فق: 4، 5]	ركندورف	[إص1، 54/3-55]	535 و537 وما بعدها
		[أوس؛ فق: 2]		[إص1، 151/3]	
	– الادّعاء بأن النبي ﷺ إنما قرر توافق ما جاء بع مع ما عند أهل الكتاب لاستمالتهم وكسب دعمهم.	[التحريف؛ فق: 1]	بـــول	[إص1، 603/4]	561 وما بعدها
		الحج	فنسنك	[إص1، 302/7]	
	– الزعم بأن النبي ﷺ اتّهم اليهود بالتحريف لَمّا لم يؤمنوا به لإخراج نفسه من مأزق احتكاكه باليهود في المدينة.	[التحريف؛ فق: 2]	بـــول	[إص1، 603/4-604]	581 وما بعدها
	– القول بأن النبي ﷺ أحرز أوّل انتصار له بالخروج عن عهد الله	الجاهلية	فـــاير	[إص1، 267/6]	766 وما بعدها
	– محاولة التشويش على العمل العظيم الذي قام به النبي ﷺ في معركة حنين، حين ثبت في ساحة المعركة وأعاد جمع جيش المسلمين ثم تحقيق النصر، وذلك بنسبة الفضل في الانتصار إلى خالد تـــارة، أو إلى بعض أصحابه تارة أخرى ﷺ.	[حنين؛ فق: 2]	لَمنس	[إص1، 132/8]	922 و928 وما بعدها
		[محمد؛ فق: 88]	بـــول	[إص3، 9150/30-9151]	

	الزعم بأن النبي ﷺ إنّما خرج إلى الحديبية من أجل حملة عسكرية، وأنّه أظهر قصد العمرة خدعة.	[الحديبية؛ فق: 2]	لَمنس	[إص1، 327/7]	642 و646
من خلال تحليل الروايات وتفسيرها					
المنهجية	**المطعن أو الشبهة**	**اسم المادة (ورقم الفقرة)**	**اسم المستشرق**	**ج/ص من "الدائرة"**	**الصفحة من هذا البحث**
التفسير المادي	– الزعم بأنّ داء الجدري هو ما أهلك جيش أبرهة وليس الطير الأبابيل بقدرة الله تعالى.	أبرهة	بـــول	[إص1، 62/1]	157 وما بعدها
	– الاتكاء على نظرية في علم النفس الحديث (الكلام التلقائي، أو التداعي الحر) في تفسير الوحي؛ لتدعيم القول ببشريته، ونفي الربانية عنه.	السحر	ماكدونالد	[إص1، 310/11]	311 وما بعدها
	– الادّعاء بأن الوحي نِتاج إلهام وتفكير طويل وقع إبان تَحنّثه ﷺ في غار حراء.	[محمد؛ فق: 15]	بـــول	[إص3، 9115/30]	308 وما بعدها
	– القول بأن النبي ﷺ اتخذ المنبر في المدينة كرمز لِعرش حكمه.	منبر	بيدرسن	[إص3، 9669/31]	613 وما بعدها
	– القول بأن النبي ﷺ أرسل الكتب إلى الملوك لغرض الحصول على دعم سياسي، تعميةً على المقصد الدعوي الروحي لها.	[محمد؛ فق: 59]	بـــول	[إص3، 9148/30]	681 وما بعدها
المقابلة والمطابقة (أو الأثر والتأثر)	– الزعم بأن السيرة النبوية مقتبسة من سير الأنبياء السابقين بغية وضع مُنشِئ الإسلام في كفّة مُنشئِي الأديان السابقة.	[السيرة؛ فق: 13]	دلافيدا	[إص1، 446/12]	196 وما بعدها
	–الزعم بأن رواية رعي النبي ﷺ في بني سعد مقتبسة عن قصة الطفولة في الإنجيل.	حليمة	بـــول	[إص1، 59/8]	253- 254
	– الزعم بأن النبي ﷺ أخذ اسم "جبريل" عن أهل الكتاب، وأن رواية "يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل" مأخوذة من نصّ قصة وردت في الإنجيل.	جبرائيل	كاراده فو	[إص1، 277/6]	303 وما بعدها
	– الزعم بأن النبي اقتبس تعاليم دينه عن بعض الحنفاء، وبعض النصارى العرب.	أمية بن أبي الصلت	برَاوْ	[إص1، 662/2]	344 وما بعدها

	-الزعم بأن قصة بيعة العقبة الأولى والثانية مأخوذة عن قصة الحواريين السبعين في الإنجيل.	حواري	فنسنك	[إص1، 137/8]	482 و484
البنـــاء والهـــدم	- القول بأن حنكة النبي ﷺ السياسية، وبراعته الدبلوماسية تجعل من المستبعد قبول إرساله للكتب إلى الملوك قبل فتح مكة، (مع محاولة بناء أغراض مادية للكتب مقابل هدم الأغراض الروحية الدعوية).	[محمد؛ فق: 58، 59]	بـــول	[إص3، 9147/30 -9148]	681 وما بعدها
	- الزعم بأنّ أتباع النبي ﷺ نظروا إليه كأمير استطاع تحقيق النصر بشجاعته وحكمته، وأنّ مغازيه مجرد استمرار لأيام العرب في الجاهلية.	[السيرة؛ فق: 14]	دلافيدا	[إص1، 440/12 -445]	966 وما بعدها
تحريف تواريخ بعض الوقائع	- تأخير تاريخ مولد النبي ﷺ عشر سنين؛ للادّعاء أنّ بعثـــته كانت قبل الأربعين بعشر سنين.	حمزة	لَمنس	[إص1، 102/8]	215 و220
		[محمد؛ فق: 2]	بـــول	[إص3، 9112/30]	216 و219
	- تأخير تاريخ معاهدة النبي ليهود المدينة من بداية الهجرة إلى ما بعد بدر من أجل عزل المعاهدة عن سياقها الصحيح.	بنو قينقاع	فنسنك وبارت	[إص3، 8482/27]	514 و519 وما بعدها
		[محمد؛ فق: 39]	بـــول	[إص3، 9128/30]	
النـــفي الكـــيفي	- إنكار رؤيا آمنة أمّه ﷺ عند مولده، وعدّها من الخرافات؛ لما فيها من دلائل النبوة.	[آمنة؛ فق: 1]	بـــول	[إص1، 630/2]	232 وما بعدها
	-التشكيك في بعض حوادث الإسراء والمعراج، والزعم بأنها: أساطير، وخرافة من نسج الخيال...	أنس	فنسنك	[إص1، 48/3]	471 وما بعدها
		[معراج؛ فق: 6]	روبنسون	[إص3، 9411/30]	
	-إنكار محاولة المشركين قتلَ النبي ﷺ عند خروجه مهاجرا إلى المدينة.	[محمد؛ فق: 35، 36]	بـــول	[إص3، 9127/30]	495 و497
	-إنكار كتاب النبي ﷺ إلى هرقل قيصر الروم.	[دحية؛ فق: 3]	لَمنس	[إص1، 170/9]	674
التعاطف مع المشركين	- التعاطف مع أبي لهب، واعتبار ووصف سورة "المسد" "بالعدائية"، لذمّها له.	أبو لهب	بارث	[إص1، 393/1]	354 وما بعدها
	- الزعم بأنّ الروايات الإسلامية شوّهت صورة أبي جهل.	أبو جهل	بـــول	[إص1، 323/1]	782

التعاطف مع مشركي مكة ويهود المدينة	– إبداء الأسف على عدم مطارهم مشركي مكة للمسلمين إلى المدينة بعد أحد، من أجل القضاء عليهم تماما	[أحد؛ فق: 3]	بـــول	[إص3، 452/2]	816 و824 وما بعدها
		[محمد؛ فق: 76]		[إص3، 9140/30، 9142]	
	– التشكيك في نقض يهود قريظة للعهد، والزعم بأنهم كانوا محايدين في غزوة الخندق.	[سعد بن معاذ؛ فق: 3]	تسترشتين	[إص1، 410/11]	878 و881 وما بعدها
		بنو قريظة	وات	[إص3، 8293/26]	

من حيث القيمة العلمية للروايات المُستَند إليها

المنهجية	المطعن أو الشبهة	اسم المادة (ورقم الفقرة)	اسم المستشرق	ج/ص من "الدائرة"	الصفحة من هذا البحث
تقديم الضعيف والشاذ على الصحيح	– تقديم القول بأن مولده ﷺ كان بعد عام الفيل بسنوات وهو قول ضعيف وشاذ.	[محمد؛ فق: 2]	بـــول	[إص3، 9119/30]	216 وما بعدها
	– القول بأن هناك آيات وسوراً نزلت قبل اقرأ والمدثر، وهي أقوال شاذة مخالفة للصحيح المتفق عليه.	[القرآن؛ فق: 2]	ولش	[إص3، 8218/26]	287 و289
	– الجزم بهزيمة المسلمين في غزوة مؤتة، مع أنه قول ضعيف.	زيد بن حارثة	فـــكـــا	[إص1، 170/9]	905 و709 وما بعدها
		[محمد؛ فق: 86]	بـــول	[إص3، 9149/30]	

الملحق الثاني : بعض المواضع[1] الْمُنفصِلة عن السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية"

الرأي أو الموضوع المطروح	اسم المادة (ورقم الفقرة)	اسم المستشرق	ج/ص من "الدائرة"	الصفحة من هذا البحث
- كلام دقيق ومنصف في قضيّة اعتبار القرآن الكريم مصدراً هاماً من مصادر السيرة.	[القرآن الكريم؛ فق: 1]	ولــش	[إص3، 8206/26-8207]	150-151
- وهْم ابن النديم في جعله قسم السيرة من "طبقات ابن سعد" كتابا مستقلا.	ابن سعد	متوتش	[إص1، 190/1]	137 و143
- طرَح المستشرق "إندس" موضوع: تَحنّث النبي ﷺ في غار حراء قبل البعثة دون تشكيك، أو تفسير يهدف إلى إنكار ربانيّة الوحي كما فعل مستشرقون آخرون في "الدائرة".	مُجاور	إندس	[إص3، 9037/29]	279
- عرض "فنسنك" لحادثة نزول جبريل بالوحي على المصطفى ﷺ، وكذا في عرضه لبعض أوجه نزول الوحي ومصدره، تَميّز بالإنصاف ومجانبة التفسيرات المغرضة.	[وحي؛ فق: 2، 4، 5]	فنسنك	[إص3، 10122/29-10125]	284 و295-296 و306-308
- جاء موقف المستشرقين محرّري "دائرة المعارف" موافقا لِموقف عامة علماء الإسلام في بطلان "قصة الغرانيق" سندا ومتنا.	[القرآن؛ فق: 6]	ولــش	[إص3، 8168/26-8169]	416-417
	[محمد؛ فق: 27]	بــول	[إص3، 9122/30]	
- طرح المستشرق "وات" موضوع الهجرة إلى المدينة وما يتعلّق بها من جزئيات بتجرد وإنصاف.	الهجرة	مونتجمري وات	[إص3، 10032/32-10034]	490 و505 و514

[1]- سواء كان في هذه المواضع طرح لآراء ونظرات حول السيرة النبوية، أو عرض لرواياتها ووقائعها دون تشكيك أو طعن وما إلى ذلك.

– جاء في عدة مواد من "دائرة المعارف" كلام منصف عن الأعمال التنظيمية التي قام بِها النبي ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وعن نجاحه في بناء مظام اجتماعي وسياسي متكامل حقّق الأمن والاستقرار والتآلف.	[أمة؛ فق: 2]	بــارت	[إص1، 633/2]	509
	القصاص	شاخت	[إص3، 8324/27-8325]	514 و517-518
	[محمد؛ فق: 38]	بــول	[إص3، 9128/30-9130]	515 و518
– الكلام على دخول النبي ﷺ فاتحا، وعفوه عن أهلها، وتطهيرها وما حولها من الأصنام.	صنم	كرنكوف	[إص1، 357/14-358]	704 وما بعدها
	[محمد؛ فق: 61، 62]	بــول	[إص3، 9149/30-9150]	696، 704 وما بعدهما
– طرَح المستشرق "هينريش" بعض القضايا حول علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب عامة واليهود خاصة تميّز بدقة وإنصاف، كما قرّر أنّ التوافق بين ما جاء به محمد ﷺ وبعض ما عند أهل الكتاب يُعبّر عن وحدة المصدر الإلهي لهذه الأديان.	اليهود	هينريش	[إص3، 10234/1-10236 و10239]	562، 569 وما بعدها

الملحق الثالث :
ملخص أبرز الأخطاء والأوهام العلمية حول السيرة النبوية في "دائرة المعارف"[1]

السبب	فحوى الخطأ أو الوهم	اسم المادة (ورقم الفقرة)	اسم المستشرق	ج/ص من "الدائرة"	الصفحة من هذا البحث
عدم فهم إطلاقات العربية	– لم يفهم محرر مادة "محمد ﷺ" العلاقة بين المطلب بن عبد مناف وبين تسمية عبد المطلب مع وضوحها في كتب السيرة.	[محمد؛ فق: 5]	بول	[إص3، 9113/30]	242 وما بعدها
	– القول بأن بعض الآيات تقول بأن النبي هو المتحدث بالقرآن.	[القرآن؛ فق: 5]	ولش	[إص3، 9113/26]	306 وما بعدها
	–الخلط بين بعض روايات أذية المشركين للنبي في مكة.	فاطمة	فاجليري	[إص3، 8167/25]	377 و379
	–القول بأن ابن هشام والطبري لم يذكرا إلا هجرة واحدة إلى الحبشة.	[محمد؛ فق: 26]	بول	[إص3، 9121/30]	396- 397
	– القول بأن النبي مكث في تبوك عشرة أيام.	تبوك	بول	[إص1، 279/2]	944 و949
عدم القدرة على الترجيح	القول بأن روايات الصلاة على قتلى أحد ودفنهم تختلف أشد الاختلاف، بحيث يصعب تحصيل فكرة واضحة عن الموضوع.	[أحد؛ فق: 4]	بول	[إص3، 453/2]	827 وما بعدها
	الاعتماد على روايات أهل المغازي والتاريخ، وإغفال روايات كتب الحديث والسنن، الأمر الذي	جذيمة بن عدي	شاده	[إص1، 316/6]	915 وما بعدها

[1] – اكتفيت بالإشارة إليها دون تصحيحها ومناقشتها، فمحلّ ذلك في فصول الدراسة، كما سبق التنبيه إلى ذلك في مطلع الملحق (1)، وأحلت على مواضعها من هذا البحث، والمقصود هنا إيراد نماذج منها لا كلّها.

	يوقعهم في كثير من التشويش، وعدم القدرة على الترجيح بين الأقوال المتعارضة، وعلى التمييز القيمة العلمية للروايات.	بنو شيبة	ديمومبين	[إص1، 463/13]	707
عدم الإطلاع بصفة متكاملة والاستقراء للرواية في الواقعة	– القول بأنه لم تكن هناك عناية بالتأليف في المغازي خارج المدينة قبل القرن الثاني الهجري.	[علم التاريخ؛ فق: 1]	جِـــب	[إص1، 486/4]	111 و116
	–القول بأن "مالك بن أنس" نسب ابن إسحاق للتشيع واتهمه بانتحال القصص.	ابن إسحاق	بروكلمان	[إص1، 88/1]	123 و127
	–عدم التفريق بين أبي رغال "جد ثقيف"، وكان قديما، وبين أبي رغال مرشد "أبرهة" إلى طريق مكة في حادثة الفيل.	ثقيف	لَمنس	[إص1، 205/6]	211 وما بعدها
	–القول بأن ازدياد حراسة الملائكة للسماء ورمي الشياطين بالشهب كان بعد المولد، والصواب أنه بعد المبعث.	[سحر؛ فق: 1]	ماكدونالد	[إص1، 306/11]	228 وما بعدها
	–القول بأن النبي لم ير الوحي إلا مرتين، والصواب: لم ير جبريل على صورته إلا مرتين.	جبرائيل	كاراده فو	[إص1، 276/6]	284 و286
	–القول بأن "عبد الله بن سلام" اليهودي أسلم في السنة الثامنة للهجرة.	عـــبـــد الله بن سلام	هورفتس	[إص3، 7172/23]	578 وما بعدها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق الرابع :
ملخص بعض تناقضات المستشرقين في طرح قضايا السيرة النبوية في "دائرة المعارف"

القـــول	القول المناقض
- **قول**: "بول" بأن كل ما نعرفه عن طفولة النبي ﷺ ونشأته هو أنه كان يتيما؛ المستشرق "بول" في: [مد: محمد ﷺ/ فق: 6: 9113/30]	- **يناقضه:** كلامه هو نفسه عن رضاعته في بني سعد وحادثة شق الصدر بالتفصيل؛ في: [مد: حليمة: 59/8]. -**وينقضه:** كلام مستشرقين آخرين في مواد: "مكة"، و"شرح"، و"رجب" وغيرها. [ينظر: ص250. من هذا البحث].
- **القول** بأنّ القرآن الكريم لا يكاد يذكر شيئا عن الفترة المكية؛ المستشرق "بول" في: [مد: محمد ﷺ/ فق: 1] [9121/30]	- **يرده:** تفصيل المستشرق "ولش" لوقائع ذكرها القرآن من الفترة المكية في: [مد: القرآن/ فق: 1: 8207-8206/26].
- التشكيك في اضطهاد أهل مكة للنبي ﷺ وأصحابه؛ المستشرق "بول" في: [مد: محمد ﷺ/ فق: 25] [9121/30]	- **ينقضه:** ما جاء في إثبات اضطهاد النبي ﷺ وأصحابه بالقول والفعل في عدة مواد؛ مثل ما جاء مواد: [مد: أبو لهب": بارث: 393/1]، [مد: مكة: وات: 31-9597] وغيرها؛ كما في: ص390. -**بل ينقضه:** هو نفسه في ما كتبه في [مد: أبو جهل: 322/1]، [مد: بلال: 73/4].
-إنكار حادثة محاولة قريش قتل النبي ﷺ عند هجرته؛ المستشرق "بول": [مد: محمد ﷺ/ فق: 35-36] [9128-9127/30]	- **ينقضه:** هو نفسه فيثبت حادثة محاولة قتله في: [مد: [أبو]جهل/ فق: 2: 323/1] - **وينقضه:** محرّرون آخرون؛ المستشرقة "فاجليري" في: [مد: علي/ فق: 2: 7415/24]. - وأيضا في: المستشرق "وات" في: [مد: الهجرة: 10033/32]
-الزعم بأن النبي ﷺ لم يكن عنده فكرة عن كيفية تحريف أهل الكتاب لكتبهم. المستشرق "بول": [مد: التحريف/ فق2: 604-603/2]	- **ينقضه:** هو نفسه في: [مد: محمد ﷺ/ فق47: 9133-9132/30]؛ عندما يذكر آيات تبيّن أوجه تحريفهم وكـــيفيّاته.

فهـــارس البحـــث

فهرس الآيات القرآنيّة

فهرس الأحاديث النّبويّة

فهرس الأعلام المُتَرجَم لهـم

فهرس الأماكن والبلدان المعرّف بهـا

فهرس المصادر والمراجـع

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة	السورة ورقم الآية	الصفحة
- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾	[البقرة: 23]	328
- ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾	[البقرة: 40-41]	565، 567، 570
- ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾	[البقرة: 42]	583
- ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾	[البقرة: 59]	583
- ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾	[البقرة: 79]	582، 593
- ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾	[البقرة: 88]	571
- ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾	[البقرة: 89]	567، 574
- ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾	[البقرة: 97]	304، 578
- ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾	[البقرة: 98]	577
- ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾	[البقرة: 102]	322
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾	[البقرة: 104]	571
- ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾	[البقرة: 144]	609
- ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾	[البقرة: 136]	593
- ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾	[البقرة: 146]	593، 594
﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾	[البقرة: 190]	971
- ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾	[البقرة: 191]	760
- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾	[البقرة: 216]	548، 759، 763
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾	[البقرة: 217]	765، 769
- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾	[البقرة: 219]	622
- ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾	[البقرة: 256]	966

- ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	[البقرة: 273]	603
- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾	[آل عمران:12-13]	795
- ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾	[آل عمران: 61]	729
- ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾	[آل عمران: 64]	672، 681، 686
- ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾	[آل عمران: 78]	593
- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾	[آل عمران: 81]	567
- ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	[آل عمران: 93]	583
- ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾	[آل عمران: 103]	531، 532
- ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾	[آل عمران: 110]	566، 572
- ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾	[آل عمران: 113]	576
- ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾	[آل عمران: 123]	786
- ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾	[آل عمران: 126]	820
- ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾	[آل عمران:139-140]	833
- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾	[آل عمران: 144]	751، 817
- ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾	[آل عمران: 146]	582
- ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾	[آل عمران: 152]	818
- ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾	[آل عمران: 159]	813، 970
- ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾	[آل عمران: 160]	820
- ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾	[آل عمران: 165]	833، 837
- ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[آل عمران:166-167]	815، 833
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾	[آل عمران: 169]	832، 973
- ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾	[آل عمران: 172-174]	855
- ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾	[آل عمران: 179]	815
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾	[النساء: 43]	622
- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾	[النساء: 44]	582

- ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	[النساء: 46]	64، 577، 583، 593
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾	[النساء: 47]	565، 586
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾	[النساء: 51]	584، 693
- ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾	[النساء: 59]	600
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	[النساء: 76]	969
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾	[النساء: 80]	169
- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾	[النساء: 88]	508
- ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾	[النساء: 160]	582
- ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾	[النساء: 163]	310
- ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾	[النساء: 164]	460
- ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾	[المائدة: 3]	739، 742
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	[المائدة: 11]	853
- ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾	[المائدة: 15- 16]	233
- ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾	[المائدة: 41]	593
- ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾	[المائدة: 48]	586، 600
- ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾	[المائدة: 67]	330، 965
- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾	[المائدة: 82]	572، 576
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾	[المائدة: 90]	622
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾	[المائدة: 101]	313، 314، 315، 316
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾	[الأنعام: 9]	372
- ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	[الأنعام: 29]	367
- ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾	[الأنعام: 33]	375
- ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾	[الأنعام: 34]	392
- ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾	[الأنعام: 50]	370
- ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾	[الأنعام: 91]	594
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	[الأنعام: 92]	306، 565

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾	[الأنعام: 103]	606
- ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ ﴾	[الأنعام: 125]	201
- ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾	[الأنعام: 141]	618
- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾	[الأعراف: 157]	574
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا ﴾	[الأعراف: 73]	948
- ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾	[الأنفال: 1]	169
- ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾	[الأنفال: 5]	548، 771، 776
- ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ ﴾	[الأنفال: 17]	792
- ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ ﴾	[الأنفال: 17]	786،
- ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾	[الأنفال: 30]	497
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	[الأنفال: 36]	808
- ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾	[الأنفال: 39]	965
- ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ ﴾	[الأنفال: 42]	777، 779
- ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾	[الأنفال: 47]	773
- ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ ﴾	[الأنفال: 56]	515، 853
- ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾	[الأنفال: 58]	798
﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾	[الأنفال: 60]	972
﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾	[الأنفال: 61]	970
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	[الأنفال: 62]	544، 968
- ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ ﴾	[الأنفال: 63]	533
- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	[الأنفال: 74]	543، 549
- ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾	[الأنفال: 75]	533، 534
- ﴿ بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾	[التوبة: 1-3]	713، 716
- ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾	[التوبة: 25-26]	922، 923، 929، 968
- ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾	[التوبة: 30]	587

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾	[التوبة: 32-33]	852
- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾	[التوبة: 36]	761
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟﴾	[التوبة: 38]	955
- ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾	[التوبة: 40]	495، 501، 502
- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾	[التوبة: 42-45]	952، 957، 959
- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾	[التوبة: 58]	639، 952
- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾	[التوبة: 60]	696
- ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾	[التوبة: 61-65]	952
- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾	[التوبة: 74]	959
- ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾	[التوبة: 81]	952
- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾	[التوبة: 91]	954، 957
- ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾	[التوبة: 92]	953، 957
- ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾	[التوبة: 97]	952
- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾	[التوبة: 100]	524، 530
- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾	[التوبة: 107-108]	960
- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾	[التوبة: 118]	958
- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾	[التوبة: 120]	508
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾	[التوبة: 123]	942، 964
- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾	[يونس: 2]	370، 371
- ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾	[يونس: 15]	307، 326-327
- ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	[يونس: 16]	277، 293، 331
- ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	[يونس: 37]	565
- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا	[يونس: 75-76]	376

لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾		
- ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾	[هود: 27]	343 ،342
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾	[هود: 49]	353 ،307
- ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾	[هود: 62]	361
- ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾	[هود: 87]	629
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾	[هود: 114]	605
- ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾	[يوسف: 3]	277
- ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾	[يوسف: 92]	701
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ ﴾	[يوسف: 110]	477
- ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾	[إبراهيم: 10]	371
- ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾	[الحجر: 18]	230
- ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾	[الحجر: 22]	331
- ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾	[الحجر: 42]	420
- ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾	[الحجر: 94]	334
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾	[النحل: 43]	572 ،371
- ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾	[النحل: 67]	623 ،622 ،621
- ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾	[النحل: 106]	392
- ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾	[الإسراء:1]	464 ،447 ،437 ،436 ،434
- ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾	[الإسراء: 76]	153
- ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾	[الإسراء: 81]	705
- ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾	[الإسراء: 82]	322 ،321
- ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾	[الإسراء: 93]	201-200
- ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾	[الإسراء: 95]	372
- ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾	[الكهف: 81]	617

- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾	[الكهف: 110]	332
- ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ﴾	[مريم: 13]	617
- ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾	[مريم: 34]	585
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾	[مريم: 73]	342
- ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾	[طه: 21]	96
- ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾	[طه: 69]	322
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾	[الأنبياء: 7]	306
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	[الأنبياء: 107]	688
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾	[الحج: 38-40]	759، 760، 761، 964
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾	[الحج: 25]	759، 762
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ ﴾	[الحج: 52]	417
- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾	[المؤمنون: 1-11]	605
- ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾	[المؤمنون: 24]	370، 375
- ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾	[المؤمنون: 27]	306
- ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾	[المؤمنون: 69]	277
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾	[النور: 11]	636، 637
- ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾	[النور: 37]	627
- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	[الفرقان: 1]	307
- ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾	[الشعراء: 153-154]	375
- ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾	[الشعراء: 182-183]	605
- ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾	[الشعراء: 214]	334، 354، 355
- ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾	[الشعراء: 221-223]	320
- ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾	[الشعراء: 224-]	552

	[227	
- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾	[النمل: 76]	585
- ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾	[النمل: 91]	362
- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾	[القصص: 52]	572، 576
- ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾	[القصص: 57]	364
- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾	[القصص: 58]	364
- ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾	[العنكبوت: 1- 3]	393
- ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾	[العنكبوت: 18]	431
- ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾	[العنكبوت: 50- 51]	203
- ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾	[الروم: 1- 4]	329
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾	[لقمان: 21]	367
- ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾	[الأحزاب: 6]	527
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾	[الأحزاب: 9-13]	871، 873
- ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾	[الأحزاب: 13]	508
- ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ ﴾	[الأحزاب: 21]	200
- ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ﴾	[الأحزاب: 25]	875
- ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾	[الأحزاب: 26]	882
- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾	[سبأ: 7-8]	367
- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾	[سبأ: 28]	688
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾	[سبأ: 23]	319
- ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾	[سبأ: 37]	372
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾	[سبأ: 43]	154، 367
﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾	[سبأ: 49]	705

- ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ إلى قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾	[يس: 1-9]	497
- ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾	[ص: 5]	365
- ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾	[ص: 16]	363
- ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾	[الزمر: 38]	362، 365
- ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾	[فصلت: 1-6]	307
- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾	[فصلت: 43]	376
- ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾	[الشورى: 11]	606
- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾	[الشورى: 13]	560، 564، 586
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾	[الشورى: 14]	585
- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾	[الشورى: 41-42]	760
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾	[الشورى: 52]	276-277
- ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾	[الزخرف: 22]	366
- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾	[الزخرف: 31]	237، 239
- ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾	[الزخرف: 51-52]	239
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾	[الزخرف: 61]	463
- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ إلى قوله ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	[الأحقاف: 29-30]	433
- ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾	[الفتح: 1]	661، 662، 687، 697
- ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾	[الفتح:18]	653، 656
﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾	[الفتح: 20]	893، 900
- ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾	[الفتح: 27]	643، 666
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	[الحجرات: 1-2]	720
- ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾	[الحجرات: 10]	527، 534
- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾	[الحجرات: 17]	721-722
- ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾	[الذاريات: 38-39]	375

- ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾	[الذاريات: 52]	376
- ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾	[الطور: 29]	372
- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾	[النجم:3-4]	306-307، 420
- ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ إلى قوله ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾	[النجم: 6-14]	443-444، 461
- ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾	[النجم: 16]	460
- ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾	[النجم: 18]	447
- ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾	[النجم: 19-23]	416، 417، 420، 712
- ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾	[النجم: 32]	617
- ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾	[القمر: 9]	375
- ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾	[الحديد: 27]	628
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾	[الحشر: 4]	850
- ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ إلى قوله ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾	[الحشر: 6-7]	850، 854
- ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾	[الحشر: 9]	530
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾	[الحشر: 11]	632
- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾	[الصف: 6]	567
- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾	[الصف: 8]	471
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾	[الصف: 14]	524، 574
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ﴾	[الجمعة: 9]	628
- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾	[المنافقون: 8]	633، 634
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾	[التغابن: 6]	371
- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾	[الملك: 6]	326
- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ إلى قوله ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾	[الحاقة: 41-43]	324، 325، 372
- ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾	[الحاقة: 44-46]	420
- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾	[الجن: 1]	230
- ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾	[الجن: 8]	231

- ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾	[الجن: 9]	228، 231
- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	[المزمل: 20]	617، 618
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾	[المدثر: 1-2]	341
- ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾	[المدثر: 11-26]	323
- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ إلى قوله ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾	[القيامة: 16]	295، 311
- ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾	[التكوير: 19-20]	324
- ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾	[التكوير: 23]	443، 461
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قوله ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾	[المطففين: 1-3]	627
- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾	[الأعلى: 18-19]	562
- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾	[الضحى: 6]	154، 250
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾	[الضحى: 7]	276
- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾	[الشرح: 1]	253
- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾	[العلق: 1-3]	285، 288، 303، 333، 785
- ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾	[العلق: 6-18]	378
- ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾	[العلق: 9-12]	153
- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾	[الزلزلة: 7-8]	291
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ إلى قوله ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾	[الفيل: 1-5]	206
- ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾	[الفيل: 3]	207
- ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾	[قريش: 1-2]	260، 627
- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	[الماعون: 4-6]	152
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾	[النصر: 1-3]	703
- ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	[المسد: 1-2]	354، 355، 360
- ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾	[المسد: 4]	357

فهرس الأحاديث النبوية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طرف الحديث	الصفحة
- أَبْلِي وأَخْلِقِي	411
- ابْنُوا لِي مِنْبَرًا	614
- أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ	340
- احْفِرُوا وَأَوْسِعُوا وَأَحْسِنُوا	831
- أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ	298
- أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ	909
- إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ	319
- اذْهَبْ فَوَارِهِ	384
- أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً	354
- ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي	822
- اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا	784
- أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ	546، 775
- أَصَلَّى النَّاسُ	746
- اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ	321
- اعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ	963، 973
- اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ	971
- أفلا تجلسون حتى أكلمكم	480
- أُكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ	177
- أَلا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ	972
- أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ	746
- الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا	408، 876
- الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ	549
- أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ	954

- أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ	549
- أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى	508
- امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهِ	647
- إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ	938
- إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا	315
- إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ	235
- إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الْمَدِينَةَ طَابَةَ	508
- إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ	314
- إِنْ أَلَمَّ بِكُنَّ أَحَدٌ فَأَلْمِعْنَ بِالسَّيْفِ	883
- إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ	554
- إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ	399
- إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا	954
- إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ	741
- إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخطفُنَا الطَّيْرُ	816
- إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ	554
- إِنّ فِقهَهم قليل	722
- إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ	906
- إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ	937
- إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ	750
- إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً	553
- إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ	894
- أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ	924، 925
- إِنَّا قَافِلُونَ	932
- إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ	646
- أَنْتُمْ عَلَى قَوْمِكُمْ بِمَا فِيهِمْ كُفَلاءُ	484
- انْثُرْهَا لأبِي طَلْحَةَ	822
- إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ	201
- إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ	201

- إِنَّمَا هُوَ جبْرِيلُ	461
- إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ	750
- إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا	811
- إِنَّهَا طَيْـــبَةُ	508
- إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ	762
- إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ	745
- إِنِّي رَسُولُ اللهِ؛ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي	685
- إِنِّي عِنْدَ اللهِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ	232
- اهْجُهُمْ وَجبْرِيلُ مَعَكَ	554
- اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ	554
- أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ	384
- أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ	579
- ائْتِنِي بِالْمِفْتَاحِ	709
- أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا	614
- أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ	831 ،830
- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ	679 ،677 ،676 ،672
- بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ	454
- بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِخَزَائِنِ الأَرْضِ	736
- بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ	454
- تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ	542 ،485
- ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ الصُّبْحِ بِمَكَّةَ	467
- ثُمَّ شَقَّ عَنْ قَلْبِي فَاسْتَخْرَجَهُ	459
- حَمِيَ الْوَطِيسُ	928 ،927
- خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ	741
- دَعْـــهُ؛ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ	634
- ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ	222
- رَأَيْتُ جبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى	443
- سوء الخلق شؤم	624

- شَاهَتِ الْوُجُوهُ	927
- شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ	269
- عَشْرَةٌ فِي الْجَنَّةِ	340
- عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي	502
- فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ	305
- فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ	405، 936
- فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، سَمِعْتُ صَوْتًا	286، 288
- فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِها الأَنْبِيَاءُ	459
- فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ	454
- فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ	286
- فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ	306
- فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ	438
- فَمَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ	832
- فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ	569
- فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَفَرَجَ صَدْرِي	458
- قَاتَلَهُمُ اللَّهُ؛ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَقْسِمُ	705
- قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَاب	348
- قُولوا لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا	568
- قُومُوا فَانْحَرُوا	660
- كَذَبَ عدُوُّ اللهِ، لَيْس بِمسْلِم	674
- الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ	626
- لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ	708
- لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا	947
- لا تَسْأَلْنِي باللاّت والعزّى	278
- لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ	211
- لا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلا بِالنَّصَارَى	571
- لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ	464
- لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ	593

- لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى	201
- لا حِلْفَ فِي الإِسْلامِ	268، 270، 271
- لا شؤم وقد يكون اليُمن في الدار	624
- لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ	623
- لا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجزَ الْقَوْمَ	655
- لا يُؤَدِّي عَنِّي إلاّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي	715، 716
- لا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ	528
- لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينًا	729
- لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً	896
- لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا	552
- لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ	656
- لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ	432
- لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ	462
- اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ	869
- اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُحَلِّقِينَ	660
- اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ	386
- اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ	916، 919
- اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا	933
- اللهُمَّ لا خَيْرَ إلاّ خَيْرُكَ	625
- اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ سَرِيعَ الحِسَابِ	974
- لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ	832
- لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ، قُمْتُ فِي الحِجْرِ	465
- لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ	378
- لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا	723، 736
- لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ	549، 936
- لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ	625
- لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ	529
- لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي	438

- مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَفْرَحُ	413
- مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ	463
- مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ	768 ،767
- مَا أَنَا بِقَارِئٍ	296 ،287 ،285
- مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ	405
- مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاّ رَعَى الغَنَمَ	254
- ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس	624
- مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ	594
- مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ	701
- مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ	946
- مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ	888
- مَا قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ	754
- مَرْحَبًا بِالقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا	718
- مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ	747
- المَسْجِدُ الحَرَامُ ، قلتُ: ثُمّ أيٌّ؟ قال: المَسْجِدُ الأَقْصَى	464
- مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا	323
- مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ	571
- مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا	968
- مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا	175
- مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ	804
- مَنْ يُهَاجِرُ مَعِي	501
- مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي؛ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي	486 ،475
- نَصْبِرُ وَلا نُعَاقِبُ	701
- نُصِرْتُ بِالصَّبَا	876
- نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنُ سَالِمٍ	691
- نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي	170
- نَعَمْ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ	350
- نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ	901

- نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ	462
- هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ المَنْزِلُ	506
- هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ	377، 782
- هَذَا فُلاَنٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ	656
- هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ	212
- هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ	771
- هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ	353
- هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ	486، 491
- هَلُمُّوا إِلَيَّ؛ أَنَا رَسُولُ اللهِ	927
- هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ	384
- وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ	661، 703
- وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَمْسَى	604
- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ	973
- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً	970
- وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي	657
- واللهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ الْعَرَبَ	874
- وَتَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيُرْمَوْنَ	229، 319
- وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام فَإِذَا أَقْرَبُ	297
- يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا	494
- يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ	599
- يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ	622
- يا بلال قم فانظر ما يأمُرُك به عبد الله	611
- يَا جِبْرِيلُ إِنَّ قَوْمِي لا يُصَدِّقُونَنِي	468
- يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ	747
- يا عثمانُ إنّ الله لَمْ يَبْعَثْنِي بالرَّهبانيّة	401، 628
- يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اِحْذَرُوا مِنْ اللهِ	795

فهرس الأعلام المترجم لهم

اسم العلم	الصفحة
أبان بن عثمان بن عفان	114
ابن سيد الناس	146
أبو ريدة محمد عبد الهادي	216
أبو عبيدة معمر بن المثنى	268
أبو مخنف	163
أرندنك	268
ألان	667
أمين الخولي	50
إندس	279
أويسترب	334
بارت رودي	137
بارث جاكوب	355
باسيه	731
بروكلمان	123
برينييه	19
بشر بن تيم	227
بِكَر كارل	137
بلاّت شارل	96
البلاذري	144
بلسنر	215
بول فرانتس	150
بيدرسن	613
بيرنات هيلر	373
بيوركمان	677
تسترشتين	112
توماس أرنولد	67

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توماس كارليل	67
جب هاملتون	111
جرمانوس عبد الكريم	69
جورج سيل	80
جولد زيهر	167
جويدي	396
جوينبل	611
خليفة بن خياط	164
الدياربكري	147
ديمومبين	707
رايسكه	23
ركندورف	249
روبنسون	435
روسكا	500
رينـــتز	710
الزهري	120
ستريك	225
سزكين فؤاد	137
سعيد بن سعد بن عبادة	108
سفيان بن دينار	755
السكران بن عمرو	414-413
سليمان بن طرخان	125
سهل بن أبي حثمة	108
سوتر هينريش	562
سيف بن عمر	163
شاخت	50
شاده	234
شرحبيل بن سعد	120
شريك	435
شيدر هانس	225

عاصم بن عمر بن قتادة	119
عامر الشعبي	116
عبد الله بن جحش	415
عبد الله بن عباس	108
عبد بن جحش	415
عروة بن الزبير	113
عـــزير	588
علي بن إبراهيم الحلبي	148
عوانة الكلبي	99
فاجليري	336
فارمر	866
فان دونزل	410
فاير هانس	241
فكا فرجينيا	299
فنسنك	49
فهد توفيق	507
فوك يوهان	266
قنَواتي جورج	462
كاراده فو	253
كرسويل	271
كرنكوف	526
كرومان	678
كندرمان	710
كور	211
كيستر	725
لَمنس	211
لوسرف	600
ليفي بروفنسال	49
ليفي دلافيدا	95
ماكدونالد	228

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مالك بن زمعة	414-413
متوتش أويجن	137
محمد ابن إسحاق	125
محمد أسد ليوبولد فايس	25
محمد بن الحسن بن زبالة	229
محمد بن السائب الكلبي	163
محمد بن سعد	143
محمد بن شنب	48
محمد مسعود	50
محمد مهدي علام	50
المدائني	142
معروف بن خربوذ	227
معمر بن راشد	125
موروني	676
موسى بن عقبة	125
موسيل	945
مونتجمري وات	59
ناصر الدين دينيه	24
نظامي خليق أحمد	602
هفننج	627
هوتسما	49
هورفتس	112
هولْمبرج	260
هيربلو	33
الواقدي	138
ولش ألفورد	150
وهب بن منبه	116
يعقوب بن عتبة	207

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن والبلدان المعرَّف بها

اسم المكان	الصفحة
الأبواء	251
أذرح	950
أوطاس	920
أيلة	950
بُصْرى	233
بُعَاث	531
البلقاء	906
بيت لحم	455
بئر معونة	844
تبوك	940
تيماء	900
ثنيّة المرار	650
جدّة	961
جرباء	950
الجُرف	864
الجِعْرانة	935
الجِناب	904
جوف السرحان	951
حَبْرون	591
الحِجْر	211
حمراء الأسد	835
حنين	923
الحوراء	772

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خليج الشعيبة	410
الخليل	455
الْخَنْدَمة	701
خيبر	890
دومة الجندل	888
ذات السلاسل	912
ذفران	774
الرجيع	841
زغابة	864
ساوه	225
الشرق الأوسط	5
شِعب أبي طالب	425
الشوط	814
صُحار	678
الصفراء	774
ضَرِيّة	904
الطائف	931
العِرض	815
عُرَنة	839
عُسْفان	650
غار حِراء	285
الغُمَيصاء	915
الغميم	504
فدك	900
قُباء	505
القُرْطاء	887
قرقرة الكُدر	802

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قطن	839
كراع الغميم	650
لِيَّـــة	931
مآب	906
مجمع الأسيال	864
مر الظهران	855
الْمُرَيْسِيع	857
معان	772
مقنا	950
مؤتة	906
نجران	727
نخلة	710
نخلة	711
وادي القرى	901
الوتير	690
ودان	764
يلملم	915
اليمامة	723

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر البوصيري، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل-السيد محمود، دار الرشد-الرياض، ط1: 1419-1998.
2. الأبطال، توماس كارليل، ترجمة محمد السباعي، مكتبة مصر- القاهرة، دت.
3. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد بن علي، دار الحديث-القاهرة، 1427-2006.
4. إتـــمام الأعلام (ذيل لإتمام الأعلام للزركلي)، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر-بيروت، ط1: 1999.
5. آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم، جابر قميحة، إصدار رابطة العالم الإسلامي- مكة المكرمة، 1412-1991.
6. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير -الاستشراق -الاستعمار)، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم-دمشق، ط8: 1420-2000.
7. الإرشاد في معرفة علماء الحديث، أبو يعلى الخليل بن عبد الله الخليلي، تحقيق محمد سعيد إدريس، مكتبة الرشد - الرياض، ط1: 1409.
8. أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشه -محمد شريف، دار الاعتصام-القاهرة، ط3: 1933-1979.
9. الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، دار العربي-القاهرة، 1416-1995.
10. الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، دار الكلمة، ط3: 1421-2000.
11. الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1: 1417-1997.
12. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف-القاهرة، 1997.
13. الاستشراق والدراسات الإسلامية، علي بن إبراهيم النملة، مكتبة التوبة-الرياض، ط1: 1418-1998.

14. الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي، محمّد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية-القاهرة، 1989.
15. الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، دار الوراق، المكتب الإسلامي-دمشق، دت.
16. الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، عدنان محمد وزان، دط.
17. الاستشراق: المعرفة-السلطة-الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة كمال ديب، مؤسسة الأبحاث العربية-بيروت، ط2: 1984.
18. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر ابن عبد البر، تحقيق علي البجاوي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل-بيروت، ط1: 1412-1992.
19. أسد الغابة، عز الدين ابن الأثير، تحقيق علي معوض -عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1415-1994.
20. الأسرار المرفوع في الأخبار الموضوعة، علي القاري، تحقيق محمد الصباغ، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة-بيروت، دت.
21. الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد (ليوبولد فايس)، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين-بيروت، ط3: 1951.
22. الإسلام والغرب، برنارد لويس، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد، دار الرشيد -دمشق -بيروت، مؤسسة الإيمان، ط1: 1414-1994.
23. الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، أبو الحسن الندوي، مؤسسة الرسالة-بيروت، 1983.
24. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق عادل عبد الموجود -علي معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، ط1: 1415-1995.
25. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر-بيروت، 1415-1995.
26. إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، تحقيق محمد أحمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء-السعودية، 1410-1989.
27. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد الله المصلح، وعبد الجواد الصاوي، مع عبد المجيد الزنداني، وزغلول النجار وآخرين، دار جياد- السعودية، 1459-2008.

28. الأعـــلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين-بيروت، ط7: 1986.
29. أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، سيد حسن العفاني، دار ماجد -السعودية، ط1: 1424-2004.
30. الإعلان بالتوبيخ لِمن ذمّ أهل التاريخ، شمس الدين محمد السخاوي، تحقيق فرانز روزنتال، ترجمة صالح العلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1: 1407-1986.
31. الأغـــاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس -إبراهيم السعافين -بكر عباس، دار صادر- بيروت، ط3: 1429-2008.
32. الاقتراح في بيان الاصطلاح ابن دقيق العيد، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط1: 1417-1996.
33. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، سليمان بن موسى الكلاعي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1420.
34. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية -بيروت، ط1: 1420- 1999.
35. الأموال، تحقيق خليل هراس، خليل محمد هراس، دار الفكر- بيروت، دت.
36. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكرة الإسلامي، مالك بن نبي، دار الإرشاد-بيروت، ط1: 1388-1969.
37. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر- بيروت، ط1: 1417-1996.
38. الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والمجازفة، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، المكتب الإسلامي -بيروت -دمشق، ط2: 1405-1985.
39. أوربا والإسلام، عبد الحليم محمود، دار المعارف -القاهرة، 1993.
40. البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، دار عالم الكتب- القاهرة، ط6: 1988.
41. بحوث في تاريخ السنة المشرفة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم -المدينة المنورة، 1984.
42. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر- جيزة بمصر، ط1: 1418-1997.
43. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب الإسلامي-القاهرة.

44. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية، دت.
45. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال- القاهرة، 1957.
46. تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر-القاهرة، دت.
47. تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 2003.
48. تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، ترجمة محمود فهمي حجازي -عرفة مصطفى -سعيد عبد الرحيم، إدارة الثقافة والنشر بجامعة ابن سعود-الرياض، 1403-1983.
49. تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط1: 1998.
50. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد الدّياربكري، دار صادر-بيروت، دت.
51. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، محمود المقداد، عالم المعرفة - الكويت، 1413-1992.
52. تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف-القاهرة، ط2: 1969.
53. تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة أمين فارس -منير البعلبكي، دار العلم الملايين-بيروت، ط4: 1965.
54. تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، دار الحداثة-بيروت، دت.
55. التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الكتب العلمية - بيروت، إشراف: مجلس دائرة المعارف العثمانية-حيدر أباد، الهند، 1986.
56. تاريخ اليعقوبي، أحد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، الأعلمي للطبع -بيروت، ط1: 1431-2010.
57. تاريخ بغداد (أو تاريخ مدينة السلام)، أبو بكر الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، 1422-2001.
58. تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي-بيروت، ط2: 2001.
59. تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط البصري، تحقيق، أكرم ضياء العمري، دار القلم-دمشق، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط2: 1397-1977.
60. تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسين بن عساكر، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر العمروي، دار الفكر - بيروت، 1415-1995.

61. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، مصطفى خالدي -عمر فروخ، المكتبة العصرية-بيروت، 1372-1953.
62. تجريد أسماء الصحابة، شمس الدين الذهبي، دار المعرفة-بيروت، دت.
63. تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان - بيروت، ط2: 1425-2004.
64. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية-تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، 1984.
65. تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد المباركفوري، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1422-2001.
66. تخريج أحاديث الكشاف، جمال الدين الزيلعي، عبد الله السعد، دار ابن خزيمة-الرياض، ط1: 1414-1994.
67. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، تحقيق نظر محمد الفريابي، مؤسسة الريان-بيروت، ط1: 1426-2005.
68. تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية-بيروت، 1419-1998.
69. تراث الإسلام، جوزيف شاخت وبوزورث كليفورد، ترجمة محمد السمهوري-حسين مؤنس-إحسان صدقي، دار عالم المعرفة-الكويت، 1998.
70. تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك، أحمد شاكر، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة السنة-القاهرة، ط2: 1415.
71. تطور كتابة السيرة، عمار محمد عبودي، الثقافية العامة-بغداد، ط1: 1418.
72. تغليق التعليق، ابن حجر، تحقيق سعيد عبد الرحمن القزقي، المكتب الإسلامي-بيروت ، دار عمار-الأردن، ط1: 1405-1985.
73. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط1: 1420-1999.
74. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط3: 1420-1999.
75. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة-الرياض، ط2: 1420-1999.
76. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتب المصرية-القاهرة، ط2: 1373-1954.

77. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
78. التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر-دمشق، ط2: 1418-1998.
79. تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1419-1999. وطبعة: مكتبة الرشد-الرياض، تحقيق مصطفى مسلم، 1410-1989.
80. تقريب التهذيب، ابن حجر، محمد عوامة، دار الرشيد-سوريا، ط1: 1406-1986.
81. تقييد العلم، الخطيب البغدادي، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط2: 1974.
82. التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، ط1: 1419-1989.
83. تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير، ابن الجوزي، دار الأرقم-بيروت، ط1: 1997.
84. التمييز، مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مكتبة الكوثر-السعودية، 1410-1990.
85. التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ط3: 1426-2005.
86. تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين النووي، تصحيح إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية-بيروت، دت.
87. تهذيب السيرة النبوية ، عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا- إبراهيم الأبياري - عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة بيروت، طبعة مصورة عن مكتبة مصطفى البابي الحلبي، 1375-1955.
88. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين المزي، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة-بيروت، 1413-1992.
89. توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر الجزائري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية-حلب، ط1: 1416-1995.
90. التوجيه والإرشاد النفسي، حامد عبد السلام زهران، عالم الكتب، ط3، دت.
91. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ترجمة حسن خالد، المكتب الإسلامي-دمشق، ط3: 1411-1990.
92. الثقات، محمد بن حبان أبو حاتم البستِي، مؤسسة الكتب الثقافية، إشراف مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1: 1400-1980.

93. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر-جيزة-بمصر، ط1: 1422-2001.
94. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تحقيق أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط1: 1414-1994.
95. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف-الرياض، 1403-1983.
96. الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية-حيدر آباد، ط1: 1372-1952.
97. جوامع السيرة النبوية، أبو محمد ابن حزم، دار الكتب العلمية-بيروت، دت.
98. الحديث والمحدثون (أو عناية الأمة الإسلامية بالسنة النبوية)، محمد محمد أبو زهو، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد-الرياض، 1404-1984.
99. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي-مصر، 1969.
100. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر-القاهرة، ط4: 2005.
101. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي-بيروت، ط3: 1400-1980.
102. حياة محمد، محمد حسين هيكل، دار المعارف-القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة، دت.
103. خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، المؤتمر العالمي للسيرة والسنة النبوية-الدوحة، 1400-1980.
104. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت، دار الكتب المصرية - القاهرة، 2000.
105. دائرة المعارف الإسلامية (الإصدار الأول)، مجموعة من المستشرقين، ترجمة: أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دار المعرفة-بيروت، 1933.
106. دائرة المعارف الإسلامية (الإصدار الثاني)، مجموعة من المستشرقين، تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمة: أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دار الشعب- القاهرة، 1969.
107. دائرة المعارف الإسلامية (الإصدار الثالث)، المسماة: "موجز دائرة المعارف الإسلامية"، مركز الشارقة للإبداع الفكري بالتعاون مع هيئة الكتاب المصرية، ط1: 1418- 1998.

108. دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية -أضاليل وأباطيل-، إبراهيم عوض، مكتبة البلد الأمين- القاهرة، ط1: 1419-1998.
109. دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق، 1413- 1996.
110. دراسات محمدية، جولد زيهر، ترجمة الصديق بشير نصر، (ملحق بكتاب: التعليقات على دراسات محمدية)، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشرق-لندن، ط2: 2009.
111. دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، دار النفائس-بيروت، ط2: 1425-2004.
112. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلس دائرة المعارف العثمانية- الهند، ط2: 1392-1972.
113. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، جلال الدين السيوطي، محمد بن لطفي الصباغ، عمادة شؤون المكتبات-الرياض، دت.
114. الدعوة إلى الإسلام، أرنولد ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي،
115. دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، محمد بن محمد أبو شهبة، المكتبة العصرية - بيروت، 1989.
116. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، شركة نهضة مصر - القاهرة، ط7: 2005.
117. دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية-بيروت، دار الريان للتراث- بيروت، 1408-1988.
118. دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني، تحقيق محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس- بيروت، ط2: 1406-1986.
119. رحمة للعالمين، محمد سليمان المنصورفوري، ترجمة سمير إبراهيم، دار السلام-الرياض، دت.
120. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار الشهاب-الجزائر، مع دار الوفاء-القاهرة، 1408-1987.
121. الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، دار الأمان-القاهرة، ط1: 1415-1995.
122. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (مقدمة كتاب المتنبي)، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة، دار المدني - جدة، 1407-1987.
123. الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار الفكر-بيروت، ط6: 1422-2002.

124. الرسول حياة محمد، بودلي رونالد، ترجة عبد الحميد السحار- محمد فرج، دار الكتاب العربي-القاهرة، دت.
125. الرسول في كتابات المستشرقين، نذر حمدان، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، دت.
126. رواة محمد بن إسحاق في المغازي والسير، مطاع الطرابيشي، دار الفكر-دمشق، 1414-1994.
127. الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط1: 1421-2000.
128. زاد المسير، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط1: 1422.
129. زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط- عبد القادر الأرنؤوط، ط3: 1418-1998.
130. سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود- علي معوض، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1414-1993.
131. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، 1415-1995.
132. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السّيء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ط2: 1408-1988.
133.السنة قبل التدوين، عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، دار أم القرى - القاهرة، ط2: 1408-1988.
134. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي-بيروت، 1985.
135. سنن ابن ماجه (مع حاشية السندي)، دار الجيل - بيروت، دت.
136. السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط3: 1424-2003.
137. السنن الكبرى، النسائي أبو عبد الرحمن أحمد، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1421-2001.
138. سنن النسائي (مع حاشيتي: السيوطي، والسندي)، تحقيق وعناية مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة-بيروت، 1420.

139. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1402-1982.
140. السير والمغازي، ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، ط1: 1398-1978.
141. السيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي، دار الكتب العلمية-بيروت، 1427.
142. سيرة الرسول ﷺ -صور مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية-بيروت، دت.
143. السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري –محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العبيكان -الرياض، ط8: 1530-2009.
144. السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي-بيروت/دمشق، دت.
145. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، دار اليقين-القاهرة، ط1: 1432-2011.
146. السيرة النبوية في العهد المدني، أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1424-2004.
147. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، محمد أبو شهبة، دار القلم -دمشق، ط2: 1412-1992.
148. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان البستي، دار الكتب الثقافية-بيروت، ط3: 1417-1997.
149. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة –القاهرة، دت.
150. السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار ابن كثير-دمشق، ط12: 1425.
151. شبهات في الفكر الإسلامي، أنور الجندي، الاتحاد الوطني لطلبة الإمارات، 1985.
152. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (للقسطلاني)، أبو عبد الله محمد الزرقاني، دار الكتب-بيروت، ط1: 1417-1996.
153. شرح الشـــفا (للقاضي عياض)، علي القاري، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1421.
154. شرح النووي على صحيح مسلم، مؤسسة قرطبة، ط2/1414-1994.
155. شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق نور الدين عتر، دار الملاح، ط1: 1398-1978.
156. شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1415-1494.
157. صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1408-1988.

158. صحيح السيرة النبوية (أو السيرة الذهبية)، محمد بن رزق بن طرهوني، دار ابن تيمية–القاهرة، ط1: 1410.

159. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس–الأردن، ط1: 1415-1995.

160. صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية–الأردن، ط1: 1421.

161. الصحيح من أحاديث السيرة، محمد الصوياني، دار الوطن –الرياض، 1432-2011.

162. صفة الصفوة، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ومحمد قلعه جي، دار المعرفة–بيروت، ط3: 1405-1985.

163. صور استشراقية، عبد الجليل شلبي، مجمع البحوث الإسلامية، 1978.

164. الصوفية في الإسلام، نيكلسون.ر.أ، ترجمة نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط2: 1422-2002.

165. الضعفاء الكبير، العقيلي أبو جعفر محمد بن عمرو المكي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية–بيروت، ط1: 1404-1984.

166. الضعفاء والمتروكين، ابن الجوزي، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية–بيروت، ط1: 1406-1986.

167. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البصري، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ط1: 1410-1990. وطبعة: دار صادر–بيروت؛ بتحقيق: إحسان عباس، ط1: 1968.

168. طبقات المدلسين (تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس)، ابن حجر، تحقيق عاصم القريوتي، مكتبة المنار–عمّان، ط1: 1403-1983.

169. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، عمر بن محمد النسفي، المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، 1311.

170. ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، محمد فتح الله الزيادي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس، ط1: 1983.

171. العقيدة والشريعة في الإسلام، أجناس جولد زيهر، ترجمة محمد يوسف –عبد العزيز عبد الحق –علي حسن عبد القادر، دار كالتب الحديثة–بمصر، ودار المثنى–بغداد، ط2، دت.

172. علوم الحديث، أبو عمرو ابن الصلاح، تحقيق نور الدين عتر، دار الفكر–دمشق، 1434-2013.

173. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار الفكر – بيروت، دت.

174.عون المعبود شرح سنن أبي داود، أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية- بيروت، 1415-1995.

175.عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد بن سيد الناس، تحقيق إبراهيم محمد رمضان، دار القلم-بيروت، ط1: 1993/1414.

176.الغارة على العالم الإسلامي، لُو شاتليه، ترجمة مساعد اليافعي - محبّ الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث-القاهرة، ط1: 1350، جدة - ط2: 1387.

177. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار السلام-الرياض، دار الفيحاء- دمشق، ط3: 1421-2000.

178.فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب- بيروت، ط1: 1414-1994.

179.فتح المغيث شرح ألفية الحديث، شرح ألفية الحديث، شمس الدين محمد السخاوي، تحقيق صلاح محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية-بيروت، 1421-2001.

180.فتوح البلدان، البلاذري، دار ومكتبة الهلال-بيروت، 1988.

181.الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية- بيروت، 1411-1990.

182. الفصول في سيرة الرسول، أبو الفداء ابن كثير، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1405-1985.

183. فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، البوطي دار الفكر-دمشق، ط25: 1426.

184. فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، جامعة أم القرى، مركز بحوث الدراسات الإسلامية-مكة، ط2: 1413-1992.

185. فقه السيرة، محمد الغزالي، مع تخريج الألباني للأحاديث، دار القلم-دمشق، ط7: 1418-1998.

186. فـــقه اللغة، أبو منصور عبد الملك الثعالبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1: 1422-2002.

187. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربي- القاهرة، 1418-1998.

188.فهرس الفهارس، محمد عبد الحي الكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط2: 1982.

189.فهرسة ابن خير الإشبيلي، أبو بكر بن خير بن عمر الأموي، تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1: 1419-1998.

190.الفهرست، أبو الفرج ابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة-بيروت، ط2: 1417-1997.

191.الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، دار الكتب العلمية-بيروت، دت.

192. في الأدب الجاهلي، طه حسين، مطبعة فاروق-القاهرة، ط2: 1352-1933.

193. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق-بيروت-القاهرة، ط17: 1412-1992.

194. فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر-بيروت، ط2: 1391-1972.

195. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط8: 1426-2005.

196. قصص الأنبياء، أبو إسحاق أحمد الثعلبي، مكتبة الجمهورية العربية-بمصر، دت.

197. القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، دار الندوة الجديدة بيروت، دت.

198. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ط1: 1417-1997.

199. الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد ابن عدي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1: 1418-1997.

200. الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد)، دار الكتاب المقدس-لبنان، 1996.

201. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان-بيروت، ط1: 1996م.

202. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي-بيروت، دت.

203.الكفاية، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي، تحقيق إبراهيم آل بحبح الدمياطي، دار الهدى - القاهرة، ط1: 1423-2003.

204. الكواكب الدراري شرح البخاري، شمس الدين الكرماني، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2: 1401-1981.

205.اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، جلال االدين السيوطي، تحقيق صلاح عويضة، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1417-1996.
206.لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر-بيروت، ط3: 1414-1994.
207.لسان الميزان، ابن حجر، إشراف دائرة المعارف النظامية-الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-بيروت، ط2: 1390-1971.
208.لطائف المعارف فيما لِمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم-بيروت، ط1: 1424-2004.
209. المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، مطبعة الجامع الأزهر-الإدارة العامة للثقافة الإسلامية-القاهرة، دت.
210. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان بن أحمد البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي - حلب، 1402.
211. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين أبو الحسن الهيثمي، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي-القاهرة، 1414- 1994.
212. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس-بيروت، ط6: 1407-1987.
213. محمد ﷺ في مكة، مونتجمري وات، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، 1415.
214. محمد رسول الله ﷺ، ناصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، ترجمة عبد الحليم محمود-محمد عبد الحليم، دار المعارف-القاهرة، ط3: 1986.
215. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-بيروت، ط5: 1420-1999.
216. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري، دار الفكر-بيروت، ط1: 1422-2002.
217. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق جاد المولى -محمد أبو الفضل - علي البجاوي، المكتبة العصرية - بيروت، 1408-1987.
218.المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1411-1990.
219. المستشرقون الناطقون بالإنجليزية (دراسة نقدية)، عبد اللطيف الطيباوي، ترجمة قاسم السامرائي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية-السعودية، 1411-1991.

220. المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-بمصر، 1358-1965.

221. المستشرقون والتراث، عبد العظيم الديب، دار الوفاء-المنصورة، ط3: 1413-1992.

222. المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، عجيل جاسم النشمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون-الكويت، 1404-1984.

223. المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف-القاهرة، ط3: 1964.

224. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان الطيالسي البصري، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر-مصر، ط1: 1419-1999.

225. مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1: 1421-2001.

226.مسند البزار (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي البزار، تحقيق محفوظ زين الله، مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، 1424-2003.

227. مصابيح السنة، البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق يوسف عبد الرحمن-محمد سليم-جمال الذهبي، دار المعرفة-بيروت، ط1: 1407-1987.

228. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت، دت.

229. المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد-الرياض، ط1: 1409-1989.

230. المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، إصدار المجلس العلمي، المكتب الإسلامي-بيروت، ط2: 1403-1983.

231. المطالب العالية، ابن حجر، مجموعة بحث بتنسيق سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، دار الغيث- الرياض، ط1: 1419-1998.

232. المعـــارف، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق ثروت عكاشة، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ط2: 1992.

233. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد شُرَّاب، دار القلم-دمشق، الدار الشامية-بيروت، ط1: 1411-1991.

234. معجم أسماء المستشرقين، يحيى مراد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1425-2004.

235. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، شهاب الدين ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط1: 1414-1993.

236. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر-بيروت، 1397-1977.
237. المعجم الكبير، الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة، دت.
238. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار مع فريق عمل، عالم الكتب-القاهرة، ط1: 1429-2008.
239.معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة-مكة المكرمة، ط1: 1402- 1982.
240.المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي-إميل بديع، دار العلم للملايين، - بيروت، ط1: 1987.
241. معجم المؤلفين -تراجم مصنفي الكتب العربية-، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1: 1414-1993.
242. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى-أحمد الزيات -حامد عبد القادر- محمد النجار، إشراف مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية- بمصر، ط4: 1425-2004.
243. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر بن رضا كحالة، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط7: 1414-1994.
244. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد البكري الأندلسي، معجم ما استعجم، عالم الكتب- بيروت، ط3: 1403-1983.
245. معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1378-1959.
246.معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، 1399-1979.
247.معرفة علوم الحديث، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية-بيروت، 1397-1977.
248. المغازي الأولى ومؤلّفوها، جوزيف هورفتس، ترجمة حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي-بمصر، 1369-1949.
249. المغـــازي، محمد بن عمر الواقدي، تحقيق المستشرق مارسدن جونس، عالم الكتاب-بيروت، ط3: 1404-1984.
250. مفتاح كنوز السنة، فنسنك، ترجمة فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العرب-بيروت، 1983.

251. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان الداودي، دار القلم-دمشق، الدار الشامية-بيروت، ط1: 1412-1992.

252. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بمساعدة جامعة بغداد، ط2: 1413-1993.

253. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين السخاوي، تحقيق محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي-بيروت، ط1: 1405-1985.

254. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-بيروت، 1411-1990.

255. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، أحمد الشريف، دار الفكر العربي-القاهرة، دت.

256. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، مجموعة بحوث، مكتب التربية العربي لدول الخليج، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس، 1985.

257. مناهل الصفا، السيوطي في تخريج أحاديث الشفا، جلال الدين السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت، ط1: 1408-1988.

258. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي-بمصر، ط3، دت.

259. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد عطا-مصطفى عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1: 1412-1992.

260. منهاج السنة النبوية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط1: 1406-1986.

261. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير الغضبان، مكتبة المنار-الأردن، ط6: 1411-1990.

262. منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين عتر، دار الفكر - دمشق، ط3: 1401-1981.

263. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، عبد العظيم الديب، مؤسسة كتاب الأمة، 1411.

264. الموسوعة العربيّة العالميّة، مجموعة من الباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة - الرياض، ط2: 1419-1999.

265. الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، ياسين صلواتي بمساعدة مجموعة من الباحثين، مؤسسة التاريخ العربي-بيروت، ط1: 1422-2001.

266. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين-بيروت، ط3: 1993.

267. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف مانع بن حمّاد الجهني، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي للطباعة – الرياض، ط4: 1420.

268. الموضوعات، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، ط1: 1966-1968.

269. الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين الذهبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية–حلب، ط2: 1412.

270. موقف الاستشراق من السنة والسيرة، أكرم ضياء العمري، الجامعة الإسلامية–بالمدينة المنورة، دت.

271. موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد – الرياض، ط1: 1418-1998.

272. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، ط1: 1382-1963.

273. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، محمد الشريف الادريسي، عالم الكتب– بيروت، ط1: 1409-1989.

274. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق نور الدين عتر، مطبعة الصباح–دمشق، ط3: 1421-2000.

275. نشأة علم التاريخ عند العرب، عبد العزيز الدوري، مركز زايد للدراسات–الإمارات، 1420-2000.

276. نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو عبد الله محمد الزيلعي، تحقيق محمد عوامة، مؤسسة الريان– بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية–السعودية، ط1: 1418-1997.

277. نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي–بيروت– دمشق، ط3: 1417-1996.

278. النكت على كتاب ابن الصلاح، ابن حجر العسقلاني، تحقيق ربيع بن هادي المدخلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية–المدينة المنورة، ط1: 1404-1984.

279. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين ابن الأثير الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي–محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، ط1: 1383-1963.

280. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين صديقي، ترجمة سليم عبد الحميد إبراهيم، رابطة الجامعات الإسلامية–الهند، ط1: 1408-1988.

281. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل الباباني البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف باستانبول (1951)، ثم أعادت طبعه دار إحياء التراث العربي بيروت-لبنان.
282. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1: 1420-2000.
283. الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي، محمود ماضي، دار الدعوة-الإسكندرية، ط1: 1416-1996.
284. الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، مؤسسة عز الدين-بيروت، ط3: 1352.
285. الوسيط في علوم الحديث، محمد أبو شهبة، دار عالم المعرفة، 1983.
286. الوضع في الحديث، عمر فلاته، مكتبة الغزالي-دمشق، مؤسسة مناهل العرفان-بيروت، 1401-1981.
287. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن عبد الله السمهودي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1: 1419-1999.
288. وفيات الأعيان وأبناء الزمان، شمس الدين بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت، 1397-1977.
289. اليهود في بلاد العرب، إسرائيل ولفنسون، ترجمة لجمة التأليف والترجمة بمطبعة الاعتماد، مطبعة الاعتماد-مصر، 1354-1927.

- **المجلات والدوريات:**

290. بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام 1425.
291. البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، البحوث والدراسات المقدمة: للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية-بالدوحة، مراجعة عبد الله الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية - بيروت، ط1: 1401-1991.
292. مجلة البيان، العدد 107، سنة 1996.
293. مجلة المنـــار، مجلد 8، 33، 34، 35.
294. مجلة مجمع اللغة العربية، سنة 1934/1353.
295. موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على رابط: (http://quran-m.com).
296. موقع الموسوعة الحرة "ويكيبيديا" على رابط: (https://ar.wikipedia.org).

297. موقع "المعرفة" على رابط: (http://www.marefa.org).

298. موقع جريدة "المستقبل" اللبنانية على رابط: (http://www.almustaqbal.com).

- **المصادر الأجنبية:**

299. Le petit Larousse - grand forma, sous la direction de Philip merlt, edition larousse - paris, 2005.

300. Oxford Advenced learner's dictionary of current English, A.S. Hornby, oxford university press - Oxford - New york, sixth edition: 2004.

301. The Encyclopaedia Britannica, eleventh edition, encyclopedia britannica company- New York, 1910-1911.

302. The Encyclopidia of Islam, prepared by a number of leading orientalists, new edition, Leiden - E.J.Brill, 1991-1997.

303. The life of Mohamet , Emile Dermenghem, printed in Britain, by Stephen austin-Hertford, 1930.

فهرس الموضوعات

مـــقدمـــة ..... أ

الفصل التمهيدي: مقدمات مفاهـيمية

المبحث الأول : مفهوم الاستـشراق ونشأته وأهدافه 2
المطلب الأول : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للاستشراق 2
الفرع الأول: المفهوم اللغوي للاستشراق 2
الفرع الثاني : المفهوم الاصطلاحي للاستشراق 4
المطلب الثاني : نشأة الاستشراق وتطوره 8
الفرع الأول : بداية الاستشراق 8
الفرع الثاني : مراحل تطوّر الاستشراق 10
المطلب الثـــالث : أهداف الاستشراق وأغراضه 15
الفرع الأول : الأهداف الدينية والتبشيرية 15
الفرع الثاني : الأهداف الاستعمارية 19
الفرع الثالث : الأهداف الاقتصادية 21
الفرع الرابع : الأهداف السياسية 21
الفرع الخامس : الأهداف العلمية 22
المطلب الرابع : مجالات نشاط الاستشراق 26
الفرع الأول : التدريس الجامعي 26
الفرع الثاني : التأليف 27
الفرع الثالث : جمع المخطوطات 27
الفرع الرابع : التحقيق والنشر والترجمة 28
الفرع الخامس : إنشاء الجمعيّات ودعم إرساليّات التبشير 29
الفرع السادس : عقد المؤتمرات وإصدار الْمجلاّت 30
المبحث الثـاني : التعريف "بدائرة الـمعارف الإسلامية" 31
المطلب الأول : بواعث إنشاء "دائرة المعارف" وإصداراتها 32

الفرع الأول: بواعث إنشائها 32
الفرع الثاني : الإصدارات الأجنبية والعربية "لدائرة المعارف" 34
أولا- إصدارات النسخة الأجنبية 34
ثانيا- إصدارات الترجمة العربية 36
المطلب الثاني : خصائص "دائرة المعارف الإسلامية" 38
الفرع الأول : الخصائص العامة "للدائرة" 38
الفرع الثاني : خصائص الترجمة العربية 44
المطلب الثالث : محرّرو نصوص "الدائرة" والمتعقبون عليها 47
الفرع الأول: كتّاب "دائرة المعارف الإسلامية" (الْمُحرّرون) 47
الفرع الثاني: التعريف بأهم المشرفين على "دائرة المعارف" 49
الفرع الثالث : المتعقبون على "دائرة المعارف الإسلامية" 50
المطلب الرابع : موقف العلماء والباحثين المسلمين من "الدائرة" 51
الفرع الأول: أقوال جلّة من العلماء والباحثين في "دائرة المعارف" 51
الفرع الثاني : النقد العام والنقد التفصيلي "لدائرة المعارف لإسلامية" 53
المبحث الثالث : جهود المستشرقين في دراسة السيرة النبوية 55
المطلب الأول: تحقيق ونشر وترجمة تراث السيرة النبوية 55
الفرع الأول: تحقيق ونشر مخطوطات السيرة 55
الفرع الثاني: ترجمة بعض مؤلفات السيرة إلى اللغات الأوربية 56
المطلب الثاني: مؤلفات ودراسات المستشرقين في السيرة النبوية 57
الفرع الأول: بعض مؤلفات المستشرقين في سيرة النبي ﷺ 57
الفرع الثاني: مؤلفاتهم في تاريخ تدوين السيرة 62
المطلب الثالث: جوانب من الجهود الإيجابية والسلبية لدراسات المستشرقين في السيرة 63
الفرع الأول: من الجوانب الإيجابية لدراسات المستشرقين في السيرة 63
الفرع الثاني: من الجوانب السلبية لدراسات المستشرقين في السيرة 69
- من شبهات ومطاعن المستشرقين في السيرة 69
المبحث الرابع: مناهج المستشرقين في دراسة السيرة 73
المطلب الأول: أثر الخلفيات الدينية والفكرية في دراسة المستشرقين للسيرة 73

المطلب الثاني: الطعن المباشر وغير المباشر في السيرة النبوية 77
المطلب الثالث: التستّر بقناع الموضوعية والبحث العلمي النزيه 83
المطلب الرابع: أثر القراءة المادية للسيرة في دراسات المستشرقين 85
المطلب الخامس: الأخطاء والثغرات المنهجية في دراسات المستشرقين للسيرة 86

الباب الأول : أصالة السيرة ومرحلة ما قبل البعثة

الفصل الأول: مصطلح السيرة وتدوينها وأصالتها 94

المبحث الأول : التعريف بمصطلح السيرة النبوية في "الدائرة" 95
المطلب الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف" في مفهوم السيرة 95
المطلب الثاني: المعنى اللغوي "للسيرة" 96
المطلب الثالث: المفهوم الاصطلاحي "للسيرة النبوية" 97
أولا- الاصطلاحات المتعلقة بعلم السيرة؛ أطوارها ودلالاتها 97
ثانيا- تحديد مفهوم السيرة النبوية 101
ثالثا- العلاقة بين السيرة والمغازي 102
رابعا- العلاقة بين السيرة والسنة 102
خامسا- تعقيب على التعريف الذي قدّمه المستشرق "دلافيدا" 103

المبحث الثاني : تاريخ التأليف في السيرة من خلال "الدائرة" 104
المطلب الأول: العناية بالسيرة وتدوينها في عصر الصحابة 104
الفرع الأول: عرض ما جاء في "دائرة المعارف" 104
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 105
المطلب الثاني: رجال الطبقة الأولى من المؤلفين في السيرة 111
الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف" 111
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 113
1]- عروة بن الزبير 113
2]- أبان بن عثمان 114
3]- عامر الشعبي 116
4]- وهب بن منبه 116
المطلب الثالث: رجال الطبقة الثانية من المؤلفين في السيرة 119

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 119
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 119
1]- عاصم بن عمر بن قتادة 119
2]- شرحبيل بن سعد المدني 120
3]- ابن شهاب الزهري 120
المطلب الرابع: رجال الطبقة الثالثة من المؤلفين في السيرة 123
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 123
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 124
1]- موسى بن عقبة 125
2]- معمر بن راشد 125
3]- سليمان بن طرخان 125
4]- محمد بن إسحاق 125
أولا- أقوال نقاد الحديث في "ابن إسحاق" 126
ثانيا- كتاب ابن إسحاق في "السير والمغازي" 131
المطلب الخامس: رجال الطبقة الرابعة من المؤلفين في السيرة 136
الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف" 136
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 138
1]- محمد بن عمر الواقدي 138
أولا- كتاب "المغازي" للواقدي 138
ثانيا- أقوال المحدّثين النقاد في الإمام الواقدي 138
2]- عبد الملك بن هشام 140
أولا- عمل ابن هشام في تهذيبه 140
ثانيا- أهمية كتاب ابن هشام 141
ثالثا- عدم استقامة وصف المستشرق "جِب" لتهذيب ابن هشام 141
3]- علي بن محمد المدائني 142
4]- محمد بن سعد 143
5]- أحمد بن يحيى البلاذري 144
6]- محمد بن عيسى الترمذي 145

7]- ابن جرير الطبري 145
المطلب السادس: بعض المؤلفين في السيرة بعد الطبقات الأربع الأولى 146
الفرع الأول: من المؤلفين في القرن الثامن الهجري 146
الفرع الثاني: من المؤلفين في القرن العاشر والحادي عشر الهجري 147
المبحث الثالث : مصادر السيرة النبوية وأصالتها 149
المطلب الأول: محاولة التشكيك في أصالة روايات السيرة من خلال القرآن 150
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 150
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 151
المطلب الثاني: الخلط بين روايات الأخباريين والمحدثين في السيرة 157
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 157
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 158
أولا- التفريق بين مدرسة المحدثين ومدرسة الأخباريين في رواية السيرة 158
ثانيا- العنصر الأساس في السيرة هم "المحدثون" لا القصاص 165
المطلب الثالث: الاعتماد على نظريّة "جولد زيهر" للتشكيك في أصالة روايات السيرة 167
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 167
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 167
المطلب الرابع: الزعم باكتفاء المحدثين بنقد السند دون المتن 187
الفرع الأول: عرض ما جاء في "الدائرة" 187
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 188
- جوانب من جهود المحدثين في نقد متون الروايات 188
- نماذج عن نقد المحدثين لِمتون مرويات السيرة النبوية خاصة 192
المطلب الخامس: الطعن في شمولية روايات السيرة 194
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 194
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 194
المطلب السادس: الزعم بأنّ السيرة النبوية مقتبسة من سير الأنبياء السابقين 196
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 196
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 197
- من خصائص السيرة النبوية عن سير بقية الأنبياء والرسل 197

الفصل الثاني: وقائع مرحلة ما قبل البعثة 204
المبحث الأول: مولد النبي ﷺ والحوادث المواكبة له 205
المطلب الأول: حادثة أصحاب الفيل 205
الفرع الأول: التفسير المادي للطير الأبابيل 205
الفرع الثاني: التفريق بين متشابه الأسماء في قصّة "أبي رغال" 211
المطلب الثاني: تحديد تاريخ مولده ﷺ 215
الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف" 215
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 217
المطلب الثالث: الحوادث التي صاحبت مولده ﷺ 225
الفرع الأول: حادثة بحيرة ساوه ونار الفرس وسطيح الكاهن 225
الفرع الثاني: ازدياد حراسة الملائكة للسماء ورمي الشهب 228
الفرع الثالث: رؤيا أمّه آمنة 232
المبحث الثاني: نسب النبي ﷺ 234
المطلب الأول: شرف نسبه ﷺ عامة 234
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 234
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 234
أولا- الروايات الصحيحة في شرف نسبه ﷺ 234
ثانيا- الاستدراك على المستشرق "شاده" 236
المطلب الثاني: شرف بني هاشم 237
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 237
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 238
أولا- شرف بني هاشم ومآثرهم 238
ثانيا- محاولة المستشرق "بول" التقليل من شرف بني هاشم 239
المطلب الثالث: جدّ النبي ﷺ وأبوه وأمه 241
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 241
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 242
المبحث الثالث: نشأة النبي ﷺ وشبابه 249

المطلب الأول : نشأته ﷺ يتيما 249
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 249
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 250
المطلب الثاني: موقف "الدائرة" من بعض الأحداث الواقعة في طفولته ﷺ 253
الفرع الأول: حادثة شق الصدر 253
الفرع الثاني: ختانـــه ﷺ 258
الفرع الثالث: موقف "دائرة المعارف" من قصة بحيرا الراهب 260
المطلب الثالث: موقف "الدائرة" من بعض الأحداث الواقعة في شبابه ﷺ 266
الفرع الأول: حرب الفِجَار 266
الفرع الثاني: حضوره ﷺ حلف الفضول 268
الفرع الثالث: مشاركته ﷺ في تجديد بناء الكعبة 271
الفرع الرابع : كفالة النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه 275
الفرع الخامس : عصمته ﷺ قبل النبوة 276
الفرع السادس: إرهاصات النبوة قريبَة العهد بالبعثة 279
أولا- تحنثه ﷺ في غار حراء 279
ثانيا- الرؤيا الصادقة 281

الباب الثاني : وقائع العهد المكي من البعثة إلى ما قبيل الهجرة

الفصل الأول: البعثة وبداية الدعوة الجهرية واضطهاد المسلمين 283
المبحث الأول : نزول الوحي على النبي ﷺ وأساليب تشكيك "الدائرة" فيه 284
المطلب الأول: بدء نزول الوحي عليه ﷺ في غار حراء 284
الفرع الأول: نظرة "الدائرة" إلى حادثة بدء نزول الوحي 284
الفرع الثاني: أوّل ما نزل من القرآن الكريم 287
الفرع الثالث: مواضيع الآيات الأولى نزولا ومغازيها 289
الفرع الرابع : فترة الوحي 292
الفرع الخامس : سِنّ النبي ﷺ عند بعثته 293
الفرع السادس : صور نزول الوحي على النبيّ ﷺ 295

الفرع السابع : ذهاب النبي ﷺ مع خديجة إلى ورقة بن نوفل 298
المطلب الثاني : أساليب تشكيك "دائرة المعارف" في الوحي 302
الأسلوب الأول: التشكيك في نزول جبريل على الرسول ﷺ بالوحي 302
الأسلوب الثاني: التفسير المادي للوحي 308
الأسلوب الثالث: الزعم بأنه تلقّى دعوته عن الحنفاء والنصارى 316
الأسلوب الرابع: الربط بين الوحي والسحر والكهانة 317
الأسلوب الخامس: التشكيك في ربّانية القرآن والزعم بأنه من تأليف محمد ﷺ 324
المبحث الثاني : مرحلة الدعوة السريّة في مكة 333
المطلب الأول: بداية الدعوة السريـــة 333
الفرع الأول: الأمر بالدعوة بعد البعثة 333
الفرع الثاني: السابقون الأولون في الإسلام 334
الفرع الثالث: دار الأرقم وأهميتها في بدايات الدعوة 341
الفرع الرابع: كون أتباع الرسول ﷺ في بداية دعوته من الضعفاء 342
المطلب الثاني: الحنفاء ودعوى أخذ النبي ﷺ عنهم 344
الفرع الأول: الرد على دعوى أخذ النبي ﷺ عن الحنفاء إجمالا 344
الفرع الثاني : الرّد على دعاوى أخذه عنهم على سبيل التفصيل 347
أولا- ورقة بن نوفل 347
ثانيا- زيد بن عمرو بن نفيل 349
ثالثا- شعر أمية بن أبي الصلت 350
المبحث الثالث: مرحلة الدعوة الجهرية بمكة ومعارضة المشركين لها 354
المطلب الأول: بداية الدعوة الجهرية 354
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 354
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 355
أولا- نزول الوحي بأمر الجهر بالدعوة 355
ثانيا- إذاية "أبي لهب" وزوجته للنبي ﷺ 356
المطلب الثاني: موقف أهل مكة من دعوة النبي ﷺ 361
الفرع الأول: عدم تعرّض المشركين للنبي ﷺ في بداية دعوته وسبب ذلك 361

الفرع الثاني: دوافع تكذيب مشركي مكة للنبي ﷺ 362
المطلب الثالث: أساليب المشركين في الصد عن الدعوة 370
الفرع الأول: أسلوب الأذيّة القولية بالسخرية والتكذيب والتشويه 370
الطريقة الأولى: الاعتراض على بشريته ﷺ واصطفائه من بينهم 370
الطريقة الثانية: اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والكهانة 372
الفرع الثاني: أسلوب الأذيّة الفعلية للنبي ﷺ وأصحابه 376
الفرع الثالث: حماية أبي طالب للنبي ﷺ ودفاعه عنه 381
- الروايات في وفاة أبي طالب على الكفر وقيمتها العلمية 383
الفرع الرابع: إسلام "حمزة" و"عمر" وتقويتهما لصفّ المسلمين 385
الفصل الثاني: من هجرة الحبشة إلى ما قبيل الهجرة للمدينة 388
المبحث الأول: الهجرة إلى الحبشة بعد اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأتباعه 389
المطلب الأول: التشكيك في اضطهاد المشركين للنبي ﷺ وأتباعه المسلمين 389
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 389
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 389
المطلب الثاني: الهجرة إلى الحبشة وأسبابها 396
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 396
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 397
أولا- الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة 397
ثانيا- استدراكات على المستشرق "بول" في التفريق بين الهجرتين 397
ثالثا- أسباب هجرة المسلمين إلى الحبشة 398
- الردّ على فرضيّة المستشرقَيْن "وات" و"بول" في أسباب هجرة الحبشة 399
الفرع الثالث: استدراكات على بعض ما ورد في مادة "النجاشي" 410
الفرع الرابع: أسماء بعض المهاجرين إلى الحبشة 412
المبحث الثاني: قصة الغرانيق والمقاطعة العامة وخروج النبي ﷺ إلى الطائف 416
المطلب الأول: قصة الغرانيق وبطلانها 416
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 416
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 417

أولا- موجز قصة الغرانيق 417
ثانيا- موقف "دائرة المعارف" من قصة الغرانيق 417
ثالثا- بيان بطلان قصة الغرانيق سنداً ومتناً 418
رابعا- سبب عودة مهاجري الحبشة إلى مكة 422
المطلب الثاني: مقاطعة قريش للنبي ﷺ وبني هاشم 423
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 423
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 424
المطلب الثالث: خروج النبي ﷺ إلى الدعوة في الطائف 428
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 428
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 429
أولا- خروجه ﷺ إلى الطائف 429
ثانيا- أسباب خروجه إلى الطائف 429
ثالثا- رجوع النبي ﷺ من الطائف ودخوله في جوار المطعم بن عدي 430
رابعا- الرد على تفسير "لَمنس" و"بول" للحادثة 431
خامسا- من انتصارات الرحلة وما حقّقته من أهداف 431
المبحث الثالث: نظرة "دائرة المعارف" إلى حادثة الإسراء والمعراج 434
المطلب الأول: حقيقة الإسراء والمعراج وتاريخ الحادثة 434
الفرع الأول: مفهوم الإسراء والمعراج 434
أولا- عرض نصوص المستشرقين 434
ثانيا- التحليل والمناقشة 435
1]- تعريف الإسراء والمعراج 435
2]- مناقشة التفسيرات التي ذكرها المستشرق "شريك" للإسراء 436
التفسير الأول 436
التفسير الثاني 439
التفسير الثالث 442
ثالثا- تصويب ما جاء في مادة "المعراج" 442
الفرع الثاني: طبيعة الإسراء والمعراج 444
الفرع الثالث: تاريخ حادثة الإسراء والمعراج 449

المطلب الثاني: صفة الإسراء والمعراج وموقف أهل مكة من الحادثة 453
الفرع الأول: الموضع الذي أسرى منه النبي ﷺ وركوبه البراق 453
الفرع الثاني: حادثة شق الصدر ووصف المعراج 458
الفرع الثالث: فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء والاختلاف في رؤيته لربه 460
الفرع الرابع: ذكر اجتماع النبي ﷺ ببعض الأنبياء ليلة الإسراء 462
الفرع الخامس: مكانة بيت المقدس في الإسلام 463
الفرع السادس: موقف أهل مكة من الإسراء والمعراج 464
المطلب الثالث : أساليب تشكيك محرّري "الدائرة" في معجزة الإسراء والمعراج 468
الأسلوب الأول : التشكيك في الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس 468
الأسلوب الثاني : الاعتماد على منهجية المقابلة والمطابقة 468
الأسلوب الثالث : الطعن في رواية أنس ﷺ لِخبر الإسراء والمعراج 469
الأسلوب الرابع : اعتبار معجزات الإسراء والمعراج من الأساطير ونسج الخيال 471
المبحث الرابع : التحضير للهجرة إلى المدينة 473
المطلب الأول: دعوة القبائل في مواسم الحج وبدء إسلام الأنصار 473
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 473
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 474
أولا- الدعوة في مواسم الحجّ 474
ثانيا- الردّ على عبارة الفشل في وصف "بول" للحادثة 476
ثالثا- بداية إسلام الأنصار 479
المطلب الثاني: بيعة العقبة الأولى والثانية 481
الفرع الأول : عرض نصوص "دائرة المعارف" 481
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 483
أولا- بيعة العقبة الأولى 483
ثانيا- بيعة العقبة الثانية وأهدافها 483

الباب الثالث : وقائع العهد المدني

الفصل الأول: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبناؤه المجتمع الإسلامي بها 489
المبحث الأول : خروج النبي ﷺ وأصحابه مهاجرين إلى المدينة 490

المطلب الأول: أسباب الهجرة إلى المدينة 490
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 490
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 490
المطلب الثاني : خروج المسلمين مهاجرين إلى المدينة 492
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 492
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 492
المطلب الثالث: مكر المشركين بالنبي ﷺ ومحاولة قتله 495
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 495
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 496
أولا- تآمر كفار قريش في "دار الندوة" على قتل الرسول ﷺ 496
ثالثا- التشكيك في محاولة قتله ﷺ 497
المطلب الرابع: خروج النبي ﷺ مهاجرا رفقة أبي بكر ﷺ 500
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 500
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 501
المبحث الثاني: وصول النبي ﷺ إلى المدينة وشروعه في الإجراءات التنظيمية 505
المطلب الأول: وصوله إلى المدينة وبناؤه للمسجد النبوي 505
الفرع الأول: وصول النبي ﷺ إلى المدينة 505
الفرع الثاني: بناء المسجد النبوي بالمدينة 506
الفرع الثالث: أسماء المدينة المنورة 507
المطلب الثاني: تنظيم النبي ﷺ للمجتمع المدني بعد الهجرة 509
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 509
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 509
المطلب الثالث : دستور المدينة وأهميته ودلالاته 514
الفرع الأول : نصوص المستشرقين 514
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 515
أولا- "دستور المدينة" في المصادر الأصيلة 515
ثانيا- التفريق بين وثيقتين في "دستور المدينة" 515

ثالثا- وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار 516
رابعا- وثيقة معاهدة اليهود 518
خامسا- الردّ على دعاوى "فنسنك" و"بارت" و"بول" حول معاهدة اليهود 519
- استمراريّة جلّ الأحكام التشريعية للوثيقة 521
المبحث الثالث : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ونصرة الأنصار للنبي ﷺ وأصحابه 523
المطلب الأول: مصطلح المهاجرين والأنصار وأسباب المؤاخاة وآثارها 523
الفرع الأول: إطلاق مصطلح المهاجرين والأنصار 523
- الردّ على فرضيّة المستشرق "ركندورف" حول إطلاق لقب الأنصار 524
الفرع الثاني: أسباب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وآثارها 526
المطلب الثاني: مشاركة الأوس والخزرج معا في نصرة النبي ﷺ 534
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 534
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 536
أولا- إطلاق اسم "الخزرج" على "الأوس والخزرج" معا 536
ثانيا- ادعاء المستشرق "ركندورف" أنّ الأوس لم تشارك في نصرة الرسول ﷺ 537
المطلب الثالث: التشكيك في نصرة الأنصار للنبي ﷺ 540
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 540
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 541
أولا- نصرة الأنصار للنبي ﷺ والردّ على تشكيك "ركندورف" في ذلك 541
ثانيا- أسباب عدم مشاركة الأنصار في السرايا الأولى حتى بدر 545
ثالثا- توجيه كراهيّة القتال المذكورة في سورة الأنفال 548
رابعا- فضائل الأنصار 548
خامسا- بيان بعض ما جاء في (الفقرة: 41) من مادة "محمد ﷺ" 549
الفرع الثالث : نصرة الأنصار للنبي ﷺ بالكلمة (شعراء النبي ﷺ) 551
المبحث الرابع : علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب وموقفهم من دعوته 556
المطلب الأول: اليهود والنصارى في المدينة وحقوق أهل الكتاب 556
الفرع الأول: أهل الكتاب في المدينة 556
الفرع الثاني: تقرير الإسلام لِحقوق أهل الكتاب 558

المطلب الثاني: دعوى سعي النبي ﷺ للحصول على تأييد اليهود وتوجيه ذلك 560
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 560
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 562
الفرع الثالث: تَمَيّز المسلمين عن اليهود وغيرهم 570
المطلب الثالث: موقف أهل الكتاب في المدينة من دعوة النبي ﷺ 571
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 571
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 572
أولا- جحود أهل الكتاب بنبوته ﷺ مع علمهم بصحّتها 572
ثانيا- بيان ما تَجاهله المستشرقَيْن "بول" و"هينريش" في نصّيهما 573
ثالثا- سوء أدب اليهود مع الرسول ﷺ 577
رابعا- قول اليهود السيّء في "جبريل" عليه السلام 577
الفرع الثالث : إسلام عبد الله بن سلام من يهود المدينة 578
المطلب الرابع: دعوى أنّ النبي ﷺ اتّهم أهل الكتاب بتحريف كتبهم المنزلة 580
الفرع الأول : عرض ما جاء في "دائرة المعارف" 580
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 583
- كشف المغالطات التي قدمها المستشرق "بول" 583
- الشواهد على تحريف التوراة والإنجيل 588
المبحث الخامس: جوانب من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مجتمع المدينة .. 595
المطلب الأول: علاقة النبي ﷺ بأصحابه ﷺ 595
الفرع الأول: مناقشة تعريف الصحابي في "الدائرة" 595
الفرع الثاني: تواضع النبي ﷺ لأصحابه وحبّهم له وتعظيمهم إيّاه 597
الفرع الثالث: كون النبي ﷺ رأس دولة المدينة 600
المطلب الثاني: أهل الصفة في المدينة ورعايتهم 601
الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف" 602
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 602
المطلب الثالث: تشريعات دينية جديدة في المدينة 605
الفرع الأول: الفرق بين التشريع في العهد المكي والمدني 605

الفرع الثاني: تحويل القبلة 607
الفرع الثالث : تشريع الأذان والتيمّم واتّخاذ المنبر 610
الفرع الرابع : تشريع الزكاة وجبايتها 615
الفرع الخامس: إصلاحات اجتماعية على مستوى التصورات والتصرفات 620
أولا- تَحريم الخمر 620
ثانيا- تصحيح أوهام الناس حول بعض الخرافات الشعبية 623
ثالثا- تصحيح تصوّرات الناس حول الفأل والطيرة 624
الفرع السادس : تنظيم المعاملات المالية وتهذيبها 627
المطلب الرابع: المنافقون وخطرهم في مجتمع المدينة 630
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 630
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 631
الفرع الثالث : من دسائس المنافقين "حادثة الإفك" 635
الفرع الرابع : اعتراض المنافقين على تقسيم الزكاة 639
الفصل الثاني: من صلح الحديبية إلى وفاة النبي ﷺ 641
المبحث الأول : صلح الحديبية في "الدائرة" 642
المطلب الأول: خروج النبي ﷺ إلى الحديبية ومقصده منه 642
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 642
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 643
- الردّ على دعوى مسير النبي ﷺ إلى مكة بغرض غزوة عسكرية 646
المطلب الثاني: المفاوضات وإبرام الصلح 652
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 652
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 654
المطلب الثالث: آثار صلح الحديبية وأهميّته 659
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 659
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 660
الفرع الثالث: عمرة القضاء 665
المبحث الثاني : رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء 667

المطلب الأول: ذكر رسائله إجمالا وتاريخها 667
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 667
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 668
المطلب الثاني: ذكر بعض كتبه ﷺ الواردة في "الدائرة" تفصيلا 671
الفرع الأول: كتابه إلى هرقل قيصر الروم 671
أولا- عرض ما جاء في "دائرة المعارف" 671
ثانيا- التحليل والمناقشة 672
ثالثا- التشكيك في كتابه ﷺ إلى "هرقل" ملك الروم 674
الفرع الثاني: كتابه إلى كسرى ملك الفرس 676
الفرع الثالث: كتابه إلى ملك اليمامة 677
الفرع الرابع: كتابه إلى أميري "عُمان" 678
الفرع الخامس: كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة 679
المطلب الثالث: التشكيك في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك 681
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 681
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 682
المبحث الثالث: فتح مكة 689
المطلب الأول: نقض مشركي مكة للعهد وتأهيّؤ النبي ﷺ للفتح 689
الفرع الأول: نظرة "دائرة المعارف" لِملابسات نقض العهد 689
الفرع الثاني: تحضير النبي ﷺ للفتح ومجيء أبي سفيان لتجديد العهد 693
المطلب الثاني: دخول النبي ﷺ إلى مكة فاتحا وعفوه عن أهلها 696
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 696
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 698
المطلب الثالث: بعض الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد فتح مكة 704
الفرع الأول: من الأعمال التي قام بِها داخل مكة 704
الفرع الرابع: تحطيم الأصنام خارج مكة 709
المبحث الرابع: بعض الوقائع الهامة بعد الفتح وقبيل وفاته ﷺ 713
المطلب الأول: حجّ أبي بكر بالناس في السنة التاسعة وإعلان "براءة" 713

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 713
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 714
المطلب الثاني : قدوم وفود القبائل إلى المدينة 717
الفرع الأول: عام الوفود وعدم اقتصارها عليه 717
الفرع الثاني: من وفود السنة التاسعة 719
الفرع الثالث: من وفود السنة العاشرة 732
المطلب الثالث: مدّعو النبوة في حياة الرسول ﷺ 735
الفرع الأول: بداية ظهورهم 735
الفرع الثاني: ذِكر من ادّعى النبوة في حياته ﷺ 735
المطلب الرابع: حجة الوداع 739
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 739
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 739
المبحث الخامس: مرض النبي ﷺ ووفاته ودفنه 744
المطلب الأول: مرضه ووفاتِه ﷺ 744
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 744
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 745
أولا- نزول المرض به واشتداده 745
ثانيا- صلاة أبي بكر بالناس 746
ثالثا- من أسباب مرض وفاته 747
المطلب الثاني: وفاته ودفنه ﷺ 748
الفرع الأول: عرض نصوص "دائرة المعارف" 748
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 749
أولا- وفاة النبي ﷺ في بيت عائشة 749
ثانيا- تاريخ وفاته ﷺ 751
ثالثا- غسله وكفنه والصلاة عليه ﷺ 753
رابعا- دَفْنه في حجرة عائشة رضي الله عنها 754
خامسا- في صفة قبره ﷺ 755

الباب الرابع : الغـزوات والسـرايا

الفصـل الأول: الغـزوات والسـرايا حتى الخندق 758

المبحث الأول : غزوة بدر والنشاط العسكري قبلها 759

المطلب الأول : الغزوات والسرايا قبل بدر 759

الفرع الأول : الإذن بالقـتال وتشريع الجهاد 759

الفرع الثاني : طلائع الغزوات والسرايا 763

الفرع الثالث : سرية نَخلة وتفسير ما وقع فيها 765

المطلب الثاني: مقدمات غزوة بدر الكبرى 772

الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 770

الفرع الأول: التحليل والمناقشة 771

المطلب الثالث: بعض أحداث الغزوة وتداعياتها 777

الفرع الأول: بداية المعركة وانتصار المسلمين فيها 777

الفرع الثاني: معاملة أسرى بدر 784

الفرع الثالث: تداعيات الغزوة وآثارها 786

المبحث الثاني : النشاط العسكري بين "بدر" و"أحـد" 791

المطلب الأول: غـزوة بني قينقاع 791

الفرع الأول : حصار بني قينقاع وإجلاؤهم 791

الفرع الثاني : أسباب إجلاء بني قينقاع 794

المطلب الثاني: بقية الغزوات والسرايا قبل "أحد" 801

الفرع الأول: غزوة السويق 801

الفرع الثاني: غزوة "قرقرة الكدر" 802

الفرع الثالث: قتل "كعب ن الأشرف" اليهودي 803

المبحث الثالث : غـزوة أحـد وقائعها ونتـيجـتها 806

المطلب الأول: أسباب غزوة أحـد ومقدماتها 806

الفرع الأول : أسباب الغزوة 806

الفرع الثاني : خروج الجيشين للمعركة ونزولهما بساحة القتال 808

- مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في الخروج لِملاقاة جيش قريش 810
- تفسير المستشرق "بول" لهذه المشاورة والجواب عليه 811
المطلب الثاني: وقائع المعركة ونهايتها 816
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 816
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 817
- استدراكات وملاحظات على تحليل المستشرق "بول" للمعركة بِجولتيها 819
- تشوُّف المستشرق "بول" إلى القضاء على المسلمين في هذه الغزوة وجوابه 824
المطلب الثالث: في أعقاب المعركة 826
الفرع الأول : تضميد جراح النبي ﷺ 826
الفرع الثاني: تشييع قتلى أحد ومواساة المسلمين 827
- مطاردة جيش قريش إلى حمراء الأسد 834
- تنبيه حول نتيجة معركة أُحُد 835
المبحث الرابع : النشاط العسكري بعد "أُحُد" حتى غزوة "الخندق" 838
المطلب الأول: جملة من البعوث والسرايا في السنة الرابعة للهجرة 838
الفرع الأول : سريّة أبي سلمة وبعثُ عبد الله بن أنيس 838
الفرع الثاني : سريّة الرجيع 840
الفرع الثالث : سريّة بئر معونة 843
- الردّ على تفسير "لَمنس" لِحادثة "بئر معونة" 845
المطلب الثاني: غزوة بني النضير وأسبابها 850
الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة" عن الغزوة 850
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 850
المطلب الثالث: غزوتي بدر الموعد وبني المصطلق 855
الفرع الأول: غزوة بدر الموعد 855
الفرع الثاني: غزوة بني المصطلق 856
المطلب الرابع: مقدمات غزوة الخندق 861
الفرع الأول : أسباب الغزوة وتعبئة الجيشين 861
الفرع الثاني : حفر الخندق ومشاركة النبي ﷺ فيه 865

المطلب الخامس: بعض وقائع معركة الخندق ونهايتها 870
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 870
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 872
أولا- المناوشات حول الخندق 872
ثانيا- زعزعة المنافقين واليهود للصف الداخلي 872
ثالثا- خطة النبي ﷺ في تخذيل غطفان وبقية الأحزاب 873
رابعا- نهاية المعركة 875
خامسا- أسباب فشل الأحزاب وآثاره 876

الفصل الثاني: الغزوات والسرايا بعد الخندق 877

المبحث الأول: النشاط العسكري بعد "الخندق" حتى "خيبر" 878
المطلب الأول: غزوة بني قريظة وأسبابها 878
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 878
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 880
أولا- بداية حصار بني قريظة 881
ثانيا- تجاهُل المستشرقين للأسباب الحقيقية للغزوة 881
ثالثا- محاصرتهم والحكم فيهم 885
رابعا- حكم "سعد" رضي الله عنه فيهم كان جزاء وفاقا 886
المطلب الثاني: بعض السرايا بين غزوتي "بني قريظة" و"خيبر" 887
الفرع الأول: سرية القرطاء 887
الفرع الثاني: سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل 888
الفرع الثالث: سرية "أمّ قرفة" 889
المطلب الثالث: مقدمات غزوة خيبر وأسبابها 890
الفرع الأول: تاريخ الغزوة وأسبابها 890
الفرع الثاني: مسير جيش المسلمين إلى خيبر 893
المطلب الرابع: فتح حصون خيبر ومصالحة أهلها 895
الفرع الأول: عرض ما جاء في مادة "خيبر" عن فتح الحصون 895
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 895

أولا- فتح الحصون تدريجيًّا 895
ثانيا- ملاحظات على وصف المستشرق "كرومان" للمعركة 899
ثالثا- بعض أسباب هزيمة يهود خيبر 899
الفرع الثالث : مصالحة النبي ﷺ لأهل خيبر ومن حولهم 899
الفرع الرابع : محاولة قتل النبي ﷺ بالشاة المسمومة بعد خيبر 902
المبحث الثاني : النشاط العسكري بعد "خيبر" وقبل الفتح 903
المطلب الأول: بعض السرايا بعد خيبر 903
الفرع الأول: سريتَي بشير بن سعد ﷺ إلى بني مرة وإلى الجناب 903
الفرع الثاني: سرية أبي بكر ﷺ إلى بني كلاب 904
المطلب الثاني: غزوة مؤتة؛ وقائعها ونتيجتها 905
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 905
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 906
أولا- وقائع المعركة 906
ثانيا- سبب الغزوة وأهدافها 907
ثالثا- نظرة في نتيجة المعركة 907
رابعا- أهميّة الغزوة والردّ على عبارة المستشرقة "فكا" 910
المطلب الثالث: سريّة ذات السلاسل 912
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 912
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 912
المبحث الثالث : الغزوات والسرايا بعد الفتح وقبل تبوك 915
المطلب الأول: سرية خالد ﷺ إلى جذيمة بعد الفتح 915
الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة" 915
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 915
أولا- وقائع السرية 915
ثانيا- تفسير المستشرق "شاده" لصنيع خالد ﷺ والجواب عليه 916
المطلب الثاني: مقدمات غزوة حنين 919
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 919

الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 920
المطلب الثالث: وقائع الغزوة ونهايتها 922
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 922
الفرع الأول: التحليل والمناقشة 923
أولا- الخروج إلى حنين وتعبئة الجيشين 923
ثانيا- وقائع المعركة 924
- تشويش المستشرقَيْن "لَمنس" و"بول" على ما قام به النبي ﷺ في المعركة 928
المطلب الرابع: غزوة الطائف وغنائم حنين 930
الفرع الأول: مطاردة المنهزمين وحصار الطائف 930
الفرع الثاني: تقسيم غنائم حنين 934
الفرع الثالث: إسلام مالك بن عوف ومساعدَتُه في إخضاع الطائف 939
المبحث الرابع : غـزوة تبوك وبعض السرايا بعدها 940
المطلب الأول : أسباب غزوة تبوك وتاريخها 940
الفرع الأول : عرض نصوص المستشرقين 940
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 940
المطلب الثاني: وقائع غزوة تبوك وإنجازاتها 944
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 944
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 945
المطلب الثالث : المتخلّفون عن الغزوة والتفريق بينهم 952
الفرع الأول : عرض ما جاء في "الدائرة" 952
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 952
أولا- جملة اعتراضات على المستشرق "بول" في موضوع المتخلّفين عن الغزوة 952
ثانيا- تراجع المنافقين بعد تبوك وأسبابه 959
المطلب الرابع: بعض السرايا قبيل تبوك وبعدها 961
الفرع الأول: سرية علقمة المدلجي رضي الله عنه قبيل تبوك 961
الفرع الثاني: سرية خالد رضي الله عنه إلى بلحارث بعد تبوك 962
المبحث الخامس : نظرة "دائرة المعارف" إلى مقاصد جهاده ﷺ وشخصيّته القيادية 963

المطلب الأول: مقاصد النبي ﷺ من الغزوات والسرايا 963
الفرع الأول: عرض ما جاء في "الدائرة" 963
الفرع الثاني : التحليل والمناقشة 963
أولا- جهاد النبي ﷺ بين الدفاع والمبادأة 963
ثانيا- مقاصد جهاد النبي ﷺ 964
المطلب الثاني: التفريق بين غزوات النبي ﷺ وأيام العرب في الجاهلية 966
الفرع الأول: عرض نصوص المستشرقين 966
الفرع الثاني: التحليل والمناقشة 967
- بيان خصائص جهاد النبي ﷺ وغزواته 968
خـــاتِمـــة 976
ملاحـــق 987
الملحق الأول: ملخص الشبهات والمطاعن حول السيرة في "الدائرة" 988
الملحق الثاني : بعض المواضع الْمُنفصِلة عن السيرة النبوية في "الدائرة" 993
الملحق الثالث: ملخص الأخطاء والأوهام العلمية عن السيرة في "الدائرة" 995
الملحق الرابع: ملخص تناقضات المستشرقين عن السيرة في "الدائرة" 997
الفهارس 998
فهرس الآيات القرآنية 999
فهرس الأحاديث النبوية 1010
فهرس الأعلام المعرّف بهم 1017
فهرس الأماكن والبلدان 1021
فهرس المصادر والمراجع 1024
فهرس الموضوعات 1044
ملخص البحث بالعربية 1068
ملخص البحث بالفرنسية 1070
ملخص البحث بالإنجليزية 1072

ملخص البحث بالعربية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا البحث بعنوان: «**مباحث السيرة النبوية في "دائرة المعارف الإسلامية" –دراسة تحليلية نقدية–**»؛ يتناول المباحث المتعلّقة بالسيرة النبوية التي جاءت مبثوثة ومتناثرة بين موادّ "دائرة المعارف" المرتَّبة على حروف المعجم، بحيث يجمع ما تفرّق فيها عن السيرة النبوية في سياق موضوعيّ مرتّب، ويتعرّض لها بالتحليل والمناقشة في أربعة محاور رئيسية؛ تفرّعت خطّة البحث وفقها إلى أربعة أبواب.

أمّا الباب الأوّل فيناقش ما ورد في موادّ "دائرة المعارف" عن مفهوم السيرة النبوية، وتاريخ التدوين في فنونها منذ عصر الصحابة والتابعين والمؤلفين الأوائل فيها، ثم بعضُ من جاء بعدهم من المصنّفين في هذا المجال، وبعد ذلك يتطرّق إلى وقائع مرحلة ما قبل البعثة؛ ابتداء من حادثة الفيل إلى غاية الإرهاصات القريبة من البعثة النبوية.

ويتعرّض الباب الثاني لِمناقشة ما ورد في نصوص "دائرة المعارف" عن البعثة النبوية وبدء نزول الوحي على المصطفى ﷺ، ثم مرورا بجهوده الدعوية في مكة، وما لقيه هو وأصحابه من اضطهاد وتضييق في تلك المرحلة، وانتهاء إلى الوقائع الْمُمهّدة للهجرة إلى المدينة المنورة.

ويناقش الباب الثالث ما جاء في موادّ "الدائرة" عن وقائع العهد المدني، بداية من هجرته ﷺ إلى المدينة ووضعه الأسس الأولى لِمجتمع المدينة، ثم مروراً بجهوده الدعوية والتشريعية في هذه المرحلة، إلى غاية وفاة الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك دون ذكرٍ للغزوات والسرايا التي أخّرتُها إلى الباب الموالي.

أمّا الباب الرابع فقصرته على الغزوات والسرايا النبوية منذ تشريع الجهاد وغزوة "بدر الكبرى" وكذا طلائع الجهاد قبلها، إلى غاية غزوة "تبوك" وما كان بعدها من سرايا وقعت في حياته ﷺ.

يهدف هذا البحث إلى الكشف عمّا جاء في "دائرة المعارف الإسلامية" من مطاعن وشبهات حول سيرة النبي ﷺ، ويحاول نقدها علميّا؛ من خلال مناقشة المستشرقين المحرّرين لِموادّها في: طريقة عرضهم لروايات السيرة، وبيان القيمة العلمية لِما أوردوه منها، ومدى موافقة ما طرحوه من تفسيرات وتحليلات لتلك الروايات للقواعد العلمية في فقه النصوص وتفسيرها، كما يحاول تصحيح بعض ما وقع في "الدائرة" من أخطاء وأوهام علمية مقصودة وغير مقصودة.

ملخص البحث بالفرنسية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

résumé

Le titre de cette recherche est «sujets de la biographie du Prophète dans "l'Encyclopédie de l'Islam" -l'analyse et l'étude criticism-»; Il organise des sujets Biographie du Prophète par Sujets, qui a été répartie entre les matériaux "Encyclopédie de l'Islam" sont disposés sur du lexique.

Offres avec la première partie de ce qui est dit dans les articles qui sont "Encyclopédie de l'Islam" sur le concept de la biographie du Prophète et l'histoire de l'écriture dans les sciences, par des compagnons, et quelques-uns de ceux qui sont venus après eux écrivains dans ce domaine, puis parler des événements avant la mission, depuis l'incident d'éléphant jusqu'à la mission est presque prophétique.

La deuxième partie est la discussion de ce qui est dit dans le texte de "l' Encyclopédie de l'Islam" de la mission prophétique et le début de la révélation au prophète Mahomet, et parler de l'appel à l'islam à La Mecque, ainsi que les conditions dans lesquelles il a trouvé le prophète Mahomet et ses compagnons de la persécution, et même des événements avant la migration à Médine.

La troisième partie traitera des choses qui sont venues dans "l' Encyclopédie de l'Islam", qui traite des événements de scène civile, le début de la migration du prophète Mahomet à la ville, et son travail à jeter les bases de la communauté de la ville, et par les efforts du Prophète dans l'appel à l'Islam et de la législation à ce stade, jusqu'à la mort du Prophète Muhammad, sans invasions et Saraya.

Partie IV examine les événements qui se trouvaient dans les invasions et Saraya, depuis le début de la loi du djihad, et les événements de la bataille de "Badr", et même la bataille de "Tabuk", et ce qui était alors la Saraya, qui a eu lieu dans la vie du Prophète.

Cette recherche a pour but de révéler ce qui était dans "l' Encyclopédie de l'Islam" des soupçons soulevés au sujet de la biographie du Prophète, et d'essayer de critiquer d'une manière scientifique et de corriger les idées fausses au sujet de la biographie du prophète Mahomet dans cette encyclopédie.

ملخص البحث بالإنجـــليزية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Summary

The title of this research is : «The Biography of the Prophet in the "Encyclopaedia of Islam" -a study of critical analysis-»; deals with the biography of the Prophet, which came separated between the articles "The Encyclopaedia of Islam" ranked on the letters of the lexicon, Prophetic in the context of the objective salary.

The first part discusses the articles of "The Encyclopaedia of Islam" on the concept of the biography of the Prophet, the history of codification in the arts since the era of the Companions and the first authors, and then to discuss the facts of the pre-mission ; From the elephant incident to the endings near the Prophet's mission.

The second section discusses the contents of the "Encyclopaedia of Islam" about the Prophet's mission and the beginning of the revelation of the Prophet Muhammad, and then the efforts of the Muhammadiyah in Mecca, and the Prophet Muhammad and his companions from persecution, until the facts prior to migration to Medina.

The third part discusses the "Encyclopaedia of Islam" about the facts of the civil covenant, beginning with the migration of the Prophet Muhammad to the city and laying it on the first foundations of the city's society and then through the efforts of the Prophet the legislative at this stage until the death of the Prophet Muhammad.

As for the fourth chapter, it made it special for the invasions since the enactment of the Jihad, the events of the Battle of Badr until the Battle of Tabuk and the subsequent Saraya that took place in the Prophet's life.

The purpose of this research is to uncover what has been said in The Encyclopaedia of Islam from appeals and suspicions about the Prophet's biography, and tries to critique them scientifically; and correct misconceptions about the biography of the Prophet Muhammad in this encyclopedia.